

Mingool.com

# في الأدب الحديث

تأليف  
عمر الدسوقي

أستاذ الأدب ، ورئيس قسم الدراسات الأدبية  
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

الطبعة الثامنة

مزيدة ومنقحة

دار الفكر

### الطبعة الأولى ١٩٤٨

الطبعة الثانية مزيّدة ومنقّحة ١٩٥١

الطبعة الثالثة مزيّدة ومنقّحة ١٩٥٤

الطبعة الرابعة مزيّدة ومنقّحة ١٩٥٩

الطبعة الخامسة » » ١٩٦١

الطبعة السادسة » » ١٩٦٤

الطبعة السابعة » » ١٩٦٦

الطبعة الثامنة » » ١٩٧٣

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

---

## مقدمة الطبعة الأولى

في مستهل القرن التاسع عشر أخذت مصر والبلاد العربية تستيقظ من سبات طويل وتفرك عيوناً طالَتْ هجمتها ، وتتنظر دهشة إلى دنيا حافلة بالجديد في نظم العيش ، ووسائل التغلب على قوى الطبيعة وتذليلها للإنسان ، بالاختراعات الحديثة ، وفي نظم الفكر ، وعالم المعاني ، والآداب ، وما خلقه أدباء الغرب من صور وديجوه من كتب ، ونظموه من شعر ، وسطروه من علم مبني على التجارب المحصنة ، ومن حقائق مؤيدة بالإبراهيم الساطعة . ومنذ ذلك الوقت ، ومصر والبلاد العربية تزداد بالغرب صلة ، وبأهله تعرفاً ، وبحضارته وثقافته ولوعاً . ولم تنس ماضيها وتراثها المجيد من الحضارة والثقافة ، فأحيت ما ورثته عن العرب

من آداب ضخمة . وأخذت تتناول من القديم ، وتتناول من الجديد وتمزج بين الثقافتين .

وكان اتصالها بالغرب عن طرق كثيرة : فمن بعثات ترى رأى العين . وتلقى العلم على أساتذة مختصين ثمة ، وتعود فتنقل صوراً جديدة من العادات والحياة ، وأفكاراً وآراء لم تكن موجودة من قبل ، ومن ترجحات لآثار العلماء الغربيين ورجال الأدب والفكر ، والفن والقانون ، يطلع عليها جبهة المتعلمين من الشعوب العربية ، ويدرسونها فيستقر ما بها من آراء في عقول الناس نتيجة التداول ، ومرور الزمن ، وتصور من تراث الأمة العقلي ، تظهر دون تعمد على ألسنة الخطباء ، وعلى أسلات الأقلام ، وفي ثنايا الأبيات الشعرية ، والصور الفنية ، وبذلك يتخذ الأدب والفن لوناً جديداً يميزه عن العصور السابقة ، ويطبعه بطابع خاص .

وكان التعليم المدني الذي وضع محمد علي أسسه في مصر ، ونمّاه إسماعيل واشتد عوده وأتى كله بعد ثورتنا القومية في سنة ١٩١٩ من أعظم العوامل التي ساعدت على اتصال الشرق بالغرب ؛ وكذلك فعلت النهضة التعليمية في سوريا ، وفي لبنان على الأخص ، ومجهودات الإرساليات التبشيرية في هذا المضمار لا تنكر . وصار الطالب العربي في مدارس القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ، حتى وهو في مرحلة الدراسة الثانوية يلم بشيء كثير من الأدب الغربي ، ويطلع على بعض صوره : من قصة ، وشعر ، ومقالة ، وحياة أديب ، ويستوعب كل هذا ويؤدي فيه امتحاناً ثم يخزنه في عقله الواعي ، أو في عقله غير الواعي ؛ ولن يستطيع أن يتخلص من تأثيره حين يتكلم ، وحين يكتب ، وحين يقرض الشعر ، وحين يفكر وحده ، دع جانباً دراسة التخصص في الجامعات ، وما



تقوم به الهيئات والأفراد من بحوث وترجمات ، ونهضة الصحافة والتجديد في مادتها بنقل كثير من ألوان الصحافة الغربية وأبوابها لمجهره القراء وعامة الشعب .

وليس الغرب أمة واحدة ، ذات ثقافة واحدة ، ولكنه أمم شتى ، ولها أذواق مختلفة وآداب متباينة ولغات عديدة ، ولكل شعب أسلوبه في التفكير ، وفلسفة خاصة في الحياة ، ولم يكن اتصال مصر والبلاد العربية قاصراً على شعب غربي دون آخر ، بل اتصلنا بكل بلاد الغرب إن لم يكن عن طريق البعثات فمن طريق الترجمة : اتصلنا بفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وروسيا ، وأسبانيا ، والولايات المتحدة وغيرها ، وعرفنا صوراً وألواناً من آداب كل وفلسفة كل ولا سيما في الحقبة الأخيرة ، بعد ما انتشر الطيران ، وازداد العالم اتصالاً ببعضه ببعض .

ومن العسير أن نحدد مدى تأثير الأدب العربي بكل ثقافة من هذه الثقافات . بيد أننا نستطيع أن نقول على وجه التقريب : إننا تأثرنا بآدمى الأمر بالحضارة الفرنسية ، فنقلنا عنها كل ما يتصل بأسباب الحياة من طب وهندسة ، وعلوم تجارية ، وقانون وما شاكل هذا ؛ وإن مصر تأثرت بالثقافة الإنجليزية ، ثم بالثقافة الفرنسية ، ثم أخذت ألواناً من ثقافات أخرى دون أن يكون لها تأثير كبير . أما لبنان فبالثقافة الفرنسية ، ثم بالثقافة الأمريكية والإنجليزية ، ثم سوى ذلك من الثقافات .

هذا التيار الغربي القوي الذي يجري في حياة الأمة العربية العقلية والأدبية ينافسه تيار آخر حبيب إلى نفوس الأمة ، ويمت إلى ماضيها المجيد ، ويعرض الشخصيات المألوفة لديها الأثرية عندها ، التي تبعث

فيها العزة والكرامة ، وتقوي من شخصيتها ، وتزيد في اعتدادها بنفسها ، وذلك هو الأدب العربي القديم ، وهو أدب قوي ضخم ، غاص بكثير من آيات الفن ومميزاته ، وهو قريب من نفسية الشعب العربي ، ويستطيع أن يتمثله بيسر ومسرة ، قريب من فكره وعاداته ، وعقيدته ومزاجه وشعوره ، فلا بدع إذا عظم هذا التيار واشتد وزاحم تيار الثقافة الغربية مزاحمة عنيفة .

والأدباء في العالم العربي - في خلال قرن من الزمن - قد تباينوا في تأثرهم بهذين التيارين : فمنهم من اقتصر على القديم بحكم ثقافته وبيئته ، والعوامل الاجتماعية الخاصة المحيطة به ، وإن لم ينبج من التأثر بالأفكار الشائعة ، والألوان الأدبية المترجمة في الصحف والمجلات ، ودور العلم ، ولكن غلب القديم عليه في خياله وموضوعه وأسلوبه وطريقة عرضه ؛ ومنهم من كانت ألوان الثقافة الغربية غالبية على أدبه ، فتقرأ له وكأنما تقرأ لأديب فرنسي أو إنجليزي يكتب بالعربية ، ومنهم من حاول الجمع بين القديم والجديد ، فحذق من القديم متانة الأسلوب ، وطلاوة العبارة ، ووضوح الغرض ، وأخذ من الجديد حسن العرض ، وطرافة الموضوع ، أما الفكرة فتارة يأخذها من هنا ، وتارة يأخذها من هناك .

هذا وقد حاول بعض أدباء العربية في السنوات الأخيرة محاكاة المدارس الأدبية الأوروبية ، التي نشأت بتطور تلك الأمم في الحياة والمدنية ، والتي كانت أثراً لعوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية مختلفة .

حاولوا محاكاتها دون أن تحفزهم إلى هذه المحاكاة أو تدفعهم إلى لون خاص من الأدب دوافع قهرية كما كان في الغرب ، ولكنه حب التجديد ،

والتقليد للأدب الغربي فحسب .

ولذلك رأينا من يقلد المدرسة الإبداعية ( Romanticism ) ومن يدعي أنه من المدرسة الواقعية ( Realism ) ، ومن يحاول أن يكون من المدرسة الرمزية ( Symbolism ) إلى آخر ما هنالك من مدارس .

وأدب هؤلاء المفرقين في التجديد ، المفرمين بالتقليد ، هو أدب غربي صرف ، جاء في ثوب عربي ضعيف النسيج ، ملون بألوان صارخة يجعها الذوق العربي .

هذه الأنماط المختلفة من الأدباء ، وهذه الألوان المتباينة من الأدب ، في عصر ازدهم بالعلوم والثقافات ، يجعل مهمة مؤرخ الأدب عسيرة في تعرف طريقه في درسها وتقسيمها وحصرها ، وإصدار أحكام عامة عليها ، وتبيان كل مدرسة ، والفريق الذي ينتمي إليها في كل بلاد العروبة ، ولا سيما والنهضة اليوم عامة ، وهناك عشرات من الأدباء اللامعين يستحقون الدراسة . ولا بد لمؤرخ الأدب كذلك من التعرض للعوامل السياسية والاجتماعية التي أثرت في الأدب العربي الحديث ، وتتبع نمو هذا الأدب منذ عصر محمد علي ، حين كان يحاول التخلص من القيود التي كبل بها في عصور الانحطاط ، إلى أن قوي ، ووقف على قدميه حراً طليقاً ، ثم إلى أن صار مارداً عملاقاً في جيلنا الحاضر .

وأشهد أن هذا العمل الضخم يحتاج إلى دراسات واسعة قبل أن يتم ويصير عملاً تاريخياً علمياً له قيمته : فمن دراسة لتأثر الشعر العربي الحديث بالثقافة الغربية من حيث الفكرة والخيال ، والغرض والصورة ،

ومن دراسة للكلمات الدخيلة والمعربة التي استعملها الادباء ، ومن دراسة لتطور القصة في الادب العربي قديماً وحديثاً ، ومن دراسة للأساليب الأدبية المتأثرة بالأساليب الغربية ، ومن دراسة لتطور النثر العربي ، وأدب المقالة ، إلى غير ذلك من الدراسات المنظمة المسهبة التي تأخذ جزءاً خاصاً من هذا العمل الضخم ، وتبعثه وتصدر عليه أحكاماً مدعومة بالأدلة والنماذج ، لتعين مؤرخ الأدب حين يتعرض إلى المدارس الأدبية في العصر الحديث ، ورجال كل مدرسة .

ولست أزمع أنني ضليع بهذا العبء وحدي وأنني حين أقدم هذا الكتاب للقارئ العربي قمت بهذه الدراسات المستفيضة ، وانتهيت من الأحكام العامة التي تؤدي إليها هذه الدراسات . ولكن هذا الكتاب ليس إلا محاضرات ألقيتها على طلبة كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، حاولت أن أعرض عليهم فيها نماذج من هذه التيارات المتباينة في الأدب الحديث ، وأسرد عليهم فيها كيف نما هذا الأدب وتطور ، في إجمال واختصار .

وقد ألحوا علي إلحاحاً شديداً في أن أقدمه للطبعة ، حتى ينتفعوا به وينتفع غيرهم فيما يزعمون . ولقد ترددت طويلاً قبل أن أستجيب لرغبتهم ، لاعتقادي أن هذا العمل يتطلب جهداً عنيفاً ووقتاً طويلاً ، وأن الأولى به أن يظل دراسة حتى تستوفى عدتها ، وتكمل أهميتها ، وتوضع في غالبها على صورة كتاب .

فأنا لا أعفي كتابي هذا من التقصير ، وإذا لم يستوعب الأدب الحديث ومدارسه ، وكل الشعر يات الأدبية الجديدة بالدرس ، فلاني أول المعترفين بذلك ، المعتذرين عن تقصيرهم ، والذي يشفع لي عند القراء أنها محاولة لدرس الأدب الحديث ؛ علّ فيهم من يكون أقوى مني منّة ، وأطول

باعاً فيستوفي الموضوع ويلم بكل أطرافه ، أو يكون فيهم من تستهويه  
ناحية خاصة ، أو أديب بعينه فيتنخذه جالاً لدراسته ، وتزويد المكتبة  
العربية بها ، فيعين على تحديد معالم أدبنا المعاصر .

وبعد فإن المعاصرة حجاب ، وقد أتعرض في كتابي هذا بالنقد لبعض  
الأحياء من الأدباء ، والتعريف بآثارهم الأدبية . وقد يكون في كلامي  
مالا يروقهم ، أو يثقل عليهم ولكني سألزم نفسي قول الحق مجرداً عن  
الأهواء والغايات ، ثم إني مجتهد ، فإن أصبت فلي ثوابان ، وإلا فلن  
أعدم ثواب الاجتهاد ، ولن تحول المعاصرة بيني وبين تقرير الحقيقة ،  
والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقي



## مقدمة الطبعة السادسة

لم أزل منذ صدرت الطبعة الأولى لهذا الجزء من الكتاب عام ١٩٤٨ أو اصل دراسة الأدب الحديث ، وأبحث عن مصادره ، وقد تسنى لي في هذه الحقبة الاطلاع على كثير من المراجع ، وإنني أتقدم اليوم بالطبعة السادسة إلى قراء العربية وفيها زيادات كثيرة في كل باب من أبواب الكتب وإفاضة في تراجم الشعراء والكتاب .

على أن هذه المرحلة من الأدب الحديث لا تزال في حاجة إلى الدراسة واستقصاء المصادر ، حتى تظهر واضحة مبهولة لدارس الادب ، فلست أزعم أن الكتاب قد بلغ الكمال أو قاربه ، وإنني سأظل عاكفاً على الاستزادة من الادب الحديث حتى أبلغ بالكتاب الغاية التي أصبو إليها إن شاء الله .

ومما يحفزني على ذلك ما وجدته في جمهرة القراء من تشجيع ؛ حتى نفدت الطبعات السابقة في أمد وجيز على الرغم مما تلاقه الكتب الادبية من انصراف عنها ، وزهد فيها . وإنني أقابل هذا التشجيع بالشكر راجياً أن يوفقني الله إلى إرضاء العلم وجمهور الادباء ، وطلاب البحث . والله هو الموفق للصواب .

عمر النموي





## الفصل الأول

### البعث ٧

- ١ -

#### قبيل البعث :

ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك ، وهي في ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تمناني مرارة الظلم ، وقسوة البغي .

قلب ما شئت من أسفار التاريخ فلن ترى إلا صفحات سوداء قائمة ، تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش ، وستسمع صراخ المظلومين يصم الآذان ، وتلمح دماء الفلاحين في كل صقع تسيل تحت سياط الجبابة ، وتمثل لك بلاد العروبة تخنقها يد غاشمة أصابعها : الفقر ، والمرض ، والجهل ، والذلة ، والانحلال .

لم يكن لولاة الأتراك هم إلا استدرار الأموال بأية وسيلة ، غير معبرين

صرخات الشعوب العربية التفاتاً ، وغير مهتمين بما يقاسونه من ضنك وبؤس وفاقه وجهل ، واشتد الخلف بين أمراء المماليك ، وسلبوا الوالي سلطته ، وشنوها حرباً شعواء كل على أخيه ، ينازعه السلطة والجاء . والضحية في هذا النزاع كله هم أبناء البلاد ، فلا غرو إذا أقفرت من أهلها ، وقد جاء القرن التاسع عشر ، وسكان مصر أقل من ثلاثة ملايين ، أكثرهم من العرب المسلمين ، وبليهم الأقباط ثم الأتراك وكان الحاكم يفد من الأستانة ، ويقم بالقلمة ويدعو للخليفة ، ويضرب باسمه النقود .

ولكن السلطة الفعلية كانت في يد المماليك ، وهم أخلاط من الأتراك والشراكسة وجميع ثروة البلاد وإدارتها في أيديهم ، ولم يكن لهم عصبية لأنهم لم يتوارثوا الملك إلا نادراً وإنما الغلبة للقوي ، فضربة موفقة من حسام أحدهم تكسبه الصدارة بين أبناء جلدته ، ولم يكن حظه السعيد يغير من أخلاقه ، فهو في منصب الوالي تتقمصه روح العبد الوضيع وليس له من هم إلا الاستيلاء على النساء والحيل والأموال ، وكان الفلاح المسكين يغزى وتتهب أمواله ، ولم يكن التاجر المصري أو الأوروبي الغريب بأحسن منه حالاً<sup>(١)</sup> ، ولا ريب في أن الحالة الاجتماعية والأدبية تتأثر الى حد كبير بالحالة السياسية ؛ فرعية همل ، ورعاة مستبدون ، وهيئات أن يكون للأدب نصيب في مثل هذه البيئة الجاهلة .

وقد زار ( فولني ) الرحالة الفرنسي مصر ؛ وبلاد الشرق العربي

---

(1) The Beginning of the Egyptian question and the Rise of Mohamed Ali by Prof Shafik Gherbal p. 2.

وتركيا في أخريات القرن الثامن عشر فراعها ما بها من جهل مطبق وفساد شائع ، وهو في هذا يقول : « الجهل عام في هذه البلاد ، وفي كل بلد تابع لتركيا ، وقد عم كل الطبقات ويتجلى في كل العوامل الأدبية وفي الفنون الجميلة ، حتى الصناعات اليدوية تراها في حالة بدائية ، ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح الساعة وإذا وجد فهو أجنبي » .

ويقول في موضع آخر « ولّى عصر الخلفاء وليس من الأتراك أو العرب اليوم علماء في الرياضيات أو الفلك ، أو الموسيقى أو الطب ، ويندر فيهم من يحسن الحجامة ، ويستخدمون النار في الكي ، وإذا عثروا بمتطبب أجنبي عدوه من آلهة الطب ، وصار علم الفلك والنجوم شعوذة وتنجيماً ، وإذا قيل لعلمائهم ورهبانهم إن الأرض تدور عدوا ذلك كفراً ، لأنه - في زعمهم - يخالف كتب الديانات » .

ولم تكن تركيا أحسن حالاً من البلاد الخاضعة لسلطانها ، وحسبك أنه حينما أراد بعض الناهيين من الأتراك في القرن الثامن عشر <sup>(١)</sup> إدخال المطبعة لأول مرة في تركيا ، وجد من ولاية الأمور ، وجمهور الشعب عنتاً وإرهاقاً ، واضطر إل استصدار فتوى شرعية بعد أن بذل إبراهيم بك صهر السلطان مجهوداً كبيراً ، وقد سمحت الفتوى بطبع الكتب غير الدينية ، ثم أفق علماء الشرع بعد ذلك - حين ظهرت فائدة المطبعة - بطبع كتب الدين اعتماداً على أن الأمور بمقاصدها .

وقد حرم الأتراك مصر أغلى كنوزها فنقلوا أكثر الكتب التي كانت مخزائن المدارس إلى بلادهم ، ثم نقلوا كثيراً من العلماء ، والأدباء ، والأمراء ، والمهندسين ، والوارقين ، وأرباب الحرف ، وقد ذكر ابن إياس

---

( ١ ) هو محمد جلبي سفير الدولة العثمانية ببيريس .

أسماء كثير من هؤلاء ، وقال : إنهم يبلغون ألفاً وثمانمائة ، وصادفهم  
النحس ففرقت بهم بعض السفن التي كانت تقلهم فمات كثير منهم ، مع  
أن ابن إياس<sup>(١)</sup> ، أرخ لمصر حتى أوائل الاحتلال العثماني ، ولم يشهد  
الاحتلال في أوج جبروته ، وما جره على البلاد من نكبات . وكان  
من نتائج هذا الاحتلال كذلك أن قلت أموال الأوقاف التي كانت  
محبوسة على العلماء وطلبة العلم ، فتفرق الطلاب ، وانفضت سوق العلم  
ولم يبق منه إلا ذمء يسير بالأزهر ، ومن البديهي أن اللغة العربية لم  
تجد في هذا العصر المظلم من يشد أزرها ، ويثيب الشعراء والكتاب  
المحتفين بها ؛ لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية في الدواوين ،  
وفشت على ألسنة الناس ، ولأن الحكام لا يفقهون العربية ولا يقدرونها  
قدرها ، ولا يميزون بين الجيد والفت من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء  
مادحين .

ولم يعد في استطاعة كثير من الكتاب أن يسلخوا من اللحن الفاحش ،  
أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، بل عز عليهم اللفظ الجزل والأسلوب القوي ،  
فلجئوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عوار كلامهم ، وقد أكثروا من  
هذه الحلى اللفظية حتى استغلق الكلام . وأتوا بالغث للسمج الذي إن  
حسن فيه شيء كان سرقة واغتصاباً من آثار من سبقوهم من  
الكتاب .

وحسبنا أن نقدم بعض النماذج دليلاً على ما وصلت إليه اللغة وآدابها

---

(١) هو ابن إياس الجركسي الحنبلي من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وله  
كتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » دون فيه تاريخ مصر حق سنة ٩٢٨ هـ  
١٥٢١ م ولغته ضعيفة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى .

نثراً ونظماً من الرّكّة والضعف :

(١) قال عبد الوهاب الحلبي في رسالة إلى الشهاب الحفاجي .

« لقد طفحت أفئدة العلماء بشراً ، وارتاحت أسرار الكاتبن سرّاً وجهرّاً ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بيّمن قدوم من اخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أعلامه . »

(٢) قال عبد الرحمن الجبرتي من النثر المرسل مبيناً نشأة مدرسة الهندسة في عهد محمد علي :

« لما رغب الباشا في إنشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة ، تعين المترجم رئيساً ومعلماً لمن يكون متعلماً بذلك المكتب ، وذلك أنه تداخل بتحليلاته لتعليم ممالك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك . ورتب له خروجاً وشهرياً ، ونجب تحت يده الممالك في معرفة الحسابات ونحوها ، وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بأن يفرد مكاناً للتعليم ويضم إلى ممالكه من يريد التعليم من أولاد الناس ، فأمر بإنشاء ذلك المكتب ، وأحضر له أشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الإنكليز وغيرهم . »

(٣) ولم يكن الشعر - إذا صح أن نسميه شعراً - أرقى حالاً من النثر وإنما كان صناعة لفظية غثة .  
وهاك مثلاً مما قاله عبد الله الشبراوي <sup>(١)</sup> يرثي أحمد الدلنجاري

---

(١) كان عبد الله الشبراوي من أكابر شيوخ الأزهر ، واشتهر بقوله هذا النوع من الشعر ، وتوفي سنة ١١٧٢ هـ .

المتوفي سنة ١١٢٣ هـ :

سألتُ الشعر هل لك من صديق    وقد سكن الدلنجاوي لحده  
فصاح وخر مغشياً عليه    وأصبح ساكناً في القبر عنده  
فقلت لمن أراد الشعر أقصر    فقد أرختُ مات الشعر بعده  
٨١ ٦٠ ٤٤١

ومن ذلك قول الشهاب الخفاجي (١) :

فَدَيْتَكَ يَا مَنْ بِالشَّجَاعَةِ يَرْتَدِي    وَلَيْسَ لغيرِ الشُّعْرِ فِي الْحَرْبِ يَنْفَرِسُ  
فَإِنْ عَشِقَ النَّاسَ الْمَا وَعِيُونَهَا    مِنْ الدَّلِّ فِي رَوْضِ الْحَاسَنِ تَنْعَسُ  
نَدِرْ عَكَ قَدْ ضَمَّتْكَ عَاشِقُ    وَصَارَتْ جَمِيعاً أَعْيُناً لَكَ تَحْرَسُ

ومن هذه النماذج المتقدمة للأدب قبيل النهضة ، ندرك كيف كانت  
النهوض صعباً بطيئاً ، يحتاج إلى عناء طويل ، وصبر كثير ، وزمن مديد  
ليبلغ أشده ، ويؤتي أكله .

---

(١) هو أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجي المصري ولد بسرياقوس وتلقى  
دروسه بالعامرية ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ، ثم الأستانة ، ثم عين قاضياً  
للمسكر بمصر ، ثم استقال وسافر إلى دمشق فحلب فالأستانة وتوفي سنة ١٠٦٩ هـ ،  
ومن أشهر مؤلفاته « ريحانة الألباب » يشمل على تراجم أدباء عصره ، ثم « شفاء  
القليل بما في لغة العرب من الدخيل » .

### البعث :

هبت مصر من سباتها العميق فزعة مذعورة حين دوت في آفاقها مدافع نابليون سنة ١٧٩٨ م ، وأخذت تقلب الطرف دهشة في هذه الجيوش العجيبة ، والوجوه الغريبة ، فكان ذلك أول عهدا بالفرنجة منذ عصر صلاح الدين الأيوبي . ولكن شتان بين المهدين ، ففي الأول كانت قوية عزيزة لا تزال فيها أثاره من علم وأدب ، وكانت أوربا لا تزال تتحسس طريقها نحو النور . فاقتبست من مهد العروبة وأفادت علماً وحضارة ، وأخذت ترقى صُمداً في سُلّم المدنية بخطوات ثابتة سريعة ، بينما أخذت مصر تهوي وتنحدر رويداً رويداً ويتراكم عليها الجهل والغفلة حتى جاءها ( نابليون ) وهي في الدرك الأسفل .

اصطحب ( نابليون ) معه كل عدد الاستعمار والاستغلال والإيقاظ . وكانت دهشة المصريين جدٌ عظيمة مما رأوا من مظاهر هذه المدنية الجديدة ، إذ أنشأ نابليون مسرحاً للتمثيل كانوا يمثلون فيه رواية فرنسية كل عشر ليال ، ومدارس لأولاد الفرنسيين ، وجريدتين ، ومصانع ، ومعملاً للورق ، وأسس مرصد فلكية ، وأماكن للأبحاث الرياضية ، والنقش والتصوير في حارة الناصرية ، وأسس مكتبة عامة وقد جمعت بعض كتبها من المساجد والأضرحة ، وفيها كثير من الكتب الفرنسية

التي أحضرتها الحملة معها ليفقد إليها كل من يريد المطالعة ، وكان القائمون بأمرها يرحبون بمن يدخلها من المصريين . وكان بها عدد كبير من الكتب العربية ، وأنشأ المجمع العلمي المصري على نظام المجمع العلمي الفرنسي في أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وكان من أغراضه :

١ - نشر المدنية وبعث العلوم والمعارف بمصر .

٢ - دراسة المسائل والأبحاث التاريخية والطبيعية والصناعية ، ونشر هذه الأبحاث في مجلة المجمع العلمي التي تنشأ لهذا الغرض .

٣ - إبداء رأيه في الأمور التي تستشيرها الحكومة .

وكان المجمع يتألف من أربعة أقسام : قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسي . وقسم الآداب والفنون ، ويتألف كل قسم من اثني عشر عضواً .

وقد أفاد هذا المجمع مصر والتاريخ بآثاره وأعمال رجاله وصارت أبحاث أعضائه هي النواة الأولى لكل بحث خاص بمصر ، ولا بدع إذا ظل المجمع العلمي هو الاثر الباقي حتى اليوم من آثار حملة نابليون ، وذلك لجليل فائدته . وهذا ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية <sup>(١)</sup>

وبذل الفرنسيون غاية جهدهم في تقريب المصريين إليهم ، وترغيبهم في أسباب الحضارة وفي تاريخ الجبرتي وصف مستفيض لكل هذا ، حتى موائد الفرنسيين ، وكيف يأكلون ويشربون ويلبسون ، وما شاهده من

---

(١) تاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت ج ١ ص ٣٩ .



سائر أعمالهم العلمية والكيميائية ، وكتبهم المصورة وأدواتهم . وهو يمثل بدهشته هذه حال كل عربي في أيامه . ولقد ظن كثير ممن شاهدوا التجارب العلمية التي أجراها الفرنسيون في معاملهم سحراً<sup>(١)</sup> بيد أن كل هذا ذهب بذهابهم سنة ١٨٠١ م .

كانت حملة نابليون هزة عنيفة لمصر ، أيقظتها من سباتها الطويل العميق وبيّنت لها أنها تعيش في عالم آخر ، وأن الدنيا تسير وأهلها واقفون غارقون في أحلامهم يحثرون ماضيهم ، ولا يدركون مساوئهم ، ويظنون أنهم الناس وأن غيرهم لا شيء .

وقد نظم نابليون شئون مصر الداخلية تنظيمًا حسنًا ، يشهد له بالنبوغ الإداري ، فوق نبوغه الحربي ، على الرغم من قصر المدة التي أقامها بمصر ، فأنشأ الدواوين ، في مصر والمدن الكبرى وانتخب لها أكفاء المصريين ، واختار من بين المصريين المسيحيين رجال المال والإدارة ، بيد أن شراسة رجال الحملة ، واستهتارهم بالشعب المصري ، ودينه ، وتقاليده ، وانتهاكهم حرمان الأهالي جهاراً ، ونهبهم القرى الآمنة ، وإفزاز أهلها ، وفرض الضرائب على الأوقاف الخيرية التي كان يصرف ريعها على المساجد وطلاب العلم ، وفرضها كذلك على المنازل . جعل كل

---

(١) وصف الجبرتي بعض ما رآه في أحد هذه المعامل بقوله : « ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً ياقوتياً » .

قلوب المصريين تنفر من نابليون وإصلاحاته ، وعلمه ، وتنظر إليه نظرة الغاصب المستبد ، ولقد ثار المصريون في أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فأحمد ثورتهم في قسوة عارمة ، وعنف وغلظة ، وانتهك حرمة المساجد الإسلامية<sup>(١)</sup> وعبثاً حاول بعد ذلك أن يتألف قلوبهم أو يستيحلهم إلى المدينة الغربية . وإن كلفوا بها بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، واتخذوا ما وضعه لهم أساساً للإصلاح الداخلي<sup>(٢)</sup> .

وفي ذلك يقول المؤرخ الإنجليزي إلجود ( Elgood ) :

« لقد ترك الاحتلال الفرنسي في مصر أثراً لا يمحي ، فقد ظل المصريون يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر ، وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر . وإن ما خلفته الحملة الفرنسية في مصر خلال ثلاثة أعوام لا غير ، لمن أضخم ما يتسنى إنجازه في هذا الأمد الوجيز<sup>(٣)</sup> » .

ثم أتاحت لمصر الفرصة لكي تنهض وتنبوأ مركزها بين أمم العالم المتمددين باستيلاء محمد علي على عرش مصر ، وحاول أن ينشئ دولة قوية خالصة لنفسه ولذريته من بعده فأفادت مصر من مجهوداته في هذا السبيل وإن حكمها حكماً استبدادياً خالصاً .

كان محمد علي طموحاً ، يريد أن يرى مصر ما بين طرفة عين

---

(1) Professor Shafik Gherbal , Ibid. pp . 73 - 5.

(٢) لحة عامة إلى مصر لكلوت بك ج ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٦٨ .

(3) The Transit of Egypt, by p. G. Elgood, p. 45 Edw-ard & Co. London 1928 .

وانتباهتها لا تقل في حضارتها وقوتها عن دول أوروبا فوضع أسس نهضة شاملة : في الجيش ، والصناعة ، والزراعة ، والتعليم ، والإدارة ، حتى يكون البعث عاماً ، يدفع بعضه بعضاً ، ولا يعنيننا في مقامنا هذا إلا ما يمس اللغة والأدب .

وقد وجد محمد علي أن خير وسيلة تنهض بالشعب المصري وترفعه الى مستوى الأمم الناهضة الاهتمام بالتعليم ، وقد سلك في سبيل تعليم الشعب كل الطرق الناجحة : فمن بعثات وطباعة ، وفتح مدارس ، ونقل آثار الأمم الغربية في العلوم والآداب ، وتأسيس الصحافة لتنير الحياة أمام الشعب .

### البعثات :

جاء محمد علي إلى مصر جندياً في الحملة التي اشتركت في إخراج الفرنسيين منها سنة ١٨٠١ م ، ولم تمض عليه أربع سنوات حتى استولى على مصر سنة ١٨٠٥ ؛ بعد أن ثار المصريون بقيادة الزعيم العالم السيد عمر مكرم على واليهم التركي خورشيد لعسفه واستبداده فقرروا عزله ، وكان محمد علي قد تقرب إليهم وأظهر حرصاً على استرضائهم والاستجابة لكل ما يأمرون به ، والخضوع لهم ، فاغثروا بمظهره وخداعه ، وبايعوه بالولاية وعلى رأسهم زعيم مصر الشعبي السيد عمر مكرم ، ولكنه ما لبث أن تنكر لهذا الزعيم الذي وضع بين يديه عرش مصر ، خوفاً من منافسته وتخلصاً من رقابته وحسداً لمكانته فنفاه . ورأى كذلك أنه لن يستقيم له الأمر حتى يقضي على المماليك لتبردهم وكثرة

شغبهم فأبادهم<sup>(١)</sup> ؛ وأنه لابد له من جيش قوي يُقر به الأمن ويصون هيبة الحُكم في الداخل ، ويدفع به غارة المغيرين من الخارج ، فانتدب طائفة من أساتذة الفنون العسكرية بأوربا ، وأرسلهم مع مماليكه إلى أطراف الصعيد ليدرّبهم هناك

وفي سنة ١٨١٥ أسس مدرسة حربية إعدادية ، واتخذ لها قصر ابن العيني مكاناً ، وكان كل تلامذتها في أول الأمر من غير المصريين إلا أنهم لم ينجحوا فالتفت إلى المصريين ، ونقلها إلى أبي زعبل ، وأكثر بها من الأساتذة الفرنسيين ؛ وتعجلاً للفائدة كان قد سبق وأرسل في سنة ١٨١٣ طائفة من شبان الممالك لدراسة الفنون العسكرية بإيطاليا ، وفي سنة ١٨١٨ أرسل بعثة أخرى إلى إنجلترا لدراسة علم الحيل ( الميكانيكا ) وغيرها .

ورأى محمد علي أن الجيش في حاجة إلى أطباء يأسون جراحات الجند ، ويقاومون الأوبئة ، ويُعتنَو بالمرضى ، وأن الطب لا أثر له ألبتة ، فخاصة المصريين كانوا يعتمدون في هذا على المأثور من نُسخ الأدوية في الكتب القديمة ، وعلى ما تمخضت عنه التجارب ، ومنها الكي والحجامة ، وأما الدماء فكانوا في عامة شأنهم يعوذون بمدعي الطب من الدجالين والمشعوذين والسحرة ، أو يقنعون من طلب الاستشفاء بزيارة الأضرحة . فأنشأ في سنة ١٨٢٦ مدرسة للطب في جهة أبي زعبل ، وأقام يجوارها مستشفى كبيراً لمعالجة المرضى ، ولتمرين الطلبة ، واستقدم لها أساتذة

---

(١) احتال عليهم ودعاهم إلى وائمة بالقلمة ( وكانت مقر الوالي حينذاك ) ثم أوقع بهم بعد أن أمنوا له فقضى عليهم وكان ذلك في سنة ١٢٢٦ هـ . ١٨١١ م .

من الغرب ؛ وجعل رياستها إلى الدكتور ( كلوت بك الفرنسي ) . وكان الطلاب في هذه المدرسة من المصريين وغيرهم ، واختير كثير من أولئك من بين نوابغ طلاب الأزهر ، ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العيني في سنة ١٨٣٨ .

وقد كانت لمدرسة الطب أثر لا ينكر في بعث اللغة العربية والنهوض بها ، واتصالها بالعلم الحديث ؛ لأن فصيح اللغة فوق أنه قد غُثم على الناس ، وعلى المصريين بخاصة من عهد بعيد ، وأن آدابها ومظاهرها بلاغتها قد دبَّ إليها الضعف والانحلال إلى حد كبير ، فإنها قد تخلّفت عن متابعة العلم حَقَباً طويلة ، فلما استوى العلم وأدرك ، إذا هو في واد ، وإذا حظ الناس من لغة العرب في واد آخر . وَحين فوجئت مصر بهذه العلوم التي حذقها الغرب منذ عدة قرون تشايعها الألفاظ هناك ، وتدارجها الصيغ ، وتطبع لها المصطلحات التي تهيئها الهيئات العلمية المنظمة تبين العُسر أشد العسر في تعليم هذه العلوم الحديثة لطلاب يجهلون لغات أهلها ، وخاصة من معلمين لا يعرفون العربية ، ولو عرفوها ما تهيأ لهم أن يدرسوا بها لمعجزها عن أداء كثير ، والقليل مما تهيأ لهم أن تؤديه ليس في متناول اليد ، بل إنه يحتاج إلى كثرة مراجعة ، وشدة تنقيب ، ويحتاج إلى علماء عندهم شغف بالاطلاع ورغبة في البحث ، وجلد على العمل ، لهذا دعت الضرورة أول الأمر أن يقام بين الأساتذة وتلاميذهم جماعة من المترجمين يستمعون الدرس في اللغات الأجنبية ، ثم يؤدونه إلى هؤلاء بالعربية ، وكان هؤلاء المترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم .

ولقد عانوا كثيراً في القيام بهذه المهمة الشاقة ، ولكن كان عملهم هذا أول دعامة في صرح النهضة الحديثة ، فلقد حفزهم ذلك إلى مراجعة معجمات

اللغة ، والكتب الفنية القديمة كمفردات ابن البيطار ، وقانون ابن سينا ، وكليات ابن رشد ، وغيرها من الكتب العربية لاستخراج المصطلحات العلمية أو اصياغة ما يؤدي مطالب العلم الحديث ، إذا عجز القديم عن أدائه ، وإذا كانت قد غلبتهم الألفاظ الأجنبية في كثير من الأحيان ، ففضلهم في عقد الصلة بين الشرق والغرب لا يحدد .

رأى محمد علي أن تشمل نهضته جميع نواحي الحياة . فأكثر من إنشاء المدارس العالية والابتدائية ، وقد بدأ بالمدارس العالية ، وكان على حق فيما فعل ، حتى يجد بجانبه جماعة من المتخصصين في المواد المختلفة يشرفون على مراحل التعليم الأخرى ، ويسيرون بالنهضة سريعاً ، فأسس مدرسة للصيدلة ، وأخرى للهندسة في القلعة ثم نقلت إلى بولاق ، ومدرسة للولادة والتمريض . ورأى أن الحاجة ماسة إلى أساتذة مختصين عالمين بعلوم الغرب وثقافته ، فجلب الأساتذة من فرنسا في كل فن من الفنون ، ولكنه أدرك أن النهضة الحققة لا تتم إلا على يد أبناء البلاد ، فأكثر من البعثات ، وفي سنة ١٨٢٦ أرسل بعثة الى فرنسا عدتها أربعة وأربعون طالباً ، ذكر اسماءهم ( المسيو جومار )<sup>(١)</sup> - وقد عهد إليه محمد علي بالإشراف على بعثاته - في المجلة الآسيوية ، Journal Asiatique<sup>(٢)</sup> وقد تخصصوا في شتى العلوم والفنون : من حقوق ، وعلوم سياسية ، وهندسة حربية ، وطب ، وزراعة ، وتاريخ طبيعي ، وميكانيكا ، وكيمياء ، وطباعة ، وحفر ، وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة ، ومن أشهرهم وأعظمهم أثراً إمام البعثة الشيخ رفاعة الطهطاوي . وسنترجم له فيما بعد لجليل قدره وعظم أياديه على الترجمة والنهضة الأدبية .

---

(١) كان مهندساً في الجيش الفرنسي بمصر ثم عضواً في المجمع العلمي أيام حملة نابليون .

(٢) عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٩

ثم توالى البعثات ، ومن أشهرها البعثة الطبية الكبرى في سنة ١٨٣٢ وقد اختير طلبتها من تلاميذ مدرسة الطب المصرية ، ومن نوابغ رجالها محمد علي البقلي . وفي سنة ١٨٤٤ أرسلت بعثة ضمت خمسة من أمراء أسرة محمد علي ، ومنهم الأمير إسماعيل <sup>(١)</sup> ، ولدا سميت ببعثة الأنجال ، وهي أكبر بعثات محمد علي وآخر بعثاته الكبرى ، وقد اختار تلامذتها سليمان باشا الفرنساوي من نوابغ تلاميذ المدارس المصرية ، ومن أجل هذه البعثة فتح محمد علي مدرسة بباريس . ومن أشهر رجالها علي مبارك باشا ، وحسن أفلاطون باشا ، ومحمد عارف باشا ، ومحمد شريف باشا

وقد أرسل محمد علي إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٧ ، وكان شديد العناية بأعضاء البعثات يتقصى أنباءهم ، ويشرف على دراستهم باهتمام ، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد ، ويدبهم الى واجباتهم ، وذلك لشدة حاجته في نهضته الى من يقف بجانبه ، وينفذ مشروعاته الضخمة ، وقد ذكر رفاة الطهطاوي نموذجاً من الرسائل التي وجهها محمد علي الى طلبة البعثات ، يوجهم فيها على تقصيرهم ، ويحثهم على الاجتهاد ، ويتمجلهم في قطف ثمار تحصيلهم <sup>(٢)</sup> .

كان لهذه البعثات كلها أثر بالغ في تقدم مصر ونهضتها ، وإرسال نور العلم دافقاً قوياً في ربوعها ، كما كان لها أعظم الفضل في إحياء اللغة ، وجعلها مسيرة للعلم الحديث ، بما ترجم أعضاءها من كتب وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه في شتى نواحي العلم .

---

(١) الخديوي إسماعيل فيما بعد .

(٢) راجع الرسالة في تلخيص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة بك ص ١٥١ .  
وفي تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي ج ٣ ص ٤٥٥ .

## الترجمة :

اقتضت النهضة أن تنقل كنوز الغرب الى اللغة العربية فأست في سنة ١٨٣٦ مدرسة الإدارة والألسن ، وعهد بالإشراف عليها لرفاعة الطهطاوي . ولما كان تاريخها مرتبطاً به ، ونهضة الترجمة في عصر محمد علي وخلفائه ثمرة جده وكده ، رأينا أن نترجم له ترجمة موجزة فحياته حياة مدرسة الإدارة والألسن ، لأنها وجدت بفضلها ، وانتهت بخروجه منها .





## رفاعة الطهطاوي

١٨٠١ — ١٨٧٣

هو إمام النهضة العلمية في مصر الحديثة غير مدافع ، وهبته الله لمصر كي يزودها بنور العلم . فكان مشعلًا ساطعًا بدّد الجهل وسدّفته ، وأثار الطريق لآلاف العقول والقلوب ووضع اللبّات الأولى القوية في صرح ثقافتنا الحديثة .

أوتى القلب الذكي ، والعقل الصافي ، والنشاط الموفور ، والبصيرة النفاذة ، والعزيمة المبرمة فما أضاع ساعة منذ وضع رجله على سلم الباخرة التي أقلته الى فرنسا إلا وأمامه الهدف الذي رسمه لنفسه ولوطنه ، وظل هذا دأبه الى أن انطفأ مشعل حياته .

هو مصري صميم ، من أقصى الصعيد ، يتصل نسبه من جهة أبيه بسيدنا الحسين رضي الله عنه وقد أشار الى هذا النسب بقوله :

## حسيني السلافة قاسمي بطهطا مشري وبها مهادي<sup>(١)</sup>

ومن جهة أمه بالأنصار الخزرجية ، ولد في طهطا ، وكان أجداده من ذوي اليسار ومن تولوا مناصب القضاء بمصر ، ثم أخفى عليهم الدهر ، وحينما ولد كانت أسرته في عسر ، فنشأ نشأة معتادة بين أبوين فقيرين ، وقرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية ، كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره ، ودخل الأزهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار كثيرون ، ولكن ذكائه وحبه للعلم ، وإقباله على التحصيل لفت إليه نظر الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر في ذياك الوقت ، وكان الشيخ العطار من أفذاذ عصره في العلم والأدب والفنون الحديثة ، فاقتدى به تلميذه الشيخ رفاعة ، فقرأ كثيراً من كتب الأدب ، ومهر في فنونه وهو بعد في الأزهر ، ثم تولى التدريس سنتين ظهر فيهما استعداده للتعليم والتثقيف إذ أحبه تلاميذه حباً جماً وتعلقوا به وبدروسه ويقول صالح بك مجدي في هذا <sup>(٢)</sup> :

« وكان رحمه الله حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل في الجامع الأزهر بتدريس كتب شق : في الحديث

---

(١) قاسمي : نسبة الى أحد أجداده أبي القاسم الحسيني وهو من أولياء طهطا المشهورين . راجع في نسبه الخطط التوفيقية لعلي مبارك ج . ١٣ ص ٥١ - ٥٦ .

(٢) في رسالته ( حلية الزمن بمناقب خدام الوطن ) وهي ترجمة حياة وفاعة بك ، كتبها صالح مجدي أحد تلاميذه .

والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك وكان درسه غاصاً بالجسم  
الفغير من الطلبة وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع في جميع ما  
أخذوه عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب سهل التعبير ، مدققاً ،  
محققاً ، قادراً على الإفصاح بطرق مختلفة بحيث يفهم درسه الصغير والكبير  
بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب .

ثم عين واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش في سنة ١٨٢٤ ، فاعتاد  
حياة جديدة عنوانها النظام والطاعة ، ومحبة الوطن والدفاع عنه ، ومواجهة  
الأخطار ، وقد كان لذلك أثر كبير في حياته ، فعاش محباً للنظام ، في  
كل عمل تولاه : في تلقي العلوم ، وفي التأليف والتعريب وفي حسن تنظيم  
المعاهد التي تولى إدارتها ، شغوفاً بوطنه مخلصاً له طول حياته .

وكان من حسن حظه وحظ مصر أن طلب محمد علي إلى الشيخ  
القطار أن يختار له من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى ، يرى فيه  
اللياقة لتلك الوظيفة <sup>(١)</sup> . فوقع الاختيار على الشيخ رفاعة .

ولم يكن مطلوباً من إمام البعثة أن يحصل شيئاً من علوم الفرنسيين  
ولكن حسبه أن يؤدي مهمته ، من وعظ الطلاب ، وإرشادهم إلى ما فيه  
خيرهم ، ونصحهم إذا ضلت بهم السبل ، وإمامتهم حين الصلاة ، ولكن  
الشيخ رفاعة كان ذا نفس طموح ، فما أن أقلمت به وبصحبه الباكسة  
من مصر حتى ابتدأ يتعلم الفرنسية ، فأقمنها في ثلاث سنوات ، واتصل  
بكثير من العلماء المستشرقين ، فأجلوه وأكبروه ، ومنهم المستشرق المشهور

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٤

( البارون دي سامي ) ( ١ ) و ( كوسان دي برسفال ) ( ٢ ) .

واهتم في دراسته بالتاريخ والجغرافية ، والفلسفة والأدب ، فقرأ ( فولتير ) و ( روسو ) ، ( وراسين ) ، ( ومونتسكيو ) وغيرهم ، وقرأ بعض الكتب في علم المعادن وفنون الحرب والرياضيات . ومالت نفسه وهو بباريس إلى التأليف والتعريب ، فوضع رحلته وسماها : ( تلخيص الإبريز في تلخيص باريز ) ، وقد كان أستاذه العطار قد أوحى إليه بذلك ، وعرب نحو اثني عشرة رسالة في مختلف الفنون والعلوم من هندسة ومعادن وطبيعة وتاريخ وتقويم وميثولوجيا وعلم الصحة والأخلاق . وترجم كذلك في باريس كتابه ( قلائد المفاهر في غريب عوائد الأوائل والأواخر ) .

وهو أول من كتب من المصريين في المباحث الدستورية ، مع أن هذه المباحث كانت مجهولة في تاريخ مصر القومي ، وذلك أنه درس في أثناء إقامته بباريس نظام الحكم في فرنسا ؛ وعرب في كتابه ( تلخيص الأبريز ) دستور فرنسا في ذلك الحين ، وما تضمنه من نظام المجلسين واختيار أعضائهما ، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، ولم يكن يكتفي بالتعريب ، بل كان يعلق بما يدل على سعة فهم وصحة حكم ، وميل

---

( ١ ) ولد بباريس سنة ١٧٥٨ وتوفي سنة ١٨٣٨ راجع آثاره وخدماته للأدب العربي في كتاب ( المستشرقون ) لنجيب المصطفى ص ٣٧ .

( ٢ ) ولد سنة ١٧٥٩ وتوفي سنة ١٨٥٣ راجع ( المستشرقون ) ص ٢٦ .

فطري للنظم الحرة (١) .

وكان الشيخ رفاعه في باريس موضع إعجاب أساتذته وإكبارهم ،  
لتمام رجولته ، ونضج عقله ، وحسن تصرفه ، وشدة إقباله على الدرس  
والتحصيل ، والعمل على نفع أمته ، وفيه يقول المستشرق الفرنسي المشهور  
( سلفستري ساسي ) : ان الشيخ رفاعه « أحسن صرف زمنه مدة  
إقامته بفرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل  
التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعاً بلاده ، ... وله عندي مزية عظيمة  
وحجة جسيمة (٢) » .

وذكر السيد صالح مجدي تلميذه ومؤرخ حياته في كتاب ( حليمة  
الزمن ) : « وقال لي ، من أثق به ممن كانوا معه بباريس : « انه كان  
يؤدي الفرائض والسنن ، ولم يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ، وواظب

---

(١) من ذلك تعليقه على موقف الملك شارل العاشر لما قامت الثورة في باريس  
قال : ( فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بحمل المدينة محاصرة  
حكماً ، وجعل قائد العسكر أميراً من أعداء الفرنسيين ، مشهوراً عندهم بالخيانة  
لمذهب الحرية ، مع ان هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دهم هذا على  
أن الملك ليس جليل الرأي ؛ فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ،  
فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما رلى على عساكره إلا جماعة عقلاء ، أحباباً له  
وللرعية ، غير مبغضين ولا أعداء ، مع أن استصلاح العدو احزم من استهلاكه ،  
ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياء      والرفق بالذنب والإغضاء  
إن لم تقل عثرة من يقال      يوشك أن يصيبك الجهال

(٢) تخلص الإبريز ص ١٥٤ .

على تلاوة القرآن <sup>(١)</sup> .

كان رفاة قبل أن يفادر مصر يظن أن العالم كله قد جمع في الأزهر ، وأنه سيحرم الاعتراف من هذا النبع العذب ، وفي ذلك يقول :

الا من يغب عن أزهر العلم فلينج على بعد دار العلم والعلماء  
ففيه بحور طاميات ، وغيره بحور عروض لا تجود بماء <sup>(٢)</sup>

ولكن يتبين له بعد أن ذهب الى باريس ، واتصل بثقافة الغرب أن وطنه في حاجة ملحة الى معرفة هذه الثقافة الجديدة ليرقى وينهض ، وأنه لا يكفيه علم الأزهر ، ولذلك جد في الترجمة ، حتى ليخيل للمرء أنه يريد أن ينقل كل شيء الى اللغة العربية وإلى مصر ، ولا بدع فكل شيء أمام ناظره جديد ، وعلى عقله غريب .

ثم عاد الى مصر سنة ١٨٣١ ، بعد ست سنوات قضاهم مكباً على الدرس والتحصيل يطالع ، ويقرأ ، ويكتب ويعرب ؛ ويجالس العلماء ويساجلهم البحث والمناظرة ؛ وينعم النظر في أحوال الشعوب الأوروبية وتاريخها ؛ وأسباب حضارتها وتقدمها ؛ واستقر عزمه وهو في باريس على أن يخدم بلاده عن طريق نقل العلوم الغربية الى مواطنيه ؛ فتتسع أفكارهم وتنمو مداركهم مقتفياً في ذلك آثار الدولة العباسية ؛ اذ بدأت نهضة العلوم والمعارف في عهدها بترجمة كتب اليونان الى العربية .

---

(١) حلية الزمن ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧ .

ولقد بر بوعده فملاً البلاد علماً وحكمة ، وحمل نواة النهضة وخدمتها بتأليفه وتعاريبه وتلاميذه الذين تخرجوا على يديه في مدرسة الألسن وغيرها .

#### أعماله بعد عودته :

لما رجع ولي منصب الترجمة ، وتدرّس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب بأبي زعبل ، ثم انتقل إلى مدرسة المدفعية بطرة ، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ثم ، وقع وباء في القاهرة اضطره إلى السفر لطهطا بلدته ، فمكث بها ستين يوماً ، ترجم في خلالها مجلداً من جغرافية ( ملتبرون ) Malt - Bron وعاد به إلى القاهرة ، وقدمه لمحمد علي فأكرمه ورقاه .

عرف الشيخ رفاة في باريس مدرسة اللغات الشرقية ، التي أسست لدراسة لغات الاستشراق ، وكان يسميها في كتابه مدرسة الألسن ، فوجب أن تؤسس في مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب أغراضها . ورأى أن أعضاء البعثات مها كثر عددهم لن يقوموا بكل ما تتطلبه النهضة من جهود ، فلا بد من إيجاد طبقة من العلماء الأكفاء في لآداب العربية ، واللغات الأجنبية ، ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب ، وليكونوا صلة بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية .

إننا بالبعثة ننقل بعض المصريين إلى أوروبا ، وبهذه المدرسة ننقل علم أوروبا إلى مصر ؛ فاقترح الشيخ على حمد علي إنشاء مدرسة الألسن ، وكان من مزايا محمد علي أن يسر بالاقترح الجيد ، وينفذه فوراً وعهد إلى

الشيخ رفاعة بوضع المشروع وتنفيذه ، وبذلك أنشئت مدرسة الألسن ، وكان مكانها ( سراي الدفتردار ) حيث كان فندق ( شبرد القديم ) وتقع بجوار قصر الألفي بك الذي أقام به نابليون ثم محمد علي ، واختار لها الشيخ خمسين طالباً من نوابغ طلاب المكاتب المصرية . وفي هذه المدرسة التي تولى الشيخ نظارتها ظهر نبوغه كعالم محقق ، ورئيس قدير ، ومعلم كفء ، ومرب ممتاز .

وكانت المدرسة كلية تدرس فيها آداب العربية ، واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلاوم التاريخ ، والجغرافية ، والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية ؛ فكانت أشبه شيء بكلية للآداب والحقوق مجتمعين . وكان نهج المدرسة في الترجمة عملياً ومفيداً ، فلم يكن دروساً تكتب في دفاتر وتهمل ، بل يمرن الطلبة على الترجمة في كتب نافعة ، فإذا استغفلت عليهم جملة لجئوا إلى شيخهم يذللها لهم ، ثم عرضوا ما ترجموا على استاذ اللغة العربية يصحح لهم لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوي ، فقد كان ساعده الأيمن في هذه المدرسة ، لما رزقه من موهبة جليلة في التدريس بلفظة سهلة ، وبعبارة فصيحة وقدرة فائقة على تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثراً خالداً <sup>(١)</sup> .

---

(١) يقول أحمد عبيد مترجم كتاب ( الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر ) « كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الأندلس السيد رفاعة ، فأجاد تربيتي كغيري حتى حسن حالي ، واجتهادي في نيل المعالي بين أمثالي ، واقتضى رأيه المؤيد ، وحزمه المعضد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ فاخترت ملكاً من ملوك الإفرنج تملو مهته على المربخ ، وهو كتاب بطرس الأكبر ، وفضله أشهر من أن يذكر لمؤلفه =



وأحيل على رفاعة بك مع إدارة المدرسة إدارة عدة معاهد : المدرسة التجهيزية ، ومعهد الفقه والشريعة الإسلامية ، ومعهد المحاسبة ، ومدرسة الإدارة الإفرنجية ، والتفتيش على مدارس الأقاليم ، وتحرير الوقائع المصرية ، وبعد سنوات تخرجت الدفعة الأولى في مدرسة الألسن فتلقفتهم مصالح الدولة المختلفة . وابتدوا يفيضون وأستاذهم على مصر من بحسور الغرب وكنوز ثقافته ما كان دعامة لنهضتنا الحالية .

ظل الشيخ سبعة عشر عاماً وهو دائب في عمله لا يمل ولا يكل ، وفي كل آونة يضاف إليه عمل جديد يتقبله بصدر رحب وعزيمة قوية ، وكلما زاد اجتهاده ونتاجه زاده أولو الأمر مكافأة وتقديراً فمنحه محمد علي رتبة ( أميرالاي ) و ١٣٠٠٠ قرشاً في الشهر ، و ٣٥٠ فداناً في طهطا . ولكن الدنيا لا تدوم على حال ، فما أن مات محمد علي ، وتولى عباس الأول الحكم حتى أغلق المدارس جميعها إلا القليل ، وألقى مدرسة الألسن والشيخ رفاعة معها ، بحجة الاقتصاد في النفقات ، ولأن حاشية السوء لما رأت ميل الوالي إلى محاربة التعليم والعلماء خاضوا في الشيخ رفاعة وطريقته ، ورموه بالعقم . فنفاه عباس الأول الى السودان تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظراً لها ، ومعه طائفة من أكابر العلماء . ولم تكن الخرطوم كما هي اليوم في نظافتها ومبانيها ، وتوفر وسائل العيش بها ، وإنما كانت مدينة صغيرة تصعب الحياة فيها على من ألف

---

= الشير المسمى ( فولتر ) الذي يعد بين أكابرهم أعظم حجة ، وإن كان عن الأديان بعيد الهجة فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال ، وأتم منوال ، وقد شرعت في نقله من الفرنسية إلى العربية مع إعانتة لي في حل مشكلاته ، وما عسر علي من غوامضه ومعضلاته ، وقد صرفت في ترجمته على صوبته الهمة وسهرت في مطالعته وفهمه الليالي الملهمة ... الخ .

حياة باريس والقاهرة ، وعلى كل من يشرف على التعليم كله بمصر ، فإذا هو يشرف على مدرسة ابتدائية صغيرة بالخرطوم . وحز في نفس الشيخ أن يجازى على إحسانه بالإساءة وأن يطمعن الجاهلون في صلاح طريقته وقد أينعت وآتت أكلها شهياً لذيداً ، يزيد في نماء البلاد العقلي ، ونهضتها نحو الكمال ؛ وأخذ يستغيث ويندب حظه ، والموت يتخطف أعوانه كل يوم حتى لم يبق إلا نصفهم . وكان يستغيث أولاً بمن يأنس منهم روح الجد والعمل لخير مصر ، حتى إذا عجز هؤلاء عن إغاثته لجأ الى أولياء الله الصالحين وأنبيائه المطهرين ، ومن قصيدة له أرسلها الى حسن باشا كتبخدا مصر<sup>(١)</sup> :

مهازيل الفضائل خادعوني وهل في حريمهم يكبو جوادي  
وزخرف قوهم اذ موهمه على تزييفه نادى المنادي  
قياسُ مدارسى - قالوا - عقيم بمصرَ فما النتيجة من بعادي  
ثم يذكر أشهر مترجماته ومؤلفاته فيقول :

على عدد التواتر معرباتي قفي بفنون سلم أو جهاد  
وملطبرون يشهد وهو عدل ومنسكو يقر بلا تمادي  
ومسترفو قراح فرات درسي قد اقترحوا سقاية كل صادي

---

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٢٦٥ - ٢٦٨ .

ولاح لسان باريس كشمس      بقاهرة المعز على عمادي  
ويزفر زفرة حارة على ما صار اليه أمره ، وعلى بعده عن أولاده  
وأهله فيقول :

رحلتُ بصفقة المخبون عنها      وفضلي في سواها في المزداد  
وما السودان قط مقام مثلي      ولا سلمي فيه ولا سُعادي  
وقد فارقت أطفالا صفاراً      بطهطا دون عَوْدِي واعتيادي  
أفكر فيهمو سرّاً وجهرأ      ولا سمري يطيب ولا رقادي  
أريد وصالحهم والدمر يأبى      مواصلي ويطمع في عنادي  
وهذه القصيدة على وزن وقافية :

لقد أسمعت لو ناديت حياً      ولكن لأحياة لمن تنادي  
وحين يش من مثل هذه الاستغاثات ، أخذ يخمس قصيدة لسيدي  
عبد الرحيم البرعي في مدح النبي عليه السلام مطلعها :

خل الغرام لصب دمه دمه      حيرانَ توجده الذكرى وتقدمه  
ويقول فيها :

« رفاعة » يشتكي من عصبه سخرت      لما رأت أبحر العرفان قد زخرت  
فارفع ظلامه نفس عدلك ادخرت      وهاك جوهرَ أبيات بك افتخرت  
جاءت إليك بخط الذنب ترقمه

وظل الشيخ في منفاه أربع سنوات ، وكان رفاعة وهو في السودان  
بر ما بمقامه ومصيره ، ولكن رأيه في السودان حين هدأت ثأثرته ، وعاد  
الى وطنه ، يدل على بصيرة وحكمة وفي ذلك يقول : فتى زالت من  
السودان وسائل الوخامة والسقامة ودخلت أهلها بحسن الإدارة في دائرة  
الاستقامة ، صارت هي والديار المصرية في العمار كالتوأمن ، وفي إيناع  
الأثمار صنوين ، حتى ينشد لسان حالها .

نحن غصنان ضمنا الوجد جميعاً في الحب ضمّ النطاق

في جبين الزمان منك ومني غرة كوكبية الانفلاق » (١)

ولم يعد لمصر الا بعد أن توفي عباس وتولى سعيد أريكة مصر  
فعينه وكيلًا للكلية الحربية ، ثم ناظرًا لها ، ومديرًا لمدرسة الهندسة ،  
ومدرسة العمارة ، مع الاحتفاظ برئاسة قلم الترجمة ؛ بيد أن هذه المدارس  
جميعها ألغيت في سنة ١٨٦٠ ، كما ألغي قلم الترجمة فظل الشيخ بدون  
منصب حتى عهد اسماعيل ، حين هبت على العلم والتعليم نسمة من  
الحياة فبعثته قويا فتياً ، وأعيد قلم الترجمة بنظارة المعارف العمومية  
وتولى رئاسته من جديد رفاعة بك سنة ١٨٦٣ ، وعين عضواً في مجلس  
المعارف الأعلى الذي كان يعرف حينذاك بـ ( قومسيون المدارس ) وكان لهذا  
المجلس فضل كبير في تنظيم التعليم ، على عهد اسماعيل .

---

(١) مباحج الألباب المصرية ص ٢٦٣ .

## رفاعة والقانون :

حينما فكرت الحكومة في إصلاح نظام القضاء على عهد اسماعيل رأت أن تبدأ بترجمة القوانين الفرنسية المعروفة بـ ( الكود ) وهو قانون نابليون ، وكانت هذه مهمة عسيرة تتطلب إلماماً واسعاً بالقوانين الفرنسية ، وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها في القانون الفرنسي ، وهذا كله يحتاج إلى صبر طويل ومثابرة ومهمة .

ولم تجد الحكومة خيراً من رفاعة وتلاميذه ، ليقوم بهذه المهمة الجليلة ، فقام بهذا العمل مع بعض من نجباء خريجي مدرسة الألسن ، وأخرجوه في مجلدين كبيرين .

## رفاعة والمرأة :

وهو أول من نادى بتعليم المرأة وثقيفها ، ووضع كتاباً مشتركاً لتثقيف البنات والبنين على السواء ، وسماه : ( المرشد الأمين للبنات والبنين ) وهو كتاب في الأخلاق والتربية والآداب ، بل دعا إلى اشتراك المرأة في أعمال الرجال على قدر طاقتها ، ويقول في هذا : « ينبغي صرف الهممة في تعليم البنات والصبيان معاً ... فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ؛ فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ويجعلهن بالمعارف أهلاً ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن ، وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال

والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقاتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يبأثرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهم بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء ، وافتعال الأقاويل ، فالفعل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقرها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء ، وقد طبع كتابه هذا في سنة ١٨٧٣ ، وأسست أول مدرسة لتعليم البنات في مصر سنة ١٨٧٢ ، أسستها إحدى زوجات إسماعيل على أن دعوة رفاعة إلى تعليم المرأة والنهوض بها ترجع إلى ما قبل هذا بكثير ، ولكن لم يستجب لدعوته أحد ، وكان تعليم المرأة قاصراً على الأساتذة الخصوصيين ، إلى أن وجدت دعوته من يليبها ويعمل على تنفيذها .

### وفاته :

ظل هذا العالم الجليل يدأب ويجد في نشر الثقافة وفتح أبواب العلم والنور للأمة المصرية ، حتى توفي سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ وله من العمر ٧٥ سنة .

وتد بقي تلاميذه من بعده ، وطريقته التي استنها وكتبه التي ألفها يرجعها تهيب بالأمة أن تسير على سنته ، وأن تنقل من آثار الغرب ما يزيل صداً السنين عن عقول طالت غفلتها .

## صفاته :

كان رفاة عربي الصفات يتمثل فيه الكرم والجرأة والحزم ، وقفرس الأمور ، أخص مزاياه الشمم والإباء ، واعتداده بنفسه وصراحته عند مجابهة أولي الأمر بما ينفع وطنه . وكانت له أفكار تخشاهم الأسرة الحاكمة . وقد صرح بها في مواطن كثيرة من كتبه ، فكان يدعو إلى العدالة الاجتماعية وألا يستبد مالك الأرض بزراعها ، فزارعها هو في حقيقة الأمر أولى الناس للانتفاع بها ، وكان يلح تلميحات - لا تخفى على ذوي الفطن - إلى استبداد أسرة محمد علي وحاشيته ، ويدعو إلى الشورى وغير ذلك مما يرتأيه الرجل المصلح العامر القلب بالإيمان والعقل بالأفكار النيرة ، ولعل هذه الصفات تفسر لنا تأخر رفاة في سلم الترقى الحكومي ونيل الألقاب ، بينما قد سبقه بعض تلاميذه في هذا المضمار . وكان يمثل أخلاق العلماء ببعده عن مظاهر الخيلاء والغرور ، بل كان زاهداً جواداً ، متواضعاً محباً للخير ، وكان يتقد وطنية وغيرة على بلاده وله في ذلك كثير من الأشعار الحماسية يشيد فيها بمصر وعظمة جيشها ، ومن هذا قوله يخاطب الجنود :

يا أيها الجنود والقادة الأسود

إن أممكم حسود يعود هامى المدمع

فكم لكم حروب بنصركم ثوب

لم تلتكم خطوب ولا اقتحام ممع

وكم شهدتم من وغي وكم هزمتم من بغى

فمن تعدى وطنى على حاكم يُصرع

وتتجلى روحه الوطنية في ترجمة نشيد فرنسا القومي ( المارسلينز ) ؛  
لأنه أحبه ، وهاج عاطفته ، وكان يكثر من عبارات الوطنية وخدمة الوطن  
في مؤلفاته . وفي الوطن يقول :

« الوطن هو 'عش' الإنسان الذي فيه درج ، ومنه خرج ، وبجمع  
أسرته ، ومقطع سرته ، وهو البلد الذي نشأته تربته ، وغذاه هواؤه ،  
ورباه نسيمه ، وحلّت عنه التائم فيه <sup>(١)</sup> » .

ويقول عن مصر في زهو وإعجاب .

« ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف ، إن لم نقل : إنها أشرف  
الأمكنة ، فهي أرض الشرف والمجد في القديم والحديث ، وكم ورد في  
فضلها من آيات بينات ، وآثار وحديث ، فما كأنها إلا صورة جنة الخلد ،  
منقوشة في عرض الأرض ، بيد الحكمة الإلهية التي جمعت محاسن الدنيا  
فيها ، حتى تكاد أن تكون صورتها في أرجائها ونواحيها . بلدة معشوقة  
السكنى ، رجة المثنوى .. الخ » <sup>(٢)</sup> .

ويقول عن واجب الفرد نحو وطنه في كتابه « المرشد الأمين »  
كذلك :

---

(١) المرشد الأمين ص ٩٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٣١ .



« فالوطني المخلص في حب الوطن ، يفدي وطنه بجميع منافع نفسه ويخدمه ببذل جميع ما يملك ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر ، كما يدفع الوالد عن ولده الشر . فينبغي أن تكون نية أبناء الوطن دائماً متوجهة في حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف ، ولا يرتكبون شيئاً مما يخل بحقوق أوطانهم ، فيكون ميلهم إلى ما فيه النفع والصلاح ، كما أن الوطن نفسه يحمي ابنه من جميع ما يضر به » (١) .

وتلك لعمري نعمة جديدة لم يألفها الشرق العربي بعامة ، ومصر بخاصة ، لأن الوطن عندهم لم يكن محدود المعالم ، فكل بلاد الإسلام بلادهم يدينون بالولاء للخليفة ، ولم يكن يعينهم من أمر أوطانهم والفناء في سبيلها شيء .

كانت هذه النعمة ، وذلك الحديث عن الوطن وواجب المواطن أول لبنة في بناء الأدب القومي المصري الحديث ، جعلت أنظار الأدباء فيما بعد يعنون بهذا الوطن ، ويتملئون جماله ، ويعبرون عن آلام أهله وأمانتهم ، وإن لم يحدث ذلك سريعاً لانتشار الأمية وقيام معوقات سياسية واجتماعية كثيرة ؛ وحسب رفاة أنه سبق زمنه ، وتحدث حديثاً عن الوطن تخاله لجدته قد قيل في أيامنا هذه .

وكان بجانب هذا أدبياً ، وشاعراً رقيقاً إذا قيس بأهل عصره ، ويدلك على ذلك ماروي من أن السفينة التي أقلته إلى أوروبا ظلت خمسة أيام يجزيرة صقلية تتزود من الماء والخضر ، ولم يسترع انتباه الشيخ ويأخذ بمجامع قلبه الا دق نواقيس الكنائس . وفي إحدى الليالي دعا

---

(١) نفس المرجع ص ٩٣ وما بعدها .

صديقاً من أصدقائه من أعضاء البعثة ممن يعرف فيه الظرف والآدب ،  
واقترح عليه أن يشتركا في إنشاء مقامة على غرار مقامات البديع أو  
الحريري ، ويكون موضوعها ثلاثة أشياء : حوار حول : « أن الطبيعة  
السليمة تميل الى استحسان الذات الجميلة مع العفاف » ، ثم « سكر المحب  
من عيني محبوبه » . ثم « تأثر النفوس بضرب الناقوس » ، اذا كان من يضربه  
ظريفاً . وأخذ ينشئ الشعر في مقاماته حول هذه المعاني ، فقال في  
المعنى الأول :

أصبو الى كل ذي جال      ولست من صبوتي أخاف  
وليس لي في الهوى ارتياب      وإنما شيمتي العفاف

وقال في المعنى الثاني :

قد قلت لما بدا والكأس في يده      وجوهر الخمر فيها شبه خديه  
حسي نزاهة طرفي في محاسنه      ونشوتي من معاني سحر عينيه

وفي المعنى الثالث :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له : من علم الظلي ضرباً بالنواقيس  
وقات للنفس أي الضرب يؤمك ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

ومما يدل على هذا المزاج الأدبي ترجمته لبعض الشعر الفرنسي . وتأليفه

كتاب « تعريب الأمثال في تأديب الأطفال » ، وترجمته رثاء فولتير الشاعر  
للويس الرابع عشر ، الذي يقول فيه : « لم يتول قبله ملك من تلك العصابة ،  
ولا ساواه غيره في تربية الرعية بهذه المثابة ، فالفخار شعاره ، والمجد دثاره ،  
وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد ، كما كان أعظمهم  
في الهيبة عند الأخدان والأضاد ، وربما كان دونهم في ميل الرعية إليه ،  
ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه ، فطالما رأيناه تتقلب عليه صروف  
الزمان وتلاعب به حوادث الحداث ، وهو عند النصر يظهر الفخار ،  
ويتجلد عند الهزيمة ، ولا يظهر بمظهر الذل والانكسار ، فقد أرهب عنده  
عشرين أمة عليه تعصبت ، وعلى قتاله تحالفت وتحزبت ، وبالجملة فهو أعظم  
الملوك في حياته ، كما كان عظيم العبرة عند مماته (١) » .

وترجمة رفاة لتلياك تدل على اتجاهه الحديث في الأدب فتلياك رواية  
فرنسية اسمها : les Aventure de Télémaque كتبها قسيس فرنسي يدعى  
فنلون Fénelon وقد سمي رفاة الرواية « مواقع الأفلاك في وقائع تلياك »  
ولعل الأدب العربي الحديث لم يعرف رواية فرنسية ترجمت قبل تلياك .  
ولقد أراد رفاة أن يوجه أذهان الناشئة الى أهمية القصة في الأدب ،  
وأنها لون من ألوانه لم يعبأ به العرب من قبل ، وأنها ستكون جليئة  
الشأن في التربية .

ويقول رفاة عن كتابه تلياك الذي ترجمه وهو في السودان : « إن  
تعريب تلياك ، بكل من في حاك . أو ليس إنه مشتمل على الحكايات  
النفائس ، وفي ممالك أوروبا وغيرها عليه مدار التعليم في المكاتب والمدارس ،  
فإنه دون كل كتاب ، مشحون بأركان الآداب ، ومشتمل على ما به كسب

---

(١) مباحج الألباب المصرية ص ٢٢٠ .

أخلاق النفوس الملكية ، وتدبير السياسات الملكية » (١) .

ومن هذه الأمثلة وغيرها مما مر بك ترى أن رفاة قد حمل لواء النهضة الجديدة في الأدب ، وأنه جدد في أغراضه ، كما جدد في أسلوبه وإن لم يتخلص جملة من كل تلك القيود القديمة ، والزخارف اللفظية . ورفاعة لم يكن ذلك الشاعر الفحل ، ولكنه كان أديباً سلمت له بعض الأبيات التي تدل على ذوق سليم ، وتدل على أنها تبشير الشعر الجديد .

ولم يكن رفاة يفتخر بالشعر ، ويعده من بضاعته الجيدة .

وما نظم القريض برأس مالي ولا سندي أراه ولا سنادي (١)

وإن برع في نظم الأناشيد الوطنية من مثل قوله :

|                       |                     |
|-----------------------|---------------------|
| يا حزبنا قم بنا نسودُ | فنحن في حربنا أسود  |
| عند اللقاء بأسنا شديد | هأمُ عدانا لنا حصيد |
| حامى حمى مصرنا سعيد   | في عصره مجدنا يعود  |
| يجنده المجند          | وسيفه المهند        |
| ونصره المؤيد          | وعزه المشيد         |
| في عصره مجدنا يعود    |                     |

---

(١) مراقع الافلاك ص ٢٤ .

(٢) مباحج الألباب ص ٢٦٩ .

### الطباعة والصحافة :

الكتب غذاء العقول ، وإذا لم يتيسر للعقل غذاؤه أجذب ، والأمة التي تجذب عقولها لا تعرف كيف تحيا حياة الأناسي ، وتكون أمة من سائمة .

ولا ريب أن الكتب تُيسّر ويسهل على الناس اقتناؤها والانتفاع بها ، والاستنارة بمصابيحها ، إذا كثرت وانتشرت ، وساعد أولو الأمر على إذاعة الثقافة . وقد كان القائمون على شئون مصر في مبدأ نهضتها من أولئك الذين ألهموا حب الخير ، ورزقوا العقل المفكر ، والنظر الثاقب ، فعملوا على نشر الطباعة في مصر .

ليست مطبعة بولاق أول مطبعة عربية في العالم ، ولكن أول مطبعة عربية ظهرت كانت في ( فانوا ) بإيطاليا ؛ حيث أمر بها البابا ( بوليوس الثاني ) وأخذت تعمل في سنة ١٥١٤ في عهد البابا ( ليون العاشر ) . وأول كتاب عربي طبع في هذه السنة هو كتاب ديني - كما هو المنتظر - ثم سفر الزبور سنة ١٥١٦ ، وبعد قليل طبع القرآن في البندقية ولكن الطبعة أحرقت خشية أن يؤثر على عقائد المسيحيين ، وطبع كتاب

القانون لابن سينا في روما سنة ١٥٩٣ في مجلد ضخيم . وتعددت المطابع العربية في أوروبا ، وطبعت فيها مئات من الكتب العربية وغيرها (١) .

أما الطباعة العربية في الشرق ، فأسبق الأمم إليها الدولة العثمانية ، وقد مربك كيف اضطر من أراد إدخال المطبعة الأولى لأخذ فتوى من علماء الدين ، وأول كتاب طبع بالعربية في الآستانة كان سنة ١٧٢٨ .

كانت للسوريين محاولات سابقة لهذا التاريخ ، إذ طبع الأنجيل في حلب بالعربية سنة ١٧٠٦ ، وأقدم مطبعة عربية في الشام هي مطبعة ( ماريوحنا ) الصايغ في ( الشوير ) للروم الملكانيين ، أنشئت سنة ١١٤٥ هـ ، ١٧٣٢ م . ثم مطبعة القديس ( جارجيوس ) للروم الأرثوذكس في بيروت سنة ١١٦٧ هـ ، ١٧٥٣ م . ولكن مطبوعات هاتين المطبعتين لم تتمتع بعض كتب الدين ، ولم يكن لهما أثر يذكر في نشر الثقافة العربية ، ولا في النهضة الحديثة .

وأهم مطبعة انبعث منها النور متدفقاً فياضاً يبسط الظلام الحالك المطبق على عقول الأمة العربية ، هي تلك المطبعة الضخمة التي أسست في بولاق سنة ١٨٢٢ ، وهي إلى اليوم تعد أكبر مطبعة عربية في العالم .

نعم ! إن مصر قد عرفت الطباعة المصرية قبل محمد علي ، لأن نابليون كان قد أحضر معه مطبعة عربية ، وحاول أن يصدر بها تلك

---

(١) راجع جرجي زيدان في كتاب آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٤٤ .

النشرة المعروفة ( بالتنبيه ) التي لم تصدر فعلاً<sup>(١)</sup> ، وإنما الذي صدر هو ( سلسلة التاريخ ) وكان يحررها السيد اسماعيل الحشاب ، وكانت سجلاً لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة ، بيد أن أثر مطبعة نابليون زال بخروج الحملة الفرنسية من مصر ، واشترى محمد علي مطبعتهم ، فكانت نواة مطبعة بولاق الشهيرة . أما مطابع تركيا فكانت أسبق إلى نشر الكتب الأدبية والعلمية من سواها ، فطبع هناك القاموس المحيط سنة ١٨١٤ ، وطبعت كافية ابن الحاجب سنة ١٨١٩ ، وجملة ما نشر من الكتب الأدبية واللغوية لا يزيد على أربعين كتاباً حتى سنة ١٨٣٠<sup>(٢)</sup> .

لم يكن اتجاه محمد علي أدبياً ، ولكن معظم اهتمامه كان بالعلوم والجيش والإدارة ، ولذلك كان نتاج مطبعة بولاق في أوائل أمرها عمياً بحتاً ، ومن أوائل الكتب التي طبعت بها قاموس طلياني-عربي ، وكتاب الأجرومية في النحو ، ورسالة الفنون الحربية مترجمة إلى التركية ، وكتاب صباغة الحرير من الإيطالية ثم سيرة الإسكندر الأكبر .

وفي الحق لم تخرج مطبعة بولاق شيئاً ذا قيمة من الكتب الأدبية القديمة إلا في عهد إسماعيل حينما أخذت النهضة الأدبية تشتد وتقوى ، على أن مطبوعات استامبول كانت في نمو واطراد ، ولا يزال لطابعاتها في آذاننا رنة حتى اليوم .

ومن أشهر المطابع التي كان لها أثر ملموس في النهضة الأدبية بالشرق العربي المطبعة الأمريكية ببيروت سنة ١٨٣٤ . ومطبعة الآباء اليسوعيين

---

(١) راجع عبد الرحمن الرافعي في تاريخ الحركة القومية الجزء الأول ص ١٤٥ والجزء الثاني ص ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ج ٣ ص ٥٣٨ .  
(٢) راجع مجلة الشرق ٣ ( ١٩٠٠ م ) .

بيروت كذلك سنة ١٨٤٨ . وتعد الأخيرة أكبر المطابع في سوريا ، وأعظمها إتقاناً ، وفيها حروف عربية ، وإفرنجية ، ويونانية ، وصرمانية ، وعبرية ، وأرمنية .

### الصحافة :

الصحافة من أسس النهضة الأدبية الحديثة ، وعامل من أهم العوامل في مقاومة اللغة العامية ، وانتشار اللغة الفصحى ، ومجال واسع لنشر الأبحاث الأدبية ، والعلمية ، والسياسية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، ولقد تدرجت في نموها من عصر محمد علي حتى اليوم .

أنشأ الفرنسيون إبان مقامهم في عهد نابليون صحيفتين فرنسيتين . العشار المصري « La Décade Egyptienne » وهي جريدة علمية اقتصادية تنشر فيها أبحاث الجمع العلمي ومناقشات أعضائه وتصدر كل عشرة أيام . وبريد مصر « Le courrier de L' Egypte » وهي الصحيفة الفرنسية الرسمية للحملة الفرنسية ، وتصدر كل أربعة أيام . وقد ذهبنا بانقضاء الحملة الفرنسية ، كما أنهم نشروا سلسلة تاريخية حررها السيد إسماعيل الخشاب .

وقد أشرنا إليها سابقاً . وقد ذهبت كذلك بانقضاء حملتهم .

كانت هذه محاولات بدائية في الصحافة ، فلما جاء محمد علي أصدر أول صحيفة عربية سنة ١٨٢٢ ، حين أصدر ( جرنال الحديو ) . وكان يطبع في مطبعة القلعة بالقاهرة ، ويصدر كل مرة في مائة نسخة باللغتين العربية والتركية ، متضمناً الأخبار الحكومية وبعض القصص من ألف ليلة



وليلة ، وكان يرسل إلى رجال الدولة الذين يهم الحاكم أن يقفوا منه على أحوال البلاد ، وظلت تصدر لمحمد علي وحده بعد أن ظهرت الوقائع المصرية . وكان الغرض من تزويده ببعض القصص جذب القراء إليه . ثم أنشأ في سنة ١٨٢٨ جريدة الوقائع المصرية ، وكانت تصدر أول أمرها بالتركية والعربية معاً ، وأخيراً اقتصرت على العربية ، ولا تزال تصدر حتى اليوم . ولم يكن صدورها في عهد محمد علي منتظماً ، وكان يشرف على تحريرها الشيخ العطار شيخ الأزهر ، وكان صديقاً للشيخ اسماعيل الحشاش محرر ( سلسلة التاريخ ) . وتكاد الوقائع تكون مقصورة على الأخبار الرسمية . وكان محمد علي شديد الاهتمام بالوقائع ، يود أن يراها في قوة تحريرها وحسن إخراجها ، وغزارة مادتها مثل تلك الجرائد التي كانت تأتيه من أوروبا ، وتقرأ له ، وقد أرسل ذات مرة يعنف المسئولين عن تحريرها ، لأنهم نشروا خبراً تافهاً لا يليق بمقام الجريدة الرسمية للدولة ، وجاء في كتابه : « لقد أخذنا العجب في درج مثل هذه الحوادث القبيحة ، فإذا علمت ذلك فعليكم من الآن فصاعداً أن تدرجوا الحوادث اللائقة بالنشر ، وتجنبوا نشر ما لا يليق نشره ، وأن تلاحظوا ذلك بكل تدقيق واهتمام ، لأنه من مقتضى ذمة خدمتكم ، ومطلوبي أن تكونوا بعدئذ على انتباه وبصيرة » (١) .

وقد حرص محمد علي على أن يرى مسودات الجريدة ، ويبيدي فيها رأيه قبل أن تنشر (٢) وبذا كان محمد علي أول صحفي بمصر ، وكانت مهمته أشبه بمهمة رئيس التحرير في الجرائد اليومية اليوم ، فكان يشير بالمقالات ،

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ في ١٤ من جمادى الآخرة ١٢٤٨ هـ دفتر ٨٤ معية سنبة .

(٢) راجع محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٩٩ في ١٩ من جمادى الآخرة ١٢٥١ هـ دفتر ٦٦ معية نوكي .

ويحذف ما لا يراه لائقاً بكرامة الصحيفة ولا يبخل عليها بمال أو رجال ؛  
ويأمر أن يلي أمر طبعها عمال مهرة لا تشوب كفايتهم شائبة .

وقد تعاقب على تحريرها منذ ذلك الوقت نخبة من كبار الأدباء  
منهم : مختار بك مدير المدارس في عهد محمد علي ، وبغوص بك موضع  
ثقته في المسائل العليا ، وأحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين صاحب  
السفينة ، والشيخ رفاعة الطهطاوي ، والشيخ محمد عبده والشيخ أحمد  
عبد الرحيم ، والشيخ عبد الكريم سلمان . وغيرهم .

وقد تعطلت الوقائع بعد محمد علي ما بين ١٨٤٩ - ١٨٦٣ ، ولم تصدر  
جريدة غيرها وذلك راجع إلى عزوف عباس وسعيد عن النهضة ووسائلها .  
ولكنها استأنفت حياتها في عهد اسماعيل .

### تعقيب :

كانت نهضة محمد علي كما رأينا من كل ما تقدم علمية حربية ، ولم  
يلتفت للأدب أدنى التفاتة ، وذلك لأنه لم يكن بحاجة للأدب كحاجته  
لجيش قوي يدعم به عرشه ، ويؤسس دولته ، ويدافع به عن نفسه . وكان  
كل شيء في مصر . وكل البعثات من طبية وهندسية وصناعية وغيرها  
تهدف إلى خدمة الجيش ، ورجال الجيش . ومع ذلك فقد كانت هذه  
النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التي ظهرت في عهد اسماعيل ؛  
فالمدارس التي فتحت في عهد محمد علي ، والكتب التي ترجمت ، والبعثات  
التي تزودت من علوم أوروبا ، واطلعت على حضارتها ، أسهمت كلها في  
النهضة التالية ، وساعدت على نجاحها ، فلم يكن كبار المفكرين في عهد

إسماعيل إلا شاباً في عهد محمد علي ، ولقد أفادوا مصر فيما بعد أكبر فائدة ، وفي طليعتهم رفاعة الطهطاوي ، ومحمد علي البقلي ، وإسماعيل الفلكي ، ومحمود الفلكي ، وعلي مبارك .

وتعلم هؤلاء في عصر محمد علي وقادوا الحركة الفكرية في عهد إسماعيل . ففضل هذا العصر على النهضة الأدبية من هذه الناحية أجل من أن ينكر ، على الرغم من أن اللغة الرسمية للدولة كانت التركية ، ولكن اللغة العربية أخذت منذ ذلك الحين تنمو وتشتد حتى استطاعت بعد زمن وجيز أن تقضي على التركية في الديوان ، ثم تصير لغة الأدب الحي الذي ينبض بالقوة ويعبر عن الحضارة الحديثة لكثرة ما ترجم إليها من آثار الغرب ، وكثرة ما أحيي من تراث العرب . والفضل في ذلك لهذه الأسس التي بنيت عليها نهضتنا الحديثة .

وعلى الرغم من مظاهر النهضة المختلفة ، فإن محمد علي لم يكن يقصد نفع مصر والمصريين ، وإنما كان يريد استغلالهم على أسوأ طريق . فحكمهم بالقهر ، وأطاح بالرءوس الكبيرة في البلاد ، وجمع كل عقود التملك ، ووزع الأرض الزراعية توزيعاً جديداً ، كان لأقاربه وأنصاره من غير المصريين . منها النصيب الأكبر ، ومن هنا جاء الإقطاع الحديث بشروطه وآثاره .

كما أنه جعل مصر مزرعة كبرى يجني وحده خيراتها ، وينفق من تلك الخيرات على الجيش الذي يعده لتمكين ملكه وتثبيت عرشه ، وتوسيع نفوذه .

وقد أخذ ما كان للمساجد من أموال ، وأخذ من أوقاف الأزهر ما لو

بقي له اليوم. لكان ذا شأن كبير في إصلاحه والنهوض به .

ولقد أساء محمد علي إلى المصريين وأذلمهم ، وصار يحبي منهم الأموال بالعسف ، ويسوقهم سوق الأنعام للجنديّة التي يحارب بها السلطان أو الوهابيين في نجد ، وفضل عليهم الأجانب الذين جلبهم لمعاونته في تدبير شئون البلاد ، وأوسع لهم في التجارة ، وزاد لهم في الامتياز متعدياً حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم لم يكن يملك قوت يومه ، ملكاً أو كالملك في بلاده ، يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، فصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرّمها ، وانقلب الوطني غريباً في داره غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان : ذل ضريته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريد من غير واقف عند أو مردود إلى شريعة <sup>(١)</sup> .

---

(١) مذكرات محمد عبده ص ٤٩ - ٥٤ .

### الأدب في عهد محمد علي :

لا نستطيع أن نقول إن الأدباء الذين ظهوروا في عهد محمد علي هم أثر النهضة العلمية في عصره ، ولكنهم ولا شك أفادوا منها ، مع أنهم من آثار العصر السابق . اطلعوا في عصر محمد علي على أشياء كثيرة لم يروها من قبل وأحاطت بهم نهضة شاملة ، ومع ذلك فقد كانوا مكبلين بقيود الألفاظ والزخارف في كتابتهم وشعرهم الا القليل . ومن هؤلاء :

#### ١ - الشيخ حسن العطار <sup>(١)</sup> :

من أسرة مغربية نزلت إلى القاهرة فولد بها سنة ١١٨٠ هـ ١٨٦٦ م ، وكان أبوه عطاراً ، فتبع أباه في تجارته أول الأمر ، ولكن الله قد أودع قلبه حب الأدب والعلم ، فلم يرض عليه والده بالمساعدة على تحصيلها ، وجد الولد ، وحصل منها الشيء الكثير ، ووعى ما حصل ، وتلمذ على

---

(١) راجع ترجمته في الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٤٨ ، وتاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢٢٢ وكنز الجواهر في تاريخ الأزهر لسمان رصد الزباني ص ١٣٨ ، وعمر محمد علي للرافعي ص ٤٧٢ .

أكابر علماء عصره كالشيخ الأمير والشيخ الصبان .

وفي أيامه دخل الفرنسيون . فاتصل بهم فأفاد منهم بعض الفنون الشائعة ببلادهم ؛ وعلم بعضهم اللغة العربية ، ثم ارتحل إلى الشام ، وسكن دمشق زمناً . وتجول في بلاد كثيرة يفيد ويستفيد ، ثم آب إلى مصر ، فأقر له علماءها بالفضل ، وعهد إليه بتحرير الوقائع المصرية ، ثم تولى التدريس بالأزهر ، ثم صار شيخاً له بعد الشيخ العروسي سنة ١٢٤٦ هـ . فأحسن إدارته . وظل في منصبه إلى أن توفي سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٥ م وكان محمد علي يحله ويكرمه لما امتاز به من التفوق في العلوم المصرية ، والأدب وفنونه . ويقول عنه تلميذه رفاة الطهطاوي في كتابه مباهج الألباب المصرية : « كان له مشاركة في كثير من هذه العلوم حتى في العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جلية على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبي الفداء سلطان حماة ... وله هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ على طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية » (١) . وقد خلف عدة مؤلفات في النحو والبيان والمنطق والطب . وله في البلاغة حاشية على السمرقندية . وله كتاب في الإنشاء والمراسلات طبع مراراً بمصر . وجمع ديوان ابن سهل الإسرائيلي وبوبه وكان على إلمام بعلم الفلك . وله رسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب ، وكان يحسن عمل المزاوِل الليلية والنهارية وقد اشتهر بالأدب والشعر .

وكان صديقاً للسيد إسماعيل الخشاب ، واستمرت صحبتها بعد عودة الشيخ العطار من الشام — حتى كانا يبيتان معاً — إلى أن مات الخشاب .

---

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٣٧٥ .

وللعطار ديوان شعر ، وروى له الجبرتي كثيراً ، وكان على صلة بكثير من أدباء عصره ، ومنهم المعلم بطرس كرامة اللبناني وقد قال فيه كرامة لما لقيه بمصر :

قد كنت أسمع عنك كل فادرة    حتى رأيتك يا سؤلي ويا أربي  
والله ما سمعتُ أذني بما نظرتُ    لديك عيناى من فضل ومن أدب

ومن نثر الشيخ العطار :

« أما بعد فإن أحسن وشمي رقته الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه  
الأكام ، عاطر سلام يفوح بعبير المحبة نفحه ، ويشرق في سماء الطروس  
صبحه .

سلام كزهر الروض أو نفحة الصبا    أو الراح تُجلى في يد الرشا الألمي  
سلام عاطر الأردن . تحمله الصبا سارية على الرند والبان . الى مقام  
حضرة المخلص الوداد . الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد . صاحب الأخلاق  
المحمدة ، حلية الزمان الذي حلّى معصمه وجيده ... إلخ » .

ومن شعره قوله يتغزل :

ألزمت نفسي الصبرَ فيك تأسيا    والصبرُ أصعبُ ما يقاد نجيبه  
وبليت منك بكل لاح لو تبدى    نحو طود أثقلته كروبه  
أفلا رثيت لعاشق لعبت به    أيدي المنون ونازعته خطوبه

انت النعيمُ له ، ومن عجب تُعذِّبُه وتمرضه ، وأنت طيبه

وهو شعر إذا قيس بعصره دل على روح اديب ، وذوق شاعر ، كما ان النثر ، وإن كان مسجوعاً ، إلا انه غير مثقل بالحلى اللفظية ، مما يدل على بعض التطور في كل من النثر والشعر . نعم إن في النثر تكلفاً وتعهداً للسمع فإذا كان السلام عاطر الأردن ، فلا بد ان تحمله الصبا سارية على الرند والبان ، إلى غير ذلك مما يذكرنا بسجع القاضي الفاضل وتذليل المعاني للألفاظ ، وخفاء شعور الكاتب والشاعر تحت هذه الزخارف الكثيرة على ان الشيخ العطار مع هذا من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجة ، وأقلهم تكلفاً .

## ٢ - الشيخ حسن قويدر :

تلميذ العطار ، ولد بمصر ، ١٢٠٤ هـ - ١٧٨٩ م ، وهو مغربي الأصل كأستاذه ، ونزح أهله الى بلدة الخليل بالشام ، وجاء والده الى القاهرة وأقام بها ، فولد فيها المترجم ، ونال شهرة عظيمة في العلوم ، وكان مع ذلك يشتغل بالتجارة ، وصارت له مع اهل الشام صلات تجارية ، ومن تأليفه شرحه المطول على منظومة الشيخ العطار في النحو ، وكان قد قرظها من قبل بقوله :

منظومة الفاضل العطار قد عبقّت منها القلوبُ برّيا نكهة عطره

لوم تكن روضة في النحو يانعة لما جنى الفكرُ منها هذه الثمرة

وله كتاب إنشاء ومراسلات ، وكتاب نيل الأرب في مثلثات العرب ، وهو



مزدوجات ضمنها الألفاظ المثلثة الحركات ، المختلفات المعاني كمثلثات قطرب ،  
وقد طبع بمصر ، ونقله الى الإيطالية المستشرق ( إريك فيتو ) قنصل إيطاليا  
ببيروت وهو أرجوزة طويلة مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن      لكن له ظن بمولاه حسن  
فكم لمولاه عليه من منن      بالعدّ لا تدخل تحت الحصر

ويقول في المنظومة :

جمعت فيها الكلمات اللاتي      تكون في الشكل مثلثات  
أبدأ بالفتوح ثم آتي      بالضم لكن بعد ذكر الكسر  
وهناك مثلاً من مثلثاته :

أجمةُ الحلفاء هي الأباء      والامتناع من كذا إباء  
والغشيان يا أخي أباء      وهو كراهة الطعام فادر  
وهي ألفان ومائتان وعشرة أبيات ، ومن مطبوعة جمعية المعارف .

وكان مشهوراً بالتأريخ الشعري ، وقد أرخ وفاته وهو مريض سنة ١٢٦٢ هـ  
بقوله : « رحمة الله على حسن قويدر » ومما يروى من شعره قوله :

يا طالب النصح خذ مني محبرة      تلقى إليها على الرغم المقاليد  
عروسة من بنات الفكر قد كُسيّت      ملاحه ، ولها في الخد توريد

كأنها وهي بالأمثال ناطقة طير له في حمى القلب تغريد  
واحذر من الناس لا تركز إلى أحد فالخل في مثل هذا العصر مفقود  
بواطن الناس في ذا الدهر قد فسدت فالشر طبع لهم والخير تقليد

وله قصيدة تسمى المزدوجة جاء منها ، وهي طويلة :

رأيت بداراً فوق غُصْنٍ مائس يخطر في خضر من الملابس  
وبسحر العقل بطرف ناعس وهو بشوش الوجه غير عابس  
كأن ماء الحسن منه يجري

خاطرتُ لما انت رأيتَه خطر وحر فكري في بها ذاك الحور  
وقلت لا والله ما هذا بشر ومن بشمس قاسه او القمر  
فليس عندي بالقياس يدري

فلفظه العذب لقلبي قوتُ كأنه الدر او الياقوت  
وسحره الى النهى مثبت يمجز عن امثاله هاروتُ  
وهو الحلال من صنوف السحر

عقرب مسك فوق خده التوى وجمرة الخد بها القلب اکتوى  
جمال هذا الظبي قد هد القوى وليس لي غير الوصال من دوا

فاسمح به يا بدر واكسب أجري

وهو شعر كما ترى ، قريب المعاني جداً ، ليس فيه من الخيال شيء ،  
وهو وإن خلا من المحسنات البديعة إلا أنه غير متين النسيج ، بل هو  
قريب من الكلام المعتاد ، وكل تشبيهاته قديمة .

وقد رثاه محمود صفوت الساعاتي بقصيدة مطلعها :  
بكت عيون العلا وانحطت الرتبُ ومزقت شملها من حزنها الكتب

٣ - السيد علي الدرويش :

توفي سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م .

وهو السيد علي الدرويش بن إبراهيم المصري ، ولد بالقاهرة سنة ١٢١١ هـ ،  
ونشأ بها وأغرم بالأدب ، وحفظ كثيراً من الشعر ، وأصاب شهرة كبيرة  
في زمانه ، وله عدد وفير من المقطوعات الغنائية ، واتصل بأمرأه أسرة  
محمد علي ، وعرف بشاعر عباس الأول . ولم يكن يتكسب بالشعر ، لأن  
الله رزقه حظاً من الثروة ، فاكتفى بما لديه .

وله من المؤلفات الدرّج والدرك ، وضعه في مدح من اشتهر في أيامه  
بحميد المزايا وكريم الصفات ، وكتاب « محاسن الميل لصور الخيل » وضعه  
بأمر عباس الأول ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها ، وسفينة الأدب .

وشعره يمثل لنا عصره من حيث الولوع بالمحسنات البديعة ، يحشرها  
حشراً ، ويتكلفها تكلفاً ، ومعانيه وأخيلته لا تدل على شاعرية ممتازة إذا

قيست بشعر عصرنا ، ولكنه بالنسبة لعصره كان طليعة الشعراء . وقد  
اشتهر بالتواريخ الشعرية ، وله ديوان طبعه تلميذه مصطفى سلامة النجاري  
في ٤٨٢ صفحة ، وقد جمع كل ما قاله السيد علي الدرويش من شعر ونثر .

ومن نثره قوله في مقامة الفضيلة والرزيلة :

« وفكك الله لما يرضاه ، وعصمك في موجب الذم ، ومن لا يتحاشاه ،  
إن الفضيلة والرزيلة صفتان متضادتان ، ونوع الإنسان مجبول على الميل  
للأولى ، والفرار من الأخرى على حسب آراء العباد ، وعوائد البلاد .  
فربما كانت الفضيلة عند قوم رذيلة عند آخرين ، وكانت الرذيلة عند أمم  
فضيلة عند غيرهم من المتأخرين ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، مع  
تفاوت في طبائعهم ، وأشكالهم وصنائعهم ، فمنهم ذوو الطبع السليم ، ومنهم  
الذميم ، ولا سبيل إلى ترغيب الأول ليجتهد في الازدياد ، وترهيب الثاني  
لينطبع على أن يتحاشى بالاعتقاد ، لا باللسان ، الآتي بسحر البيان ، فقد  
جاء في الحديث : « إن إيمان المرء ليبرو إذا مدح ، وربما يصحح الجسم  
إذا جرح ، فمن ذلك كان المدح على المحاسن تذكيراً ، والذم على القبايح تنفيراً ،  
وكلاهما مطلوب شرعاً ، ومرغوب فرعاً ، ليسقط العاقل ، ويقبل الكمال  
الكامل » .

ومن شعره قطعة قالها في منفلوط ( وهي من قرى الصعيد ) :

|                        |                        |
|------------------------|------------------------|
| سعيد من نأى عنه الصعيد | صعود ما لطالعه صعود    |
| وردنا منفلوط فلا سقاما | وردناها فأظمانا الورود |
| فإني قد بُعثت لقوم عاد | كأنني صالح وم ثمود     |

أراهم ينظرون إليّ شزراً كعيسى حين تنظره اليهود  
فما لي منهم خل ودود ولي من طبعهم خل ودود  
ويقول في الهرمين :

انظر إلى الهرمين واعلم أنني فيما أراء منها مبهوت  
رسخا على صدر الزمان وقلبه لم ينهض حتى الزمان يموت

ومن شعره يصف الجراد الذي اجتاح مصر سنة ١٢٥٩ هـ :

فترى الجراد على الجريد د مكلا مثل الثمر  
رقش تراها إنها نار تطفى بالشجر  
لواحة للأرض لا تبقي النبات ولا تذر  
وصغيرة في حجمها لكنها إحدى الكبر  
الأرض كانت جنة فالآن ترمي بالشرر  
نزل الجراد بها كما نزل القضاء أو القدر



#### ٤ - المعلم بطرس كرامة :

وهو من شعراء سوريا في عهد محمد علي ، ولد في حمص سنة ١١٨٨ هـ  
١٧٧٤ م ، وجاء لبنان واتصل بالأمير بشير الشهابي ، وتوفي سنة ١٢٦٨ هـ  
١٨٥١ م ، ومن شعره يصف يلبوع الصفا ، وقد مدّ ( بيت الدين )  
مقر الأمير بشير بهاء هذا الينبوع :

صاح قد وافى الصفا يروي الظما      شراب كوثر العس ( كذا )  
وأفاض الشهد في روض الحمى      لجلا الغم وُبره الأنفس



حبذا الفؤار عنه حين راق      فأرانا ماؤه ذوب اللجين  
نزه القلب عن الهم ، وراق      بسنا صافي صفاه كل عين  
نثره الدر بفيض واندفاق      وسقى الورد أهنأ الأطيين  
قد جرى عذبا فأغنى الندما      بزلال من رحيق الأكوس

وعلى الأغصان أبقى النعما فزهت مثل ندامى العُرس<sup>(١)</sup>

وقال يصف باقة زهر اهداها له الأمير بشير .

وباقة زهر من مليكٍ مُنحتها معطرة الأرواح مثل ثنائيه  
فابيضها يحكي جميع خصاله وأصفرها يحكي نضار عطائه  
وأزرقها عين تشاهد فضله وأحمرها يحكي دماء عدائه

وقال يهنيء إبراهيم باشا بفتح عكا :

فتح به الفتحُ القريب موكد وكواكب النصر المبين توقدُ  
ما المجد إلا بالحسام ولم يدم شرف الفقى ما لم يصنعه مهندُ  
ما يوم عكة لم تذع ذكراً لما غبر الزمان به وما يتجدد  
يوم به الحرب العوان قضرمت بقنابل مثل الصواعق تُرعد  
رُجت بشهب كراتها الأسوار من لهب فدكُ الشامخ المتوطد

---

(١) قد نظم الشاعر هذه القصيدة على منوال الموشح الأندلسي المشهور لابن سهل الأشبيلي ومطلعه .

جاءك الغيث إذا الغيث ممي يا زمان الوصل بالأندلس  
لم يكن وصلك إلا حلاً بالكرى أو خلسة المختلس

ورمت بصدر بروجها قلل الفضا      تلك المدافع فهي طوراً تسجد  
فتخال' والهيجاء تلهب حولها      نار الجحيم يحوها تتصعد'  
سبقت إليها الصبح أسد' عرينة      وبغير صبح حراهم لم يهتدوا  
من كل' أروع قد تعوّد في الوغى      أخذ الكفاة وما يقول السيّد'  
وتراه يبسم' للكفاح كأنما      ورد الحمام لديه نعم المورد  
وثبوا على الأسوار ثم تسنموا لا      أبراج' والسيف' الصقيل' مجرد  
وتجلد القوم' العداة وإنما      لم يُجدّم عند العراك تجلد'

#### ٥ - الشيخ ناصيف اليازجي :

هو الشيخ ناصيف بن عبد الله اليازجي ، ولد بكفرشيا ببلبنان سنة ١٨٠٠ م ، واشتغل أول أمره بالعلوم والطب ؛ ولكن الأدب غلب عليه واتصل بالأمير بشير الشهابي ، فاتخذته كاتب سره ، ولما دالت دولة الأمير بشير انقطع للتأليف ومراسلة الأدباء ، ونظم الشعر . وقد خلف عدّة مؤلفات ، من أشهرها .

١ - مقاماته الستون المعروفة يجمع البحرين . عارض فيها مقامات الحريري ، ويقول في إحداها المعروفة بالمقامة الخرجية :

« قال سهيل بن عباد : دخلت بلاد العرب في التماس بعض الأدب ،



فقصدت نادي الأوس والحزرج ، لأتفرج وأتخرج ، وأخذ من ألسنتهم بعض المنهج ، فلما صرت في بْهرة <sup>(١)</sup> النادي ، أخذ بمجامع فؤادي ، فجلست بين القوم ساعة ، وأنا أحرق إلى الجماعة وإذا شيخنا ميمون بن خزام ، قد تصدر في ذلك المقام ، وهو يقول : من أراد أن يعرف جهينة <sup>(٢)</sup> أو شاعر مُزينة <sup>(٣)</sup> فليحضر لسمع ويرى ، فإن كل الصيد في جوف الفرا <sup>(٤)</sup> ، فعمد إليه رجل وقال : أطرق كرى ، أن النعامة في القرى <sup>(٥)</sup> إلخ .

ومن نثره المرسل قوله :

« وكان الملوك ومن يليهم في الأيام القديمة يعرفون كثيراً من العلوم ويتمكنون منها ، حتى كان منهم من يخطئ العلماء في بعض المسائل ، ولذلك كانوا يعتنون بشأن العلم والعلماء ويعرفون حقهم . وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً ، ويفمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والإحسان ، فكان الناس يدخلون فيها أفواجا ، ويمكفون على تحصيل ما يستطيعون من العلوم ، حتى إذا استتم الرجل علمه خرج إلى منصب ، أو وظيفة عند السلطان ، متمتعاً ببسطة الجاه والمال ، ومستغنياً

---

(١) بهرة النادي : وسطه .

(٢) جهينة : قبيلة قتل رجل منها قتيلاً ، وممر بامراته وهي تبحث عنه فقال :

تناشد كل حي عن حصين      وعند جهينة الخبر البقي

(٣) هو زهير بن أبي سلمى .

(٤) الفرا : حمار الوحش ، ومن صاده أغناه عن كل سيد سواء يضرب يده الكلمة المثل .

(٥) الكرى : الكرودان : اخفض رأسك ولا تتكبر فإن النعامة وهي أكبر منك قد صيدت وحبست في القرى .

عن جميع المهات والأشغال ، فيتفرغ للتوسع في العلوم ، وإنشاء المصنفات فيها ، وبذلك يكون مثالا لغيره في طلب العلم والتجرد له .

(٢) وله كتاب فصل الخطاب في الصرف والنحو ، وله شرح على ديوان المتنبي ، أمه ابنه الشيخ ابراهيم ، واسمه العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب .

(٣) وله ديوان شعر في ثلاثة أجزاء : أحدها نفحة ' الريحان ، وثانيها فاكهة الندماء ، وثالثها ثالث القمرين .

وشعره يجمع بين الرقة والمتانة ، ومن شعره في بخيل :

قد قال قوم إن خبزك حامض والبعض أثبت بالحلاوة حكه<sup>(١)</sup>  
كذب الجميع بزعمهم في طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمه ؟

وقال في الزهر :

مر النسيم على الرياض مسلماً سَحَرًا فردّ هزارها مترنماً  
أحنى إليه الزهر مَفْرِقَ رأسه أدباً ، ولو ملك الكلام تكلم  
يا حبذا ماء الفدير وشمسه تعطيه ديناراً فيقلب درهما

---

(١) أل لا تدخل على بعض في صحيح اللغة ، وعجيب أن يفوت ذلك على الشيخ  
فصيف وهو العالم اللغوي .

وقال يرثي صديقاً :

|                                 |                              |
|---------------------------------|------------------------------|
| قد كنت أنتظر البشرية بروثه      | فجاءني غيرَ ما قد كنت أنتظر  |
| ان كان قد فات شهد الوصل منه فقد | رضيت بالصبر لكن كيف أصطبر    |
| أحبُّ شيءٍ لعيني حين أذكره      | دمع وأطيبُ شيءٍ عندها السهرُ |
| هذا الصديق الذي كانت مودته      | كالكوثر العذب لا يفتالها كدر |
| لا غرو أن أحزن الزوراء مصرعه    | فحزنه فوق لبنان له قدر       |

وقال يمدح محمد علي ( باشا ) ويهنئه بفتح عكا :

|                            |                                |
|----------------------------|--------------------------------|
| يا فاتح القطرين أنت محمد   | هل دون فتحك في البلاد مُسدّد ؟ |
| أنت العملي كما يقال ونسله  | منك المعالي لم تزل تتولّد      |
| لما بعثت من الكنانة سهمها  | خلفت عليه أنه لا يُصرد         |
| ما زالت النار التي رقدت له | برداً عليه وفاره لا تبرد       |
| من مثل ابراهيم إلا سيفه    | يوم الكرّية والقنا المتأوّد    |



|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| ولقد ضريت حصون عكاه التي | كانت لهيبتها الفرائص ترعد |
| الله أكبر ليس دونك قلعة  | تحمي ولا حصن أشم بمرد     |

وتحصنت منك الأسود فلا تلم قوماً بإغلاق الحصون استنجدوا  
أسألت (عبد الله<sup>(١)</sup>) أين قلاعة ورجاله وفؤاده المتوقد ؟  
ومما كنا نحفظه في الصغر للشيخ ناصيف البازجي قوله في عروس  
الزهر ( الوردة ) :

هذي عروس الزهر نقطها الندى بالدر فابتسمت ونادت معبداً  
لما تفتق سترها عن رأسها عبث الحياء بخدها فتوردا  
فتح البنفسج مقلةً مكحولة غمز الهزار بها فقام وغردا  
وتبرجت ورق الحمam بطوقها لما رأى التاج يعلو الهدهدا  
بلغ الأزاهر أن ورد جناها ملك الزهور فقابلته سجدا  
فرنا الشقيق بأعين محمرة غضباً وأبدى منه قلباً أسودا  
بسط الغدير الماء حتى . . .ه . . . برد النسائم قارساً فتجمدا  
ورأى النبات على جوانب أرضه مهداً رطيباً ليناً فتوسدا  
يا صاحبي تعجبا للابس قد حاكها من لم يد لها يدا  
كل الثياب يحول لون صباغها وصباغ هذي حين طال تجددا

---

(١) يقصد عبد الله الجزار والي عكا حينذاك .

وفي هذه القصيدة خيال جميل ، وسهولة لفظ ، ورقة وصف تجعل  
مثل ناصيف اليازجي يقف وحده بين شعراء عصره . كما يقف وحده بين  
كتاب جيله لمتانة عبارته وحسن صياغته ولأنه ترسل في بعض كتاباته  
على خلاف المعهود في زمنه .

ومن جميل شعره الذي يدل على رقة حس ، ودمائة عاطفة قوله  
يرثي ولده حبيباً :

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي أسفاً عليه ويا دموع أجبي  
ربيتك للبين حتى جاءه في 'جُنج ليل خاطفاً كالذئب  
يا أيها الأم الحزينة أجلي صبراً فإن الصبر خير طبيب  
لا تخلمي ثوب الحداد ولازمي ندباً عليه يليق بالمحسوب  
إني وقفت على جوانب قبره أسقي ثراه بدمعي المصبوب  
ولقد كتبت له على صفحاته يالوعتي من ذلك المكتوب  
لك يا ضريح كرامة ومحبة عندي لأنك قد حويت حبيبي

الشهاب الألوسي :

هو أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسي ، ولد ببغداد سنة ١٢١٧ هـ  
١٨٠٢ م وتوفي سنة ١١٧٠ هـ ١٨٥٤ م .

وكان إماماً في التفسير والإفتاء ، وعالمًا ضليعاً باللغة ، وكاتباً بليغاً  
وخطيباً مصقلاً . وقد حظي بشهرة عظيمة في عصره ، وصار مقصد  
الأدباء والمتأدبين ، وطلاب التفسير والفقه

وقد كثر حاسدوه وشائثوه ببغداد ، واضطهده الوالي التركي ، فقام  
برحلة إلى الآستانة يبتث شكواه لأولي الأمر ، ويعرض عليهم تفسيره  
المشهور ( روح المعاني ) ، ولقي في رحلته من الإكرام ما أنساه غلظة  
الوالي ، وسجل رحلته بعد عودته لبغداد في ثلاثة كتب .

وكان سريع الخاطر ، منطلق الذهن في الكتابة والتحرير ، وقيل إن  
أقل ما كان يكتبه في الليلة من مؤلفاته ورقتان كبيرتان ، وله عدة كتب  
في التفسير والفقه والمنطق والأدب واللغة ، ومن أشهرها :

١ - روح المعاني في التفسير وهو تسعة أجزاء ويعد خير كتبه ومن  
أحسن التفاسير المتداولة ، وقد طبع مرة على نفقة ولده السيد نعمان خير  
الدين بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠١ هـ .

٢ - شرح السلم في المنطق

٣ - كشف الطرة عن الغرة ، وهو شرح على درة الفواص للحريري .

٤ - حاشية على شرح قطر الندى لابن هشام .

٥ - وله كتاب في المقامات طبع في كربلاء . ومن نثره يصف  
القسطنطينية .

« بلدة موفقة الأرجاء رائعة الأنحاء ، ذات قصور تضيق عن تصورها

سعة الأذهان ، وتتجاذب الحسن هي وقصور الجنان ، وربة رياض أريضة ،  
وأهوية صحيحة مريضة ، وقد تغنت أطيافها فتايلت طرباً أشجارها ،  
وبكت أمطارها فتضاحكت أزهارها ، وطاب نسيمها ، فصح مزاج  
إقليمها ولبتك رأيت ما فيها من الرياض الأنيقة ، والأشجار المتهدلة  
الوريقة ، وقد سافت إليها أرواح الجنائب ، زقاق خمر السحائب ، فسقت  
مروجها مدام الطل ، فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنجل فلما رويت  
من الصهباء أشجارها رنحها مع النسيات المسكية خمارها ، فتدانت ولا  
تداني الحبين ، وتماثقت ، ولا تماثقت العاشقين ، يلوح من خلالها شقيق ، كأنه  
جمرات من آثار حريق ، ويتخللها بهر يبهز ناظره .

وكان النرجس الفض بها أعين العين وما فيهن غمض .

ومن نثره قوله يحذر أولاده من الدجاجة وأبالسة التضليل :

يا بني ! بعض الناس ذئاب ، عليهم من جلود الشاة ثياب . فلا  
تخدعوا بمتاوت تغنجت كاهلوك كلمته ، ولانت كالصلوك عريكته ، وولع  
الذبول بقامته فتناطحت تفاحة كتفه ورمانة وامته ، وربما لزع ذقنه  
بصدره . وأصاخ بسمعه نحوه بسرّه ، وحمل سبعة من ذوات الأذنان  
وجعلها شبكة ، وأعمل فيها سبائته تنقر حباتها كما تنقر الحب  
الدبكة .

قريب الخطو تحسبه هون وليس مقيداً يمشي بقيد

فوأبي ! لقد رأيت في هؤلاء المتأوتين من هو أمره من أبي مرة وأضر منه  
بألف مرة .

وقد جربتهم فرأيت منهم خبائث بالمهين تستجير (١)

ومن شعره قوله في العراق :

أهيم بآثار العراق وذكره  
وتغدو عيوني من مسرتها عبرى  
وألم أخفاقاً وطئن ترابه  
وأكل أجفاناً بتربته العطرى  
وأسهر أرعى في الدياجي كواكباً  
تمر إذا سارت على ساكني الزؤرا  
وأنشق ربح الشرق عند هبوبها  
أداوي بها يامي مهجتي الحرا

ومنه قوله :

وإذا الفتى بلغ السماك بفضل  
كانت كأعداد النجوم عداه  
ورمونه عن حسد بكل كريمة  
لكنهم لا ينقصون علاه

ومن المعاصرين لأبي الثناء الألوسي الشاعر الأخرس البغدادي ، وقد  
اشتهر بشعره التأثر على الأوضاع الفاسدة ببغداد ، وهناك مقطوعة قصيرة  
قالها حوالي سنة ١٨٥٣ يصور العراق بأنه صار مورداً عذباً للكلاب ،  
بينما تزداد الأسود عن نميره ، ولم يعد يجد الأحرار فيه مؤثلاً . بل ضاع  
بكل حر أبي ، وتحكم فيه الأوغاد والطفام .

---

(١) نجد نماذج من نثره في كتابه أعلام العراق لحمد بهجة الأثري ص ٢٤ وما بعدها .



ودهر أعاني كل يوم خطوبه      وذلك دأبي يا أميم ودابه  
 مسوق الى ذي اللب في الناس رزوه      ووقف على الحر الكريم مصابه  
 وحسبك مني صبر أروع ماجد      بمستوطن ضاقت بمثلي رحابه  
 تزداد عن الماء النмир أسوده      وقد تلغ العذب الفرات كلابه  
 وأعظم بها دهباء وهي عظيمة      اذا اكتفت الضرغام بالذل غابه  
 متى ينجلي هذا الظلام الذي أرى      ويكشف عن وجه الصباح نقابه ؟  
 وتلع بعد اليأس بارقة المنى      ويصدق من وعد الرجاء كذابه ؟  
 ومن لي بدهر لا يزال محاربي      تقل مواضيه وتغبو حرابه  
 عقور على شلوى يعض بنابه      وتعدو علينا بالموادي ذنابه (١)

#### تعقيب :

ذكرنا آنفاً أن هذا الأدب ولبد العصر السابق ، وأنه لم يتأثر أدنو  
 تأثر بالحركة العلمية التي حمل محمد علي لواءها في مصر ، كما رفع رجاله  
 الإرساليات التبشيرية هذا اللواء في بعض بلاد الشام ؛ لأن هذه الحركات

---

(١) مجموعة الأخرس ص ٨٨ - ٩٠ والديوان ص ٥٢ - ٥٤ .

فضلاً عن أنها كانت في بدء نشأتها ، بحيث لم يستفد بها هؤلاء الرجال الذين ترجمنا لهم ، والذين هم خير من أنجب عصرهم ، فإن هذه الحركات كانت عملية لا تعنى بالأدب إلا القليل .

والنماذج التي أوردناها هؤلاء الأدباء من شعر ونثر تفصح عن تعلق أكثرهم بتلك الحلى المتكلفة ، والزخارف اللفظية ، والمعنوية ، التي تضحي بالفكرة في سبيل المحسن المقصود ، والفكرة في ذاتها ضحلة ، والخيال يكاد معدوماً ، وما بها من معنى فهو مأخوذ من السابقين ، وليته ظهر واضحاً كما ظهر عند المتقدمين من الشعراء ولكنه توارى تحت ستار كثيف من المحسنات الثقيلة ، والنسج ضعيف إلا القليل .

وأما الأغراض فهي تلك المقاصد التقليدية التي سار عليها الأدباء من قديم ، ولم يظهر فيما رأينا أية بادرة للروح القومية ويقظة الشعوب ، والأغراض العامة ، وإفصاح الشاعر عما يجيش في نفسه هو من حزن وألم ، وفرح ولذة مما يلاقيه في الحياة ، بحيث يبدو مستقلاً في شخصيته عن أمير يمدح ، أو عظيم يرثى . وربما كان عند بعض شعراء الشام أو العراق في ذلك الوقت - كما رأيت - كلف بالطبيعة ووصفها ؛ لأن الشاعر الحساس لا يملك أن يغمض عينيه مهما كانت من الضعف ، أو ألا ينجذب ذوقه مهما كان عليه من المرض ، أمام هذه الطبيعة الفيضة بالفتن والمهاسن في بلاد الشام ، والطبيعة ثمة تغري على القول :

تُبدل كل آونة لبوساً      خيال المبقرى به يضل

بيد ان وصف الطبيعة ، وإن دل على حس مرهف ، وتأثر بالجمال ،

فإن الصياغة والمعاني تثن من الضعف والركه ولم يسلم لهم إلا القليل مما  
تبدو عليه آثار العافية والصحة والجمال .

- ٥ -

### التأليف في عصر محمد علي :

رأينا عند الكلام على الترجمة ، أن النهضة الحديثة ابتدأت ، والبلاد  
في فقر عقلي شنيع ، وظلام مطبق داس ، وليس ثمة إلا بصيص ضئيل  
من النور يشع من الأزهر ، بيد أن أهله عكفوا على كتب الأقدمين  
يدرسونها بطريقتهم العقيمة ، ولم يكونوا على علم بما وصلت إليه أوربا من  
علم وحضارة ، حتى بعد أن جاء نابليون ، ومعه العلماء الأفذاذ والباحثون  
العظام ، بل ظل الأزهر كما هو غارقاً في أحلامه القديمة ، وإن اعتمد  
عليه محمد علي في اختيار أعضاء البعثات منه أول الأمر ، وأخذت  
النهضة تسير في طريق مختلفة عن طريق الأزهر ، ولم يشأ محمد علي أن  
يغير من نظم الأزهر شيئاً بحيث توافق مقتضيات العصر ، وحاجات  
النهوض ، بل أنشأ نظاماً علمياً جديداً هو ذلك النظام المدني في التعليم  
الذي نجني ثمرته اليوم ، وذلك أن تقيير الأزهر ، وتحويله الى النظام  
المدني كان عملاً شاقاً ، وفيه قضاء على ما للأزهر من سمعة دينية في نفوس  
المسلمين في كافة الأقطار ، ثم فيه تحد للشعور الديني الذي كان مسيطراً  
على أذهان الناس في الشرق حينذاك .

ولم ير محمد علي بدأ من الاستعانة بعلماء الأزهر وكتب الأزهر في

مدارسه الحديثة ، إذ لم يكن هناك علماء في غير الأزهر يصلحون لتدريس اللغة والدين ، ولم تؤلف فيها كتب على النهج الحديث ، بل كانت الكتب الأزهرية - على ما بها من غموض ، ومع أنها في مستوى أرقى من مستوى المدارس الحديثة - هي الشيء الوحيد في هذا الميدان ، ولذلك اضطرت حكومة محمد علي أن تقدم الأجرومية والسنوسية ، والألفية ، والشيخ خالد وغيرها من الكتب الى مطبعة بولاق ، فطبعت منها لأول مرة في مصر آلافاً من النسخ نشرتها في مدارسها الحديثة ، وفي الأزهر نفسه .

ولم يكن في هذه الكتب ما يشوق التلميذ أو يحجب القراءة اليه أو يعاونه على تفتق ذهنه ، واستكمال عدته للتعليم الثانوي ، لأنها ألفت في عصور ضعف اللغة ، وفيها أمثلة بعيدة كل البعد عن بيئة التلميذ وحياته ؛ وطريقة تأليفها عقيمة ، إذ لا تتدرج مع معلومات التلميذ ، وانما تفرض فيه العلم من أول سطر ، وتعرض أمامه مشكلات في الإعراب والعقائد يخالها طلاس ، ويتبرم بها ، ويكاد يئأس . كل هذا في عصر كان الكتاب فيه هو كل شيء أمام التلميذ ، وليس له الا ان يستظهره ، فحفظ كتب الدين واللغة ، وأعدته الطريقة فاستظهر كتب الحساب والهندسة وغيرها من الكتب المعروفة ، استعداداً لاجتياز الامتحان .

ولم يكن المدرسون وخدمهم هم الذين استعارتهم مدارس محمد علي من الأزهر ، بل كان ثمة طائفة أخرى ، اقتضتها طريقة التدريس على يد المترجمين التي ذكرناها آنفاً (١) ، هذه الطائفة هم المصححون الذين يصلحون

---

(١) راجع ص ٢١ من هذا الكتاب .

الأخطاء النحوية والأساليب في الكتب التي تنقل إلى اللغة العربية . ولم يكن هذا العمل سهلاً هيناً ، فكثير من المترجمين ، وبخاصة في السنين الأولى من إنشاء المدارس ، كانوا من السوريين ، أو غيرهم من المتمصرين كالأرمن والمغاربة ، ولا ريب أن لفهم كانت على شيء كثير من الضعف ، فقلما وثق بكتاباتهم و ترجمتهم ولا سيما في مواد لم يدرسوها من قبل . هذا إلى أن العلوم الحديثة كانت تنقل لأول مرة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية ، وقد هجر الأزهر من زمن بعيد دراسة هذه المواد ، فاضطروا إلى مراجعة الكتب القديمة في الحساب والفلك والهندسة والطب ، وغيرها من التي ترجمت أو ألفت في العصر العباسي ، وذلك لأن مهمتهم لم تكن قاصرة على تصحيح العبارة اللغوية ، بل تعدتها إلى اختيار الكلمات الفنية المناسبة .

وقد أفادت اللغة العربية من عملهم هذا فائدة جليلة وحين أعجزتهم الترجمة ، ولم يهتدوا إلى مقابل للكلمة الأجنبية في العربية عمدوا إلى تعريبها ، وتركوها كما هي مع تحريف يسير يناسب اللسان العربي ، أو بدون تحريف ، وبذلك ازدادت ثروة اللغة العربية ، واتسع أمامها المجال لدراسة المواد الحديثة وتعريبها والتأليف فيها . وقد ألفت بعضهم في ذلك كتباً تعين المترجمين والمؤلفين مثل الشيخ محمد عمر التونسي في كتابه ( الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية ) .

كان لابد لمصر في أول نهضتها من الاعتماد على هذا القبس الضئيل الذي يشع من الأزهر ، ولقد رأينا إلى أي حد كان هذا الاعتماد ، ولكن حين استطاع نظام محمد علي أن يقف على قدميه وبوأي ثمرته ، ويتخرج في مدرسة الهندسة والطب وغيرها شباب جمعوا بين الثقافتين

حاول محمد علي أن يتخلص من تأثير الازهر على نظامه ، ورأينا في أخريات عهده محاولة لتأليف كتب في اللغة والدين على طريقة حديثة ، وهذه الكتب وإن لم تبلغ مستوى الكتب الازهرية في الجودة بحيث يمكنها التغلب عليها إلا أنها كانت نزعة إلى التحرر من الازهر ، ورأينا أيضاً مدرسي الحساب من خريجي الهندسة ، وبعض مدرسي اللغة العربية يؤخذون من نوابغ المتخرجين في مدرسة الألسن .

وهكذا ابتدأت الهوة تزداد اتساعاً بين تعليم الازهر والتعليم الحديث ، حتى أوشكت الصلة أن تزول فيما بينهما . بل رأينا - على العكس - أن الازهر يقتبس من النظم الجديدة في التعليم ، ويحاول الشيخ العروسي شيخ الازهر في عهد محمد علي أن يدخل الطب في الازهر بمعاونة كلوت بك ، لولا أن عاجلته المنية .

كان التعليم الحديث في عهد محمد علي بالجهان في كافة المدارس سواء كانت ابتدائية أو ثانوية أو عالية ، وكانت الحكومة تتفق على التلاميذ ، وتتولى أمورهم من مسكن ومأكل ، وملبس ، وتجري على كثير منهم الارزاق والمرتبات . بيد أن الأهالي لم يطمئنوا إلى إسلام أولادهم للمدارس والتعليم في بادئ الامر ، بل نفروا من ذلك نفوراً شديداً ، حتى لجأت الحكومة في بعض الاحيان إلى إدخال التلاميذ في المدارس قسراً .

ولكن ما لبث الناس في مصر أن لمسوا فائدة التعليم ، وكيف ينقل أولادهم من حال الضعف الجسمي والعقلي والخلقي ، إلى مستوى رفيع من الحياة فأقلعوا عن المعارضة ، بل أقبلوا على التعليم

بنفوس رضية .

وقد بلغ عدد التلاميذ في عهد محمد علي بجميع مدارس القطر المصري على اختلاف انواعها تسعة آلاف تلميذ ، تتولى الحكومة النفقة عليهم في كل شيء ، وتعطى لهم بعض الرواتب <sup>(١)</sup> .

كانت نهضة محمد علي علمية حربية كما مر بنا ، لأن البلاد في رأيه لم تكن في حاجة للآداب حاجتها للعلوم والنهوض بالجيش ، ومسايرة الحضارة الأوروبية العلمية في الطب والهندسة والرياضيات والفنون العسكرية ، وكان محمد علي نفسه يؤثر اللغة التركية على اللغة العربية في التعليم أول الأمر ، ولكنه اضطر إلى أن يجعل اللغة العربية لغة الدراسة ، فكانت هذه الخطوة الأولى في إحياء اللغة . ثم أنشأ مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ كما ذكرنا ، وقد عكفت منذ عصره حتى اليوم على إحياء الكتب القديمة وإن كان اهتمامها بكتب الآداب في عهد محمد علي زهيداً ، لأنها كانت في شغل بطبع مؤلفات رجال البعثات في الفنون التي تخصصوا بها ، ولم تتجه إلى إحياء التراث العربي القديم إلا في عصر إسماعيل كما سيأتي .

وأغلب الكتب التي ظهرت في عصر محمد علي كانت كتباً مترجمة في شتى العلوم والفنون ولم تؤلف إلا كتب قليلة ليست ذات شأن ، مثل كتب الرحلات التي دون فيها أعضاء البعثات مشاهداتهم بأوروبا ، ككتاب

---

(١) راجع كتاب ( لغة عامة إلى مصر ) تأليف كلوت بك ج ٢ ص ٥١٩ .  
وتاريخ الحركة الترمية لعبد الرحمن الرافعي ص ٤٥١ ج ٣ .

رفاعة بك ( تخلص الإبريز في تلخيص باريز ) وما شاكله . أما الكتب العلمية البحتة فكان أغلبها ترجمة ، وقد انتشرت هذه الكتب كثيراً بتشجيع محمد علي لمت ترجميها ومكافأتهم مكافآت سخية ، وبطبعها على نفقة الدولة في مطبعة بولاق .

ويروى عن محمد علي أنه لما عاد أعضاء البعثة الأولى الى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة ، وسلم كلاً منهم كتاباً بالفرنسية في المادة التي درسها بأوروبا ، وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى العربية . وأمر بإبقائهم في القلعة ، وألا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به إليهم ، فترجموها ، وأمر بطبعها وتوزيعها على المدارس التي وضعت لها تلك الكتب (١) .

وكان للوقائع المصرية التي أنشأها محمد علي فضل في تذليل الاسلوب العربي للأخبار الصحفية ، وكانت على عهده تنشر اخبار الحكومة ومصالحها وبعض الانباء الخارجية وكان يحررها نوابغ العلماء في عهده .

كل هذا ولا شك قد مهد اللغة نوعاً ما للعصر الثاني في النهضة وهو عصر إسماعيل ، وهياً جيلاً من العلماء والمفكرين ، ومحبي الفنون والآداب ، قادوا مصر في عهد إسماعيل إلى مدى واسع من الرقي والتعليم .

على ان النهضة السورية اتجهت وجهة ادبية من اول امرها بخلاف النهضة المصرية ، وقد وقفنا على الدوافع التي حولت نهضة مصر الى وجهة علمية ، اما الاسباب التي جعلت نهضة سورية ادبية ، فهي ان المبشرين كانوا حملة

---

(١) راجع تاريخ الحركة القومية للرافعي ج ٣ ص ٥٣٧ .



مشاعل تلك النهضة أول الامر ، وكان مهم نشر التعاليم الدينية طبقاً للمذاهب المسيحية الغربية ، وقد عنوا بترجمة التوراة ، وظل الجدل الديني مسيطراً على الصحافة السورية ومجالس الأدب ثمة ردحاً طويلاً من الزمن . ولعل هذا يعمل لنا سبق السوريين في الصحافة وإتقانهم لإخراجها وتبويبها ، وقد ظهرت ثمرة هذا الميل الادبي عند السوريين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولنا إليه عودة .

★ ★



## الفصل الثاني

### النهضة

عصر إسماعيل على الرغم من مساوئه السياسية والاجتماعية هو العصر الذي أينعت فيه النهضة الأدبية ، وأورقت ، وبشرت بثمار طيبة حلوة ، وكان عهده الباب الذي دلف منه الأدب الى رياضة الغناء في عصرنا الحاضر ، وذلك لأن إسماعيل وضع أسساً متينة لنهضة شاملة ، بعد أن مضت فترة ركود كادت تعصف بما غرسه محمد علي ، وتعود بمصر القهقري الى عصور الظلمات وذلك أيام الوالين عباس وسعيد ، إذ كانا من دعاة الرجعية ، فألقى عباس حين توليته كل المدارس العالية الا المدرسة الحربية .

والأدب في عصر إسماعيل مدين في نهضته ورقيه وسيره نحو التحرر من أغلال الماضي في صورته ومعناه الى عدة عوامل لا نستطيع إغفالها ، أو التقليل من أثرها ، وسنلقي عليها نظرة عاجلة ، حتى يكون إدراكنا لتطور الادب في مصر والبلاد العربية إدراكاً صحيحاً .

## التعليم :

استوى اسماعيل على أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ، وما بها الا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، وأخرى طبية وثالثة للصيدلة ، وأوقفت البعثات ، واستغني عن خدمات من عاد من رجالها ، وكان اسماعيل ذا طموح ، ترسم في نهضته الى حد ما خطوات جده محمد علي ، واراد أن يرى مصر قطعة من أوروبا في ظرف وجيز ، فأعاد للبعثات سيرتها الاولى حتى بلغ عدد أعضائها في عصره اثنين وسبعين ومائة ، فأعاد مدرسة البعثات ببافيس لأنه عرف فائدتها أيام أن كان طالباً هناك .

وأخذت الحياة تدب الى كل أنواع التعليم ، فأعيدت المدارس العالية التي كننت على عهد محمد علي كالمهندسة والطب ، وزيد عليها مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة الإدارة والالسن ( بدلاً من مدرسة الإدارة القديمة ) .

وقد أسهمت مدرسة الحقوق في النهضة اللغوية والادبية ، فالمذكرات التي يعدها المحامون ، ووكلاء النيابة ، ولغة المرافعات والدفاع ، والخطابة القانونية قد تحسنت كثيراً وأدخلت في اللغة كلمات عديدة لم تكن

مستعملة من قبل . وظل رجال الحقوق والقانون يقودون مصر في ميدان السياسة حقبة طويلة من الزمن ، ولكنهم وللأسف قد أثروا بعقليتهم الجدلية ، وتربيتهم النظرية ، وإصلاحاتهم القانونية اللفظية في حياة الأمة أثراً بليغاً ، وأبعدوها عن جادة الصواب ، وألقوا بها في لجة الجدل والتناحر الحزبي ، والتشدد بالإصلاح ، ونأوا بها عن الحياة العملية المنتجة ، على أن هذا الموضوع ليس مما يعنيننا في كتابنا هذا ، وإنما الذي يلفت أنظارنا هو نهضة الخطابة واللغة على يد من تخرج في هذه المدرسة ، ولا سيما في عصرنا الحاضر .

ومن المدارس التي أنشئت في عهد إسماعيل ، وكان لها أكبر الفضل في نهضة اللغة والأدب مدرسة دار العلوم التي أشار بها علي مبارك . وافتتحها في سنة ١٨٧١ . وقد رأينا ما كانت تعانيه مدارس محمد علي الحديثة من فقر في الكتب المدرسية المنظمة والمدرسين الأكفاء ، الذين جمعوا بين العلم القديم والحديث ، وعرفوا النظام ، ونالوا حظاً من طرق التربية ، وأن ذلك الفقر التربوي كان معوقاً لنهضة الآداب . بيد أن دار العلوم سدت هذا الفراغ ، فقد كان طلبتها يختارون من متقدمي طلبة الأزهر ونوابغهم ، وينشئون تنشئة لغوية ، وأدبية ، وشرعية مع قسط وفير من العلوم الحديثة ، وطرق التربية . ولقد أدت دار العلوم رسالتها للأمة ولغة ولدين على الوجه الأكمل ؛ فحفظت اللغة وصانتها ، وقوتها وأيدت دعائها ، وأحيت مواتها وجددت في أساليبها ، ونفخت عن تراثها المجيد غبار القرون ، وقدمته للناس رائعاً جذاباً وعكف أبناؤها على تعليم النشء ، وتقويم ألسنتهم ، وتدريب أقلامهم ، وتزويدهم بذخائر نفيسة من مختارات الشعر والنثر ، وتقديم الكتب التي تنهج نهجاً علمياً نفسياً يتمشى مع الطفل وملكاته وغرائزه ؛ فكانت بحق خير ما أسدى علي مبارك من خدمات للغة العربية ، ولا تزال دار العلوم تقوم بنصيبها الوفير في نهضة التعليم

واللغة ، وتعتمد عليها جامعتا القاهرة والاسكندرية وعين شمس في دراسة الآداب والنصوص وقواعد اللغة ، ولا زال بنوها في الطليعة من الكتاب والمؤلفين يجارون بتأليفهم تيار النهضة الحديثة ، ويمشون مع الزمن خطوة خطوة ، وقد تخرج على أيديهم زعماء النهضة في كل ميادين الحياة .

وفي عهد إسماعيل أنشئت أول مدرسة للبنات ، وذلك في سنة ١٨٧٣ حيث أسست السيدة ( جشم آفت هانم ) ثلاثة زوجات إسماعيل مدرسة السيوفية ، وكان بها حين افتتاحها مائتا تلميذة . وبلغ عددهن في السنة الثالثة أربعمئة تلميذة يتعلمن بالبحان فضلاً عن القيام بمأكلهن وملبسهن ، وكن يتعلمن القراءة والكتابة ويحفظن القرآن الكريم ، ويدرسن الحساب والجغرافيا والتاريخ والتطريز والنسيج .

وقبل مدرسة السيوفية كانت البلاد خلواً من مدرسة للبنات إلا مدرسة للولادة ، لم يغشها إلا البنات الحبشيات ، واستنكفت المصريات من دخولها ، ومدرسة إنجليزية أسستها مس ( وتلي ) سنة ١٨٦٠ وقد نجحت بعد عشر سنوات من الجهاد في جذب كثير من الفتيات المصريات إليها ؛ وكذلك كان الجهل متخذاً من رؤوس فتيات مصر ونساءها أعشاشاً ، إلا من حرص أهلها على تعليمها في البيت ، وقليل ما هن .

وقد خطا تعليم البنات منذ مدرسة السيوفية خطوات واسعة في مصر ، وتعددت ألوانه ومدارسه ، وزاحمت الفتاة الفتى في الجامعة ، واقتحمت الكليات المستعصية ، ولست هنا في مقام النقد ، ومناقشة طريق تعليم الفتيات ذلك التعليم النظري ، ومنافسة البنين في كل شيء ، ولكننا نلاحظ فيه أن تعليم المرأة ونهوضها دعامة متينة في النهضة الاجتماعية والأدبية ، والأم المتعلمة ترباً بابنها أن يكون فريسة الجهل ، وتسمى

جهداً أن تنيله حظاً منها كان يسيراً من نور العلم .

وقد أنشأت الحكومة بجانب هذه المدارس كثيراً من المدارس الصناعية والخصوصية ، كمدرسة المساحة والمحاسبة ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة العميان والبكم .

أما المدارس الابتدائية فقد زاد عددها حتى بلغ أربعين مدرسة ، وقد صار للأقباط زيادة على ذلك اثنتا عشرة مدرسة ، وافتتحوا مدرستين لتعليم البنات ، واحدة بالأزبكية والأخرى ( بحارة السقاين ) وقد وهبهم إسماعيل ألفاً وخمسمائة فدان ينفق ريعها على مدارسهم .

وأنشأت الحكومة كذلك عدة مدارس ثانوية منها مدارس رأس التين في سنة ١٨٦٢ والمدرسة الخديوية سنة ١٨٦٨ ، وأعادت ديوان المدارس ، وهو نواة وزارة التربية والتعليم بعد أن ألغاه سعيد ، ليشراف على التعليم ويرعاه ، ويدخل على نظمه وأساليبه التحسينات التي تسير الحياة .

ومن الوسائل التي ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية في عصر إسماعيل دار الكتب وناهيك بما لها من أثر في نشر العلم ، وتحجيب الاطلاع وتسهيله ، ومعاونة المؤلفين والباحثين ومساعدة الناشرين والطابعين على استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها بين الناس .

لقد كانت الكتب قبل ذلك مبعثرة في المساجد يتولى أمرها خدم لا يقدرونها قدرها ففرطوا فيها ، وتسرب كثير من كنوزها الأدبية

والعلمية إلى مكاتب أوروبا ، وأمين كثير من الكتب القيمة باستعمالها في دكاكين البدالين وغيرهم .

همت الحكومة بتأسيس دار الكتب فجمعت هذه الكنوز المبعثرة في المساجد والتكايا والزوايا والأضرحة وغيرها وضمت إليها ألفي كتاب اشترتها من مكتبة المرحوم حسن ( باشا ) المانسترلي ، ولما مات شقيق الخديو إسماعيل الأمير مصطفى فاضل ، وكان من أكبر هواة الكتب في الشرق ، ابتاعت الحكومة من مكتبته ما يربي على ثلاثة آلاف كتاب ، وضمتها إلى دار الكتب ؛ فكان ذلك نواة لهذه المؤسسة العظيمة ، التي أخذت بعد ذلك تنمو وتزداد ، وتجلب لها الكتب من الشرق والغرب ، وتضم إليها المكتبات الكبيرة مثل مكتبة المرحوم العلامة أحمد تيمور وغيرها .

وقد ضم القسم الأدبي الذي كان يشرف على إحياء الكتب القديمة بطبعة بولاق إلى دار الكتب ، وعكف منذ سنين على تصحيح وإخراج أمهات الكتب الأدبية من أمثال : الأغاني ، ونهاية الارب ، والنجوم الزاهرة .. وغيرها .



### الجمعيات العلمية :

إذا كثرت الجمعيات العلمية في أمة دل ذلك على حيويتها ويقظتها ، ورغبتها في السير نحو الكمال ، غير معتمدة على الحكومة في غذائها العقلي ، فإذا اضطرب أمر الحكومات ، أو وليها من لا يحسن القيام بشئون الحكم ، لا يصاب الشعب بالشلل العقلي ، ولكن يمضي في طريقه قدماً ، ينتقف ويستعد للنضال في سبيل الحياة السعيدة بهمهم أفرادهم اليقظين والجمعيات القوية المنظمة .

وقد بدأت تبشير هذه اليقظة العقلية في عهد إسماعيل ، وبرهنت مصر على أنها آخذة بأسباب النهضة الصحيحة ، وأنها مستعدة للنضج الفكري ، ولو توانت الحكومة في الإصلاح ، أو قصرت في الأخذ بأسبابه ، ومن أوائل من عنوا بنشر الكتب القديمة والمخطوطات :

١ - المرحوم رفاعة الطهطاوي متأثراً بطريقة صديقه المستشرق الفرنسي ( سلفستردى ساسي ) ، ومن مجهود رفاعة في إحياء الكتب القديمة يقول العلامة علي مبارك :

« ولرغبته في نشر العلوم ، وسعة دائرتها ، وحبه عموم النفع بها ،

استدعى مع بعض أفراد الحكومة المصرية من المرحوم سعيد باشا - وكان له ميل إلى المترجم رحمه الله . صدور الأمر بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة ، عم الانتفاع بها في الأزهر وغيره منها : تفسير الفخر الرازي ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب والمقامات الحريية ، وغير ذلك من الكتب التي كانت عديمة الوجود في ذلك الوقت فطُبعت <sup>(١)</sup> .

٢ - المجمع العلمي : وقد أسس على عهد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ ، وألقي عند جلائهم ولكنه أعيد في عصر سعيد ، وظل يعمل مدة حكم إسماعيل ، مؤدياً رسالته في نشر المباحث العلمية . ولا يزال حتى اليوم قائماً ، وإن تغير اسمه الى ( مجلس المعارف المصري ) ومقره وزارة الاشغال ، وله مجلة تنشر أبحاثه وقد تكلمنا عنه آنفاً <sup>(٢)</sup> .

٣ - جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ ، وهي أول جمعية علمية مصرية صميمة ظهرت لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، أسسها محمد باشا عارف وأسهم في تأسيسها عدد كبير من أعيان البلاد ، وقد اقتنت مطبعة ، وقامت بطبع طائفة من أمهات الكتب في التاريخ والفقه والادب <sup>(٣)</sup> .

---

(١) الخطط التوفيقية - ترجمة رفاعة ج ١٣ ( ص ٥٥ - ٥٦ ) .

(٢) راجع ص ١٦ من هذا الكتاب .

(٣) من هذه الكتب : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير في خمسة مجلدات ، وتاج المروس من شرح جواهر القاموس ، وتاريخ ابن الوردي ، وشرح التنوير على سقط الزند ، وديوان ابن خفاجة وديوان ابن المعتز ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وشرح الشيخ خالد علي البردة ، ورسائل بديع الزمان الهمذاني وغير ذلك من الكتب .

ولقيت الجمعية تشجيعاً عظيماً حتى بلغ عدد أعضائها ستين وستائة  
عضو من الطبقة الممتازة في الأمة (١) .

وظلت الجمعية تعمل ، وتؤدي رسالتها الثقافية إلى أن اشتد النزاع  
السياسي بين الحديوي لإسماعيل ، والأمير عبد الحليم لتنافسها على أريكة  
مصر ، وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ؛ ففر إلى الآستانة خوفاً  
من إسماعيل ، وبذهابه انحلت الجمعية . وكان عارف باشا أديباً ، وپروی  
له قوله :

ألم تعلم بأن سماء فكري      تلوح بأفقها شمس المعارف  
تفرس والذي في المزايا      فيوم ولدت لقبني بعارف

٣ - الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ ، وتعد من أهم المنشآت العلمية  
بمصر ، وتنفى بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، ولها مجلة  
دورية تنشر أبحاثها ، وما تقوم به من اكتشافات ، ولا تزال قائمة  
إلى اليوم .

---

(١) كان من أعضائها : إبراهيم المويلحي ، وأحمد فارس الشدياق ، والشيخ  
حسن النواوي ، والدكتور محمد شافعي ، ومصطفى رياض ، والشيخ بدرأوي  
عاشور . وتجدر ثبوتاً بأسماء أعضاء الجمعية ، في آخر ( الفتح الوهمي ) وراجع كتاب  
عصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ٢٥٦ ، وجرجي زيدان في كتاب  
آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٧٨ .

٤ - الجمعية الخيرية الإسلامية . أنشئت أول الأمر بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ ، حين دفعت الحماسة جماعة من المتعلمين بالثغر - وأوا طفيات الأجانب ، واشتداد نفوذهم ، واستشارهم بمرافق البلاد - الى تأسيسها ، وكانت تعقد الاجتماعات ليلاً ويتبادل أعضاؤها الخطب ، وقبيل افتتاحها انضم إليهم السيد عبد الله نديم ، فكلفته الجمعية العمل على تأسيس مدرسة حرة يتعلم فيها أبناء المسلمين ، وينشئون تنشئة صالحة ، وظلت الجمعية والمدرسة تتقدمان حتى قامت الثورة المرابية فتفرق القائمون بأمرها .

وقد أنشئ على غرار هذه الجمعية التعليمية جمعية باسمها في القاهرة ، وأخرى بدمياط أما الجمعية الحالية فقد أسست سنة ١٨٩٢ على غرار الجمعية الأولى حين اشتدت الحاجة إليها وكان الداعي الى تأسيسها الإمام الشيخ محمد عبده ، وسنعود الى الكلام عنها في ترجمته إن شاء الله .

### الصحافة :

وتعد الصحافة من أقوى عوامل النهوض بالشعوب في عقليته ، ولفته ، وعلمه ، والإصلاح الاجتماعي الذي يأخذ بيده صوب الكمال . وقد تحررت اللغة من آفات القديمة التي ورثتها عن عصور الانحطاط ، ولا سيما السجع والمحسنات والزخرف اللفظي والركاكة ، على يد الصحافة .

انقضى عصر محمد علي كما رأينا ، وليس بمصر سوى صحيفة واحدة هي الوقائع المصرية ، وكانت موضوعاتها قاصرة على الأخبار الحكومية ، ولفتها لا تكاد تستقيم من الركاكة ، ولكننا نشاهد في عصر إسماعيل نهضة جديدة ، واسعة عظيمة الأثر في الصحافة .

سبق السوريون في بلادهم بإصدار صحف سياسية ، وصدرت مرآة الأحوال مجلب سنة ١٨٥٥ ، وإن لم تعمر أكثر من عام واحد ، ثم صدرت حديقة الأخبار ببيروت سنة ١٨٥٨ وظلت تصدر حتى سنة ١٩٠٩ ، وكانت يوماً لسان الحكومة الرسمي . ثم خطت الصحافة خطوة أوسع في سبيل الرقي بصدر الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق بالآستانة سنة ١٨٦٠ وقد طلعت على الناس بأسلوب جديد في الكتابة العربية ، وافتن

صاحبها في تحريرها ، وتخير موضوعاتها .

فجمعت بين السياسة والأدب بشتى ضروبه وأبوابه بما في ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ، فذاعت ، وأقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ، ولم تدع بلداً عربياً بل إسلامياً إلا دخلته وقد سافرت كذلك الى كثير من بلدان الغرب ، واقتبسوا منها وحكوا عنها ، وظلت تعمل حتى سنة ١٨٨٤ ، أما صاحبها :

#### أحمد فارس الشدياق :

فهو من رواد النهضة الحديثة في الأدب ، ومن سبق بفكره ، وقلمه ، وعلمه أبناء زمانه لكثرة ما قرأ ، وجرب ورأى بعينه ، وسمع بأذنيه ؛ لأنه جاب بلاداً عديدة وعرف لغات شتى ، وأفاد بما رأى ، وما قرأ وعرف ، فكان نادرة من نوادر عصره .

ولد بقرية عشقون في لبنان سنة ١٢١٩ ١٨٠٤ هـ م من أسرة مارونية مشهورة ، ثم انتقل والده الى قرية ( الحدث ) بالقرب من بيروت ، وتيم فارس بن منصور ( وعرف فيما بعد باسم أحمد فارس الشدياق ) وهو صغير وكانت تقرأى عليه علامات النجابة فأتقن صناعة الخط ، وجعل ينسخ الكتب بنفسه ، ولغيره طلباً للرزق . وكان له أخ يسمى ( أسعد ) على حظ وفير من العلم والذكاء ، وعليه تلقى فارس دروسه الأولى ، وأفاد منه فائدة جليلة ووجهه صالحة وغرس في نفسه محبة العلم . ثم اضطهد

( أسعد ) من بطريق الموارنة ، وسيم ألواناً من العذاب ، لتغيير مذهبه الماروني الى المذهب الإنجيلي ، حتى مات بأحد الأديرة وهو في عنفوان شبابه فأثر موته على فارس ، وحز في نفسه ، فكره الإقامة ببلاد الشام ، وأعلن سخطه على المارون ، فجدوا في أثره لينكلوا به ، بيد أنه لجأ الى المبشرين الأمريكيين ببيرت ، فأحسنوا مقدمه ، وبعثوا به الى مصر ليعلم أعضاء بعثتهم فيها اللغة العربية .

وفي مصر تعرف على الشيخ محمد شهاب محرر الوقائع المصرية ، فلازمه وقرأ عليه طائفة من كتب اللغة والأدب ، وقرأ على غيره كتباً في المنطق والنحو حتى تمكن من سائر علوم العربية ، وتقرب من كبار علماء مصر ، ومن معية الخديوي ، ثم أفسح له مجال الكتابة في الوقائع ، فأخذ يدبج فيها المقالات الممتازة بأسلوب جديد لم يألفه المصريون من قبل ، وهو الأسلوب المرسل الرصين ، ثم أسند اليه تحرير الوقائع مدة .

وبعد ذلك سافر الى ( مالطة ) سنة ١٨٣٤ بدعوة من الأمريكان ، ليعلم في مدارسهم هناك ، فكتب بها أربعة عشر عاماً ، عكف في أثناءها على التدريس ، والتأليف ، ونشر الكتب وتصحيحها ، الى أن طلبته جمعية ترجمة ( التوراة ) بلندن ليساعد في التعريب والضبط والتنقيح ، فسافر إليها سنة ١٨٤٨ ، وأقام بها مدة مكنته من تعلم اللغة الإنجليزية وتعرف أحوال الإنجليز وبلادهم معرفة دقيقة ، ثم سافر الى باريس بعد أن نال الحماية البريطانية ، وتجنس بالجنسية الإنجليزية .

وقد سجل رحلته الى أوروبا في كتابه ( كشف الخبايا عن أحوال أوروبا ) وقد ألف في أثناء مقامه بأوروبا كتابه ( الساق على الساق فما هو الفارياق ) ، والفارياق لفظ مقتطع من ( فارس الشدياق ) .

ولما زار باي تونس باريس ، ووزع في فرنسا كثيراً من الأموال على الفقراء مدحه الشدياق بقصيدة طويلة حبيته إليه فاستدعاه للإقامة معه بتونس . وكان قد مدح السلطان عبد المجيد كذلك بقصيدة طويلة حسنت لديه ، فاستدعاه للآستانة ، ولكنه فضل الذهاب الى تونس أولاً ، فأرسل إليه ( الباي ) باخرة حربية لحضوره عليها . وقد وقعت بينه وبين شيخ الإسلام في تونس مجادلات في العقائد الدينية أدت الى اعتناقه الإسلام وسمى نفسه ( أحمد فارس ) ، وتكنى ( بأبي العباس ) ، وكان يقول في هذا : « لعمري ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها ، ولكن إذا أراد الله بعبد خيراً لم يعقه عن الشعر ولا غيره » .

وقولى عند الباي أرفع المناصب ، واشتهر اسمه ، فطلبته الآستانة مرة أخرى ، فلبى الدعوة ، وهناك ألحق بديوان الترجمة ، وقولى الإشراف على التصحيح بدار الطباعة .

ويقال إن الخديوي إسماعيل هو الذي أشار عليه في أثناء زيارته للآستانة بإنشاء ( الجوائب ) وكان معجباً به ، فقام بإنشائها سنة ١٨٦١ ، واشتركت فيه الحكومة المصرية بألفي نسخة . ثم قدم مصر سنة ١٨٦٦ ، وهو شيخ هرم ، في عهد الخديوي توفيق ، فقبول بكل إجلال وترحاب ، واجتمع به كثيرون من الأدباء ورجال الصحافة ، فبهزمهم على الرغم من شيخوخته بتوقد قريحته ، وسرعة بديته ، وحلاوة سمره وطلاوته ، ورقة حاشيته ورشيق عبارته ، ثم عاد الى الآستانة فتوفي بها سنة ١٨٨٧ ، ونقلت جثته الى سوريا ودفن بقرية الحازمية على مقربة من بيروت .

والشدياق من أوائل الذين اهتموا بالأبحاث اللغوية في العصر الحديث ،



وله كتاب « الجاسوس على القاموس » ، وهو كذلك من أوائل الكتاب المترسلين ، الذين خاضوا في كل موضوع ، وأفادوا الأدب واللغة بأبحاثهم ومقالاتهم ، وله عدة كتب كان لها في زمانه وبعد زمانه شأن يذكر ، منها :

١ - ( الواسطة في أحوال مالطة ) ، وقد وصف فيه هذه الجزيرة وصفاً دقيقاً ، وأبان فيه عن أصل اللغة التي ينطق بها أهلها ، وبين أنها اللغة العربية شيتت بلهجات الغزاة الفاتحين وألحانهم .

٢ - ( كشف الخبايا عن أحوال أوروبا ) ، فصل فيه سياحته في بلاد الإنجليز وغيرهما من الأقطار الأوروبية ، ووصف عادات الإنجليز وآدابهم ، وأخلاقهم ، وتاريخ تمدنهم وسر تقدمهم بأسلوب شائق طلي .

٣ - ( الساق على الساق فيما هو الفاريان ) ، وهو كتاب ممتع ، سيق في أسلوب قصصي وذكر فيه تاريخ حياته ، وأحواله الخاصة ، وما عاناه في دهره ، وفي معركته مع الحياة والأيام . خلط فيه الجد بالهزل ، والسجع بالترسل ، والعلم بالأدب ، وأغرب فيه وأطرب ، وذهب في تدبيجه وصياغته كل مذهب ، طبع ببافيس سنة ١٨٥٥ .

٤ - سر الليالي في القلب والإبدال .

٥ - ( الجاسوس على القاموس ) ، وضعه لاستدراك ما فات الفيروزبادي في قاموسه وما وهم فيه من الألفاظ ، وهو مطبوع .

٦ - ( منتهى المعجب في خصائص لغة الأدب ) ، في أمرار اللغة ، وخصائص الحروف ومدلولاتها ، ولكنه ذهب فريسة النار ، وهو بعد

مخطوط لم يطبع .

٧ - ( الجوائب ) ، وقد اشتركت فيها مصر بألفي نسخة ، وكان باي تونس يدها بخمسمائة جنيه سنوياً ، وتلقت مثل هذه الإعانة من السلطان عبد العزيز ، وكانت تصدر أسبوعياً ، وقد نالت شهرة عظيمة كما ذكرنا آنفاً ، وهي الجريدة الوحيدة التي جاهرت بالدفاع عن الحديوي إسماعيل في دار الخلافة حينما خلع سنة ١٨٧٩ ، ورثته يوم وفاته ، ولم تحش سطوة الحكومة العثمانية . ويقال إن السفارة الإنجليزية بالآستانة دفعت لصاحبها ألف جنيه ، نظير إذاعة المنشور الذي أصدره الباب العالي يعلن فيه عصيان عرابي باشا سنة ١٨٨٢ ، وأن ذلك كان من أسباب إخفاق عرابي .

وقد جمع سليم بن أحمد فارس منتخبات من الجوائب ونشرها في سبعة أجزاء .

٨ - لأحمد فارس كتب مدرسية كثيرة منها : الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنجليزية ، والسهم الراوي في الصرف الفرنسي ، واللفيف في كل معنى طريف .

٩ - وله ديوان شعر لم يطبع .

وقد عني الفارياق كما رأينا من مؤلفاته بالأبحاث اللغوية ومن ذلك كتابه الجاسوس على القاموس الذي حاول فيه أن يستدرك على صاحب القاموس ما جاء في معجمه من قصور وإيهام وإيجاز وإيهام وعسر في مراجعة الأفعال ومشتقاتها ، وذلك بأن يؤلف في اللغة كتاباً سهل الترتيب واضح التعاريف ، شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتاب

وكل من اشتهر بالتأليف .

وقد دعاه إلى ذلك أمرأت :

أولهما مزاحمة اللغات الأجنبية للغة العربية واللسان العربي « فكادت تجلي عنه أهله وتحجب عنهم ظله وتحبس وابله وطله ، لأن ترتيب كتب لغاتهم أسهل والوصول إليها أعجل ، ولا سيما أنها قليلة المشتقات ، وليس في تعريف ألفاظها كبير اختلاف في الروايات أما من يتعاطون منا التجارة ، ويحملون عبء الإمارة ، فإنهم يزعمون أن اللغة العربية لا تصلح في هذا الزمن لهاتين الخطتين فلا بد بكلام الأجانب وإن أدى إلى الخطتين ، فمن ثم مست الحاجة إلى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها ، وتبيين لأصولها من متفرعاتها ... الخ » .

وثانيها رغبة « في حث أهل العربية على حب لغتهم الشريفة ، وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خال من الإخلال ، مقرب كما يطلبه الطالب منها دون كلال ، فإني رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب ، كثر ذلك أو قل وخصوصاً كتاب « القاموس » الذي عليه اليوم المعول » .

وقد أثار في هذا الكتاب موضوعات لا تزال موضع بحث حتى يومنا هذا ، وقد حاول في غير هذا الكتاب أن يدافع عن اللغة العربية وأن يعمل على تزويدها بالمصطلحات الفنية فهو في الوقت الذي يمتدح فيها اللغة العربية لسهولة ألفاظها ووضوحها نراه يعترف بأن مفردات العربية غير تامة فيما يتعلق بما استحدث بعد العرب الذين وضعوا اللغة من فنون وصناعات ، ما لم يكن يخطر ببالهم ، وليس ذلك في رأيه مما يشين اللغة ؛ إذ لا يحتتمل أن واضع اللغة يضع أسماء لمسميات غير موجودة ،

« وإنما الشين علينا الآن في أن نستعير هذه الأسماء الأجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا ، على أن أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة ، وصوغ اسم المكان والآلة في العربية مطرد من كل فعل ثلاثي . »

وقد حث على استخدام « النحت » والإكثار منه لإثراء اللغة كما فعلت اللغات الأجنبية الأخرى ، وذلك حتى تستغني عن استعمال الدخيل .

ومن روائع أدبه قوله يصف مصر في كتابه الساق على الساق :

« ومن خواصها أن أسواقها لا تشبه رجالها ألبتة ، فإن لأهلها لطافة وظرافة ، وأدباً وكياسة وشمائل مرضية ، وأخلاقاً زكية ، وأسواقها غارية عن ذلك رأساً . »

ومنها : أن العالم عالم ، والأديب أديب ، والفقيه فقيه ، والشاعر شاعر ، والفاسق فاسق ، والفاجر فاجر . ومن ذلك أن البنات اللاتي يستخدمن في ( الميري ) لحمل الأجر والجلس والتراب ، والطين والحجر والخشب ، وغير ذلك ، يحملنه على رؤوسهن ، وذن فرحات ، جامحات ، سابحات ، صادحات ، مادحات ، غير ترحات ، ولا دالحات <sup>(١)</sup> ، ولا رازحات ، ولا كالحات ، ولا فالحات ، ومن كان نصيبها من الأجر نظمت عليه ( موالاً ) آجرياً ، أو من المجلس غنت له أغنية جبسية ، كأنما هن سائرات في

---

(١) من دلح كنع : مشى بحمله متقبض الخطو لثقله ، وسحابة دلوح : كثيرة الماء .

## زفاف عروس .

ومن ذلك أن ( البرنيطة ) فيها تنمى وتعظم ، وتغلظ وتضخم ، وتتسع وتطول ، وتعرض وتعمق ، فإذا رأيتها على رأس لابسها حسبتها ( شَوْنَة ) (١) ، قال ( الفاريق ) : وكثيراً ما كنتُ أتعجبُ من ذلك وأقول : كيف صح في الإمكان ، وبدا للعيان أن مثل هذه الرؤوس الدميعة ، الضئيلة الدميعة ، الخسيصة اللثيمة ، المستنكرة المشثومة ، المستقذرة المهووعة (٢) ، المستقيمة المستفظعة ، المستمجة المستشعة ، والمستزلة المستبشعة ، تقل هذه ( البرانيط ) المكرمة ، وكيف أنماها هواء مصر ، وكبرها إلى هذا المقدار ، وقد طالما ، كانت في بلادها لا تساوي قارورة الفرائش ، ولا توازن ناقورة الفرائش ، وكيف كانت هناك كالترب ، فأصبحت هنا كالترب ؟ يا هواء مصر ، يا نارها ، يا ماءها ، يا ترابها (٣) صيرني طربوشي هذا ( برنيطة ) ، وإن يكن أحسن منها عند الله والناس وأفضل ، وأجل وأمثل ، وللعين أبهى وأكمل وعلى الرأس أطبق وبالجمم أليق ... قال : فلم يُغن عني النداء شيئاً ، وبقي رأساً مطربشاً ، وطرفٌ دهري مُطربشاً (٤) .

ومن خصائصها أيضاً أن البُعْاث بها يستنسر ، والذباب يستصقر ، والناقة تستبعر ، والجحش يستمهر ، والهَر يستنمر ، بشرط أن تكون هذه

---

(١) الشونة : كما جاء في القاموس مخزن الغلال - مصرية .

(٢) المهووعة : من هوخته ما أكل إذا قيأته إياه .

(٣) يشير بالهواء والنار والتراب والماء إلى العناصر الأربعة التي كان يعتقد الفلاسفة القدماء أنها أصل المواد .

(٤) الطرف : العين ، وطرفشت العين : أظلمت وضعفت ، وفلان نظر وكسر عينيه .

الحيوانات مجلوبة إليها من بلاد بعيدة .

ومن ذلك أن كثيراً من أهلها يرون أن كثرة الأفكار في الرأس يكثر عنها الهموم والأكدار أو بالعكس ، وأن العقل الطويل يتناول البعيد من الأمور كما أن الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره وأن تلك الكثرة سبب في الإقلال ؛ فما دام النور موقداً ، فلا بد وأن تفقد الفتيلة ، ولا يمكن إبقاؤها إلا بإطفاء النور ، أو كالماء في الوادي فإذا دام الماء جارياً فلا بد وأن ينصب في البحر ، فحقن بقي ، أو كالفلوس في الكيس ، فما دام المفلس أي صاحب الفلوس يمد يده إلى كيسه ، وينفق منه في ما عنده ، إلا أن تربط يده عن الكيس ، أو يربط الكيس عن يده ؛ فمن ثم اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل في ميدان الدماغ حيناً من الأحيان ، ليتوفر لهم في غيره ، وذلك بشرب شيء من الحشيش ، أو بمضغه ، أو بالنظر إليه ، أو بذكر اسمه ، فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ، ويحضر السرور ، وتولي الأحران ، ويرقص المكان .

وفي الحق لم يدع أحمد فارس شيناً في أهل مصر وعاداتهم إلا وصفه وصفاً دقيقاً بذلك الأسلوب المرح ، وهذا التهمك المحبوب ، وله نظرات نافذات حين يتكلم على الأجانب ، وكيف صار لهم الحول والسلطان ، مع أنهم كانوا في بلادهم أفاكين مفلسين ، وحين يعبر عن فلسفة الحشاشين ، وكيف يعملون جادين مخلصين على تفتيب العقل ، وهو الذي يهدي الإنسان سواء السبيل .

وأنت ترى في أسلوبه السجع ، والترسل ، والسهولة ، والتوعر ، والكلمات العامية ، والكلمات الغريبة التي لا تستعمل إلا في المعاجم ، وكأنه قصد إلى

إحيائها ، كما كان يفعل اصحاب المقامات ، لولا طرافة الموضوع ، وصدق الوصف . ومما يلفت الأنظار في أدب احمد فارس أنه كان قوي الملاحظة ، مَعْنِيًا بأحوال الشعوب وطرق حياتهم ، والموازنة بين الشعوب التي زارها والشعوب العربية ، وله فصول ممتعة في كتابه ( الساق على الساق ) عن الإنجليز وبلادهم ، والفرنسيين وأحوالهم . ومما قاله في الموازنة بين الأدب الغربي والعربي قوله :

« فإنهم أول ما يبتدئون المدح يوجهونه الى المخاطب ، ويجعلونه ضرباً من التاريخ ، فيذكرون فيه مساعي المدح ومقاصده وفضله على من تقدمه من الملوك بتمديد أسمائهم ولما ترجم ( مسيودوكان ) قصيدتي التي مدحت بها المرحوم أحمد باشا والي تونس وطبعها مع الترجمة ، كان بعضهم يسألني : هل اسم الباشا ( سعاد ) ؟ وذلك لقولي : « زارت سعاد وثوب الليل مسدول » فكنت أقول : لا ، بل هو اسم امرأة فيقول السائل : « وما مدخل المرأة بينك وبين الباشا ؟ » وهو في الحقيقة أسلوب غريب للعرب ، قال العلامة الدسوقي : « اعلم أنه قد جرت عادة الشعراء أنهم إذا أرادوا مدحَ إنسان ان يذكروا قبله الغزل لأجل تهيج القريحة وتحريك النفس للشعر ، والمبالغة في الوصف ، وترويح النفس ورياضتها » قلت : كما ان الإفرنج ينكرون علينا هذه العادة ، كذلك ينكرون المبالغة في وصف المدح . وأما تشبيهه بالبحر والسحاب والأسد ، والطود ، والبدر ، والسيف ، فذلك عندهم من التشبيه المبتذل ، ولا يعرضون له بالكرم ، وبأن عطاياه تصل الى البعيد ، فضلاً عن القريب ، فهم إذا مدحوا ملوكهم ، فإنما يمدحونهم للناس ، لا لأن يصل مدحهم إليهم . »

ومن فكاهاته التهكية ، ونقداته اللاذعة ما قاله عن علم النحو وتعلمه ، قال : أحد التلمذيين : ألا قبحاً لذوي الخواطر البليدة ، واللفظن

البعيدة !. كيف لا يتعلم الناس كلهم فن النحو ، وهو اسهل من حك ما تحت الحقر ، أما والله لو كانت العلوم كلها مثله ، لما غادرت منها كبيراً وصغيراً إلا استوعبته كله ، لكنني سمعت أن النحو إنما هو مفتاح العلوم ، ولا يعد منها فلا بد ان يكون غيره أصعب منه .

فقال له معلمه : لا تقل هكذا ، بل النحو أساس العلوم ، وكل العلوم مفتقرة إليه افتقار البناء الى الأساس ، ألا ترى ان اهل بلادنا لا يتعلمون سواه ، ولا يعرجون على غيره ؟ وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها ، ولذلك لا يؤلفون إلا فيه . وإنما يحصل فيه خلاف بينهم في تقديم بعض الأبواب على بعض ، وفي توضيح ما كان مبهماً منه بأدلة وشواهد . واختلفوا أيضاً في الشواهد ، فمن قائل إنها مفتعلة ، ومن قائل إنها ضرورة أو شاذة ، بيد أن المال واحد ، وهو أن العالم لا يسمى عالماً الا إذا كان متمكناً من النحو مستقصياً لجميع وقائعه ، ولا يكاد يستتب أمر إلا به . ولو قلت مثلاً : ضرب « زيد عمرو » من غير رفع زيد ونصب عمرو ، فما يكون ضربه حقاً ، ولا يصح الاعتماد على هذا الإخبار ، فإن حقيقة فعل الضرب متوقفة على علم كون زيد مرفوعاً ، وجميع اللغات التي ليس فيها علامات الرفع فهي خالية عن الإفادة التامة ، وإنما يفهم الناس بعضهم بعضاً من دون هذه العلامة عن دُرية واتفاق ، فلا معمول على كتبهم وإن كثرت ، ولا على علومهم وإن جلت .

وأخذ المعلم يثني على النحو ثناء عظيماً ، ويبين أنه هداة إلى مسألة حار فيها حيرة عجيبة ، فسأله تلميذه : وما هذه الفائدة يا أستاذي ؟ قال : « قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس ، فكنت أميل الى ما قالته الفلاسفة ، من أنه كل ما كان له ابتداء فهو متناه ، فلما رأيت النحو له ابتداء



وليس له انتهاء قست النفس عليه فزال عني والحمد لله ، ذلك الإيهام ، وفي هذا الكلام لذعات حادة للنحاة لا تخفى على اللبيب .

وهكذا نجد احمد فارس في كل ما كتبه يخلط الجد بالهزل ، ويتهمك تهكماً مريراً على الأوضاع التي لا تروقه ، وقد قال عن كتابه ( الساقى على الساقى فيما هو الفارياق ) :

هذا كتابي للظريف ظريفاً      طلقَ اللسان وللسخيف سخيفاً  
أودعته كلمات وألفاظاً حلت      وحشوته نقطاً زهت وحروفاً  
وبداهة وفكاهة وتزاهة      وخلاعة ، وقناعة وعزوفاً  
كالجسم فيه كل عضو تعشق الـ      مستور منه وتحمد المكشوفاً  
فصلته ، لكن على عقلي فما      مقياس عقلك كان لي معروفاً

وقد وضع أحمد فارس كل تجاربه وعلمه وفنه ، وقلمه الظريف القوي المتمكن من مختلف أساليب اللغة في إخراج ( الجوائب ) فكانت من الصحف الأولى في العالم . وله يرجع فضل السبق في تعبئة العربية وقذيلها بأسلوبه المرسل الطليق ، كما أنه من أوائل الذين ملئت قلوبهم بغضاً للأجانب ، وفهم عن حق أغراضهم الدنيئة ، وسلفهم بلسان حاد ، وحرص على إخراجهم من ديار العرب والشرق . وقد خص مصر بحب وافر ، وكان مثلاً في الصحافة انتهجه المصريون ، وخذوا حذوه ، فلا بدع أن كان من رواد النهضة الحديثة .

كل ذلك حفز المصريين الى الاهتمام بالصحافة ، ووجدوا من اسماعيل صديقاً رجباً للنقد السياسي اللهم إلا ما يمس شخصه فلصاحبه الويل والثبور كما حدث لمدير الأهرام سنة ١٨٧٩ ، حين أشار إلى مال صرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكاد اسماعيل يبطش به ويحريده لولا أن ارتقى في حضن فرنسا فحمته ، كما وجدوا من اسماعيل تشجيعاً للحركة الأدبية وميلاً للأدب والفن والعلم . ومن الصحف المصرية التي ظهرت في عهد اسماعيل :

#### ١ - مجلة اليعسوب :

وهي أول هذه الصحف المصرية ، وهي مجلة طبية أصدرها الدكتوران محمد علي البقلي ، وإبراهيم الدسوقي ، وكانت شهرية عربية اللغة ، وهذا يدلنا على عظم المحاولة التي كان يبذلها أطباء البعثات العلمية في تذليل اللغة العربية للمصطلحات العلمية ، والاستعانة بالكتب القديمة ، وبوضع كلمات من عندهم - على سبيل الاشتقاق - ولقد كانت هذه المجلة الأولى من نوعها في الشرق ، ولكنها للأسف لم تعمّر طويلاً ، ومنها نماذج بدار الكتب وكان ظهورها سنة ١٨٦٥ .

#### ٢ - مجلة روضة المدارس :

أنشأها العلامة علي مبارك سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف المصرية ، وهي من أجل أعماله خدمة للغة والأدب ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والإنفاق عليها ، وقد أسست لإحياء الآداب العربية ،

ونشر المعارف الحديثة ، وأسندت رئاسة تحريرها للعالم الأديب رفاعة الطهطاوي ، فقد رأى علي مبارك أن رفاعة أجدر الناس أن يتولى الإشراف على روضة المدارس ، وفي ذلك يقول : « لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس ، وهو المشار إليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل إنسان ، ناسب أن يحمل هذه الصحيفة تحت نظارته ، لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين ، وينشر عليها ، فيتلقاه محب المعارف باليمن » .

وقد صدر رفاعة بك أول عدد منها بمقال بئين فيه الهدف الذي تسعى إليه المجلة ، والخطة التي تسير عليها لبلوغ هذا الهدف ، ومما جاء في هذا المقال قوله : بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة ، أقرب تناولاً للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة ، واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ، ولا متجتمعة لصعب التراكيب ، ومعان رجيحة تنفرط في سلك مستحسن الأساليب .

وقال : « وقد تزهت صحيفتنا هذه بما سوى ما يخص نشر فائدة علمية ، ومحمدة أثرية مما يقع عليه الاختيار ولا ضرار ، فليس من وظائفها تقييد الأحوال السياسية الوقتية ، والأفعال الرئاسية والإدارية » .

ومن الذين أسهموا في تحرير المجلة عبد الله فكري الذي أحيلت عليه العلوم العربية والفنون الأدبية ، و « بروكش » ناظر مدرسة اللسان المصري القديم وخص بالتاريخ ، وإسماعيل الفلكي وعهد إليه بالفلك ، ومحمد قدرى وخص بالجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد ندا وعهد إليه ببيان المواد النباتية ، والشيخ عثمان مدوخ ، وطلب منه إمداد المجلة بغرائب النواوير والمضحكات والألغاز والأحاجي والنكات ، وأحيل على مباشر

تحريرها الكلام على محروسة مصر القاهرة ، وذكر أخطاها وشوارعها ، وأحيلت كافة العلوم الرياضية على مدرسي المدارس ، وما يرد منهم في القابل ، يذكر اسم صاحبه ، حتى لا يضيع عمل عامل (١) .

وقد ضم الى هيئة التحرير بعد إنشائها السيد صالح مجدي وكيل ديوان المدارس ، والشيخ حسونه النواوي مدرس الفقه وعلم الكلام بمدرسة الألسن وصار فيما بعد شيخاً للأزهر . وأسندت مباشرة تحريرها وترتيب مقالاتها الى علي فهمي ولد رفاة ( بك ) ، وكان مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، واتخذت المجلة شعارها :

تعلم العلم واقراً      تحز فخر النبوة  
فالله قال ليحي      ( خذ الكتاب بقوة )

فكانت هذه المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب في ذلك العصر ، وقد عنيت كما رأيت بالمباحث الطريفة في العلم والأدب والاجتماع والفلك والتاريخ والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين في الشهر ، وظلت تصدر ثماني سنوات ، فهدت السبيل للصحافة الحديثة ، وكانت توزع بالهجان على جميع التلاميذ ، وقد أفسحت أعمدها للطلبة ينشرون أبحاثهم الجيدة فيها فعودتهم بذلك الاطلاع والكتابة والبحث ، وبذل الجهد المستقل عن أساتذتهم .

ومن الأمثلة على تشجيع المجلة للتلاميذ ما نشرته « للشاب النجيب » ،

---

(١) العدد الاول من مجلة روضة المدارس.

اسماعيل أفندي صبري أحد تلاميذ مدرسة الإدارة وقتئذ ، وقد صار  
فيما بعد الشاعر المشهور اسماعيل ( باشا ) صبري .

فن ذلك قصيدته في مدح الخديو اسماعيل بالعدد العشرين من السنة  
الأولى مطلعها :

سفرت\* فلاح لنا هلال سعود ونما الغرام بقلبي المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد الخامس من السنة الثانية قال فيها :

أغررتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در\*

وقصيدة أخرى بالعدد الثالث والعشرين من السنة الثانية استهلها  
بقوله :

لا والهوى العذري والوجد عذل عذولي فيك لا يجدي

إني مع الصد وطول الجفا باق على الميثاق والمهد \*

وغير ذلك مما يعد مقدمة وباكورة للشعر الحديث (١) .

٢ - أما الصحف السياسية بمصر فأقدمها ظهوراً جريدة ( وادي

---

(١) راجع تاريخ الحركة القومية لعبد الرافعي ج ٣ ص ٤٩٨ ترجمة رفاعة  
الطهطاوي وعصر اسماعيل له كذلك ج ٢ ص ٢٦٢ وديوان إسماعيل صبري ص  
٢ - ١٠ وأعداد مجلة روضة المدارس .

النيل ) أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود (١) ؛ وكانت تصدر مرتين في الأسبوع على شكل المجلات ثم ألقتها الحكومة في سنة ١٨٨٣ ؛ بيد أنها استأنفت جهادها وحياتها باسم جديد هو « روضة الأخبار » التي أصدرها محمد أنسي نجل عبد الله أبي السعود ، وكان والده محرر القسم السياسي بها الى آخر حياته .

٤ - وتليها في الظهور جريدة ( نزهة الأفكار ) سنة ١٨٦٩ لمنشئها إبراهيم المويلحي ، ومحمد عثمان جلال ، وناهيك بها في ذلك العصر فعولة قلم ، وجزالة أسلوب وطرافة موضوع وحلاوة نكتة ، وكانت هذه الجريدة أسبوعية ، ولكن لسوء الحظ لم يصدر منها إلا عددان ، وضاق بها إسماعيل ذرعاً ، فعطلها حين نصحه بذلك أحد وزرائه خشية أن تثير لهجتها الخواطر ضده .

٥ - - وأنشأ بعض الأقباط بمصر في سنة ١٨٧٧ ، جريدة الوطن ، وكانت سياسية وطنية تميل الى التحرر .

ثم نزع عقب حوادث سنة ١٨٦٠ في سوريا (٢) جماعة من الأدباء الذين فروا بحريتهم من الاضطهاد ؛ جاءوا وقلوبهم تنفس بالحقد والإحن على تركيا ، وفي نفوسهم ميل الى الحرية والتنفيس عن الآراء المكبوتة .

---

(١) توفي سنة ١٨٧٨ وهو من أوائل تلاميذ رفاعة الطهطاوي ؛ واشتغل بالتدريس بدار العلوم واشتهر بالترجمة والكتابة في التاريخ . وصار عضو بمجلس الاستئناف .

(٢) في هذه السنة زاد اضطهاد الأتراك لمسيحي سوريا ، وقامت مذابح في جبل لبنان ذهب ضحيتها عدد كبير من المسيحيين . واضطر كثير من سكان القرى بحبل =

وقد شجعهم اسماعيل على الإقامة بمصر ، والإسهام في نهضتها ؟ ولا نستطيع أن ننكر ما أسدوه للصحافة ولتنشر الثقافة من خدمات .

ومن أوائل الذين وفدوا على مصر عقب هذه الحوادث الدامية .

### أديب إسحق :

وهو فلتة من فلتات الزمن . استطاع مع حداثة سنه أن يتوهج في سماء الأدب والسياسة والخطابة نجماً ساطعاً ، وأن يكون مدرسة انشائية يحتذى الأدباء والخطباء . وكان من الذين امتلأت قلوبهم بحب مصر والشرق ، ورأى الأجانب الطامعين ، والمرزقة والأفاقيين ، فأضرمتها عليهم ناراً مشبوبة ، لا تحمد لها جذوة في كل مكان حل به ، وما ارتحل وشرد في سبيل مبدئه وفيض وطنيته وحرارة أسلوبه حتى احترق صغيراً ومات ولما يفته العقد الثالث من عمره .

ولد أديب إسحق سنة ١٨٥٦ من أبوين سوريين : ونشأ ببلبنان ، وتعلم العربية والفرنسية في مدرسة الآباء العازاريين ، واضطر الى الكدح في سبيل العيش وهو صغير ، ودرس التركية في أوقات فراغه ، ثم انضم الى والده في خدمة بريد بيروت . وقد ظهرت ميوله الأدبية في حديثه فمهد اليه وهو في السابعة عشرة بتحرير جريدة ( التقدم ) .

---

= لبنان إلى الهجرة . وذلك لأن نصارى الشام قد أظهروا ولائهم لإبراهيم باشا وكرمهم للحكم التركي أيام وجوده بينهم . فلما سحبت الجيوش المصرية ظلوا على ولائهم لمصر ، فانتقم الأتراك منهم شر انتقام .

وكان الى عمله الصحفي يترجم عن الفرنسية ويؤلف ، وانتمى الى جمعية ( زهرة الآداب ) ثم صار رئيساً لها فيما بعد . وقد ترجم ( أندروماك ) لراسين ؛ وساعد صديقه ( سليم نقاش ) في تأليف المسرحيات ، وتمثيلها ، ولحق به في الأسكندرية . وكانت فرقتها التمثيلية من أوائل الفرق العربية ، وعرب أديب رواية ( شارلمان ) وأعجب بها المصريون إعجاباً عظيماً<sup>(١)</sup> وألف رواية ( غرائب الاتفاق ) .

وحن الى الصحافة فذهب الى القاهرة ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني . وأنشأ هو وصديقه سليم نقاش جريدة ( مصر ) سنة ١٨٧٧ وكانت أسبوعية ، وقد تأثرا فيها بتعاليم جمال الدين الأفغاني وأسلوبه الملتب ، أنشأها وهما مفلسان لا يملكان غير عشرين ( فرنكاً ) بيد أن أسلوبها وقوة بيانها ، وجدة أفكارها ، ودعوتها الجريئة للحرية ، قد ضمنت لها الإقبال ، والرواج ، ورحب بها الذين يحبون القلم القوي ، والأسلوب الجزل والأفكار الجريئة ؛ واندفع كاتبها كالبركان يرسل ناراً ، ونوراً ، وينفس عن نفسه ما طالما كبت فيها وهو ببيروت ، وما ذاقه وقومه من اضطهاد وظلم على أيدي الأتراك ؛ فحركت الهمم وأعادت للأسلوب الرفيع عزته .

وقد وجد أديب إسحق وسليم نقاش في رواج ( مصر ) ما شجعهما على إصدار جريدة يومية سماها ( التجارة ) وكانت لا تقل عن أختها حماسة وقوة ، ونشر فيها جمال الدين الأفغاني بعض المقالات ، نارة مبهورة بتوقيعه ، ونارة بتوقيعه مستعار ، وقد ألفاها رياض باشا

---

(1) M, Sapry ; La Genése de l, Esprit Natoinal Egyptian p, 228



سنة ١٨٨٠ .

ولكن ذلك لم يثن من عزيمة ( أديب إسحق ) فهاجر إلى باريس .  
واستأنف جهاده وأصدر ثمة جريدة ( القاهرة ) بالعربية وقال في  
مقالها الأول : « ما تغيرت الحقيقة بتغير الاسم ، بل هي مصر خادمة  
مصر » .

وقد حرص في أثناء مقامه بباريس على معرفة عدد كبير من ساسة  
فرنسا وعلمائها حتى روى فيكتور هوجو أنه قال لمن كانوا في حضرته ،  
على أثر انصراف أديب : هذا نابغة الشرق . ولكن برد باريس ،  
وإسرافه على نفسه في كل شيء قد جنى على صدره ، فرجع الى لبنان  
ملتسماً الشفاء ، وعاد الى تحرير جريدة التقدم مرة أخرى .

وحين تغيرت الأحوال في مصر دعى إليها ، وعين مديراً لقلم الإنشاء  
والترجمة بوزارة المعارف ، وسمح لجريدة مصر بالظهور ، وشغل وظيفة  
أخرى بجانب وظيفته الأولى حيث عين كاتب سر مجلس شورى القوانين  
وحين قامت الثورة العربية واشتد لظاها عاد الى بيروت ثم رجع الى  
الإسكندرية ، ثم اشتد به مرض الصدر ، فعاد الى لبنان حيث مات  
بقرية الحدث بالقرب من بيروت وهو في التاسعة والعشرين من عمره سنة  
١٨٨٥ . وهي قرية من القرية التي دفن فيها أحمد فارس الشدياق ،  
وهكذا جمع الموت بين علمين من أعلام النهضة الحديثة ورواد الفكر  
والأدب الجديد .

وكان أديب إسحق نارا مسلطة على الاستعمار ، والذل والعبودية ،  
وقد التقى بجمال الدين فزادت حماسه واضطربت النار في فؤاده ،  
فأخرجها شواظاً ملتهباً في كلمات تصب الحُمَم على الأعداء ، وتثير الهمم

الفاخرة ؛ لقد نادى بوجوب اتحاد الأمم العربية ، فسبق زمنه قرناً أو ما يقرب من قرن ، وفي ذلك يقول : « ماضر زعماء هذه الأمة لو سارت منهم الرسائل بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا الى مكان يتذكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد . قد جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة ، تليها العاصفة ، فذرت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، ولت بنا القارعة ووقعت الواقعة فصرنا كأن لم نغن بالأمس ، ولم لكن شيئاً مذكوراً ، فهلم ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، لا نقوم بأمر ذلك فئة بدون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنجن في الوطن إخوان ، تجمنا جامعة اللسان ، وكلنا وإن تعدد الأفراد إنسان .

أحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهادي سدى ، أم لا يملكون ان مثل هذا الاجتماع ، منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصرأ في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربية - يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الضالة التي ينفشون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون .

ان هذا ولا ريب تفكير مشرق ، وقلب عظيم يتجه الاتجاه السليم الذي يجب أن تسير فيه الأمة العربية منذ أن رأت الغرب الجشع يطعم ، ويحد برائته لينهشها الواحدة تلو الأخرى ، ولو فعلت ذلك من أواسط القرن التاسع عشر ما أصابها اليوم ما أصابها .

وكان أديب ممن يعشق حرية الرأي وينادي بالدستور ، وقد كتب مقالاً يرد فيه على الشيخ حمزة فتح الله محرر جريدة ( البرهان ) في سنة

١٨٨١ حين دعا الشيخ الى حكم الفرد يوم افتتاح مجلس النواب ، فقال له أديب :

صفحا لصرف الدهر عن مفواته إن كان هذا اليوم من حسناته

« وكيف لا ؟ وهو حاجة النفس ، وأمنية القلب ، منذ توجهه الخاطر إلى السياسة الوطنية ، وانصرف العزم الى إحياء المهمل ، وانعقدت النية على حفظ الحقوق ، واتحدت الوجهة في القيام بالواجبات ، وهو النشأة التي كست الوطن رداء الفتوة قشياً ، وهو البقية التي غرست للأمة غصن الأمل رطيباً ، وهو مارجوناه زماناً ، ودافعنا الزمن فيه ، وتمنيناه أعواماً وغالبنا الحداث عليه فباحسنه من يوم رد فائت البهاء ، وأحيا مانت الرجاء ، وأعاد شباب الأمة ، وسدل ستور النعمة ، وأظهر مقاصد الأمير ، وأيد مساعي الوزير ، وقضى لبانات النبهاء ، وحقق أماني النزهاء (١) . »

وكان أديب مفرماً بمصر ، محباً لها حباً ملك شفاف قلبه ، مثله في ذلك مثل الشدياق ، ولا بدع فقد آوته في غربته ، وأعطته الحرية التي حرمها في وطنه ، وأفسحت له مجال العمل ، وقدرت جهده ، حتى منحه الخديو الرتبة الثالثة بيده ، وأنزلت كفاءته منزلتها فعيثته في الوظائف الكبيرة ؛ ثم إنها ملجأ الأحرار ، وزعيمة الشرق العربي ، ونهوضها - كما كان ذلك رأي أستاذه جمال الدين - نهوض للمرب أجمعين ، وفي مصر يقول أديب : « ومصر ، ولا حياء في الحب ، بلد تركت فيه

---

(١) جريدة في مصر ٢٩ من يناير ١٨٨٢ .

زهرة أيام الشباب ، وختلفت غرس الآداب ، وهززت غصن الأمانى رطيباً ،  
ولبست ثوب الأمال قشيباً ، فما عدلت بي عن حبها النكبة ، ولا أنستني  
عهدها الغربة ، ولست أول محب زاده البعد وجداً ، ولم ينكت على  
العهد عهداً ، فحذار أهل مصر إن العدو لكم بالمرصاد ، وإنكم لمخوفون  
بالميون والأرصاد .

واستمع إليه يقول في الحزب الوطني وأمانيه وأنه « يريد أن يكون  
المصري في مقام الإنسان ، مستقلاً بوجوده متمتعاً باستقلاله ، فأنزاً بحقوقه ،  
ناهضاً بواجباته ، وتريدونه بمنزلة الحيوان ، يساق للموت ، فإن عجز  
فلسلخ ، ويطلب أن يكون الوطني آمناً في داره ، مساوياً لجاره ، يستغل  
زرعه ، ويستدر ضرعه ، وتلتمسون أن يكون غريباً في آله ، مصادراً  
بماله ، يطعم من بحرته ، ويؤمن من يروعه ، ويحفظ من يضيعه (١) » .

وكان أديب من ألد أعداء الأجانب ، وإليك بعض نفثاته الحارة  
ضد صحيفة موالية للأجانب وقد كانت تشيد بإلغائهم بعض الضرائب  
لتمكن أقدامهم في احتلال مصر : « فهل خفي عن تلك الصحف أنه  
ليس من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ او لم تعلم أن  
القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بأخطا مداركهم ، لا يطعمهم هذا  
الفتات ، الا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع  
التصريح ، علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره

---

(١) جريدة في مصر ٢٩ من يناير ١٨٨٢ .

النور ، فإذا حاولت إظهاره سارع الى إطفائه بتعطيلها وإلغائها .

يا أهل مصر :

اني محدثكم حديثاً غريباً : اذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسغياهم وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، واذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم الى نساءكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها .

كان أديب جندياً من جنود الحرية ، ومصر ، والعروبة ، ولما عطلت جريدة التجارة أسبوعين أول الأمر دُبح مقالاً جاء فيه : ولئن ساءنا أن جاءنا ذلك الإخطار بلوم ، وعقاب أليم ، لقد سرنا أن تكون الجرائد موضعاً للنظر ، ومجالاً للنقد ، ولم نر في القصاص شيئاً يستعين به اللائم ، او مصاباً يعتضد به الشامت ، فإن « التجارة » تحسب حب الوطن ديناً والمدافعة عنه جهاداً ، فإن عاشت فيه سعيدة ، وان ماتت فهي شهيدة ، ولقد آتاه الله النعمتين ، وأتاح لها الحسينين ، فعاشت به ، وماتت عليه ، وستبعث بعد اسبوعين ، رافلة في ثوب الشهادة ، مزينة بحلى السعادة على الرغم من أنوف حاسديها ، الذين أولوا كلامنا الى ما لم نقصد ، وسعوا فيها بما لم يخطر على قلوبنا ، وحاولوا اطفاء نور الحق ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره المبطلون <sup>(١)</sup> .

ولم يثنه تعطل جريدته وتزوجه الى باريس عن غايته المثلى ، وهي العمل على ايقاظ الشرق العربي ، والدعوة للحرية ، وطرد الأجانب من البلاد ، وقد أعلن خطة جريدته « القاهرة » التي أصدرها بباريس بقوله :

---

(١) التجارة العدد ١٨٧ في ١٣ من فبراير ١٨٧٩ .

اني « لا أقصد الى الانتقام ، وإنما أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق ،  
والمدافعة عن الشرق وآله ، وعن الفضل ورجاله ، فسلكي ان أكشف  
حقائق الأمور ، ملتزماً جانب التصريح ، متجافياً عن التعريض والتلميح ،  
وأن أجلوا مبادئ الحرية ، وآراء ذوي النقد ، ومقصدي أن أثير بقية  
الحمية الشرقية ، وأهيج فضالة الدم العربي ، وأرفع الغشاوة عن أعين  
الساذجين ، وأحيي الفيرة في قلوب العارفين ، ليعلم قومي ان لهم حقاً  
مسلوباً فيلتمسوه ، ومالاً منهوباً فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ،  
ويذبذبا عنهم كل مُدّاس يشتري بحقوقهم ثمناً قليلاً ، ويذيقوا الحائنين  
عذاباً وبيلاً ، وليستصغروا لأنفس والنفائس في جنب حقوقهم ، وليستमितوا  
في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم » .

وأسلوب أديب أسلوب قوي متين ، افتن في تدبيجه وانتقاء الفاظه ،  
وحلاه بالسجع على عادة كتاب ذلك الوقت ، ولكنه ليس بالسجع السخيف  
المتعمد ، ولكنه سجع قريب من سجع ابن العميد ، والصاحب ابن عباد ،  
والصابي ، لا من سجع الحريري والقاضي الفاضل . إنه حقاً حفل بالأسلوب  
كما حفل بالمعنى ، وأحيا الكتابة العربية المنمقة القوية أيام كانت في القرن  
الرابع الهجري ، ونقول مع ( مارون عبود ) (١) : « أما الذي يترأى لي  
من آثاره الكتابية ومن أسلوبه ، فهو أنه ناري الشعور ، متقد الخاطر ،  
ثوري من الطراز الأول ، كأنه كان في رفقة الحجاج يوم دخل الكوفة  
وقد انتشر النهار ، يرسل عباراته فتتأز أزيز السهم ، وقد فارق الوتر .  
جل كأنها مقطوعة على نط واحد ، لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ،  
يشد بعضها بعضاً فتؤلف مقالته كتيبة جاحمة ، إذا راعتها منفردة لا تحس  
لها مفعولاً عظيماً ، ولكنها تؤلف كلا تخرج منه النفس ، وقد ملأها

---

(١) مجلة الكتاب فبراير ١٩٤٨ .

هذا الكلام اندفاعاً واستبسالاً .

ويقول : « نثر كأنه الشعر يرصعه بأبيات إما من الشعر القديم ، وإما من نظمه هو فيأتي مقاله عجاجاً زاخراً حين يحدد ويشدد كقوله : « هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء ، فتنبت الأرض عناء ، فلا تجد على سطحها إلا جسوماً ضاوية ، في ديار خاوية ، وقلوباً تحترق في بلاد تحت رق » .

وهو يراعي الموسيقى في نثره أكثر من شعره فيتعمد ما كانت تتعمده مدرسة ابن العميد من أفعال مختلفة تتحرك لها الجملة فتحرك قارئها تواءً ، وإن ذهب أثرها من عقله بعد حين كقوله :

« هو الجهل حتى تضيع الأخطار ، وتقنى الأقدار ، وتبطل الهمم ، ويعفو القلم ، ويدرس الفهم ، ويستمل الحامل ، ويستولى الجاهل ، وتنخفض الرؤوس ، وتقض النفوس وحتى ترى :

بكل أرض وطنتها أمم      تُرعى بعبد كأنها غنم

يستخشن الخنز حين يلبسه      وكان يبري بظفره القلم

ومن شعره الذي جرى مجرى الأمثال ، وإن لم يكن من الشعراء المجلين ، وإن اشتهر بنثره أكثر مما اشتهر بشعره قوله :

قتلُ امرئ في غابة      جريمةٌ لا تغفر

وقتلُ شرب آمن      مسألة فيها نظر

والحق للقوة لا      يُعطاء إلا من ظفر

ومن ذلك قوله :

|                       |                            |
|-----------------------|----------------------------|
| حسب المرأة قوم آفة    | من يدانيها من الناس هلك    |
| ورآها غيرهم أمانة     | ملك النعمة فيها من ملك     |
| فتمنى معشر لو نبذت    | وظلام الليل مشد الحلك      |
| وتمنى غيرهم لو جعلت   | في جبين الليث أو قلب الفلك |
| وصواب القول لا يحمله  | حاكم في مسلك الحق سلك      |
| إنما المرأة مرآة بها  | كل ما تنظره منك ولك        |
| فهي شيطان إذا أفسدتها | وإذا أصلحتها فهي ملك       |

إذا كان الشدياق قد وضع أسس المقالة الحديثة في صحيفة الجوائب ،  
وهجر الأسلوب المرصع المسجوع في الكتابة الصحفية ، واقتفى أثره  
كثيرون شغلوا بالصحافة ، ورأوا ذلك ادنى لأن يفهموا من جمهرة  
القراء ، وأسرع في الإبانة عن المعاني الكثيرة التي يريدون الإفضاء بها  
واستقصائها ، فإن فضل أديب إسحق على الأسلوب الأدبي لا ينكر ، وقد  
قلده كثيرون ممن كتبوا المقالة ، وكانوا من أنصار الشدياق بادئ الأمر ،  
وعلى نهجه جرى جبران ، ونجيب حداد وغيرهما من أفاضل السوريين ،  
ولكن الصحافة لم تحتل هذا الأسلوب ، ورجعت الى البساطة في التعبير ؛  
وإن ظل أسلوب أديب الذي أحيا به كتابة القرن الرابع نموذجاً للأدباء  
في أواخر القرن الماضي . وأوائل القرن الحاضر .

ومن السوريين الصحفيين سليم الحوي صاحب جريدة ( الكوكب الثوري )



سنة ١٨٧٣ . ولكنها كانت قصيرة العمر . ومنهم سليم ونشارة تقلا . وقد أصدر ( الأهرام ) بالأسكندرية سنة ١٨٧٥ ، وقد لاقت أول أمرها عقبات جمة ، ثم نالت حظاً كبيراً من الرواج ، وكانت تصدر أسبوعية في بدء ظهورها ثم صدرت بجانبها جريدة يومية تسمى ( صدى الأهرام ) فلما عطلت الجريدة اليومية انفردت الأهرام بالظهور ، ودأبت تصدر حتى اليوم ، فهي أقدم الصحف المصرية السياسية ، وإليها يرجع الفضل في تقدم الصحافة المصرية وأخذها بكل جديد من صحافة الغرب . ولقد كانت المقالة أهم شيء في الصحيفة ، حتى خرجت الأهرام على ذلك في سنة ١٩١٢ ، وقدمت الأخبار على المقالة ، والأهرام أول من عُني بالحوادث المصورة ، ولقد ازداد حجمها أحياناً في عهد جبرائيل تقلا حتى بلغ عشرين صفحة ، وقد عنيت عناية فائقة بالأخبار الخارجية ، وصارت نموذجاً لصحف الشرق العربي كله .

ومنهم سليم عنحوري ، وقد أصدر جريدة سياسية سماها ( مرآة الشرق ) ولكنه تنحى عنها في سنة ١٨٧٩ ، وتولاها إبراهيم اللقاني بإيعاز من السيد جمال الدين الأفغاني ، وقد أنشأ الشيخ يعقوب صنوع اليهودي صحيفتين سياسيتين وهما ( مرآة الأحوال ) صدرت في لندن سنة ١٨٧٦ ، و ( أبو نضارة ) صدرت في القاهرة سنة ١٨٧٧ . ويعقوب صنوع إسرائيلي مصري ولد سنة ١٨٣٩ ، وكان يتقن التوراة ، وقرأ الإنجيل والقرآن ، وتعلم في إيطاليا على نفقة أحمد باشا يكن ، وهو أول من أنشأ مسرحاً عربياً في القاهرة سنة ١٨٧٠ وأعجب به الحديو اسماعيل وكان يسميه ( مولير مصر ) منحه المنح ، وأمدّه بالعون ، وحضر بعض تمثيلاته تشجيعاً له ، وقد ألف نحو اثنتين وثلاثين مسرحية في موضوعات جدية وهزلية . وسافر الى أوروبا سنة ١٨٨٤ وبقي فيها فترة ، ولما عاد الى مصر اتصل بالسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ، وكان يعلمها الفرنسية .

وكانت « أبو نضارة » من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وكان صاحبها

مبالاً للفكاهة والدعابة ، وقيل إن السيد جمال الدين هو الذي اوحى إليه بإصدار جريدته لا تنقاد سياسة اسماعيل . وكانت ( ابو نضارة ) اول جريدة هزلية سياسية صدرت بمصر ، وقد نفاه اسماعيل فرحل الى ( باريس ) ، واستأنف إصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضا الخديوي ومنقداً اعماله ؛ ولم يخل عدد منها من صور تعرض تعرضاً شديداً بالخديوي اسماعيل ، فلقبت رواجاً ، واستمر الشيخ صنوع يصدر جريدته الى ما بعد الاحتلال ، وكان معادياً للإنجليز وتوفي سنة ١٩١٢ .

وعلى العموم فقد بلغ عدد الصحف التي ظهرت في عهد اسماعيل ما يقرب من عشرين صحيفة ، ومعظمها ظهر في اواخر ايامه ؛ وقد اطلق لها الحرية في الكتابة . وكان يميل الى هذه الحرية في اخريات عهده حين اصطدم بالمطامع الأوروبية . وكانت هذه الصحف تندد بسياسة الاوربيين وجشعهم ونواياهم . وتشعر الناس بتدخلهم السياسي . وتحمل عليهم حملات شديدة اللاهجة . فكان ذلك يروق اسماعيل . ولكن لم يكن يرضى ان يتعرض كاتب ما لسياسته الخاصة او لشخصه .

### تعقيب :

هذه النهضة الصحفية خلصت اللغة من اسرها القديم . واوضارها التي ورثتها من عصور الضعف . وخاضت في موضوعات شتى كما ذكرنا . وسلس الاسلوب . واحتذى الصحفيون اسلوب ابن خلدون في مقدمته . ذلك الاسلوب المرسل السهل . واذا وازنا بين اسلوب النثر الصحفي في هذا العهد الذي نتحدث عنه ، واسلوب الكتابة في العصر السابق وجدنا البون شاسعاً . وقد

مرت بك نماذج من هذه الكتابة الصحفية يتجلى فيها أثر التحرر اللغوي والفكري ، وقوة البيان ، وطرافة الموضوع ، وإليك ما قال بعض قادة النهضة الصحفية في الحث على العلم والاهتمام بالبيان ، وطريقة الكتابة ، راسمين للشاذين في الصحافة الطريقة القويمة .

١ - يقول أحمد فارس الشدياق :

« من الناس من يتعلم ، وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدى ورشداً وورعاً ودماًئة أخلاق ، وحسن تصرف ، واستقامة طبع ، ونزاهة نفس ، وصفاء عقيدة ، وإخلاص مودة ، وسلامة نية ، وعفة قلب ولسان ، وانبساط يد ، فمثل كمثل الجواهر الشفاف إذا قابله شعاع الشمس ، أو كمثل إثناء من زجاج نظيف صاف إذا وضع فيه الماء لم يغير من طبعه شيئاً ، فتراه دائماً مقبلاً على نفع الناس ساعياً في إصلاح شئونهم ، وتسنية أحوالهم ، بإذلاً أقصى جهده في تسكين خواطرهم ، ولم شعثهم ، وتأليف مفترقهم ، وتسليية حزينهم ، وإرشاد غاويهم ، وتأبيد ضعيفهم ، وليس من همه التردد على أبواب الأمراء والخضوع لحجابهم ... الخ (١) » .

٢ - ويقول أديب إسحق :

« الكتابة صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات بوضع صحيح ، وأسلوب صريح فهي ذات ثلاثة أركان : الخاطر المراد إيضاحه وهو الإنشاء ، والوضع الذي يبدو به ذلك الإيضاح وهو البيان ، والكيفية التي يحصل بها ذلك وهو الأسلوب » .

---

(١) مجالي الغرر ج ٢ ص ١٧٧ .

ويقول أديب إسحق كذلك :

رأيت أن أصرف العناية إلى تهذيب العبارة وتقريب الإشارة ؛ لتقريب المعنى في الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام ما كان غريباً وحشياً ، ومبتذلاً سوقياً ، فإن التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى في القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم ، والتنازل الى ألفاظ العامة يقضي بإماتة اللغة ، وإضاعة محاسنها وان في لغة القوم لدليلاً على حالهم .

وقد عدل أديب إسحق عن أسلوبه المنمق في أخريات حياته ، ولا سيما في بعض مقالاته الصحفية وفي ذلك يقول : « قد التزمت لهذا المطلب أسلوب التقرير . وعدلت فيه عن منهج الخطابة الشعرية ، لا اعتقادي بأن الأسلوب الخطابي ، وان كان أسرع تأثيراً في القلوب وأحسن وقعاً في الأذهان ، الا أنه قد يميل بالكاتب الى جانب التخيل الوهمي في مكان التقرير العلمي ، فيرتفع بيانه عن المدارك التي سيقت اليها الملكات الحسية ، فلا يبقى بها من محل للملكة الخيال المسماة شعراً ، فيفوت الغرض المقصود من البيان والبلاغة ، وهو تقرير المعاني في الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام ، ولهذا سأرسل فيه الكلام ارسال مقرر مبين ، ولا أتكلفه تكلف منمق مُزّن ، فإن أحكام التقرير منافية لهذا التمويه الذي يسمونه بديعاً » .

ويقول : « النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة ، الا ما يكون من وضع الكلام في مواضعه ، وايتار ما يألوه السمع والطبع منه ، فهو من هذا الوجه مقدم على سائر أنواع الكلام ، بل هو الأصل في الإنشاء ، وما سواه فرع منه ، فإنه طبيعي أصيل ،

وما دونه صناعي حادث ، والأصل في الطبيعة لا محالة ؛ يدل على ذلك أن هذا الكلام المقتفى الذي يسمونه سجعاً لا يكاد يوجد في غير اللسان العربي ، فلو كان طبيعياً لوجب أن يكون في جميع اللغات ، أو في الممدودة منها أصولاً على الأقل (١) .

٣ - ويقول السيد عبد الله النديم في العدد الأول من جريدة ( التنكيت والتبكيت ) (٢) .

« إليكم يراعي فاستخدموه في مقترحات أفكاركم العالية . وصحيفتي فاملئوها بأدابكم المألوفة ، وبدائعكم الرائقة ، فاليراع وطني يخاطب القوم بلغتهم ويطعمهم فيما يأملون به ، والصحيفة عربية ، لا تبخل بالعطاء ، ولا ترد الهدية ، وأنتم كرام اللغة وإخوان الوطنية ، فشدوا عضد أخيك بالقبول والإغضاء عن العيوب ، وساعدوه بأفكار توسع دائرة التهذيب ، وافتح أبواب الكمال ، وكونوا معي في المشرب الذي التزمته : والمذهب الذي انتحلته . أفكار تحليلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادي بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ، لنتعاون بهذه الخدمة على نحو ما صرنا به مثلة في الوجود من ركوب متن الفواية ، واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل . »

وترى من هذه النماذج كيف كان القوم يجاهدون في سبيل العلم وفتح الأذهان المفلقة ، وتحبيب الناس في الثقافة ، والإشادة بفضل المتعلمين في زمن كانت فيه الأمة لا تزال تحبو في طريق النور ، وكيف وضعوا أسس تحرر اللغة من أسر السجع والتكلف ، ورسموا قواعد

---

(١) مجالي الفرع ج ٢ ص ٦ .

(٢) صدرت سنة ١٨٨١ . راجع سلافة النديم ص ٧٧ .

الإنشاء الصحيح لمن يريد أن يتخذ الكتابة حرفة ، وكيف سغروا القلم  
القوي الجريء في خدمة الوطن ، وجعلوا الصحف ميداناً للأفكار الطيبة  
والأدب الرفيع والدعوات الإصلاحية الحرة ، وبذلك كانت الصحافة  
منارة من منارات النهضة العربية الأدبية . ارتفعت هذه المنارة في عهد  
إسماعيل ، وظلت ترسل النور قوياً يبدد سدفة الجهل ويهدي الضالين  
إلى اليوم .

- ٤ -

## الطباعة :

نهضت الطباعة نهضة عظيمة في عهد اسماعيل ، إذ وجهت الحكومة  
عنايتها إلى مطبعة بولاق ، وما زالت بها حتى صارت أرقى مطبعة في  
الشرق ، وأسست مصنعاً للورق بمد مصالحها المختلفة بالورق في سنة  
١٨٧١ ، ويزود المشتغلين بالعلم والطباعة ، والتجار بكل ما يحتاجون  
إليه . ولقد سهل هذا الأمر على المشتغلين بالعلوم ، وشجعهم على النتاج  
المثمل ، وكاد نتاج الورق بمصر يعطل ما يرد من أوروبا حينذاك .

وأنشئت بجوار مطبعة بولاق عدة مطابع أهلية أهمها مطبعة جمعية  
المعارف التي تكلمنا عنها آنفاً ، ثم المطبعة الأهلية القبطية التي جلبها من  
أوروبا الأنبا كرلس الرابع سنة ١٨٦٠ في عهد سعيد باشا . ومطبعة ( وادي  
النيل ) لمحمد أبو السعود أفندي ، ومطبعة ( مجلة روضة المدارس )  
والمطبعة الوطنية بالاسكندرية ... وغير ذلك من المطابع التي كان لها

الفضل الأكبر في نشر الكتب الحديثة ، وتيسير الاطلاع ، والنهوض باللغة والأدب وشئون التعليم .

ومن أشهر الكتب القديمة التي طبعت في تلك الحقبة : المثل السائر ، والأغاني ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للثعالبي ، ووفيات الأعيان ، وإحياء علوم الدين للغزالي ، وتفسير الرازي ، والبخاري ( شرح القسطلاني ) ، وحياة الحيوان ، ونفح الطيب ، وقانون ابن سينا في الطب ، وتذكرة داود ، وغير ذلك من نفائس الكتب التي عملت على تغذية العقل بنتاج السلف ، وتهذيب اللغة وتقويمها .

- ٥ -

### الترجمة والتأليف :

كانت التركية لا تزال ذات سطوة في مصر حتى عصر اسماعيل ولكنه عمد الى تمصير الحكومة ولفتها ؛ حتى يسهل انفصاله عن الدولة العثمانية ، وأصدر أمراً يجعل صور الأوامر واللوائح وكل ما سبق صدوره من الإجراءات منذ عهد محمد علي عربية ، كما أمر بطبعها ، فما كان منها عربياً يطبع كما هو ، وما كان تركياً تطبع معه ترجمته العربية <sup>(١)</sup> ، ولقد كان الأمر باستعمال اللغة العربية أداة التعبير الحكومية سابقاً لأوانه ؛ لافتقار

---

(١) حركة الترجمة بمصر لجاك تاجر ص ٦٢ .

البلاد لعدد كبير ممن يحذقون اللغة العربية ، ولا سيما بعد ذلك الركود الذي أصاب التعليم على يد عباس وسعيد ، ثم ان ترجمة هذه القوانين الكثيرة التي صدرت منذ عهد محمد علي تحتاج الى وقت طويل ، ولذلك ظلت للتركية بعض السطوة ، وإن اخذت تدريجياً تفصح مكانها للعربية حتى أوشكت أن تحل محلها نهائياً في أخريات عصر إسماعيل .

ومما ساعد على الاهتمام بالترجمة في عهد إسماعيل ازدياد النفوذ الأجنبي ، وكثرة من وفدوا الى مصر من هؤلاء الأجانب تجاراً ومغامرين ، ولا سيما بعد فتح قناة السويس ، فأنشئوا المصارف والدور التجارية الكبرى ، ودخلوا في خدمة الحكومة مديرين وفنيين وعلى الأخص حين اضطربت مالية البلاد .

واهتم إسماعيل باللغة الفرنسية اهتماماً زائداً ، لأنها كانت منذ عهد محمد علي هي اللغة التعليمية الأولى لرجال البعثات .

وظل الأمر في تدريس المواد العلمية كما كان في عهد محمد علي محتاجاً الى وساطة بين التلاميذ والمدرس الأجنبي . ولكن حينما أعيدت مدرسة الألسن سنة ١٨٦٨ ، وأخذ تلاميذ رفاعة الطهطاوي يشرفون عليها ، تهضت الترجمة نوعاً ما ، وتولى رفاعة بك رئاسة قلم الترجمة ، واشترك في تعريب القانون الفرنسي مع عبد الله أبي السعود وغيره .

واستمرت حركة الترجمة في أوائل عهد إسماعيل مصبوعة بالصبغة العلمية ، ومعظم ما ترجم حينذاك كان في العلوم كالهندسة والطب والصناعات العسكرية وغيرها ، وذلك لشدة حاجة البلاد الى هذا النوع من التعليم . وإن كان بعض تلاميذ رفاعة قد اهتموا بالنواحي الأدبية من قانون وتاريخ وأدب .



فنجده عبد الله أبا السعود الصحفي والسياسي يترجم ( نظم اللائي في السلوك في من حكم فرنسا من الملوك ) . و ( قناسة أهل العصر في خلاصة تاريخ مصر ) ، تأليف ( أوغست مارييت بك ) وبأثر ترجمة تاريخ عام مطول واسمه « الدرس الثام في التاريخ العام » . وتاريخ الديار المصرية في عهد الدولة المحمدية العلوية تأليف ( برنار الفرنسي ) .

ومن كان لهم أثر في الترجمة والادب العربي ، وكان صاحب مدرسة لها نهجها الخاص ، واحتذى حذوها الادباء من بعده .

#### محمد عثمان جلال :

وهو مصري من صميم الريف . ولد في ( ونا القس ) بمديرية بني سويف سنة ١٨٢٨ . وتلقى العلم في مدرسة قصر العيني . ثم في مدرسة اللسن . وكان من نبهاء تلامذة رفاة الطهطاوي وشغل عدة مناصب حكومية . وكان آخر ما تولاه منها منصب القضاء في المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١ . وتوفي في سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة .

امتاز محمد عثمان جلال بأنه يمثل الروح المصرية أتم تمثيل ، في خفتها ، وحبها للنكتة . ومرحها الجم . وقد اختلط كثيراً بالعامية ، وعرف أمثالهم ونواديرهم ، ومواعظهم وعرف كذلك ميولهم الفطرية ، وحبهم للقصص العربية . وامتاز أيضاً بأنه كان أديباً مطبوعاً ، ثائراً ، على المدرسة التقليدية التي تحاكي الأدب القديم في محسناته وفخامته ، وموضوعاته ، فكان يعتمد أولاً على تجربته الشخصية يستوحىها ويستلهمها . ويعبر عما يُعسه ، وعما يهديه إليه فكره ، فهو في أدبه يمثل القاهرة والريف

المصري ، لا بغداد وقرطبة ولا البلاد العربية وصحراءها . وهذا لعمرى هو الأدب الصادق ، ولولا ما شاب أدبه من اسفاف في اللفظ وجنوح الى العامية ، إفراطاً منه في مصريته ، لكان من أفذاذ الأدباء المصريين أصحاب المبادئ في الأدب ، وقد نقد في كتابه ( العيون اليواقظ ) هؤلاء الذين يدعون الى الأدب التقليدي ولا يستلهمون مشاعرهم الخاصة ، وأساليبهم المبتكرة :

يقولون ما هذا الكتاب وما به      أكاذيب أقوال البهائم في قبح  
وقد زعموا أن البلاغة لم تكن      بأحسن مما قيل في القد والرمح  
وتشبيه لون الخد بالورد واللظى      وتمثيل نور الوجه إن لاح بالصبح<sup>(١)</sup>

وقد غالى في مصريته وثورته على الأدب التقليدي ، فأكثر من استعمال العامية ، سواء في كتبه الموضوعية أو في ترجمته للروايات المسرحية . ومن أشهر كتبه التي تمثل هذه الروح المصرية المرحية ، وتدل على شدة تأثيره بعامية الشعب في أمثالهم كتابه الذي أشرنا إليه سابقاً وهو « العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ » الذي ترجم به أمثال « لافونتين » La Fontaine شعراً<sup>(٢)</sup> ، وقد شحنه محمد عثمان جلال بكثير من الأمثال العامية ، من مثل قوله :

---

(١) العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ ص ١٠٢ .

(٢) لافونتين شاعر فرنسي مشهور ولد في سنة ١٦٢١ ، وتوفي بباريس سنة ١٦٩٥ ، وقد اشتهر بكتابه ( القصص ، والأمثال ) أما ( القصص ) فقد أهمل فيه الأخلاق ، ولكنه ممتلئ بالحيلوية ، وكتاب الأمثال هو أشهر الكتابين ، ولا يزال =

فإنما تأخذ من سماطي ما تأخذ الريح من البلاط<sup>(١)</sup>

وقوله : واحذر مدى الايام كل ساهي فإن تحت رأسه الدواهي<sup>(٢)</sup>

وقوله : ان كان بالتوت غضبان هلّبت يرضيه شرابه<sup>(٣)</sup>

وقوله : صدقي حاجة ما تهلك وصّي عليها جوز أمك<sup>(٤)</sup>

ولفته في هذا الكتاب اما عامية دارجة ، أو عربية قريبة من العامية ، ومن أمثلة هذه القصص قوله :

كان البخيل عنده دجاجة تكفيه طول الدهر شرّ الحاجة

في كل يوم مرّ تعطيه العجب وهي تبيض بيضة من الذهب

فطن يوماً أن فيها كنزاً وأنه يزداد منه عزاً

فقبض الدجاجة المسكين وكان في يمينه سكتين

---

= حتى اليوم ذا منزلة عظيمة في عالم الادب ، وقد نظم فيه كثيراً من القصص الرمزية وقصصاً على السنة الحيوان من أمثال تلك التي في كلبلة ودمنة ، بل إن كثيراً منها مأخوذة من كلبلة ودمنة الذي ترجم إلى كل اللغات الأوروبية منذ القرن الرابع عشر .

راجع ( Nouveau Petit La rouse Illustré p. 1479 )

(١) الميون اليواقظ ص ١٤٩ .

(٢) ص ١٦٤ .

(٣) ص ٩٩ .

(٤) ص ١٧٦ .

وشقها نصفين من غفلته إذ هي كالدجاج في حضرتها

ولم يجد كنزاً ولا لقينة بل رمة في حجره مرمية

فقال لا شك بأن الطمعا ضيع للإنسان ما قد جمعا

وقد كان لهذا الكتاب تأثير كبير في أدب الأطفال في عصرنا الحاضر ، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الأطفال من قصة مأخوذة منه بنصها ، أو محرفة بعض التحريف أو منشورة . بل إن بعض المشتغلين بكتب الأطفال لم يتخرجوا في أن ينسبوا بعض قصصه إلى أنفسهم . وعلى منواله نسج شوقي كثيراً من القصص الرمزية أو قصص الحيوان ، ويقال إن قصص ( لا فونتين ) هذه التي ترجمها محمد عثمان جلال مأخوذة من قصص ( إيسوب <sup>(١)</sup> ) .

هذا وقد ترجم عثمان جلال بعض روايات ( مولير <sup>(٢)</sup> ) الهزلية : ( الأربع روايات من نخب التيسرات ) منها رواية ( ترقوف ) ، وسماها ( الشيخ متلوف ) ومثلت مراراً على المسرح المصري . ومنها ( النساء العالمات ) وقد مضى أشخاص هذه الروايات وكتبها باللغة العامية .

---

(١) ( إيسوب ) صاحب الخرافات يوناني ولد بعد تأسيس روما بآثني سنة ، وكان عبداً وقيلاً وإليه تنسب هذه القصص التي قيات على ألسنة الحيوان ، وكثير منها شرقي : هندي وصيني ، وفارسي وعربي ، وقد ترجم قيس إغريقي في القرن الرابع عشر كثيراً من القصص الشرقية ونسبها إلى إيسوب .  
( Masterpiece Library of Short Stories vol. I, P. 15 )

(٢) مولير Molière شاعر فرنسي ولد ببيريس سنة ١٦٢٢ . واشتهر برواياته التمثيلية الهزلية ، ومن أشهرها : النساء المتحذقات ، والطبيب رغم أنه ، وترقوف ، ومدرسة النساء ، وتوفي سنة ١٦٧٣ ( Petit Larousse Illustré ) . راجع كتابنا ( المسرحية : نشأتها وتاريخها وأصولها - فصل الملهاة ) .

وترجم كذلك بعض روايات راسين<sup>(١)</sup> ( وسماها ( الروايات المفيدة في علم التراجييدة ) وقد قال في مقدمتها : « وجعلت نظمها يفهمه المعموم فإن اللغة الدارجة أنسب لهذا المقام ، وأوقع في النفس عند الخواص والعوام<sup>(٢)</sup> » .

وألّف محمد عثمان جلال رواية بالعامية عن الخدم والمخدومين ، ويقول الأستاذ العقاد عن ملكة عثمان القصصية عند الحديث عن هذه الرواية : « قد كان له ملكة قيمة في فن القصة والرواية المسرحية ، فكانت هذه الملكة تنزع به إلى نظم الزجل غالباً والشعر أحياناً في وصف ما يقع له من النوادر والفكاهات والرياضيات ، ومن ذلك زجله في الأزهار وزجله في المأكولات ، وأقوم منهما كليهما روايته المسرحية عن المخدمين والخدم ، وهي باكورة في وضع الروايات المصرية ، وتمثيل البيت المصري ، والمجتمع الوطني يندر ما يقارنها بين روايات هذا الجيل ، وبحقّ يسمى محمد عثمان جلال أبا المسرحيات الوطنية في العصر الحديث<sup>(٣)</sup> » .

وقد يحار المرء في تحليل هذا الاتجاه الذي انخرط إليه عثمان جلال ، وإثارة اللغة العامية مع تمكنه من اللغة الفصحى . أما الدكتور طه حسين فيرى أن ذلك لضعفه في اللغة العربية . وذلك حين يقول :

---

( ١ ) راسين Racine شاعر فرنسي اشتهر بمآسيه ولد سنة ١٦٣٩ ، وكان صديقاً لموليير ، وللأفونتتين ، وقد بلغ المثل الأعلى في كتابة المأساة المسرحية على الطريقة ( الكلاسيكية ) الاتباعية ومن أشهر مآسيه : أندروماك ، وقد ترجمها أديب اسحق كامر بنّا ، و ( باجازيت أو بابازيد ) وآنيل ، وتوفي في سنة ١٦٦٩ ( راجع كتابنا المسرحية )

( ٢ ) مقدمة الروايات المفيدة في علم التراجييدة .

( ٣ ) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للعقاد ص ١١٧ .

« فأخذ الذوق يتغير ، وكان تفسيره قوياً ، ظهر في مظهرين مختلفين ، أحدهما إشار اللغة العامية على لغة الأدب المصري ، والآخر إشار اللغة القديمة ، والأساليب القديمة على لغة العصر وأساليبه ، ورأينا رجلاً كعثمان جلال قد أعجبه الأدب الفرنسي ، وأراد أن ينقل إلى قومه صوراً منه ، ولم يكن من الأدب القديم على حظ قوي ، ورأى أن الأدب المصري أدنى إلى الموت من أن يحتمل هذا الأدب الفرنسي ، فيترجم لقومه ، أو قل ينقل إلى قومه تمثيل مولير في الزجل العامي لا في الشعر العربي (١) » .

على أن هذا الكلام على ما به من وجاهة لا يؤخذ على إطلاقه ؛ فمحمد عثمان جلال قد ترجم (بول وفرجينى) كما سنذكر فيما بعد بأسلوب عربي فصيح ، كما قال كثيراً من الشعر باللغة الفصحى ، فهو لم يكن بهذه المنزلة من الضعف اللغوي حتى يمجز عن ترجمة أمثال لافونتين ، وهزليات مولير ، ومآسى راسين ويضع رواية باللغة العامية .

ولعل من الأسباب غير ما ذكره الدكتور طه حسين ، عظم تأثير الروح المصرية في كل شيء ، وتغصبه للهجة العامية التي هي لغة جمهرة الشعب ، وقد يكون ذلك الغرض تجاري بحث ؛ إذ لم يجد للأدب الرفيع سوقاً راجحة فأقبل على التحدث إلى جمهرة الشعب باللغة التي يفهمونها لعلهم يقبلون على كتبه ، وليس أدل على رواج هذه الكتب التي تكتب بالعامية من قول الشيخ محمد عبده : « منها الكتب المضرة بالأدب والأخلاق ، كتب الأكاذيب الصرفة ، وهي ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة ، ومن

---

( ١ ) حافظ وشوقي ، .

هذا القبيل كتب أبو زيد وعنترة المبرسي ، وإبراهيم بن حسن ، والظاهر ببيرس . والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير . وقد طبعت كتبه مئات المرات ونفق سوقها ، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل (١) . ويقول عثمان جلال مؤيداً هذا الرأي حين حاول نشر (العيون اليواظ) : « واشتغلت بإتمام العيون اليواظ ، وعرضتها على الوالي بواسطة المرحوم مصطفى فاضل ، وكان أوصلني إليه محمد علي الحكيم ، فما أثمر غرسها ، فاتفقت مع فرناساوي له مطبعة من الحجر يسمى يوسف بير ، وعهده بطبعها فتعهد ، ثم أخلف ما وعد ؛ فكلفت مطبعة أكبر من مطبعته ، وصرفت عليها ما جمعت ، ونشرتها ، ثم باعت الحمار وبعتها ، وقلت في ذلك .

|                   |                    |
|-------------------|--------------------|
| راجي الحال عبيط   | وآخر الزمر طيب     |
| والناس فائنان بخت | مروج وقلبط         |
| والعلم من غير حظ  | لا شك جهل بسيط (٢) |

وقد يكون من الأسباب التي دعت إلى ترجمة المسرحيات وكتابتها باللغة الدارجة إقبال الفرق التمثيلية على هذا النوع دون سواه ولا سيما بعد أن أغلقت أبواب (الأوبرا) التي كانت يشجعها اسماعيل ، وهيب الممثلين فيها والمؤلفين لها بعض المال ، ويحصر الروايات بنفسه وكان التأليف حينذاك باللغة الفصحى ، فلما أغلقت الأوبرا أبوابها ؛ إذ عد التمثيل ترفاً وإسرافاً ، وأنشئت الفرق الخاصة واعتمدت على الجمهور ،

( ١ ) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لمحمد رشيد رضا ج ٢ ص ١٦٤ .

( ٢ ) الخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٦٤ .

اضطرت إلى مجاراة في لغته ، وإلى التأليف له بالعامية حتى يقبل على مسارحها .

وإذا أحسنا الظن بعثمان جلال قلنا : إنه جارى المصلحين في نزولهم إلى مستوى الشعب حتى يكون لكلامهم أثره ، ولم ينظروا للأدب إلا بمقدار ما يؤثر في النفوس ، وقد رأى عثمان جلال انتشار الأدب الرخيص وإقبال الجمهور على سماعه في المقاهي من أمثال قصة أبي زيد ، وعنقرة والظاهر بيبرس وغيرها ، فأراد أن يوجد لهم أدباً أسمى موضوعاً ، ولكن لا بُد من كتابته باللغة التي يفهمونها ، ولا سيما حين منعت الحكومة طبع كتب الأدب الرخيص ؛ إذ وجدت فيها ضرراً عظيماً ، ولبت نداء المصلحين بمنع تداولها <sup>(١)</sup> .

وربما كان من حسن الظن بعثمان جلال أنه قد أدباه الغرب في إنطاقهم أشخاص رواياتهم بلهجاتهم المألوفة ، ورأى أنه ليس من المعقول أن ينطق الخادم مثلاً باللغة العربية الفصحى ، ولما كان جمهرة أبطاله من عامة الشعب لجأ إلى اللغة العامية لتكون شخصياتهم مطابقة لواقع الحياة ، خالية من التكلف والصنعة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا النوع من الأدب لم يكتب له الخلود ؛ لأن اللغة العامية ، وإن كانت قريبة من الشعب ، تنبض بالحياة وتجدد كل يوم ، فهي لغة لا أصل لها ، ولا نظام ، ولا قاعدة ، ولذلك أهمل كل ما كتب بها ، وإن كنت لا أبرئ محمد عثمان جلال من مماثلته للإنجليز في حملتهم على اللغة العربية ، وترويجهم للغة الدارجة ، لأنه كان إبان عصر القوة - عصر اسماعيل - يكتب بالفصحى ، فلما انقضى هذا العهد ، ورأى المحتلين يشجعون اللغة العامية ويماضهم المبشرون

---

(١) الوقائع المصرية العدد ١١٠٩ - ١١ مايو ١٨٨١ .



والمستشرقون أمثال مارغمان Martman ، ويشجعونه على الكتابة والتأليف باللغة العامية ، وهم أصحاب الحول والطول ، وعلى طريقته تلك <sup>(١)</sup> . وقد كان لمحمد عثمان جلال ومسرحياته ، وكتابته باللغة العامية أثر في الجيل الذي أتى بعده ، إذ حذا حذوه « هيكمل » في رواية « زينب » التي نشرها أول الأمر سنة ١٩١٤ باللغة العامية ، ومحمد تيمور ومحمود تيمور فيما أخرجوا من قصص . ولكن زينب أهملت كذلك ، لأنها كتبت بالعامية ، ويقول الأستاذ المازني في شأنها . « وأعتقد أن الدكتور هيكمل يوافقني الآن على ذلك - أنه لو كتبها باللغة الفصحى - فلأن فيها عامياً غير قليل - لكان أثرها أسرع في إزخار هذا التيار الجديد » <sup>(٢)</sup>

ولم يجرؤ هيكمل ، كما لم يجرؤ من قبله محمد عثمان جلال ، وقد كتبنا باللغة العامية ، على الجهر بأنها ألفتا هذه الروايات العامية ، وإلا انحطت منزلتها الأدبية ، ولذلك نرى عثمان جلال يرمز إلى اسمه بالحروف الأولى ( م . ع . ج . ) على الروايات ( المفيدة في التراجيدة ) و ( والأربع روايات من نخب التياترات ) . كما يكتب هيكمل عن نفسه حين نشر ( زينب ) لأول مرة بقوله : ( زينب - مناظر وأخلاق ريفية - بقلم مصري فلاح ) ؛ وذلك لعلها بأن اللغة العامية ليست لها مكانة ، وأنها يحاولون بعثها وخلقها ، ولكن هيهات .

ومن الكتب التي ترجمها محمد عثمان جلال عن الفرنسية رواية ( بول وفرجين ) للكاتب الفرنسي ( برناردين دي سان بيير ) <sup>(٣)</sup> . وقد

---

(1) The Encyclopedia of Islam, Vol, II p. 983,

(٢) الأهرام ١٩ مارس سنة ١٩٣٧ كلمة المازني في تكريم هيكمل .

(٣) برناردين دي سان بيير Bernardin de Saint Pierr كاتب فرنسي من دعاة الرجوع إلى الطبيعة ولد في سنة ١٧٣٧ وتوفي في سنة ١٨٠٤ ومن أشهر كتبه : بول وفرجين ، ودراسة الطبيعة .

صنفها عثمان جلال بالصيغة المصرية كماداتها ، وسماها ( الأمانى والمنة في حديث قبول وورْدَ جَنَّة ) ، وتصرف فيها بالزيادة والنقصان ، ولكنه حرص في كثير من الأحيان على روح الرواية وأصلها ، وقد قال في تصدير الكتاب : « أخرجته من الطبع الأفرنجية ، وجعلته على عوائد الأمة العربية ، فمن تصفحه بعين النقد ، رأى القد على القد ، ومن قاسه بمقياس المقابلة ، وطبق آخره وأوله رأى فذاً قرّن بتوأم . وعلم أن من ترجم فقد ترجم ، ثم كتبته على ورق الخنة ، وسميته قبول وورْدَ جَنَّة ، لمقارنة مخرج الاسمين ، ومطابقته في لفظه اللغتين . ولقد ترجمت هذه الرواية بعد ذلك عدة تراجم أشهرها ترجمة المتفولطي التي سماها « الفضيلة » ، وقد خلع عليها ثوباً قشياً من أدبه وأسلوبه ، وترجمته يغلب عليها الروح الأجنبية وينقصها الروح المصري الذي اشتهر به عثمان جلال (١) .

وكان لعثمان جلال الفضل في تنبيه الأدباء إلى هذه الرواية وحاول كثير منهم ترجمتها كما ذكرنا . وقد التزم عثمان جلال الأسلوب المسجوع ، القصير ، السهل العبارة ، استمع إليه يصف حال ورد جنة قبل فراقها لقبول ، وسفرها إلى خالتها :

« ولما جاء العشاء ، وجلس الكل على المائدة ، وكان جلوسهم بغير فائدة ، إذ كان لكل شأن يقنيه ، وشاغل يشغله ويليه ، يأكلون قليلاً ، ولا يقولون قِيلاً ، ثم ما أسرع ما قامت ورد جنة أولاً ، وجلست في مكان غير بعيد في الخلاء ، فتبعها قبول ، وجلس بجانبها ومكثت تراقبه ومكث يراقبها ، وانقضت عليها ساعة ، ومما ساكنان ، ولبعضها ملتفتان .

---

(1) H. R. Gibb. B. S. O. S. Vol. VII part. I : p. 2 — 3 .

وكانت ليلة نيرة ، ذات سماء مقمرة ، زائدة الإتحاف والإلطاف ،  
لا يرسمها رسام ، ولا يصفها وصاف ، قد نزل البدر منها منزلة القلب ،  
ونشر أشعته على الشرق والغرب ، فما يستره إلا أثر الضباب ، وبمض  
سحاب كأنه حين تجلى على بساط الحضرة بدر عليه من الفضة بدرة ،  
وكان الريح ممسكاً نفسه ، والليل مطلقاً همسه ، فلا يسمع في الغابات  
ولا في الوديان ، لا صوت إنسان ولا صوت حيوان إلا مناغاة الطيور  
في أوكارها ، ومداعبتها مع صفارها ، مسرورين بضيائه ، وسكون الجو  
في جميع أرجائه .

وكان عثمان جلال كثيراً ما يُنطق « قبول وورد جنة » بالشعر العربي  
الفصيح مع اعترافه بأنها « لم يتعلما الكتابة ولا القراءة ، بل نشأ على  
السذاجة والبراءة ، فلا يفكران في أزمان مضت ، ولا ليال انقضت ،  
بل قام بعقولهما الصغيرة أن الدنيا قد انحصرت في هذه الجزيرة ، وأن  
لا لذة لهما فوق لذتها ، ولا شغل لهما إلا حب أمهاتهما » (١) .

ومن ذلك الشعر قول ورد جنة ، تذكر لهن الأمهات على أولادهن ،  
وذلك قبل أن تسافر إلى خالتها لتبتدىء تعلمها لديها :

يا ويح قلبي على نساء      قد لقّبوهن بالأمهات

يحملن طول الزمان كما      على البنين أو البنات

وكل خير لهن ماضٍ      وكل خير لهن آت

ما تم حظ لهن إلا      بدله الله بالمات

---

(١) الأماني والمئة ص ١٨ .

فقال لها قبول وقد أحسن أن يقول .

وحي لك يا أختاه وما اعترى قلبي وما آتاه  
لترين اليوم أمهاتنا ولنبيتن معا في بيتنا (١)

وأسلوب عثمان جلال في ( بول وفرجينى ) كما ترى من الأساليب  
الحالية من التعقيد والتي تنطلق في يسر ورشاقة ، ويدل على تمكنه من  
اللغتين الفرنسية والعربية ، فقد حرص على الأصل كل الحرص ، وأداء  
بخير أداء ، ولولا تمصيره لأشخاص الرواية ، وجعله الكنيسة مسجداً ،  
وبرج ناقوسها مثذنة ، وصنفاها بالصبغة المصرية الخالصة لجاءت ترجمته  
مثلاً في الترجمة ؛ إذ أضفى عليها من الأمانة ، وخفة الظل ، وسهولة  
اللفظ شيئاً كثيراً .

ومن الذين اشتهروا بالترجمة خليفة محمود ، وقد ترجم « إتحاف الملوك  
الالبّا بتقدم الجمعيات في بلاد أوربا » ، وكتاب « إتحاف ملوك الزمان  
بتاريخ الإمبراطور شرلكان » . وترجم محمد أحمد عبد الرزاق كتاب  
« غاية الادب في خلاصة تاريخ العرب » تأليف المؤرخ الفرنسي ( سيديللو )  
وترجم بشارة شديد رواية « الكونت دي مونت كريستو » تأليف  
( اسكندر دوماس ) ، وجاءت بعبارة « بسيطة ليكون ذلك سهلاً على  
عامة الناس » كما يقول المترجم .

وترجم حسن عاصم خطبة ( رينان ) الفرنسي ، وموضوعها « الدين  
الإسلامي والأمة العربية » . وترجم مراد مختار من التركية « قصة أبي  
علي بن سينا وشقيقه أبي الحارث » وما حصل منها من نوارد المعجائب ،  
وشوارد الغرائب .

---

(٢) المصدر السابق ص ٢٩ . (١) نسخة بخط عثمان جلال

وهذه أم الكتب الأدبية التي ترجمت في عصر اسماعيل : ويقول  
قدري باشا : ان مستوى الترجمة قد هبط بمصر بعد أن أغلقت مدرسة  
الألسن ، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الأكفاء في التعريب ،  
ولذلك استعانت الحكومة بالأجانب .

نعم ان مدرسة الألسن قد أعيدت في عهد اسماعيل كما ذكرنا ، بيد  
أن تخريج المترجمين لم يكن موضع عناية ، ولا سيما بعد أن تحولت الى  
مدرسة للحقوق سنة ١٨٨٦ .

أما التأليف فقد خطا خطوات لأبأس بها ولا سيما في القانون والتاريخ  
والعلوم ، فقد ألف قدري باشا ثلاثة كتب رتب فيها أحكام الشريعة  
الإسلامية في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية والوقف ، على مذهب  
أبي حنيفة ، وصاغها في شكل مواد قانونية ، وهي كتاب « مرشد  
الخيران الى معرفة أحوال الإنسان » في المعاملات الشرعية ، وكتاب  
« قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف » .

أما التأليف في العلوم فهناك عشرات الكتب من تأليف علي البقلي ،  
والشافعي ، ومحمد بيومي ، وصالح مجدي ، ومحمد سليمان ، وهو أول من  
برع في الترجمة من الإنجليزية .

وقد ذكر قدري باشا<sup>(١)</sup> أن تلاميذ رفاة بك عربوا نحو ألف  
كتاب أو رسالة في مختلف العلوم والفنون ، وأن جميع الذين نبغوا في

---

(١) تاريخ الحركة القومية لمبد الرحمن الرافعي ص ٥١١ .

الترجمة كانت لهم مؤلفات قيمة .

هذا وقد تأسست حكومة اسماعيل في فتح المدارس والمعاهد على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، واقتضى ذلك تنسيق العلوم والمواد المختلفة لأصغار التلاميذ ، فألفت الكتب العربية شاملة كل نواحي العلم من : حساب وجغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وحيوان وحياة ولغة . الى غير ذلك مما مهد السبيل لبلوغ النهضة ذروتها في عصرنا الحالي .

### النهضة في بلاد الشام :

- ٦ -

لا نستطيع أن ننفل أثر السوريين في الأدب ابان القرن التاسع عشر وفي عصرنا الحاضر ، ولقد ساعدتهم على النهوض ، ومكنهم من خدمة اللغة حرصهم على التعليم ، ووجود الإرساليات التبشيرية .

والباحث في نهضة سوريا التعليمية معجب أشد العجب ، لأن الأتراك تركوا البلاد تتخبط في ديجور مطبق من الجهالة ردياً طويلاً من الزمن ، ولم ينشئوا من المدارس الا القليل الذي لا يكاد يذكر ، وهي مدارس لا يجاوز ما تلقنه لتلاميذها مبادئ العلوم . وكان أكثر الذين بنوا مدارس دمشق غرباء عنها ، وقد ظلت المدارس التي أسست في عهد ملوك الطوائف مفتوحة للطلاب قبل زمن الأتراك ، بيد أن الناس قد فسدوا في القرون الأخيرة وتوفروا على التهام تلك المدارس وأوقافها .

وكان معظم هذه المدارس دينية : فمدرسة للفقه الحنفي ، وأخرى للشافعي ، وثالثة للمالكي ، ورابعة للحنبلي . ومنها مدارس لدراسة القرآن وتجويده ، ومنها دور الحديث ، وكان هناك مدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، غير أن كل هذه المدارس قد أغلقت بعد دخول الأتراك بلاد الشام (١) .

ولما رأى الأتراك أن مصر ولبنان قد ساروا خطوات واسعة في درج النهضة العلمية لم يستطيعوا أن يغمضوا أعينهم عن التأخر والفساد والجهل الذي كان فاشياً في سوريا ، وقد وكل إليهم أمرها ، فأسسوا في أخريات أيامهم مدرسة للحقوق هي إحدى كليات الجامعة السورية ، وأنشأوا مدرسة التجهيز والمعلمين سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٢ م (٢) .

وفي سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٠ م صدرت إرادة السلطان عبد الحميد بإنشاء مدرسة طبية بدمشق ، وأن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة ، ومثلها لنفقتها ولوازمها ؛ وذلك لأن بيروت أخذت تخرج أبناء البلاد في مدرستها الأجنبية : الأمريكية واليسوعية (٣) .

أما غير دمشق من مدن الشام فكانت مقفرة من المدارس تقريباً إلا حلب ، وهي أكبر مدن سوريا . وقد عمرت قديماً بكثير من المدارس ، ولكنها خربت على يد العثمانيين . وجاء في تقويم ١٢٣٢ هـ ١٩١٢ أن بحلب الشهاب اثنتين وثلاثين مدرسة ، وما نظن العامر منها يتجاوز العشر (٤) .

---

(١) خطط الشام لكرد علي ص ٦٩ ج ٦ .

(٢) راجع خطط الشام لكرد علي ص ١٠٢ ج ٦ .

(٣) نفس المرجع ص ١٠٤ .

(٤) خطط الشام لكرد علي ص ١١ ج ٦ .

وإذا كانت دمشق وحلب لم يسعدهما الحظ بالنهوض السريع ، فإن نصارى لبنان كانوا أسبق الى اليقظة من اخوانهم المسلمين في دمشق وغيرها ؛ بفضل الإرساليات التبشيرية ، ولصلة النصارى الدائمة بأوروبا المسيحية يستمدون منها القوة ضد الدولة العثمانية المتعصبة .

وكان التعليم في لبنان - كما كان في غيره - دينياً ، ومن أوائل المدارس التي أسست فيه ( مدرسة عين ورقة ) سنة ١٨٧٩ ، وكانت ديراً ثم حولت الى مدرسة ، وكانت تدرس فيها اللغة السريانية ، والعربية ، والفصاحة ، والمنطق واللاهوت .

ولكن المدارس لم تنتشر ، والنهضة لم تعم البلاد الا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر حين أسست مدرسة ( عينطورا ) سنة ١٨٣٤ م ولا تزال مفتوحة الأبواب حتى اليوم ، وقد تعلم فيها عدد من زعماء النهضة اللبنانية الحالية . ولما وفد على لبنان الدكتور ( فاندريك ) الأمريكي مبشراً بالدين المسيحي والمذهب البروتستانتي ، ورأى البلاد في حاجة للمدارس العلمية أنشأ مدرسة ( عبية ) سنة ١٨٤٧ .

كانت كل هذه المدارس في الجبل ، لأنه موئل المسيحية ، فلما وقعت مذابح سنة ١٨٦٠ ونزح كثير من أهل الجبل الى بيروت ، ابتدأت الإرساليات تفتح المدارس فيها ، ومن ذلك الوقت تبدى النهضة الحقيقية بلبنان .

وأقدم مدرسة أنشئت في بيروت كانت للبنات اليتامى اللاتي فقدن آباءهن في مذابح سنة ١٨٦٠ وأسستها ( مسز طمن ) في تلك السنة ، ثم المدرسة الكلية الإنجليزية الأمريكية للبنات سنة ١٨٦١ ، وقد كان لهاذين المدرستين أثر عظيم في النهضة لأن تعليم الام أول خطوة في



تعليم الشعب . وقد كثرت مدارس البنات في لبنان خاصة بعد ذلك كثرة ملحوظة ، ولا ريب في أن الام المتعلمة لن ترضى لاولادها الجهل .

ومن أوائل مدارس البنين : المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني في سنة ١٨٦٣ ، وكانت ممتازة بصفتها الوطنية ، وحرية الدين ، ولكنها تعطلت سنة ١٨٧١ . وأنشئت المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٥ . ومدرسة الحكمة في نفس السنة وهي للطائفة المارونية . وأقدم المدارس الإسلامية هي كلية المقاصد الخيرية الإسلامية سنة ١٨٨٠ .

أما التعليم العالي فيتمثل في الكلية الأمريكية والكلية اليسوعية ، وقد أنشئت الأولى ببيروت سنة ١٨٦٦ ، وبها الآن فروع للطب ، والفلك ، وطب الأسنان ، والتجارة ، والآثار ، والآداب ، ولها قسم إحصائي ثانوي ، وبها مرصد فلكي : ولما قوي نفوذ الإنجليز في الشرق بعد الحرب العالمية الأولى وصار تعلم الإنجليزية ضرورياً اتسعت الجامعة الأمريكية ، وزاد إقبال الطلاب عليها ، وقصدوها من كل البلاد العربية وبها ما يقرب من خمسة آلاف طالب ، وقد اتسعت مبانيها ، وألحق بها مستشفى عظيم ، ولها عناية بالمؤلفات العربية (١) :

أما الكلية اليسوعية فقد نقلت الى بيروت سنة ١٨٧٤ ، وتعلم اللغات والآداب والطبيعات والرياضيات ، وبها ثلاث شعب رئيسية : الحقوق

---

(١) من أشهر أساتذتها الذين عرفناهم الرئيس ( دودج ) ، والأستاذ بولس الخولي أستاذ التربية ، والأستاذ أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي ، والدكتور قسطنطين زريق ( وكان مديراً للجامعة السورية ) والدكتور شارل مالك وقد صار وزيراً مفوضاً بالولايات المتحدة ، والدكتور أسد رستم ناشر مخطوطات الشام في عهد محمد علي ، والدكتور مصطفى الخالدي .

والطب والهندسة ، ولها مستشفى كبير ، والتعليم فيها باللغة الفرنسية ،  
وبها مكتبة من أنفس المكتبات العربية ، ومطبوعات اليسوعيين ذات  
شهرة عظيمة .

كان لهذه النهضة التعليمية في لبنان أثر بالغ في ثقافة الشعب ،  
والإقبال على القراءة والتنافس في أسباب الرقي بين الطوائف المختلفة ، كل  
طائفة تسعى لان تبز الاخرى وتحتل دونها مركزاً أدبياً ممتازاً في  
القطر الصغير

ولكن كثيراً من أدباء لبنان في القرن التاسع عشر قد آثروا الهجرة  
إلى مصر ، لاضطهاد تركيا لهم ، ولضيق المجال أمام تفوقهم في  
بلادهم . ومن أشهر من وفد على مصر من هؤلاء الادباء غير من ذكرنا  
سابقاً من الصحفيين : جورجي زيدان ، وطانيوس عبده ، وأديب إسحاق ،  
ومركيس ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر<sup>(١)</sup> . وقد نشر زيدان في مجلة  
الهلال كثيراً من البحوث المترجمة ، واختصت المقتطف بالابحاث العلمية .  
ومن أشهر آثار اللبنانيين في الترجمة تعريب الإلياذة شعراً ، وقام بهذا  
العمل الضخم سليمان البستاني<sup>(٢)</sup> .

ولكن للأسف قد طغت الفرنسية على أهالي لبنان بعد الحرب العالمية

---

(١) وسنترجم لهم في الأجزاء التالية من كتاب الادب الحديث إن شاء الله .

(٢) ولد سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٩٢٥ ، وابتدأ في ترجمة الإلياذة سنة  
١٨٨٧ بالقاهرة ، وتعلم اليونانية ليترجم الإلياذة . ونظمها في أحد عشر ألف بيت  
غير متقيد بوزن واحد ولا قافية واحدة بل استعمل كل ضروب الشعر وبحوره .  
وانتهى من نظمها سنة ١٨٩٥ ، وشرحها وعلق عليها بألف بيت من الشعر وبكثير من  
القصص العربية ، وانتهى من شرحها سنة ١٩٠٢ ، ونشرت لأول مرة كاملة بشرحها  
ومقدمتها سنة ١٩٠٤ .

الأولى حينما خضعت بلادهم لحكم فرنسا ، ففرضت الفرنسية في جميع المدارس ، تعلم بها كل المواد ما عدا اللغة العربية فاستعجمت السنة شباههم وأدبائهم ، وركت أساليبهم ، وضعفت الترجمة إلى حد كبير ، ولا سيما عند المسيحيين . أما المسلمون فقد انصرفوا للتجارة ، وإن كانوا أصبح لغة من إخوانهم ، ولولا شعراء الجيل الماضي وأدباؤه لتأخرت منزلة لبنان في الأدب ، على أن هذا الوضع قد تغير نوعاً ما بعد ثورة ١٩٤٥ ، واستقلال لبنان ، وأخذت النهضة الأدبية فيه تشتد وتقوى ، وأسست فيه دور نشر قوية ، وظهرت ثمة بعض الصحف الأدبية الراقية وإن كان أثر الثقافات الأجنبية في نتاج أدبائه واضحاً كل الوضوح ، وأخذ كثير منهم يقلد المذاهب الأدبية الأوروبية بحماسة ظاهرة .



## الفصل الثالث

### الأدب في عصر إسماعيل

لم يكن لهذه النهضة الشاملة ، وهذا الإحياء القوي الذي ظهر في عصر إسماعيل ورجال البعثات أثر كبير في الأدباء الذين نشأوا في عصر محمد علي وعاصروا إسماعيل بعد أن جمدت طباعهم ، ورسخت عاداتهم ، وصار عسيراً عليهم أن يتقبلوا الأفكار الجديدة ويغيروا أسلوبهم في التعبير والتفكير . ولم يكن من المنتظر أن تؤثر النهضة في مثل هؤلاء الأدباء ، ولم يتشربوا مبادئها ، ويسيروا على هداها ، ويتمتعوا بنورها ردحاً طويلاً من الزمن . ولم يكن من السهل التخلص من أوضاع الماضي وتقاليده ولا سيما ذلك الماضي القريب الذي يمت الى عصور الضعف اللغوي والفكري والخلقي ، إذ لم ير الأدباء أمامهم أمثلة تحتذى الا ما قبل في الماضي ان قريباً وان بعيداً . أما الأدب الأوربي القوي فلم يترجم في عصر إسماعيل منه الا شيء يسير وبلغة ضعيفة ولا سيما الروايات المسرحية . ولو عرفه الأدباء ما استساغوه ، لأن ثقافتهم كانت

محدودة ، وكان عصرهم مثقلاً بتلك التقاليد القديمة ، والمدارس قليلة العدد والمتعلمون في الامة يعدون عدداً .

هذا ، وقد كان اهتمام مصر في عهد محمد علي وإسماعيل بالعلوم أعظم من اهتمامها بالأدب ، ولولا ما أخرجته المطبعة العربية حينذاك من الكتب القديمة ، واطلاع المحبين في الأدب والراغبين في التزود من ينابيعه على آثار السلف ، ودواوين كبار الشعراء الذين ظهوروا في عصور القوة لما كان للأدب في مصر والشرق العربي نصيب .

ولما كان الأدب الموروث هو أول ما عرفوا من الآداب كان طبيعياً أن يحتذوه ، ويحاكوه في موضوعاته وأسلوبه ، ومعانيه وأخيلته ، وقد تفاوت الأدباء في هذا التقليد تبعاً لمواهبهم وشخصياتهم ، كما تفاوتوا في اختيار من قلدوهم ، فمنهم :

١ - أدباء لم تكن لهم شخصية "ألبتة" ، بل ساروا في الطريق المعبد الذي سلكه من قبلهم أدباء عصور الانحطاط والضعف ، وذلك هو طريق الشعراء النظاميين أو العروضيين لا يعرفون الشعر والأدب إلا أنه مهارة لفظية وقدرة على التفوه بمبارات شعرية ونثرية لا حياة فيها ولا عاطفة ولا قوة ، وإنما غرضها إظهار البراعة في اقتناص ألوان البديع ؛ حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف ، إذا تعارض الإعراب أو التصريف مع ما يريدونه من جناس أو طباق ، ويفسدون بنية الكلمة ، عساها تصادف ما يجرون وراءه من هذه الحلى التي يسترون بها عوار لغتهم الركيكة وأفكارهم السقيمة ، وخيالاتهم المريضة ، ومثال هذه المدرسة العروضية في عصر إسماعيل : السيد علي أبو النصر ، والشيخ علي الليثي ، ولولا ما بهما من ظرف طبيعى ، ورقة قاهرية ، ولولا أنها ألفا منادمة الأمراء والعظماء ؛ وتطلبت المنادمة منها

أدباً وحلاوة نكتة ، وسرعة بديهة لما خرجا عن نطاق أدباء مصر والشام إبان الدولة العثمانية ، ولما امتازا بشيء عن عباده الشبراوي ، وحسن قويدر وأضرابها .

٢ - أدباء كانت لهم - مع تقليدهم للسلف والأدب الموروث - شخصية ، بيد أن هذه الشخصية كانت تُرى من بعيد ، ومن خلف هذه الحجب الكثيفة من التقاليد ، في العبارات والأساليب والأخيلة ، حائلة غير واضحة ولا مميزة ، ولكنها تدل على أن هذا الأديب قد جاهد في أن ينفذ بشاعريته وأدبه من خلال هذه الحوائل الغليظة ، وإن لم تمكّنه شخصيته القوية ، ولا أدبه المتين من التغلب عليها ، وخير مثل هذا النوع من الأدباء هو : محمود صفوت الساعاتي ، وإبراهيم مرزوق ، وصالح مجدي .

٣ - أدباء قويت شخصيتهم بعض الشيء ، وحاولوا أن يحدودوا ، وأن يلونوا أدبهم بما يُظهر نفسيّتهم ويطبعمه بطابعهم ، وقد نجحوا في ذلك أحياناً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا سيطرة الأدب الموروث ، ولا إغراء المحسنات والزخارف ، فضغقت هذه الشخصية ، وتضاءلت أمام هذا الإغراء ، فجاء أدبهم إبان هذا الضعف من نمط المدرسة الثانية ، ومن هذه المدرسة عبداً فكري ، تراه آنأ ينطلق على سجيته ولا يتقيد بهذه الصناعة السمجة المتكلفة في نثره ، وبهذه الزخرفة اللفظية المجوجة فتتضح شخصيته وتنجلي فكرته ، ويترسل في كتابته فيفهم الناس منه ما يقول دون عناء ، وهذا قليل في كتابته . وآناً يجذبه ذلك الزخرف فيستعدّ ويهتم ويحتفي بموضوعه ويبدل جهداً شديداً في صوغ العبارات ، ويكاد هذا يطغى على شخصيته ، وأكثر نثره وشعره من هذا الطراز .

٤ - وأدباء رزقوا الشخصية الغلابة ، والآدب المتين ، وحاكوا  
النماذج الرفيعة من أدب السلف ، فاستحصدت مرثيتهم ، وعظمت ذخيرتهم  
من الأدب الرصين فزقوا هذه الحجب الكثيفة ، وطرحوها جانباً ،  
وارتفعوا بالشعر والآدب إلى حيث الشمس الساطعة القوية فتراءت معانيه ،  
وتجلت أخيلته ، واهتزت لديباجته الشرقة النفوس ، قلدوا القدماء ،  
بل عارضوهم ، وجروا وإياهم في ميدان واحد . ولكنهم لم يقلدوا الفث  
من الآداب بل عمدوا إلى فحول الشعراء ينسجون على منوالهم وبيارونهم  
في قصائدهم المشهورة الخالدة ، فخلقوا معهم في سمواتهم ، وأضفوا على  
الشعر لوناً جديداً جذاباً لم يستمتع به منذ أمد طويل .

أجل ! لم يكونوا دائماً في قوة فحول الأدباء والشعراء السابقين ، بل  
قصوروا عنهم في كثير من الأوقات ، ولكن حسبهم ان سلم شعرهم من  
هذه العلل والأوصاب التي أزممت لدى الشعر العربي قروناً ، ووصلت  
به إلى درك الغثائية والرككة والعُجمة ، وخير مثل لهذا النوع من الأدباء  
- أستغفر الله - بل باعث الشعر العربي في العصر الحديث ، وصاحب  
هذه اليد الطولى على الأدب هو البارودي .

هذا ، وقد ظهر في أخريات عصر إسماعيل فجر نهضة جديدة في  
الأدب ، لم تكن مدارس إسماعيل ، ولا حركة الإحياء في عهده الباعث  
عليها ، ولكن رغبة إسماعيل في أن يرى مصر بين عشية وضحاها  
قطعة من أوروبا في مدنيتهما وحضارتهما ، جعلته يسرف في مال مصر  
ويبدده في هذا السبيل غير ناظر إلى الشعب ومصيره . واتخذ الأجانب  
من حب إسماعيل للحضارة الأوروبية وسيلة لاستيطان مصر فجاءوا  
زرافات ووحداناً ، يرادون هذه الأرض البكر وينشئون البيوت  
التجارية والمصارف المالية ، ويتقدمون لخدمة الحكومة في جميع مصالحها .



ولما استدان اسماعيل ، وأثقلته ومصر الديون عظم نفوذ هؤلاء الأجانب وشجعتهم حكوماتهم وحتمهم امتيازاتهم ، فكان هذا النفوذ المتزايد سبباً في تنبه المصريين إلى الخطر الدائم الذي ينتظر بلادهم . وتصادف أن كان بمصر الزعيم المصلح السيد جمال الدين الأفغاني - وكان من المهتمين في العصر الحديث - فبث تعاليمه الإصلاحية ، وشجع حركة الاستياء من طغيان النفوذ الأجنبي ، وأخذ يقتحم هذا الحمى الذي ظل قروناً لا يُقرب ، وهو حق الحاكم في التصرف برعاياه وأموالهم ونفوسهم ، فوجه الانتقاد لإسماعيل وحاسبه في الصحف المختلفة التي يكتب فيها أتباعه ومريدوه من أمثال : أديب إسحاق ، وإبراهيم المويلحي ، وسليم نقاش ، وعبد الله نديم ، ويوسف أبو السعود ، وهو من ورائهم يغذيهم بروحه وتشجيعه وآرائه ، ويكتب هو أحياناً مستتراً .

هذه الحركة أنتجت أدباً قومياً حيث وجهت الأدب - ولا سيما النثر - إلى النظر في شئون الشعوب العربية ، والدفاع عن حقوقها ، ووصف أمراضها وأدوائها ، وما تتطلبه هذه الأوصاف من علاج ، ولنا عودة إلى هذا الأدب ومظاهره فيما بعد .

وحرى بنا ، وقد ألقينا هذه النظرة العاجلة على ألوان الأدب في عصر إسماعيل أن نعود إلى هذه الألوان والنماذج فندرسها بشيء من التفصيل .

#### ١ - السيد علي أبو النصر :

مصري شريف النسب من منفلوط ، لا نعرف على التحقيق متى ولد ، وأغلب الظن أنه كان رجلاً فاضحاً في عصر محمد علي حيث أرسله إلى الآستانة في خلافة السلطان عبد الحميد ، ومبعوث محمد علي إلى ( الحضرة

الخليفية ) لن يكون حدثاً غريباً أو شاباً غير مجرب ، بل رجلاً مكتمل العقل والشهرة ؛ ولذلك نرجح أنه ولد في أوائل القرن التاسع عشر وجاء إلى مصر من منفلول وهو صغير السن ، ثم دخل الأزهر وتلقى به العلوم العربية الشرعية ، إلا أنه لم يسر في مرحلة التعليم هذه حتى غايتها ؛ بل ترك العلم واشتغل بالأدب وقد ظهر ميله إليه منذ الصغر . وكان عصر شبابه مقفراً من الأدباء اللامعين ، وكان صفوت الساعاتي في شغل بمدح أمراء الحجاز كما سيأتي ، فقال أبو النصر شهرة ، واتصل بالأسرة الحاكمة ، وبعثه محمد علي كما ذكرنا إلى الآستانة ، وصحب إسماعيل من بعده ، وكان له نديماً وجليساً ، وقد سافر إلى الآستانة مرة ثانية .

لم يكن أبو النصر شاعراً فحسب ، ولكنه كان نديماً أكثر منه شاعراً ؛ وللهندامة صفات كثيرة ، وهي صنعة شاقة . أما هذه الصفات فمنها : الإحاطة بالأدب القديم ، ورواية شعره ونثره ونوادره وأمثاله ، ثم الذكاء الحاد ، وسرعة البديهة ، ومعرفة دخائل النفوس ، ودراسة أحوالها المتباينة . وأهم من هذا طبيعة مرحة ، قادرة على استلال سخائم النفوس ، وبعث الضحك مع الاحتفاظ بالوقار والمنزلة ، حتى لا يمتحن النديم ويهان . وليس الإضحاك أمراً هيناً ولا سيما في مجلس أمير عظيم تشغله أعباء الحكم ، وتحزبه أزمات نفسية كثيرة . والنفس الإنسانية يعتبرها الحزن والسرور والانقباض والانشرائح ، والغضب والرضا . والمفروض في النديم أن يستطيع بعث الضحك في كل حالة ، ولا سيما في حالات الانقباض والحزن ، وأن يُذهب بمرحه وأدبه وضرّ القلوب ، وتجهّم الوجوه ، مع أنه إنسان كسائر الناس له نفس تحزن وتنقبض ، وعقل يفتر ويخبو ، وقرينة تجمد وتبتلد أحياناً .

ولهذا كانت مهمة النديم شاقة ، وعليه أن يخلق الجو المناسب

لنكاته ، وأن يروض الناس على الضحك حين يطلق النكتة ولو لم تكن مستساغة ، وهذا فن يتقنه الموهوبون من الندماء .

ثم إن النديم صدى للحوادث التي تحدث في مجلس الأمير أو العظيم ، يسجلها في أدبه فيقول الشعر في كل المناسبات الممكنة : حين يرحل الأمير ، وحين يعود ، وحين يرتقي أحد أفراد الحاشية أو ينعم عليه بلقب ، وحين يولد مولود جديد ، وفي الأعياد والأفراح والمآتم ، بل في غير ذلك من المناسبات المفاجئة والمعارضة .

وإذا تصفحنا ديوان السيد أبي النصر لم نجد شيئاً غير هذا ، وقلماً يلتفت النديم لنفسه فيظهر لواعج حبها ، أو اهتزاز مشاعرها وعواطفها ، أو يلتفت إلى غير الأمير وحاشيته .

وشعر أبي النصر يمثل كذلك هذه المدرسة التي أثقل أديها بأوزار القديم وآفاته ، فهو مولع بالمحسنات البديعية ، وبالتاريخ الشعري ، وبالألغاز ، وبالتشطير والتلاعب بالألفاظ . والشعر في هذه المدرسة كما ذكرنا صناعة تظهر البراعة والقدرة على صياغة معينة تحقق غرضاً من هذه الأغراض وليس ترجماناً من همسات القلوب ، وأشجان النفوس وأحاديثها ومطية للخيال يخلق في سماواته الواسعة ، أو مفصلاً عن فكرة اختمرت في عقل الشاعر وأبت إلا أن تظهر جلية واضحة ، كما يجب أن يكون الشعر .

ولم يكن مع هذا شعر السيد علي أبو النصر متين النسيج ، قوي العبارة بل هو وسط بين القوة والضعف . وبذلك يكون خير مثال للنظامين أو العرويين . ومن شعره وقد أهدي إليه قدح :

أهدي الحبيب لمن أحب فداً تحملى بالذهب

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| لو أفرغت فيه الطنلا | لأطل' ينظره الخلب    |
| قد راق منظر حُسْنه  | ودعا له داعي الطرب   |
| لما نظرت' لشكله     | في رسم تيجان العرب   |
| قبيلته وقبيلته      | ووعده بنت العنب      |
| ولأجله لولا التقى   | لخلعت' أثواب الأدب   |
| وملأته راحاً بها    | 'ينفى عن الصب' الوصب |
| لكنني أودعته        | بخزانة تحوي الأدب    |
| ومدحت' من أهداه لي  | ومنحته شكراً وجب     |
| وجعلته 'بشرى المنى  | والدهر يأتي بالمعجب  |

وقال ملفزاً :

ما اسم الحبيب أفيدوا أيها الأدبا  
فإن بقرأط عنه ساء منقلباً ؟  
فقال لي بعضهم : حرف أضيف له  
حرفان دلاً على شيء حوى ذنباً  
فقلت : هذا جواب رائق فعلى  
مثلي لملك شكر' الفضل قد وجبا

ومن قوله يتنزل :

نور' زاهي الروض أم نور الصباح  
وابتسام' الثمر أم زهر الأقاح  
ونجوم تزدمي في أفقها  
بوميض البرق أم كاسات' راح

لا ، ولا ، بدرُ تمّ ينجلي للندامى في اغتباق واصطباح  
بحيا يزدرى شمس الضحى في معاني حسنه تعيا الفصاح  
وقال مهنئاً مصطفى نعماني برتبة الباشوية مؤرخاً في كل شطر من  
أبيات القصيدة بتاريخ هذه الرتبة وهو سنة ١٢٩٥ .

بشير الهنا لاحت بيمين قدومه بدور بها نورُ البشائر قد صفا  
وبدرُ التهاني فاق بالأنس نورُ فأهدى لنا أسنى السرور وأتحفا

وهكذا حتى أتم خمسة عشر بيتاً كل شطر منها يؤرخ سنة ١٢٩٥  
مُظهرًا بذلك مهارته وقدرته على الصياغة والنظم .

ومن أحسن ما قاله من الشعر هذه القطعة التي يتأسف فيها لفراق  
أحبابه .

لقد ذهب النوى يجمعيل صبري وأودع في حشاشيَ الولوعا  
وألبسني الأسى خلعَ التمني وألزمي التذلل والخضوعا  
ونار الشوق أغراها غرامي على كبدي فقوئت الضلوعا  
ولي قلب تُقَلِّبُهُ شجوني وقنعه السكينة والهجوعا  
بييت مع الأحبة حيث كانوا ويصبح راجياً منهم رجوعا  
يرى أضغاث أحلام الأمانى حقائق لا يزال بها ولوعا  
تطوف به الحوادث وهو لاه كأنّ الوم ألبسه دروعا

وقائلة : إلام تحن شوقاً إلى حيّ أحلّ بك الهلوعا

فقلت لها : وقيت اليأسَ إننى أودُّ بحبهم أدعى هلوعا

أبعد فراقهم تراح روعي وترجو ساعة أن لا تملوعا (١)

فهم روعي وريحاني وراحي فكيف أرى إلى السلوى نزوعا (٢)

وفي هذه النماذج التي سقناها من شعره يتبين مدى ما ذكرناه عن أدباء هذه المدرسة وتقليدهم وعدم ظهور شخصيتهم ، مع افتتانهم بالبديع والجرى وراءه ، وضعف أسلوبهم ، وقد مات سنة ١٨٨٠ ، وله ديوان مطبوع .

### الشيخ علي الليثي :

ولد سنة ١٨٣٠ ببولاق ، وتتم صغيراً ، فتحولت به أمه إلى جهة الإمام الليث وإليه ينسب ، وطلب العلم بالأزهر مدة ، ولكنه لم يتم به تعليمه ثم رحل إلى طرابلس الغرب وأخذ عن الشيخ السنوسي الكبير ، والشيخ القوسي الكبير الطريقة والعلم ، ولما عاد اتصل بالأسرة الحاكمة وكان مقرباً لدى الحديو إسماعيل ؛ لأنه كان مثلاً للنديم المحبوب الذي لا يمل حديثه ، ولا يطاق فراقه ، وتروى له في باب المنادمة نواذر لا تزال تتردد حتى اليوم على ألسنة السمار في مجالس الأُنس ، ولعل كثيرين منا يعرفون قصته مع ( المهردار ) بقصر الحديو إسماعيل حين كتب على باب

---

(١) تلوع : تجزع .

(٢) الراح : الحمر . والنزوع : الميل .

حجرة الشيخ الآية الكريمة : « إنما نطعمكم لوجه الله » ، إذ لم يجد لقباً سواها يعطى لهذه الحجرة كما أعطيت الحجرات الأخرى بالقصر ألقاباً ، من مثل حجرة أمين الخازن ، ورئيس الحرس ، وغير ذلك ، وقد كانت هذه مداعبة من ( المهردار ) ، أثارت في نفس الشيخ الليثي الرغبة في الانتقام منه ، وجعله سخرية أمام رجال الحاشية ، فانتهر فرصة وجوده معه بحضرة إسماعيل ، والمجلس عامر بعملية القوم يخوضون في أحاديث شق ، ولما سنعت الفرصة قال الشيخ علي الليثي للخديو : عندي قصة صغيرة يا مولاي ، فقال ما هي ؟ قال :

لنا طعونة في البلد      لكن ثقيلة ع الحمار

علقت فيها الطور عصي      علقت فيها المهردار

فكانت أضحوكة سارت على الألسنة ، وطرب لها الخديو وأفراد حاشيته . وقال الشيخ الليثي لدى إسماعيل حظوة ومنزلة ، وعرف رجال الدولة مكانته فكان مقصد طلاب الحاجات ، ولا يرد له رجاء عند أولي الأمر . ولما مات إسماعيل أبقى عليه توفيق ، وقربه وأكرمه ، وبقي مخلصاً له في أحلك أوقات الثورة حين تنكر له كثيرون ممن أكرمهم توفيق فأسبغ عليه من نعمه وكافأه على إخلاصه له .

وللشيخ علي الليثي ديوان لم يطبع ، بل يقال : إنه لعن من يطبعه . ولسنا ندري سبباً واضحاً لعزوف الشيخ عن تخليد أثره الأدبي إلا أنه قال ثراءً واسعاً في أخريات حياته ، وصار من سراة مصر ، وليس من اللائق بسريّ وجهه مثله أن يكون له ديوان شعر يروى وبه مابه من عبث ومجون ، وتزلف لكثيرين ممن يتسامى في حالته الأخيرة لمنزلتهم . ومن المستبعد أن يكون الشيخ قد أدرك أن شعره لا يستحق الخلود ،

وأنه ركيك ضعيف ، فكل إنسان مها كان شأنه يعجب بما يقول ، ولا يفتن الى ما به من عيوب ، ثم إن الذوق الأدبي والنقد لم يكونا قد وصلا إلى منزلة تمكن الشيخ من الاطلاع على مساوئ شعره بل على العكس كان الشيخ محسود المكانة الأدبية ، ويتهافت أدباء عصره على مكاتبته ومطارحته الشعر<sup>(١)</sup> وقد طال عمر الشيخ وتوفي سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٦ م .

وإذا نظرنا إلى ما روي لنا من شعره ، لم نجده يتميز عن زميله السيد علي أبي النصر في شيء ، ونجده يقول في المناسبات المختلفة شأن الندمام ، وقلمًا يطلق نفسه على سجيته ، وينظم الشعر لأنه يشعر بدافع نفسي يلهمه القول . ومن شعره على البديهة قوله ، وقد كان أحد رجال الحاشية يفرغ تفاحة بديهة ليشرب فيها ، فانكسرت المديّة ، فنظر إلى الشيخ نظرة من يسأله وصف هذه الحال ، وخلق بنديم الحديو اسماعيل أن يسجل مثل هذه الحادثة ، فقال الشيخ مرتجلاً :

عزت على الندماء حق إنهم      تحذوا لها كأساً من التفاح  
ولدى اتخاذ الكأس منه بديّة      لأن الحديد كرامة للراح  
ومن شعره في رثاء عبد الله باشا فكري :

نذم المنايا وهي في النقد أعدلُ      غداة انتقت مولى به الفضل يَكل  
كأن المنايا في انتقاها خبيرةٌ      بكسب النفوس العاليات تعجّل

---

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو .



فتم لها من منتقى الدرر حلية  
وبقول في وصف الفقيد :

لقد كان ذا برٍّ، عطوفاً، مهذباً  
سجاياه صفو القطر بل هي أمثل  
رقيق حواشي الطبع سهل محبب  
إلى كل قلب حيث كان مبجل  
وله في مدح السلطان عبد العزيز في عيد جلوسه سنة ١٢٩٠ :

مولى الملوك الذي من ين دولته  
ظل العدالة في الآفاق ممدود  
عبد العزيز الذي آثاره حمدت  
أبر الألى جدّهم في المجد محمود  
أجاد نظم أمور الملك في نسق  
لا يعتريه مدى الأزمان تبديد  
فلا تقسّنه بأسلاف له كرّمت  
والشبل من هؤلاء الأسند مولود  
ففخرهم عقد در وهو واسطة  
في جيد آل بني عثمان معقود

وهذا نظم ليس فيه شيء من الخيال أو المعاني السامية ، وعبارته تميل  
إلى الضعف ، وهكذا كان شعر الشيخ ، بل له شعر مليء بالمحسنات  
والزخارف اللفظية التي زادته ضعفاً على ضعف ، من مثل قوله يرثي محمود  
باشا الفلكي وقد تصادف أن تهاوت نيازك ليلة وفاته :

أرى النيازك عن سامٍ من الفلك مذعورة أصبحت تصبو إلى الدرك  
كالطير فاجأها البازي وأذهلها فحاكت البرق ، وانقضت عن الحبك  
إلى أن يقول :

أليس نسر شماء العلم قد عَلِقَتْ  
كفّ المتون به فأنحاز في الشرك  
الصبر يا نفس ، واستبقي منايحه  
أو فالتصبر إن تبغي الهدى فلكِ  
حل القضاء وناعي الحمد أرخنا  
قدمات محمود باشا المسند الفلكي

( فقد أرخ وفاته سنة ١٣٠٣ في هذا البيت ) .

وهو شعر ليس فيه من أثر الحزن شيء ، بل هو مصنوع ليظهر  
قدرة الناظم على تلفيق مثل هذا الكلام ، وقد حاول مرة أن يفتنّ  
وبصف السفينة التي أقلته إلى مصر وهو عائد من برلين ، فلم تمكنه اللغة  
القوية ، ولم يسعفه الخيال ، وأتى الشعر ضعيفاً ، وأغلب الظن أنه لم  
يقطعه بدافع نفسي ، وإنما طلب إليه أن يسجل هذه الرحلة فصنع الأبيات  
التي منها :

أصبح الوقت باسمًا بالسرور      كابتناسم الربيع وقت الزهور  
أين ألقى طريف طبعٍ لطيفاً      كي ندير الحديث مثل الخمر  
فوق ظهر السفين نحسن وصفاً      حيث يجري على صفاء البحور

\* \* \*

وتراه يختال وهو معني      ويحه كم يحير ذيل الفخور  
ذيله يرسم الهجرة 'عجباً      بين موج يضيء مثل البدور  
وهو وصف غني عن التحليل ، وإظهار ما به من ركاكة ، ففي كل

بيت 'عوار لا يغفر ودليل قاطع على أن الشيخ ينتمي إلى مدرسة النظامين  
والمروزيين . ولعل خير ما روي له قصيدته التي قالها مستعظفاً للحديد  
توفيق عقب الثورة العربية ، وطالباً الصفح عن أجرم - في رأيه :

|                              |                           |
|------------------------------|---------------------------|
| كل حال لضده يتحول            | فالزم الصبر إذ عليه المول |
| يا فؤادي استرح فما الشأن إلا | ما به مظهر القضاء تنزل    |
| رب ساعٍ لحقه وهو ممن         | ظنةً بالسعي للملا يتوصل   |
| قَدَرٌ غالب وسر الخفايا      | فوق عقل الأريب مها تكل    |
| غاية العقل حسرة وعيقال       | والليب الذكي من قد تأمل   |
| كيف ننسى ، وحادثات الليالي   | فاجأتنا بكارث ليس 'يحمل   |
| أذهبت أنفساً وغالت نفيساً    | وذوى مربُع الحظوظ وأحمل   |
| وإذا المرء كان بالوهم يبني   | فخيال الظنون ما قد تمثّل  |
| وينح قومٍ سعوا لإدراك أمرٍ   | دون إدراكه الجبال تزلزل   |
| ما أصروا عليه إلا أضروا      | بأناسٍ من نابيه أو مغفل   |
| ذاك يسمى على التيقّنة خوفاً  | وسواه 'سمى لكيا 'يحمل     |
| لو أصابوا الرشاد عند ابتداء  | كانت الغاية الجميلة أجمل  |

وهذه القصيدة على ما بها من سهولة ، فعمانيها مطروقة ليس فيها جديد

وحكمها مألوفة ، وبها كثير من أثر الصنعة والتكلف ، أما الخيال وهو روح الشعر وجناحه الذي يخلّق به فلا أثر له . ونعود فنقرر أن هذه المدرسة التي ينتمي إليها علي أبو النصر وعلي الليثي هي مدرسة التقليد للشعر الذي كان سائداً في عصور ضعف اللغة ، وليس لهذين الشعارين وأضرابهما شخصية قوية تهتك ستار هذه الحجب الكثيفة من الزخارف السمجة ، وليس لهما قوة عارضة ، وفحولة نسج لتستر مساوئ هذا الذي يسمى شعراً . وهما نظامان أكثر منها شاعران ، ويقولان في المناسبات نظماً غير صادر عن شعور إلا القليل النادر .

### ٣ - محمود صفوت الساعاتي (١) :

وهناك مثلاً لشاعر استطاع بمواهبه أن يفصح عن شخصيته ، وإن تراءت من بعيد حائلة اللون ، غير واضحة المعالم تحاول جهدها أن تظهر من خلال هذه السدف الغليظة من التقاليد الموروثة في الشعر العربي ، ولا سيما عصور الركة والانحلال . وقد أوتي حظاً من اللسن والفصاحة فاستطاع أن يجيد في غير ما موضع من شعره ، حتى ليعده بعضهم طليعة للنهضة الحديثة ، ومهداً للطريق الذي سلكه البارودي من بعد .

ولد الساعاتي بالقاهرة سنة ١٢٥١ هـ ١٨٢٥ م ، وظل بها إلى أن بلغ الثانية عشرة ، ثم ارتحل إلى الاسكندرية فأقام بها ثمانية أعوام . لم يدخل الساعاتي الأزهر كما دخله علي أبو النصر ، وعلي الليثي ، ومحمد

---

(١) هو محمود صفوت بن مصطفى أغا الزيلع الشهير بالساعاتي ، والساعاتي لقب غلب عليه ، لأنه مهر في إصلاح الساعات ، ولا ندري على التحقيق أكان إصلاح الساعات حرفة له أم هواية كما يقول بعضهم .

شهاب ، وعبد الله فكري وغيرهم ، بل يقال : إنه لم يتعلم النحو ، وإنما استظهر ديوان المتنبي وكثيراً من أشعار القدماء فاستقام لسانه ، وعظم مخزونه من الأدب . وقد ظهر تأثير المتنبي في شعره واضحاً ، وكان بينه وبين النحاة مناقشات طويلة كما سنرى .

وكان تلميذاً للشيخ حسن قويدر يغشى مجلسه ويأخذ عنه الأدب ، وكان الشيخ قويدر غنياً كريماً ، ومات سنة ١٨٤٥ ، وكان سن الساعاتي حينئذ عشرين سنة . وهذا كل ما نعلمه عن ثقافة هذا الشاعر وحياته حتى هذه السن ، وقد رثى الشيخ قويدر بقصيدة مطلعها :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب      ومزقت شملها من حزنها الكتب

وفيهما يقول ، وقد حشاها بالمبالغات السخيفة ، وهي ليست قوية النسيج مما يدل على أنها من أوائل ما نظم :

يا شمسَ فضلٍ فدتكِ الشُّهب قاطبة      إذ عنك لا أنجم تغني ولا شهب

لما أصابك لا قوس ولا وتر      سهم المنية كاد الكون ينقلب

ما حيلة العبد والأقدار جارية      العمر يوهب والأيام تلتهب

لو افتدتكِ المنايا عندهما فتكت      بخيرنا لددتكِ العُجُم والعرب

أمت لفقديكِ عين العلم سائلةً      ترجو الشفاء وأنى ينجح الطلب

إلى آخر هذا النظم الذي يدلُّنا بأن ذوق الشاعر لم يكن قد تهذب بعد ، وأنه يحاكي الشعراء المتأخرين في نسجهم الضعيف واستعاراتهم السمجة ، مثل ( عين العلم سائلة ) وغير ذلك .

وفي سن العشرين بدا له أن يحج إلى بيت الله الحرام ، وهناك اتصل بأشراف مكة ( آل عون ) ، فأكرموه ، واصطحبوه معهم في غزواتهم وحروبهم مع آل سعود وأمراء اليمن ، وظل بجوارهم خمس سنوات يسجل انتصاراتهم ، ويسبغ عليهم مديحه . ولما عزل الأمير محمد بن عون عن إمارة مكة ، ورحل إلى الآستانة صاحبها الشاعر ثمة ، ومكث معه قليلا ، ثم تركه ، ورجع إلى مصر ، ولسنا ندري سببا لتركه : أئس من عودة الأمير إلى أريكته فأراد أن يبحث عن شخص آخر يستظل بظله ؟ أم أن الأمير رأى نفسه معزولا قليل المال فبرم بصحبة شاعر يعوله وينفق عليه في غربته ؟ ولما عاد الأمير إلى إمارته لم يستدع شاعره الصداح ، وفي شعر الساعاتي ما يدل على أن القطيعة كانت من الأمير من مثل قوله يخاطبه :

أوليتني الآلاء ثم تركتني      مثل الذي حلت به اللأواء  
ما كان ذا أملي الذي أملتته      فبكتم وأنتم سادة كرماء  
ويقول :

وحبوتوني بعدها بقطيعة      أكذا يكون تكرم وحباء  
وقال مرة يعاتبه ، ويظهر يأسه منه ، وكأنه يودعه إلى غير رجعة :

قضى العبد بعض الواجبات بقصده      إليكم وقد 'جوزي بما هو أعظم  
ونال الذي قد كان يرجوه وانقضت      أمانيه منكم ، والسلام عليكم

وعلى الرغم من هذه القطيعة فقد ظل الشاعر يتحسر على أيامه الخاليات وعلى المودة المفقودة ، ويعتذر عن جرم لا ندري كنهه للشريف محمد ، ولأولاده من بعده عبد الله ، وحسين ، وعلي ، فيقول للشريف عبد الله :

شدت بكم بعد الإله عزائي فكنتم عليهم بالمذاب شديداً

وإني أعيد النفس بعدُ لعفوكم وإن جلّ ذنبي أو مكثت بعيداً

ويقول سرّة أخرى للشريف عبد الله :

فإني لم أبرح على العهد مخلصاً وإن طال عهد البعد واشتقت معهدا

ويبدو أن الشريف عبد الله كان يصله على التبعد ، ولكن الشاعر كان يأمل أن يستدعيه لديه :

يقلدني فضلاً على البعد بيننا وأطمع حرصاً في 'شئوف المسامر

ويتذلل للشريف حسين ويطلب العفو :

أقلني وبادر بالجميل فإنني أرى العفو دوماً من صفات الأماجد

ولما يئس الشاعر من صلاتهم ، والعودة إليهم بعد كل ما قدمه من زلفى ومن قصائد يرسلها إليهم في كل المناسبات قال للشريف حسين :

عللت نفسي غروراً بالمواعيد فكان تعليلها عنوان تفتيد

إلى متى وإلى كم لا أرى زمني الا كذا بين تقريب وتبعد ؟!

قالوا ذكاؤك محسوبٌ عليك كما 'يروي' فقلت حديث غير مردود

وما كان أغنى الشاعر عن هذه الضراعة والذلة ، وهذا الإلحاح المشين في الطلب ، وأغلب الظن أنه لم يكن يراه بهذا المنظار ، وإنما يقتفي آثار الأئمة عبدوا له طريق المدح والإلحاف في المسألة من لدن النابغة

الذَّبِّياني حتى عصر إسماعيل ، ولم يجد في قوله هذا ما يخل بالكرامة أو يشين المروءة ؛ ونحن إنما نحكم عليه وعلى أمثاله من الذين طبعوا الشعر العربي بهذا الطابع لأننا في عصر تغيرت فيه قيم الأشياء ، وصرنا نعتد بالأدب الشعبي القومي ، وبالشعور الخاص ، والمواطف الكامنة في نفس الأديب ، ونجوى خياله وروحه ، أكثر من التفاتنا الى شعر المناسبات والسير في ركاب العظماء ، والتمدح بمناقب الأغنياء ، ولكننا نتساءل : ألم يكن بمصر أمراء يكفون الشاعر لو تقرب منهم مؤنة هذا التسول ؟؟ ولماذا قصر في مدح إسماعيل إذا لم يثبه سعيد على مديحه إياه ثواباً يرضيه ؟ وهل ثلاث قصائد تكفي في إسماعيل وهو من هو حَدَباً على الأدب والأدباء ، وهو الذي أظل بعطفه العليلين أبي نصر والليثي ، وهما دون الساعاتي قدرة على النظم ومتانة شعر ، وسمو خيال ؟. أيها المقصر : إسماعيل إذ لم يضم إلى حاشيته وندمائه هذا الشاعر ؟ أو الساعاتي إذ انصرف إلى مديح آل عون بمكة ، واشتهر بإخلاصه لهم ، وجعل شعره حبساً عليهم إلا القليل ، ورأى أن باب إسماعيل قد سبقه إليه شاعران آخران واحتلا لديه مكانة ومقاماً ؟ فلم يشأ أن يدع طريقاً عرفه ، ونوالا جرّبه وذاق حلاوته ، وينافس آخرين في أمر لا يعرف مصيره ، فظل على ولائه لآل عون يمدحهم في كل مناسبة : إذا غزوا ، وإذا أبلتوا من مرض ، وإذا ولد لهم مولود ، ويقول فيهم :

أحبّهم ما دمتُ حياً ديانة وأرغب لكن عن سواهم ترتفعاً

وقد سار شعري بين شرق ومغرب فما اختار غير البيت والآل موضعاً

وما طار في الآفاق بدعاً مديحهم ولكنه نشرٌ ذكي تَضَوُّعاً

وكان يرى أنهم هم الذين أطلقوا لسانه بعطاياهم ، وعلموه الشعر ،



ولولاهم ما نظم قصيداً :

نظمتُ حالي ولولا سلك فضلكم      ما كنت قولي ولا فعلي بمنظم  
علمتني الحمد والشكر الجزيل على      فعل الجميل بما توليه من نعم

ما كنت لولاكم أبغي الفوائد من      نظم الفرائد في إسم ولا علم

وعلى الرغم من هذا الولاء ، ومن دءوب الشاعر على مدحهم في كل مناسبة وهو عنهم بعيد ، فإنهم لم يستجيبوا لرجائه بدعوته إليهم ، ولعل للمنافسات التي كانت بين الشاعر ، وبين بعض الحجازيين (١) أثراً

---

(١) من المنافسين للشاعر في الحجاز الشيخ زين العابدين المكي ، وكان نحوياً ، اعترض مرة على قول الساعتي :

وأبصرت في كف ابن عون مهنداً      يرتويه قوم بالضراب خبير  
بأن الضراب في اللغة : النكاح ، وليس فيها ضراب بمعنى الضرب ، واحتج الشاعر مؤيداً رأيه بقول الحارث بن ظالم المري :

وقومي إن سألت بني لؤي      بمكة علموا الناس الضرابا  
أقاموا للكتائب كل يوم      سيوف المشرفية والحرابا

ويستشهد بقول المتنبي وكان من الحفاظ لشعره :

وكل السيوف إذا طال الضراب بها      يسها غير سيف الدولة السأم  
وقوله : إنما بدر رزايا وعطايا      ومنايا وطعنا وضراب  
وقوله : بغيرك راعياً عبث الذئاب      وغيرك صارماً ثم الضراب

فأفحمه بهذا الاستشهاد وفات المكي أن الضراب مصدر قياسي لضارب كقائل وتاضل . ولكنها حزازات النفوس تزل الخطأ .

في هذه الجفوة ، فقلما خلت حاشية أمير عظيم سمح النفس سخي اليد  
من أمثال هؤلاء الحساد لكل من نال لديه حظوة أو نبغ وقصروا .  
وما أمر المتنبي وسيف الدولة بمجهول ، ولقد بُلي الساعاتي بمثل ما بلي  
به المتنبي من هؤلاء النحاة الذين يحاولون الوقعة بينه <sup>(١)</sup> وبين ممدوحه  
كما فعلوا مع أبي الطيب من قبل ، ولكنه انتصر عليهم في كل مرة  
تعرضوا فيها لادبه ، وأغلب الظن أنهم لم يتركوه يهناً بهذه المنزلة .  
وحاولوا جهدهم أن يزحزحوه عن مكانته ، وفي ذلك يقول معرضاً بهم .

لا تعدلوا بالشعر كل معمم كالثور ذي القرنين بالأسكندر

ما كل من يملئ القصيدة ناظم قد ينتمي للشعر من لم يشعر

لو كان فيهم شاعر لوقفت في ديوانه أدباً ، ولم أتكبر

يا آل محسن لم يزَلْ إحسانكم يدع الدنيء على حاكم يحترى

بل يحاول أن يوقع بهم كما حاولوا الوقعة به ، وأن يفسر بعضهم  
له لإخلاصه لآل عون :

---

(١) من ذلك أنهم خطأوه في قوله يمدح الشريف ويصف أعداءه بالجبن .

كانهم فوق السوابق خرد      هن مخون الصافنات جباد

بأن في ذلك انحطاطاً للقدار من يقاومه حيث شبههم بنسوة ، فكأنه انتصر على  
نساء لا على أبطال ، ومكنته ذاكرة واعية لما انتظروا من شعر المتنبي في الصغر  
من إقحامهم بقوله يمدح سيف الدولة :

فصبتهم وبسطهم حرير      ومستاهم وبسطهم تراب  
ومن في كفه منهم قناة      كمن في كفه منهم خضاب

فما أبغضوا مثلي سدى غير أنهم يَمدُّون مدحي فيكم كالآثم  
ألم تر حسناً ولي أسوة به وما كان يلقي من عدا آل هاشم  
إذا زعموا أني مع الفضل جاهل فقل لهم : هاتوا فصاحة عالم  
فدعني من قول النحاة فإنهم تمدُّوا لصرف النطق في غير لازم  
وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسراق كبعض الأعاجم

#### شعره :

قدمنا عند الكلام على الساعاتي ، والمدرسة التي ينتمي إليها بأن له شخصية في شعره ، وأن هذه الشخصية استطاعت البروز والوضوح على الرغم من كثافة التقاليد الشعرية الموروثة .

أجل ! استطاع أن يتخلص في بعض قصائده من المحسنات البديعية ، وأن يرتفع بديباجته عن درك الفشاة والركّة ، وأن يشمرك على الرغم من معانيه المطروقة بأنه أحسن التقليد وأضفى عليه شيئاً من نفسه وروحه . ومع كل هذا فمعظم شعره من ذلك النوع الذي ساد أيام المهالك وبني عثمان ، ولما خلت قصيدة من تأريخ وتعمد للصناعة والزخرف .

١ - ترى الشاعر يجيد في الحماسة ، ويقوى شعره وتشرق ديباجته : اسمعه يقول مادحاً سعيداً ، وقد عزم على زيارة المصطفى عليه السلام :

ملأت قلوب العرب رعباً فما ذروا بعثت لهم للكُتُب أم للكتائب

تركتهم في أمرهم بين - ادق - وآخر في تيه من الظن كاذب  
تسير لهم في بحر جيش عرمرم يفيض بموج الحتف من كل جانب  
إذا هتفوا باسم العزيز تزلزلت جبالٌ عليها الذل ضربة لازب  
فكيف إذا يمت بالشهب أرضهم وزاحت ما في أفقهم بالنجائب  
وجرد عليها الأسدُ في قصب القنا ترى الأسد في الآجام مثل الثعالب

وخير من هذا قوله يمدح الشريف ابن عون ويصف غزوته لبني سليم :  
وأضرمتم النيران فيهم وأضرموا لهم نار حرب مثل نار الجباب<sup>(١)</sup>  
كررتم على أهل الجبال بمثلها جبالُ رجالُ سيّرت بالركائب  
وما ثبتوا إلا قليلا وزلزلوا وأبطالكم ما بين ضارب وضارب  
رأوا باترات البيض تغمد فيهم وتخرج من أصلاهم والترائب  
فلتوا ومالوا للهزيمة بعدها ومِلتم على أرواحهم مَيْلَ ناهب

فهذه الديباجة القوية ، وهذه الفحولة قد طال انتظار الشعر العربي لها ، ولعل في حفظ الشاعر للمتني ما جعله يجيد الحماسة ووصف المارك ، كما كان المتني يجيدها وهو يمدح سيف الدولة ، وقد شهد الساعاتي معارك آل عون مع أعدائهم كما شهد المتني معارك سيف الدولة مع الروم وغيرهم .

---

(١) الجباب : فراشة صغيرة تضيء بالليل .

٢ - ومن الأغراض التي وفق الشاعر للقول فيها العتاب ، وقد  
سلمت له أبيات جيدة في هذا الباب مثل قوله يعاتب آل عون :

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| إني على العهد القديم وإنما | حظ الأديب عداوة الأرزاق    |
| عاملمتوني بالجفاء ، رويدكم | الورْدُ ذو أرجٍ بلا إحراق  |
| مالي أراكم تنكرون مكانتي   | الشمس لا تخفى مع الإشراق   |
| قلدتكم غيري الجميل وقلتم   | حسب المفرد زينة الأطواق    |
| أسديتم الجدوى له وسددتم    | 'طرق البرجاء علي' بالإطراق |
| إن لم يكن مثلي يسيء ومثلكم | يفضي ، فأين مكارم الأخلاق؟ |
| ويقول معاتباً صهراً له :   |                            |

|                              |                                |
|------------------------------|--------------------------------|
| هلا اتخذتم سوى أعراضنا غرضاً | 'يرمى وصيرتم' الإكثار تقيلاً   |
| إنا لنضرب صفحاً عن بوادركم   | ولو أردنا أسانا الرد تنكيلاً   |
| لكن نصون عن الفحشاء ألسنة    | هي الألسنة تجريحاً وقعدلاً     |
| فليتكم تحسنون الظن إذ حسنت   | منا الطنون ، وكان الود مأمولاً |
| رأيتُ وصلكم قطعاً وحببكم     | بغضاً ونصركم للصهر تحذيراً     |
| ومن عتابه الرقيق قوله :      |                                |

كنّا وكنتم فأكثرنا زيارتكم ونحن مثلان في فقرٍ وإفلاس

كانت مناسبة الحالين تجمعنا ومن يدوم على حال من الناس؟

والعتاب ، كما نعلم ، ليس باباً جديداً في الشعر العربي ، بل طريقه قبل الساعاتي كثيرون وأنت معانيه فيه مما وردت عند غيره من شعراء العتاب ، وكان الساعاتي أحياناً يستعمل الكلام المألوف العادي في العتاب حتى يفهم المعاتب ما يقول .

٣ - وقد ظهرت شخصيته في نصائحه التي قدمها لممدوحيه ، والتفاته للشعب ، وطلب الرأفة به ، وحسن معاملته . كقوله للشريف ابن عون :

فما استقام عماد الملك منتصباً      إلا إلى قائم بالعلم والعمل  
ودولة المجد ما انتقادت ولا خضعت      إلا إلى عادل للشرع ممثلاً  
ماراقب الله مولى في رعيته      إلا وأدرك منها غاية الأهل

ويطلب العفو لأعداء ممدوحه محاكياً المتنبي في توسطه لدى سيف الدولة لبني كلاب ، فمن ذلك قوله :

للسلم قد جنحوا فنبشوا واصفحوا      ما قتل نصفهم من الإنصاف  
وإذا أساءوا أحسنوا لمسيئهم      وارعوا مقام بقية الأحلاف  
وإذا هم اقتتلوا وشدوا أصلحوا      ما بينهم خير من الإجحاف

٤ - وكانت له دعابات طريفة تدل على روح مرحة ، وبديهة

طبيعة ، ونكتة رائعة وهذا طابع المصريين غالباً لا يستطيعون عنه  
حولاً ، فمن ذلك قوله يعزي منافسه وحاسده الشيخ زين العابدين المكي ،  
وقد تفقت فرسه في طريق جدة :

قضت وهي تدعو فالتق الحب والنوى      بقلب كئيب دقه الحب والنوى  
فكيف نعزي الشيخ في الفرس التي      به طوت الأسفار صبراً على الطوى  
وكانت به تجري مع الريح خفة      وأشبعها جرياً فعاثت على الهوى  
وإن حملت ما لا تطيق لضعفها      نعوج منها الظهر والذنب استوى  
قضت ، وهي ما ذقت شيراً لزهدا      فما شمرت إلا وعرقوبها التوى  
ألا أيها الخيل الذي طال حزنه      عليها وفي أحشائه التهب الجوى  
فعمش أنت واسلم والحير كثيرة      ومثلك معدوم النظير لما حوى  
ألا تذكرنا هذه القصيدة بالبهاء زهير حين يقول :

لك يا صديقي بغلة      ليست تساوي خردلة

تمشي فتحسب أنها      فوق الطريق مشكلة

هي روح الدعابة المصرية تتجلى دائماً حين ينطلق شعراء مصر على  
سجيتهم لا يكلفون القول ، ولا يتزمتون .

ومن دعاياته الظييفة قوله معرّضاً ببعض النحاة وواصفاً لهم ولحركاتهم  
وخلطهم :

إذا ارتفعت بالنحو أعلامِ علمنا      جعلنا جواب الشرط حذف العلام  
ليعلم من بالتَّصَب يرفع نفسه      بأن حروف الخفض غير الجوازم  
ويعلم من أعياه تصريف إسمه      بأنا صرفناه كصرف الدراهم  
نصبنا على حال من العلم والعلى      وكنا على التمييز أهل المكارم  
لأننا رأينا كل ثور معمم      يكلِّفُ فرنيه بنطح النعائم  
بحر من الإذلال فضل كسائه      كأن الكِسائي عنده غير عالم  
إذا نظر الكرَّاس حرك رأسه      وصاح : أزيد قام أم غير قائم ؟  
وقال : المنادى اسم شرطٍ مضارع      وظرف زمان نحو جاء ابن آدم  
وجمك للتكسير اسم إشارة      كقولك نام الشيخ فوق السلام

— ه — وقد تغنى الشاعر في بعض قصائده بمصر وأبجادهما ، وإن لم يظهر من الروح الوطنية مثل الذي أظهره رفاعة الطهطاوي ، فمن ذلك قوله مادحا أسماعيل :

على أنها من جنة الخلد غيضةٌ      رياضٌ بها عين وأنت ضياء  
فأبصرت فردوساً دانت قطوفها      وللنيل فيها كوثر وشفاء  
ومصر هي الدنيا جميعاً وربها      عزيز وأهلوها هم النجباء  
وكان الساعاتي يدرك أنه مطبوع على قول الشعر ، وأنه استطاع أن



ينجو ببعض شعره من آفات القول ، وأوضار الشعر التي انتشرت في زمانه ، ويقول في هذا :

فلا تحسبني بالوضيع مكانةً في القائلين وما أقول هُذاه

ويقول :

رويتُ جليلاً في جليل من أثنائنا فكان عقوداً لا كلاماً معقداً

ويقول :

وما أنا إلا ناظمٌ دُرٌّ فكرتي ولم أنتحل فيما أقول وأسرق

ويقول :

وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسرّاق كبعض الأعاجم

على أن هذا كله لا يعني الشاعر من أنه أراق ماء وجهه في الطلب حيث يقول مادحاً توفيق باشا :

أريد وروداً من نداكم لأرتوي كما يطلب الصادي على البعد موردأ

فسيرت آمالي دليل قصائدي لنيل الأمان على أبلغ مقصداً

وأنه كان يرى الشعر ثمناً للمال ، وأن المسألة بيع وشراء ، وأخذ وعطاء :

منّي المسدّاحُ والمنافع منكم لا غشبنَ إن كليهما آلاء

تعتاض من بدل النضار جواهرأ هذا بذاك وفي البقاء غماء

وأنه أسرف في الصناعات اللفظية ، واستعمال المحسنات البديعية كما يدل على

ذلك معظم شعره . وقد نظم قصيدة كاملة في مدح الرسول عليه السلام معارضاً بها ابن حجة الحموي ، والبوصيري ، وكل بيت منها يشتمل على محسن بديعي ، وفيها يقول ، وقد بلغ عدد أبياتها مائة وخمسين بيتاً :

### براعة استهلال

سفعُ الدموع لذكر السفح والعلم أبدى البراعةَ في استهلاله بدم

### التورية

وكم بكيت عقيقاً والبكاء على بذر ، وتوريتي كانت لبدرهم

### الجناس التام

أقمار تهم تعالوا في منازلهم فالصبُّ مدمعه صبُّ لبُعدهم

وأن الشعر عنده - كما كان عند معاصريه - مهارةٌ لفظية ، وصناعة خالية من الروح والشعور ، ومقدرة على صياغة منظومة فمن ذلك قوله مورياً :

قالوا : اتخذ لك خادماً ، فأجبتهم : أنى يكون لناظم الشعر الرقيق ؟

قالوا : التمس لك طيب عيش ، قلت : لا يُرجى لربّ اللفظ والمعنى الدقيق

وقوله في الجناس ، وكل القصيدة على هذا المنوال :

أيا من به صار الزمان سعيداً ومن كل من واقاه آنس عيداً

أما التأريخ الشعري ، والأحاجي والألغاز فكثيرة .

هذا ، وقد شغل الساعاتي عدة مناصب في الدولة ، فمن موظف بالمعية ، إلى موظف في مجلس الأحكام المصرية ( وكان بمثابة هيئة الاستئناف العليا في عهدنا ) ، وكان يرأسه الأمير اسماعيل في عهد سعيد . ومدح من حكام مصر في العهد السابق سعيداً ، وإسماعيل ، وتوفيقاً ، ومات في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م قبل أن تندلع الثورة العربية .

#### ٤ - عبد الله فكري :

وهو يمثل المدرسة الثالثة من المقلدين ، تلك المدرسة التي قلد أربابها بلغاء القرن الرابع كالصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وقلدوا كذلك في حياتهم وأسلوبهم وتنميق رسائلهم القاضي الفاضل ، وابن مطروح ، واستطاعوا بما أوتوا من تفضلع في اللغة ، وتمكن من الأدب ، وذوق مرهف حساس ألا يكونوا صدى لهؤلاء الكتاب القدامى ، بل أضفوا على ما كتبوا طابعهم وشخصيتهم ، ومثلوا عصرهم بعض التمثيل ، فتشعر حين تقرؤهم أنك تقرأ كتاباً في القرن التاسع عشر ؛ وذلك لخوضهم في الموضوعات الحيوية للبلاد ، ولتخلصهم في بعض الأحيان من قيود الماضي جملة ، فلا سجع ولا تنميق ولا تزويق ولا محسنات ، وإنما يتبعون طريقة ابن خلدون في الترسل مع متانة نسج وحسن عرض . وإن كانوا في كثير من الأحيان ، ولا سيما حين يحتفلون بكتاباتهم ، أو يرسلون عظيماً أو أديباً ، أو يتحدثون عن لسان السلطان أو الأمير ، يعمدون إلى الأسلوب الشعري المنشور ، بما فيه من خيال وسجع ، وفقرات تختلف طولاً أو قصراً ، ويزخرفون كتاباتهم ويرصعونها بشق الحلى اللفظية والمعنوية ، وهنا تتضاءل شخصية بعضهم وتحافظ شخصية آخرين على وجودها في وسط هذه الزينات والتقاليد تبعاً لتمكّن الكاتب من موضوعه ، وحذقه للغة ، ومتانة شخصيته وتميز خصائصها .

كان لديوان الإنشاء في الدول العربية منزلة سامية ، يتوصل به الكتائب والشاعر إلى أرقى مناصب الدولة ، منذ سهل بن هارون ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وابن العميد ، والقاضي الفاضل ، وابن مطروح ، وقد مضى على مصر حين من الدهر استعجمت فيها لغة الدواوين ، وسادت التركية ، وصدرت بها قوانينها ورسائلها ، ووصلت العربية إلى الحضيض ولم يبق فيها إلا ذماء يسير . وحاول إسماعيل - كما ذكرنا - بعث اللغة العربية ، وترجمة القوانين التي صدرت من عهد محمد علي حتى أيامه من التركية إلى العربية ، كي يسهل عليه الانفصال عن الدولة العثمانية حينما تلوح الفرصة ، وقد كان لعبد الله فكري يد كريمة في هذا العمل الجليل ، فبعث اللغة الديوانية ، لا ركيكة ولا سخيفة ، بل ممتلئة رونقاً وقوة ، فصار نموذجاً يحتذى ، وأستاذاً يأخذ الناس عنه طريقة الكتابة الديوانية وتدبيج الرسائل الأدبية .

ولد بالحجاز سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م من أب مصري<sup>(١)</sup> وأم من بلاد المورة وعاد به والده إلى مصر بعد عودة جيوش محمد علي من الحجاز ، ولكنه توفي ولما يبلغ عبد الله الحادية عشرة من عمره ، فكفله بعض أقاربه ، ودخل الأزهر وتلقى العلوم المتداولة على كبار مشايخه ، وكان في نفس الوقت يدرس اللغة التركية فلما حذقها عين في القلم التركي في الديوان الكتبخاني ، وظل مع اشتغاله بالوظيفة يتردد على الأزهر ، والتحق بعدة وظائف ديوانية ، ثم عين بجمعية سعيد ، وتولى فيها تحرير الرسائل الديوانية بالتركية والعربية ، وظل في منصبه حتى تولى إسماعيل

---

(١) أبوه محمد بليغ بن الشيخ عبد الله ، وكان الشيخ عبد الله من العلماء المدرسين بالأزهر ، أما محمد والد عبد الله فكري فكان مهندساً بالجيش ، ووصل فيه إلى رتبة صاغ ، وحضر عدة مواقع حربية منها حرب المورة ، وفيها تزوج أم عبد الله فكري ، وولده بالحجاز حين ذهبت مع زوجها في الحرب السعودية .

عرش مصر فأبقاه ، وقربه وسافر معه مرات إلى الآستانة ، ثم عهد إليه بتنشيف أولاده وغيرهم من أمراء الأسرة ، فكان يباشر تعليمهم أحياناً ، أو يشرف على المدرسين أحياناً أخرى . ولما نقل إلى وزارة المالية كان له الفضل في جمع الكتب الموجودة بها ، وضمها إلى دار الكتب حين أنشأها علي مبارك . وبعد ذلك عهد إليه بترجمة اللوائح والقوانين وتنقيحها فأدى هذه المهمة الجليلة على أكمل وجه ، ثم عين وكيلاً لديوان المكاتب الأهلية ، فرفع مستواها وجعلها صالحة لتغذية المدارس الأميرية ، فوكيلاً لنظارة المعارف مع شغله منصب الكاتب الأول في مجلس النواب ؛ وقد ارتقت طريقة تعليم العربية على يده وهجرت طريقة الأزهر . ثم عين وزيراً للمعارف في وزارة محمود سامي البارودي . ولما استقالت الوزارة بسبب الثورة العربية ، اتهم بمألاته للثوار بعد انتهاء الثورة ، وقبض عليه ولكنه برىء ، فأطلق سراحه وعاقبوه بقطع راتبه ، فراح يستعطف الحديو توفيق ، وقال في ذلك قصيدته المشهورة :

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى      وكبّر إذا وافيت واحتلب الكيبرا

فعفا عنه توفيق وأعاد إليه راتبه ؛ وقام بعد ذلك بعدة رحلات إلى الحجاز ولبنان ، ولقي فيها كل ترحاب وإجلال لمكانته الأدبية ، ولما رأى فيه أهلها من سعة علم وعظيم فضل وحسن حديث .

وفي سنة ١٨٨٨ مثل مصر في مؤتمر المستشرقين باستكهم عاصمة السويد وصحبه نجله أمين باشا فكري . وقام بسياحة عظيمة شهد فيها معظم عواصم أوربا ؛ ولما عاد عكف على تدوين رحلته ، ووصف ما شاهد من المناظر في أوربا ، وما رأى من آثار الغرب ، وكيف استطاع العقل البشري أن يسخر الطبيعة ومواردها لخدمة الإنسان ،

غير أن المنية لم تمهله ففضى بعد عودته بزمن وجيز ، وأتم نجله أمين كتاب الرحلة وسجلها في كتاب أسماء « إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا » في سنة ١٨٩٢ . هذا وقد توفي عبد الله فكري سنة ١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م .

ونرى من حياته التي سردنا تاريخها موجزاً ، أنه ديواني بالنشأة والمربي والعمل ، فلا بدع إذ تجلى أثر عبد الله فكري في الكتابة الديوانية ، ولما كنا في صدد ذكر الشعراء الذين ظهوروا في عصر اسماعيل والمدارس التي ينتمون إليها ، وقدمنا أن عبد الله فكري يمثل إحدى المدارس التقليدية ، كان حرياً بنا أن نذكر نماذج من شعره ، على أنه يمثل بكتابته تلك المدارس التي تظهر فيها شخصية الكاتب والأديب واضحة بعض الوضوح أكثر مما يمثلها بشعره ، بل إن شعره يفتحي إلى مدرسة علي أبي النصر أو الساعاتي ؛ وذلك لأن عبد الله فكري تفوق في نثره تفوقاً باهرأ وكان كاتباً أكثر منه شاعراً .

كان يمثل في شعره مدرسة الصنعة لا مدرسة الطبيعة ، يؤرخ لكل مناسبة ، ويشطر ويقول الألفاظ والأحاجي ، ويقول كما يقول الندماء في وصف الآنية ومجالس الأنس والأزهار وغير ذلك ، ويكثر من المحسنات ينتزعها انتزاعاً ، ويحشرها حشراً شأن هذه المدارس التقليدية ، وقلما انطلق على سجيته ، وترك نفسه لطبيعتها .

اسمعه يؤرخ زواج الأمير حسين كامل بالأميرة عين الحياة :

بشّر بأحسن فالِ يقول والقولُ يصفو

أرّخ لنحو حسين عَيْنُ الحياة تُزَف

ويقول في هذه المناسبة :

بشرى بطالع سَعْدٍ بالبشر والين آتٍ

تَرف للبدر شمس تسمو على النيرات

بجَير فال سعيد 'يومي' لطول الحياة

يقول والفال حق عن سيّد الكائنات

أرتخ لنحو حسين ترف عين الحياة

٩٤ ١٢٨ ٤٨٧ ١٣٠ ٤٥٠ المجموع ١٢٨٩

ويؤرخ لانتصار الأتراك على الروس ، وأخذه ميناء سباسبول بعد  
تخريب قلاعها سنة ١٣٧٢ هـ وكل مصراع من المطلع يساوي هذا التاريخ .

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القرّم هان لنا الصعب

وقد ذلت الأعداء من كل جانب وضاق عليهم من فسيح الفضاء رحب

بحرب تشيب الطفل من فرط هولها يكاد يذوب الصخر والصارم المعضب

إذا رعدت فيها المدافع أمطرت كئوس منون قصرت دونها الشعب

تجرّع آل الأصفر الموت أحمرأ وللبيض في 'مسوّد' هاماتهم نهب

ترام سكارى ، للظبا في رؤوسهم غناء ومن صرف المنايا لهم شرب

وقد سقنا مع البيت الأول الذي فيه التاريخ بعض أبيات من هذه  
القصيدة لنرى مدى قوته في وصف الحرب ، وقد مر بنا شاعر معاصر

له ، أو قريب منه ، أجاد في هذا الغرض ، ألا وهو الساعاتي . إن أثر الصنعة ، وضعف النسيج ، وضحالة الخيال ، وتقافة المعاني ، واقتناص الحسنات ، كلها محشودة في هذه الأبيات .

وماك مثلاً آخر يقلد فيه القدماء في معانيهم وأخيلتهم بما لا يناسب قاهرته وحضارته ؛ فلتشبيهات قديمة ، وخيال سخي ، وديباجة ضعيفة ، وجري وراء الحسنات ، وموضوع هذه القصيدة المديح ، وقد أبتدأها بالنسب كما كان يفعل القدماء قال :

أزاحت ظلام الليل عن مطلع الفجر      وقامت تدير الشمس في كوكب دري

وهزت على دُعصِ النقا غصن بانه      ترنح في أوراق سندسه الخضر

ومالت بها خمر الصبا مثلاً انثنت      نسيم الصبا بالأملد الناعم النضر

من الترك لم تترك لصبٍ محجةً      إلى الصبر أو نهجاً لعذل إلى العذر

وبيضاء سوداء اللحاظ غريرة      من الغيد رباً الردف ظامئة الخضر

'ممنعة' لا تجتني ورداً خدّها      يدُ اللحظ إلا بين شوك القنا السمر

من الروم مثل الرّيم جيداً ولفنة      ولحظاً ومثل الغصن والشمس والبدر

فهي لم تترك نصبَ محجة إلا لأنها من الترك ، وهي مثل الرّيم جيداً ولفنة لأنها من الروم ، ومالت بها خمر الصبا مثلاً انثنت نسيم الصبا بالأملد النضر ، وهزت على دُعصِ النقا غصن بانه .. وغير ذلك من هذه العبارات المحفوظة والقوالب الممدة ، وذلك الوصف المادي الرخيص الذي لا يمثل المرأة إلا سلعة .



وقد قال في الأغراض التي نظم فيها كتاب الدولة الأيوبية ورؤساء  
دواوين الإنشاء ، فكان يصف الآنية والأزهار ، ويشبه بالنفائس على طريقة  
الظرفاء المقتدى بهم في عصر الأيوبيين وما بعده ، خلال المناديات  
والمطارحات ، فمن ذلك قوله يصف ناراً موقدة في فحم حوله رماد :

كأنما الفحمُ ما بين الرماد وقد      أذكت به الريح وهنا ساطع اللهب  
أرضٌ من المسك كافورٌ جوانبها      يوج من فوقها بحر من الذهب  
وقال في الورد :

كأن ورداً لاح في أكمةٍ      يزهب ثوباً خضرة واحمرار  
ياقوتةٌ في سندس أخضر      أو وجنة خطاً عليها العذار  
وكان يقول الشعر في أغراض التطرف مثلما قالوا ، وله في هذا بعض  
المقطوعات الصغيرة ، فمن ذلك قوله مجيباً مليحاً قال له كيف أصبحت :  
أصبحت من فرط وجددي فيك ذا شجن      وكانت الروح كادت أن تفارقني  
فقد لقيتك كلُّهم فارقني      وألّف الله بين الروح والبدن  
وقال في مليح رآه أول الشهر مستعملاً الجناس التام :

وبدر تبدى شاهراً سيف جفنه      فروّع أهل الحب من ذلك الشهر  
وليلة أبصرنا هلال جبينه      علمنا يقيناً أنها غرة الشهر  
وقال يتغزل :

كتبت ولولا دمع عيني سائل      تلظّي جوابي من تلهّب أنفاسي

وعندي من الأشواق ما لم يَبُحْ به      لسان يراع في مسامع قرطاس  
ولي من تباريح الهوى وشجونه      أحاديث تلهي الشرب عن لذة الكاس  
ولو كنت من دهري أنال مأربي      لسرت لكم سعيًا على العين والراس  
وكتب يعتذر للشيخ عبد الهادي نجا الإبياري عن دعوة وصلته منه  
متأخرة (١) .

|                  |                    |
|------------------|--------------------|
| يامن بديعٌ حلاه  | تزري البديع وتُنسي |
| وافت عقيلة نظم   | تتلو فصاحة قس      |
| كالبدرد لاح سناه | من بعد مغرب شمس    |
| ففاذرني صريعاً   | نشوان من غير كأس   |
| فمنّ بالعفو إني  | منه على غير بأس    |
| وإن عتبت فعق     | وما أبرئ نفسي      |

وكتبَ إلى أحمد فارس الشدياق ردًا على قصيدة له :  
تفديك نفسُ شجٍ عليلٍ آسي      عزُّ الدواء له وحار الآسي

(١) وصلت رقعة الشيخ الإبياري بعد غروب الشمس وفيها يقول :

|                  |                 |
|------------------|-----------------|
| يا نور فكري وسري | وروح روحي ونفسي |
| لدي شامة شام     | لطيف معنى وحس   |
| يود كل أديب      | لقياه رغبة أنسى |
| فإن تمنّ فشرّف   | من قبل مغرب شمس |

أضناه طول أساء حتى إنه يحكي لفراط ضنائه ذاوي الأسر  
 هزته سارية النسيم ، وقد جرت بشذا فروق أريحمة الأنفاس<sup>(١)</sup>  
 فكان في طي الشمال ، إذا انثى من نشرها طرباً ، شمول الكاس<sup>(٢)</sup>  
 وكأنها حملت إلي رسالة غراء جاءت من أغر موسى  
 كليلعة عذراء وافق صبتها من بعد طول تعذر وشاس  
 يفتري مبسمها بحسن حديثها عن سحر فاتن جفنها الثعاس  
 تدنو فيطعم عاشقها أنسها ويشير عز دالها بإياس  
 أو روضة فيحاء حياتها الحيا من صوب محلول العرى رجاس<sup>(٣)</sup>

وكل هذا الذي رويناه له شعر مصنوع لا يفصح عن طبع وسليقه ،  
 أو شعور دفعه إلى القول بما يختلج في نفسه . ومن هذا النمط قوله في  
 الحكمة والمواعظ :

إذا رمت المروءة والمالي وأن تلقى إله العرش بر  
 فلا تقرب لدى الخلوات سرأ من الأفعال ما تخشاه جهراً  
 وقوله ينصح ولده أمين وهو صغير :

إذا نام غر في دجى الليل فاسهر وقم للمالي والعوالي وشمر  
 وغل أحاديث الأماني فلانها علالة نفس العاجز المتعير  
 وسارع إلى ما رمت مادمت قادراً عليه ، فإن لم تبصر النجح فاصبر

(١) محلول العرى : المطر الغزير الذي لا يجبه شيء ، والرجاس : الشديد الصوت .  
 (٢) فروق من أسماء استانبول (٣) الشمول : الخمر .

ولا تأتِ أمراً لا ترجئي تمامه ولا موردأ ما لم تجد حُسنَ مصدر  
وعوّذْ مقال الصدق نفسك واراضه 'تصدّق'، ولا تركن إلى قول مفترى  
ودع عنك إسراف العطاء ولا يكن لكفّيك في الإنفاق إمساكٌ مقتر  
ولا تقفْ زلاتِ العباد تعدّها فلست على هذا الورى بمسيطر

هذا من الشعر التعليمي الذي لا ينبىء عن خيال عميق ، لأن الحكمة  
نظم للحقائق المجردة ، والحقيقة المجردة من صميم الوجود ، وقائل  
الحكمة السائرة عالم بطباع الناس يضع العالم أمام ناظريه ويشرف عليه  
من عل ، وكأنه ينظر في كفه فيستقري الحوادث والطباع ، ثم ينطق  
بالحكمة تصلح لكل زمان ومكان ، من أمثال ما نظم المتنبي وغيره  
من فحول الشعراء ، وأين منهم عبد الله فكري في مواعظه المدرسية  
هذه ؟ على أنها تعد من خير شعره وأسلسه وأوضحه .

ومن شعره ، وربما كان فيه شيء من الشاعرية ، لصراحته وتصويره  
نفسية امرأة فرنجية تتجر بعرضها وتهافت على المال ، وما حدث له معها :

وهيفاء من آل الفرنج حجابها على طالبي معروفها في الهوى سهل  
تعلقتها ، لا في هواها مراقبٌ يخاف ولا فيها على عاشقٍ بخل  
إذا أبصرت من ضرب باريز قطعة من الأصفر الإبريز زل بها النعل  
فلمّا تعارضنا الحديث تعرّضت لوصل ومن أمثالها يُطلب الوصل  
فرُحّتُ بها في حيث لا عينٌ عائن ترانا ، ولا بعلٌ هناك ولا أصل  
وبتٌ ولي سُكران من خمر لحظها وراح ثناياها ، ومن خدّها نُقل  
وقمت ولم أعلم بما تحت ثوبها وإن كان شيطاني له بيننا دخل

ومن خير شعره قوله :

أنسيت ليلتنا وقد خالص الهوى      منا ، وحبل الوصل وهو متين  
بتنا على فرش العفاف وبيننا      نجوى ترق لها الصفا وتلين

ومن أحسن شعره قصيدته التي يعتذر فيها للخديو توفيق ، ويتنصل  
من اشتراكه في الثورة ، ويطلب إرجاع راتبه المقطوع ؛ وإن كانت  
معانيها مما يخطر لكل شاعر وليس فيها جديد ، وهي تنبيء عن تلك  
الروح الذليلة التي تمثلت في كبار رجال الدولة إبان عصور الظلم :

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى      وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا  
وقف خاضعاً واستوهب الأذن والتمس      قبلاً وقبل 'سدة الباب لي عسرا

وفيها يقول :

مليكي ومولاي العزيز وسيدي      ومن أرتجي آلاء معروفه العمرا  
لئن كنت أقوام عليّ تقولوا      بأمر فقد جاءوا بما زوروا 'نكرا  
حلفت بما بين الحطيم وزمزم      وباللباب والميزاب والكعبة الغرا  
لمّا كنت لي في الشرّ باع ولا يد      ولا كنت من ينبغي مدى عمره الشرا  
ولكن محتوم المقادير قد جرى      بما الله في أم الكتاب له أجرى  
أتذكر يا مولاي حين تقول لي      وإني لأرجو أن ستنفعي الذكرى  
أراك تروم النفع للناس فطرةً      لديك ، ولا ترجو لذي نسمة 'ضرا  
فعفوا أبا العباس لا زلت قادراً      على الأمر ، إن العفو من قادرٍ أخرى  
أيجمل في دين المروءة أنني      أكابد في أيامك البؤس والعسرا

ولعلنا بعد كل هذا الذي رويناه له قد أخذنا فكرة واضحة عن منزلته بين الشعراء ، وقد ذكرنا آنفاً أنه اشتهر بالكتابة ، وأنه كاتب أديب أكثر منه شاعر ؛ وشعره في الواقع قليل إذا قيس بما ترك من مقالات ورسائل ، وكُتِبَ وشروح وغير ذلك .

### نثره :

استطاع عبد الله فكري أن يرتقي بالكتابة الديوانية ، وأسلوب الرسائل والمكاتبات إلى منزلة سامية ، وأعاد إلى الأذهان عصر رؤساء ديوان الإنشاء في العصور القديمة ، واتخذ له خاتماً : « إني عبدُ الله آتاني الكتاب ، ؛ لأن هذه الآية وافقت سنة ميلاده ١٢٥٠ هـ كما كان لهؤلاء الرؤساء خواتم .

وكان له أسلوبان في نثره : أحدهما وهو الغالب وبه كُتِبَ أكثر رسائله ، وهو ذلك الأسلوب الذي يحتفي بعبارته ، وموسيقاه ويختار ألفاظه ، وبه خيال شعري ، ومعانٍ دقيقة معارضاً فيه أسلوب القاضي الفاضل ، أو بديع الزمان ، أو الخوارزمي ، أو ابن العميد . وثانيهما أسلوب مرسل سهل يجري مجرى الكلام العادي وهو أسلوب الصحافة في عهده ولكنه قليل فيما ترك من آثار .

ومن الأسلوب الأوّل قوله من رسالة لصديق ، بيّن فيها أحوال أهل العلم في عصره منتقداً هذه الأحوال ، متهمكماً بهم في لهجة ساخرة لاذعة ، قال : « كتبتُ والذهن فاتر من وَهن الدفاتر والتبويض والتسويد ، والتقييد والتسديد ، والترجمة وكثرتها ، والهمة وفقرتها ، والمهابة وقلتها ، والنفس وذاتها ، وراقي لا يكفي أجره البيت ، ولا يفي ثمن الماء والزيت . وبلا مسرّ وعدّ الوكيل بالزيادة ، واعتذر

اليوم بالأصيل على العادة ؛ على أنه لو حصلت زيادة ، فلزيد ولعمرو ،  
إلى آخر الزمّر والله الأمر . أحوال متبدّدة ، ونفوس متبلّدة ، وأشغال  
متعددة ، إخوانُ خوّان ، وخِلانُ غيلان ورِفاق وما أجملَ الفراق .

وقلت :

إلام أعاني الصبرَ والدهرُ غادرٌ      وحقى مقى أشكو وما ليَ عاذرُ  
ولو أنني أشكو عظامي شدتي      لميتٍ لرقّت لي العظامُ النواخرُ

وسألتَ عن فلان وفلان ، وهَيَّان بن بَيَّان ، ممن ينتسب للعلم  
وأهله ، ويتظاهرُ بشعار فضله ، ولو كان العلم بلحيةٍ تعظمُ وتُطوّلُ ،  
وشواربٍ تُثخَفُ وتستأصلُ ، وعيونٍ على ما بها من غمضٍ ورَمَضٍ  
تكحلُ ، وعمامةٍ تعظمُ حتى تزدلُ ، وطيلسانٍ يُلفُ ويسدلُ ، وكُمٍ  
يوسّعُ ويُسبّلُ ، وأحاديثٍ خرافةٍ تُقصُّ ، وتنقلُ ومحفظةٍ تُفَعِّمُ  
وتُثَقِّلُ ، وسِوَالِكٍ يظهرُ من العمامة نصفه ، وكتابٍ يخرجُ من الجيبِ  
طرفه ، ثم بتشدق في الكلام وبتباهٍ في المرام ، وتعتسف في الأفهام ،  
وحِرْصٍ على الخطام ، ثم يقول الإنسان : حضرتُ درس فلان ،  
وسمعتُ من لفظه باللسان ، وقضيت في العلم كذا سنةً من الزمان ،  
فهم أعلمُ من أقلّته الغبراء وأفقه من أظلمته الخضراء ، وإن كان للعلم  
غيرُ هذه الآلات ، فما لهم سوى هذه الحِالات . غايةُ الأمر أنهم  
قَصَّوْا أرذلَ العمرُ في كتب معدودة وشروح موجودة ، وهم  
يكرّرونها ولا يدرونها ، ويقرّرونها ولا يُحرّرونها ، ويتداولونها ولا  
يعقلونها ، ولو صرف حماري هذا العمرَ فيها لأصبحَ فقيهاً ، وأضحى  
نبياً ، والذي يُظهرُ ميسنهم وشينهم وعلامةً ما بيننا وبينهم أن يؤمر  
أحدهم برقعة تكتب لحاجةٍ معهودة ، ويمتحن بكتاب غير هذه الكتب  
المعدودة ، وفيه بعض كلام العرب وأشعارها ، وشيء من وقائعها

وأخبارها ، فإن كتب فصيحاً وقرأ صحيحاً وفهم مليحاً ، عرفنا أنه  
شم عرف العلم وذاق طعم الفهم ، وسلمنا إليهم ما يدعون ، وتركنا  
لهم ما يأتون وما يدعون ، وإن ارتبك الرقبة ، ووقف حمار الشيخ  
في العقبة ، عرفنا حاله وقلنا له :

أيها المدعي 'سليمي' سفاها      لستَ منها ولا 'قلامه' ظفر  
إنما أنت من 'سليم' كواوٍ      ألحقت في الهجاء ظملاً بعمرو

وقد مررتُ بالأمس على أحدهم في الدرس ، يقرأ القَطْر لابن هشام ،  
ويلحن لحن السَّوَام ومررتُ بآخرٍ يدرس الكافي في عِلْمِي العروض  
والقوافي يقرر قوله :

قف على دارهم وابكِينَ      بين أطلالها والدمن  
فلا وربك ما أقام له وزناً ، ولا عرف له معنى ، مع سهولة مبناه  
وظهور معناه .. الخ ومن هذا النثر المسجوع قوله يصف حديقة .

ثم خَرَجْتُ إلى حجرة خالية ، أعدتُ فيها 'فرش' عالية ، وأدوات  
غالية ، وسطعت بها روائحُ الطيب والغالية ، وقد أكملت وجوه  
تحسينها ، وأتمت أسباب تزيينها ، وهي على حديقة ذات أفنان ، وأنواع  
من الزهور وألوان ، وثمرات حسان ، وقد فاح الطيبُ من محاجر  
أزهارها ، وصاح الخطيب العندليبُ على منابر أشجارها :

رياضٌ كديباجِ الحدودِ نواضرٌ      وماءٌ كسلسالِ الرضابِ برود

فجلستُ أُجِيل فيها النظر ، وأنامل محاسن الروض غبَّ المطر ،  
وأطالع مارقته الطلُّ في صحائف الغُدرانِ ، وأرى خواتم الزهَمر  
حين تسقط من أنامل الأغصان :



من قبل أن تَرُشَفَ شمس الضحى رِبْقَ الغواصي من ثغور الأقاح  
ومن ذلك الضرب من النثر الذي يذكّرنا بكتاب الإنشاء في الدولة  
الأيوبية وما قبلها وفيه بعض القوة والعافية في سجعات قصيرة الفقرات  
نوعاً من رسالة :

« سلامٌ يعبّر عن الورداد طيبٌ تعبّيره ، ويُخبر عن إخلاص الفؤاد  
لُطْفُ تعبّيره ، وثناءٌ على محاسن تلك الشائِل ، أرقٌ من نسيات  
الشائِل (١) وتحيّةٌ بهيّةٌ تُباهي الخائِل بنفحات أورادها ، وأدعية  
مرّضية جعلتها الألسنة خَيْرَ أورادها ، وسؤال عن المزاج الزاهر  
وصحة الخاطر الباهر . لا زلتم تحلّ نعمة يتصل على مدى الأيام بقاؤها ،  
ويزيد على مرّ الشهور والأعوام بهاؤها ؛ ولا بَرحتْ ثغورُ الإقبال  
إليكم بواسم ، ورياحُ الآمالِ لديكم مواسم .

وبعد ، فإني من الأشواق ، ما تضعف عن حمله إلى حاكم الأوراق ،  
ومن التأسف على ما حُرمت من لُقيائكم ، والتلهف إلى مطالعة محبتاكم  
ما يقصّر عن وصفه لسانُ البراعة ، ويَقْصُرُ دون وصفه بيانُ البراعة ،  
ويضيقُ عنه نطاقُ العبارة ، ولا ينفسح له ميدان الإشارة .»

ومن رسائله التي تذكرنا بأسلوب العصر العباسي الثاني ، عصرِ صاحب  
بن عباد والخوارزمي ، وابن العميد قوله معزياً :

« يَعِزُّ عليّ أن أكتبَ سيدي معزياً أو ألم به في مُلمة مسلياً ،  
ولكنه أمر الله الذي لا يُقابَلُ بغير التسليم : وقضاؤه الذي ليس له  
عدّة سوى الصبر الكريم . وقد علم مولاي ( أجل الله صبره ولا أراه  
من بعدُ إلا ما سرّه وشرح صدره ) أن الله - جلّ ثناؤه وتباركت آلاؤه -  
إذا امتحن عبده فصبرَ أجره وعوّضَه بكرمه ، كما أنه إذا أنعم عليه  
فشكره زاده ، وضاعفَ له نعمه ) وقد عُرِفَ من حال سيدي في

الشكر على الشراء ، ما يستوجب المزيد منها ، والظنُّ بحزمه وعلمه أن يكونَ حاله في الصبر على الضراء ما يستجلب الأجر عليها والتعويض عنها .

وقد استعمل عبد الله باشا فكري الأسلوب المسجوع في كل باب وغرض ، حق في التقارير الفنية ، والمنشورات العامة ( والفرمانات ) فمن ذلك صورة ( الفرمان ) الآتي بتنصيب محافظ :

« صدر هذا الفرمان المُطاع ، الواجب له القبولُ والاتباع ، خطاباً إلى الحكام والعلماء ، والقضاة والأعيان ، والوجوه والعمد ومشايخ البلدان ، وعموم الأهالي المتوطنين في محافظة كذا بجهات السودان . ليكون معلوماً لديكم بوصول هذا المنشور إليكم ، أنه قد اقتضت إرادتنا تنصيبَ فلان محافظاً عليكم ، لما توسمناه فيه من الدرية والاستعداد والسلوك في طرق الرشاد ، وبذل المهمة في أمور المصلحة ومزيد الاجتهاد الخ . »

ومن هذه النماذج المتقدمة نرى أن هذا الأسلوب على ما به من سجع ، فإنه سهل متين العبارة تقل فيه المحسنات المتعمدة ، ويطرق أغراضاً متعددة منها : الديواني البحث ، ومنها ما يستعمل فيه الشعر . وقد أفاد هذا الأسلوب الكتاب من بعده وصار لهم قدوة ، ولكنه أختَر تخلص النثر من طريقة هذه المدرسة الديوانية حتى أوائل عصرنا الحاضر ؛ لأن أرباب هذا الأسلوب شغلوا المناصب الرفيعة فظن الشادون في الأدب أنهم لو قلّدوهم لوصلوا إلى ما وصلوا إليه ، فتمسكوا بأسلوبهم أمداً غير يسير . والحق أن الغرض الأدبي المهم يحتاج إلى عبارة خاصة يحتمل بها الكاتب بعض الاحتفاء ، ويضعها في قالب جميل يناسب الغرض

---

(١) راجع الآثار الفكرية ٢٢١ - ٢٢٢ .

الذي قيلت فيه حتى لا تذهب بنفاسة الموضوع ثقافة العبارة . وتجويد العبارة محبوب مرغوب فيه على شريطة ألا يُضحى بالمعنى من أجل لفظة أو سجمة أو محسن خاص . ولقد استطاع عبد الله فكري أن يسترد بأسلوبه هذا للغة العربية مكانتها التي فقدتها عدة قرون ، وأن يزيج التركية من أمامها ، ويثبت قدميها في الدواوين وفي لغة الرسائل ، واضحة ، أدبية ، جذابة .

أجل ! لم يكن عبد الله فكري من هؤلاء الذين طرَقوا موضوعات جديدة في كتاباتهم ، بل استخدموا مقدرتهم البلاغية في الأغراض القديمة من تعزية وتهنئة ، ووصف ومدح واعتذار وعتاب ، ومنشورات على لسان الأمير ، وتقارير عن مهمات 'وكلت إليهم وغير ذلك من الأغراض المطروقة . ولم يكن للأفكار الجديدة ، ولا للأغراض القومية أي تأثير عليه ؛ وقد زاد نفوذ الأجانب وقامت الثورة العرابية ، ونكبت مصر بالاحتلال ، ولم يسمع له كلمة تعبر عن هذه الأحداث ، ولم يتألم لألم وطنه وذلتة كما تألم الشدياق ، وأديب إسحاق ، وعبد الله نديم ، وجمال الأفغاني وغيرهم ، وما ذلك إلا لأنه كان مثال الموظف الديواني الخالص ، البعيد عن الاشتغال بالمسائل العامة ، والأمور الهامة .

ومن الأسلوب المرسل الذي تأثر فيه برجال الصحافة لعهد ، ولا سيما أسلوب «الجوائب» قوله من رسالة بعث بها إلى المرحوم عبد الله أبي السمود صاحب جريدة «وادي النيل» :

« قد كنت وعدت فيما حررت سابقاً أنني أكتب حضراتكم بعد ما تيسر على حسب الإمكان ، ومساعدة الزمان ، والآن أريد أن أخبركم بمحاورة جرت بيني وبين بعض المتورعين من الناس فيما يتعلق بصحيفة «وادي النيل» وكتاب الجغرافية المطبوع في وريقاتها . وذلك أنني رأيته

ينكر على حضرتكم بعض المباحث المندرجة في ذلك الكتاب ككون الأرض كرة ، والقبة السماوية متخيّلة ، وما قيل في كيفية الكسوف والخسوف ونحو ذلك ، بعد اعتراف منه بأن الكتاب المذكور كتابٌ مناسب في موضوع مهم تدعو إليه الحاجة لمعرفة مواقع البلاد ومحالها ، وأقسام الأرض وأحوالها ، فإن هذا لا 'تنكر مزيجته وفائدته في السياحة والتجارة وأمور التمدن والحضارة ، فقلت له : قد علمت أن منشئ « وادي النيل » ليس مؤلف الكتاب المذكور وإنما هو مترجم له ، والمترجم ناقِل ليس عليه 'عهدة ما ينقله ، وإنما يلزمه صحة النقل ، وتوفية حق الأداء على صحته ، ولا يلزمه ما يترتب على الأصل المنقول عنه من نقد ومؤاخذه بعد عزوه لأصله ، ونسبته إلى قائله ، فلو 'سلم أن جميع تلك المباحث بما ينكر فما عليه شيء من ذلك ، فقد قالوا : إن ناقِل الكفر ليس بكافر ... الخ ، (١) وهي رسالة طويلة تقع فيما يقرب من عشرين صفحة .

ومن نثره المرسل كذلك قوله في تقرير عن رحلته إلى استوكهلم حيث حضر مؤتمر المستشرقين :

« ثم أشير إليّ فقمّت ، وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس فأتممتها في الطريق ، وبيّضتها في استوكهلم ، فابتدأت أقول :

اليوم أسفرَ للعلوم نهـار وبتت لشمس نهارها أنوار

ومضيت فيها إلى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب ، وبالجملة لي لما أتممت الإنشاد ، وخاطبني أناس منهم باستحسانها في اليوم ، وحضر

---

(١) راجع الآثار الفكرية ٢٢١ - ٢٢٢ .

كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها وساورني يطلب نسختها ، فأخذها في الحفلة ، وخطب بعد ذلك أناس منهم ( المسيو شفر ) وافسد فرنسا ، وكانت هذه الحفلة خاصة بذلك ليس فيها تقديم موضوعات علمية . الخ .

على أن عبد الله فكري لم يكثر من هذا الأسلوب المرسل ، وإنما كان من غواة النثر المسجوع ؛ وهو بأسلوبه يمثل دوراً هاماً مرت فيه النثر العربي من مرحلة الغثاثة والركاكة إلى مرحلة القوة وتوخي الفصاحة وقواعد اللغة ، بل والتأنق في الأسلوب ، ولم يذهب تقليده لرؤساء ديوان الإنشاء في القديم بشخصيته وطابعه ، بل لا يزال يعطينا صورة عن عصره ، ولم يأسره حب البديع ومحسناته فيذهب بمعانيه بإغراقه فيه .

#### آثاره :

وتوفي سنة ١٨٩٠ ، وله عدة مؤلفات منها : المقامة الفكرية في المملكة الباطنية المطبوعة سنة ١٨٢٩ هـ ، ومنها الفوائد الفكرية ، وشرح بديعية محمود صفوت الساعاتي ، ومنها جزء من شرح ديوان حسان بن ثابت ، وكتاب « نظم اللآل في الحكم والأمثال » وكتاب « آثار الأفكار ومنثور الأزهار » طبع منه تسع ملازم بروضة المداوس . ومنها الفصول الفكرية للمكاتب المصرية ، ورسائله التي كتبها في المقارنة بين الوارد في نصوص الشرع والمقرر في علم الهيئة الفلكية ، وغير ذلك من المراسلات والمقالات . وله أيضاً « إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا » وقد أتمه ولده أمين بعد وفاته . وقد جمعت معظم آثاره في كتاب « الآثار الفكرية » ، وترجم له في أوله المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده .

هذا وقد كان لعبد الله فكري عناية برواية الحديث ، وله فيها طرق

عديدة وأسانيد سديدة (١) .

٥ - السيد عبدالله الألوسي (٢) :

ولد في بغداد من أسرة مشهورة بالعلم سنة ١٢٤٨ هـ ١٨٣٢ م ، وتلقى العلم على والده ، فعرف شيئاً من النحو وروى الشعر ، وقرأ القرآن ، والتفسير والحديث وغير ذلك من العلوم التي كانت تدرس في المساجد ، والتي لا تزال تدرس في الأزهر حتى اليوم في الكتب الموروثة (٣) .

ولم نترجم للسيد عبد الله الألوسي ، لأنه أديب نابغة ، أو شاعر ملهم ، وإنما لنعطى صورة عن الأدب في البلاد العربية إبان هذه الفترة التي نتحدث عنها ؛ حتى نصدر حكماً صائباً عن الأدب العربي وتطوره ، وأنه لم يكن في بلد أحسن منه في أخرى ، وأن النهضة أخذت تدب فيه شيئاً فشيئاً .

لم يعمر السيد عبد الله طويلاً فقد مات سنة ١٢٩١ هـ - ١٨٧٤ م عن ثلاثة وأربعين عاماً ، وقد قضى هذه السنين القصيرة عيلاً سقيماً ، واشتغل بالتدريس حقبة في بغداد واشتهر بحسن إلقاءه ، وتوضيحه لعويص المشكلات العلمية . ولكن الحياة لم تكن ميسرة له ، فمن أسرة كبيرة العدد ، وصحة سقيمة ، إلى فقر وعدم تقدير . فعزم على الرحلة ، وباع كل ما يملك وييم صوب الآستانة ، ولكنه لم يصل ، لأن قطاع الطرق سلبوه كل عتاده ، وتركوه عارياً في الصحراء ، ولولا

---

(١) راجع الآثار الفكرية ٩ - ١١ .

(٢) هو ابن السيد محمود الألوسي ( أبو الشناء ) الذي ترجمنا له سابقاً .

(٣) راجع أعلام العراق لبهجت الأتري ص ٨٩ .

أن من الله عليه بمن التقطه وأرجعه إلى بغداد لقضى جوعاً وعرباً .  
 رجع صِفَر الكف من زاد الدنيا ، ولم يكن ممن يحميدون التزلف والملق  
 فسات حاله وطالما عرض عليه القضاء قبل هذا فكان يرفضه ورعاً  
 وزهداً . بيد أن الضائقة أخرجته فاضطر إلى قبوله ، وتولى قضاء البصرة  
 سنتين ثم مات . وقد ترك عدة مؤلفات في علوم اللغة ، وله شعر  
 لطيف ومقالات أدبية جمعها ابنه السيد محمود شكري الألوسي فوفقت  
 في مائة صفحة ؛ ومن نثره يصف مطراً شديداً متوالياً ، وفيضان  
 نهر دجلة . وهذا النثر يمثل مدرسة الصنعة والسجع والتكلف أو  
 انتزاع الاستعارات وحشدها ركاهماً عجيباً ، وهو دون عبدالله فكري  
 منزلة ولا ريب من حيث الأسلوب ، والفكرة ، وتنوع الموضوعات .  
 قال من رسالة بعث بها لأخويه يصف هذا المطر :

« . . . إنه ( المطر ) عند غروب شمس الأربعاء ، تنفس بغم  
 الشوق الصُعْداء ، ورَمَى بوجه الأرض حصيً من كف السماء فناداه  
 الليل - وقد تحقق أن الدائرة على الأرض - وما رميت إذا رميت  
 ولكن الله رمى ، وحاك الدوى بمكثوك الريح من سدى البخار  
 ولحمته شققاً سوداً ، وصبغها الليل فكانت ظلمات بعضها فوق بعض ،  
 وطنبها خيمة خيمة على أكتاف المراق في الطول والعرض ، واشتد  
 الريح والظلام ، وشرع جَنِيَّ الليل يخوف صبيَّ النهار كلما أحس منه  
 بقيام ؛ حتى سلَّ الفجر قرصاً به الأبيض من غده الأسود ، وأغمس  
 الليل قامة الجوزاء بعد أن كان بها على النهار يتهدد ، (١) .

٦ - حسين بيهم (٢) :

ولد حسين ببيروت سنة ١٢٤٩ هـ ١٨١٣ م وأخذ من العلم المعروف

(١) راجع أعلام العراق تجد فيه الرسالة كاملة ص ٤٨ - ٥٠ .  
 (٢) أبوه السيد عمر بيهم وكان من أعيان بيروت وأدبائهم . ولا تزال أسرة  
 بيهم حتى اليوم ذات مكانة في بيروت .

في عصره قسطاً غير قليل ، ثم انقطع للتجارة ، ولكن حينئذ إلى العلم جذبته إليه فنال شهرة وقوى عدة مناصب كبيرة كمنظارة الخارجية ورئاسة الأحكام العدلية ، ومثل بلاده في مجلس النواب التركي مدة ، ولما عاد ترك الوظائف وتفرغ للأدب . ومن آثاره رواية أدبية وطنية مثلت مراراً ، وقرظها الأدباء وشعره لا يتميز عن مدرسة أبي النصر والليثي ، وقد وفيناه نعتاً عند الكلام عليهما ، ومن ذلك قوله يؤرخ لإنشاء ( التلغراف ) في بيروت :

لله در السلك قد أدمشت عقولنا لما على الجو ساق

فأعجب الكون بتاريخه شبيه برق أو شبيه البراق (١٢٧٧)

وقال مشطراً :

وإذا العناية لاحظتك عيونها وجباكها من فضله الرحمن

ناداك طائرٌ يمنها وسعودها نَمُ فالخواف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهي حباله وأملك بها الغبراء فهي سنان

واصعد بها العلياء فهي معارج واقتد بها الجوزاء فهي عنان

وقال يعزى صديقاً بفقد ماله :

لقد عمنا والله والصحب كلهم مصاب دهاكم بالقضا حكم

كان شراراً منه طار لأرضنا فأحرق أحشاء الورى بالتطابر



ولكننا قلنا مقالة عاقل يستلم للباري بكل المظاهر  
إذا سلمت هام الرجال من الردى فما المال إلا مثل قص الأظافر  
فكن مثل ظن الناس فيك مقابلاً لذا الخطب بالصبر الجميل المصادر  
ولا تأسفن إذ ضاع مال ومقتنى فربك إذا الحزم أعظم جابر  
وإن حياة المرء رأس ماله سلامته تعلو جميع الخسائر  
وهو شعر بادي الضعف ، كثير العوار لا يحتاج منا وقفة أو نقداً .





## الفصل الرابع

### بعث الشعر العربي

---

مر الشعر العربي منذ عهد امرئ القيس إلى عصر البارودي في أطوار مختلفة : كان في الجاهلية وصدر الإسلام شعرَ الفِطْرةِ والسليقة المنبثثة عن الشعور والإلهام ، تَمَرَّضُ الحادثة أو المنظر للشاعر فينفعل ويتأثر ، ويلهج لسانه بما يختلج في فؤاده ، وقد ينبعثُ من طيات ضميره لا بوحى خارجي . وهو في كلتا الحالتين لا يعمد إلى تنميق أو تزويق ، أو يعتمد لفظاً بعينه ، وإنما اللغة ملكُ يمينه وطوعُ لسانه ، وكأنها بفرداتها الزاخرة ، ومعانيها المتباينة موضوعةٌ في كفه يختار منها ما يكفي لأداء المعاني التي تتجاوب في خاطره . وكثيراً ما يعمد إلى هذا الأداء بأوجز لفظ وأمتنه دون إسهاب أو حشو ، ولا سيما إذا كان شاعراً فحلاً طويل الباع في فن الشعر ، وله دراية بوجوه تصريف الكلام . ولذلك جاء الشعر العربي القديم صورة صادقة لمن قالوه . ولأمر ما قال نقاده منذ القرن الثاني : « الشعر ديوان العرب » . لم يكن العربي الأول يعمد إلى الخيال المخبَّج الذي يخلق الصور ويغوص وراء المعاني في أعماق الفكر ، وإنما يصور إحساسه وشعوره دون تزبد أو نقصان ، ودون فلسفة أو منطق . وقد كان دستورهم في ذلك قولَ أحدم :

وإنَّ أحسن بيت أنت قائلهُ بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وكان الشعر العربي حين ذاك بيت مشيد بالحجارة المتينة العارية عن الزخرف والطلاء يروعك بسذاجته وشموخه ومتانتته . وفي السذاجة جمال الفطرة .

ثم أخذ العرب بنصيب غير قليل من حضارة الأمم التي فتحو بلادها ، وألّفوا أنواعاً من العيش ، وألواناً من الحياة ونظام الحكم ، لم يعرفوها من قبل ، وشاهدوا مناظر جديدة اختمرت في عقولهم زمناً ، وأطلعوا على ثقافات متباينة: من يونانية وفارسية وهندية ونبطية وما شاكل هذا ، وكان من الطبيعي أن يتأثروا بكل ذلك . وكنا ننتظر أن يتطور الشعر العربي تطوراً جديداً خليقاً بهذا الانقلاب الكبير في حياة الأمة العربية ، وأن يحتذي العرب حذو الإغريق مثلاً في ملاحمهم وقصصهم ومسرحياتهم ، ولكن ما طرأ على الشعر العربي لم يعُد الشكل الظاهري ، وظل البناء القديم ، والقالب الموروث نصباً فيه المعاني في العصر العباسي كما كانت تصب في العصر الجاهلي والإسلامي الأول . أجل ! لقد رق الخيال ولطف ، وتولدت المعاني وابتكرت ، وتناول الشعر ألواناً جديدة لم يقل فيها السابقون .. ولكن ظل البيت الذي شاده الجاهليون ، والطريق الذي سلكوه في التعبير عن شعورهم هو المثل الأعلى لشعر العصر العباسي . بيد أن مقتضيات الحضارة دعت الشعراء أن يؤثثوا هذا البيت الذي ورثوه عن أسلافهم فحشدوا فيه أنماطاً شتى من المعاني العميقة والأخيلة البعيدة والفلسفات والحكم ، وكثيراً من صور الحياة في عصرهم ، وابتدأوا مع هذا يدخلون شيئاً من الزخرفة بقدر ، وكانت زخرفة منسجمة مع الرياش والأثاث وبدا الشعر العربي في عنفوان قوته وازدهاره وغناه .

ثم خلف من بعدهم خلف أضافوا إلى هذا القصر الفاخر كثيراً من

الحلى والزخارف وكان الضعف ابتداءً يتسرب إلى البناء ، ويدب فيه الوهن . وعجز الشعراء عن مجارة الأقدمين في متانة عباراتهم ، وقلّصهم زمام اللغة ، وعجزوا عن مجارة المولّدين في معانيهم العميقة وأخيلتهم الجميلة ، فأكثروا من الزخرف والزينة ليستروا بها الضعف الشائن . وكانوا على شيء من الإلمام باللغة والأساليب الصحيحة فلم يستمعج قوهم ، وظل في الشعر ذماء يحفظ عليه حياته ، وبقي البناء في مجموعه سليماً .

ثم أخذ البناء يتداعى بضعف الأمة العربية ، وخضوعها للأعاجم الذين لا يقدّرون هذا التراث الجميل ، ولا يعرفون لسان أهلهم ولا هم إلا ابتزاز الأموال من الشعوب المظلومة دون مقابل من علم أو صحة أو غنى ، فتفشى الجهل وساد الظلم ، واستعجم الشعراء ولحنوا لحناً فاحشاً ، وكانوا أبعد الناس عن الأساليب الصحيحة ، والمعاني الواضحة ، والشعور السليم ، وخانتهم الأدوات المعبرة ، وأصبح مهمم النظم الذي لا روح فيه ولا معنى له ، والذي يساق في عبارة ركيكة غثة ، وفي حشد زاخر من الزينات والمحسنات لتستر عواره . وقد كان الشعر يلفظ أنفاسه الأخيرة عيئاً ومرضاً حين ابتداء العصر الحديث .

ابتدأت النهضة الشاملة منذ عصر محمد علي ، وقد رأيت شيئاً من معالمها ، ورأيت كيف كان الشعر يتردد بين المرض والعمافة ، فيصح أحياناً وينتكس أحياناً كثيرة . وظلّت النهضة سائرة في طريقها في عهد اسماعيل ، واللغة يدب فيها شيء من القوة ، والمطابع تدفع بالكتب الأدبية القديمة ، والمدارس تبدّد 'سدف' الجهل والظلام ، والصحافة 'تكشف' الطريق ، وتزيل ما به من أضرار وعوائق ، ولكن الشعر ظلّ على حاله من الضعف لم يقف على قدميه بعد ، وكان مكبلاً بقيود ثقيلة ، تحت أنقاض هذا البناء المشمخر الذي تداعى أيام الانحلال :

وشاء الله أن يَبْعَثَ من يُنْهَضَهُ من كبوته ، ويقيله من عثرته ،  
ويلقي بهذه الآفات والأضرار بعيداً ، ويعيد للبناء قوّته ومجده ،  
وزخرفته الطبيعية الجذابة كدفعة واحدة ، كأنما هي عصاً ساحرة قلبت  
الميت حياً والضعيف قوياً ، والمعدّم ثرياً . كان هذا على يد إمام النهضة  
الشعرية الحديثة في العالم العربي :

### محمود البارودي

١٢٥٥ - هـ - ١٣٢٢ هـ ، ١٨٣٨ م - ١٩٠٤ م

حياته :

محمود سامي البارودي من أسرة جركسية ذات جاه ، ونسب  
قديم <sup>(١)</sup> ، تنتمي إلى حكام مصر المماليك ، وكان البارودي يعرف هذا

أنا من معشر كرام على الدهر أفادوه عِزَّةً وصلاً  
عَمَرُوا الأرض مدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحاً

يقول :

نماني إلى العلياء فرعٌ تأثلتُ أرومته في المجد ، وافترّ سعده  
وحسب الفتى مجداً إذا طلب العلا بما كانت أوصاه أبوه وجدّه

---

(١) أبوه حسن حسني البارودي من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنفلة  
في عهد محمد علي ، وجدّه لأبيه عبد الله الجركسي ، والبارودي نسبة إلى ( إيتاي  
البارود ) بديرية البحيرة وكان أحد أجداده ملقّباً لها . وينتهي نسبه إلى الملك  
الأمشرف ( سبراي ) الأتابكي من المماليك الذين حكموا مصر فيما مضى . ( مذكرات  
عراي ج ١ ص ١٠٠ ) .

ونيتيم محمود البارودي صغيراً ، وهو في السابعة من عمره ، فحُرم بذلك حنان الأب ورعايته ، وتلقى دروسه الأولى في البيت حتى بلغ الثانية عشرة ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة ، والترك ، وأبناء الطبقة الحاكمة . وتخرج في المدرسة الحربية سنة ١٨٥٤ وهو في السادسة عشرة من عمره في عهد عباس الأول ، وكان من الموقنين للنهضة كما مر بنا ، وقد خمدت في عهده روح الحماسة التي شتتها محمد علي في الجيش ، بل سرح معظمه ، واقفرت ميادين القتال من ألوية مصر . ولم يكن عهد سعيد أحسن حالاً من عهد عباس ، فلم يجد البارودي - كما لم يجد زملاؤه - عملاً يعملونه . أما هم فقد طاب لهم عيش الرخاء والدعة وسرهم البعد عن ميادين القتال ، ولكنه أحس دونهم بألم مض ، إذ لم يشترك في حرب كما اشترك آباؤه ، وكما كان يود أن يحقق عن طريق الجندية والجيش آمالاً ضخمة ، وأماناً عريضة . ودفعه هذا الألم إلى العوض عن الممارك الحقيقية بممارك موصوفة مدونة في صفحات التاريخ فمكف على كتب الأقدمين يلتهمها التهاماً . وكانت ملكة الشعر كامنة في حنايا فؤاده ، فراقه من التراث الأدبي شعر الحماسة والفخر ، ووصف ميادين القتال ، وأعمال الأبطال ، ورأى في هذا الأدب تصوراً للحياة كلها حلوها ومرّها من غزل وفكاهة وحكمة ورتاء ، وكل ما يخطر ببال الناس ، فازداد شغفه به وحرصه على حفظه وتدوينه . وتحركت نفسه لقول الشعر فقلد فحول الشعراء في أروع قصائدهم . وهل على مثله من بأس أو عار إذا هو قال الشعر ؟ إذا توم هذا معاصروه من أبناء طبقته لجهلهم وخود قريحتهم ولتقاليدهم الموروثة ، ولهوان شعراء زمانهم وضعة شأنهم فإن البارودي كان على ذكر من أن أمراء كثيرين قبله ، أعرق نسباً ، قد برزوا في الشعر العربي وسطروا تاريخهم في سجل الخلود ، كأمريء القيس ، وابن المعتز ، والشريف الرضي ، وأبي فراس وأضرابهم . فلم لا يكون مثل هؤلاء ؟

ولم لا يرتفع بالشعر إلى منزلتهم ؟ لن يكون مداحاً متملقاً ، أو  
نديماً منافقاً ، ولكنه سيقول في أغراض شريفة تليق به وبمكانته :

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلةً للضح والذام  
قد طالما عزَّبه معشر وربما أزرى بأقوام  
فاجعله ما قد شئت من حكمة أو عظة أو حسبٍ نام  
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الرامي  
وقد عرف فيما عرف من أدب العرب منزلة الشعر وعبر عنها  
بعد بقوله :

صحائفٌ لم تزل تتلى بالسنه للدهر في كل نادٍ منه معمور  
يزهى بها كل سام في أرومته ويتقى البأس منها كل مغمور  
فكم بها رسخت أركان مملكة وكم بها خمدت أنفاس مغرور  
والشعر ديوان أخلاق يلوح به ما خطه الفكر من بحث وتنقير  
كم شاد مجداً، وكم أوذى بمنقبة رفعنا وخفضنا بمرجوتٍ ومحذور

هكذا رأى البارودي الشعر ، وما كان له أن يمرض عنه ، ولو  
حاول ما استطاع وفيه طبع شاعر ، وقد ملك أدواته اللغوية المعبرة .

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت به عادة الإنسان ان يتكلما  
فلا يعتمدني بالإساءة غافل فلا بد لابن الأنيك أن يترنما

فهو مطبوع على قول الشعر مثله في ذلك مثل الهزار أو البلبل ،  
ينطق كلاماً بالغناء فطرة وجبلة ، ولكن مصر ضاقت به أو ضاق بها



حيث لم يجد 'غنية لدى الدولة لتحقيق آماله ، فسافر إلى الآستانة مقر الخلافة ، والتحق بوزارة الخارجية ، وهناك تعلم التركية والفارسية ، كما تعلم آدابها ، وحفظ كثيراً من أسفارهما ، ودعته سليقته الشاعرة فقال بالتركية قال بالعربية . ومع ذلك لم يهجر لسانه الأول . ولما سافر إسماعيل إلى الآستانة بعد أن تولى أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ليقدّم آي الشكر على توليته ألحق البارودي بحاشيته ، ورأى فيه ما لم يره في غيره فرجع به إلى مصر .

وابتدأ إسماعيل نهضته بعد عودته مترسباً خطا جده ، وأعاد للجيش مكانته ، ووجد البارودي المجال أمامه فسيحاً ، فظل يرقى في مناصب الجيش ، وفي فرسان الحرس الخاص حتى وصل إلى رتبة ( قائمقام ) وتحقيق له 'منه بالاشتراك في معارك جزيرة ( كريت ) حين ثارت على الدولة فأسهم إسماعيل بجيشه في إخماد الثورة . وقد فتنت البارودي مناظر الجزيرة ومناظر المعارك ، فسجل ذلك كله في شعره ، وسمع الناس نغماً جديداً في الشعر لم يألّفوه منذ عهد طويل ، وأخذوا يتطلعون في لهفة وشوق إلى المزيد من هذا النفس العالي ، ومن هذا الطراز الجديد في الشعر (١) .

وتقلب البارودي في مناصب الدولة ، وكان ذا حظوة لدى إسماعيل ، فاتخذته كاتم سره وسافر في رحلتين سياسيتين إلى الآستانة في مهمة خاصة ، ومكث اثنتي عشرة سنة بجوار إسماعيل ، يرى نشاطه الجم في إحياء مصر وإنهاضها ويشاركه في عمله المجيد . وفي سنة ١٨٧٨ أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وأرسل إسماعيل جيشاً يعاون الخليفة في حربه مع عدوه ، وسافر البارودي مع الجيش ، وأبلى في المعارك بلاء حسناً ، فأنعم عليه برتبة ( اللواء ) وبأوسمة عدة . وكان في ميدان

---

(١) سلتكلم عن شعر البارودي فيما بعد بالتفصيل إن شاء الله .

القتال ، والمناظر الخلابة ، والعالم الذي رآه ما ألهب شاعريته ، فوصف  
المعارك والناس والمناظر بشعر أخذ بلغ الذروة في الوصف . وأخذ  
يهتف باسم مصر ، ويحنّ الى الأهل والوطن ، فابعث منه الشعر قوياً  
ملياً بالحياة .

|                                        |                              |
|----------------------------------------|------------------------------|
| فكل يوم مرّ بي ألفُ عام <sup>(١)</sup> | مولاي قد طال مرير النوى      |
| وينقضي النور ويأتي الظلام              | يقتبل الصبح ويمضي الدجى      |
| ولا أخو صدقٍ يرد السلام                | ولا كتاب من حبيب أتى         |
| سواد جيش مكفهر لهام                    | من خلفنا البحر وتلقاؤنا      |
|                                        | ويقول في قصيدة أخرى :        |
| ولا نظرة يقضي بها حقه الوجد            | هو البين حتى لا سلام ولا ردّ |

ومنها يقول :

|                                 |                                |
|---------------------------------|--------------------------------|
| نسوا عهدنا حتى كأن لم يكن عهد   | ولكن إخواناً بمصر ورفقة        |
| مهامه تمياً دون أقربها الرُّبْد | أحن لهم شوقاً على أن دوننا     |
| ثوت عندكم شهراً وليس لها رد     | فيا ساكني الفسطاط ما بال كتبنا |
| وأنتم علينا ليس يعطفكم ود       | أفي الحق أنا ذاكرون لمهدكم     |
| رويداً فما في مهجتي حجر صلد     | فلا تحسبوني غافلاً عن ودادكم   |
| تأجج من مَس الضرام له النَّد    | هو الحب لا يثنيه نأيٌ وربما    |

وعاد من حرب البلقان وهو في الأربعين من عمره فعين مديراً

---

(١) الخطاب للاديب العالم الشيخ حسين الرصافي وإليه أرسل هذه القصيدة ،  
والتي تليها .

للشرقية ، فحافظاً للعاصمة - ثم ساءت أمور مصر في أخريات اسماعيل ، واضطربت اضطراباً كبيراً وناء الفلاحون بالضرائب الفادحة العديدة . ولنستمع إلى شاهد عيان يصف لنا الهوة التي تردى فيها الفلاحون في تلك الحقبة سنة ١٨٧٥ حيث يقول : « كان من الأمور النادرة في تلك الأيام أن يرى الإنسان شخصاً في الحقول وعلى رأسه عمامة ، أو على ظهره شيء أكثر من قميص ... وغصت مدن الأرياف في أيام الأسواق بالنساء اللاتي أتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين ( الأروام ) ؛ لأن جامعي الضرائب كانوا في "قراهن" والسوط مشهر في أيديهم ، فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة وأصغينا إلى قصصهن ، واشترطنا معهن في استئصال اللعنات على الحكومة التي جعلتهن عرايا . ولم نكن فهماً وقتئذ - أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم - ذلك الضغط المالي الآتي من أوروبا والذي كان السبب الحقيقي في هذا الضيق . وعلى ذلك جارييناهم في إلقاء اللوم كله على اسماعيل باشا واسماعيل صديق دون أن يخامرنا شك في أن الإنجليز أيضاً يقع عليهم جانب من اللوم <sup>(١)</sup> » .

وكان للامتيازات الأجنبية نصيب كبير في تدهور الحالة بمصر في تلك الآونة حيث قد أصبحت أداة ينتفع بها شر الطغاة من الأوربيين وأشباه الأوربيين من متخرجي الشرق الأدنى ، وتجسست في أخريات عهد إسماعيل حتى بلغت مداها الخفيف ، وراح الأوربي قناص الغنيمة ، وسمسار القروض المرهقة ، والإغريقي صاحب الحان ومرتهن الأرزاق ، واليهودي المرابي ومن إليهم ممن يسهل عليهم الاحتواء بإحدى الدول الأوربية يمتصون الخزانة العامة والفلاح والفقير ويقترفون في هذه الجناية ما يستعصي على التصديق <sup>(٢)</sup> » .

---

(١) التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر تأليف الفريد بلنت ص ١٢ .

(٢) Milner England in Egypt p, 15

أما الضرائب التي فرضها اسماعيل على الأرض فقد كانت فوق ما يُتصور ،  
حقى لقد بلغت الضريبة على الفدان ما يقرب من ثمنه ، فكان من الطبيعي  
أن يترك هؤلاء الفلاحون أرضهم وديارهم وينسحبون ماربين عجزاً عن  
أداء الضرائب وخوفاً من السياط <sup>(١)</sup> .

عدا ثلاثين نوعاً من الضرائب الصغيرة ، أضرت ضرراً بليغاً  
بالصناعات والأعمال التجارية والزراعة <sup>(٢)</sup> .

ناهيك بالسخرة ، وما كان يصطحبها من إهانة وأذى وذلة طوحت  
بعزة المصريين ، وأرهمقتهم إرهاباً شديداً ، حتى جعلت أيام السواد  
منهم شقاء وبؤساً .

كانت هذه الأمور هي العوامل التي ملأت قلوب المصريين حقداً  
وكرهية لاسماعيل وحكمه .

وزاد الأمور سوءاً أن انجلترا وفرنسا كانتا تدفعان الحوادث دفعاً  
نحو التآزم حتى تتاح لهما الفرصة للتدخل المباشر ، وافتراس مصر ،  
فقرضتا على مصر وزارة فيها وزيران أوربيان برياسة نوبار باشا ،  
وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعدده أفاقاً أرمنياً جمع ثروة كبيرة من  
سمرته لأصحاب الأموال المستعدين لإعطاء القروض على حساب الجمهور ؛  
أما الفلاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذي أنشأ المحاكم المختلطة التي  
يمقتونها أشد المقت لا اعتقادهم أنها وضعتهم في قبضة المرابين ، <sup>(٣)</sup> .

---

(١) Cromur , Modern Egypt . p. 38

(٢) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) بلنت ص ٣٧ .

واشتطت هذه الوزارة في الضرائب وجبايتها ، وتأخرت رواتب الموظفين ، وعزل الكثيرون منهم ، وانتقصت سلطة الباقين ، وتقرر فصل عدد كبير من ضباط الجيش مع أنهم لم يتقاضوا مرتباتهم منذ زمن طويل ، فزاد السخط وقامت مظاهرة من الضباط وطلبة المدرسة الحربية وبعض النواب في ١٨ من فبراير ١٨٧٩ أمام وزارة المالية احتجاجاً على هذا الظلم واعتدوا على نوبار وعلى الوزير الإنجليزي وعلى رياض باشا وزير الداخلية ، ولم يتفرقوا إلا بعد أن أطلقت النار ، ثم سقطت الوزارة ، واتهم عرابي بتدبير تلك الثورة ، وأبعد عن فرقته (١) .

وتولى توفيق ولي العهد الوزارة ، واشتد الخلاف بينه وبين مجلس النواب الذي رأى تخفيض الضرائب فأبى . وفي هذه الآونة أُلِف الحزب الوطني ، وأصدر لائحة تتضمن مشروعاً مالياً لسداد الديون بكفالة الشعب ، وطالب فيها بتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمام مجلس النواب ؛ ووقع على هذا البلاغ النواب والعلماء ورؤساء الأديان ، وكثير من التجار والموظفين والضباط ، ورفعوها إلى اسماعيل فقبلها على الرغم من احتجاج الوزراء الاوربيين ، ودعا شريف باشا في ٧ إبريل لتأليف الوزارة على مبادئ اللائحة الوطنية فكانت فرحة الشعب بهذا النصر عظيمة . بيد أن المجترة وفرنسا قابلتا هذه الوثبة الوطنية بالسخط الشديد فعملتا على خلع اسماعيل ، فأقلعت به « المحروسة » إلى نابلي غير مأسوف عليه من المصريين الذين لم ينسوا ما فعله بهم حتى لقد هموا من قبل بقتله والتخلص منه ، فيقول عرابي « خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقل ، ولكننا لو كنا نحن فعلنا ذلك بأنفسنا لكننا نخلصنا من عائلة محمد علي بأجمعها ، إذ لم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد . وقد اقترح

---

(١) بلنت ص ١٧١ .

جمال الدين على محمد عبده أن يقتل اسماعيل على جسر قصر النيل<sup>(١)</sup> ، ويقول محمد عبده : « وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ، ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة ، ولو أننا عرفنا عربي في ذلك الوقت فربما كان في إمكاننا أن ننظم الحركة معه<sup>(٢)</sup> » .

وتولى توفيق العرش بدل أبيه ، وكان المصريون يعلقون عليه آمالاً كباراً ؛ لأنه كان من المعجبين بالسيد جمال الدين الأفغاني وآرائه الإصلاحية ، ولكنه ما لبث أن تنكر لهذه المبادئ بعد توليته العرش ، وأرجع المراقبة الثنائية ، وخاصم الحكم النيابي وحكم البلاد حكماً مطلقاً . وكان في هذا منفذاً لمشورة الأجانب ، مستجيباً لتدخلهم ، فعز ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار .

كان البارودي من المقربين لتوفيق وولاه وزارة الأوقاف ، فأصلح فيها ما وسعه جهده ، وكان في نفس الوقت وطنياً متشبعاً بروح الإصلاح فحار في أمره بين ولائه للعرش ، وبين نزعاته الإصلاحية .

ثم كانت حركة الجيش ، والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا ، وقد كانت قبل وقفاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا في منتهى الغلظة والقسوة ، فثار الجيش في أوائل سنة ١٨٨١ ، حين أصدر عثمان رفاقي الجركسي وزير الحربية أمراً بعدم ترقية المصريين وبفصل بعض الضباط المتزعمين فيهم . وانتهى الأمر بعزل عثمان رفاقي هذا وإجابة الجيش إلى ما طلب من إصلاح وتولية البارودي وزارة الحربية مع الأوقاف . وهدأت الأمور في الظاهر ، ولكن الجراكسة كانوا يدبرون مكيده

---

(١) التاريخ السري . بلنت ص ٣٤٧ .

(٢) نفس المرجع ٣٠٤ .

الضباط المصريين ، وتأزمت الأمور فكانت مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر ١٨٨١ يتقدمها (عراي) وكبار الضباط المصريين . وأطل عليهم توفيق ، ومعه وزراؤه وحاشيته وقناصل الدول الأجنبية ، وتقدم إليه بطلبات الجيش والأمة ، وهي إسقاط وزارة رياض وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش ، وبعد مناقشات طويلة حادة تقرر إجابة هذه الطلبات .

كان البارودي وزيراً للحربية في وزارة رياض ، ولما رأى ما مضى نزعاته الشعبية وصلته بالوطنيين دس عليه لدى توفيق فعزله . ودفعه ذلك إلى اعتزال السياسة فترة من الوقت ، فترك القاهرة وجوها القلق وآثر العزلة في الريف . وفي هذا يقول :

صُبْحُ مطيرٍ ، وَنَسْمَةٌ عَطِيره وَأَنْفُسٌ للصُّبُوحِ منتظرة  
قدَّرَ بعينيك حيث شئتَ تجدُّ ملكاً كبيراً وجنةً خضيرة  
وخلَّنا من سياسة دَرَجَتْ بَيْنَ أناسٍ قلوبهم وَغِيره  
يقضون أيامهم على خطر فبئس عقبى السياسة الخطيرة  
خدِعة لا يزال صاحبها بين هموم وعيشة كدِّره

فلما سقطت وزارة رياض تحت ضغط الوطنيين عقب مظاهرة عابدين عاد البارودي وزيراً للحربية بعد أن ألح عليه توفيق إلحاحاً شديداً . وانتُخب مجلس النواب وافتتح في ديسمبر ١٨٨١ وبدأت الأمور ، وسارت وزارة شريف في طريق الإصلاح . ولكن إنجلترا وفرنسا كانتا كارهتين للهدوء والاستقرار ، فما أن أخذ مجلس النواب يناقش المادة التي تخول له حق تقرير الميزانية حتى قدمت مذكرة احتجاجاً فيها على ذلك . وقبل شريف هذا الاحتجاج ، ورفضه مجلس النواب فاستقالت

وزارة شريف ، وتولى البارودي رئاسة الوزارة في ٤ من فبراير ١٨٨٢ ، وكان عرابي وزيراً للحربية في وزارة البارودي . كان البارودي محبوباً من الشعب ومن الجيش على السواء وفرح المصريون بوزارته فرحاً عظيماً . وأخذ مجلس النواب ، فوق إصدار الدستور الذي كان صدوره عيداً للأدب والتاريخ ، يبحث في عدة مشروعات لمعالجة غلاء الأسعار وتعميم التعليم الابتدائي ، وإصلاح القضاء ، وإنشاء خزان أسوان . ثم انتهت دورته وتمتعت الوزارة حركة الإصلاح في خطاً واسعة . ولكن أنتى لها الجواهر الهادي وتوفيق واقع تحت سيطرة فرنسا وإنجلترا ، وهما متربستان بمصر والمصريين الشر . فانتهازاً فرصة الخلاف بينه وبين الوزارة بسبب مؤامرة الضباط الجراكسة على قتل عرابي وأصحابه . وبالرغم من أن هذا الخلاف قد سوّيَ ، فقد بدأت سفن الأسطولين الإنجليزي والفرنسي تصل إلى مياه الاسكندرية ، وقدمت الدولتان في ٢٥ من مايو مذكرة جديدة بضرورة استقالة الوزارة ، ونفي عرابي ، وتحديد إقامة بعض أصحابه بناء على اقتراح سلطان ( باشا ) الذي بدأ منذ ذلك اليوم يناصر الانجليز ويخون قضية بلاده ، تلك القضية التي طالما ناصرها ، وهكذا وقع في الشرك الذي وقع فيه شريف ( باشا ) من قبل (١) .

واجتمع الوزراء ، وقرروا رفض المذكرة ، ولما قبلها توفيق اضطروا إلى الاستقالة .

وهاج الشعب على أثر ذلك واشتد سخطه وقدموا احتجاجات قوية لتوفيق يطلبون فيها رفض طلبات إنجلترا وفرنسا والإبقاء على عرابي في الوزارة . وإذا أبى توفيق عزل عزلاً . واضطر توفيق بعد استشارة ( قناصل ) الدول الأجنبية إلى الإبقاء على عرابي وزيراً للحربية

---

(١) بلنت التاريخ السر ٢٢٤



حفظاً للامن ، وبقيت الوزارات الأخرى شاغرة .

لما طالب الجيش بعزل توفيق راودت البارودي نفسه ونازعته يومئذ إلى المجد المؤمل ، وإلى مكان أجداده المالك الذين حكموا مصر ، فخاض الثورة مع الخائضين ولكنه رأى بعين فراسته أن التيار شديد ، وأن إنجلترا وفرنسا تتربصان بمصر الدوائر ، وأحسّ بالخطر وعلم أن لا قبل له بمواجهته فنصح لعرابي وإخوانه وصارحهم برأيه ، وحاول الاعتزال في مزارعه ، ولكن هيهات ، وقد جرى مع الضباط شوطاً بعيداً ، وربط حظه بحظهم ، وإن لم تعد له الصدارة كما كان .

وفي هذا يقول :

نصحتُ قومي وقلت الحرب مفاجئة ورمتا تاح أمرٌ غير مظنون  
فخالفوني وشبّوها مكابرة وكان أولى بقومي لو أطاعوني  
تأتي الأمور على ما ليس في خلد ويخطيء الظن في بعض الأحيان  
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة وأصبح الشرُّ أمراً غير مكنون  
أجبتُ إذ هتفوا باسمي ومن شيمي صدق الولاء وتحقيق الأظانين

وأخفقت الثورة ونفيَ مع زملائه إلى ( سرنديب ) فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام ، وظل هو وزملاؤه سبعة أعوام في ( كولومبو ) ولما دبت بينهم البغضاء ، وألقى كل منهم التبعة على زميله ، فارقهم البارودي . وأمضى عشرة أعوام في ( كيندي ) ، وفيها تعلم الإنجليزية . وفي المنفى قال القصائد الخالدة ، يبثها شكواه ، ويحن للوطن ، ويصف كل ما حوله ، ويراسل الأدباء ، ويتلهف على ذكر الوطن ويتتبع أخباره ، فيرثي من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه ، ويتذكر أيام

شبابه وأويقات أنسه وما آل إليه حاله . وجد في الشعر عزاء أيّ  
، وصار إمامه في العالم العربي دون منازع ولكن طول النفي أورثه  
سقام والعلل ، فكُفّ بصره وضعف سمعه ، ووهن جسمه ، ولست  
أجد أروع ولا أوفى من قوله يصف ما أصابه :

كيف لا أندب الشباب ؟ وقد أص      بحث كهلاً في محنة واغتراب  
أخلق الشيب جدّي وكساني      خلعةً منه رثةً : الجلباب  
ولوى شعراً حاجيً على عي      في حق أطلّ كالهذاب  
لا أرى الشيء حين يسبح إلا      كخيال كأنني في ضباب  
وإذا ما دُعيت حرّت كأي      أسمع الصوت من وراء الحجاب  
كلما رُمّت نهضةً أقعدتني      ونيةً لا تُقلّها أعصابي  
لم تدع صولة الحوادث مني      غير أشلاء همة في الشباب

وزاد أمره بؤساً أن الموت تخطف ابنته وزوجه الأولى وأصحابه ،  
فابتدأ الفناء يدب إليه ؛ هناك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون إلى  
أوطانهم ، وعاد البارودي معهم ( أشلاء همة في ثياب ) كما يقول ،  
ولكن جاء وفي يمينه سفر الخلود ، وهو ذلك الشعر المألوف ، وكان  
ذلك في سنة ١٩٠٠ واستقبل مصر بقصيدته :

أبلى مرأى العين أم هذه مصر ؟      فلاني أرى فيها عيوناً هي السحر

واستقبلته مصر بكل حفاوة وترحاب ، وكانت عودته عبداً للادب  
الرفيع ، وصارت داره ندوة يؤمها الأباء والشعراء القدامى والشادون  
فيه يأنسون إليه ويأنس إليهم وعكف على تنقيح ديوانه ، وحذف ما لا

بروق له منه ، وتدوين مختاراته وترتيبها . وأخيراً فاقت روحه إلى بارئها ، وأسلم هذه الشعلة المتوهجة في ديسمبر ١٩٠٤ شوال م ١٣٣٢ هـ إلى الأجيال من بعده يتلقفها كابر عن كابر وكلهم يذكر فضله ، ويمجد ذكره ، لأنه أورثهم شعلة خالدة .

### أخلاقه :

شب معتداً بحسبه ونسبه ، في عصر ساد فيه جلسه ، وتبوأ أبناء جلدته من الجراكسة والأتراك أسمى مناصب الدولة ؛ ثم تزود من فنون الجندية ، ونشأ تنشئة عسكرية فكان لهذه للنشأة وهذا الحسب تأثير عميق في أخلاق البارودي ، ولكن الزمن قد حور في هذه الأخلاق ؛ ومن يدرس شعره دراسة فاحصة مدقق يستطيع أن يتبين هذا التغيير أو التحوير في أخلاق البارودي مجارة لزمانه وعادات الناس الذين يخاطبهم إن طوعاً وإن كرهاً . بيد أن كثيراً من صفات الشباب التي اعتد بها لازمتها حتى مماته ، لم تتبدل ولم تتأثر بعوامل الزمن ، وعن الناس .

كان البارودي في صباه متوثب العزيمة ، واسع الآمال ، عزوفاً عن الملاهي يود أن يعتلي ذروة المجد قفياً :

لهجٌ بالحروب لا يآلف الخف ض ولا يصحب الفتاة الرذاحا  
مسعراً للوغى أخو غدوات تجعل الأرض مائماً وصباحا  
لا يرى عاتباً على شيم الدهر ، ولا عابثاً ولا مزاحا  
يفعل الفعلة التي تبهر الناس ، ولا ترنو لها العيون طمحا  
وظلت نغمة المجد تتردد على أسكّة لسانه أنشودة حلوة ، وكان

في نفسه شيء يود تحقيقه ويرجو نيله ، ويسعى له سعياً حثيثاً ، ولكنه لم يصرح به .

وبي ظمأ لم يبلغ الماء ربه وفي النفس أمر ليس يدركه الجهد  
أود ، وما وُد امرئ نافعاً له وإن كان ذا عقل إذا لم يكن جده  
وما بي من فقر لدنيا وإنما طلاب العلا مجد ، وإن كان لي مجد  
وما أن عضته الحوادث عضه دامية ، ونكاه الزمان نكاة قاسية ،  
حق تطامن في مطلبه وقال :

وكن وسطاً ، لا مشرباً إلى الشها ولا قائماً ينبغي التزلّف بالصغر  
وقال :

يود الفقى مالا يكون طماعة ولم يدر أن الدهر بالناس قلب  
ولو علم الإنسان ما فيه نفعه لأبصر ما يأتي وما يتجنب  
ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سر محجب  
نظن بآتنا قادرون ، وإننا نقاد كما قيد الجنيب ونصحب

وإذا كان في صباه قد عزف عن النساء جداً منه وتزمت ، وأبى  
اللهو والمجانة حتى لا ينصرف عن طلب العلا ، فإن الشباب والجاه  
والمال قد غير نظرتة إلى الحياة ، وبات ذلك الفارس الذي يدل بشبابه  
وجاهه على الحسان ، ويمجري وراء اللهو ، ويعب الحمر عباً ، ويتصيد  
مجالس الأنس والسمر ، ويقول :

ودعني من ذكر الوقار فإنني على سرف من بغضة العلماء

فما العيش إلا ساعة سوف تنقضي      وذا الدهر فينا مولع برماء

ويقول :

لو حذرَ المرء كلَّ لائمة      لضاع منه الصواب والرشد  
ولو أصحنا لكل منتقد      فكل شيء في الدهر منتقد  
واله' بما شئت قبل مَندمة      يكثرُ فيها العناء والكد  
فليس بعد الشباب 'مقترَح      ولا وراء المشيب مفتقد

ومن أي شيء يخشى ؟ وعلام ينتقده الناس ؟ ينتقدونه على أنه  
ممتلئ بالحياة ، مستهين بالتقاليد والعادات .

فرحنا نجراً الذليل تيساً لمنزل      به لأخي اللذات واللهو ملمع  
مسارح سكير ، ومريض فائك      ونخدع أكواب به الخمر 'تسكب

أما الدين فله في النفس حرمة ولكن :

إذا ما قضينا واجب الدين حقه      فليس علينا في الخلاعة من عذر  
أجل ! لقد صار فارساً مرحاً ينهل من اللذات ويعلّ .

فطوراً لفرسان الصباح مطارِد      وطوراً لإخوان الصفاء سمير  
وبارب' حيّ قد صبحتُ بغارة      تكاد لها 'ثم' الجبال تمور  
وليلٍ جمعت اللهو فيه بغادة      لها نظرة تسدي الهوى وتسير  
عقلنا به مانسَد' من كل صبوة      وطرنا مع اللذات حيث نظير

أما أخلاقه الطبيعية فكان كثير الافتخار بها ، يرددها مراراً في

شعره ، فهو مخلص في صداقته :

واختبرني تجدد صديقاً حيماً لم تغير وداده الأهواء  
صادقاً في الذي يقول وإن ضاقت عليه برحبها الدهناء

أما الوداد فهو يرعاه ، ويمد ذلك من كرم الأصل :

ليس يرعى حق الوداد ولا يذكر عهداً إلا كريم النصاب

ولا بد أن يتجلى أثر الوداد القلبي في أعمال الإنسان ، وإلا كان  
وداداً كاذباً :

إن وداد القلب ما لم يكن له دليل على إخلاصه لمريب

وكان عالي الهمة يمثل لك في شعره الفروسية والنجدة ، والإباء  
والأنفة فيقول :

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب فكل زهيد يُنسيك النفس جابر

من العار أن يرعى الدنية ماجد ويقبل مكذوب المتى وهو صاغر

إذا كنت تخشى كل شيء من الردى فكل الذي في الكون للنفس ضائر

ويقول :

ومن تكن العلياء ممة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

إذا أنا لم أعطي المكارم حقها فلا عز في خال ، ولا ضمي أب

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حررة علي يداً أغضي لها حين يفضب

أما جوده فطالما تغنى به في شعره ، وحث الناس على الجود ،

ووضع من شأن المال والتباهي به فيقول :

فلا تحسبنّ المال ينفع ربّه      إذا هو لم تحمّد قِراه العِشائر  
فقد يَستَنجِمُ المال والمجد غائب      وقد لا يكون المجد والمال حاضر  
ولو أن أسباب السيادة بالغنى      لكثير ربّ الفضل بالمال تاجر

ويقول :

وجُدّ بما ملكت كفتاك من كَشَبٍ      فالجود كاللبّاس يحمي العِرض والنسب  
لا يعمد البطل الصنديد عن كرم      من جاد بالنفس لم يبخل بما كسب

وكان يتمدح بصراحته وشجاعته ، فهو لا يسكت عن القبيح وإلا  
'عد منافقاً' ، وإذا كان الإنسان على ثقة من أمره ونفسه حرةً وهو  
شجاع فعلام 'يغضي على القذى' ، أو لا يصارح الناس بعيوبهم عليهم  
يصلحونها ؟ .

أنا لا أقرّ على القبيح مهابةً      إن القرار على القبيح نفاق  
قلي على ثقة ونفسي حرة      تأبى الدّيني ، وصارمي ذلّاق  
فعلام يخشى المرء 'فرقة روحه'      أو ليس عاقبة الحياة فراق ؟  
لا خير في عيش الجبان يحوطه      من جانبيه الذل والإملاق  
عابوا عليّ حميتي ونكابتني      والنار ليس يعيها الإحراق

ولكنّا نرى البارودي كثيراً ما ينصح بمدارة الناس ، ودفع القسر  
باللين ، والغضب بالحلم . وقد صور جملة من صفاته ومداراته الناس ،  
ومودته لأصدقائه ووفاءه لهم في قوله :

ملكْتُ يدي عن كل سوء ومنطقي      فعشت بريء النفس من دنس العذر  
وأحسنْتُ ظني بالصدِّيق وربما      لقيت عدوِّي بالطلاقة واليُبشر  
فأصبحت مأثور الخلال محبَّباً      إلى الناس مَرَضِيَّ السريرة والجهر  
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن      لدوداً ، ولا تدفع يد اللين بالقسر  
ولا تحتقر ذا فاقةٍ فلربما      لقيت به شهماً يَبْدُو على المأزِي  
ولا تعترف بالذل في طلب الغنى      فإن الغنى في الذل شر من الفقر  
ودَارَ الذي ترجو وتحشى ودادَه      وكن من مودَّات القلوب على حذر  
ويقول في غير هذا الموضع :

مدارة الرجال أخف وطئاً على الإنسان من حرب الفساد  
يعيش المرءُ محبوباً إذا ما نحا في سيره قصد السداد  
ولعل لتجاربه الكثيرة أُرأى في إملائه هذا النصح ، وتحوله من  
الصراحة إلى المدارة . وإذا كانت الحياة قد علمته كيف يداري الناس ،  
ويكون منهم على حذر ، فأنها قد علمته كذلك أن المرح والحياة  
الصاخبة باللذات تورث الأسقام والعلل :

ولقد جريت مع الغواية والصِّبا جريَ الكُمَيْت وللغرام سباق  
ولبست هذا الدهر من أطرافه ونزعتَه وقميصَه أخلاق  
فإذا الشباب ودِيعَة وإذا الفَقْ هَدْيٌ لفاغرة المتون يساق

★ ★ ★

هذا هو البارودي كما صور نفسه في شعره ، وإذا كان صادقاً في



تصويره ، ولا نحسبه إلا كذلك ، فالأخلاق التي تغنى بها تبعث في  
النفس الإكبار والإعجاب .

## ثقافته :

أعد البارودي ليكون جندياً ، ولم يعدّ ليكون أديباً . بيد أنه حين  
وجد نفسه بعد أن تخرج في المدرسة الحربية متمطلاً أبث عليه نفسه  
الطموح أن يستمرىء الله والدعة ، وعكف على كتب الأولين يقرأها  
بشغف ونهم ، ولم يقرأ كتاباً من كتب اللغة ، ولكنه قرأ كتب  
الأدب ، ويقول الشيخ حسين المرصفي صديقه مرشده (١) : « لم يقرأ  
كتاباً في فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من  
طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع إلى بعض من له دراية  
وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة  
حيث التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات  
حسباً تقتضيه المعاني والتعليقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ،  
مسمّته مرة يسكتن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين ، ففلت له في  
ذلك فقال : هو كذا في قول فلان وأنشد شعراً لبعض العرب ؛ ففلت  
تلك ضرورة ، وقال علماء العربية إنها غير شاذة . ثم استقل بقراءة  
دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون  
كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها واقفاً على  
صوابها وخطئها . »

والحق أن أثر القراءة والحفظ ظاهر في شعر البارودي . ومن يطلع

---

(١) الوسيلة الأدبية ص ٤٧٤ .

على ( مختارات البارودي ) يشهد بحسن ذوقه ، ودقة اختياره ، وتأنيقه في غذاء عقله ، كما يشهد بكثرة محفوظه . ولا نعجب بعد هذا حين نرى البارودي متمكناً ناصية اللغة يتصرف فيها تصرف الخبير العليم بأسرارها ، المطبوع على التكلم بها ؛ وأغلب الظن أن مختاراته لم تحوِ كل ما حفظ من جيد الشعر العربي ، لأننا نلمح أثراً للشعر الجاهلي في شعره : من كلمات ، وعبارات ومعارضات وتشبيهات . مع أن مختاراته لم تحوِ إلا شعراً عباسياً .

كانت عند البارودي الملكة الكامنة ، والملكة وحدها لا تكفي ، بل لابد لها من عدة تصقلها وتنميتها ، وتُعِدُّها للبروز ناضجة قادرة خالقة . ودراسة البارودي الأدبية قد غذت هذه الملكة غذاء كاملاً ، لا من دواوين الشعراء وحدهم ، بل من كتب الأدب وطرائف القصص ، وأخبار العرب وقبائلهم وشجاعتهم وعدائهم وأمثالهم وحكمهم ، وغير ذلك مما لا يستغني عنه أديب : والأدلة على هذه المعرفة متوفرة في ديوانه <sup>(١)</sup> .

---

(١) من مثل قوله :

لك عرض أرق نسجاً من الرِّج      ح وأوهى من طيلسان ( ابن حرب )  
وكان ابن حرب أهدى إلى الحمدوني طيلساناً خلقاً ، وكان الحمدوني يحفظ قول  
أبي حمران السلمي في طيلسانه .

|                             |                             |
|-----------------------------|-----------------------------|
| يا طيلسان أبي حمران قد برمت | بك الحياة فما تلتذ بالعمر   |
| في كل يوم له وقتاً يحده     | هيات ينفع تجديد مع الكبير   |
| إذا ارتداه لميد أو لجمته    | تنكب الناس لا يبلى من النظر |

فاحتدى الحمدوني حذر أبي حمران ، وقال في وصف طيلسانه ما يقرب مائتي  
مقطوعة من مثل قوله : =

كانت إذا قراءة كتب الأدب والتاريخ وحفظ الشعر المنتقى الجيد هي عماد ثقافته الأدبية . على أن البارودي قد اطلع على آداب أخرى غير الآداب العربية ، فقد مر بنا أنه حينما ذهب إلى الآستانة وهو في شبابه ، والتحق بوزارة الخارجية عكف على دراسة التركية والفارسية ، ونظم الشعر بهما كما كان ينظمه بالعربية . أضف إلى هذا ما روي من أنه تعلم الإنجليزية وهو في منفاه ، وترجم بعض آثارها ؛ وهذه اللغات المتعددة لها أثرها ، ولا ريب ، في معانيه وأخيلته ، وتصويره للحوادث .

هذا ، وقد حَفَلَ زمان البارودي بأحداث عظام ، فمن نهضة شاملة ، وخلق لأمة متمدنة ، إلى ثورات وفتن وحروب ومعارك ، ونفي وتشريد ، وقد سافر البارودي إلى الآستانة مراراً ، وشهد حرب ( كريت ) وحرب ( روسيا ) ورأى عالماً لم يعرفه من قبل ، ومناظر جديدة ، فتأثر بكل ذلك وانفعلت نفسه له ، وهاجت هذه الأحداث شاعريته فانطلق لسانه يردد خواطره وأحاسيسه فكانت هذا الشعر الخالد

---

= يا ابن حرب كسوتني طيلساناً      مل من صعبة الزمان وصدا  
وطال ترداده إلى الرفو حتى      لو بعثناه وحده لتهدى

- وما يدل كذلك على سعة اطلاع البارودي قوله :

إنت شوقي إليه أسرع شأراً      من « سليك » والوصل في « فند »

وأمر سليك بن سلكة معروف ، أما فند ( بكسر الفاء ) فهو مولى عائشة بنت سعد ابن أبي وقاص ، وكانت قد أرسلته ليأتيها بنار ، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر فتبعهم ، وأقام بها سنة ، ثم قدم فأخذ ناراً وجاء يمدو ، فمثر وتبدد الجمر فقال : « تمست العجة » . فقيل : ( أبطأ من فند ) .

وإذا أضيف إلى هذه الموهبة العظيمة ، والدراسة الواسعة ،  
التجارب الحافلة ورائة في قول الشعر سجلها البارودي بقوله :

أنا في الشعر عريق      لم أرته عن كلاله  
كان إبراهيم خالي      فيه مشهور مقاله

زالت دهشتنا حين نرى البارودي قد كملت عدته ، وهيأته الأيام  
ليبعث الشعر من رقدته ، وينهض به هذه النهضة السامية

#### شعره :

يقول البارودي في مقدمة ديوانه : « الشعر لُمة خيالية يتألق  
وميضها في سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض  
بألأفها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة  
ينبلج بها الحال ك ، ويهتدي بدليلها السالك . وخير الكلام ما اتلفت  
ألفاظه وانتلفت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليماً من  
وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة ،  
فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظاً ، وكان كريم الشائيل ،  
طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس ولو لم يكن  
من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتقبية  
الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التي ليس وراءها لذي  
رغبة مسرّح ، رارقباً الصهوة التي ليس دونها لذي همة مطمح . »

وتعريف البارودي للشعر غامض ؛ لأنه لفه في ثوب كثيف مزخرف  
بالمجازات والاستعارات ، ولم يحدده تحديداً علمياً ، وهو يعني : أنه  
خطرة ذهنية ينعمل لها الفؤاد ، فيتحرك اللسان معبراً عن خلجاته .

والخطرة الذهنية تأتي مثلاً من نظرة إلى شيء جميل ، أو شيء يبعث الرثاء والأسى ، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجي . وهذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب في الشعر ، وهو أنه ( لمعة خيالية ) تومض إيماضاً ، فتأتي هذه الخطرات الخيالية غير متصلة أو مرتبطة بعضها ببعض في حلقة متأسكة ، أو قصة محبوكة الأطراف أو خيال ممتد طويل في ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتابع حوادثها ، وإنما هو ومضات تتألق في أبيات وقصيدة لا تربطها وحدة فكرية .

والشعر الجيد في رأي البارودي « ما كان قريب المأخذ سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة » ، وهذه صفة الشعر الغنائي ، وهي سمة الشعر المصري غالباً ، ليس فيه عمق المعنى والتوغل في الخيالات ، أو تعقيد الفكرة ، وحشد القضايا المنطقية ، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس ، كما نرى ذلك عند أبي تمام والمتنبي أحياناً وعند أبي العلاء كثيراً ، وكما نراه مذهباً من مذاهب بعض شعراء العصر الحاضر ، والشعر ليس فلسفة ولا منطقاً ، وقد لا يحتوي البيت كبير معنى ، وإنما تطرب له النفوس وتهتز عجباً ، وذلك لأن الشعر غذاء القلوب ، وليس مهارة العقول . وهذا ما جعل النقاد قديماً ينعتون البحتري بأنه الشاعر ، وأن المتنبي وأبا تمام حكيان : لأن البحتري لم يكن يتكلف في شعره القوص على المعاني وابتكارها ولا يستعمل المنطق والفلسفة ، بل كان يحذو حذو شعراء الجاهلية والصدر الأول في قرب معانيه وانسجام ألفاظه بعضها مع بعض . وهو القائل رداً على من عاب عليه بعده عن ثقافة عصره ، وعدم أخذه بشيء من الحكمة والمنطق وهو يمثل نظرة العرب إلى الشعر :

كلفتمونا حدود منطقكم      والشعر يغني عن صدقه كذبه

لم يكن ذو القروح يلجأ بالملء      طق ما نوعه وما سببه (١)  
والشعر لمح تكفي إشارته      وليس بالهذر طوالت خطبه

ويرى البارودي أن وظيفة الشعر : « تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبية الخواطر إلى مكارم الأخلاق » . وقد ردد هذه المعاني في شعره ، بيد أن الشعر قد لا يؤدي وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر ؛ وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مستفيض نقرر فيه نظرة العرب إلى وظيفة الشعر بخاصة والأدب بعامة ، ونظرة الغربيين إلى الشعر ومذاهبهم فيه ، وهل للأدب وظيفة ، أو هو التعبير لجرد التعبير ، أو الفن للفن كما يقولون (٢) ؟ . ومهما يكن من أمر فإن البارودي لم يفتن إلى كل أغراض الشعر وما يمكن أن يستخدم فيه ، وما قرره في مقدمته من تعريف للشعر ، ووظيفته يعبر عن مذهبه .

والبارودي مطبوع على قول الشعر ، لا ينتزعه انتزاعاً ويتعسف في نظمه بل يتدفق على لسانه تدفقاً ، وتشعر وأنت تقرأه أنه يجري في رفق وهوادة ولين غير قلق أو مضطرب أو متكلف . وقد كان البارودي يدرك هذه الميزة في شعره ويقول :

أقول بطبيع است أحتاج بعده      إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر  
إذا جاش طبعي فاض بالدر منطقي      ولا عجب فالدر ينشأ في البحر

---

(١) ذو القروح : امرؤ القيس ، ولقب بذلك كما يقولون لأنه أصيب بمرض جلدي في طريق عودته من لندن ملك الروم حينما ذهب إليه يستنجد به على قتله أبيه .

(٢) انظر دراستنا للمذاهب الأدبية للغربية في كتابنا ( المسرحية )

وعلى الرغم من سليقته المواتية ، وحافظته الواعية التي تمده بمخزون الآداب  
ألفاظاً منمقة ومعاني سامية ، فإن البارودي كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب  
وصقل ، وجهد متصل ، وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكفي ؛ ولذلك  
كان يتعمده بالتهذيب والرعاية ، فقد رُوي أنه رتب ديوانه بعد عودته من  
المنفى ، وأعاد النظر فيما قاله من قصائد ، وحذف الأبيات التي لم تروق له ، حتى  
لا يخلف للأجيال المقبلة إلا الشعر المصقول لفظاً ومعنى :

لم 'تبنَ قافية' فيه على خلل كلا ! ولم تختلف في وصفها الجمل  
فلا سنادٌ ولا حشو ولا قلق ولا سقوط ولا سهو ولا علل  
لا تنكر الكاعبُ الحسنة منطقها ولا يعاد على قوم فيبتذل

ولا أدل على هذا التنقيح من اختلاف القصائد كما نشرت في الديوان عن  
نصها المنشور أول الأمر في الوسيلة الأدبية للرصافي ، خذ مثلاً قوله في  
الوسيلة الأدبية :

أقاموا زماناً ثم بدد شملهم أخوفتكاتٍ بالكرام اسمه الدهر  
فقد صار في الديوان :

أقاموا زماناً ثم بدد شملهم ملولٌ من الأيام شيمته الغدر  
ومطلع قصيدته التي يعارض فيها رائية أبي نواس فقد كانت في الوسيلة على  
الصورة الآتية :

تلاهمتُ إلا ما 'يحن' ضمير وداريت إلا ما 'ينم' زفير  
وهل يستطيع المرء كتمان أمره وفي الصدر منه بارحٌ وسعير

ثم صار في الديوان :

أبى الشوق إلا ما يَحِينُ ضمير وكل مشوق بالحنين جدير  
وهل يستطيع المرء كتمان لوعة يَينمُ عليها مدمعٌ وزفير

كما كان يهتف بشعره قبل أن يخرجه للناس ، ويصفي إليه ليتبين ما  
فيه من عيوب في الموسيقى وعدم انسجام الألفاظ بعضها مع بعض ،  
والخلل المذخوي ، والقافية المقلقة المضطربة ، والحشو ، وغير ذلك من عيوب  
الشعر ، ويقول :

واهتف به من قبل تسريحه فالسهم مذسوب إلى الرامي<sup>(١)</sup>

فجاء والحق يقال شعراً يأخذ بمجامع القلوب من حيث موسيقاه ، وتماذك  
أبياته وقوافيه وانسجام ألفاظه ، وانتقاؤها انتقاء خبير ملهم :

فالتقى إليه السمع يفتبك أنه هو الشعر لا ما يدعي الملاءم<sup>(٢)</sup>

يزيد على الإنشاد حسناً كأنني نقتت به سحراً ، وليس به سحر

كان البارودي يتخير الألفاظ المناسبة للمعاني التي يريد ، فيرقّ ويلطف

---

(١) يقول الشيخ حسين الرصافي في هذا : « ونبه بقوله : وهتف به من قبل تسريحه على أنه  
لا يلغني أن يكتفى بالنظرة الأولى فللنفس خداع وربما تفتت بعد أن أغفلت ، واستقبح ما  
استحصلت ولذلك يقول الأول :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبل في تهذيبها

فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وسارماً تهذي بها

(٢) الغمر : مثلثة الغين ، ومعناها الذي لم يحرب الأمور .



حين يقضي المقام الرقة واللفظ كأن يتغزل أو يعتب ، أو بصف منظرأ  
جبيلاً أو مجلس أنس وسمير ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ، ويشدد أمره حين  
ينشد في الحماسة ، والفخر والمديح ، وحين يصف البحر الهائج ، والريح  
الزفوف والحرب الضروس :

إذا اشتد أوري زئدة الحرب لفظه وإن رقى أزرى بالعقود فريدُه  
إذا ما تلاه منشد في مقامة كفى القوم ترجيع الغناء نشيده  
فجاء شعره مما يلذ للإنسان حقاً أن ينشده بصوت مرتفع ، يترنم به ليضطرب  
ويتأمل في نغمه وموسيقاه فيلتذ ويعجب ، فلا بدع أن قال :

ولي كلّ ملساء المتون غريبة إذا أنشدتْ أفضتْ لذكر بني سعد<sup>(١)</sup>  
أخفُّ على الأسماع من نغم الحدّ والطف عند النفس من زمن الورد  
كان البارودي يعلم أنه سيخلد بشعره لا بحسبه ونسبه ، وإذا كان قد أخفق  
في بلوغ مناه وتحقيق آماله في هذه الدنيا ، فإنه أدرك الغاية من السعي في الحياة  
بالعمل الصالح والمجد المؤثّل ، ألا وهي الخلود بعد الموت وترديد اسمه عطرأ على  
كل لسان ، وفي ذلك يقول في شعره :

سبقي به ذكرى على الدهر خالدآ وذكر الفقى بعد المات خلوده

ويقول :

---

(١) بنو سعد : بطن من هوازن ، ومنهم حليلة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم ،  
وكان بنو سعد من أفصح العرب ولذلك أرسل رسول الله إليهم كي ينشأ على الفصاحة واللسن ،  
ويريد البارودي أن شعره يذكر الناس بأفصح العرب .

سيدكرني بالشعر من لم يلاقني وذكر الفتي بعد المات من العمر

هذا ، وفي شعر البارودي هُنا . وعليه مأخذ قليلة سنذكرها في موضعها من هذا الفصل ، بيد أنها لا تزري به ولا تغض من شأنه ؟ وحسبه أنه سما بالشعر العربي إلى الذروة ، وأنه حلق في السماء التي جاب آفاقها من قبل بشار وأبو نواس والبحري وأبو تمام والمتني وأبو فراس وأصراهم ، بعد أن وصل الشعر العربي قبيل عهده إلى الحضيض وكاد يلفظ أنفاسه انواهية .

والآن ، علينا أن نتعرف على هذا الشعر الذي مدحه واقتخر به ، وصفه وهذبه ، أحق هو في الثناء عليه ، أم هو غرور شاعر زين له خياله الباطل حقاً ، والسيء حسناً ؟ ولنرى القديم والجديد في شعره ، ومنزلته في موكب الأدب العربي وهل كان صدى للشعراء الذين عارضهم وجاراهم في مضارم أو أنه استقل وابتكر وخرج على المؤلف ، وتكونت له شخصية يذكرها التاريخ غير معتمدة على سواها ؟ وهل هي شخصية قيّمة هزيلة ، أو شخصية قوية فارعة ذات مزايا واضحة ؟

#### ١ - القديم في شعره :

١ - لم يحدد البارودي في أغراض الشعر التي عرفها شعراء العصر العباسي فهو يمدح ويصف ، ويهجو ، ويرثي ، ويعتب ، ويفتخر ... الخ ما هناك من أغراض معروفة مألوقة . وبإليته وقف عند هذا ، فقد تكون الأغراض قديمة والمعاني جديدة . ولكنه حاكى القدماء أحياناً في أسلوبهم كما حاكهم في أغراضهم وقد بلغ به التقليد حداً نسي معه أنه في مصر وأنه بعيد عن نجد ورباها ووديانها وآرامها وخائلها ، فقال :

يا سعادُ قل لي فأنت أدرى      متى رِعان العقيق تبدو<sup>(١)</sup>  
أشتاق نجداً وساكنيه      وأين مني الغداة نجد

وقال :

أين ليالينا بوادي الغضا      ذاك عهد لينته ما انقضى<sup>(٢)</sup>  
كنت به من عيشتي راضياً      حتى إذا ولّى عدمت الرضا  
أيام هو وصباً كلما      ذكرتها ضاق عليّ الغضا

٢ - وقد وقف على الأطلال والدمن ، وأتى بشعر جاهلي الروح والمعنى ، والوجه والزي ، ولا يمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة . وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه ، والنهج الذي عليه أن يسلكه ، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته ، وهل في استطاعته أن يحاكي القدماء حتى في وقوفهم على الأطلال والدمن ؟ وليس أمامه أطلال ودمن تهيج شاعريته ، وتشير عبرته فإذا استطاع أن يقول مثلما قالوا فهو شاعر فحل ، ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة وفيه كثير من الصنعة والتكلف . استمع إليه يقول :

ألا حيّ من أسماء رسم المنازل      وإن هي لم ترجع بياناً لسائل  
خلاء تعفتها الروامس والتقت      عليها أهاضيب الغيوم الحوافل

---

(١) العقيق : الوادي . وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواقع بالمدينة والطائف واليامة ونجد والمقصود هنا عقيق نجد . ورعان : جمع رعن « بفتح فسكون » وهو أنف يتقدم الجبل .

(٢) الغضا : شجر ، وخشبه من أصلب الخشب جمع غضاة . وروادي الغضا : مكان بنجد .

فلأبداً عرفت الدار بعد ترشم أراني بها ما كان بالأمس شاغلي  
غدت وهي مرعى للظباء وطالما غنّت وهي مأوى للحسان العقائل  
إلى أن يقول :

فباليث أن العهد باق وأننا دوارجُ في غفل من العيش خامل  
تمر بنا رُعيات كل قبيلة فما يمنحونا غير نظرة غافل  
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً بعيداً ولم يسمع لنا بطوائل<sup>(١)</sup>  
نسير إذا ما القوم ساروا غديّةً إلى كل بهم راتعات وجامل<sup>(٢)</sup>

فأي أطلال ، وأي رسوم رآها البارودي فوقف عندها ؟ وأين رأى  
الظباء ، وهو يعيش في أحضان القاهرة المتمدينة ؟ وأين مرت بها رعيان  
القبائل ؟

وما هذه البهائم والجمال السائمة ؟ اللهم إنه التقليد ورياضة القول  
وإظهار المقدرة على النظم في مثل هذه الأغراض ، وعلى هذا النمط كما  
فعل القدماء .

٣ - ونراه في النسيب ووصف المرأة يعمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ،  
فهي تحكي الظبي في كناسه ، والبدر في سمائه ، وهي مهابة ، وأحاطها سيوف  
باترات ، وقدها غصن يتثنى .. الخ هذه القوالب الموروثة :

---

(١) الطوائل : جمع طائلة وهي الوتر والذحل والمعنى : لم نعرف يوماً .

(٢) البهم : جمع بهمة وهي صغار المزم والضأن : والجمال : الإبل .

إذا نظرت أو أقبلت ، أو تهلت      فويل مهاري الرمل ، والغصن والبدر

ويقول :

أيها الساهرون حول وسادي      لست منكم أو تذكروا لي نجدا  
لا تخوضوا في غيره من حديث      فهو حسي ، وأي ماء كصدأ<sup>(١)</sup>

ويتنزل :

غصن بان قد أطلع الحسن فيه      بيد السحر جلناراً ووردا  
ما هلال السماء؟ ما الظبي؟ ما الور      د جنياً؟ ما الغصن إذ يتهدى؟  
هو أبهى وجهاً وأقتل ألحا      ظاً وأندى خدأ ، وألين قدأ

ويصف المرأة بقوله :

كالورد خدأ ، والبنفسج طرة      والغصن قدأ ، والغزالة ملفتاً

ويصفها وصفاً مادياً كما كان يفعل القدماء ، كأنها تباع وتشترى :

خفت معاطفها ، لكن روادفها      بمثل ما حملتني في الهوى رجحت  
ويلاه من لحظها الفتاك إن نظرت      وآه من قدأها العسال إن سنحت  
كالبدر إن سفرت والظبي إن نظرت      والغصن إن خطرت والزهر إن نفحت

---

(١) صدا بالقصر ضرورة من صداء : امم عين يستعذبها العرب وفي أمثالهم . ( ماء

ولا كصداء ) .

ويقول :

والوعة القلب من غزلان أخبية      تكاد تكسر من أحداقها الراح  
من كل مائسة كالفصن قد جمعت      بدائعا كلها للحسن أوضح  
فالعين نرَجَسَة ، والشعر سوسنة      والنهد رمانة ، والحد تفاح

٤ - نرى البارودي الذي حاكى فحول الشعراء حتى الجاهليين منهم ، يقلد شعراء الصنعة ، وعصر الضعف ، فيؤرخ أحيانا في شعره كما أرخوا - وإن كان قليلا ما فعل حتى لا يكاد يذكر - فمن ذلك قوله يؤرخ عودة ( اسماعيل باشا ) خديو مصر من دار الخلافة العلية سنة ١٢٨٩ هـ .

|                  |                  |
|------------------|------------------|
| رجع الخديو لمصره | وأنت طلائع نصره  |
| وتهللت بقدمه     | فرحا أسره عصره   |
| فلتبتهج أوطانه   | بجلوله في قصره   |
| وليشتهر تاريخه   | رجع الخديو لمصره |

وقال في تهنئة الخديو عباس الثاني بعيد الفطر :

أمولاي دُم للملك ربا تسوسه      بحكمة مطبوع على الحلم والباس  
ولا زالت الأعياد تجري سعوها      عليك وتمحطى من علاك بإيناس  
فلولاك ما فازت يد القطر بالمدى      ولا نشأت روح العدالة في الناس  
وهذا لسان الشكر يدعو مؤرخا      حوى العيد أنواع الفخار بعباس

٢٤ ١١٥ ١٢٨ ٩١٢ ١٣٥

١٣١٤ هـ .

٥ - واستعمل البارودي المحسنات البديعية أحياناً ، ولا سيما الطباق في مثل

قوله :

يموت قلبي ويحيى حيرة وهدى في عالم الوجد إن صدت وإن جنحت

وقوله :

وبنفسى حلوا الشئائل مرءى ال هجر 'يحيى وصلأ، ويقتل صدا

ما على قومه وإن كنتُ حرأ أن دعنتي له الهبة عبدا

٦ - أما معانيه فكثير منها قديم والقليل فيه جدة . وهو مقلد في المعاني كما

هو مقلد في الشكل ، ولا أستطيع أن أحصي المعاني القديمة لكثيرتها ولكن أدل على نوعها ببعض الأمثلة كقوله في الغزل :

طربت وعادتني الهيلة والسكر وأصبحت لا يلوي بشيمي الزجر<sup>(١)</sup>

كأنى مخور سرت بلسانه معتقة مما يضمن بها الشجر

صريع هوى يلوي بي الشوق كلما تلاًلأ برق أو سرت ديمٌ 'غر'

إذا مال ميزان النهار رأيتني على حشرات لا يقاومها صبر

يقول أناسٌ إنه السحر 'ضلة' وما هي إلا نظرة دونها السحر

ويقول مفتخراً في هذه القصيدة بقومه :

لهم 'عمد' مرفوعة ومعاقل وألوية 'حر' وأفنية خضر

---

(١) الهيلة : الظن والمراد ذكريات الماضي ، ويلوي به : ويذهب به .

ونار لها في كل شرق ومغرب لدرع الظلماء السنة حر

ويقول في القصيدة من الحكمة :

لعمرك ما وحي وإن طال سيره يُعد طليقاً والمنون له أسر  
وما هذه الأيام إلا منازل يحل بها نفرٌ ويتركها سفر

فهذه أغراض ثلاثة في قصيدة واحدة لم يأت فيها يجديد من المعنى ؛ ففي الغزل يقول : إنه استخفه الطرب والشوق على حد قول أبي نواس .

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب  
إن بكى يحق له ليس ما به لعب

وحاكي الأقدمين في ذكره البرق والسحب ، فهذه الأشياء كانت مقبولة في الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية ، والغيث والبرق كان فيها حياة العرب القاطنين بالجزيرة ، فإذا لمع البرق أو هطلت السحب حلل الناس وفرحوا ، وإذا ذكر الحب محبوبته في ذلك الوقت فكأنه يريد أن يشاركها سرورها ، أو تشاركه سروره ، والسرور من الأشياء التي لا تتم إلا إذا اقتسمها الإنسان مع سواه . أما في بيئة البارودي فليس لهذه الأشياء من التأثير والاهتمام ما يدعو لذكرها ، بل قد يسبب المطر من المضايقات لأهل القاهرة الذين يعتمدون على النيل ، ولأهل الريف في ضرر زرعهم ما يذكرونه بشراً ، ولكنه التقليد القديم ؛ وقوله : ( على حسرات ) : يعني به أنه حين تغيب الشمس فكثير همومه ، وكأنه يتقلب على حسرات ؛ لأن الليل مصدر الذكريات لفراغ الإنسان من الشواغل والأعمال ، وقديماً قال النابغة :



وصدره أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الجمل من كل جانب

ويقول النابغة كذلك :

فبت<sup>١</sup> كأن المائدات فرشن لي هراساً به يُعلسى فراشي ويُقشَبُ

وتشبيهه نظرات المحبوبة بالسحر تشبيهه قديم معروف .

وفي الفخر ترى البارودي يذكر العمدة المرفوعة وهو في القاهرة ، ويذكر النار على عادات البدو ، ولا سيما في الجاهلية إذ كانوا يشبونها على يَفَاع من الأرض كي يهتدي بها الساري ، ويلجأ إليها الجائع ويطلب القيرى ، ورحم الله حاتمًا حين قال لغلامه :

أوقد فإن الليل ليل 'قر' والريح يا واقد ريحِ صر<sup>(١)</sup>

عل<sup>٢</sup> يرى نارك من يمر<sup>٣</sup> إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وقوله في الحكمة إن الإنسان لا يعد طليقاً في حياته وهو أسر المنون : مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

لممرك إن الموت ما أخطأ الفقى لكالطَّوَل المُرْخَى وتذنيه باليد<sup>(٢)</sup>

وبيت طرفة أحسن وأمتن حيث شبه الإنسان بدابة ، وحبلها بيد الموت يرخي لها فيه وإذا شاء جذبها إليه فانقضى العمر . وأما أن الأيام منازل ،

---

(١) قر : بارد ، وصر : شديد البرودة .

(٢) الطول : الحبل .

وأنّا فيها على سَفَرٍ فمعنى قديم مطروق ، وقد تكرر في الأحاديث النبوية ،  
وفي أقوال الزهاد والوعاظ .

وهكذا إذا أخذت أي قطعة للبارودي تجده يردد فيها كثيراً من المعاني  
القديمة المعروفة المشهورة . ولا يعني هذا أن البارودي لم يحدد في شعره وفي  
معانيه ، بل له تجديد ملحوظ في شعره سنذكره فيما بعد .

وإذا كان البارودي قد طرق أبواب الشعر العربي الموروثة ، ولم يحدد في  
أغراضه ، فإنه كان واضح الشخصية في كثير من هذه الموضوعات المطروقة فتراه  
يمثل نفسه ، وزمنه ، وبيئته في قصائد شتى . فالبارودي ذاق حلول الزمان  
ومره ، وارتفع في مناصب الدولة حتى رئاسة الوزارة ثم 'شرد' ونفي ، وقضى  
زمنًا طويلاً يتعرق فيه شوقاً إلى وطنه وأهله ، ويتحسر على أيامه الخاليات ،  
ويندب فيه حظه ، وينعي على الأصدقاء الكاذبين خياناتهم وغدرهم ، ويندم  
الحياة ويكيل لها السبّاب ، وهو في كل ذلك صادق الشعور يصف ما به على  
طبيعته فبرزت شخصيته واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وإذا كان البارودي قد قلّد القدماء وحاكاهم في أغراضهم وطريقة عرضهم  
للموضوعات وفي أسلوبهم ، وفي معانيهم ، فإن له مع ذلك تجديداً ملموساً في  
شعره من حيث التعبير عن شعوره وعن مشاهداته ؛ وله معان جديدة ، وصور  
لم يسبق إليها ، وإذا أردنا أن ننصفه فعلينا دراسة الجديد في شعره حتى يكون  
حكمنا عليه عادلاً ، ونستطيع أن نضعه في منزلته الجديدة به في موكب  
التاريخ والأدب والنهضة .

### (ب) الجديد في شعره :

#### ١ - الوصف :

ولا تعجب إذا عددنا الوصف جديداً عند البارودي ، وإن كان قديماً منذ أن كان الشعر العربي وما من شاعر إلا له في الوصف أبيات وقصائد . ولكن الجديد في وصف البارودي أنه أفرد له قصائد بعينها ، ولم يأت به عرضاً في ثنايا القصائد . كان يصف لمجرد الوصف ؛ ولأن شاعريته ، وحواسه المرهفة ، وتذوقه الحاد للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، وإلى وصف مشاهداته لا كما هي في الطبيعة ، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .

كان البارودي مفتوناً بالطبيعة ، يرى شعرها لا ينضب منه معين الإلهام ، ويرى في كل سطر من هذا الشعر آية من آيات الجمال عليه أن يترنم بها ، ويظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للناس حتى يعجبوا بها كما أعجب . وديوان البارودي غاص بالموصوفات وبقصائد الوصف ، وما دام الشاعر قد انصرف عن المديح وعن أن يكون شعره مظهراً للنفاق والخذاع والاستجداء ، والوقوف بأبواب الملوك والأمراء ، فقد أصبح شعره طوع يده يسجل به مشاعره الخاصة . وشعراء العربية الوصافون — أي الذين أكثروا من الوصف — قليلون ، لأن المديح وللأسف قد ألهم عن قراءة محاسن الكون ، ويعد البارودي من أكثر شعراء العربية وصفاً ، بل يعد في الطبيعة . وشعره الوصفي يفخر به الشعر العربي ويستطيع أن يباهي به خير ما عند الغرب من شعر وصفي ، وموصوفات البارودي كما ذكرنا عديدة ومنوعة ، فمنها :

١ — مظاهر الطبيعة فيصف الليلة العاصفة المطيرة ويجعلك تحس معه هزيم الرعد ، وعزف الريح ، وتواصل المطر وشدته ، وترى سوادها ووحشتها ، ويصف الليلة الحالية بالنجوم فتلمس جمالها ، ويصف السحاب الممطر والبرق والرعد وأثرها في الإنسان والأرض ، ويصف البحر الهائج الغاضب ، والريح الزفوف تعلو بالموج فتحيله جبلاً سامقة الذرى ، وتنخفض به إلى وهاد عميقة

الأغوار ، ويصف الجبل والغابة وغير ذلك .

وهو في وصف الطبيعة مصور ماهر ، بل هو دقيق بارع في كل ما يتناول من وصف . وهو في وصف الطبيعة قد يغرب في لفظه ، ويأتي بتشبيهات جديدة منتزعة من بيئته أحياناً ، وأحياناً يردد معاني القدماء وأخيلتهم . استمع إليه يصف ليلة مطيرة حق مطلع الفجر :

وليلة ذات تَهْتَاتٍ وأندية كأنما البرق فيها صارمٌ سَلِطٌ<sup>(١)</sup>  
كَلَفَ الغمام أقاصيها رُبْرُودته وانهل في حَجَرَتِها وإبل سَبِطٌ<sup>(٢)</sup>  
بَهْمَاءٌ لا يَهْتدي الساري بكوكبها من الغمام ولا يبدو بها نَمَطٌ<sup>(٣)</sup>  
يكاد يحجل فيها القوم أمرهم لولا صهيل جياذ الخيل واللاَقَطُ<sup>(٤)</sup>  
يَطْنَقِي بها البرق أحياناً فيزجُرُهُ مخرنطم زَجَلٌ من رعداها عَرْنَطُمٌ<sup>(٥)</sup>  
كأنما البرق سَوَاطٍ والحيا نُجَبٌ يلوح في جسمها من مَسَمَةٍ حَبَطٌ<sup>(٥)</sup>

---

(١) أندية : حاندي وهو النبل ، وسلط : لا نتوء في فصله .

(٢) حجراتها : ناحتها ، وسبط : شديد متداوك .

(٣) النمط : الطريق .

(٤) مخرنطم : وهو اسم فاعل من اخرنطم الرجل أي رفع أنفه واستكبر وغضب ، وزجل : عالي الصوت ، ومن رعداها : بيان لزجل . وخط : غضوب نازر .

(٥) الحيا : المطر ، والنجب : كرام الخيل والإبل وعناقها وجيادها المفرد نجيب ، من مسه : أي بسبب مسه وأذاه ، والضمير يعود على السوط . والحبط : آثار السياط بالبدن أو الآثار الوارمة التي لم تشقق .

كأنه صارمٌ يرفضُ من علقٍ بالأفق يُغشِدُ أحياناً ويُخترطُ (١)  
 مزقت جلبابها بالخيال طالمة مثل الحمايم في أجيادها العلط (٢)  
 وقد تخلل خيط النور ظلمتها كما تخلل شمر اللثة الوخطُ  
 كأنها وصديع الفجر يصدعها من جانب أدم قد مسه نبط (٣)  
 ومربّع للنسيم الفجر هينمة فيه وللطير في أرجائه لفط  
 كأنما القطر در في جوانبه يكاد من صدَف الأزهار يُلْتَقَطُ  
 وللنسيم خلال النبت غلغلة كما تغفل وسط اللثة المشطُ  
 والريح تمحو سطوراً ثم تثبتها في النهر لاصحة فيها ولا غلط  
 وللسماء خيوط غير واهية تكاد تجتمع بالأيدي فتترتبطُ  
 كأنها وأكف الريح تضرُّها سلوكُ عقند تهاوت فهي تنخرطُ  
 وفي هذه القطعة أبيات يسمو فيها البارودي بإحساسه وبراعة تصويره ،  
 وإدراكه للأمور الدقيقة ، كوصفه للنسيم وهو يتخلل النبت ، أو وصفه خيوط  
 المطر وهي نازلة .

(١) كأنه : أي البرق . يرفض : يسيل ويقطر ، والعلق : الدم ، يخترط : يسيل ويجرد من غده .

(٢) العلط ، ككتب جمع علاط ككتاب وهو من الحمامة طوقها في صفحتي عنقها بسواد .

(٣) النبط : بياض في بطن الفرس ، وصديع الفجر : أي طلوعه لأنه يصدع اللبنة أي يشقها .

وقال يصف النجوم :

أرعى الكواكبَ في السماء كأن لي      عند النجوم رهينةً لم تدفع  
زهر تالتقُ بالفضاء ، كأنها      حبَّبُ تردد في خدير مُنتزع  
وكانها حول المَجَرِّ حاتم      بيضٌ عكفن على جوانب مَشْرَع  
وترى الثريا في السماء كأنها      حلقات قرط بالجمانِ مرصع  
بيضاء ناصعةٌ كبيض نعامة      في جوف أدحيٍ بأرض بلقع  
وكانها أكرُّ توقد نورها      بالكهرباء في سماء مصنع<sup>(١)</sup>  
والليل مرهوبُ الحية قائم      في مسحه كالراهب المتلفع<sup>(٢)</sup>  
متوشح بالنيرات كباسل      من نسل حام ، بالشجين مدرع  
حسبَ النجوم تخلفت عن أمره      فوحى له من الهلال بإصبع<sup>(٣)</sup>

٣ - ويصف مناظر الريف ويصورها تصويراً بديعاً، فيصف القطن والسفن في النيل والساقية والمزروعات والطيور ، وهي تحوم على صفحة النهر وحركات الطيور ، والنحلة وهي تنتقل من زهرة لزهرة . كل هذا في حساسية غريبة ، وشغف بالطبيعة وحب لها كأنه يعيش معها .

فمن قوله يصف القطن :

---

(١) المصنع : القصر العظيم .

(٢) مسحه : مسوحه أي لبسه الأسود كمسوح الراهب .

(٣) وحى : أشار .

والقطن بين ملوِّز ومنوِّر      كالغداة ازدانت بأنواع الحِلِي  
فكان عاقده كراتُ زمرد      وكان زاهره كواكب في الروا<sup>(١)</sup>  
دبت به روح الحياة فلو وهتُ      عنه القيودُ من الجداول قد مشى  
فأصوله الدكناء تسبح في الثرى      وفروعه الخضراء تلعب في الهوا  
لم يسر فيه العقلُ مذهبَ فكرة      محدودة إلا تراجعٍ بالفي

واسمعه يصف الريف المصري إبان الربيع في أرجوزة :

عم الحيا واستننتِ الجداولُ      وفاضت الغدُرانُ والمناهلُ  
وازينت بنورها الخمائلُ      وغردت في أيكها البلابل  
وشمل البقاعَ خير شامل      فصفحةُ الأرض نبات خائل<sup>(٢)</sup>  
وجبهة الجوِّ غمام حافل      وبين هذين نسيم جائل  
تندى به الأسحار والأصائل      كأنما النبات بجرٍّ هائل  
وليس إلا الأكمات ساحل      وشامخ الدُّوح سفين<sup>(٣)</sup> جافل<sup>(٣)</sup>  
معتدل طوراً وطوراً مائل      تهفو به الجنوبُ والشمائل

---

(١) عاقده : ما انمقد من اللوز قبل أن يتفتح ، الروا . مقصور الرواء ، وهو الحسن والبهاء .

(٢) خائل : ذو خيلاء معجب بنفسه .

(٣) جافل : مضطرب .

|                                      |                                               |
|--------------------------------------|-----------------------------------------------|
| والباسقات الشُّمخُ الحوامل           | مشمورةٌ عن ساقها الذَّلَازِلُ <sup>(١)</sup>  |
| مَلُويةٌ في جيدها العَمَّاكِلُ       | مَعقودةٌ في رأسها الفَلَّائِلُ <sup>(٢)</sup> |
| للْبُسْرِ فيها قَانِئٌ وَناصل        | 'مَخَضَّبٌ' كأنه الأَنَامِلُ                  |
| كَأنه من ذَهَبٍ قَنَادِلُ            | من العَراجِين لها سَلاسل                      |
| لِلْمُنْجَنُونَ بِدِينِهَا أَرَامِلُ | تَخَالُها مَحزونةٌ تَسَائِلُ <sup>(٣)</sup>   |
| لها دَموعٌ ذُرْفٌ هَوَامِلُ          | كَأَنها أُمٌّ بَنِينٌ تَاكِلُ                 |
| في جيدها من صَفَرها حَبَائِلُ        | من القَوَاديس لها جَلَاجِلُ                   |
| تَدور كالشَّهب لها مَنَازِلُ         | فَصَاعِدٌ وَدَافِقٌ وَنَازِلُ                 |

ففي هذه القصيدة يصور مناظر الريف تصويراً سريعاً دون تعمق أو طويل وقوف على المشاهدات ، ومعانيه قريبة ، وتشبيهاته واضحة غير متكلفه ، وخياله دان لا إغراب فيه ولا شرود .

ومما يدل على دقة حسه ، وتدقيق شعوره ، وأنه مصور بارع ، أن الأمور التي لا تسترعي نظر جمهرة الناس يجد فيها ما يثير عاطفته ، ويحرك شاعريته قوله يصف طائراً تحرك فأيقظه من سِنْتِه ، وتتبع حركاته بدقة ، فأعطى

---

(١) الباسقات : يريد النخل . والذلازل : الأطراف ويريد أن ساق النخلة عار من الجريد والسعف .

(٢) العماكل : ج عنكول وهو في النخل بمنزلة المعنقود في الكرم ، والفلائل ج فلية : وهي الشعر المجتمع .

(٣) المنجنون : دلاب الساقية التي يسقى بها الزرع ، وأزامل : ج أزمل ( كجعفر ) وهو الصوت المختلط .



صورة واضحة عنه :

ونبأةٍ أطلقت عيني من سنةٍ      كانت حباله طيف زارني سحراً  
فقلت أسأل عيني رجع ما سمعت      أذني ، فقالت : لعلني أبلغ الخبرا  
ثم اشرأبت فالت طائراً حذراً      على قضيب يديرُ السمع والبصرا  
مستوفزاً يتنزي فوق أيكته      تنزّي القلب طال المهْدُ فاذكرا<sup>(١)</sup>  
لا تستقر له ساقٌ على قدم      فكلما هذأت أنفاسه نفرأ  
يهفو به الغصن أحياناً ويرفعه      دحو الصوالج في الديومة الأكرأ<sup>(٢)</sup>  
ما باله وهو في أمن وعافية      لا يبعث الطيرُ إلا خائفاً حذرا  
إذا علا بات في خضراء ناعمةٍ      وإن هوى وَرَدَ الغُدران أو نقرا

فأنت تراه يتتبع الطائر في أقل حركة له ، ويحاول أن يستشف دخيلة قلبه الصغير ليعرف سر فزعه ، وترقبه ، ويتعجب لهذه الحياة القلقة المضطربة مع أن ظاهر الأمر ينهى أنه في نعمة وعافية . وهذه لعمري خطرات شاعر مرهف الإحساس جياش العاطفة .

واستمع إليه يصف غيضة احتلها في (قندية) أيام حرب كريت :

---

(١) مستوفزا : غير مطمئن قد تهيأ للوثوب ، ويتنزي : يشب.

(٢) دحا اللاعب الكرة : دفعها ورماها بيده ، والديومة : الأرض المستوية .

وَمُرْتَبِعٍ لِّلذَّائِبِ غِبٌ سَحَرَةٌ وَالصَّيْحُ أَنْفَاسٌ تَزِيدُ وَتَنْقُصُ<sup>(١)</sup>  
 وَقَدْ مَالَ لِلْغَرْبِ الْهَلَالُ ، كَأَنَّهُ بِنَقَارِهِ عَنْ حَبَّةِ النَّجْمِ يَفْخَصُ<sup>(٢)</sup>  
 رَقِيقٌ حَوَاشِي النَّبْتِ ، أَمَا غُصُونُهُ فَرَيًّا ، وَأَمَا زَهْرُهُ ، فَمِنْصَصٌ<sup>(٣)</sup>  
 إِذَا لَاعَبَتْ أَفْنَانَهُ الرِّيحُ خَلَّتْهَا سَلْسَلٌ تَلْوَى ، أَوْ غَدَائِرُ تَعْقَصُ<sup>(٤)</sup>  
 كَأَن صَحَافَ الزَّهْرِ وَالطَّلُّ ذَائِبٌ عَيُونٌَ يَسِيلُ الدَّمْعُ مِنْهَا وَتَشْخَصُ<sup>(٥)</sup>  
 يَكَادُ نَسِيمُ الْفَجْرِ إِنْ مَرَّ سُحْرَةً بِسَاحَتِهِ الشَّجَرَاءُ لَا يَتَخَلَّصُ  
 كَأَن شِعَاعَ الشَّمْسِ وَالرِّيحُ رَهْوَةٌ إِذَا رُدَّ فِيهِ سَارِقٌ يَتَرَبَّصُ<sup>(٦)</sup>  
 يَمُدُّ يَدَا دُونَ الثَّمَارِ ، كَأَنَّمَا يَحَاوِلُ مِنْهَا غَايَةً ثُمَّ يَنْكُصُ

٣ - وإذا أردت أن تعرف متى يخلق البارودي في الوصف ، فاقراء أوصافه  
 في الأشخاص. إنه لا يقل عن أمهر مصور، بل أين منه المصور ؟ وهو لا يستطيع

(١) المرتبِع : الذي يرتبِع فيه القوم ، أي يقيمون زمن الربيع .

(٢) في هذا البيت إشارة إلى أن اللبلة التي يصفها كانت في آخر الشهر العربي ، وحبة النجم :  
 أي النجم الشبيه بالحبة .

(٣) رقيق : صفة المرتبِع ، منصص : ظاهر مرتفع بعضه فوق بعض .

(٤) الغدائر : غديرة . وهي الذوايب من الشعر إذا كانت مرسلة ، غير ملوية ولا معقوصة ،  
 وتمقص : تضفر .

(٥) تشخص : تنفتح ولا تطرف .

(٦) الرهو : الرقيق ، ورد فيه : أي إذا تردد الشعاع في المرتبِع .

أن يبرز على ( لوحته ) دخائل النفوس ، وأسرار القلوب والحركات والإشارات ، وكذلك أوصافه للمعارك وميادين القتال وأدواته ، وإذا كان وصف الحروب من الموضوعات القديمة التي تناولها قبله الشعراء ، فإن تصوير الأشخاص من الموضوعات النادرة التي مهر فيها قِلَّةٌ من فحول الشعر العربي كابن الرومي ، اسمعه يصف البلغار في بلادهم حين ذهب مع الحملة المصرية لحرب الروس .

بلاد بها ما بالجحيم ، وإنما مكان' اللظى تلج بها وجليد  
تجمعت البلغار والروم بينها وزاحمها التناثر ، فهي حُشود  
إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم هديداً تكاد الأرض منه تميد  
قَبَاحُ النواصي والوجوه كأنهم لغير أبي هذا الأنام جنود  
سواسية ، ليسوا بنسل قبيلة فتُعرف ، بآء لهم وجدود  
لهم صورٌ ليست وجوها وإنما تناط إليها أعين وخذود  
يخورون حولي كالمجول ، وبعضهم يهجن لحن القول حين يجيد

فهو يصف رطانتهم وعجمة ألسنتهم ، وقبح وجوههم ورءوسهم حتى كأنهم ليسوا من البشر ، وأن وجوههم متشابهة لا تستطيع التفريق بينها ، بل لا يريد أن يعترف بأن لهم وجوهاً وإنما هي صور وضعت فيها أعين وخذود ، ويخورون حوله كالمجول ، وإذا حاول أحدهم النطق بالعربية أفسدها .

ومن قوله يصف حرب إقريطش ( كريت ) :

في كُلِّ مَرَبَاةٍ وكلَّ تَنَذِيرٍ تَهْدَارُ سامرة وعزفُ قيان<sup>(١)</sup>

(١) المرباة : مكان المراقب ، والتهدار : التصريت وقرقرة الحمام ، والقينة : المغنية وجمعها قيات .

تَسْتَنُّ عَادِيَةً ، وَيَصِلُ أَجْرَدُ وَتَصِيحُ أَجْرَاسٌ ، وَيَهْتَفُ عَانِي<sup>(١)</sup>  
 قَوْمٌ أَبِي الشَّيْطَانِ إِلَّا خُسْرَهُمْ فَتَسَلَّلُوا مِنْ طَاعَةِ السُّلْطَانِ  
 مَلَأُوا الْفُضَاءَ ، فَمَا يَبِينُ لِنَاضِرٍ غَيْرُ التَّمَاعِ الْبَيْضِ وَالْخُرْصَانِ<sup>(٢)</sup>  
 فَالْبَدْرِ أَكْدُرُ وَالسَّمَاءُ مَرِيضَةٌ وَالْبَحْرُ أَشْكَلُ وَالرِّمَاحُ دَوَّانٍ<sup>(٣)</sup>  
 وَالْخَيْلُ وَاقِفَةٌ عَلَى أَرْسَانِهَا لَطْرَادُ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَرَهَاتٍ  
 وَضَعُوا السَّلَاحَ إِلَى الصَّبَاحِ ، وَأَقْبَلُوا يَتَكَلَّمُونَ بِالنُّسْنِ النِّيَرَانِ  
 حَقٌّ إِذَا مَا الصَّبْحُ أَسْفَرَ وَارْتَمَتْ عَيْنَانِ بَيْنَ رُبِّيَّ وَبَيْنِ مَجَانِ  
 فَإِذَا الْجِبَالُ أَسْنَةٌ ، وَإِذَا الْوَهَا دُاعِيَةٌ وَالْمَاءُ أَحْمَرُ قَانِي  
 فَتَوَجَّسَتْ فُرُطُ الرِّكَابِ وَلَمْ تَكُنْ لَتَهَابٍ ، فَامْتَنَعَتْ عَلَى الْأَرْسَانِ<sup>(٤)</sup>  
 فَزَعَتْ فَارْجَعْتَ الْحَنِينَ ، وَإِنَّمَا تَحَنَّنُهَا شَجْنٌ مِنَ الْأَشْجَانِ  
 ذَكَرْتُ مَوَارِدَهَا بِمَصْرَ ، وَأَيْنَ مِنْ مَاءٍ بِمَصْرَ مَنَازِلُ الرُّومَانِ  
 وَمِنْ الْمَقْطُوعَاتِ اللَّطِيفَةِ فِي وَصْفِ الْأَشْخَاصِ قَوْلُ الْبَارُودِيِّ يَذُمُّ  
 شَخْصًا وَيَصِفُهُ بِالنَّهْمِ وَالْجَشَعِ .

وصاحب لا كان من صاحب أخلاقه كالمعدة الفاسده

أقبح ما في الناس من خصلة أحسن ما في نفسه الجامده

(١) استن الفرس : عدا إقبالاً وإدباراً ، والأجرد : الحصان القصير الشعر وهو من أمارات العتق والأصالة ، والعاني : المتعب .

(٢) الخرصان : الدروع والرماح .

(٣) الأشكل . الذي يضرب بياضه في حمرة .

(٤) الفرط : الفرس السريعة التي تتقدم الخيل . وامتنعت على الارسان : حرت وصارت لا تقاد بالارسان .

لو أنه صَوَّرَ من طبعه كان لعمري عقرباً راصده  
يصلح للصنع لكيلا يُرى في عَدَدِ الناس بلا فائده  
يغله الضعف ولكنه يهدم في قعدته المائده  
يراقب الصَّحْنِ على غفلة من أهله كاهرة الصائده  
كأنما أظفوره مِنْجَلٌ وبين فكّيه رَحَى راعده  
كأنما البطّة في حلقه نعامه في سَبَسَب شارده  
تسمع للبلع نقيقاً كما نقت ضفادي ليلة راكده  
كأنما أنفاسه حَرَجَفٌ وبين جنبه لظى واقده

٤ - وقد وصف البارودي كثيراً من الأشياء كالسجن ، والقطار ،  
والخمر وغير ذلك وربما كان وصفه للقطار أول وصف من نوعه في  
اللغة العربية ؛ لأن السكة الحديدية دخلت مصر في أخريات أيام  
سعيد ، ولم يفتن شعراء عصره له أو لم يهتموا بوصفه ، ويقول فيه  
وإن لم يصفه بدقة .

ولقد علوت سرّاة أدم لو جرى في شأوه برقٌ تعثر أو كبا  
يطوي الفلّاطي السّجل ويهتدي في كل مهمة يضل بها القَطَا  
يجري على عجل فلا يشكو الوجى مَدُّ النهار ، ولا يمل من السري  
لا الوخذ منه ، ولا الرّسم ، ولا يرى يمشي العرَضنة أو يسير الهيدبى<sup>(١)</sup>

---

(١) الوخذ : سعة الخطو ، والرسم : سير للابل قريب من الهولسة دون الجري ،  
والعرضنة : نوع من السير يتناز بالحقفة والسرعة والنشاط . والهيدبى : مشي للخيّل  
فيه جد .

ويقول في وصف السجن :

فسواد الليل ما إن ينقضي وبياض الصبح ما إن يُنتظر  
لا أنيسٌ يسمع الشكوى ولا خبرٌ يأتي ، ولا طيف يمر  
بين حيطان و باب موحد كلما حركه السجّان صرّ  
يتمشى دونه حق إذا لحقته نبأة مني استقر  
كلما دُرْتُ لأقضي حاجة قالت الظلمة : مهلا ، لا تدر  
أتقرئ الشيء أبغيه فلا أجد الشيء ، ولا نفسي تقرر  
ظلمة ما ان بها من كوكب غير أنفاس ترمى بالشرر

وهذه القطعة فيها أبيات من الشعر الواقعي التي تغنى بتصويرها الحقيقة العارضة عن أي خيال منها عمق وملح .

• - هذا وقد وصف البارودي بعض آثار مصر القديمة ، وفتح بذلك الطريق لشوقي وغيره وهو وإن لم يتعمق في وصفه ، ويستعرض التاريخ المجيد كما فعل شوقي من بعده إلا أنه برهن على أنه شاعر يرى الجمال أو العظمة فيما حوله من مناظر ، وأن شاعريته حساسة مرهفة ؛ لأن مثل هذا الوصف لا تحفزه اليه رغبة في صلة أو تقرب من أمير ، وإنما هو إشباع لرغبة فنية تجيش في صدره ، وتجاول شاعريته الإفصاح عنها . ولذلك عد باب الوصف من خير أبواب الشعر ؛ لأنه فضلا عن نشره ما طوي من آيات الجمال ، أو ما خفي على عيون الناس منها فإنه يدل على نفسية الشاعر ، وقدرته وخياله ، وهو خير محك للتمييز بين الشعراء ، ومن ذلك قوله يصف الهرمين :

سل الجيزة الفيحاء عن هرّمي مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري

بناءً أن رَدًّا صَوْلَة الدَّهْر عنها      ومن عَجَبٍ أن يغلبا صَوْلَة الدَّهْر  
أقاما على رَغَمِ الخطوب ليشهدا      لبانيهما بين البرية بالفخر  
فكم أُمَمٍ في الدهر بادت وأعصر      خلّت وما أعجوبة العين والفكر  
تلوح لآثار العقول عليها      أساطير لا تنفك تُتلى إلى الحشر  
رموزٌ لو استطلعت مكنون سرها      لأبصرت مجموع الخلائق في سطر  
فما من بناء كان ، أو هو كائن      يدانيها عند التأمل والخبر  
يقصّرُ حسناً عنها « صرح بابل »      ويعترف « الإيوان » بالعجز والبهر<sup>(١)</sup>  
فلو أن « هاروت » انتحى مرصديها      لألقى مقاليد الكهانة والسحر  
كانها ثديان فاضا بدرّة      من النمل تُروى غلّة الأرض إذ تجري  
وبينها « بلهيب » في زيّ رابض      أكبّ على الكفين منه إلى الصدر<sup>(٢)</sup>  
يقلّب نحو الشرق نظرة وامق      كأن له شوقاً إلى مطلع الفجر

وليست هذه القصيدة الوحيدة التي أشاد فيها بالأهرام ، وبقدماء المصريين  
فله قصيدة أخرى فيها مطلعها:

أي شيء يبقى على الحدّثان      والمنايا خصيمة الحيوان  
وله ثالثة مطلعها :

بقوة العلم تقوى شوكة الامم      فالحكم في الدهر منسوب إلى القلم

---

(١) البهر : مصدر بهره من باب قطع أي غلبه وفاقه ، والإيوان : إيوان  
كسرى أنوشروان وقصره الأبيض وكان يمد من عجائب الدنيا ، وكذلك صرح بابل  
الذي بناه بختنصر .  
(٢) بلهيب : أبو الهول .

وفيه يقول :

فانظر إلى الهرمين المائلين تجدد غرائباً لا تراها النفس في الحُلم  
صرحان ما دارت الأفلاك منذ جرت على نظيريهما في الشكل والعِظم

. . . . .

ولاح بينهما بلهيب متجهماً للشرق يلحظ مجرى النيل من أُمم

(ب) الشعر السياسي :

من الأغراض القديمة التي خلع عليها البارودي لباس الجدة ، وظهرت  
فيها شخصيته واضحة مجلية تفصح عن نفسه الأبية المتمردة على الظلم  
والظقيان ، المحبة للعدالة والشورى والمساواة بين الناس ، ذلك الشعر  
السياسي الوطني الذي دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه ، وجعل  
منه زعيماً محبوباً ، ولذلك ألقى به في غياهب السجن ، ورمى به  
بعيداً عن وطنه . وباليته كفّ عن مثل هذا الشعر وهو يتجرع غصص  
النفى والتشريد والمرض ، بل زفر زفرات حارة كادت تحرق الطاغين  
المعتدين بشواظها الملتهب ، ولذلك طال غيبته عن دياره وخاف أولو  
الأمر من عودته حتى لا يعيدها جذعاً مشبوبة الضرام ؛ ولما هدأت  
ثأثرته ، وكُسرت حدته وخفت شرته ، واشتكى ما به من ضعف  
وهزال ، ودب إلى جسمه ديببُ الفناء ، أمنوا جانبه فأعادوه إلى  
وطنه .

كان البارودي طموحاً ، يعتلج في حنايا صدره أمل كبير يرد أن  
أن يحدد به مجد أسلافه ، وقد رزق العقل الذكي ، والفؤاد الأبي ،



والعلم والبصيرة ، فلم لا يصل إلى ما يريد ؟ ولكن ما كل ما يشتهي  
الإنسان ويأمله يسهل نواله ، وقد وقفت في سبيل البارودي عقبات  
شق ، وظل الأمل يساوره على الرغم من هذه الصعاب .

ويلاه من حاجة في النفس هام بها قلبي ، وقصر عن إدراكها باعي  
أسمى لها وهي مني غير دانية وكيف يبلغ شأوالكوكب الساعي  
ويعترف بهذه العراقيل التي تعترض طريقه ، ولولاها لنال ما تمنى .

وإني أمرؤ لولا العوائق أذعنت لسطوته البدو المغيرة والحضر

وهذا من أصرح الأبيات التي أشار فيها إلى ما تهيم به فؤاده ، وإن  
كان قد ساقه في معرض الفخر والشجاعة واقتحام ميادين القتال . وقد  
أخفق البارودي في تحقيق آماله واعتذر عن الإخفاق كما مر بنا .

ويلوح لنا أن البارودي كان بطبعه محباً للحرية متمرداً على الظلم ،  
شأن كل شجاع شريف . ولعل للورثة ، وللنشأة التي 'نشأ' أثرأ في  
هذا ؛ ولقد غذاهما ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب ،  
وهم أبطال الحرية في فيافيهم الواسعة ، وقد تغنّوا بحروبهم وشجاعتهم  
وانتصاراتهم وأنفستهم ، وكان شعرهم سجلاً وافياً لمكارم أخلاقهم . وقد  
قرأ البارودي وهو بعد شاب غرير ، فرسخت هذه الصفات في ذهنه .  
وشب مطبوعاً عليها يتمثلها نماذج يحتذيها ، ويرددها في شعره ويود أن  
يحققها عملاً في الحياة ، ويقول :

لا عيب فيّ سوى حرية ملكت أعنّتي عن قبول الذل بالمال

تبعث خطة آبائي فسرت بها على وتيرة آداب وآسال (١)

ويقول :

دع الذل في الدنيا لمن خاف حتفه      فلكل موت خير من حياة على أذى  
ولقد صور البارودي الفساد الذي شاع أمره في مصر ، واضطرب  
أحوالها والفرع الذي ملأ قلوب الناس ، وتنبأ بالثورة الدامية قبل  
حدوثها ، مما يدل على أنه كان على شلة بزعمائها وأن الناس ضاقوا  
ذرعاً بهذا الفساد وجروا به ولا بُد من سبيل إلى الإصلاح ، وذلك  
حيث يقول : -

تَكَثَّرَتْ مِصْرُ بَعْدَ الْعُرْفِ واضطربت  
قواعدُ الملكِ حق ربيع طائرُه  
فأهل الأرض جراً الظلم حارثُها  
واسترجع المالَ خوف العُدْمِ تاجرُه (٢)  
واستحكم الهولُ ، حق ما يبيتُ فقٍ  
في جَوْشَنِ اللَّيْلِ إلا وهو ساهرُه (٣)

وَيَلُمُّهُ سَكَنًا ، لولا الدفين به من المآثر ما كنا نجاوره  
أرضى به غير مغبوط بنعمته وفي سواء المني لولا عشائره  
يانفس لا تجزعي فالخير 'منتظر' وصاحب الصبر لا تبلى مرائره

---

(١) آسال : شبه وعلامات ، يقال فلان يسير على آسال من أبيه أي على شبه من  
ولا واحد لها .

(٢) جرا الظلم : من جرائه وبسببه .

(٣) جوشن الليل : وسطه أو صدره .

لَعَلَّ بُلْبُجَةَ نَورٍ يَسْتَضَاءُ بِهَا بَعْدَ الظَّلَامِ الَّذِي عَمَت دِيَا جِرَّهُ  
إِنِّي أَرَى أَنْفَسًا ضَاقَتْ بِمَا حَمَلَتْ وَسَوْفَ يَشْهَرُ حَدُّ السِّيفِ شَاهِرُهُ  
شَهْرَانٍ أَوْ بَعْدَ شَهْرٍ إِنْ هِيَ احْتَدَمَتْ وَفِي الْجَدِيدِينَ مَا تَغْنَى فَوَاقِرُهُ  
فَلَمَّا أَصَبْتُ فَعَن رَأْيِي مَلَكَتْ بِهِ عِلْمُ الْغُيُوبِ ، وَرَأْيِي الْمَرَّةَ نَازِلُهُ

وقد ذكرنا فيما سبق كيف أن البارودي كان من زعماء الثورة ،  
وأنه كان يطمع في الانقلاب ، ولكن لما رأى التيار عنيفاً ، وتدخلت  
فرنسا وانجلترا ، أحجم وتردد ونصح لقومه فلم ينتصحوا ، ولم يجد  
بدأً من السير في الشوط حتى الغاية . وللبارودي في إبان الثورة وبعدها  
شعر ملتهب حمية وحماسة وتمرداً على الظلم . أنصت إليه وهو يحرض  
المصريين على الثورة ويهيب بهم ألا يستكينوا للحاكم المستبد ، ويصور  
لهم نفوسهم العاجزة الضعيفة بقوله :

فيا قوم هَبُوا إِنَّمَا الْعُمُرُ فُرْصَةٌ      وفي الدهر 'طَرَقَ جَعَّةٌ' وَمَنَافِعُ  
أَصْبَرًا عَلَى مَسِّ الْمَوَاتِ وَأَنْتُمْ عَدِيدُ الْخَصَى : إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعُ  
وَكَيْفَ تَرُونَ الذِّلَّ دَارَ إِقَامَةٍ      وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَاسِعُ  
أَرَى أَرُوسًا قَدْ أُيْنِعَتْ لِحَصَادِهَا      فَأَيْنَ وَلَا أَيْنَ السِّيفُ الْقَوَاطِعُ ؟  
فَكُونُوا حَصِيدًا خَامِدِينَ أَوْ افزَعُوا      إِلَى الْحَرْبِ حَتَّى يَدْفَعَ الضِّيمَ دَافِعُ  
أُهِبْتُ فَعَادَ الصَّوْتُ لَمْ يَقْضِ حَاجَةٌ      إِلَيَّ ، وَلَسْبَانِي الصَّدَى ، وَهُوَ طَائِعُ  
فَلَمْ أَدْرِ أَنَّ اللَّهَ صَوَّرَ قَبْلَكُمْ      تَمَائِيلَ لَمْ يُخْلَقْ لَهُنَّ مَسَامِعُ  
فَلَا تَدْعُوا هَذِي الْقُلُوبَ ، فَإِنَّهَا      قَوَارِيرُ مَحْنٍ عَلَيْهَا الْأَضَالِعُ

ويقول معرضاً بالحاكم المستبد :

يا أيها الظالم في ملكه أغرك الملك الذي يَنْقَد

اصنع بنا ما شئت من قسوة فالله عدل ، والتلاقي غد

وكان من الداعين إلى نظام الشورى ، وقد مدح توفيقاً لما تولى  
أريكة مصر وظن المصريون أنه سيحقق آمالهم الوطنية ويلبي دعوتهم  
إلى الأخذ بالشورى ؛ حتى لا يستبد الحكم ، ولا يقعوا في أخطاء  
تجلب عليهم وعلى قومهم المصائب كما حدث لإسماعيل :

سن المشورة وهي أكرم خطة يجري عليها كل راعٍ مرشد

هي عصمة الدين التي أوحى بها رب العباد إلى النبي محمد

فمن استعان بها تأيد ملكه ومن استهان بأمرها لم يرشد

أمران ما اجتماعاً لقائد أمة إلا جنى بها ثمار السؤدد

جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى ، وجند للعدو بمرصـد

هيات يحيا الملك دون مشورة ويعز ركن الجهد ما لم يُعمد

ويقول فيها مادحاً توفيقاً :

أطلقت كل مقيد وحللت كم ل معقد وجمعت كل مبدد

وتمتعت بالعدل منك رعية كانت فريسة كل باغ معتد

ويحرض الأمة على اليقظة ، والقوة حتى لا يستهين السلطان بأمرها :

وكذاك السلطان إن ظن بالأمة عجزاً سطا عليها وشدا

ولما أخفقت الثورة وتخاذل الثوار ، وخان بعضهم بعضاً ، ترك هذا الإخفاق ، وذباك الخذلان في نفسه مرارة ظل أثرها في لسانه مدة ، فأخذ يلفظ بشعر مرير فيه أثر الموجدة والغضب من مثل قوله :

كنا نود انقلاباً نستريح به      حتى إذا تم ساءتنا مصاير

ويقول ذاماً الثورة والثوار ويحاول أن يتنصل من تبعاتها ، وأن ما ناله كان بسبب ما دب بينهم من الشحنة ، وأنهم غدروا به :

صبرتُ على ريب هذا الزمان      ولولا المعاذير لم أصبر  
فلا تحسبني جهلت الصواب      ولكن همت فلم أقدر  
ثنت عزمي ثورةً المفسدين      وغلت يدي فترة العسكر  
وكنا جميعاً فلما وقعتُ      صبرت ، وغادرتني معشري  
ولو أنني رمتُ إعانتهم      لقلت مقالةً مستبصر  
ولكنني حين جد الخصام      رجعت إلى كرم العنصر

وحاول البارودي أن يبريء نفسه ويعلل هزيمته ويصف حنث الثوار في أيمانهم وموائيقهم وتخاذلهم ، ويلتندم على زعامته :

دعوني إلى الجليّ فقامت مبادراً      وإني إلى أمثال تلك لسابقُ  
فلما استمر الجِدُّ ساقوا حولهم      إلى حيث لم يبلغه حادٍ وسائق<sup>(١)</sup>

---

(١) ساقوا حولهم : كناية عن تحاذلهم .

فلارحم الله امرأ باع دينه بدنياه سواه ، وهو للحق رافق  
على أنني حذرتهم غيباً أمرهم وأنذرتهم لو كان يفقه مائق<sup>(١)</sup>  
وقلت لهم كفوا عن الشر تغنوا فللشر يوم - لا محالة - ماحق  
فظنوا بقولي غير ما في يقينه على أنني في كل ماقلت صادق  
فتبأ لهم من معشر ليس فيهم رشيد ولا منهم خليل يصادق  
ظننت بهم خيراً فأبنت بحسرة لها شجن بين الجوانح لاصق  
فياليتني أصبحت في رأس شاهق ولم أر ما آلت إليه الوثائق  
هم عرضوني للقنا ، ثم أعرضوا سراعاً ، ولم يطرق من الشر طارق  
وقد أقسموا ألا يزولوا فما بدا سنا الفجر ، إلا والنساء طوالق

ثم يصف فزعهم وفرارهم من المعركة بقوله :

مَضَوْا غير معذورين لا النقع ساطع ولا البيض في أيدي الكُتْماء دوالق<sup>(٢)</sup>  
ولكن دعيتهم نبأة ، فتفرقوا كما انقض في سرب من الطير باشق<sup>(٣)</sup>  
فكم آبق تلقاه من غير طارد وكم واقف تلقاه والمقل آبق  
إذا أبصروا شخصاً يقولون : جحفل وجبن الفتى سيف لعينه بارق  
أسود لدى الأبيات بين نسائهم ولكنهم عند الهياج نقائق<sup>(٤)</sup>  
إذا المرء لم ينهض بقائم سيفه فياليت شعري ، كيف تحمي الحقائق؟

(١) مائق : أحق .

(٢) دلق السيف : أخرجه من غده .

(٣) النبأة : الصوت ويريد الخبر الكاذب ، والباشق : من الطيور الجارحة .

(٤) ج نقنق ١ بكسر فسكون ) وهو الظلم ، ذكر النعام ويضرب به المثل في الجبن .

وقد اتهم البارودي بأنه يطمع في الملك ، وأنه يحاول ثل العرش  
وخلع توفيق فقال منكراً هذه التهمة ، معللاً ثورته بعد أن نفى إلى  
( سرنديب )

يقول أناسٌ إنني ثرْتُ خالماً وتلك هَنَاتٌ لم تكن من خلانقي  
ولكنني ناديت بالعدل طالباً رضا الله ، واستنهضت أهل الحقائق  
أمرت بمعروف وأنكرت منكراً وذلك حكم في رقاب الخلائق  
فإن كان عصياناً قيامي فإنني أردت بمصياي إطاعة خالقي  
وهل دعوة الشورى عليّ غضاضة وفيها لمن يبغى الهدى كل فارق؟  
بلى ! لأنها فرض من الله واجب على كل حي من مسوق وسائق  
وكيف يكون المرء حراً مهذباً ويرضى بما يأتي به كل فاسق؟!  
فإن تافق الأقوام في الدين غدرة فلني بحمد الله غير منافق  
على أنني لم آل نصحاً لمعشر أبي غدريهم أن يقبلوا قول صادق  
رأوا أن يسوسوا الناس قهراً فأسرعوا إلى نقض ما شادته أيدي الوثائق  
فلما استمر الظلم قامت عصابة من الجند تسمى تحت ظل الخوفاق  
وشايهم أهل البلاد فأقبلوا إليهم سراعاً بين آت ولاحق  
يرومون من مولى البلاد نفاذ ما تألاه من وعد إلى الناس صادق

وإذا كان البارودي قد أنكر هذه التهمة هنا ونفاهما عن نفسه ،  
ففي شعره ما يشبهها ويدل على أنه كان يطلب من الثوار أن يولوه  
عليهم حاكماً ، ويمدح نفسه ، ويطري حكمه ، ومن البديهي أنه لم  
يرد رئاسة الوزارة فقد كان رئيساً للوزارة ، ولكنه يريد ما هو أعلى

منها ، وتراه يذم هؤلاء الذين يقفون في سبيله ويكيدون له :  
من كل وغد يكاد الدّست يدفعه بغضاً ويلفظه الديوان من ملل  
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل في خلل  
وأصبحت دولة القسطنطين خاضعة بعد الإباء وكانت زهرة الدوكل  
إلى أن يقول :

بئس المشير وبئست مصر من بلد أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل  
أرض تأثّل فيها الظلم وانقذت صواعق الغدر بين السهل والجبل  
وأصبح الناس في عيباء مظلمة لم يخطّ فيها امرؤ إلا على زلل  
أصوحت شجرات المجد أم نضبت غدر الحميّة حتى ليس من رجل ؟ !  
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت تمسّ العفافة من جبن ومن خزل (١)  
فما لم لا تعاف الضيم أنفسكم ولا تزول غواشيكم من الكسل  
فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا شكاله الرئث فالدنيا مع العجل  
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة يكون رداءً لكم في الحادث الجلل  
ماضي البصيرة غلاب إذا اشكبت مسالك الرأي صاد الباز بالحبجل  
إن قال برّ ، وإن ناداه منتصر لبي ، وإن هم لم يرجع بلا كفّل  
يحلّو البديهة باللفظ الوجيز إذا عز الخطاب وطاشت أسهم الجدل  
ولا تلجوا إذا ما الرأي لاح لكم إن اللجاجة مدعاة إلى الفشل

---

(١) الخزل : من الانخزال وهو الظلوع في الشيء من أثر شوك أو شبهها -  
مشي فيه تناقل وتراجع .



هذي نصيحة من لا يبتغي بدلاً بكم وهل بعد قوم المرء من بدل ؟

فهذا الشعر السياسي ، وهذه النفس الموثوبة الطمُوح ، وهذه الثورة المتأججة التي انتهت بصاحبها إلى النفي والتشريد هي من الجديد في معاني البارودي وشعره ، وهي جديدة حتى في الأدب العربي كله ، وإن كان المتنبي قد حاول من قبل مُلكاً وثار على الدنيا التي مكنت للمبيد والحصيان والعلوج في الأرض يسوسون شعوباً ضعيفة وجمل يقول :

في كل أرض وطئتها 'فدُم' 'قرعى' بعبد كأنها غم

فإنه اكتفى بالإشارة والتلميح والزفرة الحارة ، وبلمامة الدهر ومحاربتة في مطلبه ، ولكن البارودي كان يطلب شيئاً آخر : كان يطلب الحرية لقومه ، والعدل والمساواة ، كان يطلب العيشة الهنية في ظلال الحرية ولا عليه إذا طلب بجانب هذا ملكاً عضوضاً ليحقق لقومه آمالهم . وهب البارودي قلد المتنبي في بعض معانيه ، فهل كان اقتحامه ، ناز الثورة تقليداً ؟ أو ليس شعره هذا وليد الحوادث وصدى لها ؟ وهل فترت عزيمته ، ووهنت قوته ، وذلت نفسه وهو يقاسي ألم النفي والتشريد ، ما دام يدب في جسمه شيء من العافية ؟ كلا ! وإذا شئت برهاناً فاستمع لهذه الكلمات التي كان يخشى بأسها على البعد حكام مصر كأنها جيش لها يبدد سعادتهم .

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه ويملك أعناق المطالب وغدّه  
تداعت لدركِ الثَّارِ فينا 'ثَعَالَة' ونامت على طول الوتيرة أسدّه

|                                   |                               |
|-----------------------------------|-------------------------------|
| يفتحنا نسري في دياجير محنة        | يضيق بها عن صعبة السيف غمده   |
| إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سظت | عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده    |
| ومن كذل خوف الموت كانت حياته      | أضر عليه من حمام يؤدّه        |
| وأقتل داء رؤية العين ظالما        | يسيء ، ويشتلي في المحافل حمده |
| علام يعيش المرء في الدهر خاملا    | أيفرح في الدنيا بيوم يعدّه ؟  |
| يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه        | كذي جرب يلتذ بالحك جلدّه      |
| عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعيش | بها بطلا يحمي الحقيقة شدّه    |
| من العار أن يرضي الفتى بمذلة      | وفي السيف ما يكفي لأمر يعدّه  |
| وأني امرؤ لا أستكين لصولة         | وإن شد ساقى دون مسماي قدّه    |
| أبت لي حمل الضيم نفس أبية         | وقلب إذا سم الأذى شبّ وقدّه   |

وربما قيل إن البارودي كان ذا أثره ، وأنه كان يسمى سميّه لتحقيق أمله ، وأنه لم يكن مخلصاً في دعوته لمحاربة الظلم .. وسواء كان هذا صحيحاً ، أو غير صحيح ، فالذي نلمسه هو أن البارودي كان يتغنى بمصر وأهلها ويظهر محبته لها ، وحرصه على خيرها ونفعها ، بما لم نسمعه قبل من شاعر . إنها الروح القومية الجديدة سرت في شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال ، ويشيدون بأوطانهم ويتغنون بآثر قومهم وقد تمثلت هذه الروح في البارودي على غير انتظار وعلى غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه . أصغ إلى القطعة التالية ، والمس ما بها من حرارة الصدق والمحبة لتعرف أكان البارودي مخلصاً في دعواه أو مداجياً ؟

فيا مصر ! مدّ الله ظلك وارتنوى ثراك بسلسال من النيل دافق

ولا برحت تمتاز منك يدُ الصَّبَا أريجاً يداوي عَرَفه كل ناشق  
فأنت حمى قومي، ومشعب أسرتي وملعب أترابي، ومجرى سوابقي  
ببلاد بها حل الشباب تلامي وناط نجادَ المشرق بعانقي  
تركت بها أهلاً كراماً وجيرة لهم جيرة تعتادني كل شارق  
هجرت لذيد العيش بعد فراقهم وودعت ريعان الشباب الغُرَاق

إننا لا نستطيع أن نحكم على البارودي وشعره ينطق بوطنيته ، بأنه  
منافق خداع ؛ إنه كان يحب وطنه ، وفي سبيله شرد ونفي .

ومن عجائب ما لاقيت من زمني أني 'منيت' بخطب أمره عجب  
لم أقترف زلّة تقضي عليّ بما أصبحت فيه ، فماذا الويل والحرب ؟  
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظمأ واغترب ؟ !  
لقد كان يحب مصر حباً ملك عليه شغاف قلبه ، وهو القائل فيها :

بلد نشأت مع النبات بأرضها ولثمتُ تغر غديره المتبسم  
فنسيمها روحي ومعدن تربها جسمي وكوثر نيلها مَحْبِيَا دمي  
فإذا نطقتُ فبالثناء على الذي أولته من فضل عليّ وأنعم  
هي جنة الحسن التي زهراتها حورُ المها، وهزارُ أَيْكْتها في  
ما إن خلعتُ بها سيور تلامي حتى لبستُ بها حائل مَخْذَمِي

إن هذه النغمة الوطنية جديدة - كما ذكرنا - في الشعر العربي ، وحسب  
البارودي فخراً أنه من أوائل من تغنى بأعجاد وطنه في العصر الحديث

ولقد كاد يقضي أسي وهو يفادر مصر إلى منفاه ، وزفر زفرة ملتبهة  
ينفس بها عن جواه :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت مدامعنا فوق الترائب كالمُزن  
أهبت بصري أن يعود فبزني وناديت حلمي أن يثوب فلم يُغن  
فكم مهجة من زفرة الشوق في لظي وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن  
وما كنت جربت النوى قبل هذه فلما دهنتي كدت أقضي من الحزن

ولكنه سرعان ما يثوب إلى رشده ، ويكفكف من دمه ، ويجلد  
أمام خصومه ويظهر سمات الرضا ، وأنه يؤثر أن يبرح ارضاً يُغشّيها  
الظلم ، وتصلك أنات الجور مسمعيه ، ويؤدي رؤية وجه القدر ناظره :

فيا قلب صبراً إن جزعت فربما جرت سُحُحاً طير الحوادث باليمن  
فقد تورق الأغصان بعد ذبولها ويبدو ضياء البدر في ظلمة الوهن  
وكيف مقامي بين أرض أرى بها من الظلم ما أخفى على الدار والسكن<sup>(١)</sup>  
فسمع أنين الجور قد شاك مسمعي ورؤية وجه العدر حل "عري جفني

ولقد زاده النفي حباً في وطنه وتعلقاً به ، وترديداً لمحاسنه ، فهو يتمثله  
على البعد جنة دانية القطوف عبقة الشذى ، فمن ذلك قوله وهو بالمنفى  
يتشوق إلى أيام لهوه التي حرمها ، وإلى الأرض الطيبة التي أبعد عنها ،  
ويصف جزيرة سرنديب وصفاً جميلاً ، وفيه تصوير دقيق ، يدل على  
حسن مرهف ، وذوق فنان عبقري .

---

(١) السكّن : السكان .

لَبَّيْكَ يَا دَاعِيَ الْأَشْوَاقِ مِنْ دَاعِي      أَسَمَعْتَ قَلْبِي وَإِنْ أَخْطَأْتَ أَسْمَاعِي  
مُرْنِي بِمَا شِئْتَ أَبْلُغْ كُلَّ مَا وَصَلْتَ      يَدِي إِلَيْهِ فَلْيَنِي سَامِعٌ وَاعِي  
إِنِّي أَمْرُو لَا يَرُدُّ السَّعْدُ بَادِرْتِي      وَلَا تَقُلْ شَبَابُ الْخَطْبِ إِزْمَاعِي<sup>(١)</sup>  
أَجْرِي عَلَى شِيمَةٍ فِي الْحُبِّ صَادَقَةٌ      لَيْسَتْ تَهْمٌ إِذَا رِيَعَتْ بِإِقْلَاعِ<sup>(٢)</sup>  
لِلْحُبِّ مِنْ مُهْجَتِي كَهْفٌ يَلُودُ بِهِ      مِنْ عَذْرِ كُلِّ أَمْرٍ بِالْشَّرِّ وَقَاعٌ  
يَا حَبْذَا جَرَّعَةً مِنْ مَاءٍ مَحْنِيئَةٍ      وَضَجَّةً فَوْقَ بَرْدِ الرَّمْلِ بِالْقَاعِ  
وَنَسْمَةٍ كَشَمِيمِ الْخَلْدِ قَدْ حَمَلَتْ      رِيًّا الْأَزَاهِيرَ مِنْ مِثْرِ وَأَجْرَاعِ<sup>(٣)</sup>  
يَا هَلْ أَرَانِي بِذَاكَ الْحَيِّ مَجْتَمِعًا      بِأَهْلِ وَدِيِّ مَنْ قَوْمِي وَأَشْيَاعِي  
وَهَلْ أَسُوقُ جَوَادِي لِلطَّرَادِ إِلَى      صَيْدِ الْجَاذِرِ فِي خَضِرَاءِ مِمْرَاعِ  
مَنَازِلُ كُنْتُ مِنْهَا فِي بُلَهْنِيَّةٍ      مِمْتَعًا بَيْنَ غُلْمَانِي وَأَتْبَاعِي  
فَالْيَوْمُ أَصْبَحْتُ لَا سَهْمِي بِذِي صَرَدٍ      إِذَا رَمَيْتُ ، وَلَا سَيْفِي بِقِطَاعِ<sup>(٤)</sup>  
أُبَيْتُ فِي قُنُوتٍ قَنُوتَاءُ قَدْ بَلَغَتْ      هَامَ السَّمَاءِ وَفَاتَتْهُ بِأَبْوَاعِ<sup>(٥)</sup>  
يَسْتَقْبِلُ الْمَزْنَ لِيَلْتَنِيهَا بَوَابِلُهُ      وَتَصْدُمُ الرِّيحَ جَنْبَيْهَا بِزَعْرَاعِ<sup>(٦)</sup>

(٢) البادرة : ما ييدر من الإنسان عند حدة غضبه . والمراد بالبادرة هنا شدة العزم وقوة الإرادة ، والإزماع : العزم .

(٢) ريعت : أخفت والإقلاع : الترك والكف .

(٣) الميث : ح . ميثاء وهي الأرض السهلة اللينة من غير رمل ، والأجراع . جمع جرع (كجبل) وهو الأرض الرملية السهلة .

(٤) صرد : مصدر صرد السهم أي أصاب ونفذ .

(٥) قنواء : عالية مرتفعة ، الأبواع : جمع باع .

(٦) اللبتان : صفحتا العنق مثني . زعراع : شديدة تزعزع الأشياء .

يظل شمراخها يَبْسًا وأسفلها ، 'مكلّلا بالندى يرعى به الراعي  
إذا البروق أزمهرت خلت ذروتها شهما تدرّع من تبسّر بأذراع  
تكاد تلمس منها الشمس دانيةً وتحبسُ البدرَ عن سيره وإقلاع  
أُظْلُ فيها غريب الدار مبتئسا نابي المضاجع من همهم وأوجاع  
لا في ( سرنديب ) خلّ أستعين به على الهموم إذا هاجت ولا راعي  
يظنني من يراني ضاحكا جذلا أني خليّ وهي بين أضلاعي  
ولا وربك ما وجدى بمندرس على البعاد ولا صبري بمطواع  
لكني مالك حزمي ، ومنتظرُ أمرأ من الله يشفي برّح أوجاعي  
أكف غرب دموعي وهي جارية خوف الرقيب وقلبي جد ملّتا  
فإن يكن ساءني دهرى ، وغادرنى رهن الأمل بين جذب بعد إمراع  
فإن في مصر إخوانا يصرم قربي ، ويمجبههم نظمي وإبداعى

ويقول من قصيدة أخرى وهو في المنفى يتشوق إلى مصر :

يا ( روضة النيل ) لا مَسْتَنَكِ بائقة ولا عدتك سماء ذات أغداق (١)  
ولا برّحت من الأوراق في حلال من سُندس عبقرى الوشي برّاق  
يا حبذا نسّم من جوها عبقّ يسري على جدول بالماء دفاق  
بل حبذا دَوْحَة تدعو الهديل بها عند الصباح قماري بأطواق  
مرعى جيادي ، وماوى جيرتي ، وحمى قومي ، ومنبئت أدابي وأعراقى

(١) البائقة : الداهية ، لا عدتك : لا تجاوزتك والمراد بالسحاب والأمطار .

أصبو إليها على بعد ، ويعجبني أني أعيشُ بها في ثوب إملأ

( ح ) التسيب :

وقد مر بنا أن البارودي قد قلد القدماء في الوقوف على الأطلال والذمن ، وفي الأوصاف الموروثة ، وفي الوصف المادي للمرأة والنظرة إليها نظرة السلمة ولكنه مع هذا قد تحلل أحياناً من كل تلك القوالب القديمة ، وترفع في نظرده إلى المرأة ، فحسبه منها نظرة :

إني لأقنع من هواك بنظرة وأعدّها صلّة إذا لم تمنّي  
هذي مناي وحبذا لو نلتها عن طيب نفس فهي أكبر مقنع<sup>(١)</sup>

وهو يتمدح بعفته في حبه ويبين مذهبه في الوداد بقوله :

أني امرؤ ملك الوداد قيادتي وجرى على صدق المهود وفائي  
لا أستريح إلى السلو ، ولو جنى خلّتي عليّ ، ولا أشين ولائي  
لا ذمتي رهن الفكاك ولا يدي تلقى أزمة عفتي وحياتي

(١) المعنى قديم طرده من قبل جميل في قوله :

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لغرت بلائله  
بلا ، وبألا أستطيع وبألتى وبالأمل المرجو قد خاب آمله  
وبالنظرة المجمل وبالعالم ينقضي أواخره لا نلتقي وأوائله

ولكن البارودي كان في عصر مادي لا يظن إلى هذا ، وقد سبقه آلاف الشعراء منذ جميل لم يقنعوا قناعته ،

ويقول :

على أني لم آت في الحب زلة      تغض بذكري في المحافل أو تزري  
ولكنني طوفت في عالم الصبا      وعدت ولم تعلق بفاضحة أزري  
ويقول :

والعشق مكرمة إذا عف الفقى      عما يهيم به الغوى الأصور<sup>(١)</sup>  
يقوى به قلب الجبان ويرعوي      طمع الحريص ، ويخضع المتكبر  
وقد فطن أحيانا إلى أن المرأة بها من أنواع الجمال غير هذه السمات  
المادية فقال :

فتاة يحار الطرف في قسماتها      لها منظر من رائد العين لا يخلو  
لطيفة مجرى الروح لو أنها مشت      على ساريات الذر ما آداه الحمل  
وله في الغزل معان مبتكرة من مثل قوله :

تركنتي من غمرات الهوى      في لحج<sup>٢</sup> بحر بالردى زاخر  
أسمع في قلبي ديبب المنى      وألح الشبهة في خاطري

وقد وفق البارودي في البيت الثاني أيما توفيق ، على أن معظم نسيب  
البارودي بالشعر القديم ، وقد وفيناه نعماً فيما سبق :

#### (٥) الهجاء :

والهجاء نوعان : شخصي وهو ما درج عليه معظم شعراء العربية ،

---

(١) الأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد ، من الصور وهو الميل .



واجتماعي ، ويراد به ذلك الهجاء التهكمي الذي يقصد إلى تجسيم عيب من عيوب المجتمع وتصويره في أبشع صورة رغبة في الإصلاح ، وقد يتمثل هذا العيب الاجتماعي في شخص من الأشخاص فيهجوه الشاعر ويُبرز ذلك العيب فيه بشكل يسترعي انتباه القارئ أو السامع ، وليس الشخص مقصوداً لذاته في مثل هذا النوع من الهجاء ، وإنما المقصود هو هذه السوء الاجتماعية . ولن يبلغ الشاعر مرتبة الشعراء العالميين في الهجاء ما لم يصل بهجوه إلى هذا النوع الاجتماعي ، وقد لجأ شعراء الغرب إلى التمثيل بصورون فيه هذه المثالب الإنسانية العامة ، ويحسمون العيوب تجسيمياً يحمل الشعب على الاشتزاز منها والبعد عنها كما فعل شكسبير في رواياته الكثيرة وكما فعل مولير في هزلياته .

وقد وُجد في شعر البارودي نوعا الهجاء : الشخصي والاجتماعي ، وأكثر من النوع الاجتماعي على غير عادة شعراء العربية فهو يشكو الناس ونفاقهم وظلمهم وغدرهم ، ويصور قومه ويعدد عيوبهم ، ويحرضهم على إصلاح تلك العيوب ، وقد مرت بنا نماذج من النوعين . فقصيدته التي يدعو فيها لنفسه ويعدد محاسنه ، وينمي على مواطنيه صفاتهم وخمولهم والتي يقول فيها :

بئس العشير وبئست مصر من بلد أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل  
أرض تأثّل فيها الظلم وانقذفت صواعق الغدر بين السهل والجبل

من نوع الهجاء الاجتماعي . والمقطوعة التي يذم فيها النسيم الجشع من الهجاء الشخصي وإن لم يُظهر فيها أمراً شخصياً أو عداوة خاصة حفزته على هجائه وإنما ذمه بعيب عام وهو الجشع والنهم .

ومن النوع الاجتماعي قوله يذم زمانه وينمي على معاصريه تلونهم وعدم وفائهم في صداقتهم ، ولا سيما وقد خذلوه وآذوه :

أنا في زمان غادر ومعاشر يتلوّنون تلون الحرباء  
أعداء غيب ليس يسلم صاحب منهم وإخوة محضر ورخاء  
أقبح بهم قوماً بَلَوْتُ إخوانهم فبلوت أقبح ذمة وإخوان  
قد أصبحوا للدهر سبّة نائم في كل مصدر محنة وبلاء  
وأشد ما يلقي الفتى في دهره فقد الكرام وصحبة اللؤماء  
شقي ابن آدم في الزمان بعقله إن الفضيلة آفة العقلاء

فهو هنا لا يذم شخصاً بعينه لعداوة خاصة بينه وبينه ، وإنما يذم عيباً اجتماعياً متفشياً ، ولو تناول هذا الميب شاعر غربي لأظهر لنا شخصية المنافق في مسرحية شائقة ولأوسعه سخرية وتهكاً . ولكن البارودي أوجز في وصفه على عادة العرب ؛ على أن له قطعاً تصويرية جميلة في هذا النوع الاجتماعي ، اسمعه مثلاً يصور جارة تكثر من الصخب والضوضاء ، ولها أولاد يتشاجرون كثيراً ، ويملأون الجو صراخاً وعويل ، لا تراعي هذه الجارة حرمة الجيران ، ولا تمأ براحة سواها . ومن العجيب أن هذا الميب لا يزال منتشرراً في كثير من بلدان الشرق بدعوى الحرية الكاذبة ، فترى الجار يقلق راحة جاره بشق الوسائل . فتارة بالمذياع ؛ وأخرى بمكبر الصوت أو بالمشجرة مع أهله وأولاده .. إلى آخر ما هنالك من أنواع المضايقات . والبارودي أديب ومفكر ، وقد ابتلاه الله بحجارة مقلقة للراحة تبدد ضوضاؤها وجلبتها أفكاره وخيالاته فلا بدع إذا سخط عليها وبرم بها :

إلى الله أشكو طول ليلي وجارة تبيت إلى وقت الصباح بإعوال  
لها صبية لا بارك الله فيهم قَبَاحُ النواصي لا يَنُمن على حال

صوارخ لا يهدأن إلا مع الضحى      من الشر في بيت من الخير محال  
تري بينهم - يا فرق الله بينهم -      لهيبُ صياح يصعد الفلك العالي  
كانهم مما تنازعن أكلب      طرقت على حين المساء برئبال  
فهجن جميعاً هيجة فزعت لها      كلاب القرى ما بين سهل وأجبال  
فلم يبق من كلب عقور وكلبة      من الحي إلا جاء بالعم والحال  
وفزعت الأنعام والحيل فانبثرت      تجاوب بعضاً في رغاء وتصهل  
فقامت رجال الحي تحسب أنها      أصيبت بجيش ذي غوارب ذئبال  
فمن حامل رمحاً ومن قابض عصاً      ومن فزع يتلو الكتاب بإهلال  
ومن صبية ريعت لذاك ونسوة      هوائهم دون الباب يهتفن بالوالي  
فيارب هب لي من لدنك قصيراً      على ما أقاسيه وخذهم بزلزال

ومن هجائه الشخصي الذي ينهش فيه المرض، ويدم الشخص بصفات خاصة فيه حتى تؤذيه قوله ، وهو من أخف أهاجيه :

هجوته لا بالفا لؤمه      لكنني كفكت من غربه  
فإن أكن قد نلت من عرضه      فإنني دنست شعري به  
فلا يلومن سوى نفسه      من سلط الناس على ثلثه

وقوله :

وقد تكون من لؤم ومن دنس      فما يفار على عرضه ولا حسب  
يلتذ بالطن فيه والهجاء كما      يلتذ بالحك والتظهير ذو الجرب

ولقد كان مولعاً بهجاء رياض ( باشا ) ؛ إذ كان يرى فيه معولاً هداماً  
للحركة الوطنية ، وعدواً للشعب ، ونصيراً للاستبداد والظلم ، ولم يغفر له  
البارودي وشأيته به لدى توفيق حين رأى ميوله الشعبية فأخرجته من  
الوزارة ولم يعد إليها إلا بعد أن ترضاه توفيق . ومن أهاجيه المقذعة في رياض  
قوله :

إن 'ملكاً فيه رياض وزير      لمباحٌ للخائنين وبل' (١)  
أهوجٌ أحق شتم لثيم      أغتم أبله زنيم 'عتل'  
صغرُت رأسه وأفرط في الطو      ل شواه وعنقه فهو صعل  
أبرزت قدرة الطبيعة فيه      شكل لؤم إن كان للؤم شكل  
كن كما شئت يا رياض وما شا      مت رجال فانت للؤم أهل  
ليس تغني الألقاب عن كرم الأصل فمجد الفق عفاف وعقل  
أنت من عنصر لو أتكا الذر م      عليه لآده منه حنل  
نازعتك اليهود واختلفت في      لك النصارى فانت لا شك بفل' (٢)

وقد هجاء البارودي بقصيدة أخرى مطلعها :

مالي بودّي بعد اليوم إمام      فاذهب فانت لثيم العهد غام

(١) بل : مباح ، يقال حل وبل ،

(٢) هناك من يدعي أن رياضاً من أصل يهودي راجع كتاب الثورة العربية للرافعي  
ص ٣٧ ، ٣٨ ، وراجع كذلك Young : Egypt, P. 104

على أن البارودي لم يكن هجاء، وأهاجيه الشخصية قليلة إذا قيست بشعره كله . ولكن سخطه على الناس وتبرمه بأخلاقهم وعبوبهم كثير نوعاً ما ، وهو يدل على النزعة الإصلاحية عنده ويدل على أنه قد أُوذِيَ ، ولقي من قومه محناً كثيرة ، وأنه كان يضيق بأخلاقهم درعاً . فهذا الهجاء الاجتماعي جديد في شعر البارودي . إنه صور به عصره وناسه تصويراً ملوناً بشعوره الخاص . وحسبنا من الشاعر أن يصور ما يختلج في صدره من عواطف وأحاسيس وأن ينقل إلينا مشاعره الخاصة ، لا أن يستتر وراء سُدُفٍ كثيفة مصطنعة من المجاملات والنفاق الاجتماعي ، والمدح الكاذب .

حفَلَ القرن التاسع عشر بكثير من المخترعات الحديثة التي ذلت الطبيعة وأرضختها لخدمة الإنسان وجعلت أمور الحياة هينة أمامه . وقد أخذت مصر بنصيب من هذه المخترعات فانتشر فيها مثلاً استخدام الكهرباء وآلة التصوير ، وعرفت في أواخر أيام البارودي الطائرات . وما شاك ذلك . وكان البارودي حريصاً على أن يستمد تشبيهاته من هذه المخترعات الحديثة رغبة في الطرافة ، وتمثيل عصره ، فيقول مثلاً :

تعرض لي يوماً فصورت حسنه ببلورتي عيَني في صفحة القلب

ويقول :

فالمقل كالمنظار يبصر ما نأى عنه بعيداً دون لمس باليد

ويقول :

فسرت يجسمي كهرباء حسنه فمن المروق به سلوكك تخبر

ويقول :

شفت زجاجة فكري فارتسمت بها عليك من منطقي في لوح تصوير<sup>(١)</sup>

ويقول :

جسم برته يد الضى حق غدا قفصا به للقلب طير يصفر  
لولا التنفس لاعتلت بي زفرة فيخالني طيارة من يبصر

وقد يبدو على بعض هذه الأبيات شيء من التكلف، ولكن البارودي ما كان  
ليستطيع أن يبتعد عن استخدام هذه المخترعات في شعره، وهو الولوع بالتجديد  
في الشعر، الحريص على أن يمثل زمانه تمام التمثيل .

#### ( ٥ ) نظرة عامة :

رأيت مما سبق أن البارودي حاول أن يحدد في الشعر العربي من حيث  
الموضوعات التي تناولها، ولا سيما في الوصف، وفي الشعر السياسي؛  
ورأيت أن الوصف قد تناول نواحي عدة : من وصف للطبيعة، والأشخاص،  
ومبادين القتال، والأشياء، وأن وصف البارودي كان في الغالب وصفاً  
حسياً يقف عند التصوير المشوب بشيء من العاطفة دون أن يتعمق فيه،  
ويحلل ويوازن ويتخيل، وأن موصوفاته كانت كذلك من المشاهدات  
غالباً، ولم يحاول وصف الأمور المعنوية والنفسية إلا قليلاً؛ ومع ذلك  
فالبارودي بإفراده قصائد خاصة بالوصف وبمحاكاة الطبيعة في شعره،  
وإتيانه بالأدب الواقعي المجرد عن العواطف والأخيلة إلا بالقليل، قد فتح  
فتحاً عظيماً في الشعر العربي ونفض عنه غبار السنين الطويلة، وعرض

---

(١) ارتسمت : يريد رسمت غير موجودة للمعجم .

القديم عرضاً جديداً جذاباً ، ومهد الطريق لمن أتى بعده من الشعراء . ناهيك بأسلوبه الفخم الجزل ، وبعده عن الزخارف والحلى التي تطفئ على المعنى وتذهب ببهاء الشعر ، وتدعو إلى التكلف والتعسف .

ومن أهم مزايا البارودي أنه كان بعيداً عن التكلف ، بل كان ينطلق على سجيته ، ويظهر كل ما في نفسه ، ويصور مشاعره السارة والحزينة دون إخفاء أي شيء منها ؛ وقد يغلبه التقليد للقديم أحياناً فيخالف طبيعته ، ويسير على غير سجيته ، ويتكلف القول محاكاةً القدماء ، وتلمس أثر هذا التكلف واضحاً ليس عليه طابع البارودي ولا شخصيته ، وقد مر بنا عند الكلام على القديم في شعره نماذج من هذا الطراز .

وهناك أغراض تقليدية قال فيها الشعراء منذ عصر امرئ القيس ، وقال فيها البارودي كذلك مثل : الرثاء والمدح والحكمة وما شاكل هذا . ولا نستطيع أن نختتم الكلام على البارودي قبل أن نرى موقفه من هذه الأغراض .

## الرثاء

ولم يرث البارودي إلا صديقاً أو قريباً ، فلم يكن رثاؤه مفتعلاً أو من شعر المناسبات وإنما كان منبعثاً عن عاطفة صادقة ، وقد تمثل في رثائه كل ما يخطر ببال الرائي ، من تفجع وشكوى من الزمن والحياة وسخط عليها وإظهار المحاسن المرثي ، وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر أو يعظ بها غيره ، ويقدم العزاء أحياناً لأهل الميت . وإن لم يحاول الوقوف على سر الحياة الأخرى ، وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقي . وقد يأتي البارودي ببعض المعاني القديمة في قصائد الرثاء كأن يدعو الله

أن ينزل الغيث على جدث الميت وما شابه هذا من الصيغ التقليدية المعروفة . وهو يظهر الجزع والحزن الشديد دون مبالغة جارفة في النعوت التي يضيفها على الميت . وجزعه وحزنه يدلان على عاطفة مشبوبة وقلب وفي ، ولا سيما وقد قال معظم مراثيه وهو في المنفى فزاد في أساء لوعة النوى عن الوطن ، وحرمانه التزود من الميت بنظرة أو حديث ، ودعاه هذا إلى توجيه الخطاب للشامتين به في نكبته ومحنته وأن يظهر لهم التجلّد في أخريات قصائده وأنه لا زال صلب العود ولا سيما إذا كان الميت من ذري قرابته .

ومن أحسن مراثيه قوله في ولده علي :

كيف طوتك المنون يا ولدي ؟ وكيف أودعتك الثرى بيدي  
واكبدي ، يا علي ! بعدك لو كانت تبل الغليل واكبدي !!  
فقدك سل العظام مني ورم د الصبر عني وفث في عضدي  
كم ليلة فيك لا صباح لها سهرتها باكيأ بلا مدد  
دمع وسهد ، وأي ناظرة تبقى على المدمعين والسهد ؟!  
لهفي على لحة النجاة لو دامت إلى أن تفوز بالسدد  
ما كنت أدري ، إذ كنت أخشى عليك العين أن الحمام بالرصد  
فاجأني الدهر فيك من حيث لا أعلم ختلا والدهر كالأسد  
لولا اتقاء الحياة لاعتضت بالاحلم هياماً يحيق بالجلد  
لكن أبت نفسي الكريمة أن أنلم حد العزاء بالكمد



فليبك قلبي عليك ، فالعين لا تبلغ بالدمع رتبة الخلد (١)  
إن يك أخى الردى عليك ، فقد أخى أليم الضنى على جسدي  
عليك مني السلام توديع لا قال ، ولكن توديع مضطهد

ومن رثائه الذي ينمّ عن عاطفة صادقة ، ويظهر فيه الأسى واللوعة ، وعظيم  
التفجع من غير موارد أو تحفظ رثاؤه لزوجته ، وقد ورد إليه نعيها بسرنديب ،  
وعلى الرغم من أن رثاء الشعراء لزوجاتهم قليل في الأدب العربي ، فإن قصيدة  
البارودي هذه تعد من عيون قصائد الرثاء ، وهي تدل على الوفاء والمحبة وعلى  
فرط حساسيته ويقول في مطلعها :

أَيَّدَ الْمَنُونِ قَدَحَتْ أَيَّ زَنَادِرٍ وَأَطْرَتْ أَيْةَ شَعْلَةٍ بِفَوَّادِي  
ومنها :

لا لوعي تدعُ الفؤاد ولا يدي تقوى على ردّ الحبيب الغادي  
يا دهرُ فيمَ فجعتني بحليلة كانت خلاصة عُديّ وعَتادي؟  
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها أفلا رحمتَ من الأسى أولادي  
أفردتهنّ فلم يَنَمَنَّ توجعاً قرّحى العيون رواجف الأكباد  
يبكين من ولاء فراق حفيّة كانت لهن كثيرة الإسعاد  
فخدودهن من الدموع نَدِيّةٌ وقلوبهن من الهموم صوادي  
أسلية القمرين ! أي فجيعة حلت لفقدك بين هذا الناصي

---

(١) الخلد : القلب ، أي أن العين مها بكت لا يصل حزنها إلى منزلة حزن القلب .

أعزز عليّ بأن أراك رهينةً في جوف أنغر قاتم الأسداد  
أو أن تبيني عن قرارة منزل كنت الضياء له بكل سواد  
لو كان هذا الدهر يقبل فدية بالنفس عنك لكنت أول فادي

ثم يذكر وفاء لها ، ولعله بذلك يسوغ رثاء لها على الرغم من شهرته بالجلد  
والشجاعة ، ولأنه لم تجر العادة بأن يرثي الشعراء زوجاتهم إلا في النادر ؛ ولعل  
ظرف البارودي ، وبعمده في المنفى عن أهله وأولاده ، ورعاية هذه الزوجة  
لهؤلاء الأولاد هو الذي حزن في نفسه ، وتذكر أيامه الطيبة السعيدة في عش  
الزوجة بوطنه الحبيب ، كما أنه كان يتخيل أن كل كارثة تحمل بهم تشمت به  
الأعداء فيزيد ذلك من لوعته ؟ قال :

جَزَعُ الفتي سَمَةَ الوفاء ، وصبرُهُ غَدْرُ يَدُلُّ به على الأحقاد  
ومن البلية أن يُسام أخو الأسى رَنَمِيّ التجلُّدِ وهو غير جماد

وإذا عددت مراثيه وجدته رثى أصدقاءه الأدباء الذين كانت بينهم  
وبينه آصرة محبة ووداد ، وتقدير وتقام ، مثل أحمد فارس الشدياق ،  
وعبدالله فكري ، وحسين المرصفي ووجدته رثى أولاده ، وزوجه ،  
ورثى والده وإن كان قد توفي وهو صبي كما عرفنا ، ولذلك جاء  
رثاؤه لوالده خالياً من العاطفة فيه كثير من الفخر ، ليس فيه تفجع  
الحزين ، ولا حسرات الفراق ، وبه كثير من المبالغات غير المقبولة ، وفيه  
يقول :

لا فارسَ اليوم يحمي السرح بالوادي طاح الردى بشهاب الحرب والنادي  
مات الذي ترهب الأقران صولته ويتقي بأسه الضرغامه العادي

جف الندى، وانقضى عمر الجدى وسرى حكم الردى بين أرواح وأجساد

### المدح :

واقصر في مدحه على ولاية مصر : اسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ،  
وهو في مدحه لا ينسى مصر وموقف الوالي منها ، وما قدم لها أو ما  
يرجى على يديه من خيرات لمواطنيه ، فيمدح توفيقاً لعزمه على الأخذ بالشورى  
والعدل .

وبستطرد إلى مدح النظام الشوري وأنه من تعاليم الإسلام ، والأمة التي  
لا تأخذ به مصيرها إلى الانهيار ، والملك الذي لا يتبعه ملك غير عادل ،  
وملكه سرعان ما يدب إليه الضعف . وهو في مدحه لعباس يذكر عدله  
وأريحيته ، وما يرجى على يديه من نفع ، وقد مدح عباساً لأنه عفى عنه  
وأعادته إلى وطنه ، فكان لزاماً عليه حين يمدحه أن يذكر له هذه اليد  
الكريمة . أما اسماعيل فقد مدحه حين 'ولي' على أريكة مصر ، وقدم  
نفسه لإسماعيل وأطراها ، وأظهر استعداداه لخدمته وخدمة وطنه . هذا  
ولم يغفل أن يثني على كل ممدوحيه وينعتهم بكرم الأصل وحب الخير والعدل  
وأَنهم ذوو هيبة وشماثل كريمة .. الخ هذه الصفات المعروفة والمعاني المطروقة ،  
وقد مرت بنا بعض أبيات من مدحه لتوفيق وعباس ، وهاك بعض ما قاله في  
اسماعيل حين ولي أريكة مصر :

طرب الفؤاد وكان غير طروب والمرء رهن بشاشة وقطوب  
ورد البشير، فقلت من سَرَفِ المني أَعِدِ الحديث عليّ فهو حسيبي  
خَبِرْ جلا صداً القلوب فلم يدع فيها مجال تحفز لوجيب  
قَلْتِهِنَّ مصرُ وأهلُها بسلامة جاءت لها بالأمن بعد خطوب

بالمجد المنسوب ، بل بالأروع الـ  
ربّ العلا والمجد ( اسماعيل ) من  
ورد البلاد ولبثها متراكب  
بروية تجلو الصواب وعزيمة  
مشبوب ، بل بالأبلغ المعسوب<sup>(١)</sup>  
وضحت به الأيام بعد شحوب  
فأضاءها كالكوكب المشبوب  
تمضي مضاء اللهزم المذروب<sup>(٢)</sup>  
ويقول فيها :

وأعاد مصر إلى جمال شبابها  
فتنعمت من فيضه في غبطة  
من بعد ما لبست خمار مشيب  
ومتعت من عدله بنصيب  
ويقدم نفسه لاسماعيل بقوله :

فاسمع مقالة صادق لم ينتسب  
أرليتّه خيراً ، فقام بشكره  
لسواك في أدب ولا تهذيب  
والشكر للإحسان خير ضريب  
فاعطف عليه تجد سليل كرامة  
أهلاً لحسن الأهل والترهيب  
بنبيك ظاهره بود ضميره  
والوجه وسمة مخلص ومريب  
وإليك من حوك اللسان حبرة  
يفنيك رونقها عن التشيب  
حضرية الأنساب إلا أنها  
بدوية في الطبع والتركيب

---

(١) المنسوب ذو النسب ، والأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشاعته ،  
والمشبوب : الحسن الوجه . والبلجة ( بضم فسكون ) : الضوء ، ونقاوة ما بين الحاجبين ،  
ويقال للرجل الطاق الوجه أبلغ ، والمعسوب : الترج .

(٢) المذروب : المحدد المسنون .

ولم يكن البارودي شاعراً مداحاً متكسباً بشعره كما درج على هذه العادة  
معظم الشعراء في الأدب العربي ، ولكنه كان أميراً فارساً عفيفاً يقول الشعر  
للتعبير عن خلجات فؤاده وقد قال :

الشعر زين المرء ما لم يكن      وسيلة للمدح والذام

وهو إذا مدح لم يقصد بمدحه العطاء ، وإنما للتعريف بمنزلته ، أو الشكر على  
يد أسديت إليه ، أو حث على مكرمة . ومدحهم خال من المبالغات المذمومة  
والنعوت الموهومة وهذا طبيعي ما دام لم يقصد بمدحه صلة أو عطية ؛ لأن  
الشعراء إنما لجأوا إلى هذه المبالغات ظناً منهم أنها تزيد في عطائهم ، وأن نفس  
المدح تسر لها فيغدق عليهم جزيل الهبات .

**فخره :**

وقد افتخر البارودي كما عرفت بنسبه وحسبه ، وافتخر كذلك بشجاعته  
وفروسيته . وقد أكثر من القول في هذا المعنى وله فيه مبالغات سخيفة ؛ فمن ذلك  
قوله يفتخر ببأسه ونجدته وأنه ملك أزمة الفصاحة والبيان ، وأن الزمان لو  
تقدم به لبذ الشعراء الفحول ولسطر اسمه على جبين التاريخ بالفخر إلى آخر هذه  
المعاني المعروفة من مثل قوله :

|                               |                           |
|-------------------------------|---------------------------|
| ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمة   | ترد لهام الجيش وهو يمور   |
| إذا سرت فالأرض التي نحن فوقها | مراد لمهري والمعاقل دور   |
| فلا عجب إن لم يصبرني منزل     | فليس لعقبان الهواء وكور   |
| وأصبحت محسود الجلال كأنني     | على كل نفس في الزمان أمير |

إذا صُلِّتْ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ غُلَّوَانِهِ      وإن قلتَ غَصَّتْ بِالْقُلُوبِ صُدُورُ

ملكْتَ مَقَالِيدَ الْكَلَامِ وَحِكْمَةً      لها كَوَكَبُ فَخْمِ الضِّيَاءِ مِنْيرُ

فلو كنتَ في عَصْرِ الْكَلَامِ الَّذِي انْقَضَى

لباءَ بِفَضْلِي ( جِرْوَل ) و ( جَرِير )

ولو كنتَ أدركتَ النُّوَاسِيَّ لم يقل      « أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكَ غَيُورُ »

وما ضَرَنِي أَنِّي تَأَخَّرْتُ عَنْهُمْ      وَفَضْلِي بَيْنَ الْعَالَمِينَ شَهِيرُ

فيا ربِّمَّا أَخْلَى مِنْ السَّبْقِ أَوَّلُ      وَبَدَأَ الْجِيَادِ السَّابِقَاتِ أَخِيرُ

ويسود هذا النوع من الفخر شعر البارودي ، ويبين فيه أنه محسود المكانة ،  
وأنه فريد عصره وواحد دهره كما يقول :

فإن أكن عشت فرداً بين آصرتي      فهأنا اليوم فرد بين أندادي

بلغت من فضل ربي ما غنيت به      عن كل قار من الأملاك أو باد

فما مددت يدي إلا لمنح يد      ولا سعت قدمي إلا لإسعاد

### الزهد :

ولعل قوله في الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التي غلبه فيها اليأس على أمره وهو وحيد شريد يعاني غصص الفراق والنفي . وإلا فهذه النفس الطموح التي خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت ونعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد في الحياة ، ولعلها لم تزهد إلا مرغمة . وعلى كل ، فما قاله في الزهد قليل مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه فيتشاءم من الدنيا ويتذكر الموت ، والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ، ويذكره

بمن مانوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ، ذهبوا وذهبت دنياهم  
الحافلة بالذات ، وعمرت منهم القبور ، ولم يزد عنهم الموت ما لهم ولا جاههم  
إلى آخر هذه المعاني التي استنفدها من قبل أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس  
وأضراهم من مثل قوله :

|                      |                    |
|----------------------|--------------------|
| كل حي سيموت          | ليس في الدنيا ثبوت |
| حركات سوف تغفى       | ثم يتلوها خفوت     |
| وكلام ليس يحلو       | بعدد إلا السكوت    |
| أيها السادر قل لي    | أين ذاك الجبروت ؟  |
| كنت مطبوعاً على النط | ق فما هذا الصموت ؟ |
| ليت شعري أعمود       | ما أراه أم قنوت ؟  |
| أين أملاك لهم في     | كل أفق ملكوت ؟!    |
| زالت التيجان عنهم    | وخلت تلك التخوت    |

ومما يتصل بهذا الموضوع مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مدحه  
بقصيدة طويلة يتوسل فيها بجأه ويطلب شفاعته ، ويرجو الرحمة والمغفرة من الله  
بسببه ويقول :

|                               |                             |
|-------------------------------|-----------------------------|
| هو النبي الذي لولا هدايته     | لكان أعلم من في الأرض كالهج |
| أنا الذي بت من وجدي بروضته    | أحن شوقاً كطير البانة الهج  |
| هاجت بذكره نفسي فاكتست وكلها  | وأبي صب بذكر الشوق لم يهج   |
| يا رب بالمصطفى هب لي وإن عظمت | جرائمي - رحمة تغني عن الحجج |

ولا تكلني إلى نفسي فإن يدي مغلوله ، وصباحي غير منبلج  
مالي سواك وأنت المستعان إذا ضاق الزحام غداة الموقف الحرج

الحكمة :

وقد أكثر البارودي من قول الحكم ، ومعظمها حكم غير مبتكرة  
وقع عليها السابقون وصاغها البارودي صياغة جديدة بأسلوبه الجزل  
الفخم ، وقد وردت له كثير من الأبيات السائرة التي صارت كأنها أمثال  
كقوله :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محب

وقوله :

وقليلاً ما يصلح المرء للجيد إذا كان ساقط الأجداد

وقوله :

لعمرك ما في الدهر أطيب لذة من اللهو في ظل الشبيبة واليسر

وقوله :

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته فما لصروف الدهر يوسمها سباً

ومن أبيات الحكمة التي اشتهر بها قوله :

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الورى 'لسع'



لو كان للمرء فكر في عواقبه      ما شان أخلاقه حرص ولا طبع<sup>(١)</sup>  
وكيف يدرك ما في الغيب من حدث      من لم يزل بفرور العيش ينخدع  
دهرٌ يفر ، وآمال تسرُّ وأء      مارٌ تمرُّ ، وأيام لها 'خدع'  
يسمى الفقى لأمر قد تضر به      وليس يعلم ما يأتي وما يدع  
يآها السادرُ المزورُ من صلف      مهلاً فإنك بالأيام منخدع  
دع ما يريب ، وخذ فيما خلقت له      لعل قلبك بالإيمان ينتفع  
إن الحياة لثوبٌ سوف تخلعه      وكلُّ ثوب إذا ما رثٌ ينخلع

وهي حكم قريبة المعنى مأخوذة من تجارب عادية ليست فيها فلسفة عميقة ،  
ولا تدل على مذهب في الحياة ومصيرها ومصدرها ، أو على نظرة عامة  
شاملة للكون ، وإنما هي نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق ، ولا سبر  
لأغوار الحياة والمجتمع ونفسيته ، ولكنها حلوة الصياغة خفيفة على اللسان  
متقنة السبك .

وبعد فهذه معظم الموضوعات التي تكلم فيها البارودي وقد عقبنا على  
كل موضوع بكلمة موجزة ، وعرفنا إلى أي حد مشى البارودي في ظل  
القدماء وإلى أي حد تميزت شخصيته ، وبرزت خصائصه ، وفي شعر البارودي  
هنات .

#### هنات :

وهذه الهنات قليلة لا تقدح في منزلته ولا تغض من شأنه ، وبعض هذه الهنات

---

(١) الطبع : الشين والدنس والعيب .

ترجع إلى :

١ - لغويات : فاستعمل البارودي كلمات كثيرة غير موجودة في المعاجم ولا يفين عليها الاشتقاق الصرفي من مثل قوله ( هامة نفس ) فهذا المصدر بالمعنى الذي يريده أي قوة العزم غير موجودة في المعجمات التي بين أيدينا ، وقد يلتمس له تخريج بعيد ، فيه كثير من التعسف . ومن مثل قوله : ( يكفئك منه إذا استحس ) يريد أحس ، ومثل قوله :

شفت زجاجة فكري فارتسمت بها عليك من منطقي في لوح تصويري  
فارتسمت بمعنى رسمت غير موجودة بالمعجمات ، ومعناها في المعاجم امتثل ؛  
ومثل قوله :

فكم سملوا عيناً بها تبصر العلا وشلوا يداً كانت بها راية النصر  
والفعل شل لازم ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أشل الله يد فلان . واستعمله  
الشاعر هنا متعدياً بنفسه ، وقد يوجد له تخريج بعيد .  
ومن مثل قوله :

« تمد يداً نحو السماء خضيبية ، وخضيب على وزن فعيـل بمعنى مفعول أي  
مخضوبة ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث إن تبع الموصوف ، ولهذا قالوا : كف  
خضيب وامرأة خضيب ، فاستعمال خضيبية خطأ .  
ومثل قوله :

فما أبصرته الخيل حتى تمطرت بفرسانها واستلتمت كيف تخلص

وليس بالمعجيات : استلعت ، وإنما بها تلعت بمعنى مدت أعناقها . وقد يقال  
إن زيادة الهمزة والسين والتاء للطلب قياسية عند بعض الصرفيين .

٢ - وقد يخطئ البارودي في الأساليب العربية في مثل قوله :

إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم هديداً تكاد الأرض منه تيمد  
والنصيح إذا راطن بعضهم بعضاً .

ولكن هذا قليل في شعره ، لأنه طبع على قول الفصح لكثرة محفوزه من  
كلام العرب الخالص .

٣ - ومن المآخذ التي كثيراً ما يُعَيَّرُ بها البارودي اتهامه بسرقات شعرية  
تأتي في صورة أبيات أو أنصاف أبيات من مثل قوله :

عليّ طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر  
وهو من قول أبي نواس :

عليّ طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب  
ومثل قوله :

تميل من الدنيا إلى ظل مزنة لها بارق فيه المنية تلمع  
فالشطر الثاني مأخوذ من قول أبي العتاهية .

لها عارض فيه المنية تلمع

وقول البارودي :

قد يظفر الفاتك الألوى بمحاجته وليس يدركها الهيابة الخلط

مأخوذ من قول الشاعر العباسي :

من راقب الناس لم يظفر بمحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقوله :

وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز بمستحسن كالحلم والمرء قادر

مأخوذ من قول المتنبي :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللثام

وهناك أبيات كثيرة تدل على نظرفته إلى أشعار القدماء ؛ وقد ذكرنا آنفاً أن البارودي لم يسرق ، ولم يتعمد أخذ هذه الأبيات والسطو عليها ، وإنما كثر محفوظه ، وتأثر به كل التأثر ، ولا سيما إذا كان يعارض قصيدة لشاعر مجيد ، فإنه يجاريه حتى لقد يختلط شعره بشعره وتتعدد التفرقة بينها ، وذلك لجودة محاكاة وسلامة طبعه . وقد تردّ على لسانه كلمات أو أبيات من أشعار القدماء دون أن يدرك ، لأنها من محفوظه وقد عرفنا أنه لم يتعلم قواعد اللغة والصرف وغيرها وإنما صار يقرأ الشعر ويحفظه حتى مرن لسانه على قوله وتملك أزمّة اللغة ، وطبع على الفصاحة ، وكل هذه الهنات التي ذكرناها مصدرها اعتداده بنفسه واعتماده على ذاكرته وعدم دراسته المنظمة ، ولكنها تافهة لا تغض من

شعره أو تضيير منزلته بشيء .

٤ - هذا وللبارودي مبالغات سقيمة من مثل قوله :

وما زاد ماء النيل إلا لأنني وقفت به أبكي على الأحباب

ويكرر هذا المعنى في قوله :

وكفكفت دمعاً لو أسلت شئونه على الأرض ما شك امرؤ أنه البحر

ومن مثل قوله :

إذا تنفست فاضت زفرتي شرراً كما استنار وراء القدحة الذهب

على أنها تفتقر له فإنها خيالات شاعر .

### منزلته :

يدين الشعر العربي الحديث للبارودي بأنه النموذج الحي الذي احتذاه الشعراء من بعده وساروا على نهجه في أسلوبه وأغراضه ، وذلك لأنه أتى - كما رأيت - بشعر جزل رائق الديباجة عذب النغم في 'حقبة ساد فيها شعر الضعف والصنعة وضحالة المعنى وعقم الخيال ، ثم إنه مثل عصره أتم تمثيل وكان صدى لحوادث بيئته فكان قدوة لمن جاء على أثره في التجديد .

أضف إلى ذلك أنه علمهم كيف يتجهون إلى الأدب العربي في أزهى عصوره ويفتقرون من ذخائره بحيث لا تفنى شخصياتهم ، فيقوى أسلوبهم وتشرق ديباجتهم ويبعدون عن الحلى المتكلفة . وبذلك سار الشعر من بعده إلى الأمام

ولم يرجع أبداً إلى عصور الضعف والركاكة .

ومن تلمذ على البارودي واقتفى أثره عدد كبير من شعراء العربية اتخذوه إمامهم غير مدافع: كشوقي وحافظ والرافعي وصبري وعبد المطلب والجارم والكاظمي والرصافي وأحمد محرم والكاظمي ونسيم الزين وغيرهم ، على تباين بينهم في حظ كل منهم من التجديد والتأثر بثقافة الغرب ومذاهبه الأدبية .

وعلى الرغم من قيام مدرسة جديدة نشيطة يتزعمها مطران وشكري والمازني والمقاد وأبو شادي ، فلا زال كثيرون في البلاد العربية بعامية ، وفي مصر بخاصة ، يحنون إلى ديباجة البارودي وموسيقى مدرسته مع الأخذ بطرف من الجديد في المعاني والأخيلة والصور .

وحسب البارودي فخراً أنه أحيا الشعر بعد مواته على غير مثال سبق من معاصريه .

ونقول مع هيكمل : إنه كان مجدداً في كل بيت من أبياته حتى في معارضاته للقدماء والنهج على منهجهم .

هذا وقد حاول البارودي التجديد في الأوزان فنظم قصيدة من تسعة عشر بيتاً على وزن جديد هو مجزوء المتدارك ، ولم يسبق للعرب أن نظموا منه ، وإنما ورد المتدارك عندهم كاملاً أو مشطوراً ، تلك هي القصيدة التي يقول في أولها :

املا القـدحَ واعص من نصـح

وارو غُلَّتِي      بَابِنَةِ الفرح  
فالفَقَى مَقَى      ذاقَهَا اشرح

وقد نظم شوقي من هذا الوزن الذي اخترعه البارودي قصيدته التي  
مطلما :

مال واحتجب      وادَّعَى الغضب  
ليت ماجري      يشرح السبب







## الفصل الخامس

### نهضة النثر

عرفت فيما سبق كيف ان الصحافة في عصر اسماعيل نهضت بلغة الكتابة ، وحررت النثر من السجع المتكلف ، والإمعان في طلب المحسنات البديعة ، وانها تناولت موضوعات شتى مما يمس الحياة العامة ومشكلات الشعوب ، بيد أن نظرنا ثمة كانت عابرة ، لم تقف طويلاً لتتعرف على خصائص هذا النثر ومميزاته الفنية ، والموضوعات المتباينة العديدة التي خاض غمارها ، والعوامل الكثيرة التي تضافرت على النهوض به ، والتي اتخذت من الصحافة منبراً يذيع على الناس فكراً جديداً .

ورأيت أن المدرسة الديوانية التي مثلها عبد الله فكري لم تتناول السياسة والاجتماع والإصلاح ، وأن موضوعاتها لم تتعد الأمور الشخصية أو الأدبية البحتة كرسائل التعزية والتهنئة والاعتذار والرجاء ، أو وصف منظر جميل أو آنية أنيقة الصنع ... وما شاكل ذلك مما يكون مبعثه الشعور الشخصي .

ولقد شهدت أخريات عهد اسماعيل ، وعهد توفيق لونا جديداً من النثر ، وأدباً ينبض بالحياة وبالحرارة رأينا نتفأ منه قبل<sup>(١)</sup> وآن لنا أن نخصه بنظرة واسعة .

### (أ) موضوعاته :

أما موضوعات هذا النثر فكانت واسعة الأفق ، وتنازلت مشكلات الحياة وما يهم الشعوب وما يبعث على اليقظة والنهضة ممثلة في :

١ - الدفاع عن الشعوب المظلومة التي ظلت تئن تحت سير العبودية والعسف قروناً مديدة ، لا تعرف كيف تراجع الحاكم في حكم أبرمه ولو كان ظالماً ، ولا كيف تثور وتشكو وتتنجس وتسمع شكاتها للعالم ، والحاكم سادر في غلوائه ، يمتص دماءها ، ويسخرها لأهوائه وشهواته ؛ ولا يفكر في نفعها إلا بمقدار ما يعود عليه هو من الفائدة .. استمع للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كيف يصور لك حال مصر قبل أن يشيع هذا الأدب الجديد والفكر الجريء في أرجائها .

« إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويمتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيائته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبيده في إدارة بلاده . أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأُمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى

---

(١) راجع ما كتبناه عن الشدياق وأديب إسحق فيما تقدم .

أنهم مصرفون من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم . وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوروبية - ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد علي الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد علي باشا الكبير وإبراهيم باشا لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن اسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مُبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل ، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التي يوجهها إليه الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن يجانب كل لفظ نفيًا عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريدًا من المال .

وكان الأدب صدىً لهذه الحياة البئيسة التي تقبر فيها الحريات وتقل العقول ، يتغنى بما قام به هذا الحاكم الظالم من أفعال وضيعة ، ويصور سيئاته حسنات ، وسخافات آيات ، وحقايقه معجزات ، ولكن الأدب الجديد أخذ ينظر إلى هذه الشعوب ، ويجعل خيرها غاية فيجمعها على من اعتدى عليها ، ويبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم وأدوائهم ، وطرق علاجها ، ويقف للحكام بالمرصاد - يذيع سيئاتهم ومظالمهم وينقدهم في غير هواده أو رفق ، ويشجع أفراد الأمة على المطالبة بحقوقهم ، وألا يخشوا بأس الحاكم وجبروته ، لأنه مدين بقوته لهم ، وبفناء وضياعه لكدهم وكدهم . واستمع كذلك إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده كيف

يخرض الأمة على خلع نير العبودية ، والحد من سطوة الحاكم الفاشم ،  
وينمي عليه جهله وسفالته :

« إن الأمة التي ليست لها في شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في  
مصالحها ولا أثر لإرادتها في مناقعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم  
واحد إرادته قانون ومشيتته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ،  
فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتمتورها  
السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ،  
ويتناوبها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها  
وشرها ، فهو تابع الحال الحاكم . فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل  
الرأي ، عليّ الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة  
العدل ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها  
أبواباً للتفنن في الصنائع والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في  
أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة  
من الشهامة والشجاعة ، وإباء الضيم ، والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة  
عليها من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم إلى كل وجه  
من وجوه الخير .

وإن كان حاكمها جاهلاً ، سيئ الطبع ، سافل الهمة ، جباناً ضعيف  
الرأي أحق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة .. أسقط الأمة بتصرفه  
إلى مهاوي الحسran ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب  
عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح  
أبواباً للعدوان فيتغلب القوي على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد  
الأخلاق ، وتخفض الكلمة ويغلب اليأس فتتمد إليها أنظار الطامعين ،  
وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة . عند ذلك إن كان في

الأمة رَمَقُ من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً ،  
اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه  
الشجرة الحبيثة ، واستئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياحُ  
بذورَها وأجزاءها السامة القاتلة بين جموع الأمة فتُميتها وينقطع الأمل من  
العلاج <sup>(١)</sup> .

يمثل هذا الأدب أخذ المصلحون ينادون الشعوب المستكنة للذل  
ويوقظونها من سباتها العميق وينددون بها عليه أبناءها من جن  
وخور ، فلا يفضيئون لكرامة امتُهِنت ، ولا يثيرون لعفاف ثُلُم ، وشرف  
دُنِس :

« الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها ، هو الذي قطع  
روابط الأمم ففعل نظامها ، هو الذي وهن عزائم الملوك فانقلبت  
عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلق أبواب  
الخير في وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل  
على النفوس احتمال الذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها  
حمل نير العبودية . يوطن النفس على تلقي الإهانة بالصبر والتذليل بالجلد ،  
ويوطئ الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان يُتوهم عروضة  
عند التحلي بالشجاعة والإقدام . الجبن يُلبس النفس عاراً دون القرب منه  
موتٌ أحمر عند كل روح زكية وهمةٍ عليّة ، يري الجبان وعز المذلات  
سهلاً ، وشظف العيش في المسكنات رفهاً وبعيماً » .



(١) تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثاني ص ٣٣١ والمعدد الرابع عشر من مجلة العروة  
الوثقى .

« من يَهْنُ يسهل الهوان عليه ما لجرح يمتد إيلام » (١)

وإذا جاوز الحاكم حدّه ، طغى وبغى واستبد ، وباع بلاده للأجانب اللطامعين ، المستعمرين الغاصبين ، ونكل بالأحرار المفكرين كما فعل نوبار باشا مثلاً حين طلب ابعاد الزبير باشا من مصر ، وحين حارب كثيرين من المصلحين ، وحين مكن للإنجليز في وادي النيل ، فإن زعماء الإصلاح لا يترددون في التحريض على قتله ، وتخليص الأمة منه .

« إني أتعجب ، وكلّ ذي إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمنيين ، ألا يوجد بين هؤلاء فق يشر عن ساعده ويتقدم بصدرة ، ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني فيبطل هذه الصفقة وينقض هذه البيعة ، ويكشف له وللمفرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ، ويرفع الحجاب عن واجبات الملية ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل في ذل ، ويميشون من خوف العبودية في العبودية ويتجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفاً من الموت . لا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ، ولا الحمية تدفعهم إلى ما به فخار الإنسان » (٢) .

وأنصت إلى السيد جمال الدين الأفغاني كيف يثير في النفوس الحمية ، ويريدها متمردة على الطغيان والفسف والهوان ، وينعى على المصريين خورهم واستكانتهم إلى كل من يحكمهم ؛ فقد روى سليم عنحوري عن السيد جمال الدين قوله : « إنكم معاصر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، ورببتم في حِجر الاستبداد ، وقوات عليكم قرون منذ زمن الملوك

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) مجلة العروة الوثقى القسم الثاني ص ١٤٧ .

الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة  
 الفزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم  
 الحسف والذل وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم  
 ومواد غذائكم التي تجمعت بما يتعطب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة  
 والسوط ، وأنتم معرضون . فلو كان في عروقكم دمٌ فيه كرياتُ  
 حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمة لما رضيتُم بهذا  
 الذل وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان  
 والفرس ، ثم العرب والأكراد والماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع  
 نهم ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد  
 سيوة ، وحصون دمياط ؛ فهي شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .  
 هبوا من غفلتكم ... ! اصحوا من سكرتكم ... ! عيشوا كباقي  
 الأمم أحراراً سعداء <sup>(١)</sup> .

بل كان السيد جمال الدين في غاية الجرأة يحرض على الثورة علانية  
في كلمات ملتهبة تثير الهمم الحامدة ، وتحيي العزائم الميته ، وتحرك  
العقول الجامدة من مثل قوله من خطبة له بالإسكندرية قبيل خلنع  
'الخدو اسماعيل :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض للتستبث منها ما تسد  
 به الرمق ، وتقوم بأود العميال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا  
 تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » <sup>(٢)</sup> .

(١) سليم عنجوري . تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ٤٦ .

(٢) مذكراتي في نصف قرن : أحمد شفيق ص ١٠٩ .

ومن الكلمات التي تتلظى لهباً ، وتتقد غيرة وحماة حين تصور  
بؤس المصريين وكيف يسومهم حكامهم العسف والخسف تلك الكلمة التي  
كتبها أديب إسحق وهو مريض ببساريس تحت عنوان « نفثة مصدور »  
ويوازن فيها الحياة النيابية الحرة في فرنسا وحياة الاستبداد بمصر فيقول:  
« وأنا تحت سماء الإنصاف على أرض الراحة ، بين أهل الحرية أسمع  
الحانا في مجالس العدل ، فأذكر أنين قومي في مجالس الظلمة ، وتحت  
سياط الجلادين ، فأنوح نوح الثاقلات ، وأرى علائم النعمة في معاهد  
المساواة ، فأذكر شقاء سِرْبِي في ربوع الظلمة ، فأذرف الدمع بمتزجا  
بسواد القلب فأكتب إليهم : يا قوم 'ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير  
مأجورين وسعيتم غير مشكورين ، فهلكتم غير مأسوف عليكم ، تصبرون  
على الظلم حتى يحسبه الناظر عدلاً ، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد  
حلماً ، وتخفزون للظالمين جناح الذل حيث يقول من يراكم ما هؤلاء  
بشر إن هم إلا آلة سخرت للناس ، يفلحون بها الأرض ويزرعون .  
يقلب الجائزون عليكم أنواع المكاييد وأصناف الحيل وألوان الخداع فيما  
يختلسون كما تقلب المشعوذة لدى الأطفال أوجه الودّعات في استخراج  
ما يضمرون .

رأيت فلاحهم في حقله الصغير يتناول الطعام أكلاً مريئاً ، وينام  
القبيلة نوماً هنيئاً ، ويأوي إلى البيت فيأكل بين عياله ويتلو عليهم  
صحيفة النهار ، ثم ينام ملء عينيه ، لا يحلم بسوط المأمور ولا يتصور  
عصا الشيخ ، ولا يتذكر حبس المدير ، فتخيّلتكم بين السواقي والأنهار  
تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على القصعة السوداء فتلتهموا فئات  
الشعير ، وتتكبّثوا على التّرعّة فتشربوا الماء الكدر . تعودون إلى  
الأرض المريئة تزرعونها ، والغلة الوفيرة تمصّدونها لتصرفوا إلى أكواخ  
تشبه قبوراً تالت عليها السنون ، فيجتمع من حولكم صغار لا تعرف



أبدانهم الوقاء ، ونساء تعوضن الأقدار عن الكساء ، ثم يأتىكم  
المأمور سالماً ، والشيخ غاضباً ، والمدير ناهباً ، فأنتم في بلاء مستقر ،  
وعناء مستمر ، تحصدون البرّ ولا تأكلون ، وتلكون الأرض ولا  
تسكنون ، (١) .

« قد بُليتُم بما يذيبُ الشحم ويفري اللحم ، ويُنقّي العظم وأنتم  
صابرون ؛ وُمُنيتُم بما وفّر النقم وغير النعم وأهلك النعم وأنتم  
صامتون ، ورزقتم بما جلب المصاب ، وهتك الحجاب ، وأبرز الكعاب  
وأنتم خاشعون ، فما الذي تخافون ؟ .

تقولون لا نرضى بهذا الخسف ، ولا نقوى على احتمال الذل ، فقد  
صار تاجرنا عاملاً ، ونبهنا خاملاً ، وعالمنا سائلاً ، فلم يبق فينا غير  
الأجير والتابع والشحاذ والزارع ، والجندي منخفض الجانب ، والشرطي  
منقطع الراتب ، بل زارعنا الذي يدفن مع الحبة قوة يمينه ، ويسقي  
الفرس بماء جبينه : نزيل في دار أبيه ، وغريب في أرض ذويه ، يحصد  
بما زرع ولكن لسواه ، ويحني مما غرس ولا يذوق جناه .

وكأني بكم عصابة ، من أهل الهمة والإصابة ، ترفعون الأصوات  
في طلب الحق المسلوب ، وتدنون الأكف للتماس المال المنهوب ،  
وتجعلون الأبدان للوطن سوراً يرد عنه العدو مذعوراً ، وأنتم الكلمة  
المتحدة والقوة المتجمعة هي أقوى من العدد الكثير إلا أنكم تترددن .  
فيا حليف الصبر ويا نضو العناء ، نداء مشارك في بلواك ، وسامع  
لنجواك ، دع التردد إن أردت النجاح والنجاة ، وأقدم ، فرب حياة

تكون في طلب الموت ، ورب موت يحيي من طلب الحياة ، (١) .

وهي كما ترى كلمة تحمل روح جمال الدين ، وتحض على الثورة علانية ،  
بتنبية المصريين لمهاري الذلة التي تردوا فيها وحشهم على استخلاص حقهم  
بالقوة من ظالمهم .

٢ - الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى في الحكم ، حتى تشعر  
الأمة أن مقدراتها بيدها ، وحتى تأمن جانب حجة يتكثون عليها في  
إشرافهم على الحكومة وإدارتها .

وقد رأيت طرفاً مما قاله البارودي الشاعر في الشورى . وقد كانت  
هذه الروح التي تجلت في شعر البارودي قبساً من نار مشتملة في نفس  
جمال الدين الأفغاني وصحبه وحواريه من أمثال محمد عبده ، وعبد الله نديم ،  
وأديب اسحق .. استمع إلى هذا الحوار بين توفيق باشا وبين جمال الدين  
الأفغاني وقد طلبه للمشول بين يديه في قصر عابدين :

قال توفيق : « إني أحب كل المصريين ، ويسرني أن أرى بلادي  
وأبناءها في أعلى درجات الرقي والصلاح ، ولكن من الأسف إن أكثر  
الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقي عليه ما تلقونه من الدروس  
والأقوال المبهجة ، فيلقون بأنفسهم في تهلكة » .

فأجاب جمال الدين : ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية  
وإخلاص : إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل  
والجاهل بين أفرادهم ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعامل ،

فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة لتسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لمرشكم وأدوم لسلطانكم ، <sup>(١)</sup> .

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، مبرهنًا على أن الأمة المصرية بلغت حدًا من النضج يؤهلها لأن تتولى أمورها بنفسها .

« وما تقدم مرده تعلم أن أهالي بلادنا المصرية دبّت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم على مدارك الرأي العام ، وأخذوا يتصلون من جرم الإهمال ، ويستيقظون من نومة الإغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فطالعو من ساء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ، حتى أشرأبت مطامعهم إلى بث أفكارهم فيما يصلح الشأن ويملأ الشعب ويجمع المتفرق من الأمور ليكونوا أمة متمتعة بجزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم ، طريق الشورى والتعاقد في الرأي ، <sup>(٢)</sup> .

٣ « محاربة الاستعمار » وإثارة الحمية الوطنية في نفوس الشعوب المستذلة التي غلبت على أمرها وقادها ملوكها وزعماؤها إلى الدمار والبوار ، بينما العدو يتربص بهم الدوائر ، فلما لاحت الفرصة انقض على الفريسة كالوحش الكاسر يوسعها نهشاً وعضاً ، حتى خرت تحت قدميه دامية الجسد ، هامة الفكر ، تنظر بعينين ملؤها الرعب والذلة .

وقف هذا الأدب يصرخ في هذه الشعوب صرخات مدوية علها تفتيق

---

(١) خاطرات جمال الدين محمد باشا الخزومي .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

من سباتها ، وتنهض لمحاربة عدوها وتلتنبه إلى الختل والفيلة ، والفدر والحيلة ، وشتى الوسائل الزائفة التي عمد لها الطامع الجشع من وعود مصيرها الخلف ، وموائيق غايتها النقص ، وأيمان يتبعها الخنث . كل ذلك حتى يمكن لنفسه في البلاد فيمتص دماء أهلها ويسخرهم لطاعته عبيداً غير مأجورين وفعلة غير مشكورين :

« بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصاً في المسلمين منهم ، فلوك أنزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق في الإمرة حرّموا حقوقهم ظلماً ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحو سقاماً ، وأسودّ تحولت نعاما ، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين في أطباعهم ، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها ، حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها ، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ؛ ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العربية فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب ، بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن ومهوا بما لم ينالوا (١) » .

واستمع لهذه الفئة المصلحة البقطة كيف تتنبه المكاييد الإنجليز وصنائعهم في مصر ، وتفضح حيلهم : نوبار باشا ساع إلى أمرهم

---

(١) افتتاحية مجلة العروة الوثقى .

وهو ما ذكرناه في العدد السابق ، ونشرته بعدنا جريدة ( الدُّبَا ) وسائر الجرائد الإنجليزية ، وهو أن يكون ولي القاصر ( عباس ) بعد خلع أبيه فينال بسطة في السلطة ، وإطلاقاً في الأمر والنهي ، وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنجليزية على تلك مصر وهي محتاجة في ذلك إلى من ليس له وطن ولا دين ولا جنس في مصر ، فهي في شدة الاحتياج لنوبار باشا ، وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات ، إن قلت : لا ، فلا ، أو قلت : نعم ، فنعمة ، فهو في غضبه ورضاه تابع لما يلقي إليه ، فعلم نوبار أن خديويا مثل هذا يمكن أن يكون واسطة في تمكين الإنجليز من مصر من حيث لا يشعر ، وبتقديمه هذه الخدمة لهم يبني لنفسه من العزة قصراً شاهقاً <sup>(١)</sup> .

واستمع كذلك الى أديب اسحق تلميذ جمال الدين الأفغاني ، وأحد الألسنة التي أطلقها تندد بالاستعمار وحيله ، كيف ينبه المصريين الى خداع الإنجليز ، وتحذيرهم المصريين بتخفيض الضرائب حتى يمدحوا إياهم ، ويوازنوا بينهم وبين حكامهم المتعسفين فيرجحون في كفة العدالة ، وقد أشارت بعض الصحف بما قدم الإنجليز من عمل ، فنارت ثائرته وقال :

« فهل خفي عن تلك الصحف أن من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ أو لم تعلم أن القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بالمخطاط مداركهم ، لا يطعمهم هذا الفتات إلا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع

---

(١) مجلة العروة الوثقى ج ٢ ص ١٤٦ .

التصريح ، علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره  
النور ، فإذا حاولت الجرائد إظهاره سارع إلى إطفائه بتعطيلها  
والغائها .

يا أهل مصر : إني محدثكم حديثاً غريباً . إذا كان أمراؤكم خياركم ،  
وأغنياؤكم أسخياءكم وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من  
بطونها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى  
نسانكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها .

٤ - الرسمي في إصلاح المفاصد الاجتماعية ، فالفقر الذي يذوي  
الشباب الغض والإهاب النضر ويذل النفس الأبية ، ويطوح بالأنفة  
والكبرياء بعيداً حين تصرخ المعدة الجائعة صرخة تنهار على أثرها النفس  
المتجلدة قد جثم على صدور كثير من أبناء الشرق ، يكدون ويكدحون  
لفتة قليلة من الأغنياء يبعثرون على موائد الفساد ما جمع هؤلاء المساكين  
في حمارة القيظ وصبارة الشتاء ، وهم يبيتون على الطوى ، وأبناؤهم  
يتضاغون من المسغبة والفاقة ويتضورون من الجوع والعري ، ويتلون  
من السقام والأوصاب . والجهل الذي بنى أعشاشه في رؤس الجمهرة من  
أبناء الشرق ، وباض وفرخ وملأ الدنيا خرافات وخزعبلات يجب أن  
يحارب وتفتح لأبناء الأمة مغاليق الأمور حتى يعيشوا كالأناسي . إن  
الفلاح المسكين كان نهبا للمرابين والمستغلين يأكلون ظلماً وعدواناً ما  
سعى لتحصيله بكبد النهار وسهر الليل . استمع لعبد الله نديم بصور لك  
هذا الجهل بالحساب ، ووقوع هذا الفلاح البائس في أحابيل شياطين  
الفرنجية من المرابين والأفاقين ، وكيف يضاعفون ديونه ظلماً ، وينهبون  
ماله جهراً ، وهو لا يدري من الأمر شيئاً كأنه سائمة ترعى . وقد ساق  
عبد الله نديم هذه المحاوراة بين الفلاح والمرابي باللغة العامية حتى يبين  
للفلاحين خداع هذا اللص الكبير ، وسذاجة هذا الجاهل الغر . « ذهب

المزارع إلى المرامي ليقترض مائة جنيه بفائدة قدرها عشرون في المائة فقال المرامي : حسن ! سأخصم من المائة عشرين فتستحق ثمانين ، وأضيف الفائدة وقدرها عشرون فيكون الدين مائة وعشرين ، ، ووافق الفلاح لجهله بالحساب ، وبذلك أخذ ثمانين جنيهاً ليسددها مائة وعشرين ، وحين السداد جاء بكل ما أنتجته أرضه فاشتراه المرامي بأبخس الأثمان ، وخرج الفلاح بعد بيع محصوله الكبير مدينساً بمبلغ مائتي جنيه في حين أن المرامي لو قدر المحصول كما يجب لسدد الفلاح دينه ، ودفع له المرامي فوق ذلك مائة جنيه ، ولكنه الجهل والغش .

ومحارب المصلحون (زبرج المدنية الخلاب ، ولألامها الخداع ، والفتنة التي أوقعت المصريين في شباكها ، فراحوا يلتقطون في نهم بالغ نفايات الحضارة الأوروبية العفنة يحسبونها تمدينهم ، ونسوا دينهم وأخلاقهم الكريمة وعاداتهم الطيبة .

لقد جهد هؤلاء المصلحون والمفكرون أن ينيروا للأمة سبيلها ويصّروها عاقبة السير في ظلماء الجهالة ، ويحثّون على التعليم ، بل يشيدون المدارس ، ويخطبون في كل مكان على الأمة تستجيب لندائهم ، فتمرق من شرك الجهل ، وأحابيل الضلالة .

ونمت في الشعوب الجاهلة التي ظلت قروناً تخضع لسيطرة العناية الجبارين صفات رديئة كالنفاق ، والرشوة ، والكذب ، والخداع ، والتراخي في العمل . إلى آخر هذا الثبّت الشنيع من نقائص الأمم المغلوبة على أمرها ، حتى ماتت فيها روح الكرامة والعزة ، وكثير من المهادم التي لا تستطيع النمو في جو خائق بعثير الظلم ودخانه ؛ ولذلك عمد الكتاب المفكرون في هذه الحقبة إلى التشنيع على هذه الرذائل وتبشيعها لدى أفراد الشعب كي يقلعوا عنها .

وهكذا امتد أفق الكتابة إلى جميع الأغراض السياسية والاجتماعية ، وكانت الصحف خير معوان على بث هذه الآراء الجريئة ، والإرشادات النافعة ، والنصائح الثمينة التي حركت الهمم وأثارت العزائم ومهدت الطريق لنضج الشعوب العربية والإسلامية .

وكان بجانب هذه الأغراض السياسية والاجتماعية موضوعات أدبية بحثة من وصف ، وتعزية ، وتهنئة ، ومحدث عن الأمور المعنوية كالجمال ، والعاطفة ، والذوق ، والسعادة وما شاكل هذا . وقد حاول بعض الكتاب أن يرشد الناس إلى ما تقتضيه صناعة الكتابة من أمور ، وما تطلبه من جهود كأديب اسحق ، وقد بين في مقالاته <sup>(١)</sup> شروط الكتابة السليمة وأنواعها وكان ذلك ضرورياً في هذه الحقبة . ويقول الشيخ خليل البازجي في الإنشاء :

« الإنشاء ملكة راسخة في النفس يعين عليه سلامة الذوق وطول المزاولة ، والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعها في الأكثر إلى بداهة الحاطر وذكاء البصيرة وغزارة المادة ، وله أحكام إذا راعاها المجيد نبغ فيها ، وإذا راعاها الضعيف استأنس بها ، فأعانت على الجري فيها ، <sup>(٢)</sup> .

ومن أمثلة (النثر الأدبي) رسالة لعبد الله نديم يشكر صديقاً على كتاب وصله منه <sup>(٣)</sup> : « لبيك كوكب الصبح ، دام نديك ، وسعد بك نسيم الصبا ، طاب شذاك ، وأهلاً بك يا نور النهار ، ومرحباً بك

---

(١) مجالي النثر ج ٣ ص ١٠٠ من هذا الكتاب .

(٢) مجالي النثر ص ١٠ ج ٣ .

(٣) سلافة النديم ص ٤٥ .



يا نور البهار ، فإني أَرِقْتُ لِلقَاءِ مَذْ سَمِعْتُ بِالْإِسْرَاءِ ، وما زلتُ أسأل  
عن ركبكم في منازل البدر ، وأستفهم منه ركبان النجوم حتى مطلع  
الفجر فالشُّعْرَى تقول : تركتهم بتلك المرحلة ، وعطارد يقول : تقدمتهم  
بمنزلة ، والمريخ يقول أناخوا ركائبهم ، والمشتري يقول أثاروا نجائبهم ،  
والدجى تقول : ليلهم قمري ، والزهرة تقول هم أولاء على أثري ، وكل  
ذلك وأنا هائم كحاطب بليل حتى طلع عليّ من جانب السحر سُهَيْلُ ،  
فهممت بتقبيله فأبى ، وارتفع عني ونبا ، فأثرت له بتلطف  
وأنشدته بتعطف .

سُهَيْلُ انعطف وانزل بساحة مغرم يراك بعين طول ليلتها عَبْرَى  
عسى يأخذ الأخبارَ منك عن الألى سيصلى بهم جمر النضا ولك البشري  
ومن أمثلة النثر الأدبي كذلك ما كتبه السيد مصطفى نجيب<sup>(١)</sup>  
يصف الحاكي ( الفونوغراف ) :

( مثالُ القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقتطف الألفاظ  
اقتطافاً ، ويختطف الصوت اختطافاً . مطبعة الأصوات ، ومرآة  
الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية نقلَ كلام عمر رضي الله  
عنه إلى سارية ، أشدُّ من الصدى وفعله ، في إعادة الصوت إلى أصله ،  
كأنه الحرف في يد الطابع ، والوتر في يد الضارب ، والقصبُ عن فم  
القاصب<sup>(٢)</sup> ، يحفظ الكلام ولا يببده ، ومتى استمدته منه يعيده ، من

---

(١) كان كاتباً إدارياً بديوان الخديو ، ومنه تحول إلى وزارة الداخلية ؛ وكان  
أديباً عذب النثر سهل الشعر وله كتاب ( حماة الاسلام ) توفي سنة ١٨٩٩ .  
(٢) القصب : الزمار ، والقاصب هو الذي يزمر فيه .

غير أن يبقي لفظاً في صدره ، أو يكتّم شيئاً من أمره ، كأننا حفظُ  
الوديعة في نفسه طبيعة ، فلو تقدم به الوجود في مرتبة الزمن لما احتجنا  
في الأخبار إلى عَنَمَةٍ ، ولا في الدعاوي إلى بيئَةٍ ، بل كان يُسمعنا  
كلام السيد المسيح في المهد ، وصوتَ عازِرٍ من اللحد ، وكانت  
استودعته الفلاسفة في حكمتهم ، وأنشدوه كلماتهم فرأينا غرائب اليونان ،  
وبدائع الرومان ، وربما سمعنا خطب سحبان ، وشعر سيدنا حسّان  
بذلك اللسان ، وأصبح وجود الإنسان غير محدود بزمن من  
الأزمان .

لله درّه من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ويستخلصه في لحظة ، معيداً  
لقوله ناقلاً صوته ولفظه .

لقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

نديمٌ ليس فيه هفوة النديم ، وسمير لا يُنسب إليه تقصير ، تسكته  
وتستعيده ، وتذمه وتستجيده ، وهو في كل هذه الأحوال ، راضٍ بما  
يقال ، لا يكلُّ من تحديث ، ولا يَمَلُّ من حديث ، نمام كما ينم لك  
ينم عليك ، وينقل لغيرك كما ينقل إليك ، فهو المصور لكل فن ،  
المتكلم بكل لغة ، المحدث بكل لسان ، المؤرخ لكل زمان ، الشاعر  
الناثر المفني العازف ، لا تعجزه العبارة ، ولا تجهده الإدارة ، ولا يضيره  
اختلاف شكل ، ولا تباين أصل .

ومن أمثلة النثر الاجتماعي غير ما تقدّم عرضه قول قاسم أمين في  
كتابه عن ( المرأة الجديدة ) :

« إن كل تغيير يعرض على الأنظار في صورة مشروع يُلتَمَس قبوله ،  
ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل ، هو في الحقيقة فكر سبق أوانه

ووقت عرضه ، ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره إلا العدد القليل ،  
من يمتد نظرهم إلى ما يمكنه المستقبل من الحوادث . انظر الى حالة  
مصر ، فقد عاشت الأمة المصرية أجيالاً في الاستعباد السياسي ، فكانت  
النتيجة المخطاطة عاماً في جميع مظاهر حياتها : المخطاطة في العقول ،  
والمخطاطة في الأخلاق ، والمخطاطة في الأعمال ، وما زالت تهبط من  
درجة الى أسفل منها ، حتى انتهى بها الحال الى أن تكون جسماً ضعيفاً ،  
عليك ساكناً يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان ، فلما تخلصت  
من الاستعباد ، رأت نفسها أول الأمر في حيرة لا تدري معها ما تصنع  
بحريتها الجديدة ، وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى ولا يقدر لها  
قيمة . وكان الناس يستخفون ويهزأون بالحرية بل ويتألمون منها ،  
وينسبون اليها اختلال عيشتهم ، وعلل نفوسهم ، فكم من مرة سمعنا  
بآذاننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة . ثم اعتاد القوم  
شيئاً فشيئاً على الحرية ، وبدأوا يشعرون بأن اختلال عيشتهم لا يمكن  
أن يكون ناتجاً عنها بل له أسباب أخرى ، ثم تعلق بنفوس الكثير منا  
حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها . ولنا الأمل في أن  
أولادنا الذين يشبون على حب الحرية يحنون ثمراتها النفيسة التي من أهمها  
تهيئة نفوسهم للعمل ، وعند ذلك يعرفون جيداً أن الحرية هي أساس  
كل عمران . وقد دلت التجربة على أن الحرية هي منبع الخير للإنسان ،  
وأصل تربيته وأساس كماله الأدبي ، وأن استقلال ارادة الإنسان كانت  
أهم عامل في نهوض الرجال ، فلا يمكن الا ظهور مثل هذا الأثر في نفوس  
النساء .

ومن أمثلة النثر السياسي غير ما تقدم ما كتبه الشيخ علي يوسف في  
المؤيد تحت عنوان « لا تعصب في مصر » :

« التعصب بالمعنى المعروف في الغرب عن الشرق ، وبعبارة أخرى

من المسيحيين عن المسلمين ، هو انبثاث روح العداء والبغضاء من الآخرين ضد الأولين ، انبثاثا يحمل على الاعتداء عليهم حيناً بعد حين ، أو هو التوحش الذي يفتك بنفوس الأبرياء كلما ثار ثائره ، فهو أشبه شيء بالقول الكاسر الذي يندفع بعماية فيفتقرس كل ما في طريقه من نفوس البشر . وهو على هذا مجموع أرواح شريرة لا نظام لها في ثوراتها وعدوانها ، والتمصب بهذا المعنى رذيلة من الرذائل التي ينهى عنها الدين الإسلامي ، والقوانين الاجتماعية ، نعوذ بالله أن ترزأ أمة بهذا البلاء العظيم .

قالوا : ان المصريين متمصبون تعصباً دينياً ، ومعنى هذا عندهم ، أنهم يكرهون المخالفين لهم في الدين كراهة عمياء ويعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية ، كلما سنحت لهم فرصة أو استفزهم صائح ، ولكن كيف وفي البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلها في المنازل ، ويتشاركون في المرافق ، ويتنافسون في الأعمال ، فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة ، ولو كانت في فطرة المسلمين أو فطرة الفريقين للاشت الأكثريّة الأقلية في عصور مضت وخصوصاً في عصور كانت الجهالة فيها سائدة ، وكان بعض الحكام من المسلمين وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لخدمة دينية إسلامية ، بل لأغراض منشؤها الشهوات والمطامع ، ولكن التواريخ تدل على أن الفريقين عاشا على الوئام والسلام في كل الظروف أو أكثرها .

وقد وفدَ على القطر المصري وفود من كل الطوائف المسيحية ، غربية وشرقية ، من أرمن وأروام وسوريين وفرنساويين وطلبانيين وإنكليز ونمساويين وأمريكيين ، ومن بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس ، وغير ذلك ، من علماء وتجار وصناع وعمال وهمل متشردين ، فلقي الكل في مصر صدراً رحباً ، وكان منهم الموظفون في كل مصلحة ، حتى تولى نوبار باشا الأرميني رئاسة النظار في مصر ، وكان قائم مقام

خدوي ، ورئيساً للاحتفال بموكب الحمل الشريف ، فهل يوجد في أمة غير الأمة المصرية المسالمة مثل هذا التساهل الذي يرأس فيه احتفالاً دينياً رجلٌ غير مسلم .

وكان من علمائهم الأساقفة والمعلمون ونظار المدارس والمفتشون ، فهل الأمة التي تربي أبنائها على أيدي أساقفة من غير دينها تعد متعصبة ، وكان التجار على ما يحبون من الرحب والسعة وحسن القبول ، فضربوا في البلاد بمتاجرهم من غث وثين ، وجيد ورديء ، وخالص ومفشوش ، حتى صارت مصر من أوسع أسواق متاجر أوربة ومعالمها التي وجدت إقبالاً من الأمة هائلاً . وهؤلاء بعض الأجانب يقيمون الأكواخ الصغيرة الحفيرة لبيع الخور الرديئة في كل قرية من قرى القطر منها سحقت وقل عددها ، أو يربون الخنازير ويشرون شيئاً فشيئاً حتى يكون الصلوك منهم في بضع سنوات صاحب القرية ومزارعها ومدائن أهلها وسيدم ، فهل هؤلاء هم المتعصبون الذين يخشى من شرهم في وادي النيل على الأوربيين ؟ كيف يكون عند المصريين تعصب ديني وهؤلاء بينهم تتسع معاملاتهم معهم ، وكثيراً ما تنتهي هذه المعاملات بمصادرات المدنيين في أملاكهم ، ولا يخطر على بال مسلم خاطر سوء من ناحيتهم ، لعله أن دينه ينهاء عن ذلك ، حيث لا تكفي القوانين النظامية في زجر النفوس المتعصبة ، لأن للاعتداء ضروباً شتى وطرقاً خفية أكثر منها ظاهرة ، وهذه تعديات الأهالي على بعضهم تعد بالآلوف ، في حين أن تعدياتهم على غيرهم لا تكاد تذكر في جانب تعديات الأجانب على بعضهم في هذه البلاد .

فكيف نعلم أعين الناظرين عن هذه الشمس المشرقة العامة بأشعتها على أرجاء القطر ويقوم مفكرون يزعمون أن في المصريين تعصباً نائراً يكاد يفتك بالأوربيين لجرد كونهم مسيحيين . أيها المدّعون راقبوا الله في أمة

رزنت بالإهمال في شئونها ، حتى انحلت عرا الجامعة بين أفرادها ،  
وذهبت منها ربح العصبية في كل شيء ، حرام عليكم مع هذا الانحلال  
ان تتهموها بالتمصب في أشد حالاته .

ومن هذه الناذج التي سقناها إليك هنا وفي غير هذا الموضع تستطيع  
ان تدرك إلى أي حد وصل النشر الغني في هذه الحقبة التي نتحدث  
عنها ؛ بل إنه سار إلى سبيل الكمال حثيثاً حتى يومنا هذا ، لم يرجع  
القهرى منذ تكونت هذه المدرسة الإصلاحية ومنذ أثمرت نهضة إسماعيل  
العلمية والأدبية ، بل تراه قد زاد فنوناً ، وتنوعت موضوعاته ،  
وتعددت نظراته إلى الأشياء ؛ لكثرة ما قرأ الكتاب من الأدب القديم ،  
وما اطلعوا عليه من آداب الغرب . ولهذا النشر مميزات وخصائص  
وطابع يعرف بها ، ويختلف عما شاهدناه من الكتابة الديوانية .

#### ( ب ) مميزاته :

إذا كانت الأحداث السياسية ، وتقلباتها الكثيرة ، والثورات العنيفة ،  
وبقطة الشعوب الشرقية والإسلامية ، قد وضعت أمام الكتاب مادة  
خصبة غزيرة ، وجعلتهم يخوضون في شتى الموضوعات ؟ وإذا كانت  
الحال الاجتماعية ، وما عليه الناس من فقر وجهل ومرض وانحلال ، قد  
دعت زعماء الإصلاح الاجتماعي إلى تشخيص الداء ، ووصف الدواء وحث  
الهمم على التخلص من تلك الرذائل فإن ثمة (عوامل أخرى) نهضت بالنثر  
من حيث أسلوبه وألفاظه . وقد مر بنا ما قدمته حكومة إسماعيل  
للنهضة الأدبية من وسائل : كالمدارس والمكتبات العامة ، وانتشار  
الصحف ، وتشجيع المطابع على إحياء تراث الآباء والأجداد ، والقيام  
بترجمة شيء من أدب الغرب ، وقد أضفى كل هذا على النثر طابعاً خاصاً ،

فخلصه في الغالب من المحسنات البديعية التي كانت شائعة في الكتابة  
الديوانية وصرف الأدباء مهم إلى العناية بالمعاني لا إلى تنميق الألفاظ ،  
الهم إلا في الموضوعات الأدبية البحتة ، وخلا النثر من المبالغات الممجوجة  
والأخيلة السخيفة ، وانصرف عن المقدمات الطويلة التي كثيراً ما تستهلك  
جهد الكاتب والقارئ جميعاً دون بلوغ الغرض الذي سبق له  
الكلام .

وكان من أثر هذا كذلك تغير طريقة الكتابة تبعاً لتغير طريقة  
التفكير : من تقصير الجمل ، وفصل العبارات ، وحبس كل واحدة  
منها على أداء معنى واحد ، واعتماد لون طريف في ترتيب الكلام  
وتبويبه ، وسوق المقال في الغالب لأداء فكرة واحدة ، واستحداث  
صيغ جديدة لأداء معان جديدة ، والتجاوز بكثير من المفردات لإصابة  
ما لا تطوله بأصل الوضع اللغوي .

ولقد رأيت من النماذج التي سقناها إليك أن موضوع هذا النثر ،  
اجتماع ، أو سياسة أو أدب ، ولقد تميز كل نوع من هذه الموضوعات  
بسمات عامة اقتضتها روح الموضوع وطريقة علاجه .

١ - فالنثر الاجتماعي يتطلب صحة العبارة ، وبالضرورة البعد عن  
الزخرف والزينة ، ووضوح الجمل ، وترك المبالغات ، وسلامة الحجج  
وإجرائها على حكم المنطق الصحيح ، لأن الغرض منه معالجة الأمر  
الواقع ، فلا ينبغي استعمال الأقيسة الشعرية ، ولا الخيال المجنح ، اللهم  
إلا في المقامات التي تقتضي استفزاز الجماهير ، وإثارة عواطفهم ، وتحميسها  
للإقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام ، على أن  
يكون ذلك بقدر ، فإن الأغراض الاجتماعية إنما تجري في حدود  
الحقائق الواقعة على كل حال .

وقد رأيت أن هذا النوع من النثر قد خلا من السجع المتكلف ، لأن  
الإهتمام باقتناص السجعة قد 'يفوت' على الكلب الغرض الذي يرمي إليه ،  
وقد يذهب المعنى في سبيل سجعة متكلفة ، بل قد حمل بعض الكتاب  
في هذا العصر على السجع فقال أديب إسحق مع أنه كان ممن يسجعون  
كثيراً ومن يحتفي بأسلوبه لأنه كان أديباً بطبعه .

و لم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الإسلام الا  
ما كان منه غفو القرينة ، فواصل غير مقفاة ، أو ما يعزى الى الكهان  
والمشعوذين ، مما يراد به الإيهام والإيهام ، فلما استولت العجمة على  
الأسن ، وضعت قوة الاختراع في الأذهان سرى داؤه في المكاتبة الى  
هذا العهد ، فعدل عن الكلام الفحل واللفظ الساذج والأسلوب الطبيعي  
الى هذه الاسجاع الملفقة البالية ، يتناقلونها خلفاً عن السلف ، وبطيلون  
بها الكلام بلا طائل سترأ لقصورهم في ابتداء المعاني وإيضاح وقائع الحال  
من طريق البلاغة والإيجاز ، (١) .

والانصراف عن السجع والزخرف في هذا النوع من النثر يدهي ،  
لأن النثر منصرف الى تفتيق المعاني ، وسوق الحجج ، وضرب الأمثلة  
لا الى الجري وراء كلمة أو سجعة

٢ - النثر السياسي أو الصحفي ، ويمتاز بالسهولة والوضوح بحيث  
يكون معناه في ظاهر لفظه ؛ لأن الصحف تخاطب الجماهير ، ويقرونها  
الخاصة والعامة ، وتتحدث الى الجهال كما تتحدث الى المتعلمين ، هذا الى  
أن قراءها انما ييغونها للساعة ، فلا محل للارتفاع بعبارتها والتعمق في  
معانيها مما يقتضي من القارئ كد الذهن ، وارهاق العصب .

(١) مجالي النثر ص ٨ ج ٣ .



وإذا كان النثر الاجتماعي ينبغي أن يجري الاحتجاج فيه على الاقبسة المنطقية ، لأنه يعتمد على القضايا العلمية والحقائق الواقعة ، فإن النثر الصحفي لا يلتزم فيه ذلك ، بل يلجأ إلى الأدلة الخطابية ؛ لأنها أنفذ في إقناع الجماهير من سواها إذ تقوم النزعات السياسية في الغالب على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية .

وليس في هذا النثر احتفاء بالأسلوب ، أو تخير للألفاظ ، أو جنوح إلى الخيال ، أو تعمق في المعنى ، وإنما هو التصوير السريع ، وليس فيه تحقيق علمي منظم مبني على الاستقراء أو ذكر المقدمات الوافية ، ويكثر فيه التكرار ، وعدم ترتيب الفكرة .

وهناك صحف خاصة أو مجلات علمية وفنية ، ويلحق بها الابواب التي تحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغي التأنيق في عباراتها والإيفال في معانيها تحقيقاً للغرض المقصود بها من تعليم العلوم وترقية الآداب ، ولا يقبل على قراءة مثل هذه المجلات إلا المتعلمون .

٣ - النثر الأدبي ، وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ ، والتأنيق في النظم ، حق يخرج الكلام مشرقاً منيراً ، لطيف الموقع في النفوس ، حلو النبرة في الآذان ، لان للموسيقى اللفظية أثراً كبيراً في الأذهان . وهو أدنى أنواع النثر إلى الشعر ، ولهذا لا يُنكر منه البديع ، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارئ ، وبحيث لا يستكره على النظم استكراهاً ، ولا تساق الجملة لمجرد اصطياده ، بل ان خيره ما جاء عفواً .

ويقضي التأنيق في اللفظ ، وجودة السبك ، وتفتيق المعاني ، معرفة

بأسرار اللغة ، ووفرة محصول من المفردات ، وخبرة بالكلام الجيد ،  
واستظهار كثير من المنشور والمنظوم ، هذا إلى طبيعة مواتية ، وحس  
مرهف ، وذوق ، وفطنة إلى مواطن الجمال .

وعلينا بعد أن سقنا إليك أمثلة من أنواع النثر ، وعرفناك  
بخصائصه ومميزاته ، أن نطلمعك على سير موجزة لأعلام البيان في هذا  
العصر ، وما برز فيه كل منهم غير هؤلاء الذين ترجمنا لهم آنفاً أمثال  
الشدياق وأديب إسحق .

#### ١ - السيد جمال الدين الأفغاني :

وإذا أردت أن تقف على الروح التي تكمن من وراء هذا الأدب  
الحبي ، والتي بعثت في الشرق الإسلامي كله حيوية دافقة ، وهزته  
هزة عنيفة أيقظته من نومه الطويل ، وعرفتته كيف يطلب حقه من  
الأقوياء العتاة ، وكيف يدفع عن نفسه جور الظلمة القساة ، فاعلم  
أن الروح تمثلت في السيد جمال الدين الأفغاني ، من يدين له الشرق الإسلامي  
ببقائه القومية والفكرية في العصر الحديث .

رجل فرد ، استطاع بما أوتي من عزيمة جبارة تنهار أمامها العروش  
وتزلزل الممالك ، وتتقوض الحصون ، وبما أوتي من فكر نير مشرق  
ملهم ينقشع أمام ضوئه الوهاج حندسُ الجهل وغياب الظلم ، وبما أوتي  
من لسان كذرب طلقت ، حاد مطنوع ، يدفعه شعور متقد ، وعاطفة  
متأججة ، وإحساس مرهف ، وحاسة عارمة فيلهب بهذا اللسان ،  
وذاك الشعور كل من ينصت إليه ، فيحيل البليد نشيطاً ، والجبان  
جريئاً ، والحامل مقداماً - استطاع هذا الرجل وحده بهذه القوة أن

يخلق قادة وزعماء ، وأن يُكوّن عدداً من الحكومات الفتنة . وهكذا يابى الله إلا ان يضرب للناس أمثلة على بالغ قدرته ، وعظيم إعجازه في كل جيل . وقد مر بك ما قاله الشيخ محمد عبده عن حالة مصر قبل أن يهبط وادها جمال الدين ، وكيف أن بعثات محمد علي وإصلاحاته ونشاط اسماعيل وتقديراته ، واطّلاع بعض شباب مصر وشيوخها على حضارات الأمم الأوروبية وغيرها لم يؤت ثمره ، ولم يبعث في الأمة هذه الروح المتوثبة ، ولم يحرك خامد العزائم ، وينصب المثل العليا أمام الشعوب تهدف إليها في سيرها وتحث الخطى نحوها ، وإنما وجد ذلك كله على يد جمال الدين . فأي رجل كان هو ؟

شعلة متقدة من الذكاء ، وسرعة الخاطر ، وقوة المعارضة ، شديد الرغبة في الإصلاح ، وإنهاض الأمم الإسلامية ، وتحطيم الأغلال والقيود التي جعلتها في مسغبة ومذلة وجهل ومرض والخلال ، كان ثورة عنيفة على الظلم والطغيان والجبروت . قابله السلطان عبد الحميد الطاغية في ( يلدز ) فطلب منه أن يكف عن هجماته على شاه المعجم فقال السيد : « إني لأجلك قد عفوت عنه » ، فارتاع السلطان لهذه الكلمة الجريئة ، عفا « السيد » عن الشاه ذي الحول والسلطان ، أجل ؟ فالسيد أقوى منه بأساً وأعظم قدراً ، وأقدر على النكاية ، إنه حرب شعواء تطلوح بالتيجان وتذك العروش . ويجلس جمال الدين بحضرة عبد الحميد ، وهو يداعب مسبخته غير حافل بمن تعودت الأبصار أن تخشع في مجلسه ، وتطأطئ الرؤوس فرقاً ورعباً منه . ونبهه إلى هذا كبير من رجال الحاشية بعد مغادرة عبد الحميد للمجلس فقال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبخته كما يشاء ؟ » فارتاع الرجل ، ويهرب من سماعه هذه الكلمة التي لم يجرؤ أي انسان أن يرفع بمثلها أو بها هو أقل منها صوتاً في البلاد الإسلامية .

ولد السيد جمال الدين الأفغاني في قرية ( أسد آباد ) من قرى ( كندر )<sup>(١)</sup> ببلاد الأفغان سنة ١٢٥٤هـ - ١٨٣٩م من أسرة شريفة تنتسب إلى الإمام الترمذي المحدث المشهور ، وتوفي إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنها ، وانتقل به والده إلى ( كابل ) وهناك تلقى تعليمه ، فدرس مبادئ العلوم العربية والتاريخ ، وعلوم الشريعة ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عقلية سياسية ، وفلسفة ، وكذلك العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك ، ودرس نظريات الطب والتشريح ؛ ثم سافر إلى الهند ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، واطلع على علوم الرياضة في الطرق الحديثة ، وقدم الحجاز للعيج ، وقضى في رحلته إلى مكة سنة ، فأفادته الرحلة خبرة بالشعوب الإسلامية ، وأحوالها الاجتماعية ؛ ثم رجع إلى بلاده ، واشترك في مؤامرة سياسية مكنت بعض الأمراء من التغلب على عرش الأفغان ، فعمّمت مكانته لدى هذا الأمير ؛ ولكن عصفت الأحداث بأميره هذا ، وحاول خلفه الانتقام من السيد جمال الدين ، ففطن لمكايدته وغادر بلاده إلى الهند فصر ، ومكث بمصر أربعين يوماً ، ومن ثم يم نحو الآستانة فذاع صيته بها ، وعلت مكانته حتى انتخب بعد مدة وجيزة عضواً في مجلس المعارف الأعلى ، ولكن آراءه الإصلاحية الجريئة ، وأفكاره الحرة التي لم يألفها الناس في عصره بعثت في نفوس رجال عبد الحميد الطمع ، وتآلب عليه كثير من القوم ، ولا سيما شيخ الإسلام ، فجاءه الأمر بمغادرة البلاد خشية أن يشعل في عرش عبد الحميد الحريق .

---

(١) هكذا روى جمال الدين عن ولادته ، أما الفرس فيدعون أنه ولد بالقرب من حمدان بإيران ؛ ويرجع تفضيله الانتساب إلى الأفغان ، كما يقول الاستاذ براون ( الثورة الفارسية ص ٤٠٢ . هامش ) إلى أن جمال الدين كان سنياً عربياً وأنه أراد الهروب من الجنسية الفارسية الشيعة التي كان يشك في قيمتها .

فقدم السيد جمال الدين مصر ، ودخلها في مارس سنة ١٨٧١ ،  
ومكث بها ثماني سنوات كانت خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق  
العربي والإسلامي ، فقد حاول جمال الدين من قبل أن يفرس تعاليمه ،  
وينفخ في الشعوب الشرقية من روحه ؛ ولكن وجد أرضاً مجذبة ،  
وشعوباً ميتة لم تسمع لندائه وما أن نزل مصر حتى فتحت له ذراعيها ،  
وحببت له الإقامة بها ، والتف حوله لفيف من أبنائها ، من كل تواق  
للحرية ، محب للعالم حريص على نفع وطنه وإنهاض قومه ، وتجاوبت  
روحهم وروحه ، ووجدوا فيه المعلم الفذ والمفكر الجريء وصاحب  
العقل المستقيم ، ووجد فيهم تلامذة بررة ، وعقولاً خصبة ، ونفوساً  
تتحرق شوقاً للحرية والعدل .

كانت هذه السنوات الثمان مليئة بالأحداث ، فقد غرقت مصر في  
ديونها التي اقترضها إسماعيل ، وبدأت مطامع إنجلترا وفرنسا جلية ،  
فأنشئ صندوق الدين وفرضت الرقابة الثنائية واستحالت هذه الرقابة  
إلى مشاركة في الحكم ، إذ دخل وزارة نوبار باشا ووزيران أوروبيان  
أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي ، يشرف الفرنسي على وزارة الأشغال  
ويشرف الإنجليزي على وزارة المال <sup>(١)</sup> ، وأي احتلال أبشع من هذا ؟  
إن الذي يصرف المال قوام على شئون الدولة ، ومن يتولى الأشغال  
مهيمن على تقدم الأمة ، فكان عجباً ألا ينغمس السيد جمال الدين في  
السياسة من أخص قدميه إلى قمة رأسه ، وهو الذي حاول من قبل  
أن يثل عرشاً ، وينصب ملكاً ، ويصلح من شئون عبسد الحميد  
الاستبد الطاغية .

جاء جمال الدين مصر وهذه ظروفها ، ووجد من إسماعيل صدرأ

---

(١) عصر إسماعيل لعبد الرحمن ج ص ٩٠ .

رحباً ، لأنه رأى فيه العالم المشهور بفلسفته وعلمه ، فوجوده بمصر ربح لا يقدر ، وهو في نظره ، أجل وأنفع من بعض المعاهد العلمية التي أنشأها ، لأنه معهد حي حنكته التجارب وأنضجته الحوادث ، ولم يكن السيد قد عُرِفَ بآرائه السياسية المتطرفة بل غلبت عليه الصبغة العلمية ، ولم يكن اسماعيل يخشى على حكمه أحداً ، وهو الحاكم الذي لا يراجع في حكم ، والذي يتصرف في أقدار البلاد دون رقيب أو حسيب ، وكان مجلس الشورى آلة مطواعة في يده ، لا يجهر باعتراض ، أو يجرؤ على مخالفة ، ثم إن اسماعيل كان يتحدى الدولة العثمانية في ذاك الوقت ، ويتوق جهده إلى الاستقلال بأمر مصر ، وقد رأى أن الآستانة قد ضاقت رحاها بالسيد جمال الدين وخافت من آرائه وتعاليمه ، فلتبرهن مصر على أنها أقوى من تركيا وأكرم نفسها ، وأقدر على هضم آراء جمال الدين من أي بلد في الشرق ، ولم يكتفِ إسماعيل بهذا الترحاب بل أجرى على السيد راتباً شهرياً زيادة في إكرامه .

وأخذ هذا العقل المنظم الجبار يشع النور في كل مكان يحلته صاحبه ، فدروس منظمة يلقيها في بيته على صفوة مختارة من حواريه أمثال : محمد عبده وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وإبراهيم طلباوي ، وكانوا جميعاً طلبة بالأزهر حينذاك وكانت هذه الدروس : منطقاً وفلسفة وتصرفاً وهيئة ، مثل كتاب الزوراء في التصوف وشرح القطب على الشمسية في المنطق ، والهداية والإشارات وحكمة العين ، وحكمة الإشراف في الفلسفة ، وتذكرة الطوسي في علم الهيئة القديمة . وهي كتب قديمة تمثل علماً قديماً دَوَّنَها أربابها في العصور الأولى للدولة العربية ، ولكن الروح التي درس بها جمال الدين هذه الكتب ، والطريقة التي عرّضت بها هذه المباحث ، والتعليقات التي كان يفيض فيها عقب كل مقالة أو بحث ، والابتطارات التي تدعو إليها

مقتضيات العصر وظروفه هي التي حبيت هذه الدروس وتلك الكتب لهؤلاء التلاميذ الأذكياء ، وجعلت من دروس جمال الدين نبأ صافياً يغترف منه الطلبة علماً وفلسفة ، ووطنية ، واجتماعاً ، وحججاً قوية لرد المارقين عن جادة الدين ، ووجدوا فيه شخصية لا تتردد في إصدار الأحكام العامة على القضايا المعروضة .

وبجانب هذه الدروس المنظمة كان للسيد مجلس آخر بأحد المقاهي القريبة من حديقة الأزبكية ، حيث يلتف حوله أنماط شتى من الراغبين في التزود من علمه وفكره ، يجلسون إليه وي طرحون عليه أسئلة في مختلف الموضوعات ، وهو يجيب إجابات العالم المحقق لا بسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور أو يستلقت الفكر إلى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بها ينالون إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وتنبت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصاً في القاهرة (١) .

في هذه الحلقة انشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخاملة وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيها تخرج محمود سامي البارودي ، وعبد السلام المويلحي ، وأخوه إبراهيم المويلحي ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلي مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحق وغيرهم . وفي هذه المدرسة العامة ، استعرضت حال

---

(١) من ترجمة الإمام الشيخ محمد عبده له .

الأمة الاجتماعية والسياسية ، وحقوقها وواجباتها ، وأدواؤها وهواؤها ، وانتقد الحكم ، وبثت التعاليم ، وفشت روح التذمر من الأجانب وتدخلهم في شئون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد .

كان جمال الدين يقضي بياض نهاره في بيته يختلف إليه أعضاء تلاميذه ، وما أن يقبل الليل حتى يخرج متوكئاً على عصاه الى هذا المقهى ، فيجسد في انتظاره الطبيب والمهندس والأديب والشاعر والمعلم والكيميائي وغيرهم ، ويظل يتحدثهم بشغف وقوة حتى يمضي جزء كبير من الليل .

ولم يكتف جمال الدين بهذه المدرسة العامة ، ولا بالدروس الخاصة ، بل حاول أن يسيطر على الحياة السياسية ، فانضم الى جماعة ( الماسون ) وبها الطبقة الممتازة من أبناء الأمة لعله يستطيع أن يريهم النور ، ويبصرهم حقيقة ما هم فيه ، وما عليه بلادهم وكيف يستطيعون نفعها بآلهم وجاههم ؛ ولكن وجد الحفل الماسوني يأبى أن يقتحم ميدان السياسة ، ويتعرض للمسائل العامة ، والقضايا الهامة ، فثارت ثائرتة وأخذ ينقد أعضاءه نقداً لاذعاً ، ويتهم بهذه الكلمات الجوفاء التي اتخذوها لهم شعاراً مثل : « الحرية والمساواة ومنفعة الإنسان ، والسمي وراء ذلك صروح الظلم ، وتشديد معالم العدل المطلق » فكيف تتحقق معاني هذه الكلمات اذا لم يشتمل الحفل ( الماسوني ) بالسياسة . ولما أخفق في بعث هذه النار الهامدة في نفوسهم الميتة استقال ، وكوّن محفلاً آخر للشرق الفرنسي ، وأخذ الأعضاء يزيدون حتى بلغ عددهم ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين ، ونظمهم شعباً مختلفة : فشعبة للعدل ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأساقفة ، ورابعة للجيش وهكذا حتى تدرس أحوال البلاد جميعها وتعرف وجوه النقص ، وما يتطلبه الإصلاح من أعمال .



وبذلك أراد جمال الدين أن يسيطر على عقول الطلبة في بيته ، وعلى أفئدة المستنيرين في مقهاه ، وعلى أزمئة السياسة في محفله ، وبأبى إلا أن يصبغ مصر المتعلمة غنيها وفقيرها بأرائه وتعاليمه ، ويدفعها في الطريق التي رسمها .

### آثره بمصر :

١ - أراد في درسه النظامي أن يعود الطلبة حرية البحث ، ويطلعهم على آفاق جديدة من التفكير وفهم العالم ، وأن يوجد شخصيات تبحث وتفقد وتحكم ، وألا تقف عند حد النص كأنه تنزيل من الله سبحانه ، وكانت طريقته في هذه المدرسة جذابة شائقة إذ يفيض في شرح المسألة ويعلق عليها من عنده ثم يقرأ النص بعمد ذلك ، فإذا هو واضح كل الوضوح . وعلى العكس من ذلك كانت طريقة الشيخ محمد عبده ، إذ كان يقرأ النص أولاً ، ثم يعلق عليه بعد ذلك .

٢ - وأراد في مدرسته العامة أن يعلم الشعب كيف يسترد حريته المفقودة وكرامته المهذرة ، وكيف يحاسب حكامه حساباً عسيراً على تصرفاتهم ، وكيف يثبته الى دسائس المستعمرين الجشعين ونواياهم ، وكيف يعيش هذا الشعب عيشة تليق بالإناسي .

٣ - وأراد في ميدان السياسة أن يغير هذا الحكم المطلق الذي يستبد فيه الحاكم بأمتيه ويستهن بشعبه ، ويتصرف في أموالهم وأرواحهم تصرف السيد في حرّ ماله وعبيده ؛ أراد أن يشترك الشعب في حكم نفسه بنفسه ، وأن ينوب عنه ممثلون نيابيون يرعون مصالحه ويسهرون على اسعاده

وقد كان له في السياسة كذلك مقصد أسمى من هذا ، وعنه عبر الشيخ محمد عبده بقوله : « انه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها ، وتنبئها للقيام بشئونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للاسلام شأنه ، وللدین الحنيف مجده ، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية ، وله في عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها (١) » .

٤ - وقد استعان على تحقيق هذه الأهداف - وان لم تتحقق كلها ولا سيما السياسية منها - بتكوين جماعة من الكهول والشبان حسب اليهم الكتابة ، ورسم لهم خطتها ، وأوحى لهم بالمعاني الجديدة التي يكتبون فيها . وشجعهم على انشاء الجرائد ، يكتب فيها بنفسه ويطلب الى من يتوسم فيه المقدرة والمنفعة أن يكتب فيها ، ومن مقالاته في جرائد أديب اسحاق ما كان يوقمه باسم ( مظهر بن وضاح ) . وطلب الى الشيخ محمد عبده و ابراهيم اللقاني وغيرهما أن يشتركا في تحرير جريدة ( التجارة ) التي أنشأها أديب اسحق ، وفي هذه الجريدة كتب السيد جمال الدين . مقالين أحدهما : « الحكومات الشرقية وأنواعها » ، والثاني بعنوان « روح البيان في الإنجليز والأفغان » ، وكان هذين المقالين صدى بعيداً ، ولكن جريدتي أديب اسحق ( مصر والتجارة ) ضايقا رياض باشا بروحها الجديدة وأسلوبها الملتهب ، وأفكارها الجريئة فأغلقها كما مرّ بنا (٢)

وقد تدخل كذلك في تحرير « الوقائع المصرية » وطلب الى الكتاب

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٣٤ .

(٢) راجع ص ٩٢ من هذا الكتاب .

أن يديجوا مقالاتهم في موضوعات معينة تمس حياة الأمة في صميمها ،  
فيقول الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من  
البشر الذين يخطئون وتقلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف  
طرفيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل ،

وتراه يحرض الصحفي اليهودي « يعقوب بن صنوع » على إصدار  
جريدته النحكية ( أبي نضارة ) ويشجعه على الاستمرار في النقد الذي  
يلدغ به إسماعيل .

وقد كان لهذه المقالات أثران : أحببنا تنبيه الأذهان إلى المسائل  
الحوية وتمويد الناس الجرأة على الحكم ومطالبتهم بالنصفة والعدل ، وتبيان  
مكايد الأجانب وجشعهم ، وثانيها تكوين جيل من الكتاب متمكن من  
اللغة قدير على الإسهاب شرح المعضلات من غير لجوء إلى المحسنات  
والزخارف ، خبير بتفتيق المعاني وتوليد الأفكار ، متحرر من السخافات  
والجمود ، متمم في ذلك سنن أستاذه جمال الدين الذي يقول عنه الشيخ  
محمد عبده . « له سلطة على دقائق المعاني وتمديد ما إبرازها في الصورة  
اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة في حل ما يعضل منها  
كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع  
يلتقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتي على أطرافه ،  
ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ،  
وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له في باب الشرعيات  
قدرة على الاختراع ، كان ذهنه عالم الصنع والإبداع . »

ويقول في موضع آخر . « كان أرباب العلم في الديار المصرية ،  
القادرون على الإجابة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل ، وما  
كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكري ، وخيري باشا ، ومحمد باشا

سيد أحمد ، على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهي ، على تخصص فيه ، ومن عدا هؤلاء ، فإما ساجعون في المراسلات الخاصة ، وإما مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ، ومن عشر سنوات ترى كتبة في القطر المصري لا يُشَقُّ غبارهم ، ولا يوطأ مضارهم ، وأغلبهم أحداث في السن ، شيوخ في الصنعة وما منهم إلا أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به .

وقد مر بك ما تميز به أسلوب هذا النثر في موضوعاته للثلاثة : الاجتماع ، والأدب ، والسياسة .

### جمال الدين والثورة :

لم يكن جمال الدين على وفاق مع إسماعيل في أخريات أيامه ، بل كان ناقماً عليه لاستبداده وإسرافه ، وتمكينه سياسته للأجانب في البلاد ، وكان يتوهم الخير في توفيق إذ كان يجتمع به وهو ولي للمهد ، ويرى ميلاً للأخذ بنظام الشورى ، ونقده لسياسة أبيه وإسرافه ، وقد اجتمعا في محفل الماسونية ، وتعهدا على إقامة النظام النيابي .

بَيِّنْدَ أن توفيقاً لم يف بهمه بعد ان تولى الحكم ، وسرعان ما تنكر لمبادئه ولأصدقائه فلم يُدخل نظام الشورى ، ولم يحسن معاملة السيد جمال الدين الأفغاني ، بل استمع لأقوال الوشاة من الإنجليز وسواهم ؛ اذ حرضوه على اخراجه من مصر <sup>(١)</sup> فاستجاب لهم ، ولم يكن ككريماً

---

(١) النار ج ٨ ص ٤٠٤ ، وانظر كذلك . The Persian Revolution : F. G. Browne 1909 p.8 وتاريخ الامام ج ١ ص ٧٠ .

في معاملة هذا المبقرى الشريف بل استعمل معه غاية الفلظة والقسوة والجفاف ، فسبق إلى دار الشرطة بليل بعد انصرافه من مقهاد بغير غطاء أو فراش ، وبات ليلته كما يبيت اللص الأفاق على أرض الخفر ، ثم هُرب إلى السويس حيث رحلت به سفينة إلى الهند ، وهكذا حرمت مصر مصدر خير كبير لها ، وجازت هذا النابغة على فضله جحوداً وجفوة .

ومن المعجيب أن يضم مجلس الوزراء الذي أصدر أمره بنفيه بحجة أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » اثنان أعجب بها وتوسم فيها الخير : توفيق باشا ، والبارودي وكان ألمه بالغا غايته للتكسة التي أصابت البارودي وقد كان يؤمل فيه كل خير ، وي بعده ليوم عصيب في تاريخ مصر ، وقد ظلت هذه الآلام تحز في نفسه حتى أخريات حياته . فقد زاره الأمير شكيب أرسلان وهو بالآستانة ، ويدور الحديث حول ماروي من أن العرب عبروا المحيط الأطلسي قديماً وكشفوا أمريكا بدليل الأهرام الموجودة ببلاد المكسيك ؛ فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان كونوا بنى آدم أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينبغي ما هم عليه من خمول وضعة ، إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاد كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم ؛ ان المسلمين قد سقطت هيمتهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم هي شهواتهم . هذا محمود سامي البارودي عاهدني ثم نكث معي وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .

والحق أن موقف البارودي من السيد جمال الدين لا يمكن الدفاع عنه . وإذا كانت مصر قد حُرمت شخص جمال الدين فقد ظلت تعاليمه وروحه الثورية مشتعلة ، وقد انتقل منها قُبس إلى كل من اتصل به ، يتطلعون إلى نظام جديد في الحكم حتى قامت الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها مدينون بأفكارهم وحماستهم للسيد جمال الدين .

أقام السيد جمال الدين مجيدراً أبداً بعد أن خرج من مصر ، وهناك ألف كتابه في الرد على الدهريين ، وفيه يثبت أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران ، ويبطل فيه مذهب ( داروين ) في النشوء والارتقاء ، لأن هذا المذهب قد أثار موجة من الإلحاد والزندقة كادت تؤدي بالحياة الروحية بالشرق وهي كل ما بقى له من تراث السلف ، بعد أن نال منه الدهر غايته ، وبين في هذه الرسالة كذلك أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث حصال : كل منها ركن لوجود الأمم . أما العقائد فالأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلوقات ، والثانية : يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل ، والثالثة : يقينه بأن الإنسان جاء إلى الدنيا كي يكتمل كلاً يهيئه للمروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي . وأما الحصال الثلاث : فهي الحياء والأمانة والصدق . ويبين أن الإسلام يتميز على غيره من الأديان بمزايا عديدة : منها صقل العقول بالتوحيد وتطهيرها من لوثة الأهواء ، ومخاطبة العقول حتى تؤمن فلا يقبل الاعتقاد بدون دليل ، وحرصه على تعليم الأمة ذكوراً وإناثاً .

ولما أخفقت الثورة العرابية ، ودخل الإنجليز مصر أبيح له أن يذهب إلى أي بلد غير بلاد الشرق فاختار أوروبا ، وزار لندن ثم

انتقل إلى باريس ، ووافاه إليها تلميذه الأكبر محمد عبده ، وكان  
منفياً ببيروت وهناك أصدرها معاً :

### جريدة العروة الوثقى ،

وهي دليل آخر على أن عزية السيد لا تفتر ، وعلى أن اليأس لم يبلغ  
في نفسه مبلغاً يثنيه عن أداء رسالته ، وقد كان من رأي الشيخ محمد  
عبده أن هذا الجيل من المسلمين ، الذين يدعونه للرشاد واليقظة جيل  
فاسد لا رجاء فيه ، وأن الأولى أن تنشأ مدرسة يربى بها عدد محدود  
من خيار الشباب يقودون الأمة فيما بعد لما فيه خيرها ونفعها ، ولكن  
هذه الفكرة لم ترق للسيد ، ورأى فيها تثبيطاً للهمم ، وكأني به  
يتعجل قطف الثمرة لهذه الفراس التي أودعها المتصلين به ، وأصر على  
أن يوجه الدعوة إلى الجيل الحاضر من الناس في صورة جريدة العروة  
الوثقى ، يكون له فيها الفكر المدبر والعقل المسيطر ، وللشيخ محمد  
عبده القلم المحرر واللسان المعبر ، ولميرزا محمد باقر الترجمة من الصحف  
الأوربية ، ونقل كل ما يهم الشرق والإسلام <sup>(١)</sup> : وصدر من الجريدة  
ثمانية عشر عدداً ، وكانت شعلة ملتهبة متوهجة من الحماسة والآراء الجرة  
الجريئة ، وكانت حرباً شنها جمال الدين وزميلاه على الاستعمار الجشع ،  
وكان طبيعياً أن يحاربها الاستعمار خشية أن تفسد عليه تفردة بالغنيمة  
وقتل الشعوب التي وقعت في قبضته ، فمنعها من دخول الهند ومصر <sup>(٢)</sup>  
ولما شعر السيد وزميلاه أن الأعداد لا تصل إلى أصحابها إلا في النادر ،

---

(١) تاريخ الإمام ج ٢ ص ٢٢٩ ، والناظر ج ٨ ص ٢٥٥

(٢) الناظر ج ٨ ص ٤٦٢ ومشاهير الشرق ج ٢ ص ٥٧

وأنة قد حيل بينهم وبين وصول صوتهم إلى آذان الناس في مصر والشرق عطلوها ، وإن لم يمت أثرها حتى اليوم .

### عود إلى الرحلة :

لما عطلت الجريدة ، وانفرط عقد هذه الجماعة الصغيرة المجاهدة ، ورجع الشيخ محمد عبده وميرزا باقر إلى بيروت ، طلب شاه المعجم السيد جمال الدين فلبى دعوته على يحد ميداناً صالحاً للجهاد ، وأرضاً خصبة لغرس تعاليمه ، وملكاً شهماً مستنيراً ينفذ آراءه فيكون هو الأمل المنشود ، ولكن هيهات وملوك ذاك الزمان ما ألقوا أن يشاركهم في سلطانهم أو جاههم أحد ، ولذلك ستم الشاه ( نصر الدين ) صحبة السيد ، ودبت في نفسه الغيرة منه . ولما أحس جمال الدين أنه أخذ يفتكر له استأذن في الرحيل ، ويم صوب روسيا حيث قضى بها ثلاث سنوات يحرك روسيا ضد انجلترا ، ويشن هجمات متتالية شديدة على شاه الفرس كي يقر النظام الشوري ، ولما سأله القيصر عن سبب عداوته للشاه أجاب بأنه نظام الشورى الذي لا يرضيه ، والذي لا أنفك أدعو إليه ما حييت ، فقال القيصر : إن الشاه على حق ، فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ، فقال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداءه يترقبون له الفرص . فلم يعجب القيصر هذا الحديث ، وكان من الطبيعي ألا يعجبه وهو المستبد الذي لا ينازعه سلطته منازع ، ولذلك عمل على إبعاده من روسيا (١)



ومن ثم توجه السيد إلى باريس ، وفي طريقه إليها تقابل مع الشاه مرة ثانية واعتذر للسيد عما حدث ، ووعدته أن يهد له طريق الإصلاح إن هو عاد معه ، وتمنع السيد جمال الدين ، ولكن رغبته في الإصلاح وحرصه عليه جعلته يقبل الرجوع إلى طهران . وفيها أخذ يعد العدة للإصلاح وإقامة العدل ، هو ومن التف حول له من العلماء والعظماء ، والشاه يظهر استعداده لتقبل هذا الإصلاح ، ولكن الصدر الأعظم في تركيا خشي إن تمكن نظام الشورى في فارس أن تسري عدواه ، فوسوس للشاه ، ونفثه من هذا الإصلاح ، بدعوى أن ذلك يحد من سلطانه ، ويتركه إمعة لا رأي له في بلده ، فتجههم للسيد جمال الدين . ولكن هذا لجأ إلى ضريح ولي في بلاده ( شاه عبد العظيم ) وهو حرم من دخله كان آمناً ، ووافاه جم غفير من العلماء والزعماء ولقنهم دعوته ، وملاً قلوبهم إحنا وبغضاً للشاه ونظامه فاغتاز هذا وأرسل جنده إليه ، واقتحموا عليه الضريح غير مباين بحرمته ، ولا بمرض السيد ، وفي ذلك يقول : « سحبتني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة ... ثم حملتني زبانية الشاه وأنا مريض - على بيرذون ، مسلسل ، في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقطني جحفة من الفرسان إلى خانقين ، ومنها سافر إلى البصرة وهو في أشد حالات المرض ، وكاد يقضى عليه لولا رحمة الله به (١) »

ولكن هذا المكافح أبى أن يتقبل هذه الأهانة . وأقسم ألا يكف عن الشاه حتى يسقطه عن عرشه . وقد بر بقسمه ، وذلك بتحريضه العلماء والزعماء ، وتمديدته مساوىء الشاه وتجسيمه أخطائه ، ولا سيما تعاقده

---

(١) The Persian Revolution, p.11 وتاريخ الامام ج ١ ص ٥٥ :

مع شركة إنجليزية للدخان ، واضطر الشاه إلى فسخ العقد ، ودفع تعويض مالي كبير ، فكان ذلك أول خطوة في الانتقام .

وأخيراً ذهب السيد إلى لندن وأصدر مجلة شهرية سماها « ضياء الحافقين » بالعربية والإنجليزية ، وكان يكتب بها مقالات بامضاء ( السيد الحسيني ) .

### خاتمة المطاف :

ثم رأى السلطان عبد الحميد أن يدعو إليه جمال الدين خشية أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة فيزيد في قوته ، وأرسل عبد الحميد رجاله يغرون السيد بالسفر إلى الآستانة ، ويمنونه الأمانى الحلوة حتى استجاب لدعواه فكان بها كأنه في قفص من ذهب يحصون عليه حركاته وأقواله ، وإن لقي من السلطان حظوة عالية . بيد أن الحاشية ولا سيما أبو الهدى الصيادي ذلك الداهية المحتال الذي أتقن فن الدس والمؤامرات وتمكن من قلب السلطان حتى أصبح قوة غلبة ، قد أفسدوا السلطان عليه ، وما لبث عبد الحميد أن اصطدم بآراء السيد وجراته ، ولم يدع السيد فرصة إلا حرضه فيها على الإصلاح ، وإقصاء الخونة والجبناء عن حاشيته ولكن لم يستجب لشيء من هذا . ولما قتل شاه المعجم سنة ١٨٩٦ على يد أحد تلاميذ السيد اشتدت الريبة في جمال الدين وضيّق عليه حتى صار محبوساً في قصره ، ولما أراد الرحيل ترضاه السلطان خشية أن يشنها عليه حرباً شعواء في الخارج ، وهو تحت سمعه وبصره أهون ؛ ثم مرض السيد بالسرطان في فمه ومات ، وشاعت الأقوال بأنه مات

مسموماً ، أو أن الطبيب أهمل في علاجه عمداً<sup>(١)</sup> وكانت وفاته في ٩ من مارس سنة ١٨٩٨ ، ودفن في قبر حقير كما يدفن أقل الناس وطمست معالم هذا القبر إلى أن قبض الله رجلاً أمريكياً بحث عنه حتى وجده فجدده ، وبني عليه حاجزاً حديدياً وشادة بالرخام وكتب على أحد وجوه الرخام اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته وفي وجه آخر العبارة الآتية : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم الخبير الأمريكي المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ »<sup>(٢)</sup> . وهكذا خدمت هذه الشعلة المتوهجة ، وإن ظلت آثارها حتى اليوم في نفوس من خالطوه وأخذوا عنه ، وفي نفوس تلاميذه وأتباعهم والأجيال التي تأثرت بهم .

#### نبذة من آرائه :

١ - مرّ بك في ثنايا هذه الترجمة الموجزة شيء من آراء السّيد جمال الدين ، وهناك بعض من أفكاره وتعاليمه ونظراته إلى الحياة جديرة بالنظر ، فقد كان في أول حياته طموحاً ، ذا خيال واسع ، وأمل عريض شمل الإنسانية جمعاء ، حتى دعاه ذلك إلى التفكير في السبب الذي يدعو الناس إلى الاختلاف والخصام ، ويدعو الدول إلى الحروب والمعاداة . وهدهاء تفكيره إلى أن السبب الأول هو تعصب رجال الدين في كل ملة ، وسوء توجيههم للشعوب ، وشحن قلوبهم بالحقد والبغضاء لكل من خالف دينهم ؛ وفي هذا يقول : « ورجعت إلى أهل الأرض ، وبحثت في أهم مافيه يختلفون فوجدته الدين ، فأخذت

(١) راجع حاضر العالم الاسلامي ج ١ ص ٢٠٤

(٢) أحمد أمين بجملة الثقافة العدد ٢٨٨ .

الاديان الثلاثة ، وبحث فيها بحثاً مجرداً عن كل تقليد منصرفاً عن كل  
تقييد ، مطلقاً للعقل سراحه ، ووجد أن الأديان الثلاثة تتفق في الغاية  
والمبدأ وأنه « إذا نقص في الواحد شيء من أوامر الخير المطلق استكمله  
الثاني - وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتماذوا في الطغيان ، وأساءت  
الكهان فهم الناموس أو أنقصوا من جوهره أنام رسول فأكمل لهم  
ما أنقصوه ، وأتم بذاته ما أهملوه ، وإذا كانت الأديان متفقة في  
المبدأ والغاية فما الذي يحول بين أهل هذه الأديان وبين الاتحاد ؟ إن  
اتفاقهم ووحدتهم تكفل لهم السعادة البشرية ، وبعد ذلك يقول :  
« وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً ، وأحبر رسائل  
للدعوة ، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلمهم عن قرب ، ولا  
تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً  
وشيعاً وطوائف . ولكن سرعان ما أدرك أن دون هذا الاتحاد أهوالاً  
وأهوالاً ، ولقد نسي قوله تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة  
واحدة » ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . وأن من  
يتعرض لهذه الدعوة يرمى بالكفر والإلحاد ، والخروج عن جادة الدين ،  
وقد رمي بذلك فعلاً ولهذا باء بالإخفاق : « انقلبت أفراحي بالخيال  
أقراحاً ، ورجعت عن نظريتي والفشل ملء إهابي وجبتي » (١)

وتطامن من أهدافه ، ووجد أن الشرق المسكين أولى بالرعاية  
والعناية ، وأن إصلاح العالم كله محال ، ولذلك عكف على جهاده في  
سبيل هذا الشرق ، وكان متألماً لبعض الخلافات الدينية بين أبناء الملة  
الواحدة كالسنة والشيعية .

---

(١) قدرتي طوقان : جمال الدين - آراؤه وأثره في نهضة الشرق ص ٢٠ .

٢ - وكان يرى ألا موجب لسد باب الاجتهاد في الدين ، وعلى المسلمين إذا أرادوا التقدم ، أن يستعملوا عقولهم ، ويستنبطوا كما استنبط أسلافهم أحكاماً تتماشى مع زمنهم وبيئاتهم ، ويقول : « ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد ؟ ومن قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن وأحكامه ؟ إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا فطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده <sup>(١)</sup> » .

وإذا تأملت أهداف جريدة العروة الوثقى التي ذكرها في المقال الافتتاحي أدركت إلى حد ما بعض آراء جمال الدين في إصلاح الشرق ، وقد عرفت ان جمال الدين كانت له الفكرة التي يعبر عنها محمد عبده في الجريدة . وهناك بعض هذه الأهداف والآراء :

( أ ) بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات . ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التي أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقهم ، وإزاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم .

( ب ) إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .

( ح ) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها أسلافهم وهي

---

(١) خاطرات محمد باشا الخزمي .

ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

( د ) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم وإبطال زعم الزاعمين ان المسلمين لا يتقدمون في المدنية ماداموا متمسكين بأصول دينهم

( هـ ) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تقبل إلى الحيف والإجحاف بحقوق اشرقيين .

وكان جمال الدين يعز بشرقيته وبلغته ، ويشمئز من هؤلاء ادين يتذكرون لقوميتهم ولغتهم ؛ فإن هذا التنكر يساعد المستعمر ، بل هو أثر من آثار تعاليمه يرمي بها إلى الخط من شأن كل ما هو شرقي و« لإخضاع أمة القوم ، وانتدراج بقتل التعليم القومي ، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في لسانهم العربي او الفارسي او الأردى او الهندى آداب تؤزره ولا في تاريخهم مجد يذكر » . لقد بلغ ببعضهم لفتة ان ينفروا من سماع لغتهم ، وأنت يتباهوا بأنهم لا يحسنون التعبير بها ، وأن حاتمونه من الرطانة الأعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية .

وقد عرفت فيما سبق كفاحه في سبيل حرية الشعوب ، ومطالبته بنظام الشورى ووقوفه أمام الحكام المستبددين كالجليل الأشم في جراءة وعزة نفس ، واستنهاضه الهمم ، كي تقوى دولة إسلامية تكون النواة التي يلتف غيرها حولها وبذلك يعاد مجد الاسلام ويقف قوياً أمام مطامع العرب وعسفه .

ولقد كان جمال الدين عالماً ومفكراً وفيلسوفاً ومصلحاً اجتماعياً ،

أشرب قلبه حب بلاده ودينه ، وأرسله الله في هذه الحقبة من التاريخ ليبدد دياجير الجهل ويبعث الحمية في النفوس . ولقد أرغم خصومه على احترامه بصراحته وجراته . ولقد رأيت كيف ضاقوا به ذرعاً في كل مكان ؛ لأنه كان حرباً على الجهل والظلم والقسوة والظفانيان ، ولقد أقر له الغربيون بالفضل حتى لقد قال عنه ( رينان ) وهو من هو في كرمه للمسلمين : « ولقد يخيل إليّ من حرية فكر الأفغاني ونبالة شمه وصراحته - وأنا أتحدث إليه - أنني أرى أحد معارفي من القدماء وجهاً لوجه ، وأني أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من العظام الذين ظلوا قروناً عدة يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

### أسلوبه في الكتابة :

لم يكن جمال الدين مفطوراً على اللغة العربية مطبوعاً على أساليبها الفصيحة ، لأنها ليست لغته الأولى ، وإنما تعلمها تعلماً ، ولم يكن حظه من آدابها كثيراً ، ولم يتذوق منازع بلاغتها بقدر كبير . ولكنه أفادها فائدة جلية بإرشاد تلاميذه إلى التحرر من القيود الثقيلة التي كانت ترسف فيها الكتابة الإنشائية من محسنات بدعية مختلفة ، وسجع متكلف ممقوت ، واستعارات غريبة وغير ذلك مما أفسد المعنى ، وستر الأفكار عن الوضوح والجلال . كما أرشدهم إلى تجنب المقدمات الطويلة ؛ وطبيعي أن يصرفهم إلى الاهتمام بالمعاني . لأن هناك أشياء كثيرة يريدون الإبانة عنها ، والإفاضة فيها . ولا يتسع هذا النثر المقيد لكل تلك المعاني ولا يستطيع إيضاحها كاملة . ولقد رأيت فيما سبق نماذج من هذا النثر ديجها تلاميذه ، أمثال محمد عبده وأديب إسحق . وقد قال أديب عن أسلوبه الذي تأثر فيه بتعاليم جمال الدين : « رأيت

أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة لتقرير المعنى في الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام ما كان غريباً وحشياً أو مبتذلاً سوقياً ، فإن التهاافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى في القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم . والتنازل إلى ألفاظ العامة يقضي بإماتة اللغة وإضاعة محاسنها ، وإن في لغة القوم لدليلاً على حالهم .

وهذا الوصف الذي ذكره أديب إسحق لنثره هو أثر من تعاليم جمال الدين ، وسترى من النموذج الذي سأعرضه عليك من نثره أن جمال الدين وإن لم يكن من المطبوعين على أساليب العربية الجميلة ، إلا أنه كان ينتزع البلاغة انتزاعاً فترى لقله سطوة لا تراها لكثير من الأقلام . وقد مر بك ، ما قاله الشيخ محمد عبده في قدرته على تفتيق المعاني والاحتفال بها . ومن مزايا أسلوبه كثرة الجمل الاعتراضية ، والفصل بين فعل الشرط وجوابه أو المسند والمسند إليه بفواصل طويلة ، وهذا ناشئ من ترتيب فكره وتعوده على الأساليب الفارسية الأعجمية . كما كانت لديه جرأة في استعمال القياس في اللغة فيأتي بمجموع لم يعرفها العرب وصيغ لم تسمع في لغتهم . وكان من مستلزمات كتابته وأثره من آثار عجمته إدخال ( ال ) على الأعلام .

هذا وقد وفينا موضوعات النثر في ذلك العصر حقها من الكلام ، وبيننا الأسلوب الذي تميز به دل منها ، فآلق عليها نظرة لتقف على أسلوب جمال الدين فقد كان المرشد للكتاب ، وإن لم يكتب هو الا القليل . ومن هذا القليل الرسالة الآتية التي بعث بها الى عبد الله باشا فكري يعتب عليه - وقد بلغه ان رجلاً ذمه امام الخديو على مسمع



من فكري باشا فسكت ولم يدافع عنه ، وهي من النوع الأدبي ولذلك احتفى بأسلوبها أيما احتفاء ، وفيها تتجلى خصائص أسلوبه عامة .

« مولاي : إن نسبتك إلى هوادة في الحق وأنت - تقدست جبلتكَ -- فطرت عليه ، وتحوض الغمرات إليه ، فقد بعث يقيني بالشك ، وإن توهمت فيك حيداً عن الرشد وجوراً عن القصد ، وأنا موقن أنك لا زلت على السداد غير 'مفترط' في الحق ولا 'مفترط' ؛ فقد استبدلت علمي بالجهل - ولو قلت : إنك من الذين تأخذهم في الحق لومة لائم ، وتصدم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع به غير وانٍ ولا ضجر ، ولو ألب الباطل الكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسي وكذبتني من يسمع مقالتي ؛ لأن العالم والجاهل ، والظن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيته ، ونقاوة سريرته واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت لا تفارق المكارم ولو اضطرت ، وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً ، ولا تصدر عنك نقيصة قصداً ، ولا تهن في قضاء حق ، ولا تني عن شهادة صدق ، ومع هذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمري ، وعرفانك بسريتي وسري ، أراك ما ددت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة ، وأنت تعلم أنني ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً ولا أسررت لأحد في خفيات ضميري ضراً ، وتركتني وأنياب النذل اللئيم ( فلان ) حتى نهشني نهش السبع الهرم العظام ، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقاني ، وإغراء من أعدائي أحزاب ( فلان ) .

ما هكذا الظن بك ولا المعروف من رشك وسدادك ولا يطاوعني لساني - وإن كان قلبي مدعناً بعظم منزلتك في الفضائل ، مقرأً بشرف

مقامك في الكمالات - أن أقول عفا الله عما سلف ، إلا أن تصدع  
بالحق ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهادة ، إزاحة للشبهة وإدحاضاً  
للباطل ، وإخزاء للشر وأهله ، وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق  
والعدل . ثم إني يا مولاي أذهب إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً ،  
وداعياً لكم ، والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل البار أمين بك ، .

جمال الدين الأفغاني

٨ صفر سنة ١٣٠٠

## ٢ - الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

وإذا كان جمال الدين قد أبعدته الظروف القاسية ، وجنود الغدر  
والاستعمار عن مصر وهي أحوج ما تكون إليه ، فقد ظلت بها روحه  
الوثابة ، ومصر في ذاك الوقت قلب الإسلام النابض ، وأمل العروبة  
الغض ؛ لأن تركيا - وهي مقر الخلافة - كانت عجوزاً مشلولة  
الأطراف ، جافة الفؤاد ، يابسة العمود ، تعتلج في أحشائها الوسواس  
والدسائس ، ويسيطر عليها خلفاء شعبوا من اللذائذ المادية حتى بشموا ،  
وانغمسوا في حمأة الشهوات حتى شرقوا ، والشام قد مجرهما المستنيرون  
الأحرار ، واستوطنوا مصر هرباً بنفوسهم الأبيسة أن يذلها الظلم ،  
ويجرحها الحيف والاضطهاد ، وبقية أقطار العروبة في سبات عميق ،  
أر يقظة قريبة من الوسن ، قد أعدتها تركيا بأدواتها ، فهي تترنج  
تحت فتكات الأمراض الاجتماعية وآلامها المبرحة وتكاد تسلم الروح  
إعياء وهزالاً .

أجل ! قد بقيت روح جمال الدين بمصر ترفرف على واديهما في

شخص محمد عبده <sup>(١)</sup> وهو شيخ من صميم ريف مصر ، أرسله أبوه إلى جامع الأحمدى ليتعلم كما يتعلم كثير من الناس بعد أن حفظ القرآن ، ولكنه تمرد على هذا التعليم بعد سنة ونصف حاول فيها أن يفك طلاسم ( الآجرومية ) فأعيبته الحيل ، فأيقن أنه غي ، وأنه غير مستعد لتلقي العلم وصمم على العمل في الحقل كما يعمل إخوته وأهله ؛ بيد أن والده أكرمه على الاستمرار في طلب العلم فهرب إلى أحد أخوال أبيه وهو :

### الشيخ درويش :

والشيخ درويش من الشخصيات التي أثرت على عقل محمد عبده وفي نفسه وفي خلقه ، وحددت له أهدافه في الحياة ، ولا يذهبن بك الظن ، فتتخيل أن الشيخ درويشاً هذا فيلسوف أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، أو أنه عالم من علماء التربية الأفذاذ ، فلم يكن - علم الله - إلا شيخاً صوفياً سليم العقيدة ، نير البصيرة ، على حظ قليل من العلم ، وكثير من التجارب ، فقد تتلمذ على السنوسي بطرابلس ، وجاب بعض الأقطار يتلقى على رؤساء الصوفية طريقة الدعوة وسياسة النفس .

---

(١) ولد محمد عبده بقرية « شبرا » بديرية الغربية سنة ١٢٦٦ هـ - ١٨٤٩ م وانتقلت به أمه إلى بلدة أبيه « عبده خير الله » محلة نصر بديرية البحيرة بعد ولادته بقليل وكان أبوه ذا مكانة ملحوظة في قريته يتنازع بقوة الجسم وصحته ، وبشبه من سعة الرزق والكرم والاستنارة ، وقد ورث عنه محمد عبده كل هذا .  
وقد ترك محمد عبده ترجمة حياته في وثيقتين إحداهما كتبها استجابة لصديقه الشاعر الرحالة الإنجليزي « ولفرد سكاون بلنت » وفيها شيء عن أجل أسرته وجزء من تاريخ حياته History of Egypt London 1907 W. S. Blunt Secret والثانية ما نقله عنه الشيخ وشيد رضا إجابة على أسئلة وجهها إليه . انظر المنار ٨ س ٤٠٥ وما بعدها .

جاء الشيخ محمد عبده إلى الشيخ درويش هارباً <sup>(١)</sup> من العلم وكان في الخامسة عشرة من عمره فتياً قوياً مغرمًا بركوب الخيل واللهو مع أمثاله من الشباب ، ولكن الشيخ درويش تلقاه كما يتلقى الطبيب المريض ، وعالج هذه العقدة التي كونتها ( الآجرومية ) في نفس الفتى ؛ وأعطاه كتاباً سهلاً في المواعظ والأخلاق . ولم يكن للفتى صبر على القراءة وسرعان ما مل المجلس ، ولكن الشيخ درويشاً أخذه برفق وتؤدة ، وكان يفسر له ما يقرأ فوجد الفتى فيما قرأ لذة ، وانصرف عن اللهو ، وعكف على قراءة الكتاب ، ويقول في ذلك : « وطلبت منه ( يوماً ) إبقاء الكتاب معي ، فتركه ، ومضيت أقرأه ، وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت علامة لأسأله عنها ، إلى أن جاء وقت الظهر .. وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب ، وهوى ينازعني إلى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم ولم يأت اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلي هو ما كنت أحبه من لعب ولهو وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء إلي ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم » <sup>(٢)</sup> .

وهكذا استطاع الشيخ درويش أن يحل العقد النفسية ، ويعيد للفتى

---

(١) مع العلم أنه كان قد تزوج وصمم على المكث بالبلدة . ولكن والده أمره بالذهاب إلى طنطا بعد أربعين يوماً من زواجه .

(٢) وبهذا برهن الشيخ درويش في قريته على أنه أقدر من علماء الأزهر في هداية الطلاب وتحبيبهم في القراءة ؛ ولقد كان مشايخ الصوفية في الماضي رسل هداية وتبشير وعلى أيديهم أسلم كثير من وثني السودان وزنوج غابات أفريقيا ، وهم الذين نشروا الإسلام في كثير من بقاع الأرض فأين منهم متصوفة زماننا الذين لاهم لهم إلا ملء البطون وكثر الأموال .

ثقتة بنفسه وفي ذكائه ، ويرغبه في العلم : وقد أفاد الفقه من ذلك درساً لم ينسه مدى حياته ، وهو أن الأزهر بحاجة الى الإصلاح الشامل في كتبه التي تدرس : وفي المعلمين الذين يقومون بالتدريس وكانت هذا أحد أهدافه في الحياة كما سئرى .

وقد أفاد من الشيخ درويش درساً آخر وقر في نفسه وبذل من قيم الأشخاص والناس عنده فلم يعد يهتم بالتفوق المادي والغنى والجاه ، بل علمه أن الإنسان الكامل في هذه الحياة هو من آمن وعمل صالحاً سواء كان غنياً أو فقيراً ، وعلمه كذلك أن الإسلام الصحيح يتنافى مع الأخلاق المنحلة والفساد ، لأنه عقيدة وعمل ، لا ألفاظ تقال ، ثم علمه كذلك أن الإسلام دين سهل سمح ، وأن مصدره الذي يجب أن يؤخذ منه هو القرآن وحده<sup>(١)</sup> وظلت هذه الدروس التي تلقاها في صباه تنمو وتترعرع في نفسه حتى صارت مبدءاً يسعى إليه وغاية يصبو الى تحقيقها .

وليس هذا كل ما فعله الشيخ درويش من توجيه لتلميذه ، بل كان يلقيه في الإجازات الصيفية بعد عودته من الأزهر ، ويلومه على عزله وعدم الاختلاط بالناس ودراستهم وإفادتهم بما عرف ، وكان يغشئ به المجالس ويحمله على أن يتحدث الى الناس ويحيب عن أسئلتهم ويكون لهم مرشداً ، لأن العلماء الذين يضمنون بعلمهم على الناس لا خير فيهم . وقد بقي الشيخ محمد عبده حتى مات وهو يعمل بهذه النصيحة ، ويرشد

---

(١) كان الشيخ درويش تلميذاً للسنوسيين كما رأينا ، وهؤلاء كانوا يقبسون مذهباً شيعياً بالمذهب الوهابي ، وهو الرجوع بالإسلام إلى بساطته الأولى ، متجنبين البدع وتفسيرات المتأخرين وزيادتهم في العقائد والفروع .

الناس كباراً وصغاراً رعية وساسة . فرحم الله الشيخ درويشاً ، لقد أدى للإسلام وللمصر وللشرق خدمة جليلة .

### في الأزهر :

وتحول الشيخ محمد عبده من الجامع الأحمدي الى الأزهر ، وكان الأزهر في ذلك الوقت على حالة من الفساد لا تطاق وبجسبك أن تقرأ تقريراً وضعه الشيخ عبد الكريم سلمان<sup>(١)</sup> عن هذا المعهد وحال أساتذته وطلبته ، ومدة الدراسة فيه<sup>(٢)</sup> ، وحال العلم ، فإن الكتب التي كانت تدرس به من نتاج العصور المتأخرة يدرسها أساتذة لا يفهمون الغاية منها ، ولا يستطيعون كتابة أربع جمل صحيحة<sup>(٣)</sup> ، وكان به كثير من ضيقي الفكر الذين يرمون الناس بالزندقة والكفر جزافاً مثل الشيخ عlish ؛ ولكن كان به من هيأتهم الظروف لأن يتسع أفقهم بمض السعة كالشيخ البسيوني ، والشيخ حسن الطويل وكان ذكياً حكيماً له نظرات في الحياة صائبة ، يقرأ الفلسفة فيرمى بالزندقة .

- 
- (١) لم يحمل التقرير اسم الشيخ عبد الكريم ولكن اشتهر بأنه له ، وفيه أعمال مجلس إدارة الأزهر من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ هـ وهي مدة اشتغال الشيخ محمد عبده في مجلس الأزهر .
- (٢) كانت إجازات الطلاب كثيرة ففي مولد السيد البدوي ، والدسوقي . ويوم عاشوراء والمولد الحسيني ، ومولد الشافعي ، والمففي والشرقاري ، وهذا عدا الأعياد الإسلامية والمولد النبوي ورمضان والأعياد الرسمية ، ولم تكن مدة الدراسة تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف يخرج منها الخميس والجمعة من كل أسبوع .
- (٣) وقد مر بك وصف عبداً فكري لهم في ص ١٥٧ من هذا الكتاب ، وقد كان الشيخ أحمد الرفاعي يدرس في ذلك الوقت كتاب المطول في البلاغة ويعترف أنه لا يحسن أن يكتب خطاباً ولو غير بليغ لأن هذا عمل تلاميذ المدرسة المدنية (أحمد أمين بمجلة الثقافة العدد ٣٨٨) واعتذر أحد أكابر العلماء وهو الشيخ الإمبابي عن حضور وليمة في رمضان فكتب رسالة الاعتذار على ورقة من أوراق المطار وأخطأ فيها عشرة أخطاء نحوية ، ( محمد عبده ل محمد صبيح ص ٦٥ ، وتقرير الشيخ عبد الكريم سلمان ) .

كانت هذه هي حال الأزهر العلمية حين وفد إليه محمد عبده ،  
ناهيك بالقدارة التي كانت تلوث المسجد وصحنه ، ودورة مياهه ، وأروقته ،  
والفوضى الخلقية التي كانت سائدة بين طلابه . وأخذ الشيخ محمد عبده  
يدرس العلوم المتداولة بالأزهر حينذاك من نحو وفقه وتفسير . أما العلوم  
الحديثة فلم يكن يسمع عنها الأزهر ورجاله ، ومن يتعرض لها فهو كافر  
في عرفهم مارق عن جادة الدين .

وكان الشيخ درويش حينما يعود الطالب الفتى إليه يسأله عما درس  
بالأزهر في عامه وبعد أن يستمع إليه قليلاً يسأله : ما درست المنطق ؟  
وما درست الحساب ؟ ما درست الهندسة ؟ فيجيب الشيخ محمد عبده بأن  
هذه الدروس لا يرى الأزهريون تعليمها ، فيقرر له هذا الصوفي المزوي  
في قريته بأن كل العلوم يجب أن تعلم ، وعلى الطالب أن يسعى إليها في  
أي مكان ، ويقول له : « إن الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه  
وحكته ؛ وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو  
السفيه ! وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من  
العلم بمقوت عند الله ، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه إلا ما يسميه  
بعض الناس علماً ، وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا  
قصد من تحصيلها الإضرار بالناس ، فأني رجل كان الشيخ درويش هذا ؟  
وعلى أي حال من الجهل كان الأزهر ؟

التمس الشيخ محمد عبده بعض هذه الدروس التي وجهه إليها مرشده  
عند الشيخ حسن الطويل<sup>(١)</sup> ، بيد أن هذه الدروس لم تشبع نهم نفسه ،

---

(١) وكان الشيخ حسن الطويل من الشخصيات الفذة في عصره ، ذا ذكاء حاد ومعرفة  
بالرياضيات وكان مدمساً بداد العلوم ، وقد بلغ من مهارته في الرياضيات أن كان يحل لطلبتها ما  
أشكل عليهم من تمرينات الهندسة ، وكان على معرفة بكتب الفلسفة القديمة والعالم والسياسة =

على الرغم من طرافتها ، وذكاء مدرستها وسعة مداركه وإنما كانت مثيرة  
لنفس الشيخ محمد عبده ، تبعث فيها الرغبة الى الاستقرار والتعمق والوصول  
الى الحقائق الواضحة بدون تردد أو التواء ، وأن تستشف ما وراء هذه  
الألفاظ القديمة ، وأن تصل هذا العلم القديم بالحاضر الجديد ، وتحل  
مشكلات الحياة بعامة ومشكلات مصر بخاصة . ولم يكن ذلك ميسوراً  
عند الشيخ حسن الطويل ، وإنما تهيأ لمحمد عبده أن يدرك هذه الغاية  
عند استاذة الأكبر جمال الدين الأفغاني حين وفد على مصر وقد تحابا  
وتصادقا ، ووجد جمال الدين في محمد عبده التربة الخصبة التي تحمّل  
تعاليمه عملاً صادقاً قوياً لا ينقص منه شيء بل يزيد على مرور الأيام  
نماء ، ووجد محمد عبده في جمال الدين الاستاذ الذي كمل له ما كان  
يشعر به من نقص ؛ فإذا كان الشيخ درويش قد لقنه شيئاً من التصوف  
سابقاً فقد كان تصوفاً خيالياً تحول على يد جمال الدين الى تصوف عملي ،  
وإذا كان الشيخ درويش قد بعث فيه الجرأة لمواجهة الناس والتحدث  
إليهم وبث تعاليمه بينهم ، فقد مكّنه جمال الدين من اختيار الموضوعات  
الصالحة التي يتكلم عنها ، وأفسح أمامه أفق الإصلاح فتعددت شعبه  
وميادينه من دينية وخلقية واجتماعية ، ثم إن جمال الدين حرصه على  
استخدام سلاح آخر في ميدان الدعوة ، غير الخطابة والمشافهة ، ألا وهو  
سلاح القلم ، حتى تسير دعوته مشرقة ومغربّة ، فتشمل القريب والبعيد  
وحتى تكون متقنة رائعة تغذيها التؤدة والفكر الناضج والمنطق . وقد

---

= وكان ذا شجاعة في الكلام بما يعتقد ولو حرم منصبه بدار العلوم، وزهد في الدنيا حتى لا يهيم  
منها شيء ، يلبس ثياباً رخيصة ، ويأكل قليلاً ويدعى الى مواعيد الأغنياء للافطار في رمضان  
فياً كل من طبق الفول ويذهب فيها عداه ، ويخرج من دار العلوم لكلامه في السياسة فينتفق عليه  
صاحب مقهى بلدي ، فلما عاد الى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه لينفق عليه منه كما كان  
يفعل وهو مطرود ، وكان يدرس في الأزهر الفلسفة والمنطق .



فتن محمد عبده بجمال الدين وبدروسه وبروحه المتوهجة وحماسه العارمة ، ونشاط فكره ونظراته للحياة ، ووجد فيه ما لم يجده عند حسن الطويل ، فلا بدع إذا رأيناه يكتب بخط يده على نسخة من كتاب قديم : « وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق ، وقائد الخلق الى جناب الحق ، خلاصة من تجلّى بالحكمة ، ومنقذ الضالين في تيه الجهالة والغمّة ، محيي الحق والدين استاذنا السيد جمال الدين ، وكان يلقبه « الحكيم الكامل » .

وكان جمال الدين يبادل محمد عبده حباً بحب وإعجاباً بإعجاب ، فقال عندما رحل من مصر سنة ١٨٧٩ : « تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً » . وهي كلمة تدل على مبلغ اعتقاد هذا المصلح الكبير في تلميذه وقدرته على تنفيذ تعاليمه والقيام بالدعوة إليها من بعده : وقد روى الخزومي في خاطراته أن جمال الدين لم يذكر اسم محمد عبده إلا مقترناً بكلمة « الصديق » أو « صديقي الشيخ » ، ولما اعترض عبدالله نديم على ذلك وقال له ذات يوم : « أيها السيد ما غفلت مرة عن اضافة لفظ الصديق الى الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن بين الناس صديق غيره ؛ إذ نراك تنعت من سواء بلفظ صاحبنا أو فلان من معارفنا ، أجاب جمال الدين بقوله : وأنت يا عبدالله صديق ، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ محمد أنه صديقي على الضراء ، وأنت صديقي على السراء » ؛ ويعترف محمد عبده بأنه مدين بالشيء الكثير لجمال الدين ويقول : « إن أبي وهبني حياة يشاركني فيها ( أخوأي ) عليّ ومحروس ، والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين ، وقد مرت بك كلمته في قدرة جمال الدين على تفتيق المعاني وكيف يتكلم في كل فن كأنه من كبار أساتذته .

ومنذ اتصل محمد عبده بحال الدين ابتدأ اتصاله بالحياة العامة والجهاد في سبيل إصلاح الأمة ، وهو بعد طالب في الأزهر ، لم ينل شهادة تجيز له التدريس . فقد كتب في ( الأهرام ) في السنة الأولى من صدورها بعض مقالات دلت على روحه وجراته مثل « الكتابة والقلم » و « المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني » و « العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية »<sup>(١)</sup> . ولخص بعض دروس أستاذه في الفلسفة بجريدة ( مصر ) التي كان يصدرها أديب إسحق ، وكان من الطبعي أن يثير هذا ضجة حول ذلك الشيخ الأزهري الجريء ، فمن معجب به ومن حاقد عليه ، ومن جامد ساخط يرميه بالزندقة .

وأخيراً تقدم الشيخ محمد عبده لنيل شهادة العالمية ، وقد تأخر الممتحنون عليه قبل مثوله أمامهم ، وعزموا على ألا يمنحوه العالمية . بيد أنه خيب أملهم بعلمه ومهارته في تصريف الكلام وسعة اطلاعه وسرعة بديته ، ووجد من الشيخ المباسي المهدي عطفاً ، واستطاع الشيخ العباسي أن يقنعهم بوجوب منحة ( الشهادة ) ولكن أصروا في عناد على أنه لن نالها من الدرجة الأولى واكتفوا بإعطائه الدرجة الثانية<sup>(٢)</sup> في غرة يرجب ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م .

وتصدى الشيخ محمد عبده بعد ذلك للتدريس بالأزهر ، وأثار حوله ضجة كبيرة فالشيخ عليش هم بضربه لأنه رجح مذهب المعتزلة في مسألة من المسائل على مذهب أهل السنة ، وتراه يتحدى علماء الأزهر

---

(١) انظر تاريخ الاستاذ الشيخ محمد عبده لرشيد رضا ج ٢ ص ٢٧ - ٥٧ وستكلم عن هذه المقالات فيما بعد من حيث قيمتها الأدبية .

(٢) وقد رجح الأزهر فيما بعد ذلك بست وعشرين سنة عن هذا القرار ، ومنح الشيخ محمد عبده في سنة ١٩٠٤ العالمية من الدرجة الأولى ، وكان شيخ الأزهر إذ ذاك الشيخ علي البيلوي .

جميعاً بإعطائه مائة جنيه لمن يبرهن على ( أن الله واحد ) ويُنظرهم الى الغد ، ويفتتح الدرس ويسأل الحضور - وقد توافدوا أفواجا - عن العالم الذي يريد مائة جنيه ويقرر في حجج دامغة وحدانية الله ، ويسود الصمت . وتضطرب القلوب ، وتقلب الأبصار مدة وجيزة ثم يبدأ هذا العالم الصغير درسه غير تارك شبهة إلا وضحها ولا حجة إلا أوردتها ، ولا عويصاً إلا حله ، فترك في بعض القلوب فرحة ، وفي كثير من القلوب غصّة .

وكان يخص بعض مريديه بدروس في منزله تختلف نوعاً عن دروس الأزهر فيدرس لهم ( تهذيب الأخلاق ) لابن مكويه ، ويقرأ لهم كتاب ( التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية ) للمؤلف الفرنسي ( جيزو ) وقد عربه ( حنين نعمة خوري ) .

ثم عين الشيخ محمد عبده في أواخر سنة ١٨٧٨ مدرساً للتاريخ بدار العلوم - إذ توسط رياض باشا في هذا التمين ، ولم يدرس ملخصاً من ابن الأثير أو الطبري أو ما شاكلها من الكتب القديمة ولكن عمد الى ( مقدمة ابن خلدون ) يبسط في درسه آراء هذا النابغة في أصول المدنية والاجتماع ، وألف كتاباً في « علم الاجتماع والعمران » فقيداً ولم يعثر عليه<sup>(١)</sup> . وعين محمد عبده في نفس الوقت مدرساً للعلوم العربية بمدرسة الألسن ، وكان همته - سواء كان في الأزهر أو دار العلوم أو الألسن - هو ( إيجاد نابتة من المصريين ، تحيي اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، وتقوم عوج الحكومة )<sup>(٢)</sup> .

---

(١) أحمد أمين في مجلة الثقافة العدد ٣٨٩ والنار ج ٨ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٢) النار ج ٨ ص ٤٠٤ .

## محرر الوقائع المصرية :

ثم دارت الأيام دورتها وعزل اسماعيل عن العرش ، وتولى توفيق ، ونفي السيد جمال الدين كما عرفت من قبل ، وتسلم محمد عبده راية الإصلاح بعد أستاذه ووجد في رياض باشا مشجعاً وحامياً فعينه محرراً للوقائع المصرية ، وجمع الشيخ حوله بعض النابهين من الشباب<sup>(١)</sup> وأنشأ بالجريدة (الرسمية) قسماً أدبياً تنشر به المقالات الإصلاحية والاجتماعية . وقد كانت الجريدة تفرض على أعيان البلاد وموظفي الدولة ، ويجدون بها قرارات جافة ركيكة العبارة و « أراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الأوامر واللوائح ، فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير إكراه ، وكان قد أحس بتوجيه الأفكار الى طلب شيء من طلاوة العبارة ووفرة المعنى وحسن الانتقاد »<sup>(٢)</sup> .

ووضع الشيخ ( لائحة ) للجريدة الرسمية وجعلها مشرفة على كل ما يصدر في البلاد من كتب وصحف ، وحق إنذار هذه الصحف غربية أو أجنبية ، ومعاقبتها بالتعطيل الدائم أو المؤجل كي يلزمها « الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب مع إطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف » كما أعطت هذه اللائحة لرئيس تحرير الوقائع الحق في انتقاد جميع إدارات الحكومة حتى وزارة الداخلية

---

(١) أمثال سعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم الهلباري ، ومحمد خليل والسيد وفا .

(٢) من كلام الشيخ محمد عبده قبل أن يتولى رئاسة تحرير الوقائع : المنار ج ص ٤٠٦ وما بعدها .

التي يتولاها رياض باشا ؛ وذكر السيد رشيد رضا أن أول ما بدأت  
الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والإدارات  
فأخذت تبين وجه الخلل بها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة ، ثم ترسم  
الطريقة المثلى التي يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر  
فضل ذوي الإمام باللغة العربية من موظفي الحكومة ، وحضهم رؤسائهم  
على مكاتب الجريدة الرسمية سترأ لعيوب الإدارات ؛ واضطر الجاهلون  
باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا  
كيفية التحرير» (١) .

وبهذا صار محمد عبده مشرفاً على الآداة الحكومية جميعها ، تراجعها  
جميع الادارات في كل ما لديها من الأعمال الهامة والتي تنوي عملها ،  
وقد اشتدت حملته على وزارة المعارف وتبيين ما بها من خلل وفوضى  
وسوء إدارة ، فأدى ذلك الى إنشاء ( مجلس أعلى ) لها واختير به عضواً .  
وكانت الوقائع المصرية منبراً تذاع منه تعاليم جمال الدين في العدل والتربية  
الخلقية والإصلاح الاجتماعي ، فيتكلم عن الفقر ومشكلته وعن ( وخامة  
الرشوة ) وعن ( العفة ولوازمها ) وعن ( القوة والقانون ) وعن ( منندياتنا  
العامة وأحاديثها ) (٢) وغير ذلك من المقالات الاجتماعية والإصلاحية . بيد  
أنه لم يخض في المسائل السياسية ولعل ذلك لأن رياض باشا هو رئيس

---

(١) تاريخ الاستاذ الإمام الجزء الاول ، هذا وقد أُنذر محمد عبده مرة مدير جريدة  
مشهورة بتعطيل جريدته إذا لم يختار لها محرراً صحيح العبارة في مدة معينة ، فأسرع مدير  
الجريدة الى تنفيذ ما أراد رئيس تحرير الوقائع ، وتعقبت الجريدة مدير بني سويف وانتقدته  
انتقاداً مرأ فأصدر أمره بعدم دخولها وراجع وزارة الداخلية في أمرها فنصرت الجريدة عليه  
ونشرت فعلته في منشور عام .

(٢) تاريخ الاستاذ الإمام الجزء الثاني ص ٦٨ وما بعدها الى ص ٢٢٥ .

الوزارة ، وله عليه يد لا تنكر ، أو لأنه كان يعتقد مذهب رياض في التدرج وعدم الطفرة ، وظل بمنصبه هذا الى أن قامت الثورة العراقية .

### محمد عبده والثورة :

كان محمد عبده يختلف مع جال الدين في طريقة الإصلاح ، فبينما الأول يريد أن تقفز الأمة قفزاً ، وتتمتع بالشورى والحرية على يد مجلس نيابي يشرع لها القوانين وتكون الحكومة مسئولة أمامه ، كما تكفل في ظل حرية الفرد الشخصية ، إذا بمحمد عبده وأصحابه يرون أن الإصلاح لا ينتج إلا إذا تربت الأمة وتعلم أبنائها كيف يحكون أنفسهم بأنفسهم وأن يسير الإصلاح تدريجياً في كل ناحية ، حتى في العادات « وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ثم يطلب بعض التحسينات فيها لا تبعد منها بالمرّة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريب حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة الى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون<sup>(١)</sup> . » وكان يرى أن الشرق إنما ينهض على يد مستبد عادل يحكمه خمس عشرة سنة « يصنع فيها ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً ، مستبد « يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الأهل الى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرت الأولى الى شعبه الذي يحكمه ، » وكان هذا رأي رياض باشا .

---

(١) من مقالة الاستاذ الامام تحت عنوان (خطأ العقلاء) . انظر تاريخ الاستاذ الامام

وانقسمت الأمة فريقين ، فريق النهضة السريعة والاصلاح العاجل ويتزعمه شريف باشا وهو كما صوره محمد عبده « من أقوى عوامل النهضة » التي ( انقلبت الى فتنة ) في رأيه ، ومن السنة هذا الفريق وأسلحته البشارة أديب إسحق ، وفريق يود النهضة البطيئة المتدرجة ويتزعمه رياض باشا ويناصره في رأيه محمد عبده<sup>(١)</sup> .

ولما قامت الثورة على يد العسكريين وتزعم عرابي مطالب الذين يريدون المجلس النيابي ، وانضم اليه كثير من زعماء الأمة وفي مقدمتهم سلطان باشا وعبدالله نعيم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الأهالي ، وطلبُ العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابي بإلغاء الاستبداد - لم يكن محمد عبده من المحبين لهذه الثورة أو العاملين فيها ، لأنه كان يكره عرابي باشا ، ويعتقد أنه شهم في الكلام ضعيف في الحرب ، ألقى به أن يكون واعظاً للعوام من أن يكون زعيم أمة ، ويقول فيه : « كان أحمد عرابي ينظر الى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو الى عدوه ، وكان بمنقرم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ، ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون براتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئاً في الكثير منهم ، وكان أجراً اخوانه على الفسول وأقدرهم على اقامة الحجة » . ونسي محمد عبده أن عرابي كان يبادل هؤلاء الجراكسة احتقاراً باحتقار ، لأنهم كانوا ينظرون الى أن المصريين دونهم في كل شيء وحرموهم المناصب العالية ، وأنهم السادة وهم الخدم .

---

(١) كتب محمد عبده مقالات في الشورى وقد كانت من وحي جمال الدين ولم يكن مؤمناً بها بل كان يرى أن تنشأ أولاً المجالس البلدية ثم بعد سنتين تأتي مجالس الادارة لا على أن تكون آلات تدار بل على أن تكون مصادر للاراء والأفكار ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية .

ولذلك كان مناوئاً للثورة في أول الأمر ويعترف بذلك صراحة فيقول : « كنت معروفاً بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكري ، وتسوئة رأي الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه ، وبتلك الوسائل الحمقى .. مررت بببيت ( طلبة ) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ، ورأيت بعضاً من صفار الضباط يحولون من جانب الى آخر من البيت فدخلت للزيارة ، فوجدت عرابي ، وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية ، فجلست واستمر الحديث في وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقيد الحكومة بمجلس النواب ، وأن لا سبيل للأمن على الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة الى مقيدة دستورية فأخذت طرفاً من البحث ، فأقمنا على الجدل ثلاث ساعات ، كان عرابي والأستاذ في طرف والكاتب في طرف ، وهما يقولان : إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد ، وتقرير حكومة شورية والكاتب يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين وليس من اللائق أن نفاجيء البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشيء قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ، ويفضي الى التهلكة ، (١) :

فأنت تراه يسمي الثورة فتنة وشغباً عسكرياً ، ووسائل حمقى ، ويعارض في قيام حكومة دستورية ، ويرى أن الأمة غير مستعدة للحياة النيابية في ذلك الحين .

لم يكن محمد عبده مشايماً للثورة في أول الأمر ؛ لأنه لم يكن معتقداً بها ولا في صلاح الأمة لأن تتولى أمورها بيدها ، وأخذ يناهضها

---

(١) مذكرات محمد عبده عن الثورة العرابية وتاريخه رشيد رضا ج ١ ص ٢١٧



ويقول : « ليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له ، فذلك بمثابة تمكين القاصر في التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد » ويقول مرة أخرى ، وكأنه كان يتكلم بلسان القدر : « إن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع ؛ لأنه ليس تصويراً لاستعداد الأمة ومطلبها ويخشى أن يحجر هذا الشعب على البلاد احتلالاً أجنبياً يسجل على مسببه اللعنة الى يوم القيامة » (١) .

ولم يكن محمد عبده من الموالين لتوفيق باشا حتى يتهم بأنه ناهض الثورة من أجله ، ولكنه كان مستقل الرأي ، وبعد مدة لم يستطع أن يقف مسلوب اليد والأمة كلها في صف واحد ، وهو وفئة قليلة في صف ، ورأى المسألة تتعلق بكرامة الأمة بعد أن تدخل الأجانب واستعان بهم توفيق ، فانضم للأمة وصار قوة روحية للثورة يأخذ المواثيق ويحرر بيانات الثورة للشعب والدول ، ويحض قومه للتجنيد ويحمسهم للقتال ، ولا يدخر في سبيل ذلك وسعاً . وكان يستعين بالوقائع ( وهي الجريدة الرسمية ) على نشر أفكار الثورة (٢) وصار يرى أن « مصر أصبحت صالحة لحكم نفسها بنفسها وأن الثورة قد علمت الناس الاتجاه نحو المنافع العامة فلم يعودوا في حاجة الى تربية وتعليم » .

---

(١) المنار ج ٧ ص ٤١٢ وما بعدها .

(٢) المنار ج ٨ ص ٤١٦ .

وأخيراً أخفقت الثورة وسجن محمد عبده مائة يوم ، وحقق معه وحكم عليه بالنفي فاتخذ بيروت ملجأ<sup>(١)</sup> .

### بعد الثورة :

وفي بيروت التف حولہ العلماء والأدباء ودرّس بالمدرسة السلطانية وكانت أشبه بمدرسة أولية ، فارتفع بها حق صارت مدرسة عالية ولكن مقامه بها لم يطل ؛ إذ طلب إليه أستاذہ جمال الدين أن يلحق به في باريس فلبى دعوته<sup>(٢)</sup> وأصدرا معاً مجلة ( العروة الوثقى ) ، وقد مر بك شيء كثير عنها وتنبّذ من مقالاته بها . وهنا تعجب كيف تغيرت لهجة الشيخ محمد عبده في ( العروة الوثقى ) ولم يعد ذلك المصلح المتأني الذي يأخذ الأمور بالرفق ، ويسعى الى الإصلاح في هواة بل نراه ثورة متأججة وذا قلم عنيف ، كما اتسع غرضه ، ولم ينظر لمصر وحدها بل شمل العالم الاسلامي كله . الحق أن الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى لم يستطع أن يقاوم تأثير جمال الدين عليه ، وتأهيك بجمال الدين قوة وحاسة وناراً مشبوبة .

وعطلت ( العروة الوثقى ) بعد ثمانية عشر عدداً ، وسافر جمال الدين الى إيران وعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت ، وقد أخفق مرتين : أخفق في الثورة العربية ، وأخفق في استمرار العروة الوثقى . فالتف حوله مريدوه ، وشرح لهم نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان وأخذ

---

(١) تاريخ محمد عبده ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) لم يتجاوز سنه حينذاك أربعة وثلاثين سنة . النار ج ٨ ص ٤٥٥ .

يفسر لهم القرآن الكريم على النحو الذي اتبعه بمصر من غير أن يتقيد بكتاب أو تفسير خاص ، بل اتخذ آيات القرآن مجالا لوصف أدواء المسلمين وعلاجها ، ودرس الفقه على المذهب الحنفي بالمدرسة السلطانية . وهناك ألف رسالة التوحيد ، وصار يكتب بعض المقالات في جريدة (ثمرة الفنون) مشابهة لمقالاته في الوقائع المصرية<sup>(١)</sup> .

كان محكوما عليه بالنفي ثلاث سنوات ، ولكنه مكث ببيروت ست سنوات وذلك لأن توفيقا كان غاضبا عليه<sup>(٢)</sup> ، وكان يجهر بخطيئة توفيق في حق الوطن ويقول<sup>(٣)</sup> : « إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخولكم (أي الانجليز) بلادنا ، ورجلٌ مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ؛ ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه - إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

فكان من العسير أن يعود الى مصر في عهد توفيق ، بيد أن رياض باشا عاد الى الوزارة ، وكان من الذين يحلون الأستاذ الأمام ويعتقدون فيه النفع والخير لمصر ، فما لبث أن سمى لدى توفيق هو وبعض ذوي

---

(١) ووضح في هذه الأثناء لاثنتين : واحدة في إصلاح التعليم الديني بمدارس المملكة العثمانية ورفعهما الى شيخ الإسلام بتركيا ، وفيها يقر أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصل الدين وأن ذلك أضاع أخلاقهم وأفسدها ، ووضع لائحة أخرى رفعها الى والي بيروت تتضمن إصلاح سوريا ووصف سوء حالها بانتشار المدارس الأجنبية بها ، واقترح تعميم المدارس الوطنية وإصلاح التعليم الديني والعناية به ، وهكذا برهن على أنه مصلح في كل مكان يحمل به (تاريخ الإمام ج ٣ ص ٣٣٩ وما بعدها) .

(٢) لأن محمد عبده جاهر بخلع توفيق أثناء الثورة (مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٨٢) .

(٣) من حديث له مع مكاتب (البول ميل جازيت) وهو بالإنجليزية .

النفوذ<sup>(١)</sup> حتى عفا عنه ، وكان عفواً قريباً من الاعتذار .

### بعد العودة من المنفى :

عاد محمد عبده الى مصر فوجد الأمور قد تغيرت وصار الحال والعقد بيد الانجليز ، ولم يعد الحديو صاحب الأمر والنهي كما كان من قبل ، ورأى لزماً عليه وهو المصلح ذو المشروعات الحية في النهوض بالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية أن يعتمد على سلطة تؤيده وتبني له الاستمرار في إصلاحاته ، فسالم الحديو - على الرغم منه - واستعان بالانجليز على الإصلاح المنشود . ولا تعجب بعد هذا إذا صار جمال الدين حانقاً عليه ويرى فيه الرجل الذي تنكر لمبادئه ومد يده لأعدائه يهادنهم ويسلمهم : ورث محمد عبده من جمال الدين آراءه الإصلاحية الاجتماعية وورث عبدالله نديم وسعد زغلول ومصطفى كامل آراءه السياسية . وقد ظل محمد عبده متمسكاً بسياسة التقرب من الانجليز والاستعانة بهم حتى آخر حياته ، وكان هذا مثار الطعن فيه والغض من شأنه ، ولكنه كان يصدر فيه عن عقيدة وجرة ، فقد استغنى مرة في الاستمانة بالأجانب فكان من فتواه : « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل

---

(١) المعروف أن من الذين توسطوا في طلب العفو عنه الأميرة نازلي وكانت ذات مكانة ، والغازي مختار باشا ، ثم اللورد كرومر وقد كان له الفضل الأكبر في عودته والعفو عنه ، وفي الواقع لم يعف عنه توفيق إلا بضغط الإنجليز . فأي صلة كانت بين محمد عبده وتلميذ جمال الدين والانجليز ؟ - يظهر أن أصحاب محمد عبده حين طلبوا عودته الى مصر تعهدوا بالألا يشتغل بالسياسة ، ثم أن كرومر وهو الداهية السياسي رأى أن يجذب نحوه هذا العالم الجليل ويأمن شره ما دام لن يشتغل بالسياسة ، وهذا ما جعل جمال الدين يحنق عليه ويلومه أشد اللوم ، حتى قطعت العلاقة بين الاستاذ وتلميذه ، لأنها اختلفا في الوسيلة . ( راجع المنار ج ٨ ص ٤٦٧ ) .

السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير  
ومنفعة للمسلمين ، ونسي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا  
بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودّوا ما عنيتم قد بدد البغضاء  
من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » .

وأمل محمد عبده بعد عودته أن يرجع الى التدريس بـدار العلوم  
ويتصل بالنشء ، ويربي طائفة من الشباب يمدّم للغد ، ويحملون بعده  
راية الإصلاح ، ولكن أبى عليه توفيق ذلك<sup>(١)</sup> ، وعين قاضياً أهلياً ، ثم  
مستشاراً في محكمة الاستئناف ، ووجد نفسه في بيئة غريبة عنه تدلّ  
بمعرفة اللغة الفرنسية والقوانين الأجنبية فدفعته نفسه الطموح الى أن  
يكمل هذا النقص ، وبدأ يتعلم الفرنسية<sup>(٢)</sup> وهو في سن الأربعين أو ما  
قاربها ، وقد استطاع بعد مدة أن يتقنها وترجم منها كتاب التربية  
لسبنسر بعد أن نقل من الانجليزية الى الفرنسية . وروى لطفي السيد  
أن محمد عبده هو الذي كان يحلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات  
الفيلسوف الفرنسي ( تين ) في كتابه المشهور عن ( الذهن ) .

وقد رأى الأستاذ الإمام فائدة تعلم اللغة الأجنبية ولمسها ، وفي ذلك  
يقول : « ثم إن الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة أجنبية هو أني وجدت أنه

---

(١) المنار ج ٨ ص ٤٦٧ ، وتاريخ الأستاذ الامام ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) روي أن المعلم أتى له بكتاب في قواعد اللغة الفرنسية فقال له : « ليس عندي وقت  
لأن أبتدي » ، وإنما عندي وقت لأن أنتهي » ، قال وتناول المعلم كتاباً ( لالكسندر ديوما ) وقال  
له : « أنا أقرأ وأنت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو علي . والنحو يأتي في  
أثناء العمل . وهكذا أتممت الكتاب ، وكتاباً بعده وثالثاً عقبه ، وكنت أطلع وكنت أطلع  
وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خالياً فتعلمت مبادئ اللغة الفرنسية ، وحصلت  
منها ما يمكنني من القراءة والفهم ولكن ما كنت أستطيع الكلام » .

لا يمكن لأحد أن يدعي أنه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقندر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا إذا كان يعرف لغة أوربية : كيف لا ! وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الاوربيين في جميع أقطار الارض ، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم ؟ .

واشتهر محمد عبده بعمله في القضاء ، ونظره الى روح القانون ، وعدم تقيده بالقالب والألفاظ ، وقد ساعدته دراسته للشريعة الإسلامية في هذا كل المساعدة .

### إصلاح الأزهر :

مات توفيق وتولى عباس سنة ١٨٩٢ م وقد عاد لتوه من أوروبا ففى ممثلاً حماسة وغيره وحباً للخير ورغبة في إنهاء مصر من كبوتها وتخليصها من الاحتلال ، فقير رجال الحاشية وجمع حوله أقوياء الرجال حق ضايق الانجليز فأخذوا يكيدون له . ورأى محمد عبده أن يستفيد من حماسة عباس ، فتقرب منه وبسط آراءه في الإصلاح ، وهو إصلاح يتناول جهات لا تهم الانجليز في شيء وهي : الأزهر والاقواف والمحاكم الشرعية ، وليكن البدء بالأزهر . وارتاح الخديو للشيخ وكلفه بوضع تقرير مشروع للإصلاح ، وسرعان ما وافق عليه وكون إدارة الأزهر برئاسة الشيخ حسونة النواوي وعين محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان عضوين به ، وهكذا أتيت للشيخ الفرصة التي طالما نشدها للإصلاح . ولكن هل استطاع الإصلاح ؟!

إننا نقول كما قال أحمد أمين<sup>(١)</sup> . « يا لله وإصلاح الازهر ! ما حاوله أحد ونجح ولا الشيخ محمد عبده ، لان كل المحاولات كانت تتجه الى هامش الموضوع لا أساس الموضوع . وكانت عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أي قلق واضطراب ، وهم يتزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً ، وعاشت في المغارات فلم تر ضوءاً وأفنت عمرها في فهم لفظ ، وتخريج جملة وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا ، فإذا أتى المصلح سمى أهله الجو حوله ، واحتتموا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب .

المشكل لا يحل إلا بالعلاج الحاسم ، وهو أن يتبع الازهر الحكومة تبعية الجامعة ، ويستقل استقلالها ويخضع في نظمه لما ترشد إليه علوم التربية الحديثة ويرقى برقيها ، ثم ينفذ ذلك من غير خشية .

وأضيف الى هذا أن بالازهر اليوم وفي كل حين ثروة معنوية عظيمة تضئع هباء وتوجه وجهة خاطئة ، ولا تفيد منها الامة شيئاً ، ولو حولت هذه الجامعة الازهرية الى جامعة مدنية ينفق عليها من الاموال الموقوفة على الازهر ، ويتعلم الطلبة فيها بالجمان لما حرمت الامة هذه الثروة العظيمة ، ولنبتغ من أبنائها الطبيب النطاسي ، والمهندس الفذ ، والرياضي القدير ، والصيدلي الماهر . أما الدين فتخصص له طائفة ، تسد الفراغ وتلي شئونه من وعظ وإمامة وغير ذلك . لقد اتجه الازهريون اليوم الى الوظائف ، ولم يعودوا يطلبون العلم لذاته كما كان يفعل أسلافهم ، فوجب على الامة والحكومة أن تعدّهم الإعداد الصالح لهذه الوظائف وتولى شئون الازهر بحزم وتنهض به نهضة تليق باسمه وتاريخه « فيتعلم

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٣٩٢ .

أبناءؤه اللغات الاجنبية فإذا جادلوا في الدين جادلوا بالحجة القوية وعرفوا مواطن الضعف عند سواهم ، وإذا درسوا الفلسفة والمذاهب الحديثية تفتحت أمامهم سبل الاطلاع ، على أن تتجه جمهورهم إلى التعليم المدني وبذلك تفيد الأمة من هذه الثروة المعنوية الضائعة ، ومصر بحاجة إلى أكثر من جامعة .

حاول الإمام محمد عبده إصلاح الأزهر ، فلم يصلح سوى الشكل من زيادة مرتبات العلماء ووضع لائحة كسَى التشريف ، والامتحانات ومساكن الطلبة . ولكن حين ابتدأ ينظر إلى الدراسة وطرقها والكتب التي تدرس والمناهج ، وجد العقبات أمامه جمة وأخفق في محاولاته ونفض يده من الإصلاح . لقد كان كارهاً للطريقة الأزهرية في معالجة الدروس والشروح والحواثي والتقارير وعلك الألفاظ ، وقد عرفنا آنفاً كيف كادت هذه الطريقة أن تحرم مصر إمامها ومصلحها ، ولقد قال له يوماً الشيخ البحيري مدافعاً في مجلس إدارة الأزهر عن هذه الطريقة : « إننا نعلم الطلاب كما تعلمنا » فقال له الشيخ محمد عبده « وهذا ما أخاف منه » فقال البحيري مستنكراً : « ألم تتعلم أنت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟ ! فأجاب الإمام : « إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة (١) » .

وهذه كلمات تدل على مرارة وألم ، وعلى أن الشيخ لم ير في الأزهر وعلومه ورجاله ما يبشر بالنجاح ، فليت شعري هل تغير الأزهر كثيراً منذ محمد عبده حتى اليوم ؟ .

---

(١) من تقرير الشيخ عبد الكريم سلمان عن التعليم في الأزهر .



وقول محمد عبده منصب الإفتاء في يولية ١٨٩٩ ، وأضفى عليه  
وجاهة دينية وجلالاً وكان في منصبه هذا جريئاً ، يصدر الفتاوي التي  
يرى فيها الجامدون زندقة وإلحاداً ، رهو يراها اجتهداً وتجديداً وتمشياً  
مع روح العصر بما لا يخالف حقيقة الدين وجوهره<sup>(١)</sup> . ولم تكن العلاقة  
بينه وبين الخديو عباس طيبة ؛ لأن عباساً كان يراه مسالماً للإنجليز مستعيناً  
هم وفي ذلك جرح لوطنية الخديو والتجاء إلى خصومه . وكان الشيخ  
محمد عبده يعتقد في مهادنة الإنجليز والاستفادة منهم ، ويرى في عباس  
رأياً آخر وهو أنه جشع محب لجمع المال ولو من دماء رعاياه . وقد  
اصطدم به مرتين أولاً : حين أراد استبدال أرض فأبى عليه الشيخ  
ذلك ورأى أن هذا الاستبدال ليس في مصلحة الوقف ، وحمل مجلس  
الأوقاف الأعلى على فرض هذا الاستبدال إلا إذا أعطى للوقف عشرين  
الفاً من الجنهيات تعويضاً له . وثانيها حيناً أراد الخديو منح بعض رجال  
حاشيته ( كسوة تشريفية ) ، ولم يكن هذا المنح منسجماً مع اللوائح ،

---

(١) من ذلك فتوى ( الترنسفال ) وهي إجابة على ثلاثة أسئلة : أحدها : بقر  
يضره النصارى على رأسه بالبلطة حتى تضغف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون  
تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ، فأفتى الشيخ بحل هذا اللحم ، وكانت  
للفتوى ضجة لأن علماء الأزهر يقولون هي الموقوفة التي حرم الله أكلها ، والشيخ يقول :  
إن الموقوفة هي التي ضربت بشي ، غير محدد بحجارة والخشب حتى ماتت وهذه  
ذبحت قبل موتها . وثانيها : يوجد أفراد في بلاد الترنسفال يلبسون القبعات لقضاء  
مصلحتهم ، وتمكنهم القبعة من جني بعض الفوائد ، فهل يجوز ذلك أم لا ؟ فأفتى  
الشيخ بالجواز ورأى أن لبس القبعة إذا لم يقصد به الخروج من الإسلام والدخول  
في دين غيره فلا يعد مكفراً ، وإذا كان اللبس لحجب الشمس أو دفع مضرة أو  
دفع مكروه وليس وصلحة لم يكره ذلك . وقد أثارت عليه هذه الفتوى حملات  
شديدة من الجبهه وخصومه السياسيين . والثالث . يصلي الشافعية خلف الحنفية بدون  
تسمية ، ويصلون خلفهم المعينين فهل تجوز الصلاة ؟ ولم يكن لهذا السؤال ضجة  
كغيره . راجع تاريخ الأستاذ الامام ج ٣ ص ١٦٧ ، ١٦٩ ، والجزء الأول ص ٢٦٧  
وتجد نص الفتوى في تاريخه ج ١ ص ٦٤٦ وما بعدها .

فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ أمر الخديو وإعطائها للمستحق ، ولما اجتمع العلماء لدى الخديو وأخذ يؤنب شيخ الأزهر على ذلك انبرى له الشيخ محمد عبده ، وطلب منه اذا أراد التنفيذ أن يغير اللائحة وينسخ القانون السابق ، فاستشاط عباس غضباً ووقف إيداناً للعلماء بالانصراف ، وقد كان لهذا كله أثر في الحملات الشديدة والمكاييد التي دبرها عباس للشيخ ، وإيعازه للصحافة بالتشهير به وانتهاز فرصة فتاويه الجريئة ورميه بالكفر والإلحاد ، وكلما همّ الخديو بعزله من منصب الإفتاء صرح كرومر بأنه لا يوافق على عزله مهما كانت الأحوال مادام موجوداً. كل هذا ومحمد عبده ماض في مشروعاته الإصلاحية بالأزهر والمحاكم والأوقاف . وكان الحزب الوطني يناوئه ويحمل عليه بشدة لأنه كان يشابع الإنجليز ويتخذهم أعوانه . وكان الإمام يرى أن مصطفى كامل مخطيء في صلته بالخديو لأن عباساً لم يكن مخلصاً في وطنيته ولا هم له إلا جمع المال وإيداعه بالمصارف الأجنبية خشية أن يعزله الإنجليز فجأة ، وقد قال محمد عبده في وصف مقالات مصطفى كامل « إنها مجموعة نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف » .

والحق أن التباين كان شديداً بين عقلية الإمام وعقلية الزعيم الشاب من حيث طريقة التفكير واتخاذ الوسيلة . ولا نستطيع أن ندافع عن موقف الشيخ محمد عبده من الإنجليز واعتماده عليهم إلا أن الخديو هو الملموم في ذلك ، لأنه لم يمكن هذا المصلح الكبير من السير في إصلاحاته ، ولأنه أراد أن يلتهم مال الوقف بدون مبرر ؛ وفي مال الوقف قسم كبير جداً للأزهر ، وكلما حاول عباس أن يعيث وقف له محمد عبده بالمرصاد ، وحب المال ضعف بشري عام ، وكان في عباس أضعف شيء فيه ، ولكن دفاعنا هذا لا يسوغ لجوء الشيخ إلى خصوم وطنه وخصوم دينه مهما كان الإصلاح المنشود وقيمه ، وما كان له أن يستعين بهم حتى

ولو ظل الأزهر على ما هو عليه ، وهل بعد هذه التضحية استطاع أن يصلح الأزهر ؟ كلا ! وقد اعترف بإخفاقه .

ولكن هل تقضي هذه الزلة السياسية على كل ما لمحمد عبده من مجد ؟ اللهم لا ، فقد شاركه في رأيه السياسي حينذاك كثير من زعماء الأمة كسعد زغلول ، وفتحي زغلول ، وحسن عاصم ، ومحمود عاصم ، ومحمود سليمان ، وسلطان وغيرهم ، إلا أنه تعرض للهجمات أكثر منهم ؛ لأن الحديو رأى فيه قوة واعتداداً بالنفس ، وعقبة في سبيل مطامعه فألب عليه العلماء الرجعيين والصحافة المأجورة هزلية وجدية .

وأخيراً اضطر محمد عبده إلى الاستقالة عقب خطبة ألقاها عباس عند توليته الشيخ الشربيني مشيخة الأزهر ، وهي تدل على عظم حنقه وسخطه على محمد عبده وتعريضه به .

وجاء في هذه الخطبة : « إن الأزهر أسس على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر الدين في مصر وجميع الأقطار العربية .. ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ولكن من الأسف رأيت فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثر من أسباب القلاقل .. وأول شيء أطلبه أنا وحكومي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر والشغب بعيداً عنه ، فلا يشغل علماءه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الأفكار ، لأنها مدرسة دينية قبل كل شيء ، ثم ذكر أنه قبل استقالة السيد علي البيلاوي رعاية لصحته ، وأنه مستعد لقبول كل استقالة من سواه ومن يحاولون بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأفوال ، ويرى أن مثل هذا الشخص يجب أن يكون بعيداً عن الأزهر .

لم يكن محمد عبده صنيعة الإنجليز ، أو ممن يتناول أجراً منهم ،

أو من يستعدونهم على قلوبهم ، ويشجعونهم في أطماعهم الاستعمارية (١) ، وإنما كان يرى أنه مصلح ولا بد له من عضد يسنده في إصلاحه ويشجعه على السير قدماً في طريق الكمال ، ولم يجد في عباس هذا العضد ، لأنه كان مشغولاً بنفسه ويجمع المال وبأهوائه الخاصة ، فلجأ إلى الإنجليز ، وهذا اجتهد منه خطأ فيه .. بيد أنه لا يطوح بكل ماضيه وآرائه ، فالحظيم لا يُنظر إليه من ناحية واحدة بل لا بد من رؤية جميع خصائصه وميزاته ، وقد كان محمد عبده اماماً في الإصلاح الاجتماعي ، ورائداً فذاً من رواد النهضة الفكرية .

لقد كان ممكناً أن يلتقي عباس ومحمد عبده ومصطفى كامل (٢) ، وينهض الثلاثة بمصر وبالإسلام وبالشرق العربي كله ، ولكن لم يتم هذا ، كما لم يتم اجتماع محمد علي والسيد عمر مكرم ومحمد بن عبد الوهاب من قبل ، واضطهد محمد علي الزعيم الروحي لمصر عمر مكرم والمصلح الديني الكبير محمد بن عبد الوهاب وحاربه في نجد وهكذا تكررت المأساة على يد أحفاده بعد خمسين سنة .

### وفاته :

استقال محمد عبده من الأفتاء وقد آمن بمجزئه عن اصلاح الأزهر

---

(١) كما فعل سلطان باشا ، وعمر لطفي ، وفان يكرهها لموقفها هذا .

(٢) كان مصطفى كامل يعتمد أول الأمر على عباس مالياً فكان من دعائه ، ولعل هذا مما عاق اتصال الشيخ بالزعيم الشاب ، وروى رشيد رضا « أن الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل التقيا على باخرة حملتها إلى أوروبا وقال الزعيم للامام : إذا قبلتني من مريدك فإن خدمتك للإسلام ومصر تكون مضاعفة وأمدى له كتباً بالفرنسية وأخذ يزوره بمعد عودته إلى مصر ولكن الاتصال لم يدم بينها ، كما أن مصطفى كامل قطع صلته بعباس بعد ذلك . »

عجزاً تاماً ، ولم يلبث بعد ذلك مدة وجيزة حتى أحس بالمرض ، فعزم على السفر الى أوروبا طلباً للشفاء ، ولم يحل مرضه بينه وبين ما يقوم به من أعمال جليلة في مجلس الشورى وفي الجمعية الخيرية الإسلامية وامتحان دار العلوم ، وإعداده مشروع القضاء ، وإعداد مشروع الجامعة المصرية : بيد أن المرض ألح عليه . واختلف فيه الأطباء ، هل هو المعدة ؟ أو الكبد ؟ ثم ظهر أنه السرطان الذي مات به من قبل استاذة جمال الدين ، فأشاروا عليه بعدم السفر وفي يوم ١١ من يولييه سنة ١٩٠٥ انطلقاً هذا المصباح الوهاج عن ست وخمسين سنة برمى الاسكندرية ، واحتفل بتشييع جنازته رسمياً ، وكان حفلاً رائعاً لم تشهد مصر مثله من قبل وكان عباس متغيباً عن مصر ، فلما عاد وسمع بعظم الحفل واشتراك الحكومة فيه أنب كل من أسهم في هذا .

### أثره في النشر :

لا نريد أن نتعرض هنا لأرائه الاجتماعية والسياسية والخلقية بالتفصيل ، وقد مر بنا ما يعطينا عنها فكرة واضحة ، وإنما الذي يعيننا حقاً هي آثاره في الكتابة والنثر . وقد عرفنا أنه أبتدأ يكتب في الصحف ، وهو بعد طالب في الأزهر ، وقد طرأ على أسلوبه الكتابي تعبير كثير منذ المقالة الأولى التي أرسلها لجريدة ( الأهرام )<sup>(١)</sup> حتى انتقل الى جوار ربه . ولحمد عبده أثر عظيم في النثر العربي سواء في أسلوبه هو وجعله مثلاً يحتذى ، أو في الأعمال الجليلة التي قام بها لخدمة النثر والكتابة .

---

(١) العدد الخامس الصادر في ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦ ،

١ - أما أسلوبه فنراه يعنى به عناية زائدة ، وإذا قرأت ما كتبه في جريدة الأهرام تجده متأثراً بالكتب الأزهرية وخاصة ما ألف في الفلسفة الإسلامية من حيث الموضوع وطريقة علاجه ، ونجده كذلك لا تفوته سجمة ، وإن تكلف في سبيلها المشاق ، ويقدم لموضوعه بمقدمات طويلة تجهد نفس القارئ وتسئمه . وهاك مثلاً على هذا الأسلوب من مقالة ( الكتابة والقلم ) : « ولما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض ، وبعُد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاهدات ، احتاجوا الى التخاطب في شئونهم ، مع قناني أمكنتهم ، وتباعداً أوطانهم ، فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد وما يدريك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد ؛ وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مفلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام .. فالتجئوا الى استعمال رقيم القلم وكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم ، وهذا النوع من النثر قد وفيناه بحثاً فيما سبق .

ثم لما اتصل بجمال الدين ، ورأى منه قدرته على تصريف المعاني ، وعلى ابتداع أفكار جديدة وقرأ معه بعض كتب الفلسفة والمنطق وخاض في الموضوعات الاجتماعية والسياسية تدفعه الى الكتابة عاطفة جياشة وشباب فتي وأثر متقد من نفس أستاذه جمال الدين - لم يجد وسيلة إلا أن يتخلص من السجع والكلف به وأن يتجنب المقدمات الطويلة ، وأن يرتب الموضوعات ترتيباً منطقياً ، ويكثر من استعمال الأقيسة والبراهين ، ويقلب الفكرة على شق وجوهرها ؛ وترى في كلامه قوة وحرارة إيمان بما يكتب ، وهذا النوع من النثر يتجلى في مقالات ( الوقائع المصرية ) . وقد تدرج في إصلاح أسلوبه حتى اشدت وقوي . ثم بلغ

درجة عظيمة من المتانة ، وبرزت فيه المزايا التي ذكرناها في مقالات ( العروة الوثقى ) فمن نثره في الوقائع المصرية قوله في التربية بالمدارس : « من المعلوم البين أن الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكتاتب ، والعناية بشأن التعليم فيه .. إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن المتربي من نيل كمال السعادة أو معظمها ما دام حياً وبعد موته . ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات ، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تُحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضر والنافع ويكون النظر بذلك سجية لها ، أي يكون لنور العقل نفوذ تام يفصل بين طيبات الأشياء وخبائثها . »

وهو أسلوب المصلح الاجتماعي وقد عرفت خصائص هذا النوع من النثر قبل ، ولم يكن يعتمد فيه الشيخ محمد عبده إلى تفخيم الألفاظ وانتقائها ، وحبك الجمل واستوائها ، وقد يستعمل أحياناً كلمات عامية أو دخيلة للتعبير عما يريد إذا لم تسعفه الكلمة العربية .

أما مقالات ( العروة الوثقى ) فقد مرت بك نماذج كثيرة منها فلا داعي لذكر جديد .

ثم مرن أسلوب الشيخ محمد عبده واشتد قلمه ، من كثرة ما كتب ، وما تناول من موضوعات وما تأثر به من تجارب وقراءة . ولما بلغ أسلوبه غايته في مقالته التي يرد بها على ( هانوتو ) وكان وزيراً للخارجية فرنسا ، وقد بحث في كلمته الأسباب التي تدعو المسلمين إلى النفور من الحكم الأجنبي ، وهل من وسيلة لتحبيبهم في فرنسا ؟ وإذا لم تفلح الوسائل فلا مناص إذاً من إبادتهم أو إجلائهم عن ديارهم حتى يخلو الجو لفرنسا ، وقد تعرض للإسلام ولماذا كان المسلمون غير مسيحيين ؟ ووازن

بين الإسلام والمسيحية ، وتمصّب لدينه ، ونشرت جريدة ( المؤيد )<sup>(١)</sup> مقالته فرد عليه الشيخ محمد عبده ردّاً مفصّلاً تجلّت فيه نصاعة الفكرة ، وصدق العاطفة ومثانة الأسلوب ، وقوة الحجّة ، وسلامة البرهان ، مع بساطة في التركيب ، وسهولة في الألفاظ . وطالت المساجلة بين (هانوتو) والشيخ محمد عبده ، وانتصر فيها الإمام انتصاراً بالغاً وكانت من الأسباب التي مكنت له مقامه بمصر بعد عودته من المنفى ، ووضعت في مركز الصدارة من مفكري الأمة والذادة عن الدين .

ويقول في إحدى هذه المقالات : « إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدينة الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها عدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واليوم يرعى أهل أوروبا ما نبت في أرضهم بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدينة الحاضرة » .

هذا وقد كان للشيخ في رسائله الإخوانية أسلوب يحثفي فيه بعبارته ، وتصوير مشاعره تصويراً فنياً يدل على ذوق أدبي ، وتمكن من اللغة والأدب ، وعلى أنه ذو موهبة شعرية تده بالخيالات الطريفة والصور البيانية الجميلة ، وقد ذكرنا فيما سبق خصائص هذا الأسلوب وضربنا عليه أمثلة من كتابة أديب أسحق ، وعبد الله نديم ، وعبد الله فكري

---

(١) تاريخ الامام ج ٢ ص ٣٨٢ ، مقال هانوتو ص ٣٨٢ - ٣٩٥ ورد محمد عبده عليه ص ٣٩٥ - ٤١١ ، انظر التفاصيل في تاريخ الامام ج ٢ ص ٧٨٩ وما بعدها .



وهاك مثلاً من رسالة للشيخ محمد عبده الى أحد إخوانه وهو في سجن  
بعد أن أتهم بالاشتراك في حوادث الثورة العربية ، وذلك في ٩ من  
المحرم سنة ١٣٢٠ الموافق ٢٠ من نوفمبر ١٨٨١ م .

عزيزي :

تقلدتنى الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم

هذه حالتي : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت  
صخوره من مركز الارض الى المحيط الاعلى ، واعتضت ما بين المشرق  
المغرب وامتدت الى القطبين ، فاستحجرت في طباع الناس ! إذ تغلبت  
طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية ، فأصبحت قلوب الثَّقَلَيْنِ كالْحِجَارَةِ  
أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين .

رأيت نفسي اليوم في مَهْمِهِ لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ،  
'غَطَّيْتُ' فيها وجه السماء بفهام سوء ، فتكاثف ركماً ؛ لا أرى إنساناً ،  
ولا أسمع ناطقاً ، ولا أتوهم مجيباً :

أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزأر ، وكلاباً تنبّج ، كلها يطلب فريسة  
واحدة ، وهي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقد  
خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله  
فهو لا ريب من الهالكين .

تَقَطَّعَ حبلُ الأمل ، وانفصمت عُروَةُ الرجاء ، وانحلت الثقة  
بالأولياء وضلَّ الاعتقاد بالأصغاء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر  
من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الأرض لعنة الله  
والملائكة والأنبياء والناس أجمعين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، ومزقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم وشهوات تقضي وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين .

ذهب ذور السلطة في بحور الحوادث الماضية يفوصون لطلب أصداف من الشبهة ومقذوفات من التهم وسواقط اللثم ليموهوها بمياه السفسة ويغشوها بأغشية من معادن القوة لبرزها في معرض السطوة ويغشوا بها أعين الناظرين ، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهمرونه ، أو خرق بدا فيرتقونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين ،<sup>(١)</sup> .

ولعلك تلمس في تلك الشكوى المرة من الخيانة والغدر وعدم الوفاء ، وتحكم الأهواء وهي التي سمعتها من قبل على لسان البارودي بعد أن غدر به أصحابه ، وأخفقت الثورة وزج به في غياهب السجن ، ولقد كان الشيخ في نثره شاعراً جيشاً العاطفة بارع التصوير لحاله ولآلامه ، ولمرارة السجن .

هذا ولم يعن محمد عبده بأسلوبه فحسب بل حاول أن يحمل الكتاب على العناية بكتاباتهم وله في هذا المضمار ، وفي النهوض بالكتابة آثار منها :

١ - مكن له منصبه في الوقائع المصرية من الإشراف على الجرائد والمجلات ومراجعة ما يحرره كتبة الدواوين في شئون الحكومة ، وقد مر بك كيف أُنذر صاحب إحدى الجرائد بالتعطيل إن لم تغير أحد كتابها

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ٥٢١ - ٥٢٢ طبعة أولى سنة ١٣٢٤ بالتار .

أو تحمله على تحسين أسلوبه ؛ وقد التف حوله فريق من طليعة كتاب مصر والشرق ، وأفسح لهم في الوقائع المصرية ، يديجون المقالات الاجتماعية والأدبية والسياسية بإرشاده . وكان يرى أن اللغة العربية هي أساس الدين<sup>(١)</sup> وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال<sup>(٢)</sup> .

٢- وفي بيروت شرح نهج البلاغة ليسهل على الناس قراءته والإفادة منه ، وشرح مقامات بديع الزمان الهمداني ونشرها حتى تكون زاداً يتغذى به طلاب الأدب ، ومن ينشدون قوة الأسلوب وسلامة التعبير .

ولما عاد الى مصر كانت دروسه في البلاغة تختلف عن تلك الكتب التي أفسدها عجمة مؤلفيها ، واختار من كتب البلاغة دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، وكان السبب في نشرها لينتفع الناس بها ، وقد نشرها المنار .

وأنشأ جمعية لإحياء الكتب العربية نشرت المخصص لـ « ابن سيده » ، وفي نشره تيسير على طلاب اللغة ؛ لأنه من معجمات المعاني ، فقد يكون بذهنك المعنى ولكن يُعوزك اللفظ المعبّر عنه فتلتزمه في المخصص وفي أمثاله من المعجمات ، وقام بتصحيح المخصص العالم اللغوي الشهير الشيخ محمد محمود الشنقيطي وقد حمّاه الشيخ محمد عبده ، وشجعه على الإقامة بمصر . ولولاه ما بقي<sup>(٣)</sup> . كما شرع في طبع الموطأ للإمام مالك بعد أن جاء بنسخ خطية له من تونس وفاس وغيرها<sup>(٤)</sup> .

---

(١) تاريخ الامام ج ٣ ص ٢٥٩ .

(٢) المنار ج ٨ ص ٤٩١ .

(٣) بروكلمان ج ١ ص ٣٠٩ .

(٤) المنار ج ٨ ص ٤٩١ .

٤ - وعهد الى الاستاذ سيد بن علي المرصفي في تدريس كتب الأدب بالأزهر أمثال « الكامل » ، « المبرّد » ، و « ديوان الحماسة » ، لأبي تمام ، وكانت هذه الدروس غريبة عن الأزهر ولا عهد له بها ، وقد تتلمذ على المرصفي عدد كبير من أدياء مصر البارزين أمثال المنفلوطي ، وطه حسين ، والزيات ، والزناقي وغيرهم فهم أثر من آثار توجيهه وإرشاده .

وبهذه الوسائل استطاع محمد عبده أن يقدم للنثر العربي خدمة جليلة ، ويوجه الكتاب الى العناية بما يكتبون ، غير مقيدين بذلك السجع السخيف ، ومنصرفين الى المعاني وتفتيقها ودراسة الموضوع دراسة جيدة تفيد القارئ ، وتجدي على الأمة .

هذا ما كان من أثره في النثر ، ولا يسعنا ونحن نختم هذه المجالة عن محمد عبده إلا أن نقرر أنه أيقظ في مصر الشعور الديني ، والرغبة في الإصلاح الاجتماعي ، وأن الأولي بالمسلمين أن يعتمدوا في الإصلاح على أنفسهم ، ويدعوا الفخر بماضيهم ؛ ودعوا الى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل . كما دعا الى الاجتهاد ، وعدم الوقوف بالتشريع وبمسائل الدين عند الحد الذي قرر من قرون عديدة ، وذلك لكي نواجه المسائل الجديدة بتشريع ديني سليم قبل أن نغلب على أمرنا ، وكان يرى أن أكبر سلاح في الدنيا هو العلم ، وأكبر مقوم للأخلاق ومهذب لها هو الدين ، والدين الإسلامي لحسن الحظ يتمشى مع العقل ، ويحض على مكارم الأخلاق ، ويفسح صدره للعلم .

لقد خلف محمد عبده تلاميذ بررة تأثروا بتهاليمه وظلوا ردها طويلا من الزمن يفتخرون بانتسابهم إليه وبالأخذ عنه ، ومنهم سعد زغلول ، وحافظ إبراهيم ، وإبراهيم المويلحي ، والهللأوي ، ومصطفى صادق الرافعي بمصر ، وإبراهيم البازجي ، وأحمد الحمصاني بسوريا وعدد كثير

سوام ممن حملوا لواء الإصلاح بعده وكان لهم الأثر البالغ في أوطانهم ونهضتها . وإن كان قد صبغهم في أثناء حياته بطابعه السياسي الخاص ، ووجه ميولهم صوب الانجليز ، فهادنهم وتعاونوا معهم في كل شيء ، فلما توفي الشيخ محمد عبده أسرع بعضهم الى جبهة الوطنيين مثل حافظ إبراهيم ، وتأخر الزمن قليلا ببعضهم عن ذلك المضمار ولكن ما لبث بعضهم حتى صار زعيم الوطنية بمصر كسمد زغلول .

### ٣ - عبد الكريم نديم :

أعجوبة من أعاجيب عصره ، يقف وحده في كل ما تميز به من سجايا ، لا يدانيه فيها امرؤ من أهل زمانه ؛ ويخيل إليك وأنت تقرأ سيرته أنك أمام رجل من رجال الأساطير ، يروعك بذكائه الخارق ، وقوة عارضته ، ومتين حجته ، وشجاعته الفائقة ، وبجياته المليئة بالأحداث ، وبما بلغ من شهرة ، وبما حارب من أبطال ، وبما أفزع من دول ، ولم يكن في حسب جمال الدين وعلمه ، ولم يدرس ما درس محمد عبده وإنما نشأ في بيئة فقيرة<sup>(١)</sup> ؛ فعانى البؤس وشظف العيش ، ولكن الله الذي يحب العبقري لمن يشاء أودع حظاً كبيراً منها في رأس عبدالله نديم ، وزوده بنفس شجاعة ، ويد سخية ، وكانت هذه الخلال رأس ماله الذي واجه به الحياة . وقد استطاع أن يسجل اسمه لامعاً في سجل الخلود .

---

(١) كان أبوه مصباح إبراهيم نجاراً في أول أمره ، ثم خبازاً ، ويحصل من غبزه على الكفاف من العيش ؛ ويعول أسرة كبيرة العدد ، يعيش في مسكن متواضع . وقد أرسل ابنه عبدالله الى المكتب ثم الى مسجد الشيخ إبراهيم باشا بالاسكندرية ، وغاية ما يرجوه أن يتعلم قليلاً منه ثم يعود إليه ليعاونه في مهنته .

## دراسته وتجاربه :

لم يرق لعبدالله العلم الذي وجدته بمسجد الشيخ ابراهيم باشا ، وهو علم شبيه بما كان يدرس في الازهر حينذاك ، ووجدت في جفاف العلوم ، وعقم الطريقة ، ورداءة الكتب وركاكة عبارتها ما نفره من الازهر المصغر ، وحُتِّب إليه نوع آخر من الدراسة تهواه نفسه ، وينسجم مع ما أودع فيها من مواهب ، فغشي مجالس الأدباء ، يسمع شعراً وزجلاً ، ونوادر وقصصاً فتَهْتَز نفسه طرباً ، ويتمنى أن يكون أحد هؤلاء الشعراء أو الزجالين ، وكانت له ذاكرة حادة تلتقط كل ما تسمع فوعى كثيراً .

وقد كان لهذا أثر كبير في حياته الأدبية ، ولا سيما وقد خالط أبناء الطبقة الفقيرة وجمهرة الشعب ووقف على عاداتهم وأمثالهم ونواديرهم وظروفهم وسرعة بديهتهم ، فتأثرت بذلك نفسه الحساسة وذوقه المرفه .

ولكن هيات أن يرضى أبوه بهذه الدراسة غير المنتظمة وهو رجل يكدر ويتعب لينال الكفاف وكان يؤمل أن يرى ابنه عالماً كبيراً كهؤلاء الذين يرى الناس يقبلون أيديهم ، أو على الأقل يساعده بما تعلم من حساب ولغة ، فلما بدت هذه النزعة نفخ منه يده ، وأخذ عبدالله يعمل نفسه ، وتعلم فن الإشارات ( التلغرافية ) ، وأتيح له بعد أن أتقن هذا الفن أن يشغل وظيفة بقصر والدته الخديو اسماعيل بالقاهرة ، فشاهد الفن والجاه ، وألواناً من الحياة لم يرها من قبل ، شاهد العز في أوجه ، كما عرف الفقر في أبشع صورته من قبل .

وعاوده بالقاهرة حينئذ الى مجلس الادباء والشعراء فصار يحمد في

البحث عنهم ، فتارة يذهب الى الأزهر ، ويطلع على ما أخذ رفقائه<sup>(١)</sup> وأحياناً يغشى منازل الأدباء ويتعرف عليهم ويستفيد منهم ، فتوثقت صلاته بالبارودي ، وعلي أبي النصر ، وعبدالله فكري ، ومحمود صفوت الساعاتي ، والشيخ أحمد الزرقاني ، ومحمد بك سعيد بن جعفر مظهر باشا الشاعر النائر . وعبد العزيز بك حافظ<sup>(٢)</sup> ، وغيرهم من الأدباء أو محبي الأدب ، فاستعت ثقافته الأدبية بهذا الاختلاط ، وعرف مزاي كل منهم ، ووقف على فننه ، وشاركهم في مجالس أنسهم وطربهم ومطارحاتهم فأضاف الى خزينة أدبه ما وعاه في هذه المجالس من طرف وملح ورواية .

ولكن مقامه بالقاهرة لم يطل ، إذ زل قلمه وهو في الوظيفة فأغضب خليل آغا<sup>(٣)</sup> المشرف على القصر ، وناهيك به في ذاك الوقت جباراً ، لا يرد له أمر ، وبذلك فقد عبدالله وظيفته ، وضاعت عليه القاهرة بها رحبت ، فضرب في البلاد هائماً على وجهه حتى وصل الى ( بدواي ) بمديرية الدقهلية ، وأخذ يعلم أبناء عمدتها القراءة ، ولكن هذا العمدة ضنّ عليه بالأجر ، فنارت ثائرة عبدالله نديم ، وأخذ يصوغ في هجاء هذا العمدة ألواناً مقذعة من الهجاء كانت أول ما عرف من أدبه ، واكتشف في نفسه أديباً ذا سطوة في القول ، حاد اللسان عنيف الخصام حاضر البديهة .

---

(١) وكان من رفقائه الخالص الشيخ حمزة فتح الله .

(٢) وقد دبح عبدالله نديم مقالاً في هؤلاء الأدباء أثنى فيه عليهم ووصف كلا منهم ببعض النعمت والمنازع ، راجع سلافة النديم ج ١ ص ٣٤ .

(٣) وهو خصي كان ذا حظوة عظيمة لدى إسماعيل وأمه ، وكانت إشارته حكم وطلاعته غم كأنه كافور الأخشيدي أو يزيد .

ثم نراه في المنصورة يتجر في ( العصائب ) ويجمع حوله الأدباء  
الشعراء فأكل الربح رأس المال الذي جاد به عليه أحد الكرماء ،  
ووجد نفسه بعد مدة في دكان مملوءة بالشعراء خلو من السلع ؛ فهام على  
وجهه مرة أخرى بالبلاد حتى وصل إلى طنطا إبان مولد السيد البدوي  
واتصل بشاهين باشا كنج<sup>(١)</sup> ، وكان رجلاً ذا جاه يجتمع حوله الأدباء

(١) وقد وقع له مع شاهين باشا حادثة تدل على مبلغ بديهة عبد الله نديم واستعداده  
الأدبي فقد قال موعن نفسه : « كنت بمولد السيد البدوي ومعني السيد علي أبو النصر  
والشيخ حلاوة وجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما  
فطن أحدهم لانتقاداتنا عليها استلفت أخاه إلينا » وخصانا بالكلام ، فأخذنا يدحاننا  
واحداً فواحداً إلى أن جاء دورهما إليّ فقال أحدهما مخاطبني .

أنعم بقرشك يا جندي والا اكسنا أمال يا أفندي

إلا أنا وحياتك عندي بقي لي شهرين طول جوعان

فقلت على سبيل المزاح .

أما الفلوس أنا مديشي وأنت تقولي لي ما امشيشي

يطلع عليّ حشيشي أقوم أملص لك لودان

ولما بلغ شاهين باشا ذلك واني غلبت هؤلاء ( الأدبانية ) ، طلب شيخهم ، ورعده  
إن غلبوني يعطهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين (سوطاً) ،  
 واجتمع لذلك حشد كبير وابتدأ كبيرهم فقال :

أول كلامي حمد الله ثم الصلاة على الهادي

ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأسيادي

فقلت :

إني أريد أحمد ربي بعد الصلاة على المختار

وإن كنت تطمع في أدبي أسمك حسن الأشعار =



والظرفاء وله بيته منتدى يضم أنماطاً شتى من ذوي اللسان والنكتة  
والفكاهة ، وقد مكث عبد الله نديم في ضيافته مدة ينعم بكرم وأدب  
وراحة ، وكان واسطة العقد يبهر الناس بأدبه وطلاقة لسانه ، وسرعة  
بديته ، وكان يتحداه الأدباء ، ويحارلون قعجيزه ولكنه بهرم بمواهبه ؛  
وقد روى أن بعضهم اقترح عليه أن يعارض دالية المتنبي المشهورة  
التي مطلعها :

أقل فعالي بَلَدَه أَكْثَرُه مَجْدُ      وَذَا الْجَدُ فِيهِ نَلْتُ أَوْ لَمْ أُنَلْ جَدُّ

وادعى المقترح أنه لا يتأتى لشاعر أن يعارض المتنبي في قوله بهذه  
القصيدة .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى      عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بَدُ

فقبل النديم التحدي ، وأنشأ قصيدة مطلعها .

سيوف الثنا تصدا ، ومقولي الغمد      ومن صار في نصري تكفله الحمد

ومنها يعارض بيت المتنبي :

== فقال : دعنا من الأدب المشهور      وادخل بنا باب الدعكة

ندخل على أسيادة بسرور      وتغنم الخير والبركة

فقلت : هيا احتكم في البحر وشوف      فن النديم ولا فنك

دلوقت تسمع يا متحوف      أحسن أدب وحياة دقنك

وهكذا استمر عبد الله نديم يساجل هؤلاء الأدبانية حتى أقحمهم ، وتجد ثبناً لا  
بأس به ببجلة الأستاذ كنه النديم بنفسه ونقله أحمد باشا تيمور في كتابه ( تراجم أعيان  
القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ) .

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا يعارضه غر ويفحمه وغد

ومن غر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وليس هذا شعراً صادراً عن عاطفة أو فكرة ، وإن هو إلا مهارة  
لسانية ، وإظهار لمقدرة كلامية ، وقوة عارضة ، وترقد خاطر ، وأثر  
الصنعة باد عليه ، ولكن الشعر في عصر عبد الله نديم كان كذلك .

ثم عاد إلى الإسكندرية في سنة ١٨٧٩ ، بعد أن غاب عنها طويلاً  
ووجد الأمور والأحداث قد بدلت حديث الناس وسمهم ، ولم يعد  
الشعر وروايته ، والأدب ودرايته هي ما يشغل المستنيرين بمصر بعامة ،  
والإسكندرية بخاصة ، وإنما كان يشغل الناس حينذاك إسراف إسماعيل  
وتهوره وتدخل الأجنبي في شئون البلاد وتجبره ، ووجد بالإسكندرية  
جمعية سرية تسمى ( مصر الفتاة ) تنقد إسماعيل وأعماله صراحة ، وتعتبر  
عن آلام الأمة وآمالها ، ووجد الصحف قد تغيرت لهجتها ، وصارت  
بفضل تعاليم جمال الدين ميداناً فيه الأقلام المرفهة الحادة على الظلم  
والعنفوان والاستبداد والقسوة ، وتطلب الشورى وإنصاف الشعب .  
ورأى عبد الله نديم أن هذا الأدب الجديد ينسجم مع نفسه فألقى بها  
في هذا التيار ، تيار السياسة القوي حق صار من قواد الأمة السياسيين ،  
ورائداً من رواد الوطنية الأوائل ، فأخذ يغذي الصحف بمقالاته  
السياسية ، وحوّل هذه الجمعية السرية إلى جمعية عليية تعمل في ضوء  
النهار ، وسماها الجمعية الخيرية الإسلامية ، وقد مر بك شيء عنها ،  
وكان من أغراضها تأسيس معاهد العلم يربي فيها النشء تربية وطنية ،  
ويلقنون العلم بطرق حديثة تحببه إليهم ، وتفرس في نفوسهم المثل العليا ،  
وتعودهم قيادة الأمة وإرشادها ، ولذلك عمد إلى تشجيع تلاميذ المدرسة  
على الخطابة ، فصاروا ينشئون الخطب بأنفسهم وهو يصلحها لهم ،

ويرج بهم في الحفلات يخطبون ، فتدرب على يديه فريق من محسنون الكتابة ويحيّدون الخطابة ، ولم يكتف بهذا بل كان يؤلف روايات تمثيلية في نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه أمام جمهور المتعلمين بالمدينة كرواية ( الوطن وطالع التوفيق ) و ( العرب ) ، وقد حضرها الخديو توفيق تشجيعاً ، ولقي نجاحاً ملحوظاً أثار عليه حسد بعض الناس .

ولم يلبث أن ترك الجمعية الخيرية ومدرستها حين ظهر بها خلل نسب إليه ، فتفرغ للصحافة وأنشأ جريدة « التبكيّت » <sup>(١)</sup> ، يدبج فيها مقالات ظاهرها هزل وباطنها جد يصور فيها عيوب المجتمع المصري تصويراً شائقاً بأسلوب تهكمي لاذع ، ويطلب من القراء أن يعاونوا في تحريرها بقوله : « كونوا معي في المشرب الذي التزمته والمذهب الذي انتحلته . أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية وأمثال أدبية وتبكيّت ينادي بقبح الجهالة وذم الخرافات لتتعاون بهذه الخدمة على نحو ما صرنا به 'مُثَلَّة' في الوجود من ركوب متن الغواية واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » . وسنتعرض لنهجها وطريقة كتابته بها فيما بعد وحسبنا أن نقول الآن : إن أسلوب هذه الجريدة والموضوعات التي عالجتها ، وهجتها على كثير من قلاع الفساد بمصر حببها إلى جمهرة القراء ، وبغضها إلى المنافقين وأدعياء الوطنية .

ثم قامت الثورة العربية في الظروف التي علمتها من قبل ، وصادفت هوى في نفس النديم ؛ لأن مبادئها كانت تنادي بالإصلاح السيامي الذي طالما دعا إليه في جريدته ، ووجد الثوار أنفسهم في حاجة إلى خطيب ذلق اللسان ، حاضر البديهة ، جياش العاطفة مصري غيور على وطنه .

---

(١) صدر أول عدد منها في ٨ رجب سنة ١٢٩٨ ٦٠٥٨ يوفيه سنة ١٨٨١ .

يكون لسانهم الناطق وداعيتهم المحبوب ، فلم يجدوا خيراً من عبداً الله  
النديم فألحوا عليه حتى شايهم فكان معهم كما أرادوا وزيادة ، وطلب  
منه عرابي أن يغير اسم جريدته<sup>(١)</sup> ويسميا ( الطائف ) تيمناً باسم طائف  
الحجاز ، وتفاؤلاً بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب الشدياق .

وابتدأت الطائف قوية عنيفة اللهجة تنقد اسماعيل نقداً مرأً ، وتشرح  
للناس كيف أسرف ، وكيف استولى على الأراضي ، وتصور بؤس الفلاحين  
في السخرة - أيام اسماعيل<sup>(٢)</sup> - والعذاب المهن الذي يصبه الرؤساء على  
الناس ويلهبون ظهورهم بالسياط في سبيل الجباية ودفع الضرائب ،  
ويضيف الى كل ذلك ما رآه بنفسه من مشاهد دامية ، وقلوب قاسية  
ورؤساء يزدادون غلظة طمعاً في الترقية . وما لجأ عبدالله نديم الى كل  
هذه الموضوعات إلا ليسوغ طلب الثوار الحكم النيابي ضماناً للمعالة ،  
وجباً للاستبداد وعهوده ، وطلب الثوار من وزارة الداخلية أن تعتمد  
الطائف لسانهم المعبر فوافقت على ذلك ، وصارت الطائف مقياساً لتطور  
الثورة ، فتارة تدم الأوروبيين وتحمل عليهم حملات شعواء لتدخلهم في  
شئون البلاد ، وآونة تصب نقمتها على توفيق ؛ لأنه مكن لهم في مصر ،  
وغض الطرف عن ازدياد نفوذهم . وكانت النديم في الطائف يدلس في

---

(١) وكان آخر عدد صدر من التنكيت في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ، وصدر منها  
ثمانية عشر عدداً .

(٢) لأن من حسنات رياض التي تذكر له أنه ألغى السخرة في أوائل عهد توفيق كإقامة  
الجسور على النيل أيام الفيضان ، وحفر الترع من غير أجر ، وكان كثير من الملاك يسخرون  
الفلاحين في أرضهم بدون أجر فمنعهم رياض من ذلك منعاً باتاً فأثار حفيظتهم ، ولعل ذلك ما  
جعل محمد عبده ينظر إليه دائماً بأنه المستبد العادل الذي يحكم البلاد خمس عشرة سنة حتى  
يصلح شئونها .

أخبار الثورة والقتال تهدئة للناس فيصور الهزيمة نصراً حتى تمت الهزيمة ،  
وأسقط في يد الثوار .

ولم يكن الطائف وحده هو الذي يدعو الى الثورة ويحرض عليها ،  
ويشجع الناس على التطوع والتبرع ، بل كانت خطبه المؤثرة وحاسته  
المتدفقة ، وقدرته على تصنيف الكلام ، ومخاطبة كل طائفة بالأسلوب  
الذي تفهمه ، من أشد العوامل على إشعال نار الثورة ، وازدياد لهيبها<sup>(١)</sup> .

كان عبدالله نديم يمثل الروح المصرية أتم تمثيل ، ويعرف عادات البلاد  
وصفات أهلها أتم المعرفة ، ويحس بشعورهم وآلامهم ، وما يعانونه من  
جور وقسوة ، على يد حكامهم . ولا بدع فقد خالطهم ، ونشأ بينهم ،  
وتشرب بمشربهم ، وعانى مثل ما عانوا ، تربى في أحضان الفقر والفاقة ،  
واختلط بشقى الطبقات ، وكثرت تجاربه في الحياة . ولذلك كان يتحرق  
شوقاً الى الحرية ، وإلى رفع الظلم عن كواهل مواطنيه ، وإلى رفع مستواهم  
الاجتماعي والثقافي ، وأن يعيشوا في مجبوحة من العيش .

وكانت موهبته الحقة في لسانه ، ويعرف أن دعوته الى الإصلاح  
والى الثورة ، وإلى التعبئة القومية أيام الثورة العربية لن تصل الى  
أسماع للعامة وقلوبهم إلا عن طريق الخطابة ، لفشو الأمية ، ولتأثر  
الناس بالسمع والمشاهدة .

وقد أوتي فصاحة اللسان ، وقوة الحجج والبيان ، ومعرفة عميقة

---

(١) كان يخطب في كل مجتمع : في الازهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفي حفلات  
الافراح ، فما يكون مجتمع إلا يطعم أن يكون فيه عبدالله نديم خطيباً هو وجماعة من  
تلاميذه .

بنفسية الشعب وكيف يهيج بهذب الكلام ، استمع إليه يحث الناس على مجاهدة الانجليز وحريهم بعد أن نزلوا الاسكندرية ، وبدا منهم الغدر والعدوان ، بذلك الأسلوب الساحر القصير الفقرات ، الذي يمزجه بآيات القرآن ، وأبيات الشعر فيزداد قوة ورونقاً وتحميساً :

« أيا نخوة الإسلام هزّي رجالنا لحرب بها عز البلاد يدوم  
يا بني مصر :

هذه أيام النزال ، هذه أيام النضال ، هذه أيام الذود عن الحياض ، هذه أيام الذب عن الأعراض . هذه أيام يمطي فيها بنو مصر صهوات الحماسة ، وغوارب الشجاعة ، ومتون الإقدام لمحاربة عدو مصر بل العرب ، بل عدو الإسلام ، الدولة الانجليزية خذها الله ، ورد كيدها في نحرها فقاتلوم قتال المستميتين ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين . قوم نقضوا العهود ، ونكثوا الأيمان ، وهموا بإخراج أهل الحكم ، وهم بدأوكم أول مرة : اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

يا أهل مصر ا :

إنما الانجليز نجس فلا يقربوا البلاد بعد علمهم هذا ، وإن خفتم ضعفاً فتعاونوا وتأزروا ينصركم الله عليهم إن الله قوي عزيز ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا لا ولازمة يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم .

لقد صعب الثورة العربية من أول يوم هبت شعلتها ، والتقت روحه بأرواح زعمائها ، وعدوه لسانهم الناطق ، وكان يصحبهم في كل مكان

كان مع الجيش في ثورة عابدين يشد أزرم ، ويثبت قلوبهم . يقول عرابي :  
« فجال صديقي الأعز الهمام ، صاحب الغيرة والعزم القوي السيد عبد الله  
نديم بين الصفوف ينادي : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا  
بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء  
إلى أمر الله ، فكان معي ثاني اثنين في حفظ قلوب الرجال من الزيغ  
والارتجاف ، وأخذ يردد هذه الآية الكريمة كأنهم لم يسمعوها إلا من  
فه في تلك الساعة » (١) .

ولما سافرت فرقة عبدالعال حلمي الى دمياط في أول أكتوبر عام  
١٨٨١ خطب النديم في جموع المودعين بمحطة القاهرة محيياً الجنود ،  
داعياً الناس الى الالتفاف حولهم قائلاً .

« حماة البلاد وفرسانها ! من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من  
الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلت إلى من الشرف ، وما كتب  
لكم في صفحات التاريخ من الحسنات ، فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم  
إليها سابق ، ولا يلحقكم في إدراكها لاحق ، ألا وهي حماية البلاد ،  
وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنها ، فلکم الذكر الجميل ، والمجد  
المخلد ، يباهي بكم الحاضرين من أهاننا ، ويفاخر بمآثركم الآتي من  
أبنائنا ، لقد حيي الوطن حياة طيبة ، بعد أن بلغت الروح التراقي ،  
فإن الأمة جسد والجند روحه ، ولا حياة للجسم بلا روح ، وهذا  
وطنكم العزيز يناديكم ويقول :

إليكم 'رد' الأمر وهو عظيم فإني بكم طول الزمان رحيم

---

(١) كشف الستار ص ٢٦٦ .

إذا لم تكونوا للخطوب وللردى فمن أين يأتي للديار نعيم  
وإن الفقى إن لم ينازل زمانه تأخر عنه صاحب وحميم  
إذا لم تكن للعائدين حامية فأنت ونحسوب البنان قسم<sup>(١)</sup>

كان النديم يرتجل خطبه ولا يزورها ، وإنما هي كلمات ملتبة تعبر  
عن عواطف جياشة تتحرك في صدره ، تصور آلامه وآلام أمته ، كما  
تصور آمالهم وأحلامهم ، وما مثله يحتاج الى التحضير والتحير وقد  
أوتي اللسان المطواع الذّرب ، ومملك أعنة الكلام ؛ ولقد تراه يخطب  
في الحفل الواحد خمس مرات ، فما يكرر كلاماً قاله ، ولا يتردد أو  
يتعلم ، وكانت يجوب القرى والداكر فيخلب قلوب الفلاحين بسحر  
بيانه وعذب لسانه ورائع خطبه ، يحرضهم على الإباء والكرامة ،  
والفضبة للوطن المكلولم ، حتى عرف بخطيب الشرق . وكان يدعى  
بالبرق الى الإسكندرية وغيرها ليخطب فيليبى الدعوة زميلاً ، ويرتجل  
من حر القول البليغ القوي القويم الحجة ما يترك الألباب سكارى من  
غير مدام ،<sup>(٢)</sup> .

ولملك لاحظت أنه لم يكن يتكلف السجع في خطبه أو غيره من  
المحسنات ، ومع ذلك تحس لكلامه أمراً وقوة ، ورصانة وموسيقية  
أخاذاة ، وأنه كان يعتمد الى التهويل والمبالغة والتزيد حتى يقنع ويهيج  
العواطف ، ويلجأ الى الإيحاء والدفع ، ويكثر من الشعر والحديث  
والاقتباس من آي الله الحكيم ، يؤيد بها حجته ، ويعلي كلمته ، وليكون  
كلامه أعظم تأثيراً وأقوى بياناً .

---

(١) مصر للمصريين ج ٤ ص ٩١ ، وكشف الستار ص ٢٥٩ ،

(٢) سلافة النديم ج ١ ص ١٩ .



وكانت كتابته خطباً مكتوبة من حيث الموضوع والأسلوب ، ولا سيما تلك التي كتبها في أيام الثورة العربية ، وفي إبان الحرب بين مصر والمجترات في جريدة الطائف . فكان لها السحر في النفوس ، ورفع الروح المعنوية ، وثبتت القلوب الواجفة ، والأفئدة المضطربة الخائفة .

فلا بدع إذا جد في أثره الطلب حين أخفقت الثورة ؛ إذ رأى فيه توفيق والإنجليز المحرض الأكبر للثوار وثائر آرائهم بقله ولسانه ، ولكنه اختفى من وجه السلطة فلم يعثر عليه ، لأنه كان يعلم جد العلم أنه لن يففر له ذنب ، أو تقال له عثرة إذا أسر ، ولن يجديه الإنكار فتيلاً فأقواله ماثورة ، وخطبه مشهورة ، والطائف خير شهيد وسيكون العقاب صارماً أليماً . لقد ذل كثير من كبار الثوار والتمسوا الرأفة ؛ ولكن عبدالله نديم أثر التشرذم والاختفاء على إحناء الرأس ، وذلة الطرف ، وهو إنما خاض الثورة عن إيمان وعلم .

وقصة اختفاء النديم وحيله التي ضلل بها السلطة ، على الرغم من المكافآت التي رصدتها لمن يأتي به ، جديرة بأن توضع في رواية تمثيلية ، وستكون رواية غاية في القوة ، لأنه أجاد التنكر إجادة يعجز عنها أمهر الممثلين اليوم في بلاد ( الحياالة ) ، واسمعه يصف بإيجاز هذا التنكر الذي دام تسع سنين وهو بمصر لم يبرحها ويمر بين رجال الحكومة ، وصنائع الإنجليز دون أن يدركوه ، أو يعرفوه : « خرجت من مصر مخفياً فدرت في البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواي التي أذيعها ، من قولي إني مغربي أو عيني أو مدني أو فيومي أو شرقاوي أو نجدي ، وأصلح لحيتي إصلاحاً يوافق الدعوى أيضاً ، فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها في آخر عند دعوى السباحة - مثلاً - وأبيضها في بلد

وأحمرها في قرية ، وأسودها في عزبة ، وتغيرت الأسماء التي انتعلتها<sup>(١)</sup> ، والناس في عجب من أمره فالمقدرة مقدره النديم ، ولكنه يختلف عنه في الشكل والصوت واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جل من لا شبه له !!

(١) فتارة إسمه الشيخ يوسف المدني ، وتارة الشيخ محمد الفيومي ، وأحياناً سي الحاج علي المغربي» وكان إذا ادعى أنه مغربي تكلم بلسان مغربي محكم ، أو مدني فكذلك وادعى مرة أنه عالم يمني وكان بالفرشية عند أحمد المنشاوي . وذاعت شهرته حتى بلغت رياض - وهو الرجل الذي يطارده ويضع له الأرصاد في كل طريق ، ويقف المال في سبيل أسرته إرضاء لتوفيق - فأرسل سعد زغلول ليسأله عن مثل ورد ذكره في بعض الجرائد ولم يفهمه ، فقابل سعداً على أنه عالم يمني وفسره له .

وقد استعان على تضليل الحكومة بإشاعة سفره إلى خارج القطر على لسان صديق فرنسي كان يثق به ، ونقلت كل الجرائد خبر سفره هذا فصدقت الحكومة وعنف رجال الأمن على إمامهم وتمكينهم له من الحرب ، وقد وجد عطفاً زائداً من كثير من الناس فأعانوه على وأمدوه وخادمه بالمال ؛ فقد أتى مرة عيد أضحي وهو في ( برة المندرة ) يسكن الحقول ، لا أحد معه إلا زوجته ، ولا تجد القوات الضروري ويأتيه خادمه يشكو البؤس والفاقة ، وإذا برجل من أهل البر والمروءة يملأ بيت النديم قمحاً وعسلًا وممنًا وثياباً من أطلس وحرير للزوجة وللخادم وزوجته .

ولكن مرت عليه مع ذلك أيام حالكة السواد ، مليئة بالمصائب ، فقد اختفى مرة في قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها لقرها من رعة ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير به ذبالة تملأ الحجرة دخاناً ، وقد مكث بهذا السرداب ستة أشهر وكان إذا أراد الكتابة صنع المداد من سناج السراج مع قليل من قرط السنت ، ويتخذ أقلامه من الحجناء كل هذا وهو صابر لا يشكو ولا يتحمل ؛ وكان أول أمره شديد الحنين لأمه وأبيه وأخيه لا يعرف ما صاروا إليه ، فلما خف عنه الطلب ، ويشتت الحكومة من العثور عليه ، تمكن من الاتصال بأهله اتصالاً منتظماً وكان حريصاً على ما خلفه بيته بالإسكندرية من كتب ومؤلفات ، ولكنها ضاعت بالسكة الحديدية حين وضعها أبوه وهو مهاجر من الثور بعد ضربه بالدافع الإنجليزية ، فلما اشتد الزحام بالقطار عمد رجال السكة الحديدية إلى التخلص من البضائع ليفسحوا المجال للناس فالفقوا هذه الصناديق المملوءة كتباً وهم لا يعلمون قيمتها عند عبد الله نديم .

وقد أتبع له من الفراغ وهو في اختفائه هذا ما مكنه من مواصلة دراسته ، وشغل نفسه بالتأليف وقرض الشعر ، وقد ألف في كثير من العلوم ، وفي هذا يقول من رسالة لصديق له « نارة اشتغل بكتابة فصول في علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة بما تعظم به لله المنة ، وحيناً اشتغل بنظم فرائد في صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤلفة في فنون مختلفة وآونة أكتب في التصوف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكران على سفينة تاريخ الزمان ؛ وولياً اشتغل بشرح أنواع البديع في مدح الشفيع ... وقد تم لي الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ، فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام الهنة وسيلة المنحة والمنة ، أتراني كنت أكتب هذه العلوم في ذلك الوقت المعلوم ، وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين ، وفي حجرها ثالث ، وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربى عشرة وليس له تابع » .

وانتهى به المطاف الى بلدة ( الجميزة ) فعرفه عمدتها وكتب أمره ، ولكن أحد جواسيس الحكومة عرفه ، فوشى به طمعاً في المكافأة<sup>(١)</sup> ، وأطبق عليه رجال الشرطة ، ولم يستطع النجاة بحيلة المعهودة فلم نفسه<sup>(٢)</sup> ومن حسن حظه انهم لم يفحصوا عن أوراقه ، إذ كان في بعضها هجاء مقذع لتوفيق ، ولو تفحصوا لذلك لكان أمره غير ما عرفنا . ثم أرسل الى طنطا للتحقيق معه ، وكان المحقق قاسم بك ، أمين فأكرمه وواساه وأمدّه بالمال من عنده ثم صدر أمر توفيق بالعفو عنه وإبعاده

(١) كان معاد المكافأة قد انتهى فلم يزل شيئاً

(٢) كان اختلاؤه سنة ١٢٩٩ هـ والقبس عليه في سنة ١٣٠٩ هـ .

عن مصر ، فاختار ( يافا ) دار إقامة ، وطوف ما شاء له هواه في فلسطين وعرف كثيراً من بقاعها<sup>(١)</sup> .

ولما مات توفيق وتولى عباس عفا عنه ، وسمح له بالعودة الى مصر فرجع إليها سنة ١٨٩٢ وأنشأ جريدة ( الأستاذ ) فكانت صفحة مجيدة في تاريخ الجهاد القومي ؛ لأن علاقة الحديو عباس بالإنجليز كانت سيئة أول الأمر ، وكان يجمع حوله الوطنيين وكبار المفكرين كما علمت آنفاً ، وأخذ النديم يناصر عباساً بكل ما أوتي من قوة ، وكان في استطاعته أن يمنح للسلم ويهادن الإنجليز ، ويعين في أعظم المناصب بالمعارف أو الأزهر ، وهو كفاء أديب ولكن أبت عليه نفسه العقّة ، ووطنيته المتقدة أن يلين لعدوه مها كانت الأيام قد حاربتة في الماضي ، ولقي إبان اختفائه من عنت وآلام .

شهر قلمه في وجه الإنجليز غير مبال بهم وبسلطانهم القوي بوادي النيل ، فأثار بذلك حفيظتهم وخافوا إن تركوه وشأنه أن يتسع الخرق ، ويفسد الأمر ويعيدها جذعاً ، فأوقفوا مجلته ، ورحلوه الى يافا<sup>(٢)</sup> منفياً

---

(١) وكان في أول أمره يرتدي الثياب الافرنجية الملوّنة ؛ فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقباء واعتم بعمامة خضراء إشارة الى الشرف ، ولكن كثيراً من ذوي الخبرة ينكرون هذا النسب ، ولعل هذا الادعاء لشعوره بضعة نسبة فأراد أن يستتره بهذه الصلة .

(٢) وقد ودع قراءه في آخر عدد صدر من مجلة الأستاذ في ١٣ من يونيه سنة ١٨٩٣ بكلمة مؤثرة قال فيها : ما خلقت الرجال إلا لسيرة الأحوال ومصادمة التوائب ؛ والمعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعبة وكدرأ في أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فلاني أودع لإخواني قائلاً :

أودعكم والله يعلم أنني أحب لقاكم والخلود إليكم  
وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواعي نبت فالسلام عليكم

بعد أن منعه أربعمائة دينار ، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر ، واشتروا عليه ألا يكتب شيئاً بشأن مصر ، ولم ينفعه الحديد ، وبحول بينه وبين النفي لأنه كان مغلول اليد والسلطة كلها بيد الإنجليز .

ولم يكن بيافا أسعد منه حظاً وهو بمصر ، إذ وشى به جماعة لدى السلطان عبد الحميد فأمر بإبعاده ، فعاد إلى الإسكندرية في حيرة من أمره بعد أن لفظته بلاد الدولة العثمانية . بيد أن الغازي مختار باشا تشفع له عند عبد الحميد حتى سمح له بالسفر إلى تركيا وهناك التقى بأستاذه الأكبر جمال الدين ، وكان كلاهما في أسر وإن اختلف القفصان . فجمال الدين في قفص من ذهب ينسجم مع حسبه ومكانته ، والنديم في قفص من حديد يليق بمقامه .

وعين النديم مفتشاً للمطبوعات وهي وظيفة اسمية تكفل له راتباً مقداره خمسة وأربعون مجيدياً ، وطبعي أنه لم يزاول العمل بمهنته تلك ، وهي أبعد الوظائف عن طبيعته وحريته . وفي الآستانة عادي أكبر قوة بها في ذيك الوقت وهو أبو الهدى الصيادي<sup>(١)</sup> ولعله تأثر في عدوانته له بجمال الدين ، وقد عرفت من أمرهما معاً بعض الشيء أو لسمع الصيادي - وهو الأرجح - كان عدواً لكل حر كريم . ولم يعبأ النديم بسطوة الصيادي وجاهه وقدرته على الانتقام ، وهو رجل كانت له في كل مكان عيون تنقل له الأخبار ، وقد اصطنع بمعرفه كثيراً من عظماء

---

(١) الصيادي سوري من حلب فقير من المال والحسب دفعته المقادير إلى الآستانة ، وكان ماهراً ذكياً وسميحاً ، ماضي العزيمة استطاع أن يتغلب على السلطان عبد الحميد ويخضعه لمشيئته ، بأحلامه وتفسيراته والطرق ومشيختها ، وربط نسبه بأهل نسب وادعى أنه قرشي هاشمي ؛ وحياته وأعماله تمثل دوراً هاماً أشبه بدور راسبوتين عند القيصرية الروس .

الدولة فهم طوع يديه ودرمن إشارته ، وقد سخر كل ما بتركيا لخدمته  
وكم نفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلل على عبد الحميد فبالغ في  
استرضائه . ولكن النديم لا يهمه الصيادي ولا عبد الحميد وأخذ يخوض  
في سيرته بلسان حاد بذيء ، ووضع فيه كتاباً سماه ( المسامير ) كله  
هجو مقذع فاحش لا يشرف الصيادي ، ولا يشرف النديم ، وحاول  
الصيادي أن يعثر على هذا الكتاب ، وهرَّبَه ( جورج كرتشي ) الذي  
كان متصلاً بجمال الدين وعبدالله نديم الى مصر ، ثم طبعه

وأصيب النديم بالسل بعد ذلك بقليل ، واشتدت عليه العلة فمات في  
الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٤ ، العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ ،  
ودفن بتركيا وهو في الرابعة والخمسين من عمره .

#### آثاره وأثره :

ولملك قد أدركت من هذه السيرة أن النديم قد جرب كثيراً من  
شئون الحياة ، وعرف حلوها ومرها ، وخالط الفقراء والأغنياء ، وعاشر  
أصنافاً شتى من مختلف الأجناس وعرك الدهر حتى استحصدت مِرْمَرَه ،  
وقويت شكيمة ، وإني أدعه يسرد تجربته بنفسه فستعیننا في تعرف  
أدبه ، قال : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ،  
وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة  
والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومن يتألمون ،  
وماذا يرجون ، وخالطت كثيراً من متفرجة الشرقين وألمت بما انطبع  
في صدورهم من أشمة الغريبن ، وصاحبت جمعاً من أفاضل الشرقين  
المتعلمين في الغرب مما ثبتت أقدامهم في وظيفتهم ، وعرفت كثيراً من  
الغريبن ووأبت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقين والغاية

المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير في  
المعاملة أو السياسة ، وامتزجت بلقيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً  
وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والأدب ،  
وتعلقت بقراءة الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ،  
وانجرت برهة ، وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً وبالخطابة  
والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت  
إليه بعناء ، وكسافي نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبا وتوجني بتاج  
الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتي تريك هينة أبداء  
السبعين ، وحقيقي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين .

ولو عاش النديم -- مع تجربته هذه التي قلما تتاح لأديب ، ومع  
ذوقه المرفف ومواهبه العديدة وقدرته على التعبير -- في عصرنا هذا  
وعرف ألوان الأدب ، وفنونه ، واطلع على طريقة الغرب وأساليبه من  
قصة ومسرحية ، وأفكار ، لكان أديباً عالمياً ممتازاً تفاخر كل أمة بانتسابه  
إليها . ولكنه كان متعلقاً الى حد كبير بأذيال الماضي ، يكتب بأسلوب  
مقيد بصنوف عديدة من الاغلال ، ولم تكن كنوز المعاني قد حطمت  
أغلاقها ولا ألوان الادب الغربي العديدة قد عرفت ودرست . ومع ذلك  
فالنديم يعد في الطليعة من رواد الادب الحديث .

أما آثاره فيحدثنا أحمد سمير مترجم حياته ، بأن النديم « لما كان  
في يافا أول مرة بعث الى محرراً يكلفني به أن أطلب ديوان شعره  
الصغير من صديقه المرحوم عبد العزيز حافظ فلما قصدته وجدته مصاباً  
في قواه العقلية بما لم يدع للطلب مجالاً . ثم كتب إلي كتاباً ثانياً بأن  
ديوانه الاوسط عند « م. ن » ، فطلبت منه ، فاعتذر بأنه ضاع فلما  
أنبأت المترجم بذلك أرسل إلي في مكتبه الثالث أنه إنما طلبها

ليحرقها براءة منها ومن أمثالها ؛ لان فيها 'مجرأ' كثيراً ، وختم المكتوب بهذه العبارة : [ قد خلعت تلك الثياب الدنسة ، ولبست ثوب ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ) ] ، .

وهذه قصة تذكرنا بما كان من الشيخ علي الليثي من قبل وبمكانة الشعر عند هؤلاء القوم ، وفي الواقع أنه لم يكن شعراً بالمعنى الذي نعرفه اليوم ، ولكنه كان كما ذكرنا من قبل نظماً تظهر به المقدرة على التعبير والمهارة اللسانية ، وتصريف الكلام . وسنرى نماذج من هذا الشعر فيما بعد ، وقد بقي لنا قليل ينبيء عن نوع هذه الدواوين التي لم يعثر عليها .

١ - أما نثره ، فقد كتب مقالات شتى في التنكيت والتبكيت ، وقد وعدنا بالرجوع إليها لننظر في موضوعاتها وقيمتها . وحسبنا أن نتصفح العدد الاول منها وقد حرره النديم بقله فنجد مقالات شتى تمس حياة الامة وتعالج مشكلاتها .

فقال عنوانه : « مجلس طبي لمصاب بالآفرنجي » ، وهي قصة شاب قوي الجسم سليم البنية ، جميل الطلعة ، لطيف الشكل ، نشأ تحوطه العناية وتكلاء الرعاية ، ويدلله أهله ويحمونه حتى لا تصل إليه يد عدو ، ولا حيلة محتال ، ولكن استطاع دجال ماهر أتقن فن الخداع والحيلة أن يتسلل إليه ، وأن يوهم أهله أنه من ذري الورع والتقوى ، فأمنوا جانبه ، وأسلموه له ، فأخذ يعرضه في الأسواق والطرقات وجلب له من الغواني الحسان من تعارض الشمس بحسنها وتكسف البدر بنورها ، يغازلن أهله بمحركات تحرك الجباب ، فانصرف الأهل إليهن ، وتركوا مراقبة الفتى المليح ، فانفرد به ذلك المحتال الخداع ، وأغرى به الغنيات



الملاح ، فتمنّع حيناً ، وعصمه حياؤه وطهر نشأته زمناً طويلاً ، ولكن رأى أن الإغراء شديد ، والخصم عنيد ، وأن لا قبل له بهؤلاء الشياطين ، ولا سباً وقد وجد أهله عاكفين على التزلف لهؤلاء النسوة ، والتدله في حبهن ، فسار في الطريق التي رسمها من قبل هذا المنافق الدجال ، فما هي إلا رشفة كأس حتى أصيب بالداء الأفرنجي ( الزهري ) فاصفر لونه وارتمت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وشارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبايح تنفر منها الطباع ، وفطن إليه بعض أهله فلما رأى ما به بكى وانتحب ، وأخذ يذرف العبرات ويصعد الزفرات ، ويلفظ الحشرات ، وجمع له الأطباء يشخصون داءه ، ويركبون الدواء على يبرئه من علته ويقف سريان الداء ، وأقبل أهله متلهفين لسماع نصح الأطباء ورأيهم فطلبوا إليهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم في خدمته ، وتنظيف محله وتطهير أعضائه وحفظه حتى لا يقربه غريب ، ولا يمكن أجني من الوصول إليه فيفسد العلاج ، ويسمى في إتلافه أكثر مما صنع هو وقومه ، وأخذ أهله يعملون بمشورة الأطباء ويبذلون الجهد في وقايته وصيانتة .

وهذه قصة رمزية تصور ما كان من إصابة مصر على يد إسماعيل وإسرافه وتدخل الأجانب في شئونها ، والمراقبة الثنائية ، وصندوق الدين ، وتصور كذلك ألم الناس من هذا المرض الأفرنجي ، وأملهم في النجاة بسمي العقلاء وتفكير المستنيرين . وتوريته ( بالأفرنجي ) عن هذه المصائب التي حلت بالبلاد تورية بارعة .

وترى بالعدد الأول من التنكيث والتبكيث مقالاً آخر بعنوان ( عربي قفرنج ) وهي قصة شاب من صميم الريف أبوه فلاح مسكين ، لم يستطع أن يعلمه ، بل تركه جاهلاً يساعده في حقله ويأكل البصل ، ولا يرى اللحم إلا في العيد ، ثم مر به أحد التجار فأغراه على أن يدفع

به إلى المدرسة . ولما اتم تعليمه بمصر أرسل إلى أوروبا ، وعاد إلى بلاده متنكراً لأهله ، مستفجاً عادات قومه ، مهجناً طريقتهم في التحية ، مستفهماً بقحة عن اسم البصل الذي أكله لأنه نسي الاسم العربي ، ولم يعد يتذكر إلا الاسم الفرنسي<sup>(١)</sup> ، ولما شكا أبوه إلى أحد الناهين قال له : « ولدك لم يتهدب صغيراً ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حتى لغته ، ولا قدر شرف أمته ، ولا ثمة الحرص على عوائد أهله ولا مزية الوطنية ، فهو وإن كان تعلم علوماً إلا أنها لا تقيد وطنه . »

وهذا داء استشرى في مصر بعد النديم ، وحاكى كثير ممن درسوا في بلاد الغرب أوروبا في كل شيء حتى هجنت عاداتنا وتقاليدينا ، وفقد شبابنا كثيراً من مقومات الوطنية الصادقة ؛ وإن كانت هذه الفتنة قد ابتدأت تخف وتلتبه الأمة إلى التمسك بلغتها وعاداتها ومزاياها ، وتمتعها .

ويلى ذلك قصة جماعة من الموسرين اجتمعوا في بيت أحدهم ، ودخل عليهم فوجدهم مبهوتين صامتين لا يتكلمون ولا يتحركون ، ولا يرفعون أبصارهم ، فظن أول الأمر أن رب الدار قد رزى بمخضب فادح ، وقد أتت هذه الجماعة لتواسيه ، وعقد الحزن ألسنتهم ، وران على قلوبهم فتركهم واجين ، ولكن خاب ظنه هذا ، فسأل هل ثمة معضلة عويصة عرضت لكم وأنتم تبحثون تقدم أوروبا في الصناعات ، وانتشار تجارتها وكيف تصل مصر إلى هذه المنزلة ، فأجابوا بالنفي ، فقال ربها تفكرون

---

(١) وقد ساق النديم هذه القصة بطريقة الحوار بين هذا الشاب المغرور الذي أسماه النديم ( زعيط ) وبين والده وذكر فيها كثيراً من الكلمات العامية حتى يعطي اللون الخاص الذي يريده ؛ وكان يذكر بطريقة تهكمية لاذعة هذه الكلمات الفرنسية التي يلوكها هذا الدعي مثل كلمة ( بون أريفي ) عند التحية و ( أنيوت ) يريد البصل وهكذا .

فيا يزيد ثروتكم ويعود بالنفع والخير عليكم وعلى أمتكم . فقال رب الدار :  
هذا أمر لا يهمننا فإن البلاد إذا تقدمت أو تأخرت لا تفيدنا شيئاً أحسن  
مما نحن فيه ، وأما عن ثروتنا وزيادتها فعندنا من الثروة الكفاية  
وهكذا صار يسألهم وهو في حيرة من أمرهم حتى اكتشف أنهم إنما  
اجتمعوا لتعاطي ( الكيف ) ، والمنبهات وغير ذلك ، وعللوا لاجتماعهم  
هذا بأن ( الكيف ) لا يُفرح إلا إذا تعاطاه الإنسان في مجالس . ويختم  
النديم هذه القصة التي سماها ( سهرة الانطاع ) بقوله : « هكذا تكون  
حال من لم يتهذب صغيراً فإنه يخرج أسير شهواته بعيداً عن إدراك  
المعاني جباناً بليداً غيباً » .

ثم يتعرض في كلمة أخرى لهؤلاء الذين يلتفون حول القصاص بالمقهي  
يسمعون قصة عنبرة ويتجادلون ويتحزبون لأبطال القصة ؛ ولما رآهم  
القصاص منصتين إليه أخذ يفترى عبارات ينسبها إلى عنبرة ، وكلمات  
يعزوها إلى عمارة ، وكل فريق يرشوه حتى ينتصر له بتلفيق كلام يصف  
فيه حظه ، وأخيراً انتهت الليلة بأسر عنبرة ، فقام من الجمع رجل  
قدم للقصاص عشرة جنيهات ليخلص عنبرة من أسره فأبى ، فانهاled عليه شتماً  
وسباً ، وتذكر أن عنده قصة عنبرة ولكنه أُمي ، فذهب إلى ابنه  
قبيل الفجر وأيقظه ، وهو في مصيبتة التي لحقته تلك الليلة ، حتى ظن  
الولد أن أمه قد ماتت ، أو أحد إخوته توفي ، أو تجارة أبيه صودرت ،  
فلما علم أن الأمر يتعلق بعنبرة اخذ يهون على والده الأمر ، ويصف  
القصة بالتلفيق والكذب ، فانهاled عليه والده ضرباً بالعصا وطرده من البيت .

ثم يقص أمر المزارع والمرايبي ، وقد ذكرناها آنفاً ، ويتبع ذلك بقصة  
غني كبير بنى بيتاً واعتنى دأثاته ورياشه ، ثم دعا فريقاً من أصدقائه  
لزيارته ، ولما وصلوا إلى المكتبة سأله أحدهم عن الكتب التي يهواها ،  
فأجاب بما يدل على الجهل ، أنه لا علم له بالكتب وما تحتويه ، وكل

ما في الأمر أنه زار أحد العظماء ووجد في بيته خزانة كتب ، عليها ستارة خضراء ، ويجانبها منفضة من الريش ، والخدام يسمح زجاج الخزانة كل يوم فطن أن هذا طراز جديد في تأثيث البيوت فحأكاه فيه دون أن يعرف شيئاً عن الكتب وما تحويه فدل على عظيم جهله وعلى أن التقليد الأعمى مضر بالإنسان مزر بمكانته .

أجل ! ضم العدد الأول من المجلة كل هذه الموضوعات التي تصور عيوباً شائعة لا يزال بعضها متفشياً ، وتصف الدواء لهذه العلل الاجتماعية . ولكن بأسلوب الوعظ والإرشاد ، وإن كان ممزوجاً بكثير من التهم اللاذع والسخرية المرة ، والكلمات القارصة . وقد فطن النديم إلى أن التعليم والنقد عن طريق القصة يحمل القارئ على متابعة القراءة ، ويرى مصير أشخاص القصة فيتعظ بهم ، وبذلك يجدي النقد ويؤتي ثمرته ، ولذلك أكثر منه . ولم يضع هذه القصص في عبارات منمقة مزوقة بليغة متخيرة الألفاظ ، ولكن ساقها في أسلوب سهل وكثيراً ما عمد إلى اللغة العامية يعبر بها عن مراده ، لعله أن في الناس الجاهل والعالم ، والعامية والخاصة ، ولكل أسلوب يلائمه فموضوع « الداء الإفرنجي » موضوع سياسي رمزي لا يفهمه إلا الخاصة ولذلك صيغ صياغة أدبية بلغة سليمة . أما موضوع المرابي والمزارع ، وموضوع سماعي القصص فكتوبان للعامية ، ولذلك لجأ إلى اللغة العامية يعبر بها حتى يفهمها هؤلاء فيتعظوا .

إن النديم في هذه الموضوعات قدير على الحوار ، وتراه يبالي حق يستفز شعور القارئ ، ويجعله يشمئز من هؤلاء الجهلة الذين يصور حالتهم ، وتراه كذلك يستنفذ المعاني ويستقرئ الأسباب ، حتى يكون الحكم أو النهاية بالغة العظة ، ولو فطن النديم إلى المسرحية الهزلية وصور هذه الشخصيات فيها لكان ( مولير ) العرب ، لأن عنده المقدرة

على التصوير ، وخلق الشخصيات والتهكم عليها والمبالغة في تبشيع المثالب والعيوب ، وهذه كلها تعدد لأن يكتب ملهاة متقنة .

٢ - ومن الموضوعات التي كتب فيها بمجلته فيما بعد موضوع الخطابة ، وأثرها في تاريخ الإسلام ، وفائدها في تهذيب الشعب وتربيته ، ورأى أن خطب الجمعة مينة لا تمت إلى الحياة التي يحياها الناس بصلة ، تتكلم في أمور بعيدة عن مشكلاتهم الاجتماعية والخلقية والسياسية كل البعد<sup>(١)</sup> ، واقترح أن يحضر خطب الجمعة فئة ذوي الفكر السديد والرأي الرشيد ، وتوزعها الحكومة على خطباء المساجد وتبرع هو فوضع نموذجاً لخطبة منبرية ، ضمنها الحث على الاهتمام بشئون البلاد والمحافظة على حقوقها ، والدعوة إلى الائتلاف للتعلم على الخصم الأجنبي ، وعلى الأخطار التي تهدد بالوادي ، والاتحاد بين المسلمين والأقباط ، والتذكير بمجد مصر السابق ، ومعاملة الأجانب بالحسنى حتى لا تتخذ سوء معاملتهم ذريعة للتدخل الأجنبي ، وغير ذلك من الأمور التي يرى أن الحاجة ماسة إلى التكلم فيها لأول عهد توفيق ، ومن قوله في أثر الخطابة وفائدها :

« ألسن الخطباء تحيي وتميت ، حكمة إذا علقت معناها وقفت على سر الخطابة وحكمة حدوثها ، وعلمت أنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن . وكانت الخطابة في الأعصر الخالية غير معلومة إلا في أممي العرب واليونان فكانت ساحتها في جزيرة العرب عكاظاً ، ومنابرها ظهور الإبل ، وهذه الساحة كانت معرضاً للأفكار تجتمع فيه الخطباء والبلغاء والشعراء وأمم

---

(١) من العجب أن تسعين في المائة من خطباء المساجد اليوم لا يزالون على الحال التي وصفها النديم وخطبهم بعيدة عن التأثير ، لأنها لا تمس الحياة في صميمها ولا تعالج مشكلات الناس ، وكل جمعة أحس بضيق وخرج من جراء ما أسمع من خطب مينة .

كثيرة من المهاجرة للجزيرة فيرقى الخطيب ظهر ناقته ويشير بطرف رداءه ، وينثر على الأسماع درراً وبدائع ؛ ثم يباريه آخر ويعارضه غيره فتنضارب الأفكار وتنقب الأذهان وتحيا الهمم ، وتتحرك الدماء ، ويرجع كبار القبائل وأمرأؤها لما يشير إليه الخطيب إن صلحاً وإن حرباً . ولم يقصروا في خطابتهم على مسائل الحرب والصلح ، بل كانوا يخوضون بحار الأفكار فلا يتركون ملة إلا شرحوها ، ولا يذرون فضيلة إلا حثوا عليها ، حتى إنهم كانوا يحفظون أسماء الحكماء منهم وأهل الآثار فيذكرونهم في هذا المعرض إحياء لتذكراهم وتحليداً لأسمائهم ، لئلا يجهل الآتي سيرة الماضي فتفتقر الهمم ، وتحمى الدماء وتتغير الطباع .

٣ - وأما مقالاته بالاستاذ فكانت صرخة أخرى مدوية حاول بها إيقاظ مصر كي تنبذ لما يحدق بها من أخطار ، وعالج في هذه المقالات موضوعات اجتماعية وسياسية وخلقية لم تخطر على بال أحد من قبل . فتراه يتكلم عن التعليم وأثره في الحضارة والعمران وما يجلبه الجهل من الآفات الاجتماعية والعلل الخلقية ، ويمدد هذه المثالب ويبين أثرها في تأخر الأمة ، وتارة بحث أبناء مصر على الاتحاد والتآزر والالتفاف حول الوطن والأمير والسلطان والتنكر للأجانب مها كان شأنهم ، والتحذير من غواياتهم . وهو أول من دعا إلى أن مصر يجب أن تكون للمصريين لا لتركيا ولا للأوروبيين ، فكانت لفظة وطنية لا تخرج إلا من قلب عامر بحب بلاده ، ولا سيما في ذلك الزمان الذي لم تفكر فيه أية دولة عربية في هذا المعنى ، وإنما كانت الفكرة الوطنية عاطفة غامضة تربط مصيرها بمصير تركيا . ولم تكن الفكرة جليلة - كما يجب - عند النديم ، ولكنها خطرات الوطني المتحمس جعلته يفكر مثل هذا التفكير ، وإن كنا نراه أحياناً يشايح الرأي السائد ، ويدعو للسلطان والالتفاف حوله من مثل قوله : « هذه يدي في يد من أضعها ؟ ضعها في يد

وطنيك ، واعقدا خنصريكما على محبة أمير البلاد ، مرتبطة هذه المحبة بمحبة أمير المؤمنين ، وإلا فقطعها خير من وضعها في يد أجنبي يستميلك إليه بوعود كاذبة وحيل واهية ، يظهر لك سعيه في صالحك وحبه لتقدمك ، ويرهبك بأوهام لا توجد إلا بينك وبينه ، ويفرك بدعوى انقراذه بالسلطة عليك ، وبعد الدول عنك ، ويضلك بنسبة أمرائك للقصور ، وحكامك للجهل والظلم ، ويصور لك الأباطيل في صورة حق يخدعك به ، ويحول أفكارك الشرقية الى أفكار غربية تأخذها وتقول بها ، فتكون يده القوية وعونه الأكبر على ضياع حقوقك وإذلال إخوانك ، واسترقاق أهلك وانتزاع سلطة أميرك وسلطانك وأنت لا تشعر بشيء من هذا .

وقد يفسر كلام النديم بدعوته للسلطان والحض على الولاء له ، بأنه ولاء ديني ، بينا الولاء للأمير البلاد ولاء وطني ، وهذا هو ما أرجحه ، فإن النديم اشتهر بدعوته الجريئة ( مصر للمصريين ) ، وكانت دعوة « عرابي » كذلك . وإذا تعارض الدين والوطنية ، فضل الوطنية على الدين ؛ لأن حاذية الوطن عنده أقوى من جاذبية الدين ، ويعمل لذلك تعليلاً فلسفياً في مقالة بالأستاذ هي ( تجاذب الجنسيات والأديان ) يقول فيها : « لو وقعت حرب بين عربي وعجمي ثنائلا دينياً هربت الطبائع الى الجنسية فترى عربياً في أقصى الأرض يفرح بانتصار مثيله على العجمي والعكس بالعكس ، ويعمل لاتحاد الاقباط والمسلمين بمصر ومحبة كل فريق للآخر بقوة الرابطة الجنسية ، فإن كثيراً من مسلمي مصر أقباط أسلموا ، فنداء الدم بليغ وفي هذا يقول : « وأقرب الاماكن إلينا مصر التي نحن فيها ، فإنها بلاد إنسانية مختلطة بقليل من الاقباط الذين تجذبهم الجنسية الى كثير من تولدوا من أسلم من سابقهم ، وتدفعهم الوطنية الى التلاصق بالمجموع بجاذبية الوطنية والالفة وطول المعاشرة » ، وهذه خطرات

وطنية صادقة العاطفة عميقة الفكرة ، بعيدة النظر . وقد قال ولي الدين عن عبدالله نديم : وإنما أحدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين وهو من قدماء من يقولون : « مصر للمصريين » ونحن نقول مصر للعثمانيين .

لقد جهر عبدالله نديم بندائه هذا ، ولم يحاره في دعوته زعماء السياسة من بعد ، فهذا مصطفى كامل وهو في مناوئته للإنجليز وبعثه للشعور الوطني ، ومحاربه للاحتلال الأجنبي لم تنضج عنده "تمكرة الوطنية كما نفهمها اليوم" ، فلم يقل إن مصر للمصريين بل قال : « حقاً إن سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكام السياسات وأرشدنا ، فضلاً عن الأسباب الداعية لهذا التقريب فإن العدم واحد ولا يليق بنا أن نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل أعداؤنا على تجزئة دولتنا ، ولا غرو إن كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن إلا أبناءها المستطلون بظلمها الريف المجتمعون حول رايتها ... وقصارى القول إن الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب أن نجتمع حولها ، ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف فلنتحد قلباً ولساناً »<sup>(١)</sup> ولكنه رجع عن هذا الرأي فيما بعد وفسره في خطبته بالاسكندرية<sup>(٢)</sup> .

استطاع النديم في جريدة الاستاذ أن ينفذ الأفكار الى موضوعات حيوية وأن يجادل ويناقش ويشير العقول ويخلق الرأي العام ، ويدعو زعماء الثورة الذين أذلهم الاحتلال ، وغلبهم الخوف منه الى البروز والعمل في سبيل مصر ، ويدعو الى تأليف الأحزاب حق تكون لكل جريدة حزبها الذي تنافح عنه ، ولكل حزب منهجه في الإصلاح . وقد وقف

---

(١) مصطفى كامل باشا الطبعة الأولى ( ١٩٠٨ ) ج ٣ ص ١٩٨ .

(٢) راجع تفصيل ذلك في كتابنا الأدب الحديث ج ٢ ص ٨٤ الطبعة الرابعة .



من الأجانب بعامة ومن الإنجليز بخاصة موقفاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض . أما الإنجليز فهو عدوهم اللدود ، يصورهم صوراً منكراً ، ويدعو الشعب لتأييد توفيق والالتفاف حوله ، وأما سواهم من المرتزقة الذين هاجروا في سبيل القوت أو الثروة فينصح بعدم الأمان لهم ، وبالبعد عنهم إلا إذا برهنت التجربة على إخلاصهم « فعليك بمن إذا حلت المصائب وآب النازحون الى مقارهم فراراً من مشاركتك في هومك كان قسيمك في النكبات ، يتناول معك حمل الخطوب ، ويحملك إذا ضعفت ويُبرك إذا احتجت ، ويعودك إذا مرضت ، وينصرك إذا خذلت ، ويدفع معك عدواً يحاربك ، ويحفظ معك وطناً لزمته ، ويصون لك عرضاً تبذل الروح في حمايته ، والجمهرة من الأجانب في نظره متسولون إذا أعطيتهم مدحوك ، وهم يمدحونك طالما يحدون عندك نفعا » ومن كانت هذه صفته يصدفه عنك الغير بلقمة يزيدها ، فإذا زاده ديناراً على أن قذفك ويهجوك أضحك الناس بما يفتره عليك .

الحق أن النديم في الأستاذ كان معلماً جليلاً للوطنية المتطرفة كما يفهمها جيله وكان مخلصاً في نصحه ، وثابتاً على مبدئه منذ الثورة واندلاعها لم يلب للخطوب أو يطأطئ الرأس لعدو فكان أكبر مثل يحتذيه الزعماء من بعد .

٤ - وله رسائل أدبية ، ومقالات في موضوعات شتى احتفى بأسلوبها احتفاء زائداً وقد جمع منها أحمد سمير في « سلافة النديم » مقداراً صالحاً للحكم عليها من حيث منزلتها الأدبية ؛ فمن ذلك رسالة ( لواء النصر في أدباء العصر ) وفيها يصف من تعرف عليهم من أدباء مصر أمثال البارودي وصفوت الساعاتي ، وعبد العزيز حافظ ، وعبدالله فكري وسواهم .

ومنها رسالة ( التنور المسجور ) في المفاخرة بين السفينة ( والواوور )

ومنها الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض الأدباء في أمور خاصة .

### أسلوبه :

١ - التزم عبدالله نديم في مطلع حياته الأدبية ذلك الأسلوب المسجوع المتكلف ، يكثر فيه من ألوان البديع ولا سيما الجناس ، وبظهر فيه مهارته اللغوية وقدرته على تأليف الكلام ، في جمل قصيرة الفواصل ، كثيرة المترادفات ، ويعتمد في أغلب الأحيان الى الخيال والمبالغات المزدولة ، وأحياناً يأتي بجمل لا معنى لها ولكن اقتضاًها السجع مثل قوله في مطلع رسالته بصف كلامه :

« حديقة معاني ، ونادي مغاني ، وبستان أفكار ، نهاء جمل  
مترادفة والجملة الوسطى لا معنى لها .

ومن الجمل المترادفة الجناس المتكلف قوله من الرسالة السابقة :  
« فكاهة نفوس ، وزينة طروس ، هزلها أدب ، وجدها طرب . إن  
سئلت أوجزت ، وإن سألت أعجزت ، لو أقت لها حكماً ، وجدها  
كلها حكماً . »

ومن المبالغات السخيفة ، والوصف المتكلف قوله يصف أديباً :  
« رامي نبال وعظه إلى الأحشاء ، ومفوق سهام بديعة إلى الإنشاء ،  
حامل لواء العلوم العقلية ، وقائد جيوش الفنون النقلية ، مطلع شمس  
الأماني ، ومبارز فرسان المعاني ، إن ألف لم يتكلف ، بل يحمل  
الانسجام زينة الكلام ، وإن نثر كثر بهجوم على سرايا النجوم . »

فهذا الأدب في حزب دأمة يرمي الأحشاء بنبال وعظه ، يفوق

سهام بديعة إلى الإنشاء ، ويحمل لواء العلوم العقلية ، واللواء يقتضي الجيوش ، وهكذا تراه يحمل معدات الحرب ويستعملها ، وكثيراً ما يعتمد إلى هذا الأسلوب ، ويكرر هذا المعنى كقوله : « وكيف لا يكون لساني قوس البديع ، وكلامي السهم السريع وأنت باريه وراميه ؟ أم كيف لا يكون مقامي الحصن المنيع وقدري العزيز الرفيع ، وأنت معليه وبانيه ؟ » .

وله في مطلع حياته كذلك رسائل التزم فيها ما لا يلزم من ألوان السجع إظهاراً لبراعته وعرضاً لقدرته ومهارته ، فتارة تراه يأتي بمجموعة من السجعات كل اثنتين متشابهتين في القافية ، وفي ختامهما سجمة من قافية مختلفة ، ثم يكرر هذه القوافي بالترتيب الذي ساقها به أولاً ، وتارة يفرد هذه السجعات ثم يعيدها بعد خمس أو ست على الترتيب الأول ، وأحياناً يلتزم في السجمة الثانية أن تكون آية من آيات القرآن ، ومن النوع الأول قوله : « لعبت به الأشواق في مصارع العشاق لعب الراح بالأرواح في مجلس الأنس ، وجرت به الأتواق <sup>(١)</sup> في ميسادين الأذواق جري السحاب والأرواح في حومة الشمس » .

ومن الثاني قوله : « منحتنا اللهم سلامة الروح فله الحمد على هذه المنحة حمداً بلا عد ، ووهبتنا لباب البيان فله الشكر على هذه الصحة شكراً بلا حد ، يلوح بدره ، ويفوح عطره ، روح هو عين الحياة ، ومدد العقل ، ولب هو منطق الشفاء ، وسند النقل ، طال عمره وجال أمره » . ومثل النوع الثالث الذي يأتي فيه بسجمة قرآنية تكمل المعنى من رسالة كتب بها إلى صديقه المرحوم عبد العزيز حافظ تنبيهاً له حينئذ تراه يجتمع ببعض المغاربة ويشتمل معهم بخرافات باطلة : « لا حول ولا قوة

---

(١) تاق إليه توقاً بفتح فسكون : اشتاق .

إلا بالله اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر ، وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والحز بالحشف ، وأظهر كل لئيم كبره إن في ذلك لمبرة ، سمعاً سمعاً ؟ فالوشاة إن سمعوا لا يعقلوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار في صفة العنبر وقد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر ؟ وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر ؟ ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ، إلى أن يقول له : « وأنت يا عزيز المليا ووحيد الدنيا ، قد بينت لك فعلهم فجا رحمة من الله لنت لهم ؛ ولكنهم طمعوا في عم قولك ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، أترام يعقلون كلامك أويفهمون ، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون »

ومعظم رسائله الأدبية ، من هذا الطراز الذي يكثر فيه ألوان البديع ويلتزم السجع ويفتن في عرضه ، وزاه لا يمدح رسالة وصلت إليه إلا بأن البديع قد كمل نظمه ، والسجع قد لطف من مثل قوله : « إذا قرأت لفظه ، وسمعت وعظه ورأيت ما فيه من المرقص والمطرب ، والمنعش والمعجب ، وتلوت ما فيه من الرقائق ، ونظرت ما حاز من الدقائق ، علمت أنه معجزة التنبي وإن تأخر زمانها ، وفطنة المرمي ، وإن بمد مكانها . وكيف لا وعطر نرجس بلاغته أزرى بطيب الريحانة ، وحسن دمية بيانه نبه على ضيق الخزانة ، وانسجام رقائق كلماته أغنى عن البديعيات ، ورقة لطف سجعاته تاهت على الارتقيات <sup>(١)</sup> . »

---

(١) نسبة إلى الدولة الأرتقية ، وأول من أسس الدولة الأرتقية معين الدولة سمان ابن أرتق بعد أن استولى على حصن ( كيفا ) سنة ٣٨٥ هـ من الأمير موسى التركاني ؛ وكان ارتق جد معين الدولة . ملوكاً من بمالك السلطان ملكشاه السلجوقي ، وأحد قواده ، والارتقيات القصائد والمدائح التي كان يقولها الشمرام للملك هذه الأسرة ، واستمرت الأسرة الأرتقية حتى القرن التاسع الهجري .

وهذا النوع من النثر بما فيه من تلاعب وافتنان في الازدواج والفواصل والسجعات تقليد لمقامات الحريري وما ورد على مثالها من الرسائل ، ومما يؤيد هذا الاتجاه عند النديم أنه كتب رسالة على لسان أحد أصدقائه يطلب إليه فيها أن يرأسه ، ويشترط أن تكون رسائله مشتملة على أفانين خاصة من البديع وغيره ، وينفذ النديم الشرط فيضع عدة رسائل منفذاً بها شروط صديقه التي ذكرها في قوله . « أحب أن تتواصل إليّ رسائلك ، وتسامرنى وسائلك ، بشرط أن تكون أسطرها عشرين فما فوق ، وأن يكون بعضها في غزل وعشق وبعضها نكتاً أدبية وبعضها فوائد عربية ، هذه محاورة ، والأخرى مسامرة ، تارة طرائف خمرية ومرة لطائف عمرية ، وهكذا ترشف من كل دن ، وتسطع في كل فن ، على أن تكون بحكايات ما طرأت على الأفكار ، ولا خرجت من الأوكار ، وتلتزم الجنس في الفقه ، وألا تأخذ من شعر غيرك إلا بيتاً أو بيتين ، وقد استجاب النديم لهذا الطلب فوضع عدة رسائل متكلفة لا معنى لها ، وقد أثبت منها ( أحمد سمير في السلافة ) رسالتين .

والشعر الذي يرصع به الرسائل وأمثالها - وهو كثير بحيث لا تخلو منه رسالة - شعر يمثل هذا التعامل من مثل قوله يتلاعب بلفظ النوى :

لست الملول مع التدلل والقوى إن لم يكن روعي على هجري نوى

ما دام يرضى مني فقد استوت عندي الإقامة في شين أو نوى

أطعمته أثمار ودي كلها وغذيت من ثمر الهبة بالنوى

ويأتي النديم أحياناً بتعبيرات غريبة شاذة متكلفة الاستعارات كقوله :  
« وطلاؤه مرمر البدر مبعون بليلة القدر ، وأحياناً يأتي بتعبيرات في

منتهى اللطف كقوله : « واختلسنا النوم من جفون الزهر ، أو قوله  
« وأرق من خفر في بكر ، .

وشعر النديم الموجود قليل ، وهو كثره الأدبي مصنوع متكلف ،  
يشبه الى حد كبير شعر أبي النصر وعلي الليثي ، مع فارق واحد هو  
قوة السبك ، ولكنه لا يختلف عن شعرهما في الصياغة والزخرفة والمعاني ،  
ومن أحسن ما روي له قوله في الغزل :

سأله عن الآرواح فهي ملاعبه وكفوا إذا سل المهند حاجبه  
وعودوا إذا نامت أراقم شعره وولوا إذا دببت إليكم عقارب  
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده فلو أتلّف الأرواح منذاً يُطالبه  
أراه بعيني والدموع تكاتبه ويحجب عني والفؤاد يراقبه  
فلا حاجة تدني الحبيب لصبه سوى زفرة ثني الحشا وتجاذبه  
فلا أنا ممن يتقيه حبيبه ولا أنا ممن بالصدود يعاقبه  
ولو أن طرقي أرسل الدمع مرة سفيراً لقلبي ما تالت كتابه

وتراه يستعمل التأريخ الشعري كقوله يؤرخ موت توفيق وهو بيافا  
من قصيدة أرسلها الى مصر يرثيه بها على الرغم من أنه نفاه :

فلأنك الجنات قالت أرخوا توفيق في عز النعيم السرمدي ١٣٠٩

ومن شعره قوله من رسالة كتبها لأحد أصدقائه أيام أن كان بالمنفى  
وفيهما يظهر ألمه ويندب سوء حظه :

يا صاحبي دع عنك قول الهازل واسمع نصيحة عارف بالحاصل

إجمل تجد صفو الزمان فإنه من قسمة القدم النقي الجاهل  
ودع التعقل بالتغفل يستقم أمر المعاش فحظه للغافل  
وارض البلادة تفتن من بابها مالا وجاهاً بعد ذكر خامل  
وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضق بحروب دهر لا يميل لفاضل  
قلب تواريخ الألى سبقوا تجد 'دنياك ما قيدت بغير الباطل

ومن شعره قصيدة في الفخر يظهر فيها ولوعه بالبديع وفيها يقول :

أتحسبنا إذا قلنا بلىنا بلىنا ، أو يروم القلب لينا  
نعم ؟ للمجد نقتحم الدواهي فيحسب خامل أئنا دهينا  
تناوشنا فنقهرها خطوب ترى لىث العرين لها قرينا

الى أن يقول :

ولسنا الساخطين إذا رزينا نعم يلقي القضا قلباً رزينا  
فإنا في عداد الناس قوم بما يرضى الإله لنا رزينا  
إذا طاش الزمان بنا حلنا ولكننا نهينا أن نهينا

وله قصيدة طويلة من رواية الوطن التي مثلها أمام الحديوي توفيق ،  
وفي هذه القصيدة يبكت المصريين على افتخارهم الدائم بأبائهم بينما هم في  
خمول وتقصير فتركوا الصناعات والعلوم ، واستمرروا الصفات التي تذلل  
الشعوب وتضعها ، وقد قال القصيدة معارضة لنونية ابن زيدون  
المشورة ، وفيها يقول :

هذي معاملنا تبكي وتلشدنا      قول ابن زيدون إذ قامت تعزينا  
 « بنتم وينا فما ابتلت جوانحنا      شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا ،  
 قل للنفوس التي ماتت بلا أجل      أين القلوب التي كانت تجارينا ؟  
 أين العلوم التي كانت توصلنا      باب السعود فصارت من أعادينا ؟  
 أين الصنائع أين العارفون بها ؟      أين الديار التي كانت لأهلينا  
 كانت وكانوا وصار الكل في عدم      واستعبدتنا بما نهى أمانينا  
 إذا سمعنا خطيباً ذا كراً حكاماً      قلنا له عزة الآباء تكفيننا <sup>(١)</sup>

وحسبنا هذا القدر من شعره فهو يعطينا صورة عن منزلته في الشعر وعن فهمه له .

٢ - أما مقالاته في التنكيث والتبكيث وأسلوبه الكتابي في هذه الصحيفة ، فقد ذكرنا آنفاً أنها احتوت موضوعات للخاصة يكتبها بأسلوب أدبي محرر من السجع ومن ألوان البديع ، ويتوخى فيها السهولة ، « ليست منمقمة بمجاز واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ولا مفتخرة برقة قلم محررها ، وفخامة لفظه وبلاغة عبارته ، ولا معربة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه . ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولفظة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجئك الى قاموس الفيروزآبادي ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر لك معانيها ، فهي في مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفي بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك

---

(١) وهذا ترديد لما قاله السيد جمال الدين من قبل راجع ٢٤٣ من هذا الكتاب .



بما تحب وتهوى . ومن أمثلة موضوعات الخاصة مقالته المشهورة ( مجلس طبي على مصاب بالأفرنجي ) وفيها يقول : « كان المصاب صحيح البنية قوي الأعصاب جميل الصورة لطيف الشكل ، ما رآه فارغ القلب إلا صبا ، ولا سمع بذكره بعيد إلا طار إليه شوقاً ، نشأ في العالم روضة ، ودار به أهله يحفظونه عن الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة والرقباء ، وقد مات في حبه جملة من العشاق الذين خاطروا في وصاله بالأرواح والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سحره برقة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله بهجة يحار الطرف فيها ، وعزة لا يشاركه فيها مشارك ، وأنت ترى أسلوباً خيالياً من السجع ليفرغ كاتبه إلى المعاني التي يريدتها ، ويسير في سهولة ووضوح .

وهناك موضوعات للعامية كتبت باللغة العامية الدارجة بمصر حتى يفهموها ، وبعملوا بها كموضوع المزارع والمرابي ، « كموضوع « عربي تفرنج » ويقول في الأخير : ولد لأحد الفلاحين ولد فسياء زعيط ، وتركه يلعب في التراب ، وينام في الوحل حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرجه مع البهائم إلى الفيط يسوق الساقية ويجول الماء وكان يعطيه كل يوم أربع حندويلات ، وأربعة أنخاخ بصل ، وفي العيد يقدم له الليخني ليتمته بأكل اللحم والبصل .

وأما أسلوبه في الأستاذ فهو أسلوب صحفي أدبي يمتاز بالسهولة والتدفق ، والخلو من السجع والبديع والمجاز ، وقد مر بك نماذج منه .

ويلاحظ أن النديم يستعمل الأسلوب الخبري المتمزج بالخطابي في معظم كتاباته ، وهو أسلوب يصلح للوعظ ، وتراء كثير التهكم والسخرية في موضوعاته الاجتماعية ، يلجأ إلى الحوار في الموضوعات التي كتبها للعامية ، وكان ينطق كل شخص بما يوافق طبعه وصنعتة ودرجة علمه ، مما يدل

على خبرة واسعة بالناس وطباعهم ولغة حديثهم . وله مقالات اختار لها عناوين من العمامية الدارجة تدل على تمكنه من تفهم البيئة الفقيرة ولقتها ، وعلى روح الفكاهة والسخرية عنده مثل : « الشنة والرنة في أولاد مصر الزنة » ومثل : « حاوريني يا طيبة في الطربوش والبرنيطة » و « شد الدبلاق في أكتاف أهل بولاق » ، وإن كانت المقالات نفسها مفقودة مع دواوين شعره .

### منزلته :

واشتهر عبد الله النديم بالخطابة ، وغلكه لناصية القول ، فكان لسان الأمة في عهده بخطبه المملوءة حماسة وقوة وصراحة ، يذيعها في كل مجلس بكل مكان لا يكل ولا يمل . وقد استطاع بهذا أن ينشر آراءه في أكبر عدد ممكن من الأمة وأسهم في تكوين رأي عام سواء بخطبه وبقلمه - يؤمن بحكم الشورى ، ويثور ضد الأجانب ، ويتطلع إلى إصلاح المفاصد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وإذا كان السيد جمال الدين رسول الخاصة في هذه المعاني ، فعبد الله نديم أوتي المقدرة واللباقة على أن يبسط آراء جمال الدين ونظريات الإصلاح المنشود في كل نواحي الحياة ، حتى يفهمها العامة ، من الفلاح في حقله والتلميذ في مدرسته ، والصانع في دكانه .

وقد شهد بمقدرته على الحديث والخطابة وبراعته في تنميق الكلام كثير من ذوي الخبرة بوجوه الكلام ، فهذا جمال الدين الأفغاني ، وهو من عرف ذكاء وقوة عارضة ، ومقدرة على الحديث يقول : « إنه ما رأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفاء الفريجة ، وشدة العارضة ، ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها

إن خطب أو كتب ، (١) .

وأحد تيمور العالم المحقق يقول في الترجمة التي كتبها له (٢) : « كان شهي الحديث ، حلو الفكاهة إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلاً في ذكاء إيلس وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا . »

ويقول عنه جرجي زيدان (٣) : « أما أخلاقه فإنه كان برأ بالديه وذوي قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض أحداً شيئاً وطالبه به . ولا رد يوماً سائلاً ، ولا خضع لعظيم قط وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم ، وكان ذكياً فطناً قوي الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً ، وكاتباً فائراً . »

ويقول عنه عبد الرحمن الرافعي (٤) : « وهو الزعيم الوحيد بين العربيين الذي استمر في جهاده السياسي ونضاله عن مصر في عهد الاحتلال ، وهي ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية ، وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماسة والجهاد . أما هو فقد ظل على عهده واستمر يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته ، وهذا وحده يدل على مبلغ علو نفسه ،

---

(١) سلافة النديم ص ١٧ .

(٢) تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لآحد إمّا تيمور ص ٧٧ .

(٣) مشاهير الشرق ج ٢ ص ١١١ .

(٤) الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي ص ٥٢٧ .

وقوة شخصيته ؛ اذ لم تنل منه الشدائد ، ولم يضمف إزاء المحن والكوارث ، ولم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً .

ويقول عنه الأستاذ أحمد أمين<sup>(١)</sup> : « طالما غذى الناس بقلبه ، وهبهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم ، وحير رجال الشرطة ، وأقلق بال الساسة ، ونازل خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ، وعلى أي حال كان ، حتى هدأه الموت الذي يهدى كل نائر ، ومهما أخذ عليه فقد كان عظيماً . وكانت جريدة « الأستاذ » هي الأستاذ لمصطفى كامل تعلم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف . »

ويقول الأستاذ العقاد<sup>(٢)</sup> : « ولقد كان عبد الله النديم خطيباً مطبوعاً ، ومحدثاً ظريفاً من الطراز الاول كما شهد له عدوه وصديقه ، وكان إذا كتب فكانما يرتجل الخطابة لسهولة منحاه وتدفق كلامه ، وتناسق عباراته ، إلا حين يكتب الخطب المنبرية أو المقامات المصنوعة ... على أنك قد تقول ما بدا لك في شعر عبد الله نديم وفي خطبه وفي كتابته وفي تحقيقه العلمي وملكاته الادبية ، ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه أنه كان أعجب نموذج من نماذج الشخصيات في تاريخ الادب المصري الحديث . »

أما نحن فقد أصدرنا حكماًنا عليه في هذه الترجمة ، ووفينا أديبه درساً ، وبيننا خصائصه كما ظهر لنا من آثاره القليلة التي أبقى عليها الزمان .

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٢٧٩ .

(٢) شعراء مصر ويبتهم في الجيل الماضي ص ٩٣ - ٩٦ .

٤ - أحمد عرابي :

إذا كان جمال الدين الافغاني قد أثر في مصر بتماليمة وفلسفته وروحي  
لمجاريه التي أفادها من رحلاته الكثيرة ، وإذا كان قد هدف إلى إيجاد  
فطر قوي من أقطار الإسلام يكون نواة لوحدة إسلامية كبرى ، بعيد  
للمسلمين سالف مجدهم وغابر عزمهم ، وإذا كان قد مهد للثورة العربية  
وهباً النفوس لها ؛ فإن أحمد عرابي لا يقل عنه خطراً ولا أثراً ، وأغلب  
الظن أنها لم يلتقيا ، وإن اتفقا في كثير من الامور واختلفا في  
الغاية والوسيلة .

وأما الغاية فإن أحمد عرابي كان همه الاول تخليص المصريين من العذاب  
والذل والاستبداد والسخرة والاستغلال ، واستصفاء مصر لاهلها بنعمون  
بخبيرها وبرها ، ويعيشون فيها أحراراً على قدم المساواة مع هؤلاء الذين  
شاعت الاقدار أن يكونوا حكاماً لها . ولم يكن يهدف إلى تكوين  
وحدة إسلامية ، بل لم يكن متمصباً تعصباً دينياً ألبتة . وأما الوسيلة  
فإنه لجأ إلى عامة الشعب لا إلى الخاصة من المثقفين ، ولم يكن يميل إلى  
العنف وإنما اضطر إليه اضطراراً رداً للعدوان ، ودفاعاً عن الحقوق  
المهضومة والنفوس المظلومة .

لم يكن تلاميذ جمال الدين وعلى رأسهم محمد عبده راضين عنه أول  
الأمر . بل كانوا ينظرون إليه بازدراء ، ويعدونّه زعيم غوغاء وإن  
أرغمتهم الحوادث ، والشعور الوطني الجارف على أن ينضوا تحت لوائه ،  
ويخوضوا معه غمار الثورة .

في أحمد عرابي يتمثل العنصر المصري الأصيل بصفاته الجسمية والخلقية ،  
وفيه تركزت آمال الأمة وآلامها ، وتعد ثورته أول ثورة مصرية واعية

على الظلم الذي طال أمده ، وتعد ثورة شعب لا ثورة فرد ، ولم يكن أحمد عرابي إلا لسان ذلك الشعب يعبر عن أحاسيسه ، ويترجم عن آماله وآلامه ، فاكسب بذلك عدواة الحديو وآل بيته ، وعداوة الارستقراطية الكاذبة التي 'مكن لها بمصر ، والتي كانت تتمثل في المماليك والجراكسة والأتراك . هؤلاء الذين كانوا ينظرون إلى الفلاح المصري بعين الزراية والاحتقار ، وهم ينعمون بكده وثمرة شقائه ، وعداوة الإنجليز الذين حاربهم وأظهر خبث طويتهم وسوء نيتهم ، والذين كانوا يتربصون بمصر الدوائر ، ويدبرون لها المكاييد منذ أن هزموا في معركة رشيد سنة ١٨٠٧ .

### نشأته وشخصيته :

تضافرت عدة عناصر على تكوين شخصية عرابي ، وجعلته أصدق مثل للفلاح المصري المكافح المضطهد ، الذي يشعر بالظلم ، ويأنف منه ، ويطالب بالحرية والكرامة في قوة وصرامة .

ولد بقرية ( هرية رزنة ) بالقرب من الزقازيق سنة ١٨٤١ . من أسرة تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعتز بانتسابها إليه ، وكان والده محمد عرابي على شيء من العلم والدين معروفاً بالتقوى ، وكان فقيه القرية يقرئ أطفالها القرآن ويعلمهم مبادئ القراءة والكتابة ، وعلى يديه تعلم أبنة أحمد حتى حفظ القرآن ، ثم دخل الأزهر ومكث به أربع سنوات ، عاد بها ليكدرح في الحقل كما يكدرح ذووه .

ثم شاء الله أن يعده لشيء آخر ، حين أراد سعيد ، أن ينهض بالجيوش ، وأن يحنأ أبناء العمدة والمشايخ وأعيان الفلاحين ، وكان يميل إلى المصريين ويعدهم أساس مصر ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بهم ، فجند أحمد عرابي ، وسرعان ما ظهر تفوقه ، وترقى بسرعة خاطفة حتى وصل إلى

رتبة « قائمقام » وهي رتبة لم يصل إليها فلاح قبله . وذلك بفضل ذكائه وطموحه ويقول عن نفسه في تلك الأيام : « كنت أطمع الى منصب عال يماثل منصب مديرتنا » (١) .

بيد أنه مكث في هذه الرتبة تسعة عشر عاماً ، أي طوال حكم إسماعيل كله ، وذلك لأن إسماعيل كان على النقيض من سعيد يؤثر الجراكية بالترقية ، ويزدري المصريين . وأحس عرابي بالظلم وابتدأ يطالب بحقه (٢) فاضطهد ، وكان رئيسه خسرو كما يقول عرابي « رجلاً جاهلاً ، متعصباً لجذسه الجركسي تعصباً زائداً عن حد المعقول ، متفانياً في الحق على العنصر الوطني ، يكره أن يكون تحت إمرته رجل شريف مثلي ، فعمل على إقصائي من مركزي » (٣) . وفصل عرابي من الجيش ظمناً وعسفاً ، ولكنه لم يستكن للضم ، وظل يطالب بحقه فعين في وظيفة مدنية قام بشئونها في همة وأمانة جوزي عليها بالتقاعد من غير معاش « فيا لله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة » وما أكثر العجائب في الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة » (٤) .

وثار عرابي ، ولم يهدأ حتى أعيد للجيش ، وشعر بمرارة الظلم وقسوته وزاد شعوراً باضطهاد المصريين اشتراكه وزملاؤه في حملة الحبشة ، حيث لمسوا من قوادهم ضعفاً وخيانة ولم يجد هو وزملاؤه عطفاً من أولي الأمر بل اضطهاداً لهم ومحاباة للأجانب الذين « اصطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجواري الحسان » والأراضي الواسعة الخصبة والبيوت الرحبة ، وحمام

---

(١) من تاريخه الذي قدمه إلى بلنت . التاريخ السري ص ٣٤٤ .

(٢) الرافعي : الثورة العربية ص ٧٨ .

(٣) كشف الستار لأحمد عرابي ص ٢١ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٧ .

بالأموال الكثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين الساكنين وعرق جبينهم»<sup>(١)</sup>

كانت نشأته الريفية ، وتربيته الدينية ؛ وإحساسه بالاضطهاد لأنه فلاح مصري من أهم العناصر التي كونت شخصيته ، أضف إلى ذلك أنه تأثر بكتاب أهدي إليه عن نابليون والثورة الفرنسية ، وبقرائنه في التاريخ العربي ، وبخطبة ألقاها « سعيد » يشيد فيها بالمصريين وضرورة تربيتهم حتى ينفعوا بلادهم ، ويستغنوا عن الأجانب ويقول عرابي : إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر أساس في نظام مصر « المصريين »<sup>(٢)</sup> . وكان ياوراً لسعيد ، ورافقه في رحلته للحجاز وتأثر بأرائه في المساواة بين الطبقات ، وفي الاحترام الواجب للفلاح باعتباره العنصر الأساسي المهدي في الجيش المصري<sup>(٣)</sup> .

وبدأ عرابي منذ عودته من حرب الحبشة يعمل على توحيد صفوف الضباط المصريين في الجيش والتفافهم حوله ، وإشعارهم بالظلم الواقع عليهم وحرمانهم الترقية بينما يتمتع بها سوام من الأجانب .

ومن الصفات المميزة لشخصية عرابي شدة إيمانه ، فلم يعرف عنه أن هذه الصفة فارقتة حتى في أشد ساعات الضنك والشدة ، وكان شديد التدين ، حتى عرف بين الجند حينئذ بالشيخ أحمد عرابي ، ويقول عنه محمد عبده ، وكان دائم الزاوية به .

ما كان أحسنه شيخاً بزاوية يفشى النساء بوعظ كان يمليه<sup>(٤)</sup>

---

(١) نفس المرجع ص ٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ١٥ .

(٣) بلنت : التاريخ السري ص ٩٨ .

(٤) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ١٥٤ .



كانت العاطفة الدينية قوية جداً في نفسه ، ولكنه لم يكن متعصباً ، وهذه العاطفة الدينية من خصائص الفلاح المصري ، ولا سباً في تلك الأزمان ، وكان عرابي يمجّد الإنسانية عامة لا يتعصب تمصباً أعمى ، يقول بلنت بعد أن ذكر تمجيد عرابي للورد بيرون لدفاعه عن حرية أهل اليونان : وقد عنيت بذكر هذه النقطة لدالتها على عطف عرابي على الإنسانية كلها ، وعدم تفرقه في ذلك بين الأجناس والأديان <sup>(١)</sup> . وكان بلنت بعد هذه الإنسانية في عرابي إحدى عيوبه ، وسبباً من أسباب إخفاقه في حرب الانجليز <sup>(٢)</sup> . وإليها أشار « جريجوري » في حديثه معه ، ومن الأسس التي أقام عليها « برودي » دفاعه عن عرابي « مروءته وتطرفه في الإنسانية » <sup>(٣)</sup> .

ومن مظاهر هذه الإنسانية أنه بعد أن أطلق الجند سراحه عنوة من سجن قصر النيل الذي حبسه فيه الجراكسة ، هوى بالفتك بهم ، ولكن عرابي حمى هؤلاء الذين آذوه وسجنوه ولولاه لكانت مذبحة .

ومن سمات شخصية عرابي صفاته الجسمية ، فقد كان طويل القامة ، عظيم الهامة ، ثقیل الأطراف ، بطيء الحركة نوعاً ، كأنه يمثل القوة العظيمة التي اشتهر بها الفلاح العامل <sup>(٤)</sup> ، وكان شديد البنية متين التركيب ،

---

(١) بلنت : ص ٢٨٤ .

(٢) بلنت : ص ١٩٩ ، ١٤٤ ، ١٢٨ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٢ .

(٤) التاريخ السري ص ١٤٤ ، و Broodeiy How we Defended Arabi .

تلوح على وجهه إمارات الشهامة العسكرية ، وسمات الهيبة والوقار ،  
والجدد مع القوة والبأس .

كان عرابي كثير الاهتمام بالتاريخ ، قرأ سيرة نابليون والثورة الفرنسية  
كما ذكرنا آنفاً ، ويوجه إليها اهتماماً كبيراً ، وقرأ قدرأ كافياً من توارينخ  
الدول وعظماء الأمم في الشرق والغرب ، كما كان يقرأ كثيراً في نهج  
البلاغة ومنه لسمند قدرته الخطابية والتعبيرية ، ويقول بلذت عن آراء  
عرابي : « إنها تعتمد على العلم بالتاريخ ، وعلى تقاليد الأفكار العربية  
الحررة الموروثة من أيام حرية الإسلام » .

كما كان يعرف كثيراً عن إيطاليا وجهادها في سبيل وحدتها واستقلالها ،  
ويعجب أشد الإعجاب بـ ( غريبالدي ) ويمكن أن نقول : إن ثقافة عرابي  
كانت دينية أدبية تاريخية في حدود مطالعته العربية .

لقد نال قدرأ ضئيلاً من الثقافة ، ولكن خصوبة ذهنه أحالت هذه  
البذور القليلة أشجاراً ضخمة مثمرة ، أتت أكلها وطنية دافقة ،  
وفهماً للحرية والديمقراطية والمساواة ، وتقديراً للحقوق العامة وقواعد  
الإدارة والنظام <sup>(١)</sup> .

يقول العقاد : « ويلوح لنا أن الرجل مخلوق من الطينة التي يتمتع  
صاحبها بشقوتها كما يتمتع بنعمتها وفضلها ، على أن العلامة التي لا تخطئ  
من علامات العبقرية هي الخصوبة الذهنية ، وهي أن يشمر الذهن محصولاً  
وافراً من بذور قليلة . وقد كانت الدروس التي تلقاها عرابي في صباه  
تسطاً مشتركاً بينه وبين كل صبي من صبيان القرى حضر مبادئ القراءة

---

(١) بلذت : ص ١٢٩

والحساب وما إليها في الكتابات وأروقة الأزهر المدة للبندنيين ،  
ولكننا نقرأ أقواله في الحكم النيابي والمبادئ الديمقراطية والحقوق  
العامة وقواعد الإدارة والنظام فيتمثل أمامنا حظ وافر من الفهم  
والمعرفة لا يتهاى للكثيرين ممن أحاطوا بالمعلومات المستفيضة في هذه  
الشئون .

### عراي الخطيب الزعيم :

لقد أجمع الذين شهدوا عراي خطيباً ، وحادثوه على أن جودة  
الكلام أهم مزاياه ، وأنه كان محدثاً لبقاً ذا خلاصة وسيطرة على النفوس ،  
وأنه كان خطيباً فصيحاً ذا تأثير كبير على سامعيه ، وأن ذلك كان أكبر  
مقومات شخصيته .

يقول ماليت : « كان لحديثه أكبر وقع في النفوس » (٢) ، وكان  
مراسل التيمس يسميه « الداعي الفصيح الى الحرية العربية » (٣) ، ويرى  
بلنت « أنه كان فصيحاً قادراً على شرح آرائه باللغة التي يفهمها مواطنوه  
ويحبونها ومن ثم كان له نفوذ كبير » (٤) ، ويقول جريجوري : « ويظهر  
في بادىء الأمر أنه ثقيل ، الى أن يتأثر فتتقد عيناه ويتكلم بشهامة ،

---

(١) المقاد : ١١ يوليو ص ١٠٧ .

(٢ ، ٣) تاريخ المسألة المصرية - تيودور روتستين ترجمة العبادي وبدوان  
ص ١٤٣ .

(٤) التاريخ السري ص ٩٩ .

وأخبرني الذين يعرفون اللغة العربية أن فصاحته أشهر من أن  
تذكر<sup>(١)</sup> .

أما الشيخ محمد عبده فكان يزدريه ويقول عنه في قصيدته التي  
هجاه بها :

وقائد الجند شهم في مكالمه أشل قلباً إذا الهيجا تناديه

ومع ذلك يشهد له بأنه « كان أجراً إخوانه على القول ، وأقدرهم  
على إقامة الحجة »<sup>(٢)</sup> .

وعلى الرغم من أن الرافعي قد أنكر بعض مزايه ، فلم يسمه إلا  
أن يعترف بقدرته الخطابية حيث يقول : « كل ما امتاز به هو لسان  
ذلق ، وصوت جهوري وترسل في الحديث . فقد كان خطيباً فصيحاً ،  
وأقواله كانت تقع من نفوس الضباط والسامعين موقع الاقتناع »<sup>(٣)</sup> .

ترك عرابي طائفة من الآثار نقبين منها جهاده في سبيل مصر قولاً  
وعملاً وكتابة ، تتمثل في مجموعة كبيرة من أحاديثه وخطبه ورسائله  
إبان الثورة ، ويلحق بها ما قاله في أثناء محاكمته ، ثم المذكرات التي  
تركها قبيل وفاته وسماها « كشف الستار » وتاريخه المختصر الذي كتبه  
بعد عودته ، وهو مثبت في آخر التاريخ السري .

ابتدأ عرابي دعوته سرية في داخل الجيش وخارجه ، وقد اختاره

---

(١) الوطن : العدد ٢١٤ .

(٢) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : الثورة العرابية ص ٨٢ .

زملاؤه الضباط زعيماً لهم ، لأنه كان أشد المجتمعين إحساساً بالظلم ، وأقدرهم على التعبير عنه ، وأجرأهم في مهاجمة الظالمين ، وقد وكان للباقة وفصاحته في الكلام وابتشاده ببعض الأحاديث النبوية الشريفة والحكم الماثورة تأثير كبير في نفوس الضباط . اجتذبتهم إليه ومال بهم الى تلبية ندائه ، والاستماع لنصحه والاقتناع بأرائه<sup>(١)</sup> .

ثم تخرج الدعوة الى النور ، ونرى جماعة من الضباط يذهبون إليه في بيته ليناقشوه في الأوامر التي أصدرها عثمان رفاقي وأنهم يريدون الاحتجاج على ذلك ، وقد اختاروه ليمثلهم ، فيحاول أن يشددهم بالرقي أو يختاروا غيره . ولكنهم أصرروا على اختياره ، فقال لهم : إن من يتصدى لزعامة هذا الأمر هالك لا محالة ، فاقسموا له على أن يفدوه من كل شر ، فكتب الاحتجاج ووقعه معهم وقد جاء فيه : « إن عثمان رفاقي يعامل ضباط الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لهم الحرمان والإضرار ، كائننا الأعداء الألداء ، وكان الله سبحانه وتعالى يطلب منه ظلم المصريين والإجحاف بحقوقهم » ، ويقدمها الى رياض ، ويسدور بينهما الحوار الآتي :

رياض - إن أمر هذه « العريضة » مهلك .

عرايبي - إننا لم نطلب إلا حقاً وعدلاً ، وليس في طلب الحق من خطر ، وإننا لنتبرك أباً للمصريين ، فما هذا التلويح والتخويف ؟

رياض - ليس في البلاد من هو أهل لأن يكون عضواً في مجلس النواب .

---

(٤) المرجع السابق ص ٨ .

عرايى - إنك مصري وباقى النظر مصريون ، والحدوي أيضاً مصري ،  
أظن أن مصر ولدتكم ثم عقلت ؟ كلا فإن فيها العلماء والحكماء والنبهاء ،  
وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لأن يكون عضواً في مجلس النواب ،  
أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد على معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية تخرج لنا  
بعد خمسة أعوام رجالاً يخدمون الوطن بصلائب فكرهم ويعضدون  
الحكومة في مشروعاتها الوطنية (١) .

ويقبض الجراكسة على عرايى ويسجن في قصر النيل فيقتحمه الجند  
ويطلقون سراحه ويهمون بذبح الجراكسة لولا تدخل عرايى حيث وقف  
فيهم خطيباً ونصح لهم « بألا يمدوا يداً يسوء إلى أحد من الجراكسة  
ولا إلى غيرهم لأنهم إخواننا ولئن آثروا أنفسهم علينا فإننا لا نريد إلا  
النصفة والمساواة (٢) » .

ويسير عرايى إلى عابدين في مظاهرة عسكرية صاخبة ، وتعديل  
القوانين ، ويقام لذلك حفل في قصر النيل أقامه البارودي وزير الحربية  
وحضره الوزراء ، ويخطب عرايى قائلاً : « إننا لا نريد إلا الإصلاح وإقامة  
العدل على قاعدة الحرية والإخاء والمساواة وذلك لا يتم إلا بإنشاء مجلس  
النواب وإيجاده فعلاً ، ونحن مطيعون للحكومة بل نحن الآلة المنفذة  
لأوامرها العادلة » (٣) .

ثم عزل البارودي وتولى مكانه داود يكن الذي قسا على الضباط  
فاجتمعوا لدى عرايى واستحلفهم على السيف والمصحف أن تكون

---

(١) كشف الستار ص ١٥٥ .

(٢) سليم نقاش : مصر للصريين ج ٣ ص ١٧٦ ، وتاريخ محمد عبده ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) الكافي : لميخائيل شاروبيم ج ٢٤٣ .

أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء والاحتراس على موارد إيراده من أيدي الطمع وبأن يكونوا جميعاً على قلب رجل واحد ، وأعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على أن يتولى الزعامة ، وأخذ يرسل إلى القرى والمدن ينشر فيها دعوته ويبين لأهلها « أن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ، وليس لها من نية سوى العمل على ما فيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الأراضي الكثيرة للأجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم ، وإعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على أكتافهم ، وإن سكوتنا وإضرابنا عن هذا كله يعد من الجبن والعجز والتفريط في وطننا <sup>(١)</sup> » وطلب منهم في النهاية أن ينيبوه عنهم في كل ما يتعلق بأحوال البلاد ، وأن يوقعوا على ذلك .

وهذا هياً عرابي لثورة ٩ سبتمبر ١٨٨١ . وقد دار بينه وبين توفيق في ذلك اليوم حوار بدأ هادئاً ثم اشتد ، قال عرابي : « جئنا يا مولاي لنعرض عليك طابات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة » وسرعان ما انقلب عرابي ثائراً « ولقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » فهرب توفيق وترك الأمر لبعض حاشيته ، وقد سلم توفيق لعرابي بكل ما طلب .

وألّف شريف الوزارة الجديدة ، وذهب عرابي مع وفد من الضباط لتنهئته وخطب خطبة ضافية أكد فيها حقوق البلاد ، وقبّل أن ينقل إلى الزقازيق مع فرقته وقد وقف في محطة القاهرة يودع الألوف التي جاءت لتحيته وارتجل هذه الخطبة : « سادتي وإخواني ابكم ولكم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ ، ومصر للمصريين ج ٤ ص ٩٠ .

قمنا وطلبنا الحرية ، وقطعنا غرس الاستعباد ، ولا ننثني عن عزمنا  
حق تحيا البلاد وأهلها ، وما قصدنا بسمينا إفساداً ولا تدميراً ، ولكن  
لما رأينا أننا بقنا في إذلال واستعباد ، ولا يتمتع في بلادنا إلا  
الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريمها  
والمطالبة بحقوق الأمة .

ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوروبية ما تحصلت على الحرية إلا  
بالتهور وإراقة الدماء ، وهتك الأعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها  
في ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلباً أو نضيع  
حقاً أو نخدش شرفاً .

وما أوصلنا الى هذه الدرجة القصوى الا الاتحاد والتضافر على حفظ  
شرف البلاد ..

نحن الآن في نعمة جليلة وعزة جميلة وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ،  
ليقتدي بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء  
والسكينة ويحاسب حدوث ما يكدر صفو الراحة ، ونحن قانئون إلى  
رأس الوادي ، ليعلم الجميع أن قيامنا كان لطلب الحقوق لا للمقوق ،  
وأن الطمأنينة عادت كما كانت ، وعدنا إلى ما نشأنا عليه من طاعة ،  
وأحض إخواني الجهادية بحفظ وحدة الاتحاد ، وعدم الإصغاء إلى الوشاة  
والحساد ، فإنكم تعلمون أننا جاهدنا في هذا الأمر أعواماً طويلاً حتى  
ربطنا القلوب ، وألفنا النفوس ، وبيننا من الأعداء من يسعى في تفريق  
كلمتنا وإضرار نار الفتنة بيننا ، فاردعهم بلسان التقريرع ، واحفظوا  
لنا ما عاهدناكم عليه ، فالبلاد محتاجة إلينا ، وأمامنا عقبات يجب أن  
نقطعها بالحزم والثبات ، وإلا ضاعت مبادئنا ، ووقعنا في شرك



الاستبداد بعد التخلص منه .. (١)

وأنت تراه هنا حريصاً كل الحرص على المبادئ التي دعا إليها ، وعلى أن يؤكد أنه رجل سلام لا رجل شغب ، وعلى أنه يعد نفسه أحد زعماء الشرق ، وقد سن له القدرة الحميدة في المطالبة بالحرية ، وأنه حريص كذلك على وحدة الصفوف متنبه إلى كيد الأعداء ووشاياتهم وحسدهم .

وخطب في الزقازيق عند وصوله ، كما خطب في حفل أقامه أمين الشمسي لتكريمه وجاء فيه : وأنتم الآن مهينون للانتخاب ، فلا تملكم الأهواء والأغراض لانتخاب ذوي النسيات ، بل عولوا على الأذكياء والنسباء الذين يعرفون حقوقكم ويدفعون المظالم عنكم ويفتحون باب العدل والإنصاف في بلادنا ، فلا تأخذكم الأراجيف ، واطمئنوا في بلادكم ، والتفتوا إلى أشغالكم ومصالحكم ، وكونوا على يقين من حفظ البلاد (٢) .

ثم يرسل إليه نوبار يشكره على إنقاذ البلاد ، ويعرض عليه عودته لتولي الحكومة ، ويقول عرابي : فمعجبنا لذلك وأجبننا بأن مبدأنا هو أن مصر للمصريين وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ومزيد الإكرام (٣) ، وهي الكلمة التي ردها فيما بعد مصطفى كامل : أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا .

---

(١) عبد الله نديم : الفكيك والتبكيك العدد ١٧ ، ومصر للمصريين ج ٤ ، ص ٩٦ وكشف الستار ص ٣٦٢ .

(٢) كشف الستار ص ٢٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

ويعود إلى القاهرة ويقابله كثير من مراسلي الصحف الأجنبية ويؤكد لهم عدم التعصب الديني ، وأنه إنما يتحدث باسم الأمة ، وأنه سيقاوم كل اعتداء أجنبي على البلاد ، ثم يتولى وزارة الحربية ويستقبله ( بلنت ) ويتحدث معه في مشروعات كثيرة يقوم بتنفيذها وطالما فاخر بها فيما بعد لورد كرومر ، ويقول بلنت : « عزي للموظفين البريطانيين في عهد الاحتلال » وادعى لورد كرومر أنه مبتكر كثير منها فمن ذلك : إلغاء السخرة التي كان يفرضها الباشاوات الترك على الفلاحين واحتكار بيع الماء في مدة الفيضان ، وحماية الفلاحين من المرابين واليونانيين ، وإنشاء بنك زراعي تشرف عليه الحكومة ، وهذا هو البنك الذي باهى به كثيراً اللورد كرومر ، وكذلك تناقشنا في الإصلاحات القضائية وفي نظم تربية الذكور والإناث ، وفي طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد وفي مسألة الرقيق ،<sup>(١)</sup> .

### غدر وخيانة :

ولكن أنى للأمر أن تسير كما قدر عرابي ؟ وكيف يمكن من الإصلاح ، وينشر الوعي في البلاد ، وينهض بمصر ، والإنجليز والفرنسيون يريدونها متأخرة ، بل يريدون اغتصابها ، وامتصاص دمها ! ولذلك أرسلوا مذكرة إلى توفيق بنفي عرابي وإبعاد رفيقيه واستقالة الوزارة ، وقد قبل توفيق المذكرة . واجتمع على أثر ذلك كثير من الضباط والنواب بمنزل سلطان باشا ، وخطب فيهم عرابي ، وأخذ يعدد مساوئ الخديو ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمفاسد وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا . واشتد الهرج فصاح عرابي .

---

(١) التاريخ السري ص ١٥٤ .

« ما بالكم لا تسمعون ، وكأنكم خشب مسندة ، وإن كنتم لا تقادون  
بخلعه ، فنحن قد خلعناه ، قد خلعناه ، فصاح عند ذلك سائر العسكر ،  
قد خلعناه ثلاثاً » (١) .

ويصل وفد من تركيا ، ويحاول إغراء عرابي بالذهاب إليها فيرفض  
عراي ، وترفض الأمة ويقول لهم : « ليقبل الناس ما يشاءون فإني  
ولدت في بلاد الفراعنة ، وستظل الأهرام الخالدة قبري » (٢) .

وتحدث مذبحة الاسكندرية وتتوالى الأحداث ، وهو دائماً يوجه ،  
ويثبت القلوب الخائفة ، وحينما دارت الحرب لم يفقد أعصابه وقد انتصر  
في موقعة كفر الدوار انتصاراً ساحقاً ، وارتد الانجليز إلى الإسكندرية  
فطاردهم الجيش إلى تفتيش ( سيوف ) وأوقع بهم ، بيد أنهم انتهكوا  
حرمة القناة ، ولم يكن عرابي يقدر أنهم سيهاجمونه من الشرق ، وقد  
طلب إليه أن يردم القناة ، فخشي مغبة هذا العمل ، وتألب الدول  
عليه . ثم يهزم عرابي في التل الكبير بسبب الخيانة التي دبت في  
صفوف الجيش ، وقد حاول جهده أن يثبت الفارين ولكنهم أبوا الاستماع  
إليه ، وفي ذلك يقول عرابي في مرارة وأسى : « دعوتهم للهجوم معنا  
فامتنعوا ودهشوا ، فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن فلم  
يُجند كل ذلك نفعا ، لأن الرعب كان قد أخذ من قلوبهم كل مأخذ » (٣) .

---

(١) ميخائيل شارويم . الكافي ج ٤ ص ٢٩٦

(٢) التاريخ السري ٤٣٢ .

(٣) مخطوط عرابي .

## محاكمته :

ويحاكم عرابي ، فلم تلن قناته ، ولم يحين عن مصارحة المحكمة بالحق ، وعن الأسباب التي دعت للثورة ، سألوه عن الماضي كله ، لماذا قام بمظاهرة عابدين ، ولماذا أحاط الجيش بالقصر فقال : « إن الأسباب التي دعت إلى ذلك هي عدم الأخذ بالعدل والمساواة في المعاملات ، شأن البلاد التي لم يكن فيها قوانين ، ويقص عليهم بعض ما كان يلقيه المصريون من ظلم وإجحاف وإهدار للكرامة ، ثم يقول : « فاجتمعت إذن أفكار الناس على أنه لا مخلص لهم من تلك المظالم إلا وجود مجلس نيابي من شأنه حفظ الأرواح والحقوق والأموال ، مع قوانين عادلة تكفل لهم حقوقهم فاجمعوا أمرهم على ذلك . ولخوفهم من البطش بهم أتأبوني مع إخواني الضباط في عرض طلباتهم ، لكوننا إخوانهم وأبناءهم ، وهم أهلونا يضرنا ما يضرهم وينفعنا ما ينفعهم ، وأن البلاد التي ليس بها مجلس نيابي يحفظ للامة حقوقها . في كافة بلاد الارض يحصل فيها أكثر من ذلك ، بحيث يسفك فيها كثير من الدماء ، وهذا لا يخفى على كل متذكر ، لان الحاكم المستبد لا يسلم في الشورى بسهولة ، فمن أجل ذلك الظلم ، ولشمولنا مع أهلينا بحقوق واحدة - حصل ما تقدم ذكره بدون أن تسفك شعرة واحدة من رأس أي إنسان . »

ولما سئل عن خطبته في القمح والذم في توفيق والمناداة بخلمه ، لم يتلجلج لسانه ، ولم ينكر ما حدث وقال « ما كان من الممكن قبول هذه اللائحة ، ولو أدى ذلك لخلمه وكنت أنا وكل الناس على هذا الرأي » (١) .

---

(١) نصوص المحاكمة في مخطوط عرابي وفي الجزء السابع من كتاب مصر للمصريين .

ويحكم على عرابي بالسجن ، ونراه في سجنه أشجع زملائه ، ويرد  
بمقال قوي على اتهام الجوانب له ولزملائه بأنهم عصاة مارقون . وتنتشر  
له جريدة التيمس رده هذا وفي آخره يقول : « إننا كنا ندافع عن  
وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والإنسان ، وكل من يقول غير هذا  
كائن من كان فهو عبد للهوى والمال .

يا دعاة الحق ! أمن العدل أن يحرم أبناء الوطن من كل وظيفة ،  
ويأخذ الأجانب أماكنهم ، ومن حضر الى مصر من الشراكسة والألبان  
والبلقان ؟ .. ولكننا سنجد بين حماة الإنسانية من يدافعون عن الحق في  
وجه طغيان هذا العهد الذي يسود منه وجه الإنسان » (١) .

ونراه حين يجرد من ألقابه وأمواله يقول : « لا أعبأ بآلامي ولا  
بالسجن ، ولا بالسباب ولا بأي شيء يوجه إلي بعد ذلك ، ما دمت قد  
وقفت نفسي على حرية بلادي ، ولا شيء يعني الآن إلا أن أنتقد بلادي  
من هذه الهوة المملوءة بالأفاعي السامة ، وأن أنتشلهم من مخالب هذا  
التنين الفظيع .

وإني لا أعبأ بهذه الألقاب العارضة التي لم أكن أرغب فيها في أي  
وقت من الأوقات ، وإني مكنت بشرقي الشخصي الذي سوف يلزميني ما  
حييت ، ويبقى بعدي إذا مت ، وسوف يرضيني دائماً أن أنادي بأحد  
عرابي المصري فقط وبغير ألقاب » (٢) .

ثم ينفي عرابي فما جزع حين ترك مصر ، ولا تضعضع في المنفى ،

---

(١) أحد عرابي الزعيم المفترى عليه ص ٥٠٦ .

(٢) التاريخ السري ص ٤١٢ .

بل كان أهل سرنديب ينظرون إليه نظرة إكبار وإجلال ، ويعدّه المسلمون هناك زعيماً من زعماء الإسلام والأبطال ، وكان يرد على الصحف المصرية والأجنبية التي تتهجم عليه وعلى إخوانه بلسان غضب ، وحجة قوية ، وقد نشرت له جريدة « التيمس » كتاباً طويلاً يدافع فيه عن ثورته ويبين أسبابها<sup>(١)</sup> .

ويعود عرابي من المنفى وهو في الستين من عمره ، وقد وصف عودته منذ أن ودعه أهل سيلان حتى رست به الباخرة على شواطئ مصر وصفاً مؤثراً<sup>(٢)</sup> . وقد ألف بعد عودته كتابه « كشف الستار » وقد عني فيه بالحركة الأدبية إبان الثورة العربية ، حتى مقالات هؤلاء الذين تحنوا عليه ومفترياتهم ، وقد دحضها ورد عليها فمن ذلك تعليقه على ما كتب حمزة فتح الله الذي كان يدعو إلى الهزيمة والتسليم ، ويعد عرابي وإخوانه خونة مارقين عن طاعة الخديو ، ويجب أن يفسحوا المجال للإنجليز كي يعيدوا الأمن والطأنينة للبلاد ، فيقول عرابي : « من الأقوال المأثورة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ( لا تعلموا أولاد السفلة العلم ) وهو قول حكيم لأنهم يتخذون العلم ذريعة لتضليل العامة ، وآلة للتلبيس على الناس ، ينصرون الباطل على الحق ابتغاء حطام يسير ، أو ابتسامة أمير ، أضلهم الله على علم فهم لا يهتدون ، ومصدق ذلك أن الشيخ حمزة فتح الله - أنشأ مقالة مفتراة نشرتها جريدة الاعتدال التي أنشئت إذ ذاك ضمنها من الأكاذيب ما يعجز عنه مسيلة الكذاب ، ويوردها عرابي ويعلق على بعض أجزائها بقوله : « يريد الشيخ تسليم البلاد للعدو بلا قتال ، لقد باع دنياه وآخرته بثمن بخس ، وعى الله الغنى من سبيل

---

(١) مخطوط عرابي ص ٢٥٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٤٢ .

الحيانة والتزلف ، وجبذا الفقر مع الأمانة والقناعة ، كل إثناء بما فيه  
ينضح . الخ <sup>(١)</sup> .

ويذكر بعض الرسائل والقصائد التي كتبها له أهل سرنديب ويختم  
كتابه بدعوة الناشئة المضرة أن تجدد وتجتهد وتعمل ليلاً ونهاراً على  
استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المسلوبة منها ، ومطالبة الانجليز  
بالجلاء حتى ينكشف هذا البلاء <sup>(٢)</sup> .

وهكذا ظل عرابي وطنياً حتى آخر كلمة سطرها ، وفيها لبلاد  
ولمبدئه على الرغم من الحزن التي توالى عليه . وقد ظلمه التاريخ ، وتجنى  
عليه الكتاب تلقاً للأسرة الحاكمة حتى شوقي قال يستقبله عند عودته  
من المنفى :

صَغَارُ في الذَّهاب وفي الإياب      أهذا كلُّ شأنك يا عرابي

حتى مصطفى كامل كان من المتجنين عليه عقب عودته .

ولكنه اليوم استرد مكانته الحققة في التاريخ ، وأنه كان ممثلاً لشعب  
بأكمله ، يتكلم بلسانه ويشعر بشعوره . وإذا كانت الأيام قد آذنته  
والتقدير قد أخطأه ، فما يغض ذلك منه ولا من ثورته وقد استجاب  
شباب مصر لندائه وحررت على أيديهم البلاد ، وطرد الانجليز وأذلوا  
أيماً إذلال ، كما طردت الأسرة الظالمة شر طردة ، وكانت ثورة ١٩٥٢  
امتداداً لثورته ، وإن تأخر بها الزمن إلا أنها جاءت بحكمة  
قاضية موفقة .

---

(١) مخطوط عرابي ص ٢٤٢ .

(٢) مخطوط عرابي ص ٧١٢ .

## تعليـب

رأيت أن عرابي كان خطيب الثورة ، ولا يقل شأنًا عن عبدالله نديم ، وإن اختلفا أسلوبًا ومنهجًا ؛ لقد كان عرابي قدوة للمصريين في جراته ومطالبته بالحرية والعدالة وإنصاف الفلاحين الكادحين ، وأن يعمش المصريون مكرمين في ديارهم لا مستغلين ولا مهانين ، وأن تكون خيراتها لهم لا للأجانب وأفاق الأرض .

ولذلك كان شعاره « مصر للمصريين » . أجل ! كان قدوة لعبدالله نديم ، ومصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبدالناصر ، وضرب لهم المثل وهو الفلاح المصري في كيف يحاربون السادة المتألهين ، وكيف يدمفونهم بالظلم ، وكيف يثورون لكرامتهم ، وكيف يحافظون على هذه الكرامة حتى في أحلك الأوقات وأشدّها يأسًا ، وكيف يتمسكون بحقوقهم لا يلبنون ولا يضمفون أمام جبروت الطغاة .

ولقد رأيت من خطبه أنها كانت من وحي العاطفة المتأججة في حنايا صدره ، وأنها كانت هادئة في قوة ؛ إذ لم يكن عصبيًا ولا حاد المزاج ولا مهيجًا ، على النقيض من عبدالله نديم ، ولم يكن متمهلاً ولا جامدًا شأن الذي يقرأ درسًا من الدروس ، بل متحمسًا في رزانة ووقار ، وبدا في كلامه الإيمان بالحق الصريح والإثارات العميقة المتأصلة .

وكان كلامه مؤثرًا في نفوس السامعين كما أقر ذلك كل من سمعه لا لخلابة فيه وتزويق ، ولكن لأنه صادر عن إيمان وعاطفة جياشة ، ولأنه ينبعث من نفس طيبة صهرتها الأحداث ، واحست بما تحس به ملايين القلوب على ضفاف النيل منذ زمن قديم ، فوجدت كلماته صدى عميقًا في نفوس مواطنيه ، لأنها عبّرت في وضوح عما يختلج في كل صدر ،



ويتمثل في كل قلب .

لم يكن صاحب صنعة في خطبه أو كتابته ، فلم يتكلف أي لون من ألوان البديع ، ولم يكن يقصد غير الوضوح ، ومع هذا تحس أن فيه صفة الخطيب الجيد ، فجملة قصيرة الفواصل ترتاح عندها النفس وتستوعبها الأذان ، ولها جرس موسيقي خلاب ، وأنها تتدفق في يسر وقوة ، مشحونة بالمعاطفة والصدق . وقلما اقتبس من الشعر والحكم والأمثال ، وإذا أتى بشيء منها كان موفقاً كل التوفيق ، ولكنه كان يكثر من الاستشهاد بأي الله الحكيم وبالحدِيث الشريف ، وقضايا الدين وحوادث التاريخ الإسلامي ، وبخاصة زمن الحرب لضرورة الإقناع والتأثير .

وكانت ألفاظه سليمة ليس فيها من العامي المبتذل إلا القليل ، وإذا راعينا ظروفه وظروف عصره غفرنا له ، ولم يكن يعرف أصول المنطق والجدل ، ويأتي بالمقدمات الطويلة ، كما كان يفعل جمال الدين ومحمد عبده ، وذلك لأنه لم يكن فيلسوفاً ، ولا متملئاً عميق الفور ، وإنما كان زعيماً شعبياً يطالب بحق بسيط صريح ، وهو الحرية والمعادلة والمساواة .

وقد غلب عليه الأسلوب الخطابى حتى في كتابته ، وكان واقعياً في تعبيراته ، فلم يكن يعمد إلى الخيال الأدبي ولا العبارة المحلاة ، ولم يكن رجل أحلام وأوهام ، بل رجل واقع وتجارب ، وهو رجل مثل عليا ، كما فصلنا ذلك عند الكلام على مبادئه وشخصيته .

لقد كان من آثار الثورة العربية في الأدب أن ألهمت الناس الحماسة ، وجرائتهم على الخطابة فظهر عشرات من الخطباء إبان الثورة . وإذا عرفنا أن الخطابة باللغة العربية كانت قد ماتت قبل الثورة ، وأن خطباء المساجد كانوا يرددون خطبهم من كتب ويقرءونها على الناس ، أدركنا

مدى ما دَبَّ في اللغة من قوة ، وفي الخطابة من حياة على يد الثورة  
العربية ، لأنها كانت ثورة شعبية عامة ، وقد وجد الناس مجال القول  
فسيحاً ووجدوا في قاعدة الثورة خطيباً مفوهاً فقلدوه . ولقد كانت  
الثورة في حاجة الى الخطباء اكثر من حاجتها الى الشعراء ؛ حتى تنتشر  
الدعوة ، ويفهم جمهور الشعب مبادئها ، ويعضد الثورة ويثبت في الميدان  
ولا يسمح للخيانة والغدر بالتسلل الى صفوفه .

ولا بدع إذا كان مصطفى كامل وسعد زغلول فيما بعد من الخطباء  
المقاويل ، واعتمدوا في تجميع شعور الأمة على الخطباء .

هذه بعض آثار عرابي وثورته في الأدب - الى ميدان  
الحياة والكفاح بعد ان كان ادباً شخصياً لا يعرف سوى التعلق  
والدهان والرياء وقد فصلنا ذلك في مقدمة هذا الفصل .

## الفصل السادس

### الاتصال بالأدب الاجنبي

مر بك في الفصول السابقة شيء عن الترجمة في عهدي محمد علي وإسماعيل ، وكيف أن الاتجاه في عهد محمد علي كان علمياً بحثاً لحاجة النهضة الى العلوم ، وأن الآداب لم يكن لها إلا نصيب ضئيل . ثم جاء عصر إسماعيل وزاد الاهتمام بالآداب ، وترجمت بعض الكتب الأدبية في عصره . ولكن منيت مصر بعد ذلك بالاحتلال الإنجليزي ، وازداد نفوذ الأجانب ، وفرضت اللغة الانجليزية فرضاً على تلاميذ المدارس المصرية ، واتصل الأدب العربي والفكر العربي اتصالاً مباشراً بالفكر الغربي . وقد كان لهذا أثر في الاتجاه الذي سلكه الأدب العربي حتى يومنا هذا . وسنرى الى أي حد أثر الأدب الغربي في الفكر العربي وفي ألوان الأدب واتجاهاته وأسايبه شعراً ونثراً ، وإن كان هذا الفصل لا يتسع لكل هذا ؛ لأن الأدب الأجنبي لا يزال حتى اليوم يغذي أدينا العربي . وظهرت منذ الثورة العربية حتى الحرب العالمية الثانية آثار عديدة لعشرات من الكتاب والشعراء يتضح في كثير منها ذلك الأثر الأجنبي

في صور شق ؛ وستكون دراسة هذه الآثار ، وترجمة أصحابها في الأجزاء التالية إن شاء الله ، وحسبنا هنا أن نسجل الخطوات التي دفعت بالأدب العربي الى هذا النهج ، وأن ندرس بعض الألوان الجديدة التي قدمت للقارئ العربي في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

## ١ - الترجمة والتأليف ؛

رأينا آنفاً أن الثقافة الأجنبية التي نهلت منها مصر منذ عصر محمد علي كانت الثقافة الفرنسية ، وأن مدرسة رفاة من الترجمة والمربين لم يهتموا بالثقافات الأجنبية الأخرى إلا قليلاً . وكان معظم رجال البعثات في عصري محمد علي وإسماعيل يذهبون الى فرنسا ويعودون ملتسعين بالفكر الفرنسي وبالثقافة الفرنسية ، ولكن كان كل شيء ينقل الى اللغة العربية من طب وهندسة وعلوم رياضية وعسكرية وما شاكل هذا ، فاستعنت اللغة العربية ، وزادت ثروتها بما بذل العربون في سبيل مدتها بالكلمات الجديدة ، أو إحياء الكلمات القديمة التي تحقق غرضهم . ولو استمرت النهضة العلمية في هذا الاتجاه ، وحل العلماء والأدباء ورجال الفن والقانون الذين يلجأون الى الثقافات الأجنبية المختلفة ويتزودون من معينها ، وينقلون من آثارها ، على تمريب كل ما يفيدهم ، لاصبحت اللغة العربية اليوم من أقوى اللغات على تمثيل الحضارة الحديثة وإبرازها في صورها المتباينة ، ولاخذت الكلمات العربية صبغةً عربيةً خاصاً على مر السنين ، وتركزت معانيها بكثرته استعمالها ، وسهل على الجامعات العربية تدريس شق العلوم ، وأحدث النظريات باللغة العربية .

ولكن وأسفاه ! أبى الانجليز حين دخلوا مصر إلا أن يرغوها على تعلم لغتهم في مدارسها الابتدائية والثانوية والعالية ، وصار حظ

اللغة العربية من اليوم المدرسي ضئيلاً ، ولم يفعل الانجليز ذلك دفعة واحدة ، وإنما مهدوا له تمهيداً بطيئاً .

دخل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ ، بعد أن ازداد نفوذ الاجانب ، وقويت شوكتهم وعظمت شركاتهم ، وبعد أن فرضت الرقابة الثنائية ، ودخل الوزارة المصرية وزيران اجنبيان . وشعر المثقفون المصريون بتغلغل الاجانب في كل مصالح مصر ، ورأواهم معتدين بلغاتهم ويجنسياتهم ، وأن مدارسهم وإرسالياتهم تجدد في تدريس اللغات الاجنبية ، ومن يتخرج فيها يكون له التفوق في ميادين الاقتصاد والسياسة ، فأدى كل هذا الى اهتمام مصر حتى قبل الاحتلال الانجليزي - بتعليم اللغات الاجنبية في مدارسها . وقد تقدم علي إبراهيم ناظر المعارف في سنة ١٨٨٠ بطلب إنشاء مدرسة تسمى ( دار العلوم التوفيقية ) لتخرج مدرسين في اللغات الاوروبية وسائر العلوم الغربية ، على غرار دار العلوم العربية ، وكانت مدرسة اللسان لا تزال موجودة ، ولكن ضعف التعليم فيها ، إذ ألغيت منها اللغة التركية والالمانية ، واقتصر على تعليم الانجليزية والفرنسية والعربية . وفي سنة ١٨٨١ تقرر إنشاء مكتب للترجمة والتحرير قولى إدارته حينئذ أديب إسحق الكاتب المشهور ، ثم تحول هذا المكتب الى مدرسة المعلمين الخديوية في سنة ١٨٨٩ ؛ كي تخرج مدرسين مصريين لتعليم اللغة الانجليزية بالمدارس الابتدائية .

ولما ألغيت مدرسة اللسان أنشئ بدلهام مدرسة الإدارة والحقوق سنة ١٨٨٦ - وكان غرض الانجليز جعل الثقافة المصرية ثقافة ديوانية بحتة - وقد ظلت كذلك طويلاً حتى بعد أن كفوا أيديهم عن التدخل في وزارة المعارف ؛ لان المشرفين على نظم التعليم بمصر كانوا متشبعين بمبادئ هذه المدرسة الديوانية ، ولذلك صار الموظف المصري عبداً لوظيفته

إذا فقدوا ، أو إذا خرج الى ميدان الحياة ، صار كالسمكة التي جف من حولها الماء . وإنما اختط الإنجليز هذا النهج حتى لا يفتن المصريون الى الاعمال الحرة والنهوض ببلادهم عن سبيل التجارة والاقتصاد ، وينفرد بها الاجانب بعمامة والإنجليز بخاصة ، وبحسب المصري أن يوقر هؤلاء الدخلاء الطمأنينة والرفاهية والنظام ، وله من الاجر لقيات تقيم صلبه وحياة دونها حياة الخدم والاجراء . أما الربح الوفير ، والمعيش الرغيد والعربات الفارحة ، والقصور الشائخة والتجارة العالمية فهي وقف على هؤلاء الأفاقين الذين دخلوا ديارنا ضيوفاً فاستبدوا بثروتها المادية والمعنوية ، وتبجحوا في معاملاتهم لأبناء البلاد ، يمشون في تيه وخيلاء و صلف وكبرياء حتى تنبتهت مصر لهم ، وكفت بن غلوائهم ، وألفت امتيازاتهم .

أجل ! كان هذا بعض ما رسمه الإنجليز للشعب المصري ، وأشرفوا على تنفيذه ، فإن مدرسة الحقوق حينما أنشئت ، قسمت قسمين : ابتدائي وعالي ، بعد الابتدائي المحضرين والمترجمين ، وأصناف الموظفين لأقلام الكتتاب والنيابة بجميع المحاكم ، وأقلام الحكومة والوزارات ، وشق المصالح التي تحتاج لأشخاص عديم معلومات قانونية ؛ وبعد القسم العالي لوظائف الكتتاب في الدرجة الأولى والثانية ، ووكلاء النيابة وما شاكل هذا .

ولم يفكر المستعمرون - طبعاً - في إنشاء المدارس التي تعد شبان مصر لميدان الحياة العملي من تجارة وزراعة وهندسة وصناعة وغيرها ، وليتهم حافظوا على لغة البلاد ، وهي مصدر عزتهم ، ورمز وطنيتهم وقوميتهم ، وإنما عمدوا في سنة ١٨٨٨ الى الغض من شأنها ، والحد من تعليمها ، وإفساح المدى أمام اللغات الأجنبية . وهاك ما أورده أمين باشا سامي في كتابه ( التعليم في مصر ) خاصاً بهذا التحول الخطير . وهو في

صوره تقرير مقدم من وزارة المعارف الى الخديو : « إن تعليم اللغات الأجنبية التي لها في هذا العصر من الأهمية ما لا يخفى بمصر خاصة ، لم يأت الى الآن في مدارسنا بالنتائج المطلوبة ، وليس ذلك لتقصير من الماملين ، أو فتور في همهم ، فإنهم في الواقع أهل لما عهد إليهم من الوظائف ، غير أن الوقت المخصص لتعليم هذه اللغات غير كاف ، حتى يكتب التلامذة ملكة استعمال اللغة ، ويسهل عليهم التكلم بها ، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه إلا بعد تمرين طويل مستمر ، فلتتلافى هذا الأمر بقدر الإمكان تقرر أن مواد العلوم الجاري تدريسها للآن باللغة العربية تعلم من الآن فصاعداً بمعرفة مدرس اللغة الأجنبية إما باللغة الفرنسية ، وإما باللغة الإنجليزية ، فإذا درس التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بلغات أجنبية ، وضم هذا الى تعليم اللغة المقصودة بالذات سهل نيل المقصود . »

ثم أُلغيت بعد ذلك اللغة الفرنسية من المدارس الأميرية الابتدائية ، وحلت محلها اللغة الإنجليزية ، وإن بقي للفرنسية بعض القوة والانتشار لكثرة المدارس التبشيرية التي تتخذها أساساً للتعليم بمصر .

وفي سنة ١٨٩٨ رأت الحكومة - أو رأى المستعمر - أن يغير منهج مدرسة الطب ، وأن يحال بينها وبين الرسالة العظيمة التي اضطلمت بأدائها منذ عصر محمد علي ألا وهي نقل الطب الغربي الحديث الى اللسان العربي المبين ، فعُين لها مدير إنجليزي أدخل بعض الإصلاحات فيها ، واشترط لنجاحه في مهمته أن تكون لغة التدريس بالمدرسة هي الإنجليزية ، فأجيب الى طلبه ، وعطلت الترجمة ، وصار كل الاساتذة من الإنجليز وظلت الإنجليزية هي لغة الطب بمصر حتى يومنا هذا .

وإذا كانت اللغة العربية قد حوربت في كل معهد ، واشتد ساعد

اللغات الاجنبية ، ولا سيما الإنجليزية ، فقد استطاعت بها كمن فيها من قوة أن تقف أمام المحنة ، وأن تسترد سلطانها المفقود بعد لأي ، وأن ترغم العدو الغاصب على الاعتراف لها بالحوية ، وأنه ليس من السهل القضاء على لغة ذات تاريخ مجيد ، وراث تليد ، ودين سماوي مكين كاللغة العربية .

١

ظهرت سطوتها أول الامر حينما اضطرت المحاكم الاهلية الى تعيين المترجمين بين القضاة الاجانب ، وبين الاهالي والمترافعين لأول عهدها سنة ١٨٨٣ ؛ إذ لم تجد الحكومة من بين المصريين أكفاء يلون شئون القضاء . ولقد أدى إنشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٦ ، وإنشاء المحاكم الاهلية بعد ذلك الى نهضة قانونية قوية بمصر فوضعت القوانين ، وكثرت عليها شروح العلماء<sup>(١)</sup> .

وترجمت كتب كثيرة من الفرنسية في هذا الباب مثل : أصول النواميس والشرائع لبفتام نقله فتحى زغلول<sup>(٢)</sup> وهو في الخامس والعشرين

- 
- (١) من ذلك : ١ - توضيح المشكلات في شرح قانون المرافعات لأحمد عفيفي ، ٢ - شرح قانون التجارة لعبد العزيز كحيل ، ويوسف وهبه ١٨٨٥ . ٣ - رسالة في قوة الأحكام المدنية لسيد العزيز كحيل ١٨٨٩ . ٤ - طلبه الراغبين في بيان حقوق الدائنين لعبد العزيز محمد ومحمد نوفيق نسيم ١٨٩٣ . ٥ - شرح الأموال على القانون المدني لمواد فرج ١٨٩٣ . ٦ - شرح باب إثبات الديون وإثبات التخلص منها لعلي ذو الفقار ١٨٩٣ . ٧ - رسالة في تزوير الأوراق لفتحى زغلول سنة ١٨٩٥ ؛ وغير ذلك كثير راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص ٣٦٢ .

(٢) ولد سنة ١٨٦٣ بمصر ، ودرس الحقوق بها ، واشتغل بالقضاء حتى وصل الى وكيل لوزارة العدل . قال فيه المنفلوطي : «إنه نابغة الأمة العربية علماً وفضلاً ، وتادرتها ذكاء وفهماً ، وأقدر كتابها على الترجمة الصحيحة التي لا يضيع فيها معنى ، ولا يضطرب فيها لفظ ، وما انتفعت =



من عمره ، وحقوق الملل ومعاهدات الدول للأمير أمين أرسلان ، والظمن  
في الاحكام بطريق النقض والإبرام ترجمة عزيز خانكي سنة ١٩٠٠ .

ووضعت المعاجم القضائية لتيسر على المشتغلين بالقضاء والمحاماة الاطلاع  
على المواد اللازمة أو الاوامر العالية ، ومن أشهر هذه المعاجم : قاموس  
الإدارة والقضاء لفليب جلاذ في ست مجلدات سنة ١٨٩٩ ، والقضاء المصري  
الاهلي لإبراهيم الجلال وهو معجم للقواعد القانونية المأخوذة من أحكام  
المحاكم الاهلية .

وصدرت مع هذه التراجم العديدة ، والمؤلفات الكثيرة ، مجلات  
قضائية من أشهرها مجلة الحقوق لأمين شميل ، ثم آلت لإبراهيم الجلال ،  
ومجلة الاحكام لنقولا توما ، ومجلة القضاء للشراباتي وغيرها .

إن هذه النهضة القانونية قد أفادت اللغة كثيراً ، وأضافت الى المعجم  
العربي عشرات الكلمات الاصطلاحية ، ولبس العلماء دعوة فتحني زغلول  
حين أهاب بهم أن يهبطوا لغتهم للحياة الجديدة ، ورسم لهم الطريق  
الصالح بقوله : « عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا  
فلستم وحدكم في هذا الوجود ، ولا تقدم لكم إلا بلفظكم ، فاعتنوا بها

---

هذه الأمة في عصرها الحاضر بعلم أحد من علمائها افتقارها بؤلفاته ومترجماته ويمناز في كتابته  
بالبیان والإيضاح والدقة في وضع الألفاظ بإزاء المعاني ، فلا يتجاوز إلا قليلاً ، ولا يتخيل إلا  
نادراً ، ولا يفرب ، ولا يتندر بحال من الأحوال ( مختارات المنفلوطي ص ١١١ . وقد ترك  
أحمد فتحي زغلول ثروة علمية عظيمة من التأليف والتعريب في القانون والإدارة والاجتماع  
فتوهم : روح الاجتماع لجوستاف لوبون ، وتطور الأمم لجوستاف لوبون ، وسر تقدم الانجليز  
السكسونيين لادمون درمولان ، وشرح القانون المدني ، وكرم من أجله ( ١٩١٣ ) وله كتاب  
المحاماة ١٩٠٠ وتوفي فتحي زغلول سنة ١٩١٤ .

وأصلحوها وميثوها ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ،  
ثم لا تقفوا بها موقف الجمود ، والمعجزة تهددها على ألسنة العامة ، وهي  
لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة وأقيموا في وجه هذا السيل الجارف  
سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة ؛ والتعريب عند الضرورة  
لتكونوا من الناجحين<sup>(١)</sup> .

ومع هذه الفائدة الجليلة التي لمحرزتها اللغة العربية بهذه النهضة  
القانونية ، فإن من المؤسف حقاً أن تهمل الشريعة الإسلامية وأحكامها ،  
وأن يغلبنا الاجانب على أمرنا ، ويتمكنوا من حملنا على التنكر للقانون  
السماوي الذي يتشقى مع الفرائز الإنسانية ، والطبيعة البشرية وبرهنت  
الأيام على أنه أعدل القوانين وأقواها وأرحها . إن القوانين الوضعية ،  
ولا سيما القوانين التي وضعت لأناس سوانا لهم عادات وتقاليد وبيئة غير  
ما نحن عليه ، لم تصلح المجتمع المصري بل أفسدته . ولو حاول المصلحون  
في مصر تنظيم أحكام الشريعة الإسلامية ووضعها في مواد حسب أبواب  
القانون ، ووازنوا بينها وبين غيرها من القوانين ، واجتهدوا في استنباط  
الأحكام ووصلوا الماضي التليد بالعهد الجديد ، لبرهنوا على أنهم من أمة  
لها كرامة ، وبها حرص على تراثها ، والسير بنهضتها في السبيل المستقيم ،  
أما عملهم هذا فهو مسخ وتشويه للأمة ، وتقليد سخيف ، وهو عنوان  
الضعف ، والشعور بالخزي أمام الاجانب ، وعدم القدرة على الدفاع عن  
مقومات شخصيتنا .

ولقد حاول بعض العلماء في ذاك الوقت من كان لهم شعور صادق  
بهذه الكارثة أن يبرهنوا هؤلاء الأجانب على أن الشريعة الإسلامية

---

(١) مختارات المنفلوطي ص ١١١ من مقال لفتحى باشا زغول بعنوان « مائة اللغة » .

تستطيع أن تنهض بالمجتمع المصري كل النهوض ، وأن بها من الأحكام ما يجعل الأمم الإسلامية في غنى عن قانون نابليون أو القانون الروماني ، وهاك عمر لطفي <sup>(١)</sup> يضع باللغة الفرنسية بعض مواد الشريعة الإسلامية ليدحض دعاوي هؤلاء المغرورين بمدنييتهم الزائفة ومن لفّ لفهم ممن لم يعرفوا حقيقة الشريعة الإسلامية . ومن هذه المؤلفات التي قدمها عمر لطفي بالفرنسية للموازنة .

١ - الدعوى الجنائية في الشريعة الإسلامية ، وقد أعجب به الفرنج  
إيما إعجاب ..

٢ - حرمة السكن .

٣ - وحق المرأة .

٤ - وحق الدفاع .

إن الاتجاه الذي سلكه العراق منذ سنوات حين انتدب الدكتور عبد الرزاق السنهوري لوضع قانون للمحاكم العراقية مستنبط من الشريعة الإسلامية والاتجاه الذي اتجهته سوريا في دستورها قبل الوحدة ، اتجاه سليم يدل على يقظة وإدراك صحيح لقيم التراث الإسلامي ، وحرص على

---

(١) أصله من أسرة مغربية ، ولد بالإسكندرية سنة ١٨٦٧ . وتعلم بها ، ثم جاء إلى القاهرة ودرس الحقوق وتقلب في مناصب الدولة حتى صار وكيلًا لمدرسة الحقوق ، وكان له نشاط بارز في ميدان الحياة فأنشأ كثيراً من النقابات الزراعية وغيرها ؛ وأنشأ نادي المدارس العليا . وله في هذا الباب كتاب إنشاء شركات التعاون ومن أشهر مؤلفاته غير ما ذكرنا كتاب الامتيازات الأجنبية ، ولان أول كتاب من نوعه في اللغة العربية ، وتوفي عمر لطفي سنة ١٩١٢ .

عدم المسخ والفناء في الأمم الأجنبية .

وظهرت قوة اللغة العربية كذلك ، وأنها تستطيع أن تتحدى الاستعمار ، وتسير في النهج العريض الذي خطه محمد علي وعبدته حكومة إسماعيل ، على الرغم من العقبات التي أقامها الإنجليز أمامها : في رغبة العلماء والأدباء في أن يعرفوا أبناء أمتهم كثيراً من أسس الحضارة الغربية ، لعلمهم أن الاستعمار مهما كان جامعاً غنياً لا يستطيع أن يستولي على إرادة العلماء ويمنعهم من الاستمرار في تغذية اللغة العربية بهذه النفائس . وقد شملت الترجمة في هذا العصر الذي نؤرخ له ألواناً من الفكر الغربي ، فهناك ( الاقتصاد السياسي ) ، وكان العرب يطلقون عليه المعاش ومن الكتب التي وضعت أو ترجمت في هذا الموضوع :

١ - كتاب الاقتصاد السياسي أو فن تدبير المنزل لخليل غانم ١٨٧٩ .

٢ - أصول الاقتصاد السياسي لرفلة جرجس ١٨٨٩ ، وهو مقتبس من كتب أفرنجية عديدة .

٣ - كتاب الاقتصاد السياسي لجيفرنس نقلته جمعية التعريب سنة ١٨٩٢ .

٤ - مبادئ الاقتصاد السياسي تأليف محمد حسين فهمي .

٥ - الموجز في علم الاقتصاد لـ ( بول لروابوليه ) نقله حافظ إبراهيم وخليل مطران في خمسة أجزاء بأمر حشمت ناظر المعارف سنة ١٩١٣ .

وهناك ( علم الاجتماع ) وقد مر بك كيف بدأ هذا العلم على يد جمال الدين ومدرسته وكيف شخصت أدواء الأمة الاجتماعية ، ووصف

لها الدواء على يد أديب اسحق وعبد الله نديم ومحمد عبده . ولكن ما كتبه هؤلاء لم يبن على أصول علمية ثابتة ، وقواعد مقررة ، وإنما كان وليد الخبرة والملاحظة والتجربة . وكان لا بد للنهوض بهذا العلم من دراسته عند علماء الغرب ونقل أجمل آثاره ، ومع تطبيق نظرياته على المجتمع المصري وعاداته وتقاليده وشعرائه وبديشته .

وليس علم الاجتماع غربياً عن العربية ، فإن ابن خلدون في مقدمته قد وضع له أسساً متينة ونظريات سليمة بنى عليها مونتسكيو<sup>(١)</sup> وسواه أبحاثهم ، ثم تطور هذا العلم في الغرب واتسعت موضوعاته .

---

(١) سبق ابن خلدون بنظرياته الاجتماعية علماء الغرب فنظرية التقليد الاجتماعي مثلاً التي قال بها وملخصها انتقال العادات والطباع بين الأجيال والأمم المختلفة لميل النفس إلى اعتقاد الكمال فيمن تنقاد إليه كما بين الأبناء وآبائهم والتلاميذ وأساتذتهم ، بنى عليها ( جبريل تارد ) كتابه ( قوانين التقليد ) ، وفي كتاب مونتسكيو ( روح القوانين ) *Espirit de Lois* نجد أثر ابن خلدون واضحاً كقوله بضرورة الحكومات . وأثر البيئة في الناس وعاداتهم ، وكقوله بتقسيم الناس إلى طبقات حسب مكانتهم الاقتصادية وقد شابه الاشتراكيين في قوله . بأن « الطبقات تسعى لاستئثار بعضها ببعضاً استناداً إلى ما لها من السلطة الاجتماعية والسياسية فإن كل طبقة من طبقات أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطبقات ، والجاه داخل على الناس في جميع أبواب المعاش فإذا كان الجاه مدمراً كان الكسب الناشئ عنه كذلك . وإذا أردت المزيد من آراء ابن خلدون الاجتماعية والموازنة بينها وبين آراء علماء الغرب ومن معرفة مكانته لدى الغربيين فارجع إلى :

- ١ - ابن خلدون ؛ منتخبات لمجل صليبا ، وكامل عياد .
- ٢ - فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين .
- ٣ - ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي في القرن الرابع عشر للعلامة فون فيسندتك وترجمة محمد عبد الله عنان .
- ٤ - كتاب روبرت فلنت في تاريخ التطور العلمي Rober. t. Flint .

ونظمت أبحاثه ، وقد فطن لذلك علماء مصر فترجم فتحى زغلول كما  
مر بك كتابي روح الاجتماع ، وتطور الأمم لـ ( غوستاف لوبون ) ونقل  
كذلك تقدم الإنجليز السكسونيين ، وهو من الكتب التي قرأناها بشغف ،  
ونقل محمد زكي صالح نشوء الاجتماع لـ ( بنيامين كيد ) .

ومن الكتاب الاجتماعيين الذين أفادوا هذا العلم ، وحاولوا إصلاح  
الأمة عن طريق الدرس والتمحيص والتحليل ، والاستقراء والاستنباط ،  
السيد عبد الرحمن الكواكبي <sup>(١)</sup> ، ومن كتبه النفيسة التي بهرت أبناء  
جيله ، وصار لها أكبر الأثر في اليقظة القومية بالشرق .

١ - طبائع الاستبداد .

٢ - أم القرى .

وقد وضع كتبه في شكل روائي ، وفيها تحليل دقيق للأمراض  
الاجتماعية والسياسية وفيها حملات شديدة على الحكومة العثمانية ، وفيها  
علاج إيجابى سليم لأدواء المسلمين . وامتناز الكواكبي في كتابته بالذكاء  
والتخصص والتعمق والرزانة ولو أتيح له أن يعرف لغة أجنبية فيطلع  
على أبحاث علم الاجتماع عند الغربيين لكان له - مع غزارة فكره وصدق  
نظره - في تقديم هذا العلم وتطوره شأن يذكر .

---

(١) من أسرة حلبية مشهورة ، نشأ ميلاً للعلم شغوفاً بالسياسة ، وحرور مده  
في جريدة الفرات الرسمية ثم أنشأ جريدة ( الشهاب ) ، وتقلب في مناصب الحكومة .  
ولما رأى ما فيها من فساد أخذ ينقد رجال الدولة العلية ، فاضطهده ففر إلى مصر ،  
ورحل إلى بلاد كثيرة كزنجبار والحبشة وأواسط جزيرة العرب والهند ، ثم عاد  
إلى مصر واستقر بها حتى توفي سنة ١٩٠٢ . راجع مشاهير الشرق ص : ٣٥ ج ١ ( طبعة  
ثانية ) ومجلة الثقافة العدد ٣٠٧ .

ومن المشكلات الاجتماعية التي أثرت في هذه الفترة ، وكان لها دوي عظيم مسألة الحجاب والسفور ، ومركز المرأة في المجتمع . ولقد أدى اختلاطنا الشديد بالأجانب ، ونطلعنا إلى محادثتهم في كل شيء ، والسير على نهجهم في مدنيّتهم - إلى ظهور هذه المشكلة ، وكان بعض المفكرين يرى سفور المرأة المسلمة ومساواتها بالرجل في كل شيء مغفلة منهم في المحاكاة ، ولكنهم لم يجرؤوا على الجهر بآرائهم أمام جمهور المسلمين في ذاك الوقت لتمكن عادة الحجاب من النفوس ، حتى ظهر قاسم أمين<sup>(١)</sup> فنشر كتابه ( تحرير المرأة ) و ( المرأة الجديدة ) ، وقد كان لها أثر بليغ في الحياة المصرية ، وإن لم يظهر هذا الأثر سريعاً ، بل ظلت المرأة مدة يتجاوزها السفور تارة والحجاب تارات ، حتى خلمته أخيراً ولم يعد له أثر إلا في بيئات محدودة .

أما ( الأدب ) وهو الذي يعنينا في كتابنا هذا أكثر من سواه ، فقد اشتدت فيه حركة التعريب ، ولا سيما الروايات والقصص ؛ وقد عرفت فيما سبق أن الكلية الأمريكية ببيروت أسست سنة ١٨٦٠ ثم أسست الكلية اليسوعية بعدها بقليل ، وقد كان لهاتين الكليتين أثر بارز في توجيه النشء إلى القصة الغربية . ولما هاجر كثير من نصارى لبنان .

---

(١) من أصل كردي تزح أبوه إلى مصر في عهد اسماعيل ، وانتظم في الجيش المصري وارتقى إلى رتبة أميرالاي ؛ وولد قاسم بمصر ودرس القانون ، وتولى مناصب القضاء حتى صار مستشاراً بالاستئناف وتوفي سنة ١٩٠٨ . والمرأة الجديدة مدينة إليه بالشيء الكثير فهو الذي شق لها طريق التحرر كما تريد وإن لم يكن أول من نادى بذلك ، فقد عرفنا أن رفاة الطمطاوي نادى بتحرير المرأة وتعليمها ، ولكن الزمن والبيئة والأمة كانت كلها غير مستعدة لتلبية دعوته حينذاك ، فلما أتى قاسم أمين وجد من المسلمين من يستجيب له ، وقد سارت المرأة في سفورها شوطاً بعيداً أكثر مما قدر قاسم أمين أو أراد .

إلى مصر حيث الحرية والشهرة والثروة أخذ هؤلاء المهاجرون يرجون القصص الاوربي ويذيعونه على الناس ، وكانت بيروت قد شهدت من قبل قيام ( مارون نقاش ) يؤلف بعض المسرحيات أو يقتبسها من الادب الغربي مثل مسرحية البخيل لـ ( موليير ) ، وكان يدعو فنه هذا « الذهب الافرنجي المسبوك » . وكان لمارون ابن أخ اسمه سليم نقاش رحل بعد موت عمه إلى مصر ، وسمى فيها حق أنشا مسرحاً وفرقة . وظهر بمصر في ذلك الوقت يهودي اسمه « يعقوب صنوع » أسس مسرحاً عربياً بالقاهرة ترجم له عشرات الروايات الفرنسية الغرامية بلغة ركيكة وقد تقدم الكلام عنه <sup>(١)</sup> ، وظل المسرح منذ ذلك الوقت يعتمد على الروايات الاجنبية المصرة ، وأحياناً يضع له بعض المؤلفين مسرحيات لا تمثل الحياة المصرية في شيء ، وبها كثير من عادات الغرب وتقاليده ولم ينتج المسرح وجهة إصلاحية إلا نادراً مثل ما مر بك من روايات عبدالله نديم وأضرابه <sup>(٢)</sup> .

على أن الاهتمام بالمسرح وبالتمثيليات لم يكن كبيراً ، وإنما عني المترجمون بنقل القصص الغربي بأنواعه وألوانه ؛ ومن أقدم الذين اشتغلوا بترجمة القصص نجيب حداد اللبناني <sup>(٣)</sup> فنقل إلى العربية رواية صلاح الدين تأليف ( ولتر سكوت ) ورواية السيد Cid تأليف كورني Corneille وسماها غرام وانتقام ، ورواية ( هيرثاني ) تأليف هوجو ، وسماها

---

(١) راجع ص ٩٩ من هذا الكتاب .

(٢) وقد ذكرنا في كتابنا ( المسرحية ) تاريخ المسرحية المصرية بالتفصيل وسماها ثمة نماذج عليها .

(٣) ولد سنة ١٨٦٧ واشتغل بالصحافة فحضر في جريدة الأهرام إلى سنة ١٨٨٤ ثم اعتزلها وأنشأ ( لسان العرب ) بالأسكندرية سنة ١٨٨٩ .



( حمدان ) ورواية روميو وجوليت تأليف شكسبير وسماها ( شهداء الفرام ) ، ورواية البخيل لـ ( مولير ) ورواية الفرسان الثلاثة تأليف اسكندر دumas في أربعة أجزاء طبعت لأول مرة سنة ١٨٨٨ .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ( يونيو سنة ١٨٩٧ ) حضر إلى مصر كل من نقولا رزق الله ، وخلييل مطران ، وطانيوس عبده ، واشتغلوا بالصحافة ، ثم التحق نقولا بجريدة الأهرام ، وعكف على ترجمة الروايات بأسلوب سهل جذاب . وفي سنة ١٩٠٤ ترجم رواية ( سقوط نابليون الثالث ) في أكثر من ألف صفحة . وقد استهوت هذه الروايات الناشئة في مصر والبلاد العربية ، فأقبلوا عليها إقبالاً شديداً ، وأخذ بعض المسلمين يقلد هؤلاء المترجمين حتى لقد أنشأ أحدهم مجلة باسم ( مسامرات الشعب ) يحشد فيها كثيراً من القصص الرخيص . وأخرج نقولا رزق الله<sup>(١)</sup> سلسلة الروايات الجديدة ، وكان العدد يحتوي على شذرات من الشعر القديم ، وقصصاً قصيرة إلى جانب الرواية الرئيسية ، وأنشأ طانيوس عبده مجلة الراوي وفيها أخذ في تعريب الروايات الشهيرة مثل ( فوست ) و ( الملكة إيزابوا ) .

وترجم فرح أنطون<sup>(٢)</sup> ( الكوخ الهندي ) و ( بول وفرجينى ) و ( أتالا ) وغيرها من الروايات . كما ترجم خليل مطران كثيراً من روايات شكسبير التمثيلية .

وكان من الطبيعي بعد أن كثرت هذه الروايات في أيدي الشباب

---

(١) توفي نقولا رزق الله في مارس ١٩٠٥ .

(٢) توفي فرح أنطون في ١٩٢٢ .

والرجال أن يبدأ الأدباء في محاكاتها ، وكان أول المقلدين وأنشطهم جرجي زيدان<sup>(٢)</sup> فنحنا في تأليف الروايات منمحي ( ولترسكوت ) الإنجليزي ، واستمد من التاريخ العربي قصصه وأبطاله ، وغير في حقائق التاريخ وبدل حتى يدخل عامل التشويق والتتابع القصصي ، وأخرج عدداً كبيراً من هذه القصص التاريخية منها : فتاة غسان ، وأرمانوسه المصرية ، وعذراء قریش ، وغادة كربلاء ، والحجاج ، وفتح الأندلس ، وشارل وعبد الرحمن ... الخ هذه السلسلة الطويلة التي بلغت ثمانى عشرة قصة مستمدة من التاريخ الإسلامى وأربع قصص أخرى مكتوبة كلها بأسلوب صحفى ، خالية من التحليل النفسى ، والنظريات الفلسفية ، وما هي إلا تاريخ في قالب قصة لم تكمل شروطها الفنية ، وتاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق ، وإن كانت الحقائق التاريخية ليست شرطاً في القصة التاريخية كما نرى عند ( سكوت ) ، وكما نرى عند شكسبير في ( أنطوني وكليوباترا ) و ( يوليوس قيصر ) وغيرها من الروايات والمسرحيات التاريخية ، ولكن هذه القصص فيها نفحة الاديب . وخيال الشاعر ، وعبقريه الفنان ، وليست سرداً تاريخياً مكتوباً

---

(١) ولد ببيروت سنة ١٨٦١ ، ودرس اللغة الإنجليزية في مدرسة ليلية مدة خمسة عشر شهراً ، وفي سنة ١٨٨١ خطر له أن يدرس الطب ولكنه لم يتم دراسته بالكلية الأمريكية ، وقال شهادة من الخارج في الصيدلة ثم أتى مصر وتولى تحرير جريدة الزمان سنة . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً بقلم المخابرات ، ثم رجع الى بيروت عضواً في الجمع العلمي الشرقي فدرس العبرية والسريانية وزار إنجلترا سنة ١٨٨٦ ، وتردد طويلاً على ( المتحف البريطاني ) بلندن ، ثم عاد إلى مصر وساعد في تحرير المقتطف ، ولكنه استقال بعد مدة واشتغل بالتدريس سنتين وفي سنة ١٨٩٢ أنشأ الهلال وتوفي سنة ١٩١٤ .

بأسلوب صحفي . ومثل زيدان في هذا سليم البستاني<sup>(١)</sup> في رواية ( زنوبيا وبدور ) وغيره ممن سلكوا هذا النهج التاريخي ، وزيدان أسلم من سواء عاقبة . ثم ظهرت بعد ذلك وللأسف ، قصص رخيصة تتعلق النزعات الدنيا عند الشعوب وتقرأ لقتل الوقت ، وتمثل كثيراً من وجوه الحياة الإنسانية الخزية ، فالإجرام بأنواعه وطرقه ، والعشق السافل ، وما شاكل ذلك من نواحي الضعف الإنساني ، ولا سيما وهي في المدينة الغربية المسمومة قد زحفت في صورة قصص مزرية بالأدب مطوحة به في مهواة سحيقة ، مضللة عقول النشء ، ومفسدة لأهوائهم وأخلاقهم ، وباعثة منازع الشر والإجرام على طريقة رعاع باريس ، وغوغاء لندن ، وصماليك برلين وشطار نيويورك وشيكاغو ، من أمثال ( اللص الشريف ) و ( جونسون ) و ( ملتون توب ) و ( طرزان ) ؛ وغير ذلك مما لا يخرج عما كانت متداولاً في مصر إبان عصور الضعف من قصة ( أحمد الدنف ) و ( دليلة المحتالة ) ومغامرات العيارين والشطار ، وإن اختلف اللون والزمان والحوادث ، ولكن الفكرة واحدة ، والنهج متشابه ، والغاية السلوى وقتل الوقت ، وتقلق النزعات . وأين هذا من الأدب ؟ .

وظل هذا الفيض من السخف يغمر المطابع العربية حتى قامت الحرب العالمية الأولى ، واستمر بعدها ولا زال الآن . ولكننا نكتفي بقتبعه عند هذا الحد ، ولنا في الكلام عن القصة ومنزلتها في الأدب عودة قبل أن نفرغ من هذا الفصل إن شاء الله . وحسبنا أن نقول هنا كلمة طاملاً رددناها في هذا النوع من الاتجار بمقلية الجماهير : لقد تفتحت أعيننا في الصبا فإذا نحن في بيداء موحشة تخبط في دروب ملتوية ونعرج بمنة

---

(١) توفي في سنة ١٨٩٤ وبذلك سبق زيدان في تأليف القصص التاريخية وله كذلك قيس وليلى والاسكندرية .

ويسرة بعيدن عن جادة الحق ، وأبواق الثقافة الدخيلة يقودون القافلة إلى مصرعها الوخيم ، وينفثون فيها السموم المخدرة حتى تستكين لهم وتسلم قيادها ، وهي في غفلة عما انطوت عليه جوانحهم .. جاءوا وهي تترزح في أصفاد الجهل والانحلال ، وأرادوا مسخها وتشويهها ، حتى تتناسى ماضيها وتفقد ما كمن فيها من عزة وأنفة .

جاءوا بقصص خليع يثير الشهوة ، ويقتل الحياء ، ويلطم وجهه الفضيلة والشرف ، ويوحى بالإجرام والفسق ، وجاءوها بهازل تمثّل على المسارح باسم الفن ، وأدب موبوء يزلزل العقيدة ، ويخدش وجه العفاف ويعرض على الناس باسم القصة . إنه أدب نفل ، وورد آسن وغذاء عفن ، التقطه من يتجرون بعقلية الجماهير ، ومن وقعوا وقوع الذباب على الفضلات الفاسدة من نفايات الحضارة الأوربية وقدموه لقومهم في شكل زري .

إن النفوس المريضة ، والعقول الهزيلة التي يخلبها الزيف ، وتغويها المظاهر الخداعة والقلوب الخالية من الإيمان هي التي تهيم بالأباطيل فتعتسف الطريق ، وتنفذ في سراديب البهتان ؛ وإذا أرادت أمة أن تنهض وتنشئ جيلاً طموحاً فتياً صدفت وعفت عن هذه الآداب المرقعة ، والقصص الهزيلة ، وجدت في تثقيف الجمهور وتهذيبه - فلا ترضاه أو تتملقه ، أو تناشد عواطفه الجاححة النابية طمعاً في ثروة زائلة ، وجاء مؤقت . وعليها أن تقود هذا الجمهور الساذج إلى المعين المذب فتشذب خلقه ، وتروض نفسه ، وتطبعه على الخير وتزوده بما ينهض به .

لم نعرض أدواء الأمم الأجنبية ومثالبها على جمهور قرائنا ، وقد وضع هذا القصص الغريب لبيئة غير بيئتنا ، ولعلاج مشكلات لا وجود لها عندها ؟؟ إن القصة سلاح ذو حدين ، واستعماله يحتاج إلى مهارة

وخبرة ، وقد أساء المترجمون استعماله فطعنوا قومهم ومجتمعاتهم الطيبة في الصميم ، وجنوا عليها جناية لا تقفتر .

وقد انتشر هذا اللون من القصص بأوروبا في أخريات القرن التاسع عشر باسم الواقعية ، وقد لحصنا السيات العامة للمذهب الواقعي في كتابنا ( المسرحية ) ولا يزال الأدب الأوربي والأمريكي واقعاً تحت تأثير المذهب الواقعي ، ولقد جنى على بعض الأمم الغربية حناية فظيعة وأشاع فيها التحلل والضعف ولذلك أخذ كثير من أدباء الغرب يناهضونه .

ولعلك أدركت مما سبق كيف أن الأدب الأجنبي قد طغى تياره واشتد ، فالمدارس تفرض فيها اللغة الإنجليزية في كل الدروس ، ولا يعفى إلا درس العربية والدين . والأدب أخذ يغرف من بحور الغرب دون تحر أو تدقيق . وجمهرة المثقفين تجد فيما ينقل إليها صوراً من حياة الغرب لم تعدها ، والغرب هو الممتلك القاهر ، والنفوس تشرب لمعرفة عاداته وسر قوته وكثير من ألوان حياته .

ظلت المدارس المصرية خاضعة لهذه السيطرة الأجنبية حتى .تولى سعد زغلول وزارة المعارف في سنة ١٩٠٦ ، ونازع المستشار الانجليزي ( دانلوب ) في سطوته وجبروته ، وألزمه حده لا يتعمده ، وذلك بتشجيع الجمعية التشريعية التي أصرت على إرجاع اللغة العربية ، فكان لها ما أرادت ، وكانت حسنة لا تنسى له وللجمعية التشريعية لأنها أعادت التيار إلى مجراه القديم . وأخذ العلم الحديث يتدفق في هذا المجرى كتباً طريفة التأليف ، بارعة العرض جذابة الأسلوب .. وسار نهر العربية زخاراً صوب الكمال حتى يومنا هذا .

وبقي درس اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي درساً أصيلاً في

المدارس ، يقف منه الشباب على لون من التفكير الأوربي ، وكان لهذا أثره العميق في التفكير العربي والنتاج الادبي فيما بعد ، وسنعود إلى هذا الموضوع بشيء من التفصيل في مقدمة الجزء الثاني إن شاء الله .

### ( ب ) المستشرقون :

ومن أهم العوامل في النهضة الادبية الحديثة ، والاتصال بالفكر الاوربي - بجانب الترجمة - ما قام به المستشرقون من جهد في سبيل اللغة العربية وآدابها ، وبحث العقيدة الإسلامية ومذاهبها ، ونشر ما عفت عليه الدهور ، وأغفلته يد النسيان من كنوز اللغة العربية .

اتصل الغرب بالشرق بادیء الأمر حينما كان الشرق في عنفوان صولته ، وقة مجده يفض بالمدارس الجامعة ، ويزخر بالكتب الثمينة ، ويشمخ بعلمائه وفلاسفته ورياضيه ، وكانت أوروبا لا تزال في سنة من النوم حينما فرغ الشرق أو كاد من يقظته الطويلة وجهاده العنيف في سبيل العلم والمدنية . ولما استيقظت أوروبا قليلاً ، تلفتت فوجدت شعباً غريباً يعمر جزءاً خصباً من قارتها ، وقد أحاله جنة فينانة ترف فيها العلوم والفنون والآداب ، فتطلع أهله إلى الأندلس منذ ذلك الحين ، يرمقونها بعيون دهشة ، وأفواه فاغرة ، وبودهم أن يعرفوا بعض ما عليه أهلها من علم .

وطئت أقدام العرب كثيراً من أرض القارة الأوربية ، وعبرت بعضها عبور المسافرين أو المغامر أو التاجر ، ووقفت في بعضها وقفة الفاتح القادر ، فعبروا فرنسا عبوراً سريعاً ، وامتد طوقانهم إلى أودية

( بوردو ) ، وتآلب عليهم أوشاب أوربا من فرنسيين والمالت وسواهم  
حقى انحسر طوفان العرب عن فرنسا غب معركة ( بواتيه ) أو بلاط  
الشهداء . بيد أن مقامهم قد طال نوعاً ما في جنوب فرنسا من جهة  
البحر الأبيض المتوسط ، وتركوا ثمة آثاراً في صميم الحياة الفرنسية تدل على  
طول المكث والعشرة ولا سيما في مقاطعة ( بروفانس ) وقد امتد نفوذهم  
منها حتى سويسرا عبر جبال الألب .

وأقاموا بصقلية قرنين ونصف من الزمان ، وتركوا من المساجد  
والآثار في ( بالرمو ) ما يشهد بعزمهم وثروتهم وحضارتهم ، واحتلوا أكثر  
مرافئ إيطاليا خطراً ، واستولوا على كل جزر البحر المتوسط . وفي كل  
بلد يحلون به ينشرون لغتهم ودينهم وآدابهم وحضارتهم ، ولم يكن من  
السهل التخلص من ثقافتهم وآثارهم حتى بعد جلائهم عن بعض تلك البلاد  
والثغور . ولا أدل على ذلك من صقلية فقد ظلت العربية في بلاط ملوكها  
وعلى ألسنة أهلها بعد نزوحهم عنها بقرون . بلغ من سلطانهم أن ملوك  
صقلية تزوا بزي العرب ، ورأس وزاراتهم وقاد جيوشهم وأشرف على  
أمورهم عرب أقحاح من تخلف في الجزيرة بعد نزوح جمهورتهم . وهاك  
ابن جبير يقول في رحلته المشهورة حين زار صقلية سنة ١١٨٧<sup>(١)</sup> في عهد  
الملك غليوم : « وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال  
المسلمين ... وهو كثير الثقة بهم وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله  
حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين ، وعليهم قائد منهم .. ومن  
عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وشعاره على ما أعلمنا  
أحد المختصين به ( الحمد لله ، حق حمده ) . »

---

(١) نزح العرب عن صقلية ١٠٧٢ م .

ولا عجب فالعرب في ذاك الوقت قد بلغوا شأواً عظيماً من الحضارة ، وكان أهل أوربا في أشد الحاجة لمعوتهم وثقافتهم ، وهالك ( دوزي ) يؤكد بعد أن وقف بالدرس على كنه الحضارة العربية في الأندلس : « أنه لم يكن في كل الأندلس أميّ يوم لم يكن في كل أوربا من يعرف القراءة والكتابة إلا في الطبقة العليا من القساوسة » . وصارت جامعة طليطلة قبله الطلاب من كل بقاع أوربا في القرن الثاني عشر حتى بعد أن تقلص ظل الملك العربي عن معظم بلاد الأندلس ، وبقيت العربية لغة للثقافة والمعاملات والعقود حتى سنة ١٥٨٠ ، وظلت بعض قرى بلنسية تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر . ولسنا الآن في صدد تبين أثر العرب في الحضارة الأوربية وآدابها وغنائها وموسيقاها ، وبحسبك أن تعلم أن الفلسفة الإسلامية ظلت تدرس في جامعات أوربا حتى سنة ١٦٥٠ ، وأن أرسطو لم يكن يفهم إلا بشروح ابن رشد ، وأن طب ابن سينا كان غاية كل مشغل بالطب في أوربا أمدأ طويلاً ، وأن مئات الكلمات العربية التي تنبئ عن الحضارة والعلم قد دخلت اللغات الأوربية واستعجمت من مثل قيثارة وقطران وأميرال وشراب ، وزعفران ، وكافور ، وقرمز ، وصك ، ورزمة ، وإكثير وكيمياء ، وجبر ، وساقية ، وما شاكل ذلك . وهم الذين علموهم صناعة الحرير والفلائل الموشاة ، وصناعة السلاح والحزف المذهب ، والفسيفساء والبلاور والورق والأصباغ والأدهان والمعادن ، وعلم الجبر والحساب بأرقامه <sup>(١)</sup> .

واتصل الغرب مرة أخرى بالشرق ، إبان الحروب الصليبية التي شنها

---

(١) راجع : تراث الإسلام ، وراجع كذلك غزوات العرب في أوربا للأمير شبيب أرسلان وأثر الشرق في الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين ، وكتابنا الفتوة عند العرب ، الفصل الخاص بالموازنة بين الفتوة العربية والفروسية الغربية .



متعصبة المسيحيين حينما أنسوا في عرب الاندلس ضعفاً ، وظلت نحو قرنين وطوفان جنود أوروبا يتكسر على صفاة حماة الإسلام ، ويرتد ، ثم يعود أشد مما كان بأساً ، فتقابلة صدمات تخفف من غلوائه ، وهكذا حتى خمد . ولكن خلف هذا الاتصال الطويل آثاراً بعيدة الغور في كل من المغاربة والمشاركة ، أما المغاربة فدهشوا من حضارة العرب في بلادهم ووجدوا أشياء كثيرة لا عهد لهم بها ، فقلدوا المشاركة في لبس الدروع الخفيفة المنسوجة وفي استخدام الموسيقى العسكرية ، واصطنعوا السيوف والرماح وأخذوا عنهم فن بناء الحصون وحفر الخنادق ، وإقامة الاستحكامات واستعملوا النار لنقل أخبارهم في الليل والحمام الزاجل بالنهار ، وأخذوا كثيراً من أصول الهندسة وتأثيث المنازل بالطنافس والناذج والسجاد والاولاني الخزفية وغيرها .

إن الفلسفة اليونانية التي يعتز بها الغرب ، وعليها بنى حضارته وثقافته ، إنما وصلت إليه عن طريق العرب ، فهم الذين حفظوها وشرحوها وعلقوا عليها وأضافوا إليها فلسفتهم وآراءهم فلما استيقظت أوروبا وجدت الطريق ممهداً فسارت في المدنية بخطى واسعة

كان هذا استشرافاً غير منظم ، نشأ عن الاختلاط ولم ينتج عن الدرس ، أما الاهتمام بالعلوم العربية ودراستها فقديم يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . واهتم ملوك أوروبا بأدب العرب وعلومهم ، وأول من فعل ذلك فردريك الثاني ملك صقلية سنة ١٢٥٠ ، ثم ألفونس ملك قشتالة ، فقد جمع الأخير المترجمين كما فعل المأمون من قبل ، وأمر بترجمة كتب العرب وكانوا ينقلونها إلى الأسبانية ثم إلى اللاتينية . وشاع خبر هذه التراجم فحكاها كثير من ملوك أوروبا . ومضت القرون الوسطى والثقافة العربية من طب وهندسة وفلسفة وجبر وحساب وكيمياء وصناعة

وأدب<sup>(١)</sup> هي عماد الثقافة الأوروبية ، ولكن ما لبثت أوروبا أن تخطت دور التعلم ، ومهتت في شتى أنواع العلوم ، وبنت على هذا القديم الذي نقلته ومحضته ودرسته دراسة عميقة علماً جديداً لا يزال في نمو واطراد ، وهو عماد الحضارة الغربية اليوم . ومع أن أثر العلوم والآداب العربية لا يمحى فإن هذا الأثر قد ضعف على مر الأيام<sup>(٢)</sup> ، واستقلت العلوم

---

(١) بلغ ما ترجم من الكتب العربية في القرون الوسطى أكثر من ٣٠٠ كتاب منها ٩٠ في الفلسفة والطبيعات ، و ٧٠ في الرياضيات ، والنجوم . و ٩٠ في الطب و ٤٠ في الفلك والكيمياء ،

(٢) لامراء في أن الأدب الأوربي قد تأثر بالأدب العربي خلال العصور الوسطى ، وظهر هذا الأثر في صور شتى ، فنرى الشعر الغربي يقتبس القافية من الشعر العربي بعد أن لم تكن معروفة في الشعر اليوناني أو اللاتيني Legacy of Islam p 373 والطوروبادور نوع من الشعر الغنائي الغزلي الرقيق ، وقد ظهر في جنوب أوروبا في القرون الوسطى ، وهو يشبه إلى حد كبير في أوزانه وقوافيه ومعانيه وحرارته الشعر الغزلي العربي ، ولا سيما الغزل العذري وكلمة ( طروب ) عربية لا شك فيها والقصص العربية والحرفات والأمثال والنوادر كان لها أكبر الأثر في الأدب الأوربي حينذاك ؛ ومن أم الكتب التي توجت كلية ودمنة في القرن الثالث عشر ، وكان النواة التي نشأ من حولها أدب قصصي عن الحيوان والطير ، وإذا وازنت بين أشعار ( لافونتين ) وبين قصص كلية ردمنة تجد الاقتباس واضحاً ، وقصص بوكاشير ( دي كامرون ) عليها طابع عربي ظاهر ، ولما ترجم ألف ليلة سنة ١٧٠٤ احتفى به الأدباء الأوربيون احتفاء شديداً ، واقتبسوا منه ، ونسجوا على منواله . وظهرت قصص المغامرات من أمثال روبنصن كروزو لدانيل ديفو متأثرة بجي بن يقظان لابن البطريق ، وظهرت قصص أوربية مشهورة فيها النفحة العربية والخيال الشرقي ، خذ مثلاً ( زاديغ ) لفولتير أو الكوميديا الإلهية لدانتي فإنك تلمس أثر رسالة الغفران قوياً في الملحمة الإيطالية ، ولم يكن التشابه مجرد مصادفة ، بل الأمر أعمق من هذا . ومن أشهر الآثار التي تقسم بالطابع الشرقي العربي ديوان الشاعر العالمي ( جيتي ) المسمى ديوان الشرق والغرب .

ومسرحية كورني ( السيد ) ومسرحية راسين ( باجازيت أي بايزيد ) من أثر هذا الاتصال الثقافي .

والآداب الأوروبية ، وصارت مرجعاً ومعيناً ، وتراثاً شائعاً للإنسانية .  
ومع كل هذا فقد تجدد نشاط الغرب في الاستشراق خلال العصور  
الحديثة ، وظهر هذا النشاط في صور عدة :

### الجمعيات الآسيوية :

وهي جمعيات أنشأها المستعمرون أول الأمر لدراسة شؤون الدول  
التي يحكمونها ، وتعرف لغاتهم وآدابهم ونفسياتهم ، حتى يكون حكمهم  
مبنياً على أسس متينة . ومن أقدم هذه الجمعيات تلك التي أنشئت في  
بتافيا عاصمة جاوا سنة ١٧٨١ ، ومن أشهرها الجمعية الآسيوية الملكية  
بلندن ، وقد أسست سنة ١٧٢٣ ، ونظيرتها الفرنسية ١٨٢٠ . ولكل  
من الجمعيتين مجلة مشهورة تعنى بالأبحاث الشرقية والإسلامية والعربية ،  
وتقوم أحياناً بطبع كتب لم تنشر من قبل أو إخراجها بتعليقات قيمة ،  
ومن ذلك نشر المجلة الآسيوية الإنجليزية لمقامات الحريري ، وترجمات  
الأشواق لابن عربي ( ترجمها نيكلسون ) . وقد اعتنى الفرنسيون بخاصة  
في مجلتهم بالمذاهب الإسلامية فبحثوا في الدروز والشيعية والإسماعيلية  
والوهابية والنصيرية وما شاكل ذلك .

وحذا كثير من الدول حذو إنجلترا وفرنسا في إنشاء الجمعيات  
الآسيوية فصار لأمريكا الجمعية الشرقية ، وألمانيا الجمعية الآسيوية ، وفي  
إيطاليا والنمسا كذلك .

### ٢ - المؤتمرات :

ومن مظاهر نشاطهم المؤتمرات التي يعقدونها في إحدى مدنها

المشهورة ، ويؤمها المستشرقون من كل دولة ، ركثير من الأدباء والعلماء في الدول الشرقية ، وتلقى فيها البحوث ويتناقش المؤتمرون في شق المسائل ويطلعون على ما قام به كل من الخدمات في سبيل الاستشراق ، وأول مؤتمر عقده المستشرقون هو مؤتمر باريس سنة ١٧٧٣ ، وتكررت بعد ذلك المؤتمرات حتى زادت عن العشرين ، وقد أخذت مصر في العصر الحديث تشترك في هذه المؤتمرات . ومن أول من اشتركوا فيها عبد الله فكري ، وحزرة فتح الله ، وحفني ناصف وأحمد شوقي الشاعر .

### ٣ - المكتبات :

ومن العجب أن كثيرأ من نفائس الفكر العربي والإسلامي ليس في البلاد العربية ، وإنما اكتنزه الغربيون في مكاتبهم ، وقد جمعوا كثيرأ من هذا التراث في خلال العصور الماضية ، وأيام محن المسلمين بالأندلس وصقلية وفرنسا وإيطاليا ، وأيام الحروب الصليبية ، وأيام أن دخلوا غزاة فاتحين ، أو تجارأ مستعمرين ، وحرصوا على اقتناء الذسخ النادرة والكتب الثمينة ؛ حتى تجمع في هذه المكتبات ما يزيد على مائتين وخسين ألف مجلد ، ومن أشهرها : مكتبة برلين ، وباريس ، ولندن ، وليبزيج ، وليندن ، وأكسفورد ، وأدنبرة ، وليننجراد ، ومدرید .

ولقد عز على كثير من أدباء العرب وعلمائهم أن يظل هذا التراث النفيس غريبأ محتبسأ في مكاتب أوربا ، فأخذوا منذ تذهبوا يفسحون هذه المكتبات وينقلون بعض المخطوطات القيمة ، أو يصورونها . وقد اهتمت بذلك جامعة القاهرة ، ورصدت لهذا العمل الأموال وبعثت العلماء لهذه الغاية . وقد جدت الجامعة العربية في نقل كثير من هذه المخطوطات وتصويرها حتى تها لها عدد غير يسير منها سيلقي ولا شك

كثيراً من الضوء على الحقائق العلمية والأدبية والتاريخية المتداولة .

على أننا لا زلنا نطمح في المزيد وأن تنقل كل هذه الكتب وترد صورها على الأقل إلينا ، فنحن أولى بها من سوانا ، ولا سيما وقد نشأت بين ظهرانيها طائفة من العلماء المحققين الذين أجادوا إخراج هذه الكتب إخراجاً علمياً صحيحاً . ومن أشهر الذين اهتموا بهذا وجلبوا عشرات الكتب النادرة أو صورها المرحوم أحمد تيمور والمرحوم أحمد زكي .

#### ٤ - معاهد اللغات الشرقية :

وفي العواصم الكبرى بأوروبا مدارس للغات الشرقية ، يرد منها لها طلاب أوروبيون يدرسون اللغات كي يتمكنوا من العيش ببعض بلاد الشرق تجاراً أو موظفين أو سياحاً أو مستعمرين . كما يؤمها اليوم كثير من أبناء البلاد الشرقية والعربية ، يتزودون من علم كبار المستشرقين ، ويأخذون عنهم طرق البحث ، والاستنباط . ومن أشهر هذه المعاهد مدرسة اللغات الشرقية بلندن وباريس وبرلين . وكل مدرسة تحوي مكتبة قيمة ، تعنى بدراسة اللهجات وتسجيل الأصوات ، ويدرس بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ما يزيد عن ثلاثين لغة .

#### ٥ - أشهر المستشرقين المحدثين :

١ - دي ساسي الفرنسي توفي سنة ١٨٣٨ .

منشئ الجمعية الآسيوية الفرنسية ، وكان من أعظم المستشرقين وأصبرهم على الدرس . وخلف عدة آثار تشهد بفضل ، من ترجمة لكلمة

ودمنة ، ومقامات الحريري ، ورحلة عبد اللطيف البغدادي ، وألفية ابن مالك ، والبردة ، وكتاب النقود للمقريزي ، وكتاب الزاجل لابن الصباغ ، وترجم كثيراً من أشعار العرب كقصيدة الطفرائي : يا خالي البال ، وله مؤلف في تاريخ العرب أيام الجاهلية ، وآخر عن ديانة الدروز . وهو الذي أنشأ مع تلامذته المجلة الأسبوعية

Journal Asiatique

٢ - كاثرمر Quatremère ١٨٥٧ .

وهو من تلاميذ دي ساسي الفرنسيين ، ومن أعماله : نقل تاريخ الممالك للمقريزي ، وطبع مقدمة ابن خلدون في ستة أجزاء بالعربية والفرنسية ، ونشر منتخبات من أمثال الميداني متناً وترجمة ، وترجم المعلقات السبع . ومن أبحاثه المشهورة بالمجلة الأسبوعية ما كتبه عن النبطيين والعباسيين ، وكتاب الأغاني ، والفاطميين ، وذوق الشرقيين ، وغير ذلك من الأبحاث المفيدة التي تدل على نشاط جم ، وصبر بليغ .

٣ - مونك Munk ١٨٦٧ .

وهو ألماني يهودي درس على ساسي ، وقدم مصر فجمع مخطوطات كثيرة منها تاريخ الهند للبيروني . ومن آثاره : تأثير اللغة العربية في اللغة العبرية بعد التوراة ، وبحث ونقد في ديانة الدروز ، ومجموعة في الفلسفة العربية واليهودية ( وهو كتاب نفيس ) .

٤ - دي برسفال De Perceval ١٨٧١ .

وهناك أب وابن بهذا الاسم ، وكلاهما اشتغل بالعلوم الشرقية ، وإنما نعني بهذا التاريخ الابن ، وقد قام برحلة إلى لبنان ومكث به ثلاث

سنوات ، وعين أستاذاً للعربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ،  
ثم للفصحى في معهد فرنسا : ومن آثاره : الملقات السبع وبأكورة  
تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات ، وقد طبع مراراً .

• رينان Renan .

وقد درس اللاهوت في أول نشأته ، وتعمق في اللغات الشرقية ،  
وقام برحلة في بلاد الشرق العربي . ومن مؤلفاته : تاريخ اللغات  
السامية في جزئين ، كتاب ابن رشد وقد علق عليه بقوله : « لولا ابن  
رشد لما فهمت فلسفة أرسطو » ، وتاريخ فيزيقية ، وقد اشتهر بتعصبه  
الذميم ضد العرب والمسلمين ، وفي كتابه : تاريخ اللغات السامية ، مطاعن  
كثيرة على العقلية العربية سترد على بعضها عما قليل .

• دي فو De Vaux .

واشتهر بأبحاثه الرياضية والفلسفية ، ومن أحسن كتبه : مفكرو  
الإسلام في خمسة أجزاء ، وكتاب الفلسفة الشرقية ، وترجم قصيدة ابن  
سينا في النفس ، وترجم تأيية ابن الفارض .

• Massignon - ٧ .

وهو من المستشرقين المعاصرين ، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية  
بمصر ، ومن أكثر المستشرقين نشاطاً ، وأطولهم باعاً ، وقد كان استاذاً  
لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية ، وتلمذ أول أمره في الجزائر وتونس  
وفاس ، ورحل إلى العراق ، وجاب كثيراً من الأقطار  
العربية . ومن آثاره المهمة : أخبار الحلاج والصوفية ، والأمثال البغدادية

للطالقاني ، وكتاب مراکش في القرن السادس عشر ، وله بحوث طبية في دائرة المعارف الإسلامية .

٨ - لفي بروفنسال Provençal .

وهو كذلك من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ، ولد بالجزائر سنة ١٨٩٤ ، وقد انتدب أستاذاً بجامعة القاهرة ، ومن أشهر آثاره : أسبانيا المسلمة في القرن العاشر والحضارة العربية في إسبانيا ، ووثائق غير منشورة عن تاريخ الموحدين ، وتقويم للسيرة الأندلسية في القرن الثالث عشر ، وقد عاون في طبعة الذخيرة لابن بسام من مطبوعات جامعة القاهرة .

أما المستشرقون الإنجليز فمن أشهرهم :

١ - كارليل توفي سنة ١٨٥٠ وهو صاحب كتاب الأبطال المشهور .

٢ - إدوارد لين Lane .

وقد قدم مصر سنة ١٨٢٥ ودرس عاداتها دراسة طبية ، حتى لقد لقبه أصدقاؤه بمصر بمنصور أفندي لكثرة تقليده المصريين في معيشتهم ومن أجل آثاره : معجمه المشهور سواء العربي أو الإنجليزي ، ومعجمه العربي نموذج احتذاء من قام بعمل المعاجم بعده ، ومن آثاره كذلك : كتاب عن أخلاق المصريين وعاداتهم ، وهو تحفة جميلة ، وقد ترجمه أخيراً الأستاذ عدلي نور بالرسالة ثم نشر على حدة .

٣ - وليم رايت Wright ١٨٦٩ .

ترجم رحلة ابن جبير ونقدها وعلق عليها ، ومن أشهر كتبه وأعمالها



نفعاً : كتابه في النحو وقد طبع مرات . وله كتاب جيد في الموازنة بين اللغات السامية Grammer Comparative ، واشترك مع ( دوزي ) في إخراج نفع الطيب المقترى ، ونشر كتاب السكامل للمبرّد ، وكتاب تلقيب القوافي لابن كيسان ، وكتاب أخباد الرواد ، وترجم كلية ودمنة وهو صاحب أبحاث الادب السوري في دائرة المعارف البريطانية .

٤ - إدوارد بروان Browne توفي سنة ١٩٢٩ .

وكان أستاذاً بجامعة كمبردج للعربية والفارسية ، ومن آثاره : الطب عند العرب ، وتاريخ الادب الفارسي ، ونشر كتاب مذكرة الشعراء لدولتشاه ، وكتاب نهاية الارب في أخبار الفرس والعرب ، والصحافة والشعر في إيران الحديثة .

٥ - السير توماس أرنولد T. Arnold .

وهو أول أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ومن مؤلفاته العظيمة ذات الأثر الجليل كتابه : الدعوة إلى الإسلام ، وقد ترجم إلى كثير من اللغات ، وقمنا بترجمته ونشر جزء كبير من هذه الترجمة بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٩ ، ولكن حالت دون نشره عوامل مختلفة . وقد تمت ترجمته إلى العربية ونشر في هذه السنة على يد بعض الأساتذة . وفيه يظهر توماس أرنولد دون تحيز سر انتشار الإسلام وعظمته .

٦ - مرجوليوت : وقد اكتسب شهرة كبيرة في البلاد العربية ، ونشر معجم الأدباء لياقوت الحموي ، ونشوار المحاضرة ، وديوان ابن التعاويذي ، وحاسة البحري وترجم فصولاً من التمدن الإسلامي لجورجي زيدان .

٧ - نيكلسون : وهو كذلك من أشهر المستشرقين وأبعدم صيتاً ،

ولا سيما في أبحاثه عن التصوف الإسلامي ، وله في ذلك كتاب في ثمان مجلدات ، ونشر ترجمان الأشواق لابن عربي ، وترجم لابن الفارض في المجلة الآسيوية ، وفكرة الشخصية في الصوفية ، وله كتاب مشهور في تاريخ الأدب العربي ، وتوفي نيكلسون منذ أمد وجيز .

#### ٨ - جب Gibb .

وهو من أشهر المستشرقين الإنجليز ، وقد درسنا عليه بمدرسة اللغات الشرقية بلندن وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بمصر وله عناية فائقة بالأدب الحديث في مصر والشام نشرت في مجلة معهد اللغات الشرقية بلندن من سنة ١٩٢٧ - ١٩٣٠ . وله كتاب موجز عن تاريخ الأدب العربي ، ومن أحدث كتبه وأنفعها كتاب « الميول الحديثة في الإسلام » غير أنه شديد العناية بتركيا وتطورها ، وله أبحاث عن الفتوحات العربية في آسيا الوسطى وعلاقاتها ببلاد الصين ، وصار محرراً لدائرة المعارف الإسلامية ، وهو أستاذ بجامعة ( هارفرد ) بأمريكا ، وله خبرة واسعة ببلاد الشرق العربي .

أما المستشرقون الألمان فقد كان الحافز لهم على الاستشراق في مبدأ الامر الاشتغال بالمسائل الدينية وترجمة التوراة فاضطروا إلى دراسة العبرية ثم العربية . وبعد ذلك حفزتهم عوامل سياسية وتجارية إلى الاهتمام باللغات الشرقية ، وإن لم يتنهاهم أن يكونوا مستعمرين لهم أملاك واسعة وإمبراطوريات شرقية مترامية الأطراف كالفرنسيين والإنجليز ، ومع هذا فقد نبغ منهم عدد أفادوا الدراسات الشرقية والإسلامية فائدة لا تنكر ومن أشهرهم :

#### ١ - فَرَيْتَاخ توفي سنة ١٨٦١ .

وتعلم على دي ساسي في باريس ، واشتغل بالتدريس في جامعة ( بون ) ،

ومن آثاره «ديوان الحماسة» ، لأبي تمام مع شرح التبريزي وبترجمة لاتينية ،  
وأمثال لقمان ، وأمثال العرب وأمثال الميداني بترجمة لاتينية ، وفاكهة  
الخلفاء لابن عربشاه ؛ وله معجم عربي لاتيني في أربعة أجزاء . وطبع  
«معجم البلدان» ، لياقوت مع فهرس قيمة وتذييل .

٢ - فلوجل توفي سنة ١٨٧٠ :

ومن آثاره : نشر كتاب «كشف الظنون» ، لحاجي خليفة مع ترجمة  
لاتينية في سبعة مجلدات ، ودراسة عن الكندي الفيلسوف العربي ، ونشر  
«كتاب التعريفات» ، للجرجاني وأتبعه بدراسة عن ابن عربي ومدارس العرب  
النحوية حتى القرن العاشر ، ونشر «الفهرس» لابن النديم كذلك .

٣ - فليشر توفي سنة ١٨٨٨ .

مؤسس الجمعية الشرقية الألمانية ، وقد نشرت هذه الجمعية كثيراً من  
الكتب القيمة مثل معجم البلدان تصحيح ( وستنفلد ) ، وشرح المفصل  
لابن يعيش تصحيح ( بان ) ، وكتاب الآثار الباقية للبيروني  
تصحيح ( شيخو ) .

ومن آثاره : ترجمة ألف ليلة وليلة في تسعة مجلدات ، وتفسير القرآن  
للبيضاوي وعجائب المخلوقات للقزويني .

٤ - وستنفلد سنة ١٨٩٩ .

ومن آثاره : مختلف القبائل ومؤلفها لحمد بن حبيب ، وتاريخ مكة  
للأزرق ، وأخبار قبط مصر للمقريزي ، وجغرافية مصر للقلقشندي ،

وتاريخ الخلفاء الفاطميين ، وتاريخ أطباء العرب ، وديوان علقمة الفحل ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد ، ومعجم البلدان لياقوت في جزئين ، وآثاره في بلاد القزويني ، وطبقات الحفاظ للذهبي ، وغير ذلك من الكتب القيمة وكلها تدل على نشاط وافر ، ورغبة صادقة في خدمة الأدب العربي والتاريخ الإسلامي .

نولدكه توفي سنة ١٩٣١ .

ومن آثاره قواعد اللغة العربية ، وتقارب اللهجات ، وتاريخ القرآن ، ودراسة من المعلقات ، وتاريخ عروة بن الورد ، وتاريخ الفرس والعرب ، والعرب في عهد الساسانيين وله مختارات شعرية من العصر الجاهلي والإسلامي الأول ، وجمعت مقالاته في مجلدين فبلغت خمسمائة مقالة .

ولم يقتصر الاستشراق على علماء هذه الدول ، بل نرى في معظم البلاد الأوروبية وفي أمريكا مستشرقين لهم باع طويل في نشر الكتب وتصحيحها وترجمة بعضها إلى لغاتهم ، حتى ولو لم يكن لهم مطمع استعماري ، أو مقصد تجاري ، أو تبشيري ، ومن هؤلاء المستشرقين :  
١ - كراتشوفسكي الروسي <sup>(١)</sup> ( ولا يزال حياً ) وقد عني عناية خاصة بالأدب العربي الحديث ، وانتدب أستاذاً بجامعة القاهرة ، ومن آثاره التي يقال إنها لا تقل عن الثلاثمائة بين مصنف ومترجم ومفسر : الرواية التاريخية في الأدب العربي المعاصر ، نشرت سنة ١٩١١ ، ونشر مخطوطتين

---

(١) راجع ترجمته بالتفصيل إذا شئت في كتاب ( المستشرقون ) لنجيب العقيلي ص ١٣٢ وما بعدها . وقد اعتمدنا في الكلام عن المستشرقين على هذا الكتاب ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان وتاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو وعلى صلاتنا ببعض هؤلاء المستشرقين ولا سيما المعاصرين منهم .

مجهولتين عن الجغرافية وعلم الفلك في الحبشة وأسبانيا المسلمة والمتنبي وأبي العلاء.، وطبع كتاب البديع لابن المعتز بتفسير وتعليق ومقدمة في ثمانين صفحة .

٢ - دوزى الهولاندي توفي سنة ١٨٨٣ .

ولد بلسيندن ، وهي من أشهر المدن اهتماما بنشر الكتب العربية ، ومن أشهر مؤلفاته : تاريخ الإسلام في إسبانيا في أربعة أجزاء ، بدأه بدرس القبائل العربية في العصر الجاهلي ثم عهد النبي عليه السلام ، ثم عصر الأمويين ، وتخلص إلى الأندلس فأرخها من سنة ٧١١ إلى ١١١٠ ، وله كتاب « كلام كتاب العرب في دولة العباديين » في ثلاثة أجزاء . ومن أجل آثاره ملحق للمعاجم العربية ذكر فيه الألفاظ التي لم ترد بها ويقع في جزئين ، وما نشره تاريخ ابن زيان ، وتاريخ المعجب للمراكشي وجغرافية الأدريسي .

٣ - دي جويه De Goeje المتوفى سنة ١٩٠٩ وهو هولندي ، وقد اشتهر بنشر المؤلفات العربية الهامة بعد تصحيحها وضبطها ، فما نشره فتوح البلدان للبلاذري ، وديوان مسلم بن الوليد ، والمكتبة الجغرافية العربية في ثمانية مجلدات ، وتاريخ الطبري الكبير في خمسة عشر مجلداً مع فهرس قيمة ، وغريب الحديث لأبي عبد القاسم بن سلام ( وهو أقدم المخطوطات العربية بأوروبا بعد القرآن ) ، ونشر كذلك رحلة ابن جبير ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، وأحسن التقاسيم للقدس البشاري ، والأعلاق النفيسة لابن رسته ، وجزءاً من تجارب الأمم لابن مسكويه ، وجغرافية الأخطري ورسالة حي بن يقظان ، والتمدن الإسلامي لجرجي زيدان ، وسيرة الرسول ( عليه السلام ) لابن هشام . . وعشرات الكتب والمخطوطات القيمة .

٤ - جولد زيهير المجري - وتوفي سنة ١٩٢٩ .

وهو يهودي تبهر في اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية ، وله فيها أبحاث تدل على سعة اطلاع ، وطول باع ، ومن أشهر آثاره : العقيدة والشريعة في الإسلام وقد ترجم أخيراً إلى العربية ، وكتاب آداب الجدل عند الشيعة ، والفقه العربي ، والتقنية في الإسلام ، ونشر كتاب المستظهري في الفضائح الباطنية وفضائح المستظهرية للغزالي ، وغير ذلك من الكتب التي تدل على اهتمامه بالعقائد والمذاهب .

هذا وقد اشتهر في كثير من الدول بعض أفراد من المستشرقين مثل : سانتلانا ، ونلينو ، وجويدي الكبير ، وجويدي الابن في إيطاليا <sup>(١)</sup> ، والبارون كريمير والدكتور مونز في النمسا ، وفنديك ، وماكدونالد وشارلز آدمس في أمريكا ، وكريميرسكي في بولندا وبول كراوس في تشيكوسلوفاكيا <sup>(٢)</sup> وبركلمن في ألمانيا ، وكتابه في تاريخ الأدب العربي من أهم المراجع المعتمدة ولا سيما تلك الملاحق التي يضيفها إليه في كل عام وقد قام بترجمته زميلنا المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار .

---

(١) وكل هؤلاء المستشرقين كانت لهم صلات وثيقة بمصر ، وقد درسوا في جامعة القاهرة ، وفي الجامعة المصرية القديمة ، واشتهر سانتلانا بأبحاثه الفلسفية ، ونلينو بأبحاثه الفلكية والتصوف ، وجويدي الكبير بالأدب والتاريخ واللغة الحبشية والحيرية وجويدي الابن بأبحاثه في الأدب وفقه اللغة ، والعقائد والمذاهب الإسلامية .

(٢) انتدبته الجامعة المصرية للتدريس بها من ١٩٣٦ حتى انتحاره في سنة ١٩٤٤ واشتهر بأبحاثه عن الفرق الدينية وتراجم رجالها ، وقد اعترف له كثير من المستشرقين بالفضل والداب .

## أثر المستشرقين :

تفرغ المستشرقون للبحث ، ومنحتهم أهمهم المال والوقت ، وتحت أيديهم المكاتب العامرة بالأبحاث وبالمخطوطات النادرة ، وكلهم يعرف عدة لغات عربية وشرقية ، فكان من الطبيعي أن تتسم آثارهم بسمت التحقيق والمثابة والاطلاع والموازنة ومراجعة الأصول أو المخطوطات ووضع الفهارس وغير ذلك مما كان مفقوداً في الكتب العربية .

ولقد مهدوا السبيل أمام الباحثين بنشرهم المخطوطات الثمينة في طبعات أنيقة مصححة ، مزودة بتعليقات نفيسة ، وبفهارس تيسر الاطلاع وتجمع الأشخاص والأماكن ، والموضوعات . واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية ، وبأبحاثهم في أصول اللغات ، وفقه اللغة ، والساميات ، وبإكتشافاتهم الأثرية في بلاد العرب ، وقد غيرت هذه الإكتشافات كثيراً من نظريات التاريخ وحقائقه المتداولة . وامتازت أبحاثهم بحسن العرض ، وبالتدقيق العلمي ، وبالنظرات الشاملة . وأهم أثر للمستشرقين يتضح في الكتب العربية التي ألفت على نمط كتبهم ، ولا يهولتك هذا ، فهم كما ذكرت لك قد أقتنوا طرق البحث في لغتهم ، وطبقوها على الدراسات الشرقية التي يضطلعون بها ، وعندهم من الوقت والمال ما يمكنهم من حسن الإخراج وجمال الأداء .

إن الدراسات الأدبية وتاريخ الأدب بصورته التي نعرفها اليوم هي أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم ، ولا تعجب فالكتب العربية منذ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي وما أتى بعده من كتب التراجم كمعجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان لم تبحث في الأسباب والعلل والنتائج والبيئة والظواهر السياسية والاجتماعية ، وتفاعلي الأديب

وعصره كما نرى اليوم في الدراسات الأدبية ، وإنما كان الأديب وحدة منفصلة لا تربطه بغيره روابط .

ومن الكتب التي ظهرت في هذه الحقبة التي نؤرخ لها ( أي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ) وتجلت فيها آثار المستشرقين وطريقة بحثهم بل وكثير من آرائهم وأحكامهم وأبحاثهم :

١ - كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ، وقد اعتمد فيه على بروكلمن الألماني في كتابه تاريخ الأدب العربي ، ولم يقف بروكلمن عند القرن التاسع عشر بل أصدر ملاحق عديدة يسجل فيها تطور الآداب العربية في عصرنا هذا ، وينقد معظم الأدب الذي تصدره المطبعة العربية ويقتبص الأديب منذ نشأته ، ويسجل تطورات أدبه .

٢ - كتاب الأب لويس شيخو في الادب العربي إبان القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين ، وكتابه هذا محاولة أولية لمحاكاة المستشرقين في كتاباتهم ، وفيه كثير من طرق البحث القديمة ، ويمكنك أن تدرك الفرق بين ما يكتب اليوم وما كتبه الأب شيخو منذ ربع قرن .

٣ - وتاريخ أدب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، وهو من الكتب التي تدل على غزارة علم وسعة اطلاع ، وبذل كثير من الجهد ، ولكنه لم يبلغ في بعض أحكامه وطريقة عرضه ما بلغته الأبحاث الأدبية بعد ، ويعد في الطليعة من الكتب التي ألقت على الطريقة الحديثة ، وقد وفق فيه مؤلفه لكثير من اللمحات والأحكام الصائبة . مع أن الرافعي لم يكن يعرف إلا القليل من اللغات الأجنبية .

٤ - وآداب اللغة العربية في العصر العباسي للشيخ أحمد الإسكندري .



٥ - وبلوغ الأرب في أحوال العرب للسيد محمود شكري الألوسي البغدادي<sup>(١)</sup> .

٦ - وعلم الادب لحفي ناصف .

٧ - والاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربي .

وكانت هذه الكتب بواكير الدراسات الادبية التي نحا فيها الكتاب العرب منحى المستشرقين وتأثروا بهم في منهج أبحاثهم . ولكن لم تر الجامعة المصرية القديمة ، ولا جامعة القاهرة عقب إنشائها غناء عن المستشرقين ، فأخذت تندبهم للقيام بالتدريس فيها ، ونشر طرقتهم السديدة في البحث بين طلاب الأدب . ولقد ظهر هذا الأثر جلياً واضحاً في الأبحاث التي تلت ذلك . ولا زلنا سائرين في هذا الطريق ، نعتمد على أنفسنا مرة ، ونستأنس بآرائهم مرة ، والبحوث الادبية تكثر وتتنوع ويظهر عليها أثر التحقيق العلمي السليم .

ولعلك تسأل : أترى المستشرقين أعلم منا بلغاتنا وبأصول عقائدنا

---

(١) صاحب هذا الكتاب السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ولد سنة ١٢٧٣هـ ، ١٨٥٦م ودرس على الطريقة الأزهرية الكتب اللغوية والدينية ، ولكن كتابه هذا يعد الآن كتاباً قوياً في مادته يدل على علم صاحبه وقدرته على التأليف ، وهو من المراجع القيمة في أحوال عرب الجاهلية ، وقد قدمه لمؤتمر المستشرقين في استوكهلم سنة ١٨٨٩ ، ونال به الجائزة الاولى من المؤتمر . وقد احتل كتابه هذا مكانته اللائقة به في عالم التأليف ، ولا يزال حتى اليوم حجة في موضعه . ينتفع به كثير من طلاب الأدب على الرغم من ان البيئة التي نشأ بها المؤلف كانت متأخرة . هذا وقد توفي السيد محمود شكري الألوسي سنة ١٣٤٢هـ . ١٩٢٤م ببغداد . وحسبه هذا الكتاب ذكرى طيبة وعلا صالحاً . راجع تاريخ حياته وبقيته وآثاره وأشعاره في أعلام العراق للسيد محمد بهجت الاثري .

وفرقنا الديزية ، وهل هم معصومون من التعصب والخطأ ؟!

في الحق إن كثيراً من المستشرقين على حظ كبير من العلم والمعرفة ، ولكن الامر الذي يهمننا نحن ليس العلم ، وإنما المنهج وطريقة الاستقراء والاستنباط والدرس وتكوين الحكم بعد الموازنات ، ومراجعة الاصول والمخطوطات وكل ما قيل حول الموضوع ، ولقد ذكرت لك آنفاً أن مكتبات أوربا تحوي مائتين وخمسين ألف كتاب عربي بين مخطوط ومطبوع ، وهذه الثروة الهائلة حرة أن تتيسر لمن يعيش معها - وقد كفلت له أسباب البحث الاخرى - أن يتسع اطلاعه ويعمق نظره ، ويقرب حكمه من الصواب ، فلا بدع إذا كان بعض المستشرقين حجة في أبحاثهم التي تصدوا لها .

أجل ! إنما لا نبريء كثيراً منهم من التعصب ، ولا سيما في المسائل التي تتعلق بالدين والعقيدة والجنس ، وهيات أن يكتب أحد عن الإسلام أو عن العرب دون أن ينزع في كتابته إلى ما ينم عن تعصبه . وقليل منهم من استطاع أن يتجرد من عواطفه ونزعاته حين البحث مثل ( السير توماس أرنولد ) في كتابه ( الدعوة إلى الإسلام ) .

أما عن الادب فلا داعي للتعصب اللهم الى ما أشاعوه عن أسطورة العقلية السامية والآرية حين كلامهم عن خلو الادب العربي من القصة ، وتعليقهم لهذا بذلك التعليل السخيف ، وهو عقم الخيال العربي وإجدا به (١) ، ولعلك لم تنس الضجة التي أثبتت حول كتاب ( في الأدب

---

(١) ملخص القصة بكلمة في هذا الفصل باعتبارها لربنا من ألوان الادب لم يكن موجود لدى العرب .

الجاهلي ( للدكتور طه حسين ، وما ثبت من أنه تآثر فيه برأي ( مرجوليوث ) - وأخذ آراء هذا المستشرق قضية لا جدال فيها - فأنكر فيما أنكر قصة إبراهيم وإسماعيل وشك مثله في معظم الشعر الجاهلي<sup>(١)</sup> وقيل منهم من خلا من التعصب الديني أو الجنسي .

وللمستشرقين أخطاء كثيرة ، يرجع بعضها إلى جهل بالمصطلحات العربية وعدم معرفة معانيها الصحيحة ، فتضللهم هذه المصطلحات ، وتدعوهم إلى استنباطات فاسدة ، فكازانوفاً مثلاً يترجم كلمة أمي بشمي ، وكازميرسكي يترجم قول الله تعالى للملائكة : « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » باعبدوا آدم . وأحياناً يبالغون في التحليل والتعليل والتأويل ، ويحاولون أن يجدوا شيئاً لم يوجد قط ، فيضلون سواء السبيل ، فترى كازنوقاً مثلاً عند بحثه في ( إخوان الصفا ) يجمع على نص في رسائلهم ، ويجهل في أن يستنبط منه تاريخ تأليفهم الرسائل بطريقة مضحكة أبعدته عن الصواب كل البعد<sup>(٢)</sup> .

وعلى الرغم من كل هذا ، فأخطاؤهم العلمية قليلة ، وهي مغفورة لهم إذا راعينا أنهم يبحثون في ديانات غيرهم ولغاتهم وآدابهم وأخلاقهم ، وأخطاؤنا نحن أكثر من أخطائهم وأشنع ، ولا نستطيع أن نغفّرهم حقهم ، وننكر أيادهم على الأدب والبحاث الإسلامية واللغوية والاجتماعية ، ونشرهم مئات الكتب والمخطوطات الثمينة التي أتاحت لنا معرفة ما كان عليه أسلافنا حق المعرفة . إننا لازلنا نتلقى عنهم الكثير ، وسوف

---

(١) راجع كتاب النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي تأليف الاستاذ محمد أحمد الغمراوي ، ومقدمة الأمير شكيب أرسلان .

(٢) راجع ( إخوان الصفا ) لمؤلف هذا الكتاب ص ٦٨ وما بعدها .

نظل كذلك إلى أن يتاح لنا نقل صور صحيحة من المخطوطات النادرة الموجودة لديهم ، ونسخ الكتب القيمة التي تعوزنا في البحث ، وإلى أن يتفرغ منا العلماء للبحث الطويل الشاق دون مراعاة الزمان والجهد كما يفعلون ، وحينئذ نستطيع أن نجاريهم في مضارهم ، ولهم فضل السبق .

### ( ٢ ) أثر الاتصال بالأدب الاجنبي :

كان من الطبيعي أن يتأثر الشرق العربي ، ولا سيما مصر ولبنان بهذا الاتصال المباشر بالأدب الأجنبي ، ففي مصر يحتم الاحتلال الإنجليزي على صدر الوادي الخصيب ، ويشهد نفوذ الأجانب من كل دولة ؛ يفدون أفواجا ينشدون الغنى والسعادة في هذه البلد المضيافة والأرض البكر ، وتفرض اللغة الإنجليزية على تلاميذ المدارس المصرية ، ويعمد الأدباء اللبنانيون والسوريون الذين يعموا صوب مصر هرباً بحرياتهم إلى الأدب الغربي ينقلون منه ألواناً شتى إلى اللغة العربية .

ولا أريد في هذه المجالة أن أتقص أثر الفكر الغربي في العقل العربي والنتاج الأدبي فان هذا الامتزاج بين الثقافتين لم تظهر آثاره الحقيقية إلا بعد فترة طويلة من الحقبة التي نؤرخ لها ، حين شب جيل من الأدباء في هذه البيئة التي تلتقي فيها تعاليم محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ووطنية عبدالله نسيم ، وأدب حسين المرصفي والسيد بن علي المرصفي بقصص هوجو وفولتير وراسين وكورني وشكسبير وعشرات من قصاص فرنسا وإنجلترا وغيرها . ولكن كانت السمة الغالبة على أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هي ازدياد نفوذ الأدب

الأجنبي وإعجاب أبناء البلاد العربية به ، فتمنى الشعراء أن يجددوا في  
الشعر ، وأن ينسجوا على مموال شعراء الغرب ، بل كان منهم من يود  
التحرر من قيود الشعر العربي ويأخذ بحرية الشعر الفرنجي ، فهتف  
بمؤلفه حافظ بقوله .

آن يا شعر أن نفيك قيوداً      قيدتنا بها دعاة الحال

فارفعوا هذه الكهائم عنا      ودعونا كشتم ريش الشمال

ويقصد بالشمال بلاد الغرب ، وإن عجز حافظ عن فك هذه القيود  
ولم يستطع أن يخرج خروجاً تاماً على الصور القديمة مهما كانت روحه  
التجديدية راغبة في ذلك<sup>(١)</sup> ، ولكن مما لا ريب فيه أن كثيراً من المعاني  
الجديدة والصور الغربية والخيال الأوروبي قد ابتدأ يتسرب الى أفكار  
الشعراء وأخيلتهم ، وإن لم يظهر أثره إلا بعد مدة ، وفي جيل غير هذا  
الجيل الذي شهد زحف الآداب الغربية أول الأمر . ولم كان يودي أن  
أقف هنا وقفة طويلة لأبين هذا الأثر ، ولكن موعدنا به في الجزء  
التالي إن شاء الله .

أما النثر فقد كان التأثير فيه شديداً ؛ لانطلاقه وعدم تقيده بقوالب  
وأوزان وقواف ، ولأن النثر الغربي المترجم كان الكثرة لمغالبة ولا سيما  
القصة كما رأيت<sup>(٢)</sup> . وهنا يجدر بنا أن نتأنى قليلاً ، فإن القصة قد صار

---

(١) الاسلام والتجديد للدكتور شارلس آدمس ص ٢٠٩ .

(٢) راجع في تأثر النثر العربي الحديث بالقصة الغربية كتاب الدكتور إسماعيل  
أدم عن (توفيق الحكيم الحازن) حلب ، سنة ١٩٣٩ .

لها في عالم الأدب العربي شأن كبير ، وكانت الحقبة التي نؤرخ لها هي حقبة الحضارة التي نمت فيها القصة ، وأخذت بعد ذلك تتفتح وتزدهر وتجري على الألسنة والأفلام . والقصة هي أكثر أنواع الأدب شيوعاً في الغرب ، بل إن الأدب الغربي يتسم بأنه أدب القصة ، وليس كذلك الادب العربي ، فلم كان هذا ؟ وهل ما يدعيه بعض النقاد الغربيين ، ويتبعهم في ذلك كثير من الكتاب العرب - من أن العقلية العربية مجدبة عقيمة الخيال ادعاء صحيح ؟؟. إن هذا الموضوع يتطلب منا كلمة موجزة قبل أن نفرغ من هذا الكتاب لان النثر - وهو كما قلنا قد تأثر بالأدب الغربي أكثر من الشعر - قد صار له ثوبان يظهر فيها : القصة والمقالة .

## ١ - - القصة :

وموضوع القصة موضوع طويل وشائق ، فهناك تاريخ القصة ونشأتها في العالم ، وأنواع القصة من : خرافة ومثل ، وحكاية وأقصوصة ورواية ؛ ثم ألوان الرواية من : واقعية أو خيالية أو تاريخية أو نفسية الى آخر هذه الابحاث ، ثم هناك شروط القصة وكيفية بنائها وما يشترط في المقدمة والحوادث والعقدة والجو والحل ، وهل تخالف القصة القصيرة في تركيبها وإنشائها الرواية ؟ وبعد ذلك كله هناك القصص الاوروبي ، والقصص العربي ، وهل الادب العربي كما يزعم بعض الباحثين مجذب من لقصة ؛ كل هذه موضوعات كنا نود البحث فيها ، وإيفاءها حقها (١) ، ولكنها كما ترى طويلة وتحتاج الى كتاب خاص يتناول فيه القصص منذ

---

(١) راجع دراسات أدبية ج ١ للدولف ، ففيه فصل ضاف عن أدب القصة .

نشأته الى اليوم ، ويتعرض للقصص العربي بالتفصيل مبتدئاً بالمصر  
الجاهلي والموازنة بين خرافات الجاهلية وأساطير اليونان والرومان ، ثم  
يتكلم على القصص في القرآن ، ثم القصص الإبداعية في العصر الأموي أي  
قصص الحب العذري ، ثم تأثير الأدب العربي بالأدب الاجنبية ، ولا  
سيما الادب الفارسي وظهور كلية ودمنة ، وقصص ابن عبدوس الجهشباري ،  
والصاحح والباغم ، ثم ظهور المقامات ، وبعد ذلك كله ظهور ألف ليلة  
وليلة ومقدار ما به من فن ، ومنزلته في عالم الأدب ، ويتعرض الباحث  
في الأدب العربي حين يكتب في كل هذا للأثر العربي الخالص في هذه  
القصص ، وللتأثير الأجنبي فيها ، ليستخلص من كل ذلك حكماً على  
العقيدة العربية . ولعلك قد رأيت من إثارة هذه الموضوعات أمامك أنها  
تحتاج إلى كتاب خاص ، يتكلم عنها بإسهاب ويوفيهما حقها من البحث  
والتحصيل ، ولعل ذلك يكون قريباً .

أما الآن فلني أتعرض للقصة من ناحية واحدة ، دعاني إليها كثرة  
ما ترجم من أدب الغرب وقصصه في أخريات القرن التاسع عشر والقرن  
العشرين ، ودعوى الغربيين بأنها نتاج يصعب على العرب إخراج مثله ،  
إذ ينقصهم الخيال المبتكر والعقل الخالق .

يدعي هؤلاء أن السبب في فقدان القصة من الأدب العربي هي البيئة  
التي عاش فيها العرب دهوراً طويلة في صحرائهم الجردية ، التي قلما يطرأ  
على بساطها تغيير ، فشمسها ضاحية وهواؤها راكد ، لا غابات فيها تشق  
أشجارها أجواز الفضاء ، وتتلون أوراقها ألواناً مختلفة تبعاً لتغير فصول  
السنة ، ويشعر من يفشاهما برهبة قتلأ جوانحه ، وقشعريرة تسري في بدنه  
ولا كهوف فيها تتحدث عن شحوب اتخذتها مسكناً أمداً غير يسير ،  
ثم أبدعوا بعد أن تحضرت ، وخلفت فيها آثاراً لا تزال ناطقة ، ولا

سما صاخرة متقلبة مزججة هادرة ، ولا جبال يكسوها الثلج فيخطف البصر ويظهر جبروت الطبيعة ، وإنما هي فضاء تمتد يسبح فيه النظر إلى مسير أيام وأيام دون أن يقف في سبيله ما يرده ، وهنا وهناك كئيبان وتلال وجبال متجهمة الاديم ، غارية إلا من الصخر والرمل ، فلا بدع إذا جاء الخيال السامي صورة من هذه الصحراء . وعلى العكس من ذلك البيئة التي عاش فيها الآريون قبل أن يدخلوا إلى أوربا ، وهي شمال بلاد الهند ، فإن الطبيعة فيها قاسية قسوة عارمة ، والمناظر متنوعة ، والغابات كثيفة دكناء والجو متقلب لا يستقر على حال فالرعود القاصفة ، والرياح العاصفة والمطر الهطال والبروق الخاطفة والسحب تتراكم في السماء كأنها جيوش يدفع بعضها بعضاً . وقد بثت هذه الطبيعة في نفس الانسان الذي عاش في أحضانها شيئاً من الخشية والرعب وألهته الاساطير والخرافات ، فكان ذلك بدء القصة ، وقد اخترت العقل الأوربي من صور هذه الحياة الأولى شيئاً غير قليل ، وكان له بهذا : الخيال المجنح ، والعقلية الخصب ، والنظرة الفاحصة ، وهذه المواهب هي القصة .

فالقصة في نظرهم هي الصورة المثلى التي يتجلى فيها الخيال وتظهر المبقرية ، وخلو الأدب العربي منها فيما يزعمون دليل على ضعف العقلية العربية ، وقد جاراهم في هذا بعض أدبائنا غير مدركين ما في هذه الدعوى من خداع وأخطاء . استمع إلى الأستاذ أحمد أمين وكيف يجعل من قلمه صدى لهذه الفكرة الخاطئة فيقول عن العربي : « إن خياله محدود وغير متنوع ، وقلمه يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسمى وراها ، لذلك لم يعرف المثل الاعلى ، لانه وليد الخيال ، ولم يضع له في لفته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشير إليه فيما نعرف من قوله ، وقلمه يسبح خياله الشعري في عالم جديد



يستقي منه معنى جديداً ، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل عذهب ، ويقول في موضع آخر : « والمزاج العصبي يستتبع عادة الذكاء ، وفي الحق إن العربي ذكي يظهر ذكاؤه في لغته فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة ، والإشارة البعيدة ، كما يظهر في حضور بديته ، فما هو إلا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بالجواب الحسن ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر . فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة فيبهرك تفننه في القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى وإن شئت فقل : إن لسانه أمهر من عقله » (١) .

هذا هو ما يقول الأستاذ أحمد أمين ، ويقول مثله توفيق الحكيم (٢) وعباس العقاد في الفصول (٣) ونسى الأستاذ أحمد أمين حين أنكر أن العرب عرفوا المثل الأعلى أو أشاروا إليه قوله تعالى : للذين لا يؤمنون بالآخرة مثلُ السوء ، والله المثلُ الأعلى وهو العزيز الحكيم (٤) ، وقوله تعالى : وهو الذي يبدأ الخلاق ثم يعيده ، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، (٥) ، وأما أن المثل الأعلى

(١) راجع فجر الإسلام ص ٤٦ . ٤٧ .

(٢) في كتابه تحت شمس الفكر ص ٦٣ ٨٤ .

(٣) راجع كتاب : الفصول للعقاد وما نقله عنه Widmer في دراسته عن محمود تيمور القصص المصري ص ١٥ . وانظر كذلك خليل مطران في المقتطف م ٨٢ ج إبريل ١٩٣٣ ص ٥٠٠ .

(٤) سورة ١٦ الآية ٦٢ :

(٥) سورة ٣٠ الآية ٢٦ .

كلمة واحدة أو كلمتان فهذا لا يقدم في القضية ولا يؤخر ، فلا الكلمة الواحدة تدل على عمق الخيال ولا الكلمتان تدلان على تقصيره ، وهذا الكلام - وللأسف - صدى لما يفتريه الشعوبيون على العرب ، وما يقدمونه للانتقاص منهم والفض من شأنهم قديماً وحديثاً .

ولنعد إلى القصة وإلى هذه الخرافة - خرافة العقلية السامية والعقلية الآرية . فالقصة الفنية لم تعرف في الادب الغربي إلى سنة ١٧٤٠ م حين ألف ( رتشرسن ) قصته ( باملا ) <sup>(١)</sup> ، وعدها النقاد قصة فنية بل عدوها القصة الاولى ، واشترطوا في القصة الجديدة بهذا الاسم شروطاً أهمها أن تكون واقعية ، وفرقوا بين القصة وبين الشعر في هذا الباب بقولهم : « الشعر صوت » ينطق بما هو خارق للمألوف ، وبما هو أسى من مجرى الحياة المهود بالإحساس النادر الذي لا يلم بالإنسان إلا قبسات متباعدة ، فهو على الجملة يتحرك في مجال أعلى من مجال الحياة الواقعية . أما النثر فهو - على نقيض ذلك - أداة تمبر عن الحياة الجارية المألوفة الشائعة التي لا غرابة فيها ولا شذوذ ولا سمو .. ففي مقدور النثر أن يعبر عن كل هذه الاشياء تعبيراً أدق وأوفى مما يستطيع الشعر ... من هنا كان النثر أداة ملائمة للتعبير عن حوادث الحياة اليومية التي تجري على المؤلف ، ولا تكون عظيمة المغزى لما كانت القصة حكاية تزوى بالنثر وجهاً من أوجه النشاط والحركة في حياة الإنسان ، فخير لها إذاً أن تنقص قصة عادية عن الإنسان العادي الحقيقي كما تجري حياته في عالم الواقع المتكرر كل يوم .

« الحكاية النثرية المثل - أي القصة الجيدة - هي التي تستغل كل

---

(١) راجع Stori : Encyclopedia Britanica .

ما للنثر من قدرة على التعبير ، وقد علمت أن النثر من شأنه أن يعالج الواقعي المألوف ، وإذا فروعة القصة وبراعتها أن تروي حكاية الحوادث المألوفة الواقعة الجارية ... ولا يمكن لقصة بمعناها الصحيح أن تنشأ إلا إذا اهتم الناس أولاً بأجزاء الحياة وتفصيلاتها اهتماماً يحول التافه إلى شيء ذي وزن وشأن ، وإلا إذا أخذوا يستمتعون بمطالعة أوجه الحياة المألوفة كما تقع كل يوم .

« على أن القصة الفنية الصحيحة تختار بطلها رجلاً عادياً ممن أمهلتهم صحائف التاريخ وروثاقه ؛ إذ ليست القصة بحاجة إلى الرجوع إلى الماضي لانتقاء أبطالها من بين أعلام التاريخ ، وأولى لها أن تقصد إلى تصوير هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم . أضف إلى ذلك أن معرفة الدقائق التي أحاطت بحياة البطل التاريخي متعذرة أو مستحيلة ،<sup>(١)</sup> هذه هي القصة في عرف النقاد تعنى بالوقائع والجزئيات وبالتفاصيل وتبعد عن الخيال كل البعد ، وإذا كان الأمر يحتاج إلى خيال وإلى مثل أعلى فالشعر هو وسيلة التعبير . وهذا الرأي الذي قررنا هو رأي المدرسة الواقعية في الأدب والتي ابتدأت تتجه نحو واقع الحياة منذ القرن الثامن عشر ، ولها اليوم السيطرة على الأدب الغربي كله . وقد فصلنا الكلام عن المذهب الواقعي في كتابنا ( المسرحية ) ، وأظنك أدركت الفرض الذي من أجله سقنا لك رأي نقاد الغرب في القصة لأن العرب إذا لم يبرزوا في هذه القصة بمعناها الفني عند الغربيين فذلك لسببين .

(١) قوة الخيال عند العرب ، وسطوة ذلك الخيال ، فهو دائماً مجنح يسبح في عالم المثل العليا ( لا كما يقول الأستاذ أحمد أمين ) ، ويأبى أن

---

(١) راجع فنون الأدب تأليف تشارلتن وتعمير الدكتور زكي نجيب محمود من ص ١١٥ إلى ١٤٠ .

يعنى بالتوافه وبالحياة الواقعية وبالتفصيلات والجزئيات ، وبالرجل العادي الذي أهمله التاريخ ، والذي لا يأبه له الناس وإنما يعتمد دائماً إلى ما هو أسمى من ذلك وأجل شأنًا ، ولذلك كان الشعر أعلى صور البيان عند العرب ، ومفخرة أدبائهم .

ومن العجب أن يرجع الأستاذ توفيق الحكيم عن تعظيم شأن القصة ، ويفرق بين الأدب وبين القصة كالفرق بين المناطق العليا في الإنسان والمناطق الأخرى ، وإذا كانت القصة تصور الإنسان في حياته ، فإن الأدب يصور الفكر في حياة الإنسان ، فهو ليس مجرد شخصية تتحرك في محيط البيئة المادية من ريف أو حضر أو منزل أو مقهى أو مكان عمل مما درج القصاصون على تسميته بالحياة الواقعية ، ولكن الإنسان أيضاً فوق ذلك وأكثر من ذلك عقل يتحرك في عوالم فكرية مرتفعة ، وهو روح يسبح في معان شعرية سامقة . فالعناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هو من اختصاص الأدب . ولكن انتشار القصة باعتبارها مطالعة سهلة قد دفع الكثيرين إلى اختصار الطريق ، والهرب من الجهد ، واتخاذ القصة مركباً هيناً ، لا يكلف أكثر من سرد حوادث محلية ، وحبك مواقف ، ووصف أشخاص ، ورسم مناظر من الحياة الجارية بأي أسلوب اتفق ، ليطلق على هذا العمل الزهيد بعدئذ اسم الأدب المبتكر والخلق الأصيل (١) .

إذاً فالقضية على عكس ما يدعي الشعوبيون ، ومن اتخذ بأقوالهم . ويؤيد قولنا هذا أن العربي لما اتصل قديماً بأدب الفرس والهند لم يعجبه منها إلا النوع الخيالي الممنوع الذي ينطق الحيوان ، ويشخص الجماد ، ويخلق بعيداً عن مستوى الحياة الواقعية وأفعال الناس وأقوالهم ،

---

(١) من مقال للأستاذ توفيق الحكيم بجريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٤٨/٣/٢٨ .

وقد أخذ العرب يحاكون هذا النوع من القصص حتى برعوا فيه ، وعد ابن النديم في الفهرست من كتب الأسفار والقصص التي ألفها العرب على نط كلبية ودمنة والصادح والباغم لابن الهبارية مائة وأربعين كتاباً .

ولما ترجمت المجموعة الأولى من كتاب ألف ليلة وليلة ، كانت تحتوي ألف خرافة فارسية وتسمى ( هازار إفسانه ) غير فيها العرب وبدلوا ، وأضافوا إليها أشياء كثيرة حتى خرج من كل ذلك كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو ما هو عند الغربيين في الخيال الغريب والتأليف العجيب ، والأجواء الساحرة ، والافتنان في تصوير الشخصيات وأنواع اللذات فصار مضرب المثل ، ومنبعاً ينهل منه كل من يريد أن يوصف بسمعة الخيال وشروده وجوهره ؛ وقد أثر هذا الكتاب كثيراً في الأدب الغربي منذ ترجم إلى اليوم كما مر بك ، مع أن جبهة أدباء العرب لا يعترفون بسمو أدبه ، ولا يقرون بعبقريته فنه ، بل يعدونه أدباً شعبياً يصلح للعامة في أسماهم ، والنساء في أوبيقات سرورهن ، والأطفال في هوم وأحاديثهم . وفي العصر الحديث حين اتصل العرب بالأدب الغربي لم يرقهم منه إلا الأدب الإبداعي ( الرومانطيسي ) <sup>(١)</sup> الذي 'يصور' الأبطال ، ويُغرب في الخيال ، ويترجم عن المواطن الجياشة . وظلوا حتى اليوم يعربونه ويحساكونه معرضين عن الأدب الواقعي إلا القليل ، مع أن الأدب الغربيين قد نفضوا أيديهم من هذا اللون الأدبي منذ مائة سنة ، وعمدوا إلى الأدب الواقعي التحليلي كي يعالجوا به مشكلاتهم الاجتماعية المعقدة . وقد حاولت مدرسة لطفي السيد الأدبية أن تدخل الأدب التحليلي الواقعي ، وظهرت لذلك آثار لم ترق بعد إلى المرتبة التي وصل إليها المنفلوطي أو الزيات في الأدب الرومانطيسي <sup>(٢)</sup> .

(١) راجع الدكتور إسماعيل أدم في كتابه عن توفيق الحكيم الفنان الحائر ص ١٤ - ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه .

كل هذا يدلنا على أنه ليس الخيال العربي ، وعدم عمقه هو الذي حال بين العرب وبين القصة الواقعية التي لا يعترف النقد الحديث في أوربا بسواها ، بل الخيال العربي المهنج وما به من عمق هو الذي ربأ بالعرب عن أن ينزلوا إلى هذا القصص الواقعي .

وثمة أمر آخر حال بين العرب وبين هذا اللون من الأدب ، وهو أن الأدب الواقعي يعالج مشكلات اجتماعية وأخلاقية ، ويتخذها المفكرون والمصلحون الاجتماعيون مطية لبث أفكارهم ، وعرض مقترحاتهم في المشكلات القائمة بمجتمعاتهم ، ويعرضون حلولاً يعتقدون أنها تذلل هذه المشكلات ، وتدير لأولي الأمر السبيل حين يشعرون أو يطبقون القوانين ؛ ويعمدون أحياناً إلى المسرحية ويظهرون الشخصيات التي تمثل الناس في حياتهم المألوفة ، وأحياناً يلجأون إلى القصة الواقعية أو الأقصوصة ويدعون الشخصيات التي يصورونها تتحدث كما هي في الحياة من غير أن يظهر المؤلف عواطفه أو يبرز شخصيته ، حتى تكون قصته أقرب إلى الحقيقة وأدنى إلى الواقع . ولم يكن المجتمع الإسلامي في العصر الذهبي للأدب العربي أيام العباسيين وأيام أن عرفوا شيئاً من القصص الفارسي وغيره بحاجة إلى من يحل له مشكلاته الاجتماعية والخلقية ، ويشرع له القوانين ويبين له كيف يطبقها ، فقد كان الشرع الإسلامي قائماً . وهو تشريع من عند الله يعتقد الناس أنه الحق والعدل ، وأنهم في غنى عن سواء من القوانين ، وأن كل قضاياهم تحل على ضوءه ، لا يجوز لأحد أن يقترح تشريعاً مخالفاً أو حلاً لا يوافق الشرع ، ولذلك بطلت حاجتهم إلى مثل هذا القصص الواقعي الذي يصور الرجل المعادي في حياته المألوفة ويحل مشكلاته ومشكلات مجتمعة .

إن أسطورة العقل الآري وفضله على العقل السامي التي طالما ردها

أدباؤنا من غير أن يفتنوا إلى ما فيها من شعوبية كامنة ، ومن غير أن يتبينوا وجه الصواب بعد أن غشى عليهم الحق ما عليه الشعوب العربية من هوان وضعف ، فاعتقدوا باطلاً أن الحق مع القوة وأن العقلية الآرية لابد أن تكون متفوقة ما دام أصحاب هذه العقلية هم المسيطرين على شعوب الأرض . إن هذه الأسطورة تنم عن تعصب مكين في نفوس قائلها وعلى مغالطة ظاهرة ، فهذا ( أرنت رينان ) وهو من غلاة الشعوبيين وأشدّهم قسوة على العرب ودينهم والساميين وعقليتهم ؛ يقرر ما أورده أحمد أمين ويحقر من العقلية السامية <sup>(١)</sup> ويقول : « يبدو أن التفكير الفلسفي للبحث عن ( الحقيقة ) كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندي الأوربي أو الآري الذي يمتد من الهند إلى أقصى الغرب وإلى أقصى الشمال ، والذي كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن في تفسير الله والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً وقد ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي . أما الساميون فإنهم بدون تفكير أو تدليل — أي بدون فلسفة — وصلوا إلى أقصى وأبقى صورة دينية عرفها التاريخ ... والساميون تنقصهم الدهشة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير ؛ لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء » .

ثم ينتقل إلى الخصائص الأدبية التي ميزت العرب بالشعر ووصفت غيرهم بالقصة فيقول : « والتوحيد أثر أيضاً في الشعر العربي ، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف ، فموضوعات الشعر أي أغراضه محدودة ، قليلة العدد جداً عند الساميين ، والشعر العربي الذي تمثله القصيدة يعبر

---

(١) راجع Histoire Générale et Système Comparé, des Langues Sémitiques Par, Ernest Renan. P. 181

عن إحساس شخصي ، وعن حالة نفسية خاصة ، والأبطال في هذا الشعر نفس منشئية ، وهذه الصفة الشخصية التي تجدها في الشعر العربي والشعر الإسرائيلي ترجع إلى خاصية أخرى من خصائص النفس السامية ، وهي انعدام الخيلة الخالقة ، ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصي أو التمثيلي (١) .

ولقد أردت بهذا النص الذي سقته لك من (رينان) أن أبين التعصب الذممي الذي يوحى إلى هؤلاء الشعوبيين بمثل هذا الكلام ، فيسلبون أمماً قوية لها مجدها التاريخي والأدبي كل الفضائل العقلية - وهم في ذلك على باطل - ويتبعهم وللأسف فئة من أدبائنا . فيكونون حرباً على قومهم . ليس ثمة فرق - كما رأيت - بين كلام (رينان) وكلام (أحمد أمين) : إن رينان ينمى على العقلية السامية أنها لم يكن لها (ميثولوجيا) أي خرافات دينية كما عند اليونان . وليس أبعث على الضحك من التنويه بعظم العقلية اليونانية وما رزقته من عبقرية لأنها آمنت بالخرافات ، وألهمت الأشخاص والأبطال ، والتمست الطريق إلى الحقيقة فضلت سواء السبيل . وأمعنت في الأساطير دون أن تصل إلى الله (٢) . لقد جعل هؤلاء الباطل حقاً ، وأشادوا باليونان لأنهم أخفقوا

---

(١) ويقول رينان في موضع آخر . « الجنس السامي أدنى من الجنس الآري إذا قورن به ، ذلك أن الجنس السامي ليست له هذه الروحانية التي عرفها الهنود والألمان . وليس للجنس السامي هذا الإحساس بالجمال الذي بلغ حد الكمال عن اليونان ، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التي هي الصفة الغالبة عند الكلتين (سكان فرنسا وبعض البلجيك) وإنما يختص الساميون بالبدئية الحاضرة ، ولكنها بدئية محدودة . وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خطائهم ، وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم ، ففخر الساميين في كونهم أول من عرف التوحيد ، وعندهم أخذ العالم الديانات ، والصحراء هي ملهمة الوحدةانية لمنظرها الواحد المتشابه » .

(٢) راجع في أسباب تعدد الآلهة عند اليونان القدماء :



في الاهتمام إلى وحدانية الله التي آمن العالم بها فيما بعد على يد موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام والتي آمنت بها أوروبا الآرية ، وكفرت بألهة ( الأرباب ) وميثولوجيا اليونان .

ولعلك تعجب إذا قررنا لك أن المدنية الأوروبية الحديثة بنظمها الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية وحياتها العلمية هي من أثر العقلية السامية قديماً حين تتلمذوا على العرب وشروحهم للفلسفة اليونانية والطب والكيمياء والجبر والهندسة وغيرها . وحديثاً ممثلة في بني إسرائيل الذين نزحوا إليها من مئات السنين بعد أن عاشوا طويلاً في الصحراء ، ولو كانت البيئة الصحراوية لا تفتح إلا عقولاً مجذبة وخيالات ضحلة ، وفكراً غير قادر على الخلق والابتكار ، ونفساً لا تعرف الفلسفة ولا تقدرها - لظل اليهود كذلك في رحلتهم الدائمة بأوروبا معها تغيرت بهم البلاد والبيئات . ولكننا نرى الأوروبيين في كثير من الأحيان يعترفون للتوراة بالفضل ، وللشعب الإسرائيلي ولید الصحراء بالعبرية والنبوغ ، والعقلية السامية متكافئة في اقتدارها وعالميتها ، واللغة العربية والعبرية توأمتان نشأتا من أصل واحد . وهذا ( رينان ) يقول : « ليس في ماضي النوع الإنساني ما يثير اهتمام الفكر الفلسفي سوى تاريخ ثلاثة شعوب : تاريخ إسرائيل ، والتاريخ الأغريقي ، والتاريخ الروماني ! »

وما بالناس نقص عليك أقوال الأوروبيين ، ولا نسوق لك الأمثلة الحية الصادقة على أن اليهود هم الذين أسسوا الحضارة الأوروبية الحديثة ، وهم قادة الفكر فيها حتى اليوم ، على الرغم من أنهم قلة مضطهدة .

إن الفلسفة في المانيا ابتدأت في القرن السابع عشر حين ظهر فيها الفيلسوف

اليهودي باروخ (سبنوزا) (١) في أمستردام ، بعد أن درس ما جاء به فلاسفة قومه من أمثال ابن ميمون ، وابن عزرا ، وفلسفة ابن جبريل الصوفية ، وموسى القرطبي وغيرهم من فلاسفة اليهود بالآندلس . وهو الذي يقول فيه هيجل الفيلسوف الألماني : « لن تكون فيلسوفاً إلا درست سبنوزا أولاً » (٢) .

وكما بدأ سبنوزا الفلسفة الحديثة في ألمانيا ، وبني على نظرياته أو حاول الرد عليها من أتى بعده من فلاسفة الألمان أمثال ( كانت ، وهيجل ، وشوبنهاور ، ونيتشه ) فإن كارل ماركس ١٨١٨ ، وماكس نوردو ١٨٤٩ اليهوديين قد توجا هذه الفلسفة النظرية التي ابتدأت تؤتي ثمرها في القرن العشرين ، فهيجل الألماني ، وكارل ماركس اليهودي - واضع كتاب رأس المال ومنشئ أول جمعية شيوعية ثورية ، ومؤسس جماعة العمل الدولية ، ومؤلف المتن الاشتراكي في السياسة الاقتصادية - قد بعثا الشيوعية . وفي كارل ماركس اليهودي يقول برنارد شو الفيلسوف الإنجليزي المعاصر : « لا يُدعى نبي الشيوعية عيسى أو محمداً أو لوثر أو أغسطين ، ولكنه يسمى كارل ماركس . وتبتدىء فلسفتهم بالفيلسوف الألماني هيجل ، وفيورباخ ، ويتوجها كتاب كارل ماركس : رأس المال ، وهو تورااة الطبقة العاملة وإنجيلها ، ويصفونه بأنه 'ملهم' ومعصوم ، ومحيط بكل شيء خيراً » (٣)

---

(١) سبنوزا Spinoza ١٦٣٢ م - ١٦٧٧ ولد من أسرة برتغالية يهودية هاجرت إلى هولندا بسبب الاضطهاد الديني الذي لقيه اليهود بعد أن رحل العرب عنها ، ومات سبنوزا في سن الأربعين بعد أن لاقى في سبيل فلسفته عناء كبيراً . راجع قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١٢٨ .

(٣) راجع The Intelligent Woman's Guide To Socialism, Sovietism, And Fascism. dy G. B.Shaw. p. 314 In Pelican Books .

ولم يتجرد كارل ماركس - الذي اعتنقت روسيا بأسرها وعشرات الملايين في العالم تعاليمه ... من يهوديته . فقد كان عضواً بالجمعية اليهودية بباريس . وأما نوردو صاحب كتاب ( الانحلال ) فكان في بودابست من أكبر أعوان ( تيودر هرتزل ) مؤسس الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر ، وواضع خطة إنشاء الدولة اليهودية بفلسطين .

وإذا أردنا أن نعد فلاسفة اليهود ومفكرهم الذين أثروا في الحركة الفكرية بأوروبا أعجزنا الحصر ، ولكن لا ننسى ( فرويد ) واضع فكرة التحاليل النفسية ، وصاحب نظرية العقل الباطن ، وناهيك بها لها اليوم من مكانة في عالم الفكر ، ولا ننسى ( برجسون ) اليهودي الفرنسي شيخ الفلسفة الحديثة وصاحب نظرية مقاومة المادية في أوروبا<sup>(١)</sup> . وبرنارد شو أشهر الفلاسفة المعاصرين . مدين بفلسفته وآرائه لأستاذه اليهودي ( صمويل بتلر ) صاحب المبادئ العائلية الثورية ، التي نادى فيها بإعطاء أفراد الأسرة من : الأم والفتيات والعلماء حق التصرف حسب أهوائهم على الرغم من إرادة الأبوين .

و ( أينشتين ) صاحب نظرية النسبية ، وأكبر علماء العصر الحديث يهودي قح ، و ( بوماس مان ) و ( أميل لودفج ) الكتاتبان الألمانيان . المشهوران من نبغاء اليهود في العصر الحاضر .

إن جامعات اوربا تفص بالاساتذة الإسرائيليين ، ويسيطر اليهود على شئون المال والاقتصاد والطب وصناعة الأفلام وإخراجها ، والصحافة بأنواعها ؛ حتى لاتخلو صحيفة في أوربا وأمريكا من نفوذ يهودي إما في رأس المال أو التحرير . وهكذا يستولي اليهود اليوم وقبل الحرب

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة .

الأخيرة ، وفي القرن الماضي على عقلية الشعوب الأوروبية فيقرأون ما يريد اليهود ، ويشاهدون في الخيالة ما يخرج اليهود . وهذا هو السر في ان هذه الفئة القليلة من الناس هي التي تتحكم في سياسة أوربا وأمريكا ، وتحضنها لمشيئتها ، وهذا هو السر في انتصار أوربا لهم في القضية الفلسطينية ، وذلك لشدة سيطرتهم على الرأي العام الأوربي والأمريكي على السواء .

فهل بعد ذلك يفخر الجنس الآري بالخلق والابتكار وهو خاضع لسيطرة أدنى العنصرين الساميين ؟ لو كانت المسألة ترجع إلى البيئة الأولى التي خرج منها الجنس السامي ما كان لهؤلاء اليهود شأن يذكر في قيادة الفكر الأوربي ، وقيادة الشعوب الغربية وإخضاعها لسلطانها ، على الرغم من قلة عددهم وهوان أمرهم <sup>(١)</sup> .

وأما المثل الأعلى الذي يدعي الشعوبيون أنه مفقود عند العرب فحسبنا أن نقول في الرد على دعواهم : إن الحياة العربية في الجاهلية كانت مليئة بأمثلة الوفاء والكرم والشجاعة ، كانت الفضائل والذكر الحسن هي الغاية التي يصبو إليها كثير من أبناء الصحراء ، وكلها مثل عليا لو سارت عليها الإنسانية لسعدت <sup>(٢)</sup> ، ولقد برهنت لك على أن الكلمة موجودة في اللغة العربية وفي القرآن الكريم الذي نزل على عرب

---

(١) لامي بعض الأصدقاء عند ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب على كتابة هذا الفصل عن اليهود وإظهار سلطانهم الفكري على أوربا ، ولقد سقت هذه الأمثلة كما يرى القارئ، لدحض تلك الفرية - فرية السامية - التي يتغنى بها الأوروبيون المتعصبون .

وإذا كان اليهود علماء ومفكرين فهذا لا يمنع أنهم من أردأ شعوب الأرض أخلاقا ، ولطالما حملت عليهم حملات شعواء على صفحات مجلة الرسالة في سنوات عديدة .

(٢) راجع كتابنا ( الفتوة عند العرب ) وقد أوفينا هذا الموضوع بحثا ثمة .

الجاهلية ، ولو لم يعرف العرب هذه الكلمة ويفهموا مدلولها ما نزل بها القرآن الكريم . على أن الغرب لا يعرف في لغة من لغاته كلمات كثيرة تملأ الحياة العربية ، وتفخر بها الإنسانية فكلمات ( العِرَض ) و ( المرودة ) و ( النجدة ) ليس لها ما يقابلها في الأعجمية .

وإذا عدنا إلى الناحية الأدبية وجدنا الشعر العربي - وهو مفخرة العرب ومجتل بيانهم - تكثر فيه ألوان الحكمة مصوغة صياغة متقنة ، وما الحكمة إلا حقيقة مجردة تدل على تفهم لأسرار الوجود ، وعلى الخيال الشامل الذي ينتظم طبائع البشر وأحوالهم ، ويصدر عليهم حكماً يصلح لكل زمان ومكان ، وينطبق على كثير منهم مما اختلفت عصورهم وبيئاتهم .

وبعد فلنسأل سؤالاً آخر وهو : أحقاً توجد فوارق عقلية أصلية بين الشعوب ، يمتاز أحدها بالذكاء الغالب ، والعقلية الخالقة ، والخيال المبتكر ، وتسلب الطبيعة أحدها فهو قَدَمٌ في جملته بطيء التفكير ، ليس له قدرة على الخلق والابتكار وإن أجاد التقلييد ؟؟ . وإذا وُجدت الفروق العقلية بين الشعوب كما يدعي المتعصبون لأجناسهم ، المنساقون وراء عواطفهم ، فهل هذه صفات لازمة للشعب لا تتغير بتغير البيئة والزمان ؟ وعلى أي أساس وجدت هذه الفروق العقلية ؟ أهى نتيجة للبيئة الطبيعية أم البيئة الاجتماعية ؟

يقول سِرل برت C. Burt في كتابه كيف يعمل العقل <sup>(١)</sup> : إن هذه العمليات التي تشغف بها بعض الجهات لتفضيل ما يسمونه الأجناس الآرية على السامية ، والشعوب البيضاء على الصفراء والسوداء لا يمكن الأخذ

---

(١) الجزء الثاني ترجمة الأستاذ محمد خلف الله ص ١٦٥ .

بها على علاقتها . حقيقة إن ذكاء الزنجي المتوسط في الاختبارات التي طبقت إلى الآن لا يبلغ إلا تسعة أعشار المتوسط من الشعوب البيضاء ولكن الصينيين واليابانيين لا يقلون عن مستوى الغرب . وقد قام اثنان من طلبي باختبارات أثبتنا بها أن ذكاء اليهود أعلى من ذكاء غيرهم ... ونتائج بعض الباحثين في الولايات المتحدة تؤيد هذا ... على أن هذه الفروق بين الأجناس مهما تميزت وتحددت فإنها ليست قط على درجة من العظم ، فما لاحظناه قبل بين الذكور والإناث ينطبق هنا أيضاً على الأجناس المختلفة . فالفروق الواسعة في الذكاء بين الأفراد المنتمين إلى شعب واحد أوسع وأبعد مدى من الفروق بين شعب وآخر فإذا أردنا فروقاً بينة بين قوم وآخرين فلنبحث عنها في الطبع أو المزاج ؛ وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها ، ولكننا نعتمد على الملاحظة ، وما تكونه من فكرة عامة وهما دليلان غير مأمونين .

ويقول بعد استعراض أجناس أوربا المختلفة ، وما بينها من خلاقات في شكل الجمجمة وتركيب الأجسام ولون الشعر والعيون ، وما يوصف به رجل الشمال من أنه مخلوق عملي ، ورجل وسط أوربا يميله إلى الحقيقة ، ورجل الجنوب يميله إلى الجمال : « ولكن العالم المدقق لا يكاد يسمع مثل هذه الدعاوى العريضة حتى يبدو عليه القلق والحذر ، فإن حقائق الطبيعة الإنسانية قلما تخضع لمثل هذا التقسيم الحاد <sup>(١)</sup> . »

وبعد دحض هذه الآراء المبذبة على التعصب الجنسي والفخر الكاذب كدعوى الألمان أنهم « من الشعوب الآرية أنبل الناس جميعاً » قال : « والآل أظن أن النقطة التي نستطيع التسليم بها هي أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها بمستطاعة تحليل التفاوت البيئي بين

---

(١) كيف يعمل العقل ج ٢ ص ١٦٧ . وراجع بحثاً لنا في مجلة ( نهضة أفريقية ) ١٤ فبراير ١٩٥٩ عن الفروق العقلية بين الأجناس .

## المدنيات المتعاقبة (١) .

لقد أقر من طعنوا في الاجناس السامية وانتقصوا عقليتهم بذلك هذه الاجناس فد (رينان) يقر للعربي بالذكاء وحضور البديهة كما مربك ، وأحمد أمين يعلل لهذا الذكاء بأن العربي عصبي المزاج ، « والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء ، وفي الحق أن العربي ذكي يظهره ذكاؤه في لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللوحة الدالة والإشارة البعيدة كما يظهر في حضور بديهيته (٢) » وقد رأيت منذ لحظة ما أثبتته اختبارات (برت) وتلاميذه من ذكاء اليهود وتفوقهم في ذكاؤهم .

« والذكاء العظيم هو الركن الأساسي في النبوغ في أي ميدان من ميادين ، وليس من الضروري أن نفترض أن موهبة الخلق الأدبي ، أو الاستمتاع بالأدب يتوقف على ملكة أخرى خارقة أو خارجة عن حياته العادية . هذه هي النتيجة التي وصل إليها وارتضاها (برت) في بحثه لطرائق سلوك العقل في الفن فقال : « كل هذه النواحي من البحث أدت إلى نتيجة واحدة ، فالفنان - من حيث موهبته الخاصة رجل مزود ببهيات نادرة ، غير أن الفرق في الدرجة لا في النوع ، فالمقدرة على خلق العمل الفني - كالمقدرة على تذوقه - لا تتوقف على ملكة إضافية خارجة عن مجرى حياتنا اليومية ، وهي في درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية (٣) » .

فإذا تقرر أن الاجناس السامية على نصيب كبير من الذكاء ، وأ

---

(١) نفسها راجع ص ١٨٠ .

(٢) فجر ، سلام ص ٤٤ طبعة ثانية .

(٣) راجع (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده) للأستاذ محمد خلف الله ص ٣٣ .

الذكاء العظيم أساس النبوغ في أي ميدان من ميادينه ، وأن موهبة الخلق الأدبي لا تتوقف على ملكة أخرى خارقة ، فالعربي بفطرته ومواهبه مهيباً للخلق الأدبي وللنبوغ ، وليس من الضروري أن يكون النبوغ هو ذلك القصص شعراً أو نثراً - وقد عرفت منزلة القصص وأي لون من ألوان الأدب هو ، وأدركت أن القصة لا تتطلب خيالاً جامعاً محلقاً عميقاً ، وأن العرب صدقوا عنها لما وُهبوا من خيال واسع ، ولأن دينهم أغناهم عن النظر في حلول المشكلات الاجتماعية التي تعنى بها القصة - وقد مهر العربي في ألوان أخرى من الأدب ، بل في أعلى أنواع التعبير وأسمائها وهو الشعر . وليست القصة إلا أحد مظاهر الخيال لا الخيال كله ، « فالفخر والحاسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال <sup>(١)</sup> » . والخيال كما نعلم هو وضع الأشياء في علاقات جديدة . وهو نوعان تفسيري وابتكاري ويتمثل التفسيري في تلك الصيغ البيانية العديدة ، أما الابتكاري فيتمثل في خلق أشياء ومناظر وشخصيات ليس لها وجود . وكلا النوعين يغص به الأدب العربي على طريقته الخاصة . وقد أفضت في بيان ذلك في غير هذا الكتاب <sup>(٢)</sup> . ومع ذلك فالشعر العربي في كل عصوره مليء بالقصص المحبوكة المعقدة الرائعة الخيال <sup>(٣)</sup> ولا يمنع أنه من الشعر الوجداني فقد

(١) فجر الإسلام ص ٣٠ .

(٢) راجع كتابنا الفتوة عند العرب .

(٣) حذ مثلاً قصيدة الخطيئة التي مطلعها .

وطاوي ثلاث عاصب البطن رومل  
بيداء لم يعرف بها ساكن وسما

وقصيدة زهير في الصيد : ( وغيث من الوسمي حول تلاءه ) وقصيدة أمريء القيس ويومه بدارة جلجل . ومعلقة عمرو بن كلثوم ، ومعظم شعر ابن أبي ربيعة ولا سيما قصيدته الرائية ( أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ) ، وقصيدة البحتري في الذئب كلها من الشعر القصصي .



مرت بأوروبا فترة ساد فيها الشعر الوجداني ولا تزال له السيطرة وبطل عهد الملاحم والمسرحيات الشفوية .

ثم هناك سؤال آخر علينا أن نسأله قبل أن ندع الكلام في هذا الموضوع ، وهو : أحقاً تبتدىء الحضارة الإنسانية بعلوم اليونان وثقافتهم ، لم يسبقهم في ذلك سابق ، وأن هذه الديانات والميثولوجيا والقوانين والفلسفة هي كلها من ابتكار اليونان وحدهم وبذلك احتلوا هذه المكانة السامية في التاريخ ، وبهم تميزت الشعوب الأوروبية وفاقت غيرها ؟

كثير من الناس الذين لم يبحثوا الموضوع أو بحثوه بحثاً سطحياً يقولون في غير تردد : أجل ! هذه المدنية والثقافة والفلسفة التي رويت عن اليونان هي من ابتكارهم ، والإنسانية مدينة لهم بالشئ الكثير في هذا المضمار .

ولكن هناك من شك في ذلك ، بل هناك من أثبت بأدلة يقينية أن اليونان في دياناتهم ، وآلهتهم ، وأسماء بعض هذه الآلهة وما تتطلبه الديانة من طقوس ، ثم في قوانينهم ، وفي آدابهم تتلمذوا على المصريين القدماء وأخذوا عنهم ، وأثبت أن هوميروس في الإلياذة اقتبس كثيراً من القصص المصرية بأشخاصها وخيالاتها وأجوائها . بل أخذ قصصاً مصرية معينة وأدخلها في ملحمة ، وليس هؤلاء العلماء الذين قاموا بهذه الأبحاث من المتجنين على اليونان أو المبغضين لهم ، بل على العكس هم من المعجبين بهم والمعنيين ببحث آثارهم وترجمتها إلى لغاتهم وشرحها والتعليق عليها ، ولكن اطلعوا على أشعار مصرية ، وآثار قديمة ، وقرأوا هيردوت المؤرخ اليوناني المشهور ، ووازنوا بين نصوص الإلياذة ، وهذه النصوص المصرية التي عثروا عليها فوجدوا التشابه بل التطابق .

ومن هؤلاء العلماء فيكتور بيرار Victor Berard الفرنسي مترجم الإلياذة وشارحها ، ثم جولنيشيف M. w. Golénicheff الروسي أحد علماء المصروولوجيا . وقد أثبت عبد القادر حمزة باشا<sup>(١)</sup> النصوص المصرية القديمة التي عثر عليها هذان العالمان ، والتي لها مشابهة في الإلياذة ، كما أورد الأدلة القاطعة التي لا يأتيتها الشك على تلمذة اليونان للمصريين ، ومن من علمائهم ومشروعهم وأدبائهم ومؤرخيهم أتى مصر وتأثر بها فيها من علوم ومعارف ودرس على أساتذتها وكهنتها . وهو فصل ممتع حقاً ولولا خشية الإطالة للخصناه تنمة للبحث ، ولكن هذا الجزء أوشك على الانتهاء وهناك بعض نقط تحتاج إلى نظرة قبل أن نفرغ منه ، وحسبنا أن نقول كما قال الأستاذ العقاد<sup>(٢)</sup> في بدعة السامية والآرية واختلاف العقليتين ، وكيف ظهرت هذه البدعة : ونشأت في إبان ذلك بدعة الآرية والسامية ، وهي تلك البدعة التي تقضي للآريين بالسبق والرجحان في كل فضيلة من فضائل الأمم أو فضائل الافراد ، وقد ظهر بطلانها الآن ، أو ظهر على الأقل أن الحاجز الذي أقامه مبتدعوها بين أجناس الشعوب مصطنع ملفق لا يسلم من ثغرة شك هنا أو ثمة ضعف هناك ، بل هو ينعكس في أحوال شتى فتصبح المزية للساميين من حيث أرادها القوم الآريين ، ولكن البدعة قد خدعت أناساً كثيرين في إبان نشأتها فتحدثوا عنها كتحدث الناس بالغرائب والملح المستطرفة ، وما زالت تجني على الافكار ؛ حتى أوغل فيها بعض الغلاة من دعايتها فاستخرجوا منها دليلاً على رجحان بعض الأمم الاوربية على بعض ، واستلثار جماعة

---

(١) في كتابه على هامش التاريخ المصري القديم ج ١ ص ١٢٥ - ١٧١ .

(٢) في كتاب سعد زغلول سيرة ونحية لميائس العقاد ص ١٣ - ١٤ في فصل عن العقلية

المصرية وطبيعتها .

من تلك الامم بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون  
الجماعة الاخرى ، فتصدى لها يومئذ من الاوربيين من ينكرها ويزيفها  
ويبالغ في السخر بها ، بعد أن كانوا يتفقون على ترويحها ، والإغضاء عنها ،  
حين كانت معرفتها لاصقة بالشرق وحده موقوفة عليه دون غيره .

وبحسبي الآن ما سقته من أدلة <sup>(١)</sup> على أن أسطورة العقلية السامية  
والآرية لا تثبت أمام الادلة العلمية ، وأن القصة - على الرغم من  
وجودها في الادب العربي كما هي موجودة عند كل الامم ، وإن لم تأخذ  
ال قالب الفني الذي لم يظهر بالخصص الاوربي إلا في أواسط القرن الثامن  
عشر - لا تحتل هذه المكانة الممتازة في عالم الادب ، ولا يوصف من  
لم ينبغ في تأليفها بعقم الخيال وجود العاطفة وضحالة الفكر .

وكم كان بودي أن أفيض في أدب القصة ، وأبين أصولها وكيفية  
إنشائها ، ولكن هذا يحتاج إلى كتاب قائم بنفسه ، وإنما دعاني إلى  
الخوض في القصة على هذه الطريقة إقبال المترجمين في العهد الذي نتحدث  
عنه عليها إقبالاً زائداً ، وتأثر الادب العربي الحديث بها بعد ذلك تأثراً  
بالغا ، حتى دعا ذلك إلى القول بأنها لم تكن موجودة عند العرب ،  
وأن العقلية السامية لا تستطيع إنتاج القصة لما بها من فقر الخيال .  
وقد مر بك من قبل عند كلامنا على الترجمة الجهود التي بذلت في سبيل  
ترويح القصة الغربية ، وكان هذا الطور هو طور النقل والتمثيل ولم يكن

---

(١) وإذا أردت المزيد فاقراً مقالة مجلة الانصار بالعدد ٤٦ السنة الرابعة ، شوال ١٢٦٣  
( النابغة الذبياني ) فقد تكلمت فيه عن موضوع القصة من زوايا جديدة وأضفت إلى ما تقدم  
هنا برامين أخرى . ثم كتابنا ( الفتوة عند العرب ) وفيه فصل ضاف عن ميزة العقل العربي  
وتفوقه مدعوم بالحجج العلمية القوية .

قد بدأ بعد طور التقليد والمحاكاة ، ولا سيما في الرواية ، وإن ابتداء في المسرحية مبكراً نوعاً ما . وسنعود إلى الكلام في توسع عن القصة في الأدب المصري الحديث في الأجزاء التالية إن شاء الله . أما المسرحية فقد أفردنا لها كتاباً خاصاً هو الآن بين أيدي القراء .

## ٢ - المقالة والصحافة :

وإذا كان القرن التاسع عشر قد انقضى ، ولم تحتل فيه القصة الموضوعية مكانها في عالم الأدب ، وكان أغلب القصص التي تطبع مترجمة من شتى اللغات ، فإن المقالة منذ بدأت الصحافة العربية بإنشاء الوقائع المصرية ، ثم روضة المدارس ، ثم الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، قد صارت عماد الكتاب والأدباء ، والقالب المعتاد الذي يصبون فيه أفكارهم ، وينشرونها بين الناس .

وليست المقالة غريبة عن الأدب العربي القديم ، وإن تغيرت صيغها وشروطها ، فعمد الحميد الكاتب حين تكلم عن الشطرنج أو الصيد أو الكتابة كان يكتب شيئاً قريباً من المقال ، والفصول الأدبية التي أنشأها الجاحظ في كتبه : البخلاء ، والمحسن والأضداد ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، مقالات مطولة تنقصها شروط المقالة الحديثة ، وإن كان هذا القول لا يرضي بعض النقاد ، بل إنهم لا يوافقون على المقالة الأدبية التي يدبجها الكتاب اليوم إذا قاسوها بمقاييس النقد الأجنبية ، ويتطلبون من المقالة أن تكون « على غير نسق من المنطق ، وأن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الأحراش الحوشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة ، ويحتجون بتعريف ( جونسون ) ومكانته من الأدب الإنجليزي في الذروة العليا للمقالة بـ « أنها نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط

من نظام ، هي قطعة لا تجري على نسق معلوم ، ولم يتم هضمها في نفس كاتبها ، <sup>(١)</sup> ويطبقون هذا القول على المقالة الأدبية في مصر فيرون ألا يكون لها نقط ولا تبويب ولا تنظيم .

وهذا لعمري شرط لا يوافق عليه الأدباء في كل أنحاء العالم ، فقد تغيرت المقالة منذ عهد ( جونسون ) في القرن الثامن عشر حتى اليوم . ومنذ أن قال ( بيكون ) يصف مقالاته : « انها ملاحظات مختصرة كتبت من غير اعتناء » . واشترط النقاد في المقالة شروطاً أخرى غير تلك التي سار عليها ( جونسون أو بيكون ) ورأوا أن الكاتب ملزم بالتفكير فيما يريد أن يكتب قبل أن يتناول القلم ، ثم بالسير في موضوعه سيراً منطقياً متجنباً الفضول ، ومركزاً فكره في النقط الرئيسية ، على أن يكون لموضوعه وحدة تربط بين أجزائه ، وأن يكون واضحاً في تعابيره ، منتخباً لكلماته ، ولأسلوبه طلاقة وعليه جمال . وقد يحتاج المقال إلى مقدمة ، وقد لا يحتاجها ، ولكن لا بد له من نتيجة أو خاتمة ، ولا بد من تنسيق الأفكار ؛ فالأفكار غير المنسقة تدعو إلى اضطراب الكاتب في كتابه ، وعدم فهم القارئ لما يكتب . وليست هذه الشروط - كما يقال سخرية - هي شروط الإنشاء المدرسي ، وشتان بين هذا وبين المقال الأدبي ، فإن الفكرة التي يراد التعبير عنها سواء كانت في نفس طالب مبتدئ أو كاتب نابغ محتاجة إلى الوضوح وإلى التمهيد لها ، ثم إلى عرضها عرضاً جيداً منطقياً يفهمه القارئ بيسر ، لأن تكون مشعثة غامضة تسير في غير اتساق ونظام .. فإن ذلك قد يؤدي إلى عدم فهمها فضلاً عن أنه لا يتفق

---

(١) الدكتور زكي نجيب محمود في مقدمة كتابه أدب المقالة .

مع البلاغة في شيء (١) .

وموضع المقال يتسع لكل شيء في الوجود : من تعبير عن عاطفة أو رغبة أو رحمة أو معرفة أو فكرة . أما أن يقال : إن المقال الأدبي يجب أن يكون وفقاً د على التعبير عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه ، فقد كان شرطاً مرعياً أيام (جونسون) ، وأيام أن كانت المقالة محدودة الغرض ، ولكن سارت المقالة في طريقها شوطاً طويلاً ، واتسع أفقها حتى شملت كل ألوان الحياة إلى أن زُحزحت عن مكانتها بتقدم القصة والأقصوصة . وإن ظلت إلى اليوم لوناً محبوباً من ألوان الأدب .

هذا وقد تكون المقالة :

١ - إخبارية تقص حادثة ما ، أو مجموعة من الحوادث ، وهي حينئذ قريبة من الأقصوصة تتخذ شكلاً قريباً من شكلها ، وفيها ما يثير الشوق ، ويأسر الانتباه ويدعو إلى التفصي والتتبع ، ومن المقالات الإخبارية التراجم .

٢ - وقد تكون وصفاً لحادثة أو شخص أو شيء ، تعطى تقريراً كاملاً تفصيلياً عنه وعن محيطه .

٣ - وقد تكون معرضاً لفكرة وتوضيحاً لها حينما تكون الفكرة

---

(١) راجع Essay Writing And Rhetoric by Egerton Smith طبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩١٣ المقدمة والفصل الاول ،

وراجع مقدمة English Essays by J. H. Lobban

وراجع لائحة من كبار الادباء Modern literary Essays

عامضة ، والموضوع معنوياً . ومهمة العرض أن يفسر لماذا حدث هذا الشيء ، أو كيف يمكن أن يحدث ذاك الشيء . والفرق بين العرض وبين الوصف أن العرض لا يأبه بالتفصيلات ولكن يعنى بالصفات العامة وبالمبادئ ، وبالميزات التي تخص نوعاً ما ؛ وقد تذكر بعض التفاصيل أثناء العرض ، ولكنها لا تحتل المكانة الأولى ، بل تذكر لإيضاح فكرة أو تضرب مثلاً على قانون عام . فقد تصف صورة ما ، ولكن الكلام عن التصوير عرض ، وقد تصف مسجداً ما ، ولكن الكلام عن هندسة المساجد يحتاج إلى عرض .

٤ - وهناك المقالة الجدلية التي تناقش فكرة ما ، وتبين ما بها من خطأ وصواب ، وصدق وكذب . وقد يكون الموضوع عادة سؤالاً يناقشه الكاتب ويحيب عنه بما يراه ؛ كسؤالنا مثلاً عن الحرب وهل هي معقولة ؟ أو عن الكذب وهل ثمة ما يسوغه في الحياة ؟ أنتصدق على الشحاذين ؟

وهذه الصورة هي التي تظهر فيها المقالة في الأدب الغربي<sup>(١)</sup> ، ونرى مثلها في الأدب العربي الحديث لأنها صورة طبيعية يلجأ إليها كل كاتب . وقد بينت لك فيما سبق الفرق بين أسلوب المقالة الأدبية والمقالة الصحفية والمقالة الاجتماعية .

والكلام عن المقالة يدعونا حتماً إلى الكلام عن الصحافة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لأن المقالة لم تظهر إلا في الصحف ، ونحن قد تتبعنا الصحافة في عصر إسماعيل وأوائل عهد توفيق . أما

---

(١) راجع Essay writing, Rhetoric and prosody by Egerton smith  
P, I9-25

الصحافة في عهد الاحتلال فقد تكلمنا آنفاً عن مجله الأستاذ للسيد عبد الله نديم التي أنشئت في سنة ١٨٩٣ ، وكيف كانت حرباً عواناً ، وثاراً مضطربة على الاحتلال ، والأجانب ، ولكن هؤلاء ضاقوا به ذرعاً فأغلقوا جريدته ونفوه من البلاد .

وإذا كان عبد الله نديم قد ترك مصر ، وعطلت جريدته الوطنية الحرة ، فإن الأسباب التي تدعو إلى ظهور مثلها في حرارتها وصدق لهجتها ، ومحاربتها الاستعمار الإنجليزي كانت قائمة ، على الرغم من أن سياسة الإنجليز في أوائل عهد الاحتلال كانت ترمي إلى كم الأفواه ، وقتل الروح الوطنية في نفوس دعاة الحرية ، وإن تظاهروا بأنهم أطلقوا للصحافة العنان وتركوها حرة تقول ما تشاء<sup>(١)</sup> لأن كرومر يمثل الاحتلال بمصر لم يكن يأبه للصحافة وما قد تثيره من سخط وتحت إمرته جيش إنجليزي جائم على صدر الوادي يبطش بكل من تحدته نفسه بالشغب . على أن الصحافة في رأي كرومر كانت من الهوان والضعف بدرجته لا تدعوه إلى القلق والاضطراب ؛ وإذا بدر من إحدى الصحف ما يسيء إلى الإنجليز أو يشوه سمعتهم بمصر عاجلوها بالتمطيل . ولقد مر بك كيف حاربوا مجلة العروة الوثقى ومنعوها من دخول مصر ، وعطلوا

---

(١) وفي ذلك يقول جورج يونج G. Young في كتابه مصر Egypt مشيراً إلى تقرير اللورد ( دفرين ) ونصحه لسلطة الاحتلال بمصر أن ترخي العنان للصحافة ، وأن نصيحته قد وجدت أذناً صاغية حتى « أهل قانون سنة ١٨٨١ إجمالاً قلما ؛ ونالت مصر حرية صحفية لا عهد لشمال أفريقية أو غرب آسيا بها » انظر ص 178 - 180



جريدة الأهرام شهراً<sup>(١)</sup> لتنديدها بالسياسة الإنجليزية في سنة ١٨٨٤ ،  
وتبسط يد الاستعمار بكثير من الجرائد لأتفه الأسباب فتعطل جريدة  
الوطن مع أنها موالية لهم ، وتلغي الزمان ، ومرآة الشرق لأنها من  
محاربي الاحتلال .

وتاريخ الصحافة في هذه الحقبة متأثر بعدة عوامل .

١ - فترتها كانت - على الرغم من ضعفها ، وإذعانها للأمر الواقع في  
مصر - تحاول إثارة النفوس ضد الاحتلال الإنجليزي ، ضناً بمصر الغنية  
أن قفلت من يدها إلى الأبد . وكان كثير من المصريين يدين لتركيا بالولاء ،  
وهو ولاء ديني مبعثه وجود الخلافة العثمانية ، والمسلمون مكلفون شرعاً  
بطاعة الخليفة ، وكانت هذه النزعة تتملك قلوب الجماهير الغالبة من المصريين  
وبعض السوريين المقيمين بها . وقد ظهر من الجرائد التي تحمل لواء هذه  
السياسة وتنفث الحمم ملتهباً ، والسهم ناقعاً ضد الإنجليز وسياستهم  
الاستعمارية جريدة ( المؤيد ) ، ثم جريدة ( اللواء ) .

وهناك الاحتلال البريطاني ، وهو احتلال تديره سياسة مخنكة يصفها  
اللورد كرومر بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على  
قواعد التبصر والحكمة ، ويجب أن تكون أصول أحكامنا - التي هي  
الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة في حكمنا ، من حيث الاعتبار  
السياسي والاقتصادي والأدبي - قواعد صحيحة سليمة منزهة عن الشائبة

---

(١) كانت جريدة الأهرام في ذلك الوقت تحارب الإنجليز لأنها كانت تعمل لحساب  
الفرنسيين ، في ذلك تقول جريدة الشعب ( ٨ مايو ١٩١٢ ) تصف الأهرام وسياستها : « إن  
سياستها عثمانية مصرية تدافع عن مصالح فرنسا في مصر سواء كانت اقتصادية أو  
سياسية وأحياناً تشدد في نقدها كأكثر الصحف الوطنية تطرفاً » .

والنقص . هذا هو حجر الزاوية في بناء الإمبراطورية . إن المبرر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جلياً في حسن التصرف بما في أيدي هذه الإمبراطورية من القوى <sup>(١)</sup> . وأراد الاحتلال أن يحمث نفوذ تركيا من الأساس ، ويقتلع من النفوس هذا الولاء ، وقد استطاع أن يحد لسياسته هذه أنصاراً ومؤيدين وأن يحمذب قلوباً عزيزة المنال تدافع عنه أو تسكت عن مخازيه . ووجد الاستعمار أنصاره بين بعض السوريين المسيحيين الناقمين على تركيا استبدادها وغلظتها وسوء تصرفها معهم في ديارهم ، وتفريقها بين عناصر الأمة ، فرأوا في الإنجليز من يحميمهم ويعطف عليهم ، فأنشئوا جريدة المقطم <sup>(٢)</sup> تشيد بسياستهم ، وتلهج بأعمالهم ، وقد صرح أصحابها بأن غرضهم السياسي من تأسيسها معلوم ظاهر في كل صفحة من صفحاتها ، وهو تأييد السياسة الإنجليزية التي لولها ما كان في الشرق بلد يستطيع أحد أن يعيش فيه ويحاهر بآرائه وأقواله <sup>(٣)</sup> ، ومن هؤلاء الذين شرعوا أقلامهم في محاربة الترك وتأييد الإنجليز سليم سركيس صاحب جريدة (المشير) ويقول من مقالة ، بعنوان ( هل مصر عثمانية ؟ ) <sup>(٤)</sup> : « لم أجد في حياتي ، ولا قرأت في مطالعاتي عن أمة تريد الانتقال من الاستقلال إلى ظلمات العبودية إلا هذا القسم من الأمة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني » . ومن شعره في التنديد بظلم الأتراك قوله <sup>(٥)</sup> :

(١) حاضرم العالم الإسلامي ج ٤ ص ١٠ .

(٢) ١٤ فبراير سنة ١٨٨٩ .

(٣) مجلة الجامعة لفرح أنطون ج ١ ص ٨٢ .

(٤) المشير عدد ١٠٣ .

(٥) العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث لأنيس المقدسي ص ٨ .

نرجو صلاح الترك قد      خابت أمانينا الكواذب  
هي دولة ظلمت وليس ال      عدل عن ظلم بذاهب  
فأنشد معي قولا ترد      ده المشاوق والمغارب  
ليس العجيبة فقد ها      بل عيشها إحدى العجائب

وقد وجد الإنجليز بجانب هؤلاء أقلاماً أخرى تناصرهم لنفورهم من الظلم التركي مثل ولي الدين يكن ، مع أنه كان تركيا صميماً لا ينبغي بتركيا بديلاً ، ولكنه كان يحب الإنجليز لحمايتهم - فيما يزعم - الأحرار . وقد مر بك كيف اجتذبوا إليهم الشيخ محمد عبده وإن لم يكن من صنائعهم ، ولكنه كان من المحتمين بهم المستظلين بظلمهم ، كما استطاعوا أن يطفئوا تلك النار الملتهبة التي يصبها عليهم الشيخ علي يوسف وشيعته في المؤيد ، وأن يسكتوا تلك الأقلام القوية التي تصور في جرأة وقوة فظائعهم وتملأ القلوب إحناً وبغضاء عليهم<sup>(١)</sup> ، ولكن لم يستطيعوا مع كل هذا أن يجعلوا من المؤيد بوقاً يدعو لهم وسنعود إليه بعد قليل .

وبذلك انقسمت الصحافة قسمين : قسماً يشايح تركيا - وفي الغالب

---

(١) وقد قال في هذا التعبير حسين شفيق المصري صاحب ( المباحث السياسية ) : « المؤيد الذي يقرأ الآن غير المؤيد الذي كان المصريون يحبونه والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد الحاضر غير الشيخ علي يوسف الذي حمل على الأعناق بعد حكم قضية التلغراف المشهورة فقد تغيرت الحال مع الصحافة وصاحبها ، والبون بعيد عن اجتماع الوطنيين لتوقيع أم الصحف وأبي الصحفيين وبين اجتماعهم للنداء بإسقاطها في الحضيض الأسفل ، وليس الإقرار بهذه الحقيقة من الأمور التي تسر الوطنيين ، راجع تاريخ الصحافة العربية ( للفيكونت فيليب دي طرازي ) ج ٣ ص ٣٨ .

يدعو للخديو ويناوئء الإنجليز ، ويندد بالاستعمار إما مدفوعاً بالولاء الديني ، أو بالكراهة للإنجليز أو بتحريض دولة أجنبية مثل الأهرام وفرنسا . وقسماً يدافع عن الإنجليز ويذيع مساوئ العهد التركي ، ويترنم بنعمة الاحتلال ، وينتقص المصريين وعلى رأسهم الخديو ، ويتمثل في جريدة المقطم وفي بعض الأفلام التي فتنها بريق الحرية الكاذبة التي لوح بها الإنجليز .

وأكبر ظاهرة تستحق منا العناية قبل أن نفرغ من هذا الجزء ظهور جريدتين إسلاميتين كان لهما شأن عظيم في تاريخ مصر ، وفي توجيه الحركة والإصلاح الاجتماعي وقد أشرنا إليهما فيما سبق إشارات عابرة ولكن سنخصص المؤيد هنا بكلمة ؛ لأن الصحافة اليومية المشهورة بمصر كانت إلى ظهور المؤيد واللواء سورية تتحكم فيها نزعات وأهواء متباينة ، أما اللواء فله شأن آخر وموعداً به في الأجزاء التالية إن شاء الله ؛ لأنه أنشئ في السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والكلام عنه يطول .

### المؤيد:

والفضل في ظهور المؤيد يرجع الى سياسة الإنجليز واصطناعهم أصحاب المقطم ؛ فإن هذا أثار حفيظة الوطنيين ، فتقدم الشيخ علي يوسف (١)

---

(١) الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، ولد بقرية بلصفورة بمدينة جرجا سنة ١٨٦٣ من أسرة شريفة أخنى عليها الدهر ، ودرس في الأزهر مدة إلا أن ميته الأدبي صرفه عن إتمام دروسه به ، وأنشأ في سنة ١٨٨٧ ( مجلة الآداب ) أسبوعية في ثمانى صفحات ، ولكنها اهتمت بالدراسات القديمة ، وحررت بأسلوب يعطو طل جمهرة القراء ، فتمتعت في خروجها ، ثم أسس جريدة المؤيد في أول ديسمبر سنة

صاحب مجلة الآداب لإخراج المؤيد جريدة وطنية مصرية وشجعه رياض باشا وكثير من زعماء مصر<sup>(١)</sup> ، وغدت المؤيد ميداناً تتألق فيه الأقلام الوطنية الجريئة تثيرها حرباً شعواء على الإستعمار الإنجليزي ، وعلى الأجانب الذين يناصرونهم ، ونازلت المقطم نزلاً عنيفاً مرأً ، فما لبثت أن راجت حتى صارت أقوى جريدة عربية في الشرق العربي كله . وفسحت صدرها لمصطفى كامل ولقطة صالحة من كتاب الشباب ، وتلاميذ جمال الدين ومحمد عبده<sup>(٢)</sup> وعنيت بالمسائل الوطنية في جميع نواحيها ، وبالأمر الإسلامي . ولم يستطع الإنجليز أن يعطلوها كما عطلوا الأستاذ لعبد الله نديم لقوتها وكثرة قرائها ، ولكن تمكنوا بعد مدة من استمالة الشيخ علي يوسف إليهم ، ولعل صحبته لمحمد عبده قد أثرت فيه فنهج منهجه في مسألتهم .

لقد كانت المؤيد أمل المصريين ومدرسة تخرج فيها عدد كبير ممن

١٨٨٩ ، فكانت أول جريدة مصرية يومية كبيرة ، وراجت رواجاً عظيماً . وفي سنة ١٩١٣ أسندت للشيخ علي يوسف مشيخة السادة الوقائية ، فاستقال من جريدته ، ومات بعد ذلك في سنة ١٩١٣ وكان الشيخ ( علي ) قوي العزم أديباً متلماً وقد أثار زواجه من بنت السيد عبد الحالق السادات ضجة عظيمة لأن السيد عبد الحالق عده دونه في الحسب والنسب ، وشغلت الصحف بذلك وقتاً طويلاً ، وقد رمي بالتمصب الديني «ولكنها تهمة يشيعها من لم يفهموا سياسة ذاك الوقت والعوامل التي حركت الصحافة والدوافع التي جعلت من بعض المسلمين متعصبين وسنخصه بترجمة مطولة في أحد الأجزاء التالية إن شاء الله . على أننا ترجمنا له ترجمة وافية بمجلة الكتاب عدد يولييه ١٩٤٨ وفي كتابنا ( دراسات أدبية ) .

(١) راجع تطور الصحافة لإبراهيم عبده ص ١٥٢ .

(٢) من كتاب المؤيد المشهورين يحنف صاحبه : جميل مدرر وعبد الحميد الزهراوي ، والشيخ عبد القادر المغربي ، ومحمد كرد علي ، ومحب الدين الخطيب ، والمفتلوطي ، وحافظ عوض ، ومحمد أبو شادي ، وإمام العبد ، وسليمان فوزي ( صاحب الكشكول ) .

قادوا الأمة في الصحافة بعد ذلك . وكانت غنية منتشرة في العالم الإسلامي كله ، وهي أول جريدة استعملت مطبعة كهربية في الشرق وقد احتلت منزلة في نفوس الناس حتى أعترف لها بهذه المكانة العدو والصديق ، ولذلك عز على المصريين وقوفها موقفاً سليماً من الاستعمار الإنجليزي بعد أن كانت من أكبر خصومه ، وإن لم تفقد قراءها ؛ لسابق فضلها وقوة تحريرها ، ولسياستها الإسلامية ، ولحسن الدعاية لها . وفي المؤيد وصاحبه يقول حافظ إبراهيم حين أخرج المؤيد في ثماني صفحات سنة ١٩٠٦ .

أحييت ميت رجائنا بصحيفة      أنقذ عليها اشرق والإسلام  
أضحت مصلى للهداية عندما      سجدت برحب فنائها الأقلام  
فعلى مؤيدك الجديد تحية      وعلى مؤيدك القديم سلام

ويقول ولي الدين يكن عنه :

« الشيخ علي يوسف سهل التأليف ، شديد المضاء ، هو في بيانه أقرب إلى العامة منه إلى الخاصة ، إذا غالب غلب بصورته دون روحه ، صحافي محنك . وليست الكتابة من عمله .

كأنما يراعه سوطه يضرب إن جَدُّ ولا يكتب

لاندع المعجمة أسلوبه فليس في أسلوبه معرب

ولملك أدركت أن ولي الدين ليس ممن يحبون الشيخ ، وقد كانا على طرفي نقيض في سياستها كما مر بك .

وفيه قال يوسف البستاني : ( أنظر إليه بعين الصحافي فأراه عظيم  
لبراعة في تقليب البراعة وشديد الحصافة في ميدان الصحافة ، ولو  
وجد قلبه من عواطفه دعامة لرفعه بيننا إلى مقام الزعامة . ولقد زاد  
فضله أنه من الطبقة العصامية وجهال اللغات الأجنبية ، <sup>(١)</sup> .

ويقول تشارلز آدمز : أما الشيخ علي يوسف فقد كان صحافياً ماهراً  
له دهاء يشوبه المكر أحياناً ، وقد رفع المؤيد إلى مقام الصدارة في  
العالم العربي ، <sup>(٢)</sup> .

وحسبنا هذه الكلمة الموجزة عن الصحافة في أخريات القرن التاسع  
عشر ولنا إليها عودة في الأجزاء التالية إن شاء الله ؟ لان كثيراً من  
الصحف التي ظهرت في هذه الحقبة ازدهرت ونمت في القرن العشرين ،  
وتأثرت بعوامل سياسية واجتماعية كانت وليدة أحداث ظهرت في أوائل  
هذا القرن .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية - الفيكونت فيليب دي طرازي ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) الإسلام والتجديد تعريب عباس محمود ص ٢١٧ .





## المراجع

- إبراهيم عبده . . . : ١ - تطور الصحافة المصرية  
٢ - أعلام الصحافة  
إبن إلياس الجرکسي . . . : بدائع الزهور في وقائع الدهور  
أحمد أمين . . . . : ١ - قصة الفلسفة الحديثة جزآن  
٢ - فجع الإسلام  
٣ - مجلة الثقافة مقالات عن زعماء الإصلاح  
الاجتماعي  
أحمد تيمور . . . . : أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن  
الرابع عشر  
أحمد سمير . . . . : سلافة النديم  
أحمد صبري . . . . : مجلة الأنصار  
أحمد عرابي . . . . : كشف الستار ( مخطوط بدار الكتب رقم  
١٥٤٢ ) ومنه جزء مطبوع بمطبعة مصر .  
أحمد فارس الشدياق . . . : منتخبات الجوائب  
أحمد الإسكندري وآخرون : ١ - المنتخب  
٢ - المفصل :

- إسماعيل أدم : . . . : توفيق الحكيم الفنان الحائر
- الجود ( P, G Elgood ) : . . . : The Transit of Egypt
- إلياس الأيوبي : . . . : تاريخ مصر في عهد إسماعيل ( جزءان )
- أمين باشا سامي : . . . : تقويم النيل - الجزء الثاني والثالث
- أنيس المقدسي : . . . : العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث
- برت ( C. Burt ) : . . . : كيف يعمل العقل ، الجزء الثاني ، ترجمة محمد خلف الله
- برودلي ( M. Broadley ) : . . . : How We defended Arabi
- بروكلمان ( Carl Brockelmann ) : . . . : Geschichte der arabischen litterature
- ملحق الجزء الثاني
- ( A. G, Borwne ) : . . . : The Persian Revolution
- بطرس البستاني : . . . : أدباء العرب ، الجزء الثالث
- بلنت : . . . : التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر . ترجمة البلاغ
- تشارلتن : . . . : فنون الأدب ، تعريب زكي نجيب محمود
- تشارلس آدم : . . . : الإسلام والتجديد ، ترجمة عباس محمود
- توفيق الحكيم : . . . : ١ - تحت شمس الفكر
- ٢ - مقالة في مجلة أخبار اليوم ١٩٤٨/٣/٢٨
- جالك تاجر : . . . : حركة الترجمة بمصر
- جب H. R. Gibb : . . . : Bulletin of the School of Oriental Studies.
- الجهري ( الشيخ عبدالرحمن ) : . . . : عجائب الآثار في التراجم والأخبار
- جميل صليبا : . . . : ابن خلدون - منتخبات

|                            |   |                                                |
|----------------------------|---|------------------------------------------------|
| جورجي زيدان . . .          | : | ١ - تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع      |
| جوما ر . . .               | : | ٢ - تراجم مشاهير الشرق جزءان                   |
| حسن قويدر . . .            | : | Journal Asiatique عدد أغسطس ١٨٢٨               |
| حسين المرصفي . . .         | : | نيل الأرب في مثلثات العرب                      |
| خليل مطران . . .           | : | الوسيلة الأدبية                                |
| رفاعة الطهطاوي . . .       | : | المقتطف إبريل ١٩٣٣                             |
|                            | : | (أ) تلخيص الأبريز في تلخيص باريز               |
|                            | : | (ب) مناهج الألباب                              |
|                            | : | (ج) المرشد الأمين                              |
|                            | : | (د) مواقع الأفلاك                              |
| روتشتين - تيودور . . .     | : | تاريخ المسألة المصرية ترجمة، عبد الحميد البادي |
| رينان (Renan) . . .        | : | Histoire Général et Système                    |
|                            | : | Comparé des Langues Semitiques                 |
| زكي نجيب محمود . . .       | : | ١ - قصة الفلسفة الحديثة جزءان                  |
|                            | : | ٢ - مقدمة كتاب أدب المقالة                     |
| ستودراد . . .              | : | حاضر العالم الإسلامي أربعة أجزاء ترجمة         |
|                            | : | عجاج نويهض                                     |
| سليم خليل نقاش . . .       | : | مصر للمصريين                                   |
| سليم سرغيس . . .           | : | جريدة المشير                                   |
| سميث (Egerton Smith) . . . | : | Essay writing and Rhetoric                     |
| شو (G. B. Shaw) . . .      | : | The Intelligent Woman s Guide                  |
| شكيب أرسلان . . .          | : | ١ - تعليقات على هامش حاضر العالم الإسلامي      |
|                            | : | ٢ - مقدمة النقد التحليلي لكتاب في الأدب        |
|                            | : | الجاهلي                                        |



|                          |                                                                       |
|--------------------------|-----------------------------------------------------------------------|
| فون فسينديك . . . :      | ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي ، ترجمة محمد عبدالله عنان               |
| فيليب دي طرازي . . . :   | الصحافة العربية - أربعة أجزاء                                         |
| قدري طوقان . . . :       | جمال الدين آراؤه وأثره - محاضرة                                       |
| كلوت بك . . . . :        | لمحة عامة إلى مصر                                                     |
| لوبان J. H. Lobban ;     | English Essay                                                         |
| لويس شيخو . . . . :      | ( أ ) تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر جزءان ( ب ) مجلة الشرق |
| مارون عبود . . . . :     | مجلة الكتاب فبراير ١٩٤٨                                               |
| محمد بهجت الأثري . . . : | أعلام العراق                                                          |
| محمد حسين هيكل . . . :   | مقدمة لديوان البارودي                                                 |
| محمد الحضري . . . . :    | محاضرات في التاريخ الإسلامي ( الدولة العباسية )                       |
| محمد خلف الله . . . . :  | من الوجهة النفسية في دراسة الأدب                                      |
| محمد رشيد رضا . . . . :  | ( أ ) تاريخ الأستاذ الإمام - ثلاثة أجزاء ( ب ) المنار                 |
| محمد صبري . . . . :      | La Genèse de l'Esprit National Egyptian                               |
| محمد صبيح . . . . :      | محمد عبده ( كتاب الشهر )                                              |
| محمد عبده . . . . :      | ١ - الوقائع المصرية                                                   |
|                          | ٢ - مجلة العروة الوثقى                                                |
| محمد عثمان جلال . . . :  | العيون اليواقظ                                                        |
| محمد الغمراوي . . . . :  | النقد التحليلي لكتاب في الأدب الحاملي                                 |
| محمد كرد علي . . . . :   | خطط الشام - الجزء السادس                                              |

|                       |   |                                |
|-----------------------|---|--------------------------------|
| محمد المخزومي . . .   | : | خاطرات                         |
| محمود سامي البارودي   | : | الديوان                        |
| محمود صفوت الساعاتي   | : | الديوان                        |
| محمود الحنيف . . .    | : | أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه |
| مصطفى لطفي المنفلوطي  | : | ١ - مختارات المنفلوطي          |
|                       | : | ٢ - ترجمة للساعاتي في الديوان  |
| ميخائيل شاروويم . . . | : | الكافي في تاريخ مصر            |
| نجيب العقيلي . . .    | : | المستشرقون                     |
| يونس ( G. Young )     | : | Egypt                          |

## فهرست

| صفحة     |                                                                         |
|----------|-------------------------------------------------------------------------|
| ٥        | مقدمة الطبعة الأولى                                                     |
| ١٣       | مقدمة الطبعة السادسة                                                    |
| ٨٧ - ١٥  | الفصل الأول - البعث                                                     |
|          | البعث ٢١ - البعثات ٢٥ - الترجمة ٣٠ - رفاة الطهطاوي ٣١ -                 |
|          | أعماله بعد عودته ٣٧ - رفاة والقانون ٤٣ - رفاة والمرأة ٤٣ -              |
|          | وفاته ٤٤ - صفاته ٤٥ - الطباعة والصحافة ٥١ - الصحافة ٥٤ -                |
|          | الأدب في عهد محمد علي ٥٩ - الشيخ حسن المطار ٥٩ - الشيخ حسن              |
|          | قويدر ٦٢ - السيد علي الدرويش ٦٥ - المعلم بطرس كرامة ٦٨ -                |
|          | الشيخ ناصيف اليازجي ٧٠ - الشهاب الألوسي ٧٥ - التأليف في                 |
|          | عصر محمد علي ٨١ .                                                       |
| ١٥٣ - ٨٩ | الفصل الثاني - النهضة                                                   |
|          | التعليم ٩٠ - الجمعيات العلمية ٩٥ - الصحافة ٩٩ - أحمد فارس الشدياق ١٠٠ - |
|          | مجلة اليعسوب ١١٢ - مجلّة وضة المدارس ١١٢ - أديب إسحق ١١٧ -              |
|          | الطباعة ١٣٢ - الترجمة والتأليف ١٣٣ - محمد عثمان جلال ١٣٥ -              |
|          | النهضة في بلاد الشام ١٤٨ .                                              |

السيد علي أبو النصر ١٥٩ - الشيخ علي الليثي ١٦٤ - محمود صفوت  
الساعاتي ١٧٠ - عبدالله فكري ١٨٥ - السيد عبدالله الألوسي ٢٠٤ -  
حسين بيهم ٢٠٥ .

محمود البارودي ٢١٢ - حياته ٢١٢ - أخلاقه ٢٢٥ - ثقافته ٢٣١ -  
شعره ٢٣٤ - القديم في شعره ٢٤٠ - الجديد في شعره ٢٤٨ -  
الوصف ٢٤٨ - الشعر السياسي ٢٦٢ - النسيب ٢٧٧ - الهجاء  
٢٧٨ - المخترعات الحديثة ٢٨٣ - نظرة عامة ٢٨٤ - الرثاء ٢٨٥ -  
المدح ٢٨٩ - فخره ٢٩١ - الزهد ٢٩٢ - الحكمة ٢٩٤ - هنات  
٢٩٥ - منزلته ٢٩٩ .

موضوعاته ٣٠٤ - مميزاته ٣٢٤ - جمال الدين الأفغاني ٣٢٨ - أثره  
بمصر ٣٣٥ - جمال الدين والثورة ٣٣٨ - جريدة العروة الوثقى  
٣٤١ - عود إلى الرحلة ٣٤٢ - خاتمة المطاف ٣٤٤ - نبذة من آرائه  
٣٤٥ - أسلوبه في الكتابة ٣٤٩ - الشيخ محمد عبده ٣٥٢ - في الأزهر  
٣٥٦ - محرر الوقائع المصرية ٣٦٢ - محمد عبده والثورة ٣٦٤ - بعد  
الثورة ٣٦٨ - بعد العودة من المنفى ٣٧٠ - إصلاح الأزهر ٣٧٢ -  
وفاته ٣٧٨ - أثره في النثر ٣٧٩ - عبد الله نديم ٣٨٧ - دراسته  
وتجاربه ٣٨٨ - آثاره وأثره ٤٠٤ - أسلوبه ٤١٦ - منزلته ٤٢٤ -  
أحمد عرابي ٤٢٧ - نشأته وشخصيته ٤٢٨ - عرابي الخطيب الزعيم  
٤٣٣ - محكمته ٤٤٢ .



- الترجمة والتأليف ٤٥٠ - المستشرقون ٤٦٨ - الجمعيات الآسيوية  
 ٤٧٣ - المؤتمرات ٤٧٣ - المكتبات ٤٧٤ - معاهد اللغات الشرقية  
 ٤٧٥ - أشهر المستشرقين ٤٧٥ - أثر المستشرقين ٤٨٥ - أثر  
 الاتصال بالأدب الأجنبي ٤٩٠ - القصة ٤٩٢ - السبب في عدم  
 اهتمام العرب بالقصة ٤٩٤ - المقالة والصحافة ٥١٤ المراجع ٥٢٧ .



## للمؤلف

### ١ - إخوان الصفاء :

دراسة تاريخية أدبية فلسفية ، تكشف السر عن جماعتهم ونظمها ، وعن فلسفتهم مع مناقشة علمية لكل ما كتب عنهم ، والوصول إلى الحقيقة في أمرهم .

### ٢ - النابغة الذبياني :

ترجمة مستفيضة مع تصوير شامل للبيئة العربية في العصر الجاهلي ، وتطور اللغة العربية إلى عصر النابغة ودراسة لديوانه وطبعاته ، وشعره مع تحليل ونقد وموازنة .

### ٣ - الفتوة عند العرب :

أول كتاب في اللغة العربية في موضوعه ، ودراسة تحليلية عميقة جامعية لأبجد الأمة العربية ، وتاريخ الفتوة منذ نشأة العرب حتى عصر المماليك ، مع موازنة واسعة بين فتوة العرب وفروسية الغرب وصور جذابة تاريخية لشق ضروري للفتوة في أسلوب قصصي رائع .

### ٤ - محمود سامي البارودي :

من سلسلة نوابغ الفكر العربي وهي دراسة ممتازة مركزة لعصره وحياته وشعره مع عشرات القصائد المشروحة شرحاً ضافياً .

### ٥ - المسرحية :

أول كتاب في اللغة العربية يدرس فن المسرحية ، دراسة علمية جامعة عميقة ، ويتتبع نشأتها حتى عصرنا الحاضر ، ويفصل أنواعها ويدرس كلّا منها ، ويفصل الأسس والأصول التي تبنى عليها المسرحية ، ويختتم البحث بتطبيق نقدي على رواية مجنون ليلى لشوقي .



## ٦ - في الأدب الحديث ( الجزء الثاني ) :

دراسة شاملة عميقة لأهم العوامل الفعالة في الشعر الحديث بعد البارودي ، كاثار الثقافة الأجنبية والنهضة الوطنية ، والنقد الأدبي الحديث ومذاهبه ، والمدارس الشعرية بمصر . ثم ترجمة مستفيضة لبعض أعلام المدرسة الاتباعية الحديثة من الشعراء .

## ٧ - دراسات أدبية ( الجزء الأول ) :

يحتوي على أربعة عشر بحثاً في صميم الأدب الحديث . ويلقي أضواء مركزة على مشكلات أدبية هامة ، -أدب القصة وواقعية الأدب ، والاستعمار الثقافي . كما يفحص عن نواحي تميز بها بعض الشعراء المعاصرين في دقة وتحليل .

## ٨ - لغتنا القومية :

دراسة واسعة لنشأة اللغة العربية والصراع بين العامية والفصحى ، ودفاع عن الفصحى ضد التيارات الكثيرة . والكلام على اللغة المشتركة .

## ٩ - نشأة النثر الحديث وتطوره ( الجزء الأول ) :

يتناول بدراسة تفصيلية نشأة النثر الحديث وكبار أعلامه وبلور المقالة وأنواعها إلى نهاية القرن التاسع عشر .

## ١٠ - خريدة القصر للعماد الأصبهاني القسم الرابع (بالاشتراك) - الجزء الأول

نشر وتحقيق وتقديم ويشمل هذا القسم الشعر في صقلية والأندلس مع ترجمة وافية للأعلام التي وردت به .

## ١١ - إظهار الحق للسيد رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي :

نشر وتحقيق مع تعريف بأهم الأعلام التي وردت به ، وتقديم له ، و ترجمة النصوص الفارسية .



Mngool.com

# في الأدب الحديث

تأليف  
عمر الدسوقي

استاذ الأدب ، ورئيس قسم الدراسات الأدبية  
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المجلد الثاني

المشرف البارودي

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

|      |               |   |
|------|---------------|---|
| ١٩٥٠ | الطبعة الأولى |   |
| ١٩٥٤ | الثانية       | » |
| ١٩٥٩ | الثالثة       | » |
| ١٩٦١ | الرابعة       | » |
| ١٩٦٤ | الخامسة       | » |
| ١٩٦٧ | السادسة       | » |
| ١٩٧٣ |               | » |



# بسم الله الرحمن الرحيم وبنتيغين

## مقدمة الطبعة الأولى

إن الحقبة التي تؤرخ لها في هذا الجزء من كتاب « الأدب الحديث » حقبة غنية بمن ظهر فيها من الأدباء والكتاب والشعراء ، وفيها عظم اتصال الشرق بالغرب ، وكثر النقل والتعريب من الأدب الغربي ثراً وشعراً . وزادت المدارس الأجنبية على اختلاف لغاتها بمصر ، وعظم نفوذ الإنجليز بها إبان الاحتلال ، وفرضوا لغتهم على المدارس فحذقها التلاميذ وعرفوا كثيراً من آثارها الأدبية .

وأتت نهضة مصر في القرن التاسع عشر بعض ثمارها الشهية ، فكثر المطبوع والمقروء من الأدب العربي ، وتنبه الناس بمصر إلى أن ثمة آداباً أرقى مما عرفوا في مستهل ذلك القرن . وقد ضرب البارودي نموذجاً حياً قوياً بمحاكاته لأساليب فحول شعراء العربية ، ونهض جمال الدين الأفغاني وتلاميذه : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبدالله نديم ، واللقاني ، والمويلحي بالنشر نهضة قوية ، وحرروه من قيوده التي كبت بها طويلاً ، وسخروه لخدمة المجتمع المصري .

وأذكرى الاحتلال الإنجليزي ، وما جلبه من ذلة وبغي نار الحماسة الوطنية في قلوب الصفوة الممتازة من أبناء الأمة ، فشنوها حرباً شعواء لا هوادة فيها على المستعمر الغاصب ، وكان عمادهم الخطابة الصريحة الجريئة ، والكتابة الملتهبة القوية ، يقودهم مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويز ، وعلي يوسف ، وأضرابهم ، على المنابر تارة ، وفي الصحف تارة أخرى .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ، واصطلى العالم بسعيرها أربع سنوات كاملة ، وما أن وضعت الحرب أوزارها ، واستراح الناس من ويلاتها ، حتى هبت الشعوب

المغلوبة تطالب بحقوقها في ثورات عنيفة بمصر وأيرلندا وغيرها ؛ وخلفت الحرب آثاراً كثيرة بمصر تتمثل في الغلاء الذي يزرع تحت وطأته جمهرة بينها ، وفي شدة الإقبال على المدينة العربية بخيرها وشرها ، وفي نضج الفكرة القومية وتحديد أهداف البلاد .. إلى آخر ما هنالك من آثار كان لها في الأدب شأن عظيم .

ومن العسير علينا أن نلم في هذا الجزء بكل ألوان الأدب شعراً ونثراً ، بجميع البلاد العربية ، فالدراسة المنتجة هي التي تتناول موضوعاً خاصاً ، في بلد بعينه ، وتوفيه حقه من البحث ، وقد آثرت أن أقصر هذا الجزء على : « الشعر بمصر بعد البارودي » .

وموضوع الشعر بمصر ليس موضوعاً هيناً ، فمنذ أن ظهر البارودي بزعامته القوية ، ومصر تقود الطريق في هذا الميدان ، يتلفف الراهة شاعر بعد شاعر ، وتباين تأثرهم بالثقافة الغربية قوة وضعفاً ، كما تباين حظهم في تقليد الأدب العربي القديم ؛ ولذلك تعددت مدارسهم ، وتنوعت موضوعاتهم ، وغزر نتاجهم . وصار الدارس للشعر في العصر الحديث لا يجد أمامه مندوحة من العكوف على بيئة خاصة ، يتعرف فيها على التيارات المختلفة التي أثرت في الشعر وعملت على تعدد مذاهبه وألوانه ؛ وبذلك يكون قد أدى بعض ما يجب عليه نحو عصره وبيئته .

وإذا كنت قد اكتفيت بالكلام على الشعر في مصر بعد البارودي ، فليس ذلك إهمالاً أو إغفالاً لشعراء العربية في الأقطار الشقيقة ، وقد نبغ منهم فحول زينوا عصرهم وخلدوا أسماءهم ، ورفعوا ذكر بلادهم من أمثال : الزهاوي ، والرصافي ، والشيبيني بالعراق ، وبشارة الخوري ، وشبلي الملائط ، وإلياس أبي شبكة ، وأنور العطار ، وعمر أبي ريشة ، وسعيد عقل بسوريا ولبنان .

ولكن التعرض لشعراء العربية في مختلف بيئاتهم إن تيسر لنا أداؤه فلن يكون ذلك دفعة واحدة وفي كتاب واحد ، وإلا جاء ناقصاً مبتوراً لا قيمة له ، ولا جدوى منه ؛ إذ سيكون عرضاً خاطفاً لا عمق فيه ، ولا تحليل ولا موازنة . وليس ذلك هدفنا من دراسة الأدب الحديث ، بل إننا نقصد إلى تحديد معالمه ، وتعرف مدارسها والفحص عن العوامل المتباينة التي شكلته وأهمته وأثرت فيه . ولا يتأتى هذا إلا

بالتخصص في الدراسة ، ولا سيما إذا شغفت بتراجم وافية لكبار الشعراء •

ولذلك رأيت من الخير لنفسي وللأدب الحديث أن أتكلم عن الشعر في مصر ، ولعل من أبناء العروبة من يتطوع لدراسة الشعر في العراق ، وآخر في الشام ، فيعطينا فكرة قوية واضحة ، وبحثاً مستفيضاً عن بيئته ومجتمعه وألوان الشعر ثمة • فالبلاد العربية على الرغم من اتحاد اللغة والاشتراك في الآمال والأمانى والتاريخ والدين تتباين في كثير من الأمور : في طبيعة أرضها واختلاف مناظرها ، والعوامل السياسية والاقتصادية التي طرأت عليها ، وحظها من الاتصال بالحضارة الغربية ، ونهضتها التعليمية والأدبية ، وفي مجتمعاتها ••• إلى غير ذلك • وليس الأدب إلا صورة من البيئة التي نبت فيها ، وأوحت به ، ولو كان أدباً عالمياً تتجذب إليه كل نفس ، ويهفو إليه كل عقل •

وإذا كنت قد سلكت في الجزء الأول من « الأدب الحديث » غير هذه الطريق فذلك لأن جمهرة الأدباء من شعراء وكتاب كانوا من أتباع المدرسة التقليدية ، لم يتميز أحدهم عن الآخر إلا في الأداء ، وقد تشابهوا موضوعاً وصوراً • وليس الحال كذلك اليوم بعد أن خطونا في نهضتنا شوطاً طويلاً ، وعظم اتصالنا بالثقافة الغربية والأخذ منها •

ورأيت لزماً عليّ قبل أن أخوض في موضوع الشعر أن ألقى نظرة فاحصة إلى المجتمع المصري ، ومدى تأثره بالثقافة الغربية التي وفدت إلينا وتأثرت بها ، من إبداعية ( رومانتكية ) ، وواقعية ورمزية وسواها • وخصائص كل مدرسة في الأدب الغربي ، وكيف طبقها شعراؤنا على أدبنا ، وإلى أي حد اقتبسوا منها ، ومدى تمسكهم بالأدب العربي القديم أسلوباً ، وقالباً وموضوعاً •

ثم أتحدث بعد هذا عن المدارس الشعرية في مصر : من محافظة مقلدة ، ومجددة محترسة في تجديدها تجمع بين القديم والجديد ، إلى مجددة متبرمة بالأدب القديم ، إلى أخرى نائرة غارقة في التجديد ، خارجة على كل ما يمت إلى القديم بصلة •

وهذا يتطلب مني الترجمة لكبار شعراء كل مدرسة ، ودراسة آثارهم ، ومعرفة خصائصهم ، وهو عمل ضخم أرجو الله أن يعينني على إنجازه وإتقانه •

لقد قد النقد المفكرون بمصر الشعر ، وتكلموا عنه ، ووجهوا الشعراء إلى ما يريدون وقد استجاب بعضهم للنقد والتوجيه ، واستعصى آخرون عليهم . وظهرت تراجم موجزة لكبار الشعراء ، ولكنها تسير على المنهج القديم في البحث ، لا تنفذ إلى المؤثرات العامة والخاصة في حياة الشاعر ، وتتعرف على مزاجه الأدبي ، وألوان ثقافته ، وتدرس آثاره دراسة مستفيضة . وكتبت مقالات مبتورة عن المدارس الأدبية الغربية ، ولكنها لم تتعرض للشعر المصري وإلى أي حد تتلمذ على هذه المدارس .

وربما كان كتاب الدكتور إسماعيل أدهم عن خليل مطران أول كتاب يتعرض لشاعر معاصر على طريقة علمية صحيحة ، ولكن أسلوب الدكتور أدهم أسلوب فيه بعض الغموض ؛ لأنه غريب عن العربية ، وطريقته في البحث قد جنحت إلى الحقائق العلمية الجافة ، وطبق في كتابه المنهج العلمي أكثر مما يجب ، فجاء الكتاب محدود الفائدة . ثم إنه ترجمة لشاعر واحد وإن كان شيخ المجددين بمصر .

ولم يظهر حتى اليوم كتاب يضم أشتات هذا الموضوع ، ولذا أشعر بضخامة هذه الدراسة ، وصعوبتها وأرجو أن أوفق في بحثي هذا ، وأقدم للمكتبة العربية ما تسد به ذلك النقص . ولست أزعم أنني في هذا الجزء سأوفي الموضوع كل حقه ، وأترجم ترجمات مسهبة لكل شاعر ، فذلك فوق ما أطيق ، وي طبقه هذا الجزء ذو الصفحات المحدودة مهما كثرت ، ولهذا اقتصرته فيه على تبيان المؤثرات العامة في الشعر بعد البارودي وعلى بعض رجال المدرسة التقليدية .

وأعترف أن ما قدمته ليس إلا محاولة لدراسة الشعر في العصر الحديث على طريقة علمية ، تحتاج فيما بعد إلى مزيد من الدرس والتمحيص وأن بها قصوراً كثيراً عن الغاية التي أصبو إليها ، ولذلك أتقدم بالمعذرة للقراء سلفاً ؛ راجياً أن يكون منهم من هو أشد مني مثنة ، وأقوى يراعاً ، وأطول باعاً ، وأوفى دراسة ، وأنفذ بصيرة فيكمل هذا النقص ، ويوفي الموضوع حقه من البحث ، والله هو الموفق للصواب .

## مقدمة الطبعة السادسة

على الرغم من أننا نعيش في عصر توفرت فيه وسائل النشر ، وأصبح الكتاب العربي سهل التناول ، كثير التداول ، وعلى الرغم من أنني أؤرخ أدب العصر الحديث في مصر ، فإنني أشعر بأن المهمة شاقة ، وأن الأدب العربي في عصوره الماضية أيسر تأتياً ، وأقرب منالاً ؛ ولذلك لا زلت منذ أن صدرت الطبعة الأولى لهذا الجزء يجدد لي في كل يوم جديد ، وتتبدى لي في كل حين فكرة • وما ذاك إلاً لأن الأبحاث التي تعرضت لهذه الحقبة لم تلم أشتات الموضوع ، وتجمع مادته من الأضابير والمخطوطات والمجلات والصحف السيارة ، والكتب المطمورة ، ولهذا أخذت نفسي بتقصي مصادره ، والبحث عن مادته ما وسعني الجهد حتى أبلغ بالكتاب الغاية التي أرجوها له ، والتي يتطلبها مني البحث العلمي الدقيق •

وهأنذا أتقدم لقراء العربية بالطبعة السادسة لهذا الجزء وفي كل باب من أبواب الكتاب زيادات كثيرة وتنقيحات لم أر منها بدءاً •

ولست أزعم أن الكتاب قد بلغ الكمال أو قاربه ، فلا زالت هذه الحقبة في حاجة ملحة للدرس والتمحيص ، وإنني أعد القارئ العربي الكريم — الذي أدين له بفضل التشجيع — أن أبذل في الاستزادة من الأدب الحديث ومصادره غاية جهدي حتى يصل الكتاب الى ما نصبو إليه ، ولا يسعني إلاً أن أقابل تشجيع قرائي من أبناء العروبة بالشكر الوافر ، والعمل المتصل ، والله أسأل أن يوفقني إلى إرضاء العلم وجمهور الأدباء وطلاب البحث ، إنه نعم الموفق للصواب •

عمر الدسوقي

# المؤثرات العامة في الشعر الحديث

## الفصل الأول

### الثقافة الأجنبية

- ١ -

تحدثت في الجزء الأول من كتاب الأدب الحديث<sup>(١)</sup> عن الاتصال بالأدب الأجنبي في إيجاز ، وعرض سريع ، وأعود هنا إلى الموضوع بشيء من البسط ، لنذكر الصراع العنيف بين فرنسا وانجلترا على تثبيت كل منهما نفوذها الأدبي بهذه الديار .

يرجع اتصال مصر الحديثة بالثقافة الغربية إلى الحملة الفرنسية ، وقد وفينا موضوع الحملة الفرنسية حقه من البحث في الجزء الأول من هذا الكتاب . وجاء محمد علي<sup>٢</sup> فاتحه صوب فرنسا يستخدم علماءها وقواد جيشها وأطبائها في نهضة مصر ، ويرسل البعثات العديدة إلى فرنسا ، بل ينشئ مدرسة للطلبة المصريين بباريس . وقد عاد هؤلاء الطلبة إلى مصر وتولوا زعامة حركة الإصلاح بها ، وعلى رأسهم رفاة الطهطاوي ، وعلي مبارك . ولكن عباس الأول كان من النافرين كل النفور من الثقافة الأجنبية ولا سيما الفرنسية ، فألقى نظام التعليم الذي وضع على النهج الفرنسي ، ولم يرسل إلى فرنسا سوى ثلاثة من الطلاب في حين أنه أرسل خمسة وأربعين طالباً إلى الدول الأخرى ، وفي موقف عباس الأول إزاء الثقافة الفرنسية يقول الأمير عمر طوسون<sup>(٢)</sup> : « شعرت فرنسا بانصراف هذا العاهل (عباس الأول) عن الاتجاه إليها ، خصوصاً بعد ما نحى عن مناصب الحكم في بلاده أكثر الأجانب وبخاصة الفرنسيون ، فجاء ذكره على السنة مؤرخها مشوباً بالقدح خالياً من المدح » .

وغضب عباس على هؤلاء المصريين الذين حذقوا الفرنسية وعملوا على نشرها ،

---

(١) راجع الفصل السادس من كتاب الأدب الحديث ج ١ .

(٢) البعثات العلمية في عهد محمد علي ، ثم في عهد عباس الأول وسميد الأمير عمر طوسون ص ٤١٨ .

فنفى رفاة الطهطاوي إلى السودان ، وأغلق مدرسة الألسن ... الخ ما عرفت في الجزء الأول من كتابنا هذا . ولكن فرنسا المستعمرة لم تكن ترضى بهذا ، وإن فاتها الغزو الحربي فعزیز عليها أن يفوتها الغزو الأدبي ، والتمكين للغتها وأدبها بأرض مصر ، فتقيد نفوذاً وتجارة ، ولعلها تجد فرصة مواتية فتتدخل في شئون مصر ، ولذلك حثت علماءها على تأدية الرسالة التي اضطلع بها المجمع العلمي المصري<sup>(١)</sup> ، وشجعت الفرنسيين على الإقامة بمصر ، وحثت الأثرياء على دفع الأموال الطائلة في القروض التي أصدرتها الحكومة المصرية ، وفي إنشاء قناة السويس ، وتأسيس المصارف العقارية إلى غير ذلك ؛ وبهذا خضعت مصر اقتصادياً لفرنسا ، ولم تنس نشر الثقافة الفرنسية بمصر ، ونظرت إلى هذه المسألة في جد بالغ . استمع إلى ما يقوله أحد دعااتها في هذا الموضوع : « إن العقل المصري وهو يتهماً للأفكار الجديدة لا يزال مملوءاً بتقاليد الماضي ، ويجب علينا أن نغير نفوس هؤلاء القوم . ونعلم هذه العقول التي جففتها الشمس طريقة التفكير ، وأن نستميل بالحب هذه القلوب التي لم تعرف إلا الجشع ونهب الأجانب ، وأن نجبر مصر الدهشة المذهولة على أن ترفع رأسها فوق الصحارى والبحار . إن هذا عمل جسيم يحتاج إلى كثير من الصبر والتضحية وعدم الأثرة ، كما يحتاج إلى وقت طويل ومجهود شاق ومحبة عظيمة » .

« لقد اجتراً شعب واحد على تقدير هذا المجهود ، وتعهده بإنجازه ، ألا وهو شعب فرنسا ، ولكنها ليست فرنسا الغازية التي اجتاحت البلاد ، بل فرنسا ( ديلبس ) ، و ( فرير أدريان ) ، وفرنسا ( ماريت ) و ( ماسيرو )<sup>(٢)</sup> .

« إن عمل فرنسا بمصر كالخميرة تمتزج بالعجين فيرتفع ، فقد تغير المصريون وتحركوا بتأثير أفكارنا وتعليمنا وأمثلتنا ، ومنح المصريون في مدارسنا النهوض والانتعاش ، ووجدوا في رؤوس الأموال الفرنسية ما ساعدهم على بناء نجاحهم الزراعي ، واتخذت مصر من قناة السويس مركزاً وسطاً تجبي فيه الضرائب على

(١) راجع الفصل الأول من كتاب الادب الحديث ج ١ .

(٢) ديلبس هو المهندس الفرنسي الذي صمم مشروع قناة السويس ونفذه . وفرير أدريان من

كبار المبشرين الفرنسيين ، وماريت وماسيرو من علماء الآثار الذين احتلوا مكانة كبيرة في مصر .

السلع التجارية والعقلية بين الشرق والغرب • وأخيراً ستستمر مصر مدينة لعظمة فراعتها الذين أرجعهم علماءنا الأثريون المتحمسون إلى الضوء من أجدانهم<sup>(١)</sup> » •

عمدت فرنسا لبسط نفوذها الثقافي بمصر إلى الإرساليات التبشيرية والتعليمية وقد أسس الآباء العزاريون أول مدرسة فرنسية بمصر سنة ١٨٤٤ ، ثم جاء الفرير وأسسوا أول مدرسة لهم سنة ١٨٤٥ ، وقد اعترفت الحكومة بخدماتهم التعليمية للبلاد فوهبتهم بعد خمسة أعوام من قدومهم إلى مصر قطعة فسيحة من الأرض شيّدوا عليها مدرستهم<sup>(٢)</sup> •

ثم جاء راهبات المحبة « منشئات أخوية الراعي الصالح » وأسسن مدرسة لتربية البنات سنة ١٨٤٦ • وحذا حذوهن الراهبات الفرنسيّسكان وأنشأن مدرسة بالقاهرة سنة ١٨٥٩ بالقرب من الأزبكية ، وأخرى ببولاق سنة ١٨٦٨ ، وغيرها بالمنصورة سنة ١٨٧٢ • وقد أمّ هذه المدارس كثير من الطلبة والطالبات من كل جنس حتى بلغ عددهم في عهد اسماعيل ما يربو على ثلاثة آلاف طالب وطالبة ، على الرغم من أن الغرض الأساسي لهذه البعثات كان نشر الدين الكاثوليكي ، وخدمة الاستعمار الفرنسي ، والتمكين لنفوذ فرنسا الأدبي بمصر ، وفي ذلك يقول اللورد كرومر : « إن الفرنسيين قد قضوا نصف قرن قبل الاحتلال البريطاني ينشرون لغتهم بكل ما لديهم من وسائل ، في حين ظلت الحكومة البريطانية متعطلة لا تبذل أي جهد في تعليم المصريين<sup>(٣)</sup> » •

وعلى الرغم من أن فرنسا كانت تسودها روح الإلحاد فإنها شجعت رجال الدين الذين ينشرون الثقافة الفرنسية في الخارج ، وأرسلت البعثات ( العلمانية ) إلى مصر ، فأسست عدداً من المدارس ، ونوّه المسيو « هريو » رئيس مجلس النواب الفرنسي ، ورئيس البعثات العلمانية في الشرق بمنهج هذه المدارس ، وأنها تعمل على احترام جميع العقائد ونشر الثقافة الفرنسية ، والاهتمام بالروح الوطنية في

---

(1) Iullien Leopold (Semailles Français) Le Magazine Egyptian, Cairo. May 1926

وراجع رسالة الأستاذ الطيب حسن عن أثر الثقافة الغربية في الأدب المصري الحديث ص ٤٥ - مخطوط .

(٢) تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل - ج ١ ص ٢١٨ •

(٣) Earl Cromer's Modern Egypt. p. 236. (٣)



البلاد ، وأظهر أن البعثات العلمانية لا تسير في هذا المنهج إلا على ضوء التقاليد التي اشتهرت بها فرنسا ، وهي الدفاع عن حرية الشعوب وكرامتها الشخصية » (١) .  
وقد زاد عدد تلاميذ المدارس الفرنسية بمصر حتى صار في سنة ١٩٢٦ أكثر من اثنين وأربعين ألف تلميذ وتلميذة ، ويثربي هذا العدد على ضعف مجموع الطلاب الذين يتعلمون في المدارس الأجنبية الأخرى بمصر سواء كانت إيطالية أو أمريكية أو إنجليزية أو يونانية (٢) .

ولعلك تدرك الآن السر في انتشار اللغة الفرنسية بمصر ، وتمسك الأجانب عامة بها ، وجعلها لغتهم الأولى في معاملاتهم . لقد ساعد ذلك على انتشار الأدب الفرنسي ، حتى برع فيه بعض المصريين وأخذوا ينظمون الشعر ويؤلفون الكتب باللغة الفرنسية ، بيد أننا لا ننسى أن هؤلاء الذين يتعلمون في مدارس أجنبية وبخاصة المدارس الفرنسية ، لا يعرفون شيئاً من اللغة العربية . والحق إن فرنسا لو مكن لها أن تستعمر مصر كما استعمرت الجزائر وتونس وسوريا ولبنان ، وقضت بها أمداً طويلاً كما قضت بتلك البلاد لضعف شأن العربية ، وانحط الأدب العربي أيما انحطاط ، فقد عملت فرنسا في كل بلد احتلته على محو اللغة الأصلية محو تاماً بمحاربتها ، وعدم العناية بها ، ونشر اللغة الفرنسية ، وصنع الأهالي بالصبغة الفرنسية في كل شيء ، حتى يمشخوا ويشوشوها ، وتفنن شخصيتهم ومقومات وطنيتهم في فرنسا كما حدث لأهل الجزائر وتونس ، وكما أوشك أن يحدث لأهل لبنان لو لم يكن أمد الاحتلال الفرنسي بها قصيراً .

ومع كل هذا فقد كان لنشر الثقافة الفرنسية بمصر أثر واضح في الأدب العربي الحديث أشرنا إلى بعضه في الجزء الأول (٣) ، وسنعود للحديث عنه فيما بعد .

هذا ما كان من سعي فرنسا في نشر لغتها ، وتقوية نفوذها بمصر ! أما إنجلترا فقد أدركت أهمية مصر منذ أن غزاها نابليون ، ووثقت من أن دولة قوية مثل فرنسا تستطيع أن تحول بينها وبين مستعمراتها في الشرق الأقصى إذا استقرت بوادي النيل؛

(١) خطبة مسيو هريو في افتتاح مدرسة الليسيه بمصر الجديدة . الاحرام ٤ مايو سنة ١٩٢٨ .

(٢) تقرير وزارة المعارف سنة ١٩٢١ - ١٩٢٢ .

(٣) الفصل السادس .

ولذلك عملت إنجلترا جهدها على إخراج نابليون وجنده من مصر ، وكانت موقعة أبي قير المشهورة • وكم تمت إنجلترا بعد ذلك أن تبسط سيادتها على هذه الديار الغنية ، التي تتوسط العالم ، وأرادت بادية الأمر أن تكسب ثقة تركيا بها ، وأن تعمل على أن يستقل المماليك بشئون البلاد ، وتتولى هي حماية شواطئها الطويلة ، بيد أن هذه المحاولة باءت بالإخفاق • ولما لم تجد بداً من القوة لتحقيق بغيتها غزت مصر في سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال « فريزر » ، ولكن الشعب المصري وأهل رشيد تصدوا لهذا الغزو الذي لا مسوغ له إلا الجشع الاستعماري ، وهزم الإنجليز هزيمة منكرة برشيد في تلك السنة ، وبذلك استراحت مصر من الإنجليز وطعمهم خمسة وسبعين عاماً<sup>(١)</sup> ، حين دخلوها بعد الثورة العرابية متذرعين بأسباب سخيفة بادية الضعف والطمع •

وظنت إنجلترا حين مُنيت بهزيمة رشيد أنها تستطيع أن تشر نفوذها عن طريق الإرساليات التبشيرية والتعليمية كما فعلت فرنسا ، أو أن تمهد لها الإرساليات سبيل التدخل السافر في شئون مصر ، كما مكنت لها شركاتها التجارية غزو الهند واحتلالها ، فأرسلت أول بعثة تبشيرية إلى مصر سنة ١٨٤٠ ، وجاءت البعثة الأسكتلندية البروتستانتية وفتحت لها مدرسة بالأسكندرية ، وتلتها بعثة أخرى سنة ١٨٦٠ برئاسة ( مس وتلي ) كريمة رئيس أساقفة ( دبلن ) ، ووهبت هذه الفتاة حياتها ونشاطها للمهمة التي اغتربت من أجلها وسعت جهدها للنجاح في تعليم الفتاة المصرية ، وأسست مدرسة بالقاهرة لهذه الغاية • ولاقت صعوبات جمة ، وعناء شديداً في حمل المصريات على الاستجابة لندائها ، ولكنها صابرت وثابرت ، من غير أن تعرف التبرم والسخط والملل عشر سنوات كاملة بدت لها بعدها تبشير النجاح ، فغص معهدهما بالتلميذات ، وشجعها الخديو إسماعيل بأن وهبها قطعة أرض رحبة بالفجالة وأمدّها بالمال اللازم لتشييد هذه المدرسة ، فصارت من أرقى مدارس مصر ، وأقبل عليها الفتيات المصريات والأجنبيات ، ولا سيما بعد أن فتح إسماعيل المدرسة السنية سنة ١٨٧٣ تشجيعاً على تعليم البنات ، ووضعها تحت رعاية إحدى زوجاته •

ولم تكن المدارس الإنجليزية وحدها مصدر الثقافة الإنجليزية بمصر ، بل ساعدها في ذلك الميدان مجيء أول بعثة أمريكية في الشرق سنة ١٨٥٥ ، في عهد

---

(١) تاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت ( باشا ) ج ١ ص ٩٢ - ٩٣ •

معيد ، وكان ميالا بطبعه للأجانب ، يمنحهم تشجيعه ومساعدته • واتخذت البعثة الأمريكية مقرها بالقاهرة ، ودأبت في جدٍ وحرص على نشر رسالتها في جميع أرجاء مصر والشرق العربي ، تؤيدها الأموال الأمريكية الطائلة ، والأساليب التربوية الحديثة ، ولم تدع عاصمة من عواصم القطر ، بل ولا مركزاً مهماً من مراكزه إلا أسست فيه فرعاً ومدرسة تنشر تعاليمها ، حتى وصل عدد مدارسها في سنة ١٩٣٢ إلى ما يزيد عن اثنتين وأربعين مدرسة ، بها ما يربي على ٦٩١٤ تلميذاً وتلميذة<sup>(١)</sup> •

وعلى الرغم من كل ذلك فقد ظل نفوذ الإنجليز الأدبي والثقافي بمصر محدود الأثر ، لا يستطيع مغالبة النفوذ الفرنسي ، إلى أن جاء عهد الاحتلال على أثر الثورة العرابية في سنة ١٨٨٢ ، وقد أفضنا في الحديث عن هذه الثورة ، وكيف دخل الإنجليز مصر وذكرنا الأسباب الواهية التي حاولوا أن يسوغوا بها هذا التدخل الذميمة أمام مصر ، وأمام نول الغرب التي كانت تقف لهم بالمرصاد<sup>(٢)</sup> •

وما أن استقر الإنجليز بمصر حتى نشطوا لتثبيت أقدامهم بها ، فأرسلوا في سنة ١٨٨٣ عدداً غير قليل من غلاة المستعمرين وذوي الخبرة في إذلال الشعوب واستغلالها ، وعلى رأسهم ذلك الداهية السير ( إدفلين بارنج ) الذي عرف فيما بعد باسم ( اللورد كرومر ) ، والذي حكم مصر أربعة وعشرين عاماً إلى أن أخرج منها سنة ١٩٠٧ •

كانت مصر ترزح تحت وطأة الديون الثقيلة التي أرهاقها بها إسماعيل ، والتي اتخذها الغرييون ذريعة لسيط نفوذهم المالي عليها • وقد جاء ( كرومر ) ، ومصر في عجز عن تسديد ديونها ، فأحكم تدير المال ، وأخذت مصر في سنة ١٨٨٩ تسدد أقساط تلك الديون التي جعلت للأجانب امتيازات بهذه الديار ، صيرتهم السادة المترفين ، وأصحاب الجاه والسلطان وجعلت أهلها أدنى من الأجراء والخدم ، أذلاء مضطهدين • ولم تستطع مصر أن تتخلص من هذه الديون على الرغم من عبقرية ( كرومر ) المالية إلا في سنة ١٩٤٢ •

وكما كانت حال مصر المالية بالغة السوء ، فإن أحوالها الاجتماعية كانت أشد

(١) إحصاء قسم التسجيل والامتحانات بوزارة المعارف العمومية سنة ١٩٣١ - ١٩٣٢ •

(٢) راجع الفصل الخامس من كتاب الادب الحديث ج ١ •

سوءاً ، وقد ذكر ( كرومر ) في كتابه مصر الحديثة ( Modern Egypt ) ما قدمه لمصر في هذا الميدان ، وهالك طرفاً من قوله يمن به على مصر والمصريين :

« لقد سرت بالتدريج روح جديد إلى سكان مصر ، وتعلم الفلاح كيف يمن النظر في حقوقه ، وتعلم الباشا أن لمن يجاوره من الفلاحين حقوقاً يجب احترامها . وعلى الرغم من أن السوط كان لا يزال معلقاً على جدار المديرية فإن المدير لم يجرؤ على رفعه واستعماله فوق ظهر الفلاح .

وقد اختفت السخرة البغيضة من مصر ، وذهب الرق عملياً من الوجود ، وانقضى أجل الأيام السعيدة التي كان يتمتع فيها المرابون باستنزاف دماء المصريين . وأصبح للقانون الكلمة العليا في كل مكان ، بعد أن كان القضاء يباع ويشترى ، وابتدأ المصريون يحبون أرضهم ويعملون بها بعد أن كانوا يحتقرونها ؛ لتمنحهم هباتها وخيراتها فاستجابت لدعوتهم كريمة معطاءة .

وقد أحكم توزيع مياه النيل بالعدل والقسطاس المستقيم بين أرض الأمير الكبير والفلاح الصغير ، ونظمت وسائل النقل واتسع نطاقها وأصبح المرضى يعالجون في مستشفيات جيدة الإدارة ، ولم يعد المجرمون والمجانين يعاملون الآن معاملة الوحوش الضارية ، بل إن الحيوان الأعجم قد مسته يد الرفق فوجد من يعنى به « (١) .

وفي اعتقادي أن بعض ما ذكره ( كرومر ) صحيح ، وبعضه قد بالغ فيه ، فإن الإصلاح قد ابتدأ على يد محمد علي ، وذهب عهد الأتراك والمماليك ، المليء بالمآسي الدامية ، والسخرة المقيتة ، وشعرت مصر بشيء من العزة والاستقلال في عهد محمد علي وإسماعيل . ولولا ما أراده إسماعيل من الطفرة لمصر في نهضتها لسارت قدماً في سبيل الرقي ، غير متخلقة ، أو محتاجة إلى أية مساعدة أجنبية . وقد ذكرنا في الجزء الأول ما قام به عرابي في هذا الشأن ، وكان من الممكن أن يتم ما بدأه لو لم يَنفَع عن مصر ويحتلها الإنجليز (٢) .

أجل ! إن الإنجليز قد أحكموا توزيع المياه بالعدل ، ورفعوا عن كاهل الفلاح كثيراً من الضرائب المرهقة التي نفرته من الأرض ، ودفعته إلى الهرب منها . ولم يكن غرض

Earl Cromer's Modern Egypt. vol II p. 55-7. (١)

(٢) راجع الجزء الأول من الادب الحديث ط السادسة ص ٢٤٩ .

الإنجليز فيما أعتقد هو خدمة الفلاح محبة فيه ، ورغبة في إسعاده لوجه الخير ، ولكن كان غرضهم الأول هو خدمة بلادهم . فمصر الغنية الهائلة ، الرخيصة الخصبة ، تستطيع أن تعين إنجلترا المعوزة في المحصولات الزراعية بما تغله من خيرات . والفلاح الذي يمثل جمهرة الأمة وسواد الشعب ، إذا شعر بشيء من الطمأنينة والراحة تغنى بმაثر الإنجليز ، وسخط على سادته وكبرائه ، وفي هذا تمكين لقدم المستعمرين ، وتكأة يعتمدون عليها في تسويغ مقامهم غير الحميد بمصر ، واستعمار أهلها .

ولا أدل على أنهم لم يقصدوا بهذه الإصلاحات نهضة مصر ، أو رقي أهلها ، من سياستهم التعليمية بهذه البلاد ، فقد نهجوا فيها نهجاً استعماريًا بغيضاً ، ورجعوا بتقدمها العلمي الذي أحرزته على يد محمد علي وخلفائه ، ورجال البعثات المصريين سنين طويلة إلى الخلف ، ولقد شهد بذلك أكثر من مؤرخ إنجليزي منصف ، أو ناقد متبرم من إخفاق الإنجليز في نشر نفوذهم الأدبي والثقافي بمصر<sup>(١)</sup> .

### — ٣ —

رأى كرومر بعد أن خطا في إصلاحاته المالية والاجتماعية والداخلية خطوات واسعة ، أن عليه واجباً نحو نشر الثقافة الإنجليزية بمصر ، وقد راعه ذلك البنيان الضخم من الثقافة الفرنسية ، الذي شيدته همم الإرساليات ، وعززته الحكومة الفرنسية ، ورجال الاقتصاد والأعمال الفرنسيون . هالته كثرة المدارس الفرنسية بمصر ، وحماسة هؤلاء الذين تعلموا بها — أو في فرنسا ذاتها — لنشر الثقافة الفرنسية ، ورأى أن الفرنسيين قد بذلوا غاية جهدهم لمساعدة هؤلاء الذين يتخرجون في مدارسهم ، فاشتروا على الإنجليز أن يظل لهم النفوذ الأول ببعض المصالح الحكومية كما كان شأنهم قبل الاحتلال البريطاني ، فاستأنفوا بمصلحة الآثار المصرية — وظلت إلى أن جاءت الثورة في أيديهم — ونظارة مدرسة الحقوق ، واستولوا بأموالهم وقروضهم وشركاتهم ومؤسساتهم التجارية على أكثر من نصف

(1) See. George Young : Egypt. and Sir Valentine Chirol : The Egyptian problem. See also Lord. Lloyd : Egypt Since Cromer.

الذين يتخرجون في مدارسهم متسعين للعمل بهذه الشركات والمؤسسات ، وصارت المصالح الاقتصادية والأموال المنقولة بمصر ، ووجد الشبان المصريون والأجانب اللغة الفرنسية لغة التعامل والتداول والتجارة بين الأجانب بمصر ، وبينهم وبين المصريين • حتى اضطرت المحاكم المختلطة أن تصدر تسعة أعشار أحكامها باللغة الفرنسية ، فضلا عن الموظفين العديدين الذين وجب عليهم إتقان هذه اللغة تلبية لجمهور المتقاضين أمام المحاكم المختلطة •

وعلى الرغم من الاحتلال الإنجليزي وطول أمده فلا تزال اللغة الفرنسية هي اللغة الأولى في السوق المصرية حتى اليوم ، وهي لغة التخاطب بين الأجانب المختلفي الجنسية • لقد استجابت فرنسا والفرنسيون لنصيحة نابليون التي يقول فيها : « علموا اللغة الفرنسية ففي تعليمها خدمة الوطن الحقيقية » •

رأى كرومر كل هذا ، وأن الشعب المصري لا يمكن أن يقبل الاستعمار الإنجليزي إلا إذا أقبل على الثقافة الإنجليزية ، وقدم له الانجليز عملا مجدياً في سبيل تعليمه ، ولكن هل كان كرومر جاداً في تعليم المصريين ؟ أو أن غايته هي بسط نفوذ الاستعمار ، ولو أدى ذلك إلى الرجوع بالتعليم إلى الوراء ؟ ! •

لقد وضع كرومر سياسة تعليمية سار عليها أمداً طويلاً ، وجاء « دانلوب » في سنة ١٩٠٦ وورثها عنه ولقنها منه ، وعمل على تنفيذها ، وتتلخص هذه السياسة في الأمور الآتية :

١ — نشر التعليم بين الفتيات المصريات ، ولعله تأثر في ذلك بما قدمته « مس وتلي » من خدمات في هذا المضمار ، وظن أن تعليم البنات وتلقينها الثقافة الإنجليزية يهيئ الفرصة لوجود جيل من الأبناء يحبهم ويعطف عليهم •

٢ — العمل على محو الأمية بين الفلاحين والطبقات الفقيرة بمصر ، وذلك بتعميم مدارس القرى في الريف ، ومدارس المساجد في المدن •

٣ — إعداد فريق من الشبان المصريين لتولي الأعمال الكتابية والإدارية ، والفنية المتواضعة في الحكومة •

٤ — مناهضة الثقافة الفرنسية ، واللغة العربية في المدارس وإحلال اللغة

## الإنجليزية محلها •

وقد أخفق كرومر في هذه السياسة كل الإخفاق ؛ لأنه لم يكن خبيراً بشئون التعليم ، ولأنه قاوم الحركة الوطنية التي بدأت سيرها منذ عهد محمد علي ، والتي نهضت باللغة العربية ، وساعدت على انتشار اللغة الفرنسية ، ولأنه لم يفهم نفسية المصريين على حقيقتها ، وظن أنه حين ينهض بتعليم الفتاة يجد إقبالا على سياسته تلك ، ونسي أن الحجاب كان ذا سيطرة قوية حينذاك ، وأن المصريين نظروا إلى اللغة الإنجليزية على أنها لغة المحتل الغاصب ، فانصرفوا عن مدارسه • وما عبل على شدة إخفاق سياسته في ميدان التعليم ذلك المستشار الإنجليزي الذي وضعه بوزارة المعارف يسير أمورها ، وهو لا يعرف من شئون التربية قليلا أو كثيرا ، ألا وهو المستر «دوجلاس دانلوب» الذي خدم بوزارة المعارف من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩١٩ •

اجتمعت في دوجلاس دانلوب سواتان ، فهو قسيس اسكتلندي ، وقد اشتهر أهل اسكتلندا بعلوم الاستعماري ، ونظرتهم إلى الشعوب الملونة نظرة ازدراء ، واعتقدوا أنهم لا يصلحون لإدارة أمورهم بأنفسهم ، وأنه لا بد لهم من قيادة غربية حتى تستقيم أمورهم • وقد جاء دانلوب خير مثل يضرب لضيق الأفق ، ونقص الثقافة ، والتعصب الذميمة لرأيه ، وأصدق ما وصف به هذا الذي نكبت به مصر بعامة ، ووزارة المعارف بخاصة ما قاله عنه وعن سياسته البغيضة في التعليم ( السير فالنتين تشرول ) في كتابه المسألة المصرية :

« لقد كانت سياستنا التعليمية تفتقر إلى الروح المعنوية ، والإلهام القوي ؛ لأننا تركناها في يد مستشار وزارة المعارف مستر دانلوب • وكان دانلوب حسن النية ، دءوبا على الجد والعمل ، غير أن آراءه في التربية لم تتعد ما كانت توحى به تلك الدروس التربوية التي تلقاها في حديثه •

« ومهما امتاز به دانلوب من صفات محسودة فإنه كان ضيق الفكر ، قصير النظر يؤمن بالكمية لا بالنوع ، أي بكثرة المواد الدراسية لا نوعها ، وكان وهو مترعب في كرسي مكتبه بوزارة المعارف يصدر الأوامر والنظم والقوانين المتعددة كما تتصورها عقليته ، وقلما كان يأبه لرأي سواه • أما نصيح المصريين له فكان — بالطبع — لا يجد منه أذنا صاغية ولا يتسع له صدره » (١) •

(1) Sir Valentine Chirol, The Egyptian Problem, pp. 231-232.

فلا بدع إذا أخفق كرومر في سياسته التعليمية بمصر وهذه عدده ووسائله .  
لقد أتى كرومر مصر ونسبة تعليم البنات بها ثلاثة في الألف (١) في سنة ١٨٨٣ وخرج  
من مصر سنة ١٩٠٧ ونسبة تعليم البنات ثلاثة في الألف (٢) كذلك ، وأي إخفاق  
أعظم من هذا في أول مشروع في منهجه التعليمي !!

وإذا قيل : لقد امتحن كرومر بتعليم البنات ، وأبت مصر المحافظة التي كان  
للدين بها أثر كبير أن تدفع فتياتها إلى ميدان التعليم ولا سيما وميدان العمل لم يكن  
قد فتح أمام الفتاة كما هو الشأن اليوم ، ولعله كان أكثر نجاحاً في مشروعه الثاني  
وهو محو الأمية لأنه تعليم للذكور وتعليمهم استمرار للنهضة التي وضع أسسها  
محمد علي ونماها إسماعيل .

لقد بذل كرومر في تعليم الذكور جهداً كبيراً ، وأعان مكاتب القرى بالمال ،  
وأنشأ مجالس المديرية ، وأعطاه سلطة فرض ضرائب محدودة لتستعين بها على  
محو الأمية ، ومع كل هذا جاءت النتيجة عكس ما قدر ( كرومر ) فقد ابتداء عهده  
في سنة ١٨٨٣ ونسبة المتعلمين من الذكور ١٦٪ (٣) ورحل عن مصر سنة ١٩٠٧  
ونسبة المتعلمين لا تزيد عن ٨٪ (٤) ، ومعنى ذلك أن عدد المتعلمين قد تضاعف إلى  
النصف ، فهل يعد هذا نجاحاً ، أو إخفاقاً ذريعاً ؟ ولعل من أسباب هذا الإخفاق ،  
وإحجام كثير من المصريين عن التعليم ما نهجه كرومر من فرض اللغة الإنجليزية على  
المدارس الابتدائية والثانوية ، وعدم تشجيع التعليم العالي كما سنذكر بعد قليل ،  
فلم يجد المصريون أمامهم إلا طريقة معقدة تتنافى ودينهم ولغتهم كما وجدوا مستقبلهم  
معتمداً لا يشجعهم على دفع أبنائهم إلى المدارس المصرية التي صبغت بصبغة إنجليزية .  
ولقد كانت جمهرتهم متدينة ، ونظرت إلى هذا النوع من التعليم على أنه شيء ليس  
فيه ما يرضي الله أو الدين أو الوطن ، ولم يقبل على المدارس المصرية إلا القليل من  
أبناء المدن .

(1) Yacoub Aratin Pasha; L'Instruction Publique en Egypte. Appendix A. P. 151.

(٢) الإحصاء الحكومي العام سنة ١٩٠٧ .

(3) Yacoub Aratin Pasha; L'Instruction Publique en Egypte. Appendix A. P. 152.

(٤) الإحصاء الحكومي العام سنة ١٩٠٧ .



والذي يعني هنا أثر هذه السياسة في الأدب ؛ فقد نقص عدد القراء في عهد الاحتلال الإنجليزي نقصاً زريعاً . لمن ينتج الأدباء ؟ وأي تشجيع يجدونه من أمتهم ؟ أو من وليّ الأمر فيهم ، وهو إنجليزي اللسان والحكم ؟

وإذا كنا للآن وبعد أن مضى أكثر من نصف قرن ، تغيرت فيه نظم التعليم ، ونالت مصر فيه حريتها ، وكثر فيها المتعلمون كثرة نسبية ، وعظم الاعتناء باللغة العربية — إذا كنا للآن نشكو من قلة عدد القراء ، وعدم الاستجابة ، أو الرغبة في قراءة الكتب الأدبية ، فما بالك بما حدث في عهد كرومر من هذه النكسة المريعة من ثقافة الشعب ، وتعليم جمهرة بنيهِ ؟

لا يسعنا إلا أن نقول كما قال الأستاذ ( جب )<sup>(١)</sup> في هذا : « من أن مصر التي بدأت فيها النهضة منذ قرن من الزمان على يد محمد علي ، والتي كانت النموذج الذي اتخذته تركيا ، وهي الدولة صاحبة السيادة الاسمية على مصر ، قد أصيبت في آدابها ، وتأخرت عن تركيا ولا سيما في فن القصة ، وقد مضى القرن التاسع عشر — على الرغم من أن بعض القصص الأدبية قد نقلت إلى اللغة العربية ، ولم يتقدم مؤلف واحد بقصة كاملة استوفت شروط القصة الحديثة ، اللهم إلا شبه قصة هي ( حديث عيسى بن هشام ) للمويلحي الصغير » .

ولولا أن الصحف والمجلات ، قد آوت الأدباء وأفسحت لهم ميدان الكتابة ، لما وجد هؤلاء سبيلاً للنتاج الأدبي أو شبه الأدبي ولقضي على أقلامهم ، ولانصرفوا لاحتراف شيء آخر غير الأدب ، يصيبون منه بعض ما يقوم برزقهم ورزق أولادهم وأسرههم .

ولقد كان لذلك تأثير آخر في الاتجاه الأدبي الحديث ؛ لأن الكتاب جودوا المقالة وراجت سوقها ، بيد أن الصحف السيارة ليست ميداناً للتجويد الأدبي ؛ لأن جمهرة قرائها من غير الأدباء ، ولأنها تمنى بالأخبار والحوادث قبل أن تمنى بالمقالة الإنشائية ، أو يجب أن تكون كذلك على الأقل ، فيجب على الكاتب أن يراعي

---

(1) H. R. Gibb, B. S. O. S. Vol 5 pp. 314-5.

مستوى الجمهور الذي يكتب له ، ورغباته اليومية ؛ ولهذا نزل الكاتب من عليائه إلى المستوى الذي يتطلبه الجمهور ، في أسلوبه وموضوعه ، وطريقة عرضه .

وثمة شيء آخر هو أن الكاتب لم يكن حراً فيما يختار من موضوعات ، لأن الصحف سياسية قبل كل شيء ، تهتم بالسياسة الخارجية والداخلية ، وهي تمثل لونا معينا من هذه السياسة . وقد كان بمصر حينذاك أحزاب مختلفة : حزب الخديو ، وحزب الإنجليز ، وحزب الوطنيين ، ولكل حزب ألسنة من الكتاب والصحف تدافع عن سياسته ، وتحصي على الآخرين أخطاءهم ، وتنفذ أقوالهم . ولذلك كله اضطر الكتاب إلى خوض المعارك الحزبية والسياسية ، ولم يعد للأدب الخالص ، أو الموضوع الذي تشبعت به نفس الكاتب وامتلأت مشاعره — مجال في الصحف إلا قليل . وقد عاد كل هذا على الأدب بالضرر ، فكدت سوقه ، وخمدت قرائح الكتاب ، وتعطلت أفلامهم الرفيعة . وسنعود إلى الحديث في توضيح هذا بعد قليل إن شاء الله .

أما ما قصده ( كرومر ) من إعداد طائفة من الشبان المصريين لشغل بعض وظائف الدولة غير ذات الخطر ، فقد نجح فيه أيما نجاح واستطاع أن يخرج آلات صماء ، ليس عندهم شيء من الجرأة وحرية الرأي ، والقدرة على الابتكار ، تفقوا ثقافة محدودة ، فبعضهم اكتفى بالتعليم الابتدائي ، وآخرون زادوا قليلا فقالوا الشهادة الثانوية ، وقد ملئت أدمغتهم بمعلومات كثيرة غير مفيدة لهم في حياتهم الفعلية . وكان الغرض الأول أن يظلوا مرءوسين للإنجليز الذين غصت بهم مصالح الدولة ، لا يتطلع أحدهم إلى منصب كبير ، وليس في مكنته أن يشغل هذا المنصب الكبير إذا تطلعت نفسه إلى ذلك ، لأنه لم يتعدَّ الإعداد الواجب لشغل مثل هذا المنصب .

ومما يؤسف له أن سياسة ( كرومر ودانلوب ) في التعليم قد ظلت أمداً طويلا — بعد أن نالت مصر حريتها ، وتخلصت من الإنجليز في التعليم — هي السياسة المتبعة في مصر وصار المنصب الحكومي هو غاية ما يتطلع إليه الشباب في مصر ، والأمل الذي يجتمع له كل قواه . وفي ذلك يقول مستر ( مان ) في تقريره لوزارة المعارف : « ليس في العالم على الأرجح قطر يتمتع فيه موظف الحكومة بمنزلة كبيرة بين

الأهلين كالتى يتمتع بها الموظف بمصر وقد لا يوجد في أي بلد آخر آباء يضحون بالشيء الكثير في سبيل جعل أبنائهم موظفي حكومة بأي شكل كان» (١) .

ولم تكن هذه الغاية وحدها هي كل ما جناه الإنجليز على التعليم بمصر ، بل إن مستر دانلوب ، الذي أسلمه كرومر قيادة التعليم في مصر سنة ١٩٠٦ قبل أن يغادرها ، قيّد التعليم بقيود شنيعة من القوانين الصارمة ، لا يحيد عنها ، ولا يعرف سواها ، وأكثر من حشو أدمغة التلاميذ بشتى المعلومات المفيد منها وغير المفيد . وصار المعلم في المدارس آلة صماء أمام القانون ، وصار التلميذ آلة في يد المعلم ، وفقد كلاهما شخصيته ، وصارت المدارس أشبه بالسجون ، والهّم الأكبر الذي يشغل التلميذ ، والمدرس ، وناظر المدرسة ، ووزارة المعارف وعلى رأسها (مستر دانلوب) هو نجاح التلميذ في الامتحان . أمّا أن تعنى وزارة المعارف ، وتعنى المدرسة معها بشخصية التلميذ ، ودراسة مواهبه واستعداده ، وتحسس ميوله ، وتصقل خلقه ، وتنمي ملكاته العليا فذلك أمر لم يخطر لوزارة المعارف ، ولا لمستر دانلوب على بال ، ولو كان خطر له ، ما أقدم عليه ؛ لأنه كان يريد إخراج جيل مشوّه التعليم ، لا يصلح للحياة الحرة الكريمة .

لقد قيد مستر دانلوب المعلمين بقيود سخيفة وضعها في قانون نظام المدارس ، وهذا دليل على أنه لم يكن يثق في هؤلاء المعلمين ، وأول ما يجب على المهيمن على شئون التعليم أن يثق بالمربي والمعلم . فإن لم يفعل هذا ، وأبى إلا أن يندس بين المعلم وتلميذه في كل لحظة ، ويشعره بأنه من ورائه يقيد أنفاسه ويحصى أخطاءه ما صغر منها وما كبر ، أفسد عليه أمره ، وأفسد التعليم كله ، وصار المعلم ينظر إلى هذا المهيمن على التعليم نظرتة إلى الحاكم المستبد الذي يدفع إليه أجراً ويتقاضاه عملاً ، فصانعه وخادعه ، وقامت التهمة بينه وبين رئيسه مقام الثقة ، وقام الخوف والشك بينهما مقام الأمن واليقين ؛ « ولم يعد ينظر إلى التلميذ على أنه أمانة قد أوتمن عليها ، ووديعة قد كلّف حمايتها وحياطتها ، وفرد من أفراد الشعب قد كلف تربيته وتنميته ، وتعهده بالرعاية والعناية ، حتى ينمو ويزكو ويصير رجلاً ، وإنما

---

(١) مستر (مان) خبير إنجليزي في التعليم استقدمه الأستاذ علي الشامي وزير المعارف كما استقدم

مستر (كلاباريد) السويسري الخبير بشئون التعليم ، وقدم كل منهما تقريراً لوزارة المعارف سنة ١٩٢٨ .

ينظر إليه على أنه مادة للعمل الذي يعيش منه ، وموضوع للنشاط الذي يكسب منه القوت ، فيعامله معاملة المادة الجامدة الهامدة ، لا معاملة الكائن الحي ، ولا معاملة الإنسان الناطق<sup>(١)</sup> » ، ويصوغ هذه المادة كما يجب أن يكون هذا الرئيس لا كما يجب أن تكون ، ويصبح هذا المعلم آلة من الآلات ، وأداة من الأدوات في هذا المصنع العقيم السخيف الذي نسميه المدرسة •

وإليك ما يقوله مستر ( بويد كاربنتر ) : « على المستر ( دانلوب ) تقع تبعة فساد التعليم المصري ، والرجوع به القهقري ، وإخراج موظفين جل اعتمادهم في أثناء دراستهم على الاستظهار والحفظ ، لا على القوى العقلية السامية الأخرى : من التعقل والموازنة ، والابتكار ، والاستنباط • وقال : إن الطالب المصري يعتمد في تحصيله على ذاكرته ، وعلى التكرار الآلي للحقائق المحفوظة ، لا على ذكائه وتفكيره ، فينشأ عن ذلك ضيق أفقه ، وجهله بالحوادث المعاصرة ، وحاجته الشديدة للمعلومات العامة وللسرور والإقبال على ما يدرس »<sup>(٢)</sup> •

لم يكن ( دانلوب ) مخلصاً لمصر ، بل كان استعماريّاً من النوع الذي يسيء لبلده وللبلد المحكومة على السواء ، فسياسته التعليمية لم تكن هي التي تنتهجها إنجلترا في تعليم أبنائها ، وتربية شبابها ، لأن الإنجليز قد اشتهروا بنوع من التربية فيه كثير من المزايا ، التي تبعث في الشباب الحرية في العمل والتفكير ، والاعتماد على النفس ، والمغامرة في الحياة ، وارتياح مجهولاتها ، وبفضل هذه التربية الاستقلالية التي لا تحدها نظم مدرسية صارمة ، ولا قوة قوانين ظالمة ولا مناهج غاصة بالتافه من المعلومات ، وإنما عمادها الطبيعة ، طبيعة الوجود ، وطبيعة الطفل ، ودراسة ميوله وغرائزه ، وتنمية ملكاته إلى أقصى حد تستطيع أن تصل إليه ، استطاعوا بفضل ذلك كله أن يكونوا في طليعة الأمم ، وأن تتسع امبراطوريتهم وتجارتهم ، ولم يرضوا بالحياة الضنكة في ديارهم إذا قُتِرَ عليهم في أرزاقهم ، بل جابوا البحار ، والصحارى ، والغابات ، واستوطنوها واستغلوها ، ثم لما كثرت مصالحهم طالبوا دولتهم بحمايتهم ، فبسطت سلطانها على كثير من بقاع الأرض •

(١) مستقبل الثقافة في مصر للدكتور طه حسين ص ١٧٠ - ١٧١ •

(٢) تقرير مستر بويد كاربنتر Boyed Carpenter رئيس التفيتش بوزارة المعارف سنة ١٩١٨ •

ولقد كانت التربية في إنجلترا موضع تقدير من مفكري أوروبا ، ولا سيما فرنسا التي يعامل فيها الطفل منذ حدوثه معاملة الرجل ، فيغشى مجالس الرجال ، ويستمع إلى أحاديثهم التي يجدر به ألا يسمعها ، والتي لا يصح أن يستمع إليها ، ويقضي معهم سهرته في الوقت الذي يجب أن يأوي فيه إلى فراشه ، ويلبس أهل السراويل الطويلة تشبها بالرجال ، وهو في أمس الحاجة إلى الهواء والشمس . وعلى العموم لا يعاملونه معاملة طفل ينمو ، له رغباته التي يجب أن تحترم في حدود المعقول ، ويجب أن توجه برفق إلى الخير ، ولا يتركونه للطبيعة يتملى من محاسنها ومفاتها ، ويتلقى عنها دروس الحرية والكرم والشجاعة<sup>(١)</sup> ، وإنما يعاملونه معاملة رجل مثلهم . كانت التربية الاستقلالية هذه معمولا بها في إنجلترا على الرغم من أن إنجلترا لم تشتهر بعلماء التربية والنظريات التربوية كما اشتهر سواها من الأمم .

ومما يدل على تقدير المفكرين لتربية النشء في بلاد الإنجليز ما قاله العلامة (جوستاف لوبون) من : « أن المبدأ الأساسي في التربية التي يسير عليها الإنجليز هو أن يقضي النشء زمن الدراسة في المعاهد والمدارس والكليات ، لا ليؤدبه سواه ، ولكن ليتعلم إلى الحد الذي يمكنه من أن يستخدم استقلاله الذاتي استخداما نافعا ، فالنشء لديهم يؤدب نفسه بنفسه وبذلك يتصف بهذه الخلقة الحميدة ألا وهي ضبط النفس ، وهي مصدر الحكم الذاتي »<sup>(٢)</sup> وعلى العكس من ذلك كله كانت سياستهم التعليمية في مصر .

وظلّت سوءات الإنجليز في تعليم الشعب المصري تؤتي ثمارها البغيضة ، حتى بعد أن تولى المصريون شئون التعليم ، إذ لم يكن من الميسور أن تتخلص من أضرار هذا العهد دفعة واحدة ، وقد ظل أكثر من ثلاثين عاما ، وسادت نظمه وقوانينه جميع مراحل التعليم ، لأن الجيل الذي تربى على أيديهم صار يملك قيادة المصريين في التعليم ، ويوجههم تلك الوجهة التي تربى عليها في صغره ؛ ولأن الفساد كان أعظم من أن يزول في سنوات معدودات ، ولذلك ظلت آثاره ردحا غير قليل من الزمن

---

(١) انظر كتاب ( التربية الاستقلالية ) أو إميل القرن التاسع عشر - ترجمة عبد العزيز محمد وراجع سر تقدم الانجليز السكونيين ترجمة فتحي زغلول .

(2) Gustave le Bon, Psychologie du Socialisme p. 197.

تسيطر على المدرسة المصرية • وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين : « وهناك التعليم الرسمي المدني تنشئه الدولة وتقوم عليه ، وقد كان إلى الآن متواضعاً هيئتين الأمر ، يقصد به إلى أغراض متواضعة هيئة ، وقد رسم له الإنجليز طريقة محدودة ضيقة ، فأفسدوا نتائج وآثاره أشد الفساد ونحن نبذل منذ أعوام جهوداً مختلفة مضطربة لإصلاح ما أفسد الإنجليز ، فلا نكاد نوفق في بعض الأمور ، حتى تعدو العاديات فتردنا إلى الإخفاق والخذلان<sup>(١)</sup> » .

وشكت الجامعة مرّة الشكوى من أن طلبتها ليسوا في مستوى ثقافي يمكنهم من الدراسة الجامعية الصحيحة ، ولأنهم ليسوا في مستوى عقلي يخلق منهم علماء أجلاء ، لديهم قوة الابتكار ، وحرية الفكر ، والاستقلال في الرأي ، وإليك ما يقوله نجيب الهلالي ( باشا ) في تقريره عن التعليم الثانوي سنة ١٩٣٥ : « ذلك إلى أن جميع المعاهد تشكو من أن الطلبة لا تتحقق فيهم الصفات المطلوبة للدراسة العالية ، من حيث روح التعقل ، وقوة الملاحظة ، والاعتماد على النفس ، وحب البحث ، حتى إنهم يضطرون أساتذتهم إلى إملاء الدروس عليهم املاء ، مما يعوق سير الدراسة العالية في صورتها الكاملة<sup>(٢)</sup> » .

ويقول الدكتور طه حسين : « فما زال الشبان يأتون إلى الجامعة ضعافاً قاصرين ، وما زال الشبان يستقبلون حياتهم جاهلين لها ، عاجزين عن التصرف فيها ، ضعافاً عن أن ينهضوا بأعبائها ، يذهبون إلى الدواوين موظفين فتشكو الدواوين من سوء إعدادهم للعمل فيها ، ويعرضون أنفسهم على أصحاب الأعمال الحرة ، فلا يكادون يجربونهم حتى يزهّدوا فيهم ويعرضوا أشد الإعراض عن استخدام زملائهم ، لأنهم لم يعدوا للأعمال الحرة إعداداً صالحاً<sup>(٣)</sup> » .

لقد كان همّ الإنجليز الأول من هذه السياسة التعليمية الفاسدة أن يخرجوا طبقة من الموظفين الحكوميين ، لم يتعمقوا في الدراسة ، ولا يصلحون للقيادة ، بل

---

(١) الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر ص ٧٢ سنة ١٩٢٨ .

(٢) تقرير الهلالي ( باشا ) ص ١ - ٢ .

(٣) الدكتور طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ص ٢٢٢ .

يكونون آلات في أيدي رؤسائهم من الإنجليز وأتباعهم • كان لهذا ولا ريب تأثير كبير في الأدب ، لأنه صبغ حياة الموظفين بصبغة مادية رخيصة ، ألا وهي السعي وراء الوظيفة ، لا ييغون بها بدلا ، ولا يستطيعون عنها حولا ، ولا يعرفون كيف يفكرون في سواها لاكتساب العيش إذا طردوا منها ، كأنهم السمكة جفء من حولها الماء ، أو الطيور حرمت الهواء •

وشعب هذه حال المثقفين فيه لا ينظر إلى الأدب إلا بمنظار المادة ، ولا يرى فيه ما يراه الغربيون من أنه وسيلة للتعبير عن مشاعر الأديب أيّا كانت هذه المشاعر والأحاسيس التي تفيض بها قلوبهم ، ووجداناتهم • ولذلك انصرف الأدباء إلى تملق الرؤساء ، وأصحاب الحول والطول ، يمدحونهم أحياء ويرثونهم أمواتا ، وقلما ركن أحدهم إلى نفسه يسمع هتافها الخالص ، ونداءها الحر ، فيسجله شعرا صادرا من أعماق فؤاده ، وطيّات نفسه ، ويخرج به على الناس ، براء من المديح والمداهنة ، والمخادعة والملاينة ، والنفاق الاجتماعي ، والغرض المادي ، ويأتي به صورة صحيحة لما يجيش في نفسه من خواطر ، ويعتلج في حناياها من مشاعر ، ويعتمل فيها من فكر •

ومن العجيب أن الثورة الفكرية ، التي أحدثها السيد جمال الدين الأفغاني بمصر ، وحمل مشعلها تلاميذه من بعده ، قد أطفأها الإنجليز بطريقتهم العقيمة في الثقافة والتربية ، ولم ينج من شرهم إلا نفر قليل شاهدوا هذه الثورة الفكرية في عنفوانها ، ورضعوا أفوايقها فظلوا إلى أوائل هذا القرن يحملون المشعل ، ويهدون الأمة سواء السبيل •

أما الشعراء فلم يتأثروا بهذه الثورة في قليل أو كثير ، ولم يلتفتوا كما التفت الكتاب إلى الشعب يفحصون عن علله وأدوائه وآلامه وآماله ، ويدعون فيه تلك الروح الوثابة ، بل انصرفوا إلى الأمراء والوزراء ، وذوي الجاه والمال يتملقونهم ويستجدونهم • لقد صار النثر بفضل ثورة جمال الدين ومحمد عبده وعبدالله نديم والمولحي وأضرابهم معبرا عن حاجات الشعب ، بينما ظل الشاعر بمنأى عن رغباته

ومطالبه ، مكبلاً بقيود الماضي .

حتى هؤلاء الذين تتلمذوا على البارودي لم يحاكوه في نبل أغراضه ، وصدق عاطفته ، وجمال تصويره لبيئته . لقد كان البارودي صادقاً في شعره حين يصف الريف المصري وما فيه من مناظر وزرع نضير ، وهدوء ، وشمس ضاحية ، وظل وريف ، وحين يرثي أحباءه وأقاربه وأصدقاءه ، وحين يصف بطولته وشجاعته في ميادين القتال ، ويصف بجانب هذا الميدان وطبيعته ، والأعداء وأحوالهم ؛ وحين يعبر عن ميوله السياسية ، وما قاساه على يد الخديو من اغتراب ومحنة ، وحين إلى الأهل والوطن ، ولم يمدح البارودي إلا نادراً ، ولم يرث إلا صديقاً أو حبيباً .

وعلى العكس منه نرى هؤلاء الذين انتهجوا نهجه في الأسلوب ، واغترفوا من تلك الينابيع العربية التي وردھا ، نراهم مداحين ، هجائين ، ندادين لكل عظيم . ويقول الدكتور طه حسين : « وأصبح الشعر بفضل الشعراء ، وكسلهم العقلي فناً عرضياً لا يحتفل به إلا للهو والزينة والزخرف ، فإذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناء الجديد طلب إلى شوقي قصيدة ، فنظم له شوقي هذه القصيدة ، وإذا أرادت ( دار العلوم ) أن تحتفل بعيدها الخمسيني كما يقولون طلبت إلى شوقي والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد ، فنظموا لها القصائد ، وإذا مات عظيم وأريد الاحتفال بتأيينه ، أو نبه نابه ، وأريد الاحتفال بتكريمه طلب إلى الشعراء أن ينظموا الشعر في المدح والرثاء ، فنظموا كما كان ينظمه القدماء ، فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسي الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والمآتم ، وأصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقي أو حافظ ، كما أننا لا نتصور عيداً أو مأتماً بغير مثنى أو مرتل قرآن . فأما الشعر الذي يقال لنفسه ، الذي يقال ليجلو مظهراً من مظاهر الجمال الطبيعي ، الذي يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذي يقال لا ليشملق عاطفة من العواطف ، أو هوى من الأهواء ، فلا تلتسمه عندنا ، ولكن التسمه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها فربأوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة<sup>(١)</sup> » .

وكان جمهور المثقفين يطرب لهذا النوع من الأدب ، لأنه لا يعرف غيره ، ولأنه

(١) الدكتور طه حسين : حافظ وشوقي ص ١٤٩ - ١٥٠ .



يحكي تلك الألوان التي عرفها في المدرسة من الأدب العربي القديم ، ووعتها حافظته .  
وفضلا عن هذا كله فإن هذا النوع من الأدب كان نتيجة لازمة للتربية الإنجليزية في  
مصر ، التي اهتمت بتسمية الذاكرة ، وقدرتها على الاستيعاب ، وأهملت المواهب  
الإنسانية الأخرى كال تفكير والتأمل ، ودقة الملاحظة ، والابتكار العقلي ، والحرية  
في الرأي .

ويقول مستر ( مان ) في تقريره عن التعليم بمصر زمن الإنجليز : « يشهد  
الإنسان التلاميذ بالمدارس المصرية مشغولين في الغالب : إمّا بالإصغاء إلى المعلم ،  
وإمّا بتدوين مذكرات ، أو تذكر ما استظهروا ، وإمّا بعمل تمرينات متماثلة ،  
وبسرعة واحدة ، وتحت رقابة صارمة . ويندر أن يقع النظر على تلاميذ يعملون  
عملا مستقلا ، أو يطالعون مطالعة خاصة » .

ويقول في موضع آخر من تقريره : « إن من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى  
تدليل أن طريقة الاستظهار ليست بالطريقة الصالحة لتحصيل العلم ، إذ أن كل محاولة  
لاستعمال قوة الحفظ ، وهي من المدارك الدنيا — بدلا من قوة الفهم — وهي من  
المدارك العليا — لا بد أن تؤدي إلى إضعاف قوى التصور ، والتعقل ، والاستنباط ،  
لأن الملكات التي لا تستخدم يصيبها الوهن » <sup>(١)</sup> .

ويقول الدكتور هيكمل : « يجب أن نعترف ، ونفوسنا يملؤها الحزن والأسى ،  
أن تربيتنا وتهذيبنا ، لم يعدّا أكثريننا للتأثر الفردي ، والإحساس الذاتي ، فهما  
لا يرسمان أمامنا مختلف صور الحياة ، ويتركان لحسنا وفكرنا أن يميز من هذه  
الصور ما يأخذ بهما ويلفتها لفتات خاصة . بل هما يجيئان بصور الحياة منصوبة  
في قوالب قرررتها الجماعة في عصور سالفة فيطبعاها في حسنا وفكرنا طبعاً يقيدهما  
بهذه القوالب ، ويكرهما على الخضوع لها والإيمان بها » <sup>(٢)</sup> .

ويقول في موضع آخر : « وإنما رجأؤنا أن تصدر الثورة المجددة التي ينبعث  
أصحابها في طلب الكمال الشعري لذاته عن الجيل الجديد ، الذي يتلقى العلم اليوم ،

(١) تقرير مستر ( مان ) ص ٤٣ .

(٢) ثورة الادب ص ٦٥ .

والذي نجاهد كلنا في سبيل تلقينه إياه ، على غير تلك القواعد القديمة ، التي كانت تبعث الجمود في الأذهان والتلوب والعواطف • وعلينا إذا أردنا معاونته على القيام بهذا الواجب أن نعاونه على تقرير حرية العاطفة بمقدار ما أعناه على تقرير حرية الفكر ، وأن نوسع أمامه من آفاق الفن بمقدار ما نوسع من آفاق العلم ، وأن نعرض عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار ، فإذا نحن قمنا بهذا الواجب كان لنا أن نؤمل من بين هذا الجديد ، في أولئك الأفاضال الذين يقيمون صرح الشعر على أسس صالحة ، والذين يجعلوننا نحس إذ نشد شعرهم بآثلاف جواب نعمته مع سائر أنغام الحياة الحاضرة وصورها ، بدل أن نرى أنفسنا كمن يشدو بقيثارته وسط الأطلال ، يريد أن يبعث أمام خياله حياة ليس لها بشيء مما في حياته اتصال « (١) •

عمد الشعراء إلى استظهار كثير من الأدب العربي القديم ، حتى يستقيم لهم الأسلوب ويتملكوا ناصية القافية ، ويكثر محصولهم من الكلمات والتعابير • بيد أن هذا الاستظهار أورثهم الجمود ، والتقليد للأدب العربي القديم : في أساليبه ، وصور بيانه من كناية واستعارة وتشبيه ومجاز ، وفي موضوعاته • ولم يستخدموا اللغة التي أحاطوا بمفرداتها في أغراض عصرهم ، وتصوير بيئتهم ، والتعبير عن خلجات نفوسهم ، وهزات مشاعرهم ، في صور من البيان جديدة مستمدة من بيئتهم الحضرية ، ومدى بيئتهم الحديثة ، وإنما احتذوا حذو الشعراء الأقدمين في كل شيء ، وعارضوهم في مشهورات قصائدهم •

وإذا كان المديح ، والتهاني ، والرثاء ، من خير ما ورثناه عن الشعر العربي القديم ، وإذا كان الشعراء الذين سلكوا هذه الطريق خلدوا في الأدب العربي ، فما ذاك إلا لأن عصرهم كان يمجّد هذا النوع من الأدب ، ولأن الحياة الاجتماعية كلها تدور حول الأمير ، بيده السلطات : الدينية والدنيوية ، وهو ووزرائه ، وأهل بيته أصحاب الجاه والمال ، وهو المتصرف المطلق في حياة الشعب ، إن كان صالحاً سار فيهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وحكم بالعدل • وإن كان فاسداً ذاقوا على يديه ، وعلى أيدي ولاته ضروب الذلة والمهانة ، فلا بدع إذا أغدق الشعراء على

هذا الأمير الثناء ، ليحرضوه على فعل الخير ، وليرسموا له الطرق الصالحة التي تسعد الشعب وتسعدهم .

ولولا خلال" سنّها الشعر ما درى بناة العثلا من أين تؤتى المكارم

وبذلك كان الأدب في العصور الإسلامية السابقة أدباً أرسقراطياً . أمّا نحن فقد تغيرت بنا صروف الزمن ، ولم يعد الأمير هو كل شيء في حياتنا ، وصارت للشعب حقوق يجب أن تحترم ، وآمال لا بد أن تتحقق ، وصارت الأمة تنادي بأنها مصدر السلطات ، ولم يعد الأمير وحاشيته ووزرائه مصدر المال دون سواهم ، بل تعددت سبل الكسب أمام الشعراء فلا معذرة لهم .

لم يفتن أدباؤنا إلى كل ذلك ، بل نقلوا إلينا الأدب القديم في كل صوره ، وعارضوا كبار الشعراء في العصر العباسي ، أمثال أبي تمام ، والبحري ، والمتنبي . فجاءت قصائدهم في كثير من معانيها وألفاظها وصور بيانها متأثرة بقصائد الأولين .

إن اللغة توقيفية ما في ذلك ريب ، ولا بد للأديب الذي ينبغي التفوق والخلود من أن يلم بها إلماماً تاماً ، ويعرف أسرارها ودقائقها وشتى أساليبها ، ولن يتأتى له ذلك إلا بإدمان القراءة في كتب الأدب قديمها وحديثها ، وحفظ الجيد من روائع الشعر والنثر . ولكن الذي نلوم عليه الشعراء في ذاك الوقت هو جمودهم ، وتقليدهم لهذا الأدب موضوعاً وأسلوباً وبياناً ، مع أن صور البيان القديمة لا يناسب كثير منها العصر الذي نعيش فيه . إن ألفاظ اللغة مثل اللبّينات التي يشيد بها البيت ، وهندسة البيوت تتغير من عصر إلى عصر تبعاً لحالة الناس من البداوة والحضارة ، والغنى والفقر ، والتعليم والجهل . فإذا كنا في عصرنا الحاضر نشيد بيوتاً كما كان يشيدها العرب في العصر العباسي ، ولا نلتفت إلى ما يتطلبه عصرنا ، وما عرفناه عند غيرنا من فن حديث في البناء ، كان ذلك ولا شك سوء استعمال . وإذا وصف (شوقي) مركب أم المحسنين بالهودج ، مع أنها كانت تركب سيارة فخمة تطوي الأرض طياً ، وحفلت بشتى ألوان الراحة ، كان ذلك أيضاً سوء استعمال ، وسوء اختيار . والله كدرٌ حافظ إبراهيم حين وصف الشعر في ذلك الوقت ، وصرخ صرخة مدوية يطلب فيها التجديد بقوله :

ملأنا طباق الأرض وجنداً ولوعة  
ومكثت بنات الشعر مناً موافقاً  
وأقوامنا في الشرق قد طال نومهم  
تغيرت الدنيا ، وقد كان أهلها  
وكان يريد العلم غيراً وأينثقا  
فأصبح لا يرضي البخار مطية  
وقد كان كل الأمر تصويب نبلة  
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل  
عرفنا مدى الشيء القديم، فهل مدى

بهند ودغدغ والرباب وبوزع  
يسقط اللوى والرقمتين ولعلع  
وما كان نوم الشعر بالمتوقع  
يرون متون العيس ألين مضجع  
متى يغنيها الإيجاف في اليد تظلم  
ولا السلك في تياره المتدفع  
فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع  
نغني بأرماع ويض وأذرع  
شيء جديد حاضر النفع ممتنع ؟ ؟

وحين قال مخاطباً الشعر :

ضعت بين النهى وبين الخيال  
ضعت في الشرق بين قوم هجود  
قد أذالوك بين أنس وكاس  
ونسيب ومدحة وهجاء  
حملوك العناء من حب ليلي  
وبكاء على عزيز تولى  
وإذا ما سموا بقدرك يوماً  
فارفعوا هذه الكمائ غنا

يا حكيم النفوس يا ابن المعالي  
لم يفيقوا وأمة مكسال  
وغرام بظية أو غزال<sup>(١)</sup>  
ورثاء وفتنة وضلال  
وسليمى ووقفلة الأطلال  
ورسوم راحت بهن الليالي  
أسكنوك الرحال فوق الجمال  
ودعونا نشم ريح الشمال<sup>(٢)</sup>

نعم إن حافظاً قد رغب في التجديد ، ولكنه لم يستطع التجديد إلا في حدود ضيقة ؛ إذ جدد في أغراضه ، وإن لم يجدد في صورته ، وسنخصه بحث طويل

(١) أذالوك : أهانوك ولم يحسنوا القيام عليك .

(٢) ريح الشمال : كناية عن أوروبا والادب الغربي .

إن شاء الله • ولكن صيخته هذه تدل على ما كان عليه الشعر في أول عهده ، وعلى الرغبة الملحة في مسايرة العصر ومقتضياته • لقد جنى الإنجليز بسياستهم التعليمية على الأدب بعامة ، وعلى الشعر بخاصة ، وإذا كانت هناك نهضة في الأدب بعد ذلك فهي ليست ثمرة تعليمهم ، وإنما هي نتيجة بواعث أخرى سنذكرها فيما بعد إن شاء الله •

رأى ( كرومر ) بعد أن فرغ من الإصلاحات المالية والداخلية التي من بها علينا في كتابه ( مصر الحديثة ) وفي خطبة الوداع التي ألقاها حين غادر مصر ، وعدّد فيها ما ظنه خيراً قدّمه لمصر ، رأى بعد هذا أن يلتفت إلى نشر الثقافة الإنجليزية بالبلاد ، ونسي أن إصلاحاته المالية والداخلية كلها قد احبطتها سياسته التعليمية حتى دعت شاعراً مثل حافظ أن يقول مخاطباً « اللورد كرومر » :

|                                                    |                                                  |
|----------------------------------------------------|--------------------------------------------------|
| تَمَنُّ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَنْ أَخْصِبَ الثَّرَى | وَأَنْ أَصْبَحَ الْمِصْرِيُّ حُرّاً مُنْعَمًا    |
| أَعَدَّ عَهْدَ (إِسْمَاعِيلَ) جَلْدًا وَسُخْرَةً   | فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَنْ أَنْكَى وَأَلْمَا      |
| عَمَلْتُمْ عَلَى عِزِّ الْجُمَادِ وَذَلَّتْنَا     | فَأَعْلَيْتُمْ طِينًا وَأَرْخَصْتُمْ دِمَا       |
| إِذَا أَخْصَبْتَ أَرْضَ " وَأَجْدَبَ أَهْلَهَا     | فَلَا أَطْلَعْتَ نَبْتًا وَلَا جَادَهَا السَّمَا |

وإلى أن يقول مودعاً له ومثيراً إلى مأساة التعليم على عهده :

|                                                   |                                                   |
|---------------------------------------------------|---------------------------------------------------|
| يَنَادِيكَ قَدْ أَزْرَيْتَ بِالْعِلْمِ وَالْحِجَا | وَلَمْ تَبْقِ لِلتَّعْلِيمِ يَا (لَرْد) مَعْنَهَا |
| وَأَنْكَ أَخْصَبْتَ الْبِلَادَ تَعَمُّدًا         | وَأَجْدَبْتَ فِي مِصْرَ الْعُقُولَ تَعَمُّدًا     |
| وَأَوْدَعْتَ تَقْرِيرَ الْوُدَاعِ مَغَامِرًا      | رَأَيْنَا جَفَاءَ الطَّبَعِ فِيهَا مَجْبُودًا     |
| يَنَادِيكَ ! أَيَّنَ النَّابِغُونَ بَعْدَكُمْ     | وَأَيَّ بِنَاءٍ شَامَخَ قَدْ تَجَدَّدَا ؟         |
| فَمَا عَهْدُ إِسْمَاعِيلَ وَالْعِيْشِ ضَيْقُ      | بَأَجْدَبَ مَنْ عَهْدٍ لَكُمْ سَالِ عَسْجَدَا     |

وليس هذا كل ما جناه كرومر على عقول المصريين ، فمساويه في نشر الثقافة

الإنجليزية في البلاد عثوةً وفرض اللغة الإنجليزية على البلاد قسراً قد جعلت عهده من أسوأ العهود التي مرّت على مصر العربية الإسلامية .

راع كرومر حينما فكر في نشر الثقافة الإنجليزية ذلك البناء الضخم من الثقافة الفرنسية الذي شيده هيم الإرساليات التبشيرية ، والبعثات العلمانية ، وتشجيع الحكومة الفرنسية وأموال رجال الاقتصاد والأعمال من أهل فرنسا . وهالته كثرة المدارس الفرنسية بمصر ، وحماسة هؤلاء الذين تعلموا بها ، أو في فرنسا ذاتها لنشر اللغة الفرنسية وآدابها . ورأى أن الفرنسيين قد بذلوا غاية جهدهم لمساعدة هؤلاء الذين يتخرجون في مدارسهم فاشترطوا على الإنجليز — أول سني الاحتلال — أن يظل لهم النفوذ الأول ببعض المصالح الحكومية ، كما كان قبل الاحتلال ، فخلصت لهم إدارة مصلحة الآثار المصرية ، التي أشرفوا عليها منذ أن اكتشف ( حجر رشيد ) . وخلصت لهم كذلك إدارة مدرسة الحقوق ، واستولوا بأموالهم وقروضهم وشركاتهم ، ومؤسساتهم التجارية على أكثر من نصف المصالح الاقتصادية والأموال المنقولة بمصر<sup>(١)</sup> . ووجد الشبان المصريون والأجانب الذين يتخرجون في مدارسهم مجال العمل فسيحاً في شركاتهم ومؤسساتهم الاقتصادية والمالية كما ذكرنا آنفاً .

ولا تتشار نفوذهم بين الأجانب وإقبالهم على مدارسهم صارت اللغة الفرنسية هي لغة المعاملات التجارية سواء بين الأجانب بعضهم وبعض أو بينهم وبين المصريين ، واضطرت المحاكم المختلطة أن تصدر تسعة أعشار أحكامها باللغة الفرنسية ، فضلاً عن الموظفين الذين يجب عليهم أن يحسنوا هذه اللغة ليتعاملوا مع جمهور المتقاضين .

وعلى الرغم من الاحتلال الإنجليزي ، وطول أمد ، والمحاولات التي بذلها كرومر ، وبذلها ( دانلوب ) من بعده فقد ظلت اللغة الفرنسية هي اللغة الأولى في السوق المصرية رَكدًا طويلاً وظلت لغة التخاطب بين الأجانب المختلفي الجنسية المقيمين بمصر . لقد استجابت فرنسا والفرنسيون لنصيحة فابليون التي يقول فيها : « علموا اللغة الفرنسية ففي تعليمها خدمة الوطن الحقيقية » .

---

(١) جاء في تقرير لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب الفرنسي حين عرضت عليه معاهدة (مترو) لالغاء الامتيازات الأجنبية بمصر . أن رؤوس الاموال الأجنبية بها تبلغ ٥٠ ملياراً من الفرنكات من مجموع ما فيها من رؤوس الاموال المنقولة وقدره ٥٥ ملياراً . وأن للفرنسيين وحدهم من الاموال التي يملكها الأجانب ٣٠ ملياراً من الفرنكات ( الامرام ١٠ يونيو ١٩٢٨ ) .

رأى كرومر المستعمر الإنجليزي الأول كل هذا النفوذ للثقافة الفرنسية ، ورأى أن قدم الاحتلال لن تطمئن بهذه الديار إلا اذا عمل على إضعاف هذا النفوذ الفرنسي المكين ومكن للغة الإنجليزية ، وأجبر المصريين على قبولها لغة أجنبية لها المكانة الأولى في البلاد وقد سلك في تحقيق هذه الغاية عدة طرق منها •

الكف عن إرسال البعثات إلى أوروبا بعامة ، وفرنسا بخاصة ؛ لأنه رأى رأي رآي العين ما قدّمه رجال البعثات لوطنهم من أيادٍ بيضاء في كل سبيل من سبل النهضة ، وكل باب من أبواب القوة ، منذ عصر محمد علي حتى زمن الاحتلال المشؤوم ، وأن هؤلاء الرجال الذين اختيروا من صميم الريف صاروا فيما بعد القادة المفكرين ، والعلماء الناصحين ، والساسة القادرين ، وأنهم نهضوا باللغة العربية نهضة عظيمة فدبت فيها روح الحياة ، وأخذت تستعيد سابق قوتها بترجمة كثير من الكتب العلمية في الطب والهندسة ، والهيل (الميكانيكا) ، والرياضة والقانون ، والجغرافيا والتاريخ ، والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك على النحو الذي فصلناه في الجزء الأول من هذا الكتاب •

أجل ! بدأت اللغة العربية تسير ركب الحياة وتغنّى بالمصطلحات العلمية التي زودها بها هؤلاء العلماء الأجلاء الذين عكفوا على الكتب العربية القديمة ينقبون فيها ما عساه يصلح للحضارة الحديثة ؛ فإن استعصى عليهم شيء عربوه ، أو وضعوا له كلمات •

رأى كرومر هذا الأثر الجليل الذي يتركه رجال البعثات في مصر ، فغزّ عليه أن تظل هذه النافذة التي ينسكب منها نور العلم على ربوع وادي النيل مفتوحة ، وهو الذي يريد أن يمكن للاستعمار الإنجليزي في هذه الديار ، ولن يتأتى له ما يريد إلا إذا ظلت مصر في ظلام دامس ، تتخبط في طريق مضلة ، متخلفة عن ركب المدنية ؛ لا تجد لها قائداً رشيداً ولا تسمع رأياً سديداً فيوجهها الغاصبون كما يشاؤون ؛ ولهذا أرغم الحكومة المصرية على إلغاء البعثات إلى فرنسا ؛ فصدر بذلك قرارها في أواخر أغسطس سنة ١٨٩٥ ، وكان لهذا القرار ضجة صاخبة في الجرائد المصرية والفرنسية على السواء (١) •

(١) راجع المؤيد عدد ٢٣ سبتمبر ١٨٩٥ ، ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ط ثانية ص ٦٠ •

ولقد نجم عن هذه السياسة الاستعمارية البغيضة أن ضعف نفوذ اللغة العربية على مر الأيام حتى تجنى عليها بعض ساستهم ، ورماها بالفقر والعقم ؛ وفي ذلك يقول ( اللورد جراي ) حين سئل في مجلس العموم البريطاني عن تعليم اللغة العربية بمصر : « لا تصلح اللغة العربية اليوم لتعليم العلوم ؛ إذ تفتقر إلى الاصطلاحات العلمية والفنية »<sup>(١)</sup> ، ولست أدري كيف ينتظر الإنجليز من اللغة العربية أن ترقى ، وتغني بالمصطلحات العلمية والفنية ، وقد أوقفوا تيارها المتدفق وحالوا بينها وبين العلوم الحديثة في بلاد الغرب ؟ ؟ .

وكان من الطبيعي كذلك أن يتناقص عدد المثقفين ثقافة ممتازة ، والذين يستطيعون التدريس بالمعاهد المصرية العالية ، فحلَّ محلهم إنجليز يلقون دروسهم بلغتهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الترجمة ، أو أن تكون ثمة واسطة بينهم وبين الطلبة كما كان الشأن في عهد محمد علي . ولم يكن الطلبة المصريون قد حذقوا اللغة الإنجليزية إلى الدرجة التي تمكنهم من فهم ما يلقي عليهم لأول وهلة ، ولذلك لجئوا إلى الحفظ والاستظهار ، كي ينجحوا في الامتحان وصاروا آلات صماء لا تفكر ولا تعي ، ولا تقدر على الابتكار أو التجديد ، وبعد كل هذا نسمع من أحد علمائهم وهو السير ( وليام ولكوكس ) المهندس المشهور يقول في طلبة مدرسة الهندسة : « لقد كنا نؤمل خيراً كثيراً في طلبة مدرسة الهندسة في الأيام الأخيرة ، بيد أنهم لم يتدعوا شيئاً ذا بال ، وكل ما عملوه أنهم نقلوا أفكار من كانوا أسعد منهم جداً ، وتعلموا دروسهم . وقرأوها في كتبهم »<sup>(٢)</sup> .

وطالما ألح المصريون على الإنجليز في أن تستأنف البعثات العلمية طريقها إلى أوروبا ، ولكنهم كانوا يجيبون في غطرسة بالغة : بأن المصريين ليسوا أهلاً للتدريس بالمعاهد العالية ، ولو تلقوا علومهم في معاهد الغرب . ولم يكتفوا بهذا بل عبثوا بمدرسة المعلمين ( الخوجات ) التي كانت تعد المصريين لتدريس اللغات الأجنبية ، والرياضة والعلوم ( النور مال فيما بعد ) ، وصاروا يفتحونها عاماً ، ويغلقونها عاماً ، فأصبح لا يقصدها إلا كل مرتاب في مستقبله ، عالم أن منتهى أمره أن سيكون

(١) جريدة اللواء ٣ مارس ١٩٠٧ .

(2) Sir William Willcocks : Syria, Egypt, North Africa and Malta Speak punlic, not Arabic. 13, London 1926.



معلماً صغيراً في مدرسة ابتدائية بمرتب يتناول مثله كاتب بسيط في أحد الدواوين<sup>(١)</sup> . ولما لم يجد الإنجليز من المصريين من يصلح للتدريس في المدارس الثانوية — بعد أن حالوا بينهم وبين الاستعداد لتلك المهمة — تذرعوها بذلك ، وملئوا المدارس الثانوية بالإنجليز . وكان من الطبيعي أن تحوّل الكتب من العربية إلى الإنجليزية . بل إنهم فرضوا على تلامذة المدارس الابتدائية أن يتعلموا اللغة الإنجليزية ، وجعلوا إتقان هذه اللغة شرطاً للتوظيف في الحكومة ، وأرغموا المرحوم علي باشا مبارك على أن يصدر قراراً في سنة ١٨٨٩ ينص فيه على أن تكون لغة التعليم في المدارس المصرية هي اللغة الإنجليزية .

وظلَّ الأمر على هذا المنوال ردحاً غير قصير من الزمن ، والمصريون يلحون في عودة اللغة العربية إلى المدارس المصرية ، والإنجليز يصمون آذانهم ، ويسيروا لطيتهم حتى بلغ التذمر غايته في سنة ١٩٠٨ ، وندّد عقلاء المصريين بهذه السياسة المعوجّة التي تهدف إلى القضاء على اللغة العربية ، وحرمان مصر أقوى دعائم شخصيتها المتميزة بها عن سواها . وفي ذلك يقول عثمان ( باشا ) غالب : « عرف الإنجليز أن أحسن واسطة لمحو وجود الشعب ، واستقلاله ، أي لقتله أدبياً ، هو محو لغته الوطنية أو إضعافها ، ألم يعرف ذلك الإنجليز المحبون للتوسع في الملك من التواريخ القديمة ؟ إنهم عرفوه ، ولكي يبلغوا إلى هذا الغرض ساروا تحت رداء الشروع في الإصلاحات ، فألفوا الجمعيات ، واللجان عقب اللجان ، بمهارة وفكر ، وكانت نتيجة مناقشتهم أن قرروا أموراً كانت مكتوبة ومسجلة من قبل ، ويكفيني لإثبات هذا الأمر للناس أن أحول أنظارهم إلى تلك الطرق التي اتبعوها لمحو اللغة الفرنسية من مدارسنا<sup>(٢)</sup> » .

ولا جدال في أن وقف البعثات إلى فرنسا قد أضعف نشر الثقافة الفرنسية في البلاد ، وبخاصة على أيدي هؤلاء الذين كانوا يغشون معاهد فرنسا ويعودون حاملين لواء الثقافة الفرنسية . ولما أبرمت معاهدة سنة ١٩٠٤ بين إنجلترا وفرنسا ، تلك المعاهدة التي أطلقت يد إنجلترا في مصر ، على أن تخلّص مراكش لفرنسا ، هدأ بال الإنجليز نوعاً ما ؛ لأن فرنسا كانت متزعمة مناهضتهم بمصر ، وطالما رأى

(١) الشيخ علي يوسف : المؤيد ٢ مارس ١٩٠٧ .

(٢) مقالة النهضة المصرية ومسألة التعليم — عثمان باشا غالب — اللواء ٦ مارس ١٩٠٧ .

فيها طلاب الحرية من المذيين نصيراً قوياً يفسح لهم صدره ، ويشجعهم في صحفه وأنديته<sup>(١)</sup> . وقد شجع ذلك مستر ( دانلوب ) بعد أن عين مستشاراً للمعارف على أن يقوض آخر المعادل الفرنسية في المدارس المصرية ، فأخذ في مضايقة ( مسيو لامبير ) ناظر الحقوق ، حتى اضطره إلى التخلي عن وظيفته وعين بدلاً منه مستر ( هيل ) الإنجليزي ، وفي ذلك يقول ( مسيو لامبير ) مندداً بسياسة دانلوب ومظهراً عوار طريقته في شؤون التعليم :

« وقد حارب المستر دانلوب تقدم التعليم الفرنسي في مدرسة الحقوق بلا تبصر ، على حين أن تعليم الحقوق في هذه المدرسة لا يزال تعليمًا فرنسيًا ، ما دامت قوانين البلاد لم تغير تغيراً كلياً ... وقد مثل رواية مضحكة للتعليم العالي في مدرسة الحقوق فوقفت تعيين ما يحتاج إليه القسم الفرنسي من الموظفين ، وحجته في ذلك أن مصير هذا القسم إلى الزوال في القريب العاجل ، وطرده من القسم الأكبر وهو الذي تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الإنجليزية الأساتذة الأكفاء الذين قاموا بأمره في مبدأ تأسيسه ، وهم من القضاة الذين أفادتهم إقامتهم الطويلة في الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا ، واستبدل بهم شباناً من الإنجليز يعينون بمجرد تخرجهم في الكلية الإنجليزية فيقدمون إلى مصر وهم والطلبة المكلفون بتعليمهم سواء في الجهل بالقوانين المصرية<sup>(٢)</sup> » .

ثم التفت الإنجليز بعد ذلك إلى المدارس الفرنسية بمصر ، ورأوا أن خير وسيلة لإضعاف نفوذها ، والتقليل من الإقبال عليها أن يظهر عييدهم بمظهر الغيور على مصلحة المصريين ، الذي يخشى من طغيان الثقافة الأجنبية على من يغشى المدارس الفرنسية منهم ، ولذلك أوجب تعلم كل العلوم باللغة الإنجليزية في المدارس المصرية ، ليجد المصريون فيها غناء عن المدارس الأجنبية ، ويحذقون في الوقت ذاته لغة حية راقية من اللغات الأجنبية وهي الإنجليزية . وشجع كرومر الإنجليز على العمل بالمدارس المصرية معلمين ونظاراً ، وعمل هؤلاء من جانبهم على الدعاية للغة الإنجليزية ، وصبغت المدارس العالية كالطب ، والزراعة ، والهندسة ، والمعلمين ،

(١) راجع تاريخ مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ١٦٩ ط ثانية .

(٢) نشر مسيو لامبير مقالة طويلة عقب إقالته من منصبه في جريدة ( الطان ) الفرنسية ، وهي وثيقة هامة تبين مبادئ دانلوب في التعليم ، وقد ترجمها اللواء ، راجع مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٢٤٥ — ٢٤٩ .

بصبغة إنجليزية خالصة ، فلم يجد الطالب مندوحة إذا أراد أن يتم تعليمه العالي إلا أن يجيد اللغة الإنجليزية حتى يستطيع متابعة الدراسة في المدارس العالية ؛ بل اشترط كرومر على كل موظف بالدولة أن يجيد هذه اللغة ، ليتمكن من التفاهم مع رؤسائه الإنجليز الذين استولوا على كل المصالح والدواوين .

وبهذا قل " نوعاً ما نفوذ الثقافة الفرنسية في كثير من مصالح الدولة ومعاهدها . بيد أن هذا لم يذهب كل ما لها من قوة ، بل أتى اضطهاد كرومر لها بنتيجة لم يكن ينتظرها ، وذلك لأنه أخطأ السبب الحقيقي الذي دفع بالمصريين والأجانب للتعلم في المدارس الفرنسية ، وذلك السبب هو أن التعليم بالمدارس الفرنسية ، كان أرقى نوعاً وأتم نظاماً منه في المدارس الأخرى ، ولم يكن وراءه غاية استعمارية ظاهرة . ولو كان السبب هو مجرد رغبة المصريين في تعلم لغة أجنبية تقل الإقبال على المدارس الفرنسية منذ أن فرضت اللغة الإنجليزية على المدارس المصرية في سنة ١٨٨٩ ، ولكننا رأينا العكس ، إذ اشتد الإقبال على هذه المدارس<sup>(١)</sup> حتى صار عددها مائة وعشرين مدرسة بها ما يزيد عن اثنين وأربعين ألف تلميذ وتلميذة . ولم تفلح كل الوسائل التي قدمها الإنجليز لجذب الأجانب المقيمين بمصر للإقبال على مدارسهم وذلك لأن معظم اقتصاديات مصر كانت في أيد فرنسية ، وكانت لا تزال هي اللغة السائدة في السوق المصرية . ولذلك قال أحد علمائهم داحضا مزاعم هؤلاء الذين تنبؤوا بتقلص ظل الثقافة الفرنسية من مصر : « لا حجة لما يقول به المتشائمون من أن نجم فرنسا في مصر قد أفل ، وأن لغة أخرى حلت محل الفرنسية في عاصمتي تلك الديار — القاهرة والأسكندرية — وما عليك إلا أن تسير بالشوارع الكبرى ، حتى تتحقق من ذلك وتسمع بأذنيك باعة الصحف ينادون بأسماء أكثر الجرائد اليومية انتشاراً مثل ( لا بورص إجبشيان ، والجورنال دي جييت ، والجورنال دي كير ) . وإذا شاهدنا عن بعد شخصين أجبيين مختلفي الجنسية يتحدثان ، فتأكد أن الحديث بينهما يدور باللغة الفرنسية — فهي اللغة الغالبة ، كما أنها لغة السياسة ولغة القضاء لأن تسعة أعشار القضايا التي تعرض أمام المحاكم المختلطة تستعمل فيها اللغة الفرنسية<sup>(٢)</sup> .

(١) راجع المؤيد في ٦ مارس ١٩٠٧ ، ومناقشة أعضاء مجلس النواب الفرنسي للتصديق على معاهدة

( منترو ) في الأهرام ١٠ يونية ١٩٢٧ .

(2) Lecarpentier : L'Egypte Modern. p. 165-166.

لقد كان هذا الصراع بين الفرنسية والإنجليزية على حساب اللغة العربية ، فأضعف شأنها ، وكاد يؤدي بها ، لأنَّ الطبقة المثقفة من أبناء الأمة الذين كان يرجى منهم العمل على إحياء اللغة العربية والنهوض بها ، صاروا لا يرونها في المدارس إلا لما . وأصبحت لغة التعليم لديهم هي اللغة الإنجليزية ، وبذلك أحجم كثير من العلماء عن التأليف باللغة العربية كما أن الطلبة عمدوا إلى الحفظ والتقليد في المدارس ، وكانوا أبعد الناس عن الابتكار والاستقلال في الرأي ، لأن هذه اللغة التي فرضت عليهم كانت أجنبية عنهم ولم يجدوا حيلة للنجاح في الامتحان إلا أن يحفظوا دروسهم بالإنجليزية حفظاً ، ولو لم يفهموا . أضف إلى كل هذا حرمان مصر البعثات والتعليم العالي الصحيح ، لأن التعليم العالي الذي كان موجوداً حينذاك فرض على الطلبة أن يستقوا العلم من منبع واحد لا يجيدون عنه ولا يعرفون سواه ويتقيدون بوجهة نظر واحدة ، ولا يسمعون لها مناقشة أو نقصاً ، وهيهات أن يجدي مثل هذا التعليم في تكوين ملكة البحث أو الابتكار ، أو التعمق في المادة أو الوقوف على أسرارها .

ولقد كان لكل هذا أثر في الأدب الحديث ونهضته ، إذ أوقفت اطراد نموه ، واكتمال قوته ، وجعلته لا يجد سبيلاً للتقدم إلا بتقليد الأدب العربي القديم وحده ، لولا بعض أمثلة قليلة ترجمت في تلك الحقبة من الآداب الغربية . ولذلك يقول هيوار : « ما فتئت اللغة العربية غارقة في الاستعارات القديمة ، وهي لا تستعمل إلا مجموعة من التعبيرات التي لا يتأتى فهمها إلا لأهل الثقافة ، مما يحول دون اتصالها بجمهرة الشعب لتحديثهم بما يفهمون . . فالمقالة السياسية في الصحف السيارة لا تكتب بغير النثر المسجوع ، وليست بلاغتها النافهة العقيمة ، ومرادفاتها الرامية إلى محاكاة مقامات الحريري إلا فكاهة للقارئ المثقف يتسلى بها . نود أن تأخذ اللغة العربية في المستقبل بجلاء التعبير ، وبساطة الأسلوب ، فإذا جاء يوم تتحقق فيه هذه الأمنية كان ذلك بداية عهد جديد للآداب العربية » (١) .

وقد كان المقدر للأدب العربي بعد أن نهض في أواخر عهد إسماعيل ، وأخذ

يتجه صوب الأدب الغربي ليفيد فكرة ، ومنهجاً ، ويجمع بين ما ورثه عن العرب ، وما تقدمه له أوربا ، وبعد أن ظهر أمثال محمد عثمان جلال وأديب إسحق ومن على شاكلتهم ، وبعد أن عرفت مصر في تلك الحقبة ألواناً مختلفة من الآداب الأوربية ، أن تزداد صلة الأدب العربي بالأدب الغربي ، ويأخذ عنه بعض أساليبه . ولكننا نلاحظ كما لاحظ الأستاذ ( جب ) ضعف المصريين في الأدب إبان هذه السنوات العجاف<sup>(١)</sup> ، حتى لقد مضى القرن التاسع عشر ولم تظهر فيه إلا شبه قصة مصرية هي ما كتبه محمد المويلحي في ( حديث عيسى بن هشام ) .

لقد امتدت يد الإنجليز للغة العربية في كل مكان ، ولم يبق إلا مدرسة واحدة ظلت اللغة العربية فيها تتمتع بشيء من القوة النسبية ، تلك هي ( دار العلوم ) ، ولقد حاولوا مرات أن يصبغوها صبغة إنجليزية لولا تدخل الشيخ محمد عبده صديق كرومر ، فكفوا أيديهم عنها . وقد رأس الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٤ الامتحان النهائي لدار العلوم ، وقدم تقريراً لناظر المعارف عن حال المدرسة جاء فيه : « وإني انتهر الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة في نفسي ، وما أعتقد من منزلتها في البلاد المصرية ، ومن اللغة العربية . إن الناس لا يزالون يذكرون اللغة العربية ، وإهمال أهلها في تقويمها ، ويوجهون اللوم للحكومة لعدم عنايتها بأمرها ، ولم أسمعه قط ينصفون هذه المدرسة ولا يذكرونها من حسنات الحكومة . فإن باحثاً مدققاً إذا أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، وجدها تموت في كل مكان ، ووجدها تحيا في هذا المكان » .

حقاً إن اللغة العربية في هذه الحقبة كانت تموت في كل مكان ، وتحيا في دار العلوم ، ولكن ماذا عساه تقدمه دار العلوم وحدها للغة العربية ، والمدارس مصبوعة صبغة أجنبية ، وإنجلترا تحاول أن تبدل لسان المصريين العربي الى لسان إنجليزي ، ويدها السلطان ، ووظائف الدولة ، وأبنائها هم رؤساء المصالح وذوو النفوذ فيها ؟ إذا كان ثمة خير قدمته دار العلوم في هذه الحقبة للغة العربية فهو حفظها للغة العربية من الضياع ، حتى أتيح لها ان تنهض فيما بعد نهضة قوية فارعة بعد أن تخلصنا من تلك السياسة الاستعمارية المشنومة .

(1) Gibb : B. S. Vol VII. Part. I. p. 2, 1933.

ولكن هل نجح الإنجليز حقاً في إماتة اللغة العربية في كل مكان ؟ إذا كانوا قد حاولوا أن يخرجوا جيلاً من المصريين يحذق لغتهم أكثر مما يجيد لغته في المدارس المصرية ، فإن الجيل الماضي كان قوي التأثير في الجمهور ، وهو المسيطر على الصحافة ، والصحافة مدرسة عامة . ولذلك شن الإنجليز حملة شعواء على اللغة العربية الفصحى ، وحاولوا أن يقنعوا المصريين بأن سبب تأخرهم في ميدان الحياة ، وتخلّفهم عن الأوروبيين في الابتكار الأدبي والعلمي يرجع إلى تسكّهم بلغة القرآن ، والأساليب العربية القديمة ، وأن الأولى لهم أن ينهضوا باللغة العامية حتى يسايروا ركب الحضارة ، فهي لغة حية ، دائمة التجديد ، ويفهمها جمهور الشعب ، ولا نهضة لأمة إلا إذا نهض سواد الشعب فيها ، وفهم ما يكتبه العلماء والأدباء ، ولن يفهم هذا إلا إذا كانت الكتابة باللغة العامية .

استمع لأحد دعائهم وهو السير ( ويليام ويلككس ) في خطبته التي ألقاها في نادي الأذربكية سنة ١٨٩٣ ، والتي جعل عنوانها : « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين ؟ » وذكر أن العامل الأكبر في فقد قوة الاختراع لديهم هو استخدام اللغة العربية الفصحى في القراءة والكتابة ، ونصحهم باتخاذ اللغة العامية أداة للتعبير الأدبي ، اقتداء بالأمم الأخرى واستشهد بالأمة الإنجليزية ، وقال : إنها أفادت فائدة كبيرة منذ هجرت اللاتينية التي كانت لغة الكتابة والعلم يوماً ما .

وكان هذا الرجل من أشد أعداء اللغة الفصحى ، وقد بذل غاية جهده لمحاربتها والقضاء عليها . وقد مكنته الظروف من أن تتول إليه مجلة الأزهر التي كان يحررها إبراهيم ( بك ) مصطفى والدكتور حسن ( بك ) رفقي ، في أواخر سنة ١٨٩٢ . واتخذها منبراً يتهجم فيه على لغة القرآن .

وقد ألقى خطبته السابقة في نادي الأذربكية بالإنجليزية ، وقد نشرها مترجمة إلى العربية في مجلته ، ولكنها كانت عربية ركيكة سخيفة<sup>(١)</sup> .

وقد ظل منذ ذلك الحين يكيّد للعربية ، ويوحى إلى أهلها بأنهم ليسوا عرباً ، وأن لا صلة لهم ولا للغتهم بالعرب ، بل ادعى ما هو أدهى ؛ إذ زعم أن اللهجة التي

---

(١) يوجد نص هذه الخطبة في مجلة الأزهر العدد الأول من السنة السادسة سنة ١٨٩٢ .

يتكلمها المصريون تمت إلى اللغة الفينيقية أو ( البونية ) كما سماها ، انحدرت إليهم منذ أن كان الهكسوس بمصر ، وأنه لا صلة لها بالعربية ، وأخذ يتلمس لذلك براهين مضحكة في كتابه الذي أشرنا إليه آنفاً ( سوريا ومصر وشمال أفريقية ومالطة تتكلم البونية لا العربية<sup>(١)</sup> ) وقد نشره في سنة ١٩٢٦ •

وفيه عدد الصعوبات التي يجدها المصريون في تعلمهم اللغة العربية ، ورأى أن تحل محلها اللغة العامية ، وأن يعمم التعليم بها ، وجعل مدة هذا التعليم عشر سنوات رأى أنها كفيلة بأن تمحو الأمية من مصر ، وعلى حد تعبيره ( كفيلة بأن تخلص المصريين من السخرة الثقيلة التي يعانونها من جراء الكتابة بالعربية الفصحى ) •

ولم يكتف بهذا ، لأنه رأى الأمة معرضة عن دعوته الاستعمارية الهدامة ، التي تنطوي على تعصب ديني بغيض ، وعلى نية استعمارية خبيثة ، لأنه وغيره من غلاة الاستعمار الإنجليزي يعلمون أن العربية لغة القرآن ، ولغة الشعوب العربية الممتدة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ، وأنها تربط بينهم برباط وثيق يحمل أمجادهم وتاريخهم وأديبهم ، وتراث أسلافهم الفكري الذي به يعتزون ، والذي يذكرهم بمجد تليد عليهم أن يعملوا على إحيائه وهم في فجر نهضة عقلية ، علم هذا ، ومن ثم أخذ يكدل للعربية ، ويحاول تمزيق هذه الوشائج المتينة بين العرب ، وبينهم وبين دينهم الذي يدعوهم للعزة والإباء والثورة للحرية • وقد فطن قادة الفكر في مصر إلى هذه الدعوة المسمومة التي روج لها باسم الشعب ، وباسم فقدان قوة الاختراع والابتكار ، فقاوموها مقاومة عنيفة •

لم يكتف ويلككس بهذا التهجم على العربية ، وكان يعتقد كما كان غيره من الأجانب يعتقدون ، أن السبب الذي يجعل العامية في مرتبة منخفضة ، وأن الناس لا يقبلون على تعلمها والاحتفاء بها لهو عدم وجود الكتب الأدبية المؤلفة بالعامية ؛ ومن ثم نشط ، ونشط غيره ممن يضرر مثل نيته من الأجانب إلى التأليف باللغة العامية ، فترجم قطعاً من بعض روايات شكسبير إلى العامية المصرية ، قطعة من هاملت ، وأخرى من هنري الرابع •

فجاءت ترجمة سخيفة ، وفقدت هذه الآثار الأدبية قيمتها وجمالها : لأن العامية

(1) Syria, Egypt, North Africa, and Malta Speak Punic not Arabic.

لم تسعفه بالتعبير الصحيح ، ولم تستطع أن تنهض بتلك المواقف الخالدة العنيفة<sup>(١)</sup> بل جاءت عبارتها سوقية مبتذلة .

وترجم كذلك بعض فصول من الإنجيل إلى اللغة العامية فأساء إساءة كبرى إلى الإنجيل لأن عبارته فيه كانت تنهالك ركافة وغثاءة وسوقية<sup>(٢)</sup> .

ثم ألف كتاباً علمياً باللغة العامية هو كتاب ( الأكل والإيمان )<sup>(٣)</sup> ليبرهن على أن اللغة العامية صالحة لأن تكون لغة العلم ؛ فخاتته العامية ، ولجأ في كثير من تعابيره إلى الفصحى لتمده بالكلمة الصحيحة ، وقد ساقه في صيغة حوار بين تلميذ يسأل وأستاذ يجيب .

ولكن كتبه هذه لم تأت به بالثمرة المرجوة ، ولم يستجب المصريون لدعوته ودعوة غيره من المستعمرين كي يتخذوا العامية أداة للتعبير الأدبي ويهجروا الفصحى لغة القرآن ، وذات المجد العريق .

وفي سنة ١٩٠١ ، أصدر ( مستر ويلمور ) أحد قضاة مصر كتاباً<sup>(٤)</sup> تناول فيه هذه المسألة ونصح المصريين بهجر اللغة الفصحى ، واتخاذ اللغة العامية أداة للتعبير والكتابة ؛ وقد أثار هذا الكتاب ضجة في الصحف المصرية ، وتصدى أكثر من كاتب للرد عليه . وكانت مجلة الهلال ميدان هذه الردود وقد أيدت اللغة العربية ودافعت عنها<sup>(٥)</sup> . ثم جاء اسكندر معلوف من سوريا ، وحاول أن يوهم الجمهور المصري بأن أهم أسباب تأخره في الحقيقة هو تمسكه باللغة العربية الفصحى وعجب من تمسك المصريين بها مع أن الفرس والهنود والأتراك مسلمون ، وهم لا يستخدمون العربية . واحتج بأن الحكومة المصرية قد تركتها في مدارسها ، وأحلت محلها اللغة الإنجليزية ، وقد أثنى عليها ثناء مستطاباً لإقدامها على هذه الخطوة ، ورأى أن الخطوة الثانية التي يجب أن يخطوها المصريون هي أن تدع الصحف والمجلات هذه اللغة وتكتب باللغة العامية ، حتى يفيد العامة وجمهرة الشعب بما تكتب ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة

(١) راجع مجلة الأزهر العدد الخامس - السنة السادسة ١٨٩٣ .

(٢) طبعت هذه الترجمة على نفقة ( الجمعية البريطانية لنشر الكتب المقدسة ) .

(٣) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٢٩ .

(٤) The Spoken Arabic of Egypt, J. Solden Willmore.

لندن ١٩٠١

(٥) انظر الهلال السنة العاشرة وعلى الاخص عدد فبراير ١٩٠٣ .



ثالثة وهي تدوين العلوم والآداب باللغة العامية ، وبذلك يستطيع الشعب كله أن يحصل العلم بسهولة ويسر ، وأهاب بالكتاب المصريين والعلماء أن يخطوا هذه الخطوات في سبيل رقي بلادهم<sup>(١)</sup> .

ومن المصريين الذين أيدوا ويلككس في دعوته إلى العامية حين نشر رسالته التي يزعم فيها أننا نتحدث بالبونية لا بالعربية ( سلامة موسى ) فقد أثنى على ويلككس ثناء مستطابا وزعم أنه شغلته هموم مصر كثيراً ومن أكبر همومه التي أفضت مضجعه هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها .

وأخذ سلامة موسى يدعو كما دعا ويلككس إلى اتخاذ العامية لغة للكتابة بدعوى أن الفصحى فيها صعوبة ... يعانينا الخاصة أكثر مما يعانينا العامة ، وأنها عاجزة عن تأدية الرسالة الأدبية والعلمية ويقول : « ولكن نكتبنا الحقيقية هي أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصري ولا تنهض به ، لأن الأدب هو مجهود الأمة وثمره ذكائها وابن تربتها ووليد بيتها ، فهو لا يزكو إلا إذا كانت أدوات لغة هذه البيئة التي نبت فيها » .

ويزعم كذلك أن الفصحى « تبعر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية — فالنتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد بدلا من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر ، فنظره متجه أبداً نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية — وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق » .

ثم راح يشي على ويلككس ، ولكنه رأى أن الانتقال إلى العامية فيه طفرة ولم يحن الوقت بعد لأن نخطو هذه الخطوة الواجبة ، ولا بد من ( تسوية ) بين العامية والفصحى ، فاقترح عدة اقتراحات عجبية تفضي في مجموعها إلى تشويه الفصحى وإفسادها كإقتراحه إلغاء الألف والنون من المثني والواو والنون من جمع المذكر السالم ، وإلغاء التصغير وجمع التكسير ، وإلغاء الإعراب والاكتفاء بتسكين أواخر الكلمات ، وإدخال الكلمات الأعجمية ( الأوربية كما هي )<sup>(٢)</sup> ، وهذه اقتراحات

(١) مجلة الهلال ١٥ من مارس ١٩٠٢ .

(٢) راجع نص المقال في مجلة الهلال أول يولية ١٩٢٦ تحت عنوان « اللغة الفصحى واللغة العامية

وراي السير ويلككس » .

تدل على كراهية مقيمة للغة العربية وكل ما تحمله من تاريخ وأدب ودين وقومية . وهذا ما كان يريده المستعمرون حتى ينقطع ما بيننا وبين تراثنا الفكري الخالد وبيننا وبين ديننا ، ومن ثم نسخ مسخاً وقبل على الثقافة الإنجليزية وتشرب روحها وروح الإنجليزية معها ، فرضى بالاستعمار والمذلة والعار في فرح ومسرة واطمئنان .

ولقد لفتت هذه المشكلة كذلك نظر مستر ( مان )<sup>(١)</sup> حين بحث أمور التعليم في مصر ، فجاء في تقريره : « إن الطفل المصري عندما يبدأ دراسته بالمدرسة لا يتعلم كما يتعلم الطفل الأوروبي طرق كلامه المؤلف وقراءته فحسب ، وإنما يتعلم لغة أخرى شديدة الصعوبة ، تختلف عن لغته المعتادة اختلافاً بينا ، ويتعلم في ذات الوقت طرق كتابتها وقراءتها ، فحالته هذه تشبه حال طفل إنجليزي يتكلم ويسمع اللغة الإنجليزية العادية في المنزل والشارع والمدرسة على السواء ولكنه مضطر ألا يستعمل في القراءة والكتابة إلا اللغة الإنجليزية التي كانت شائعة في عصر ألفريد الأكبر » .

ويقول بعد ذلك : « إن هذه الطريقة من شأنها أن توقف نمو التفكير عند الطفل » ولكن هل إن تعلم الطفل المصري في المدرسة اللغة الإنجليزية في جميع مواد الدراسة ، وهو يتكلم ويسمع اللغة المصرية الدارجة ، ولا يوجد بين اللغة الإنجليزية والمصرية الدارجة أي صلة ، ثم تعلم قراءتها وكتابتها أيسر عليه من تعلم اللغة الفصحى ؟ ، ألا يرى أن هذه الطريقة التي أرغم عليها أطفال المصريين لا توقف نمو تفكيرهم فحسب ، ولكنها تغفل كل الملكات العقلية من تصور وإدراك واستنباط وتفكير ؟ . أنسي مستر مان ، ومن دعا هذه الدعوة أن أطفال الأوربيين أنفسهم يتعلمون في المدرسة لغة تختلف عن لغة البيت والشارع في الغالب ، وأن لكل أمة لهجة دارجة ، وأخرى فصيحة ؟ ووجود اللهجات الدارجة أمر طبيعي ، فلو اتخذت أمة ما لغتها العامة الحالية أداة للتعبير والكتابة ، ووضعت لها القواعد ، وصنفت فيها الكتب لتحلل الناس بعد أمد يسير من هذه القواعد في النطق والتركيب ، وأوجدوا لهم لغة دارجة لا تنقيد بقوانين ، تخفيفاً عن أنفسهم ، وجرياً على عادة التساهل والإهمال والنسيان ! !

ثم إن ثمة اعتبارات كثيرة خاصة باللغة العربية الفصحى تتعلق بالدين ، والقرآن

(١) تقرير مستر ( مان ) ص ٥٩ .

الكريم وتتعلق بوشائج القربى بيننا وبين الناطقين بها ، فلو عمد كل شعب عربي إلى اتخاذ لغته الدارجة وسيلة للكتابة والتعبير لتقطعت بيننا هذه الوشائج ، وتبددت قوانا المادية والمعنوية على مر الأيام • ويظهر أن مستر ( مان ) فطن إلى هذه الاعتبارات ، وأدرك جم الصعوبات التي تقف في سبيل اللغة العامية ، وأن اللغة الفصحى لا بد منتصرة في النهاية على الرغم من تلك الدعاية القوية التي أثيرت ضدها من الإنجليز وأشياعهم ، فقال : « على أنني أعترف في الوقت نفسه أن مسألة اللغة هذه مشتبكة بجميع أنواع التقاليد الدينية والقومية والاجتماعية اشتباكاً لا فكاك منه ، وأنها لهذا السبب أعسر من أن تحل استناداً إلى الاعتبارات التربوية وحدها<sup>(١)</sup> »

وقد أثارَت هذه الحملة الجائرة ضد اللغة الفصحى سخط الأدباء والكتاب ، ورجال الوطنية المصرية، فقابلوها بحملة أشد منها ، واشتهر من هؤلاء محمد المويلحي صاحب حديث عيسى بن هشام ، وألفت جمعيات من أدباء مصر لنشر الفصحى والدود عنها ، ومقاومة اللغة العامية وطغيانها • ولقد أسهم الشعراء في هذه المعركة ، فقال حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة عن اللغة العربية سنة ١٩٠٣ ، مردداً فيها شتى الحجج التي يدافع بها أنصار الفصحى ، ومشيراً إلى حملات الإنجليز عليها ، وهذه هي القصيدة التي لا تتضح مراميها التاريخية إلا بعد معرفة المعركة على حقيقتها ، وقد قالها على لسان اللغة الفصحى :

وناديت قومي فاحتسبت حياتي  
عقمت ، فلم أجزع لقول عداتي  
رجالا ، وأكفاء وأدت بناتي  
وما ضقت عن أي به وعظات  
وتسيق أسماء لمخترعات  
فهل سألوا الفواص عن صدقاتي  
ومنكم وإن عز الدواء أساتي

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي  
رموني بعقم في الشباب ، وليتني  
ولدت ولما لم أجد لعرائسي  
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية  
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة  
أنا البحر في أحشائه الدر كامن  
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني

(١) تقرير مستر مان •

فلا تكلونني للزمان فإتني أخاف عليكم أن تحين وفاتي

\* \* \*

|                                 |                           |
|---------------------------------|---------------------------|
| أيطربكم من جانب الغرب ناعب      | ينادي بوأدي في ربيع حياتي |
| ولو تزجرون الطير يوماً علمتم    | بما تحته من عثرة وشكتات   |
| أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً      | من القبر يذنيني بغير أناة |
| وأسمع للكتاب في مصر ضجة         | فأعلم أن الصائحين ثعاتي   |
| أيهجرنني قومي — عفا الله عنهم — | إلى لغة لم تتصل برواة     |
| سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى   | لعاب الأفاعي في مسيل فرات |
| فجاءت كتوب ضم سبعين رقعة        | مشكلة الألوان مختلفات     |
| إلى معشر الكتاب والجمع حافل     | بسط رجائي بعد بسط شكاتي   |
| فإما حياة تبعث الميت في البلى   | وتثبت في تلك الرموس رفاتي |
| وإما ممات لا قيامة بعده         | مات لعري لم يقس بمات      |

فأنت ترى كيف بسط حافظ في قصيدته هذه المشكلة ، وبين مساوىء العامة ، ومزايا الفصحى وصوّر شعور المصريين إزاء هذه القصة . ولقد كانت هذه الحملات المتتابعة على اللغة الفصحى ، سواء باضطهادها في مدارس الدولة وإحلال الإنجليزية محلها ، أو بالدعوة إلى هجرها ، واتخاذ اللغة العامية بديلاً عنها سبباً في يقظة مفكري الأمة ، واتباهم إلى تلك المؤامرات الإنجليزية على قومية المصريين . ولذلك ترقبوا الفرص السانحة لإحباط هذه المؤامرة . فما أن تولى سعد زغلول نظارة المعارف في سنة ١٩٠٧ حتى تقدم الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، ومحمود باشا سليمان ، وأمين باشا الشمسي باقتراح في الجمعية التشريعية يطلبون فيه إرجاع اللغة العربية في المدارس ، وإبطال التعليم باللغة الإنجليزية ، وأن يكون الشروع في ذلك من السنة التالية أي سنة ١٩٠٧ . فرد عليهم سعد زغلول ، وهو في رده يبين ما وصلت إليه الحال في مصر من تغلغل النفوذ الأجنبي ، وسيطرتهم على كل شيء ، حتى أصبح متعذراً على المصري أن يجد سبيلاً إلى الرزق في بلاده إلا إذا تعلم لغة أجنبية ، وأصبح من العسير الحصول على معلم كفاء يستطيع تدريس المواد المختلفة باللغة

العربية ، وهذا لعمرى منتهى الانحطاط السياسي والاجتماعي ، قال سعد زغلول :  
« الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الإنجليزية إلا ليتقوى التلاميذ فيها ، ويمكنهم  
الاستفادة من المدنية الأوروبية ، ويفيدوا بلادهم ، ويقدروا على الدخول في معترك  
الحياة ، حياة العلم والعمل . »

« وإذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية ، وشرعنا فيه  
فعلا ، فإننا نكون قد أسأنا الى بلادنا ، وإلى أنفسنا إساءة كبرى ، لأنه لا يمكن  
للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك ، و ( البوسطة ) ، والمحاكم  
المختلطة ، والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة ، والتي يقتضي نظامها وجود  
كثيرين من الموظفين العارفين بإحدى اللغات الأجنبية حق المعرفة ، ولا أن يستخدموا  
في ( بنك ) أو مصرف ، ولا أن يشتركوا في شركة من الشركات الأجنبية التي كثر  
تأسيسها الآن في بلادنا ، ولا أن يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة ، ولا مترجمين  
ولا غير ذلك من كل ما يحتاج إلى البراعة في لغة أجنبية وهو كثير جداً في بلادنا . »

إذا قطعنا النظر عن ذلك كله ، وأردنا أن نشرع من فورنا في التعليم باللغة  
العربية صادفنا صعوبات مادية ، وهي قلة المعلمين الأكفاء الذين يمكنهم تعليم الفنون  
المختلفة باللغة العربية ، فإذا كنتم توافقون على الاقتراح المقدم إليكم كنتم كمن  
يحاول الصعود إلى السماء بلا سلّم .

لذلك كله أرجو ألا تندفعوا في هذه المسألة وراء إحساسكم ، وأن تستشيروا  
قبل البت فيها العقل والحكمة ، إذ لا فائدة لكم أن تطالبوا طلباً تعلمون من الآن أنه  
لا يقابل بغير الرفض لاستحالة تنفيذه ، كل ما يمكنكم أن ترغبوه مني ، وما يمكنني  
أن اشتغل به ، وأقدمه خدمة لوطني هو السعي في تذليل تلك الصعوبة المادية وهو  
ما عقدت النية عليه من توسيع نطاق مدارس المعلمين ، والإرساليات إلى أوروبا ،  
وتحسين حال موظفي المدارس ، حتى يمكن وجود عدد كاف يتولى التعليم باللغة  
العربية كما أرغب وترغبون ، وإني إذا وفقت لتحقيق هذه الأمور الثلاثة خدمت  
بلادكم خدمة جليلة « (١) .

(١) كانت في ٢ مارس ١٩٥٧ . ونشرت بالتؤيد في ٥ مارس ١٩٥٧ .

وهذه وثيقة تاريخية غنية عن التعليق ، ولم يقل سعد ما قاله إلا تحت ضغط الظروف الواقعية ، وهي فقر الأمة في رجالها ولا سيما المعلمين الأكفاء ، وفقر اللغة العربية بسبب الاضطهاد الإنجليزي لها ، وسيطرة الأجانب على شئون مصر الاقتصادية والحكومية ، وجعل اللغة الأجنبية صاحبة المقام الأول عملياً ورسمياً في البلاد. ثم كراهية الإنجليز لعودة العربية إلى الحياة والقوة. ولذلك عرض سعد وهو وزير ، ما عساه يصادف الاقتراح من صعوبات ، حتى عدّ تنفيذه مستحيلاً .

وقد وضع محمود (باشا) سليمان تعديلاً للاقتراح ، وبعد سماع هذه الخطبة ، بأن الجمعية العمومية تعتمد على وعد ناظر المعارف بتنفيذ المشروع بحسب الإمكان ، وأخذت الآراء على الاقتراح بعد تعديله فتقرر قبوله . بيد أن ناظر المعارف صرح بعد ذلك بأنه لا يمكن تنفيذ المشروع في ذلك الوقت للصعوبات الموجودة ، ومتى زالت هذه الصعوبات أمكن تنفيذه . فأعيد الاقتراح على الاقتراح الأول في مقابل تصريح ناظر المعارف ، فقررت الجمعية بأغلبية ستين صوتاً وجوب تنفيذ المشروع كما عرض بادى الأمر. وصوت خمسة مع ناظر المعارف عدا الوزراء. وكان الجمعية خشيت ألا يستطيع سعد التنفيذ ، كما لم يستطع رياض ( باشا ) ذلك من قبل حيث حاول هذه المحاولة في سنة ١٨٩٣ ، فوضعت الحكومة أمام الأمر الواقع .

وابتدىء في تحويل التعليم باللغة العربية في المدارس الابتدائية من سنة ١٩٠٨ ، ولم يأت عام ١٩١٢ حتى صار التدريس في جميع المدارس الابتدائية باللغة العربية ، واستأنفت القافلة سيرها إلى اليوم بعد هذه المحنة التي دامت قرابة عشرين عاماً .

ومع هذا ظل دعاة العامية لا يهدأون ولا يفترون ، ومنهم محمد تيمور الذي جدّ في الدعوة سنة ١٩٢١ وألف بها قصصاً ومسرحيات<sup>(١)</sup> ، ومع ذلك كله ظلت اللغة العربية قوية شامخة ، وتزداد كل يوم قوة — وقد زادت فكرة القومية العربية ازدهاراً ، بل كانت الفصحى من أهم عناصر القومية العربية .

---

(١) انظر كتاب ( ومبس الروح ) تأليف محمد تيمور ١٩٢٢ .

وعلى الرغم مما بذلته إنجلترا من جهد في نشر اللغة الإنجليزية ، ومحاربة الثقافة الفرنسية واضطهاد اللغة العربية الفصحى ، فإنها لم تفلح في أن توجد طائفة من المصريين يعشقون اللغة الإنجليزية ، ويجيدونها إجادة تمكنهم من التأليف فيها ، كما مهر بعض المصريين في التأليف باللغة الفرنسية من أمثال واصف غالي ، وأحمد راسم ، والأمير حيدر فاضل ، ومحمد ذو الفقار وغيرهم . ولعل السر في ذلك هو شعور المصريين بأن هذه اللغة هي لغة الغاصب المحتل ، وأنه يفرضها عليهم فرضاً ، وكل شيء يجبر عليه المرء مبغوض لديه ولو كان حسناً ، ثم إن إنجلترا لم تشجع المصريين على الإفادة من دراستهم للغة الإنجليزية ، فلم تعترف بشهاداتهم في بلادها ، وحالت بينهم وبين البعثات العلمية ، ولم تكن العناية الواجبة بمؤسساتها العلمية بمصر في تلك الحقبة . بينما سارت فرنسا على النقيض من ذلك ، فأسست مدرسة الحقوق الفرنسية ، والمعهد العلمي الفرنسي . ولقد أدركت إنجلترا أنها أخطأت في حق لغتها وفي حق المصريين على السواء ، وأخذت تعمل على تدارك ما فاتها ، فأنشأت بعض المعاهد العلمية مثل المدرسة الإنجليزية ، بمصر الجديدة ، وكلية فيكتوريا ، والمعهد العلمي البريطاني ، وأخذت تشجع المصريين على السفر لإنجلترا ، واعترفت بشهادات الكليات الجامعية ، ومكنتهم من الدراسات العالية ، بيد أن كل هذا حدث بعد أن غلت يدها من شئون التعليم وخروج دانلوب في سنة ١٩١٩ ، وفطنتها إلى أنها أخطأت في الماضي خطأ جسيماً ، وأن فرنسا قد سبقتها في هذا الميدان . وقد فسر أحد الأدباء الإنجليز تغلب فرنسا على إنجلترا في نشر الثقافة بمصر بقوله : « تملك إنجلترا بمصر جيشاً ، وتملك فرنسا فكرة ، وتدير إنجلترا شئون التعليم ، وتغذيه فرنسا بفلسفتها ، ولما كانت فرنسا تملك هذه الفلسفة ، ولا تملك إنجلترا منها شيئاً ، فقد برهن القلم الفرنسي على أنه أقوى من السيف الإنجليزي <sup>(١)</sup> » .

وقد قوي نفوذ الثقافة الإنجليزية على مر الأيام في مصر بخاصة ، وفي الشرق العربي بعامة بفضل المؤسسات الثقافية العديدة ، من إنجليزية وأمريكية ، فقد نمت المؤسسات الأمريكية نمواً زائداً حتى صار لأمريكا جامعة بمصر ، وأخرى ببيروت

(1) Dr. Russel Galt : The Conflict of French and English philosophy in Egypt, p. 16, London 1930.

تعد من أكبر جامعات الشرق ، ويؤمها طلاب من كل البلاد العربية ، وينفق عليها مال وفير .

وصارت اللغة الإنجليزية هي اللغة الأوربية الأولى بالمدارس المصرية بمقتضى المعاهدات المختلفة ، ونفوذ انجلترا السياسي ، وصار الطالب المصري يعرف الكثير عن الأدب الإنجليزي ، ولا يكاد يعرف شيئاً عن الأدب الفرنسي . ثم أدى إنشاء الجامعة المصرية الحديثة إلى تخصص بعض الطلاب في اللغة الإنجليزية ، ليكونوا مدرسين متمكنين فيها وحلوا محل خريجي المعلمين العليا<sup>(١)</sup> الذين كانوا يؤدون هذه المهمة في عهدها الإنجليزي والمصري . وقد درجت مصر قبل الحرب العالمية الأخيرة على إرسال فريق من نوابغ المدرسين للتخصص في اللغة الإنجليزية بانجلترا ، وقد أفادوا في نقل بعض عيون الأدب الانجليزي إلى اللغة العربية بأفلام قوية ، وأسلوب طيب .

وتوسعت مصر في إرسال البعثات في عهد الاستقلال ، وكانت أكثرية البعثات الحكومية إلى انجلترا لدراسة العلوم ، والطب والهندسة ، واللغات ، والفلسفة ، والفنون الحربية والاقتصاد ، واللغات الشرقية ، والتربية ، والزراعة وغيرها ، بيد أن وزارة المعارف رسمت لأعضاء البعثات الحكومية في أول الأمر — وذلك قبل أن ترسل الجامعة بعثاتها — طريقاً عقيمة ، وقيدتهم في الدراسة تقييداً أضر بهم وبمصر ، « وحسبك بوزارة المعارف حين ترسم المناهج ، والبرامج ، وتختار الجامعات والمدارس ، وتعين الدرجات والإجازات ، وهي إلى الآن لا تزال تجهل من أمور التعليم العالي في أوربا أكثر جداً مما تعلم . وقد كانت قبل الاستقلال خاضعة لسلطان الإنجليز ، وكان أبغض شيء إلى الإنجليز أن يتصل المصريون بالتعليم الأوربي العالي ، فلما أكرهوا على أن يخلوا بين المصريين وبين ذلك رسموا لهم المناهج والبرامج ، مضيقي لا موسعين ، ومخادعين لا ناصحين . وما زلنا نذكر العهد الذي كان المصريون يبتهجون فيه أشد الابتهاج حين يظفر أحدهم بأيسر

---

(١) أنشئت مدرسة المعلمين سنة ١٨٨٠ وكانت تسمى مدرسة الخوجات ثم سميت مدرسة النورمال سنة ١٨٨٢ والمعلمين التوفيقية سنة ١٨٨٨ وأنشئت بعدها مدرسة المعلمين الخديوية سنة ١٨٨٩ ثم ضمت المعلمين التوفيقية والخديوية في مدرسة واحدة سنة ١٨٨٩ ، وفي سنة ١٩١٠ سميت مدرسة المعلمين الخديوية بالمعلمين السلطانية ، وفي سنة ١٩١٢ سميت مدرسة المعلمين العليا — راجع تاريخ التعليم بمصر للدكتور أحمد عزت هيد الكريم ص ٦١٠ — ٦١٥ .



الدرجات الجامعية في أوروبا ، والذي كانت تقنع فيه وزارة المعارف بـ ( الدبلومات ) أولاً ، ثم ( البكالوريوس ) بعد ذلك والذي كانت تسخط فيه وزارة المعارف أشد السخط وأقساه على الذين يعجبهم العلم وتخلبهم الدرجات الجامعية ، فيتجاوزون ، أو يحاولون أن يتجاوزوا ما رسم لهم من خطة ، وما توضع لهم من منهاج<sup>(١)</sup> ، ثم توالى بعثات الجامعات المصرية بجانب بعثات وزارة المعارف ، واشترطت الجامعة على الطلاب أن يحصلوا على أرقى الدرجات الجامعية ؛ ولم تقصر بعثاتها ، على إنجلترا ؛ بل تعددت جهات الدراسة . وقد كان عدد أعضاء البعثات الجامعية في سنة ١٩٢٥ لا يزيد عن عشرين طالباً من جميع كليات الجامعة ، ثم بلغ الخمسين في سنة ١٩٣٨ . ولما نشبت الحرب العالمية الأخيرة في سنة ١٩٣٩ توقفت بعثات الجامعة ، ثم استأنفت سيرها بعد أن وضعت الحرب أوزارها في سنة ١٩٤٥ وصار لجامعة ( فؤاد الأول ) في سنة ١٩٥٠ مائة واثنا وتسعون عضواً في بعثات علمية للخارج جلهم في أوروبا . وبعضهم في أمريكا<sup>(٢)</sup> . هذا عدا بعثات جامعة الإسكندرية ؛ وما أرسلته جامعة أسيوط ( محمد علي سابقاً ) من بعثات استعداداً لتكوين هيئة تدريس قوية بها .

هذا وقد نصَّ في قانون جامعة ( القاهرة ) على أن تكون اللغة العربية هي لغة التدريس بالجامعة ، وإن ظلت بعض الكليات حتى اليوم تتخذ الإنجليزية لغة التدريس في جميع المواد مثل الطب البشري ، والطب البيطري ؛ وبعضها يستخدمها في أكثر المواد مثل كلية العلوم والهندسة ؛ وبعضها يستخدم اللغتين الفرنسية والإنجليزية بجانب اللغة العربية مثل كلية التجارة والحقوق<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر فقد ازدادنا صلة باللغة الإنجليزية على مر الأيام ؛ واستطاع بعض أدبائنا الذين درسوا على النظام الإنجليزي بالرغم من عقمه وفساده أن يجيدوا اللغة الإنجليزية فهماً وقراءة وهم الذين أسسوا المدرسة المصرية الحديثة في الشعر من أمثال عبد الرحمن شكري ، والمازني ، والعقاد .

(١) الدكتور طه حسين في مستقبل الثقافة في مصر . ص ٢٨٢ .

(٢) تقويم جامعة ( فؤاد الأول ) سنة ١٩٥٠ ص ٩٢ - ٩٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥ . وقد تقرر ابتداء من العام الجامعي ١٩٥٩ العمل على التدريس باللغة العربية في الكليات التي ذكرناها آنفاً : وأن يؤلف في الطب والهندسة والعلوم بالعربية لطلاب الجامعات وهذا عمل حميد يبيد نهضة اللغة سيرتها الأولى التي ابتدأها منذ أكثر من قرن ونصف أيام محمد علي .

ويقول الدكتور طه حسين : « وآية ذلك أننا حتى في أشد أوقات السيطرة الإنجليزية وضغطها على التعليم وتضييقها لحدوده ، قد انتفعنا من هذا التعليم الضيق المحدود أكثر مما أراد الإنجليز ، وأي دليل على ذلك أقوى من أن الذين أخرجتهم مدارس الاحتلال هم الذين اتسعت عقولهم لفهم الحرية والوطنية ، واستقرت عزائمهم لمناهضة الاحتلال نفسه ، وهم الذين أثاروا مصر وقادوها في الجهاد ، وكسبوا لها النظام ( الديموقراطي ) والحياة المستقلة »<sup>(١)</sup> وهم الذين قادوا حرية الفكر بمصر ، ووجهوا الأدب والدراسات الأدبية وجهة حديثة .

ويقول العقاد في هذه المدرسة الحديثة التي تأثرت بالأدب الإنجليزي : « فالجيل الناشئ بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث ، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الإنجليزية ، ولم تقصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسي ، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر ، وهي على اتصالها في قراءة الأدباء والشعراء الإنجليز لم تنس الألمان والطيان والروس والأسبان ، واليونان ، واللاتين الأقدمين ( عن الإنجليزية طبعا ) ، ولعلمها استفادت من النقد الإنجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى ، ولا أخطئ إذا قلت : إن ( هازلت ) هو إمام هذه المدرسة في النقد ؛ لأنه هو الذي هداها إلى معاني الشعر والفنون ، وأغراض الكتابة ومواضع المقارنة والاستشهاد »<sup>(٢)</sup> ، وسنعود إن شاء الله إلى هذه المدرسة ، وتبيان خصائصها وإلى أي حد جددت في شعرنا الحديث .

وليس معنى هذا أن نفوذ الثقافة الفرنسية بمصر قد زال أمام قوة الثقافة الإنجليزية ، فإن كثيراً من المعاهد المصرية لا تزال تعنى باللغة الفرنسية عناية زائدة ، وتدرس بها كثيراً من المواد كالحقوق والتجارة ، وبكلية الأدب قسم خاص للغة الفرنسية ، ولا يزال الإقبال على الدراسة بفرنسا قويا ، يقصدها كثير من الطلبة غير الحكوميين لدراسة الطب والحقوق والفلسفة والآداب ، وترسل إليها الحكومة بعض بعثاتها ، لدراسة القانون والفلسفة ، واللغة الفرنسية<sup>(٣)</sup> .

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ١٢٠ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١٩٢ .

(٣) لقد تغير الوضع بالنسبة لفرنسا منذ العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ والنيت اللغة الفرنسية من المدارس الثانوية ابتداء من العام ١٩٦١ - ١٩٦٢ . ثم تقرر إلعادها ابتداء من هذا العام الدراسي ١٩٦٤ - ١٩٦٥ .

ولعلك رأيت أن الحال في مصر منذ الاحتلال الإنجليزي حتى اليوم قد تغير تغيراً شديداً ، وأنا ازددنا ارتباطاً بأوروبا وثقافتها المختلفة ، ولقد كان لكل هذا أثر في الأدب العربي بعامة وفي الشعر بخاصة .

١ - لقد تأثرنا بها في حياتنا الخاصة ، وطرق معيشتنا ، ونظرتنا إلى الحياة ، وما الأدب إلا انعكاس لما يشعر به الأديب في حياته . وتغيرت قيم الأشياء أمام أعيننا ، وعكفنا على تقليد أوروبا في كل شيء ، وجعلناها مثلاً أعلى في كل ما يتعلق بحياتنا المادية والمعنوية ، وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين : « حياتنا المادية أوربية خالصة في الطبقات الراقية ، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قريباً وبعداً عن الحياة الأوربية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات ، وحظوظهم من الثروة وسعة اليد . ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي في حياته المادية ، تتخذ من مرافق الحياة وأدواتها ما يتخذون ، وتتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما يتخذون ، تفعل ذلك عن علم به وتعمد له أو تفعل ذلك عن غير علم ، وعلى غير عمد ، ولكننا ماضون فيه على كل حال ، وليس في الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع بها الأوروبيون .

مدت أوروبا الطرق الحديدية ، وأسلاك ( التلغراف والتليفون ) فمددناها ، وجلست أوروبا إلى الموائد ، واتخذت ما اتخذت من آنية الطعام ، وأدواته وألوانه ، فصنعنا صنيعها ثم تجاوزنا ذلك إلى جميع الأنحاء التي يحيا عليها الأوروبيون فاصطنعناها لأنفسنا غير متخيرين ولا محتاطين ولا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن ، وما يلائم منها وما لا يلائم . ونستطيع أن نقول : إن مقياس رقي الأفراد والجماعات في الحياة المادية مهما تختلف الطبقات عندنا إنما هو حظنا من الأخذ بأساليب الحياة المادية الأوربية .

وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة : نظام الحكم عندنا أوربي خالص ، تقلناه عن أوروبا تقللاً في غير تخرج ولا تردد ، وإذا عبتنا أنفسنا

بشيء من هذه الناحية فإنما نعيمها بالإبطاء في نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية<sup>(١)</sup> .

والحق أن مصر منذ حملة نابليون حتى اليوم ، وهي تسعى سعياً حثيثاً في أن تحاكي أوروبا في كل شيء ، وقد بهرتها تلك القوة المادية الضخمة التي جعلت أوروبا تتحكم في العالم ، وجحد محمد علي وإسماعيل في تزويد مصر بكل ما يكفل لها تلك القوة ، من مصانع ، وجيوش ، وأساطيل ، وعلماء في كل فن ، ولكن تيار النهضة قد وقف منذ الاحتلال الأجنبي . ولقد ازداد حب المصريين لمحاكاة الأجانب وتقليدهم في كل ما يزاولون من شئون الحياة ، عملاً بالقاعدة المعروفة « المقلوب مولع بتقليد الغالب » ، ولقد نظروا إليهم نظرة إكبار وتقدير ، وفقدوا الثقة في أنفسهم ، وأوهبهم هؤلاء أنهم لا يصلحون إلا أن يكونوا مرؤوسين ، متقادين ، مع أنهم كانوا إلى عهد قريب سادة مكرمين يخشى بأسهم أهل أوروبا أنفسهم .

ورأى المصريون منذ أخفقت الثورة العرابية ألا سبيلاً إلى النهضة الحقيقية ، والاستقلال الكامل إلا بتهيئة الشعب لتحمل أعباء هذا الاستقلال . وقديماً نادى محمد عبده بإنشاء مدرسة للقادة والزعماء ، واختلف هو وأستاذه جمال الدين في هذا وتبنى محمد عبده هذه الفكرة بعد أن عاد من منفاه ورأى أن يسير في النهضة ببطء وثقة وتأكد ، وأن الطفرة التي أرادها إسماعيل ، ودعا إليها جمال الدين لا تجدي شيئاً ، بل ربما أعقبت خسراناً ونداماً ، وأنه خير لهذه الأمة إن أرادت القوة والعافية أن تستكمل تعليم أبنائها ، وتنزه الدين وتطهره وتعد نفسها لكي تتبوأ مكانها بين أمم العالم وتشاطرها<sup>(٢)</sup> . ولقد هادن محمد عبده الإنجليز ، حتى يتمكن من الإصلاح المنشود ، ويقول : « أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنتي عرفت أنها ثمرة تجنيها الأمم من غراس تفرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال ، فهذا الغراس هو الذي يجب أن نعني به الآن<sup>(٣)</sup> » وقال عنه كرومر : « إنه كان رجلاً مستتير الرأي بعيد النظر ، اعترف بما لحكومة

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٢٠ - ٣٢ .

(٢) المنار ج ٨ ص ٤٥٧ ، ومشاهير الشرق ج ١ ص ٢٨٥ .

(٣) المنار ج ٨ ص ٨٩٣ .

الشرق من سيئات ، وسلم بضرورة المعاونة الأوربية في الإصلاح<sup>(١)</sup> » .

ولقد اعتنق تلاميذ محمد عبده هذه الفكرة وعلى رأسهم سعد زغلول ، ولطفي السيد وحافظ إبراهيم<sup>(٢)</sup> ، ثم جاءت النهضة القومية على يد مصطفى كامل<sup>(٣)</sup> ، ودعا إلى الأخذ بأساليب الرقي والنهوض مع وجوب التخلص من الأجنبي وشرور الاحتلال ، ولكنه اتفق مع تلامذة محمد عبده على وجوب العناية بكل ما يرقى بهذه الأمة صناعياً وعلمياً ، وتجارياً ، وحرية حتى تكون في درجة تمكنها من المحافظة على استقلالها إن نالته أو المطالبة به عن جدارة إن لم تكن قد أخذته .

أنتج كل هذا رغبة شديدة في تقليد الحياة الأوربية مادية ومعنوية . وتطرف بعض الدعاة إلى هذا التقليد ونادوا بـ بنفض أيدينا من الماضي جميعه وأخذنا عن أوربا كل شيء حسناً أو قبيحاً ، مادياً ومعنوياً ، واعتدل بعضهم ، ونادى بأن نجتمع بين محاسن تقاليدنا ، ومحاسن المدنية الأوربية<sup>(٤)</sup> . ومهما يكن من أمر فمن أبرز الظواهر في أخريات عهد الاحتلال وعهد الاستقلال الاهتمام الزائد بالإصلاح الاجتماعي في كل مرافق الحياة ، والحياة في الغالب تهدف إلى أن تكون على نمط أوربا لكثرة إعجابنا بها ، ولأنها صاحبة السيطرة العلمية والمادية اليوم ، وتجد لهذه النعمة صدقاً في أقوال الشعراء فهم لا يملكون إلا الإعجاب بحضارة العرب ، ويحثون قومهم على السعي في اللحاق به ، فهذا حافظ إبراهيم يقول :

|                              |                                     |
|------------------------------|-------------------------------------|
| أي رجال الدنيا الجديدة مدثوا | لرجال الدنيا القديمة باعا           |
| وأفيضوا عليهم من أيادي       | كتم علوماً وحكمة واختراعاً          |
| كل يوم لكم روائع آتيا        | ر توالون بينهم تباعاً               |
| كم خلبتم عقولنا بعجيب        | وأمرتم زمانكم فأطاعا <sup>(٥)</sup> |

(١) Modern Egypt V. 2. p. 179-181.

(٢) راجع تراجم شرقية وغربية لهيكل ٢٠١ ، وراجع كذلك الاسلام والتجديد في مصر للدكتور

تشارلس آدمز ترجمة عباس محمد ص ٢١٤ .

(٣) راجع مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ط ثانية ص ٣٠٧ .

(٤) تراجم شرقية وغربية لهيكل ص ١٥٠ ، والاسلام والتجديد لادمز ص ٢١٦ .

(٥) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٢٦٠ .

ويدي ولي الدين يكن إعجابه بالحضارة والعصر الجديد حين يركب الطائرة  
فيقول :

الناس ملثوا من المطايا فجاء من بعدها البخار  
وملئه أكثر البرايا ثم اعتلوا في السما فطاروا  
يا حبذا عصرنا الجديد  
السحب نابت عن الأرائك لمعشر قد رقوا إليها  
وضجت الطير والملائك في إثرهم حرةً عليها  
وهذه حسرة تزيد (١)

ويشير حافظ إبراهيم كذلك إلى علم الغرب ومدنيته ، وتذليله لقوى الطبيعة ،  
وتسخيرها لخدمة الإنسان :

وطويتهم فراسخ الأرض طيًّا ثم سخرتهم الرياح فسننتم  
تسخرجون الهواء إن رمتهم السنين  
وتخذتم موج الأثير بريدًا ثم حاولتم الكلام مع النجم  
ومشيتهم على الهواء اختيالاً حيث شئتم جنوبها والشمالاً  
رَ وفي الأرض من يشد الرِّحالاً حين خلتهم أن البروق كسالى  
م فحملتكم الشعاع مقالاً

إلى أن يقول حاثًا بني وطنه على مباراة هؤلاء الغربيين في حضارتهم ، وأخذهم  
بأسباب الوصول إلى هذه الغاية :

ليت شعري متى أرى أرض مصر  
وأرى أهلها يبارونكم عك  
قد نفضنا عنا الكرى وابتدرونا  
وعلمنا بأن غفلة يوم  
في حمى الله تنبئت الأبطالاً  
ما ووثباً إلى العلا ونضالاً  
فترض العيش وانتقلنا انتقالاً  
تحرم المرء سعيه أحوالاً (٢)

(١) ديوان ولي الدين يكن ص ١١٩ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٢١٢ .

ويزداد الشعور بأن الشعب المصري لا يرجى منه خير إلا إذا أزيح عنه كابوس الجهالة وتعلم بنوه تعليماً كاملاً صحيحاً ، حتى يكشف التعليم عن تلك الثروة المعنوية الكامنة في هذه العقول الغفل ، فيدعو الوطنيون إلى التعليم القومي والإكثار من إنشاء المدارس<sup>(١)</sup> ، وينادي مصطفى كامل في سنة ١٩٠٤ و ١٩٠٥ بإنشاء جامعة مصرية<sup>(٢)</sup> ، ويقوم على هذا المشروع جماعة من المصلحين الذين تشربوا مبادئ محمد عبده<sup>(٣)</sup> ، ويقول مصطفى كامل في هذا : « مما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت في هذا الزمان حقيقة المركز الذي يجب أن يكون لها بين الأمم ، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم ، وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس ، وتأسيس دور العلم بأموالهم ومجهوداتهم ، ولكن قد آن لهم أن يفكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد الأمة في أشد الحاجة إليه ، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموالها<sup>(٤)</sup> » . وفرح الشعراء بإنشائها أيما فرح ، وهذا شوقي يقول :

ألقِ في أرض مَنفٍ أسَّ جامعة      من نورها تهتدي الدنيا بنبراس  
وانقُضْ عن الشرق يأساً كاد يقتله      فلا حياة لأقوام مع اليأس  
تركْ النفوس بلا علم ولا أدب      ترك المريض بلا طِبٍ ولا آس<sup>(٥)</sup>

ودعا الشعراء دعوة حارة إلى المبادرة بتأسيس المدارس وتعليم الشعب ، وأثنوا ثناء مستطاباً على كل من هزَّته الأريحية فجاد بالمال في هذا السبيل ، فهذا محمد عبد المطلب يمدح ثلاثة من الأعيان تبرعوا بمقدار من الأفدنة لمدارس المنوفية فيقول :

ثلاثة أمجاد إذا عُدَّ سادة      من الناس بذعوا بالندي سَرواتها  
سَراة أقالوا العلم من عثراته      ندى فآقالوا مصرَ من عثراتها<sup>(٦)</sup>

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٩٢ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ومحمد نريد لعبد الرحمن الرافعي ص ٣٩ ، ٩٠ ، ٢٩٢ .

(٢) اللواء ٢٦ أكتوبر ١٩٠٤ ، ٨ يناير ١٩٠٥ وتراجم شرقية وغربية ص ١٦٠ ، ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٣) الإسلام والتجديد ص ٢١٥ ، وتراجم ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٤) اللواء ٢٦ أكتوبر ١٩٠٤ . (٥) شوقيات ج ١ ص ١٥٨ .

(٦) ديوان عبد المطلب ص ٢٤ .

وهذا مطران يصور حالنا من الجهل ، وكيف نهضت أوربا ، ويحث على  
تشبيد المدارس :

|                                |                                 |
|--------------------------------|---------------------------------|
| هَمْ يَفْتَحُونَ السَّمَاءَ    | وَيَمْلِكُونَ الْهَوَاءَ        |
| وَيَقْطَعُونَ الصَّحَارَى      | وَيَعْبُرُونَ الْمَاءَ          |
| وَنَحْنُ نَمْكُثُ فِي عَقْدٍ   | ر دَارْنَا غُرَبَاءَ            |
| كَأَنَّا قَدْ خَلَقْنَا        | نَلْبَسُ الْغُبْرَاءَ           |
| نَرْنُو وَنَأْسَى وَنُثَقِّنِي | دَمْعَ الْعْيُونِ بَكَاءَ       |
| وَلَا نَرَى غَيْرَ ذِكْرَى     | أَجْدَادِنَا تَأْسَاءَ          |
| نَالِ التَّوَكُّلِ مِنَّا      | وَالضَّعْفِ مَا الْجَهْلُ شَاءَ |

إِلَى أَنْ يَقُولَ :

|                                 |                                       |
|---------------------------------|---------------------------------------|
| بِالْعِلْمِ تَدْرِكُ مِصْرَ الْ | حُرِّيَةِ الْعِصْمَاءِ                |
| وَتَسْتَعِيدُ الْفَخَارَ الْ    | قَدِيمَ وَالْعِلْيَاءِ                |
| وَتَسْتَرِدُّ مِنَ الدِّهَمِ    | رِعْزَهَا وَالرِّخَاءَ <sup>(١)</sup> |

ويقول من قصيدة أخرى :

|                                                 |                                                              |
|-------------------------------------------------|--------------------------------------------------------------|
| يَا آخِذِينَ بِتَعْلِيمِ الصِّغَارِ لَقَدْ      | صَنَّمْتُمْ مِرَابِعَكُمْ مِنْ أَكْبَرِ الْمُحَنِّ           |
| مَسَاوِيءِ الْجَهْلِ فِي الْأَطْفَالِ شَامِلَةً | لِقَوْمِهِمْ كُلِّهِمْ فِي مُتَقَبِّلِ الزَّمَنِ             |
| كَمْ عَزٌّ مِنْ ضَعْفَةِ شَعْبٍ بِفَتْنَتِهِ    | وَكَانَ آبَاؤُهُمْ فِي أَوْضَعِ الْمَهَنِ                    |
| هُوَ ابْتِنَاءٌ لِمَا تَرْجُونَ مِنْ عِظَمٍ     | وَهُوَ اتِّقَاءٌ لِمَا تَخْشَوْنَ مِنْ فِتْنٍ <sup>(٢)</sup> |

ويقول شوقي في التعليم والعلم :

|                                           |                                             |
|-------------------------------------------|---------------------------------------------|
| كَانَتْ لَنَا قَدَمٌ إِلَيْهِ خَفِيفَةٌ   | وَرَمَتْ بِ ( دَنْلُوب ) فَكَانَ الْفِيلَا  |
| حَتَّى رَأَيْنَا مِصْرَ تَخْطُو إِصْبَعًا | فِي الْعِلْمِ إِنْ مَشَتْ الْمَالِكُ مِيلَا |

(٢) ديوان مطران ج ٢ ص ٣٠٠ .

(١) ديوان مطران ج ٢ ص ٢٥٨ .



تلك الكفور وحشوها أمية من عهد ( خوفو ) لم تر القنديلا

ويرى قاسم أمين أن المرأة المخدرة لا تنفع الأمة ، ويدعو دعوته المشهورة إلى السفور ومشاركة المرأة الرجل في الحياة تقليداً لأوروبا ، ويدعو إلى الحد من تعدد الزوجات ، وإلى تشريع خاص بالطلاق<sup>(١)</sup> ، وجاءت بعده ملك حفني ناصف التي اشتهرت بلقب ( باحثة البادية ) وعززت دعوته مع شيء من التحفظ ، فلم تذهب إلى كل ما ذهب إليه وإن دعت إلى السفور المحتشم ، واستتكرت اختلاط الجنسين<sup>(٢)</sup> .

وقد قامت ضجة عظيمة حول دعوة قاسم أمين هذه ، واختلف الناس فيها اختلافاً بيناً<sup>(٣)</sup> حتى أُلّف في الرد عليه أكثر من ثلاثين كتاباً<sup>(٤)</sup> . وسجل الشعر الحديث هذه الدعوة ، وانقسم الشعراء بين مشجع لها ، ومندد بها ، فهذا شوقي لا يرى في أول الأمر التشجيع على السفور ويقول قصيدته المشهورة التي أهداها لملك حفني ناصف ( باحثة البادية ) .

صدّاح يا ملك الكنا ر ويا أمير البلبل

ويزين الحجاب للمرأة ويحذرهما من السفور فيقول :

|                       |                                  |
|-----------------------|----------------------------------|
| أنت ابن رأي للطيب     | مة فيك غير مبدل                  |
| أبدأ مَرَّوعاً بالإسا | ر مهدد بالمقتل                   |
| إن طرت عن كفي وقع     | ت على النور الجهل <sup>(٥)</sup> |
| حربي عليك هوى ومن     | يحرز ثميناً يخل                  |

وقد<sup>(٦)</sup> ردت عليه ملك بقصيدة طويلة بينت فيها رأيها في هذه القضية وسلكت — كما ذكرنا — مسلكاً وسطاً .

(١) تحرير المرأة لقاسم أمين .

(٢) راجع باحثة البادية للأنسة مي : مطبعة المقتطف . مصر ١٩٢٥ وراجع كتابنا «دراسات أدبية ج ١» .

(٣) المنار ج ٤ ( ١٩٠١ ) ص ١٠٦ .

(٤) تحرير المرأة الطبعة الثالثة ص ١٩٤ وما بعدها .

(٥) شوقيات ج ١ ص ١٨٦ .

(٦) راجع كتابنا دراسات أدبية بحث من ملك حفني ناصف .

ومطلع قصيدتها :

يا هذه لا تعذلي      وإذا أبيت فقللي  
وفيها تقول :

مجد الفتاة مقامها      في البيت لا في العمل  
والمرء يعمل في الحقو      ل وعرسه في المنزل  
مَنْ للوليد يعينه      في لبسه والماكل  
ويميط عنه أذى الهوى      بتلطف دحيثل

وأخذت تعدد ما يجب على المرأة أن تقوم به في منزلها ، وليس معنى هذا أن  
تظل حبيسة :

لكن إذا دعت الضرورة للخروج فحينئذ  
سيري كسير السحب لا تأنى ولا تتعجل  
وتكبي نهج الزحام وفضلي النهج الخلي  
لا تخضعي بالقول أو تتبرجي أو ترفلي  
لا تكنسي أرض الشوارع بالأزار المنسبل  
أبا السفور فحكمه في الشرع ليس بمعضل  
ذهب الأئمة فيه بين محرم ومحلل  
ليس النقاب هو الحجاب فقصري أو طولي  
فإذا جهلت الفرق بينهما فأسألي

ونرى حافظا يحاول أن يقف موقفاً وسطاً في هذه القضية فيقول :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً      بين الرجال يجتلن في الأسواق  
يكدرن جن حيث أردن لا من وازعم      يحذرزن رقبته ولا من واتي

يفعلن أفعال الرجال لواهياً      عن واجبات نواعيس الأحداق  
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا      في الحجب والتضييق والإرهاق  
ليست نساؤكم حلىً وجواهاً      خوف الضياع تصان في الأحقاق  
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا      فالشر في التقييد والإطلاق<sup>(١)</sup>

ومهما يكن من أمر فقد أجمع الشعراء والأدباء والمصلحون على وجوب النهوض بالمرأة وتعليمها<sup>(٢)</sup> ، ودعوا إلى رعاية الطفل حرصاً على مستقبل الأمة ، فيقول حافظ قصيدته التي مطلعها :

شَبَحَا أرى أم ذاك طيف خيال      لا بل فتاة بالعراء حيالي<sup>(٣)</sup>  
ويقول قصيدة أخرى مطلعها :

صفحة البرق أومضت في الغمام      أم شهاب "يشق جوف الظلام"<sup>(٤)</sup>  
ويقول محمد عبد المطلب قصيدته التي مطلعها :

مصر أمي ، فداء أمي حياتي      سلمت أمنا من العاديات<sup>(٥)</sup>

وينشد الشعراء أشعارهم حين يرون بادرة إصلاح تشجيعاً للقائمين بها : عند افتتاح مستشفى أو ملجأ ، أو مصنع ، أو مصرف وما شاكل ذلك ، وعند كل ما من شأنه الرقي بمصر حتى تصير في حياتها المادية والعلمية والصحية مساوية لأوروبا .

وقد وصف الشعراء بعض العادات التي سرت لبيئتنا من أوروبا ، فهذا شوقي يصف حفلة راقصة في قصر عابدين بقصيدته التي مطلعها :

مال واحتجب وادعى الغضب<sup>(٦)</sup>

(١) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٢٧٩ .  
(٢) راجع ديوان مطران ج ٢ ص ١ ، وحافظ إبراهيم ج ١ ص ٢٧٩ .  
(٣) ديوان حافظ إبراهيم ص ٢٧٥ . (٤) نفس المرجع ص ٢٨٣ .  
(٥) ديوان عبد المطلب ص ٣٣ . (٦) الشوقيات ج ٢ ص ١٣ .

وبقصيدته التي مطلعها :

طال عليها القِدم فهي وجود عدم<sup>(١)</sup>

ويتكلمون عن الموسيقى<sup>(٢)</sup> والفنون الجميلة<sup>(٣)</sup> ، ويصفون مختلف المخترعات كالغواصة<sup>(٤)</sup> والطيارة والسيارة والمذيع ، والحفلات المختلفة ذات الطابع الغربي... إلى غير ذلك مما يمثل عصرهم أتم تمثيل ، ويظهره في ثوب المدنية الحديثة . وبالعاجون مشكلات المجتمع المصري ، والسوءات التي نقلناها عن أوروبا من انتحار الطلبة<sup>(٥)</sup> ، وطريق الغواية وإفساد الفتيات<sup>(٦)</sup> وما شاكل هذا . وسنعود إلى أغراض الشعر الحديث بعد البارودي بشيء من التفصيل فيما بعد ، وإنما سقنا هذه الأمثلة لندل على أننا حقاً نسير وراء المدنية الغربية في حياتنا المادية والمعنوية ، وأن أدبنا قد تأثر إلى حد كبير بهذه المظاهر شعراً ونثراً ، وأن أثر الأجانب كان فينا قوياً . وقد ازداد تعلقنا بهذا اللون من الحياة بعد الحرب العالمية الأولى ونيلنا قسطاً وفيراً من الحرية والاستقلال ، وظهور عهد من الاستقرار والسلام والرخاء في البلاد ، فزاد العبث واللهو ، والافتتان بكل ما تجلبه أوروبا . وكان لهذه الحياة أثر كبير في الأدب ، فتحا الشعراء الذين ظهروا بعد الحرب العالمية الكبرى نحو المجون والغزل الفاحش ، والخروج على كل التقاليد العربية والإسلامية . وليس من همي الآن ، وفي هذا الفصل أن أسهب في الكلام على هذا اللون من الشعر ، وإن قلّمي ليغف عن أن يسجل بعض هذا الغزل الرذيل الذي يعبر عن عاطفة منحرفة ، ونفس مريضة .

على أن هذا النوع من الغزل الذي ظهر كأثر من آثار انغماسنا في الحضارة المادية ، ونسياتنا المثل العليا ، وكلّ ما يغذي النفوس ويسمو بها ؛ يدعونا إلى الكلام عن أثر آخر للثقافة الأجنبية ، وذلك هو :

٢ - تقليدنا لمذاهب الأدب الأوربي . وصرنا نسمع ، ولا سيما بعد الحرب

- (١) الشوقيات ج ١ ص ١١١  
(٢) مطران ج ٣ ص ٦٤  
(٣) مطران ج ٤ ص ٥٦  
(٤) الشوقيات ج ٢ ص ١٢٣  
(٥) مطران ج ٢ ص ٥٧ ، والشوقيات ج ١ ص ١٣١  
(٦) مطران ج ١ ص ٢٢٢

العالمية الأولى بما يسمى المدرسة الرمزية والمدرسة الواقعية ، و ( السريالية ) ،  
والمدرسة الإبداعية ( الرومانتيكية )<sup>(١)</sup> ، ومعظم الشعراء الذين فتتوا بهذه المدارس ،  
قلدوها تقليداً ، من غير أن يكون ثمة داع لهذا التقليد ؛ إذ لم تظهر هذه المذاهب  
الأدبية في أوروبا إلا نتيجة لعوامل اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية شجعت على  
ظهورها . وسنعود إلى بعض هذه المدارس بشيء من التفصيل عند الكلام على  
المدرسة المجددة في الشعر الحديث إن شاء الله .

٣ - التجديد في القوالب الأدبية ، فلم تعد القصيدة وحدها في الشعر - كما  
كانت في القديم - هي القالب الوحيد الذي يفصح فيه الشاعر عن خلجات قلبه ،  
ويحمله خياله ومعانيه ، بل عمد الشاعر إلى المسرحية الشعرية ، واختلقت مسرحياتهم  
طولاً وقصراً . وأكثروا من الرباعيات ، والتواشيح . بل إن بعضهم قد أسرف فنظم  
ما يسمى بالشعر المرسل . ولم يكن حظ النثر دون الشعر في هذا المضمار ، بل بذه ،  
وسار في التجديد شوطاً أوسع ، ولم تعد المقالة وحدها صاحبة السيطرة في النثر ،  
بل اهتم الأدباء بالأقصوصة ثم بالقصة الطويلة ، وإن كان حظ الأدب العربي من  
القصص الطويلة الجيدة حتى اليوم ضئيلاً ، وأكثر من كتابة المسرحيات الاجتماعية ،  
واشتهر كتاب خطأ في المسرحية خطوات موفقة . ولتفصيل هذا الموضوع مكان  
آخر إن شاء الله .

٤ - الاقتباس من معاني الأدب الأوربي وأغراضه ، وذلك لكثرة الترجمة في  
هذا العصر كثرة عجيبة ، سواء من الشعر أو النثر ، فنجد كبار الكتاب أو الأدباء  
يسهمون في المجالات الأدبية بمقالات من إنشائهم أحياناً ، وينقلونها عن الآداب  
الأوربية أحياناً ، واشتهر من بين الأدباء الذين زودوا الأدب العربي بكثير من آراء  
المفكرين الغربيين والأدباء ولا سيما الإنجليز : الأستاذ العقاد فيترجم لتوماس  
هاردي أكثر من قطعة<sup>(٢)</sup> ، ويدافع عن مذهبه في الشعر وتشاؤمه ، ويطرح لأناتول  
فرانس ( باقة من حديقة أبيقور )<sup>(٣)</sup> .

(١) راجع تفصيل الكلام من هذه المذاهب في كتابنا ( المسرحية ) .

(٢) البلاغ الأسبوعي ٢ يونية ١٩٢٧ ، كذلك ١٧ يونية ١٩٢٧ ، و ٢٧ من يناير ١٩٢٨ و ٢ فبراير  
سنة ١٩٢٨ وقد نشرت هذه المقالات فيما بعد في كتاب تحت عنوان ( ساعات بين الكتب ) .

(٣) مجلة الجديد ٢٢ فبراير ١٩٢٨ .

ويترجم الدكتور طه حسين لبودلير<sup>(١)</sup> وغيره ، وينشر هذه التراجم في كتابه ( من حديث الشعر والنثر ) ، ويترجم بعض الأدباء ( سادهانا ) و ( هدية العشاق ) لطاغور<sup>(٢)</sup> ، وتعنى مجلة السياسة الأسبوعية بالأدب الفرنسي عناية فائقة ، وكانت تسير نحو التحديد بخطى وثابة .

وقد ظهرت كتب كثيرة مترجمة في الأدب مثل ( أناطول فرانس في مبادله ) للأمير شكيب أرسلان ، والزينة الحمراء ، وتأسيس ، لأناطول فرانس ، إلى غير ذلك من الكتب الأدبية ، التي ذكرت بعضاً منها على سبيل المثال . على أن أهم ظاهرة في العصر الحديث هي كثرة القصص المترجمة ، قصيرة أو طويلة ، جيدة أو رديئة ، وقد ساعد على هذا وجود المجالات الأدبية ، وتنافسها على أن يكون بكل عدد قصة مترجمة ، وأحياناً قصة موضوعية ، واشتهر من المترجمين عن القصص الإنجليزي بعد الحرب العالمية الأولى محمد السباعي ، وقد نشر كثيراً من قصصه المترجمة في البلاغ الأسبوعي ، وهو ينقل عن الإنجليزية قصصاً لأدباء أوروبا بعامة سواء كانوا من الإنجليز أو الألمان مثل ( لوريلا ) لبول هايتس ، أو من الروس مثل ( الشيطان وصانع الأحذية ، ومهزلة غرامية ، وليلة هائلة ) للقصصي الروسي تشيكوف ، أو الفرنسية مثل قصة العقد ، والحب الضائع ، والزجاجة وروزا ، والشعر ، وغيرها للقصصي الفرنسي الواقعي ( جي دي موبسان )<sup>(٣)</sup> . ويترجم السباعي كذلك رباعيات الخيام عن الإنجليزية بأسلوب ممتاز ، ولكنه كان يجنح في ترجمته إلى عدم التقيد بالأصل .

ونرى قصصاً طويلة تترجم عن الأدب الأوروبي بأسلوب أدبي ممتاز فيترجم الدكتور طه حسين ( زاديج ) لفولتير ، ويترجم الدكتور محمد عوض ( فاوست ) للشاعر الألماني جيته ويترجم الأستاذ أحمد حسن الزيات ( آلام فترتر ) لجيته ، ويترجم ( رفائيل ) للامرتين ، ويظهر قبل ذلك ( المنفلوطي ) في رواياته ماجدولين ، والشاعر والفضيلة مترجمة عن الأدب الفرنسي<sup>(٤)</sup> . ويترجم السباعي رواية الملوينتين

(١) مجلة الجديد ١٨ أبريل ١٩٢٨ .

(٢) راجع القطعة الأولى في البلاغ الأسبوعي ١٩٢٦/١/٤١ ، والقطعة الثانية في نفس المجلة

١٩٢٧/١/١٨ .

(٣) راجع البلاغ الأسبوعي في السنوات ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ .

(٤) راجع H. R. Gibb. B. S. O. S. وانظر ترجمتها العربية في المجلة الجديدة السنة الثانية

عدد نوفمبر ١٩٣٠ ص ١٧ - ٢٤ ، وعدد ديسمبر ١٩٣٠ ص ١٤٩ - ١٥٥ .

لتشارلز دكنز ، و يترجم الدكتور طلح حسين عدداً من المسرحيات الفرنسية .

وفرى خليل مطران يترجم لنا بعض روايات شكسبير ، وأسس الدكتور أحمد زكي أبو شادي مدرسة شعرية هي مدرسة (أبولو) عام ١٩٣٢ ، وأصدر مجلة بهذا الاسم غصت صفحاتها بالترجم من الشعر الغربي ، والمنظوم على نمطه (١) .

ولقد كانت المجلات الأدبية كما ذكرنا حاملة مشعل الترجمة في كل الفنون ، فالسياسة الأسبوعية ، والبلاغ الأسبوعي ، والجديد للمرصفي ، والمجلة الجديدة لسلامة موسى ، ثم الرسالة لأحمد حسن الزيات ، وأختها الرواية ، ثم مجلة الثقافة غصت بالموضوعات والقصاص المترجمة . وقد كان لكل هذا أثر في اقتباس الأدباء والشعراء من معاني الأدب الأوربي ، قصدوا ذلك الاقتباس أو لم يقصدوه ، كما أنهم تأثروا به في موضوعاته وطريقته ، وسرى هذا الأثر عند الكلام عن المدارس الشعرية في العصر الحديث إن شاء الله .

٥ - وتنتج عن تأثرنا بالثقافة الأجنبية كثرة تعريب الكلمات ودخول عدد وفير من أساليب التعبير الغريبة التي تلمسها لدى الكتاب غير المتمكنين من الأدب العربي القديم ، والذين لا يستطيعون أن يصوغوا العبارات المترجمة صياغة عربية أصيلة ، وقد انقسم المترجمون حيال اللغة العربية إلى أنواع ثلاثة فبعضهم يترجم ( ولا سيما المسرحيات ) بلغة عامية أو عربية قريبة من العامية ولا يخرجون في استعمال الكلمات الأجنبية ، وأسلوبهم فيه كثير من الأسلوب الغربي . وقد راعى هؤلاء حال الجمهور المصري الذي سيشهد هذه المسرحيات ، فلم يعنوا بالصياغة العربية والترجمة القوية من أمثال محمد تيمور ، ومحمود تيمور ، والدكتور هيكمل . ونوع ثان ينقل باللغة العربية السهلة التي يتكلمها الناس ، ولا ترقى إلى اللغة الأدبية أو تدانها ، بل هي أشبه بلغة الصحف ، ومن هؤلاء : المازني ومحمد عوض ، ومع هذه البساطة في التعبير والدقة في الترجمة قل أن نجد لديهما أساليب تنكرها العربية . وإن كان المازني قد جنح في أخريات حياته إلى التساهل في استخدام الكلمات العامية في مقالاته الصحفية وفي بعض قصصه مع أنه في مستهل حياته الأدبية كان من أكبر

(١) راجع Lenard S. Harker في كتابه Blazing The Trail ١٩٣٨ ص ١٢٩ ، والدكتور إسمايل

المحافظين على الفصحى وعلى تجويد الأسلوب ، وقد برع المازني في أخريات حياته في الترجمة من الإنجليزية إلى العربية براعة جعلته في الصف الأول في هذا المضمار . ونوع ثالث كان يتخرج كل التخرج من الإسفاف في التعبير أو الحيدة عن صحيح اللغة ، أو الكتابة بأساليب مرقعة ، لا هي بالعربية الأصيلة أو الغربية الخالصة ، وإنما كان يترجم ترجمة أدبية قوية ممتازة الأسلوب مثل مطران في ترجماته لروايات شكسبير ، ومثل طه حسين في ترجماته ، ومثل الزيات في آلام فرتز ورفائيل . ومثل السباعي<sup>(١)</sup> في قصصه المترجمة ، وإن كان لا يتقيد بالأصل ، ومثل عباس حافظ في قطعه الأدبية المترجمة<sup>(٢)</sup> .

ولقد كان ثمة حراع بين الذين يؤثرون السهولة والراحة ، ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث وراء الكلمة الفصيحة حين الترجمة أو التأليف ، وينقلون الآثار الأدبية الرائعة في لغاتها إلى اللغة العامية المصرية فيسيئون إلى هذا الأدب الجميل ، ويسئون إلى لغتهم إساءة بالغة ، فالأثر الذي تتركه مثل هذه القطع المترجمة<sup>(٣)</sup> أثر وقتي يزول بخروج المترجم من المسرح أو أثر خلقي إن كانت الرواية خلقية أو اجتماعية ، أما الأثر الأدبي فلا وجود له ألبتة ؛ لأن العامية لا تستطيع النهوض والوقوف للغة العربية كما ذكرنا في غير هذا الموضع<sup>(٤)</sup> ، وبين هؤلاء الذين تمكنوا في اللغة العربية تمكناً عظيماً ، فهم يغنون في ترجماتهم تزويد هذه اللغة بألوان من الصور والمعاني ، والأفكار ، والموضوعات تجعلها من اللغات العالمية الغنية . وللاستاذ العقاد في الدفاع عن الفصحى مقال قيم<sup>(٥)</sup> ، وللرافعي ، رد مفهم مدعوم بالأدلة الباهرة على هؤلاء الذين حاولوا تمصير اللغة أو الجنوح إلى العامية نشره تحت عنوان ( تمصير اللغة )<sup>(٥)</sup> وقد قال شوقي مثنياً على الفصحى وقدرتها على التعبير في كل زمان :

لغة الكامل في استرساله وابن خلدون إذا صح وصابا  
إن للفصحى زماماً يبدأ تجلب السهل وتقتاد الصعابا

Taher Khamiri and Kamipfmeier : Leaders in Contemporary Arabic (1) Literature.

(٢) البلاغ الأسبوعي ١٩٢٩ .

(٣) راجع ص ٤٢ - ٤٤ من هذا الكتاب .

(٤) راجع البلاغ الأسبوعي - العامية والفصحى ، ٢٢ إبريل ١٩٢٧ ، و ( ساعات بين الكتب ) للعقاد .

(٥) راجع كتاب ( تحت راية القرآن للرافعي ) ط ١٩٥٣ ص ٥١ - ٦٣ .



لغة الذكر لسان المجتبى      كيف تعيا بالمنادين جوابا  
كل عصر دارها إن صادفت      منزلاً رجلاً وأهلاً وجنابا  
إيت بالعرمان روضاً يانعا      وادعها تجر ينايع عذابا

ويقول الدكتور طه حسين في مقدمة ( قصص تمثيلية ) موضحاً وجهة نظره في هذا الموضوع :

« هذه فصول في النقد والتحليل تناولت بها طائفة من آيات التمثيل الحديث ، ونشرتها ( السياسة ) متفرقة ؛ ثم طلب إلي بعض القراء أن أجمعها في أسفار فأجبتهم إلى ذلك دون أن أغير فيما نشرته - السياسة - قليلاً أو كثيراً . ولقد كتبتها وجمعتها ، ولا أريد من ذلك إلا أمرين اثنين : الأول أن أظهر قراء العربية على نحو من الأدب الغربي ، والثاني أن يكون لهذه القصص ، وما فيها من الآراء الفلسفية ، والمذاهب الفنية المختلفة أثر في نفوس الأدباء الذين يعنون منهم بالتمثيل العربي خاصة ، يحملهم على أن يعنوا بهذا الفن الناشئ في أدبنا عناية ترفع من شأنه ، وتجعله خصباً مفيداً ، فإن أوفق إلى ما أريد بعضه أو كله فأنا سعيد » .

هذا بعض ما كان للثقافة الأجنبية ، وشدة اختلاطنا بالأدب الغربي نتيجة تلك العوامل التي أتينا عليها آتفاً من آثار في أدبنا شعراً ونثراً ، ألمت بها إلماً سريعاً ، وكم كان بودي أن أقف عند كل أثر من هذه الآثار ، وأوفيه حقه من البحث في هذا المقام ، ولكن المقام أضيق من أن يتسع لكل هذا .

والآن وقبل أن أترك هذا الموضوع أرى لزماً عليّ وأنا أؤرخ لهذه الحقبة من الأدب الحديث ، وقد ذكرت فيما سبق سيئات ( كرومر ) في التعليم ، أن أقول كلمة إنصاف ، وأسجل هنا أثراً حميداً من آثاره ، ألا وهو حرية الصحافة في عهد الاحتلال ، أو بعبارة أدق في عهد كرومر خاصة .

وإذا كان للورد كرومر من حسنات تذكر في هذا السبيل فأول هذه الحسنات وأقواها أثراً في الأدب هي إطلاقه الحرية التامة للمطبوعات ، وعلى الأخص الصحافة المصرية ، فلم يكتم أفواه الصحافة ، أو يقيدها بقانون خاص ، وتركها للقانون العام .

وصل كرومر مصر سنة ١٨٨٣ والصحافة مقيدة بتلك القوانين الصارمة التي سنّها إسماعيل ، والتي كان يسلطها سيفاً بشاراً على رؤوس الصحفيين الذين ينتقدونه ، ولا تنسى أنه أغلق جريدة التجارة التي أنشأها أديب إسحق ، وأغلق أبا نضارة التي أنشأها يعقوب صنوع ، وكاد يبطش بالأهرام لولا توسط الفرنسيين ، ثم جاءت الثورة العرابية فشددت الرقابة على الأفكار ، وعلى تداولها . ولا تنسى أن عبد الله نديم ظل مختفياً ركدًا طويلاً من الزمن وأنه كان يخشى الظهور لما اشتهر به من مناوآته للخديو توفيق . وقد أغلق توفيق الأهرام سنة ١٨٨٤ لأنها كتبت مقالا تقرر فيه أن الحكومة لا تخدم مصر وإنما تخدم انجلترا ، ولكن الضباط المكلفين بإغلاقها سرعان ما فتحوها بأمر اللورد كرومر واعتذروا لصاحبها رسمياً .

كانت هذه القوانين تحتم على صاحب المطبعة دفع تأمين لا يقل عن مائة جنيه عند فتحها ، ومن ينشئ مطبعة بدون ترخيص من الحكومة يغرم غرامة قد تصل إلى مائة وخمسين جنيهاً ، ومن أراد أن يصدر كتاباً أو صحيفة لا بد له من عرضهما من قلم المطبوعات قبل أن يسمح له بإصدارها . وربما وجد من المضايقات وإحالة الأمر إلى وزير الداخلية ، وتعويق إصدار الرخصة للصحيفة ما يجعله يعدل عن إصدارها (١) .

جاء كرومر وهذه القوانين قائمة ومعمول بها فعلاً ، فلم يلغها ، ولكنه أهملها ، وترك الحرية للمطابع وللصحافة . فانتشرت المطابع انتشاراً عظيماً حتى بلغ عددها في أواخر عهد الاحتلال ما يربي على ٢١٧ مطبعة في القاهرة وحدها (٢) . وأبيح للكتاب ورؤساء الأحزاب وغيرهم إنشاء الصحف والمجلات من غير حاجة إلى استصدار رخص خاصة من قلم المطبوعات (٣) .

ولا شك أن إطلاق الحرية للصحافة وللكتاب ، قد حررها من ربة الحكومة وسيطرتها ، فلم تعد ميداناً للملق والنفاق ، والكذب ، والدفاع بالباطل عن تصرفاتها الخاطئة وتكبير حسناتها التافهة ، بل صارت رقيباً قوياً ، ولسان صدق للأمة ومطالبها القومية ، وحرباً مريرة قاسية على الإنجليز وفظائعهم بمصر ، والتشهير بهم في العالمين ،

(١) قانون المطبوعات سنة ١٨٨١ - الهلال أول مارس ١٩٠١ ص ١٢٢١ - ٢ .  
George Young. Egypt : P. K. London 1927. (٢)

(٣) الهلال أول مايو سنة ١٩٠٧ ص ١٤٦١ .

ولا شك أن هذه كانت شجاعة فائقة من اللورد كرومر الذي كان الحاكم المطلق لمصر في ذيك الوقت أقوى من الجالس على العرش ، بل أقوى سلطة في البلاد ، يزور قراها ويستقبل استقبال الملوك ، ولا يستطيع أن يت في صغيرة أو كبيرة من شئون الدولة إلا بأمره وبعد أخذ رأيه .

أتى كرومر مصر وعدد الصحف لا تزيد عن بضع وعشرين صحيفة ، ولكن لم يأت عام ١٩٠٣ حتى كان بالقطر ١٧٦ صحيفة خص القاهرة منها ١٣٣ ما بين جريدة ومجلة<sup>(١)</sup> .

ولقد أدى ازدياد الصحف إلى التنافس بينها ، وأدى التنافس إلى تجويد المقال ، واختيار الكتاب الأكفاء ذوي الأفكار الحية الجديدة ، وإشباع نهم الجمهور للطريف الجديد من المقالات والأخبار ، والتحدث بإسهاب عن مآسيه وأرزائه ، وأمانيه وأدوائه . وكيف تنسى أنه في هذه الحقبة ظهر مصطفى كامل ، وأشعلها حرباً مرة قاسية في الشرق والغرب على المحتل الغاصب ، وكانت جريدة المؤيد في أول الأمر ميداناً لمكافحته ، ثم أنشأ جريدة اللواء<sup>(٢)</sup> ، بل أصدر جريدتين إحداهما بالفرنسية L'Etendar Egyptien والثانية بالإنجليزية The Egyptian Standard<sup>(٣)</sup> ، حتى يكون التشهير بفظائع الإنجليز أهم وأقوى ، ولم يصادَر له اجتماع عقده ، وقد كان عدد الحاضرين يبلغ أحياناً سبعة آلاف ، ولم تغلق له جريدة مرة . وكان يكتب فيها جماعة من ذوي الأقلام الملتهبة القوية مثل عبد العزيز جاريش ، ومحمد فريد .

وكان إنشاء الأحزاب مباحاً كذلك ، وقد أنشئ حزب الإصلاح برئاسة الشيخ علي يوسف منوئاً للحزب الوطني ، بعد أن فسدت العلاقة بين الخديو عباس والزعيم مصطفى كامل في سنة ١٩٠٤<sup>(٤)</sup> ، ثم أنشئ حزب الأمة في سنة ١٩٠٧ ، وهي السنة التي رحل فيها ( كرومر ) ، ولكنه شهد مولد هذا الحزب قبل أن يغادر مصر وكان

(١) محاضرة يعقوب أرتين باشا في المجمع العلمي المصري سنة ١٩٠٥ .

(٢) صدر العدد الأول من جريدة اللواء في يوم ٢ يناير سنة ١٩٠٠ .

(٣) صدرت الجريدة الفرنسية في مساء يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧ ، والجريدة الانجليزية في صبيحة

٣ مارس ١٩٠٧ راجع مصطفى كامل للرافعي ط ثانية ص ٢٤٠ .

(٤) راجع مصطفى كامل للرافعي ص ٢٣٩ وما بعدها .

عنه راضياً • كان حزب الأمة في أول الأمر متأثراً بأفكار الشيخ محمد عبده ونظرته في السياسة والإصلاح ، وكان الشيخ محمد عبده على صلة طيبة بالإنجليز كما عرفنا في الجزء الأول ، وقال كرومر في شأن رجال حزب الأمة في تقريره السنوي سنة ١٩٠٦ : « إنهم فئة قليلة من المصريين ، ولكن عددها آخذ في الازدياد ، ولا يسمع عنهم إلا الشيء القليل ، بيد أنهم ليسوا أقل استحقاقاً لوصف الوطنية من الحزب الوطني الذي اختص نفسه بهذا الوصف ؛ وهم يشدون رقي بلادهم ، ويعملون على تقدم إخوانهم في الدين من غير أن يصطبغوا بفكرة الجامعة الإسلامية ، وهم يرغبون في التعاون مع الأوربيين على إدخال المدنية الأوربية في مصر ، وأتني أرى أن الأمل الوحيد للوطنية المصرية في معناها العملي الصحيح معقود بأعضاء حزب الأمة » (١) .

وقد أنشأ هذا الحزب ( الجريدة ) وكان يرأسه وقت تأسيسه حسن باشا عبد الرزاق وكان من أخلص الناس للشيخ محمد عبده ، وبعد وفاته في سنة ١٩٠٧ تولى الرئاسة محمود باشا سليمان ، ثم أحمد لطفي السيد الذي كان يرأس تحرير الجريدة • ويقول الدكتور هيكمل في أغراض الجريدة وحزب الأمة : « على أن المصريين قد رأوا فشل السياسة الأولى التي جروا عليها ، وهي سياسة الاعتماد على فرنسا ، ثم على أوروبا ، ثم على الباب العالي ، وقدّر جماعة منهم أن لا بد من الأخذ بسياسة أخرى هي إعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وأخلاق ، وغرس الإيمان بنفسها لمجرد كراهية الإنجليز ، ولا حباً في الباب العالي ومقام الخلافة ، ولكن حباً في الاستقلال والحرية لذاتهما ، وكان لطفي السيد لسان الذين فكروا هذا التفكير » (٢) .

ولقد أفضت قليلاً في الكلام عن حزب الأمة وجريدته ؛ لأنه كان حزباً يدعو إلى التجديد مع الاعتدال ، والتوفيق بين المدنية الحديثة ، والحضارة الإسلامية وتعاليم الشرع أو كانوا كذلك في أول الأمر ، لقرب تأثرهم بآراء الشيخ محمد عبده ، ولأن البيئة المصرية حينذاك لم تكن تتحمل التطرف الشديد في التجديد • ولكنهم فيما بعد ، حين تمتعت مصر بشيء من الاستقلال والحرية دعوا إلى التجديد السافر في غير تحفظ ، وإلى حرية الرأي ، ولو كان فيه شطط وخروج عن الدين

(١) تشاولز آدمز ( الاسلام والتجديد ) ص ٢١٤ نقلاً عن كتاب الحقيقة عن مصر ص ٨١ .

(٢) تراجم شرقية وغربية ص ١٥٩ - ١٦٠ .

والثقافة • ويعتبر رجال هذا الحزب أنفسهم سواء — في السياسة أو العلم — من القادة الذين يجب أن يستمع الشعب لآرائهم ، ويسير وراءهم ، ولهم في السياسة منحنى معروف ينم على أنهم أخلصوا للإمام محمد عبده ونظرته السياسية بعد وفاته ، وتمسكوا بتعاليمه ، فمنهم صار الأحرار الدستوريون فيما بعد ، وهم الذين دعوا إلى إنشاء الجامعة المصرية ، وقاموا بإنشائها فعلا في سنة ١٩٠٨ ، وإن كان مصطفى كامل قد سبقهم في الدعوة إلى تأسيسها على نحو ما ذكرناه آنفاً ، وهم الذين تولوا إدارتها فترة طويلة من الزمن في عهدها الحكومي ، وقادوا الحركة الفكرية والتجديد في مصر في الآداب والفلسفة والاجتماع بقوة وجراءة ، وربما كانت لنا عودة إليهم فيما بعد إن شاء الله •

على أن إنشاء الجريدة كذلك كان فتحا جديداً في عالم الصحافة من جهتين : إذ ضاعفت الأجور للكتاب ، فارتفع مستواهم الأدبي ، وجاراهم في ذلك أصحاب الصحف الأخرى ، وجودت المقالة تجويداً عظيماً ، بيد أن الجريدة لم تستمر بعد قيام الحرب العالمية الأولى ، وقد خلفتها في عهد الاستقلال جريدة السياسة اليومية وأختها السياسة الأسبوعية •

كانت الصحافة من قبل تطرح على المشتركين ، الذين يعدون الاشتراك فيها كرماً وأريحية يحبون بهما صاحب الجريدة ، ولكنها بفضل المنافسة ، والحرية ، والاهتمام بالشعب وآماله والمزايدة في الوطنية ، وتنبه شعور الجمهور للإصلاح ، والتخلص من الاحتلال ، فرضت الصحافة نفسها على الشعب ، فأقبل على قراءتها حتى قال فيليب دي طرازي : « ولا بد لنا في هذا المقام ، مقام الكلام عن الصحافة في عهد الاحتلال من التصريح بأن صحافة وادي النيل بلغت ، أو كادت تبلغ شأو الجرائد الأوروبية من حيث الحجم ، ووفرة الأخبار ، وغير ذلك من المحاسن ، والفضل عائد إلى الحكومة المصرية ، التي تحدثت الحكومات الأوروبية ما أمكن — بتأثير الاحتلال الإنجليزي — وعلى الجملة فالصحافة العربية في تاريخ حقبتها الثانية لا تستحق أن تعد بين الصحف الراقية إلا في مصر ، ولا يمكن أن ترتقي في سائر الأفكار إلا بقدرة ارتقاء المحيط الذي تصور فيه ، كما نشاهد الآن ذلك بالفعل في أمريكا الشمالية والجنوبية<sup>(١)</sup> » •

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٨ •

ومما يدل على أن كرومر كان له الفضل في حرية الصحافة المصرية ، أنه بعد رحيله لم تقو الحكومة ، ولا رجال الاحتلال على مواجهة الحرية الصحفية ، والقوة التي كانت تهجم بها على الفساد الحكومي ، وتنقص على المحتل إقامته ، وتبين مساوئ حكمه ، وفساد إدارته ، وتعسفه ؛ فأعادوا في ٢٥ من مارس ١٩٠٩ قانون المطبوعات القديم الذي كان قد صدر في أخريات الثورة العرابية ، أي قبل الاحتلال في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ ، وكان هذا القانون يخول وزير الداخلية الحق في إنذار الصحف ، وتعطيلها مؤقتاً ، أو نهائياً من غير محاكمة أو دفاع ، وكان بعثه وإعادة العمل به نكسة للحرية الصحفية ، وقضاء على ما بقي للشعب المصري من متنفس ، وكان صدوره أول مظهر للتحالف بين الخديو عباس والاحتلال ضد الحركة الوطنية<sup>(١)</sup> .

وقد أثار هذا القرار حنق الشعب كله ضد بطرس غالي رئيس الوزراء حينذاك ، وقامت المظاهرات العديدة في كل مكان بمصر تشادي بالغائه ، وتظهر سخطها على الوزارة التي سمحت برجوع هذا القانون ، الذي صار سيفاً مسلطاً على الأفكار الحرة ، وعلى رجال الوطنية الذين برموا بتلك الإنگليز ، ووعودهم الكاذبة . وقد حوكم المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بمقتضى هذا القانون ، لأنه كتب مقالا في ذكرى دنشواي ، وحبس ثلاثة أشهر في أغسطس سنة ١٩٠٩ ، مع أن ما قام به الوطنيون في سنة ١٩٠٦ حين وقوع حادثة دنشواي ، وما شنوه من حرب شعواء ضد الاحتلال في الداخل والخارج ، وضد كرومر بصفة خاصة كان أعنف وأقوى ما رآه الإنگليز حتى ذلك الوقت ، وكان السبب في أن ضحت انجلترا بكرومر إرضاء للمصريين أولاً ، ولتهدة السخط الذي أظهره الرأي العام الأوروبي حين سمع بهذه الفظائع الوحشية ثانياً . ولم يفكر كرومر ، وكان بيده كل سلطان — أن يكلم أفواه الجرائد أو يصادر الاجتماعات التي كانت تندد بسوءات حكمه .

وبمقتضى هذا القانون أنذرت جريدة اللواء الإنذار الأول في سنة ١٩٠٩ ، ثم عطلت نهائياً في أغسطس سنة ١٩١٢ ، وأوقفت جريدة ( العلم ) شهرين ، وكانت قد ظهرت بجانب اللواء في ٧ من مارس ١٩١٠ ، وصدر الأمر بإيقافها في ٢٠ مارس ،

---

(١) راجع محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ١٠٠ ط ثانية .

ثم عطلت نهائياً في ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٣ . وبمقتضى هذا القانون كذلك حبس محمد فريد ستة أشهر لأنه كتب مقدمة لديوان ( وطنيتي ) الذي نظمه الشيخ علي الغاياتي ، وصور الديوان ، وحبس الشيخ جاويش ثلاثة أشهر مع الشغل لأنه كتب مقدمة أخرى لهذا الديوان كذلك<sup>(١)</sup> .

وظل هذا القانون الصارم سيفا بطاشاً ، يفتك بالصحافة الحرة ، ويطيح بالآراء الجريئة بل يندھا قبل أن ترى الحياة ، إلى أن شبت الحرب العالمية الأولى في أغسطس سنة ١٩١٤ وأعلنت الحماية على مصر ، وجاءت معها الأحكام العرفية ، فقضت على البقية الباقية من الحرية الصحفية ، وكانت المؤيد قد توقفت عن الصدور قبل ذلك بعد أن عين الشيخ علي يوسف شيخاً للسادة الوفائية في سنة ١٩١٢ ، وودع المؤيد ورئاسة تحريره في سنة ١٩١٣ ، وأسندت رئاسة تحريره لمحمد بك أبو شادي ، ولكن الديون كانت قد أثقلت المؤيد ، فأصر الدائنون على بيع داره وأثاث بيت صاحبه لاستيفاء الدين ، فبيعت في مارس ١٩١٣ وفي ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩١٣ توفي الشيخ علي يوسف وهو في الخمسين من عمره ، وذهب ذلك الصوت المصري الجريء مع من ذهب من أعلام النهضة<sup>(٢)</sup> .

أما ( الجريدة ) لسان حزب الأمة ، والصوت الجديد في الصحافة فقد توقفت كذلك في سنة ١٩١٤ ، وجنت عليها الحرب فيما جنت<sup>(٣)</sup> .

كانت الحرب العالمية الأولى نكبة على الناس ، وقد حاول الإنجليز أن يتخذوا منها ذريعة للقضاء على ما بقي للمصريين من حرية واستقلال وشعور بالكرامة والوطنية ، فمهدوا الطريق لإعلان الحماية على مصر ليقطعوا بذلك آخر صلة لها بتركيا ، وليحكموها بيد من حديد ، بحجة الدفاع عن أنفسهم ، وتأمين خطوط مواصلاتهم ، فأعلنوا قانون التجنيم في ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٤ ، الذي يقضي بالآ

---

(١) محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ١٨٨ .

(٢) راجع ترجمة الشيخ علي يوسف وتاريخ المؤيد في كتابنا ( في الأدب الحديث ) ج ١ ص ٤١٥ وما بعدها ط سادسة . وكذلك في مقال للمؤلف من الشيخ علي يوسف في مجلة الكتاب عدد يولية سنة ١٩٤٨ ، وفي دراسات أدبية للمؤلف ج ١ .

(٣) راجع تراجم شرقية وغربية لهيكل ، وراجع الاسلام والتجديد ص ٢١٥ .

يجتمع أكثر من خمسة أشخاص في مكان ما<sup>(١)</sup> ، وغثلوا البلاد بالأحكام العرفية في ٢ من نوفمبر ١٩١٤<sup>(٢)</sup> ، ثم أعلنوا الحماية في يوم ١٨ من ديسمبر ١٩١٤<sup>(٣)</sup> وقد احتجبت جريدة ( الشعب ) التي كان يصدرها أمين الرافعي احتجاجاً على إعلان الحماية<sup>(٤)</sup> ، وعظمت الجمعية التشريعية في ٢٧ من أكتوبر ١٩١٥ ، فلم يبق في مصر أي صوت ينطق بلسان الشعب ، أو يستطيع أن يتفوه بكلمة حق .

وهكذا صمت المصريون أمام هذا الإرهاب الشنيع طوال أربع سنوات ، تضيق صدورهم بما ترتكبه ( السلطة ) من آثام ، ولا تنطلق ألسنتهم بما يعتلج في حنايا هذه الصدور من آلام ، وقد أشار سعد زغلول إلى ما عاناه المصريون في خلال هذه المدة من غت وإرهاق في حديثه مع المعتمد البريطاني في سنة ١٩١٩ بعد أن أعلنت الهدنة بقوله : « وإن الناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ، ويخففوا عن صدورهم الضيق الذي تولاهم أكثر من أربع سنين<sup>(٥)</sup> » .

ثم اضطربت الثورة في مصر سنة ١٩١٩ ، وكان من أهم أسبابها على ما اعتقده كبت الحريات ، والتضييق الشديد على الآراء والأفكار طوال عشر سنوات كاملة ، بل منذ خرج كرومر من مصر سنة ١٩٠٦ ، ولقد كان كرومر استعمارياً محضاً ، فسمح للمصريين بأن ينفسوا عن أنفسهم بالكتابة والخطابة فنأوا عن الثورة ، وإن أطاحت به هذه الحرية التي منحها لهم وأبعدته عن مصر على أثر تلك الغارة الشعواء التي شنوها عليه بعد حادثة دنشواي الدامية . أما خلفاؤه فلم ينهجوا نهجه ، ولم يترسوا بحكم الشعوب ، ويدرسوا نفسياتها ويعالجوها بما يناسبها ، فكانت ثورة سنة ١٩١٩ ، وكانت خيراً وبركة على وادي النيل .

ولما شبت الثورة ازدادت رقابتهم على الصحف شدة وعنفاً حتى إن الصحف المصرية لم تستطع أن تشير إلى أول اجتماع عقده الوفد المصري برياسة سعد زغلول في دار حمد الباسل إلا بأنه اجتماع ضم كثيراً من أعيان العاصمة والأقاليم دعوا

(١) راجع ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ١١ .

(٢) الوقائع المصرية ٢ من نوفمبر ١٩١٤ .

(٣) الوقائع المصرية ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ .

(٤) ثورة ١٩١٩ ص ٢٧ ج ١ .

(٥) ثورة ١٩١٩ ص ٧٠ .



لتناول « الشاي » والحلوى ثم انصرفوا رويداً رويداً وجماعات جماعات ، وهم يتحدثون بفخامة هذا الاجتماع وبفضل الداعي وكرمه<sup>(١)</sup> ومن يقرأ هذا الكلام لا يفهم منه شيئاً يمت إلى السياسة بصلة ، مع أن هذا الاجتماع كان إيذاناً بالثورة ، وقد وضعت فيه مبادئ الجهاد ، والوقوف في وجه المحتل الغاصب ، وقد طبع الوفد ما اتخذه من قرارات ، ووزعها على الناس حين عجزت الصحف عن نشره .

ولما طارت أول شرارة من نار الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، واستشهد كثير من الشباب في ميدان التضحية ، وكثرت الاعتقالات واستبدت السلطة الغاشمة ، وأمعنت في طغيانها ، ولم يجد الناس في الصحف عناء لمعرفة أخبار الثورة والجهاد ، وانتشرت المطبوعات والصحافة السرية التي كانت تحمل الحملات الشديدة على الإنجليز ، وعلى الوزارة ، وعلى القصر ، وكان للطلبة جريدة سرية باسم « المصري الحر » ولها مطبعة سرية خاصة ، وكان الناس يتلقفون هذه النشرات بلهف بالغ ، ويتبادلون الاطلاع عليها ، فساء ذلك المحتل الغشوم ، وأمعن في إرهابه وعنته ، وأصدر الجنرال « بلفن » أمراً شديداً بمعاقبة كل من يلجأ إلى طبع أو إذاعة أو توزيع أي نشرة أو صورة عقاباً صارماً ، وذلك في يونية سنة ١٩١٩<sup>(٢)</sup> .

ولما عقدت معاهدة الصلح في قصر « فرساي » في ٢٨ من يونية ١٩١٩ ، وتقرر فيها الاعتراف بشرعية الحماية على مصر ، تساهلت السلطة العسكرية البريطانية بعض الشيء مع المصريين ، وألغيت الرقابة على الصحف ابتداء من أول يولية سنة ١٩١٩ ، ونشرت رئاسة مجلس الوزراء بياناً في ٢٦ من يونية نصحت فيه لأصحاب الصحف بأن يلزموا الاعتدال حتى لا يلجئوا الحكومة إلى العودة لوضع القيود والروابط ، ولكن الإلغاء كان صورياً ، لأن إدارة الرقابة أرسلت إلى الصحف مذكرة سرية تفرض فيها رقابة أشد وأنكى مما كان<sup>(٣)</sup> .

ثم مضت الثورة في طريقها لا تلوي على شيء ، واشترك فيها الأمراء ، والفقراء ، وأهل المدن ، وأهل القرى ، وعمت البلاد من شاطئ البحر المتوسط إلى حدود السودان ، وكثر عدد القتلى والشهداء ، وتأليف وزارات لم تستطع حكم البلاد

(١) الأهرام ١٤ من يناير سنة ١٩١٩ .

(٢) راجع ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩ .

وظلت البلاد من غير حكومة فترات طويلة ، وهنا اضطرت السلطة البريطانية إلى إعادة الرقابة على الصحف مرة أخرى في مارس ١٩٢٠ (١) .

ولما دعي عدلي يكن لمفاوضة الإنجليز رسمياً ، وكان سعد زغلول بباريس حينذاك، وطلب منه عدلي أن يشترك في المفاوضة - أرسل إليه في ١٩ من مارس ١٩٢٠ بأنه عائد إلى مصر . وقد اشترط للاشتراك في هذه المفاوضة شروطاً كان منها إلغاء الأحكام العرفية ، والرقابة على الصحف قبل الدخول في المفاوضات (٢) ، وقد حقق عدلي يكن بعض هذه الشروط في مايو سنة ١٩٢١ ، فرفعت الرقابة عن الصحف (٣) .

وانقسم الوفد المصري على نفسه ، واختلف سعد وعدلي على رئاسة الوفد ، ثم نفي سعد وصحبه إلى جزيرة سيشل في ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وأعادت السلطة العسكرية الرقابة على الصحف مرة أخرى ، وبطشت بكل صحيفة كانت تناوئها . ولما أعلن تصريح ٢٨ من فبراير ١٩٢٢ ، وقاومته أغلبية الأمة ، وكثرت الاغتيالات السياسية أساء ثروت ( باشا ) معاملة الصحف التي كانت تندد بالتصريح ، وتعارض سياسته ، فعطل جريدة ( الأهالي ) تعطيلاً نهائياً في مايو سنة ١٩٢٢ ، وعطل جريدة الأمة لمدة ثلاثة أشهر ، وعطل الأهرام وأصدر أوامر مشددة إلى الصحف بتجنب ذكر اسم سعد وزملائه المنفيين (٤) .

وأخيراً وضع الدستور المصري ، وأعلن في ١٩ من إبريل سنة ١٩٢٣ ، وقد كفلت المواد ٤ و ٥ و ١٢ و ١٣ و ١٤ منه الحرية الشخصية ، وحرية الاعتقاد ، وحرية الرأي .

بحيث لا يجوز القبض على أي إنسان ولا حبسه إلا وفق أحكام القانون ، وكفلت المادة ١٥ منه حرية الصحافة ، وحظرت الرقابة على الصحف ، ومنع إنذارها

---

(١) الوقائع المصرية في ٥ من مارس ١٩٢٠ .

(٢) خطبة سعد زغلول في حفلة تكريمه بحي السيدة زينب يوم ٢٢ من إبريل سنة ١٩٢١ .

(٣) في أعقاب الثورة لعبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٦٧ .

وتعطيلها أو إلغائها إداريا ، وانتهت الأحكام العرفية في ٥ من يولية سنة ١٩٢٣ •  
وتمتعت مصر بفترة من الحرية النسبية حرمتها أمدا طويلا •

بيد أننا نقول والأسف يملأ قلوبنا إن الإنجليز قد تركوا لهم أذنانا وصنائع في مصر ، عبثوا بها وبحريتها ، وكانوا حربا على الصحافة وحرية الفكر كلما أتاحت لهم الفرصة ليتولوا الوزارة ، التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ومن دون الوطن ، ونراهم تضيق صدورهم حين يشاهدون الأمة جادة في نيل استقلالها كاملا غير منقوص ، وكأنني بهم ينظرون نظرة الذئب إلى فريسته ، أو الوصي إلى اليتيم الصغير ، ويدعون أن الأمة لم تزل في حاجة إلى الهداية والرشد ، وأنهم هم القادة الأكفاء الذين أرسلتهم العناية الالهية للأخذ بيدها ، ولكن هل في تعطيل الدستور ، والعبث به ، ووضع دساتير فجأة ، وفي كبت الحريات والحد من الأقلام الجريئة هداية أو رشاد ؟؟

لقد انفصل عن الوفد جماعة نفسوا على سعد رئاسته ، وأسس حزب الأحرار الدستوريين في أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وتصدعت وحدة الأمة ، واجتهد القصر في أن يحتفظ لنفسه ببعض مزايا الحكم ، وألف حزب الاتحاد ، ثم حزب الشعب ، ثم اندمج كلاهما في حزب الاتحاد الشعبي وكانا يشايعان القصر ، وقد أدت هذه الفرقة إلى تناحر الأحزاب فيما بينها ، وشدد رجال الأحزاب النكير على الحريات ، والصحف المعارضة كلما تولوا الحكم • وعمدت الصحف إلى المهاترات الحزبية ، وانصرفت جهود الأمة إلى دعم الحزبية ، لا إلى المطالبة بالاستقلال وقد ظل الأمر كذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، فأينا نيابة الصحافة تجدد في تعقب الصحف ومؤاخذتها ، وفرض الغرامات على أربابها •

ولكن على الرغم من كل هذا فقد خطت الصحف في عهد الدستور خطوات واسعة جدا في سبيل الرقي من حيث المادة ، والحجم ، والفن الصحفي ، وظهر إلى جانب الصحف اليومية مجلات أسبوعية وشهرية غنت بالآداب والعلوم والفنون ، وتفرغ لتحريرها صفوة الكتاب والأدباء وعملت على تحييب الأدب للجمهور ، وكانت أداة فعالة في التقريب بين الشرق والثقافة الغربية • وقد بلغت هذه الصحافة الأدبية الذروة بعد إعلان الدستور فترى السياسة الأسبوعية تحمل مشعل التجديد ،

وتحث الناس على الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية دون مراجعة أو تردد وتستمر حِقْبَة من الزمن وهي في عنفوانها ، ثم تضمحل بضمف الأحرار الدستوريين سياسياً ، ويظهر بجانبها البلاغ الأسبوعي ينافسها في ميدان الأدب الغربي ، ويعرض آراء جمهرة من الكتاب والشعراء عرضاً جذاباً • وتظهر مجلة الجديد في سنة ١٩٢٨ لنائل المرصفي ، ولكنها لا تبقى أكثر من سنتين ، ومن ثم تظهر في الأفق مجلة قوية بأقلامها والمحررين فيها ، وكانت ثمرة ناضجة لهذه الجهود الطويلة الذي بذلها محمد عبده وأتباعه ألا وهي مجلة الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات ، وتظل سنوات في مقدمة المجالات الأدبية في الشرق ، إلى أن تظهر مجلة الثقافة للأستاذ أحمد أمين ولجنة التأليف والترجمة وتبقى قوية بضع سنوات ثم تضعف • هذا عدا الهلال والمقتطف والزهراء لمحِب الدين الخطيب وغيرها •

ثم تعلن الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ ، وتعلن معها الأحكام العرفية ، ويشح الورق ، وتقرب الرقابة على المطبوعات ، وينقص حجم الصحف ، وتضعف الصحافة الأدبية تدريجياً ، ويظهر في أعقاب الحرب نجم جديد في عالم الصحافة الأدبية وهي مجلة الكتاب التي تصدرها دار المعارف<sup>(١)</sup> • ويهتم الغرييون ببث دعاياتهم وثقافتهم بين شعوب الشرق ، فتصدر مجلة ( المختار ) الأمريكية في خلال الحرب ، وكلها ترجمة عن المجالات الأمريكية ، وفيها رأى العرب لوناً جديداً حقاً من الثقافة والتحرير ثم عجزت عن الاستمرار بعد سنوات وظهرت الهلال في ثوب جديد محتذية حذوها ، متقربة نوعاً ما من ثقافة الشعب ومستواه دون أن تسف •

ولعلك رأيت بعد هذا العرض السريع للصحافة في عهد الاحتلال والاستقلال مبلغ ما عانيناه من غنت ، ومبلغ ما وصلنا إليه من حرية ، وسنعود مرة أخرى إلى الصحافة عند التحدث عن أثر النهضة القومية في الأدب إن شاء الله •

---

(١) من المؤلم أن المجالات الأدبية كالرسالة والثقافة والكتاب قد اضطرت للاحتجاب وأعلن الأسناد الزيات توقف الرسالة في الأهرام ١٩٥٣/٢/٢١ لم تلتها مجلة الثقافة وتوقفت مجلة الكتاب في أفسطس ١٩٥٣ وهذه لمعري نكسة أدبية مريّة ، ولنا إلى هذا الموضوع عودة في أحد الأجزاء التالية حينما نتكلم من النشر إن شاء الله •

## الفصل الثاني

### النهضة القومية

والنهضة القومية من أهم العوامل التي أثرت في أدبنا الحديث شعراً ونثراً حتى صار أدباً قوياً عملاقاً ، استعادت به اللغة العربية سابق روتقها وبهائها أيام عصرها الذهبي في عهد العباسيين ، بل أربت على ما كان لها من مجد بسبب اتصالنا القوي بالثقافة الغربية ، وتغذيتها تغذية متواصلة بشرات الأدب الأوربي ، فعرفت ألواناً من الأدب لم تتذوقها .

والنهضة القومية مظاهر شتى ، أثرت كلها في الأدب تأثيراً بليغاً ، وسنذكر هذه المظاهر بشيء من التوسع ، وتكلم على آثار كل منها في الأدب على قدر ما تسمح لنا به هذه الصفحات المحدودة .

— ١ —

#### المظهر السياسي :

انتهت الثورة العرابية — كما عرفنا في الجزء الأول — بالاحتلال الإنجليزي لمصر في سنة ١٨٨٢ ، وقد كان لإخفاق الثورة العرابية أثران جوهريان : أولهما : الاحتلال البريطاني . وقد أكد الإنجليز منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر ، أنهم لا يريدون اغتصابها أو احتلالها ولكنهم جاءوا لحماية الخديوي من الثورة وتثبيت عرشه ، وأنهم جاءوا وهم ينوون الجلاء العاجل ، حين تستقر الأمور ، ويبدأ الشعب<sup>(١)</sup> . ولكن الإنجليز كانوا يخادعون الأمة المصرية ، ويتربصون بها الدوائر

(١) تصريح جلاستون رئيس وزارة إنجلترا في البرلمان الإنجليزي سنة ١٨٨٢ ، مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٦٢ ، ومنشور الجنرال ولسلي قائد الجيوش البريطانية حين وصل إلى الإسكندرية سنة ١٨٨٢ — مذكرات أمين الرافعي من المسألة المصرية ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ٨٠ .

من زمن بعيد منذ حملة نابليون على مصر ، ومنذ غزوتهم لها بقيادة الجنرال (فريزر) سنة ١٨٠٧ وهزيمتهم في موقعة رشيد (١) .

وثانيهما : سريان روح الخضوع واليأس في نفوس المصريين بعد الاحتلال . ومن مظاهر هذا اليأس متصل زعماء الثورة العرابية من تبعاتها ، والتجائهم إلى الإنجليز يستجدون منهم الصّبح والمعونة . وقد ظلت مصر في هذه الحالة الشنيعة من الخضوع ، والاستسلام ، والاستعمار يمكن لأقدمه ، ويوطد من دعائمه إلى أن قيض الله لمصر في أخريات القرن التاسع عشر بضع نفر من الوطنيين عملوا جهدهم على أن يعيدوا لها ما عذب من آمالها .

ولقد مر بك في الفقرة الأولى من هذا الفصل كيف أن اللورد كرومر قد طغى وبغى وتجاوز حده ، وحكم مصر بيد حديدية إنجليزية ، حتى صار فيها الحاكم المطلق ، تحت إمرته جيش قوي ، وشنون المال والأشغال والعدل في يد مستشاريه الإنجليز ، ووزرائنا لا يعينهم إلا أن يرضوا العميد البريطاني ، ولا سيما مصطفى فهمي الذي تولى الوزارة ثلاثة عشر عاماً متوالية من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٨ ، وكان أطوع للإنجليز من بنان أحدهم ، بل كان إنجليزياً أكثر منهم ، وكان يجاهر بأنه لا يستمد سلطانه من الخديو ، وإنما يستمدّه من العميد البريطاني ، ومثله نوبار ومحمد سعيد ، ومن على شاكلتهم .

ولما توفي الخديو توفيق وتولى عباس العرش في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ استبشرت الأمة خيراً بعهدّه ، وأملت أن يجلو الإنجليز عنها ، ولكنّ إنجلترا تذرعت بصغر سنّه ونادت صحفها (٢) بأن « ارتقاء الخديو الشاب عرش مصر يجعل بقاء الاحتلال أكثر ضرورة من أي وقت ، فلا يجوز منذ الآن الكلام عن الجلاء » ، وقالت : « إن وفاة توفيق قد هدمت آخر حجة للجلاء » .

وابتدأ عباس يشعر بمرارة الاحتلال ، والحد من سلطانه ، وأخذ يناوئ الإنجليز ، ويقف منهم موقفاً معادياً في كثير من الأمور ، وإن غلب على أمره في أكثر

(١) تاريخ مصر السياسي لحمد رفعت ج ١ ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) البول مول جازيت . راجع مصطفى كامل ص ٢١٤ .

الأحيان • وكانت الأمة تشجعه ، وتلتف حوله بادية ذي بدء كما حدث حين أقبال وزارة مصطفى فهمي الأولى ( يناير ١٨٨٣ ) من غير أن يستأذن الإنجليز في ذلك ، إذ توافد عليه رجال الأمة وأمرأؤها وعلمائها وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية والقضاة يهنئونه ويشدون أزره<sup>(١)</sup> ، وكما حدث في أزمة الحدود سنة ١٨٩٤ • وقد أدى موقف عباس هذا إلى أن دب في نفوس بعض المصريين شيء من الحماسة ، ظهرت أول الأمر عن طريق الصحافة •

وذكرنا في الجزء الأول أن الصحافة المصرية في أخريات القرن التاسع عشر تأثرت بعاملين أولهما : تركيا ، وكانت على الرغم من ضعفها ، وإذعانها للأمر الواقع تحاول إثارة النفوس ضد الاحتلال ، وكان كثير من المصريين يدين لتركيا بالولاء ، وهو ولاء ديني لا سياسي ، مبعثه وجود الخلافة العثمانية ، والمسلمون مكلفون شرعاً بطاعة الخليفة •

وثانيهما : الاحتلال الذي حاول أن يجتث نفوذ تركيا من الأساس ، ويقتلع من النفوس هذا الولاء ، وقد استطاع أن يجد لسياسته هذه أنصاراً ومريدين ، وأن يجتذب إليه قلوباً عزيزة المنال تدافع عنه أو تسكت عن مخازيه • ووجد أن كثيراً من السوريين المسيحيين ينقمون على تركيا استبدادها وغلظتها وسوء تصرفها معهم في ديارهم ، وتفريقها بين عناصر الأمة ، فاستمال هؤلاء الناقمين إليه ، وجباهم عطفه ووده ، وأنشئوا جريدة المقطم لسان حال لهم في ١٤ من فبراير سنة ١٨٨٩ •

وهكذا انقسمت الصحافة فريقين : فريق تركيا ، وفي الغالب يدعو للخديو ، ويندد بالاستعمار ، إما مدفوعاً بالولاء الديني أو بالكراهية للإنجليز ، أو بتحريض دولة أجنبية تنفس على أبناء التاميز مركزهم في مصر والشرق العربي • وفريق يدافع عن الإنجليز ، ويتغنى بمحامدهم ، ويشيد بنعمة الاحتلال ، ويذيع مساوئ العهد التركي ، وما ارتكب فيه من ظلم • وكانت «المؤيد» ثم «الولاء» تمثل الفريق الأول ، « والمقطم » تمثل الفريق الثاني على نحو ما ذكرنا في غير هذا المكان<sup>(٢)</sup> •

طلع المؤيد على الناس في ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، والاحتلال الإنجليزي في

(١) مصطفى كامل لمبد الرحمن الرافعي ص ٢٢٠ •

(٢) راجع في الأدب الحديث ج ١ ص ٤١٣ - ٤١٥ ط سادسة •

عنفوانه ، والثورة العرابية قد أخفقت ، وشرذ زعماءها ، وكمت الأفواه ؛ ولكن النفوس كانت تضطرم بنار الوطنية والقلوب تنطوي على حقد دفين لهؤلاء الذين اغتصبوا حرية مصر ، واستباحوا حرمانها ، مع أنها كانت بالأمس القريب في عهد إسماعيل تتطلع إلى مستقبل باسم • وكانت تعليم جمال الدين الأفغاني ، وما بثه في مصر من حب للحرية ، وثورة على الاستبداد والبغي ، ورغبة ملحة في إصلاح المفاصل الاجتماعية ، وتحقيق العدالة بين الناس ، ومن نظام الشورى الصحيح — لا تزال تطحن في الآذان ، وتتردد في الأذهان • وكانت ثورة عرابي والمبادئ العظيمة التي نادى بها من رفع السخرة وإنصاف المصريين ضباطاً وشعباً والعدالة الاجتماعية بين الطبقات ، وإنشاء المجلس النيابي لتمثيل فيه الأمة ، وما راح ضحية هذه الثورة من ضحايا لا يزال كله ماثلاً في قلوب المصريين • بيد أن الإنجليز كبتوا هذا الشعور الجياش وحاربوا في عنف وقسوة دعاة الحرية ، وإن تظاهروا بأنهم أطلقوا للصحافة العنان ، وتركوها حرة تقول ما تشاء •

وسارت المؤيد في محاربة الإنجليز من غير هوادة ومهادنة ، وأفسحت صفحاتها لذوي الأقلام الملتهبة المستتيرة من أمثال سعد زغلول ، وإبراهيم اللقاني ، وإبراهيم المويلحي ، وعبد الكريم سلمان ، ومحمد عبده ، وتوفيق البكري ، وفتحي زغلول وغيرهم وكانت المسرح الأول لمقالات مصطفى كامل المشتعلة ضد الاستعمار • وظل هذا ديدنها أمداً طويلاً حتى بعد أن استمال الإنجليز صاحبها قليلاً ، وفترت حدته نوعاً ما بتأثير الشيخ محمد عبده صديق « كرومر » من جهة ، ولمهادنة عباس للاحتلال من جهة ثانية<sup>(١)</sup> • وقد يكون الشيخ علي يوسف قد هادن الإنجليز ، وسكت عن مخازيهم ، ولكنه لم يثن عليهم أو يدعو لهم في يوم من الأيام ، ولقد لاقى من رجال الحزب الوطني أشد العنف والإرهاق حين خفف لهجة المؤيد ضد الإنجليز ، ولم تعد ترحب بمقالات مصطفى كامل •

وكان الشيخ علي يوسف موزع الولاء بين حبه للخديو وإخلاصه لمحمد عبده ، فلما عقد الاتفاق الودي بين الإنجليز وفرنسا في سنة ١٩٠٤ ، وظهر انحياز الخديو بشكل واضح إلى الاحتلال ، وقطع مصطفى كامل صلته بالخديو لأنه لم يعد في

(١) اللواء في يوم ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٠٦ •



نظره أهلاً لأن يتزعم الحركة الوطنية فانصرف عنه ، وفي ذلك يقول : « لما رأيت رغبة سموه في توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الإنجليز وحكومته ، وجدت من واجبي أن أكون بعيداً عنه » — لم يجد الشيخ علي يوسف بداً من أن يتبع الخديو في سياسته ، والشيخ محمد عبده في ميوله ، ولكنه كما ذكرنا ظل حتى آخر لحظة من حياته عدواً للإنجليز ، وإن أسس حزب الإصلاح ليدافع عن الخديو وتركيا<sup>(١)</sup> .

ظهر في مصر إبان هذه الفترة ثلاثة أحزاب : أولها الحزب الإنجليزي ولسان حاله جريدة المقطم ، ومن رجاله مصطفى فهمي ، ونوبار ، ومحمد سميد وكثير من اللبنانيين الذين لجئوا إلى مصر ، وكانت صدورهم حاققة على تركيا ، وحزب الخديو وتمثله المؤيد وصاحبها ، ويدين بالولاء لتركيا عن عقيدة دينية ، وقد عبر المؤيد عن خدماته لها في موضع العتاب ، حين اتهم بخروجه عن ولائه عقب وفاة السلطان عبد الحميد بقوله<sup>(٢)</sup> : « كان المؤيد — وما زال — خادماً للدولة الأمين ورسولها الصادق إلى الأقطار الإسلامية ، وصوتها المسموع في أنحاء العالم ، وقد تأسس على دعامة التفاني في الإخلاص لعرش الخلافة العظمى » .

ولقد يعلم القراء أن المؤيد سعى سعياً مجيداً في مساعدة الدولة في حربيها الأخريتين<sup>(٣)</sup> بل هذه اللجنة العليا لحربي طرابلس والبلقان ، وتلك الخطب الرنانة التي كان يلقيها مؤسس المؤيد في وسط جماهير المكتتبين للحرين للحث على البذل بجود وسخاء ، وما كان يتبعها من الفصول التي تكتب في المؤيد بقلمه ، وقلم إدارة التحرير كلها أدلة مجسمة على أن المؤيد قام للدولة العلية بالواجب في كل أدوار حياته » .

وثالث هذه الأحزاب هو الحزب الوطني ، وقد كان مصطفى كامل يدعو أول الأمر لتركيا ويقول : « حقاً إن سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكام السياسات وأرشدتها ، ولا غرو إن كنا نتألم لآلام الدولة العلية ، فما نحن إلا أبناءها المستظلون

(١) راجع مقالاً للمؤلف من الشيخ علي يوسف في مجلة الكتاب يونية سنة ١٩٤٨ وفي دراسات

أدبية للمؤلف ج ١ .

(٢) المؤيد في ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٣ .

(٣) يشير إلى حرب البلقان وحرب طرابلس .

بظلمها الوريث المجتمعون حول رأيها . وقصارى القول إن الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب أن نجتسع حولها ، ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد ، والائتلاف ، فلنتحد قلباً ولساناً<sup>(١)</sup> » .

ويظهر أن موقف مصطفى كامل هذا كان موضع نقد كثير ، إذ كيف يطلب لمصر الاستقلال التام ، وطرد الإنجليز منها في الوقت الذي يريدونها أن تكون خاضعة لتركيا ! وقد دافع مصطفى كامل عن وجهة نظره في أكثر من خطبة ، وبين بوضوح وجلاء ، أنه إنما يدافع عن حق مصر الدولي ، فتركية بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ الدولة صاحبة السيادة على مصر ، وقد اعترفت الدول جميعاً بهذه المعاهدة ، بينما لا توجد لدى الإنجليز أي وثيقة شرعية تؤيد بقاءهم فيها ، فكان مصطفى كامل يدعو الإنجليز وسائر دول أوروبا إلى احترام هذه المعاهدة . أضف إلى هذا أن تركيا على الرغم من ضعفها ، وسوء حالها كانت تناوى الإنجليز في مصر ، وتود أن يخرجوا منها ، وهذا يزيد المصريين في مطالبتهم بالاستقلال قوة ، ثم إن سيادة تركيا على مصر كانت سيادة اسمية ، لا تتدخل في شئونها الداخلية أو الخارجية ، منذ معاهدة لندن ١٨٤٠ بل قبل ذلك حين ثار عليها محمد علي وكاد يفتح القسطنطينية .

ولقد أشار مصطفى كامل في غير ما خطبة ومقالة إلى هذه المعاني ، فمن ذلك ما كتبه إلى مدام جوليت آدم : « إنك تعلمين خطتي نحو تركيا ، وما أراه واجباً نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي ، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز<sup>(٢)</sup> » .

ورد على منتقديه في اللواء بقوله : « أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد ، وأنهم إنما يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهي دعوى لا يقبلها ذولب ، ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فإننا نطلب استقلال وطننا ، وحرية ديارنا ، وتتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حياتنا<sup>(٣)</sup> » .

[١] مصطفى كامل ٢٢٠ ط ثانية .

[٢] مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٢٥١ .

[٣] اللواء ٢ من مايو سنة ١٩٠٦ .

وقال في إحدى خطبه : « إن مظاهره الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهره ضد الاحتلال الإنجليزي ، واشترك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراح عام ضد الإنجليزية في مصر (١) » .

وقال في موضوع آخر : « ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا ، أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الإنجليزية ( ١٩٠٤ ) ألا تصير ولاية إنجليزية ؟ إذا فلماذا يدهش الكاتب من كوننا نجعل علاقتنا مع تركيا حسنة ، ونسعى لنيل الوسائل التي قد تفيدنا وتنفعنا ؟ (٢) » .

وقد جارى مصطفى كامل في ذلك رجال الحزب الوطني من بعده ، فقد جاء في تقرير الحزب الوطني الذي أرسله إلى مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية الأولى ، والذي نشر في إبريل سنة ١٩١٩ ما يأتي « كان الحزب الوطني يطلب احترام معاهدة سنة ١٨٤٠ ، ولم يكن ذلك عن رغبة منه عن الاستقلال المطلق ، أو كما يقول أنصار الاستعمار الإنجليزي سعياً في تغيير النير الإنجليزي بسيادة تركيا — كلا — فإن الحزب الوطني يتوخى الوسائل السلمية دون غيرها ، لذلك كانت سياسته الاحتفاظ بعرض الدولة العثمانية وتذكير الدول بمعاهدتها الضامنة لمصر الاستقلال الداخلي ، على أننا والحق يقال لم نشعر قط بسيادة تركيا الاسمية بجانب السلطة الإنجليزية ، ولم نر منها منذ سنة ١٨٤٠ افتتاحاً على استقلالنا الداخلي — لهذا كان من أسباب سكوتنا عن تركيا عدم شعورنا بثقل سيادتها ، أما الآن وقد وصلت الإنسانية إلى هذه الدرجة من الرقي وجئنا أمام محكمة عادلة تريد أن ترد الحقوق إلى أربابها ، فإن لنا أن نطلب كامل الحق — نطلب جلاء الإنجليزية حالا ، والاستقلال التام (٣) » .

ولقد حاول الإنجليز أن ينتزعوا اعترافاً بمركزهم في مصر ، وقد مكنتهم انتصارهم في الحرب العالمية الأولى من أخذ هذا الاعتراف دولياً فاعترفت تركيا بحماية إنجلترا على مصر في معاهدة سيفر ( أغسطس سنة ١٩٢٠ ) وحذا حذوها كثير من الدول (٤) .

(١) المؤيد ٩ يونية ١٨٩٧ .

(٢) اللواء في ٦ أكتوبر ١٩٠٦ .

(٣) ثورة سنة ١٩١٩ ج ١ ص ٩٥ .

(٤) ثورة سنة ١٩١٩ ج ٢ ص ٧١ .

ولقد أفضت في الحديث عن تركيا وموقف مصر منها ؛ لأن أدبنا في هذه الحقبة ، ولا سيما الشعر متأثر كل التأثر بهذه العلاقة سواء كانت سياسية ، أو دينية لوجود خليفة المسلمين بتركيا ، فأنت ترى شوقي ، وهو شاعر الخديو ، وفيه دم تركي يتغنى في مناسبات شتى بأمجاد الترك ، ويزجي الثناء العاطر ، والمديح المستطاب لعبد الحميد الطاغية . ويفرح المصريون ، والعرب عامة حين يعلن الدستور في تركيا سنة ١٩٠٨ ويسجل الشعراء ذلك في أشعارهم ، وما من شاعر في الجيل الماضي إلا ومدح عبد الحميد وغير عبد الحميد من سلاطين آل عثمان ، وفرح بانتصار الأتراك في معاركهم ، وحزن لأحزانهم .

وإذا تصفحت شعر شوقي تجد أنه أسرف في مدح عبد الحميد<sup>(١)</sup> الطاغية ، وفي إظهار ولائه للأتراك فلا تكاد تمر مناسبة سارة أو محزنة لهم من غير أن يقول فيها قصيدة . وهذا ديوانه بين أيدينا تجد فيه ما يقرب من خمس عشرة قصيدة في الأتراك وسلطانهم ، وقوادهم والمناظر الجميلة ببلادهم ، وتراه يبالغ في مدح عبد الحميد مبالغة غير مقبولة من مثل قوله :

فأحييت مَيِّتًا دَارِسَ الرُّسْمِ غَابِرًا      كَأَنَّكَ فِيمَا جِئْتَ عَيْسَى الْمُقَرَّبُ  
سَهَرْتَ وَنَامَ الْمُسْلِمُونَ بِغَيْبِطَةٍ      وَمَا يَزَعُجُ النَّوَامُ وَالسَّاهِرُ الْأَبُ

ويجعله عمر بن الخطاب في عدله ، وحدّبه على اليتامى بقوله :

عمر أنتَ يَدُ أَنْكَ ظِلِّ      لِلْبَرَايَا وَعَصْمَةٌ وَسَلَامُ  
مَا تَتَوَجَّجْتَ بِالْخَلَاةِ حَتَّى      تَوَجَّجَ الْبَائِسُونَ وَالْأَيْتَامُ  
وَسَرَى الْخَضْبُ وَالنَّمَاءُ وَوَافَى الـ      بَشَرُ وَالظُّلُّ وَالْجَنَى وَالْفَمَامُ  
وَبَدَا الْمَلِكُ مَلِكُ عُثْمَانَ مِنْ عَدَا      سِيَاكَ فِي الذَّرْوَةِ الَّتِي لَا تَرَامُ

ويفصح عن محبته للأتراك بقوله :

وَزِينْبُ إِنْ تَاهَتْ وَإِنْ هِيَ فَاخَرَتْ      فَمَا قَوْمُهَا إِلَّا الْعَشِيرُ الْمُحَبَّبُ

(١) ولد السلطان عبد الحميد في ٢١ من سبتمبر سنة ١٨٤٢ ، وتولى الملك في أغسطس سنة ١٨٧٦ ؛  
وخلع في ٢٧ من إبريل سنة ١٩٠٩ وتوفي في ١٠ من فبراير سنة ١٩١٨ .

وعن تبعية مصر لعبد الحميد بقوله :

وإني لطيرٌ النيل لا طيرَ غيره وما النيل إلا من رياضك يحسبُ

ويشير شوقي في بعض القصائد العثمانية إلى هذا المعنى السياسي الذي وضعناه آنفاً ، وهو أن حسن العلاقة بين مصر وتركيا يحول دون تنازل الثانية عن حقها المعترف به دولياً ويجعل مركز الإنجليز في البلاد غير شرعي بقوله في قصيدة يهنئ فيها الخليفة بالعيد :

أبا القمرين عرشك في قلوبِ ترى فيه الصّيانَ لحق مصرِ  
تجاوزُ في الولاء المستطاعا فلولاً العرشُ يعصمه لضاعا  
يَودُّ سواك أن تهندي إليه ولن تشرى القلوبَ ولن ثباعا

ويقول له من قصيدة أخرى يستجد به ويستصرخه :

نستيحُ الإمام نصرًا لمصر مثلما ينصر الحسامَ الحسامُ  
فلمصر وأنت بالحب أدى بك يا حامي الحمى استعصامُ  
والى السيد الخليفة نشكو جَورَ دَهرِ أحراره ظلامُ  
وعدوها لنا وعوداً كباراً هل رأيتَ القُرى علاها الجَهمُ  
فارفع الصوتَ إنها هي مصرُ وارفع الصوتَ إنها الأهرامُ  
وارع مصرًا ولم تزل خيـ راعٍ فلها بالذي أرتك زمامُ

وقد حزن شوقي أشد الحزن حين هوت الخلافة عن سلاطين آل عثمان ، وندبها وبكاها في أكثر من قصيدة ، ونصح لمن قاموا بهذا الانقلاب أن يبقوا على وشائج القرى بيننا وبينهم ، وقد كان مدفوعا ولا شك بعاطفته الدينية ، والجنسية ، فيقول للكماليين :

يا فتيةَ الترك حيّا الله طلعتكم وصانكم وهذاكم صادق الخدمِ  
أتم غد الملكِ والإسلام لا برحا منكم بخير غَدٍ في المجد مبسمِ  
تحلّكم مصر منها في ضائرها وتعلن الحب جمعا غير متهمِ  
فنحن إن بعثت دارٌ وإن قربت جاران في الضادِ أوفي البيت والحرَمِ

وترى شوقي يحزن لحزن الأتراك ، ويفرح لأفراحهم فيقول عند سقوط أدرنه قصيدته التي مطلعها :

يا أختَ أندلسٍ عليك سلام هَوَتْ الخلافةُ عنك والإسلام

ويرثي طيارين تركيين سقطت بهما الطائرة في مصر بقصيدته التي مطلعها :

انظر إلى الأعمار كيف تزول وإلى وجوه السعد كيف تحول

ويرثي أدهم باشا القائد التركي<sup>(١)</sup> وعثمان باشا الغازي الذي اشتهر في حربه مع الروس<sup>(٢)</sup> وإذا عثر شوقي في كثرة ما قال في تركيا ، وفي شدة تعلقه بها لعاطفته الدينية ، ثم لوجود دم تركي فيه ، ولأنه شاعر الأمير ، والأمير من أصل تركي ، فإن كثيراً من شعراء الجيل الماضي قد أظهروا هذه العاطفة نحو تركيا ، فهذا السيد توفيق البكري يمدح السلطان عبد الحميد في قصيدة طويلة<sup>(٣)</sup> يقول في أولها :

أما ويمينِ الله حِلْفَةً متقسم  
فلولاك بعد الله أمست دياره  
إمام له في آل عثمان لحمة  
لقد قمتَ بالإسلام عن كل مسلم  
بأيدي الأعداء مثل نهبٍ متقسم  
تبَحَّبحَ منها في الذرى والمقدم

وهذا حافظ يمدح عبد الحميد بأكثر من قصيدة فيهنه بعيد جلوسه في سنة ١٩٠١ بقصيدة مطلعها<sup>(٤)</sup> :

لمحت جلال العيد والقوم هيب  
فعلمني آيَ العلا كيف تكتب

وفيها يقول :

وهل قرء في برج الشعود متوج  
تجلى على عرش الجلال وتاجه  
كما قرء في (يلديز) ذاك المعصّب  
يَهْشُ وأعواد السريّر ترحّب

(١) شوقيات ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٢ .

(٣) صهاريج اللؤلؤ ص ٥٠ .

(٤) ديوان حافظ ج ١ ص ١٥ .

سما فوقه والشرق جذلان شَيِّقٌ لطلعتَه والغربُ خذلان يَرْقُب

ويقول فيه قصيدة أخرى مطلعها<sup>(١)</sup> :

أثنى الحجيح عليك والحرمان وأجلَّ عيدَ جلوسك الثَقْلان

وهذا محمد عبد المطلب يمدح عبد الحميد ويهنئه بالدستور في سنة ١٩٠٨ بقصيدة يقول في أولها :

يا عيدُ حَيٍّ وأنت خير نهار عبد الحميد بدولة الأحرار  
ملك أقام على الخلافة منهم حرساً وقاها صولة الأشرار

ويفرح لاتتصار الأتراك على اليونان في حرب (سقاريا<sup>(٢)</sup>) إلى غير ذلك من المناسبات التركية .

ونرى مصطفى صادق الرافعي يجاري شعراء زمانه فيمدح عبد الحميد بثلاث قصائد<sup>(٣)</sup> . وقلما أحجم شاعر مصري مسلم عن إظهار عاطفته لخليفة المسلمين وللأتراك ، بل إن إعلان الدستور في تركيا كان عيداً عاماً لدى المسلمين في كافة أنحاء الأرض ، وسجل شعراء العربية أينما حلوا سرورهم بزوال الطغيان وحكم الفرد ، وبدء عهد جديد من الحرية ، سيان في ذلك المسلمون والمسيحيون<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن تأويل رجال الحزب الوطني ، وحزب الإصلاح لولائهم لتركيا وعرش الخلافة ، فالحق الذي لا مِرَّة فيهِ أن فكرة القومية المصرية لم تكن حتى نهاية القرن التاسع عشر قد نضجت النضج الكافي ، ولم يكن المصريون يفكرون جدياً في الاستقلال التام عن تركيا ، وإن طمع في ذلك إسماعيل ، بيد أن تركيا والدول قد كادوا له ؛ وإن ظهر ذلك على لسان أحمد عرابي كما بينا ذلك في الجزء الأول وعلى لسان عبد الله نديم في الأستاذ ، ونادى كلاهما بأن مصر للمصريين ، ولكنها لم تكن دعوة مؤسسة على عقيدة ثابتة<sup>(٥)</sup> . وكيف تظهر فكرة الانفصال عن

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٤٤ وقد قالها مهتماً بعيد جلوسه ١٩٠٨ بعد إعلان الدستور العثماني .

(٢) ديوان عبد المطلب ص ١٩٨ .

(٣) ديوان الرافعي ج ١ ص ٣٣ ، ٤٦ ، وج ٢ ص ٦٩ .

(٤) راجع العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث لانيس المقدسي .

(٥) راجع في الأدب الحديث ج ١ ص ٣٢٧ ط سادسة .

تركيا وخديو مصر يستمد سلطانه الشرعي من الخليفة ويدين له بالولاء ولو اسماً ؟  
 أجل ! ظهر في مصر حزب لم يكن راضياً عن هذه السياسة<sup>(١)</sup> وشجعهم الإنجليز  
 على ذلك ، وأخذوا ينددون بمساوئ الحكم التركي بعامة ، وبعهد عبد الحميد  
 الطاغية بخاصة ، استمع لخليل مطران يعزي الآستانة حين أشعلت فيها النار بعد  
 صدور الدستور ، واتهم بذلك أنصار عبد الحميد ؛ إذ لم يطق صبراً على حكم  
 الشورى ، وخلع في سنة ١٩٠٩ ، وتولى بعده السلطان محمد الخامس .

|                             |                                          |
|-----------------------------|------------------------------------------|
| ( فرُّوقُ ) لا تستئسي وذودي | بالحق عن دستورك المجيد                   |
| مكايد الطاغية المريد        | وفتك أهل البغي والجحود                   |
| بالأبرياء الآمنين القود     | والثيب والأطفال في المهود <sup>(٢)</sup> |
| شرّ العدى لهدك الجديد       | أضلوك نارهم بلا وعيد                     |

واستمع كذلك لولي الدين يكن ، وقد أودى ونفى لأنه حمل حملة شعواء  
 على عبد الحميد وطغيانه ، ومساوئ العهد التركي :

|                           |                              |
|---------------------------|------------------------------|
| يا وطناً قد جرى الفساد به | متى يرينا إصلاحك الزمن       |
| دُفِنتَ حياً وما دنا أجل  | ما ضرَّ لو دافنوك قد دُفِنوا |

ويعارض شوقي في قصيدته التي قالها غبَّ خلع عبد الحميد والتي يقول  
 في أولها :

|                             |                      |
|-----------------------------|----------------------|
| سَلْ يَلْدِزَاذَاتِ القصورِ | هل جاءها نبأ البدورِ |
| لو تستطيعُ إجابة            | لبكتك بالدمع الغزيرِ |

فيقول ولي الدين يكن في عبد الحميد :

|                       |                       |
|-----------------------|-----------------------|
| وخرَّتْ يا عبد الحميد | وما استحيت من الختور  |
| إن الثلاثين التي      | مرّت بنا مَرَّ العصور |
| وهبتك تجربة الأمور    | فعشت في جهل الأمور    |
| ورددت عادية الخلا     | فة بعد ذلك للمغير     |
| من كان يدعوك الخبي    | ر فلست عندي بالخير    |

(١) المرجع السابق ص ٢٩٢ .

(٢) القود : جمع اقود ، وهو اللؤلؤ المنقاد المستسلم ، والمراد هنا المسالون ، وفروق اسم الآستانة .



ولكن أمثال مطران ، وولي الدين يكن كانوا يريدون إصلاح حال تركيا ، ولم تظهر الفكرة الوطنية المصرية بعيدة عن الجامعة الإسلامية بوضوح وجلاء إلا على يد رجال حزب الأمة كما مرَّ بك<sup>(١)</sup> ، ولكن هذا الحزب في مبدأ نشأته كان موالياً للاحتلال ، وظل مترسماً خطى الشيخ محمد عبده في ذلك السبيل حتى رحل كرومر عن مصر ، فغمرته موجة الوطنية<sup>(٢)</sup> .

ومهما يكن من اختلاف نظرة الشعراء في مصر إلى تركيا ، فقد كانت هناك حقيقة واقعة كان يجب ألاَّ يختلفوا فيها ، ألا وهي ذلك الاحتلال الجاثم على صدر مصر يسلبها أعز ما تصبو إليه الأمم وهو نعمة الاستقلال ، وحرية التصرف ، والسير في سبيل الرقي ، ويسلبها في الوقت نفسه ثروتها ، ويدفعها إلى ظلمات الجهل ، أو إلى علم ضحل أحسن منه الجهل .

وقد ظن الإنجليز منذ وطئت أقدامهم أرض مصر في سنة ١٨٨٢ أن الشعور الوطني قد خمدت جذوته ، وزالت حِدَّتُه ، وضعفت شِرَّتُه ، وأن المصريين قد استناموا لعدلهم المكذوب ، أو لحكمهم المرهوب ، ولكن راعهم صوت مصطفى كامل المدوي ، الممتلئ قوة وفتوة وعزيمة ، ونزاهة قلب وضمير ويد ولسان كأنه الشعلة المتقدة ترفعها يد الحق عالية، تبدد ظلمات الجور والعسف والذلة والانحلال . فاستجابت القلوب لضوئها ، وسارت في هديها ، ولبى نداءه كلُّ وطني غيور كان يكبت شعوره ، وسارت أغلبية الأمة من خلفه ففرغت إنجلترا ، وارتاعت لهذه الموجة الوطنية ، وخشيت أن تجتاحها من مصر وأن تفرق الأرض تحت قدميها أو تقوض دعائم الاحتلال الذي شيدته في ما يقرب من عشرين عاماً ، ويصير رماداً لا أثر له .

وكان الخديو عباس الثاني يشجع مصطفى كامل أول الأمر ويؤيده في جميع جهوده ، ويمده بالمال ، لينفق على دعايته ضد الإنجليز<sup>(٣)</sup> ، ويتمكن من السفر إلى فرنسا ، لأنها تناصره ، ووجد فيها أصدقاء من رجال الصحافة والسياسة يشدون أزره ، وينشرون كلماته الملتهبة ، ويبصرون الرأي العام الأوروبي بمساوئ الاحتلال

(١) راجع ص ٦٧ من هذا الكتاب .

(٢) راجع تشارلز آدمز ص ٢١٥ في كتاب الاسلام والتجديد ، والحقيقة عن مصر تأليف الكسندر

ص ٢٠١ - ٢٠٢ - لندن ١٩١١ .

(٣) تاريخ الامام الشيخ محمد عبده ج ١ ص ٥٩٢ ، ومصطفى كامل لمبد الرحمن الرافعي ط ثانية

في مصر • بيد أن عباساً قد رأى أنه لا يستطيع مسابقة الحركة الوطنية ولا سيما بعد أن اتفقت فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ فأخذ يهادن الاحتلال ، وعلم أن لا سبيل لمعاداته ، وأن مصالحه الكثيرة تتعطل بسبب هذه العداوة • وحينئذ رأى مصطفى كامل أن يستقل بحركته ، وأن يقطع صلته بالخديو وفي هذا يقول : « ولما رأيت رغبة سموه في توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الإنجليز وحكومته ، وجدت من واجباتي أن أكون بعيداً عن سموه <sup>(١)</sup> » ، وقال في مناسبة أخرى « قد قلنا مراراً إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية ، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو إن قال كلمة في صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه واستمال أمته إليه ، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وعرشه وقر أمته منه <sup>(٢)</sup> »

أيقظ مصطفى كامل ورجال الحزب الوطني ، ورجال الخديو عباس وعلى رأسهم الشيخ علي يوسف في المؤيد الشعور الوطني ، وكان طبعياً أن يظهر هذا الشعور في الأدب ولا سيما في الشعر ؛ ولو نظرنا إلى شعرائنا الذين اشتهروا في ذلك الوقت وجدناهم يقفون من الاحتلال وشئونه مواقف متباينة ، مع أن الواجب كان يقضي عليهم بأن تكون نظرتهم إليه واحدة : نظرة السخط الغاضب الحاقق على الحرية المسلوقة والحق المضاع ، والظلم البين ، والوطن المستباح • ولكنهم تأثروا بعدة عوامل بعضها شخصية وبعضها سياسية •

أما شوقي فكان شاعر القصر ، وكان القصر متحفظاً في مجاهرته بالعداء للإنجليز ، يساعد الوطنيين سرّاً ، ولكن لا يريد أن يظهر حتى لا يتمسك عليه المحتل الغشوم بشيء فيسقطه عن عرشه ، وهو صاحب الحول والطول والجيش المحتل ، المدجج بالسلاح ، وكثيراً ما اصطدم بكرورم ، ولكن الكلمة الغالبة والرأي النافذ كانا في آخر الأمر لممثل الاحتلال <sup>(٣)</sup> • وظلت علاقته بكرورم سيئة حتى بعد أن انفصل عن الحركة الوطنية إلى أن ترك كرورم مصر ؛ وذلك لأن كرورم كان عاتياً جباراً ، وقد حدث بينهما ما لا يدع مجالاً للوفاق على الرغم من تساهل عباس وإظهاره الرضى عن الاحتلال ، فقد كان من عادة الجيش البريطاني أن يقوم بعرض عسكري في يوم عيد ميلاد ملكهم وكان كرورم يرأس هذا العرض ، ثم رأسه خلّفه

(١) اللواء عدد ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٠٦ •

(٢) اللواء ٢٧ من مايو سنة ١٩٠٧ •

(٣) راجع مصطفى كامل ص ٢١٤ وما بعدها •

(الدون جورست) . ومنذ سنة ١٩٠٤ ابتدأ عباس يحضر هذا العرض ، ويقف تحت العلم البريطاني في ميدان عابدين إلى جانب كرومر ، وقد اشتدت عليه حملة الوطنيين لذلك مما اضطره إلى التنصل ، وإصداره بلاغا يعزو فيه وجوده في أثناء العرض إلى محض الصدفة ، ولكنه فعل ذلك في العام التالي ، فهاج الطلبة ، واثارت الصحافة وحدثت بعد ذلك حوادث اضطرته إلى العدول عن حضور العرض<sup>(١)</sup> . ومن أمارات تساهل عباس مع كرومر كذلك أنه رضي بأن يُعَيَّنَ له ( ياور ) إنجليزي في سنة ١٩٠٥ هو وطسن باشا<sup>(٢)</sup> ولكن كرومر لم يثق بعباس مطلقاً فلما رحل عن مصر وعُيِّنَ ( الدون جورست ) بدلا منه ، ظهر عباس بخضوعه التام للإنجليز ، واستسلامه لهم ، وأخذ ينفي عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ، ويذكر اللورد كرومر بالخير ، ويصرح بأن المعتمد البريطاني لا يستطيع أن يحكم مصر وحده ، وأنه مستعد للتعاون معه ، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وأن الاحتلال البريطاني أفضل من سواه<sup>(٣)</sup> .

كان شوقي حبيساً في قفص من ذهب ، صنعه له القصر ، وكان بهذا وبحكم نشأته البعيدة عن الشعب وآماله وآلامه ، وبحكم صلته بالقصر ، وما تفرضه عليه هذه الصلة من اتباع سياسة الأمير ، وأن يفكر ويتدبر ، ويقدر قبل أن ينطق ، وقيس صلته بالناس ، وعداوته ، وقربه ، وبعده برضى الأمير وسخطه ، كان يحكم كل هذه الأمور بعيداً عن طبقات الشعب ، لا يعرف من السياسة القومية الصحيحة إلا بمقدار ما يشعر به عباس ، وتارة يسمح له بالقول ، وتارة يأبى عليه أن يجهر برأيه . وإن كان شوقي — والحق يقال يجب مصر من أعماق قلبه ، وقد عبّر عن هذا الحب بشتى السبل ولكن الذي ليم عليه أنه لم يكن يجاري التيار الوطني المتدفق أيام أن كان مع عباس .

لما رحل كرومر عن مصر ، وعلاقته بعباس ما عرفت ، وأساء في خطبة وداعه لإسماعيل كل الإساءة على الرغم من حضور الأمير حسين كامل قال قصيدته المشهورة<sup>(٤)</sup> :

(١) راجع مصطفى كامل ص ١٨٣ وما بعدها ، ومحمد فريد ص ٧٧ .

(٢) مصطفى كامل ص ١٨٥ .

(٣) من حديث للخديوي عباس مع مراسل الديلي تليغراف في مايو سنة ١٩٠٧ راجع اللواء ٢٦

ن مايو سنة ١٩٠٧ .

(٤) ديوان شوقي الجزء الأول ص ١٧٨ .

أيامكم أم عهد إسماعيل      أم أنتَ فرعونَ يسوس النيل  
 أم حاكمٌ في أرض مصر بأمره      لا سائلاً ابداً ولا مستولاً  
 يا مالكا رقب الرقاب بياسه      هلاء اتخذت إلى القلوب سيلا  
 لما رحلت عن البلاد تشهمت      فكأنك الداء العياء رحيلاً

ولقد مرت بمصر حادثة فظيعة لم يقل فيها شوقي أول الأمر شيئاً ، تلك هي حادثة دنشواي<sup>(١)</sup> ، ولم ينطق إلا بعد مرور عام ، وبعد أن ذهب كرومر من مصر . لقد أظهرت هذه الحادثة رجال الاحتلال على حقيقتهم ، وعرفت المصريين مقدار كذبهم ونفاقهم ؛ لم يكن القصد الجنائي في هذه الحادثة متوافراً في قليل أو كثير ، فهي من أولها إلى آخرها قضاء وقدر ، فلو أن صيادي الحمام ابتعدوا قليلاً عن جرن الغلال لما حدث شيء ، بل لو هداً هذا الجندي المصاب ، ولم يجر فرعاً مسافة طويلة في الشمس المحرقة لما خرَّ صريعاً بضربة الشمس لا بضربة العصا ، كما اعترف بذلك تقرير الطبيب البريطاني نفسه .

ولكن رجال الاحتلال فقدوا أزمة أعصابهم ، وطفعت عليهم سورة الانتقام ، على نحو ضاعت معه كل مظاهر العدالة التي هي أول واجب عليهم ، كما أنها من أوائل حقوق المتهمين ، ولكن كيف تذكر العدالة ، وقد تصرف الانجليز بنزق وطيش ، حتى إنهم أرسلوا المشانق من القاهرة إلى دنشواي قبل أن تعقد المحكمة لنظر القضية . ولقد كانت محكمة عسكرية مسبوخة التكوين جل أعضائها من الإنجليز ، فهي الخصم والحكم تحاكم قوماً مدنيين ، لا جنوداً محاربين . وفي إبان السلم لا في زمن الحرب ، وفي وقت يسود فيه النظام والهدوء فلا أحكام عرفية ، ولا إجراءات استثنائية ؛ وهي محكمة لا تتقيد بقانون وحكمها غير قابل للطعن فيه أو النقض له ، أو حتى لمجرد التعديل أو المراجعة أو التصديق ، بل حكمها مبرم كأنه القضاء النازل

(١) دنشواي قرية صغيرة تابعة لمركز شبين الكوم ، وقد ذهب إليها جماعة من الإنجليز في ١٢ من يونية سنة ١٩٠٦ لصيد الحمام ، فاصابت رصاصة من رصاصاتهم امرأة وحرقت جرن قصب ، فتجمع الأهليون غافسين ، فاعتدى البريطانيون عليهم بأسلحتهم ، وقتلوا شيخ الخفراء ، فدافع الناس من أنفسهم بالحجارة ، فجرح أحد الضباط الإنجليز في رأسه جرحاً خفيفاً وفر الجريح ومن معه ، وجروا في الشمس ما يقرب من ثمانية أميال ، فمات متأثراً بضربة الشمس ، وولدت نائرة الإنجليز لهذه العادة ، وأسرفوا في تصويرها إسرائفا جعلهم يخرجونها من صبتها الفردية إلى التمسب الديني وإلى أنها تمثل روح التمرد الكامنة في نفوس المصريين . فمقدوا محكمة عسكرية قضت على واحد ومشرين رجلاً بأحكام مختلفة أعدم منهم أربعة وقد صدر هذا الحكم في ٢٧ من يونية سنة ١٩٠٦ أي بعد الحادثة بأربعة عشر يوماً ( راجع تفاصيل الحادثة في كتاب مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ١٩٧ ) .

لا راد له ، ولا حول عنه • ومتهمون يساقون في عجلة متناهية إلى المحكمة ، ودفاع متخاذل لم يكثرث بخطورة الاتهام ولم يتناسب مع شدته وقسوته • وحكم قاس غريب يصدر في سرعة فائقة بإعدام أربعة من المتهمين شنقاً أولهم شيخ في الخامسة والسبعين • ونفذ الحكم في اليوم التالي لصدوره بطريقة وحشية تشمئز منها النفوس وتتشعر لهولها الأبدان ، فقد شنق المتهمون جهاراً في راحة النهار وفي نفس المكان الذي وقعت فيه الحادثة ، وعلى مرأى ومسمع من أهليهم وذويهم ، وهذا — ولا ريب — مناف لكل قواعد الذوق والشعور الإنساني • وعلى العموم فإن الألفاظ لتتخاذل عن وصف هذه البشاعة ، والفجور ، والقسوة العاشمة ، ومتابعة تنفيذ الحكم من جلد ، وتعليق للمشنوقين ... الخ •

ولقد استغل الوطنيون هذه الحادثة الفظيعة أروع استغلال ، وشنها مصطفى كامل وصحبه حرباً شعواء على رجال الاحتلال ، سمع صوتها الإنجليز في بلادهم ، وأثير بسببها الجدل في مجلس العموم البريطاني ، وعدل رجال الاحتلال بعدها من سياستهم المتعسفة نحو مصر ، وأجبر اللورد كرومر على الاستقالة عقب هذه الحادثة • وهي نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومي ، عم فيها الشعور الوطني بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال<sup>(١)</sup> •

ومما يذكر في صدد حادثة دنشواي أن الكاتب العالمي ( جورج برنارد شو ) كتب عن هذه الحادثة فصلاً من ست عشرة صفحة في مقدمة كتابه « جزيرة جون بول الأخرى » ولم يكتب أحد عن قضية دنشواي من الأجانب ما يضارعه في صدق العاطفة والدفاع ومضاء الحجة ، وشدة الغيرة على المظلومين في هذا الحادث المشؤم ، حتى لقد قرن ( شو ) في إنجلترا باسم دنشواي • ومما قاله في تلك المقدمة : « إن الفلاحين لم يتصرفوا في هذا الحادث غير التصرف الذي كان منتظراً من جمهرة الفلاحين الإنجليز ؛ لو أنهم أصيبوا بمثل مصابهم في المال والحرمان ، وإن الضباط لم يكونوا في الخدمة يوم وقوع الحادث بل كانوا لاعبين عابثين ، وأساءوا اللعب ، وأساءوا المعاملة ، وإن الفلاح الإنجليزي ربما احتمل عبثاً كهذا لأنه على ثقة من

(١) راجع مصطفى كامل ص ٢٢٢ وما بعدها •

التعويض ، ولكن القرويين لم تكن لهم هذه الثقة بالتعويض ، ولا بالإنصاف • وإن أحد المشنوقين كان شيخا في الستين ، يبدو من الضعف كابن السبعين ، فلو لم يشنق لجاز أن يموت في السجن قبل انقضاء خمس سنوات » •

ثم أجمل القول في الحادثة ، ووقائع المحاكمة ، وأقوال الشهود ، وما جوزي به بعضهم على الصراحة في أداء الشهادة ، وأشبع اللورد كرومر ووكيله ( مستر فندلي ) تقريرا وسخرية على ما كتباه عن القضية إلى وزير الخارجية ؛ ومنه قول ( فندلي ) في تسوين عقوبة الجلد بمصر : « إن المصريين قاديون لا يهمهم الموت ، كما تههم العقوبة البدنية » ، فكان تعقيب ( شو ) على هذا التعليل العجيب ، أن العجب إذاً في أمر الأربعة المشنوقين ، أليسوا من المصريين ؟

وقد شملت حملته الوزارة البريطانية ، والبرلمان الإنجليزي ، لأنهم لم يمنعوا تنفيذ الحكم بعد تبليغه ، وقال : « إن الإفراج عن المسجونين من أهل القرية أقل تفكير منتظر عن هذه الكارثة البربرية » وظل ( شو ) يتابع القضية بعد إقالة كرومر ، وأعلن اغتباطه بعد سنة حين أثمرت حملته ثمرتها المشكورة ، وأبلغوه أن العفو عن السجناء قريب <sup>(١)</sup> •

قلنا : إن شوقي صمت عاماً كاملاً لم يقل كلمة ؟ وكان المنتظر بعد أن عم الأسى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وتألم لمصابها حتى الإنجليز أنفسهم ، وصار الناس كأنهم في مأتم على حد قول قاسم أمين • « رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً ، وزوراً مخنوقاً ، ودهشة عصبية بادية في الأيدي والأصوات • كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشيء من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت <sup>(٢)</sup> » •

نقول كان من المنتظر من شوقي وأمثال شوقي أن يعبروا عن عواطف المصريين جميعاً إزاء هذه الكارثة ، وأن يشعلوها ناراً مضطربة الأوار ، متأججة السعير ، تحرق تلك القلوب الغليظة التي انتقمت من غير شفقة ولا رحمة من قوم عزّل ضعاف

(١) راجع جودج برناردشو في سلسلة اقرا •

(٢) مصطفى كامل ص ٢٠٣ •

مظلومين ، ولكن شوقي اتبع سياسة القصر في ذلك ، سياسة الحياد والمهادنة والخوف من كرومر الطاغية ولم ينطق إلا بعد مرور عام ، فقال قصيدة من أربعة عشر بيتاً ، وفيها ترديد لما قاله حافظ ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

يا دنشوايَ على رباك سلام      ذهبتْ بأَسْ ربوعك الأيام  
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا      هيهات للشمل الشتيت نظام

وفيها يقول :

(نُيُرون) لو أدركت عهد (كرومر)      لعرفت كيف تنفذ الأحكام  
نوحى حمائم دنشواي وروعي      شعباً بوادي النيل ليس ينام  
متوجع" يتمثل اليوم الذي      ضجت لشدة هوله الأقدام  
السوط يعمل والمشائق أربع      متوحدات والجنود قيام

وحدث بعد ذلك أن مات مصطفى كامل في ١٠ من فبراير ١٩٠٨ ، بعد أن قدم شبابه وذكاءه ، وعزمه ومضاهه ، وقوداً لشعلة الوطنية كي تظل مضيئة تعشى منها أبصار المستعمرين ويهتدي بسناها طلاب الحق والنصفة والاستقلال ، ولكن سرعان ما فُضِبَ معين القوة من جسده وتهدم ذلك الجسم القتي ، والشباب الجريء ، لأنه كان أضيق من أن يحتمل تلك النفس القوية التي كانت تكمن فيه وتلك الروح الوثابة التي كانت تحترق بين جراحه •

فكان موته — وأمته أحوج ما تكون إلى قيادته وزعامته ، ووطنيته وجرائته ، وصوته المدوي بالحق — نكبة وطنية اصطكت لهولها الأسماع ، وزلزلت القلوب ، واهتزت المشاعر ، وقرحت الجفون ، وسحت العيون •

وكان شوقي صديقاً لمصطفى كامل ، يرسل إليه القبلات في رسائله إلى محمد فريد من أوروبا<sup>(٢)</sup> • وكان من المنتظر حين يرثيه شوقي وقد زاره وهو على فراش

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٨ •

(٢) ارجع إلى عبد الرحمن الرافعي في مصطفى كامل ص ٣٨٤ •

الموت أن يبدع في رثائه ويشيد بمواقفه الوطنية العظيمة ، وإحيائه للأمة بعد أن استكانت ، وتنغيصه على المحتل مقامه بوادي النيل ، ولكن شوقي رثاء عقب وفاته بقصيدة صور فيها في دقة تامة إحساسه المتفجع في فقد صديق الصبا والشباب ، وصور آخر لقاء بينهما تصوير الأخ المفجوع في أخ عزيز ، وبعد عن السياسة كل البعد ، ولم يتطرق إليها إلا بحذر بالغ ، نائياً عن الحديث في الجانب القوي من حياة مصطفى كامل ، وأثره في النهضة الوطنية ؛ رثى شوقي في هذه القصيدة صديقاً حميماً ، ولم يرث زعيماً عظيماً ، ووطنياً ، وإماماً من أئمة الجهاد .

ولا شك أن شوقي قد تأثر في رثائه هذا بسياسة القصر حينذاك ، وهي سياسة الحيدة والتحفظ أمام كل ما يؤذي الإنجليز أو يغضبهم ، أضف إلى هذا أن علاقة مصطفى كامل بعباس قد انقطعت أو كادت في أخريات حياته ، بل كان مصطفى كامل قاسياً في انتقاده لتصرفات عباس ، وميوله نحو الإنجليز ، وتساهله معهم . وكان شوقي كلما اقترب في هذه القصيدة من الناحية السياسية كقوله :

هل قام قبلك في المدائن فاتح غاز بغير مهند و سنان  
وتظن أنه سينتقل إلى جهاد مصطفى كامل ، وكيف أثار الحمية والعزيمة في النفوس إذا بك تراه يفاجئك بشيء آخر بعيد عن هذا بقوله :

يدعو إلى العلم الشريف وعنده أن العلوم دعائم العمران

وبذلك يتخلص من السياسة قبل أن يتورط فيها ، وإذا قاربها مرة أخرى في قوله :

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| اخلع على مصر شبابك غاليا  | والبس شباب الحور والولدان |
| فلعل مصر من شبابك ترتدي   | مجداً تتيه به على البلدان |
| فلو ان بالهرمين من عزماته | بعض المضاء تحرك الهرمان   |
| علمت شبان المدائن والقرى  | كيف الحياة تكون في الشبان |

نراه يبتعد سريعاً عن السياسة ، وعما عساه أن يتورط فيه من ذكر صلابة مصطفى ، وعدم مهادته الغاصبين ، فيختم القصيدة على عجل وكأنه ينجو من أمر خطير ، وشر مستطير بقوله :



مصر الأسيفة ريفها وصعيدها      قبر "أبر" على عظامك حاني  
أقسمت أنك في التراب طهارة      ملكك "يهاب" سؤاله الملكان

على أن شوقي قد تدارك ما فاتته في هذه القصيدة من وصف وطنية مصطفى كامل وأثره في مصر وفي جيله ، وفي القضية الوطنية عامة ، بعد أن زالت الأسباب التي كانت تلجم لسانه وتشل بيانه ، ووفى هذا الصديق حقه ، وهذا الزعيم ما يليق به من رثاء ؛ إذ انتهز شوقي فرصة مرور سبعة عشر عاما على وفاة مصطفى كامل ، حين أقيمت له حفلة ذكرى ، فقال قصيدة ، ربما كانت أحسن ما قيل حتى اليوم في مصطفى كامل وفي جهاده ، وهي من أروع الشعر العربي الحديث ، قيلت في سنة ١٩٢٤ ، بعد أن عاد شوقي من منفاه ، ورأى أن الدنيا قد تغيرت ، وسدّت دونه أبواب القصر ، والثورة المصرية ، قد تأجج سعيها ، واشتد لظاها ، وهبت مصر عن بكرة أبيها تدعو الى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ومطلعها :

شهيد الحق قم تره يتيماً      بأرض ضيّعت فيها اليتامى

ورثاه شوقي بعد ذلك في سنة ١٩٢٦ بقصيدة أخرى بعد أن التأم شمل الأحزاب المصرية المتنافرة ، وفيها يقول :

أيها القوم عظموا      واضع الأُمس والحجر  
اذكروا الخطبة التي      هي من آيه الكبر  
لم ير الناس قبلها      منبراً تحت محتضّر  
لست أنسى لواءه      وهو يمشي إلى الظفر  
حشّر الناس تحته      زمراً إثرها زمر

وليس أدل على أن شوقي كان يصدر فيما يمر بمصر من أحداث ، وفي نظراته إلى الأشخاص ، وعلاقته بهم عن سياسة القصر ، حذرًا تارة ، جريئًا تارة أخرى ، من قصيدته التي قالها في رياض باشا ، غيب خطبته التي ألقاها في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية التي أنشأتها بالإسكندرية جمعية العروة الوثقى سنة ١٩٠٤

وكان اللورد كرومر ممن حضر هذا الافتتاح ، فتملقه رياض باشا بكلام كفر به  
بنعمة مصر وأصحاب عرشها ، فأوسع شوقي تأنيباً وتعنيفاً ، حيث يقول :

|                            |                             |
|----------------------------|-----------------------------|
| غمرت القومَ إطرء وحمداً    | وهم غمروك بالتعم الجسام     |
| رأوا بالأمس أنفك في الثريا | فكيف اليوم أصبح في الرغام   |
| أما والله ما علموك ألا     | صغيراً في ولائك والخصام     |
| إذا ما لم تكن للقول أهلاً  | فما لك في المواقف والكلام ؟ |
| خطبت فكنت خطباً لا خطيباً  | أضيف إلى مصائبنا العظام     |
| لهجت بالاحتلال وما أتاه    | وجرحك منه لو أحسست دامي     |
| وما أغناه عن قال فيه       | وما أغناك عن هذا الترامي    |

ويختتمها بقوله :

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| أني السبعين ، والدنيا تولت | ولا يترجى سوى حسن الختام  |
| تكون ، وأنت أنت رياض مصر   | عرايى اليوم في نظر الأنام |

ولا ريب أن شوقي كان في هذه القصيدة يفصح عن شعور القصر ، ومبلغ  
تأثره من خطبة رياض باشا ، في وقت لم يكن عباس قد هادن فيه الإنجليز بعد ، وكان  
العداء على أشده بينه وبين كرومر . ثم إن شوقي نظر إلى عرايى نظر الثأر على ولي  
نعمته توفيق ، وكان السبب في نكبة الاحتلال ، وموقف رياض من الإنجليز والتمكين  
لهم في مصر حريء بأن يشبه موقف عرايى في نتائجهم . وهذه لعمرى وجهة نظر القصر  
في عرايى وثورته ، مع أنه لم يكن يريد إلا الخير بمصر ، وإن أخطأ التقدير والتقدير ،  
وقد قال شوقي حين عاد عرايى من منفاه قصيدته التي مطلعها :

صغار" في الذهاب وفي الإياب      أهذا كل شأنك يا عرايى

ولما قامت الحرب العالمية الأولى ، وأعلنت الحماية ، وكان عباس غائباً عن مصر ،

فخلعه الإنجليز عن العرش في اليوم التالي لإعلان الحماية<sup>(١)</sup> ، نرى شوقي يَفرق من أن يَصب عليه الإنجليز جام غضبهم ، وأن يطوحوا به كما طوحوا بولي نعمته ، فيسارع بنشر قصيدة يهنئ فيها السلطان حسين كامل بالعرش ، ويعزي نفسه بأن صاحب العرش في مصر من ولد إسماعيل ، وحسبه هذا سبباً يجعله من خدام العرش والمخلصين له :

أأخون إسماعيل في أولاده      ولقد وُلدت بباب إسماعيل ! ؟

ونراه يلتفت لفئة سريعة إلى الإنجليز يمدحهم فيها ، ولكنه لا يطيل ، بيد أنه يدعو إلى التعاون معهم ، وكأنه يقرر ( سياسة الأمر الواقع ) ولم ير بُدّاً من أن يقول ما قال ، وقد أعلنت الحماية على مصر ، ويوجه بعد ذلك الكلام إلى مصر البائسة ، ويطلب منها أن تستسلم للقضاء ، ويخبرها أن الرواية لم تتم فصولها بعد . وهذا ولا شك تغير في موقف شوقي إزاء الإنجليز اقتضته الظروف التي جرت على غير ما يهوى . استمع إليه يقول في هذه القصيدة :

الملك فيكم آلَ إسماعيل      لا زال ييتكم يُظِلُّ النيل  
لَطْفَ القضاء فلم يَمِلْ لوليكم      ركناً ، ولم يشفِ الحسود غليلاً  
ويقول في مدح الإنجليز :

الله أدركه بكم وبأمةٍ      كالمسلمين الأولين عقولا  
حلفائنا الأحرارُ إلا أنهم      أرقى الشعوب عواطفاً وميولا  
أعلى من الرومان ذكراً في الورى      وأعزُّ سلطاناً وأمنعُ غيلاً  
لما خلا وجه البلاد لسيفهم      ساروا سِباحاً في البلاد عدولا  
وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها      ملكاً عليها صالحاً مأمولا  
ويقول مخاطباً أهل مصر :

يا أهلَ مصر كلوا الأمور لربكم      فإله خيرٌ مؤثلاً ووكيلاً  
جرت الأمور مع القضاء لغاية      وأقرّها من يملكُ التحويلاً

(١) أعلنت الحماية على مصر في يوم ١٨ من ديسمبر ١٩١٤ . وفي يوم ١٩ من ديسمبر خلع عباس العرش وولي السلطان حسين كامل ، راجع الوقائع المصرية عدد ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ .

هل كان ذاك العهد إلا موقفاً للسلطين وللبلاذ ويلا  
يعتز كل ذليل أقوام به وعزيزكم يلقى القياد ذليلا  
دفعنا بنا فيه الحوادث وانقضت إلا نتائج بعدها وذيولا  
وانقض ملعبه وشاهدته ، على أن الرواية لم تتم فصولا

فشوقي كما ترى لم يكن صريحاً في هذه القصيدة ، فيينا هو يحمد الله على أن الإنجليز لم يأتوا بملك جديد من غير البيت العلوي ، كما كان منتظراً ، وأنهم اختاروا شيخ الملوك وأكبرهم سناً لهذا المنصب ، تراه يطلب من المصريين إن ينتظروا في صبر حتى تتم فصول الرواية ، وتراه يعني على الموقف الغريب الذي كانت فيه مصر زمن عباس ، إذ تتنازع فيه السلطان : الشرعية ، والفعالية التي اغتصبها عميد إنجلترا في مصر ، وأنه موقف يعتز به كل ذليل ، ويدل كل عزيز .

ولكن موقف شوقي هذا لم يجده شيئاً ونقي شوقي من مصر لأنه شاعر عباس ولأنه قال : إن الرواية لم تتم فصولا ، فخشي الإنجليز من هذه الصيحة<sup>(١)</sup> ، فأقام بالأندلس ، واتخذ برشلونة له سكناً ، ثم عاد إلى مصر في أواخر سنة ١٩١٩ ، ووجد أن كل شيء قد تغير في مصر ، فسكان ( عابدين ) غير من كان يمهدهم ، فنأى عنه وفي النفس لوعة ، وانصرف إلى النتاج الخالد ، وكان له مواقف محموددة في السياسة الوطنية ، ستعرض لها فيما بعد إن شاء الله .

هذا ما كان من أمر شوقي إبان الاحتلال ، أما حافظ ، فهو لا شك ممن كان يحب مصر ويعشقها :

لمرك ما أركت لغير مصر وما لي دونها أمل يرام  
ذكرت جلالها أيام كانت تصول بها الفراعنة العظام

ويقول فيها :

اني لأحمل في هواك صباية يا مصر قد خرجت على الأطواق

(١) المرحوم احمد زكي ( باشا ) مجلة ابولو - ديسمبر ١٩٣٢ ص ٢٨٦ .

لهفي عليك متى أراك طليقة يحيى كريم حماك شعب راق

ولم يك حافظ في شعوره نحو الأتراك مثل شوقي ، بل كان يمثل شعور عامة المصريين ، المتعلمين منهم وغير المتعلمين ، فمصر بلد إسلامي ، يدين للخليفة في الآستانة بالولاء ، وترجوه ولجيشه الظفر والنصر ، وتأسى إذا نكبت هذه الجيوش ، أو ضعفت دولة الخلافة . وكان عبد الحميد رمزاً لهذه الخلافة ، وإن كان مستبداً ، وإن ضعفت على يديه ضعفاً لا نهاية بعده ، واقتطع من جسم الدولة على عهده أكثر من ولاية ، ولكنه على كل حال خليفة المسلمين ، فلا بدع إذا توجه إليه شعراء المسلمين بالمديح والتهاني في الأعياد . ولم يك حافظ يصدر في قصائده العثمانية هذه عن شعور جنسي ، أو عن تبعية قومية لتركيا ، ولكن عن شعور ديني ليس غير . استمع إليه يقول مهناً عبد الحميد بعيد جلوسه في سنة ١٩٠١ :

لمحتُ جلالَ العيد والقومُ هَيَّـبُ فعلاني آيَ العلا كيف تكتَبُ  
ومثَّلَ لي عرش الخلافة خاطري فأرهب قلبي والجلالة ترهب

ولكنك لا تجد في ديوانه أكثر من قصيدتين يمدح بهما عبد الحميد ويهنئه ، فهذه قصيدة والأخرى قالها في سنة ١٩٠٨ بعد عودة عبد الحميد من الحج ، وكان الدستور قد أعلن ، وأطلق سراح المسجونين السياسيين وهي التي مطلعها :

أثنى الحجيجُ عليك والحرمان وأجلَّ عيدَ جلوسك الثقلان

ولكنه يقول في غير مدح عبد الحميد قصائد أخرى في مناسبات تتم عن هذه العاطفة الدينية من مثل قصيدته في تأسيس الدولة العلية ١٩٠٦ والتي مطلعها :

أيُحْصِي معانيكَ القريضُ المَهْذَبُ على أن صدرَ الشعرَ للمدح أرحب  
لقد مكَّنَ الرحمنُ في الأرض دولة لعثمان لا تغفو ولا تتشعب<sup>(١)</sup>

وقال عند الانقلاب العثماني الذي خلع فيه عبد الحميد سنة ١٩٠٩ قصيدته التي يقول فيها :

كنتُ أبكي بالأمس منك فما لي بت أبكي عليك عبد الحميد

(١) تغفو : من الغفاه أي تندثر .

ويتسير إلى أن عبد الحميد كان حتى أمس خليفة يدعى له في مساجد المسلمين بقوله :

كلما قامت الصلاة دعا الدا عي لعبد الحميد بالتأييد

الى غير ذلك من المناسبات التي لا يحركه إليها إلا الشعور الديني ، من مثل عيد الدستور التركي سنة ١٩٠٨ ، وعودة الطائرين العثمانيين ، وحرب طرابلس ، ولكنه بمجرد أن أعلنت الحماية على مصر ، وزال آخر ما كان يصل بينها وبين تركيا من صلات بزوال الخلافة نفسها ، لا نسمع له شيئاً عن تركيا ، على العكس من شوقي ، وذلك لأنه لم يكن يشعر إلا بهذا الشعور الديني وحده .

ولكنه تأثر في السياسة المصرية بعدة عوامل . من ذلك طول صحبته للشيخ محمد عبده ، وكثرة ملازمته له ، وقد قال في ذلك : « فلقد كنت ألصق الناس بالإمام ، أغشى داره ، وأرد أنهاره ، وألتقط ثماره »<sup>(١)</sup> ، وقد عرفت أن الشيخ محمد عبده يدعو إلى الإصلاح البطيء ، ويكره الطفرة ، ويريد أن يهيئ الأمة ويعدها لأن تحكم نفسها حكماً صحيحاً ، بالتعليم وارتقاء الشعب<sup>(٢)</sup> حتى ينشأ جيل قوي يستطيع أن ينال الاستقلال وأن يحافظ عليه ، وعرفت كذلك موقفه من عباس ، وموقف عباس منه<sup>(٣)</sup> ، وأنه كان صديقاً للورد كرومر<sup>(٤)</sup> ، لأنه كان يدفع عنه بطش عباس ، ويمكنه من أن يسير في إصلاحاته بالأزهر ، والأوقاف ، والقضاء .

ولقد تأثر حافظ بمنهج أستاذه الإمام منذ أن اتصل به<sup>(٥)</sup> ، في السياسة والإصلاح ، فكتابه ( ليالي سطحي ) ليس إلا من وحي تعليم الإمام ، وقصائده الاجتماعية ، وتقده للمجتمع المصري في شتى أحواله ، ومختلف رجاله ، ليس إلا تأثراً بمنهج الإمام ، أضف إلى هذا ما لاقاه حافظ من بؤس وفاقه في مستقبل حياته ، وتعرفه على أحوال الشعب ومفاسد البيئة المصرية ، والمعوقات الكثيرة التي تقف في

(١) ليالي سطحي ص ١٣٥ لحافظ إبراهيم .

(٢) راجع تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ١٢٣ ؛ وراجع كتابنا في الادب الحديث ج ١ ص ٢٨٥ وما بعدها ط سادسة .

(٣) الادب الحديث ج ١ ص ٢٩٣ ط سادسة .

(4) Modern Egypt, Vol. II. P. 179-181.

(٥) هنا حافظ الإمام بقصيدة حينما اسند إليه الافتاء في سنة ١٨٩٩ فكانت هذه سبباً في الاتصال به . وكان يرأسه من قبل أيام مقامه بالسودان . راجع تاريخ الامام لرشيد رضا ج ١ ص ٦٠٤ .

سبيل النهضة ؛ ولذلك نراه يكثر من شعره الاجتماعي ، وينتقد كل فاسد : ينتقد العلماء الدجّالين .

كم عالمٍ مدّ العلوم جبالاً      لوقية ، وقطية ، وطلاق  
والأطباء الجشعين غير المخلصين :

وطبيب قومٍ قد أحلّ لطفه      ما لا تحل شريعة الخلاق  
والموظفين المرتشين :

ومهندس للنيل بات بكفه      مفتاح رزق العامل المطراق  
والأدباء المنافقين الكاذبين :

وأديب قومٍ تستحق يمينه      قطع الأنامل أو لظى الإحراق  
وينعي على المصريين تواكلهم ، وتخاذلهم عن النهوض والاهتمام بالإصلاح :  
وشعبٍ يفر من الصالحات      فرار السليم من الأجر

وغير ذلك من القصائد الاجتماعية العديدة التي سنعود إليها بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله . وقد تأثر في موقفه مع الإنجليز برأي أستاذه فيهم ، فتراه يردد تلك النغمة التي كان يرددوها محمد عبده — على الرغم من وطنيته — نغمة الإعجاب بهم ، والإطراء لمزاياهم :

يا دولة فوق أعلامٍ لها أسد      تخشى بوادره الدنيا إذا زارا  
يثول عرشك من شمس إلى قمر      إن غابت الشمس أولت تاجها القمر  
من ذا يناويك ، والأقدار جارية      بما تشائين والدنيا لمن قهرا  
إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسمٌ      وإن كثرت لنا عن نابه كثرا

ويعمل قوة الإنجليز بالشورى والعدل ، والتعاون :

لا تعجبنّ لملكٍ عزّ جانبه      لولا التعاون لم تنظر له أثرا  
خبرتهم فرأيتُ القوم قد سهروا      على مراقبتهم والملك قد سهرا

ولا يكتفي بمجرد إعجابه بهم ، ودعوته المصريين إلى تقليدهم ، والتطلع إلى ما يحتلونه من مكانة بين أمم الأرض ، ولو فعل ذلك لكان ولا شك غير ملوم على ثنائه عليهم ، ولكنه يشيد بما عملوا من إصلاح في مصر ، ويردد ما قاله كرومر في خطبة وداعه من المَنّ على مصر بإصلاحاته • استمع إليه يودع كرومر الداهية وكيف يشي عليه ، وإذا تذكرنا أن كرومر كان مكروها من عباس ، وأنه صديق محمد عبده لا تعجب لموقف حافظ •

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| سنظنري أياديك التي قد أفضتها   | علينا فلسنا أمة تجحد اليدا     |
| أمنّا فلم يسلك بنا الخوف مسلكا | ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدا |
| وكنّت رحيم القلب تحمي ضعيفنا   | وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا    |
| ولولا أسيّ في دتشواي ولوعة     | وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا       |
| ورميّك شعبا بالتعصب غافلا      | وتصويرك الشرقي غيرا تجرّدا     |
| لذبا أسيّ يوم الوداع لأننا     | نرى فيك ذاك المصلح المتودّدا   |

ولكنه والحق يقال قد أوضح له بعد ذلك مساوئه في مصر ، وأنه ولّى الحكم آلات صماء تنصاع لأمره ، ولا تبدي رأيا أو مشورة إلا حسب هواه ، وأنه أفسد التعليم ومكّن للغريب •

|                             |                                 |
|-----------------------------|---------------------------------|
| يناديك وليت الوزارة هيئة    | من الصمّ لم تسمع لأصواتنا صدى   |
| فليس بها عند التشاور من فتى | أبيّ إذا ما أصدر الأمر أوردا    |
| وحاولت إعطاء الغريب مكانة   | تجرّ علينا الويل والذلّ سرّمدّا |

تأثر حافظ في رأيه في الإنجليز ، ومخاطبتهم خطابا لينا بأستاذه الشيخ محمد عبده كما ذكرنا ، لأن لمحمد عبده أيادي لا تنسى على حافظ ، فقد كان فقيرا فأعانه ، وجاهلا فعلمه ، ومغمورا فرفع ذكره ، وعرفه بكثير من عظماء مصر وعلمائها ، فلا بدع إذا انتهج منهجه في موادعتهم ، ومعرفة منزلتهم ، والاعتراف بما يسدونه إلى مصر من جميل •

ولكن حافظ — كان في طبعه — وطنيا مخلصا ، ولم يكن ولا شك ممن يؤيدون حكم الإنجليز بمصر من عقيدة ، ولذلك نراه بعد موت أستاذه الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ يتغلب عليه عاملان آخران : هذه الوطنية الكامنة في نفسه ،



ثم ظهور رجال الوطنية المصرية يهزون مصر هزاً عنيفاً كي تفيق من غفوتها ، وتتنبه للخطر الجاثم فوق صدرها ، ولا يرون الاحتلال ورجاله نعمة ، ولا يستسلمون للحوادث استسلام الشاة لذابحها ، بل كانوا ثائرين لهم جرائم فيها آفلام مرهفة كالسيوف مضاء وحدة ، يسلقون بها كل من يناصر الاحتلال ويؤيده •

ونرى حافظاً يستجيب لنداء وطنيته الكامنة في نفسه أولاً ، ولنداء هؤلاء الثائرين ثانياً بعد وفاة أستاذه ، ويصدر في شعره عن عاطفة متقدة ليس فيها مهادنة لرجال الاحتلال أو مد يد الصداقة إليهم • فما أن وقعت حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ ، حتى أذاع قصيدته بعد صدور الحكم بخمسة أيام فنشرها في ٢ من يولية ١٩٠٦ •

وكان حافظ في هذه القصيدة ، وقد ابتدأ يجهر بمعاداته الإنجليز ، كمن يتحسس طريقاً لم يألفه ، تراه حذراً تارة ، قوياً تارة أخرى ، معاتباً في لطف أحياناً ، متهمكاً أحياناً ، كان من المنتظر منه والعاصفة على أشدها ، ودماء القتلى تملأ الجو برائحتهما ، وصرخات المجلودين تصم الآذان أن تكون قصيدته ثورة على الظلم والاستعباد والقسوة ، ولكنه كما ذكرنا كان لا يزال قريب عهد بموالاتهم ، اسمعه يقول في مطلعها :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا

فأي تخاذل تراه في هذا البيت ، وأي ضعف ؟ ؟ وهل هذا موقف عتاب ، ومذاكرة الود ، ولم يبق هؤلاء وداً يتذكر ؟ ؟ وقد يشفع له ما أتى في قصيدته بعد ذلك من سخرية لاذعة في مثل قوله :

|                                       |                               |
|---------------------------------------|-------------------------------|
| خَفَضُوا جِيشَكُمْ وَنَامُوا هَنِيئاً | وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا  |
| وَإِذَا أَعُوزَتْكُمْ ذَاتُ طُوقٍ     | بين تلك الرثبي فصيدوا العبادا |
| إِنَّمَا نَحْنُ وَالْحَمَامُ سِوَاهُ  | لم تغادر أطواقنا الأجيادا     |

ومن شدة وعنف في قوله :

|                             |                                   |
|-----------------------------|-----------------------------------|
| ليت شعري أتلُك ( محكمة النف | تيسر ) عادت أم عهد ( نيرون ) عادا |
| كيف يحلو من القوي التشفي    | من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا        |

ومن قسوة وسخرية لازعة بمصر وأهلها ، وأنها أمة ضعيفة مستخذية ، لا تجيد إلا الكلام والتحسر والبكاء :

أمة النيل أكبرت أن تعادي      من رماها ، وأشفقت أن تعادي  
ليس فيها إلا كلام وإلا      حسرة بعد حسرة تتهادى

ويشتد على المدعي العمومي ابراهيم ( بك ) الهلباوي الذي أيّد الاتهام ، وكان حرباً على مصر في قوله :

إيه يا مدره القضاء ويا من      ساد في غفلة الزمان وشادا  
أنت جلا دنا فلا تنس أنا      قد لبسنا على يدك الحدادا

وصور حافظ بعد ذلك هول الحادثة ووصفها وصفاً دقيقاً رائعاً في قصيدته التي استقبل بها اللورد كرومر حين عودته من مصيفه ، ولم يكن بمصر حين الحادثة ، ويشير فيها إلى تقرير كرومر عن الحادثة الذي أرسله لوزارة الخارجية البريطانية ، وكذب فيه ، وعزاها إلى التعصب الديني .

نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة      باتت لها أحشاؤنا تتلهب  
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل      عنا ولكن السياسة تكذب

وينفي عن المصريين التعصب الديني المزعوم بقوله :

إن أرهقوا صيادكم فلعلهم      للقت لا للمسلمين تعصبوا  
ولربما ضنّ الفقير لِقوته      وسخا بهجته على من يفضب

ثم يصف في شعر قوي "أخاذ صادق التصوير تلك الفظائع التي اتقم بها الإنجليز من الفلاحين المظلومين :

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا      بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا  
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهّلوا      بلظى سياط الجالدين ورحبوا  
يتحاسدون على المات ، وكأسه      بين الشفاء ، وطعمه لا يعذب

ونلاحظ أن حافظاً لم يقتصر في هذه القصيدة على التنديد بسياسة الإنجليز في مصر كما فعل بعض الزعماء السياسيين حينذاك ، ولكنه حاول أن يصل إلى تفسير الحوادث ، والرجوع بها إلى أسبابها وعللها الحقيقية ، وقد أشار إلى هذه الأسباب لا بوحى من العاطفة ولكن بوحى من النظرة الصادقة إلى واقع الحال ، فعزاها إلى غرور مستشار الداخلية ، واستسلامه للغضب ، ولجؤه إلى العنف والشدة ، وأشار بعد ذلك إلى الدرس الذي يجب أن يحذقه ذوو الشأن من مثل هذه الحادثة وذلك حيث يقول :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| أوست إلى معنى التعصب تنسب   | أو كلما باح الحزين بأثمة   |
| للمستشار فإن عدلك أخصب      | كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا |
| ساسوا الأمور قدرّوا وتدرّوا | قد كان حولك من رجالك نخبة  |
| طاش الشباب بهم وطاش المنصب  | أقصيتهم عنا وجئت بفتية     |

ويختمها بلوم مصر والسخرية بأهلها :

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| هي أمة تلهو وشعب يلعب     | وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم |
| فالناس أمثال الحوادث قلّب | واستبق غفلتها ونم عنها تنم  |

وتراه بعد ذلك يستقبل (إلدون جورست) الذي عيّنَ عميداً لإنجلترا بعد كرومر في سنة ١٩٠٧ بقصيدة قوية يدافع بها عن مصر ، ويبين له سوءات كرومر عليه يتعظ فلا يقع في مثلها<sup>(١)</sup> .

|                       |                       |
|-----------------------|-----------------------|
| ولكني وقتت أنوح نوحاً | على قومي وأهتف بالشيد |
| وأدفع عنهم بشبا يراع  | يصول بكل قافية شرود   |

ويقول مشيراً إلى كرومر وتقاريره :

|                          |                        |
|--------------------------|------------------------|
| رمانا صاحب التقرير ظلماً | بكفران العوارف والكنود |
| وأقسم لا يجيب لنا نداء   | ولو جئنا بقرآن مجيد    |

(١) كان جورست مستشاراً لوزارة المالية المصرية من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٤ ؛ وفي سنة ١٩٠٧

عين بدلاً عن كرومر ، وتوفي سنة ١٩١١ .

وبشّرَ أهل مصر باحتلال يدوم عليهم أبداً الأبد  
وأنتَ في النفوس لكم جفاءً تعهده بمنهل الصدود  
فأثمر وحشةً بلغت مداها وزكاها بأربعة شهود<sup>(١)</sup>

ثم يشير إلى الأثر الذي تركته هذه الحادثة في نفوس المصريين ، وكيف أنها  
هزتهم هزاً غنياً ، وأيقظتهم من سباتهم العميق ، فهبوا يذودون عن أنفسهم الظلم  
والبغي ، وينددون بالاحتلال وقسوته ، والاستعمار وشدته ، هبوا ثائرين ينشدون  
الحرية ، ويفضون للعزة والكرامة الوطنية .

قتيلُ الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجعَ القوم الرقود  
فليتَ كرومراً قد دام فينا يطوّق بالسلاسل كل جيد  
ويتحف مصر أنا بعد أن بمجلود ومقتول شهيد  
لنزع هذه الأكمان عنا ونُبْعَثَ في العوالم من جديد

وشتان بين موقف شوقي وحافظ إزاء هذه الحادثة .

أما رثاء حافظ لمصطفى كامل فقد قال فيه ثلاث قصائد . أولاها ألقيت على  
قبر الفقيد ساعة دفنه ، والثانية في ذكرى الأربعين ، والثالثة بعد مرور عام على  
وفاته . وإذا أمعنا النظر في القصيدة الأولى وجدناها — بطبيعتها ، وسرعة إنشائها —  
لوعة صادقة ، تصور هول الفجيعة ، ودمة حارة ، وزفرة عميقة ، جاءت من وحي  
العقل الباطن ، لا نتيجة تفكير وترو ، ومست جوانب العظمة في مصطفى كامل ،  
وبينت ما عمله لمصر ، وما يرجوه الشاعر من مصر بعد وفاته . وكانت خير مُعَبَّر  
عن شعور المصريين إزاء هذا الخطب الفادح . . تلك هي القصيدة التي مطلعها<sup>(٢)</sup> :

أيّا قبر هذا الضيف آمال أمة فكبرّ وهلّل ، والقرّ ضيفك جاثيا  
عزيز" علينا أن نرى فيك مصطفى شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا

(١) بريد بالشهود الأربعة الذين أهدموا في حادثة دنشواي .

(٢) ديوان حافظ ج ٢ ص ١٤٩ .

وبعد أن يشيد بأعماله يشعر أنه أكثر من البكاء والعيول ، وأن الأمة حزينة ،  
ولعل مصطفى كامل لا يرضى بهذا الضعف فيقول له :

عهدناك لا تبكي وتنكر أن يثرى أخو البأس في بعض المواطن باكيا  
فرخص لنا اليوم البكاء ، وفي غد ترانا كما تهوى جبالاً رواسيا  
ويستحث المصريين على الوفاء لهذا الراحل الكريم بالمحافظة على مبدئه ،  
وسياسته ، والتمسك بشعاره فيقول :

أيا نيل إن لم تجر بعد وفاته دماً أحمرأ لا كنت يا نيل جاريا  
ويا مصر إن لم تحفظي ذكر عهده إلى الحشر لا زال انحلالك باقياً  
ويا أهل مصر إن جهلتم مصابكم ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا  
أما القصيدة الثانية التي قالها في حفل الأربعين فقد خفت فيها حدة العاطفة ،  
وحرارة اللوعة ، وصور فيها حافظ بشعوره الواعي الحوادث الخارجية ، ووصف  
الجنائز ، ومواقف مصطفى كامل التاريخية المجيدة ، ومطلع تلك القصيدة :

نشروا عليك نوادي الأزهار وأتيت أنثر بينهم أشعاري  
ويصور فيها جهاد مصطفى بقوله :

قد ضاق جسمك عن مدائك فلم يطق صبراً عليك وأنت شعلة نار  
أودى به ذاك الجهاد وهده عزم يهدئ جلائل الأخطار  
لعبت يمينك باليراع فأعجزت لعب الفوارس بالقنا الخطار

وظهر حافظ في هذه القصيدة بأنه شاعر الوطنية الحقة ، وبأنه لا يعرف مداجاة  
الإنجليز ولا موادعتهم ، وعبر كما فعل في قصيدته الأولى عن عاطفة كل مصري  
وشعوره . أما قصيدته الثالثة التي قالها بعد مرور عام على وفاة الزعيم ، فقد كانت  
أروع هذه القصائد ، لا من حيث تصويرها للوعة الأسى ، وحرقة الفراق ، وعظم  
المصائب ، ولا من حيث تصويرها لجهاد الفقيد ودفاعه الحار عن مصر وقضيتها ،  
وإيقاظه قوماً ظن أعدائهم بهم الظنون ورموهم بكل تقيصة ، ولكن من حيث وصفه  
آلام مصر وآمالها ، وشعورها إزاء الاحتلال ومصائبه . وقد أسفر حافظ عن ذات

نفسه في هذه القصيدة ، فجهر بعدائه الصارخ للإنجليز ولم يعد بعد ذلك الذي يثلين القول ، ويدعو إلى المهادنة وهي خير ما يمثل شعر حافظ السياسي ، الذي اكتسب به لقب ( شاعر النيل ) ، استمع إليه كيف يصور الثورة التي كانت متأججة فهدمت ، والفراغ الذي تركه في ميدان السياسة •

يا أيها النائم الهاني بمضجعه  
باتت تسائلنا في كل نازلة  
تركت فينا فراغاً ليس يشغله  
مُنْقَرُ النوم سباق لغايته  
ليَهْنِكَ النومُ لا هَمٌّ ولا سَقَمٌ  
عنك المنابر والقرطاس والقلم  
إِلَّا أْبِي ذَكِيُّ القلب مضطرم  
آثاره عَمَمَ آماله أَمَمٌ

ثم يقول له ، وقد انطلق على سجيته معبراً عما يجيش في نفس كل مصري :

ليكَ نحن الألى حركتْ أنفسهم  
قليل اسكتوا فسكتنا ، ثم أنطقنا  
إذا سكتنا تناجوا • تلك عادتهم  
لما سكت ولما غالكَ المدم  
عسفُ الجفأة وأعلى صوتنا الألم  
وإن نطقنا تنادوا : فتنة عَمَمٌ

ويصور رجال السياسة الإنجليزية بقوله :

تصغي لأصواتنا طوراً لتخدعنا  
فمن ملاينة أстарها خدع  
ماذا تريدون ؟ لا قررتْ عيونهم  
وتارة يزدهيها الكبر والصمم  
إلى مطالبة أстарها وهَمٌ  
إن الكنانة لا يطوى لها عَلمٌ

وقد تبه الإنجليز إلى أن حافظاً قد تجاوز حدّه ، وإلى أنه قد انضم صراحة إلى الجبهة الوطنية ، وصار شاعرها الفذ ، الذي يهيج النفوس بشعره الذي يعبر فيه عن عواطفهم بسهولة ويسر ورشاقة ، فعملوا على وضعه في قفص الوظيفة حتى يسكت عنهم ؛ أو يرجع إلى سياسته القديمة من مهادتهم ، فعين على يد حشمت باشا ناظر المعارف في ذلك الوقت رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية سنة ١٩١١ ، وظل بهذه الوظيفة إلى سنة ١٩٣٢ حين أحيل إلى المعاش ، وأنعم عليه برتبة ( البكوية ) في سنة ١٩١١ ، ثم أنعم عليه بـ ( نيشان النيل ) من الدرجة الرابعة ، وبذلك كبل حافظ بقيود الوظيفة والألقاب ، وضمن بمنصبه كل الضن ، وخشي عليه

كل الخشية وصار لا يقول شعراً يغضب به أحداً من ذوي السلطان خشية أن يزعزحوه عنه ، أو ينالوه بأذى فيه ، وإن قال شعراً سياسياً أخفاه ولم ينسبه إلى نفسه . وليته سكت بعد أن دخل ققص الوظيفة ، ولكنه أخذ يدعو إلى التعاون مع الإنجليز من مثل قوله عقب إعلان الحماية ، وتولية السلطان حسين كامل عرش مصر مهناً له وناصحاً بأن يتبع آراءهم وينصاع لأوامرهم :

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| ووال القوم إنهم كرام     | ميامين النقية أين حلوأ     |
| لهم ملك على التاميز أضحت | ذراه على المعالي تستهل     |
| وليس كقومهم في الغرب قوم | من الأخلاق قد نهلوا وعلّوا |
| فإن صادقتهم صدقوك ودأ    | وليس لهم إذا فتشت مثل      |
| وإن شاورتهم والأمر جد    | ظفرت لهم برأي لا يزل       |
| وإن ناديتهم لبأك منهم    | أساطيل وأسياف تثل          |
| فماددهم حبال الود وانهض  | بنا فقيادنا للخير سهل      |

وهي قصيدة لعمرى تدل على أن صاحب ذلك الشعر ليس هو حافظ الملتهب الجبار الذي كان يصب شائب سخطه على الإنجليز ، ويريد أن يطردهم من مصر ، وإلا فما باله ينصح السلطان بأن يمددهم حبال الود ، وما باله ينصحه بمشاورتهم ويشيد بقوتهم ؟؟ وثمة قصيدة أخرى تتم عن ذلك التغيير في شعر حافظ السياسي ، وخضوعه التام لأسر الوظيفة وإقراره الأمر الواقع من سلطان الإنجليز بمصر وبطشهم ، تلك هي التي قالها عند تعيين ( السر مكماهون ) عميداً لـإنجلترا بمصر سنة ١٩١٥ ومنها يقول له معترفاً بأنه صاحب الأمر المطلق ، ومن بيده الحل والعقد في البلاد .

|                    |                        |
|--------------------|------------------------|
| ودع الوعود فإنها   | فيما مضى كانت روايه    |
| أضحت ربوع النيل سل | طنة وقد كانت ولايه     |
| فتمدها بالصلا      | ح وأحسنوا فيها الوصايه |
| أتم أطباء الشعو    | ب وأنبل الأقوام غايه   |

أنى حللتهم في البلا د لكم من الإصلاح غايه

فهذه النعمة التي يمجّد فيها الإنجليز ، ويشيد بـعدلهم ، ومقدرتهم على الإصلاح ، ويطلب منهم أن يهتموا بشئون التعليم في مصر ، ويتعهدوا البلاد بالرعاية ، ويقول لهم : إنهم أنبل الشعوب وأعدلهم تشعروا بأن حافظاً نبي أن مصر محتلة ، وأنها كانت تطالب بالاستقلال وكأن لم تكن ثمة صرخات "مدوية" ، ردها مصطفى كامل في الخافقين وردها صحبه الأمجاد ، وردها حافظ نفسه ، والكل يطلبون منهم أن يرحوا مصر غير مأسوف عليهم • واستمع إليه يقول في آخرها :

هذا حسين فوق عر ش النيل تحرسه العناية  
هو خير من يبنى لنا فدعوه ينهض بالبنايه

فالأمر كما يقول بيد الإنجليز ، إن شاءوا تركوه ينهض بالبنايه ، وإن شاءوا أبوا عليه ذلك ، فهو لا يملك في الواقع من أمر مصر شيئاً •

وليس معنى ذلك أن عوامل الوطنية قد ماتت في نفس حافظ ، ولكن كان — كما ذكرنا — يخشى أن يفقد مورد رزقه إن هو جاهر برأيه ، ولذلك تراه يقول بعض القصائد السياسية ويكتمها ، أو ينشرها بغير اسمه من مثل قصيدته في وصف مظاهرة السيدات في سنة ١٩١٩ ، ولم تنشر باسمه إلا في سنة ١٩٢٩ حين أمن عاقبة نشرها وهي التي يقول في أولها :

خرج الغواني يحتجج ن ورحت أرقب جَمْعَهُنَّه

ومن مثل قصيدته التي قالها في عهد إسماعيل صدقي ١٩٣٠ ، وقد ألغى الدستور ، واثارت مصر بأسرها ضده ، ولم يشر إليها أو ينشدها أحداً من أصدقائه إلا بعد أن خرج إلى المعاش ، ويقول الأستاذ أحمد أمين : « ولقد أنشدني قصيدته هذه التي مطلعها » :

قد مرّ عام يا سعاد وعام وابن الكنانة في حماه يضام

وهي التي يقول فيها مخاطباً صدقي ( باشا ) :

ودعا عليك الله في محرابه الشيخ والقسيس والحاخام



لا هُمَّ أَحْيَ ضَمِيرِهِ لِيَذُوقَهَا      غَصَصاً وَتَسْفَ نَفْسَهُ الْآلَامَ

وكانت نحو مائتي بيت ، يصف فيها وزارة إسماعيل صدقي ، فأشرت عليه أن ينشر بعضها ، أو يكتبها ، أو يملئها ، أو يحتفظ بها بأي شكل من الأشكال فقال : « إني أخاف السجن ولست أحتمله » (١) .

لقد أطلال حافظ الصمت ، ومررت بمصر أحداث جسام ، فالثورة المصرية العارمة ، وتغير نظام الحكم ، واستقلال البلاد نسبياً ، ومجيء الدستور وحكم الشعب ، لم تحرك من حافظ ساكناً ، وإذا تكلم فبحذر ورفق من مثل قوله في تصريح ٢٨ من فبراير ١٩٢٢ الذي منحت مصر به الدستور .

اصبحت لا أدري على خبرة      أجدت الأيام أم تمزح  
ألمح لاستقلالنا لمنعة      في حالك الشك فأستروح  
وتطمس الظلمة آثارها      فأثني أنكر ما ألمح  
قد حارت الأفهام في أمرهم      إن لمحووا بالقصد أو صرحوا

ومن مثل قوله في عيد الاستقلال متشائماً :

كم خدّرت أعصاب مصر نوافح      لوعودهم كنوافح التفاح  
فتعلّل المصري مغتبطاً بها      أرايت طفلاً عللوه بداح  
وتأنقوا في الخلف حتى أصبحت      أقوالهم تذرّي بغير رياح

وقد نشرت لحافظ عدة مقطوعات شعرية في سنة ١٩٣٢ بعد أن أحيل إلى المعاش ، يعني فيها على الإنجليز حيادهم الكاذب ، ويعيب عليهم تغير أخلاقهم مع أنهم اشتهروا بمثانة الأخلاق .

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم      فمصابكم ومصابنا سيّان  
حاربتم أخلاقكم لتحاربوا      أخلاقنا فتألم الشعبان

ويقول عن حيادهم :

قصر الدبارة قد تقض      تَ العهدَ تقضَ الغاصبِ  
أخفيتَ ما أضمرته      وأَنْبَتَ وُدَّه الصاحبِ  
الحربَ أَرْوَحُ للنفو      س من الحياذ الكاذبِ

ويقول في إحدى هذه المقطوعات مخاطباً الإنجليز :

فعدلتُم هنيئةً وبغيتُم      وتركتم في النيل عهداً ذميما  
فشهدنا ظلماً يقال له العد      لُ ووُدَّاً يسقي الحميمَ الحميما

ويبدو أن هذه المقطوعات قيلت في مناسبات مختلفة ، وفي سنوات عديدة ، كلما هاجت الحوادث فؤاد الشاعر وأثارت حزنه وشجنه ، وكان ينظمها لينفس بها عن آلامه المكبوتة ولكنه كان يخشى من نشرها حتى لا يضايقه الإنجليز في رزقه ، أو يغروا به أحد المستوزرين فيصب عليه شأيب غضبه . ولم تكن نفس حافظ تحتل الأذى ، أو ترغب في العودة إلى ضيق العيش ، وقد ذاقته منه ألواناً ، فطوى هذه المقطوعات ، إلى أن أحيل إلى المعاش فلم يجد بأساً — وقد صار حراً من قيود الوظيفة — من نشرها . وأغلب الظن أن شاعر النيل لو مدَّ له في أجله بعد خروجه إلى المعاش لعاد سيرته الأولى ، وملا الدنيا شعراً متحمساً وطنياً رائعاً كما كان في عهده الأول ، ولكن عاجلته المنية بعد أن تحلل من الوظيفة بأربعة شهور .

أما موقف شوقي إزاء هذه الحوادث القومية الوطنية بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، فقد اختلف جد الاختلاف عن موقفه من قبل ، كما اختلف عن موقف حافظ . ترك شوقي مصر منفياً بعد أن خلع عباس في سنة ١٩١٤ ، ورأى الناس قد تتكروا له حتى أعز أصدقائه قد تحاموا لقياه أو تحيته حين يرويه خوفاً من أن يتهموا بمصادقته<sup>(١)</sup> ، ولذلك رحب بالمنفى ليريه من تلك الوجوه المناققة ، وقد قال يخاطب ولديه وهو يعبر القناة في طريقه إلى المنفى مشيراً إلى سطوة الغاصب المحتل ، وعسفه وتبجحه ، ويفصح عن كامن غضبه وسخطه . « تلكما يا ابنيَّ القناه ، لقومكما فيها حياه ،

(١) انظر حسين شرقي مجلة ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣١٥ .

ذكرى إسماعيل ورياه « ..... إلى أن يقول : « تفارق برأ مغتصبه مضريُّ الغضبة ، قد أخذ الأهبة واستجمع كالأسد للوثبة ، ديك على غير جداره خلا له الجو فصاح ، وكلب في غير داره انقرد وراء الدار بالنباح » ، وقد أشار إلى هؤلاء الذين تنكروا له بعد أن تغيرت الحال السياسية ، وذهب عنه جاهته وسلطانه بمصر ، في إحدى أندلسياته بقوله :

وداعاً أرضَ أندلسٍ وهذا      ثنائي إن رضيت به ثوبا  
شكرتُ الفلكَ يوم حويت رحلي      فيا لمفارق شكر الغرابا  
فأنت أرحمتني من كل أنف      كأنف الميت في النزع انتصبا  
ومنظرٍ كلِّ خوَّانٍ يراني      بوجه كالبغيِّ رمى النقابا

وقضى في المنفى خمسة أعوام ألهب فيها النفي ولوعة الفراق إحساسه بالعربة وشوقه إلى مصر الحبيبة ، فنفضها نفضات حارة من قلب مفعم بالحب والحنين إلى الأرض التي شهدت ملاعب صباه ، ونشاط شبابه ، ونمو مجده وفيها الأهل والأحباب والخلان والأصحاب .

على جوانبها رفت تماثنا      وحول حافاتها قامت رواقينا  
ملاعب مرحت فيها مآربنا      وأرْبَعُ أنست فيها أمانينا  
ومطلع لسعود من أواخرنا      ومضربٌ لجدود من أوالينا

وأتمى به شعراً علوياً في أندلسياته المشهورة يفيض وطنية صادقة بعيدة عن مهاترات الأحزاب ، ونفما خالداً لم تسمع مصر مثله في ماضيها الطويل منذ أن دوت في أرجائها لغة الضاد ، أربى به على البارودي وتميز عنه باستطراداته البديعة في وصف مصر وطبيعتها وتاريخها ، فقال في سينيته المشهورة :

وسلا مصرَ هل سلا القلب عنها      أو أسا جرحه الزمان المؤسي  
كلما مرَّت الليالي عليه      رِقْ والعهد بالليالي تقسي  
مستطارٌ إذا البواخر رثت      أولَ الليل أو عَوَتْ بعد جرس

راهب في الضلوع للسفن فطن      كلما ثرن شاعهن بنقس  
 يا ابنة اليم ما أبوك بخيل      ما له مولعاً بمنع وحبس  
 نفسي مرجل وقلبي شرع      بهما في الدموع سيري وأرسي  
 واجعلي وجهك ( الفناز ) ومجرا      لك يد ( الثغر ) بين ( رمل ) و ( مكس )  
 وطني لو شغلت بالخلد عنه      نازعتني إليه في الخلد نفسي  
 شهد الله لم يغب عن جفوني      شخصه ساعة ولم يخل حيي

وعاد الثورة المصرية على أشدها ، بسعي من رشدي باشا لدى السلطة المحتلة ، وبإيحاء من السلطان حسين كامل قبل وفاته بعد أن رجاء في ذلك كثيرون من أصدقاء شوقي<sup>(١)</sup> . عاد شوقي والثورة المصرية في عنفوانها ، وقد لمت في سماء الوطنية أسماء لم يكن لها من قبل ذكر ، وهبت الأمة جميعها غاضبة لحقها المغصوب ، ودم بنيتها المسكوب ، واستقلالها المسلوب ، وشعر الإنجليز أنهم أمام أمة جادة في طلب حريتها ، تستهين بالدماء والأموال ، متحدة الصفوف ، لا يجد فيها العدو ثغرة ينفذ منها إلى التفرقة بينهم ، وأخذوا يتراجعون رويداً رويداً ، أو يحيكون الشباك للتفرقة ، فألّفوا لجنة ( ملنر ) ثم قدم ملنر مشروعه ، فرفضه الوفد أول الأمر ، وعدله بعد ذلك ملنر تعديلاً يسيراً ، فلم يشأ سعد أن يبت هو والوفد الذي سافر للمفاوضة في الأمر وحده ، وأرسل المشروع مع أربعة<sup>(٢)</sup> من أعضاء الوفد ليعرضوه على الأمة لتقول فيه كلمتها ، وقد وجه سعد إلى الأمة كلمة قال فيها عن المشروع : « غير أنه نظراً لاشتماله على مزايا لا يستهان بها ، وتغير الظروف التي حصل التوكيل فيها ، وعدم العلم بما يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المسافة التي بينه وبين أمانيتها ، رأى إخواننا معنا خروجاً من كل عهدة ، وحرصاً على كل فائدة ، واستبقاء لكل فرصة ، ألا يتتوا فيه رسمياً بما يقتضيه توكيلهم ، قبل عرضه عليكم أتم نواب الأمة المسئولون ، وأصحاب الرأي فيها »<sup>(٣)</sup> .

(١) راجع مقالة المرحوم أحمد زكي باشا عن شوقي في مجلة أبولو عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٣٨ .

(٢) هم محمد حمود ، وعبد اللطيف المكباتي ، وأحمد لطفي السيد ، وعلي ماهر .

(٣) ثورة سنة ١٩١٩ ج ٢ ص ١٢٧ .

وإن كان سعد قد بين لأصحابه بمصر أنه حماية ، وأنه يرفضه ، وقد قال في كتابه لهم<sup>(١)</sup> « وأظنكم تستشفون أنني لست من رأي المشروع الذي ستعرضونه على الأمة ، أأنتم والقادمون إليكم من إخوانكم ، وهذا موافق للحقيقة لأنه ( وأريد أن يكون الأمر بيني وبينكم ) مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به ، وباطنه الحماية وتقريرها<sup>(٢)</sup> » .

فلم يكن سعد صريحاً في الخطاب الذي وجهه للأمة ، وظن بعض الناس أنه يوافق عليه ، ووجد فيه بعضهم خطوة إلى الأمام ، ومن هؤلاء شوقي ، وقد نزل إلى معترك السياسة غب وصوله من منفاه ، بعد أن أوصدت في وجهه أبواب القصر وتغير سكانه ، ولم يعد مقيداً بقيوده ، فقال في مشروع ملتر :

|                           |                         |
|---------------------------|-------------------------|
| ما بال قومي اختلفوا بينهم | في مدحة المشروع أو ثلبه |
| كأنهم أسرى ، أحاديثهم     | في لئِن القيد وفي ضلّبه |
| يا قوم هذا زمن قد رمى     | بالقيد واستكبر عن سجنه  |
| لو أن قدأ جاء من علٍ      | خشيت أن يأبى على ربّه   |
| وهذه الضجة من ناسه        | جنازة الرق إلى تثرّبه   |

وهذا كلام ظاهره أن شوقي يرفض المشروع ، فلا يصح أن يوجد خلاف بين المصريين حول الرق والاستقلال ، فالاستقلال واضح ، والرق واضح ، ولكنه يقول بعد ذلك مؤيداً المشروع على أنه خطوة إلى الأمام ، والطفرة محال ، ولا سيما ونحن عزل من السلاح .

|                          |                                     |
|--------------------------|-------------------------------------|
| لا تستقلّوه فما دهركم    | بحاتم الجود ولا كعبه <sup>(٣)</sup> |
| نسمع بالحق ولم نطلع      | على قنا الحق ولا قضيّه              |
| ينال باللين الفتى بعض ما | يمجز بالشدة عن غصبه                 |
| قد أسقط الطّفرة في ملكه  | من ليس بالعاجز عن قلبه              |

(١) هم مصطفى النحاس ، وحافظ عفيفي ، وويصا واصف : وقد رفضت الأمة المشروع .

(٢) ثورة سنة ١٩١٩ ج ٢ ص ١٢٨ .

(٣) يشير إلى حاتم الطائي ، وكعب بن مامة الأيادي وكلاهما من أجواد العرب .

وقد لآمه كثيرون على قصيدته تلك ، مع أنه معذور ، إذ أن ساسة الأمة كانوا غاضبين ، وقد وجد فيها شوقي بارقة أمل • ونرى شوقي بعد ذلك يقول في تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذي اعترفت فيه إنجلترا باستقلال مصر مقيداً بقيود أربعة ، ومنحتها الدستور ، معتقداً كذلك أنه خطوة إلى الأمام ، وأن مصر لم تنل كل أمانيتها ، وأن الجهاد لم يزل أمامها طويل ، ولكن الغاية قد قربت •

لا ريب أن خطى الآمال واسعة" وأن ليل سراها صبحه اقتربا  
وأن في راحتي مصر وصاحبها عهداً وعقداً بحق كان معتصبا  
تمهدت عقبات غير هينة تلقى ركاب السرى من مثلها نصبا  
وأقبلت عقبات لا يذلها في موقف الفصل إلا الشعب منتخباً  
وفيها يقول :

قالوا : الحماية زالت ، قلت لا عجب بل كان باطلها فيكم هو العجا  
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزمها يقطع الذبا

كان شوقي ينظر في ميدان السياسة المصرية نظرات عامة ، ويستقرى العظات والعبر ولم يدع حادثة تمر من غير أن يدلي فيها برأيه ، بعيداً عن الحزبية التي صدعت وحدة الأمة ، ومزقت شملها ، ومكنت للعدو أن يستعيد بعض سيطرته ، ولذلك وجه إلى الزعماء في ذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٥ هذه القصيدة العظيمة في معانيها وغاياتها الوطنية ، ملتصقاً من ملوك البلاد ، أن يجمع الصفوف بحكمته ، وسديد رأيه ، إبقاءً على نهضة الأمة ، وحفاظاً على قوتها أن تتبدد •

إلام الخلف بينكم إلام وهذه الضجة الكبرى علام ؟  
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟  
وأين الفوز لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما ؟  
وأين ذهبتم بالحق لما ركبتم في قضيته الظلاما ؟  
أبعد العروة الوثقى وصف كأياب الغضنفر لن يراما

تباغيتم كأنكم خلايا من السرطان لا تجد الضماما ؟

يقول شوقي في عيد الاستقلال ، وعيد الدستور ، وفي نجاة سعد زغلول حين اعتدي عليه ؛ وقد قال في إحدى قصائده يصف ثورة مصر وانتفاضاتها القوية في سنة ١٩١٩ ، وإصرارها في عزم وحمة على رجوع سعد من منفاه وهي عزلاء من السلاح ، تتحدى انجلترا المنتصرة التي يربض جيشها على ضفاف الوادي بحرا به ومدافعه وطائراته ، وكيف خضعت إنجلترا لهذه الثورة العاتية ، وأرجعت سعداً إلى عرينه .

|                         |                        |
|-------------------------|------------------------|
| أذكر إذ غضبت كاللّابة   | ولمت من النيل أشبالها  |
| وألت بهم في غمار الخطوب | فخاضوا الخطوب وأهوالها |
| وثاروا فجئّ جنون الرياح | وزلزلت الأرض زلزالها   |
| وبات تلمسهم شيخهم       | حديث الشعوب وأشغالها   |
| ومن ذا رأى غابة كافحت   | فردّت من الأسر رثبالها |
| وأهيب ما كان بأس الشعوب | إذا سلّح الحق عزّالها  |

وكان يتأثر بالحوادث السياسية كلّ التأثر ، وتنفع لها نفسه وتهتز أعصابه ، وتحفز خياله <sup>(١)</sup> . ولم يقيد شوقي شعره بالوطنيات المصرية ، بل تعدى مصر إلى شقيقاتها من البلاد العربية ، وإلى البلاد الإسلامية ، يشجعها على طلب الاستقلال ، ويأسى لما تصاب به من نكبات ، ويرثي كبار زعمائها وقادتها . ويحث شباب مصر في أكثر من موطن على أن يعتصموا بالقوة فإن الحق الذي لا تدعّمه القوة لا يلقي أذانا صاغية ، ويذكر المصريين بأن الغرب رفض الاستماع إلى وفد مصر في مؤتمر لوزان حينما كان يوزع الغنائم والأسلاب :

|                         |                         |
|-------------------------|-------------------------|
| أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا | وصدوا الباب عنا موصدينا |
| ولو كنا هناك نجر سيفاً  | وجدنا منهم عطفاً ولينا  |

ويذكرهم بأن الأماني والأحلام لا تحقق الرغاب فيقول :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فبينما كان شوقي يملأ الدنيا بشعره ، كان حافظ راضياً بما قسم الله له من رزق ، حريصاً على ألا يضيع منه : يكتب شعوره ، ويخشى أن تطوح به السياسة في أودية لا يعرف لها قراراً .

هذا وقد ظهر بجانب شوقي وحافظ شعراء آخرون تباينوا شعوراً ، وسياسة ، إزاء كل هذه الحوادث ، وتأثروا بمؤثرات شخصية : فإسماعيل صبري كان وطنياً صادقاً ، ولكنه كان مقيداً بقيود الوظيفة ، ولم يكن شاعراً محترفاً ، وإنما كان الشعر عنده ترفاً ، ولم يخض غمار السياسة كما خاضها حافظ وشوقي ، وإن لم يقل عنهما وطنية ، ينم عنها ما قاله في بعض الحوادث التي هزّت مشاعره هزاً غنياً فلم يجد من القول بدءاً .

ليس في ديوان صبري أي قصيدة يمدح بها السلطان عبد الحميد ، أو سواه من الأتراك الذين مدحهم شوقي أو مدحهم حافظ ، ولست أدري أيعود هذا إلى أنه كان يخشى الإنجليز وهو الموظف في الحكومة المصرية التي تسيطر إنجلترا على شئونها ، والذين كانوا يسعون سعياً حثيثاً لقطع الصلة بينها وبين مصر ، حتى يخلوا لهم الجو ، ويثبتوا أقدامهم بوادي النيل ؟

أو يعود هذا إلى أنه كان ينظر إلى مصر وأملها في الاستقلال نظرة قومية ، فلا يمدح إلا أمراءها الذين تولوا الملك في عهده كإسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ، وحسين كامل ، شأن الرجل المستنير الذي يرغب في نهضة بلاده مستقلة عن كل نير أجنبي ، ولا يدعو إلا للنهضة التعليمية ، والشورى ، ورفقي مصر في جميع نواحي الحياة ؟ ، نرى إسماعيل صبري حتى في شعره الذي قاله في حرب طرابلس بين تركيا وإيطاليا لا يصدر عن عاطفة دينية حادة كما كان يصدر شوقي مثلاً ، وكما كان يصدر كثير من شعراء هذا الجيل ، وإنما كان صبري ينظر إلى هذه الحادثة نظرة إنسانية ، فيها اعتداء قوي مدجج بالسلاح ، على ضعيف أعزل ، وفيها تنكر لمعاني الإنسانية الجميلة .

|                          |                         |
|--------------------------|-------------------------|
| لا يثق بعضنا ببعض وهذا   | ما أعدّ الإنسان للإنسان |
| إن تسلّم على الغريب فسلم | في ظلال السيوف والمران  |
| ربما أصبح العناق صراعاً  | في زمان الآداب والعرفان |



ولا نراه يكبر ويهمل حينما تعلن تركيا الدستور في سنة ١٩٠٨ ، فما الذي يعود على مصر من ذلك إذا لم تتل هي الدستور ، وحكم الشورى ؟ • فليست مصر في نظره مقاطعة عثمانية ، حتى ينالها ما نال تركيا ، ولكنها محكومة حكما غريباً تتنازعه سلطتان ، وأهلها يعانون الاستبداد والبغي :

|                                 |                               |
|---------------------------------|-------------------------------|
| يا مصر سيري على آثارهم وقفي     | تلك المواقف في أسنى مجاليها   |
| لا يؤيسنك ما قالوا وما كتبوا    | بين البريئة تضليلاً وتمويها   |
| إن ينعوا الناس من قول فما منعوا | أن ينطق الحق بالشكوى ويديها   |
| الحق أكبر من أن تستبد به        | يد وإن طال في بطلٍ تماديها    |
| يا آية الفخر هلا تنزلي - كما    | نزلت ثم - على مصر وأهلها      |
| كيما نجر ذيولاً منك جررها       | من قبلنا الترك في أوطانهم تها |
| يا (عابدين) لأنت اليوم مصدرها   | وفي ذراك - بإذن الله - موحيا  |

ونراه عند الانقلاب العثماني ، وخلع السلطان عبد الحميد ، يرى في ذلك عظة بالغة لكل حاكم مستبد فيقول لعبد الحميد :

|                                      |                                |
|--------------------------------------|--------------------------------|
| (عبد الحميد) سيحصى ما صنعت غداً      | بين الأنام ، ويلقى في الموازين |
| إن يرجح الخير - نعم الخير - من عمل - | دخلت في زمرة الغر الميامين     |
| أو يغلب الشر - لا كانت عصابته -      | عُددت في صرحه أقوى الأساطين    |
| لا يرهقنك حكم الناس فهو غداً         | مستأنف عند سلطان السلاطين      |

ونراه يستحث عباساً في أكثر من مناسبة ليمنح مصر الدستور ، وليحكم بالشورى :

|                               |                            |
|-------------------------------|----------------------------|
| سدّد سهام الرأي (بالشورى) يحط | بك منه في ظلم الحوادث فيلق |
| سوءتُ مجدك أن تنام وفي الحمى  | أمل عقيم أو رجاء مخفق      |
| كل المسألة نزلت ما ترتجي      | من أنعم الشورى وملكك مطلق  |
| مر بالذي صرحت قول به وقل      | واصدق ، فشلك من يقول ويصدق |

أما في علاقة مصر بالإنجليز ، فلا شك أن صبري كان غير راض عنها ، ولكنه لم يكن يفصح عن مكنون نفسه ، وإن دلت مواقفه العديدة ، على الوطنية المضطربة بين جوانحه . فقد اشتهر صبري بصداقته لمصطفى كامل ، وقد حدث حينما كان محافظاً للإسكندرية — من سنة ١٨٩٦ إلى ١٨٩٩ — أن أراد مصطفى كامل إلقاء خطبة وطنية بها ، فأوعزت الحكومة إليه أن يحول بينه وبين ما يريد ، محتجة بالخوف على الأمن أن يختل نظامه ، والقانون أن تنتهك أحكامه ، فأبى على الحكومة كل الإباء ، وخلق بين مصطفى وبين شعبه يخطبه كما يشاء ، وقال للحكومة : أنا مسئول عن الأمن والنظام ، ومحمّل ما تعقبه هذه الخطبة من تبعات (١) .

ذكر الأستاذ أحمد الزين أنه عاش ما عاش لم يزر إنجلترا قط « وقد سألته عن ذلك فقال : نعم ، وطالما استماني لورد كرومر إلى زيارته فلم أفعل ، فقلت مازحاً : لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيساً للوزارة . فقال : « وماذا تفيدني رئاسة الوزارة غير إغضاب ضميري وإرضاء ذوي المطامع وأصدقاء الجاه » (٢) .

وكان بعد أن عين وكيلاً لوزارة ( الحقانية ) في سنة ١٨٩٩ حريصاً على صداقة مصطفى كامل ، لا يبالي أغضب الإنجليز أم أرضاهم في هذا ، وكان يخرج من الوزارة في غالب الأيام ويعرج على صاحب ( اللواء ) ، ويقضي معه وقتاً طويلاً ، مع أن سواه من الموظفين كانوا لا يجرون على مثل هذا ، وقد أشار شوقي في رثاء إسماعيل صبري إلى ذلك حيث يقول :

|                               |                         |
|-------------------------------|-------------------------|
| وينح الشباب وقد تخطّر بينهم   | هل متّعوا بتمشّح وطواف  |
| لو عاش قدوتهم وربّ ( لوأنهم ) | نكس اللواء لثابت وقاف   |
| فلكم سقاء الودّ حين وداده     | جرب لأهل الحكم والأشراف |

ولقد تأثر إسماعيل صبري بتلك الغضبة الصاخبة التي غضبها مصطفى كامل حين وقعت حادثة دنشواي ، ولكنه لم يقل حين وقوعها شيئاً وآثر الصمت ، وأغلب الظن أن صمته كان تقيّة منه ، وحرصاً على وظيفته ، لأن يد الإنجليز حينذاك كانت

(١) أحمد الزين مقدمة الديوان ص ٣٢ . ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ٣٩٢ .

(٢) أحمد الزين — المصدر السابق .

بطاشة قاسية • وإذا تجرأ مصطفى كامل ، ورجال السياسة على ضرب تلك اليد حتى تكف عن الأذى ، فقد كانوا في حرية نسبية ، غير مقيدين بقيود الوظيفة ، فلما نجحوا في حملتهم على المعتمد البريطاني اللورد كرومر ، وأجبروه على الاستقالة ، وصدر العفو عن المسجونين ، انطلقت الألسنة التي أحجمت عن الكلام في إبان المحنة ، والتي كانت تترقب الفرصة المواتية لتفصح عن الثورة المكبوتة ، والألم الدفين ، ومن هؤلاء شوقي كما عرفت ذلك آنفاً ، ومنهم كذلك إسماعيل صبري ، فقال من فصيحة يهنئ فيها (عباساً) بعيد الأضحى بعد مرور عامين على دنشواي ؛ ويذكر هذه الحادثة ويشكره على أن عفا عن المسجونين :

|                                |                             |
|--------------------------------|-----------------------------|
| وأقلتَ عثرةَ عرية حكم الهوى    | في أهلها وقضى قضاء أخرق     |
| إن أنَّ فيها بائس مما به       | وأرَنَّ جأوبه هناك مطوّق    |
| وارحمتا لجناتهم ماذا جنّوا     | وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا ؟ |
| ما زال يقتذي كلَّ عينٍ ما رأوا | فيها ويؤذي كلَّ سمع ما لقوا |
| حتى حكمتَ فجاء حكمك آية        | للناس طيِّ صحيفة تتألق      |

وتراه لا يكتفي بهذا ، ولكنه يشير بعد ذلك إلى أن هذا القانون الظالم الذي طبق في هذه الحادثة ، سيظل يبعث النزاع والرعب في القلوب ، وأن ما ارتكبه من مآثم ، وما طعن به مصر من جراح لن يكفر عنها شيء ، ولن تلتئم هذه الجراح ما دام الاحتلال قائماً وجنوده تبرق وترعد :

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| قانون ( دنشواي ) ذاك صحيفة | تتلى فترتاع القلوب وتخفق   |
| هل يترجى صفو ويهدأ خاطر    | والماء حول نصوصها يترقرق   |
| ومضاجع القوم النيام أواهل  | بمعدّب يتردى ، وآخر ينزهرق |
| لن تبلغ الجرحى شفاء كاملاً | ما دام جارحها المهند يبرق  |

هذا كل ما قاله صبري • وكفى عن المحتل الغاصب بالجراح المهند ، ولم يصرح به ، ولا نسمع له شيئاً آخر في الإنجليز من قريب أو بعيد ، ولكننا نسمع له مقطوعات قصيرة ، في البيتين والثلاثة ، يضمنها رأيه في وزراء مصر قبل الحرب

العالمية الأولى ، بدعاية مرححة ، كأنها صورة هزلية فكحة مما تنشره الصحف اليوم ، من ذلك قوله في مصطفى فهمي باشا الذي عرفت من أمره ما عرفت ، وأنه كان أحب للإنجليز وأخلص لهم من أنفسهم ، فلما سقطت وزارته التي طال عليها الأمد ، وملها المصريون ، وضاقوا بها ذرعا في سنة ١٩٠٨ قال إسماعيل صبري :

عجبت لهم قالوا : (سقطت) ومن يكن مكانك يأمن من سقوط ويسلم  
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى وحرمت خوف الذل ما لم يحرم  
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تصدع ولم تتحطم

ولما مات مصطفى كامل شق عليه نعيه ، وهو الصديق الوفي ، الذي كان يحرص على وداده ، على الرغم مما كان بينه وبين الإنجليز من عداوة سافرة ، وعلى الرغم من أن إسماعيل صبري كان موظفا في الحكومة ، فوقف على قبره ، وهو يوشد الثرى نعاها ، فلم يكذب ينطق بالبيت الأول من قصيدته وهو :

أداعي الأسى في مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ملكته العبرة ، وغاب عن الوعي ، وفقدت القصيدة<sup>(١)</sup> ، ولولا قصيدته في مصطفى كامل في حفل الأربعين ما عرفنا عن شعوره إزاء هذه الكارثة شيئا ، وهذه القصيدة فيها عاطفة جياشة ، تنبئ عن لوعة صديق محزون هداه الحزن ، ولم يصور فيها مصطفى كامل الوطني المشتعل حماسا وثورة على قيود الرق وأغلاله ، بما يليق به ، واكتفى بذكر الشجن والأسى والحسرات لفراقه . وليس فيها من نبأ عن وطنية مصطفى كامل إلا إشارات عابرة ، وما عدا ذلك فهو تصوير لعظم الفجيعة :

ألا عللاني بالتعازي وأقنعنا فؤادي أن يرضى بهن تعازيا  
وإلا أعيناني على التئوج والبكا فشأنكما شأني ، وما بكما بيا  
وما نفعي أن تبكيا غير أنني أحب دموع البر والمرء وافي  
أيا مصطفى تالله نومك رابنا أمثلك يرضى أن ينام اللياليا

(١) انظر ص ٣٣ من ديوان إسماعيل صبري وكذلك ص ٢١٣ .

تكلّم فإن القومَ حولك أطرقوا      وقل يا خطيب الحي رايك عاليا  
ويخيل إليك أن سيفيُض في ذكر مزاياء ويتحدث بإسهاب عن وطنيته ، ولكنه  
يشير بعد أبيات في إيجاز شديد إلى أن مصطفى كامل كان سلاح مصر ، وكوكبها  
المضيء في دجّة الحوادث ، وأنها فقدت هذا السلاح وهي أحوج ما تكون إليه ،  
وهذا الكوكبَ وهي تتخبط في الظلماء ، ولولا ما خلفه من الأمانى في نفوس مواطنيه  
لكان في بكائهم عليه بكاء "على أمانهم" .

فقدناك فقدان الكميِّ سلاحه      وساري الديّاجي كوكب القطب هاديا  
وبتنا ودمع العين أندى خمائلا      وأكثر إسعافا من الغيث هاميا  
ولولا تراث من أمانيك عندنا      كريم بكينا إذ بكينا الأمانيا

وأشار كذلك إلى قوة حجته ، وعظيم دفاعه عن مصر في إيجاز :

فليتك إذ أعينْتَ كلَّ مساجل      قنّعت فلم تعي الطيب المداويا  
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تنفض      مع الجبر قلباً — يعلم الله — غاليا

فهو لا ينطلق على سجيته ، ويخيل إليك أنه يمشي بحذر ، خائفا يترقب ، فثمة  
الإنجليز وثمة القصر ، وكلاهما غير راض عن مصطفى كامل ، وهو شاعر يدين للقصر  
بالولاء كما ينطق بذلك ديوانه الذي يَغصُّ بقصائد المديح يزجها في كل مناسبة  
للخديو ، ولكنه كان — على كل حال — أجراً من شوقي في هذه المناسبة ، ولعل  
جراته أتت من أنه كان قد اعتزل الخدمة<sup>(١)</sup> ، وأصبح لا يخشى بأس الإنجليز .

ثم تمر بمصر أحداث ، ويطوح الإنجليز بعباس ، ويأتي السلطان حسين كامل  
بعد إعلان الحماية ، فيهنئه ولكنه كان أشد وطنية من صاحبيه حافظ وشوقي ، فلم  
يشر إلى الإنجليز أي إشارة ، ولم يدع إلى التعاون معهم ، أو يثن عليهم ، بل اكتفى  
بأن هنأه ، وذكر أن الإمارة لم تزل في أهلها ، وأنهم يتناوبون العرش ماجداً بعد  
ماجد ، وأن أهل مصر لا يزالون على الود القديم .. إلى غير ذلك من المعاني  
التي تقال في مثل هذه المناسبة :

(١) اعتزل إسماعيل صبري الخدمة في ٢٨ من فبراير سنة ١٩٠٧ .

إن الإمارة لم تزل في أهلها شماء عالية القواعد والذرا  
والتاج مقصوراً عليهم ينتقي منهم كبيراً للعلاء فأكبراً  
والعرش إن أخلاه منهم ماجد ذكر الأماجد منهم وتخييراً  
عزى عن ( العباس ) أنك عمته وأجل من ساس الأمور ودبراً

ولكنه يفضل ( حسينا ) بعد ذلك على ( عباس ) ، ويحتج لاختياره ، ولو أنه  
اكتفى بما قاله في البيت الأخير ، لكان خيراً له ، لأن عباساً حظي منه بمدح شتى ،  
رفعه فيها إلى السماكين ، وكان واجب الوفاء يدعوه ألا يذم صاحبه الذي مدحه  
بالأمس ، وألا يدعو الناس للشكر على أن جاء حسين بدلاً منه :

والبيت ( بيت محمد ) قد شاده لبنيه لم يستثن منهم معشرا  
والعم أكبر حكمة ودراية بالأمر لو أن المكابر فكرا  
حال إذا نظر الأريب جمالها شكر الإله وحقه أن يشكرا

وهذا القلب في المديح يدل على أن الشاعر لم يكن صادقاً في مديحه لعباس  
أو حسين ، وإنما يدل على أنه كان مع الحاكم أيّاً كان ، شأن معظم شعراء المديح  
الذين لا يصدرون في شعرهم عن عاطفة جياشة صادقة وإنما يصدرون عن مراعاة  
ونفاق ورغبة في الحظوة والمكانة لدى ولي الأمر أيّاً كان خلقه ووطنيته .

هذا هو إسماعيل صبري ، كان وطنياً صادقاً ولكن في هدوء وحذر ، يريد  
الإصلاح والرقى لقومه عن طريق التعليم والنهضة الصحيحة ، ويخشى التيارات  
السياسية المتلاطمة الأمواج ، ولا أدل على وطنيته ومنهجه من قصيدته التي يقول  
فيها على لسان فرعون مخاطباً مصر والمصريين محرضاً إياهم على النهوض ، تلك  
القصيدة التي مطلعها :

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني إذا ونى يوم تحصيل العلا واني

والتي يقول فيها :

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

ردوا المجرّة كدّا دون موردّه أو فاطلبوا غيره ريّا لظمان

وسنعود إليها فيما بعد إن شاء الله •

\* \* \*

أما محمد عبد المطلب فقد تمثلت فيه الوطنية المصرية الصحيحة ، خاض غمارها بحماسة وعنفوان وصدق ، لا يبالى بما يصيبه من جراء حماسته أو عنفوانه ، ولقد نمى هذه الوطنية في نفسه عاملان قويان : أولا ، نشأته البدوية العربية ، في العرب إباءً وشمم ، وأنفةً من الظلم ، ونزعٌ إلى الحرية ، وفي البداوة الصرامة والقوة والعنفوان والصراحة ، والعامل الثاني نشأته الدينية وتدينه ، والإسلام يدعو إلى العزة والكرامة والسيادة • فلا بدع إذا رأينا الشيخ محمد عبد المطلب وطنيا متدفق الوطنية ، متطرفا منذ أن اشتعلت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ •

ولكن قبل أن نعرض شعره السياسي في الثورة نعود إلى الخلف قليلاً لنرى موقفه من تركيا والإنجليز قبل الحماية وبعد أن أعلنت • لم يكن الشيخ محمد عبد المطلب تركيَّ النزعة ، ولا يمت إلى الأتراك بجنس ولا نسب ، ولا مقرّباً من الأمير أو حاشيته ، ولا هو من كبار الموظفين الذين يرجون الخير من الأتراك لقباً أو منحة ، ولم يك في أوائل هذا القرن شاعراً مشهوراً ، بل كان مدرساً في إحدى قرى الصعيد ، ولذلك كله لا نراه يعنى بتوجيه المدائح للخليفة بتركيا ، ولا يشعر نحوه إلاّ كما يشعر مسلم محب لعظمة الإسلام ، وقوة دولته • وليس لعبد المطلب في ديوانه إلا قصيدة واحدة رفعها إلى عبد الحميد بعد أن أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ ، وعم الفرح جميع الأقطار الإسلامية ، وأمّل الناس خيراً في عبد الحميد وفي دور الخلافة ، فقد صوّر في هذه القصيدة الظلم الذي كان يَرزح تحته الأتراك ، وكاد يودي بالدولة كلها إلى هوة سحيقة ما لها من قرار ، وذلك حيث يقول :

|                                |                              |
|--------------------------------|------------------------------|
| يا عيدٌ حيٌّ وأنت خيرُ نهار    | « عبد الحميد » بدولة الأحرار |
| ملكٌ أقام على الخلافة منهم     | حرساً وقاهما دولة الأشرار    |
| من بعد ما كاد الزمان يَحُلّها  | بالجور دار مذلة وبوار        |
| يخشى البريء ويأمن الباغي الردى | والجار مأخوذٌ بجُرم الجار    |

عهد مضى - لا عاد - كبّل دولة ال  
إسلام في الأغلال والآصار  
فرمت مقاتلها يد الأطماع من  
دول كلفن بحب الاستعمار  
وتراه يهوى الطيارين التركيين حين وصولهما إلى مصر لأول عهد الناس  
بالطيران ، على أنهما قوة للإسلام :

|                        |                               |
|------------------------|-------------------------------|
| طير السلام بطائر ال    | إسلام والأسد المزير           |
| يا طائر الإسلام يهفو   | بالعواصم والثغور              |
| يختال في الملكوت زهواً | فوق آمنة العير <sup>(١)</sup> |
| أحييتما ميتا من ال     | آمال في قلب كبير              |

إلى أن يقول :

|                      |                                    |
|----------------------|------------------------------------|
| يا دولة الإسلام هبي  | يا كواكبه أنيري                    |
| مدّي جناحيه على النـ | رين والشّعري العبور <sup>(٢)</sup> |
| فلعل دائره تجـ       | دء عهدّه بعد الدثور                |

ويقول في انتصار الأتراك على اليونان في سقاريا ، معبراً عن الشعور الإسلامي حينذاك :

|                          |                          |
|--------------------------|--------------------------|
| هذا مقامك شاعر الإسلام   | فقف القريض على أجل مقام  |
| عادت صوارمنا إلى أعمادها | من بعد ما ظفرت بخير مرام |

ويقول في حرب طرابلس التي أرادت بها إيطاليا أن تنتزع تلك الولاية العربية الإسلامية من تركيا سنة ١٩١١ ، وهبت مصر تشد أزر الترك ، وتسعف جرحى الحرب ، وترسل المال والزاد ، وكان المصريون ينظرون إلى هذه الحرب على أنها حرب ضد الإسلام ، وضد دولة الإسلام ، وأنهم طرف فيها :

(١) العير : العنار والزلل .

(٢) الشعري : الكوكب الذي يطلع في الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر ، ويقال له الشعري البمانية وتلقب بالعبور ، والنسران : كوكبان يقال لاحدهما النسر الواقع ، وللآخر النسر الطائر .



هي الهيجاء كم طحنت قروناً وكم صحت حوادثها قروناً<sup>(١)</sup>

ويقول فيها مخاطباً الطليان :

خرجتم من منازلكم بغاة  
غداة ملائمت الدنيا صياحاً  
على أوطاننا تتغلبونا  
به بين الأزقة تهتفوننا  
وأقلقتهم ملوك الأرض لما  
برزتم تبرقون وترعدونا

ويقول مخاطباً ملوك أوروبا :

بغت (روما) فلم نسمع فكيرا  
وإن نفضب ذيادةً عن حياض  
ولو شاءوا سمعنا المنكرينا  
لنا هدمت إذا هم يسخطونا  
ملوك الغرب ما هذا التعامي  
يساق ضعافنا للموت بغيّاً  
وأتم تسمعون وتبصرونا  
وما للحق بينكم مهيّنا ؟

ويقول في هذه الحرب قصيدة أخرى يحرض فيها المسلمين على التطوع والجهاد مع إخوانهم أهل طرابلس :

بني أمنا أين الخميسُ المدرّب  
وأين النفوس اللاء كنّ إذا دعا  
وأين العوالي والحصام المذرّب ؟  
إلى الله داعي الموت في الموت ترغّب

ولكننا نراه لا يأسى حين تسقط الخلافة ، وتزول من تركيا بعد الحرب العالمية الأولى إذ انقطعت الصلة التي كانت تربط مصر بتركيا ، ولم يشعر نحوها كما كان يشعر من قبل .

ونرى عبد المطلب يشور ويفضب حين تعلن بريطانيا الحماية على مصر ، وتتسلف في تسخير المصريين لخدمة الجيوش المحتلة ، وتسوقهم كالأنعام لخدمة جيوشهم المحاربة ، وتصادر أرزاقهم ، وتحكمهم بيد غليظة آئمة ؛ كان صريحاً عنيفاً ، لم يخش بأساً ، ولا عنتاً وكان هو الصوت الأدبي المدوي الذي ثار وغضب ، فمن ذلك قوله مشيراً إلى من نفتهم سلطة الاحتلال :

(١) صحت : دقت .

وما ملّهم فيها ثواءً وإنما  
يناديه فينا قائد الجيش قومهُ  
تعسف بالأحكام غير موفق  
فكم ساق من مصر إلى الموت فتيةً  
جموع كأرجال النعام تلفها  
له عُصَبٌ في غورها وصعيدها  
ومن لم يسقه السوط والسيف ساقه  
ففي كل بيت صوت ثكلى مرّة  
ويقول منها في الحماية :

دَجَتْ يومَ إعلان الحماية شمسُه  
به لقت سودّ الليالي فليته  
فيا لك من يوم على مصرٍ أورك (١)  
قضى في بطون الغيب لم يتخلق  
ويقول في المحتل الغاصب وسيرته بمصر :

يرى نفسه فوق القوانين بينا  
يبيح غداً ما حرّم اليوم بالهوى  
إلاهة جبّار وإمرة خاطل  
يقرب خواناً ويرفع جاهلاً  
متى ما نذكره القوانين يحق  
لغير الهوى في حكمه لم يوفق  
وتدبير أعمى في الحكومة أحق  
ويسعد أشقاها ويشقي بها التقي  
على النهج لم يعدل ولم يترفق  
إذا ما مضى هذا أتى ذاك بعده

وهي قصيدة كل بيت فيها ينطق عن شعور متقد ، وصراحة تامة في كشف  
عورات الإنجليز وسوءاتهم ، وسوء سيرتهم بمصر ، وما لاقت على أيديهم من  
الذلة والمهانة والجهل :

وبالعلم سل (دنلوبهم) لِمَ لَمْ يدع  
ذواقاً من العرفان للمتذوق

وأغلب الظن أنه لم ينشرها غيباً إعلان الحماية ، لأنها اشتملت على حوادث الحرب كلها حتى انتهت ، وربما كان قد بدأها يوم إعلان الحماية ، وسائر بها حوادث الحرب حتى وضعت أوزارها • وثمة قصيدة أخرى قالها حين نفت سلطة الاحتلال أعضاء الوفد المصري وعلى رأسهم سعد زغلول • وهي تدل على جرأة وبأس لم يتأتيا لشاعر مصري قبله ، قيلت والثورة المصرية في عنفوانها ، لتزيدها ضراما ، وتؤجج في كل نفس نارا وسخطا على المحتل الذميمة الذي تنكر لمصر بعد أن ساعدته على انتصاره ، وسخر كل شيء فيها من مال ورجال ليحرز هذا النصر • ولكن لا عجب فهذا شأن الإنجليز دائما ، وما وعودهم في خلال الحرب العالمية الثانية لمصر وغيرها من البلاد التي رزئت بهم بعبدة عنا ، فلما انتصروا أنكروا وعودهم وعادوهم جشعهم الاستعماري ، ولم تتخلص مصر من بلائهم إلا بعد أن أرغموا على ذلك إرغاماً • بيد أنا لم نجد بعد الحرب العالمية الثانية شاعرا مثل عبد المطلب يذكرهم بوعودهم ، وبما قدمت مصر لهم من خدمات ، حيث يقول :

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| أيها السائرون بالوفد مهلا | خبرونا عن وفدنا أين ولئى   |
| مرّ عهد الهوان لا عاد عهد | كان و يلا على البلاد وخبلا |
| مرّ عهد الهوان كم جرّ فيه | أهل مصر بالضييم قيذاً وغلا |

ويقول فيها مخاطباً اللورد ألنبي :

|                              |                             |
|------------------------------|-----------------------------|
| أيها القائد المدل علينا      | قاتل الله من علينا أدلا     |
| ما لمصر تـجـزى جزاء سـنـمّا  | رَ لديكم وبالدينه تبلى      |
| وأراكم لولا بنـيها شـقـيـتـم | من حياص المنون علاً ونهلا   |
| سائلوا الشام هل بغير بنينا   | جبتـم الوعر من فلسطين سهلا  |
| أو مددتـم بغير أبناء مصر     | في بلاد العراق للـفـوز حبلا |
| أنسيتم في مصر ما منحتكم      | من هبات ما جاوزت بعد حولا   |
| أم نسيتم أبناءها يفتك المو   | ت بهم في الوغى وباء وقتلا   |

إلى آخر هذا الشعر العلوي الذي لم نسمع مثله من حافظ ، أو شوقي ، أو

صبري أو غيرهم من شعراء ذلك الجيل ، الذين عاصروا الثورة ، ورأوا حماسة الأمة الفياضة ، وآمالها العريضة تحثهم على الجهاد والموت .

وظل عبد المطلب على صراحته تلك طوال الثورة ، فإذا اشتد الإنجليز ، وطفوا ، وأحكموا الرقابة على القول والنشر ، احتال للتعبير عن آماله وعن شعوره الوطني ، بالرمز كقصيدته على لسان عصفور في قصص<sup>(١)</sup> وغيرها من القصائد ، وإذا عاد ( سعد ) من المنفى استقبله بقصيدة وطنية رائعة . ويموت محمد فريد<sup>(٢)</sup> فيرثيه رثاء الوطني الحزين الذي يعرف فضله على القضية المصرية ، وأنه كان في الرعيل الأول من المجاهدين الذين صلوا بنار الاحتلال ، وضحوا بالأموال ، وبالراحة والأمن في ظلال الوطن ، وآثروا النفي والغربة في سبيل مبدئهم .

ما أنكرت مصرُ ابنها فنَّبتَ به ولكنه دَهَرَ على الحرِ يَجْنِفُ

ويقول معبراً عن شعور ( فريد ) حين فارق مصر :

حَرَامٌ عَلَيْنَا أَرْضُهَا وَسَمَاوُهَا أَلِيَّةٌ مَنْ لَا يَمْتَرِي حِينَ يَحْلِفُ  
وَيَا فَلَكَ بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاكَ أَقْلَعِي فِيمَا الرَّدَى أَوْ يَنْصِفُ النِّيلَ مَنْصِفُ

ويقول عن جهاده :

عَرَفْنَا لَهُ بَرًّا الْوَفَى بَعْدَهَا إِذَا خَانَ قَوْمٌ عَهْدَ مِصْرَ فَلَمْ يَفُوا  
أَفَاضَ عَلَيْهَا نَفْسَهُ بَعْدَ مَا لَمْ يَفُضْ عَنْهَا مَتَاعٌ وَزُخْرَفُ

ويقول حين اعتدى الجنود الإنجليز على قرية العزيزية<sup>(٣)</sup> ومثلوا بأهلها تمثيلاً

(١) ص ١٢٠ من الديوان .

(٢) توفي المرحوم محمد فريد في ١٥ من نوفمبر ١٩١٩ وهو في منفاه ببرلين وقد ظل في المنفى سبع سنوات يكافح في سبيل مصر ، ويعاني الأمراض والفاقة وبود أن تكتحل مقلته برؤيتها ، ولكن لم يسفغه الأجل .

(٣) انقض نحو مائتي جندي بريطاني في يوم ٢٥ من مارس سنة ١٩١٩ على بلدتي العزيزية والبدرشين ، وطلبوا من الأهالي جميعاً نزع أسلحتهم ، وأضرموا النار بعد ذلك في التريتين ، واحتدوا على عفاف النساء وقتلوا كثيراً من الأهالي - راجع ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي ص ١٩٤ وما بعدها .

شنيعةً وساقوهم رجالاً ونساءً إلى العراء ، وأضرموا النار في القرية وعبثوا بشرف النساء ، وقتلوا كثيراً من الرجال :

يا مصرُ ما بالِ الأسى لكِ حالا  
ما عهدٌ ولنسُنْ، أين ولنسُنْ؟ هل درى  
أمن العدالة عنده أن يبتلى  
ما بالِ أبناء الحضارة أوغلوا  
لو أن مفجوعاً يردُّ سؤالاً  
أنا بمصر نكابد الأهوالاً ؟  
شعبٌ يريد بأرضه استقلالاً ؟  
في أرض مصر نكايَةً ونكالا  
إلى أن يقول واصفاً تلك البشائع :

ما لي أقلب ناظريَّ فلا أرى  
ودمٍ يعز على أيِّه مسيله  
وعزيز قوم في الحديد مصفدٍ  
يسعى إلى دار الإِسار وحوله  
ولرُبَّ وجه بالجمال عرفته  
تلك العقائل يرتمين مع الطُّبا  
وأرى ابن (لندن) نحوهن مصوبا  
وارحمتاه لقرية مفجوعة  
محزونة خبا القضا لأهلها  
من غادة غال البغاء عفافها  
في مصر غير نوادب وثكالي  
عشر به أيدي هناك فسلا  
سيم الهوان وحمل الأتقالا  
نذر المنايا بُندقا ونصالا  
لم تثق فيه الحادثات جمالا  
مستقبلاتٍ للردى استقبالا  
بيض الطبا متوثبا مختالا  
والليل يرخي فوقها أسدالا  
تحت الظلال وقية ونكالا  
فبكى الحجاب عفافها المعتالا

وهي قصيدة طويلة تصور أبياتها في إتيان بارع ، وعبارات تشير العبرة ، وتجلب الشجن هذه الحوادث المفجعة ، وتصرخ بالظلم ، وتنطق بآيات الوطنية ، وتحض على الثورة في جرأة وصراحة حتى يكشف هذا الكابوس ، وينجلي ذاك البلاء .

ولم يترك عبد المطلب أي حادثة من حوادث الثورة من غير قصيدة رنانة يترجم فيها عن شعور الشعب ، ويشجعه على الجهاد . ولا نراه يصمت بعد أن تهدأ الثورة

قليلا ، ويؤلف وفد المفاوضات ، بل يترقب المصير ، ويخشى أن يعصف دهاء الإنجليز بما ضحى الثوار من أجله ، فإذا عاد عدلي يكن من مفاوضات مخفقا ، لم يلن لمكر الإنجليز وخبثهم ويفرط في حقوق البلاد ، أقام الناس حفلا يكرمونه على تمسكه بحقوق مصر وسارع عبد المطلب ينظم قصيدة يثبت بها القلوب القلقة ، ويؤيد بها تمسك البلاد بحقوقها الكامل ، وأنشدها في الحفل مهتئا عدلي على موقفه هذا ، وفيها يقول :

|                                        |                           |
|----------------------------------------|---------------------------|
| زعموا سفاهاً أن وحدتنا                 | أمست حديثاً في الوري كذبا |
| لا : والدم الغالي تسيل به              | فوق التراب أسنة" وظبا     |
| لا ، واتحاد الأمتين <sup>(١)</sup> جرى | بين الممالك آية عجبا      |
| لا ، والחסان البيض حاسرة               | والموت يحجّل حولها شعبا   |
| لا ، والشباب النضر في لجبٍ             | يستعذب التعذيب والعطبا    |
| ما إن أصاب بني أبي وهن                 | إن المفرّق بيننا كذبا     |
| أبناء مصر جميعهم بطل                   | ندب" لنصر بلاده انتدبا    |

وقال بعد ذلك في الدستور ، وأول اجتماع لنواب الأمة ، وفي مقتل السردار ، وفي الاعتداء على سعد زغلول ، وفي استقالة وزارة سعد عقب مقتل السردار ، وفي غير ذلك من المناسبات الوطنية العديدة . وكل شعره الوطني يرمي إلى الاستمرار في الجهاد ، ووحدة صفوف الأمة ، ومناوأة الإنجليز في شدة وصرامة حتى تنال حقوقها كاملة . وله نشيد وطني قوي يتقد حماسه .

ومثل هذه النغمات العلوية لم يجرؤ سواه من شعراء طبقته على ترديدها إلا محرم والكاشف . وعبد المطلب<sup>(٢)</sup> يقف بينهم متميزاً في هذا الميدان ، وقد شغل الشعر السياسي جزءاً غير قليل من ديوانه وكان به لسان الشعب المجاهد ، والمعبر عن آلامه وآماله في صراحة وقوة وجزالة .

(١) يقصد الوحدة بين الأقباط والمسلمين .

(٢) انظر ص ٢٨٠ من ديوان عبد المطلب .

أما خليل مطران فقد اتخذ مصر دار إقامة منذ سنة ١٨٩٢<sup>(١)</sup> ، وقد كانت مصر تتمتع بشيء من الحرية الصحفية في تلك الحقبة ، على نحو ما ذكرنا آنفاً ، وقد هاجر إليها كثير من أحرار السوريين الذين فروا من الجو الخائق المخيم على شتى الولايات العثمانية ، ويجثم فوقه شبح الاستبداد الحميدي . وقد كان هؤلاء المهاجرون فريقين ، منهم من يدعو إلى الجامعة الإسلامية ، وينبغي الإصلاح لتركيا حتى تنهض البلاد العربية التابعة لها ، وتسائر موكب الزمن ، وكان أكثر هؤلاء من المسلمين ، وقليل من المسيحيين ، ومنهم من أظهر بالغ سخطه على الاستبداد الحميدي ، ومصادرة الحريات ، ومقاومة النزعات الاستقلالية في البلاد ؛ وأغلب هؤلاء من السوريين والمسيحيين<sup>(٢)</sup> .

ولكن مصر كما علمت فيما سبق كانت تشايح تركيا ، ولا تدعو إلى الانفصال عنها لأسباب عدة ذكرناها في موضعها ، ولذلك كان الاتجاه العام حتى بين السوريين أنفسهم هو عدم تحدي الشعور المصري . وكان خليل مطران من أولئك الذين اضطروا إلى مغادرة بلادهم هرباً بحريتهم ، وعاش في فرنسا ردحاً من الزمن ، ولكنه وجد عنتاً من الفرنسيين بتحريض سفير تركيا ، ووقف متردداً بين النزوح إلى الغرب إلى ( شيلي ) أو الرجوع إلى الشرق ، وفيه مصر مباءة الأحرار ، ومشاهم الأمن . وقد تغلب حبه للعمل في ميدان الإصلاح فأثر الهجرة إلى مصر واتخذها دار إقامة ، وشارك في تحرير الأهرام . وقد دلت كتاباته الصحفية ، وقصائده التي قالها في تلك الحقبة على أنه لم يكن من الثائرين ضد تركيا الداعين إلى الانفصال عنها ، وإنما كان يرجو لها الخير والإصلاح ، وكان يدعو إلى الجامعة العثمانية مع الداعين ، وهو يقول من قصيدته ( فتاة الجبل الأسود ) :

طفت أمة الجبل الأسود على حكم فاتحها الأيّد

فيها ويقول :

وما الترك إلا شيوخ الحرو ب ومرتضعوها من المولد

(١) راجع الدكتور إسماعيل أدهم - خليل مطران ص ٦٨ وهو تصحيح لا قيل من ان مبدا دخوله مصر كان سنة ١٨٩٧ كما ذكرنا في كتاب الادب الحديث ج ١ ص ٣٦٧ ط سادسة .  
(٢) راجع أنيس المقدسي « العوامل الفعالة في الادب الحديث » .

إذا ألقوها الدماء فلا تناج سوى الفخر والسؤدد  
سواء على المجد أيتا تكن عواقب إقدامهم تمجد

وقد فرح كما فرح المسلمون قاطبة بإعلان الدستور العثماني ، وأنشد في حفل  
أقيم بفندق ( شبرد ) ابتهاجا بهذا الحادث الذي كان يعد عظيما حينذاك ، والذي  
رأيت أن شعراء مصر وغير مصر قد هللوا له وكبروا ، وأثنوا على عبد الحميد  
الطاغية ، لأنه منح قومة الحرية ، وهم جند الخلافة والذادة عن حماها ، فقال  
مطران مع القائلين :

يأيها ذا الوطن المفضي تلق بشرا وتمل السعدا  
يا عيد ذكر من تناسى أننا لم نك من آفة العبدى (١)  
كنا على الأصفاة أحرارا سوى أن الرزايا ألزمتنا حدا

وقال من قصيدة أخرى ، يصف فيها كيف تم هذا الانقلاب ، وكيف جاهد  
أحرار تركيا حتى قضوا على عهد الاستبداد ، وما شعور النازحين من ديارهم هربا  
بحريتهم يوم أعلن الدستور ، إلى غير ذلك من المعاني التي أوحى بها هذا الحادث :

حييت خير تحية يا أخت شمس البريه  
حييت يا حريه  
الشمس للأشباح وأنت للأرواح  
كالشمس يا حريه  
كوني لنا عهد سعد وعصر فخر ومجد  
يدوم يا حريه

ويقول عن المهاجرين الذين فروا من الاضطهاد التركي :

---

(١) العبدى : العبد .



من الجِيعِ الظَّماءِ أَلْقَتْهُمْ الدَّمَاءِ  
في كل أرض قصية  
أشَّتات جاء ومجد ضَمْثُوا لأشرف قصد  
قامت به عصيه

ويقول مخاطباً عبد الحميد :

عبد الحميد أصبتا بما إليه أجبنا  
بنيك من أمنيّه  
لا ضير فيها عليك والخير منها إليك  
يعود قبل الرعيه  
ما شارك الملك أمه في الحكم إلا أتمّه  
بحكمة ورويه

وقد تألم العرب بعمامة ، والمسلمون بخاصة ، حين اعتدى الظليان على طرابلس  
المسكينة وأرادوا انتزاعها من يد الدولة العثمانية ، وتصدى لها جنود الأتراك ،  
وهبّ الناس في كل قطر اسلامي يدعون لمساعدتهم ، وإغاثة الجرحى وإسعافهم ،  
فقال داعياً الى إغاثة أهل طرابلس ، مصوراً ما وصلوا إليه من البؤس والفاقة ،  
وما ذاقوه من حرّ الحرب ، وما ارتكبه الظليان من فظائع :

|                              |                                   |
|------------------------------|-----------------------------------|
| وارحمته لقوم فارقوا النّعماء | من غير ذنب لهم واستقبلوا النّقماء |
| لولا بشاشة إيمان تثبتهم      | تخيروا دون تلك العيشة العدّماء    |
| ما حال أم لها طفل بجانبها    | غير المدامع في يوميه ما طعمها     |
| ورضع وجدوا الأنداء لاذعة     | كالجبر فانفطموا واستنكروا الحكماء |
| وغايات أباحتها الخطوب فلو    | لم تعصم النفس ساء الفقر معتصماً   |

ويقول في تلك الحرب كذلك ، عاتبا على المتقاعسين عن نصره تركيا ونصرة أهل طرابلس :

صدقت في عتبكم أو يصدق الثَّمُّ  
يا أمتي حسبنا بالله سخريةً  
إن كان من نجدةٍ فينا تكفُّعنا  
لا تنكروا عذلي هذا فمعذرتي  
نحن الذين أبخنا الراصدين لنا  
لا المجدد دَعْنِي ولا آياته كَلِمٌ  
منا ، وما تقاضَى أهلها الذَّمُّ  
فليكن ذلُّنا ، وليشفنا السقمُ  
جرحٌ " بقلبي دَامٍ ليس يلتئم  
حتى به كانت العقبان تعتمس

وفيها يقول محييا الترك وشجاعتهم :

أبناء عثمان حَفَاطٌ وقد عهدوا  
هم الحماة لأعلاق الجدود فلن  
تاريخ عثمان في الفتح والعِظَمُ  
يرضوا بأن يَنْتَشَرَ العقد الذي نظموا

أما موقفه حيال الاستعمار الإنجليزي ، والأحزاب المصرية قبل الحرب الأولى ، فقد كان من أول الأمر حذراً ، يقف موقف الحيطة ، خشية أن يسيل به الرأي إلى جهة ما ، فيتهم بمناصرتها ، وقد اتخذ هذا الموقف لأنه كان يشعر بأنه دخل في المحيط المصري<sup>(١)</sup> ، هذا إلى محبته للعزلة وإيثاره لها . وقد تجلّى هذا الحياد في المقالات العديدة التي كان ينشرها في الأهرام ، على أنه ما لبث أن خاض غمار السياسة المصرية ، ومال مع الحزب الوطني ، وناصر مصطفى كامل بقلمه ، ولا شك أنه ما قال في الترك ما قال ، ولا سيما قصائده في حرب طرابلس ، وفي الدستور العثماني ، إلا وهو متأثر بسياسة الحزب الوطني ، مع ما كان له من فكرة سابقة وجهاد قديم في سبيل الجامعة الإسلامية . ونلاحظ أنه لم يمدح عبد الحميد ، ويرفع إليه التهاني في الأعياد وغيرها ، كما كان يفعل سواه من الشعراء ، ولم يكن من المنتظر من مثل مطران ، وهو الذي ترك وطنه هرباً من الاضطهاد الحميدي ، ولجأ إلى مصر ليتمتع بحرية الفكر أن يمدح عبد الحميد الطاغية ، بل إن له قصائد رمزية حمل فيها على عبد الحميد الطاغية مثل قصيدة مقتل ( بزرجمهر<sup>(٢)</sup> ) ، والتي

(١) راجع مطران للدكتور إسماعيل أدهم ص ٧٤ .

(٢) الديوان ج ١ ص ١٢٠ ، وراجع روكي زايد العزبي في المجلة الجديدة : م ج ٥ ص ٣٨ - ٤٠ .

في ( مطران والوطنية ) .

يقدم لها بقوله : « اشتهر كسرى بالعدل وكان بلا نزاع أعدل ما يكون الملك المطلق في أحكام بلاده ، فإن كان ما وصفناه في هذه القصيدة إحدى جنایات مثله في العادلين ، فما حال الملوك الظالمين ؟ » •

ونلاحظ أنه في الفترة التي سبقت اتصاله بالحزب الوطني كان ولا شك يغالب شعوره نحو الإنجليز ، فقد وجد أن مصر في ذلك العهد تتمتع بحرية لم يجدها في الشام ، وأن كرومر قد منح الصحافة شيئاً من هذه الحرية ، ولكنه كما ذكرنا كان يخشى أن يجاري بعض المهاجرين من أبناء وطنه في ميولهم الإنجليزية كأصحاب المقطم مثلاً ؛ فيتهم بالميل لحزب من الأحزاب ، ولذلك لا تجد له شعراً في كرومر ، أو في مدح السياسة الإنجليزية بمصر ، وإنما قد انتهز فرصة وفاة الملكة فيكتوريا<sup>(١)</sup> فرثاها بقصيدة أثنى فيها ثناء جما على أبناء التاميز ، وأشاد بقوتهم وعظمتهم كما رثاها حافظ إبراهيم حين كان متأثراً بسياسة أستاذه الشيخ محمد عبده<sup>(٢)</sup> . وفي تلك القصيدة يقول مطران<sup>(٣)</sup> :

بَسُوْكَ فُروْعٌ للعلی وأصول وملكك ما للشمس عنه أفول  
وسعدك في الأمثال سار ولم يكن له في سعود المالكين مثل

ويظهر أن طبيعة مطران كانت ميالة إلى الوطنية الصادقة ، ولا شك أن مصر والشام كانتا في حالتين متشابهتين في جهاد كل منهما في سبيل الحرية ، فكان يجد في الوطنية المصرية صدىً لما في نفسه من نزعة للحرية ومتفئساً لآمال كبتت يوماً ما ، وقد وجد في مصطفى كامل زعيماً قوياً ، ومجاهداً صادق الجهاد ، لا يدخر مالا ، أو شباباً ، أو حياةً في سبيل مبدئه ، فناصره ، فوجد له قصيدة قالها في افتتاح مدرسة مصطفى كامل وقد تحولت إلى كلية<sup>(٤)</sup> ، ولما مات مصطفى كامل رثاه مطران . وقد قدم لقصيدته في رثائه حين نشرها بالديوان في الطبعة الأولى بقوله : « مصاب الشرق في رجله المفرد ، وبطله الأواحد ، مصطفى باشا كامل ، أيتها الروح العزيزة ،

(١) هي الكسندرينا بنت إدوارد ، ولدت سنة ١٨١٩ ، تولت عرش إنجلترا في سنة ١٨٣٧

وتوفيت سنة ١٩٠١ .

(٢) راجع ديوان حافظ الجزء الثاني ص ١٣٦ .

(٣) ديوان مطران ج ١ ص ١٣٢ .

(٤) راجع الديوان ج ٣ ص ٢٧ .

إن في هذا الديوان الذي اختتمه برثائك ، نفحات من نعمائك ، ودعوات من دعواتك ،  
فإلى هيكلك المدفون بالتكريم ، تحية الأخ المخلص للأخ الحميم ، ووداع المجاهد  
المتطوع للقائد العظيم » .

وهي قصيدة جمعت معاني جمّة ، فمن إظهار لما بلغه المصاب من نفوس  
المصريين بخاصة والشرقيين بعامة ، لفقدهم هذا الأمل المرجّى ، والصوت الذي  
أتى بعد أن رجف المرجفون بأن بلاد العروبة والإسلام تغط غطيظا عميقا ، ولا تهفو  
إلى الحرية فدوى في الخاقين ، وإشادة بعظمة الإسلام ، وأنه دين الحضارة والعزة ،  
وأن دفاع مصطفى عنه كان دفاعا حقا عن دين أهل السيادة ، وأن مثل مطران في  
نضج عقله لا يسعه إلا أن ينبري للدفاع عنه :

ولعلّ حرّاً لا يدين به أنبرى      ليزودّ عنه خضمه المتعسفا  
قد كان للإسلام عهد باهر      نلنا به هذا الرقي مسلفا  
ملا البلاد إنارة وحضارة      ومثى السّاحة عودّه مستنقفا

ويذكر فيها جهاد مصطفى في سبيل مصر ، ويبين مواقفه الخالدات الباهرات :

|                               |                             |
|-------------------------------|-----------------------------|
| مصرّ العزيزة قد ذكرت لك اسمها | وأرى ترابك من حنين قد هفا   |
| وكأنتي بالقبر أصبح منبراً     | وكأنتي بك موشك أن تهتفا     |
| مصرّ التي لم تحظ من نجباها    | بأعزّ منك ، ولم تعزّ بأحصفا |
| مصرّ التي لم تبغ إلا نفعها    | في الحالتين ملايناً ومعتقفا |
| مصرّ التي غسّلت يدك جراحها    | بصيب دمك جارياً مستنزفا     |
| مصرّ التي كافحت لئدّ عثداتها  | متصدرا لرماتها مستهدفا      |
| مصرّ التي سقت الجيوش مناقبا   | ومثى لتكفيها المغير المجحفا |
| مصرّ التي أحببتها الحب الذي   | بلغ الفداء نزاهة وتعففا     |

ثم يشيد بخلق مصطفى كامل ، وقوة قلمه محرراً في صحفه العديدة ، وبقوة  
لسنّه ، وشدة عارضته ، حين يحاجّ خصوم مصر ، ويفحّمهم بالأدلة المقنعة ،  
والبراهين الساطعة ، بحرارة إيمانه ، وقوة يقينه .

تحبي حرارتها ويهدي نورها      متماهل الإشراق أو متخطّفا  
تالله ما أنت الخطيب وإنما      وقف القضاء من المنصة موقفا  
عن نطقه تقع الصروف مواعظا      وكأمره أمر الزمان مُصَرِّفا

إلى غير ذلك من المعاني الجليلة ؛ ولا ينسى الغرس الذي وضعه مصطفى بيده في تربة مصر ، وتعهده حتى نمّاه وكيف يجب على خلفائه من بعده ، بل على المصريين أجمعين أن يحافظوا عليه حتى يؤتي أكله طيبا ، ألا وهو حرية مصر كاملة .

وقد ظل خليل مطران على تعاقب السنين يحفظ عهد مصطفى كامل ، ويشيد بذكراه . وله في سنة ١٩٣٣ قصيدة ألقاها في ذكرى مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم ، ضمنها وصفا رائعا للنهضة القومية ، التي كونت حافظا ، وكيف أن هذه النهضة هي عرش مصطفى كامل وكيف تعهدا بجهاده إلى أن مات ، وبموته كانت الآية التي تم بها استقرارها<sup>(١)</sup> ، وفيها يقول عن حافظ معللا نبوغه في الوطنيات :

ما تجلى نبوغه كتجلي      وقد هب مصطفى للجهاد  
يوم نادى الفتى العظيم قلبى      من نبا قبله بصوت المنادي<sup>(٢)</sup>  
وورى ذلك الشعور الذي كا      ن كميننا كالنار تحت الرماد

يتجلى هذا الشعور كذلك في مرائيه لرجال الحزب الوطني فيرثي محمد أبو شادي وينوه بجهادهما معا في سبيل مصر ، وما لاقيا من غنت وإرهاق :

زمان " قضينا المجد فيه حقوقه      ولم نله عن لهو ورشف رضاب  
محضنا به مصر الهوى لا تشوبه      شوائب من سؤل لنا وطلاب  
فدّاها ولم يكرمه أن جار حكمها      فذل متحاميا وعزّ محاب  
فكم وقمة إذ ذاك الموت مدونها      وقفنا ، وما نكلوي اتقاء عقاب

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٣٦٦ .

(٢) نبا : نبأ ، وبجاني .

وكم كرة في الصّحف والسوط مرهق" كررنا وما نرتاض غير صعب  
ويرثي الشيخ عبد العزيز جاويش فيزفر زفرة حارة ، ويبكي زمن الجهاد ،  
والأيام التي صحب فيها هؤلاء الكرام الأعزة فيقول :

طليوا قراراً أيها الأعلام وعلى ثراكم رحمة" وسلام  
مصرُ التي متم فداها أصبحت وكأنما فيها السرور حرام  
ذهب الأعزة (مصطفى) ورفاقه ما كاد يخلو من شهيد عام

ويرثي علي فهمي كامل<sup>(١)</sup> ، ويرثي أمين الرفعي<sup>(٢)</sup> ، ومحمد فريد<sup>(٣)</sup> ، وغيرهم  
من أعلام الحزب الوطني ، بل يؤيد الأحياء منهم في المارك السياسية ، بعد إعلان  
الدستور ، وها هو ذا يؤيد الأستاذ محمد محمود جلال من رجال الحزب الوطني  
في حملة انتخابية ، ولم يؤيد سواه .

يا من حمدت به اختيا ري في اختباري للصحاب

وهكذا يظهر مطران في شتى المناسبات وفاءه للحزب الوطني ورجاله ، ولعل  
هذا ناشئ من أن عهد جهاده مع الحزب الوطني كان في أيام الشباب ، وهي عزيزة  
الذكريات ، ومن أنه وجد فيه تطرفاً في الوطنية يشبع نهم نفسه التي حرمت الجهاد  
في موطنها الأصلي .

وقد أكرمت مصرُ مطران ، واحتفت به ، وآثره الخديو عباس بعد وفاة  
مصطفى كامل بالعناية والرعاية ؛ فساعده في شغل منصب الأمين المساعد بالجمعية  
الزراعية بعد أن أفلس على أثر مضاربات في السوق المالية ، وشكا حاله في شعره ،  
وأنعم عليه بالوسام المجيدي الثالث في أغسطس سنة ١٩١٣<sup>(٤)</sup> ، وقد أوعز إلى  
إسماعيل ( باشا ) بأبازة الذي اشتهر بأدبه ؛ في أن يوحى للأدباء المصريين والسوريين

(١) الديوان ج ٣ ص ٢٠١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٥ .

(٣) الديوان الجزء الثاني ٢٣٣ .

(٤) مجلة سركيس سنة ١٩١٣ ص ٢١١ .

بإقامة حفل يكرمون فيه مطران، وقد أقيم هذا الحفل في إبريل سنة ١٩١٣ تحت رعاية الخديو عباس ، وناب عنه فيه الأمير ( السابق ) محمد علي ، وأثنى على مطران ثناء جمًّا<sup>(١)</sup> ، وأغدق عليه الشعراء المصريون المشهورون جليل الشاء ، فكرمه شوقي وحافظ وإسماعيل صبري وأحمد نسيم وغيرهم ، ومما قاله الأمير ( السابق ) محمد علي في حديث له<sup>(٢)</sup> . « قد عرفت مطران من عهد والدي حتى الآن ، فرأيت امتناز بانصرافه كلَّ هذا الزمان إلى المحافظة على خطة ولاء مستقيمة لم يحد عنها كل حياته القلمية في مصر ، وهذا الثبات على المبادئ والإخلاص الدائم لمصر والمصريين هو فضيلة يجب اعتبارها وإكرام المتحلي بها » .

وقد كان لعطف عباس عليه أثر في شعره فمدحه بأكثر من قصيدة<sup>(٣)</sup> ، ولكنه بعد أن خلع عن العرش لم يذكره مطران بكلمة خشية سلطة الاحتلال . وقد مرَّت فترة الحرب العالمية الأولى ، وما عاتته مصر في خلالها من عسف وظلم ، وهو صامت لا يتكلم ، فلما اضطرت نار الثورة المصرية ، وظهرت على مسرح السياسة وجوه جديدة ، خصَّ منها بالمحبة والثناء سعد زغلول ، وإن لم يكن له في الثورة وحوادثها الدامية ، وظلم المحتل الغشوم وجبروته أي كلمة ، وأول صوت نسمعه له هو تحية ( سعد ) حين عودته من سيشل<sup>(٤)</sup> بقصيدته التي مطلعها :

خفقت لطلعة وجهك الأعلام ومشت تحيط بركبك الأعلام<sup>(٥)</sup>

ولكنه يقف بعد ذلك من الحوادث المصرية موقعه الأول ، وهو الحياد ، والترقب ، لأن ثمة أحزاباً ، وانشقاقاً في الصفوف ، ويخشى أن يتهم بالميل لهذا الحزب أو ذاك فيجني عليه هذا الاتهام ، والحزبية في مصر قاسية لا تغفر للمرء حسن ماضيه ، وعظيم بلائه في سبيل بلاده ؛ وتراه يرثي زعماء الأحزاب قاطبة : ثروت ، وعدلي ، وسعد ، ولا يقول إلا في الأمور الوطنية العامة كتمثال نهضة مصر ، وعيد

(١) مجلة سركيس ١٩١٣ عدد خاص من مطران .

(٢) مجلة سركيس ١٩١٣ ص ٢٠٧ .

(٣) الديوان ج ١ ص ٤٤ ، ٧٧ ، ج ٢ ص ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٤٢ .

(٤) نقي سعد وصحبه إلى جزر سيشل في ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٢١ وعاد من المنفى في ١٧ من

سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

(٥) الأعلام الأولى : الرايات ، والثانية : كبراء الأمة .

الجلاء ، وتمثال سعد ، وتمثال مصطفى كامل وما شابهها ، وانصرف إلى العمل في خدمة المسرح المصري ، مديراً للفرقة القومية ، وعكف على قول الشعر الخالد .

وثمة شاعر آخر يمثل لونا في السياسة والشعر غير ألوان هؤلاء الذين ذكرناهم ، وهو ولي الدين يكن ، أهمله مؤرخو الأدب والنقاد المصريون ، فلا يعرف عنه الناس إلا قليلا ؛ وذلك لأنه لم يكن ذلك الوطني المصري المخلص ، بل كان من حزب الاحتلال ، ورجال كرومر .

وكان ولي الدين في أول أمره من دعاة الجامعة الإسلامية ، ومن يعنى بشئون تركيا ، أكثر من عنايته بشئون مصر ، ويدعو لتأييد حكومتها ، ويدافع عن عبد الحميد ورجاله . ولما رحل إلى تركيا فيما بين عامي ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ ، وأقام بها ثمانية أشهر غمره فيها عبد الحميد بعطفه ورضاه ، وأنعم عليه بالمرتبة الثانية ، ولكنه شاهد في أثناء مقامه الفساد الذي عم الأداة الحكومية التركية ، والعسف والاضطهاد للأحرار ، والوشاية ، والرشوة ، فرجع إلى مصر حائفا ساخطا على هذا الفساد ، داعياً إلى الإصلاح ، وأنشأ جريدة الاستقامة في سنة ١٨٩٧ ، وجعلها اللسان المعبر للأحرار المهاجرين إلى مصر والذين تمتلئ قلوبهم غيظاً وموجدة على ما لاقوا وما تلاقي أوطانهم من ظلم عبد الحميد ، وعدوان رجاله ، فمنعتها الحكومة التركية بعد قليل من دخول ولاياتها ، وصار يكتب في جريدة المشير<sup>(١)</sup> والمقطم والقانون الأساسي<sup>(٢)</sup> .

وكان عبد الحميد يجد كل الجد في استرضاء هؤلاء الثائرين ، ويعدهم الوعود الخلافة ، ويمنيهم بتحقيق الإصلاح المنشود وإعلان الدستور . فدعا إليه ولي الدين فيمن دعا ، فسافر إلى الآستانة سنة ١٨٩٨ ، وعين في مجلس المعارف الأعلى ، ولكن ما لبث أن سئم تلك الحياة الفاسدة ، فكان على خصام دائم مع رجال الحكومة ، وأخذ يطمعن عليهم جميعاً في الصحف الأجنبية فنفي إلى (سيواس) بالأناضول ، وظل في منفاه إلى أن أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ فعفي عنه ، ورجع إلى مصر . ووجد في

---

(١) أنشأها سليم سركيس اللبناني في الاسكندرية سنة ١٨٩٤ . وقصرها على الطعن في فساد الحكم التركي ، واستبداده ، والطالبة بالإصلاح ، ثم نقلها إلى القاهرة سنة ١٨٩٥ ثم إلى نيويورك سنة ١٨٩٩ بعد ما لقي من حكومة مصر متناً وإرهاقاً وجساً ، وحكم عليه في بيروت بالإعدام غيابياً .

(٢) جريدة سياسية أنشأها صالح جمال في القاهرة سنة ١٨٩٨ ، وكانت تصدر بالتركية والعربية يكتب فيها مع ولي الدين يكن الكاتب التركي محمد قدري .



مصر ( خليفة كرومر ) يحوط هؤلاء الساخطين على تركيا بعنايته ورعايته ، فأخذ ولي الدين بعد عودته يكتب في الأهرام والمقطم والمؤيد والرائد المصري<sup>(١)</sup> والزهور<sup>(٢)</sup> ثم أنشأ جريدة ( الإقدام ) في الاسكندرية سنة ١٩١٣ ، وعين كاتباً في وزارة العدل حتى سنة ١٩١٤ . وبعد أن تولى السلطان حسين عرش مصر لقي منه عطفاً شديداً فعين كاتباً في الديوان السلطاني ، ونعم بقربه ، وخصه بأحسن مدائحه .

قال ولي الدين يكن في أول مقال له بجريدة المقطم بعد عودته من زيارته الأولى لتركيا ، وشاهد عن كتب الفساد الشامل في الادارة الحكومية . « هذا قلم أرن القوس صائب الرمية فلاجرينه حتى لا تبقى من دار الظلم لبنة على لبنة ، وبياض على سواد ، ولأسيرن قوارعه شزباً في كل قائم الأعماق ، شاسع الأطراف ، إلى أن يقول نصير الحمية : لبيك ، ونستريح وإخواننا مما نحن فيه » .

واحتضنته الحكومة البريطانية كما احتضنت غيره من الساخطين على تركيا ، فازداد لها حباً ، وأصبح لا يذكرها إلا بكل خير ، ولا يذكر عميدها اللورد كرومر إلا أشاد بفضله ونعته أحسن النعوت ، ودعاه مصلح مصر ، وأبا المصريين المشفق<sup>(٣)</sup> ، قال في المعلوم والمجهول : « ولا أظن رجلاً يشفق على بنيه إشفاق اللورد كرومر على المصريين ، فهو أبو حريتهم ، ومصدر إنصافهم ، ومورد سعدهم إلا أنه كان يخدم من يحبونه » .

وكان من المناوئين لمصطفى كامل ، ويرى استعاقبه بسياسة فرنسا قبل الاتفاق الودي في سنة ١٩٠٤ خطأ جسيماً ، بل يرى أن فرنسا هي التي خلقت مصطفى كامل ، ويرى أن مصر ليست للمصريين بل هي للعثمانيين فقال عن عبد الله نديم : « وإنما أحدث الخلاف بيننا أنه كان عدواً للعثمانيين ، وهو من قدماء من يقولون « مصر للمصريين » ونحن نقول « مصر للعثمانيين » ، على أن ولي الدين يريد لها ولاية عثمانية محكومة بيد إنجليزية » .

ولعلك ترى من هذه الصورة الموجزة أن ولي الدين من الأدباء الذين فسدت

(١) الرائد المصري انشأها نقولا شحانه اللبناني في القاهرة سنة ١٨٩٦ .

(٢) مجلة سياسية أدبية انشأها في القاهرة انطون الجميل ، والشيخ أمين نقي الدين سنة ١٩١٠ .

(٣) أدباء العرب الجزء الرابع ص ٢٠١ بطرس البستاني ومقدمة دبان ولي الدين لانطون الجميل .

عقيدتهم الوطنية ، والتوت أفكارهم في طرق معوجة ونظروا إلى الأمور نظرة ساذجة ، واغتروا بالحرية الكاذبة التي منحها الإنجليز للصحافة في مصر ، مع أنهم يريدون بينهم الفرقة ويمدون لهم في حرية القول وهو أهون الأمور لديهم ، والقول يُنقّس عن المصريين ، فلا يلجئون للفعل . ولما طال زمن الكبت في خلال الحرب العالمية الأولى وما قبلها ، انفجر الرجل ، وشبت الثورة .

ولقد أردت بذكر شيء عن ولي الدين يكن في هذا المقام أن أعطي صورة واضحة لتأثير السياسة في الشعر ، وإن واجبي وأنا أؤرخ هذه الحقبة ألا أهمل أديبا تموّد الناس إهماله لأنه انحرف عن جادة الحق . لقد نجح الإنجليز بعض النجاح في جذب بعض الأقلام إليهم ، وقد كاد إبراهيم ألا يحظى بلقب شاعر النيل ، وأن يكون بوقاً من أبواقهم ، لولا موت أستاذه محمد عبده ، ولولا أنه مصري فيه بقية من خير جعلته يستجيب لدعاة الوطنية الصحيحة . أما ولي الدين يكن فلم يكن مصرياً كامل المصرية ، كان مصرياً بالوطن والإقامة تركيا بالمولد والجنس والعاطفة ، كانت الحرية التي يدعو إليها ليست حرية مصر وتمتعها باستقلالها التام خالصاً دون الترك والإنجليز ، بل هي حرية القول ، والخوض في تركيا والدعوة إلى أن تظل مصر مقيدة بغلّين : الغل التركي والغل الإنجليزي ، وهذا لعمرى خلط في فهم الأشياء وتسميتها بغير أسمائها الصحيحة .

كان يعد تركيا وطنه الصحيح ، إنه في مصر تركي " مهاجر ، ومصر ولاية تركية في نظره ، وإن تمتعت بشيء من الحرية لوجود الإنجليز بها فلمهم منه الشئ ، وهذا مجمل رأيه السياسي ، واستمع إليه يقول بعد عودته من تركيا لأول مرة يصور ما بها من فساد :

يا وطناً قد جرى الفساد به      متى يرينا إصلاحك الزمن

"دُفِنَتْ حياً وما دنا أجل"      ما ضر لو دافنوك قد دفنوا

عزّ علينا ( فروق ) من قطنوا      فيك فهم في العذاب قد قطنوا

ولما قال شوقي قصيدته المشهورة :

سل « يلدزا » ذات القصور      هل جاءها نبأ البدور

بعد خلع السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ ، ورثى فيها حال السلطان المخلوع — ردّ عليه ولي الدين يكن بقصيدة من الوزن والقافية ، يندد فيها بحكم عبد الحميد ويشتم به ، ويقول في أولها مخاطباً شوقي وعاتباً عليه هذا الشعور الذي يتنافى مع وجهة نظر المهاجرين :

|                     |                    |
|---------------------|--------------------|
| هاجتك خالية القصور  | وشجتك آفلة البدور  |
| وذكرت سكان الحمى    | ونسيت سكان القبور  |
| وبكيت بالدمع الغزير | رلباث الدمع الغزير |
| حامى الثغور الباسما | ت مضيع أهلة الثغور |

ويقول من قصيدة أخرى متشفيّاً في عبد الحميد ، شامتاً به أشنع شماتة :

|                            |                          |
|----------------------------|--------------------------|
| نعم عبد الحميد اندب زماناً | تولى ليس يحمده سواكا     |
| تولى بين أبكار حسان        | تعلّق في غدائرها نهاكا   |
| جعلت فداءها الدنيا جميعاً  | ومذ ملكتها جعلت فداكا    |
| «وطال سراك في ليل التصابي  | وقد أصبحت لم يحمد سراكا» |

أما عن ولائه للإنجليز ومدحه إياهم ففي ديوانه أكثر من قصيدة تنم عن إعجاب وولاء وتضفي عليهم عاطر المدح والثناء ، فثمة قصيدة الى ( تومي إتكنس صديق الحرية وحاميها ) .

|                             |                        |
|-----------------------------|------------------------|
| إلى (تومي إتكنس) مني الثناء | يزيد على الرمل في عدّه |
| يفيد الربيع إذا فاض فيه     | ندى زهره ، وشذا وردّه  |
| فلا يعرف السلم ندأ له       | ولا يقع الحرب في لده   |

ويقول في رثاء الملك إدوارد السابع<sup>(١)</sup> :

|                          |                      |
|--------------------------|----------------------|
| وداعاً أيها الملك الجليل | دنا سفر ومهدت السبيل |
| بكى التاميز صاحبه المفدى | فجاوبه هنا هرّم ونيل |

(١) ولد إدوارد السابع في سنة ١٨٤١ م ، وولى الملك في يناير سنة ١٩٠١ وتوفي سنة ١٩١٠

أبا الأحرار لا ينسأك حرٌّ شبابهمو يجلك والكهول

ويودع ( الجنرال مكسويل ) في سنة ١٩١٦ ويرجو أن يعود ثانية إلى

مصر بقوله :

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| سندكر منك أخلاقاً حسانا   | تزيد على النوى حسناً وطيباً |
| وتتبعك الشاء بكل أرض      | يقوم إذا نزلت بها خطيباً    |
| تودعك الأهله مشرقات       | تحیی في مطالعها الصليبا     |
| لقد أمتعتها بالسلم حتى    | نكاد اليوم لا ندري الحروبا  |
| فعش ( يا مكسويل ) لود مصر | ونرجو بعد ذلك أن تؤوبا      |

وعلى النقيض من هذا الأديب الذي اختلت بين يديه موازين السياسة ، وقيم الأشياء ، فراح يعتسف الطريق ، نجد شاعرين آخرين يجري في عروقهما الدم التركي ، ولكنهما كانا مثلاً عالياً في الوطنية الصادقة على اختلاف يسير بين نهجيهما ، أعني بهما : أحمد محرم ، وأحمد الكاشف .

أما أحمد محرم فقد جمع إلى حماسه الوطنية ، عاطفة دينية جياشة ، والدين - كما ذكرنا آنفاً - يدعو إلى العزة والكرامة والسيادة ، وقد صدق محرم حين قال :

خلق العروبة أن تجد وتدأبا وسجية الإسلام أن يتغلبا

كان أحمد محرم في أول أمره من دعاة الجامعة الإسلامية في ظل تركيا ، وقد عرفت موقف مصر من هذه الدعوة ممثلاً في شعرائها الذين أسلفنا الكلام عنهم ، وفي زعمائها الوطنيين ، ينظر بعضهم إلى هذه النكرة نظرة دينية ، وينظر بعضهم إليها نظرة سياسية ؛ لأن انجلترا الغاصبة لا تملك وثيقة دولية تؤيد بقاءها في مصر ، بينما قد اعترفت الدول جميعاً بمركز تركيا في هذه الديار ، وكان أحمد محرم يتعلق بتركيا لسببين : ديني وجنسي ، استمع إليه يدعو المسلمين جميعاً إلى الالتفاف حول راية الخلافة :

|                               |                              |
|-------------------------------|------------------------------|
| هبوا بني الشرق لا نوم ولا لعب | حتى تعدّ القوى أو تؤخذ الأهب |
| ماذا تظنون إلا أن يحاط بكم    | فلا يكون لكم منجى ولا هرب    |

كونوا بها أمة في الدهر واحدة لا ينظر الغرب يوماً كيف نحترب  
ما للسياسة تؤذينا وتبعدنا عما يضمقوانا حين تقترب  
أعرت بنا الخلف حتى اجتاحت قوتنا وطاح بالشرق ما نجني وترتكب

ولم يكن يصدق أن تركيا ضعيفة ، وأنها سميت في عالم السياسة بالرجل  
المريض ، وأن الفساد قد دب في جسمها كله ، وأنها على وشك الانهيار إن لم  
تتداركها يد الله ، والإصلاح .

وليس يزول ملك الترك حتى تزول الأرض أو تهوي السماء

ويرى أنهم أهل لأن يتولوا شئون الخلافة ، ويراعوا حقوقها ، فهم عنها الذادة  
الأشواوس ، وهم الذين انتهجوا خير منهج ، وفاته أنهم منذ أن خرجوا من ديارهم  
غازين فاتحين للبلاد الإسلامية سبب نكبتها ، وما تردت فيه من جهل وذلل والحلال ،  
ضعفت بضعفهم ، وفست بفسادهم فانهارت حتى صارت لقمة مستطابة لذئاب  
الغرب .

لولا بنو عثمان والشنن شرعوا لما وضع السبيل الأقوم  
سطعوا بأفاق الخلافة فانجلى عنها من الحدثن ليل مظلم  
فهم ولاية أمورها وكفاتها وهم حماة ثغورها وهم هم

وهو الشاعر الوحيد الذي دافع عن عبد الحميد . وأسف أشد الأسف لما  
أصابه بعد عزله في سنة ١٩٠٩ ، وقد أهته وأحزنه أن رأى بعض الناس قد شمتوا  
به وهم الذين كانوا يلهجون بحمده ، ويعيشون في نعمائه :

كان بغاة الجود والمجد لم تقدر عليه ، ولم تهطل عليهم مواهبه  
كان بغاة الشعر لم تغش بأبه بمستعليات تزدهيها مناقبه  
كان الأولى زانوا المنابر باسمه أحلوا بدين الله ما لا يناسبه

ثم أخذ يدافع عنه بحمية ، وقد رأى الأعداء كثراً ، وكل يعدد مثالبه :

ألم يستطر يوماً لخطب مساورم محافظة من أن تسوء عواقبه  
ألا راحم ؟ هل من شفيع ؟ أما كفى ؟ أكل بني الدنيا عدو يفاضبه

أَكَلْ مَا تَبِهِ ذَنُوبٌ ؟ أَكَلَهُ عَيُوبٌ ؟ أَلَا مِنْ مَنَصِفٍ إِذْ نَحَابَهُ ؟

ويحاول أن يرى عبد الحميد مما وصم به ، ويلقي التبعة على أتباعه وأعوانه ، وحاشيته فهم الذين غشوه ، وزينوا له الباطل ، وخوفوه الموت ، وافتروا عليه الكذب ، ولذلك هم أولى بالعقاب دونه .

أليس الأولى غشوه أجدر بالأذى وأولى الورى بالشر من هو جالبه  
هم اكتنفوه بالدسائس وافتروا من القول ما يصمي عن الرشد كاذبه  
وهم خوفوه الموت حتى كأنما يلاقيه في الماء الذي هو شاربه

ولا ريب أن أحمد محرم كان يصدر في مثل هذا الشعر عن نظرة سامية لمنصب الخليفة ويعدده رمزاً لآمال المسلمين ، ولا يريد أن تسوء سيرته في أذهان الناس ، فتستقص الخلافة معه ، وتترزل مكاتبتها في النفوس . وقد لام صديقه أحمد الكاشف لأنه نشر قصيدة تهجم فيها على تركيا بعد أن كان يمدحها ويمدح خلفاءها ويشيد بهم جندها وبلائهم في الحروب ويصور هزائمهم انتصارات ، وسيئاتهم حسنات ، ويعيب عليه كيف يذم بني جنسه ، وفيه دم تركي ، وذلك حين يقول له :

عذلت بني عثمان والعذل يؤلم وملت عن المدح الذي كنت تنظم  
بلى ! ، إنها الأوطان هاجك أنها بأيدي بني التاميز نهب متقسم  
فجرت عَضْباً ذا غرارين مخدماً تسيل المنايا منه أو يقطر الدم  
حنانك في القوم الألى أنت منهم ورأيك في الأهل الذين هم هم

ولما اشتدت الحركة الوطنية بمصر على يد مصطفى كامل ، وظهر من يدعو للقومية المصرية خالصة من دون الترك والإنجليز ، نرى أحمد محرم يلبي الدعوة قوياً صريحاً جريئاً شأن المؤمن الذي لا يرهب إلا الله ، ولا يبالي أصابه الضر فيما يقول أم الخير ، وقد قال في الرد على خطبة كرومر التي رمى فيها المصريين بالتعصب ، وحمل على الإسلام حملة ظالمة قصيدة طويلة مطلعها :

رويدك أيها الجبار فينا فإن الرأي ألا تزدرينا

وطالما تغنى بحب مصر وأمجادها ، بعد أن يؤس من تركيا وتحطم المثل الأعلى  
في نفسه وتقطعت الأسباب التي كانت تصله بها بعد إعلان الحماية على مصر ،  
ثم زوال الخلافة نفسها .

فإن يسألوا ما حب مصر فإنه دمى وفؤادي والجوانح والصدر  
أخاف وأرجو وهي جهد مخافتي ومرمى رجائي لا خفاء ولا نكر  
هي القدر الجاري ، هي السخط والرضا هي الدين والدنيا ، هي الناس والدهر  
بذلك آمنا ، فيا من يلومنا لنا في الهوى إيماننا ولك الكفر

ويقول في قصيدة أخرى :

وهبت الصبا والشئب والشوق والهوى لمصر ، وإن لم أقض حق الهوى مصر

وقد وقف من الأحزاب المصرية موقف الناصح الأمين ، لا يميل به الهوى إلى  
حزب دون آخر ، يحضهم النصيح ، ويستحثهم على الوحدة ، والتمسك بالأهداف  
العليا للقومية المصرية ، استمع إليه ينصح الوفد المصري حين ذهب لأوربا برئاسة  
سعد زغلول للدفاع عن القضية المصرية ، والمطالبة بحقوقها :

وفد الكنانة هل حملت رجاءها أم قد حملت أمانة الأزمان ؟  
الدهر عين والممالك ألسن والنيل قلب دائم الخفقان  
قل للألى وزنوا الشعوب : تذكروا في مصر شعبا راجح الميزان  
وإذا رماك أولو الخصومة فارمهم بالحجة الكبرى وبالبرهان

وإن كان هواه مع الحزب الوطني ، حتى لقد اتهم بأنه من حساد ( سعد ) ،  
مع أنه كان وطنيا مخلصا لا يرتضي أنصاف الحلول ، ولا يقنع إلا بالاستقلال  
الكامل . وقد قال يرد على هؤلاء الذين اتهموه بمناوأة ( سعد ) ، بين لهم رأيه في  
الاستقلال المزعوم ، وأنه كان يرجو أن يكون سعد فوق السحاب ، تنال البلاد  
خيرها واستقلالها التام على يديه ، لا ذلك الاستقلال الذي سماه الاستقلال الذائب .

دعاة الخير والإصلاح مَرَحَى رضيناكم وإن كنتم غضابا

رضيناكم على أن تنصفونا  
أفي الإنصاف ألا توردوه  
زعمتم أننا حساد سعد  
ولو ركب الجواد بمصر سعد  
كفى يا قوم بهتانا وزوراً  
لأتم خير من يترجى لمصر  
وفي استقلالكم ( بعض المزايا )  
وَأَلَّا تَظْلَمُوا الشَّعْبَ الْمَصَابَا  
عَلَى طَوْلِ الصَّدَى إِلَّا سَرَابَا  
وَقَلْتُمْ قَوْلَ مَنْ جَهِلَ الصَّوَابَا  
لَقَلْنَا لَيْتَهُ رَكِبَ السَّحَابَا  
فَقُولُوا الْحَقَّ وَاجْتَنِبُوا السَّبَابَا  
وَلَكِنَّا نَرَى الْعَجَبَ الْعُجَابَا  
وَلَكِنَّا لَمُسْنَاهُ فَذَابَا

لم يكن محرم في الواقع حزياً ، ولكنه كان شديد الحمية في التعصب لوطنه ،  
استمع إليه حين دب الخلاف بين أعضاء الوفد المصري ، وشاعت الفرقة يقول مشفقاً  
على وطنه من هذا النزاع :

إذا اختلفوا أو اتفقوا فإننا  
إذا لم يُحفظ استقلال مصر  
رجاء الشعب — لا الأحزاب تجدي  
نطيع العاملين ونقتديهم  
إذا اعتصموا فنحن لهم حصون  
بأظهرنا وأيدينا جميعاً  
سوى استقلال مصر لا نريد  
فلا سعد يطاع ولا سعيد  
إذا ضاع الغداة ولا الوفود  
ونصرهم إذا اشتد الوعيد  
وإن زحفوا فنحن لهم جنود  
تحصن مصطفى ورمى فريد

لقد كان حب مصر يملك عليه شغاف قلبه ، حتى ليعز عليه أن يفرط في أي  
حق من حقوقها ، وهو الذي قال فيها :

وهبت الصبا والشيب والشوق والهوى  
بلاد حبتني أرضها وسماؤها  
لمصر وإن لم أقض حق الهوى مصر  
حياتي وأجرى نيلها في دمي الدُّرَا

أجل ! كان محرم وطنياً شديد الغيرة على وطنه ، متعصباً في الحق :

ليس التعصب للرجال معرة إن الكريم لقومه يتعصب



لقد غضب حين رضي قومه بالاستقلال الزائف ، وتوَجَّع الجهاد الطويل بالخداع والمداهنة ، ولذلك كان جريئاً في لومه وتعنيفه لساسة مصر حينذاك . ولقد تميز محرم دائماً بالجرأة ، ولما رأى من عباس انحرافاً عن الجادة ، ومهادنة للإنجليز ، واستنزافاً لمال الشعب ، وانصرافاً عن الإصلاح لم يتردد في أن يقول فيه ما كان يعد في ذلك الوقت جريمة ، ويعرض صاحبه للعقاب الصارم .

|                            |                          |
|----------------------------|--------------------------|
| أضر الناس ذو تاج تولى      | فما نفع البلاد ولا أفادا |
| وكان على الرعية شر راع     | وأشأم مالك في الدهر سادا |
| وتدعوه الرعية وهو لاهٍ     | فتصدع دون مسمعه الجمادا  |
| حياة توسع الأحياء عاراً    | وذكر يملأ الدنيا سوادا   |
| فإيه ( يا عزيز النيل ) إيه | أما ترضى للملك أن يشادا  |
| وللشعب المصفد أن تراه      | وقد نزع الأدهم والصفادا  |

وقد قال بيته المشهور يعرض بعباس وقد سمن على دماء الشعب ، بينما صار الشعب هزلاً .

|                           |                       |
|---------------------------|-----------------------|
| رأيتُ الشعب ، والأمثال جم | على ما كان مالكة يكون |
| وأعجب ما أرى شعب نحيف     | يسوس قطيعه راع بدين   |

فإذا كان هذا مبلغ جرأته في تلك الآونة ، على من يتمسح كل الشعراء بأعباه ، ويزجون إليه المدح الكاذب أفيحجم محرم عن نقد سعد وغير سعد إذا ظن أنهم فرطوا في حق بلادهم ! ولقد شرح لنا مذهبه وعلل غضبته كلما مس مصر ضرر أو حاق بها شر في قوله :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| يا نيل والموفون فيك قلائل   | ليت الذئعاف لمن يخونك مشرب |
| أيخون عهدك غادر فيضمه       | ما بين جانحتيك واد مخصب    |
| قتل الوفاء ، فما غضبت وإنما | يحيي الحقيقة من يغار ويغضب |

ولذلك كان متمسكاً في حرص بالغ بشئون السياسة المصرية ، وخطوات ساستها

ولم يدع مقاماً إلا أدلى فيه برأيه ، صادعاً بكلمة الحق ، محذراً ، وناصحاً ومشجعاً ومقرعاً على حسب الموقف الذي يقفه الزعماء والمصلحون .

ولما عاد أعضاء الوفد يعرضون على الأمة مشروع ( ملنر ) خشي محرم أن يكون المشروع خدعة إنجليزية لا تحقق استقلال مصر ، وصاح صيحة قوية يحذر فيها المصريين من نفاق الإنجليز ، فطالبوا وعدوا الوعود ومنوا الأمانى ، ولم يتحقق لهم وعد ، أو ينجزوا أمنية ، كما يحذر المصريين من الفرقة ، فطريق الحق واضحة .

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| يا أيها القوم ماذا في حقائبكم  | إني أرى الشعب قد أودى به القلق |
| جئتم إلينا فباتت مصر راجفة     | مما حملتم وكاد النيل يحترق     |
| لقد أقاموا طويلاً بين أظهرنا   | فما وثقنا بهم يوماً ولا وثقوا  |
| لا يعث اليوم باستقلالكم أحد    | ولا يفركم التضليل والملق       |
| استعبد المال قوماً لو يقال لهم | خوضوا إليه عذاب الله لانطلقوا  |
| برئت من كل ذي نفسين . واحدة    | تأبى القضاء وأخرى همتها الورق  |
| ما كنت أحسب أن يقضي القضاء لنا | يوماً فتختلف الأهواء والطرق    |

ويُفترق ، ويشتد جزعه حين تتصدع وحدة الأمة ، ويجد العدو ثغرة واسعة في صفوفها ينفذ منها إلى مآربه ، ويكثر التهاثر واللجاج فيما بينها ، وتنصرف عن غايتها السامية .

ألست ترى بنيتها في شقاق فما يرجون ما عاشوا اتحادا

ويقول :

|                            |                               |
|----------------------------|-------------------------------|
| هدايتك اللهم إني أرى الألى | هم القادة الهادون شتى المسالك |
| أضن بنفسي أن تسير وراءهم   | وأخشى عليها عاديات المهالك    |

ويقول :

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| شرعوا العداوة بينهم لم يوصهم | دين المسيح بها ولا الإسلام |
| عوت الثعالب أمس حول عرينهم   | واليوم يزأر حوله الضرغام   |

ويسدي لهم النصيحة الخالصة في أن يتحدوا ، ويرأبوا الصدع ، ويجمعوا  
الصفوف .

يا قوم ماذا يفيد الخلف فاتفقوا      وقوّموا أمركم بالحزم يستقيم  
صونوا اليهود وكونوا أمة عرفت      معنى الحياة فلم تعسف ولم تهمل  
يا قوم لا تغفلوا إن العدو له      عين تراقب منكم زلة القدم

ولعمري إن هذه النفس التي تحترق وطنية وألما لما نكبت به مصر في بنيتها كانت  
جديرة بأن تتبوأ مكاتمتها اللائقة بها في عالم الأدب ! لقد حظي حافظ بالشهرة في عالم  
الوطنيات ، مع أنه من عرفت ، ولم يقف لحرّ الوطنية ، وما يلاقيه الوطنيون في  
سبيل مبادئهم إلا أمداً سيراً ، وهو في شعره الوطني لا يشعر بتلك الحرارة التي  
يبعثها في نفسك شعر أحمد محرم . ولكن عيب أحمد محرم ، وعيب الكاشف معه  
أنهما آثرا العزلة بالريف حين فسدت الحياة في القاهرة ، واختلف الناس فيما بينهم  
على المبادئ السامية ، وكان في محرم زهدٌ وغفّة ، وإيمان قوي ، فلم يتملك  
رئيساً ، أو يعرف في الحق لنا أو موارد . وكان حافظ رجل دنيا كثير الاختلاط  
بالناس ، فالتمس له أصدقاؤه المعاذير حين قصّر ، وأغدقوا عليه عاطر الشاء  
حين وفق .

أما أحمد محرم فقد بقي حتى اليوم محروماً القلم القوي الذي يعرض دوره  
بين الناس ، ويعرف به قومه ، وهو الذي آثر الفقر ، والوحدة ، والحرمان في سبيل  
مبادئه ، وكان شاعراً صاحب رسالة ، وكان من أقوى الشعراء ديباجة وأنصعهم  
بياناً . كان عيب أحمد محرم أنه يمثل الفريق الجاد من الأمة ، الذي يشعر بالآلام  
المبرحة وأدوائها المستعصية ، وكان صاحب مثل أعلى في أمة هائلة تطرب للعبث ،  
ويفتنها زبرج الحضارة الغربية ليفتننا عن أهدافنا القويمة . كان شاعر مصر سياسياً  
 واجتماعياً ؛ وكان شاعر العروبة والإسلام ، متعدد النواحي الأدبية ، ومع ذلك كان  
عائراً الجحد في حياته ؛ لأنه لم يتملق العظماء فيمدحهم بالباطل ، ويرثيهم إذا ماتوا ،  
بل كان شاعراً صادق الشعور في كل ما ينطق به ، لا نظاماً يقول في المناسبات ، فلم  
يجد من يدفعه إلى عالم الصدارة كما وجد سواء من الشعراء ، ولنا إليه عودة  
إن شاء الله .

أما صديقه أحمد الكاشف فقد وقف نفسه على الشعر السياسي ، وكان دون محرم في اتساع أغراضه ، إذ وقف نفسه على لون واحد من الشعر . يمدح الترك حين كان مدحهم ديناً ، أو سياسة ، ويشن الغارة الشعواء على الإنجليز على عهد كرومر ، وغورست ، وكنتشر ويمدح عباساً وحسيناً ، ويؤيد الثورة بكل قوة حين اضطربت في أرجاء البلاد ، فإذا ما تصدعت صفوف الأمة ، وصارت أحزاباً وشيماً لا يعتزل الأحزاب كما اعتزلها محرم ، ويسدي لها قول الناصح الأمين ، وإنما ينحاز لفريق الأحرار الدستوريين فيمدح محمد محمود باشا ، ويخصه بكثير من الشناء في مختلف المناسبات ، ويمدح إسماعيل صدقي ، وعلي ماهر وغيرهم . ولذلك سبب خاص يدركه من عرف البيئة التي عاش فيها الكاشف ، فقد كانت أسرة الخطيب بالقرشية ( بلدة الكاشف ) ذات جاه ونفوذ وثروة : وكان شوقي الخطيب في أول أمره نائباً وفدياً . ولم يكن الشاعر في صفاء مع هذه الأسرة كما لم يكن في صفاء مع أسرة المنشاوي من قبل ، فانحاز إلى خصومهم السياسيين علمهم ينصرونه إذا حزبه الضر ، أو اشتدت وطأة خصومه عليه :

ولكن حسب الكاشف قوله في وداع كرومر :

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| ولبثت تبدو في زخارف مخلص  | للقوم تخفي ما اعتزمت وتحجب |
| غافلتهم حيناً فلم يتلفتوا | إلا ونابك فيهم والمخلب     |
| هل أنت فينا فاتح أو وارث  | أو قيم أعلى ؛ وجار أقرب ؟  |
| أتطيل بينهم مقامك جاهداً  | وتقول لم يتعلموا ويهذبوا   |
| وختمت عهدك بالذي اهتزت له | أركان مكة واستغاثت يشرب    |

ويشير في البيت الأخير إلى حادثة دنشواي . واسمعه يقول لكتشنر :

|                             |                         |
|-----------------------------|-------------------------|
| لسنا قطعاً غاب راعيه كما    | كنا ولست الضيفم الفتاكا |
| فأقم بمصر مقام ضيف محسن     | وعليهم أن يكرموا مثواكا |
| واذكر لوادي النيل نعمته عسى | تعطي بنيه بعض ما أعطاك  |

ولقد كان للنهضة القومية كما رأيت أثرٌ بارز في الشعر الحديث ، وكانت النهضة السياسية ويقظة الأمة من العوامل الفعالة في هذا الشعر . ولقد وجد لون جديد من الشعر السياسي في هذه الحقبة ، وهو الأناشيد القومية ، التي يتغنى بها الناس جماعات ؛ وأول من نظمها في الأدب الحديث هو رفاة الطهطاوي كما عرفت

في الجزء الأول<sup>(١)</sup> ، بيد أن شعراء القرن التاسع عشر الذين أتوا بعد رفاة الطهطاوي ، لم يعنوا بهذا النوع من الشعر ، إذ لم تكن الأمور السياسية بمصر على ما يرام . وتوالت عليها النكبات بعضها في أثر بعض ، وانتهت بالاحتلال المشؤم ، ثم بوضع الحماية على مصر ، فلما كانت الثورة القومية ، في سنة ١٩١٩ تبارى الشعراء في وضع الأناشيد القومية . وقد نجح بعضها ، ولم ينجح كثير منها ؛ لأنه يشترط في النشيد القومي : قوة العبارة وسهولتها ، وألا يكون وعظا بل حماسة ونخوة ، وأن يكون موضوعاً على لسان الشعب ، وموافقاً لكل زمان<sup>(٢)</sup> . ولكل أمة من أمم الغرب نشيد وطني تزهو به ، ويتغنى به الشعب في حفلاته العامة ، وينشده الطلبة في المدارس ، والجنود في الميدان ، فهو يعبر عن آمال أمة ، ويث في نفس كل فرد منها الحمية والحماسة ، ويدفعه إلى العمل ؛ إنه صورة مركزة للمثل العليا التي تشدها أمة من الأمم . . . ولقد كان لنشيد (المارسلين) أثر عظيم في الثورة الفرنسية ، وقد ترجمه رفاة بك إلى العربية شعرا ولكن النشيد الذي يصلح لأمة لا يصلح لسواها . وقديما كان الفارس العربي يرتجز البيتين والثلاثة قبل المعركة ليثير في نفسه الحماسة ، ويوهن من قوى خصمه المعنوية ولكنه كان نشيداً فردياً ينشئه صاحبه لساعته .

وقلما تجد شاعراً من شعراء العصر الحديث ليس له نشيد قومي ، فهذا شوقي يشترك في مسابقة للأناشيد ، وتختار اللجنة نشيده ولكن هذا النشيد يموت ؛ لأن العبرة ليست باختيار اللجنة أو باختيار الحكومة ، وإنما بقوة النشيد ، وسيطرته على نفوس الناس ، وبقائه على الزمن ولو لم يعترف به رسمياً ، وقد تعرض نشيد شوقي لانتقادٍ كثير وفيه يقول :

|                               |                         |
|-------------------------------|-------------------------|
| بنى مصر مكانكم تهيأ           | فهيأ مهدوا للملك هيأ    |
| خذوا شمس النهار له حلياً      | ألم تك تاج أولكم مكلياً |
| على الأخلاق خطوا الملك وابنوا | فليس وراءها للعز ركن    |
| أليس لكم بوادي النيل عدنٌ     | وكوثرها الذي يجري شهياً |

(١) راجع ص ٢٢ من كتاب ( في الأدب الحديث ) الجزء الأول .

(٢) الديوان في النقد والأدب للعقاد والمازني ج ١ ص ٤١ .

وقد أوسع الأستاذ العقاد هذا النشيد تجريحاً وطعناً<sup>(١)</sup> وهو على حق في بعض ما قال وإن لم يسلم نقده في مجموعة من التحامل ، ولكن النشيد ليس به هذه القوة التي تكفل له الخلود . وقد وضع محمد عبد المطلب أكثر من نشيد فمن ذلك قوله :

مصر اسلمي مصر لك السلام      والملك والدولة والدوام

مصر لك التاريخ والأيام      والنيل والفسطاط والأهرام

أيام لا مثلك ولا نظام      أنتِ عروس الأرض والبلاد

ولأحمد محرم نشيد بعنوان مصر الحرة قال في أوله :

مصر انهضي فالدهر ساق وقدم      شقي السحاب وارفعي النجم علم

ويقول في آخره معلناً وفاءه لزعماء الحزب الوطني :

نحن الوفاة والكريم من وفي      نصون ما صان (الرئيس مصطفى)

ونفتحي إثير ( فريد ) وكفى      هما إماما الشعب والنيل الحرم

ومن اشتهر بوضع الأناشيد المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وقد تغلب نشيده القومي على كل نشيد سواه ، ولحّن تلحيناً قوياً ، وحفظه الصغار والكبار ثم توجه به إلى سعد باشا زغلول زعيم الحركة الوطنية ، وصار هذا النشيد نشيداً وطنياً لمصر ، وأرى أنه يمثل ما يشترط في النشيد القومي تمام التمثيل ، ولذلك أثبتته هنا نموذجاً لهذا اللون من الشعر .

اسلمي يا مصر إني الفدا      ذي يدي إن مكدتِ الدنيا يدا

أبدأ لن تستكيني أبداً      إني أرجو مع اليوم غدا

ومعي قلبي وعزمي للجهاد      ولقلبي أنت بعد الدين دين

لك يا مصر السلامه      وسلاماً يا بلادي

إن رمى الدهرُ سهامَه أتقيها بفؤادي  
واسلمي في كل حين

أنا مصري" بناني مَنْ بَنَى هَرَمَ الدهر الذي أعيَا الفنا  
وقفَةُ الأهرام فيما بيننا لصروف الدهر وقتني أنا  
في دفاعي وجهادي للبلاد: لا أَمِيلُ ، لا أَمَلُ لا أَلِينُ  
لك يا مصر السلامة . . . . .  
وَيْكَ يا مَنْ رامَ تقييدَ الفَلَكِ: أي نجم في السما يخضع لَكَ  
وطنُ الحرِّ سَمًا لا تَمْتَلِكُ: والفتى الحرُّ بأفقه مَلِكُ  
لا عَدَايا أرضَ مصرٍ بكِ عاد: إِنَّا دُونَ حِمَاكَ أَجْمَعِينَ  
لك يا مصر السلامة . . . . .  
للعلا أبناء مصرٍ للعلا وبمصرٍ شرفوا المستقبل  
وفدى لمصرنا الدنيا فلا تضعوا الأوطان إلا أوْلاً  
جانبي الأيسر قلبه الفؤاد وبلادي هي لي قلبي اليمين  
لك يا مصر السلامة . . . . .

ومما يتصل بالشعر السياسي ، ولا يقل عنه أثراً في الوطنية المصرية ، وإذكائه  
الحمية في قلوب الناشئين ، وصف الطبيعة المصرية ، وتجلية محاسنها والتفني بها ،  
لأنه يجعل المصريين يقدرُون وطنهم ويعشقه ، ويزدادون به تمسكاً ، وفيه فناء .  
وقد فطن لهذا شعراء العرب في جاهليتهم وقلما خلت قصيدة كبيرة من وصف  
الطبيعة العربية برمالها ، وعيونها ، وسمائها وخمائلها ، ووحشها ، وما تثيره في نفس  
الشاعر من ذكريات ، ولا يدعون صغيرة ولا كبيرة إلا التقطتها عيونهم الیقظة ،  
وأذواقهم المرفهة ، وأدارتها عقولهم الواعية ، وأخرجتها وجداناتهم الحية شعراً  
صادقاً في الوصف . حتى حیات الصحراء وذبابها كان لها نصيب في شعرهم ،  
وخلعوا عليها بعض المحاسن . وظل شعراء العرب بعد أن هجروا صحراءهم مفتونين

بجمال تلك الصحراء ؛ لأن الشعر الجاهلي وهو المنبع الذي استقوا منه ، والمدرسة التي تخرجوا فيها ، كان من القوة والصدق في وصف تلك الديار ، وإبراز ما فيها من جمال بحيث لم يجد الشعراء في العصور الإسلامية بدءاً من أن يذكروا نجداً وغير نجد من الأماكن التي فتن بها شعراء العصر الجاهلي •

وقد فطن لهذا النوع من الوصف شعراء الغرب ، وأدباؤهم ، وقلما نجد شاعراً غريباً كبيراً ليس له في مناظر بلاده ، وفي غيرها من مواطن الجمال في أوروبا أكثر من قصيدة ، وهذا النوع من الشعر فضلاً أنه من صميم الشعر القومي السياسي ، فهو عمل فني خالص ، ينطلق فيه الشاعر على سجيته ، لا يحفزه إليه إلا إشباع رغبته الفنية ، وإحساسه بالجمال •

والطبيعة المصرية ليست مملة كما يزعم بعض الناس الذين يدافعون عن أوروبا ، ونزوحهم إليها كل عام ، ففيها مفاتن ساحرة : في ريفها ، ونيلها ، وجداولها ، وصحرائها ، وشطآن بحارها ، وآثارها التي تعد لقدمها جزءاً من هذه الطبيعة ، ثم في شمسها الضاحية ، وهوائها الرقراق ، وأمسياتها ، وتألّق النجوم في سماءها ، وבלابلها وأطيّارها •

وقد فتن هذا الجمال شعراء مصر في القديم ، وإن لم يفيضوا فيه فيقول محمد بن عاصم الموفقي قصيدته التي مطلعها :

أشرب على الجيزة والمقّس من قهوة صفراء كالورس  
ويقول البهاء زهير :

علا حس النواعير وأصوات الشحارير

ويقول علي بن موسى بن سعيد :

انظر إلى سور الجزيرة في الدجى والبدر يلثم منه ثغراً أشنبا  
تتضاحك الأنوار في جنباته فتريك فوق النيل أمراً معجباً  
بيناً تراه مفضضاً في جانب أبصرت منه في سواه مذهباً

وكان الظن أن يلفت هذا الجمال البديع أنظار الشعراء في العصر الحديث ، كما استرعى انتباه الشعراء في العصر القديم ، ولكننا نعلم أنه قد انقضت فترة طويلة



من الزمن ركد فيها الشعر العربي بعامه ، ولم يبق إلاّ "ذمّاء" يسير ، وهذا الباقي في عصر الممالك وأوائل النهضة كان شعراً تقليدياً تغلب عليه الصنعة ، والمحسّنات اللفظية المعنوية ، وكان يقال في الأغراض التقليدية القديمة من مدح ، ورثاء ، وفخر ، وما شاكل ذلك . وقلما انطلق فيه الشاعر ، وتحرر من تلك القيود ، وأفصح عن خلجات شعوره ، وحرّ وجدانه ، وإحساسه بالجمال ؛ وإذا فعل فإنه لم يكن يملك الأداة المعبرة ، لفقره في اللغة ، وعدم مطاوعتها له ؛ لأنه كان في عصر عمّت فيه الجهالة ، وغلبت العجمة على الشعراء والأدباء .

ولا شك أن في وصف الطبيعة المصرية والتغني بها ما يدل على إحساس شديد بمحبة الوطن ، والتعلق به ، والإعجاب بكل ما فيه ، والإعجاب أول مراحل المحبة ؛ وبدهي أن الشعراء في العصور المتأخرة لم يكن عندهم هذا الشعور الوطني ، أو الإحساس القومي ، فلم يلتفتوا إلى الطبيعة وما فيها من جمال وفتنة . وظل الأمر على هذا المنوال حتى أتى البارودي ، فأحيا الشعر العربي بعد مواته ، وابتدأ في أول أمره محاكياً ومقلداً ، حتى تملك زمام اللغة ، وناصية البيان ، ومن هذا النوع التقليدي قوله في وصف الربيع قصيدته التي مطلعها :

رمت بخيوط النور كهربة الفجر ونمّت بأسرار الندى شفة الزّهر

ولا تحس وأنت تقرأ هذه القصيدة بأنه يصف جواً مصرياً ، ولا طبيعة مصرية ، ولكنه ما لبث أن التفت للريف المصري ، فوضحت شخصيته ، وظهرت الألوان المحلية ، وأبدع إبداعاً عظيماً في هذا الضرب من الوصف ، فأحب الريف محبة ملكت عليه شغاف قلبه الحساس ؛ فتراه يصف الصباح المشرق الندي ، ويصف السحب ، ويصف الناعورة ، والقطن ، والطيور المزققة في مثل قصيدته :

رفّ النّدى وتنفّس الثّوار وتكلّمت بلغاتها الأطيّار

أو أرجوزته :

عمّ الحيا واستنّت الجداولُ وفاضت الغدران والمناهل

وقد وفينا البارودي حقه من الدرس في الجزء الأول من كتابنا ، فلا داعي للتكرار ، ولكننا نقول إنه أول من فطن في العصر الحديث لجمال مصر ، وتغنى به في شعره . وإذا نظرنا إلى الشعراء بعده نجدهم يتفاوتون في هذا الباب ، فإسماعيل

صبري على الرغم من رقة حسه ، ودقة ذوقه ، وإرهاق شعوره ؛ ومحبته للجمال ، لا نكاد نجد له في الطبيعة المصرية إلا قطعة واحدة من ثلاثة أبيات مسروقة من ( ابن خروف ) النحوي ونسبها إلى نفسه .

ما أعجبَ النيل ما أبهى شمائله      في ضفتيه من الأشجار أدواح  
من جنة الخلد فياض " على ترع      تهبُّ فيها هبوبَ الريح أرواح  
ليست زيادته ماءً كما زعموا      وإنما هي أرزاق وأرواح

ونفتش في ديوان ولي الدين يكن فلا نكاد نعثر على شيء من الوصف ، ولا على وصف الطبيعة المصرية ، كأنها ليست موجودة ألبتة ، وقد علمت فيما سبق أنه كان غريباً بشعوره عن مصر ، وكان في شغل بسياسياته عن التملي في محاسن الطبيعة وفتنتها .

أما عبد المطلب فكان لفرط إعجابه بالعرب القدماء لا يزال يتغنى بالجزع ، واللوى والرقمطين ، ولعلم :

وحيّ بالجزع ركباً زان منظره      ثورَ الربيع و صوبُ المزن ينسكب<sup>(١)</sup>  
وساجل الورق في تلك الربى وأعد      ذكر اللوى فقلبي باللوى طرب

ويخيل إليك بعد أن تستقرى شعره أنه لم ينشأ في صعيد مصر ، ولم يتلق العلم بالقاهرة وير مناظر الجزيرة الخلابة ، ويشاهد النيل وبعثه للحياة في كل جزء من أرض مصر ، ومن ثقله أرضها .

ومن العجب أن حافظ إبراهيم الذي لقب بشاعر النيل ، لم يهتم بالطبيعة المصرية ، ويصفها ، وتقرأ ديوانه وتفتش فيه علك تعثر على أبيات ولو في ثنايا قصيدة فلا تجد شيئاً من هذا اللهم إلا أبياتاً جاءت عرضاً عند كلامه على نادي الألعاب الرياضية بالجزيرة ، حين إقامة حفلة بدار ( الأوبرا ) سنة ١٩١٦ ، والتي يقول في أولها<sup>(٢)</sup> .

بنادي الجزيرة قف ساعة      وشاهد بربك ما قد حوى  
تري جنة من جنان الربيع      تبدت مع الخلد في مستوى

(١) ديوان عبد المطلب ص ١٨ .

(٢) ديوان حافظ ج ١ ص ٢٢٢ .

جمال الطبيعة في أفقها تجلى على عرشه واستوى

وفيهما يعتب على المصريين أنهم زاهدون في جمال بلادهم ، صادفون عنه ،  
ويؤثرون الجلوس في المقاهي على التمتع بالرياض :

فما بال قومي لا يأخذون      لتلك الجنان طريقاً سوا  
وما بال قومي لا ينزلون      بغير ( جروبي ) و ( باراللوا )  
تراهم على تردهم عكفاً      يبادر كل إلى ما غوى

وإلا ما جاء في ثنايا قصيدة بعث بها إلى صديق له في إنجلترا سنة ١٩٠٨  
وفيهما يقول :

والنيل مرآة تنفّ      س في صحيفتها النسيم  
سلب السماء نجومها      فهوت بلجته عموم  
شفّت لأعيننا سوى      ما شابته منها الأديم

وقد كان أجدى على حافظ ، وهو يملك بياناً خلافاً متمكناً من فصيح اللغة أن  
يعكف على الطبيعة المصرية يخلد آثارها ، ويستقرئ جمالها ، ولا سيما بعد أن  
كمّم المنصب فاه ، فلم يعد يطرق أبواب الشعر السياسي منذ أن عيّن بدار الكتب .  
ولو أن حافظاً اتجه هذه الوجهة لكان أثره في الأدب عظيماً ، ولكن أتى لحافظ أن  
يتجه إلى الطبيعة يتملى مفاتها وهو المشغول بالناس ومنادمتهم ، ولعل الدكتور  
طه حسين وهو من المعجبين به قد وقف على سره إزاء الطبيعة وأنه لم يكن مهياً  
لمناجاتها والتحدث إليها وإظهار جمالها حين قال :

« ولم يكن حافظ عظيم الثقافة ولا عميقها ، فلم يكن من الممكن ولا من  
اليسير أن يتجه إلى تلك الفنون الشعرية الخالصة ، التي تصل بين الشاعر وبين  
الطبيعة ، والتي ليس للسياسة ولا للنظام عليها سلطان ، لم تكن النجوم في السماء  
ولا الرياض في الأرض ولا النيل ولا الصحراء تلهم حافظاً ، لأن حافظاً لم يكن  
شاعر الطبيعة وإنما كان شاعر الناس <sup>(١)</sup> » .

ومن الشعراء المقلين الذين عُنُوا بالطبيعة المصرية وجمالها السيد توفيق  
البكري وله قصيدة ممتعة عنوانها ( مصر )<sup>(١)</sup> ، وفيها يقول :

والنيلُ في لباتها      عقد يلوح مجوهر  
والجو صحو مشرق      وكأنما هو مطر  
والظلُّ من خلل الشمو      س مدرهم ومدنر  
وغصونها لدن تمي      د بما تقلُّ وثمر  
فكأنهن ولائد      في حليها تنكر  
يا جنةً يُجنى الجنى      فيها ويجري الكوثر  
أنا شاعرٌ في وصفها      لكنها هي أشعرُ

ويصف الجيزة ، والأصيل ، والمتحف ، والأزهر والهرمين ، وأخلاق المصريين  
وكرم ضيافتهم ؛ وهي تنبئ عن لفتات شعرية سامية لم تتح لكثيرين . كما أن له في  
وصف الريف قطعاً ثرية هي إلى الشعر أقرب منها إلى النثر مثل ( العزلة )<sup>(٢)</sup> ، وهو  
في مدحه لعباس لا ينسى مصر والتغني بجمالها ، ولكنه كما ذكرنا مثقلٌ وسنعود  
إليه بدراسة تفصيلية في آخر هذا الجزء إن شاء الله .

ولعل شوقي قد قضى حق مصر ، وحق الطبيعة المصرية ، ووفى ما على الشعراء  
من دين أثقل كاهلهم بعد البارودي ، فقد أفاض شوقي حقاً في وصفها وتجلت  
شاعريته الفذة وموهبته الخالقة المقتدرة ، وإحساسه المرهف . وقد ألهمت الغربة  
وحرقتها ، والنفي ولوعته مشاعره ، فاشتاق للوطن ونفث نفثاتٍ حارة من قلب  
مليء بالشوق والمحبة ، من ذلك قصيدته الأندلسية :

اختلاف النهار والليل ينسي      اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

(١) مهاديج اللؤلؤ ص ٨٤ .

(٢) » » ص ١٠٣ .

والتي يقول فيها بيته الخالد :

وطني لو شغلت بالخلد عنه      نازعتني إليه في الخلد نفسي  
شهد الله لم يغب عن جفوني      شخصه ساعة ولم يخل حسي

ويصف الجزيرة وصفاً يجعل الحياة تدب فيها ، ويشخصها كأنها بشر •

هي بلقيس في الخمائل صرح"      من عبابٍ وصاحب غير نكس  
حسبها أن تكون للنيل عرساً      قبلها لم يُجَنَّ يوماً بعرس  
لبست بالأصيل حلة وشي      بين صنعاء في الثياب وقس<sup>(١)</sup>  
قدّمها النيل فاستحت فتواتر      منه بالجسر بين عري ولبنس

ومن ذلك قصيدته :

آذار أقبل قم بنا يا صاح      حي الريع حديقة الأرواح

وقصيدة في النيل :

من أي عهد في القرى تتدفق      وبأي كف في المدائن تغدق  
وله في ثنايا قصائده عشرات المقطوعات في وصف مصر وجمالها كقوله من  
قصيدته التي مطلعها :

يا نائح الطلح . . . . . البيت

لكن مصر وإن أغضت على مقّة      عين من الخلد بالكافور تسقينا<sup>(٢)</sup>  
على جوانبها رفّت تمانناً      وحول حافاتهما قامت رواقينا

ومن روائعه قصيدته في وصف (أنس الوجود) التي يقول فيها :

أيها المنتحي بأسوان داراً      كالثريا تريد أن تنقضاً  
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع      لا تحاول من آية الدهر غصاً

(١) قس : موضع بين العريش والفرما اشتهر بمليح الثياب .

(٢) اللقّة : الحبة .

قف بتلك القصور في اليم غرقى      ممسكا بعضها من الذعر بعضا  
وهو الذي يقول :

فمصر الرياض وسودانها      عيون الرياض وخلقجانها  
وما هو ماء ولكنه      وريد الحياة وشرانها

ويبدع حتى في وصف الصحراء ورمالها :

كان الرمال على جانبيك      وبين يديك ذنوب البشر

ولا عجب فشوقي كما ذكرنا آنفاً كان ذا شاعرية فذة ، وحساسية مرهفة ،  
وكان مولعاً بالجمال يهتز له أينما وجدته ، كما كان مولعاً بالعظمة ، وقد رأى مصر  
تتميز بالجمال كما تتميز بالعظمة ، فأعجب بها ، والإعجاب أول مراتب الحب ؛  
بل أحبها حباً عميقاً .

أحبك مصر من أعماق قلبي      وحبك في صميم القلب نام  
سيجمعني بك التاريخ يوماً      إذا ظهر الكرام على اللثام  
لأجلك رحتُ بالدنيا شقياً      أصدئ الوجه والدنيا أمامي  
وهبتك غير هيأبٍ يراعا      أشدَّ على العدو من الحسام

ولم يقف شوقي من الطبيعة المصرية عند حدِّ تصويرها وإسباغ فيه عليها  
وإبرازها صوراً رائعة تفتن اللب والنظر والسع ، كما فعل البارودي ، ولكنه  
اندمج فيها وشخصها وبعثها حياةً ، فأربى بذلك على من تقدمه وأعجز من أتى بعده .

ومن الشعراء الذين أبدعوا في وصف الريف المصري ، والطبيعة المصرية بعامه  
أحمد محرم ، ومن ذلك قوله في وصف القرية وجمالها من قصيدة طويلة مطلعها :

قم للصلاة على هدىً وصلاح      واسجد لربك فالقر الإضباح  
دنيا بدائع حُسْنِها مجلوة      في منظر بهج وجوَّ صاح  
هذا الجمال الأخضر انتظم القرى      وأظلمها من جاهه بجناح  
كجناح جبريل يظل مرفرفا      في جوه المتقاذف الفياح

تلك الحياة لمن يريد لنفسه ما تشتهي من متعة ومراح

أما خليل مطران فله بعض قطع في وصف الطبيعة المصرية ، ولكننا نشعر ونحن نقرأ شعر مطران في الطبيعة أن هواه كان في بلاد الشام مسقط رأسه ، ومندرج مفعولته ، وأنه فتن بها الفتنة الكاملة ، فلم تدع له نظراً يرى به جمال أرض سواها ، ولا قلباً يتسليم ويهيم بغيرها ، وقد خلّدها في شعره بأكثر من قصيدة ، ونحن إليها تحناناً شديداً ، وتحس ذلك وتشعر به في قوله حين ذهب إليها لأول مرة بعد أن تركها وأقام بمصر :

|                         |                          |
|-------------------------|--------------------------|
| يا وطننا تفديه بالدّماء | والأنفس الصادقة الولاء   |
| ما أسعد الظافر باللقاء  | والقرب بعد الهجر والجلاء |
| إن أك باكياً من السراء  | فإن طول الشوق في التئائي |

وله في بعلبك وذكريات الطفولة قصيدة طويلة<sup>(١)</sup> أضفى على أطلالها من روعة فنه ، وصادق حسّه ، وفيض عاطفته ما يشعرك بشديد حنينه إليها ، ومحبتة لها ، كما فعل شوقي في وصف الطبيعة المصرية . وهنا لا بد لنا من القول بأن العبرة ليست بوصف الطبيعة ، ولكن بالعاطفة التي يلون بها شعره ، فإذا وازنا بين شوقي ومطران في وصفيهما للطبيعة المصرية تجلت لنا محبة شوقي لمصر ، وإبراز جمالها للإجيال من بعده في صورة بالغة الإبداع ، رائعة الرواء ، بينما تجاهل مطران هذه الطبيعة ، أو نظر إليها نظرة سخط وغضب ، أو إذا ألحت عليه بجمالها وهو الشاعر الفتان ، واضطر إلى وصفها جاء شعره فاتراً ، خلّوا من تلك المحبة والنظرة المعجبة ، وعلى العكس من ذلك حين يتكلم عن لبنان أو سوريا ، فهو يكثر التحنان إليهما ويقول في نهر ( زحلة ) قصيدة طويلة :

|                         |                         |
|-------------------------|-------------------------|
| وهاً لذاك النهر خلّف لي | عطشاً مديناً بعد مصدره  |
| يا طالما أوردته أُملي   | وسقيتْ وهي من تصوره     |
| تمتد أيام الفراق وبني   | ظمئي لذاك المنهل الشافي |
| وبمنعمي لهديره اللّجب   | وبناظري لجماله الصافي   |

(١) انظر الديوان ج ١ ص ٩٧ .

ويقول في لبنان :

يا مَنبِت الأرز القديم ومَرَبْضاً      يوم الحفاظ لكل ليث أصيد  
هذي إليك تحية من شَيْق      قد بان طوعا عنك وهو كمبَعَد  
من هالك ظمأ ومأوك قربه      مَرَّتْ به حَجَجٌ ولم يتورَد  
يا مسقطاً للرأس في جنباته      من حرٍّ شوقي جمرة لم تخمد

وقد زار مطران بلاد سوريا ، وجابها بلدأ بلدأ ، ووصفها في شعره : وصف كل مدينة وكل دسكرة ، ولمس تربها ، وقبله ، وطاف بأبنيتها ، يتزود منها قبل أن يرحل عنها<sup>(١)</sup> ومن يكن في مثل حال مطران عسير" عليه أن يجود في وصف الطبيعة المصرية أو آثارها القديمة الخالدة ، بل لا يرى هذه الآثار رمز عظمة ، ودليل فن ، وقوة إرادة وانما هي مظهر ظلم وعسف وإرهاق وتسخير لشعب مسكين .

إني أرى عد الرمال ها هنا      خلائقا تكثر أن تعددا  
صفرَ الوجوه باديأ جباههم      كالكلأ اليابس يعلوه الندى  
محنةً ظهورهم خرس الخطأ      كالنمل دب مستكينا مغلدا  
مجتمعين أبحراً ، منفرعين      ن أنهرأ منحدرين صعدا  
أكلٌ هذي الأنفس الهلكى غداً      تبني لفانٍ جدثا مغلدا ؟

فنظرته هذه تختلف عن نظرة شوقي المحب الذي يرى السيئات حسنة ، ويفرغ ذوب قلبه عاطفة جياشة حين يتكلم عن مصر وأرض مصر وطبيعتها وآثارها . لقد وصف مطران الطبيعة المصرية ، ولكنه نظر إليها في أغلب حالاته نظرة قاتمة مفزعة ، كئيبة تدل على تبرم بها ، وتفور منها . وعلى أن روح التشاؤم تسيطر على شعره ، استمع إليه يصف صعيد مصر إبان الصيف ، وقد يكون الصعيد في الصيف غير محمود ، ولكن المحب يراه جميلاً ، والنيل ينساب ملتوياً يمتة ويسرة ، يتدفق خيراً وبركة ، ويبعث الحياة خضرة نضرة على العبرين ، وتأوي المدن والقرى إلى



حضنه كما يأوي الصغار إلى أمهم الرءوم ، ويثقل على ظهره المراكب رائحة غادية كالآب الكادح يحمل متاعب بنيه من غير سأم ولا ضجر ، وتنتصب الآثار الناطقة بالحضارة العتيقة التي انبعثت على ضفتيه ، والدنيا بعد وسنانه في فجر التاريخ ، هذا هو الصعيد حين ينظر المرء إليه نظرة المتفائل ، البشوش القلب ، المحب لما يراه ، ولكن مطران يقول :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| أوقدَ الصيفُ في الصعيد لظاه  | فأجفَّ الحقول والآجاما       |
| وغدا الناسُ بين جو كثيف      | متردد من الغبار غماما        |
| وفلاةٍ كأنما الرملُ فيها     | شَرَر "مُدَّ لَمعة واضطراما  |
| وكان المياه في النيل تجري    | بخطى أبطأت ونهر تعامى        |
| شبه ذوب الرصاص في الكير يطغى | فإذا ما طغى برفق ترامى       |
| وعرا الأعين الكلالُ ، فأتى   | نظرت حمرةً رأت وقتاما        |
| وكان الثعاس في عصب الأَر     | ض تمشَّى فكلُّ ما دَبَّ ناما |
| وكان الدُمى التي صنعتها      | أمة القبط متعَبات قياما      |

وقصيدته في وصف المساء بالإسكندرية ، وهو على سيف البحر العظيم ، لا تقل في تشاؤمها عن هذه القطعة ، مع أنه لا يماري أحد في جمال الإسكندرية في الصيف ، ولا في منظر الشمس وهي تغيب في البحر ، ولكنه يقول في الغروب :

|                             |                           |
|-----------------------------|---------------------------|
| أو ليسَ نزعا للنهار وصرعة   | للشمس بين ما تم الأضواء ؟ |
| أو ليسَ طمسا لليقين ومبعثا  | للك بين غلائل الظلماء ؟   |
| أو ليس محوًا للوجود إلى مدى | وإبادة لمعالم الأشياء ؟   |

فهو ينظر إلى الدنيا وما فيها بمنظار أسود يحيل الجميل دميما ، والمناظر الأنيقة الفتانة ، رديئة كئيبة ، وليس العيب عيب الطبيعة ، ولكنه عيب من ينظر إليها . ومطران في أحسن حالاته حين يصف الطبيعة المصرية تراه مثبها ، لا يعطي اللون الخاص الذي يميز مصر عن سواها ، وكأنما ينظر إلى شيء آخر غير مصر

حين يصف منظراً وصفاً فيه شيء من الإنصاف ؛ وإذا أعطاك اللون الخاص ، اقتضب الكلام وكأنما يفر من شيء يؤذيه • مثال ذلك وصفه لليلة مقمرة على ضفة النيل في الجزيرة ، وهو منظر شعري خلاب ، كان من حق مطران وهو الشاعر المتفنن أن يصوره تصويراً بارعاً ، ولكنه لا يزيد على ثلاثة أبيات خالية من العاطفة :

|                           |                              |
|---------------------------|------------------------------|
| وليلة بدر صفا جوها        | وباحَ سرُّ السكون الحفيف     |
| وألقت بسمعٍ ظلالُ الريا   | ض لنجوى قلوب بهن تطيف        |
| وصبَّ على النيل شبه السيو | ل مغيرُ الدجى من سناه الضعيف |

ويقول في مغرب شمس بريف مصر ، ولا يعطيك اللون ( المحلي ) فتحسب أنه وصف لأي شمس في أي مكان :

|                          |                         |
|--------------------------|-------------------------|
| وللشمس في المنتهى مغرب   | رأينا به آية من عجب     |
| رأينا من الغيم طوداً رسا | على أققها وسما واشراًبُ |
| بجسمٍ ظلال وقمة تبرٍ     | وسفحٍ تعاريجه من لهب    |
| كان الأشعة أئناءه        | مغاورُ في منجم من ذهب   |

وهو كذلك في وصفه لشروق الشمس في مصر لا يعطيك خصائص مصر<sup>(١)</sup> ، ومطران لم يعجب بجمال مصر ، ولا يرى فيها إلا أنها مضيافة ، خصبة ، هادئة : جوها صحو يساعد على نمو الزرع ، وحرارتها تمرع النبات :

|                       |                      |
|-----------------------|----------------------|
| في مصرَ مصرخة اللهـي  | ف وملجأ المتفرِّع    |
| مصرَ السماء الصحو مصـ | ر الدفء مصر المشبَّع |
| مصرَ التي ما ريع سا   | كنها بريح زعزع       |
| حيث المراعي والندى    | للمرتوي والمرتعي     |
| حيث السواقي الحانيا   | ت على الطيور الرضع   |

## حيث الحرارة ماتوا لربيبها يترعرع

ولا عجب فقد وجد بمصر الأمن ، والدعة ، والجو الجميل ، وحسن الضيافة ،  
ليس بها أعاصير ولا زعازع ، وزرعها نضير ، وخيرها كثير فهو ينظر إليها نظرة مادية  
نفعية ، وهو يشكرها بمقدار ما تسدي إليه من المنفعة :

|                              |                             |
|------------------------------|-----------------------------|
| مصر العزيزة إن جارت وإن عدلت | مصر العزيزة إن نرحل وإن تقم |
| نحن الضيوف على رحب ومكرمة    | منها وإننا لحافظون للذمم    |
| جئنا حماها وعشنا آمنين بها   | مستعين كأن العيش في حثم     |

ومطران يعترف بالسبق لشوقي في وصف الطبيعة المصرية ، وأن الحب العميق  
هو الذي أوحى إليه بهذا الإيداع ، وأنى لمطران أن يبدع إبداع شوقي وليس في  
فؤاده لمصر مثل هذا الحب :

|                               |                          |
|-------------------------------|--------------------------|
| ( شوقي ) إخالك لم تقلها لاهيا | بالنظم أو متباهيا بذكاء  |
| حب الحمي أملى عليك ضروبها     | متأقما ما شاء في الإملاء |
| أعظم بآيات الهوى إذ يرتقي     | متجردا كالجوهر الوضاء    |
| فيطهر الوجدان من أدرانها      | ويزينه بسواطع الأضواء    |

وحسبي ما قدمت في هذا الموضوع ، فإن المقام يضيق عن تتبع جميع الشعراء  
الذين ألهمتهم الطبيعة المصرية وتغنوا بمفاتها وخلدوها في شعرهم .

## - ٢ -

### المظهر الثقافي :

صاحب النشاط السياسي في مصر ، والشعور بوجوب التحرر من ربة  
الاحتلال اهتمام بالغ بالنهضة الثقافية ، حتى تستطيع الأمة أن تجاري ركب الحضارة ،  
وأن تحسن إدارة شئونها الداخلية والخارجية . وقد أشرنا إلى هذا الاهتمام في آخر  
الفقرة الأولى<sup>(١)</sup> وكان أول مظاهره إنشاء الجامعة المصرية بعد أن دعا إليها مصطفى

(١) راجع ص ٥٤ من هذا الكتاب وما بعدها .

كامل أكثر من مرة ولبي دعوته مصطفى كامل الغمراوي ، وعمل على أن يخرج هذا المشروع إلى نور الشمس ، ويصير حقيقة واقعة ، لكي تخرج الجامعة الأمة من سباتها ، وتبث فيها الحياة ، فتستطيع مغالبة الغاصب ، وتخليص البلاد من برائته . وكان أول اجتماع لتحقيق الجامعة في ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٦ بمنزل (سعد زغلول) الذي كان مستشاراً في ذلك الوقت<sup>(١)</sup> ، وسماها الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد (الجامعة المصرية) ، وافتتحت أبوابها في سنة ١٩٠٨ ، واختير (الأمير) أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) رئيساً لها ، واشتدت حركة الاكتتاب لها ، وتوجتها (الأميرة) فاطمة اسماعيل فحبت عليها ٦٦١ فدانة ؛ غير ما تبرعت به من حليها التي قدرت باثنين وعشرين ألفاً من الجنيهات . وفي سنة ١٩١٤ وضع الحجر الأساسي للجامعة بحضور الخديو عباس ، ولم يكن الإنجليز راضين عن هذه الحركة طبعاً ، وكيف يرضون عنها وقد كان من سياسة عميدهم بمصر اللورد كرومر محاربة التعليم الجامعي الذي يعد الأمم للحياة الحققة ، والاهتمام بتخريج آلات صماء تعمل في دواوين الحكومة تحت إمرة مستشاريه كما عرفت في الفصل الأول . وبدأت الجامعة أعمالها بإرسال البعث العلمية إلى أوروبا لإعداد هيئة التدريس ، ودعت بعض الأساتذة المشهود لهم بالرسوخ في العلم ، من جامعات أوروبا المختلفة لإلقاء محاضرات على الطلاب في التاريخ ، والآداب العربية ، والفلسفة والاقتصاد ، من أمثال (الكونت دي جلارزا ، وجويدي الكبير ، ونلليو) ؛ وأنشئت بها مكتبة جمعت لها الكتب من جميع جهات العالم ، حتى صارت اليوم من أغنى المكتبات في الشرق العربي كله<sup>(٢)</sup> . وأخذت الجامعة تمنح الدرجات العلمية في أول نشأتها ، ولكن الحرب العالمية الأولى أثرت في نموها ، كما أثرت في جميع مظاهر الرقي والمرافق العامة . وقد فكرت الحكومة في سنة ١٩١٧ في إنشاء جامعة حكومية ؛ وسارت هذه الفكرة في خطوات عديدة حتى تحققت في ١١ من مارس سنة ١٩٢٥ ؛ مكونة من كليات أربع هي : الآداب ، والعلوم ، والطب ، والحقوق ،

(١) كان عدد المجمعين نحو اثنين وعشرين رجلاً نذكر منهم : سعد زغلول ، وقاسم أمين ، ومحمد راسم ، وحفني ناصف ، واخنوخ فانوس ، وحفني ناجي ، وفتح الله بركات ، وأحمد رمزي ، راجع أحمد رمزي بك في مقال من الجامعة وتأسيسها الأهرام ١٩٥١/٦/١ .

(٢) بها اليوم مائة وسبعون ألف مجلد ، منها مائة وعشرون ألفاً باللغات الأوروبية ، وأربعون ألفاً باللغة العربية ، ومثيرة آلاف باللغات الشرقية المختلفة (تقويم الجامعة ص ٨٠) .

وفي سنة ١٩٣٥ ضمت إليها الهندسة ، والزراعة والتجارة ، وفي سنة ١٩٤٠ سميت بجامعة ( فؤاد الأول ) ، وضمت إليها دار العلوم في ٢٤ من ابريل سنة ١٩٤٦<sup>(١)</sup> ، وبعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سميت جامعة القاهرة .

وقد أفادت الحركة الأدبية بمصر والشرق من الجامعة المصرية إفادة لا تنكر ، إذ أخرجت جيلاً مثقفاً ثقافة حديثة ، ملماً بالآداب العربية ، يجيد البحث ويقدره ، وإن كان عدد الذين نبغوا في البحوث الأدبية ممن تخرجوا في الجامعة لا يزال محدوداً . ولكن الفضل الأكبر كان للأساتذة الأجانب والمصريين ، وتوجيهاتهم للأدباء ، وفي الفصول التي كتبوها في النقد الأدبي ، والكتب التي أخرجوها نماذج في التأليف . كما أفادت الجامعة في الإكثار من عدد القراء الذين يقدرون الأدب ويتذوقونه ، ويسهمون فيه ، أو يعلقون عليه ، وحسبك أن تعلم أن عدد طلبة الجامعة كان في سنة ١٩٢٦ حوالي ٢٠٢٧ طالباً ، وأنهم صاروا في سنة ١٩٥٠ أكثر من ثمانية عشر ألف طالب ، وقد صاروا في سنة ١٩٥٨ نحو ستة وعشرين ألف طالب ، عدا ثمانية آلاف في جامعة الإسكندرية وستة آلاف في جامعة عين شمس<sup>(٢)</sup> . ولا ريب أن كثرة القراء تشجع المؤلفين ، وتشجع دور النشر ، وتروج الأدب ، والطباعة والصحف .

وقد أخذت مصر منذ أن تولت بنفسها شئون التعليم تعمل على نشره بكل الوسائل ، وتكثر من افتتاح المدارس المختلفة ، ثم جعلته بالمجان في المدارس الابتدائية منذ سنة ١٩٤٢ ، وفي المدارس الثانوية منذ سنة ١٩٥٠ ، فاشتد الإقبال عليه ، حتى ارتفعت ميزانية وزارة المعارف من حوالي أحد عشر مليوناً من الجنيهات في سنة ١٩٤٥ إلى أكثر من خمسة وعشرين مليوناً في سنة ١٩٥١<sup>(٣)</sup> .

ولقد أربت على الثلاثين مليوناً في سنة ١٩٥٤ وعلى الأربعين مليوناً في سنة ١٩٥٩ .

(١) تقويم الجامعة ١ - ٤ .

(٢) تقويم الجامعة سنة ١٩٥٠ ص ١٩٤ ، وحديث كامل مرسي ( باشا ) مدير الجامعة . الاهرام

في ٢٤ من فبراير سنة ١٩٥١ وتقويم الجامعة سنة ١٩٥٨ .

(٣) راجع الاحصاء العام سنة ١٩٤٥ ، وميزانية الدولة سنة ١٩٥١ الاهرام ١٩٥١/٤/٢ .

وصحب انتشار التعليم في جميع مراحل نهضة في إخراج الكتب من إحياء وتأليف وترجمة . أما عن نشر الكتب القديمة وإحيائها ، فقد عرفت في الجزء الأول أن أول خطوة جديدة في هذا السبيل خطاها علي باشا مبارك حين ألف هيئة برئاسة رفاة بك الطهطاوي<sup>(١)</sup> ثم حذت جمعية المعارف في سنة ١٨٦٨ حذو تلك الهيئة الرسمية ، وقد ذكرنا شيئاً عن جهودها في هذا السبيل<sup>(٢)</sup> . وفي سنة ١٨٩٨ ألقت جمعية جديدة لنشر الكتب القديمة وإحيائها ، وكان من أعضائها حسن (باشا) عاصم ، وأحمد (باشا) تيمور ، وعلي (بك) بهجت وغيرهم ، وطبعت عدة كتب مفيدة مثل : كتاب الموجز في فقه الإمام الشافعي ، وسيرة صلاح الدين الأيوبي ، وفتوح البلدان للبلاذري ، والإحاطة في أخبار غرناطة ، وتاريخ دولة آل سلجوق وغيرها .

وفي سنة ١٩٠٠ تكونت هيئة أخرى برئاسة الشيخ محمد عبده لإحياء الكتب القديمة النافعة<sup>(٣)</sup> ، فأخرجت كتابي عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، ونشرت كتاب المخصص لابن سيده في سبعة عشر مجلداً ، وابتدأت في طبع كتاب المدونة للإمام مالك<sup>(٤)</sup> .

ومنذ ذلك الوقت دأبت دور النشر على إحياء الكتب القديمة ، واهتمت بها دار الكتب أيما اهتمام . ومن الكتب التي طبعت في خلال الحرب العالمية الأولى صبح الأعشى ، والخصائص لابن جني ، وديوان ابن الدميني ، والمكافأة لابن الداية والاعتصام للشاطبي ، والأصنام لابن الكلبي . وقد تأسست في خلال الحرب العالمية الأولى كذلك لجنة التأليف والترجمة والنشر في سنة ١٩١٤ ، ودأبت منذ ذلك الوقت على إخراج الكتب تأليفاً وإحياءاً وترجمة حتى بلغ عدد ما أخرجته في سنة ١٩٤٨ ما يربي على ثلثمائة كتاب<sup>(٥)</sup> .

ومن الكتب ذات القيمة التي أخرجتها دار الكتب : نهاية الأرب للنويري . ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، والأغاني للأصفهاني ، والنجوم الزاهرة

(١) راجع الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٥ - ٥٦ والأدب الحديث ج ١ ص ٧٤ .

(٢) الأدب الحديث ج ١ ص ٧٤ ط سادسة .

(٣) وكان من أعضائها حسين عاصم ، ومبد الخالق ثروت ، ومحمد النجار .

(٤) راجع المنار ج ٨ ص ٤٩١ ، وتاريخ الإمام ج ٣ ص ٢٤٧ ، والإسلام والتجديد ص ١٨ .

(٥) السجل الثقافي ١٩٤٨ ص ٢٠٩ .

لابن تغري بردي ، وديوان مهيار الديلمي . وتعددت بجانب دار الكتب الهيئات التي تعنى بالنشر حتى بلغ عددها سنة ١٩٤٨ أربعاً وعشرين هيئة ودار نشر .

وقد انتشرت الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية تبعاً لزيادة عدد القراء ، ورقى الأمة حتى بلغ عدد الصحف اليومية بمصر في سنة ١٩٥٠ اثنتين وعشرين صحيفة ، منها اثنتا عشرة في القاهرة وحدها ، وبلغ عدد المجلات الأسبوعية ٢٠٣ مجلات ، خص القاهرة منها ١٥٠ ، وعدد المجلات نصف الشهرية ١٨ ، والشهرية ٨٢ ، والرسمية ١٥ ، والمدرسية ٥٣ ، والصحف المتنوعة بجانب هذا كله ١٥ صحيفة<sup>(١)</sup> ، وقد قصت بعض هذه الأعداد أو زادت في سنة ١٩٥٤<sup>(٢)</sup> .

إن هذه الصحف والمجلات جميعاً تلح على القارئ في أن يقرأ ، وتحاول أن تجذبه إلى القراءة بشتى الوسائل والمغريات . وبعضها يعنى بالأدب الرفيع ويحتفي به ، وبعضها يتلقى الجمهور ، ويشبع نزغاته الرخيصة . ومن المجلات التي كان لها أثر في الأدب وإفادته فائدة جلية سواء بالنقد ، أو بنشر الشعر ، والجيد من النثر في شتى الموضوعات : الهلال ، والمقتطف ، ثم السياسة الأسبوعية ، والبلاغ الأسبوعي ، والجديد للمرصفي ، والرسالة للزيات ، والثقافة لأحمد أمين ، ثم الكتاب التي كانت تصدرها دار المعارف ، ومجلة كلية الآداب ، وصحيفة جماعة دار العلوم ، وكانت كل هذه المجلات الجادة تبذل مجهوداً جباراً في اجتذاب القارئ العربي ؛ لأن الأدب الرخيص يطفئ على الجمهور ، ويجتذبه بيسر ، وهذا يسيء إلى الحركة الأدبية كل الإساءة ، وتلك ظاهرة يؤسف لها أشد الأسف . ولقد يئست كلها أخيراً من هؤلاء القراء ، وأضناها التعب في جهادها المرير فاحتجبت جميعاً إلا مجلة الهلال ؛ لأن الجهد الذي يبذل فيها لا يكافي الربح الذي يعود منها بل كانت تمنى في كثير من الأحيان بخسائر أحنت ظهرها وأعجزتها عن النهوض بسمتها السامية . وهذه ظاهرة يؤسف لها أشد الأسف وإن كان مما يعزينا ببعض الشيء انتشار الكتب الأدبية التي تصدر في صورة ( دوريات ) عن دار المعارف والهلال وغيرها ، وقد رأت الحكومة خلو الميدان من مجلة تعنى بالأدب الرفيع فعملت وزارة الثقافة والإرشاد على إصدار ( المجلة ) والرسالة والثقافة والمسرح وغيرها لتسد بها هذا الفراغ المريع .

(١) السجل الثقافي سنة ١٩٥٠ من ١٨١ - ١٩٩ .

(٢) راجع السجل الثقافي سنة ١٩٥٤ من ٢٢٤ وما بعدها .

وإن حاولت بعض دور النشر سدّ هذا الفراغ بإصدار كتيبات صغيرة كل مجموعة في سلسلة مثل : نوابع الفكر العربي ، ونوابع الفكر الغربي وتصدرهما دار المعارف ، ومثل المجموعات التي أصدرتها الجمعية الثقافية المصرية بإشراف مؤلف هذا الكتاب في الأدب والاقتصاد والدين والنقد وغيرها .

وقد دأبت وزارة الثقافة والإرشاد منذ مدة على إصدار كتب دورية بأثمان رخيصة ، منها مجموعة : اخترنا لك ، واخترنا للطلاب ، وكتب قومية ، وكتب سياسية ، وعيون المسرحيات العالمية ، وغيرها ، حتى تيسر على جمهور القراء شرائها والاتفاع بها .

كما عملت على تشجيع معرض الكتاب العربي في مناسبات مختلفة . . . ويقوم المجلس الأعلى للفضن والآداب بإعطاء جوائز تشجيعية وتقديرية للمؤلفين ، وتعتد الدولة عيداً للعلم كل عام توزع فيه هذه الجوائز ويحضره الرئيس جمال عبد الناصر وكبار رجال الحكومة ، وقد بلغت قيمة هذه الجوائز في هذا العام ١٩٦٤ ثلاثة ملايين جنيه .

وبجانب هذا نرى إقبالاً على المحاضرات الأدبية ، وانتشار قاعات المحاضرات والاهتمام بالأحاديث في المذيع ، حتى بلغ عدد المحاضرات الأدبية والثقافية المتنوعة في عام ١٩٥١ ما يزيد على ألف محاضرة .

وقد انتشرت المطابع العربية في أنحاء القطر المصري حتى زاد عددها عن الألف<sup>(١)</sup> ، وأخذت تزود الجمهور بشتى المؤلفات ، والكتب المترجمة ، والكتب القديمة التي نحا فيها العلماء نحو المستشرقين في الإخراج والتحقيق . وقد بلغ عدد الكتب الأدبية المؤلفة في سنة ١٩٤٧ مائة وثلاثين كتاباً ، وفي سنة ١٩٤٨ ما يقرب من مائة وعشرين كتاباً ، وفي سنة ١٩٥٠ ما يزيد عن مائة كتاب عدا كتب التاريخ والاقتصاد والفلسفة والاجتماع ، والسياسة ، والعلوم ، والدين ، والتصوف ، واللغة ، والمعارف العامة<sup>(٢)</sup> .

ومن أشهر الكتب الأدبية التي ظهرت في السنوات الأخيرة : أبحاث ومقالات

(١) الإحصاء العام سنة ١٩٤٥ المطبوع سنة ١٩٤٨ .

(٢) السجل الثقافي لسنة ١٩٤٨ ولسنة ١٩٥٠ - ١٩٥٢ .



لأحمد الشايب ، وأبو الفوارس لمحمد فريد أبو حديد ، وأدب مصر الإسلامية للدكتور محمد كامل حسين ، وعلى الأثير للعقاد ، وقصصنا الشعبي للدكتور فؤاد حسنين ، والجاحظ لشفيق جبري ، ورحلة الربيع للدكتور طه حسين : وصوت العالم لميخائيل نعيمة ، والنقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور والفتوة عند العرب والمرحبة لعمر الدسوقي ؛ كما ظهر فيض من القصص ودواوين الشعراء والكتب المحققة .

وقد عظمت العناية بالترجمة ، وترجم الجيد والرديء من كل لغة ، فترجمت أميرة بابل لفولتير ، وأقاصيص لكبار كتاب الإنجليز ، والإنسان الكامل ، وجنيها ، وحيرة طبيب لبرناردشو ، وترجم الدكتور طه حسين زاديح لفولتير ، وترجم طعام الآلهة لويلز ، والعالم الطريف لالدس هكسلي ، وفي خلال العصور والآلهة عطاش لأناتول فرانس ، وهنري وريتشارد الثاني والعاصفة لشكسبير عدا ما ترجمه مطران سابقاً ، ومدرسة الزوجات لأندرية جيد ، وسالومي لأوسكار وايلد ، وأناشيد الرعاية لثرجيل ، والحياة والحب وكليوباترة لأميل لودفيج ترجمة عادل زعيتر ، والمتحذلقات لمولير ، والندم لجان پول سارتر وقصة الحضارة ليول ديورانت ومئات غيرها<sup>(١)</sup> . وقد أخذت دار الهلال منذ سنة ١٩٥٢ تترجم أمهات القصص العالمية في أسلوب شائق وطبعات سهلة التناول ، كما ترجم فيض من الكتب في مختلف العلوم . ولقد وفدت على الشرق في سنة ١٩٥٣ مؤسسة (فرانكلين) الأمريكية للنشر وأسهمت في ترجمة أمهات الكتب الأمريكية في مختلف فروع المعرفة ، وقد اتخذت مصر مقرأ لها ، وظهر من منشوراتها عدد من الكتب غير قليل . كما أن وزارة التربية والتعليم بمصر عنيت بترجمة المراجع ذات القيمة في العلوم المختلفة من شتى اللغات ويسرت نشرها وتداولها ، وكذلك فعلت الجامعة العربية ودور النشر الخاصة وظهرت مجموعة الألف كتاب في شتى فنون المعرفة ، كما ظهرت مجموعة الجمعية الثقافية المصرية ، ونوابغ الفكر العربي وغيرها .

ولقد نجم عن كل هذا : عن انتشار التعليم بأنواعه ، وكثرة الصحف والمجلات ، وحركة إحياء الكتب القديمة ، والتأليف والترجمة من كل لغة تياران أديبان في مصر يختلفان بعض الاختلاف في الهدف والآثار ؛ « ظهرت هذه الآثار في الأزهر حين

(١) راجع المصدرين السابقين .

عرضت الكتب القديمة في اللغة والدين والتفسير والحديث والتدريم والفلسفة بنوع خاص ، فاضطرب إيمان الأزهر بالكتب القائمة والعلم المألوف ؛ وأخذوا في ثورة على تلك النظم وهذا العلم لم تزل قائمة ، ولم تظهر ثمرتها في الأزهر بعد . وظهرت بعيداً عن الأزهر أذواق الكتاب والشعراء ، وطائفة من القراء حين قرأوا طائفة من الشعر القديم : جاهليته وأمويته ، وعباسية ، وحين قرأوا طائفة من كتب الأدب التي ظهرت أيام العباسيين ، قرأوا من هذا كله حياة للحس ، والعاطفة والعقل ، وأحسوا بُعد ما بين هذا النحو من الأدب الحي ، وبين ما ألفوه من هذا الأدب الميت ، كما أحسوا أن هذا الأدب القديم الحي ، أقرب إلى نفوسهم ، وأقدر على تمثيل عواطفهم ، وتصوير شعورهم من هذا الأدب الجديد الميت<sup>(١)</sup> . وبجانب هؤلاء الذين تذوقوا الأدب العربي القديم الحي ، ووجدوا في لغته معيناً فياضاً يمددهم بما يعبرون به عن خلجات نفوسهم ، وجدت طائفة تنتكر لهذه اللغة وحاولوا أن يتركوها ، ويلجئوا إلى اللغة العامية ، لأنها في نظرهم أقوى على التعبير عن مقتضيات العصر الحاضر وأقرب إلى فهم الجمهور ، وأدعى إلى نشر العلوم العصرية<sup>(٢)</sup> ، كما أن تياراً قوياً نحو الآداب الغربية وتقليدها قد سرى بين أدباء مصر والبلاد العربية .

وقد فطن إلى أن اللغة العربية في حاجة إلى نهضة وتجديد وإحياء وتعريب كثير من العلماء ، حين انتشرت الحضارة ووجدوا أنفسهم إزاء آلاف من الكلمات والتعبيرات الأجنبية لا يستطيعون نقلها إلى اللغة العربية ، فيقول الشيخ إبراهيم اليازجي : يا ليت شعري ما يصنع أحدنا لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ، ورأى ثمة من المسميات العضوية من أنواع الحيوان ، وضروب النبات ، وصنوف المعادن ، وعاین ما هناك من الآلات ، والأدوات وسائر أجناس المصنوعات ، وما تتألف من القطع والأجزاء بما لها من الهيئات المختلفة والمنافع المتباينة ، وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات .

ثم ما هو فاعل لو أراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والصناعية ، والمكتشفات الطبية والكيمائية ، والفنون العقلية واليدوية ، وما لك ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلاً ولا دقيقاً إلا تد

(١) حافظ وشوقي للدكتور طه حسين ص ٣ - ٤ .

(٢) الأب لويس شيخو في الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين ص ٦٣ .

عليه بلفظ مخصوص ولا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرك له به لسان ، ولا يعهد له بين ألواح معجمات اللغة ألفاظاً يعبر بها عنه ، ولا يغنيه في هذا الموقف كثرة أسماء الأسد والسيف ، والعسل ، والعيير » (١) •

ويقول فتحي زغلول ( باشا ) حاثاً على التجديد في تلك اللغة التي ورثناها عن آبائنا ، والتي مثلت حضارتهم أيما تمثيل ، ولكنها اليوم عاجزة عن أداء كثير من حضارة الغرب : « نحن إما عرب ، ومستعربون ، أو أجنب عن لغة العرب ، أو مولدون ، فإن كنا الأولين فلنا حقنا في التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا ، وإن كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة ، وبكوننا ورثناها عنهم بعد أن بادوا ، فليس من له أن ينازعنا في استعمال ما كان مباحاً لآبائنا من قبلنا ، وإن كنا أجنب أو مولدين ، فمن له أن يسيطر علينا ويحرمانا ثمر الكد في حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات ، فيلزمنا بالبقاء على القديم ، وبحكم علينا بالجمود ، واعتقال اللسان ؟ »

أخذ العرب العلوم عن أهلها ، ونقلوها إلى لغتهم ، فلما وجدوا منها استعصاء في بعض المواضع ذللوها ، وأخضعوا الغريب عنها لأحكامها ، فأيسرت ، ودرجت بعد الجمود ، فكانت لهم نعم النصير على إدراك ما طلبوا من نور وعرفان •

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم ، فكانوا أصحاب حول وطول ، وذوي مجد وسلطان ، ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء • على أنهم في عزهم ، وبعد فخارهم ، وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم ، فلم ينفروا من العجمة لأنها عجمة ، بل استخدموها حيث وجب الأخذ بها تمكيناً للغتهم ، وحذراً من أن يصيبها الوهن إذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم ، وهم أولو الرأي فيه ، وخوفاً من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم ، بين الأمم التي كانت تعاصرهم •

ليس لنا أن نتمسك بالقديم لقدمه ، وإن أصبح عديم الجدوى ، وإلا فأولى بنا أن نكف عن الدرس والمطالعة ، وأن نكتفي من كل شيء بما ورثنا عن الآباء لنعيش كما عاش الأولون •

عليكم بالتقدم ، فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ، ولا تتأخروا فليستم وحدكم في هذا الوجود ، ولا تقدم لكم إلا بلفتكم ، فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون ، لكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس والمعقول ، ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك ، أو التجوز ، ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمه تهددها على ألسنة العامة ، وهي لا تلبث أن تدخل على ألسنة الخاصة . أقيموا في وجه هذا السيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة ، والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين<sup>(١)</sup> » .

ويقول الشيخ محمد الخضري ( بك ) : « وأما عدم الحاجة إلى مزيد ؟ فهذا لا تدعيه لغة من لغات الأمم الحية ، لأن الأمم كلما كثرت حاجاتها وتجددت ، اضطرت إلى المزيد من الألفاظ في اللغة ، وهذا هر سر الحركة الدائمة في لغة الأفرنج بحيث ترون مجامعهم في شغل دائم ، لا يأنفون أن يجدوا يوماً ما في لغتهم كلمة زائدة دلت على معنى جديد ، وأكثر أحوالهم الاستعارة من غير لغتهم . وإذا كنا نرى عقولنا قد وقفت عن الاختراع ، فإننا نرى أنفسنا في حاجة إلى استعمال مخترعات المخترعين والتعبير عنها »<sup>(٢)</sup> .

وقد حاول بعض العلماء قبل الحرب العالمية الأولى تكوين مجمع لغوي يضع كلمات جديدة ، أو يعرب أو يشتق من الكلمات القديمة لتساير اللغة موكب الحضارة الجارف ، وقد تكون هذا المجمع فعلاً قبل الحرب العالمية الأولى برئاسة أحمد لطفي السيد ووضع بضعاً وعشرين كلمة اشتهر بعضها ومات كثير منها<sup>(٣)</sup> ثم انفض واجتهد كثير من المعربين في وضع كلمات جديدة ، ولكن المسألة صارت فوضى ، فقد توضع أكثر من كلمة لمدلول أجنبي واحد . وأخيراً أنشئ مجمع (فؤاد الأول) للغة العربية ، في ١٣ من ديسمبر ١٩٣٢ ، وقد سمي في سنة ١٩٥٤ مجمع اللغة العربية . وأهم أغراضه المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ،

(١) مخنارات المنفلوطي من ص ١١١ - ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٧ .

ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر وأن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية ، وأن ينظم دراسة علمية لهجات العربية الحديثة وأن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة » (١) .

ولقد كان للاهتمام باللغة أثر عظيم في تزويدها بكثير من الكلمات الاصطلاحية والفنية والأدبية التي تعوزها ، وسهل النقل نوعاً ما من اللغات الأجنبية ، ولا سيما في الأدب . وهذا هو البستاني (٢) ينقل لنا الإلياذة هوميروس شعراً في مستهل هذا القرن ! ويجدر بي أن أعرف بهذه الترجمة وبالمجهود الفذ الذي بذل فيها ، فقد ابتدأ البستاني ينظم الإلياذة في أواخر سنة ١٨٨٧ ، وهو بالقاهرة تقلا عن الترجمات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، ثم بدا له أن ينقلها رأساً عن الأصل اليوناني ؛ فدرس اليونانية على راهب يسوعي حتى أحكمها فراجع ما كان ترجمه ، وتصح ما فيه من الخلل ، وكانت الإلياذة ترافقه في أسفاره الكثيرة حتى انتهى من نظمها في ١٨٩٥ ، ووضع لها شرحاً ، فكان عمله شاقاً راجع من أجله كثيراً من الكتب العربية والأعجمية في الشعر والأدب والتاريخ . ويتضمن الشرح نحو ألف بيت لمائتي شاعر عربي بين جاهلي ومخضرم ، وإسلامي ومولد ، قالوا في مثل معاني الإلياذة أو حوادثها ، ويشتمل على طائفة كبيرة من أساطير العرب ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم في بداوتهم وحضارتهم . وكان انتهاؤه منه في سنة ١٩٠٢ ، وطبعت الإلياذة وشرحها في القاهرة في ربيع سنة ١٩٠٣ ، ونشرت بمقدماتها وفهارسها ١٩٠٤ وهي تشتمل على نحو أحد عشر ألف بيت ، ذلّل فيها الشعر العربي وأوزانه للملاحم الطويلة . ومن المعلوم أن القيام بنظم مثل هذه الملحمة الطويلة لا يتأتى إلا إذ تحرر الشاعر من عبودية الوزن الواحد ، والقافية الواحدة ، وهكذا صنع البستاني ، فإنه جعل الأناشيد على طرق شتى فمنها ما قطعه قصائد مختلفة ، ومنها ما نظمه قصيدة واحدة من غير أن يرعى القافية الواحدة ، وتوسع في اتخاذ الموشحات والأراجيز والمخمسات ، وفي استنباط ضروب جديدة كالمثنى والمربع والمثنى وما أشبه ، وحاول

---

(١) راجع صحيفة المجمع اللغوي العدد الأول الفقرة الأولى ، والسجل الثقافي سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨

ص ٢٣٨ .

(٢) هو سليمان بن خطار بن سلوم بن نادر البستاني ولد سنة ١٨٥٦ ، وتوفي سنة ١٩٢٥ .

على قدر المستطاع أن يراعي لكل نوع مقاما ، ولكل موضوع بحراً<sup>(١)</sup> .

وقد أعطى البستاني بإخراجه الإلياذة شعرا نموذجاً قوياً الأسلوب مشرق الديباجة للشعراء الذين يحاولون نظم الملاحم ، أو نظم المسرحيات ، وكيف يتصرفون ، ويتحللون من نظام القصيدة ؛ ونحن لا يعنيها الآن الخوض في قيمة الإلياذة ، وأثر نقلها في اللغة العربية بقدر ما يعنيها تلك الطريقة التي ترجمت بها ، والمقدمة التي كتبت لها . فقد كانت درساً جديداً في مستهل هذا القرن لدراسة الأدب ، والنقد الأدبي ، على غير ما ألف تقاد ذلك الوقت ، من الاهتمام بالألفاظ والمعاني وائتلافهما وأوجه البيان ، والأخطاء اللغوية ، وما شاكل ذلك ، بدون درس وتحليل ، ومعرفة العلل والأسباب والنتائج ، والموازنة بين الآداب بعضها وبعض ، ولذلك كانت هذه المقدمة ذات أثر جليل في النقد الأدبي ، ولا زالت حتى اليوم تحتل هذه المكانة لدى من يقدرونها قدرها .

ولا ريب أن انتشار التعليم وكثرة المطابع ، والمؤلفات ، والكتب المترجمة من شتى اللغات في الآداب والعلوم ، قد أفاد الأدب فائدة عظيمة لأن ثقافة الأديب قد اتسعت آفاقها ، وثقافة القارئ لم تعد تقنع بالشعر التافه ، الخالي من المعاني ، أو بالشعر التقليدي الذي لا يمثل حياة الأمة ، ولا يعبر عن مشاعرها ، ولا يغذي عواطفها . ولقد اشتد بعد الحرب العالمية الأولى الإقبال على تقليد الآداب الأوربية في موضوعها ، وطريقتها ، وقالبتها فانتشرت القصة بأنواعها ، وكثرت الترجمة لها ثم محاكاتها ، ونقلت مسرحيات عديدة مثلت في دور التمثيل المصرية ، وأخذ الأدباء ، ومحترفو التمثيل يضعون على نمطها مسرحيات تعالج مشكلات المجتمع المصري<sup>(٢)</sup> . وليس من همي في هذا المقام أن أفيض في الكلام على القصة ، أو المسرحية ، أو

(١) راجع مقدمة الإلياذة للبستاني ، وأدباء العرب لبطرس البستاني ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ومجلة المشرق

للأب لويس شيخو ١٩٠٤ ص ٨٦٥ وما بعدها .

(٢) مثل محمود تيمور في رواياته الشيخ جمعة ، والحاج شلبي سنة ١٩٣٠ ، والشيخ هفا الله ، وأبو علي سنة ١٩٣٤ ، والوثبة الأولى . ومثل قصص عبد القادر المازني في صندوق الدنيا ومثل مسرحية ليلة كليوباترا للدكتور حسين فوزي والضحايا لانطون بريك ، والوحوش لمحمود كامل ، والانانية لابراهيم المصري ، ومن أهم المسرحيات التي كان لها أثر في المسرح المصري ( مصر الجديدة ) ومملكة اورشليم وصلاح الدين ( لفرح انطون المتوفى سنة ١٩٢٢ ) وفيينا هذا الموضوع حق في كتابنا ( المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها ) .

المقالات النثرية ، أو الكتب الأدبية التي تأثرت بطريقة البحث الغربية ، من حيث التمهيد والتحليل ، والتعرف على الأسباب والعلل والوصول إلى أحكام واستنباطات صحيحة أو قريبة من الصواب على الأقل ، فإن غايتي الآن أن أدرس العوامل المؤثرة في الشعر .

لقد اطلع الشعراء على الكتب المترجمة ، وعرفوا ألواناً من الأدب الغربي ، وكثير منهم كان على صلة بهذا الأدب من غير وساطة ، فحاولوا التجديد في أسلوبهم ، وموضوعاتهم وحاولوا الخروج على تقاليد الشعر العربي القديم ، أو التجديد في أغراضهم ومعانيهم . وقد خطا شوقي أمامهم خطوة واسعة بوضعه عدة مسرحيات تاريخية شعرية ، وهم اليوم ينسجون على منواله ؛ وظهرت مذاهب أدبية جديدة في الشعر القديم ، حمل لواءها مطران ، وشكري ، والمازني ، والعقاد ، وشييبوب ، وجاراهم شباب الأدباء .

وأهم ظاهرة تستحق التسجيل هي العناية باللغة العربية ، والأسلوب ، وبلغ هذا الأسلوب غايته عند شوقي في الشعراء ، وإن كان شعراء المدرسة الحديثة يؤثرون الاهتمام بالموضوع والمعاني على الاهتمام باللفظ والأسلوب ؛ ولكن يظهر أن طبيعة الشعر العربي تتطلب جودة الأسلوب وحسن النظم ، وجمال الموسيقى ، ولذلك لم تستسغ الأذان ، أو لم تتعود بعد شعرهم هذا ، فلم يلاقوا من الشهرة والإقبال ما قدروا لأنفسهم .

وقد كان من أثر هذه الثقافة العامة الواسعة للشعب أن ارتفعت الأغاني ، ونظم كثير منها باللغة العربية الفصيحة ، وتركت ( الأدوار ) و ( المواويل ) التي كانت تنظم بالعامية . ومن يتصفح ديوان إسماعيل صبري يجد بآخره مجموعة من الأغاني التي نظمها الشاعر باللغة العامية ، مجارة لزمناه ، وجمهوره ، ولكننا منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى حتى اليوم قد ألفنا سماع كثير من الأغاني الجيدة بالشعر العربي الفصيح ، والفضل في ذلك لشوقي ، واختياره أبرع الموسيقيين لتلحين تلك القطع الرائعة من الشعر الغنائي التي جاءت في رواياته المسرحية مثل ( أنا أنطونيو ) ، ومن غير مسرحياته مثل : « يا شرعاً وراء دجلة » ، « وبني مثل ما بك يا قمرية الوادي » . وحظي شعر شوقي بعد وفاته بإقبال المغنين عليه ، يختارون منه القطع الرائعة ، كهج البردة ، والهمزية ، والسودان . وحذا الشعراء حذو شوقي ، وأقبلوا

على وضع القطع الغنائية باللغة الفصيحة ، واستساغ الشعب هذه الأغنيات ، وحفظها ورددتها ، وذلك ولا شك رقي بذوقه اللغوي ، ونهوض به . ونرى المغنين حين تعوزهم القطع الغنائية الجديدة ، ينقبون في الشعر العربي القديم على القصائد التي تصلح للتلحين الحديث ، وهكذا نهض الغناء نهضة تبشر بأن ذوق الأمة سائر نحو التهذيب الصحيح ، وأن اللغة العربية في طريق السيادة التامة ، حتى على السنة الجمهور .

وكررت كذلك العناية بكتب الأطفال ، وتزويدهم بالشعر السهل الذي تتلاءم معانيه وأخيلتهم ومداركهم . وقد اهتم شوقي بهذا النهج ونظم عشرات القطع السهلة خرافية وغير خرافية ، ترمي إلى التهذيب ، والترويح عن الأطفال . وسار كثير من الشعراء على نهجه ، وأخذوا في نظم الشعر المدرسي للأطفال ، حتى صار عندنا فيض منه ، وهذه لعمرى ظاهرة تستحق التقدير ؛ لأنها تعود التلميذ من الصغر على قراءة الشعر ومحبته ، وتطبع لسانه على اللغة الفصحى ، لأن الشعر أسهل حفظاً ، وأيسر تذكراً من سواه . كما وضعت المسرحيات المدرسية الشعرية التي يقبل الطلبة على تمثيلها بسرور وإتقان . ومن الذين اشتبهوا بنظم الشعر السهل الملائم للأطفال في صورة مقطوعات محمد يوسف المحجوب وفريد العمروسي وعبد العزيز عتيق وعلي عبد العظيم كما أن علي عبد العظيم ومحمد يوسف المحجوب اشتهرا بالمسرحيات الشعرية المدرسية .

وعينت وزارة الشؤون الاجتماعية بالمسرحيات الشعرية ، وغير الشعرية ، وخصصت في كل عام جائزة لأحسن مسرحية ، فجد الشعراء في وضع المسرحيات الجيدة<sup>(١)</sup> كما عني مجمع اللغة العربية بتخصيص جائزة مالية كل عام للشعر ، وهذا كله يحفز الشعراء على التجويد والعمل .

هذه لمحات سريعة ، وإشارات عابرة لما كان للنهضة القومية من أثر في ميدان الثقافة ، وما كان لها من أثر على الشعر ، وكما كنت أود أن أسوق أمثلة ونماذج أؤيد بها ما ذكرت ولكنني سأكتفي بهذا القدر ، مرجئاً تلك النماذج إلى حين دراسة الشعراء ، والتحدث عن ثقافة كل شاعر ، ومقدار ما أفاده من تلك النهضة الشاملة ، حتى لا أضطر إلى التكرار .

(١) من ذلك مسرحية ولادة للشاعر علي عبد العظيم ، وغرام يزيد ، والروءة القنعة للشاعر محمود خنيم .



## المظهر الاجتماعي :

ومن أهم مظاهر النهضة القومية المظهر الاجتماعي ، فالشعب هو المعين الذي يزود الأمة برجالها الحاكمين ، وساستها القادرين ، وزعمائها المصلحين ، وعلمائها الأعلام ، وكتابها المرشدين ، وشعرائها المجيدين ، ومهندسيها البارعين ، وأطبائها الأفاضل . وهو ثروة معنوية عظيمة ، وكثر ثمين ، والشعب اليقظ الفطن ، المثقف ، الحريص على منفعة هو الذي يوجه الأمة في مجموعها وجهة صحيحة نحو الرقي لا يسمح لأحد أن يعث بمصالحه ، أو يتغفله ، أو يبرم أمراً لا يرضيه . وللشعوب في أوربا مهابة عظيمة ، يترضاها الزعماء والحكام والكتاب ، ويسعى الكل جادين على إنهاضها ورقيقها ، فهي حصن الأمة حين الفزع ، وقوتها التي ترهب بها أعداءها ، لأن الشعب هو القوة العاملة الكادحة ، وهو صاحب المنفعة المباشرة من رقي الأمة ؛ ولقد تغيرت في القرن التاسع عشر عقلية الشعوب ، ولم تعد ترضى الحكم المطلق ، ولا أن تسام الخسف والهوان على يد حاكم مستبد ، يمتص دماءها ويسخرها في سبيل شهواته وأطماعه ، وطالبت جادة بالاشتراك في الحكم ، وأن يؤخذ رأيها في كل صغيرة وكبيرة .

ولقد تأثرت مصر بهذه النزعة ، ونعلم أن الثورة العرابية قد تطورت إلى المطالبة بالحكم النيابي ورفع الضيم عن الشعب ، ولا ننسى حملة جمال الدين وصحبه على إسماعيل ، ثم على توفيق ، وقد رأينا كيف عم الفرح بلاد العرب والإسلام حين أعلنت تركيا الدستور في سنة ١٩٠٨ ، وجهر شاعر مثل إسماعيل صبري بأن مصر لا بد أن تنال مثل ما نالت تركيا ، وناشد عباساً أن يعطي مصر نصيبها في الحكم النيابي . وجاهد مصطفى كامل ومحمد فريد ، ورجال الحزب الوطني في أن يمصروا التعليم ويحافظوا على اللغة العربية ، وعلى مظاهر القومية في الثقافة كما رأينا آتفاً ، وأسهم الشعراء والأدباء في الحث على ذلك .

ومن المظاهر التي استحققت العناية : عناية المصلحين ، وعناية الأدباء — مشكلة الفقر بمصر ، فقد تخلف عن عهود الإقطاع أن حظي فريق من المصريين بثروة عريضة ، وغنى فاحش ، وأنفقوا بسرف ، وعربدوا بدون وعي ، بينما سواد الأمة في فقر مدقع .

وقد تخلفت عدة مشكلات اجتماعية نتيجة هذا التفاوت الفطيع بين الطبقات ، فازداد الغني غنى والفقير فقراً • والفقير يفضي إلى التسول والتشرد ، وارتكاب الجرائم ، وضعف الصحة بين العمال والفلاحين ، وهم لا يملكون القدرة على العلاج • كما أن الفقر يحرم الأمة ثروة معنوية كبيرة تفيدها في نهضتها حيث لا يمكن الفقراء من التعليم ويظلون في جهل عميم • وكان من أوضح المشكلات الاجتماعية ، الأطفال المشردون ، نتيجة لهذا ، ونتيجة لجهل الطبقة الدنيا بتعاليم الإسلام ، والإكثار من الزواج والطلاق ، مع عدم قدرتهم المالية على تربية أولادهم • لذلك كثر الاهتمام بهؤلاء الأطفال الذين يعدون قذراً في عين الأمة وسبباً لمصر الغنية التي تنبت أرضها الذهب ، والتي يشتم فيها فريق حتى يسأم ، ويبعثر المال ذات اليمين وذات اليسار في سفه وطيش •

وكان حافظ إبراهيم قبل أن يدخل سجن الوظيفة شاعر مصر الاجتماعي الذي يأسى لما تعاني من أدواء وعلل ، وهو الذي ذاق مرّ الفقر ، وكوي بنار الفاقة ، وعرف ذلّ الحاجة والبؤس ، وكان متأثراً بمبادئ الحزب الوطني الذي كان في أوجه حينذاك ، والذي كان يهدف إلى نهضة الأمة في كل مرفق من مرافق الحياة ، لا في السياسة فحسب • ولحافظ أكثر من قصيدة في وجوب العناية بهؤلاء الأطفال الذين إن أهملوا كانوا حرباً على الأمة في المستقبل ، وصاروا عيارين ، وسفاحين ، وأفاقين ، وعالة على المجتمع ، يعاني منهم — وقد كبر معهم شرهم — أسوأ الأدواء وأضرها فتكا به •

قال حافظ في رعاية الطفل سنة ١٩١٠ قصيدته التي مطلعها :

شبحاً أرى أم ذاك طيف خيال      لا ، بل فتاة بالعرء حيالي  
أمت بمدرجة الخطوب فما لها      راعٍ هناك وما لها من والي

وقال في ملجأ رعاية الطفل سنة ١٩١١ قصيدته التي مطلعها :

صفحة البرق أومضت في الغمام      أم شهاب يَشْتَقُ جوف الظلام  
وفيها يحث على الإحسان بقوله :  
دعوة البائس المعذب سور      يدفع الشر عن حياض الكرام

وهي حرب على البخيل وذو البغ ي وسيف" على رقاب اللثام  
وفيها يقول منوهاً بفضل الزكاة لمن يستحقها :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| وعلّمنا أن الزكاة سبيل الله | قبل الصلاة ، قبل الصيام    |
| خصّها الله في الكتاب بذكر   | فهي ركن الأركان في الإسلام |
| بدأت مبدأ اليقين وظلت       | لحياة الشعوب خير قيام      |
| لو وفى بالزكاة من جمع الدن  | يا وأهوى على اقتناء الحطام |
| ما شكا الجوعَ معدم أو تصدى  | لركوب الشرور والآثام       |
| راكباً رأسه طريداً شريداً   | لا ييالي بشرعةٍ أو ذمام    |
| سائلاً عن وصية الله فيه     | أخذاً قوته بحد الحسام      |

ويقول في حفل أقامته جمعية رعاية الطفل سنة ١٩١٣ ، في محاوراة بينه وبين  
مطران :

|                   |                      |
|-------------------|----------------------|
| هذا صبي هائم      | تحت الظلام هيام حائر |
| أبلى الشقاء جديده | وتقلّمت منه الأظافر  |
| فانظر إلى أسماه   | لم يبق منها ما يظهر  |

ويقول في دعوة للإحسان سنة ١٩١٥ ، وفي الجمعية الخيرية ١٩١٦ ، وفي إعانة  
العميان ١٩١٦ ، وفي ملجأ الحرية ١٩١٩ ، ومن قوله في الجمعية الخيرية الإسلامية  
على لسان يتيّم آوته الجمعية ، وانتشلت من وهدة الفقر والجهل والتشرد :

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| قضيتُ عهد حداثتي    | ما بين ذل واغتراب    |
| لم يثغن عني بين مشر | قها ومغربها اضطراب   |
| صفرت يدي فخوى لها   | رأسي وجوفي والوطاب   |
| لم يبق من أهلي سوى  | ذكر تناساه الصّحاب   |
| أمشي يرتخني الأسى   | والبؤس ترنيحَ الشراب |

ولا يكتفي بهذا في الحز على مساعدة الأطفال البائسين ، والعمل على النهوض بهم ، بل يأسى لما يلاقه الشعب من غلاء ، لا يكتوي به إلا ذوو المورد المحدود ، والذين يكدحون في سبيل الرزق ، وتتصبب جباههم عرقاً إبان العمل ، ولا يحس به من ورثوا المال الطائل وجاءهم هيناً ليناً ، فبعثروه في سر وسخاء غير آسفين ولا نادمين ، لا يحسون بغلاء ، ولا تقف دون رغباتهم عقبات :

أيها المصلحون ضاق بنا العيش      ولم تحسنوا عليه القياما  
عزّت السلعة الذليلة حتى      بات مسح الحذاء خطباً جساما  
وغدا القوت في يد الناس كاليا      قوت حتى نوى الفقير الصياما  
ويخال الرغبة في العيد بدرأ      ويظن اللحوم لحماً حراما

على أن حافظاً بعد ثورة سنة ١٩١٩ انصرف عن الشعر الاجتماعي إلا القليل كقوله في حفلة مدرسة للبنات ، أو في جمعية الطفل سنة ١٩٢٨ قصيدة واحدة ؛ صمت حافظ عن السياسة ، وصمت عن وصف الطبيعة المصرية ، وصمت حتى عن الشعر الاجتماعي الذي ظهرت فيه موهبته ، والذي لا حرج عليه فيه إن قاله . ولست أدري لصدوف حافظ عن الشعر الجيد الكريم الغرض في هذه الحقبة تعليلاً ، إلا أن طاقة حافظ الشعرية قد نفدت وقريحته قد نضبت ، وأنه قال سابقاً في فورة من فورات النفس ، ثم ران عليها اليأس والخوف ، وانصرفت لرثاء العظماء ، وإلى إغفاءة طويلة لا تتب منها إلا في فترات متباعدة فتحس بما حولها . فيخرج قصيدة اجتماعية ، أو مقطوعة سياسية يحاول إخفاءها جهده حتى لا يضارّ بشيء ، مع أنه لو نشرها ما أصابه ضرر ؛ إذ ليس فيها ما يخشى منه أشد الناس جبناً . ولكنه على كل كان قبل الحرب العالمية الأولى ، وفي خلالها شديد العناية بمصر وشئون مصر .

وليس كذلك شوقي ، فهو قبل الحرب الأولى ، كان حبيساً في ققص من ذهب ، مقيداً بقيود القصر ، وغل الحاشية ، وأغلب الظن أنه لم يكن يدري عن حالة البؤس والفاقة التي يعانيها سواد الشعب شيئاً ، وإذا درى ققلما يحس الآلام أو يتذكرها ، وليس له بها عهد ، أو إدراك ، ولا نسمع له في هذه الحقبة إلا ثلاث قصائد في الهلال

الأحمر والصليب الأحمر، أولاها موجهة إلى توفيق باشا وزوجته، وهي التي مطلعها :

جبريل هلّل في السماء وكبّر      واكتب ثواب المحسنين وسطرّ  
سل للفقير على تكرّمه الغنى      واطلب مزيداً في الرخاء لموسر

ويتخذ القصيدة في الهلال الأحمر وسيلة لمدح توفيق وزوجته :

يا بنت إلهامي دعاء معظم      لسماء عزك في البرية مكبر  
توفيق مصر وأنت أصل في الندى      وفتا كما الفرع الكريم العنصر

والقصيدة الثانية قيلت إبان حرب طرابلس ، وفيها حث على مساعدة الهلال الأحمر ليعنى بجند الترك وأهل طرابلس ، فليست منبعثة عن شجى لحال المنكوبين ، وعن شعور صادق بالأمهم ، ومطلعها :

يا قوم عثمانَ والدنيا مداولة      تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا  
وفيها يقول في كلام عام لا يصور الفاقة والبؤس كما صورهما حافظ :  
البرء من شعب الإيمان أفضلها      لا يقبل الله دون البر إيمانا  
هل ترحمون لعل الله يرحمكم      بالبيد أهلا ، وبالصحراء جيرانا ؟

وليس لشوقي في الواقع شعر في الفاقة والبؤس ، والعناية بالفقراء لا قبل الحرب العالمية الأولى أيام أن كان مقيداً بتلك القيود التي أشرنا إليها ، ولا بعد أن عاد من المنفى ، وذاق فيه مرارة الحرمان . ولكنه كان على كل حال — حتى وهو في منفاه — في سر من العيش ورغد من الحياة ، ولذلك لم يشعر بتلك الآلام المبرحة التي يعانيها الفقراء ، ولم يألّف المواطن الشعبية التي يغشاها هؤلاء الفقراء ، والأطفال المشردون ، وإنما كان يعيش بعد عودته من المنفى في بيئة محوطة بالعناية والثراء ، قليل الاختلاط بالناس ، اللهم إلا طبقة من خالص الأصدقاء يزورهم في سيارته الفارهة الفخمة ، ويمر بمواكب البؤس ومناظره ، لا يراها ولا يحس بها .

أما مطران فحاله كحال شوقي من حيث ندرة ما قال عن الفقراء ، ووصف حالتهم البشعة ، وحث الأمة على العناية بهم ، وتتصفح ديوانه كله فلا تجد إلا

قصيدتين ، وثلاث مقطوعات كل مقطوعة في بيتين ، وليس فيها ذلك الشعور الذي تراءى في شعر حافظ ، وأغلب الظن أنها متكلفة ، طلب إليه أن يقول فقال • فمن تلك المقطوعات قوله :

حبَّب الفقر إلينا      منك إحسان" شريف  
فاشتهى الموسر منا      أنه عافٍ يطوف

ويقول في قصيدة عنوانها « دعوة الخير » ، وهي كلام عام ، وحكم متداولة مما يقال عادة في هذه المناسبات :

مهما تَقَلَّ ثَمالة الموجود      لا تحرم المسكين قطرة جود  
فإذا حباك الله فضلاً واسعاً      فالبخل خسران" وشبه جحود

ويقول في ملجأ الحرية الذي أسسه الدكتور عبد العزيز نظمي والذي قال فيه حافظ سنة ١٩١٩ ، بعض تلك الحكم ، من غير تصوير ، أو ألم ، أو عاطفة ما :

إن لم يَصْنِ خلقَ الصَّغار مهذب      ماذا يحاول وازع ومُشَرِّع  
أو لم يكن أدبُ السجاي رادعاً      للناشئين هل العقوبة تَرْدَعُ  
في كل قطر ( ملجأ ) ، أفما لنا      في أن نجاري ما يُجاري مطمع  
ما بالنا نجدُ الشعوب أماننا      وعلى مثال صنيعهم لا نصنع ؟

هذا ما كان من شأن مطران ، وأما إسماعيل صبري فليس له في هذا الموضوع قليل أو كثير ، وكان مصر ليس بها فقراء معدمون ، أحلاس مسغبة ، وأنى لصبري أن يصف الفاقة والبؤس وأهلها ، وقد عاش عيشة مترفة منعمة ، وقد قال عنه الدكتور طه حسين في المقدمة التي صدر بها ديوانه : « وكيف السبيل لطالب من طلاب الأزهر ، أو من طلاب الجامعة القديمة ، شديد الحياء أن يتصل بهذا الرجل الأرستقراطي ، الذي كان يشغل منصباً رفيعاً من مناصب الدولة ، ويلقب بلقب رفيع من ألقابها ، ولا يجلس حيث كان يجلس الشعراء في هذه القهوة أو تلك ، ولا يختلف إلى حيث يختلف الشعراء في هذا النادي أو ذاك » (١) •

ونرى محمد عبد المطلب يطرق باب هذه المشكلة في أربع قصائد ، ثلاث منها في جمعية المواساة الإسلامية قال أولها في سنة ١٩١٣ والثانية في سنة ١٩١٤ ، والثالثة في سنة ١٩٢٨ أما القصيدة الرابعة فقالها في الحرب والغلاء سنة ١٩١٨ • ونرى عبد المطلب في قصيدة المواساة الأولى يصف حالة الفقراء ، وما يكابدون من جهد ، وجوع ، وعري •

أَسَأَلْتُ بَاكِيةَ الدِّيَا جِي مَا لَهَا      أَرَقْتُ فَأَرَقَّتِ النُّجُومُ حَيَالَهَا  
بَاتَتْ تَكْفُكُفُ بِالْوَقَارِ مَدَامَعَا      غَلَبَ الْأَسَى عِبْرَاتَهَا فَأَسَالَهَا

وينتهي من هذا الوصف إلى الثناء على رجال المواساة ، ثم إلى مدح عباس ، وأم الحسين • وأما القصيدة الثانية فقد جعلها قصة يصف فيها حال فقير بئس ، له صبية صغار يتضاغون من الجوع ، ويتلوون من الألم ، وله جار رب قصر منيف :

قصر يشق السماء طولا      فخم الدِّعَامَاتُ ذُو مَنْار  
تَلَأَلُ الْكُهْرَبَاءُ فِيهِ      تَلَأَلُو الْكُنُتْسُ الْجَوَارِي  
كَأَنَّهُ وَالظَّلَامُ سَاج      مِنْ حَوْلِهِ آيَةُ النَّهَارِ  
وَمَرْكَبُ كَالنَّسِيمِ يَجْرِي      عَلَى الثَّرَى آمِنَ الْعِثَارِ  
وَالْمَالُ يَجْبِي إِلَيْهِ كِيَلَا      فَمِنْ ضِيَاعٍ وَمِنْ عَقَارِ

ويرى هذا الفقير جاره الغني ، في كل ليلة ، وموائده عامرة بكل ما لذ وطاب ، والخدم يروحون ويحيئون :

فَتَلُكُ فِي كَفِّهَا حَنِيذٌ      عَلَى إِثَاءٍ مِنَ النَّضَارِ  
وَتَلُكُ مِنْ خَلْفِهَا بَصْحَنٌ      عَلَيْهِ حُوتٌ مِنَ الْبَهَارِ

وهذا الفقير يشتهي فتات المائدة ويدعو الله أن يعطف عليه هذا الجار ، ولكن لا يستجاب دعاؤه ، حتى يأتيه رجل المواساة بالبر والعطف والخير والمواساة •

وأما القصيدة الثالثة فليس فيها هذا التصوير البارع ، وإنما هي كلام عام ومدح وثناء على عناية رجال المواساة بالبائسين من كل صنف •

فكم صانوا كرامة ذي إباء      وكم صاغوا لبائسة حجابا  
وكم مدوا لذي الحاجات راحاً      تسابق في تكرمها السحابا

وأما قصيدة الغلاء ، فقد قالها بعد أن فتكت الحرب بما اختزن الناس وما بقي في مصر من خيرات أربع سنوات كاملة ؛ وكان أشد الناس ألماً من الغلاء هم موظفو الحكومة .

فوا رحمتا لابن الحكومة قوسه      قتلوع ، وهكّ يرجى سداد قتلوع (١)  
ومن حوله غرّثي ، عيال" ونسوة      طواها الطوى في ذلة وخضوع (٢)  
تقلّب في جوع وعثري يؤودها      وحسبك من عري يؤدد وجوع (٣)  
غلا كل شيء من مرافق عيشها      على ربها من مُسلم ومبيع

وهذا شعور من اكنوى بنار الغلاء ، وعجزت موارده وقصرت يده عن تحقيق رغباته ورغبات أسرته الضرورية ، فهو يصف حالة عاناها ، وآلاماً قاساها ، وقد كان موظفاً عفيفاً محدود الدخل ، فهو وحافظ إبراهيم صادقان ، صدرا في وصف الغلاء عن شعور صحيح ، أما إسماعيل صبري ، أو شوقي ، أو مطران ، فلم يحسوا بعَوَازٍ أو ضيق في خلال الحرب الماضية ، ولذلك لم يخطر لهم ببال وصف الغلاء ، وما فعله بالناس .

ولأحمد محرم أكثر من قصيدة في مشكلة الفقر والغنى ، وهو قوي في شعوره ، غني في تصويره ، جريء في تعبيره ؛ مما يدل على شدة انفعال ، وفَرَط حساسية ، استمع إليه يصف هذا البؤس في أحد مناظره :

رأيت الهول ينبعث ارتجالاً      فتصدع القلوب له بديها  
رأيت البؤس يركض في جلود      يجانبها النعيم ويحتميها  
رأيت ييوت ساذغة تكلوئى      كأمثال الأراقم ملء فيها  
تريد طعامها والبيت مقنوم      فتوشك أن تميل على بنينا

(١) قوس قتلوع : تنفلت حين النزع فتقلب .

(٢) غرّثي : جباة .

(٣) يؤودها : يبلغ منها الجهد والمشقة .



أنيلونا الدِّيَّات ولا تكونوا كمن يَرُدِّي النفوس ولا يَدِيها

فهو يحمل الأغنياء وزر قتل الفقراء مسغبة وبؤساً ، وحق القاتل شرعاً أن يدفع الدِّيَّة ، وإلا كان مجرمًا وسفاحاً خارجاً على القانون ، اللهم إلا إذا عامل البشر معاملة الحيوان الأعجم الذي يذبح ، ولا دية له ، وهو ينعي على أثرياء مصر أتركتهم ، وعدم اهتمامهم بهؤلاء الذين يثعلولون ، ويصرخون ويغولهم الفقر ويفتك بهم البؤس والشر :

|                               |                             |
|-------------------------------|-----------------------------|
| أكلُ امرئ في مصر يسعى لنفسه   | ويطلب أسباب الحياة لذاته    |
| طروب الأماني ما يبالي بشعبه   | وإن ملأ الدنيا ضجيجاً نعاته |
| إذا نال ما يرجوه لم يعنه امرؤ | سواء ولم يحفل بطول شكاته    |
| سواء عليه منزل السخط والرضا   | إذا نال ما يرضيه من شهواته  |
| يرى الدين والدنيا ثراء يصيبه  | وقصراً تزل العين عن شرفاته  |

وهكذا نرى بعض الشعراء قد تأثر لهذه المشكلة الاجتماعية ، التي لا تزال قائمة رابضة في مصر الغنية ، لم تحل بعد ، ولم يرعو ذوو اليسار عن غيهم ، أو يزدجروا عن شرهم ، أو يطامنوا من شهواتهم ، أو يتستروا في مبادلهم ، وتظاهروا بهذا الفساد يعتصر قلوب مواطنيهم الذين لم يواتهم الحظ من ثراء موروث ، أو مفتصب ، فيزدادون عليهم حقداً وموجدة ، وتعمل في نفوسهم المبادئ الفتاكة عملها .

ولقد كان شعراء الجيل الماضي ذوي حساسية ، وإدراك لأدواء هذه الأمة ، فقالوا ، وحضوا على الإحسان ، ونهبوا الأثرياء ، ولكن ما بالنا اليوم وقد خفت صوت الشعر والمشكلة لا تزال على أشدها ، والغلاء الشنيع قد طوح بكل القيم ؟<sup>(١)</sup> .

على أن مشكلة الفقر والغنى ليست المشكلة الوحيدة التي نظر إليها شعراء الجيل الماضي بل اهتموا بكل ظاهرة من ظواهر التقدم والرقى ، وكل ما يخزن الأمة

(١) لقد تغير الوضع بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقامت حكومة الثورة بعدة إصلاحات جذرية لمعالجة هذه المشكلة ، وتلافي التفاوت الشنيع بين الطبقات كان من أهمها قانون الإصلاح الزراعي ، والقضاء على الاقطاع والراسمالية والاحتكارية وتأميم الشركات الكبرى ، والسير في طريق الاشتراكية المبنية على الكفاية والعدالة الاجتماعية .

على أن تتبوأ مركزها العظيم الذي يليق بماضيها الحافل بالحضارات ، واهتموا  
كذلك بكل بادرة من داء يوهن هذه الأمة ، ويمكن لأعدائها ، أو يضعف بنيتها •

وقد اتجه الشعراء اتجاهات مختلفة في هذا ، فشوقي غني بمظاهر النهضة ،  
والإشادة بها والحث عليها فيقول في الجامعة قصيدته الثانية<sup>(١)</sup> في سنة ١٩٢٦  
والتي مطلعها :

تاجَ البلاد تحية وسلام ردتك مصر وصحت الأحلام<sup>(٢)</sup>  
ويقول في الصحافة قصيدته التي مطلعها :

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف<sup>(٣)</sup>  
ويقول في العلم والتعليم قصيدته التي مطلعها :

فم للمعلم وفقه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا  
وكان شوقي حريصاً كل الحرص على أن تتبوأ مصر مكانة مرموقة في العالم ،  
ولن يتأتى لها هذا إلا بالعلم والمال والقوة ، ولذلك نراه يحث الشباب في غير ما  
قصيدة على العلم ويوازن بينهم وبين نظائرهم من شباب أوروبا ، ويتساءل : هل  
نساير ركب الحضارة والمدنية والثقافة أو أننا لا نزال نعيش عالة على غيرنا في  
هذه الميادين ؟ •

هل شايع النشء ركب العلم واكتنفوا للعبقرية أحمالا وأطعانا  
وساير الموكب المرموق متشجعا عز الحضارة أعلاما وركبانا  
ولم يكن شوقي يائساً بل كان يتطلع دائماً إلى مستقبل زاهر لمصر بفضل  
شبابها المتوثب ، ولذلك قال :

تعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتي يحدث العجب العجبا  
وقد صدقت فراسته ، وتحققت نبوءته ، وجاء الجيل الذي يحاول أن يغير

---

(١) وتلك غير قصيدته الأولى التي ألقاها يوم أن وضع عباس الحجر الأساسي للجامعة ، انظر  
الشوقيات ج ١ ص ١٥٨ .

(٢) الشوقيات ج ٤ ص ٢ .

(٣) الشوقيات ج ١ ص ١٦٥ .

مجرى الحياة في مصر ويحيلها إلى دولة عظمى معتمدة على علمائها ، واقتصادها ، ومصانعها ، وجيشها ويا ليت شوقي كان اليوم بيننا حين قال :

أرى طيارهم أوفى علينا      وحلق فوق أرؤسنا وحاما  
وأنظر جيشهم من نصف قرن      على أبصارنا ضرب الخياما  
فلا أماناً نقصوه رمحاً      ولا خواننا زادوا حساماً  
ملكنا مارن الدنيا بوقت      فلم نحسن على الدنيا القياما  
طلعنا وهي مقبلة "أسوداً"      ورُحنا وهي مدبرة "نعاما"

إذاً لرأى العجب العجاب ، ورأى سماء مصر قد ملأها نسورنا وصارت حرة لهم لا ينازعهم فيها منازع ، ولرأى كيف تقوضت خيام المحتل الغشوم ، وكيف ذاق مذلة الهزيمة في بور سعيد ورأى أننا فعلاً قد انتقصنا عتاده بل استوليا عليه وهو الذي يقدر بالملايين في قاعدة القناة ، وأنا صرنا أمة قوية بجيشها وقادتها وسلاحها ، وأنا نصنع اليوم السلاح الذي نحمي به هذه الديار الحبيبة كما تحمي الأسود عرينها<sup>(١)</sup> .

كان شوقي وهو الذي تعلم في باريس ، وهو الذي أحب مصر كل الحب حريصاً على تسجيل مظاهر نهضتها ، مشجعاً العاملين من بنيها ، يرى أن مهمة الشاعر أن ينبه الغافل ويثبت العامل ، ويشجع الرائد ؛ فنراه يقول في بنك مصر وتأسيس داره أكثر من قصيدة ، ويقول في أول طيار مصري • وهكذا يتتبع مظاهر النهضة ، ويشي على من يقوم لبلاده بمكرمة ، ومن يضع في صرح بناءها حجراً • وليس الأمر كما يصوره الدكتور طه حسين بأن هذا الشعر كالكراشي المذهبة التي لا يخلو منها حفل ، وإنما صدر هذا الشعر عن عاطفة صادقة تهتز طرباً وتنتشي فرحاً لكل خطوة تخطوها الأمة في درج الحضارة بعد أن ظلت قروناً تعاني الحرمان والجهل والمرض وشتى الآفات الويلة •

ويرى شوقي أن المرأة تستجيب لدعوة قاسم أمين ، وتحاول جاهدة أن تمزق

(١) في خطبة للرئيس جمال عبد الناصر احتفالاً بعيد النصر في ٢٣ ديسمبر ١٩٦١ قرر زيادة ثلاث فرق كاملة العدد والعتاد في الجيش المصري حتى يكون اعتمادنا على أنفسنا في كل أمورنا الحربية .

حجابها ، وتحطم غلّ هذا الحجاب ، ويقف أول الأمر متردداً بين هواه في تشجيعها ، وبين التقاليد الإسلامية التي يشجع عليها القصر فيقول قصيدته :

صداح يا ملك الكنا ر ويا أمير البلبل

يحذر المرأة من عاقبة الحجاب ، خشية أن تقع على النسور الجهل ، وأن حرصه عليها هوى ، ومن يحرز ثميناً ييخل ، وإن لم يستطع كنم هواه وأساء لما تعانیه المرأة:

يا ليت شعري يا أس      ير شج فوادك أم خل  
وحليف سهد أم تنا      م الليل حتى ينجلي  
بالرغم مني ما تعا      لج في النحاس المقفل

ويخاطب أم المحسنين حين عودتها من تركيا بعد غيبة طويلة بقوله :

ارفعي الستر وحيي بالجبين      وأرينا فلق الصبح المبين  
وقفي الهودج فينا ساعة      تقتبس من نور أم المحسنين

ويقول في رثاء قاسم أمين مؤيداً له في تردد :

ماذا رأيت من الحجاب وعسره      فدعوتنا لتفرق ويسار  
رأي" بدا لك لم تجده مخالفاً      ما في الكتاب وسنة المختار  
إن الحجاب سماحة ويسارة      لولا وحوش من الرجال ضواري  
جهلوا حقيقته وحكمة حكمه      فتجاوزوه إلى أذى وضرار

ولكن موقف شوقي يتضح في هذه القضية بعد أن يعود من المنفى ، ولم يعد يخشى الجهر برأيه ، أولاً لأنه رأى الحركة النسوية قد فاقت ما قدر لها ، وأنه لا فائدة من معارضة المرأة ؛ إذ صار السفور حقيقة واقعة ، باتتشار مدارس البنات ، والمساواة بينهن وبين البنين في التعليم ، واختلاطن بهم في قاعات الدرس بالجامعة ، وصادف هذا هوى منه فقال قصيدته التي مطلعها :

قم حيّ هذي النيراتِ      حيّ الحسان الخيرات

ويقول مؤيداً السفور :

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| خذ بالكتاب وبالحد   | ث وسيرة السلف الثقات |
| وارجع إلى سنن الخلي | مة واتبع نظم الحياة  |
| هذا رسول الله لم    | ينقص حقوق المؤمنات   |
| العلم كان شريعة     | لنساءه المتفقهات     |
| رضن التجارة والسيا  | سة والشئون الأخريات  |

ويقول شوقي في العمال يحضهم على أن يقتفوا أثر أسلافهم في تشييد مجد مصر ، وإبداع الآيات الفنية الخالدة التي لا يزال العلم حتى اليوم ينظر إليها في دهشة وحيرة ، وينصحهم بالتمسك بحسن الخلق ، واجتناب الموبقات التي كثيراً ما تنحدر إليها الطبقة العاملة فتودي بصحتها ، وتفسد حياتها ، إلى غير ذلك من القصائد التي تستحث طبقات الأمة المختلفة على النهوض . وقليل ما عرج شوقي على الآفات الاجتماعية كالانتحار ، والميسر ، وفساد الشبان وغير ذلك ، فمن هذا قوله في زواج الشيب بالبنات الصغيرات ، وهذه في نظره جريمة .

المال حلل كل غير محلل حتى زواج الشيب بالأبكار

ويقول في انتحار الطلبة قصيدته التي مطلعها :

ناشئ في الورد من أيامه حسبته الله أبالورد عشر  
ويقول في حريق ميت غمر قصيدته التي مطلعها :

الله يحكم في المدائن والقرى يا ميت غمر خذي القضاء كما جرى<sup>(١)</sup>

ويكثر من إساءة النصح بمكارم الأخلاق ، ولهذا باب سنوفيه حقه فيما بعد . وهو يجاري النهضة الدينية ، ويقول أكثر من قصيدة في مدح الرسول عليه السلام ،

---

(١) شبت النار في ميت غمر يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٠٢ ، وبقيت تاكل ما تأتي عليه في هذه المدينة حتى يوم ٨ مايو ، وهلك في هذا الحريق خلق كثير وتسايق الناس لمساعدة أهلها ، وجئت الصحف على التبرع ، وأسهم الشراء في ذلك بشعرهم . وهذا هو السر في تسجيل الحادث لفظاعته ، واهتمام الصحافة به .

وفي العيد الهجري ، وهكذا نرى شوقي لا يقل في شعوره الاجتماعي العام إزاء ظواهر النهوض في مصر عن أي شاعر آخر ، إن لم يفقههم ، ولا سيما في دينياته وأخلاقياته .

أما حافظ فكان أحرص على العناية بالأدواء والمصائب من عنايته بمظاهر الرقي والنهوض ، وهذا يرجع إلى أن حافظاً قد لاقى في مبدأ حياته ، كثيراً من الصعاب ، وخالط أنماطاً شتى من طبقات الشعب ، وكان رجلاً كثير الأصدقاء ، يجلس في المقهى ، ويلتفت حوله المعجبون بأدبه . وكان حافظ في تلك الحقبة الذهبية في حياته ، أي قبل أن يعين في دار الكتب ، وطنياً جياش العاطفة ، حريصاً على الإسهام فيما يعود على بلاده بالرقي ، يفرح أن أصابها خير ، ويأسى إن أصابها ضر ، يشب حريق ميت غمر فيقول قصيدة عامرة مطلعها :

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

وتشتد الحملة على اللغة العربية ، ويحاربها أعداء البلاد ، ويفتن بدعوتهم بعض من رقت مبادئهم الوطنية والدينية ، فيقول قصيدته التي أتينا عليها فيما سبق والتي مطلعها :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي وناديتُ قومي فاحتسبت حياتي

وينتزه فرصة زواج الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد بنت السيد عبد الخالق السادات والظعن في هذا الزواج بأنه غير متكافئ ويقول قصيدة طويلة ، ينعي فيها على الشباب نفاقهم ، وتقاعسهم عن المعالي ، وتفرقهم شيعاً وأحزاباً .

|                       |                      |
|-----------------------|----------------------|
| وهذا يلوذ بقصر الأمير | ويدعو إلى ظله الأرحب |
| وهذا يلوذ بقصر السفير | ويظن في ورده الأعذب  |
| وهذا يصيح مع الصائحين | على غير قصد ولا مأرب |

ويصور في هذه القصيدة نفاق الناس ، فقد حملوا على الشيخ علي يوسف حملة شعواء ، ولكنهم ما لبثوا أن هنتوه ، وتزاحموا على بابه ، وأسدى إليه الخليفة وساماً ، ولذلك قال :

فيا أمة ضاق عن وصفها      جَنَانُ المفوّه والأخطب  
تضيق الحقيقة ما ينينا      ويصلى البريء مع المذنب

ويشتد الخلف بين المسلمين والأقباط في سنة ١٩١١ وتكاد تكون فتنة عمياء ، يغذيها المستعمر المحتل ، فيناشد عباساً أن يتدارك الأمر قبل أن تعم الفتنة ، وتتصدع وحدة الأمة بقصيدته التي مطلعها :

كم تحت أذيال الظلام متيم      دامي الفؤاد وليه لا يعلم

ويقول على لسان متصوف فاسق ، يتظاهر بالصلاح والتقوى ، وهو مغرم بغلام<sup>(١)</sup> ، وفي أضرحة الأولياء والتمسح بها<sup>(٢)</sup> . ولكن حافظاً لا ينسى بعض مظاهر النهضة ، وإن لم يفض فيها أو يتبعها كما تتبعها شوقي ، فيقول في مشروع الجامعة قصيدتين ، الأولى سنة ١٩٠٧ ، والثانية ١٩٠٨ . ويقول في معاهد البنات المختلفة أكثر من قصيدة ، ويرى النهضة الدينية تقوى في مصر ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى ، ويفطن كثير من مصلحي هذه الأمة إلى أن الدين عصمة من المفاسد التي طغى طوفانها في خلال الحرب العالمية الأولى ، وكثرة الواردين على مصر من مختلف الجيوش المحاربة ، واستحكام الغلاء ، وبيع الضمائر ، والاستهتار بالتقاليد ، وكانت ثورة عامة في العالم أجمع ، عصفت بالقيم الخلقية ، والفضائل السامية ، راشدت طغيان المادة ، والإقبال على لذات الحياة . وجرت مصر في هذا التيار ، وخشي بعض المصلحين أن تنهار البقية الباقية من أخلاق الشباب ، الذين ألقوا التسكع في الطرقات والتطري كما يتطرى النساء ، والتهجم على الحرمات ، فأسست جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٩٢٧ ، وهرع الشباب إليها من كل صوب وحذب بالملئات والألوف وظلت سنوات تعمل على إيقاظ الشعور الديني في الناشئة ، ذلك الشعور الذي حاول المستعمر الغاصب أن يقضي عليه منذ وطئت أقدامه أرض مصر ، بفرضه التعليم باللغة الإنجليزية ومحاولة إضعاف اللغة العربية ، لغة القرآن ، وباهتمامه في برامج بالتأفة من المعلومات التي لا تقوم خلقاً ، ولا تهذب نفساً ، ولا تنمي فضيلة ، ولا تخلق رجالاً . وزاد الأمر سوءاً إهماله التعليم الديني في المدارس المدنية ، فلم يعد ثمة ما يغري الطالب بالتمسك بدينه ، لا قدوة حسنة يراها ، ولا تعليماً يغذي

(١) ج ١ ص ١٦٠ ديوان حافظ .

(٢) ج ١ ص ٢١٨ .

مشاعره ، ولا ضرورةً تحفزها على دراسته •

إن أخوف ما كان يخافه المستعمرون هو قوة الشعور الديني الإسلامي في مصر ؛ لأن الإسلام دين " يدعوا إلى العزة والكرامة ، ويأبى على المسلم أن يخضع لسواه ، وأن يذلل " ، وفي يقظة الشعور الديني استرجاع لماضي هذه الأمة المجيدة ، وتذكر لما كانت عليه من عظمة وعلم وقوة ، وتحسر على ما آلت إليه من استعباد وخزي • ولذلك ترى هؤلاء المستعمرين الذين حاربوا هذه البلاد مرات ومرات ، وطمعوا فيها منذ القرن العاشر والحادي عشر إبان الحروب الصليبية ، ولم يرد طوفانهم إلا قوة الإسلام وأخوته ، يعملون جهودهم على إضعاف هذه الروح في نفوس شباب البلاد التي يحتلوها ؛ لهذه الأسباب ، ولأنهم يخشون كل الخشية أن يعم هذا الشعور بلدان الإسلام التي سعوا إلى احتلالها ، وإضعاف قوتها ، فتتحد فيما بينها ، وتهب قوة فتية تطردهم من ديارها شر طردة ، وتستعيد مجدها السالف ، وهي غنية بخيراتها ، وتستطيع بما فيها من قوى مادية ومعنوية أن تغير مصير العالم إن أرادت • فطن المستعمرون لكل هذا ، فأغرونا بزبرج الحضارة الأوروبية ، وأكثروا من مفاسدها فيما بيننا ، بل عملوا على استيراد هذه المفاسد حتى تخف وطأة الدين والأخلاق على نفوسنا ، ونستمرى اللهو والعبث ، وننسى ذلك الماضي الرائع ، والجهاد الشاق ، والصراع الطويل المريننا وبينهم •

وقد ابتدأت هذه الحركة الدينية في الظهور منذ عهد جمال الدين الأفغاني على نحو ما فصلناه في الجزء الأول ، وسار محمد عبده على نهجه ، ودعا الشيخ رشيد رضا وحزبه إلى تنقية الدين من الخرافات والخزعبلات ، والرجوع به إلى بساطته الأولى ، وإلى تحيبيه للنفوس التي جهلته • وجاء على أثره جماعة أرادوا أن يوفقوا بين الدين والحضارة الحديثة ، وساروا في أول أمرهم برفق وحذر ، وهم جماعة حزب الأمة وعلى رأسهم لطفي السيد ، ولكنهم كانوا يخشون الطفرة فيما يرمون إليه من الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ؛ لأن الأمة في ذلك الوقت لم تكن تتقبل هذا الأمر بيسر ، ولهذا تجد لطفي السيد مع نزعة إلى الحضارة الأوروبية يحاول أن يظهر بالمحافظة على الدين ، وقد أثنى على باحثة البادية في المقدمة التي صدر بها كتاب النسائيات ، ولأن دعوتها إلى الإصلاح اتبعت سبيلا معتدلا في حدود الشرع<sup>(١)</sup> ،

(١) راجع النسائيات ، مطبعة الجريدة - القاهرة ١٩١٠ ص ٥ •



وظهر كذلك مصطفى كامل يدعو إلى التمسك بالدين وتنمية شعوره وفي ذلك يقول : « قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكنني أرى أن الدين والوطنية توأمان ، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ويفديه بروحه وما تملك يده<sup>(١)</sup> .

ودعا رجال الحزب الوطني للاحتفال لأول مرة بالعام الهجري<sup>(٢)</sup> ، وأقيم الاحتفال في غرة المحرم سنة ١٣٢٨ - يناير ١٩١٠ ، وأُنشد فيه حافظ قصيدته التي مطلعها :

لي فيك حينَ بدا سنائك وأشرقاً أملٌ سألْتَ الله أن يتحققاً

وكان المؤيد وصاحبه بجانب الحزب الوطني يعمل على تغذية الشعور الديني ، والرجوع بالإسلام إلى تقاوته الأولى ، وإلى مجده العظيم<sup>(٣)</sup> . ثم تأتي الحرب العالمية الأولى ، وما فيها من شدائد وأهوال ، وما جلبته من جيوش عديدة أجنبية ، مقيمة أو عابرة ، عملوا على إفساد الأخلاق ، كما عمل الغلاء على إضعافها . وجاءت الثورة العاتية ، وكان فيما أفادته يقظة المصريين إلى الدعوة الدينية بين شباب مصر كماذ كرت في أول هذا الموضوع لانتشار الانحلال الخلقي والاستهتار فيهم ؛ نتيجة للتعليم العقيم الذي غذي به المصريون على يد الإنجليز ، وكان من وراء هذا إنشاء عدة جمعيات دينية منها الشبان المسلمون ، والهداية الإسلامية برياسة السيد محمد الخضر ، والتعارف الإسلامي ، ثم الإخوان ، وظهرت عدة جرائد ومجلات دينية ، لا تهتم إلا بالدين ، وتقوية العاطفة في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . وكان السيد محب الدين الخطيب هو الموحى بكل هذه الجمعيات ، وله أكبر فضل في تقوية الشعور الديني بمصر ، وإيجاد صحافة قوية ممتازة تدافع عنه ، وعن أمجاد المسلمين ، إذ أنشأ ( الزهراء ) ثم ( الفتح ) ، وغذاهما كثير من الشعراء بالقصائد المنبثقة عن عاطفة دينية قوية مثل أحمد محرم ، وصادق عرنوس وغيرهما .

وكان إيجاد هذه الجمعيات الدينية ، والصحافة التي تدافع عن الدين رد فعل

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ١٤٦ ، ٤٢٣ .

(٢) راجع محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ١٢٨ .

(٣) راجع تراجم شرفية وغربية لهيكل ص ٥٣ .

لموجة من الإلحاد سادت بعض المفكرين الذين تشبعوا بالعلم الغربي ، وقتلوا به ، ولم يعرفوا الإسلام حق معرفته ، أو عرفوه ورغبوا في الشهرة الزائفة بالخروج على إجماع الأمة • وأخذ هؤلاء ينشرون أبحاثاً وكتباً ومقالات ، تأثروا فيها بآراء المستشرقين ، الذين لم يهتموا بدراسة اللغات الشرقية ، والدين الإسلامي ، إلا ليطعنوا فيه وليشككوا أهله في قيمته ، وليكونوا عوناً لحكامهم المبالغين في الاستعمار • وقد خدع بعضهم ، وظنوا أن هؤلاء المستشرقين يصدرّون في أحكامهم عن نية خالصة ودراسة محصنة وعقل سليم ، فجاروهم في أفكارهم ، وعملوا على نشرها بين مواطنيهم • ولكن العاطفة الدينية القوية المتمكنة من نفسية هذا الشعب ، والتي أيقظها المصلحون ، ونهوها إلى الخطر المحدق بها قد أحبطت مساعي هؤلاء المفتونين ، وثارت في وجوههم وانبرى للرد عليهم كثير من الأعلام • وحملتهم على الصمت ، ثم على الرجوع عن إلحادهم ، بل إن منهم من اضطر إلى أن يتملق الجمهور ، ويدرس هذا الدين دراسة جديدة ، ويؤلف فيه وفي رجاله • وراج هذا النوع من الأدب ، فأقبل على التأليف فيه من كان مجافياً له ، وصارت عندنا ثروة دينية في الأدب الحديث من مثل : على هامش السيرة للدكتور طه حسين والعقريات للأستاذ العقاد ، ومحمد ، وأبو بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب لهيكل ومحمد وأهل الكهف لتوفيق الحكيم •

وقد اشتد الوعي الديني بين الطبقة المثقفة من الأمة وأقبلوا على ينايعة الصافية ينهلون منها بشغف هرباً بنفوسهم من أدران الحضارة المادية التي اجتاحت مصر والشرق العربي وافدة من الغرب ، وكثرت الكتب الدينية التي تقرب العقيدة وتبسطها من عامة الجمهور ، كما صار للدين مجلات وصحافة تدافع عنه وتتكلم باسمه ، من ذلك مجلة ( الأزهر ) ، ( ونور الإسلام ) التي يصدرها قسم الوعظ والإرشاد ، ومجلة ( الشبان المسلمين ) وغيرها •

ولقد كانت مجلة ( الرسالة ) ومجلة ( الثقافة ) ميدانا تعالج فيه المشكلات الاجتماعية على ضوء التعاليم الدينية ، ومن برز في هذه الناحية وكان له قراء عديدون المرحوم مصطفى صادق الرافعي في مقالاته الاجتماعية بمجلة الرسالة التي جمعت فيما بعد في ( وحي القلم ) ، كما أن هاتين المجلتين غنيتا ( قبل أن تحتجبا ) باصدار عدد ممتاز كل عام خاص بالهجرة تعرض فيه أمجاد الإسلام عرضاً جديداً ،

وتحشد له الأقدام القوية، وتدبج فيه البحوث الممتازة. ولقد راع كل هذا المستعمرين والأجانب فحاولوا جهدهم أن يصرفوا شباب الأمة ومفكرها عن شئون دينهم أو التمسك به ولكن الشعور الديني الآن وقد تغلغل في البيئات المثقفة التي بيدها مقدرات الأمة لن يضعف مرة ثانية إن شاء الله . وقد عنيت حكومة الثورة بشئون الدين فأنشئ المؤتمر الإسلامي والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف ويصدر صحيفة ( منبر الإسلام ) تكتب فيها الصفوة الممتازة من رجال الأمة ، كما أسند تحرير مجلة الأزهر إلى الأستاذ الزيات صاحب الرسالة فجدد شبابها وأقبل على الكتابة فيها عدد من خيرة الباحثين ، كما صار التعليم الديني إجبارياً في المدارس . حتى المدارس الأجنبية التي كانت فيما مضى مباءة للتبشير ، ومسوخ شخصية المواطنين ، قد صارت ملزمة بتعليم المسلمين الدين الإسلامي .

ولقد كان لهذه الحركة الدينية من بدء نشأتها حتى اليوم أثر قوي في الشعر الحديث ، فمن قصائد تقال في مطلع العام الهجري ، تذكر المسلمين بماضيهم ، وتراثهم ، وتصور مآسيهم وتحثهم على المضي قدماً في نهضتهم التي تفيظ أعداءهم ، تجد مثل هذا الشعر عند حافظ إبراهيم ، ومحمد عبد المطلب ، وأحمد محرم ، وحتى عند مطران الذي اضطر إلى مجازاة شعور الأمة في مستهل هذا القرن حين أخذت تحتفل بهذا العيد ، وكانت عنه غافلة : استمع إليه يقول في قصيدة في الهجرة وقد صار ذلك اليوم عيداً رسمياً من أعياد الدولة :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| هلّ الهلال فحيوا طالع العيد  | حيّوا البشير بتحقيق المواعيد |
| يآيها الرمز تستجلي العقول به | لحكمة الله معنى غير محدود    |
| أي مسلمي مصر إن الجِدّ دينكم | وبش ما قيل : شعب غير محدود   |
| طال التقاعس والأعوام عاجلة   | والعام ليس إذا ولّى بمرودود  |

ونرى شوقي يعارض نهج البردة والهمزية للبوصيري ؛ ويكثر من ذكر الدين ومكارم الأخلاق في شعره ، بل يؤلف ملحمة طويلة في جزء خاص هو ( دول العرب وعظماء الإسلام ) ويؤلف حافظ العمري المشهورة ، وعبد المطلب العلوية المشهورة ، ويهتم بعض الشعراء بنظم الأناشيد الدينية فيؤلف حافظ نشيد الشبان المسلمين :

أعيدوا مجدنا دنيا ودينا      وذودوا عن تراث المسلمين  
فمن يعنو لغير الله فينا      ونحن بنو الغزاة الفاتحينا

ويؤلف الرافعي نشيداً قوياً للشبان المسلمين يقول فيه :

يا شباب العالم المحمدي      ينقص الكون شباب مهندي  
فأروه دينكم ليقتيدي      دين عقل وضمير ويد

ويعكف أحمد محرم على نظم ( الإلياذة ) الإسلامية ، يصور فيها كفاح  
الرسول عليه السلام في سبيل الدين ونشره ، ويتتبعه منذ الدعوة إلى وفاته ويقف  
أمام غزواته وسراياه وقفات طويلة يصور بطولته عليه السلام ، وبطولة أصحابه  
الذين أبلوا في الدفاع عنه كل بلاء .

ويقول محرم في النشيد الأول من الإلياذة الإسلامية :

املا الأرض يا محمد نورا      واغمر الناس حكمة والدهورا  
حجبتك الغيوب سرّاً تجلسي      يكشف الحجب كلها والستورا  
عبّ سيل الفساد في كل واد      فتدفق عليه حتى يفورا  
جئت ترمي عبابه بعباب      راح يطوي سيوله والبحورا  
ينقذ العالم الغريق ويحيي      أمم الأرض أن تذوق الثبورا

ويقول في الإلياذة عن شهداء بدر :

طف بالمصارع واستمع نجواها      والشم بأفياء الجنان ثراها  
ضاع الشذا القدسي في جنباتها      فانشق ، وصف للمؤمنين شذاها  
حلل يروع جلالها ومنازل      من نور رب العالمين سناها  
ضمت حماة الحق، ما عرف امرؤ      عزا لهم من دونه أو جاها

ويقول عن نزول الملائكة في غزوة بدر يقاتلون الكفار دون أن يروهم :

الله أرسل في السماء كنيبة      تهفو كما هفت البروق الملح

تهوي مجلجلة ، تلهب أعين      منها ، وتقذف بالعواصف أجنح  
للخيل حمحة يراع لهولها      صيد الفوارس والعناق القرح  
« حيزوم » أقدم إنما هي كرة      عجلى تجاذبك العناق فترح  
جبريل يضرب والملائك حوله      صف ترص به الصفوف وترضح

وتبع خطى محرم في نظم الملاحم الإسلامية طائفة من الشعراء على تباين في  
منهجهم واختلاف في قدراتهم وخيالهم •

ومن هؤلاء عامر بحيري في ملحمة ( أمير الأنبياء ) التي أنشأها عام ١٩٥٢  
وهي تتألف من ألف ومائتي بيت تتضمن حياة النبي صلى الله عليه وسلم من لدن  
مولده إلى انتقاله للرفيق الأعلى • وفيها يقول واصفاً نزول الملائكة للقتال في  
صفوف المسلمين في غزوة بدر :

ولاحت في الفضا خيل تحمحم      وصاح كبيرهم : « حيزوم أقدم »  
فيا لله من مدد رهيب      أضاء شعاعه والنقع مظلم  
ملائكة السماء على جياذ      من الأوار نازلة تدمدم  
ترى المتقاتلين ولا يراها      من الكفار من أحد فيحجم  
تقدمت الصفوف بلا توان      تقتل أو تشل أو تحطم  
إذا الإسلام أقبل ناصروه      إلى الأعداء بالعزم المصمم  
رأوهم ميتين بلا سيوف      كذاك الخوف إن الخوف يلجم  
فلم يرموهم والله رام      ولا هزموا وجند الله يهزم

وقد طرق الشعر الملحمي غير هذين الشاعرين : كامل أمين ، واليعربي محمد

توفيق •

واهتم شعراء الجيل الماضي بالمفاسد الاجتماعية التي تناقض تعاليم الدين

( م — ١٤ الادب الحديث ج ٢ )

الاسلامي ، وحاولوا الإصلاح والإرشاد ما استطاعوا ، كما حاولوا تصوير هذه المفاسد وبشاعتها وضررها البليغ على الأمة • وهكذا نرى عندنا شعراً يصح أن نسميه شعراً دينياً ، منبعثاً عن شعور وعاطفة •

ولم تكن مشكلة الفقر ، أو النهضة الدينية ، أو حجاب المرأة وسفورها هي وحدها المشكلات الاجتماعية التي أثارت شعراءنا ، ولكننا نجد بجانب هذا نهضة اقتصادية في البلاد فإن المستعمر لم يدخل مصر إلا لأنها مدينة للأجانب ، وكانت مصر حتى ثورة سنة ١٩١٩ بقرة حلوبة لهم ؛ لا تدري من أمر اقتصادياتها شيئاً ، يفد عليها كل أفاق لفظه وطنه ، وضاق به ، فيثري في بضع سنوات ، ويصير من أصحاب الحول والطول في البلاد • ونحن نعيش كالسائمة لا نعرف كيف نستغل خيرات بلادنا ، بل نبيعها بثمن بخس دراهم معدودات ، ولا كيف تتعامل مع أوروبا إلا عن طريق هؤلاء الأجانب ، وعمت شركاتهم البلاد ، واحتكرت منابع الخير فيها ، وما علينا إلا أن ندفع لهم بسطاء ثمن النور والماء ، والركوب وغيرها • وممن تنبه لذلك الخطر السيد عبد الله نديم ، وقد عرفت في الجزء الأول كيف صور جشع هؤلاء الأجانب ، وغبنهم الفاحش للفلاح الساذج ، ثم جاء مصطفى كامل وحاول أن ينبه المصريين إلى أن الواجب يقتضي منهم أن ينهضوا باستقلال البلاد اقتصادياً • ولكن التعليم الذي فرضه علينا المستعمر لم يكن يهيئ لنا رجالاً صالحين للنهوض بهذا الأمر ، حتى شبت الثورة ونهض فريق من رجال الاقتصاد وعلى رأسهم طلعت حرب ، وأبطلوا ذلك السحر الذي نفثه الإنجليز في عقولنا بأننا لا نصلح للأعمال المالية ، ولا نصلح بلادنا لنسج القطن ، ولا الصوف ولا الحرير ، وبأنه لا يوثق بمصري ، فهو كسلان ، مرتش ، مهمل ، حتى فقدنا الثقة بأنفسنا ، وتحطمت آمالنا • جاء هؤلاء الرجال وبرهنوا على أن إنجلترا كاذبة ، وتود أن نظل في ظلام داس ، تستنزف دماءنا ، وتهيئ لأبنائها حياة رغيدة في وطنهم ، ولو قتلنا الجوع ، وأثقل ظهورنا الدين ، فأسسنا ( بنك مصر ) وشركاته العديدة ، التي شملت مختلف النواحي الاقتصادية ، وكان نجاح هذه المؤسسة القومية حدثاً عظيماً في تاريخ مصر ، أثار مشاعر الشعراء فتغنوا بها وبمؤسسيها • ومن يرجع إلى خطاب سعد زغلول في الجمعية التشريعية<sup>(١)</sup> في مارس سنة ١٩٠٧ ، وكيف بين قوة تلك القبضة الأجنبية

(١) راجع ص ٤٥ وما بعدها في هذا الكتاب •

على مقدرات البلاد الاقتصادية ، وأن التعليم في مصر لا بد أن يكون بلغة أجنبية ، حتى يستطيع أبناء مصر أن يجدوا عملاً في بلادهم ، أدرك مدى ما وصلت إليه مصر وحالتها الاقتصادية من احتلال شنيع واستغلال بشع ، وأدرك عظم المسرة التي خامرت نفوس بنينا حين تقدم بعضهم ليشق طريقه ، وطريق بلاده في عالم المال . وقد ظل وطننا يعاني من غنت الشركات الأجنبية الشيء الكثير ، وكان نفوذها في البلاد قوياً ، على الرغم من الوثبات الاقتصادية العظيمة التي وثبناها في الربع الثاني من هذا القرن ، وبعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . وليس الضرر في وجود الشركات الأجنبية ورؤوس الأموال الغريبة فإن بلادنا لا زالت في حاجة شديدة إلى هذه الأموال لكثرة ما بها من مشروعات ضخمة تحتاج إلى أموال طائلة وتهدف من ورائها إلى تصنيع البلاد وتقويتها ، وزيادة دخل أفرادها ، ورفع مستوى معيشتهم ، وإنما كان الضرر كامناً في كثرة الامتيازات التي تتمتع بها هذه الشركات الأجنبية وإعفاؤها من الضرائب ، وعدم عنايتها بتدريب المصريين ، وحرصها على إرسال أرباحها إلى خارج مصر . وقد نظم كل هذا الآن ، كما نهضت شركات مصرية كثيرة يسهم فيها الأجانب بأموالهم .

وقد تبين لرجال الثورة المباركة أن رؤوس الأموال الأجنبية بمصر تحارب الإصلاح والسير بالوطن قدماً إلى الأمام ، وتتعاون مع الاستعمار وتتخذ مؤسساتها أوكاراً للجاسوسية والخيانة والغدر فعمدت حكومة الثورة بعد الاعتداء الثلاثي على قناة السويس إلى تأمين كثير من المؤسسات والمصارف الأجنبية ، واشترتها الحكومة حتى تتخلص من نير الاقتصاد الأجنبي .

واهتمت حكومة الثورة بتصنيع مصر حتى تستقل بشئونها الاقتصادية ولا تظل عالة على سواها ، ورأت أن الاستقلال الاقتصادي أكبر دعامة للاقتصاد السياسي ، وأن الصناعة بمصر في أشد الحاجة إلى توجيه نحو ما تحتاج إليه الأمة في نهضتها ، فلا تترك مرتجلة أو خاضعة لنزوات رؤوس الأموال ، ولذلك أنشأت الجمهورية العربية المتحدة ( القطاع العام ) في الصناعة ، وأمتت كثيراً من المنشآت الصناعية الكبرى ، وأسهمت بالنصف في بعضها حتى تضمن التوجيه والإشراف . ومن أهم المشروعات الصناعية الكبرى التي تمت فعلاً توليد الكهرباء من ( خزان أسوان ) الذي ظل معطلاً أمداً طويلاً تقف دون تحقيقه أهواء مغرضة ، ومن ذلك

مصنع ( الحديد والصلب ) ليمد مصر بالصناعات الثقيلة ، والتوسع في استنباط النفط ( البترول ) وتصنيعه • ويقف على رأس هذه المشروعات ( السد العالي ) الذي نرجو أن يغير مجرى الحياة في الجمهورية العربية وفي الشرق العربي كله •

كما قامت حكومة الثورة بعدة إجراءات ثورية قوية تحاول بها أن تحقق الرخاء للمجموع وأن يعيش المواطنون حياة ليس فيها هذا التفاوت المزري بين الطبقات ، فسنت القوانين الاشتراكية في يوليو ١٩٦١ ، لتقريب هذه الفوارق ، وإنعاش أكبر عدد من الأمة ، وفي ديسمبر ١٩٦١ حرمت ملكية الأرض بالجمهورية العربية على غير المصريين ووزعت الأرض التي كان يملكها الأجانب على صغار الفلاحين ؛ وبذلك أتقنت الثروة الوطنية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة من أيدي المحتكرين والمرتزة من الأجانب والمستغلين من المصريين ، وهو إجراء حاسم كان عرب مصر يحلمون به من زمن طويل حتى يستطيعوا أن يعيشوا أحراراً في بلادهم غير خاضعين لهذه الأغلال الاقتصادية ، وغير مقيدون في تصرفاتهم الوطنية •

فلا عجب إذاً حين نرى شعراءنا تفيض بهم العاطفة فيقولون في ( بنك مصر ) ، وفي مشروع القرش ، وفي أول سرب من طياري مصر ، وفي طليعة الملاحه المصرية ، وفي مصنع النسيج بالمحلة ، وغير ذلك من مظاهر النهضة الاقتصادية ، التي هي من أكبر دعائم الاستقلال ، فقد كانت هذه الحقبة مليئة بعوامل اليقظة والرقى في كل ميدان من ميادين الحياة في السياسة ، والاجتماع ، والقومية بمظاهرها العديدة • وقد سجل الشعراء كل هذه المظاهر في شعرهم يترجمون به عما يختلج في صدور الأمة ، ويطلبون المزيد منها لأنهم نصبوا أنفسهم في مقام الهداة والمرشدين ، وقادة الفكر المصلحين ، يصدرون فيه من عاطفة غالباً ، وعن تكلف أحياناً • وقد تعدوا الكلام في هذه المظاهر إلى رثاء عظماء الأمة في كل نواحي نشاطها ، سواء كانوا رجال سياسة ، أو دين ، أو صحافة ، أو إصلاح ، أو اقتصاد ، حتى صار شعرهم وثيقة تاريخية ، وصورة لعصرهم الذي عاشوا فيه •

وقد لا يرضى عن ذلك أصحاب المدرسة الجديدة ، ولكنهم على الرغم منهم اضطروا إلى مشاركة الأمة في عواطفها ، وإلى تغذية هذه العاطفة ، وقد لا يكون هذا



النوع من الشعر جارية على نمط الشعر الغربي الحديث ، ولكننا أمة لها ظروفها الخاصة ، وفي بدء نهضة عامة شاملة ، وفي أمس الحاجة إلى من يشجع المكافحين في سبيل مجدها أحياء ، ويجعلهم مثلاً طيباً لمن بعدهم أمواتاً •

كنت أودّ أن أسوق نماذج على كل لون من ألوان الحياة الاجتماعية ، وأن أتعب الشعراء واحداً واحداً كما فعلت في الشعر السياسي ، بيد أنني أؤثر هنا أن أكتفي بهذا التعميم ، مرجئاً الأمثلة إلى حين الكلام عن الشعراء ، وحسبنا أن نعرف الخطوط العريضة للعوامل الاجتماعية المؤثرة في الشعر الحديث ، وهي لا تقل في قوة تأثيرها عن العامل السياسي بل ربما فاقته ، لأن الأمة كانت حقاً في ميسس الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعي بعد أن طالت هجعتها ، وعمل المستعمر على أن تظل في تلك الهجمة •

## الفصل الثالث

### النقد الأدبي

- ١ -

لقد خطا البارودي بالشعر خطوة قوية عظيمة كما عرفت ، أعاد للشعر ديباجته المشرقة ، ومئاته الرائقة ، ورجع به إلى عصر ازدهاره أيام العباسيين ، وسار على نمطهم في موضوعه ، وقاله ، ومعانيه . وحذا حذو البارودي الشعراء الذين أتوا بعده ، وكان تأثيره فيهم جليلاً قوياً ؛ لأنه شاعر معاصر ، ضرب لهم مثلاً صادقاً في كيف يكونون شعراء بحفظهم من جيد الأدب القديم ، ثم معارضته وتقليده ، ثم الاستقلال عنه وظهور شخصيتهم ولم يعد أحد منهم تساوره نفسه لتقليد شعراء الضعف أيام المماليك والعثمانيين ، والاهتمام بالمحسنات والخطى والزخارف ، إلا من باب رياضة الفريضة ، أو العجز عن التخلص من تقاليد الشعر البالي كما فعل إسماعيل صبري لأول عهده بقرض الشعر ، فكان يجيد التأريخ الشعري ، ويهتم بعض الاهتمام بالمحسنات ، إلى أن استطاع الوقوف وحده ، فهجر ذلك كله (١) .

وقد ظهرت طائفة من الأدباء والملمين بأصول اللغة العربية وعلومها في أخريات القرن الماضي حاولوا تجديد النقد الأدبي كما عرفه القدماء ، وتطبيق النظريات العربية في النقد كما عرفها نقاد العصر العباسي على الشعر الحديث .

وأول من خطا خطوة جدية في هذا الباب هو الشيخ حسين المرصفي صاحب ( الوسيلة الأدبية ) ، وقد عرض علوم العربية عرضاً جديداً بأسلوب جديد وبخاصة علوم البلاغة مبيناً منزلة كل منها في نقد الكلام .

ولم يكتف بهذا بل حاول التطبيق النقدي ، وصحح كثيراً مما أخطأ فيا

---

(١) راجع مقدمة ديوان صبري للدكتور طه حسين ، والاستاذ احمد أمين .

القدمات ، وكان له ذوق مرهف لمعرفة مواطن الحسن في الكلام • وبدأ نقده بتفسير الكلمات اللغوية حتى يتضح المعنى ، ولا يجعل من النحو والبلاغة غاية في النقد وإنما هي عنده وسيلة لمعرفة الصور وجلائها وإيضاح مكامن البلاغة في القول ، ولذلك نراه ينتقد معاصريه ، والسابقين عليه في طريقة دراستهم للبلاغة وفهمهم لمقصدها ، فلا ينبغي لهم الاقتصار على قولهم : « كذا يشبه كذا أو استعار كذا لكذا » ، وإنما يجب على الناقد أن يقف القارئ على مواطن الحسن في العبارة •

ومن أمثلة نقده كلامه على قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم » : الختم : الطبع ، ويدل على تشبيه القلوب بصناديق مثلاً ، ففي الكلام استعارة مكنية وقرينتها لفظ ختم ، فيفيد الكلام أنه بمنزلة الجمادات بحيث أنها لو كان فيها شيء لم تكن منتفعة به ، وقد جعلت بحيث لا يمكن أن يدخل فيها شيء ، فلا يطعم طامع في إيمانهم » •

وعنده أنه ليس كل كلام تحققت فيه أركان قسم من أقسام فنون البلاغة يعد بليغاً فيقول : « ليس كل ما فيه الكاف أو كان يعد في نظر أهل صناعة الكلام العارفين بها ، الواقفين على أسرارها ، الملتفتين إلى دقائقها — تشبيهاً ، وإنما التشبيه ما جلت فائدته وحسن موقعه من غرضه ... وإن أحسن التشبيه والاستعارة ما وقع موقعه من غرض تصوير حال المشبه أو المستعار له ، والإبانة عنها بجزيل العبارة ولطيف السياق بحيث لا يكون قصد المتكلم إلى مجرد التشبيه والاستعارة كما هو كثير في كلام المولدين <sup>(١)</sup> » •

ويورد المرصفي نماذج عدة من الكلام البليغ ، ويبين مواطن البلاغة فيها ، ولم يقتصر في أمثلته على عصر ، وإنما أورد نماذج تبين مختلف العصور والتطور البلاغي محلاً بعضها تحليلًا دقيقاً • وهو يعتمد في كثير من الأحيان على ذوقه ، وتمرسه بأساليب العرب الأقدمين ، وحفظه للجيد من كلامهم ؛ ولذلك كان معجباً بالبارودي لأنه لم يتلق علوم العربية على مدرس ، وإنما اكتسب الملكة البيانية من حفظه للجيد من النثر والشعر في عصورهما الذهبية • ولكن اعتماد المرصفي على ذوقه لم يسه

القواعد والأصول لعلوم العربية ، وإذا خرج الأديب على الأصول خرج من ميدان اللغة العربية أصلاً ، لأن الوقوف على ما تعارف عليه العرب شرط أساسي لا يمكن الاستغناء عنه ما دام المراد هو التكلم بلغتهم .

ولم يكتف المرصفي بالتجديد في النظرة إلى علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ، وبيان الغاية منها ، ولكنه تكلم عن ( كتابة الإنشاء أو صناعة الترسل ) ، وكذلك ما سماه ( صناعة الشعر ) وتابع في معالجتها ما اتبعه في معالجة البلاغة من الاعتماد على الذوق والمعرفة معاً .

ومقياس الجودة عنده « صحة المعنى وشرفه ، وتخير الألفاظ في أنفسها ، ومن جهة تجاوزها ، وموافقتهما للمقام ، وإجادة التركيب على ما شرح في علم المعاني وغيره ، بحيث تكون الألفاظ سَلِسَةً في النطق خالية من التناثر وشدة الغرابة ، يَأْلَف بعضها بعضاً ، حتى تكون الكلمات المتوالية بمنزلة كلمة واحدة ، وتكون الألفاظ التي توردها في مقام الحماسة ليست كالألفاظ التي توردها في مقام الغزل والتشبيب ، فلكل فن من تلك الفنون ألفاظ توافقه من جهة شدتها ولينها ، ولذلك تسمعه يقولون . الجزل الرقيق <sup>(١)</sup> » .

وجاء بعد المرصفي جماعة ساروا على نهجه في الإفادة من العلوم العربية في فهم النص وشرحه ونقده على طريقة القدماء ، منهم الشيخ حمزة فتح الله في ( المواهب الفتحية ) مع زيادة اهتمام بالنحو واللغة ، ومنهم الشيخ المهدي وحفني ناصف في دروسهما بالجامعة المصرية القديمة مع اهتمام أولهما بتاريخ الأدب ، وثانيهما بدراسة النصوص الأدبية على الطريقة القديمة .

وقد اشتهر من النقاد الذين سلكوا مسلك السلف في النظرة إلى الشعر وطبقوا قواعد البلاغة القديمة في النقد : إبراهيم اليازجي وإبراهيم الموليجي ، ومحمد الموليجي ، ولم يروجوا في تقديمهم لمذاهب جديدة في الأدب ، أو ينموا على تأثر بتيارات الأدب الغربي وإنما ينظرون إلى اللفظ من حيث جودته وصحته وعدم تعاضل حروفه وانسجامه مع غيره وأدائه للمعنى ، وينظرون إلى المعنى من حيث الإحالة

والتعسف والخطأ والوهم وما شاكل ذلك مما كان مألوفاً في النقد القديم والمقاييس  
البلاغية المعروفة عند العرب •

ومن أمثلة هذا نقد محمد المويلحي لديوان شوقي ومنه نقده المشهور :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يفرهن الشاء

« فقلوه خدعوها يفهم منه أن المشبب بها غير حسناء ، لأن الخداع لا يكون  
بالحقيقة ، وإذا أردت أن تخدع الشوهاء فقل لها حسناء وهو ينافي قوله في  
البيت الثاني :

ما تراها تناست اسمي لما كثر في غرامها الأسماء

وخدعوها بمعنى ختلوها وأرادوا بها المكروه من حيث لا تعلمه » •

وقد جرى على هذا النهج كل النقاد حتى أولئك الذين نادوا بالتجديد في  
الأدب ، ودعوا إلى بعض المذاهب الغريبة ، كانوا في النقد التطبيقي ينظرون إلى  
البيت الشعري في كثير من الأحيان بمقاييس البلاغة القديمة • ترى ذلك عند الرافعي  
في نقده لشوقي ، والعقاد وطه حسين في نقدهما لحافظ وشوقي ، والعقاد في نقده  
لرافعي ، والمازني في نقده لشكري وإن كان للمجددين نظرات أخرى في القصيدة  
كلها من حيث بناؤها ووحدتها وموضوعها وما بها من عاطفة وخيال كما سيأتي •

وكأنني بهذه المدرسة المحافظة التقليدية الجديدة كانت تشعر بزحمة التيار  
الغربي وقوته ، وأنه يحاول أن يعطي للشعر مفهوماً جديداً ويحول مجراه القديم  
إلى مجرى آخر ، فراح كل شاعر يقدم لديوانه بمقدمة يعرف فيها الشعر ويضع  
أسسه وأركانه وشروطه التي يصح بها ، وهي تعاريف فيها شيء من الجدة والطرافة  
والخروج عن مفهوم الشعر في عصور الضعف والانحلال ، ومحاولة الأخذ من الآراء  
الجديدة في الشعر كما عرفه الغربيون بالقدر الذي يتفق مع حقيقة الشعر ورسالته  
كما عرفه العرب وهم في غفوان مجدهم •

وكان أول من سن هذه السنة في العصر الحديث ( البارودي ) ، وقد أتينا في  
الجزء الأول من هذا الكتاب على تعريفه للشعر وظهر لنا من مناقشته أنه لم يخرج  
به عن مفهوم العرب له •

وهاك بعضاً من هذه التعريفات التي ظهرت في هذه الحقبة القلقة ، في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، قبل أن يشتد التيار الغربي ، وتظهر المدارس الجديدة المتأثرة به .

من ذلك تعريف الأمير شكيب أرسلان للشعر ، وشكيب أرسلان شاعر تقليدي على الرغم من إجادته للفرنسية وقراءته بها ، وقد حاول أن يوائم بين القديم والنزعات التجديدية حيث يقول :

« إن الشعر قوة روحية يفيضها الله على من يشاء من عباده فتحلق بالشاعر تحليق الأجنحة بالطائر ، فيرى الطبيعة في أفخم مشاهدتها : وأشمخ شرفاتها ، وأبهى مجالها وأشجى أصواتها ، وأذكى أعرافها » .

فهو يرى الشعر ابن الخيال ، والطبيعة مصدر الإلهام ، كما يرى أن الشعر الحق لا بد من أن يصدر عن انفعال نفسي يعتلج في صدر الشاعر ويدفعه إلى القول وتخير سنيّ الكلام للتعبير عن هذه المشاعر القوية .

« وإذا تغلغل الشاعر في أنحاء النفس وأحشاء القلب ، وهام في أودية الانفعال أخذ يؤدي من هناك ما يلقيه إليه مضاعفاً : هوى ملح وشوق هاف وحب شاغف ، وتمن واصب ، وتوسل " هالع " ، ورغبة ورهبة ، وإيمان كإيمان العجائز ، ثم آب من أودية إحساساته وأعطاف فراساته مفضياً بذلك إلى سامعيه - أشجى وأصبى ، وأرقص وأبكى » .

وهو يقول بعد تأكيده منزلة العاطفة في الشعر حتى يأتي صادقاً طبيعياً لا وليد التكلف والصنعة بأن الشاعر في حل إذ بالغ وصور الطبيعة أبهى مما هي وأجمل مما هي . ويؤكد كذلك قيمة الفكرة في الشعر ، وبذلك يستوفي أركانه وشروطه .

« فالشعر إذن مظهر المرء في أسمى خواطر فكره ، وأقصى عواطف قلبه ، وأبعد مرامي إدراكه ، والشعر هو رؤية الإنسان الطبيعية بمرآة طبعه ، فهو شعور عام ، وحس مستغرق يأخذ المرء بكليته ويتناوله بجميع خصائصه : حتى يروح نشوان خمرته وأسير رايته ، ويريه الأشياء أضعافاً مضاعفة ، ويصورها بألوان ساطعة وحلى مؤثرة الحقائق ، وربما أزرت بها ، وصرفت النفس عن النظر إليها ، فهو أحياناً

أحسن من الحسن وأجمل من الجمال ، وأشجع من الشجاعة ، وأعف من العفاف ، وإن الطيبي في قصيدة غير الطيبي في فلاة ، بل غير الطيبي في ملاءة ، وإن الأسد في منظومة غير الأسد في مفازة ؛ وذلك حيث كان الشعر كلاماً يلقي بلسان الإحساس ، ونطقاً ينزل عن وحي المخيلة ، وأوصافاً يفضي بها الشوق ، وإنما كانت المبالغة زيادة على الحقيقة لتمكين السامع من الوصول إلى مقدار الحق ، والحرص على ألا ينقطع منه قسم على طريق الإلقاء ، وفي أثناء الانتقال ، فكأن هذه الزيادة جعلت لتملأ الفراغ الواقع بين المدرّك والمدرّك حتى لا يصل إلى الذهن إلا كاملاً بكل قوته ، ولا يحل في العقل إلا بجميع حاشيته<sup>(١)</sup> .

ومع أن هذا التعريف وصل إلى درجة كبيرة في فهم حقيقة الشعر وشروطه التي تهيم له الصحة والجودة ، إلا أنه سار في الإطار الذي وضعه العرب للشعر الغنائي مع نظرة جديدة أطلت على الشعر الغربي من بعيد .

وهاك رأياً لأديب ذواقة ، اشتهر بالنثر والشعر معا ، وإن كان قد احتل في النثر الحديث منزلة الرائد إلى أسلوب جديد ، وهو وإن لم ينل حظاً من الثقافات الأجنبية بيد أنه لسلامة طبعه وأصاله ذوقه ، ورقة حسه ، وكثرة إطلاعه على ما ترجم استطاع أن يقرب إلى حد كبير من التعريف الصحيح للشعر ، ذلك هو المنفلوطي .

فهو يرى أولاً أن الشعر فن من الفنون الجميلة يجب أن يأتي وليد الطبع والشعور<sup>(٢)</sup> « وهل الشعر إلا نثارة من الدر ينظمها الناظم إن شاء شعراً . وينثرها الناثر إن شاء نثراً ! أو نعمة من نعمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمام ، وأخرى من أوتار العيdan والمزاهر ، أو عالم من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين من عروض وقافية ، أو خافيتين من فقر وأسجاع » .

ويجهر المنفلوطي برأي جديد في الوزن والقافية وأنهما لا يمتان إلى جوهر الشعر إلا بمقدار ما ينتمي الصبغ واللون إلى النسيج ، وأن الغناء والحدا هو الذي أوحى بهما أول الأمر ولكن :

(١) مخنارات المنفلوطي من ص ١٢١ - ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥١ .

« الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر . وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض للكلام فيما يعرض له من شئونه وأطواره ولا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا أن غريزة في النفس أن يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحاً عن نفسه ، وتطريباً لعاطفته ما نظم ناظم شعراً ، ولا روى عروضي بحراً .

الشعر أمر وراء الأنغام والأوزان ، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسنة ، أو الوشي في ثوب الديباج المعلم ، فكما أن الغانية لا يحزنها عطل جيدها ، والديباج لا يزري به أنه غير معلم كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون » .

وهذا رأي في غاية الجرأة من جهة محافظة لم يقل به حتى أولئك الذين ينادون اليوم بالشعر الحر ، فإنهم يحرصون على وجود نوع من النغم مثلاً في ( التفعيلة ) . ولعل المنفلوطي الكاتب العاطفي الذي اشتهر أول أمره بالشعر ، ثم عدل عنه إلى النثر الفني حين وجده أضيق من أن يتسع لأفكاره وعواطفه ، يريد أن يعد بنثره في زمرة الشعراء ولو لم يأت بالموزون المقفى . فالنغم شرط أساسي في الشعر لا يسمى شعراً إلا به ، وهو صناعة دقيقة يظهر فيها الخلل اليسير ، ولا يتحمل السخف والهذر .

ولعل المنفلوطي كذلك كان ينظر إلى هؤلاء النظامين الذين لا يعرفون ماهية الشعر وجوهره ، ويأتون بالغث السمج من الكلام ، وهو وإن كان منظوماً إلا أنه خال من كل أركان الشعر ، عارٍ عن شروطه وأصوله ، فلا عاطفة ولا خيال ولا سمو تعبير ، والصلة بين الشعر والوزن هي التي جعلت بعض الناس يدخلون في باب الشعر كل منظوم وإن خلا من سمات الشعر الأصيلة فيقول المنفلوطي : « وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس أمرهما ، وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم جميعاً رداءً واحداً لا يستطيع معه التمييز بينها إلا لقليل من الناقدین المستبصرين ، فأصبحنا نقرأ القصيدة ذات المائة بيت فلا نجد بيتاً ، وتتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر على قصيدة » ، ويجمل المنفلوطي بعد ذلك رأيه في الشعر وتعريفه محدداً شروطه ومعاله بقوله . « وعندي أن أفضل تعريف له أنه تصوير ناطق ، لأن القاعدة المطردة هي التأثير ، وميزان جودته ما يترك في النفس من الأثر ، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة



أسلوبه وقوة خياله ، ودقة مسلكه وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل دون قلبه وتصوير ما في نفسه للسامع تصويراً يكاد يراه بعينه ويلمسه ببنايه ، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه ، يبكي لبكائه ويضحك لضحكه ويغضب لغضبه ، ويطرب لطربه ويظير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال فيرى الطبيعة بأرضها وسماؤها وشموسها وأقمارها ورياضها وأزهارها وسهولها وجبالها وصادحها وباغها وصامتتها من حيث لا ينقل إلى ذلك قدماً » .

وهو بهذا قد فطن إلى أن الغاية من الأدب هي نقل الأثر الذي يحسه الأديب إلى السامع أو القارئ ، ومشاركته في أحاسيسه كأنه كان معه وعانى تجربته .

ولا شك أن هذه لمحات جيدة من هؤلاء الأدباء كان لها أثرها الفعال في القضاء على أدعياء الشعر ، وفي دفعه نحو القوة والجزالة والصدق ، ولكنهم لم يخرجوا على دائرة الشعر العربي القديم في أغراضه وفي موضوعاته ، ولم يأتوا بنظريات جديدة ، وإن قاموا بعرض القديم عرضاً طريفاً يتناسب مع الثقافة المعاصرة لهم وانتشار التراجم الغريبة بين أيديهم .

ولا يخرج عن مثل هذه النظرة ما قاله إبراهيم المويلحي في تعريفه للشعر وبيان جوهره<sup>(١)</sup> ، وسنعرض لرأي الرافعي في الشعر عند الكلام عنه في هذا الفصل إن شاء الله .

ولكن ثمة عوامل كثيرة دعت الشعراء الذين ساروا على نهج الشعر العربي القديم في أغراضه ، وفي نظام القصيدة وفي المعاني ، والأخيلة ، أن يسلكوا بالشعر طريقاً جديدة . ولقد بيننا فيما سبق بعض هذه العوامل ، من تأثير الثقافة الأجنبية ثم تأثير النهضة القومية .

ومن العوامل القوية ذات الأثر الفعال في توجيه الشعر : النقد الأدبي الحديث وإلحاح النقاد المتواصل في أن يعدل الشعراء عن المنهج القديم ، ويجعلوا شعرهم مناسباً لبيئاتهم وزمانهم ، وأن يجددوا فيه بما يناسب الحضارة التي ينعمون بها ، ويرون آثارها في الأفكار والحياة المدنية ، وقد قسوا أحياناً في تقديم الشعراء عليهم

(١) مختارات المفلوطي ص ٢٠٣ .

ينفرون من طريقتهم الأولى ، وإن لم يخل بعض تقدمهم من أغراض خاصة ، وحزازات شخصية وتحامل ، ولكنه كان في جملة موجهاً للشعر الحديث توجيهاً جديداً •

ومن بواكير ذلك النقد الأدبي ما سطره أحمد فارس الشدياق عن نفسه حينما مدح أحمد باشا والي تونس بقصيدة ابتدأها بالنسيب على عادة العرب ، وترجمها ميسو ( دوكان ) ، ودهش الفرنسيون من بدئها بذكر المرأة ، واستطرد الشدياق في تبيان الفرق بين الشعر الغربي والشعر العربي على نحو ما فصلناه في الجزء الأول<sup>(١)</sup> . ولكن الشعراء لم يلتفتوا إلى هذا النقد وهذا التوجيه لأنه كان سابقاً لزمه ولم تنتهياً العقول بعد لتعمل به ، وظل كثير منهم في العقد الأخير من القرن التاسع عشر يوالي قرض الشعر بأغراضه القديمة ، ومعانيه المستقاة من الأدب العربي القديم ، وبنفس الأسلوب الذي اختطه شعراء الجاهلية ، وإن أثارت الأغراض القومية الشعراء ، ونظفوا في الشعر السياسي ، وتبيان مآسي الشعب وآلامه ، وآماله ، بيد أنهم لم يقلعوا جملة عن المديح والرثاء في مختلف المناسبات •

ويوجه أحد رجالات السياسة ، وزعماء الوطنية تقدماً لبعض الشعر الذي كان يسمعه في ذلك الوقت ، وذلك السياسي ، هو المرحوم محمد فريد ( بك ) في المقدمة والتي كتبها لديوان ( وطنيتي ) الذي نظمه الأستاذ علي الغاياتي ، وحبس من أجلها ستة أشهر ، كما حبس الشيخ جاويش ثلاثة أشهر لأنه كتب مقدمة أخرى لهذا الديوان • وتلك المقدمة التي كتبها محمد فريد فيها توجيه سديد للشعر نحو الأغراض القومية ، وقد قال فيها : « الشعر من أفعال المؤثرات في إيقاظ الأمم من سباتها ، وبث روح الحياة فيها ، كما أنه من المشجعات على القتال ، وبث حب الإقدام والمخاطرة بالنفس في الحروب ، ولذلك نجد الأشعار الحماسية من قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمم المجيدة كالرومان واليونان وغيرهم •

وليس من ينكر أن الأنشودة الفرنسية التي أنشأها الضابط الفرنسي ( روجيه دي ليل ) وسميت المارسيليز كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوروبا ، الذين تألبوا عليها لإخماد روح الحرية في مبدأ ظهورها •

---

(١) راجع في الأدب الحديث الجزء الأول ص ٨٤ - ٨٥ ط سادسة •

لذلك كتب الكاتبون منا كثيراً في ضرورة وضع القصائد ، والأغاني الوطنية ليحفظها الصغار ، ويتغنوا بها في أوقات فراغهم ، ولينشدوها في ساعات لعبهم ، بدل هذه الأغاني والأناشيد التي يرددھا الأطفال في الأزقة خصوصاً في ليالي رمضان المبارك ، كما كتبوا في لزوم تغيير الأغاني التي تنشد في الأفراح ، وكلھا دائرة حول نقطة واحدة هي الغرام ووصف المحبوب بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان •

لقد كان من نتيجة استبداد حكومة الفرد سواء في الغرب أو في الشرق إماتة الشعر الحماسي ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد ، والإطراء الفارغ للملوك والأمراء والوزراء ، وابتعادهم عن كل ما يربي النفوس ، ويفرس فيها حب الحرية والاستقلال كما كان من نتائج هذا الاستبداد خلو خطب المساجد من كل فائدة تعود على المستمع ، حتى أصبحت كلها تدور حول موضوع التزهيد في الدنيا ، والحض على الكسل ، وانتظار الرزق بلا سعي ولا عمل •

تنبعت لذلك الأمم المغلوبة على أمرها ، فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة ، وباللغة العامية لطبقات الزراع والصناع • وسواهم من العمال غير المتعلمين ، فكان ذلك من أكبر العوامل على بث روح الوطنية بين جميع الطبقات ، ويسرنى أن هذه النهضة المباركة سرت في بلادنا فترك أغلب الشعراء نظم قصائد المديح للأمراء والحكام ، وصرفوا همهم ، واستعملوا مواهبهم في وضع الأشعار الوطنية وإرسالها في وصف الشئون السياسية التي تشغل الرأي العام • وقد لاحت ( وطنيتي ) في طليعة هذه النهضة الميمونة •

ومما يزيد سروري أن شعراء الأرياف وضعوا عدة أناشيد وأغان في مأساة ( دنشواي ) وما نشأ عنها ، وفي المرحوم مصطفى باشا كامل ، ومجهوداته الوطنية ، وفي موضوع قناة السويس ، وأخذوا ينشدونها في سمرهم وأفراحهم على آلاتهم الموسيقية البسيطة ، وهي حركة مباركة إن شاء الله تدل على أن مجهودات الوطنيين قد أثمرت ، ووصل تأثيرها إلى أعماق القلوب في جمع طبقات الأمة ، وتبشر باقتراب زمن الاستقلال ، والتخلص من سلطة الفرد بإذن الله •

فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح في أيام معلومة ، ومواسم معدودة ، وأن يستعملوا هذه المواهب الربانية العالية في خدمة الأمة

وتربيتها بدل أن يصرفوها في خدمة الأغنياء ، وتملق الأمراء ، والتقرب من الوزراء ،  
فالحكام زائلون ، والأمة باقية » (١) .

إن هذا النداء الذي يوجهه زعيم سياسي للأدباء لدليل قوي على مبلغ ما يشعر  
به من فائدة الأدب الحي ، والشعر الحماسي ، وما عساه أن يفعله في نفسية شعب  
أرهقها المحتل ، وأذلها واعتصر منها ماء الحياة والعزة ؛ إنه يريد من الشعر أن يؤدي  
رسالة الوطنية والقومية ، وأن يلهب بحرارته تلك النفوس الميتة ، حتى تشتعل ،  
وتحرق بحرارة إيمانها ، وقوة يقينها بحقها في الحرية سطوة الغاصب ، وتذيب حديده  
ومدافعه . وكم من أمة بليت بما ابتليت به مصر من محنة الاحتلال ، وسامها أعداؤها  
الهوان والخسف ، ولقنت صغارها تلك الأناشيد الوطنية ، التي تنفث في قلوبهم  
كراهية هذا العدو الغشوم ، فكبروا وكبر معهم مقتهم لهذا الذي حرمهم ألد ما  
تطسح إليه الإنسانية وهو الحرية ، فحركهم شعور واحد هو الحقد والبغض ، وويل  
للعدو — مهما أوتي من البطش والسيطرة — إذا تجمعت عليه أمة تنبث كل حركاتها  
عن كراهية له وحقد عليه ، وتصمم في إرادة لا تفل ، وعزيمة لا تكل ، على طرده ،  
وتحطيم أغلاله : فعلت هذا ( إيرلندا ) و ( بولندا ) وغيرهما من الشعوب التي  
نكبت في استقلالها حيناً من الدهر .

إنه كذلك يريد أن ينصرف الشعراء عن تمجيد الفرد الى تمجيد الأمة ، وإذا  
كان العرب قديماً قد توجهوا بمديحهم للأفراد أمراء وخلفاء ، فلأن هؤلاء كانوا  
عنوان عزتهم ، ومصدر فخارهم ، وقادة لشعب حر مستقل ، لم يعرف العبودية  
والذلة ، ولأنهم كانوا يمجدون فيهم صفات النبل والكرم والشجاعة ليكونوا مثلاً  
أعلى لشعوبهم (٢) ، ثم إنهم لم يكونوا في حاجة إلى تلك الأناشيد الحماسية ،  
والشعر الوطني ، وهم يتمتعون بالاستقلال والحرية ولكننا في أمس الحاجة إلى  
مثل هذا اللون من الشعر .

وقد كانت الحقبة التي ظهر فيها مصطفى كامل ومحمد فريد حقبة يقظة قومية ،  
وقد لبى الشعراء نداء الوطن ، ووصفوا آلامه وعبروا عن مشاعره وآماله ، كما

(١) راجع محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ١٨٨ .

(٢) انظر ص ٣٠ ، ٣١ من هذا الكتاب .

مر بك ، ولكن الزعيم السياسي يرحب بديوان ( وطنيتي ) لأنه حوى شعراً يعلي شأن الوطن في النفوس ، ويوحى إليها بكراهية المحتل ، والعمل على مقاومته وطرده ، وهذا هو السبب في أنهم صادروا الديوان ، وسجنوا فريداً ستة أشهر وعبد العزيز جاويز ثلاثة أشهر .

## — ٢ —

كانت هذه الصيحة صيحة زعيم سياسي ربما لم يتح له أن يدرس الأدب الغربي دراسة عميقة ، أو أن يشغل به . ولقد خاض في حديث الشعر والتجديد فيه عدد غير قليل من النقاد الذين تأثروا بالأدب الغربي ، ودرسوه في مواطنه قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، درسوا الأدب الذي كان موجوداً قبل الحرب ، لا الذي جد في خلالها وعقب انتهائها ، لأن هذا الأخير كان أدباً تافهاً يرمي إلى الترويح عن تلك النفوس التي اصطلت بنار الحرب أربع سنين كاملة ، والتي شاهدت المئات والألوف والملايين تحصد حصداً ، والمدن تدمر تدميراً ، فصارت لا تؤمن بالمثل العليا ، والقيم الأخلاقية ، ولا تبقى على شيء من الفضائل ، إذ لا فائدة من هذا كله والحرب تحطم كل شيء ، فالأولى لهذه البشرية أن تقبل على اللذات بنهم ، وتتزود منها ما استطاعت قبل أن تذهب إلى جحيم الحرب ، وأخذ الأدباء — للأسف — في أوروبا يتملقون تلك النزعات ، ويغذونها بأدب رخيص كله شهوة عارمة ، ولذة تافهة .

تأثر بعض نقادنا بكبار الأدباء الأوربيين الذين لم يشاهدوا تلك الحركات الهدامة لمعنويات البشرية وحضارتها ، ورجعوا يدعون قومهم إلى أن يجددوا في أدبهم ، وأن يجعلوه مثلاً لعصرهم ويثبتهم والحضارة التي يتقلبون في أحضانها . دعوا إلى الثورة في الأدب شعراً ونثراً ، والذي يعيننا الآن هو الشعر ، فلم تكن الثورة على الغرض وحده كما رأيت عند محمد فريد ، ولكن الثورة كانت على لغته ، وعلى أسلوبه ، وعلى معانيه ، وعلى أغراضه ، وأن تقتفي في شعرنا آثار الشعر الغربي في كل هذا .

وقد حاول الشيخ نجيب الحداد<sup>(١)</sup> أن يوازن بين الشعر العربي والغربي في

---

(١) أديب سوري استوطن مصر منذ طفولته ، ولد سنة ١٨٦٧ ، وهاجر إلى مصر مع أهله سنة ١٨٧٣ ، وتعلم في القبر ، ثم عاد إلى بيروت وتخرج على خاله إبراهيم و خليل اليازجي واشتغل = ( م — ١٥ الادب الحديث ج ٢ )

اللفظ ، والقافية ، والمعنى ، ليضع أمام المجددين حقائق عن الشعر الغربي يسرون على هديها . وبين أن وزن الشعر عندنا يختلف عن وزنه عندهم ، فالشعر العربي يعتمد على التفاعيل ، والشعر الغربي يعتمد على ( الأهجية اللفظية ) وهي كل نبرة صوتية تعتمد على حرف من حروف المد ، سواء كان ذلك الحرف وحده ، أو مقترنا بحرف صحيح ، ويسمون هذه الأهجية ( أقداماً ) ، وأطولها ما تتركب من اثني عشر هجاء ، وأقصرها من هجاء واحد ، ويجوز للشاعر أن ينظم القطعة بحيث يكون أول أبياتها اثني عشر هجاء وينزل بها تدريجاً إلى هجاء واحد ، كالحال في بعض الموشحات . وثمة فرق آخر وهو أنهم يصلون بين البيتين في المعنى واللفظ ، وقد كان هذا عيباً عند العرب ، ولقد عابوا النابغة الذبياني لقوله :

وهم وردوا الجفار على تميم      وهم أصحاب يوم عكاظ إني  
شهدت لهم مواقف صادقات      أتيتهم بصدق الود مني .

وقيام الوزن في الشعر الغربي على عدد الأهجية مما يسهل نظمه كثيراً ، ويسمح للشاعر أن يقدم ويؤخر في ألفاظ البيت ما شاء ، ويضع في أثناءه اللفظة التي يريد ولا يختل معه الوزن . وعلى العكس من ذلك الشعر العربي الذي يعتمد وزنه على التفاعيل من الأسباب والأوتاد ، فإن تقديم الحرف الواحد أو تأخيره فيه قد يؤدي إلى اختلال الوزن بجملته ، أو ثقل البيت من بحر إلى بحر .

والقافية في الشعر الغربي لا تلزم في أكثر من بيتين ، ولذلك كان شعرهم كالأراجيز عندنا ، ولهم فيها قيد آخر هو تقسيم القافية إلى مذكرة ومؤنثة ويتطلبون أن تكون كل قوافي القصيدة مؤنثة فمذكرة على التوالي بحيث لا يتوالى بيتان على قافية مذكرة أو مؤنثة . ويريدون بالقافية المؤنثة ما كانت مختومة بحرف علة ، وبالمذكرة ما كانت مختومة بحرف صحيح<sup>(١)</sup> . ومع أن القافية لا تلزم في أكثر من بيتين فقد برم بها كثير من شعرائهم ، حتى تخلص بعضهم منها وأوجد ما يسمى

= بالصحافة والادب فكان محرراً بالاهرام ، ثم جريدة ( لسان العرب ) يومية ، ثم تحولت أسبوعية واشتهر بالتمريب ، وتأليف الروايات ، وهو شاعر عسري مجدد ممتاز ، ومن رواياته المترجمة ( غصن لبنان ) ، ورواية ( انفرسان الثلاثة ) توفي سنة ١٨٩٩ ، وقد طبع ديوانه مرتين .  
(١) جداً مثل اللغة الفرنسية التي تقسم كل الكلمات إلى مذكر ومؤنث ، أما الانجليزية فهناك مذكر ومؤنث ، ومحايده وذلك في الاشياء كباب وناقذة .

المرسل أو ( الأبيض ) لا يلتزمون فيه قافية ، ولا يتقيدون بغير الوزن ، وهو شائع في الشعر الإنجليزي ، ومنه معظم شعر شكسبير المسرحي . وينظمون المقطوعة الواحدة من الشعر على عدة أوزان مختلفة ، لا تنطبق في مجموعها على الذوق السماعي ، كما يوجد عندنا في بعض الموشحات .

أما ما يميز شعرهم من جهة المعنى فهم يلتزمون الحقائق في نظمهم التزاماً شديداً ، ويبعدون عن المبالغة والإطراء بعداً شاسعاً ، فلا تكاد تجد لهم غلراً ، ولا إغراقاً ، ولا تشبيهاً بعيداً ، ولا استعارة خفية ، ولا خروجاً عن الحد الجائز المقبول من المعاني الشعرية . وهم في هذا أشبه ما يكونون بشعراء العصر الجاهلي ، فأحسن الشعر عندهم أصدق ، وهم لا يقدمون بين يدي أغراضهم نسيباً أو غيره ، ولا يفتخرون في شعرهم إلا نادراً .

ومما انفردوا به كذلك وضع الروايات التمثيلية شعراً ، وقد مكثهم هذا من التحليل والتطويل ، وإظهار شخصيات عدة ، وصور متباينة من العادات والأخلاق والأشخاص (١) . وهذا النقد ، أو التعريض بخصائص الشعر الغربي جعل بعض الشعراء يحاولون الخروج على تقاليد الشعر العربي القديم ، بل إن بعضهم حاول النظم بالشعر المرسل ، والذين تجرأوا على هذا أغلبهم من شعراء المهجر وقلة من أدباء مصر منهم عبد الرحمن شكري وقد نظم به قصيدته « كلمات العواطف » التي أنهى بها الجزء الأول من ديوانه « ضوء الفجر » وقد جاءت مفككة النسيج ، كل بيت منها لا يكاد يتصل بما قبله أو بعده ، ولم يكن ثمة ضرورة لأن يهجر القافية إذ لم تكن قصة طويلة متلاحمة النسيج قد تتعر فيها القافية .

كما نجد له من هذا النوع أقصوصتين في الجزء الثاني إحداهما « واقعة أبي قير » والثانية « نابليون والساحر المصري » وقد وفينا الكلام عن شكري حقه في غير هذا الموضع (٢) . ومنهم محمد فريد أبو حديد ، وعليه الكثير في بعض مسرحياته محاولاً تقليد شكسبير ، بيد أن محاولاتهم باءت بالإخفاق لأن طبيعة الشعر العربي تأبى هذا اللون الشعري الخالي من موسيقى القافية وإن سلم لمحمد فريد أبو حديد

(١) راجع مقال الشيخ نجيب حداد في مختارات المنفلوطي ص ١٢٦ - ١٤٥ .

(٢) راجع دراسات أدبية للمؤلف ج ١ ، وسيأتي الكلام منه في هذا الفصل .

بعض من هذا الشعر في ديباجته وموسيقاه • ويجب هنا أن تفرق بين نوعين من الشعر أحدهما الشعر المرسل Blank Verse والثاني الشعر الحر Verse Libre أما الأول فهو موزون ولكن لا يتقيد بقافية ، والثاني لا يتقيد بقافية ولا وزن<sup>(١)</sup> •

ويقول الأب لويس شيخو عن هذا النوع من الشعر : « ومما سبق إليه أدباء عصرنا دون مثال في لغتنا ما دعوه بالنثر الشعري ، أو الشعر المنشور ، كأنه جامع بين خواص النثر والنظم ، أما النثر فلا أنه على غير وزن من أوزان البحور ، وأما النظم فلا أنهم يقسمون مقاطعه ثلاث ورباع وخماس ، وأزيد ، دون مراعاة أعدادها ، ويسبكونها سبكا مموها بالمعاني الشعرية •

وهذه الطريقة استعارها على ظننا الكتبة المحدثون كأمين الريحاني ، وجبران خليل جبران ، ومن جرى مجراها من الكتبة الغربيين ، ولا سيما الإنجليز في ما يدعونه بالشعر ( الأبيض ) غير المقفى ، وفي بعض كتاباتهم الشعرية المعاني غير المقيدة بالأوزان ولسنا ننفي هذه الطريقة الكتابية التي تخلو من مسحة الجمال في بعض الظروف ، اللهم إلا إذا روعي فيها الذوق الصحيح ، ولم يفرط في الاتساع فيها فتصبح لغطاً وثرثرة • على أننا كثيراً ما لقينا في هذا الشعر المنشور قشرة مزوقة ليس تحتها لباب ، وربما قفز صاحبها من معنى لطيف إلى قول بذيء سخيف ، أو كرر الألفاظ دون جدوى ، بل بتعسف ظاهر • ومن هذا الشكل كثير في المروجين للشعر المنشور من مصنفات الريحاني ، وجبران ، وتبعتهما ، فلا تكاد تجد في كتاباتهم شيئاً مما تصبو إليه النفس في الشعر الموزون الحر ، من رقة شعور وتأثير • خذ مثلاً وصف الريحاني للثورة :

ويومها القطيب العصيب      وليلها المنير العجيب  
ونجمها الآفل يحدج بعينه الرقيب

وصوت فوضاها الرهيب ، من هتاف ولجب ونحيب ، وزئير ، وعندلة ، ونعيب

(١) راجع عن هذين النوعين من الشعر Encyclopedia Britanica V. 3. p. 575, 696 وكذلك V. 23. pp. 482 — 9 وراجع كذلك Dr. Moulton's World Literature وكذلك J. W. Long English Literature وكذلك مقالا للاستاذ حسين عفيف المحامي الاهرام



وطغاة الزمن تصير رماداً وأخياره يحملون الطليب  
ويل" يومئذ للظالمين للمستكبرين والمفسدين  
هو يوم من السنين بل ساعة من يوم الدين  
ويل يومئذ للظالمين

ومثلها من شعر جبران قوله :

تبشق الأرض من الأرض كرها وقبراً  
ثم تسير الأرض فوق الأرض تيهاً وكبرا  
وتقيم الأرض من الأرض القصور والبروج والهياكل  
وتنشئ الأرض في الأرض الأساطير والتعاليم والشرائع

ثم تمل الأرض أعمال الأرض فتحرك من هالات الأرض الأشباح  
والأوهام والأحلام

ثم يراود نعاسُ الأرض أجفان الأرض فتنام نوماً هادئاً عميقاً أبدياً  
ثم تنادي الأرض قائلة للأرض :

أنا الرَّحِم ، وأنا القبر ، رحماً وقبراً ، حتى تضمحل الكواكب وتتحول  
الشمس إلى رماد .

فلعمري هذه ألغاز لا شيء فيها منظوم زائق ولا منشور شائق ، هي أقرب إلى  
الهذيان والسخف منها إلى الكلام المعقول<sup>(١)</sup> .

ومن هذا الضرب الذي سموه شعراً منشوراً ما قاله أمين الريحاني يحيي مصر :

أكبر الشرقيات الباسمات للدهر وأحدث الشرقيات الناهضات  
هي أول من حمل ميزان القسط وأول من استرق العباد  
لها الصولجان المرصع الماسات والسوط الملطخ دماً  
هي أول من قال للموت لا وأول من قال للحياة نعم

(١) الاب لويس شيخو : الاداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين ص ٤١ - ٤٣ .

لها في الموت حياة وفي الحياة المآثر الخالدات  
مصر آية الزمان ، ابنة فرعون — معجزة الدهر — فتاة النيل

ومن كلام جبران في هذا النوع من النثر الذي سماه شعراً منشوراً ، لأنه غَصَّ  
بكثير من الاستعارات والكنيات والمجازات وأنواع الخيال ، قوله يناجي الليل :

« يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين

« يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة

« يا ليل الشوق والصبابة والتذكّار

« أيها الجبار الواقف بين أقزام المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ،  
المتوج بالقمر المتشح بثوب السكوت ، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة ، المصغي  
بألف أذن إلى آتة الموت والعدم »

« في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء ،  
وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين •

« أنا مثلك يا ليل ، أنا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمتي  
بدء ، ولا لأعماقي نهاية » •

لعلك ترى في هذا الذي يسمونه شعراً ، أنه غير موزون وغير مقفى ، فهو من  
نوع ما يسمى بالشعر الحر وهي تسمية فيها كثير من التعسف ؛ لأن من أهم أركان  
الشعر أن يكون موزوناً منغماً وقد ورد مثل هذا الكلام المليء بضروب الاستعارات  
والمجازات لدى الأقدمين ولا سيما مدرسة ابن العميد ، ومع ذلك لم يجرؤ أحد  
على تسميته شعراً لأن للنغمة الموسيقية في الكلام روعة وأسراً يجعلانه أنفذ إلى القلب  
وأسرع في التأثير وبدونها يصير نثراً أدبياً ، ويختلف عن الشعر في تأثيره وروعته •

وقد قال مصطفى صادق الرافعي عن هذا النوع من الشعر الذي خرج فيه  
الشعراء على تقاليد الشعر العربي القديم سواء كان شعراً حراً مثل الذي قدمته آنفاً  
أو شعراً مرسلاً كقصيدة « إيليا أبو ماضي » الشاعر والسلطان الجائر : « نشأ في

أيامنا ما يسمّونه « الشعر المنشور » ، وهي تسمية تدل على جهل واضعيها ومن يرضاها لنفسه ، فليس يضيق النثر بالمعاني الشعرية ، ولا هو قد خلا منها في تاريخ الأدب ، ولكن سر هذه التسمية أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة ، يظهر فيها الإخلال لأوهى علة ، ولأيسر سبب ، ولا يوفق إلى سبك المعاني فيها إلا من أمده الله بأصلح طبع ، وأسلس ذوق ، وأنصع بيان . فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ ، أو فساد العبارة ، أو ضعف التأليف . غير أن النثر يحتمل كل أسلوب ، وما من صورة فيه إلا ودونها صورة تنتهي إلى العامي الساقط ، والسوقي البارد ، ومن شأنه أن ينبسط وينقبض على ما شئت منه ، وما يتفق فيه من الحسن الشعري ، فإنما هو كالذي يتفق في صوت المطرب حين يتكلم ، لا حين يتغنى ، فمن قال : الشعر المنشور ، فاعلم أن معناه عجز الكاتب عن الشعر من ناحية ، وادعائه من ناحية أخرى<sup>(١)</sup> .

لقد كان هؤلاء السوريون المهاجرون إلى مصر وإلى أمريكا ثائرين على الأدب العربي القديم ثورة جامحة ، وحاولوا أن يجددوا على نمط الشعر العربي ، ويقولون : « لسوء حظنا أن آدابنا العربية قصرت عن مجاراة الحياة لأجيال كثيرة ، فكان نصيبها الجمود والخمود ، فقد مرت بنا قرون ونحن لا نجد نفمة نلحنها سوى نفمة القدماء ، فإن تغزلنا فبلسان العيس ، وإن ندبنا فبلسان باكي الأطلال والدمّ ، وإن هزتنا الحماسة طعناً بالهنداوي والقنى ، وإن مدحنا أنزلنا الشمس عن عرشها ، وكسفنا البدر ووطئنا هام الثريا ، ولجئنا أمواج البحار . زد على ذلك أن غزلنا تكلف ، وبكاءنا بلا حرقة ، ولا دموع ، وحماستنا بلا شعور ، ومديحنا مغالاة واختلاق باختلاق ، فأدبنا ليست إلا جثة بلا روح ، لأنها تحاول تقليد القدماء ، وناسية أن روح مصر وسوريا اليوم ليست روح عدنان وقحطان واليمن أو بغداد أو غرناطة أو أشبيلية من ألف أو ألفي سنة<sup>(٢)</sup> » .

ولم يكتف شعراء المهجر بهذه الدعوة إلى التحرر من تقاليد الأدب العربي وزخارفه ، ومبالغاته ، بل دعوا إلى أن الشعر يجب أن يمثل الحياة « فالحياة والأدب

(١) المتقطف يناير ١٩٢٦ ص ٣١ .

(٢) مجلة الهلال - يولييه ١٩٣١ ص ٤٢٧ من كلام الرابطة القلمية بنيويورك .

توأمان لا ينفصلان» وإلى أن نظم الشعر « ممكن في غير الغزل والنسيب والمدح والهجاء ، والوصف والرثاء ، والفخر والحماسة<sup>(١)</sup> » .

وثاروا على العروض والأوزان ثورة عنيفة كما رأيت في الأمثلة التي سقتها إليك<sup>(٢)</sup> ، وهذا هو جبران خليل جبران في مقاله « لكم لغتكم ولي لغتي » يثور على كل شيء : يثور على اللغة ، فلا يعترف بمعاجم ، ويثور على « العروض والتفاعيل والقوافي » ، وما يحشر فيها من جائر وغير جائر » ، ويثور على الأغراض فيقول : « لكم منها الرثاء والمديح والفخر والتهنئة ولي منها ما يتكبر عن رثاء من مات وهو في الرحم ، ويأبى مديح من يستوجب الاستهزاء ويأنف من تهنئة من يستدعي الشفقة ، ويترفع عن هجو من يستطيع الإعراض عنه ، ويستنكف من الفخر ، إذ ليس في الإنسان ما يفاخر به سوى إقراره بضعفه وجهله »<sup>(٣)</sup> . ويرى صاحب الغربال أن الكاتب أو الشاعر في حل من الخطأ اللغوي ما دام الغرض الذي يرمي إليه مفهوماً ، واللفظ الذي يؤدي به معناه مفيداً ، ويرى أن التطور يقضي بإطلاق التصرف للأدباء في اشتقاق المفردات وارتجالها<sup>(٤)</sup> .

لقد تأثر هؤلاء الأدباء المهاجرون بالأدب الإنجليزي أيما تأثر ، وقلدوه في بعض أنواعه وهو الشعر المرسل ، والشعر الحر ، وترسموا خطى ( وئلت ورتمان ) الأمريكي Walt Witman<sup>(٥)</sup> في ديوانه الذي أودعه شعره الحر ، وسماه أوراق العشب Leaves of Grass وقلدوه<sup>(٦)</sup> كذلك في كثرة الحديث عن النفس ، وتأملاتها ، وفي الكلام عن الضمير والوحدة وفي نزعته الصوفية<sup>(٧)</sup> .

لقد هاجر هؤلاء إلى أمريكا شماليها وجنوبيها تحت الضغط الاقتصادي في

(١) ميخائيل نعيمة في الغربال ص ٢٤ ط ثانية .

(٢) راجع كذلك الغربال ص ٩٣ وما بعدها .

(٣) بلاغة العرب في القرن العشرين ص ٥١ وما بعدها .

(٤) ميخائيل نعيمة في الغربال ص ٨٤ .

(٥) شاعر أمريكي ١٨١٩ - ١٨٨٣ راجع

(٦) وقد وصف هذا الديوان « بأنه أعجب قطعة فنية في الفطنة ، والحكمة أنتجها أمريكا »  
Encyclopedia Britanica, vol. 23. p. 583.

(٧) Leaders in Contemporary Arabic Literature; by Tahir Khamiry and Kampffmeyer p. 18.

بلادهم ، وهرباً بحريتهم من أن تعصف بها عوامل التعصب الديني الذي بلغ أشده في أخريات القرن التاسع عشر ، وكذلك استبداد الولاة وطغيانهم ، حيث كتبوا الحريات ، وكمموا الأفواه ، وساموا الأحرار الخسف وسوء العذاب ، فأثروا الهجرة حتى لا يساموا الضيم والخسف ، ويعانوا الفقر والذلة في بلادهم ، وما أن هاجروا حتى شعروا بالحرية الواسعة ولا سيما حرية القول والعقيدة ، فانطلقوا على سجيتهم ؛ وفي ذلك يقول جورج صيدح يصف هذا المهاجر :

كمت الأوطان فاه فاعتلى منبر المهجر يستوفي كلامه

وأعتقد أن لهذه الحرية أثراً كبيراً في نزعتهم الثورية على كل القيم في بلادهم ولا سيما هؤلاء الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية وعلى رأسهم جبران ، ونعيمة ، وعريضة ؛ لقد كان ذلك أشبه برد فعل للكبت الشديد الذي عانوه في بلادهم ، وللحرمان المزري الذي دفعهم إلى ترك الوطن الحبيب . ولقد عبر الشاعر القروي سليم الخوري عن الدوافع التي حفزته إلى الهجرة بقوله وهو يودع قريته بلبنان قبل الرحيل عنها :

|                   |                   |
|-------------------|-------------------|
| أبيت جوارها أرضاً | بغير الذل لا ترضى |
| بلاد خسفها أمسى   | على أبنائها فرضاً |
| أحس يد الرجاء فلا | أحس لقلبه نبضاً   |

إنه لم يهاجر حتى يشس ولم يجد بارقة من أمل أو رجاء تحبب إليه الإقامة .

ولقد تفاوتوا في تحررهم وثورتهم على تقاليد الأدب العربي القديم وعلى اللغة فكان المهاجرون إلى أمريكا الشمالية أشد ثورة من سواهم ولا سيما أبناء الرابطة القلمية التي أسست في نيويورك سنة ١٩٢٠ وعلى رأسهم جبران ، ونعيمة ، وعريضة ، وأبو ماضي ورشيد أيوب ممن تأثروا إلى حد ما بالأدب الغربي ولا سيما بالأدب الرومانتيكي الذي يعزز النزعة الفردية ، والتعبير عن الذات وخلجات النفس في بأسها ورجائها وحزنها وفرحها ، وصحتها ومرضها ، وفقرها وغناها ، وآمالها وآلامها : فنزعوا إلى الشمر الوجداني الذاتي ، وكرهوا الأدب التقليدي الذي لا يصدر عن شعور وإحساس ، واشتدت حملتهم عليه كما رأيت في كلام جبران .

كما أن شعورهم بالعزلة في هذه المدن الصناعية الكبرى التي يتطاحن فيها البشر ويتصارعون على المادة ، ولا يجد فيها الغريب إلا الوحشة والضيق جعلهم يعكفون على أنفسهم ويكثر من تأملاتهم •

استمع إلى إيليا أبي ماضي يصور هذه الحيرة التي يعانها المغتربون في زحمة الحياة الأمريكية :

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| نحن في الأرض تائهون كأننا | قوم موسى في الليلة الظلماء |
| ضعفاء محقرّون كأننا       | من ظلام والناس من لألاء    |
| واغتراب القوي عز وفخر     | واغتراب الضعيف بدء الفناء  |

وقد أبدع الشاعر القروي حين قال في تصوير هذه الحالة وإن كان من المهاجرين إلى الجنوب :

|                       |                        |
|-----------------------|------------------------|
| في وحشة لا شيء يؤنسها | إلا أنا والعمود والشعر |
| حولي أعاجم يرطنون فما | للضاد عند لسانهم قدر   |
| ناس ولكن لا أنيس لهم  | ومدينة ، لكنها قفر     |

كما شعروا في غمرة هذه الحياة المادية بحاجتهم الماسة إلى روحانية الشرق التي افتقدوها في غربتهم • وزادهم شظف العيش ، والجهد المرهق في سبيله شعوراً بوطأة الحياة المادية المضطربة حولهم ، فنزع كثير منهم نزعة تصوفية ، وقد صور جورج صيدح هذه الحالة النفسية بقوله :

عزّ من يفهم شكوى روحه رب حشد فيه بالروح انفرد

وهذا هو مسعود سماحة يتجه إلى الله يشكو إليه حاله ويصور العقد التي تتود نفسه ويلجأ إلى خالق الكون ليفرج من كربته :

|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| الملك ملكك والبهاء بهاكا | والأرض أرضك والسماء سماكا |
| الكون مع ما فيه من متحرك | أو ساكن قد كوته يداكا     |

لا مسعف إلاك ، لا متساهل إلاك ، لا متسلط إلاك

وقد أكثروا من الابتهالات والتضرعات إلى الله سبحانه ليخففوا عن نفوسهم ما يحز بها • ويذكرنا شعرهم بمتصوفة المشرق ؛ استمع إلى نسيب عريضة وقد أضناه الجهاد في سبيل العيش، وحرار في دروب الحياة يقول متوجهاً إلى الله جل وعلا:

|                   |                   |
|-------------------|-------------------|
| أيا من سناه اختفى | وراء حدود البشر   |
| نسيبك يوم الصفا   | فلا تسني في الكدر |
| أيا غافراً راحماً | يرى ذل أمسي وغد   |
| معاذك أن تنقما    | وحلمك ملء الأبد   |
| مرايك خضر المنى   | هي المشتى سيدي    |
| وجسمي دهاه العنا  | حنايك خذ بيدي     |

ولذلك كله كان إقبالهم على قراءة ( ویتمان ) وحبهم له وتأثرهم به والتقائهم معه في منازعه لظروفهم التي ذكرت طرفاً منها مع تأثرهم بالنزعة الرومانتيكية بعامة •

كان مهاجرو الشمال أكثر ثورة على اللغة العربية وعلى تقاليد الأدب الموروث من شعراء الجنوب الذين حافظوا على « أصول اللغة بقوة وروعة ، لأن بضاعتهم كانت كلها شعراً ، ومن الصنف الممتاز بجودة الصياغة وحرارة العاطفة ورخامة النغم ، ولأن النزعة القومية كانت الغالبة عليهم ، فالشعوب التي ترزح تحت الاحتلال أو الانتداب ، المتعطشة إلى الانعتاق من نير الاستعمار لا يستهويها في محنتها مثل الشعر الوطني الحماسي الصادق النبرات الذي يعبر عن واقعها وعن شعورها وعن آمانيها<sup>(١)</sup> » •

انهارت الرابطة القلمية بعد موت جبران في سنة ١٩٣١ ، ولكن الشعر المهجري وجد دعائمه في العصبة الأندلسية التي أسست في سان پاولو سنة ١٩٣٢ ، فكان هؤلاء أكثر حفاظاً على تقاليد الأدب العربي واللغة من سواهم ، ومن أشهرهم الشاعر

القروي سليم الخوري ، وإلياس فرحات وآل المفلوف ، وإن ظل إيليا أبو ماضي في الشمال يوالي نتاجه الرائع حتى توفي في ٤ من نوفمبر ١٩٥٧ .

ويتسم الشعر المهجري بعامة شماليه وجنوبيه بهذه الحرية في التعبير وبالتأمل في الكون وفي الإنسان كفرد وفي المجتمع وفي الطبيعة وفي حقيقة الوجود والبحث عنها ، وفي النزعات التصوفية عند اشتداد الأزمات النفسية .

لقد كان الانطلاق ، والانزعال عند دنيا الإقطاع الفكري ، وعن الأوساط الرجعية في الوطن هي السبب في شعورهم الحاد بالحرية وبالذاتية . وقد بلور ميخائيل نعيمة رأيه في الشعر الذي يدعو إليه مقاييس عامة حتى يؤدي الأدب مهمته الحقيقية في الحياة ويلبي رغبات النفس بقوله في ( الغربال ) مبينا هذه الحاجات :

أولا : حاجتنا إلى الإفصاح عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية : من رجاء ويأس وفوز وفشل وإيمان وشك ، وحب وكره ، ولذة وألم ، وحزن وفرح ، وخوف وطمأنينة ، وكل ما يتراوح بين أقصى هذه العوامل وأدناها من الانفعالات والتأثرات .

ثانياً : حاجتنا إلى نور نهتدي به في الحياة ، وليس من نور نهتدي به غير نور الحقيقة ، حقيقة ما في أنفسنا ، وحقيقة ما في العالم من حولنا ، فنحن وإن اختلف فهمنا عن الحقيقة لسنا ننكر أن في الحياة ما كان حقيقة في عهد آدم ولا يزال حقيقة حتى اليوم ، وسيبقى حقيقة حتى آخر الدهر .

ثالثاً : حاجتنا إلى الجميل في كل شيء ، ففي الروح عطش لا ينطفئ إلى الجمال ، كل ما فيه مظهر من مظاهر الجمال ، فإننا وإن تضاربت أذواقنا فيما نحسبه جميلاً وما نحسبه قبيحاً لا يمكننا التعمي عن أن في الحياة جمالاً مطلقاً لا يختلف فيه ذوقان .

رابعاً : حاجتنا إلى الموسيقى ، ففي الروح ميل عجيب إلى الأصوات والألحان لا ندرك كنهه ، فهي تهتز لقصف الرعد ولخيرير الماء ولخفيف الأوراق ، لكنها تنكمش من الأصوات المتنافرة وتأنس بما تألف منها .

ولا ريب أن هذه الحاجات إنما تعبر عن حاجات النفس الفردية لا حاجات الجماعة وليس تحقيق هذه الحاجات هو كل الشعر .



ولست أريد في هذه المرحلة من الكتاب أن أدرس أدبهم ، وأحلل نزعاته وأغراضه ، ولكنني أقول : إنهم تركوا تقليد الأدب العربي ليقعوا في تقليد أدب غربي ، وفي تقليد شاعر بعينه . ولقد حاولوا أن يوجدوا لهم أنصاراً في مصر ، وقد التقوا مع المجددين في الشعر من المصريين أمثال العقاد والمازني ، بيد أن هؤلاء ، وإن وافقوهم في أشياء ، فإنهم أنكروا عليهم ركافة أسلوبهم ، وتساهلهم في اللغة وخطأهم <sup>(١)</sup> .

لم يسر في ركاب شعراء المهجر أحد من أدباء مصر إلا تفر قليل أمثال الكاتبة السورية ( مي زيادة ) حاولوا كتابة ما سموه بالشعر المنشور ، ولكنهم ما لبثوا أن أقلعوا عنه ، لأنه لم يجد قبولا من أذواق المصريين ، كما لم تجد نظراتهم التشاؤمية ، ونزعته المفرقة في التحليل النفسي والتصوف الحزين رغبة في الشرق بعامة بادىء الأمر حينما كان هناك شعراء أقوياء يشبعون أرواح المتأدبين ويعبرون عما يجيش في نفوسهم أمثال شوقي وحافظ ومطران وعلي محمود طه ، فلما ضعف صوت هذا الشعر أو كاد تطلع العرب في المشرق إلى شعر المهجر ودرسوه ووجدوا في كثير منه صوراً جديدة ونعماً جديداً فأقبلوا عليه وظهرت فيه عدة دراسات في السنوات الأخيرة دليل الاهتمام والإعجاب . وكان لدعوتهم إلى هجر بعض أغراض الشعر العربي القديم ولا سيما المديح والفخر والهجاء صدىً في أدبنا الحديث .

### — ٣ —

أما نقاد مصر فقد اختلفوا شيعاً ، فهيكل يدعو إلى الأدب القومي <sup>(٢)</sup> ، ويلح في كثير من كتبه أن تتجه في أدبنا اتجاهاً قومياً ، ويرى أن مصر الحديثة أقرب إلى مصر الفرعونية منها إلى مصر الإسلامية ، وعقد موازنات شتى بين ما تخلف عند المصريين المحدثين من عادات ، وبين ما كان عند الفراعنة ، كحفلات الزواج وحفلات الجنائز ، وتعظيم الأولياء ، ويدعو إلى أن تقتبس في أدبنا الحديث من تاريخ الفراعنة « وأن يعمل مؤرخونا وأدباؤنا ليتمثل ابن اليوم هذا الميراث المجيد فيجمع

(١) راجع العقاد والمازني في بلاغة العرب في القرن العشرين ص ٦ وص ٩ وراجع العقاد مقدمة الغرغال ص ٨ .

(٢) ثورة الأدب ص ١٤٠ وما بعدها . (توفي الدكتور هيكل في ٧ ديسمبر ١٩٥٦) .

ذهنه وقلبه وفؤاده وتصوره وخياله ما كان لمصر في ميادين العقل والعلم والخيال من مجد وعظمة ، تنقلت في تاريخ مصر على كاهل القرون « حتى وصلت إلينا ، ويدعو إلى استجلاء عظمة تلك الآثار الباهرة التي خلّقتها قدماء المصريين فإنها مصدر إلهام عظيم للشعر • وقد ضرب هيكل أمثلة لهذا النوع من الأدب القومي الذي ارتآه ، والذي يستلهم تاريخ مصر القديم ، فأنشأ عدة قصص تدور حول الفراعنة مثل ( إيزيس ) و ( راعية هاتور ) و ( أفروديت ) وغيرها •

وهو يرى أن محاولاته في الأدب القومي لم تبلغ حد الكمال ، ولا قاربت به ، وأنه يضع بها نماذج مقتفيا آثار شكسبير ، وأناطول فرانس ، وبرناردشو في محاولتهم الكتابة عن قدماء المصريين ، وإن لم يدانهم في روعة أدبهم <sup>(١)</sup> .

من العجيب أن بعض أدبائنا في مستهل هذا القرن حاولوا أن يتكروا لعروبة مصر وإسلاميتها ، وأن يدفعوها إلى الورا قرونًا حتى تتعلق بأذيال الفرعونية متمسكين أسبابًا واهية لذلك من مثل ما ضربه هيكل من عادات الزواج وحفلات الجنّازة وتعظيم الأولياء ، مع أن هذه أمور استقرت في مصر منذ العهد الإسلامي ، وهي طبيعة في كل الأمم ؛ فلطم الخدود وشق الجيوب ، وصنع الوجوه بالسواد ، وخروج النساء وراء الميت ، عادات عرفها عرب الجاهلية ، ونهى عنها الإسلام ، وهي ظاهرة تلفت النظر لدى الشعوب البدائية • أما زف العروس ، ودق الطبول ، وإطلاق الزغاريد وراء العروس فمما يمارسه الناس في كل أمة ولسنا نجد فيه بدعًا • وأما تنظيم الأولياء فقد كان للفاطميين أثر عظيم في تمكينه بنفوس المصريين ، ومعظم أولياء مصر من آل البيت ، وكما يوجد في مصر أضرحة يعظم الناس سكانها يوجد كذلك في كل بلد اعتنقت المذهب الشيعي مثل هذه الأضرحة كبلاد إيران وبعض نواحي العراق والمغرب •

إن من التكلف والتسلف أن فرجع بمادات المصريين وتقاليدهم إلى قدماء المصريين ، وقد غفى البطالسة والرومان في سنوات طويلة على آثار هذه التقاليد الوثنية ، ولا سيما بعد أن دخلت مصر في المسيحية على يد الرومان ، ولما جاء العرب لم يجدوا للغة الفرعونية ولا للتقاليد الفرعونية أثرًا في حياة المصريين • أجل ! إن

(١) حديث إبليس في أوقات الفراغ ص ١٩ •

هناك بعض رواسب فرعونية ممثلة في قليل من الألعاب التي يمارسها أطفال المصريين في الريف ككرة اليد وكرة المضرب وغيرهما ، ولكن هذا لا يجعل مصر الحديثة أقرب إلى مصر الفرعونية منها إلى مصر الإسلامية كما يدعي هيكل .

والأغرب من هذا أن يدعي الدكتور طه حسين في كتابه « مستقبل التعليم في مصر » أن مصر أقرب إلى اليونان منها إلى العرب والمسلمين ، ولعل السبب في هذه النزعات هو حب التظاهر بالتجديد ، والخروج على المألوف ، أو التأثر بالحملات الاستعمارية على الإسلام وبحسبك أن هؤلاء الذين أنكروا يوماً عروبة مصر وإسلاميتها صاروا اليوم من أكبر الدعاة لهذه العروبة ومن أشد المدافعين عنها ، وبحسبك كذلك أن هؤلاء الذين تهجموا على الدين الإسلامي في مستهل حياتهم الأدبية حتى تشتهر أسمائهم ويلهج بها الناس لم ينالوا جوائز الدولة إلا على كتبهم الإسلامية مثل ( على هامش السيرة ) لطف حسين ، و ( أبو بكر الصديق ) لهيكل لأنها أحسن تتاجهم .

وليس تاريخ مصر القديم وحده هو مصدر الأدب القومي في رأي هيكل ، بل عنده أن وصف الطبيعة المصرية ، وما فيها من جمال فتان من صميم الشعر القومي ، وقد عقد لذلك فصلاً كاملاً في كتابه ثورة الأدب ، يبين فيه ما يجب على الشعراء حيال هذا الجمال في الطبيعة المصرية ، « لكن العجب هم أولئك الذين نسيهم شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها . هؤلاء كذلك يشعرون أكثرهم إزاء ما في بلادهم من جمال بمثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين في مصر ، فقلّ منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال إلى حدّ يهز شاعريته أو خياله أو فنه اهتزازاً يخرج من نفوسهم صيحات صادقة كلها تأليه لهذا الجمال وعبادته وتقديسه ، ويستثير من أوتار شاعريتهم أو خيالهم هذه الأناشيد التي تدفع بالفارس ليلقي بنفسه في غمار « التبير »<sup>(١)</sup> متغنياً : « أيها التبير ! يا أبانا التبير ! يا من يسبح الرومان بحمده ! إليك حياة روماني وعدة حربه ، خذهما اليوم في رعايتك » بل إن أحدهم ليحس أحياناً بأن واجباً عليه أن يتحدث عن بلاده وتاريخها وعن جمالها ، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة ما يخلبك ، ولكنك وجدته خلواً من الشعور الصادق ،

(١) التبير : نهر بإيطاليا ، وهو الذي تقع عليه مدينة روما .

والإحساس العميق • وكل شعر وكل أدب ، وكل فن ليس صادراً عن شعور صادق ، وإحساس عميق ، لا حياة فيه ولا بقاء له ، وسر هذا الجمود في تقدير جمال بلادنا ضعف الإيمان في نفوس شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوي الفن فينا بالجمال « (١) • وأخذ هيكल يتغنى بجمال النيل ، ويحاول أن يكشف عن مفاته لأدبائنا وشعرائنا ، ويغريهم بالذهاب إليه والتلمي من محاسنه ، حتى يكون إحساسهم بالجمال عميقاً ، وحتى يستلهموا هذا النهر الذي يفوق في جماله كل أنهار أوربا وما يحيط بها ، بل « أين أنت يا أنهار أوربا ، وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد ، المبارك الغدوات ، الميمون الروحات ؟ » •

يدعو هيكل الشعراء والأدباء إلى تمجيد الطبيعة المصرية حتى يحبوا فيها بني قومهم ، ويكشفوا لهم بما أوتوا من حساسية مرهفة ، وذوق صاف ، وشعور فياض بالجمال ، وقدرة فائقة على التعبير عن هذا الجمال ، « لو أن رهطاً من الشعراء والكتاب ، وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودوّنوا وحيه ، لرأيت صاحبي الذي هزّ كتفيه حين ذكرت له إعجابي بالنيل وجماله أشدّ بنيل بلاده إعجاباً منه بجمال سويسرا ، أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم • نعم ! فالنّ يسكب الجمال حتى في النفوس الجامدة أمام الجمال ، وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس إلى العمل للمزيد من هذا الجمال ، ذلك بأنه يحب إليهم الحياة ، ويدعوهم إلى زيادة تجميلها ، وإلى معاونة الطبيعة لإظهار زينتها وبهجتها » (٢) •

ولا شك أن دراسة هيكل للأدب الأجنبي القديم والحديث ، ولا سيما أدباء المدرسة الإبداعية أمثال رسو ، وهيغو ، وأنانول فرانس ، وشاتوبريان ، ولامارتين وغيرهم هي التي اوحت إليه بأن يهزّ أدباءنا تلك الهزة القوية لعلهم يستيقظون ، ولكننا نقول تقريراً للحقيقة : إن تلك النزعات القومية التي دعا إليها هيكل ، وتغنى بها ، وحث ، الشعراء عليها : من إحياء التاريخ القديم ، وتغنيه بالطبيعة ، قد ظهرت في شاعر مصري قوية جذابة من أول نشأته الشعرية ، وذلك هو شوقي ، فقصيدته « كبار الحوادث في وادي النيل » التي قالها في مؤتمر المستشرقين بجنيف عام ١٨٩٤ والتي مطلعها :

هتّ الفلك واحتواها الماء وحداها بمن قل الرجا

« رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي ، وقف فيها الشاعر وقمة مصري ، صادق العاطفة ، تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ »<sup>(١)</sup> وليست هذه هي القصيدة اليتيمة التي قالها شوقي في مصر ، بل إنه أحسَّ بما أحس به هيكل ، وسبقه في شعوره ، وفي إبراز هذه الفكرة ، واستجابته لجمال بلاده ، ولإيمانه العميق بها ، فقال عدة قصائد في تاريخ مصر قديماً وحديثاً كقصائده على سفح الأهرام ، وأبي الهول ، وتوت عنخ آمون ، وأنس الوجود ، « وأنت إذ تقرأ هذه القصائد يهزك الشعور بصورة هذا الماضي في قداساتها ومهابتها ، وتملكك نفس الشاعر فترفع بك عن مستوى الحياة الدنيا إلى سماوات الخلد . ذلك بأن شوقي يهديك المعنى الذي كانت تلتسمه نفسك فلا تقع عليه ، ويرسم أمامك بوضوح وقوة وسمو خيال ونبل عاطفة كل ما ينبض به قلبك ، ويهتز له فؤادك »<sup>(٢)</sup> .

ولم يكتف شوقي بهذا بل هو كما قدِّمت لك في غير هذا الموضع قد أبدع الإبداع كله في وصفه الطبيعة المصرية ، وإظهار جمالها ، وفتن بها إلى حد العبادة :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

واستعرض تاريخ بلاده في خلال الحكم الإسلامي بقصائد رائعة ، ووضع روايات عدة في تاريخ مصر القديم والحديث ، وأفرد جزءاً خاصاً من شعره لمجد العرب والإسلام ؛ فشوقي من هذه الوجهة هو شاعر القومية المصرية وهو أسبق من كل هؤلاء الأدباء إلى وضع النموذج الصحيح ، في الأسلوب العالي الممتاز في الأدب القومي . إن هذه الصيحات التي جأر بها هيكل ، كان يقصد بها المزيد من شوقي ، والاحتذاء حذو شوقي من هؤلاء الشعراء الذين لم يحركهم جمال بلادهم . ولا شك أن شوقي وهيكل قد تأثرا في هذه الدعوة بما رأيا وقرأ في الأدب الأوربي ، ولعلَّ ( تاييس ) لأناتول فرانس ، وكليوباترة لإميل مورو ( Moreau ) — وقد مثلتها ساره برنارد في سنة ١٨٩٠ وشوقي بعدئ طالب في باريس بعض ما أوحى إليه بهذا .

(٢) المصدر السابق .

(١) مقدمة هيكل للشرقيات ص ٦ .

لقد كانت هذه النزعة على أشدها في فرنسا منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وظهرت عشرات الكتب : الروايات ، والمسرحيات ، والقصائد في تلك الحقبة تدعو إلى تمجيد الطبيعة وإلى استلهاً التاريخ ، وقد ظلت كذلك حتى الحرب العالمية الأولى . وقد عاصر شوقي وهيك (١) كثيراً من هؤلاء الأدباء والشعراء الذين أولعوا بالطبيعة والتاريخ وشاهدوا مسرحياتهم ، وقرأوا توجيهاتهم (٢) ، فتأثروا بهم كل التأثر .

وليست الدعوة إلى الأدب القومي هي كل ما غني به هيك ، فقد رأى أن الأدب لا يقوم على الألفاظ والعبارات ، بل بما يقدمه الأديب من الصور والمعاني ، وما تبعثه هذه الصور والمعاني إلى النفس من لذائذ ، وإلى المشاعر من اهتزازات ، وإلى الخيال من الصور ، وإلى الذهن من التفكير ، وهذه النفوس القوية لا يمكنها أن تفيض بهذا الإلهام إلا إذا كانت تمثل بيئة خاصة أو عصرًا خاصًا ، كما فعل هوميروس ، وفيرجيل ، وشكسبير ، وفولتير ، وجوته ، حيث خلدوا على الرغم من تطور الحياة ، وتقدم الحضارة في العالم ؛ لأن نفوسهم مثلت أمة خاصة وعلماء خاصًا ، فانطبعت فيها الصفات الخالدة لأممهم ، والتي لا يأتي عليها تقدم أو تطور (٣) .

وينادي بأن الأدب في مصر ، وفي كل بلد عربي يجب أن يكون له طابع خاص يميزه عن الأدب العربي القديم ؛ وإلى أن يكون أدبنا الحديث عنواناً لحضارتنا ، التي هي جزء من حضارة أوروبا (٤) . وعنده أن أحسن وسيلة لوضوح شخصية الأديب في أدبه هي اتصال ما يكتب بقلبه ، وعقله ، وكل حياته . وليس ذلك بمستطاع إلا إذا وصف حياته وحياة قومه ووطنه وكل ما توحى به هذه الحياة للعقل والقلب والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلمهه أو توحى به ، وبذلك نصل حاضرتنا بماضيها (٥) .

ويعتقد أن جرثومة الأدب المصري المستقبل تكمن في أناشيد الشعب الساذجة

---

(١) أخذ هيك البكالوريا سنة ١٩٠٥ والحقوق سنة ١٩٠٩ ، وسافر إلى باريس سنة ١٩٠٩ ومكث بها حتى سنة ١٩١٣ حين نال شهادة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي .

(٢) إذا أردت ثبوتاً بالكتب والمسرحيات والروايات الفرنسية التي تنزع هذه النزعة فارجع إلى Marcel Braunschwig t, 2 في كتابه القيم Notre Littérature Etudée dans les textes P. 772, 773, 778.

(٤) نفس المصدر ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٣) أوقات الفراغ هيك ص ٣٥٤ - ٣٥٥

(٥) ثورة الأدب ص ١٢٢ .

التي ينشدتها في حفلات الأعراس والمآتم ، من ذكريات الحب والحنان والتضحية والتفجع ، وما يرويه الرواة المحليون عن أبطال القرون الغابرة ، وما يحكونه من القصص التي تعبر عن خلق الشعب وصبره ، وقوة احتماله ، وما تحدثت به عن عبقريته الفطرية وعن آماله وأحلامه<sup>(١)</sup> .

وهو في هذا متأثر كل التأثر بثقافته الأجنبية فقد ابتدأ يقرأ وهو بمد طالب بمدرسة الحقوق في مصر شيئاً في الأدب الإنجليزي وفلاسفة الإنجليز ومفكرهم ؛ قرأ كتاب الأبطال لكارليل ، والحرية لجون ستيوارت مل ، والعدل لسبنسر .

ولما ذهب إلى فرنسا استهواه الأدب الفرنسي وآثره على غيره ، ورأى فيه من السمو الأدبي ما لا يراه في غيره من الآداب العربية والإنجليزية معاً ، وذلك لما فيه من سلاسة وسهولة وقصد ودقة في التعبير والوصف ، وبساطة في العبارة وعناية بالمعنى أكثر من العناية باللفظ<sup>(٢)</sup> . ولم يكن قد اتصل بالثقافة العربية ولا بالدين الإسلامي عن قرب . ولقد عدل من أفكاره فيما بعد واستوحى التاريخ العربي الإسلامي في بعض آثاره حين وجد فيها الروعة والعمق والجلال والمثل الأعلى الذي يرنو إليه .

فهيكّل بجانب دعوته إلى الأدب القومي يطالب الأدباء بأن يتجنبوا العناية بالزخرف ، والاهتمام بالألفاظ ، وأن يحفظوا بالصور والمعاني ، ولن يتأتى لهم هذا إلا إذا وصفوا بيئتهم ونفوسهم وحياتهم ، ومثلوا عصرهم أتم تمثيل ، لا أن يعيشوا في لغة عرب البادية وخیالهم وصورهم ومعانيهم ، وآمالهم ، وطريقة نظمهم ، وأن يهيموا في أودية الشعر بعيدين عن مجتمعاتهم .

ويدعو كذلك إلى ظهور شخصية الأدباء ، وذلك بأن يصدر أديبهم عن إحساس وصدق وعاطفة ، كما يدعو إلى تخليد الأدب الشعبي . وهو لا يقصد بدعوته ذلك الجيل من الشعراء الذي ألف الجمود ، واختط لنفسه طريقاً خاصة في الشعر يعنسر أن يحيد عنها ، وإنما يخاطب جيلاً جديداً يستطيع أن ينهج بالشعر نهجاً يحقق الغرض منه<sup>(٣)</sup> . وكثير مما أراده هيكل قد تحقق عند بعض الشعراء الذين تثقفوا

(١) السياسة الأسبوعية ٢ فبراير ١٩٢٦ .

(٢) ثورة الأدب ص ١١٢ ، ومقدمة قصة زينب ص ١١ .

(٣) ثورة الأدب ص ٧٤ .

ثقافة عالية ، وكان عندهم مرونة عقلية ليتشكلوا حسب زمانهم أمثال شوقي ومطران • اللهم إلا دعوته إلى الأدب الشعبي فإنها لم تتحقق •

— ٤ —

كان هيكل من الذين تأثروا بالأدب الفرنسي ونهج طريقة المدرسة الطبيعية الفرنسية ، ولم تكن دعوته إلى التجديد هي الأولى في مصر ، بل سبقه إلى الثورة على الأدب القديم وبخاصة على الشعر العربي المعاصر لهم ثلاثة من شباب الأدباء ظهوروا في أخريات العقد الأول من القرن العشرين ، بعد أن تشبعوا بدراسة الأدب الإنجليزي وهم عبد الرحمن شكري ، عباس العقاد ، والمازني •

وكان شكري رائد هذه المدرسة ، وكان متمكناً في اللغة الإنجليزية بحكم دراسته منذ السنة الأولى الابتدائية حتى تخرج في المعلمين العليا سنة ١٩٠٩ وهي السنة التي صدر فيها ديوانه الأول ( ضوء الفجر )<sup>(١)</sup> • وأعجب شكري كل الإعجاب بشعراء الرومانسية الإنجليزية ، وردسورث وكولردج وشيلي ويرون وكيثس وسكوت ، وأخذ يلتهم كل ما أنتجوه في نهم وشراسة ، وهو في هذه السن التي تنفتح فيها المواهب وتوجه الملكات ، فتأثر بهم في الروح والمنهج ، وفهم فهماً جديداً المهمة الشعرية غير ما كان يفهمه شعراء العربية قبله •

كان طابع هذه المدرسة الإنجليزية البساطة في التعبير وعدم التقيد بما كان يسمى ( المعجم الشعري ) The Poetic Diction •

بل كانوا يؤثرون الكلمات المألوفة الشائعة الاستعمال ، ثم الاهتمام بالنفس الإنسانية في أبسط صورها ، فلم يحفلوا بالملوك والأمراء ورجال الحاشية والأبطال ، كما كانت تحتفي المدرسة الاتباعية ( الكلاسيكية ) ، وإنما فتشوا عن النفس الساذجة البسيطة التي لم يلوثها النفاق الاجتماعي والرياء والزيف ، وراحوا يسبرون أغوار نفوسهم ونفوس العامة من الشعب ، ويفصحون عما تكنه هذه النفوس في دقة ووضوح ، كما أغرموا بالطبيعة غراماً شديداً •

---

(١) راجع ترجمتنا لعبد الرحمن شكري في ( دراسات أدبية ج ١ ص ٢٣١ ) •



كان شعرهم وجدانياً ذاتياً ينبع من قرارة نفوسهم ، ويستوحي مشاعرهم  
يحدثها ، ولكنهم لم يكونوا متشائمين ، ولم يفعل بهم الأسى ما فعل بإخوانهم شعراء  
الرومانسية الفرنسية ، الذين صبغوا شعرهم صبغة حزينة سوداء ، نتيجة للكبت  
وخيبة الآمال في الأمبراطورية التي شيدها نابليون ثم قوضتها رياح الأحداث  
العاصفة ، والخراب الذي حلّ بفرنسا على أثر تلك الحروب الطويلة التي أثمرت  
اليتم والترمل والفقر والفراغ القتال .

بيد أن المدرسة الإنجليزية التي أتت بعد زعماء المدرسة الرومانسية الأوائل  
جنحت إلى الواقعية ، وتكشفت لها الطبيعة البشرية في أبشع صورها وتمثل لها ذلك  
الصراع الدامي في المجتمع الغربي بين النزعات والرغبات المتباينة ، وعبرت عنها  
تعبيراً مباشراً ، فجاء أدبها حزناً كثيباً متشائماً ، يمثل برونج ، وبو ، وويتمان ،  
وتوماس هاردي وأضرابهم .

وقد قرأ لهم شكري كما قرأ لأسلافهم ، ومن ثمّ أصيب بعدوى الحزن  
والكتابة التي صارت طابع شعره كله . وقد أتيح له أن يذهب إلى إنجلترا عقب  
تخرجه في مدرسة المعلمين العليا ، ومكث ثمة بضع سنوات زادت فيها ثقافته الأدبية  
واتسعت آفاقها . وقرأ كثيراً بالإنجليزية عن الآداب الأوربية الأخرى ثم عاد إلى  
مصر ، وزادت صلته وثيقة بالمازني والعقاد ، وأخذ يوالي إصدار دواوينه الشعرية  
حتى بلغت سبعة في بضع سنين آخرها سنة ١٩١٩ . وقد قدّم العقاد لديوانه الثاني ،  
كما كتب هو مقدمة الجزء الخامس من ديوانه ، وتعتبر هذه المقدمة دراسة طيبة  
لرأيه في الشعر والطريقة التي يجب أن يسلكها الشعراء ، وقد وضع فيها أسس هذا  
المذهب الجديد في الشعر ، ذلك المذهب الذي سلكه صاحباه المازني والعقاد على  
اختلاف بينهم في الاهتمام بالعاطفة والفكر حيث زواج شكري بينهما ، وآثر  
لمازني العاطفة ، وانفرد العقاد بالفكرة .

ويقر المازني بأن شكري هو الذي هداه إلى الطريق السوي في الشعر حيث  
قال (١) « ولقد غير زمن كان فيه شكري محور النزاع بين القديم والجديد — ذلك  
أنه كان في طليعة المجددين إذا لم يكن هو الطليعة والسابق إلى هذا الفضل ، فقد

(١) جريدة السباسة عدد ٥ من أبريل ١٩٣٠ بعنوان « التجديد في الأدب » .

ظهر الجزء الأول من ديوانه ، وكنا يومئذ طالبين في مدرسة المعلمين العليا وكانت صلتني به وثيقة ، وكان كل منا يخطط صاحبه بنفسه ، ولكنني لم أكن يومئذ إلا مبتدئاً ، على حين كان هو قد انتهى إلى مذهب معين في الأدب ، ورأي حاسم فيما ينبغي أن يكون عليه . ومن اللؤم الذي أتجافى بنفسي عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدي وسدد خطاي ، ودلني على المحجة الواضحة ، وأتني لولا عونه المستمر لكان الأرجح أن أظل أتخطأ أعواماً أخرى ، ولكان من المحتمل جداً أن أضل طريق الهدى » .

قال المازني هذا ، بعد أن جحد فضل شكري ، وأساء إليه إساءة بالغة في « الديوان » حيث سماه صنم الألاعيب ، وجحد كل ما له من فضل ، ورماه بالجنون ، وجرده من كل صفات الشعراء ، مما آلم شكري أشد الألم ، وزاده زهداً في الناس والحياة وتشاؤماً ، فآثر العزلة والانصراف عن قول الشعر إلا لماً في أوقات متباعدة ، كما قضت هذه المعركة على المازني وصرفته عن قول الشعر .

حدد شكري مهمة الشاعر بقوله<sup>(١)</sup> : « ينبغي للشاعر أن يتذكر — كي يجيء شعره عظيماً — أنه لا يكتب للعامة ، ولا لقرية ، ولا لأمة ، وإنما يكتب للعقل البشري ونفس الإنسان أين كان ، وهو لا يكتب لليوم الذي يعيش فيه ، وإنما يكتب لكل يوم وكل دهر ، وهذا ليس معناه أنه لا يكتب أولاً لأمة المتأثر بحالتها المتهىء بيئتها » .

ولا نقول إن كل شاعر قادر على أن يرقى إلى هذه المنزلة ، ولكنه باعث من البواعث التي تجعل شعره أشبه بالمحيط — إن لم يكن محيطاً — منه بالبركة العظنة في المستنقع الموبوء » .

ومعنى هذا أن الشاعر يجب أن يستوحى نفسه ويعبر عنها غير ملتفت إلى العامة أو القرية أو الأمة ، وأن تكون نظراته شاملة للإنسانية جمعاء وليست محلية خاصة — وهو مطلب عسير كما أقره بذلك .

ويفهم من هذا أيضاً نفوره من شعر المناسبات والأحداث اليومية التي تحيط

بالشاعر . وقد صرح بذلك في مقدمة الجزء الرابع حيث قال : « وبعض القراء يهذي بذكر الشعر الاجتماعي ، ويعني شعر الحوادث اليومية مثل افتتاح خزان أو بناء مدرسة أو حملة جراد أو حريق فإذا ترفع الشاعر عن هذه الحوادث اليومية ، قالوا : ما له ؟ هل نضب ذهنه ؟ أو جفت عاطفته ؟ ... » .

ولم يكن الشعر عند شكري كلاماً مزوقاً مرصوفاً ، عذب الجرس والنغم فحسب ، ولكنه معنى وفكرة وعاطفة قبل كل شيء . والمعاني البكر تتولد من سواها ، وهذا لا يتأتى إلا بإدمان القراءة في نهم وشراهة ، فكثرة الاطلاع خير زاد للشاعر ، تثير خياله ، وتحشد أمامه المعاني يختار جيادها ، وتبعثه على التأمل .

وكان شكري من المولعين بالقراءة في الأدبين العربي والغربي على السواء وفيه يقول العقاد<sup>(١)</sup> : « لم أعرف قبله ولا بعده أحداً من شعرائنا وكتابنا أوسع منه اطلاعا على أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية وما يترجم إليها من اللغات الأخرى ، ولا أذكر أنني حدثته عن كتاب قرأته إلا وجدت عنده علماً به وإحاطة بخير ما فيه ، وكان يحدثنا أحياناً عن كتب لم نقرأها ، ولم نلتفت إليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ » وفي جدوى القراءة وأثرها في الشعر يقول شكري :

« الاطلاع شراب روح الشاعر ، وفيه ما يوقظ ملكاته ويحركها ويلقح ذهنه ، ونفس الشاعر ينبوع ، والاطلاع هو الآلة التي يرفع بها ماء ذلك ينبوع إلى الأماكن العالية ، والشاعر في حاجة إلى محركات وبواث ، والاطلاع فيه كثير من هذه المحركات والبواث ، والأديب الذي لا يقوم بالاطلاع كالماء الآجن العطن الذي لا يحركه محرك .

« وكلما كان الشاعر أبعد مرمى ، وأسمى روحاً كان أغزر اطلاعاً فلا يقصر همه على درس شيء قليل من شعر أمة من الأمم ، فإن الشاعر يحاول أن يعبر عن العقل البشري ، والنفس البشرية ، وأن يكون خلاصة زمنه ، وأن يكون شعره تاريخاً للنفس ومظهر ما بلغته النفوس في عصره » .

وإذا كان شكري قد استطاع أن يفيد شعره من كثرة اطلاعه فتغزر معانيه ،

ويطرق أبواباً جديدة في الشعر لا عهد للعرية بها ولا سيما في الشعر الوجداني الذاتي ، فإن المازني قد استساغ أن يترجم شعر غيره وينسبه لنفسه . وقد صدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩١٤ وفيه بعض الشعر المنقول عن الإنجليزية مدعياً أنه له مثل قصيدة «رقبة حسناء» وهي «لشلي» والجزء الأخير من قصيدة «أماي وذكر» وهي «لبرنز» . وأول هذا الجزء «يا ليت حبي وردة» ، و «فتى في سباق الموت» وهي «لهود» ، وغيرهما مما جعل شكري يفزع من هذه السرقات ؛ إذ ليس معنى سعة الاطلاع وكثرة القراءة والتجديد في الشعر أن نسطو على آثار سوانا دون التنويه بهم وبفضلهم . فنعى على المازني هذه السرقات وأذاعها في الناس ، وهو العليم بمواطنها في الشعر الإنجليزي ، ولم يغتفر المازني لأستاذة وصديقه صراحته في تهجمه في إفشاء سره ، فشن عليه حملة شعواء في «الديوان» ، ذكرناها آنفاً ، وقد قضت عليهما معاً في ميدان الشعر .

ومن يتملّى كلام شكري في فائدة القراءة وأثرها في تزويد الشعر بالمعاني وإثارة الخيال ، يدرك أن شكري ممن يؤثرون المعنى على اللفظ والصياغة ، وكان هذا طابع مدرسته وجرى على سنته زميلاه . وقد أضر ذلك بشعرهم ؛ لأن المعاني في الشعر لا تقصد لذاتها ، ولكنها تقصد حين تلبس ثوب الفن الرفيع ، مصحوبة بالموسيقى الشعرية الخلابة ، فإذا اكتفى الشاعر بالمعنى ولم يعط أركان الشعر الأخرى حقها هبط شعره إلى مستوى النثر .

ولم يكن شكري ممن يهتمون باختيار الألفاظ ذات الجرس والرنين بل كلف بالبساطة في التعبير وباستعمال الكلمات المألوفة ، وهو بهذا يقتفي أثر المدرسة الرومانسية الإنجليزية التي نفرت من المعجم الشعري ويقول : « وجدت بعض الأدباء يقسم الكلمات إلى شريفة ووضيعة ، ويحسب أن كل كلمة كثر استعمالها صارت وضیعة ، وكل كلمة قل استعمالها صارت شريفة ، وهذا يؤدي إلى ضيق الذوق وفوضى الآراء في الأدب ، فالعيب هو استعمال الكلمة في غير مواضعها » .

وعبر شكري عن سخطه على طريقة الشعر الموروثة ، وثار عليها ثورة عملية وتقديية . وقد راعه اهتمام الشعراء بالتشاييه والاستعارات والمبالغات من غير أن يكون لها أثرها في القارئ أو السامع وذلك حين يقول : « وقد فسد ذوق المتأخرين في الحكم على الشعر حتى صار الشعر كله عبثاً لا طائل تحته ، فإذا تغزلوا جعلوا

حبيبهم مصنوعاً من قمر وغصن وتل وعَيْن من عيون البقر ولؤلؤ وبرَد وغب  
ونرجس .. الخ ومثل ذلك قول الواواء الدمشقي •

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

ويقول كذلك مفصلاً الكلام على التشبيهات التي ولع بها المتأخرون : « ومثل  
الشاعر الذي يرمي بالتشبيهات على صحيفته من غير حساب ، مثل الرسام الذي  
تغره مظاهر الألوان فيملأ بها رسمه من غير حساب » • التشبيه عنده لا يقصد  
لذاته ، وليس هو عقد صلة بين محسوس ومحسوس أو بين مغنوي ومحسوس  
« فوصف الأشياء ليس بشعر إذا لم يقترن بمواقف الإنسان وخواطره وذكرياته  
وأمانيه وصلات نفسه ، والتشبيه لا يراد لذاته ، وإنما يراد لشرح عاطفة أو توضيح  
حالة أو بيان حقيقة » وأجل الشعر عنده ما خلا من التشبيهات البعيدة والمغالطات  
المنطقية •

وهو بهذا يريد أن يجعل التشبيه وسيلة لحمل أثر المشبه في نفسه أو الإيحاء  
بهذا الأثر فالتشبيه إذا لم يقرن بالعاطفة أو لم يكن وسيلة لنقلها فلا فائدة منه ولا  
جدوى فيه •

وقد ضرب مثلين على الشعر الجيد الذي وصف حالة مشبعة بالعاطفة فكان  
أثره في النفس رائعاً أولهما في الرثاء قول مويك يرثي امرأته وقد خلفت له بنتاً  
صغيرة فوصف حالة هذه البنية بعد وفاة أمها :

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| فلقد تركت صغيرة مرحومة    | لم تدر ما جزعاً عليك فتجزع |
| فقدت شمائل من لزامك حلوة  | فتبيت تسهر أهلها وتفجع     |
| وإذا سمعت أنينها في ليلها | طفقت عليك شئون عيني تدمع   |

فهو لم يعلمك شيئاً جديداً لم تكن تعرفه ، ولم يبهز خيالك بالتشبيهات  
الفاسدة والمغالطات المعنوية ، ولكنه ذكر حقيقة ، ومهارته في تخيل هذه الحالة  
ووصفها بدقة • ومن أمثال هذا في الغزل قول ابن الدمينه في وصف حياء الحبيب •

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له  | ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب |
| ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل | به سكتة حتى يقال مريب      |

مثل هذا الشعر يصل إلى أعماق النفس ويهزها هزاً والشعر هو ما أشعرك وجعلك تحس عواطف النفس إحساساً شديداً » .

وقد بين شكري الفرق بين الخيال Imagination والوهم Fancy ، لأن كثيراً من الشعراء يخلطون بينهما ، فيفسد شعرهم وذلك حين يقول : « إن التخیل هو أن يظهر الشاعر الصلات التي بين الأشياء والحقائق ، ويشترط في هذا النوع أن يعبر عن حق ، والتوهم هو أن يتوهم الشاعر بين شيئين صلة ليس لها وجود ، وهذا النوع يتغنى به الشعراء الصغار ، ولم يسلم منه الشعراء الكبار ومثله قول أبي العلاء المعري :

واهجثم على جناح الدجى ولوانه أسد يصول من الهلال بمخبل

والصلة التي بين المشبه والمشبّه به صلة توهم ليس لها وجود ، وكذلك قول أبي العلاء في سهيل النجوم :

ضرجته دماً سيوف الأعادي فبكت رحمة له الشعريان

أي أعادي ؟ وأي سيوف ؟ في مثل هذا البيت ترى الفرق واضحة بين التخیل والوهم ، وأمّا أمثلة الخيال الصحيح ، فهو أن يقول قائل إن ضياء الأمل يظهر في ظلمة الشقاء ، كما يقول البحري :

كالكوكب الذي أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق وانجلي

فهذا تفسير للحقيقة وإيضاح لها ، وكذلك قول الشريف الرضي :

ما للزمان رمى قومي فزعزعهم تطاير القعب لما صكّه الحجر

والقعب القدح ، فهو يشبه تفرق قومه ، بتطاير أجزاء الإناء المكسور وهذا أيضاً توضيح لصورة حقيقة من الحقائق وهي تفرق قومه . وفي الحق إن هذه التفرقة بين الخيال والوهم تدل على رفاهة حس ورقة وحسن تفهم للشعر ؛ وقد عدّ العقاد شكري رائد هذه التفرقة ، ووضحها في كثير من مقالاته النقدية كما ستأتي بعد .

والمعاني الشعرية عند شكري هي : خواطر المرء ، وآراؤه وتجاربه وأحوال نفسه وعبارات عواطفه •

ومن الأمور النقدية التي نادى بها شكري وحدة القصيدة وقال في ذلك : « قيمة البيت في الصلة التي بين معناه وبين موضوع القصيدة ؛ لأن البيت جزء مكمل ، ولا يصح أن يكون البيت شاذاً خارجاً عن مكانه من القصيدة بعيداً عن موضوعها ، وينبغي أن ينظر إلى القصيدة من حيث هي شيء فرد كامل لا من حيث هي أبيات مستقلة » •

وقد قلنا في غير هذا الكتاب<sup>(١)</sup> تعليقاً على رأي شكري هذا : « وهذه الدعوة إلى وحدة القصيدة ثورة أخرى على نظام الشعر العربي الذي كان البيت فيه وحدة مستقلة ، ولكننا نلاحظ أن شكري لم يتطرق في دعوته مثلما تطرف العقاد من بعد ، حين دعا إلى الوحدة العضوية وإلى أن القصيدة بنية حية ؛ وكل الذي أراده شكري ألا يكون البيت خارجاً في معناه عن موضوع القصيدة ، أي أن القصيدة تكون كلها ذات موضوع واحد ، لا عدداً من الموضوعات ، كما كانت القصيدة العربية التي وضع أسسها الجاهليون •

إن وحدة القصيدة كما أرادها شكري قد تحققت لديه ، فكل قصيدة من شعره غالباً ذات موضوع واحد ، مرتبطة أبياتها بعضها ببعض ولكن ليس بالقدر الذي إذا قدمت فيه بيتاً على آخر ، أو أخرت بيتاً أو حذفته اختل نظام القصيدة وبتر المعنى كما أراد الأستاذ العقاد وتهكم بشوقي في قصيدته التي رثى بها مصطفى كامل •

إن طبيعة الشعر الوجداني أن يكون انفعالات يتلو بعضها بعضاً وليس انفعالاتاً واحداً متصلاً ، وذلك لتعدد الانفعالات وتباينها نوعاً وقوة وضعفاً ، ولم تتحقق الوحدة العضوية أبداً في الشعر الوجداني لدى أي شاعر من شعراء العالم ، اللهم إلا إذا نظمها على طريقة القصة ، فهنا فقط يجوز أن تتحقق ، وفي شعرنا القديم حتى الجاهلي منه أمثلة عدة لوحدة القصيدة إذا جاءت قصة » •

وقد حاول شكري أن يخرج على القافية العربية في القصيدة فنظم الشعر

المرسل وهو الموزون غير المقفى • وقد أنهى ديوانه الأول ( ضوء الفجر ) بقصيدة طويلة من الشعر المرسل تحت عنوان « كلمات العواطف » ؛ ونجد له في الجزء الثاني قصيدة من هذا النوع بعنوان « واقعة أبي قير » وأخرى « نابليون والساحر المصري » •

وقصيدته « كلمات العواطف » أفكار متناثرة ، وأبيات مستقلة بعضها عن بعض ، ولم يكن ثمة ضرورة لأن تأتي بالشعر المرسل إذ لم تأت مرتبطة ارتباطاً تاماً ، وطويلة طولاً مفراطاً ، فتكون القافية الموحدة مجهدة للشاعر أو متكلفة •

وربما ساقها على سبيل التجربة ، ولكنها تجربة مزقت أساساً من أسس نقده ، وهو الدعوة إلى وحدة القصيدة وترابط أبياتها في المعنى والموضوع — وقد كان الموضوع وجدانياً ولذلك نفرت منها الآذان فعدل عنها إلى الأقصوصة الشعرية في ( واقعة أبي قير ) وفي ( نابليون والساحر المصري ) •

والتأمل في شعر شكري مثلاً في دواوينه السبعة ، وفي نظراته النقدية التي أوردها في بعض مقدمات هذه الدواوين يدرك أن شكري لم يهتم من ضروب الأدب إلا بالشعر ، ولم يعن من فنون الشعر إلا بالشعر الوجداني الذاتي الذي يصدر نتيجة تجربة خاصة ، ولم يلتفت لشئون الحياة حوله ، وبذلك ضاق مفهوم الشعر لديه غرضاً وأداءً ، فلم يكثر من الأقصوصة الشعرية ، ولم ينظم المسرحيات التي تتيح للشاعر الفرصة لخلق الشخصيات المتباعدة ودراسة المجتمع ، ولم يهتم بالشعر الموضوعي ، الذي يعد جديداً في الأدب العربي ، وكأنما الدنيا كلها تركزت في نفسه •

ومهما يكن من أمر فقد خلا شعره من المديح والثناء ( إلا النادر ) وهو رثاء جديد ، ليس فيه العويل والصراخ والنحيب ، وإنما فيه تأملات ذهنية وحديث عن الموت وسطوته •

وكان الشعر عنده « رحلة إلى عالم أجمل وأكمل وأصدق من هذا العالم ، رحلة إلى عالم يحس المرء فيه لذات التفكير أكثر مما يحسها في هذا العالم الأرضي » •

ومع أنه عني بالشعر الوجداني الذاتي ، فقد عرج على بعض آفاتنا الاجتماعية ولم يخض في السياسة بالجزء الأول إلا مرة واحدة حين اشتد النزاع بين المسلمين والأقباط •



لقد كان شكري واسع الثقافة جداً ، وكان شاعراً مرهف الذوق والحس ، يعرف طريقه في الشعر ، وكان له مذهب كونه بعد دراسة ، وكنا نتظر منه أن يروج لهذا المذهب ويدعو إليه ويبسط قضاياها ويدافع عنه ، ولكن حياته الأدبية كانت قصيرة ، وجنى عليه فرط حساسيته وطموحه الشديد ، وتوهمه تنكر الناس له .. فأثر العزلة وحرم النقد الأدبي والشعر ثمرات هذه العقلية الفذة المجددة .

وقد جهد زميله العقاد أن يسد الثغرة بكتاباته المستفيضة في النقد والدعوة إلى هذا المذاهب الجديد في الشعر .

— ٥ —

كان العقاد كزميله شكري ممن تأثر بالأدب الإنجليزي في مذهبه الشعري ، وفي نظراته النقدية ، وقد بين هذا في قوله : « وأما الروح فالجيل الناشئ بعد سوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث ، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الإنجليزية ، ولم تقصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسي ، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر ، وهي على إيفالها في قراءة الأدباء والشعراء الإنجليز ، لم تنس الألمان والاطليان والروس والأسبان ، واليونان واللاتين الأقدمين . ولعلها استفادت من النقد الإنجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى ، ولا أخطئ إذا قلت : إن ( هازلت ) هو إمام هذه المدرسة كلها في النقد ، لأنه هو الذي هداها إلى معاني الشعر والفنون ، وأغراض الكتابة ، ومواضع المقارنة والاستشهاد . وقد كان الأدباء المصريون الذين ظهروا أوائل القرن العشرين يعجبون ( بهازلت ) ويشيدون بذكره ويقروونه ، ويعيدون قراءته يوم كان هازلت مهملًا في وطنه ، مكروهًا من عامة قومه ، لأنه كان يدعو في الأدب والفن والسياسة والوطنية إلى غير ما يدعون إليه ، فكان الأدباء المصريون مبتدعين في الإعجاب به لا مقلدين ولا مسوقين . ولقد كانت المدرسة الغالبة على الفكر الإنجليزي الأمريكي بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر هي المدرسة التي كانت معروفة عندهم بمدرسة ( النبوءة والمجاز ) ، أو هي المدرسة التي تتألق بين نجومها أسماء كارليل ، وجون ستيوارت مل ، وشيلي ، ويرون ، ووردزورث<sup>(١)</sup> . ثم خلفتها مدرسة قريبة منها تجمع بين الواقعية

(١) وهي المدرسة الإبداعية وقد فصلنا خصائصها في كتابنا ( المرحية ) فارجع إليه .

والمجازية ، وهي مدرسة برونتج ، وتيسون ، وإمرسون ، ولونجفلو ، وپو ، ووينتان ، وهاردي ، وغيرهم ممن هم دونهم في الدرجة والشهرة<sup>(١)</sup> . وقد سرى من روح هؤلاء الشيء الكثير إلى الشعراء المصريين الذين نشئوا بعد شوقي وزملائه<sup>(٢)</sup> .

وهازلت كان عنيماً في تقده لأكثر ما كتب معاصروه ، وقد قال عن نفسه : « أنا لا شيء إذا لم أكن نقادة » وكان يقول ما في نفسه بصراحة تامة ولم يكن يستطيع الكتابة من غير صراحة ، ولو أطلق لأهوائه العنان حينما كان يتكلم عن الأدباء الأقدمين ما جعل من أي أديب معاصر له مثلاً يحتذى ، وقد قال في تعليق له على نفسه في حوار تخيلي : « إني أصدقك حينما تمدح لا حينما تدم » وكان يصور معاصريه كما يراهم ، ويجعل من أخطائهم وهفواتهم جزءاً مهماً في الصورة ، لا يحابي ولا يبالغ ، ولا يتأول ، أو يقبل معذرة<sup>(٣)</sup> .

ويقول عنه ( دي كونسي ) : لقد وضع هازلت نفسه في معارضة قوية مع كل ما هو نافع تحت الشمس في هذا العالم ، ومع كل الشخصيات القوية ذات السيطرة في إنجلترا<sup>(٤)</sup> وهذا هو السبب في أنه كان مكروهاً .

كان كثير التفكير ، والعزلة ، عاش عزباً ، عازفاً عن الشهرة ومظاهر الحياة ، وكلما أكثر من التفكير ازدادت نظراته إلى الحياة سواداً وتشاؤماً<sup>(٥)</sup> ، « ولم يكن هازلت فقيراً في المشاعر العميقة ، أو أسمى أنواع الإلهام وراء المثل الأعلى في الخير ، ولكن ليس لذوقه الأدبي أصول رئيسية يعطي بها أي إشارة أو دليل نحو أهدافه ، وليس ثمة نقط مركزية في ذهنه ، تدور حولها مشاعره ، أو تتبلور خيالاته ، وليس ثمة فارق واضح بين مواهبه التخيلية وذكائه ..... أمّا في تقده فبدلاً من أن يقودنا نحو هدف معين ، نراه يفتح أمامنا طرقاً جانبية عديدة ، نعاني من النظر الطويل إليها الشيء الكثير ، حتى ننسى الغاية من رحلتنا<sup>(٦)</sup> » .

(١) راجع خصائص المدرسة الواقعية في كتابنا ( المرجحة ) وسترى ثمة الأسباب التي أدت بهذه المدرسة إلى التشاؤم .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١٩١ - ١٩٣ .

(٣) راجع The Introduction to Wordsworth poetry and prose with essays by Coleridge, Hazlitt and de Quincey. Oxford Press.

وراجع كتاب هازلت في النقد The Spirit of the age William Hazlitt By, Augustin Birrell. P. 214.

(٤) المصدر السابق ٢١٥ .

(٥) المصدر السابق ٢١٥ .

(٦) راجع Edinburgh Review. vol. xxxi, v

هذه هي الصفات العامة البارزة في نقد هازلت الذي أعجب به العقاد كثيراً ، ونهج منهجه في النقد ، أمّا المدرسة الأدبية التي أعجب بها العقاد ، وهي مدرسة بيرون ووردسورث فهي المدرسة التي عنت بالحياة الإنسانية في أبسط مظاهرها ، تاركة كل ما يتألق في صفحات التاريخ ، وهي التي أغرمت بالطبيعة ، وتذوقها بحدة وحرارة ، ووقفت طويلاً أمام أقل نتاج للطبيعة تتأمل جماله وتتملى محاسنه ، وتستوحيه وتستلهمه ، ودعت إلى البساطة متخبة الزخرف ، والألفاظ الضخمة الطنانة . وفي ذلك يقول وردسورث في مقدمة Lyrical Ballads أو الحكايات الشعبية الشعرية : إن هؤلاء الذين تعودوا من كثير من الكتاب المحدثين العبارات المزخرفة الطنانة ، إذا أصروا على قراءة هذا الكتاب حتى آخره فإنهم سوف يعانون من إحساسات غريبة متغيرة ، غير رشيقة . وسوف يبحثون عن الشعر ، ويضطرون للسؤال عن أي نوع من المجاملات سمح لهذا النوع من الكلام أن يسمى شعراً<sup>(١)</sup> » وذلك لبساطته ، ولأنه تناول الحياة المألوفة التي لم يتعود الشعراء أن يأبهوا لها أو يعنوا بالتحدث فيها .

وأما هؤلاء الذين أتوا على أعقاب تلك المدرسة من أمثال هاردي ، وويتمان ، وپو ، فهي المدرسة المتشائمة المتصوفة ، المغرقة في تصوير أشنع ما في الإنسانية ، وهي في نفس الوقت تجنح إلى الواقعية ، والواقع مليء بالمآسي والأوصاب الاجتماعية ، ولقد أورثهم تغلغلهم في الواقع اشمئزاً من المجتمع الإنساني وزهداً فيه ونفوراً منه وتشاؤماً في الحياة . ولقد دافع العقاد عن تشاؤم هاردي كثيراً ، بل نراه يحذو حذوه في ديوان ( أعاصير مغرب ) ، حين اختار اسم الديوان ، وحين نلّم في الحب وهو في الشيخوخة كما نظم هاردي ، ودافع عن رأيه هذا بمنطقه المعهود . ونراه تشاءم كما تشاءم هاردي فتعجل غروب الحياة ، ولما سئل في هذا اقتبس رأي ( بيرون ) وهو في السادسة والثلاثين من عمره : « آن لهذا القلب أن يسكن ، مذ عزّ عليه أن يحرك سواه ، ولكني ، وقد حرمت من يهنوي إليّ حسي نصيباً من الحب أن أهوي . إن أيامي المكتوبة على الورقة الذائبة ، إن زهرات الحب وثماره ، ذهبت إلى غير رجعة ، إنما السوس والديدان وحسرة الأسى ، هي لي لي وحدها تحيا »<sup>(٢)</sup> .

(١) راجع مقدمة Lyrical Ballads .

(٢) مقدمة أعاصير مغرب ص ١٥ .

ولست أريد في هذا المقام أن أسهب في تبيان خصائص هذه المدارس التي تأثر بها العقاد والمازني وشكري ، ومن تتلمذ لهم بالتفصيل ، فلذلك موضعه من الكتاب عند الكلام عن المدرسة الجديدة في الشعر العربي الحديث . ولكن حسبنا في هذه المرحلة أن نبين أثرها في تقدمهم للشعر ، وتوجيههم للأدباء ، ولا سيما أثرها في الأستاذ العقاد ، وهو أكثر من تكلم من النقاد عن الشعر ، وعن مذهبه فيه . يقول العقاد :

« وقد استطاعت هذه المدرسة المصرية أن تقاوم فكرتين كلتاهما خاطئة ناقصة ، وإن جاءت إحداها من الماضي ، وجاءت الأخرى من أحدث الأطوار في الاجتماع ، ونعني بالفكرة الأولى تلك التي يفهم أصحابها أن ( الأدب القومي ) هو الأدب الذي تذكر فيه الظواهر والمعالم القومية بالأسماء والتواريخ والحوادث ، وهكذا كان جيل شوقي وحافظ يفهم ( القومية ) التي تنبغي لشعراء المصريين ، فليس من الأدب القومي عندهم أن يصف الشاعر عواطفه الإنسانية ، أو يصف المحيط الأطلسي ، أو نهر دجلة ، أو مناظر لندن وباريس ؛ لأن هذه الأشياء لا تحمل اسم النيل ومصر والهرم ، وأخبار الصحف المحلية والحوادث الداخلية . وهي فكرة خاطئة ناقصة تنفيها أمثلة العظماء من الشعراء في كل زمن وكل أمة .

وأما الفكرة الثانية التي قاومتها مدرسة الشعراء المصريين في الجيل الحديث فهي الفكرة الاشتراكية العقيمة ، التي تحرم على الأديب أن يكتب حرفاً لا ينتهي إلى ( لقمة خبز ) أو إلى تسجيل حرب الطبقات ونظم الاجتماع<sup>(١)</sup> . إلى أن يقول : « فمدرسة الشعر المصري بعد شوقي تعنى بالإنسان ولا تفهم ( القومية ) في الشعر إلا على أنها إنسانية مصبوغة بصبغة وطن من الأوطان ، وهي تلقي بالها كله إلى شعور الإنسان في جميع الطبقات ، وهي على هذا مدرسة الطبيعة والإنسانية » . ولقد قال الأستاذ العقاد في مقدمته للجزء الثاني من ديوان عبد الرحمن شكري سنة ١٩١٣ .

« إن الشعر قد يسلي ويرفه عن الخواطر ، ولكنه فوق ذلك يهذب الأخلاق

(١) وهو بهذا ينمي على حافظ وشوقي وعبد المطلب ومحرم وإخوانهم شعرهم الاجتماعي وحنهم أولى الأمر على العناية بالفقير ومحاربة الجهل والمرض في مصر .

ويلطف الشعور ، ويعين الأمة في حياتها المادية والسياسية والاجتماعية » وقال في موطن آخر<sup>(١)</sup> : « إن الأدب الصحيح السامي الذي ينبغي مقياساً تقاس إليه الآداب هو الأدب الذي تمليه بواعث الحياة القومية ، وتخطب به الفطرة الإنسانية عامة ، أما إن أملت بواعث التسلية والبطالة ، وخطب الأهواء العارضة ، فهو أدب غث مرذول مكشوف ينبغي نبذه ومحاربته » .

فهو في هذين النصين يعدل من فكرته في محاربة الشعر القومي كما فهمه شوقي وحافظ ومن سار على نهجهما ، فقد كان هذا الشعر يدين الأمة في حياتها المادية والسياسية والاجتماعية ، وامله بواعث الحياة القومية ولا ريب .

وتراه في مواطن آخر يفسر الشعر الاجتماعي تفسيراً جديداً فيقول :

« إن الشعر الصادق يعبر عن كل نفس ، وهو بذلك يعبر عن المجتمع بأسره ويؤثر فيه ولذا نعدّه شعراً اجتماعياً وإن لم يدون حادثاً قومياً أو نحوه<sup>(٢)</sup> » . ولا شك أن الجمال والجلال ليسا وفقاً على مصر وحدها ، والشاعر المرهف الحس ، الذواق للجمال والجلال يراها في مواطن كثيرة من العالم ، وهو حين يصفهما ، وينقل إلينا عواطفه إزاء ما يرى سواء كان ذلك في لندن أو باريس أو غيرها من بلاد العالم إنما ينقل إلينا إحساسه الذاتي ومشاعره الخاصة ، ومن التعسف أن نسمي شعره هذا شعراً قومياً ، لأن المراد بالشعر القومي ذلك الذي يحفز المشاعر ويحث الهمم على إعلاء شأن الوطن أو تمجيد تاريخه ، أو وصف روائع آثاره وجمال طبيعته مما يبعث في النفوس الإعجاب به والحب له والفناء في سبيله .

ولعل الأستاذ العقاد أراد ألا يقف الشعراء أنفسهم على هذا الضرب من الشعر القومي الذي يحمل اسم النيل والهرم ومصر ، وأن تسع آفاقهم الإنسانية جمعاء . ولكن عذر هؤلاء الشعراء في تلك الحقبة أن مصر كانت في صراع مرير مع قوى الاستعمار الغاشم الذي جهد كل الجهد في أن يمكن لأقدامه في هذه الديار واصطنع كثيراً من ذوي النفوس الضعيفة ، وفرض علينا لغته وثقافته ، وعمل على مسخ الروح القومية والتشكيك في القيم التي كنا قدسها ونحتفي بها . فكان

(١) مطالعات في الكتب والحياة ص ٤ .

(٢) الفصول ص ١٩ .

الشعراء يحسون بالآلام هذه الأمة المكافحة ، ويدركون عنف هذا الصراع ، فترجموا عن أحاسيس مواطنيهم وشجعومهم وثبتوهم بهذا الشعر القومي ، وعملوا على غرس محبة هذا الوطن وإعزازه في قلوب مواطنيهم •

ومع هذا فإن شوقي بخاصة لم يقف شعره عند حد النيل والهرم ومصر وآثارها فله عشرات القصائد الرائعة التي قالها في غير مصر قال في : دمشق وبيروت ولبنان وغاب بولون وقبو نابليون والبسفور والأندلس وطوكيو وسواها •

وأما فكرة الاشتراكية العقيمة التي عابها الأستاذ العقاد على شوقي وزملائه ، وسماها حرب الطبقات ، فلم يكن يقصد سوى الشعر الاجتماعي الذي يحارب الجهل والفقر والمرض ، ويعمل على رفع مستوى الحياة في مصر ويحث على بعث روح الإسلام والنخوة الوطنية حتى يهتم ذوو الثراء بمواطنيهم الذين قتر عليهم في رزقهم •

إن هذه مآس وطنية قومية ، وكنا في مستهل النهضة ، وهذه قوى معنوية معطلة ، ويجب على الشاعر ألا يعيش في عزلة عن قومه ، لا يفرح لأفراحهم ولا يأسى لمآسيهم ، ويكتفي باستبطان ذاته وسبر أغوار نفسه ، وترجمة عواطفه الخاصة كما فعل شكري •

إن هذا الشعر القومي ، والشعر الاجتماعي شعر إنساني ما في ذلك شك ما دام مصحوباً بالعاطفة المعبرة ، وما دام هدفه الخير والجمال والحق •

واهتمام العقاد وزملائه بالإنسان ترديد لمذهب ورد سورث الذي ذكره في أكثر من موضع من رواياته وقصائده ، وعرفه عنه مواطنوه ومعاصروه ، من ذلك قوله في التوطئة The Prelude ليس موضوعي إلا قلب الإنسان وحده •

My theme, no other than the very heart of man.

ويقول في ( ميخائيل ) Michael إنه قيد للتفكير في الإنسان ، وفي قلب الإنسان ، وفي الحياة الإنسانية •

On man, heart of man, and human life.

وقد اهتم وردسورث فوق هذا بالقوانين الفطرية للطبيعة البشرية ، وهو يرى أن هذه القوانين يمكن دراستها أحسن دراسة في الظروف العادية ، لشخص عادي ،

أما من جدّت أقلام المؤرخين جذرة لتشهرهم فإنه يراهم لا يستحقون كل هذا (١) .  
وقد قال العقاد في كتابه ( الديوان ) وهو ينقد شوقي ويوجه الخطاب إليه .  
« أعلم أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء ، لا من يعددها ،  
ويحصى أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا  
يشبه ، وإنما ميزته أن يقول ما هو ، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به (٢) .  
وقد فسّر هذا مبيناً أثر التشبيه والاستعارات في الشعر وأن الغرض منها ليس تعداد  
الأشكال والألوان بقوله : « وإذا كان كذلك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر ،  
ثم شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار ، فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء  
حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعه وفكره صورة  
واضحة مما انطبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان ،  
فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع  
لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . . . وبقوة الشعور وتيقظه  
وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه . ولهذا لا  
غيره كان كلامه مطرباً مؤثراً ، وكانت النفوس تواقّة إلى سماعه واستيعابه ، لأنه يزيد  
الحياة حياة ، كما تزيد المرأة النور نوراً ، فالمرأة تعكس على البصر ما يضيء عليها  
من الشعاع فتضاعف سطوعه . والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد  
الموصوف وجوداً إن صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان إحساساً بوجوده .

وصفوة القول أن المحك الذي لا يخطئ في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره  
فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن  
كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود إليه المحسوسات ، كما تعود  
الأغذية إلى الدم ، ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة  
الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة  
والمدارك الزائفة ، وما إخال غيره كلاماً أشرف منه إلا بكمّ الديوان الأعجم » .

وهو بهذا يشرح تلك النظرية التي قال بها شكري وعدد فيها مهمة التشبيه ،  
وقرّر الفرق بين التخيل والوهم .

وفي الحق إن هذا فهم طيب لو وظيفة الشعر وهو أن ينقل الأثر الذي انطبع في نفس الشاعر إلى سامعه فيزيد الموصوف قوة وجللاء ، فالشعر هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، وإن كان الكشف عن حقائق الأشياء ولباها لم يهتد إليه أحد بعد ، وبحسب الشاعر أن يبين لنا في صيغة عذبة جميلة أثر الأشياء في نفسه وعاطفته إزاءها .

ونرى العقاد أكثر وضوحاً في نقده حين يقول : « إن القصيدة ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً ، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع ، أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته » (١) .

ولقد قال بعض النقاد القدماء بوحدة القصيدة كالحاتمي وهو من علماء القرن الرابع الهجري : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وبأينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه ، وتعفّي معاملة ، وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة ، والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها من جزء » (٢) ، وإن كان هذا الكلام يخالف بعض الشيء ما قال به العقاد . فهو لم يكتف بأن تكون القصيدة ذات موضوع واحد ، بل تطلب أن تكون كائناً حياً : وبهذا نادى بالوحدة العضوية ، ونكرر هنا ما قلنا آنفاً من أن الشعر الغنائي الوجداني لا يمكن أن تتحقق فيه هذه الوحدة العضوية إلا إذا كان أقصوصة غنائية ، لأن الوجدان يأتي على دفعات وموجات ولا يكون شعوراً دائماً متصلاً وفكرة متماسكة مترابطة .

إن النداء بوحدة القصيدة ثورة موجهة إلى نظام القصيدة العربية التي كانت تحتوي على عدة أغراض ، ويكون البيت فيها وحدة مستقلة ، بل عُدّ من عيوب الشعر أن يكون له اتصال إعرابي بما بعده أو يتوقف معناه على غيره من الأبيات .

(١) الدبران ص ٤٦ ج ٤ .

(٢) الآداب للحصري ج ٢ ص ١٧ ، وابن الرومي للعقاد ص ٤٦ .



وقد نادى بوحدة القصيدة قبل العقاد وشكري خليل مطران كما سيأتي بعد ، وقد أفادت هذه الحملة فتغير نظام القصيدة وبطل النسيب التقليدي الذي كان يتصدرها ، ولكن لم يستطع أي شاعر أن يحقق في القصيدة الغنائية وفي الشعر الوجداني الذاتي الوحدة العضوية كما نادى بها العقاد إلا في القصة الغنائية ؛ وهذه كانت معروفة قديماً في الشعر العربي .

ويرى أن لا يكون في الشعر إحالة ويعني بها فساد المعنى . وهي ضروب فمنها : الاعتساف ، والشطط ، ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول ، أو قلة جدواه وخلو مغزاه <sup>(١)</sup> . ويعني على الشعر إذا كان فيه تقليد ، وهو تكرار المؤلف من القوالب اللفظية والمعاني ، وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة <sup>(٢)</sup> ويقول عن المبالغة بصفة خاصة إنها علامة من علامات انحطاط الفكرة فهي خليقة بأن تقل إذا ما انتشرت المعرفة وعنيت الأمة بالوقوف على الحقائق والاهتمام بالجواهر دون الأغراض <sup>(٣)</sup> ، ولكن العقاد يحاول بعد ذلك أن يدافع عن المبالغة في الشعر فيقول : « لقد ظنوا في حيرتهم أن الشعر العصري هو اجتناب المبالغة ، وأن اجتناب المبالغة هو التزام الصحة العلمية ، وعندني أن الذي يقول لحبيبه إنه أبهى من الشمس صادق في قوله ؛ لأن الشمس لا تسره كما يسره حبيبه ، ولا تغمر نفسه بالضياء كما تغمرها طلعة الحبيب » ، ويوجه النصيحة للأدباء بقوله : « بالغوا ، والتزموا الحقيقة الفنية ، تكونوا عصريين كأحدث العصريين » <sup>(٤)</sup> .

ولعلك تحس بالتناقض في قوله ، فهو يعد المبالغة من عيوب الشعر ، ثم هو يدعو إلى المبالغة مع التزام الحقيقة الفنية ، والمبالغة زيادة في الحقيقة سواء كانت فنية أو غير فنية .

ويقول العقاد منتقداً هؤلاء الذين يدعون الشعراء لكي يمثلوا عصرهم وأحداثه ، وينفعلوا لها : « اطلب من الشعر أن يكون عنواناً للنفس الصحيحة ، ثم لا يعنيك بعدها موضوعه ، ولا منفعته ، ولا تتهمه بالتهاون إذا لم يحدثك عن

(١) نفس المصدر ص ٥٩ .

(٢) الديوان ص ٥٤ .

(٣) خلاصة اليومية ص ١٥ .

(٤) البلاغ الأسبوعي ٢٧ من مايو سنة ١٩٢٧ ص ١٢ .

الاجتماعيات والحماسيات ، والحوادث التي تلهج بها الألسنة ، والصيحات التي تهتف بها الجماهير<sup>(١)</sup> ، ولا يرى العقاد من الضرورة أن يمثل الشاعر بيئته « فتمثيل البيئة ليس من الشرائط الشعرية ، لأن البيئة الجاهلة المقلدة يمثلها الشعراء الجاهلون المقلدون ؛ ولأن الشاعر المتفوق قد يخالف بيئته ، وينقطع ما بينه وبينها فلا تشبهه ولا يشبهها إلا في معارض لا يصح بها الاستقلال<sup>(٢)</sup> » .

وقد أخرج ديوانه ( عابر سبيل ) جاعلا فيه أغراض الشعر هي الأمور العادية التي لم يكن ينظم فيها الشعراء من قبل « فليست الرياض وحدها ، ولا البحار ولا الكواكب ، هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة ، واستجاشة الخيال ، وإنما النفس التي لا تستخرج الشعر إلا من هذه الموضوعات كالجسم الذي لا يستخرج الغذاء إلا من الطعام المتخير المستحضر ، أو كالمعدم الذي يظن أن الترفين لا يأكلون إلا العسل والبقلاء .

كل ما نخلع عليه من إحساسنا ، ونفيض عليه من خيالنا ، وتخلله بوعينا ، ونبت فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر ، وموضوع للشعر ، لأنه حياة وموضوع للحياة . . . . وعلى هذا الوجه يرى ( عابر السبيل ) شعراً في كل مكان إذا أراد . يراه في البيت الذي يسكنه وفي الطريق الذي يعبره كل يرم ، وفي الدكاكين المعروضة ، وفي السيارة التي تحسب من أدوات المعيشة اليومية ، ولا تحسب من دواعي الفن والتخيل ، لأنها كلها تمتزج بالحياة الإنسانية فهو ممتزج بالشعور ، صالح للتعبير ، واجد عند التعبير عنه صدى مجيباً في خواطر الناس<sup>(٣)</sup> .

ولعلك ترى العقاد لا يركز نقطة واحدة يدور حولها تقدمه . ولا يتمسك برأي في هذا النقد ، وليس لذوقه أصول يرتكز عليها نقده ، شأنه في ذلك شأن أستاذه ( هازلت ) ، وليس من همي الآن أن أناقشه مستحسناً أو معارضاً وإنما أحاول أن أبين أثر نقده في الشعر المعاصر ، فالعقاد كما رأيت يدعو إلى وحدة القصيدة ، ويدعو إلى عدم الإحالة والتعسف والمبالغة ثم يفسر المبالغة بأنها التي لا تتنافى والحقيقة الفنية ، ويرى أن موضوع القصيدة يشمل كل شيء في الحياة ، وأن الشعر ليس من

(١) البلاغ الأسبوعي ٣ من يونيو ١٩٢٧ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) مقدمة عابر سبيل ص ٧ - ٨ .

الضروري أن يكون ذا فائدة ، وأنه ليس من شروطه أن يمثل البيئة أو المجتمع ، ثم بعد ذلك يرى أن كل ما يمتزج بالحياة الإنسانية فهو ممتزج بالشعور جدير بأن يكون موضوعاً شعرياً ، صالح للتعبير ، واجد عند التعبير عنه صدى مجيباً في خواطر الناس . أو ليس ذلك هو ما يشغل أذهان الناس في زمن ما وفي بيئة ما ، فما باله يعيب على شعرائنا أن يقولوا في الحوادث السياسية ، وأن يصفوا طبيعة مصر ، ويصوروا المجتمع المصري بما فيه من أدواء تستحق العلاج ويتحصروا على إهمال الطبقات الفقيرة ، أو ليس ذلك اهتماماً بالطبقة العاملة في الأمة واهتماماً بالإنسانية التي حرص العقاد على أن يكون شعره وفقاً عليها ؟ . ولكنه يعارض فكرة القومية كما فهمها هيكل ، وكما طبقها شوقي وحافظ وغيرهما .

ومهما يكن من أمر ، فإن مدرسة العقاد وشكري والمازني عنيت بالمعنى عناية فائقة ، وعنيت بالفكرة ، وإخراجها واضحة ، ولو لم تكن في أسلوب رائق ، ولفظ موق ، وإن حاولوا مراراً أن يدافعوا عن بلاغة العبارة . وفي ذلك يقول المازني في انتقاده لشكري : « وأنت أيها القارئ قد تعلم أن سر النجاح في الأدب هو علو اللسان ، وحسن البلاغ ، وقوة الأداء ، وأن على من يريد أن يشرح ديناً جديداً « لأطفال » هذا العالم أن يحثهم بما أحب أسلافهم في سالف الزمن ، أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه . . وأنه لكي يغريهم به ينبغي له أن يتوخى القوة في العبارة عما يريد ، فإن الناس خليقون ألا يؤمنوا إلا بمن عمر صدره بالإيمان .

وقلما ظهر كاتب أو شاعر إلا بالأداء ، وكثيراً ما يمتاز بعض الكتاب ، وتخذ آثارهم لمد أوتوه من المقدرة على إجادة العبارة عن آراء غيرهم . ولعل هذا أكبر الأسباب التي أفضت إلى خمول شكري وفشله في كل ما عالجه من فنون الأدب ، لأنه لا أسلوب له ، إذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب<sup>(١)</sup> .

ونرى العقاد كذلك يدافع عن جودة العبارة ، وإن لم يستطع كل شعراء المدرسة الحديثة إلا علي محمود طه المهندس أن يجمعوا بين جدة المعنى ، ورشاقة اللفظ وحلاوة موسيقاه ؛ إذ أن حرصهم على أن يغص شعرهم بالأفكار والحقائق ، جعلهم يؤدون هذه الحقائق بأي لفظ تهيأ لهم ، لأنها مقصودة لذاتها ، ولذلك لا تستسيغه الأذان ، ولا يقبل عليه أهل الغناء ، ومع كل هذا لا يرى العقاد بدا من الدفاع عن

بلاغة الأسلوب وقوته وجماله • إذ يقول ناقضاً رأي ميخائيل نعيمة في الغربال •  
« الكتابة الأدبية فن ، والفن لا يكتفى فيه بالإفادة ولا يغني فيه مجرد الإفهام ،  
وعندي أن الأديب في حل من الخطأ في بعض الأحيان ؛ ولكن على شرط أن يكون  
الخطأ خيراً ، وأجمل وأوفى من الصواب • إن مجازاة التطور فريضة وفضيلة ،  
ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم تخلق اليوم فتخلق قواعدها وأصولها في طريقنا  
وأن التطور إنما يكون في اللغات التي ليس لها ماض ، وقواعد ، وأصول ، ومتى  
وجدت القواعد والأصول فلماذا نهملها أو نخالفها إلا لضرورة لا مناص منها ؟ » (١) •

وكان العقاد في مستهل حياته النقدية يشجع النظم بالشعر المرسل كما جاء في  
مقدمته التي كتبها لديوان المازني الجزء الأول ، ولكنه عدل عن رأيه هذا لأنه آمن  
بأن سليقة الشعر العربي تنفر من إلغاء القافية كل الإلغاء (٢) •

وقد لخص العقاد رأيه في مقاييس الشعر ، وماذا يجب أن يكون بعد أن نيف  
على الستين وتركزت فكرته بقوله : « أما هذه المقاييس فهي في جملتها ثلاثة أخصها  
فيما يلي : « فأولها » : أن الشعر قيمة إنسانية ، وليس بقيمة لسانية ؛ لأنه وجد عند  
كل قبيل ، وبين الناطقين بكل لسان ، فإذا جادت القصيدة من الشعر فهي جيدة في  
كل لغة ، وإذا ترجمت القصيدة المطبوعة لم تفقد مزاياها الشعرية بالترجمة إلا على  
فرض اوحده ، وهو أن المترجم لا يساوي الناظم في نفسه وموسيقاه ، ولكنه إذا  
ساواه في هذه القدرة لم تفقد القصيدة مزية من مزاياها المطبوعة أو المصنوعة ، كما  
نرى في ترجمة « فتزجيرالد » لرباعيات الخيام •

« وثانيها » أن القصيدة بنية حية ، وليست قطعاً متناثرة يجمعها إطار واحد ،  
فليس من الشعر الرفيع شعر تعير أوضاع الأبيات فيه ، ولا تحس منه ثمّ تغييراً  
في قصد الشاعر ومعناه •

« وثالثها » أن الشعر تعبير ، وأن الشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع ، وليس  
بذي سليقة إنسانية ، فإذا قرأت ديوان شاعر ، ولم تعرفه منه ، ولم تتمثل لك  
شخصية صادقة لصاحبه ، فهو إلى التنسيق أقرب منه إلى التعبير » (٣) •

(١) مقدمة الغربال ص ٨ •

(٢) معراج الشعر ، مقال للأستاذ العقاد بمجلة الكتاب أكتوبر سنة ١٩٤٨ •

(٣) يسألونك ص ٦٤ •

ونكرر هنا ما سلف أن لاحظناه على النقد لدى شكري من أن هذه المدرسة وقفت عند باب الشعر الوجداني الذاتي ، منصرفة عن سواه من ضروب الشعر الأخرى ، ومناداتهم بالنظر إلى من قال لا إلى ما قيل ، واهتمامهم بظهور شخصية الشاعر في شعره جباً للشعر الموضوعي كله : وهو من أنواع الشعر التي نادى بها الغرييون وأحلوها منزلة عالية وتتجلى في الملحمة والمسرحية . ولذلك لا تجد لهم في هذا الميدان كثيراً أو قليلاً ، وإنما عكفوا على ذواتهم يسبرون أغوارها ، ويتأملون ما حولهم ويعبرون عن أحاسيسهم بعد هذا التأمل ، وهذا تضيق للشعر وحده من آفاقه .

ومهما يكن من أمر فقد أفادت حملات العقاد والمازني على الشعر التقليدي ، فحاول الشعراء الذين كانوا ينهجون في مستهل حياتهم الأدبية منهج الأقدمين أن يجددوا في شعرهم ، وإن لم يتيسر لمعظمهم أن يأتي بجديد يعتقد به ، ولا سيما في المعاني والقوالب ؛ لأن القرائح كانت في نضوب ، والطباع في شبه جمود ، بيد أن فريقاً من الشعراء الشباب الذين اطلعوا على الآداب الغربية وتأثروا بتوجيهات النقاد ، وحملاتهم الصارمة على الشعر التقليدي جدوا في الإتيان بشعر جديد ، ولكنهم وللأسف لم يكن عند أكثرهم تلك القوة الخالقة المبتكرة ، ولا هذا الأسلوب المتين ، ولا تلك الينايع الغزيرة من المعاني التي كانت للجيل السابق لهم ، فلم يرتفعوا بالشعر إلى المستوى الذي كنا نرجوه .

## — ٦ —

ومن نقاد هذه المدرسة التي حذقت الإنجليزية وأوغلت في قراءتها وتأثرت بنقادها ، وحاولت جاهدة أن تعطي مفهوماً جديداً للأدب بعامة والشعر بخاصة : المازني ، وهو أحد الفرسان الثلاثة الذين كونوا هذه المدرسة الأدبية النقدية .

ولكن المازني لم يكثر من تقرير النظريات النقدية المطلوبة ، بل حاول أن يمزج في تقده بين القديم والجديد ، وكانت له شخصية في النقد التطبيقي ، ويغلب عليه طبع الفنان الأديب أكثر مما تغلب عليه سمات الناقد ؛ فهو يغالي في مدحه كما يغالي في سخطه ، نراه مثلاً يتحامل على شكري حتى يجرده من كل صفات الشعراء ، ويتحامل على حافظ إبراهيم في رسالته ( شعر حافظ ) التي يقول في ختامها : « ولو كان له حسنات لاغتفرنا له ما في شعره من السيئات ، فإن للمتنبّي سرقات كثيرة ، ولكن حسناته أكثر » .

ونحن لا نبرىء المازني من الهوى في هذا التحامل ، وقد ذكرنا آنفاً ما أفسد ما بينه وبين شكري من مودة ، ثم ندمه على ما فرط منه في هذا النقد الجارح . أما حافظ فكان الوشاة يبلغون المازني أنه يكيد له في ( نظارة المعارف ) ، فأوغروا صدره عليه حتى جرده من كل نعت جميل ، ثم أسف فيما بعد على هذا الشطط ، وتمنى على الله أن ينسى ما كتبه عن حافظ ، أو ما سماه « الهراء القديم » (١) .

أما إذا أعجب بشخص فهو يتجاوز عن سيئاته ، بل يتلمس له المآذير ويبالغ في تصوير حسناته كما فعل مع ابن الرومي ، فدافع عن تشاؤمه وسخريته ، عازياً نغمته على العصر وأبنائه إلى ذكاء الشاعر وفرط حساسيته ، حتى لكأنه يحس الحياة بأعصابه ، يحس ما فيها من الظلم والغبن والخلط والفساد والتناقض . وإحساسه هذا بثقل القيود المحيطة به أبرز ( أنا ) في شعره وفي حياته إلى المكان الأول من الواعية ، فحفل شعره بذكر نفسه ، واكتظ بالمقابلة بين الرغبة والإمكان ، وبين الأمل والواقع . والذاتية إنما يبرزها إدراك حدودها ، والتصادم بما هو خارج عنها .

ولعل سر إعجاب المازني بابن الرومي طبيعة المازني الساخرة ، وأن المذهب الذي دعت إليه هذه المدرسة يؤكد ذاتية الشاعر ويعنى بإبرازها ويكشف عن أعماقها ، فلا بدع إذا صرح بأن ابن الرومي أحب الشعراء إليه (٢) ، ويزعم أن ابن الرومي أعظم شاعر في العربية ويعلل لذلك بنسبه إلى الروم فهو آري الأصل ، ولذلك سلم من عيوب العرب في أدبهم من فساد الذوق وشطط الذهن ، فتجد عندهم الحدة والطفيان والغلو ونحوها مما يجعل شعرهم جافياً جامحاً ، ومما يجعلهم ليسوا أشعر الأمم كما يظن بعضهم ، وإن كانت لهم محاسنهم كصدق النظر وذكاء المشاعر ، وصفاء السريرة وعلو النفس ، ولكن الشعوب الآرية أفطن منهم لمفاتيح الطبيعة وجلالة النفس الإنسانية وجمال الحق والفضيلة — على أن أنبع العرب هم أولئك الذين ينتهي نسبهم إلى غير العرب كابن الرومي مثلاً فهو آري الأصل فارسي يوناني — وقد ورث كثيراً من صفات قومه ، فهو أقرب إلى شعراء الغرب في أسلوب الشعر (٣) .

(١) حصاد الهشيم ص ٢٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(٣) راجع حصاد الهشيم من ابن الرومي من صفحة ٢٣٢ — ٤٢٢ .

ولا نريد أن نصف المازني بالشعوية ، وتعبد لمقاييس الأدب الغربية وبخاصة تلك المدرسة الإنجليزية ، وبهذا التحامل الذي يزري بالشعر العربي القديم كله ويجرده من سمات الشاعرية ، وما في كلامه من تناقض ، ولكننا إذا التمسنا له العذر أرجعنا هذه الآراء إلى إعجاب المازني بالأدب الغربي نتيجة قراءاته الكثيرة فيه وبخاصة في الإنجليزية ، وتأثره بهازلت في طريقة تفكره ، ومحاولته تقويض الفكرة الشائعة عن الشعر والتي ورثها شعراء العصر الحديث ، وساروا على نهجها منذ البارودي ، فكان يضرب بمعوله من غير رحمة ، ثم إلى طبيعته الجامحة وانفعالاته في غضبه ورضاه ، فيشتد في سخطه كما يبالغ في ثنائه •

ولسنا بصدد نقد ابن الرومي وتبيان طريقته وما فيها من عيوب وحسنات ولكننا بصدد المازني وطريقته في النقد ، وإن كان لا يفوتنا هنا التنويه بما كان للعرب من نظرة صادقة إلى الحياة ، ومن إكبارهم النفس الإنسانية وسبر أغوارها كما تجلّى في حكمهم الكثيرة التي نعدّها قوانين مركزة تشف عن النفس الإنسانية في كل زمان ومكان •

أما الحق والفضيلة فلا أظن أمة من الأمم غنيت بهما مثلما غنيت الأمة العربية في أدبها وسلوكها وقانونها ، ولولا خشية الاستطراد والخروج عن البحث لوفيت هذا الموضوع حقه ، وبحسبي أن أحيل القارئ على كتابنا ( الفتوة عند العرب ) في الفصل الذي عقده للموازنة بين العرب وسواهم من الأمم وبخاصة الغربية منها • ونستطيع أن نضيف هذا الجموح والشطط في نقد المازني للشعر العربي إلى تفكره لشكري وحافظ ذلك النقد الذي تبرأ منه فيما بعد وندم عليه •

ويفسر لنا المازني مذهبه في النقد فقال : « مذهبي في النقد أن أنظر إلى جملة ما في الكتاب من الإحسان مقيسة إلى جملة ما فيه من العيب ، فإذا أربى الإحسان على الإساءة قبلته ، وتجاوزت عما فيه من نقص أو مأخذ ، وإلا رفضته ، فهو ميزان ينصب ، وأي كفتيه رجحت أخذت بها ، وهذا في مذهبي هو العدل الميسور في وزن الآراء والأعمال والحكم عليها » • ويعلل لرأيه هذا بأن كتابا ما لا يخلو من نقص ولو خلا — وتلك مرتبة لا تتال — لما كان إنسانياً ، « بل أنا أذهب إلى أن من البواعث الخفية على الإعجاب أن يظن القارئ إلى مواضع النقص ومواطن الضعف ، وأن

يحبس ولو إحساساً غامضاً أن الكتاب من الكتب على جلال قدره وعظم شأنه وندرة مثله ، وعجز الأكثرين عن الإتيان بما يقاربه لا يخلو من زلات وعثرات ، ووهن هنا وسقوط هناك ، أو إسفاف أو خمولة ، أو قصور أو تقصير أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى ويلحق به<sup>(١)</sup> » .

ولعله في تقده لحافظ إبراهيم يبين لنا بعض اتجاهاته النقدية ورأيه في الشعر فهو يدعو إلى الإقلاع عن التقليد في الأدب فإن ذلك يفقده فضيلة الصدق ، ومزية النظر ، وهما عماد الأديب وقوام الشعر والكتابة ، ولكن على الأديب أن يستفيد من آثار القدماء في أدبهم ، ويدرس في فهم الأصول الأدبية العامة التي لا ينبغي لأديب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال — كالصدق والإخلاص في العبارة عن الرأي أو الإحساس ، وهذا وحده كفيل بالقضاء على فكرة التقليد ، والتقليد على كل حال دليل على ضعف الخيال ، وعدم القدرة على الابتداع ، وفقدان الشخصية .

ويرى إباحة التصرف في اللغة تصرف الوارث في إرثه ، فلا يجمد أمامها بل ينبغي أن يجعلها تسائر التطور والحاجة ، ولكنه كان لا ينادي بالعامية أو التساهل في معجم اللغة كما رأينا من قبل .

والأديب الحق عنده هو الذي يصور الوجدان والأحاسيس في صدق ويعطي صورة صادقة للناس وللحياة ، ولا يقيم وزناً للزخرف اللفظي إنما يوجه كل عنايته للمعنى ، وكل معنى صادق مهما كان موضوعه أو هدفه وغايته فهو خليق بأن يكون موضوعاً للأدب .

ولعلك ترى من هذا أنه يلتقي مع شكري والعقاد وإنهم جميعاً يصدر عن فكرة واحدة في قضية اللفظ والمعنى ، وموضوع الأدب . ويرى أن الناقد يجب أن ينظر إلى غرض الشاعر الذي يهدف إليه في القصيدة جملة حتى ندرك ما يرمي إليه كاملاً ، وعليه فلا ينبغي في ذلك النظر إلى جزء منها دون سواه<sup>(٢)</sup> .

وقد رأى أن حافظاً وشكري على طريفي تقيض في شعرهما في الغرض والأسلوب

(١) مجلة الكتاب عدد نوفمبر ١٩٤٥ ص ٧٩ - ٩٠ .

(٢) راجع شعر حافظ ص ٢ وما بعدها .



والمنهج ، وغالى كعاداته في الحكم وزعم أن بيتاً واحداً من ديوان شكري يفضل كل ما قاله حافظ وأضرابه<sup>(١)</sup> ، مع أنه هدم شكري فيما بعد وجرده من كل ما يمت إلى الشعر بصلة .

ويرى أن الشعر لا بد أن يكون مطبوعاً ليس فيه أثر من آثار الصنعة والتكلف أو الإجهاد ، وأن يستلهم الخيال الواسع ، ويعتمد إلى الابتكار والتجديد ، وأن يعبر تعبيراً صادقا عن نفس صاحبه ، مصوراً لآمال النفس البشرية وآلامها ، ومعبراً خير تعبير عن معاني الطبيعة والعقل التي تربط ارتباطاً وثيقاً بالحياة وبالنفس فيكون بحق وحي الطبيعة ورسالة النفس ، ثم لا يهمه بعد ذلك أي ثوب ألبس هذه المعاني ما دامت صحيحة صادقة .

ونرى المازني في نقده التطبيقي لشعر حافظ يسلك مسلك القدماء ويتكلم على النحو واللغة والإحالة والتعسف ، والسرقة ، ويعيب عليه ثقل الروح وبرود الفكاهة وجمود الخيال والسخف ، وفساد الذوق وفساد المعنى ، والخطأ العلمي والحشو والتكرار<sup>(٢)</sup> .

ومن أمثلة نقده لحافظ مؤاخذه على استعماله المفعول المطلق في قوله :

غالها قبلك الزمان اغتيالاً

« فلفظة اغتيال لا ضرورة لها بعد غالها » ، وكان المازني يضيق ذرعاً بالمفعول المطلق ، وقد رأينا هذا الضيق على أشده في نقده للمنفلوطي حيث أخذ يحصي ما ورد للمنفلوطي في العبرات من هذا المفعول<sup>(٣)</sup> .

ومازني في نقده هذا يتعسف في نقده ، وكأني به يريد أن يحذف المفعول المطلق من اللغة ، ولكننا نراه في (قبض الريح) يدافع عن هذا المفعول المطلق ويقول :

« والواقع أن هذا المفعول المطلق يمثل في تاريخ النشوء اللغوي خطوة انتقال اتسع بعدها الأفق ورحب على أثرها المجال ، وتفتحت أبواب التعبير المعلقة ، ومن شاء أن يقدر فضل المفعول المطلق على اللغة وعلى العقل الإنساني أيضاً فليتصورها مجردة منه ولينظر إليها كيف تعود أو إلى أي حد تضيق<sup>(٤)</sup> » .

(٢) نفس المصدر ص ٢

(٤) راجع قبض الريح ص ١٥٦ .

(١) شعر حافظ ص ١٢ .

(٣) الديوان ج ٢ ص ٢٥ .

والشعر في رأي المازني ذاتي شخصي مثله في ذلك مثل شكري والعقاد فهو عنده خاطراً لا يزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجاً ويصيب متنفساً ، وهو غنائي خالص ليست له وظيفة سوى التنفيس الشخصي عن قائله<sup>(١)</sup> .

ويرى المازني أن الشعر ابن الخيال ، إذا لم يكن للخيال فيه مجال فهو غث لا خير فيه ويستشهد برأي سانت ييف : « ليس الأصل في الشعر الاستقصاء في الشرح والإحاطة في التبيين ، ولكن الأصل فيه أن تترك كل شيء للخيال<sup>(٢)</sup> » .

وهذا يخالف ما دعت إليه هذه المدرسة من الاهتمام بالمعاني ، وما اشتهرت به من إعجابها بابن الرومي الذي كان يستقصيها في شعره حتى يستنفدها ، والمازني في هذا يتشبه مع مذهب العرب في الشعر الذي أشار إليه البحرني :

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

ويتفق المازني مع مذهب العرب في شيء آخر حين يقول : « والشعر في حقيقته لغة العواطف لا العقل ، وإن كان لا يستغني عن العقل فيما يخدم هذه العواطف ، وليس هو بشعر ما لم يعبر عن عاطفة أو يثيرها ... وبما أن العاطفة تحتاج إلى لغة حارة تعبر عنها ، فقد استخدمت الحسنات البديعية . والعاطفة إذن هي الأصل في هذه المحسنات ، ولكن هذه المحسنات صارت مردولة بالصنعة والتكلف ، أما عند شعراء الطبع فتأتي عفواً ، وتكاد لا تنص ، فهي جميلة الوقع ، معبرة تعبيراً صادقا عن العاطفة » .

ويدافع المازني دفاعاً قوياً عن ضرورة الوزن في الشعر ، فكما أنه لا تصوير بغير ألوان كذلك لا شعر إلا بالوزن ، وقد يكون النثر شبيهاً بالشعر في تأثيره ، وتعبيره عن العاطفة ، أو يغلب عليه روح الخيال ، ولكنه مع ذلك ليس بشعر ، إذ يعوزه الجسم الموسيقي . ومثل الوزن في ذلك القافية ، فلا شعر إلا بهما أو بالوزن على الأقل » .

ولعلنا نتذكر محاولة شكري صديقه التخلص يوماً ما من القافية في ديوانه الأول أضواء الفجر حين نظم قصيدته « كلمات العواطف » من الشعر المرسل الموزون غير

(١) راجع مقدمة الجزء الثاني لديوان المازني ١٩١٢ .

(٢) الشعر غاياته ووسائله ص ٣ - ٢٠ .

المقضى • وقد أطرى المازني شكري على جرأته هذه في أول الأمر ، ثم عاد فعابه عليها حين ساءت العلاقة بينهما •

ومن آراء المازني التي وافق فيها زميله قوله : « إن الجيد في لغة جيد في سواها ، لأنه لا يختص بلغة أو زمان أو مكان ، فمرده إلى أصول الحياة العامة لا إلى المظاهر والأحوال الخاصة والعارضة ، وكذلك الغث في لغة غث في غيرها ، على أن محك القدرة في الأدب بوجه عام هو في تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة ورسم الانفعالات واعتلاج الخوارج الذهنية ونحوها ، وليست غاية الأدب تصوير قشور الأشياء وظواهرها » (١) •

وهذا يذكرنا بكلام الأستاذ العقاد ولكنه يرى « أن الأدب لا بد أن تكون له غاية سامية فيدفع الأمة إلى تطلب الحياة العالية الكريمة » (٢) ، فالأدب يجب أن يخدم المجتمع ، فليس الفن للفن وحده (٣) • ولذا ينبغي أن تكون هذه الدعامة وسيلة لغيرها لا غاية ، وأن تكون أداة يستعان بها على تحريك إحساسات متزاوجة أو مركبة غير التي ينبها منظر الدمامة ، وقل أن تجد من الإحساسات البغيضة ما لا يكون مختلطاً بغيره أو نقيضه (٤) •

ومن الآراء التي نادى بها المازني أن تكون القصيدة عملاً فنياً تاماً قائماً على فكرة معينة ، ليس الشاعر فيها مسوقاً بباعث مستقل عن النفس (٥) •

ويعتبر المازني الشطط في الخيال ومخالفته للواقع ليس دليلاً على النبوغ والبراعة ، ولكن آية النبوغ والبراعة في صدقه وعدم تجافيه للحقائق ، وفي قدرته على اختيار التفاصيل المميزة حتى ولو كان الشيء من المؤلف الذي تقع عليه كل عين فليس في تناوله إسفاف كما يتوهم بعضهم ، والبراعة في كيفية تناوله حتى يبدو كأنه غير ذلك المؤلف القديم (٦) •

ويرى المازني أن الأديب الأصيل هو الذي يكون له أسلوبه الخاص ؛ لأن

(٢) نفس المصدر ص ٢ •

(١) الديوان الجزء الثاني •

(٣) حصاد الهشيم ص ١٠٦ وما بعدها •

(٤) نفس المصدر ص ١٢٠ وما بعدها •

(٥) حصاد الهشيم ص ٢٥ وما بعدها •

(٦) نفس المصدر ص ١٩٥ •

الأسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة ، وطريقته في تناول المسائل وعرضها . وكلما كانت هذه الخصوصيات أؤكد وأعق ، كانت المحاكاة أشق والإخفاق فيها أقرب ، فهي لا تسهل إلا حيث يكون الأسلوب خالياً من الخصائص التي ترجع في مرد أمرها إلى النفس وما ركبت عليه وانفردت به « : ولذلك رأى المازني أن أسلوب طه حسين خالٍ من الخصائص المميزة له ، وأن كثيراً من الكتاب يستطيعون تقليده .

وهناك ظاهرة في المازني الناقد تسترعي النظر ، تلك هي كثرة استطراداته وتهربه أحياناً من النقد كما فعل في نقد كتاب ( النثر الفني ) لزكي مبارك ، وكما فعل في نقده لكتابي الآنسة مي ( الصحائف ، وظلمات وأشعة ) ، وقد كان يعتمد ذلك تخابئاً منه ، وهرباً من مجابهة المنقود برأيه الجارح .

نقد المازني عدداً من الشعراء والكتاب ، وهو في نقده يمزج بين النقد اللغوي والنظريات النقدية الحديثة كما فعل في نقد المنفلوطي وشكري وابن الرومي ، وهو متأثر في نقده غالباً بعلاقاته الشخصية ، وجهه وسخطه ، وكثيراً ما عدل عن آرائه وتجريحه وندم عليها . ولكنه في جملة آرائه يمثل هذه المدرسة المجددة في الأدب مثل شكري والعقاد ، وهو أقرب إلى العقاد من سواء .

## — V —

ولقد سبق العقادَ والمازني وشكري في توجيه الشعر المصري الحديث وجهة جديدة الشاعر خليل مطران ، وكان من واجبنا أن تقدمه في الكلام ، ولكننا لا نعتبره ناقداً ، ونحن في صدد الكلام على النقد وأثرهم ، وإنما هو شاعر ، ثم إن مطران تأثر بالمدرسة الفرنسية في الشعر أكثر من تأثره بالمدرسة الإنجليزية التي حذا حذوها العقاد وزملاؤه . وبالإضافة إلى كل هذا فمطران — وإن كان مجدداً في الشعر — قد حاول في فترات أن يجمع بين القديم والجديد ولا سيما في الأغراض ، ولم يكن ثائراً ثورة هؤلاء .

لقد أخرج مطران ديوانه ( الخليل ) في سنة ١٩٠٨ ، وإن كانت أول قطعة إبداعية في ديوانه ترجع إلى سنة ١٨٩٣<sup>(١)</sup> . وقد ابتدأ مطران ثورته على الشعر

(١) راجع الدكتور إسماعيل أدهم من مطران ص ٢٢ .

التقليدي ، والدعوة إلى التجديد بقوله : « اللغة غير التصور والرأي ، وإن خطّة العرب في الشعر لا يجب حتماً أن تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ولنا آدابنا ، وأخلاقنا ، وحاجتنا وعلومنا ، ولهذا وجب أن يكون شعرنا مثلاً لتصورنا وشعورنا لا تصورهم وشعورهم ، وإن كان مفرغاً في قوالبهم محتذياً مذاهبهم اللفظية<sup>(١)</sup> » •

وأول تجديد دعا إليه مطران هو وحدة القصيدة ، وتماسك أبياتها بعضها ببعض لأنه لم يجد في الشعر العربي « ارتباطاً بين المعاني التي تتضمنها القصيدة الواحدة ، ولا تلاحماً بين أجزائها ، ولا مقاصد عامة تقام عليها أبياتها ، وتوطد أركانها ، وربما اجتمع في القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع في أحد المتاحف من النفائس ، ولكن بلا صلة ولا تسلسل وناهيك عما في الغزل العربي من الأغراض الاتباعية التي لا تجمع إلا لتتأفر ، وتتأكب في ذهن القارئ<sup>(٢)</sup> » •

أما من حيث الأغراض فهو يرى الشعر فناً منها للتصوير والحس عن طريق الرمز ، وأن الشعر يفترق عن الرسم في أن الرسم فن منه للتصوير والحس عن طريق النظر ، وهما يفترقان عن الموسيقى في أنها تنبه التصوير والحس عن طريق السمع<sup>(٣)</sup> » وقد نقل مطران أغراض الشعر العربي إلى أغراض أوربية ، وإن سبق إليها رفاعة الطهطاوي ، بيد أنه لم يكن شاعراً مكتمل الشاعرية ، فلم تتأثر به النهضة الأدبية<sup>(٤)</sup> وإن سبق إليها كذلك ( سليم عنحوري ) في ديوانه « مرآة العصر » ، ولعله كان قدوة ونموذجاً لمطران في حركته الجديدة<sup>(٥)</sup> • ولكن لم يرزق ديباجة مطران ولم يكن عصره مهياً لتقبل دعوته التجديدية •

ولما نشر مطران ديوانه في سنة ١٩٠٨ قدم إليه بمقدمة وضع فيها مذهبه الشعري الجديد الذي دعا إليه ، وبين أنه ابتداء مقلداً ، ولكنه وجد في الشعر المألوف

(١) خليل مطران في المجلة المصرية السنة الأولى ج ٢ ( يولية سنة ١٩٠٠ ) ص ٨٥ •

(٢) خليل مطران في المجلة المصرية - السنة الأولى ج ٢ ( ١٦ يولية ١٩٠٠ ) ص ٢٢ - ٤٤ •

(٣) خليل مطران - المجلة المصرية - السنة الثانية ج ١ يولية سنة ١٩٠٠ ص ١٢ •

(٤) الدكتور أحمد ضيف المقتطف المجلد ٦٨ ج ٦ ( يولية ١٩٢٦ ) ص ٦٣٧ - ٦٣٩ •

(٥) الدكتور اسماعيل آدم ص ٣٢ •

جموداً أنكره فترك الشعر فترة ثم قال : « عدت إليه وقد نضج الفكر ، واستقلت لي طريقة في كيف ينبغي أن يكون الشعر ، فشرعت أنظمه لترضية نفسي حيث أتخلى ، أو لترية قومي عند الحوادث الجلى ، متابعاً عرب الجاهلية في مجارة الضمير على هواه ومراعاة الوجدان على مشتهاه ، وموافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات ، والمطروق من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدي بأصول اللغة ، وعدم التفریط في شيء منها إلا ما فاتني علمه » وقال كذلك : « هذا شعر ليس ناظمه بعبد ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ، ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضوعه وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها ، وفي تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور ، وغرابة الموضوع ، ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحر ، وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر (١) » .

وفي الحق أن شعر مطران ، وما فيه من القصائد الجديدة في مادتها ، وطريقة عرضها ولا سيما تلك القصائد القصصية • « العصفور » و « الجنين الشهيد » و « فتاة الجبل الأسود » و « نيرون » و « حكاية عاشقين » الذي ظل ينظمها سنوات متتبعاً حوادث العاشقين ، إذ ابتدأ فيها سنة ١٩٠٧ ، وانتهى منها سنة ١٩١٣ . أقول : إن شعر مطران قد أثر في شعراء مصر حين سمعوه إما مباشرة أو غير مباشرة • ولقد حاول بعض النقاد أن ينسبوا إلى مطران كل تجديد في الشعر المصري ويقولون : إن إبراهيم رمزي لم ينظم قصة ( يوسف الصديق ) شعراً في اثنتي عشرة قصيدة سنة ١٩٠٠ وإن تقولوا رزق الله لم ينظم كليوباترا سنة ١٩٠٠ إلا بوحى من شعر مطران الذي دأب على نشره في المجلات قبل أن يجمعه في ديوان ، بل إن عبد الرحمن شكري الذي أخرج أول ديوان له سنة ١٩٠٩ وهو بعد في العشرين من عمره وفيه قال حافظ :

أفي العشرين تعجز كل طرق وترقصنا بأحكام القوافي

والعقاد والمازني ، وأحمد زكي أبو شادي ، وإبراهيم فاجي ، و خليل شيبوب

وعلي محمود طه المهندس ، والصيرفي وكثير غيرهم من تلامذة مطران ، ومن الذين تأثروا بطريقته الجديدة ، وإن اختلفوا عنه بعد ذلك ، واستقل كل بمذهب خاص به<sup>(١)</sup> فعكف شكري على دراسة الأدب الإنجليزي الواقعي الذي كان سائداً في إنجلترا في أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وساد شعره التشاؤم والانتقباض والخوف من الحياة ، وترديد ذكر الموت ، ووصف ما يعانيه الأموات ، كأنما شاهد ذلك بنفسه ، وتبعه العقاد والمازني ركّحاً من الزمن وإن لم نجد في شعرهما هذا النزوع العجيب إلى التحرر المطلق كما في قصيدة شكري ( كلمات العواطف ) التي نظمها من الشعر المرسل ، وقد أولع بهذا النوع فنجد له في الجزء الثاني قصيدة منه عنوانها ( واقعة أبي قير ) وأخرى ( نابليون والساحر المصري ) وبذلك كان أول من أدخل هذا النوع من الشعر في العربية . كما لم نجد في شعرهما هذا الإفراط في التشاؤم إلى حد الهوس والجنون ، بل إن المازني نفسه يحمل على شكري ، حملة قاسية ويرميه بالجنون ، وهو متأثر به وتتلمذ له وإن أنكر هذا<sup>(٢)</sup> في الديوان ثم عاد فاعترف بأستاذه بعد أن صمت شكري<sup>(٣)</sup> طويلاً كما ذكرنا ذلك من قبل .

ولكننا نرى العقاد ينكر أن يكون مطران هو الذي هداه إلى هذا الشعر الجديد أو هدى زميله فهو « لم يؤثر بعبارته أو بروحه فيمن أتى بعده من المصريين ، لأن هؤلاء كانوا يطلعون على الأدب العربي القديم من مصدره ، ويطلعون على الأدب الأوربي من مصادره الكثيرة ، ولا سيما الإنجليزية ، فهم أولى أن يستفيدوا اللغة من الجاهليين والمخضرمين والعباسيين ، وهم أولى أن يستفيدوا نوازع التجديد من آداب الأوربيين وليس للأستاذ مطران مكان الوساطة في الأمرين ولا سيما عند من يقرأون الإنجليزية ولا يرجعون في النقد إلى موازين الأدب الفرنسي ، أو إلى الاقتداء بموسىيه ولا مرتين وغيرهما من أمراء البلاغة في إبان نشأة مطران<sup>(٤)</sup> » .

أما أبو شادي فقد اعترف بتأثره بمطران في أسلوبه الجديد<sup>(٥)</sup> ، وإن اختلف

(١) إسماعيل أدهم ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) راجع الديوان في النقد والأدب الجزء الأول مقال : ( صنم الالاعيب ) ص ٤٨ والجزء الثاني ص ٨٩ .

(٣) جريدة البلاغ أول سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

(٤) شعراء مصر وبشائهم في الجبل الماضي للعقاد ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٥) راجع أبو شادي في أنداء الفجر ص ١٢٨ وفي قطرة من يراع في الأدب والاجتماع ج ٢ ص ٣ .

ومجلة أبولو أكتوبر ١٩٢٤ ص ٢٦٤ ، ومختار الوكيل في رواد الشعر الحديث عن مطران وأبي شادي

وشكري والعقاد ، ومحاضرة الدكتور إبراهيم ناجي ( اتجاهات الشعر الحديثة ) الأهرام ١٩٣٦/٦/٢٠ .

عنه بعد ذلك ، لأنه من قراء الأدب الإنجليزي ، كما اختلف عن شكري في أن نزعنه تفاعلية . وقد أقام مدرسة شعرية جديدة عرفت بمدرسة ( أبولو ) ولكنها لم تكن ذات منهج معين في الشعر بل جمعت أنماطا مختلفة من الشعراء بين مغرق في التقليد وجانح إلى التجديد أو مفرط فيه ، وإذا كان لها من أثر فهو في نهوضها بالشعر وتشجيع الشعراء الشاذين والأخذ بيدهم والعناية بدراسة الشعر العربي الحديث ونقده ، ونقل بعض الشعر الغربي . إلا أن أبا شادي قد انصرف عن الشعر العربي ، وآثر النظم باللغة الإنجليزية ، فانقطع تيار تأثيره<sup>(١)</sup> ثم هاجر إلى أمريكا في أعقاب الحرب العالمية الثانية وظل هناك حتى توفي ثمة .

وقد أعجب الدكتور طه حسين بمطران ، وأشاد بشعره ، وبمقدمته التي كتبها لديوانه<sup>(٢)</sup> وذكر رأيه في المثل الأعلى للشعر بأنه « الكلام الموسيقي الذي يحقق الجمال الخالد في شكل يلائم ذوق العصر الذي يقال فيه ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ، ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقاً فيأخذوا بنصيهم النفسي من الخلود<sup>(٣)</sup> » ، ويعجب بشعراء فرنسا ، وينقل قطعاً من ( بودلير ) وغير بودلير ، ويردد أن الشعر الجيد يمتاز قبل كل شيء بأنه مرآة لما في نفس الشاعر من عاطفة ، مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلاً فطرياً بريئاً من التكلف والمحاولة ، فإذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يمثلها فليس هناك شعر ، وإنما هناك نظم لا غناء فيه<sup>(٤)</sup> ويرى أن الشعر الخالد هو الذي يلائم كل العواطف في كل الأزمان والبيئات وهو الذي يخاطب العواطف الإنسانية العامة<sup>(٥)</sup> ، ويعمل جمود شعرائنا بأنهم « مرضى بشيء من الكسل العقلي ، بعيد الأثر في حياتهم الأدبية فهم يزددون العلم والعلماء ولا يكبرون إلا أنفسهم ولا يخفون إلا بها ، وهم لذلك أشد الناس انصرافاً عن القراءة والدرس والبحث والتفكير ، وكيف يقرءون أو يبحثون أو يفكرون وهم أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد في السماء بجناحيه في غير تفكير ولا بحث ، فأما البحث والتفكير

(١) راجع Leonard Harker في كتابه Blazing the Trail ١٩٣٨ ص ١٢٩ ، وراجع الدكتور إسماعيل أدهم من مطران ص ٢٤ .  
(٢) حافظ وشوقي للدكتور طه حسين ص ١٧ .  
(٣) المصدر السابق ص ٢٧ .  
(٤) المصدر السابق ص ١٠٩ .  
(٥) حديث الأربعاء ج ٢ ص ٨٣ وما بعدها .



فشان العقل ، والعقل عدو الخيال ، وهو عدو الشعر • وليس من الحق في شيء أن الشعر خيال صرف ، وليس من الحق في شيء أن الملكات الإنسانية تستطيع أن تتمايز وتتأفر فيمضي العقل في ناحية لينتج العلم والفلسفة ، ويمضي الخيال في ناحية لينتج الشعر • وإنما حياة الملكات الإنسانية الفردية حياة الجماعة رهينة بالتعاون ، ومضطرة إلى الفشل والإخفاق إذا لم يؤيد بعضها بعضاً<sup>(١)</sup> • ويرى أن يشترك العقل والقلب في النظم معاً<sup>(٢)</sup> • ولكن الواقع يظهر لنا أن الشعراء الذين تأثروا كثيراً بالحقائق العلمية وحاولوا الموازنة بين العقل والخيال أحياناً أو تغليب الفكرة على العاطفة والخيال قد جاء شعرهم رديئاً بل هو إلى النظم أقرب منه إلى الشعر ، ولا بدع فالشعر لا يحتمل كثيراً من حشد الحقائق وقضايا المنطق والبراهين العلمية ، وليس معنى هذا أن يصدف الشعراء عن القراءة والدرس والإفادة من تجارب سواهم وسير أغوار النفوس الإنسانية وتحليلها ، بل إن هذا واجبه في عصرنا هذا بشرط أن يأتي شعرهم انعكاساً للانفعالات النفسية التي استحوذت عليهم حين قراءتهم أو إفادتهم تجارب جديدة لا أن يكون كتاباً علمياً •

ويتهم طه حسين بشعر المناسبات ، وينعي عليه ويشبهه بالكراسي الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والمآتم<sup>(٣)</sup> • وهو في هذا محق بعض الحق ، وقد كان لحملته وحملات غيره أثرها في إقلاع الشعراء عن هذا الضرب من الشعر إلا بقية متخلفة •

والدكتور طه ممن غني بدراسة الأدب القديم بجانب دراسته للأدب الحديث بل لقد اهتم بالقديم اهتماماً كبيراً ورأى فيه جمالاً فنياً ، وأن العرب أحدثوا هذا الجمال فيه وفهموه وقدروه ، وليس الأمر كما يزعم بعضهم من أنه خلو من هذا الجمال الشعري الذي يكسو الآداب الأفرنجية في زعمهم • وليس هناك ما يرد هذا الجحد ، ويدفع هذا الزعم مثل ما نجده من جمال في شعر ابن ذريح وجميل بن معمر وأضرابهما من شعراء الغزل ، ومن ذلك قصيدة قيس بن ذريح التي يقول فيها :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى      ويجمعني والهم بالليل جامع

(١) حافظ وشوقي ص ١٤١ •

(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢١٢ •

(٣) حافظ وشوقي ص ١٥٠ •

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزتي إليك المضاجع  
لقد رسخت في القلب منك محبة كما رسخت في الراحتين الأصابع<sup>(١)</sup>

ومن دفاعه عن الشعر القديم قوله : « لا بد أن تنقده بذوق عصره لا بذوق  
العصر الذي يعيش فيه الناقد وإلا لما أنصفناه<sup>(٢)</sup> » .

وهو ممن قال بأن القصيدة العربية القديمة فيها وحدة معنوية<sup>(٣)</sup> ، واستنكر  
ما رُمي به الشعر القديم من خلوه من هذه الوحدة ، وعلل هذا الزعم بأن أصحابه  
لم يطلعوا على الشعر القديم كاملاً ، وضرب مثلاً بمعلقة ( لييد ) ، وأخذ يبين ما  
فيها من وحدة معنوية<sup>(٤)</sup> ، وتنسيقها وملاءمتها الشديدة للموسيقى التي تجمع بين  
جمال اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، ووضح أن هذه النغمة المتصلة هي التي  
كونت وحدة القصيدة المعنوية .

وأثر الدكتور طه في الشعر يرجع إلى ما تناوله من قصائد بالنقد كما فعل في  
قصيدة شوقي التي قالها في مصطفى كمال والتي مطلعها :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب  
ووازن بينها وبين قصيدة أبي تمام في فتح عمورية :  
السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب  
وكما فعل في قصيدة شوقي :

قسي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

وبتأريخه للأدب على طريقة جديدة تأثر فيها بأستاذه ( نلينو ) وطبق فيها  
طريقة الغربيين في البحث الأدبي ، وكانت باكورة هذه الأبحاث ( ذكرى أبي العلاء )  
الذي نال عليه شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة وصار نموذجاً لمن أتى  
بعده من مؤرخي الأدب ؛ وكذلك بما ترجمه من الأدب الفرنسي شعراً ونثراً ، ليضربه  
نماذج وأمثلة لشعرائنا كي يحتذوه .

(١) نفس المصدر ص ١٥٠ .

(٢) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٢٣ وما بعدها .

(٣) حديث الأربعاء ج ٢ ص ٨٣ .

(٤) الأدب الجاهلي ص ٢٥٨ ، وحديث الأربعاء ج ١ ص ٢٠ .

والدكتور طه لا يقيس الأدب بمقياس جمالي أو سيكلوجي أو لغوي معين ، وإن كان ينتفع في نقده بنتائج هذه الدراسات انتفاعاً واضحاً كما رأيت في الشمول الذي يريده لتهجه • وليست له نظرية واضحة المعالم في فلسفة الفن والجمال ، ولكنه يصدر في نقده عن ذوق ومعرفة<sup>(١)</sup> • ونقده في مجمله ذاتي ، وكثيراً ما يعمم الأحكام كقوله : « إن عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزلين الأمويين جميعاً لا نستثني منهم أحداً ، ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة ، بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن عمر زعيم الغزلين في الأدب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربي إلى الآن<sup>(٢)</sup> » •

وكثيراً ما كان يصدر أحكامه بدون تعليل ، وقد تكون هذه الأحكام قاسية ولكنه لا يعللها دائماً حتى يبريء نفسه من تهمة التحكم والتعامل<sup>(٣)</sup> ، ومن أمثلة هذه الأحكام غير المعللة رغبته إلى علي محمود طه أن يلغي قصيدته ( ميلاد شاعر ) عند طبع ديوانه الملاح التائه<sup>(٤)</sup> ، وقوله : إنه لم يجد في قصيدة ناجي ( قلب راقصة ) جديداً<sup>(٥)</sup> ، إلى غير ذلك من عشرات الأحكام التي يصدر فيها عن ذوقه الخاص دون الرجوع إلى مقاييس معينة أو التعليل لها •

## — ٨ —

ولعلك ترى أن ثمة مدرستين في النقد الأدبي إحداها فرنسية ومن زعمائها : هيكمل وطه حسين ، ومن شعرائها شوقي ومطران وصبري ، والأخرى إنجليزية ومن زعمائها العقاد وشكري والمازني وأبو شادي وهم أنفسهم شعراء وتقاد • وبين المدرسة الإنجليزية والمدرسة الفرنسية في الشعر تباين يرجع إلى أن المدرسة الإنجليزية الشعرية أقوى من الفرنسية ، والمدرسة الفرنسية في النثر أقوى من الإنجليزية وذلك لأسباب •

منها : أن البيئة الإنجليزية معتمدة تدعو الفرد إلى الانطواء على نفسه وعلى

(١) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده لمحمد خلف الله ص ١٣٥ وما بعدها •

(٢) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٨٧ •

(٣) خليل سكاكيني - مطالعات في اللغة والأدب ص ٧٣ •

(٤) حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٦٧ •

(٥) نفس المصدر ص ١٧٢ •

الكتابة والحزن ، فيكثر التفكير في الطبيعة ولو من وراء جدار ، وفي الله وكمال صنعه • وعلى العكس من ذلك البيئة الفرنسية فهي أكثر إشراقاً ، وأضحى شمساً والشعر لا يعمق عادة في مثل هذه البيئة ؛ لأنها بوضوحها أورثت الفرنسي المنطق ونصاعة الحجة ، والصراحة في التعبير والتفكير نوعاً ما • إن الفرنسي يعيش في عالم الشعور ، ويطمئن للطبيعة المحيطة به ، لأنها ليست طبيعة صاخبة عاصفة مدمرة ، سوداء معتمة ، كما هو الحال في الطبيعة التي تكتنف بلاد الإنجليز •

لا يرى الإنجليزي الشمس في أغلب أيام السنة إلا لحظات ، وجو بلاده ملبد دائماً بالغمام ، والضباب يجتاحها في فصل الشتاء حتى يتعذر على الإنسان أن يرى يده في أثناء النهار ، وهي جزيرة تحيط بها بحار صاخبة ، وتهب عليها أعاصير مريعة ، وكثيراً ما تغطي أرضها بالثلوج ، وقد أدى هذا إلى كآبته ، وانقباضه ، وإلى كبت وحرمان ، فمما عقله الباطن ، وتساقطت فيه رغبات كثيرة لم تحقق له ، ولذلك كثرت أحلامه وخیالاته وآماله •

كما أن هذه البيئة حبت إليه العمل حتى صار طبعاً له محبوباً لذاته ، ينزل من نفسه منزلة الهواء الذي يتنفسه ، والماء الذي يشربه ، والطعام الذي يغذيه ، كما أورثته البطء في التفكير ، فليس له ذلك الذكاء اللامح الذي تراه عند الفرنسي ، حتى أصبح الإنجليزي يكره التفكير النظري المنطقي • إنهم يعملون ولا يجهدون أنفسهم في التفكير في عاقبة أعمالهم ومن أمثالهم المشهورة (انتظر وترقب ما يحدث) •

وهذه البيئة الصارمة أورثتهم المحافظة على التقاليد والتدين • ولا شك أن الوحدة والافتراق — وهما أثر من آثار الكتابة والانتقاص — جعلتهم يكثرون من نجوى أنفسهم ومن التأمل في الحياة وخلقها وخالقها ، وربما رجع هذا الميل إلى التدين والتمسك الشديد بالتقاليد إلى أصلهم السكسوني ؛ وبينما ترى الفرنسي يعيش في عالم الواقع ويبحث دائماً في تصرفات الإنسان ويحللها ، ترى الألماني السكسوني يتجه دوماً نحو الله ، ونحو أسرار هذا العالم الخفي • وقد صبغت الرومانتيكية الألمانية في القرن الثامن عشر بالبحث فيما وراء الطبيعة ، واشتهرت بقصص الجن والشياطين ، والمفزعات من كل نوع ، وأخذ الإنجليز عنهم هذا النوع من القصص وأحبوه ، وفتتوا به<sup>(١)</sup> ، وقد ورث عنهم الإنجليز هذا الميل وزاده

تثبيتاً طبيعة بلادهم المقبضة • وتدينهم أورثهم التزمت والجد في الحياة ، والخجل المفرط من كل ما يشين ، وقد يخطئون ويخالفون القانون ، ولكنهم يستترون ، ويخشون العار والفضيحة ، ولذلك ساد بينهم نوع من النفاق الاجتماعي ، يسيطر على كثير من تصرفاتهم • كما اشتهروا بضبط النفس وقلة الانفعال ، لأنهم تعودوا الكبت ، ومغالبة الرغبات •

وإذا درست المجتمع الفرنسي وجدته مجتمعاً يجب المرح ، والصخب ، ولذلك يفضل حياة ( الصالون ) والمقهى ، وفي الصالون يسود الذكاء ، والنكتة ، وحسن التعبير ، والتفكير الفلسفي ، ولا يحوي المنزل الفرنسي أشخاصاً ( انفراديين ) ، يغلب عليهم الجد والكآبة ، ولكنه منزل تنطلق فيه الألسنة بحرية وصراحة ، ومجتمعهم تسود فيه اليقظة ، وعدم الخجل مع مراعاة الآخرين والالتفات إلى أذواقهم ، ورغباتهم •

وفي الصالون تكون الرئاسة لسيدة ، وفي حضرة السيدات تحسن المجاملة ، والركة ، والبساطة ، والوضوح ، والذكاء ، والنكتة ، ومثل هذا المجتمع لا يجد وسيلة للتعبير أحسن من النثر ، لأن النثر يمتاز بالسلاسة ، والبسط والإيضاح ، والسهولة ، وذلك لأن شاعر الصالون مشغول دائماً بسواه وقلما يفرغ لقلبه ، وبهذا نستطيع أن نقرر : أن الإنجليز فاقوا الفرنسيين في الشعر ، وفاقهم الفرنسيون في النثر • فاق الإنجليز في الشعر لأنهم مكبوتو العواطف ، والشعر ينفس عنهم ؛ لأن العنصر الغالب فيه لا شعوري ، ومهما يبلغ الخجل بنفس إنسان ، فإنها تستطيع أن تقف عارية مكشوفة أمام اللاشعور ، دون أن تحس بأدنى خجل • ولأنهم انفراديون ، يؤثرون العزلة ، أكثر من التأمل في الطبيعة ، والطبيعة منبع الشعر ، ومصدر إلهامه • ولأنهم منقبضون ، جاء أدبهم مشوباً بالكآبة حتى في أغانيهم ، ولذلك نبغوا في المآسي العنيفة ، وقد لاحظ ذلك ( راين ) Rapin الفرنسي فقال : « يمتاز الإنجليز بعبقريّة في ( المآسي — التراجيديات ) تساعد على ذلك طبيعتهم التي تعجب لفظائع الأمور ، وامتياز لغتهم بالتعبيرات الفخمة » •

أما الشاعر الفرنسي فهو في يقظة عقلية ، وبيئة واضحة ، يحب الاجتماع والحديث ، ولذلك لا يعرف الرهبة ولا الأحلام الشاردة ، ولا الخيال الشاذ ، وتعنه

حياة الصالون فيعبر عن آرائه برفق وهوادة ، مراعيًا أن ينهمه سامعوه ليعجبوا به .  
وليس معنى هذا أن فرنسا لم ينبغ فيها شعراء ، وأن إنجلترا لم يتفوق فيها  
كتاب ، ولكن هذه هي الصفة العامة للأدبين . وقد عبر أناطول فرانس عن نظرة  
الفرنسيين للشعر بقوله : « من المحقق أننا نحب الشعر ، ولكننا نحبه فيه طابعاً  
خاصاً ، فنحن ، نريد شعراً فصيحاً ، ولكن ليس الغرض من الفصاحة مجرد  
الإغراب في الخيال » .

استطاع النثر الإنجليزي في القرن الثامن عشر أن ينافس النثر الفرنسي ، وظهر  
في إنجلترا من الكتاب العظام أمثال پوب ، وسوِفت ، وإديسون ، وصامويل  
جونسون ، ووليام كوبر وغيرهم ، كما أن الشعر الفرنسي قد بلغ القمة على يد  
راسين ، ولامارتين ، وبودلير وغيرهم ، ومن هذا نرى أن ما سقناه من الموازنة بين  
الأدبين إنما هو القواعد العامة والصفات الغالبة<sup>(١)</sup> .

ولست أريد التوسع في هذه الدراسة ، فإنها لا تعيننا إلا بهذا القدر الذي  
يوضح لنا الفرق بين الخصائص العامة للمدرستين الإنجليزية والفرنسية ؛ لأن ثقافة  
أدبائنا المحدثين أخذت عنهما ، أو اكتفت بواحدة منهما ، وقد كان لها أثرها في الأدب  
وفي جمهرة القراء المثقفين الذين يحبون الأدب الرفيع ، لأن الثقافتين كما علمت في  
الفقرة الأولى كانتا في صراع طويل على السيادة في مصر .

تأثر بعض أدبائنا بالثقافة الفرنسية ، وبمذاهب الأدب الفرنسي الذي ساد في  
القرن التاسع عشر . وظهر ذلك في أسلوبهم الشعري ، وفي معانيهم ، وفي خيالاتهم ،  
ومن هؤلاء إسماعيل صبري ، وشوقي ، ومطران ، وعلي محمود طه ، وشيبوب .  
ومن الذين تأثروا بطابع المدرسة الإنجليزية العام : شكري ، والعقاد ، والمازني ،

(١) راجع في هذا البحث :

- (1) *Studies French and English*, by F. L. Lucas.
- (2) *A Comparison of Literatures. English, French, German and American.*  
by R. D. Jameson.
- (3) *A Critical Survey of French and English Literary Ideals in the Eighteenth  
Century*, by F. Green.
- (4) *World Literature*, by Moulton.
- (5) *Some Principles of Literary Criticism*, by Winchester.
- (6) *The Romantic Agony* by Maria Praz Translated from Italian by A. Davidson.

(٧) رسالة الأستاذ الطيب حسن من اثر الثقافة الغربية في الادب المصري الحديث ( مخطوط ) .

وأبو شادي ، والصيرفي • وسنرى عند الكلام عن كل شاعر إلى أي حد أفاد من اطلاعه على هذه الثقافة أو تلك • وقد يتوهم بعضهم أن مطران مترجم شكسبير يعرف الإنجليزية ويجيدها إلى حد ترجمة روائع الأدب فيها ، والحق أن مطران نقل روايات شكسبير عن الفرنسية<sup>(١)</sup> • كما قد يظن بعضهم أن رواية كليوباترة لشوقي أثر من آثار قراءته لشكسبير أو برناردشو ، وعندي أنها أثر من آثار المسرح الفرنسي كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، وكما سنرى فيما بعد •

لقد بلغ هذا التأثير ببعض شعرائنا إلى حد السطو على الشعر الغربي ، ونقل القصيدة موضوعاً ، وعنواناً ، وأبياتاً ، أو على الأقل معظم الأبيات<sup>(٢)</sup> •

وقد أحصى إسماعيل أدهم مئات الصور الشعرية والمعاني التي أخذها مطران من الأدب الفرنسي<sup>(٣)</sup> •

## — ٩ —

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الشعراء والنقاد المجددين قد وجَّهوا الشعر العربي الحديث وجهة جديدة ، وحسبنا أن نقول مع الدكتور طه حسين : « ومهما قيل من القدح في شعر هؤلاء الشعراء المجددين الذين تثقفوا ثقافة غربية ، فإنهم يكفيهم شرفاً أنهم ابتعدوا بالشعر عن الأغراض المادية ، وأنا حين نقرأ أشعارهم نرى فيها شخصية لها وزن وقيمة ، وعقلية تفكر ، وتعرف كيف تعلن عن تفكيرها للناس »<sup>(٤)</sup> •

لقد كان بجانب هؤلاء جميعاً أنصار المدرسة القديمة في النقد ، يعنون بالنقد اللغوي ، وصحة الالفاظ والتراكيب ، ومقاييس البلاغة العربية ، وأوجه الاستعارة والمجاز والتشبيه ، كما كان يفعل نقاد العرب قديماً ، ويحملون على هذه المذاهب الجديدة ، وعلى الشعر الضعيف الذي توحى به ، أو على الشعر التقليدي ، والسرقات التي أخذت من الشعراء الأقدمين •

(١) ميخائيل نعيمة في الفريال ص ١٧١ •

(٢) راجع مقدمة الجزء الثاني من ديوان المازني ، وراجع رسائل النقد لرمزي مفتاح ، ومقدمة رسائل النقد لجبران سليم ص - د ، ومقدمة الجزء الخامس من ديوان عبد الرحمن شكري ( ص ٦ - ٧ ) وقد أثبتت القصائد المسروقة ، وما يقابلها •

(٣) راجع إسماعيل أدهم عن مطران ص ١٤٧ - ١٤٨ •

(٤) حافظ وشوقي ص ١٤٥ •

فمن النقاد اللغويين الذين اشتهروا إبراهيم اليازجي في تقده لشعر شوقي ، وإبراهيم المويلحي في تقده لشعر شوقي<sup>(١)</sup> والرافعي في تقده لشعر العقاد ولشعر شوقي<sup>(٢)</sup> ، والعقاد في تقده لشعر شوقي ، والمازني في تقده لشعر شكري<sup>(٣)</sup> ، وطه حسين في تقده لشعر حافظ وشوقي<sup>(٤)</sup> . على أننا نعلم الرافعي إذا أدرجناه ضمن أنصار المدرسة القديمة في النقد ، تلك التي عنيت بالنقد اللغوي دون سواء . فالحق أن للرافعي آراء جديدة كل الجدة في نقد الشعر ، وهو لا ينتسب في تقده لمدرسة من المدارس إنجليزية أو فرنسية ، وإنما كان تقده وليد بصيرته النفاذة ، وطبعه الصافي ، وتأثره بالحركة التجديدية المعاصرة له بعض التأثير .

فتجده مثلاً يعيب الشعر العربي القديم بعدم تماسك قصائده ، بحيث لا تكون وحدة تامة البناء ، وبعدم النظرة الشاملة للكون لدى الشعراء ، بل نراهم يعنون بالجزئيات دون الكليات ، وبقلة التفكير والعمق فيه بوجه عام ، استمع إليه حيث يقول :

« حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قطع مبتورة من الكون داخله في الحدود لا بسة الثياب ؛ ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره ، وإلا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة ؛ فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالجهول ويسقط بشدة على صور فردية ضيقة الحدود ، فلا تجد في طبعه قوة الإحاطة والتبسط والشمول والتوفيق ، ولا تواتيه طبيعته أن تستوعب كل صورة شعرية بخصائصها فإذا هو على خاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يوغل فيه ، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ، ولا يتقدم فيها نظره ، وإذا نفسه تمر على الكون مرأ سريعا ، وإذا شعره مقطوع قطعاً ، وإذا آلامه وأفراحه أوصاف لا شعور ، وكلمات لا حقائق ، وظل طامس ملقى على الأرض إذا قابلته بتفاصيل الجسم الحي السائر على الأرض »<sup>(٥)</sup> . وهذا ولا ريب حكم قاس كل القسوة يصدره الرافعي ضد الشعر العربي وهو من هو في دفاعه عن

(١) راجع مختارات النفلوطي ، وشوقي للامير شكيب ارسلان .

(٢) راجع على السفود ، وحي القلم الجزء الثالث .

(٣) الديوان في النقد والادب للمازني والعقاد ج ١ ، ٢ ، ٣ .

(٤) حافظ وشوقي .

(٥) وحي القلم الجزء الثالث ص ٣٥٠ .



العروبة • ولقد ناقشنا هذا الرأي في كتابنا النابغة الذبياني فلا نرى داعياً لتكرار ما قلناه ثمة ، ولعلك رأيت أن الرافعي لا يقل ثورة عن هؤلاء النقاد الثائرين ، ولقد عني في أول حياته بالشعر ، وطمع في أن يكون أمير الشعراء ، وهو من شعراء المعاني الذين اهتموا بها كل الاهتمام يؤدونها بأي لفظ تهيأ لهم ولذلك جاء في شعره كثير من السقط ، المهلهل النسيج •

ويرى الرافعي أن العلم والتجربة وكثرة الأسفار ضرورية للشاعر تغذي فكره وتجدد نشاط خياله وعقله وتلهمه الصور وذلك حيث يقول : « إنما قوة الشعر في مساقط الجوفني كل جو جديد روح للشاعر جديدة • والطبيعة كالناس ، هي في مكان ييضاء وفي مكان سوداء ؛ وهي في موضع نائمة تحلم ، وفي موضع قائمة تعمل ، وفي بلد هي كالأنثى الجميلة ، وفي بلد هي كالرجل المصارع ، ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبي على أقواه وأشدّه إلا إذا أطعمته مع صنوف الأطعمة اللذيذة المفيدة ألوان الهواء اللذيذ المفيد » (١) •

وإذا كان الرافعي قد عني بالعبارة وبالألفاظ حتى نسب إليه أنه من نقاد المدرسة القديمة فإن له نظرات نقدية جديدة في وقت مبكر من حياته الأدبية ، وأظهر ما ترى ذلك في كتابه « تاريخ آداب العرب » ومن ذلك قوله : « إن جودة الكلام ترجع إلى ما فيه من أسرار الوضع اللغوي الذي تعتمد على إبانة المعنى في تركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف وإحكام الوضع وجمال التصوير وشدة الملاءمة » (٢) •

ولكن هذه الملاءمة لا تعتبر في اللغة ومتعلقاتها بقدر اعتبارها في التوفيق بين أجزاء الشعور وأجزاء العقل على أتمها في الجهتين فيلتقي حينئذ البيان والعقل والشعور (٣) •

وجودة الكلام تكون بتخير حر اللفظ وأنسبه ، وبتخير نادر المعنى وتمكنه • وتكون بخلوه من الإحالة والاستكراه والحشو والفساف ، والضعف والهلل ، وبتميزه بالوضوح وبتركيد معناه بالترادف ودنو المأخذ ، وإصابة السر ، وعدم

(٢) تاريخ آداب العرب ج ٧ ص ١٥٧ •

(١) وحى القلم الجزء الثالث

(٣) نفس المصدر ص ٢٨٥ •

تكلف الصنعة إلا ما جاء عفو البديهة ، ثم تمييزه بالسهولة والابتكار ، وبالتناسب الموسيقي في حروفه وكلماته<sup>(١)</sup> » .

ومن اللحاحات النقدية الطريفة مناداته بأن يمثل الشعر المعاني النفسية الخاصة والعامه ، وهذه متأثرة بالحياة ، وإذا فالشعر تمثيل حقيقي للحياة ، وفي هذا التمثيل خلوده<sup>(٢)</sup> . وكذلك فهو تمثيل حقيقي للشاعر ، ولذا فإن دراسة أخلاق الشاعر وحياته عامة مهمة لتفسير شعره .

ورأى أن الشعر لا يتسع لبسط المعاني . فإذا بسطت فيه وشرحت سقطت مرتبته من الشعر وأصبح نظماً كنظم المتن<sup>(٣)</sup> ودعا الرافي<sup>(٤)</sup> إلى الاهتمام بجوهر الشعر وروحه لا إلى قشوره وظواهره ، وأن تكون نظرة الشعراء شاملة لا جزئية . وذمّ التكلف الذي يفرض فيه الفكر على الإرادة ، والإرادة على العاطفة ، فلا تصدق العاطفة ، ولا تخلو من الغلو ، وذمّ كذلك التكلف الذي يأتي من عبادة الأوزان ، وتقليد القدماء في صورهم ومعانيهم .

ورأى أن المعاني في الشعر لا تضيء إلا بشعاع من الخيال ، فهو يريد من الشعر أن يكون تصويراً للطبيعة ملونا بالعاطفة حتى يؤثر في نفس السامع والقارئ . . إلى غير ذلك من الآراء النقدية التي لا تقل تحرراً عن المدارس الجديدة في النقد .

وقد وضع الرافي طريقه في نقد الشعر وكيف ينظر إليه بقوله : « وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون همي إلا البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه ، وكيف ألمّ وكيف لحظ ، وكيف كان المعنى منبّهةً له ، وهل ابتدع أم قلّد ، وهل هو شعّر بالمعنى شعوراً فخالط نفسه وجاء منها أم نقلاً فجاء من الكتب ، وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه ، ويدقق النظرة في أسرار الأشياء ، ويحسن أن يستشف هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول الشعري ، ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها ، أم أن فكره استرسال وترجيم في الخيال وأخذ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجمله هل هو ذاتية تمر فيها مخلوقات معانيه لتخلق فتكون لها مع

(١) نفس المصدر ص ٢١٤ ، وص ٢٢٤ .

(٢) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٧٢ .

(٣) رسائل الرافي ص ٦٧ .

(٤) مقدمة ديوان الجزء الثالث الصادر سنة ١٩٠٨ .

الحياة نفسها حياة من نفسه أم هو تبعية كالمسار بين طرفين يكون بينهما وليس منهما ولا من أحدهما» (١) . وأنت ترى من هذا أن الرافعي يطلب من الشاعر أن يستشف أسرار الحياة وأن يتكر المعاني ويجدد فيها ويشعر بالوجود شعوراً عميقاً يخالط نفسه ، وتراه لا يستحسن الأدب الواقعي الذي ينقل الحياة كما هي دون أن يتأثر بها . ويرى الرافعي أن حركة التجديد في الشعر قد أفادته على الرغم مما بها من سوءات ، ومما جرته على الشعراء . استمع إليه يقول : « وعلى ما نزل بالشعر العصري فقد استقلت طريقته وظهر فيه أثر التحول العلمي والانتقال الفكري وعدل به أهله إلى صور الحياة بعد أن كان أكثره صوراً من اللغة ، وأضافوا به مادة حسنة إلى مجموعة الأفكار العربية ، ونوعوا منه أنواعاً بعد أن كان كالشيء الواحد ، واتسعت فيه دائرة الخيال بما نقلوا إليه من المعاني المترجمة من لغات مختلفة » (٢) .

وللرافعي غير ذلك آراء كثيرة في نقد الشعر تحتاج إلى فصل خاص فحسبنا ما ذكرناه .

وظلّت الصياغة وجودتها تجد من يدافع عنها ، وعن الموسيقى في الشعر من أمثال الأستاذ الزيات (٣) والرافعي ، والمنفلوطي وأساتذة دار العلوم والأزهر .

وكانت الثمرة الطبيعية لكل هذه الآراء في النقد وفي توجيه الشعر أن تعددت مدارسه : فمدرسة أثرت الشعر التقليدي العربي في روحه ومعانيه ، وتشبيهاته وأخيلته ، وموضوعاته وصياغته ، وإن لم تنج من التأثير بمظاهر الحضارة ، والنهضة القومية ، وتوجيه النقاد ، ومن هؤلاء : عبد المطلب ، وتوفيق البكري ، والجارم ، وإسماعيل صبري ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد محرم . ومدرسة جمعت بين القديم والجديد ، أخذت من الأول حسن الصياغة ، وطريقة القصيدة ، وتأثرت بالشعراء القدامى في موسيقاهم ومعانيهم ، وعارضتهم ، وأخذت من الجديد بطرف في الموضوعات ، والتشبيهات وأحياناً في القالب ، وانفعلت بحوادث عصرها من مثل شوقي وعلي محمود طه المهندس . ومدرسة قلدت ، ثم جدت باعتدال دون خروج

(١) وحي القلم ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٢) وحي القلم ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٣) راجع دفاع عن البلاغة للزيات ، وحي الرسالة ج ١ : ٢ .

في الجملة على قواعد اللغة من أمثال مطران ، وشكري والعقاد والمازني وأبي شادي ، والصيرفي ، وشييوب • ومدرسة آثرت أن تنحو النحو الغربي وتهجر كل ما يمت إلى الشعر العربي بصلة ، ومن هذه المدرسة بعض شعراء المهجر •

أما شعراء الشباب ففيهم نزعات كثيرة لم تتركز بعد ، وهم يقلدون عدة مدارس غربية تقليداً لم يصدروا فيه عن حاجة طبيعية ، أو ضرورة اجتماعية ، أو سياسية كما فعل شعراء أوروبا بل أمعنوا في التجديد والتقليد فصار منهم الرمزيون والسرياليون ، والواقعيون ••• إلى غير ذلك من المذاهب التي ما أنزل الله بها من سلطان في مصر •

وجدت منذ سنوات معدودة بدعة النظم بالشعر الحر المبني على التفعيلة فيه ضرب من الموسيقى ولكنه متحرر من القافية والبحور ، وأغلب الذين أقبلوا عليه من شعراء الشباب والشادين في الأدب • ولا يزال في موضع التجربة ، ولم يأت بعد الشاعر القوي الذي يلفت الأنظار إليه ويجذب الأسماع نحوه ويضع هذا الضرب من الشعر في منزلة الأدب الرفيع ، ولنا إلى كل هذه المذاهب عودة عند الكلام على مدارس الشعر في الأجزاء التالية إن شاء الله •

ورأى بعض العلماء حين تعددت مذاهب النقد ، ومدارس الأدب ، وتناول النقد الأدبي من لا يستطيعه ، ومن لا يحكم فيه إلا ذوقه ، الذي قد يكون مصقولاً ، يغذيه علم وسعة اطلاع ، وقد لا يكون مصقولاً ، ولا يعرف شيئاً في الأدب العربي القديم أو الحديث — رأى هؤلاء العلماء أن الحاجة ماسة إلى وضع كتب في النقد الأدبي وتبيان أصوله ، فترجم الدكتور محمد عوض ( النقد الأدبي ) لأوبر كرومبي ، ووضع الأستاذ أحمد الشايب كتاب أصول النقد الأدبي متأثراً فيه بكتاب Winchester في أصول النقد ، وظهر في السنوات الأخيرة ( في الأدب والنقد ) و ( الميزان الجديد ) للدكتور محمد مندور ، و ( من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ) لمحمد خلف الله ، و ( دراسات في علم النفس الأدبي ) لحامد عبد القادر ، و ( الأصول الفنية للأدب ) لعبد الحميد حسن ، والمدخل إلى النقد الحديث للدكتور غنيمي هلال •

## الفصل الرابع

### الشعر عند البارودي

وثب البارودي بالشعر وثبة عالية ردت إليه ديباجته المشرقة المتينة ، وأغراضه الشريفة ، ومعانيه السامية ، وحررته — كما ذكرنا — من الغثاء والركة ، وقيود البديع المتصنع وحلاه المسترذلة . وكان للبارودي مدرسة قوية تتلمذ عليه فيها شعراء نجباء ، فجاروه في متانة أسلوبه والبعد عن مظاهر الضعف ، واختلفوا بعد ذلك عن أستاذهم تبعاً لاختلاف ثقافتهم ، ومواهبهم الشعرية ، وتأثرهم بأحداث زمانهم .

كثر عدد الشعراء بمصر في مستهل القرن العشرين ، والربع الأول منه ، وقد تباينوا حظاً في الشهرة وإدراك المجد ، وخلفوا لنا جميعاً تراثاً زاخراً بالثروة الأدبية ، جعل مصر في مقدمة الشعوب العربية في الشعر . وقد تضافرت عدة عوامل عامة على تجويدهم ، وبروزهم ذكرناها آنفاً ؛ وخير شعراء العصر الحديث هم المخضرمون الذين أدركوا القرن التاسع عشر ، وشهدوا النهضة في مستهلها ، وثقفوا ثقافة عربية قوية في بدء نشأتهم ، ثم عاشوا في القرن العشرين ردهاً من الزمن ، وشهدوا الوثبات الوطنية الرائعة والأحداث المحلية المثيرة ، والتطور العلمي فكراً ومادة .

وإذا نظرنا إلى الشعر في هذه الحقبة نظرة عامة من حيث أغراضه نجد بعض القديم منها قد اندثر ، وعفى عليه الزمن ، وبعضها قد تجددت معانيه ، ودبت فيه روح جديدة ، وبعضها قد ابتكر ، ولم يعرف عنه العرب الأولون شيئاً .

فمن الأغراض التي كانت رائجة في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين ، وكان لها شأن كبير في شهرة الشاعر ، وحظه من المجد — المديح — ولا نجد شاعراً مخضرمًا لم يمدح ؛ وكانت جهات المديح متعددة ، فالخليفة في الآستانة ينتظر من شعراء العربية المسلمين — بل وغير المسلمين — أن يرفعوا إليه مدائحهم يصفونه فيها بكل جليل عظيم من المكرمات وهو عنها عار ومنها براء ، والأمير في مصر قد جعل له

شاعراً خاصاً يتغنى بأعماله ويشيد بذكره في كل مناسبة ، والوزراء والعظماء ينتظرون من الشعراء مثل هذا المديح . وقد غالى الشعراء في مديحهم ، وساروا فيه على سنن الأقدمين من افتتاح القصائد بالغزل المتكلف ، ثم وصف المدوح بالكرم والشجاعة وغير ذلك من الصفات التي استنفد شعراء الماضي كل معانيها . ولقد كان هذا الغرض هدفاً لهجمات النقاد المبررة ، ولوم الشعراء لوماً شديداً على عكوفهم عليه في عصر يجب أن يتطلع فيه الشاعر إلى الشعب لا إلى الأمراء والخلفاء ، ويجب أن يبنّي مجده على شاعريته ومواهبه باستتباط المعاني الجديدة ، ومجاراة الحياة التي يعيش فيها ، لا على التمسح بأعتاب الملوك والأمراء ، وبنظرته العامة إلى الإنسانية لا بنظراته الفردية المحلية . وقد أثمرت هذه النقادات ثمرتها ، وانصرف معظم الشعراء الذين كلفوا بالمديح الشخصي حيناً إلى غيره من أغراض الشعر ، وإذا مدحوا فلبطولة فائقة ، أو لغرض شعبي عام ، أو لعمل وطني جليل ، أو ذهبوا إلى التاريخ يستوحونه أمجادهم ومفاخرهم . والمدح كما يقول الرافعي <sup>(١)</sup> « إذا لم يكن باباً من التاريخ الصحيح لم يدل على سمو نفس المدوح بل على سقوط نفس المادح ، وتراه مدحاً حين يتلى على مسامعه ، ولكنه ذم حين يعزى إلى قائله ، وما ابتليت لغة من اللغات بالمديح والرثاء والهجاء ما ابتليت هذه العربية » .

ومن الأغراض التي أماتها استنكار النقاد ، والعرف العام ، والحياة العصرية وما فيها من قوانين مدنية تعاقب المعتدين على أعراض الناس ، النهاشين لها : الهجاء . ولم يبق منه إلا مداعبات لطيفة فيها تهكم وسخرية وتصوير ، لا تتناول المحارم والأعراض ، ولا تقذع ولا تفحش ، وإنما تعتمد على النكتة اللاذعة ، والتصوير البارع ، وإذا احتدم الهجاء بين الشعراء أفحشوا ولكنهم يستحيون من تدوينه وإنما يتناقله الرواة شفاهاً ، وكأنهم يخشون أن يؤثر عنهم في عصرنا هذا .

ومن الأغراض التي كادت تندر : الحماسة ، وإذا كان البارودي قد أبدع في الحماسة وأعادها قوية مشبوبة الأوار ، لماعة السيوف كما كانت في عهد البطولة العربية الأولى ، فإنه كان فارساً خاض غمرات الحروب ، وشهد المعامع وصيال الخيول ، وقصف المدافع . أما الذين أتوا بعده فإن أتوا بشيء من الحماسة في شعرهم فذلك عن تقليد لا عن أصالة . وكثيراً ما تثير ذكريات الماضي وما فيها من صور رائعة

البطولة والحماسة في نفوسهم ، فيصفون هذا الماضي ، وما كان فيه من أحداث جليلة ، وما قام به الفرسان من أعمال • على أن هناك ما صرفهم عن الحماسة ، وأشبع نفوسهم من هذه الناحية ألا وهو الشعر الوطني القومي ، وسنأتي على ذكره بعد قليل •

ومن الأغراض التي اضمحلت ، وحبا بريقتها من القصائد ، وقد كان لها شأن أي شأن في القديم ، وعند البارودي : الفخر • كان الشعراء في الجاهلية ، وفي الإسلام فرسانا شجعاناً أشرفا ، فكان من الطبيعي أن يتغنوا بمفاخرهم ومفاخر قبائلهم ، وأعمالهم ، ثم افتخر الشعراء بعد ذلك بشعرهم وبأهوا بمواهبهم • ولكن العصر الحديث بعد بالشاعر عن ميادين القتال ، ولم يعد ذلك الشاعر الذي يدلُّ بأعماله من كرم ونجدة ، ويدلُّ بأعمال قبيلته ، بل انقلب الفخر إلى شيء آخر هو ما سيظهر في الشعر الوطني ، يشيد فيه الشاعر بأمجاد أمته وتاريخها كما فعل شوقي مثلاً في ملاحمه العربية والإسلامية •

أما الغزل فقد احتل المقام الرفيع عند الشعراء ، وإن سار كثير منهم في أول الأمر سيرة الأولين وقلندوهم في الأوصاف المادية ، وفي تشبيهاتهم • ولكنه ما لبث أن دخل عليه شيء كثير من تحليل العاطفة ، وتصوير نزوات النفوس ، وفتقت فيه المعاني — وإن جنح عند بعض الشعراء المحدثين الذين ظهروا في أعقاب الحرب العالمية الأولى حتى اليوم ، إلى الشهوة والتخث والإسفاف •

ولقد تباين الشعراء في هذا الفن فمنهم من تكلف تقليداً للقدماء ، وإرضاء لفنه الشعري دون أن يصدر عن عاطفة أو هوى ، ولذلك جاء شعراً جافاً خلوا من الأحاسيس تلمس فيه أثر الصنعة ، ومنهم من صدر فيه عن نار مشبوبة بين جوانحه فنفته معنى جميلاً ، ونظماً رقيقاً ، وصوراً زاهية طلية ، تنبض بالحياة ، لا تماثل جامدة لا تتحرك ولا تحس فيها أثراً من الشعور • وقد اشتهر من بين شعراء الغزل شوقي ، وإن كانت الصنعة والتكلف ، وفقدان العاطفة قد غلب على ما قاله ، كما اشتهر به إسماعيل صبري وهو كذلك لا يصدر عن وجدان صادق كما سترى في ترجمته •

ومن اشتهر بالتجديد في هذا المضمار ، وبرع فيه براعة فائقة حتى سمي نفسه

أو سماه الناس : شاعر الهوى والجمال مصطفى الرافعي وله فيه معان علوية خالدة  
جاء بعضها شعراً منظوماً ، وأكثرها شعراً منشوراً •

ومن قصائده في الغزل هذه القصيدة ، وهو يعبر فيها عن حاله وأنه كان متعففاً  
في حبه تعصمه أخلاقه ودينه ، ولذلك اشتدت صبوته وحرمانه •

وهو في هذه القصيدة ينعي على هؤلاء الذين يحبون ونفوسهم تطفح بالشهوة  
وفي هذا ازدراء للحبيب ، فالحب تضحية وعبادة •

|                          |                      |
|--------------------------|----------------------|
| منّ للمحب ومنّ يعينّه    | والحب أنهأه حزينه    |
| أنا ما عرفت سوى قسا      | وته فقولوا كيف لينه  |
| إنّ يتنضّ دينّ ذوي الهوى | فأنا الذي بقيت ديونه |
| قلبي هو الذهب الكري      | مُ فلا يفارقه رنينه  |
| قلبي يحبّ وإنما          | أخلاقه فيه ودينه     |

• • •

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| يا من يحبّ حبيبه    | وبظنه أمسى يمينه     |
| وتعفّ منه ظواهر     | لكنه نجس يقينه       |
| إنّ تغلب لص العفا   | ف لمن تحبّ فمن أمينه |
| ما لذة القلب المدكّ | ه لا يطول به حنينه ؟ |
| الحب سجدة عابد      | ما أرضه إلاّ جبينه   |
| الحب أفق طاهر       | ما إن يدتّسه خثونه   |

ومنهم عبد الرحمن شكري وكان بئساً في حبه كثير الشكوى والوله وله  
فيه معان جديدة وطريقة ، من ذلك قوله :

|                         |                         |
|-------------------------|-------------------------|
| ليس جسسي الذي ترون ولكن | ذاك قبر لما تكنّ الضلوع |
| من شجون ولوعة وادكار    | وهوم تم عنها الدموع     |

وقوله :

|                       |                          |
|-----------------------|--------------------------|
| شكوت إليه ذلتي فتحكما | وأرسلت دمعي شافعاً فترما |
|-----------------------|--------------------------|



وقال له الواشون : أنت وصلته      بيعثك طيفاً في الكرى فتظلما  
 وخُبِّرَ أني قد تخيلت أنتي      تزودت منه قبله فتألما  
 وخُبِّرَ أني سوف أخلص نظرة      إليه فأضحى بالحياء ملثما  
 وإنني لأهوى أن أموت لعله      إذا مرَّ ذكري في الحديث ترحما  
 وكان غزله كله يفصح عن حرمان وألم •

ومن هؤلاء الذين نسجوا على هذا المنوال ، وكان غزلهم نغماً حزيناً ، وألماً  
 وشجناً ابراهيم ناجي ، وفي قصيدة ( العودة ) يتغنى بذكرياته الحزينة لمرتفع صباه  
 ومجالي لهوه وما كان له من حب ذوى قبل أوانه •

رُفِرَ القلبُ بجنبِي كالذبيح      وأنا أهتف : يا قلبُ اتدُ  
 فيجيبُ الدمعُ والماضي الجريح      لمَ عُدْنَا ؟ ليتَ أتَا لم نَعُدْ  
 لمَ عُدْنَا ؟ أوْكمَ نطو الغرامُ      وفرغنا من حنين وألم  
 ورضينا بسكون وسلام      واتمهنا لفراغٍ كالعدم  
 موطن الحسن ثوى فيه السأم      وسرتَ أنفاسه في جوّه  
 وأناخ الليلُ فيه وجثمُ      وجَرتَ أشباحه في بهوه  
 والبلَى أبصرته رأيَ العيان      ويداه تسجان العنكبوت  
 صحت : يا ويحك تبدو في مكان      كل شيء فيه حي لا يموت  
 كلُّ شيء من سرور وحزن      والليالي من بهيج وشجي  
 وأنا أسمع أقدامَ الزَّمنِ      وخطى الوحدة فوق الدَّرَج

أما الخمر ومجالس اللهو : فقد برع فيهما طائفة من الشعراء من أمثال شوقي  
 وعلي محمود طه ، وحافظ ، إلا أن شوقي أجاد وصف المراقص العصرية في خمرياته ،  
 وأجاد علي محمود طه في وصف أويقات الأنس في مغاني أوربا وأبدع في تصويرها •

ومن ذلك قوله يصف ليلة قضاها على ضفاف نهر ( الرّين ) :

كنزٌ أحلامك يا شاعر في هذا المكانِ  
سحرٌ أنغامك طوّفَ بهاتيك المغاني  
فجر أيامك رقّافٌ على هذي المحاني  
أيُّها الشاعر ، هذا الرّين ، فاصدح بالأغاني  
كلّ حيٍّ وجمادها هنا هاتفٌ ، يدعو الحبيب المحسنا  
يا أخا الرّوح ، دعا الشوق بنا فاسقنا من خمرة الرين اسقنا  
عالمُ الفتنة يا شاعر أم دنيا الخيالِ ؟  
أمّروجٌ علّقت بين سحب وجبالِ ؟  
ضحكت بين قصور كأساطير الليالي  
هذه الجنة فانظر أي سحرٍ وجمالِ  
يا حبيب الروح يا حُلُم السنا هذه ساعتنا ، قم غنّنا  
سكر العشاق إلّا أنا . . . فاسقنا من خمرة الرّين اسقنا

ومن الأغراض التي صار لها مقام مرفوع في الشعر الحديث الوصف بعامة ، ووصف الطبيعة بخاصة والوصف من أسمى ضروب الشعر ، لا تتفق الإجابة فيه والإكثار منه إلّا إذا كان الشعر حيا ، وكانت نزعة العصر اليه قوية ، وكان النظر فيه صحيحاً . والإجابة في الوصف تدل على شاعرية قوية ، لأن الشاعر لا تدفعه إليه رغبة أو رهبة ، وإنما يدفعه إليه انفعاله وحساسيته بما يحيط به . وقد اختلف الشعراء في نظرهم إلى الطبيعة اختلافاً بيناً : فمنهم من يرى وجهها الضاحك ، ورياضها المزدهرة ، وأطيّارها المغردة ، وشمسها الضاحية ، ونجومها الزاهية ، ومروجها الخضراء ، ومياها الندية ، وأريجها الشذي ، ومنهم من يرى وجهها العابس ، فلا يحس إلّا ليها الأسود ، وسماءها الملبدة بالغمام ، وريحها الزفوف ، وأعاصيرها الجارفة ، وبراكينها التي تصب الحمم ، وزلازلها المدمرة ، وأمطارها العنيفة ، ومفاوزها المهلكة . . إلى غير ذلك ، ومنهم من يراها في كلا وجهيها ، فينتشي طرباً حين تصفو وتحلو وتشرق ، ويكتئب حين تزمجر وتغضب ، وتريثنا

وجهها الكالح • ثم هم بعد ذلك كله يختلفون في تصويرها فبعضهم يصور ما في الطبيعة تصويراً مادياً محسوساً كأنه آلة تصوير ، يزخرف ، ويشبه ، ويغص شعره بشتى ألوان الاستعارات مثل البارودي وتوفيق البكري ، ومثل شوقي في وصف لبنان ودمشق • وبعضهم يبعث في الطبيعة روحاً حيّةً ويكتنه أسرارها ويغوص في أعماقها ، ويصورها ملونة بعاطفته الخاصة ، وحسبما يوحي إليه خياله المجنح فينطقها ، ويشخصها كوصف شوقي لرحلة في قصيدته المشهورة :

يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك

ومثل معظم أوصاف مطران في الطبيعة وقد زاد نظراته الشاملة العامة للكون ، وللإنسانية وما يجري فيها من خير وشر ، وعدل وظلم ، مثل قصيدته : في المساء ، ووردة نبتت في مسفك دماء ، والنوءارة ، وفي الغابة ، وغصن من زهر الشمس ، ومثلها وصف شوقي للجيزة أو الجزيرة ، أو وصفه للآثار المصرية التي تشبه الطبيعة لقدمها •

ومن الشعراء الذين احتذوا حذو الغريين في نظراتهم الشاملة للكون وللإنسانية جمعاء حين يصفون الطبيعة : جبران ، وإيليا أبو ماضي وكثير من شعراء المهجر محتذين في ذلك حذو شعراء الغرب •

وقد يقف الشعراء على آثار الأمم الماضية ، ومشاهد العمران فيغوصون في أعماق التاريخ ويصورونه تصويراً بارعاً ، وقد فاق شوقي سواه في هذا المضمار •

وقد وصف الشعراء المعارك الحديثة ، ولكنهم للأسف قلما جددوا في أساليبهم وتشبيهاتهم فتجدهم يتحدثون عن السيوف والرماح والدروع والمغافر ، وينسون أن الحرب الحديثة فيها المدافع والمدرعات والطائرات والغواصات ، وأنها تجتاح كل البشرية لا ينجو منها ومن عواقبها محارب أو مسالم من : غلاء وضيق وظلمة ، وتقييد للحريات ، وتدمير شامل للمدن • وقد تعرض شوقي لمثل هذه المعارك ، ولكنه لم يجدد إلا بقدر يسير •

ومن الأغراض التي امتدت واتسعت وراجت : الرثاء • وقد كان في بادئ الأمر مقصوداً به التزلف فلا يرثى إلا ملك أو أمير ، ثم خرج عن ذلك إلى رثاء العظماء

الذين أسدوا إلى بلادهم خدمات جليلة ، وصار رثاء فيه تصوير للمرثي وأعماله ، لا يصلح لسواه من الناس كما كان الحال من قبل حيث كان الرثاء يصلح لكل ميت . ولم يقف رثاء الشعراء على الأشخاص بل تعداهم إلى رثاء الدول والمدن ، كما فعل شوقي في رثاء أدرنه ، وعند زوال الخلافة .

ولقد حظي التاريخ بعناية الشعراء وهو من الأغراض المستحدثة ، ونظم فيه الشعراء ملاحم قوية ، كهزمية شوقي التي أنشدها في مؤتمر المستشرقين ، وكقصائده في دول العرب وعظماء الإسلام ، وكقصيدته البائية في وصف الحوادث العثمانية .

وكان لشوقي احتفاء زائد بالتاريخ إذ كان يرى فيه معلماً عظيماً ، وكنزاً كريماً وهو القائل «الشعر ابن أبوين : الطبيعة والتاريخ .» وكان له مقدرة على استحضار مشاهد واضحة زاهية وتراه يرجع بك إلى الماضي كأنك تراه :

أفضى إلى ختم الزمان ففضّه      وجبا إلى التاريخ في محرابه  
وطوى القرون القهقري حتى أتى      فرعونَ بين طعامه وشرابه  
فترى الزمان هناك قبل مشييه      مثلَ الزمان اليومَ بعد شبابه

ومن الأغراض التي تقدمت بعد البارودي : الشعر القومي وهو يشمل الوطنية والاجتماع . ولقد رأينا البارودي يقف عند الحوادث الخاصة التي تأثر بها والتي في نفسه ، ولكن الأحداث التي مرت بمصر ، والاحتلال ومصابه ، والمطالبة بالدستور ، ثم الثورة الوطنية العامة سنة ١٩١٩ قد نبهت الشعراء إلى معان جديدة وأغراض حديثة في الشعر القومي كما مر بك في غير هذا الموضع .

فالوطنية تشمل : الأناشيد الحماسية ، وتصوير الفطائع التي ارتكبتها الغاصب ، والمناداة بالاستقلال ، والتحرر من ربة الأجنبي ، والحث على الثورة ، وتصوير الصدام بين جنود الاحتلال والوطنيين المجاهدين . ولقد خاض معظم الشعراء في هذا الميدان ، وبرع كثير من الشعراء فيه ، كشوقي وحافظ ، وأحمد محرم ، والكاشف ، وعبد المطلب ، والجارم ، والرافعي ، ولم يبق إنسان يستطيع قول الشعر وليس له في هذا الميدان نصيب حتى مصطفى كامل ، وهو من الخطباء والكتاب البارعين في الوطنية ، أبت عليه حماسته إلا أن يقول نشيداً في الوطنية أثبتت طرفاً منه هنا لطرافته ولأنه من بواكير قلمه .

هلموا يا بني الأوطان طرّاً  
هلموا أدركوا العليا حتى  
هلموا واتركوا الشحنة منكم  
أليس يشيننا ترك المعالي  
ونحن رجالها وبما لديها  
فعار أن نعيش بغير مجد  
وعار أن يكون لنا وجود  
لنرجع مجدنا ونعز مصرنا  
تنال بلادنا عزاً وفخراً  
وكونوا أوفياء فذلك أحرى  
تباع بغير وادينا وتشري  
من الإسعاد والخيرات أدري  
ونبصر في السما شمساً وبدراً  
ويحظى غيرنا فوزاً ونصراً

وقد مر بك في غير هذا الموضع من الكتاب موقف الشعراء إزاء الوطنية المصرية وتفاعلهم معها كما مرت بك نماذج كثيرة في هذا الموضوع •

ومن الشعر القومي : الشعر الاجتماعي ، ويراد به تصوير عيب من عيوب المجتمع ، والحث على تلافيه من ذلك قول الشيخ نجيب الحداد في وصف القمار :

قد اختصروا التجارة من قريب  
كان وجوههم ندماً وحزناً  
فبينما تبصر الوجنات ورداً  
عصائب لا يود المرء فيها  
يلاحظ بعضهم بعضاً بعين  
فكم غضبوا على الأيام ظلماً  
وكم تركوا النساء تبيت تشكو  
تبيت على الطوى ترجو وتخشى  
فبئست عيشة الزوجات حزن  
وبئست خلّة الفتيان : هم  
فعدم في الدقيقة أو يسار  
كساها لون صفرة النضار  
إذا هي في خسارتهم بهار  
أخاه ولا يراعي الجار جار  
يكاد يضيء أسودها الشرار  
وكم حنقوا على الدنيا وثاروا  
وتسعدوها الأصفى الصغار  
يؤرقها السهاد والانتظار  
وتسهد وهجر وافتقار  
وأتاب وخزان وعار !

والتعرض لمشكلة اجتماعية ، أو الإشادة بمظهر جديد من مظاهر النهضة ورفقي الأمة يعتبر كذلك من الشعر الاجتماعي . وقد أكثر الشعراء من الكلام على الأخلاق ، وتصوير العيوب الخلقية التي ورثناها من عهود الضعف والاحتلال ، أو من مفسد المدنية الحديثة ، كما أكثروا من الحث على التحلي بالفضائل ، وحضوا على تحرير المرأة ، أو قاوموا تحريرها ، كل حسب ميوله ونظراته وبيئته . وحثوا على تشييد المعاهد ، والمستشفيات ، والملاجئ ، وعالجوا مشكلة الفقر والغنى ، وتكلموا عن الحريات والدستور ، والطيران ، وتقدم الأمة اقتصادياً وإنشائها المصارف ، والشركات ودور الصناعة ونهضتها في الملاحة ، ولم يدعوا ظاهرة سيئة أو حسنة تهم الشعب اجتماعياً إلا كانوا لسان الشعب المعبر عنها أسفاً أو سروراً .

ولم يكن للشعر الاجتماعي منزلة كبيرة في الأدب العربي القديم ، وإنما كان يتمثل في أبيات الحكمة والأمثال ، والشكوى من الناس والزمان وتصويرهم من وجهة نظر الشاعر . وهو لا يصور عادة حسنتهم ، وإنما ينعي عليهم أخلاقهم ، وموقفهم منه ومن آماله كما فعل المتنبي ، وابن الرومي ، وأبو العلاء ، والبارودي . وأنت ترى أنه قد اتسع اتساعاً عظيماً في الشعر الحديث ، وتشعبت غاياته وموضوعاته كما تعددت طرق التعبير عنه ، فمن قصيدة ، أو قصة كقصّة ( الجنين الشهيد ) ومقتل بزرجمهر ، وفنجان قهوة لمطران وغيرهما ، أو رواية تمثيلية تصور فيها الشخصيات المتعددة ، المتباعدة الطبائع والعادات والأخلاق والغايات . وقد برع في الشعر الاجتماعي شوقي ، وحافظ ، ومطران على تفاوت بينهم في الموضوع والأسلوب على نحو ما بينناه آنفاً .

ومن الأغراض التي أفاض فيها الشعراء في العصر الحديث : الشعر الديني فمن زهاد متعبدین يحثون على التقوى ، وترك الموبقات ، والتمسك بالفضيلة وعدم الانخداع بالدنيا وزخرفها ، إلى شعراء يتغنون بفضائل النبي عليه السلام ، ويتقربون إلى الله بمدحه ، ويستشفعون به ، ويستحثون أممهم على استرجاع مجدهم القديم ، وعزهم الزائل . وقد أكثروا من الكلام في مطلع كل عام هجري احتفاء بالهجرة ، وجعلها موعظة وذكرى للأمم التي تنشد الحرية ، وشاع فيها الفساد ، كما اتخذوا من سير بعض الصحابة موضوعاً شعرياً سجلوا فيه فضائلهم ، وما قدموه للإنسانية كمميرة حافظ وعلوية عبد المطلب .

ومن الشعر الديني : إلياذة أحمد محرم التي صور فيها جهاد النبي عليه السلام في سبيل الدعوة ، وما لاقاه أنصاره من تعذيب وإيذاء في مبدأ الدعوة ، وبطولتهم الفائقة في الغزوات العديدة ، وأخلاقهم الكريمة في معاملاتهم لأعدائهم . وقد ألف بعض الشعراء الشبان قصصاً مسرحية شعرية في غزوة بدر ، وأحد ، وفتح مكة ومن أشهرهم محمد يوسف المحجوب .

وثمة جماعة رق دينهم ، وفتنتهم العلوم الحديثة ، فاستهزؤا بالدين وسخروا منه ، أو شكوا فيه ، وآخرون تقموا على رجال الدين جمودهم ، وساء ظنهم بهم . وأكثر هؤلاء من غير المصريين الذين اتخذوا هذه الديار موطناً لهم من أمثال فرح أنطون ، والدكتور شميل .

ومما جدد فيه الشعراء من الأغراض القديمة : الشعر التعليمي ، وقد كثر من قبل في منظومات العلوم كالنحو والصرف ، والنمروض ، والتوحيد وغيرها ، ثم استخدمه محمد عثمان جلال في نظم الخرافات والحكايات ، وجاء شوقي ، فأرربى عليه في هذا الباب وجدد في موضوعات الشعر التعليمي ، ويصح أن نعد منه كتاب ( دول العرب وعظماء الإسلام ) . ولحافظ بعض الشعر في هذا النوع ، على أنه انتشر انتشاراً عظيماً بعد شوقي حتى صار عندنا منه الشيء الكثير وأغلب الذين برعوا فيه هم المشتغلون بالتدريس للأطفال .

ومن الأغراض التي برع فيها الشعراء المحدثون : الوجدانيات ، وأظهرها الشكوى ، وبث لواعج النفس وآلامها وأحزانها ، ومناجاتها . وقد شكى البارودي وتألّم في منفاه ، ولكن من أتى بعده ممن تعرف على الثقافة الغربية ، وقرأ شعر بيرون وشيلي ، ووردسورث وهاردي ، وويتمان في الإنجليزية ، وبودلير ، وبول فاليري وغيرهما في الفرنسية أفاض في هذه النفسيات التي ينفّس بها عن آلامه وأحزانه ، تسمع من مطران قصائده : « مشاكة بيني وبين النجم » ، وقصيدة « ساعة يأس أو الأسد الباكي » و « المساء » وغيرها ، وقد كثر هذا في شعر شكري والمازني والعقاد وأحمد زكي أبو شادي ، ومعظم شعراء الشباب . استمع إلى العقاد في شكواه :

ظلمان ظلمان لا صوب الغمام ولا عذب المدام ولا الأنداء ترويني

حيران حيران لا نجم السماء ولا  
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يثدا  
غصان غصان لا الأوجاع تبليني  
شعري دموعي وما بالشعر من عوض  
يا سوء ما أبقت الدنيا لمغتبط  
هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم  
أسوان أسوان لا طبع الأساة ولا  
سامان سامان لا صفو الحياة ولا  
أصاحب الدهر لا قلب فيسمعني  
يديك فامح ضني يا موت في كبدي  
معالم الأرض في الغماء تهديني  
نيني ولا سمر السمائر يلهمني  
ولا الكوارث والأشجان تبكيني  
عن الدموع نفاها جفن محزون  
على المدامع أجفان المساكين  
وما استرحت بحزن في مدفون  
سحر الرقاة من الأدواء يشفيني  
عجائب القدر المكنون تغنيني  
على الزمان ولا خل فيأسوني  
فلست تمحوه إلا حين تمحوني

أو استمع إلى المازني في ( وصية شاعر ) والتي يقدم لها بقوله :

هذه وصية بشعة في رأي الكثيرين ولا ريب ، وسيعتدونها دليلا على الحزن  
لؤم النفس ، وربما ذهبوا إلى أبعد من هذا الحد ، فأخذوا الأدب الحديث كله  
جريرتي في هذه القصيدة ، وفيها يقول :

سترخى على هذي الحياة الستائر  
فهل راق هذا الخلق قصة عيشتي  
تركت لهم من قبل موتي وصية  
وهبت لأعدائي إذا كان لي عدى  
وأوصيت للمحبوب بالسهد والضنى  
وبالجدري في وجهه ليزينه  
وبالضعف والإملاق واليأس والجوى  
وتطفأ أنوار ويقفر سامر  
وماذا يبالي من طوته المقابر  
نظير التي أوصت بها لي المقادر  
همومي وما منه أنا الدهر ثائر  
وبالدمع لا يرقا ولا هو هامر  
وبالمرج المرذول والله قادر  
وبالسقم حتى تنقيه النواظر



وللشيب بالأوجاع في كل مفصل      وبالشكل في الأبناء والجدة عائر  
وكل سقام قد تركت لذي الصبا      وما كنت منه في الحياة أحاذر  
وللناس ألوان الشقاء وإنني      إذا مت لا آسي على من يخامر

وهي وصية تدل على نفس قد آدها الدهر ، ولها عند كل إنسان وتر ، فهي توصي لهم بكل شر وضر ، ولعل فيما أصاب المازني في حياته ما جعله ساخطاً كل السخط في هذه القصيدة ، وقد أشار فيها إلى عرجه الذي كان شديد الحساسية به .

وباب الوجدانيات بحر لا ساحل له ، لأن عواطف النفس الإنسانية تتجدد بتجدد الأيام والحياة ، وما فيها من سرور وآلام وابتسامات ودموع ، وضحكات وآهات ، ولا نغالي إذا قلنا : إن معظم شعراء الشباب في عصرنا الحاضر لا همّ لهم إلاّ بث لواعج نفوسهم ، والشكوى من زمنهم ومن الحياة . لذلك جاء شعر أكثرهم حزيناً باكياً متشائماً منبعثاً عن نفسيات مفرطة في اليأس أو لا تقوى على احتمال الآلام . وقد تغير الحال نوعاً ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وانتصاراتها المتتالية في الميدانين الداخلي والخارجي ، وتبنيها القضايا العربية في شتى الميادين مما أوجد لدى شباب الشعراء مادة غزيرة تثير حماسهم وتلهب مشاعرهم وتحرك طموحهم لمجد أمتهم ، وتشعرهم بمستقبل بئام ووحدة شاملة للعالم العربي ، فتغيرت النغمة الحزينة لدى الكثيرين من الجيل الصاعد ، ولم يعد الأفق أمامهم مظلماً ، ولا المستقبل معتماً ، ولم يعد ثمة مجال لاجترار أحزانهم ونشر مآسيتهم إلا قلة متخلفة ران اليأس على أفئدتها .

\* \* \*

أمّا من حيث الأسلوب فقد جرى الشعراء في أول الأمر مقلدين للقصيدة العربية ، محافظين على الأوزان التي ورثناها عن العرب الأولين ، ولكنهم ما لبثوا أن افتتوا في أنواع الموشحات وخرجوا بها عن أصولها المعروفة ، حتى صاروا بها إلى مسدسات ، ومسبّعات ومثمنات ، دون أي التفات إلى عدد الأقفال والأبيات ، وإن

راعوا نمطها في الوزن والتقفية •

ولما اشتد تأثرهم بالأدب الغربي في القرن العشرين أخذوا ينظمون القصيدة مقطعات ، تختلف في عدد أبياتها حيناً ، وتتفق حيناً آخر ، ولكل مقطعة قافية تستقل بها عن أخواتها • ومنهم من جرى على أسلوب الشعر الغربي في تشية قوافيه ، وتقطيعه وتفصيله ، وآثر البحور الخفيفة الرشيقة • ومنهم من أهمل القوافي والأوزان ، أو حافظ على الأوزان دون القوافي ، وهو ما يسمى بالشعر المرسل ، ومن حافظ على القوافي وأهمل الأوزان ، وسموا هذا الأخير الشعر المنثور • وقد تكلمنا عنه آنفاً ، ومن أمثلة الشعر المرسل ، وهو الموزون غير المقفى بعض ما ترجمه محمد فريد أبو حديد من روايات شكسبير فمن ذلك مناجاة روميو لنفسه حين رأى جوليت في حفل راقص لأول مرة :

نورُها الباهر في لمعته      جعل الأنوار تزداد سنا  
وبدت في صفحة الليل كما      يلمع الجواهر في قرط الزوج  
إن هذا الحسن لا أحسبه      حسن أهل الأرض حاشا أن يكون

ثم يراها في الشرفة تنظر إلى القمر مفكرة فيحدث نفسه وهو ينظر إليها :

أي نور يتلالا      باهراً من خدرها  
إن هذا أفق الشرق وقد      أشرقت جوليت من أعلاه شمسا  
أيها الشمس تعالي في السماء      واقتلي بدر الدجى من غيظه  
فهو يبدو شاحباً في حقه      مذ رأى حسنك أبهى لمنظرا  
ليتي كنت في يديها شعارا      أو غطاء أمس تلك الخدودا

فإذا سمع صوتها صاح :

أسمعي صوتك حلواً أسمعي !      يا ملاكا من ضياء الأفق  
أنت في الليل تلوحين كما      سبحت في الجو أملاك السماء

ومن ذلك مناجاته لها وقد رآها ملقاة على الأرض بعد أن خدرها القسيس  
فظنها روميو قد فارقت الحياة :

يا هوى مهجتي ؟ وزوجي سلاماً  
إن يك الموت قد سطا بك واشتفم رحيق الشفاه من أنفاسك  
فلعمري هذا جمالك رطب أعجز الموت ، لم يزل في بهائه  
تلك أعلامه ترفرف حمرا ، على خده وفوق شفاهه  
وأرى الموت تحت راياته الصفر كليلاً ملفعاً بصفاره  
أي جوليت ! حبيبة قلبي ! كيف يبقى الجمال بعد الحمام  
أترى الموت ذلك الشبح المرعب هذا الكريه يضرر حبك ؟  
فطوى جسمك الحبيب رطياً في دياجيرهِ يريد وصالك ؟  
لأقمن هاهنا أبد الدهر قريباً إليك دون غريمي  
ثاوياً في ظلام قبرك هذا راضياً لا أريد عنه انصرافاً

فأنت ترى في هذا الضرب من الشعر فقرات موزونة كل فقرة مستقلة في وزنها  
عما قبلها وما بعدها ، وترى شعراً غير مقيد ببحر واحد ، وغير مرتبط بقافية •

ومن قصيدة شكري « كلمات المواطن » التي أشرنا إليها مراراً في فصل  
النقد وقد ختم بها الجزء الأول من ديوانه « ضوء الفجر » :

نرى في اليوم ما هو في أخيه كذاك حياة أبقار السواقي  
ولولا عَصْبُ عينيها لكانت ثعاني اليأس والسأم الدخيل  
ولولا خُدعة الأمل المرجى لأسلمنا النفوس إلى الحمام  
وليس العيش إلا ما نعمنا به أيام نمرح في الشباب  
إذا سقط المعجوز على نعيم فقد سقط الهشيم على الزهور

بكائي أن أرى رجلاً لثيماً      يقدمه الرياء على الكريم  
 فإن حركته للعرف يوماً      تبدى منشداً قولاً رخيصة  
 بكائي أتسي أعدو غريباً      وحولي معشري وبنو ودادي  
 بكائي أن لي طبعاً أيّاً      ورأياً مثل حدّ السيف ماضي  
 بكائي أن في الدنيا أموراً      يضيق بمثلها الصدر الرحيب  
 وكم وغد رفيع الجاه يغدو      كأن الكون ليس به سواه

وقد جَد منذ سنوات في البلاد العربية نزعة إلى التحرر من القافية وجعل  
 التفعيلة لا البحر وحدة موسيقية في القصيدة وسموه الشعر الحر ، ولا يزال هذا  
 الضرب من الشعر في سبيل التجربة ، ولم يأت بعد الشاعر الفحل الذي يستهوي  
 الأسماع بسحر نغمه ، والألّباب بعذب شعره ، والنفوس بقوة بيانه ورائع تصويره  
 ومجنح خياله وتقيس معانيه ليدعم هذا الشعر ويعطيه مكانته في الأدب . ومعظم  
 ما ينظم به من النوع القصصي الساذج الذي يعبر عن أمور مألوفة وتجارب بسيطة .  
 وقد رآه الشباب مطية ذلولاً وعملاً هيناً فأثروه على الشعر الموزون المقفى ، وادعوا  
 أنه يتمشى مع الدقة الشعورية .

وقد نبغ من الشبان من تحداهم ، وبرهن على أن القيثارة العريقة التي ظل  
 يعزف على أوتارها شعراء ستة عشر قرناً لا تزال تبدع أروع الأنغام وأجمل ضروب  
 الموسيقى . تقول هذا ولا نستطيع الحكم بعد على هذا الشعر ، وإن كان ما سمعناه  
 منه حتى اليوم لا يبشر بخير كثير .

أما الشعر المنشور الذي روعيت فيه القافية وأهمل الوزن ، فله أمثلة كثيرة ،  
 وهو لا يخرج عن نظام النثر المسجوع في الأدب القديم ، ومثاله في أدبنا المعاصر  
 قول شوقي يخاطب ولديه وهو يغادر مصر في طريقه إلى منفاه :

« تلكما يا ابني القناه ! لقومكما فيها حياه ، ذكرى اسماعيل ورياه ، وعليها  
 مفاخر دنياه ، دولة الشرق المرجّاه ، وسلطانها الواسع الجاه ، طريق التجاره ،  
 والوسيلة والمناره ، تعبرانها اليوم على مژنجاه ، كأنها قلنك النجاه ، خرجت بنا بين

طوفان الحوادث ، وطفيان الكوارث ، تفارق برا مفتصبه مضيّ الغضبة ، قد أخذ الأهبة ، واستجمع كالأسد للوثبة ، ديك على غير جداره ، خلا له الجو فصاح ، وكلب في غير داره ، انفرد وراء الدار بالنباح ؛ وتقابل بحراً قد جُتّب جواريه ، ونزت بالشر نوازيه ، من نون ينسف الدوارع ، أو طير تقذف البيض مصارع .. الخ » . وقد جمع هذا الضرب من الكلام في كتاب خاص سماه (أسواق الذهب)<sup>(١)</sup> .

ومن ذلك وصف السيد توفيق البكري للبحر وهو في طريقه إلى القسطنطينية ، ولعمري ليس في هذا الكلام من الشعر إلا أنه موشى ببعض ألوان الخيال . وقد مرّ بنا رأي الرافعي وغيره من النقاد في هذه التسمية .

ولم يعد البيت عند الشعراء المجددين هو وحدة القصيدة . بل صارت القصيدة مرتبطة بعضها ببعض في بناء محكم ، ولجئوا إلى القصة الشعرية .

وقد عرف العرب قديماً هذا النوع في شعرهم من مثل قصيدة الحطيئة (وطاوي ثلاث) ، وقصيدة عمر بن أبي ربيعة (أمن آل نعم) ، وكثير من شعر عبد بني الحساس ، وقصيدة الأعشى في السمؤول ، والفرزدق في الذئب ، والبحتري في الذئب وكثير من شعر الطّرد . بيد أنه لم يكن محبوبك العقدة ، ولا منوع الموضوع ، ولا يرمي إلى تحليل دقيق ، بينا تراه في الشعر الحديث قد اتسع ميدانه ، وكثر فرسانه ، فنظم فيه مطران عشرات القصائد ، وتبعه إبراهيم رمزي ، وشوقي ، وحافظ ، وشكري ومحرم في الإلياذة الإسلامية وهي ملحمة طويلة جداً وستكلم عليها عند ترجمته إن شاء الله . وقد استمدوا موضوع القصة الشعرية من بطون التاريخ أحياناً ، ومن حوادث زمانهم أحياناً ، وأضفوا عليها من جميل خيالهم ، ورائق شاعريتهم ، فغلبت الصيغة الأدبية على التاريخية ، أو الحقائق العلمية . وإن كان لا يزال ينقصها حتى اليوم في أغلب الأحيان جودة تصوير الأشخاص ، وتحليل المواقف النفسية ، ولو أجادوها كما أجادوا عرض الحوادث ووصفها وسردها لبلغوا الغاية .

ولما اطلعوا على التمثيلات الشعرية لدى أدباء أوروبا حاولوا محاكاتها ، وقد

(١) راجع نشأة النثر الحديث ج ١ المؤلف .

تجراً الشيخ خليل اليازجي<sup>(١)</sup> فنظم تمثيلية ( المروءة والوفاء ) في ألف بيت سنة ١٨٧٦ ، ولكنها جاءت سقيمة العبارة ، ركيكة الأسلوب ، أشبه بأساليب المتون المنظومة منها بالأدب الرائق ، فذهب ضعف نسجها بحلاوة موضوعها . ونظم الشيخ عبد الله البستاني خمس قصص تمثيلية شعرية ولكنها جاءت ضعيفة<sup>(٢)</sup> ونظم الشيخ محمد عبد المطلب منذ سنة ١٩٠٩ عدداً من الروايات والمشاهد المسرحية ، متخذاً موضوعها من الأدب العربي في جاهليته وإسلامه مثل امرئ القيس ، ومهلل بن ربيعة وغيرهما وجاءت هذه المسرحيات متينة الأسلوب قوية الديباجة فيها كثير من تعابير البدو وأخيلتهم لا يستطيع جمهور النظارة متابعتها أو فهمه . كما أن الشيخ عبد المطلب كان ينقصه معرفة الفن القصصي كما تقررت مبادئه في الأدب الأوروبي ، وينقصه شيء من الرقة حتى يستسيغ الجمهور أسلوبه ويدرك مرامي شعره ولكنها ولا شك كانت محاولة طيبة من جهة محافظة ما كان ينتظر أن تجدد كل هذا التجديد<sup>(٣)</sup> .

وجاء شوقي بعد ذلك فقفز بالشعر المسرحي قفزة بارعة في أخريات أيامه ، وإن كانت أولى محاولاته في هذا النوع ترجع إلى أيام دراسته بباريس من سنة ١٨٨٧ — ١٨٩١ فاختار مأساة علي بك الكبير موضوعاً لمسرحية شعرية . ولكن يظهر أن وسائل التأليف المسرحي لم تكن قد تهيأت له ، ولم يجرؤ على أن يتصرف في وقائع التاريخ ليخرج مأساة قوية فجمد إزاءها ، ولذا جاءت الرواية متهافنة لا تبشر بمستقبل باسم في هذا الميدان .

وحاول شوقي محاولة أخرى في تلك الحقبة ، إذ نظم مسرحية قمبيز ، ولكنها كانت كسابقتها تهافتاً وضعفاً ، فأدرك أنه لم يتهيأ لهذا النوع فأقلع عنه ردحاً طويلاً من الزمن حتى عاد إليه في أخريات حياته بعد أن انتقده مكرموه سنة ١٩٢٧ على

(١) هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي الذي ترجمنا له في الجزء الأول من كتاب الأدب الحديث ، ولد ببيروت سنة ١٨٥٦ م : وتعلم في الكلية الأمريكية ، ثم هاجر إلى مصر واشتغل بالمصحافة مدة ثم عاد إلى بيروت ، واحترف التعليم : ومرض بداء الصدر ، فانقطع عن العمل حتى مات سنة ١٨٨٩ ، وكان جيد الكتابة كبقية أفراد أسرته ، وشعره وسط .

(٢) هي مسرحيات : حرب الوردتين ، وبوسف بن يعقوب . وبروس أيام تروكين الظالم وبروس أيام يوليوس قيصر . ومقتل هيرودس لولديه ؛ ونلاحظ أن معظمها بعيدة عن البيئة التاريخية العربية .

(٣) تجد دراسة وافية للمسرحية الشعرية وتطورها في الأدب العربي مع نماذج وافية في كتابنا المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها .

إهماله هذا الباب في شعره ، فأخرج عدة مسرحيات قوية وهي : مصرع كليوباترة ، ومجنون ليلى ، وغترة ، وأعاد النظر في قمبيز ، وعلي بك الكبير وأخرجهما كذلك .  
وفتح شوقي الباب على مصراعيه بهذه التمثيليات الشعرية لمن أتى بعده .

ومن العجيب أن دعاة التجديد في مصر أمثال مطران ، والعقاد وشكري والمازني ، لم يجرؤوا على اقتحام هذا الميدان كما فعل شوقي ، ولكن ظهرت بعده طائفة من الشعراء ترسموا خطاه في المسرحية الشعرية وأبرزهم عزيز أباطة الذي اتجه إلى التاريخ العربي الإسلامي ووضع بعض مسرحيات شعرية منها ( قيس ولبنى ) و ( العباسة ) و ( عبد الرحمن الناصر ) واتجه أخيراً إلى المسرحيات الاجتماعية الشعرية كمسرحية ( أوراق الخريف ) .

وبين شوقي وعزيز أباطة كثير من أوجه الشبه فكل منهما قد عاش عيشة مترفة ، وفي بيئة ثرية ، تضطرب في محيط الطبقة العليا من الشعب ، وكل منهما قد عكف في أول أمره على الشعر الغنائي ، وإن كان شوقي أوسع أفقاً ، وأطول باعاً ، وأبرع قصيداً ، وأغزر معنى ، وأسمى عبارة ، وأحكم صياغة ، وأكثر تجديداً . على أن أباطة كان أغزر عبرة وأغنى عاطفة في ديوانه ( أنات حائرة ) الذي سفح فيه دم قلبه دموعاً تنطق بوفائه لزوجته بعد وفاتها . وثمة فرق آخر ، وهو أن عزيز أباطة قد أفاد من تجربة شوقي المسرحية فحاول جهده أن يتجنب ما وقع فيه من أخطاء ، كما أنه احتك كثيراً برجال المسرح فعرف أصوله وقواعده . ومن الشعراء الذين ترسموا خطى شوقي كذلك محمود غنيم وله ( المروءة المقنعة ) و ( غرام يزيد ) ومنهم علي عبد العظيم وقد ظهرت له ( ولادة ) وأحمد باكثير وله ( قصر الهودج ) .



كانت موضوعات مسرحيات شوقي من التاريخ ، ولم ينظم مسرحية اجتماعية ، ولم يبلغ فيه القصصي غايته فيما نظم ، لأنه كان متأثراً بالمسرح الغنائي ، لا المسرح التحليلي ، ولكن حسبه فضلاً أنه سدّ الثغرة في الأدب العربي ، وأتى بما لم يستطعه سواه من معاصريه .

أمّا معاني الشعر الحديث وخیالاته وصوره ، فما لا شك فيه أن شعراءنا قد تأثروا بقراءتهم للأدب العربي القديم حتى استقام أسلوبهم وتملكوا ناصية البيان ،

ووعت عقولهم مئات من الصور والمعاني القديمة أرادوا أو لم يريدوا ، وظهر أثر هذا في شعرهم • ولكنهم أضافوا إليها كثيراً مما قرأوه في الأدب الغربي إما مباشرة أو عن طريق الترجمة • وقد اهتموا بالمعنى اهتماماً بالغاً ، وآثره كثير منهم على الصياغة • ومن الشعراء الذين جددوا في المعاني حق التجديد : الرافعي ، ومطران ، وشعراء المدرسة المصرية الذين تأثروا بالأدب الإنجليزي مثل شكري والمازني والعقاد وأبي شادي ، وإن كان أكثر الجديد في شعرهم اقتباساً من الشعر الغربي ، ثم من شوقي في بعض قصائده الممتازة •

لقد أصبح من الضروري لكل شاعر في عصرنا الحديث أن يتزود من ينابيع الثقافة المختلفة : من ينبوع الثقافة العربية ليستقيم أسلوبه ، ويعرف تاريخه وعقيدته ، ومواطن الفخر والمجد في أيام سؤدد وطنه ، وحتى لا يقع في أخطاء فاحشة تزري به ، وتسقط منزلته سواء أكانت أخطاء لغوية أو تاريخية أو دينية ، ومن ينبوع الثقافة الأوروبية الغربية التي تمكنه من مجاراة الحضارة الحديثة ، والاطلاع على خير ما ابتكره الذهن الغربي في الأدب وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، والتاريخ الحديث والقديم ، وكثير غيرها من العلوم التي لا يجد مندوحة من الاطلاع عليها • • لأن القصيدة الغنائية لم تعد وحدها هدف الشعر في العصر الحديث ، فثمة القصة والمسرحية ، وكلاهما في حاجة إلى دراسة طويلة في علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ لما يتطلبان من تحليل وتصوير لمختلف الشخصيات •

لقد عاب بعض النقاد على شعرائنا كسلهم العقلي ؛ لأنهم اكتفوا بعنايتهم الفائقة بأسلوبهم دون أفكارهم ومعانيهم ، فوقعوا في أخطاء فاحشة ، ولقد ضرب الدكتور طه حسين على ذلك مثلاً ما قاله حافظ وشوقي<sup>(١)</sup> ونسيم في مترجم أرسطو أحمد لطفي السيد ، وكيف أنهم قد عرضوا لذكر أرسطو ومدحه والإشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا يكادون يعرفون من أمره شيئاً ، ويجهلون كتاب الأخلاق الذي ترجمه أحمد لطفي السيد •

والمعاني لا شك تأتي من كثرة الاطلاع ، والتزود من تجارب الآخرين ، وصدق النظرة في الحياة ، كما تأتي مبتكرة من نتاج الفكر الخالص عند العاقرة • وليس

(١) حافظ وشوقي ص ١١٨ - ١١٩ •



من الضروري أن تكون الحقائق جديدة مبتكرة ، بل إن في استطاعة الشاعر الملهم المقتدر أن يخلع من فيض عبقريته على الحقائق القديمة المألوفة التي تتخطاها الأذهان ، ولا تقطن لها لبساطتها وتفاهتها فيجعلها متألقة قوية ، تدب فيها الحياة ؛ لمقدرته وبراعته في انتقاء الألفاظ المعبرة . وهذا ما جعل شاعرا كبيرا مثل وردسورث — الذي فتن به بعض شعرائنا — يحتل تلك المكانة الممتازة في الأدب الانجليزي وقد قال ( دي كوينسي ) في شعره « إن الأديب الذي سيخلد على الأيام هو الذي يحير الناس بحقائق منتزعة من ينابيع جديدة كل الجدة — حقائق لم تر وجه الشمس ولذا فهي غامضة لا تدرك — بل هو الذي يبعث وجوها قديمة للحقيقة طال اغفائها في الذهن إلى ابتاه مشع<sup>(١)</sup> » . إن العبرة بالنظرة التي يرى بها الشاعر الحقيقة والعاطفة التي يتقبلها بها ، ويسبغها عليها<sup>(٢)</sup> .

قد يرى الشاعر ما يرى الناس ، ويحس ما يحسون ، ولكنه يراه أوضح مما يرون ، ويحس به إحساساً أعمق مما يحسون ، ويتصوره في مناظر جديدة لم تخطر لهم على بال ، ثم يعبر عنه بطريقة هو تعبيرا قويا يجعله في نظر الناس شيئا جديداً ، وهذا هو سر العبقرية .

إن العناية بالمعاني وتنوعها وتجدها تجعل الشعر مفيداً ، غير تافه ، ولكن الإسراف في ذلك يفسد الشعر لأنه يحمله ما لا يحتمله ، ويجعله أقرب إلى فنون العلوم ؛ لكثرة ما يحتوي عليه من حقائق جافة ، منه إلى الشعر الذي يهز العاطفة ، ولما يحتاج المرء في فهمه إلى كد الذهن ، وإنعام النظر . والشعر إذا زاد فيه الفكر والعلم ذهب روائه ، وقل بهأؤه ، ولم تعد له تلك الميزة التي تفصل بينه وبين النثر ، لأن الشعر لغة الانفعال ؛ لأن الشعر في الأصل معان يريدتها الشاعر ، وهذه المعاني ليست إلا أفكاراً عامة يشترك في معرفتها كثير من الناس . وإنما تصير هذه المعاني شعراً حين يعرضها الشاعر في معرض من فنه وخياله وأدائه فيجدد هذه المعاني تجديدأ ينقلها من المعرفة إلى التأثير بالمعرفة ، ومن إدراك المعنى إلى التأثير بالمعنى ، ومن فهم الحقيقة إلى الاهتمام بالحقيقة . فالشعور والتأثر والاهتداء هي أصل الشعر ولا يكون شعر يخلو منها ومن آثارها إلا كلاما كسائر الكلام ليس له إلا فضل الوزن

(١) راجع الفقرة التاسعة من De Quincey's essay on Wordsworth's poetry

(٢) فنون الادب تأليف هـ ب — تشارلتن وتمريب زكي نجيب محمود .

والقافية مثال ذلك قول العقاد في الحب :

ما الحب روح واحد      في جَسَدَيَّ معتقنين  
الحب روحان معا      كلاهما في جسدين  
ما انتهيا من فرقة      أو رجعة طرفة عين

وإذا وازنا بين هذه الأبيات وبين أبيات مطران التي يقول فيها عن الحب :  
أليس الهوى روح هذا الوجود      كما شئت الحكمة الفاطرة  
فيجتمع الجوهر المستدق      بأخر بينهما آصره  
ويحتضن التربُّ حب البذار      فيرجعه جنّة زاهره  
وهذي النجوم أليست كدُرِّ      طوافٍ على أبجر زاهره  
يقيدها الحب بعضاً لبعض      وكلُّ إلى صنوها صائره

تبين لنا الفرق الواضح بين من يلبس المعنى الطريف ثوباً قشيباً حين ينظر نظرة  
شاملة إلى الحياة وبين من يأتي بالحقيقة العارية ينظمها نظماً غير شعري .

ومن الغزل الذي لا يصدر عن عاطفة ولا عن فكرة قول العقاد كذلك :

زرقة عينيك لا صفاء      فيها ولكنه قضاء  
حمرة خديك لا حياء      فيها ولكنه اشتواء  
قوامك الرمح لا اعتدال      فيه ولكنه اعتداء  
يا حيرة القلب في هواه      يا غاية العمر في مناه  
وجهك سبحان من جلّاه      ولوث النفس بالطلاء

وخير الشعر ما سلمت فيه الفكرة ، ووضحت ، دون أن يفقد مقومات الشعر  
الأصلية من خيال رائق ، وعاطفة قوية ، وصورة واضحة ، وموسيقى عذبة .

ولكنّ الملاحظ أن الشعراء الذين حفلوا بالمعاني ، وجعلوا همهم البحث عنها ،  
والجري وراءها ، واصطيادها أينما كانت كانوا أحد رجلين : إما شاعر متعقّد ،  
مُغرب ؛ لأنه انتزع المعاني انتزاعاً من مواطن غير معهودة ، وأتى بشيء لم يألّفه  
الذهن ، فهو غامض على السامع ، وقد يكون غامضاً على الشاعر لأنه لم يدركه تمام  
الإدراك ، أو لأنه لم يستطع التعبير عنه بوضوح لعدم جلّائه في ذهنه ، مثل أبي  
تمام ، وأبي العلاء ، والمتنبّي أحياناً . وإما شاعر " ركيك العبارة " ، لا يعنى بأسلوبه ؛

إذ جعل همه الأول إبراز المعنى كاملاً بأي أسلوب وأي عبارة تهيأت له ، وأدت ما أراد ، وهذا هو الغالب على شعراء المعاني في عصرنا ، فكثيراً ما ترى المعنى جميلاً بديعاً ، ولكن العبارة التي أدّس بها تذهب بجمالها ، وتضعفه فلا تستسيغه الأذن ولا يتقبله العقل . وقد غاب عن هؤلاء أن الروائع في الأدب العربي والأدب الغربي لم تغلغل لما فيها من معانٍ فحسب ، ولكن خلدها جمال الأسلوب ولولا ذلك ما رواها الرواة وعني بها المتأدّبون ؛ فالأدب فن ، وكل فن فيه ناحيتان : ناحية الموهبة الطبيعية من ذوق مرهف يجتذبه الجمال وقدرة على التخيير والانتقاء ، وناحية الصنعة ، فليس يكفي في العبارة أن تنقل إلينا المعنى ، لأن المراد في الأدب ليس المعرفة وتقرير الحقائق ، وإنما نقلها مشفوعة بلذة ، ولا يتأتى هذا إلا إذا كانت العبارة مصوغة صياغة فنية خاصة .

ثم إن التعبير الجميل هو الذي يميز كلام الأديب من كلام الناس « إن هؤلاء الذين يزدرون الجمال اللفظي مصابون بشذوذ في الفكر أو سقم في الذوق أو عجز عن الكمال ، وإلا فكيف نعلل إنكارهم تجميل الأسلوب وهم لا يفتأون كسائر الناس يطلبون الجمال في شتى ضروبه ومختلف صوره ؟ لماذا يشورون على تميم الكلام ويدعون أن الغرض منه الفهم والعلم ، ولا يشورون على تزيين الطعام والتأنق في الملبس ، وتزويق المسكن ، والغرض منها الغذاء والوقاء ؟ إذا كان أحدهم لا يحب أن يلبس الثوب المرقع ولا أن يسكن الكوخ النابي ، ولا أن يسلك الطريق الوعر ، ولا أن يركب المركب الخشن ، فلماذا يكره أن يسمع الكلمات العذبة ، والفقر المنسقة ، والجميل الموزونة والأصوات المؤتلفة (١) .

إذا عبّر الشاعر عن انفعاله مباشرة من غير أن يسيطر الفكر عليه ، ويجتهد في حشوه بالحقائق جاء كلامه حلواً ، وعباراته موسيقية طبيعية .

ومن الأمور التي يراعيها الشعراء في العصر الحديث تسلسل المعاني ، وارتباطها بعضها ببعض ، وعدم تنافرها ، فالقصيدة صارت وحدة ، وبناء متماسكاً ، ولم يعد البيت المفرد هو وحدة القصيدة كما كانت الحال عند العرب ، ولقد وضحت الفرق بين الطريقتين في غير هذا الكتاب ، وبينت ميزة كل طريقة (٢) .

(١) أحمد حسن الزيات : دفاع من البلاغة .

(٢) راجع كتاب النابغة اللبناني للمؤلف من ٥٣ وما بعدها .

والمعاني تتفاوت من حيث ابتدائها ، وشيوع استعمالها ، ومن حيث أنها تقليد ونقل عن معانٍ سبقتها ، ومن حيث أنها مبتكرة جديدة • أمّا المعاني المبتدلة ، فهي المألوفة المتداولة بين الخاصة والعامة ، كقول الشاعر مثلاً : والأرض فيها الماء والأشجار ، فهذه من البديهيّات المتداولة • وأمّا التقليد فبأبه واسع ، وقد ألفت فيه قديماً كتب عدة<sup>(١)</sup> : وتجد لشعرائنا المحدثين في هذا الباب كثيراً من الشعر الذي نقلوا معانيه عن غيرهم ، وقد مرّ بك في الجزء الأول عند كلامنا على البارودي كثير من هذه الأمثلة ، ومن هذا قول المتنبي يقصد سيف الدولة :

رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى      هوى كاسر كفي وقوسي وأسهمي

فجاء إسماعيل صبري فقال :

إذا خاتني خِلٌ قديم وعقني      وفوقّت يوماً في مقاتله سهمي  
تعرض طيف الود بيني وبينه      فكسّرت سهمي واثنيت ، ولم أرم

وأنت ترى إسماعيل صبري سار في إثر المتنبي ، وقصّر عنه ، والمعنى الذي أورده المتنبي في بيت واحد قويّ الديباجة ، يأتي به صبري في بيتين ولم يوفّه • وقد وقع شوقي ، وصبري ، وحافظ وغيرهم في هذه المؤاخذات<sup>(٢)</sup> ولا سيما في القصائد التي عارضوا بها السابقين من الشعراء ، وقد لوحظ أن شوقي يستطيع التفوق على الشعراء الذين يعارضهم إلاّ المتنبي • فإنه لقوة أسره وإحكام لفظه ومعانيه ، لا يستطيع إذا دخل في دائرة شعره أن يتخلص من قبضته وسيطرته ، وسرى عند ترجمتنا في هذا الجزء لصبري مقدار ما أخذه من سواه ، وكيف أن الابتكار لديه قليل •

والحق أن الابتكار في المعاني نادر ، ولكن قد تهيأ لبعض شعرائنا شيء من هذا ، ولا سيما مطران وشوقي ، وسرى عند الكلام عليهما إلى أي حدٍ قلداً ، وإلى أي حدٍ جدداً<sup>(٣)</sup> •

(١) كالوازنة للامدي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه ، والرسالة الحاتمية في اقتباسات المتنبي من أرسطو •

(٢) راجع الديوان للعقاد ، وعلى السفود للرافعي ، ومجلة أبولو سنة ١٩٢٣ مقال عن معارضات شوقي •

(٣) إذا أردت المزيد من الكلام على المعنى وأثره في الشعر فارجع إلى الكتب الآتية : الدراسة الأدبية لرثيف خوري ، وأصول النقد الأدبي لأحمد الشايب ، ونقد الشعر لنسيب عازار •

هذا ومن الأمور التي يجب النظر إليها عند تقدير الشعراء ، ومعرفة منزلتهم الأدبية بالنسبة لمعاصريهم ولشعراء لغتهم في القديم والحديث ، ولشعراء العالم أجمع : مقدار ما وصل إليه خيالهم الشعري •

والخيال : هو وضع الأشياء في علاقات جديدة ، وهو سمة بارزة من سمات الأسلوب الأدبي ؛ لأنه يصور العاطفة أو ينقلها إلى السامع أو القارئ ، ويرز المعاني ويضفي عليها ثوباً زاهياً تخطر فيه فتنتقلها ونفهمها • ويلجأ إليه الأديب للإيضاح وحسن العرض وقوة الإبانة والتصوير ؛ ويرى القارئ والسامع الحقائق من ثانياً كل ذلك عن طريق خياله •

والخيال موهبة تنفذ بروح الأديب إلى أسرار الوجود ، واكتناه الحقائق المستكنة وراء مظاهر الأشياء ، وتجعله يخلق طليقاً في أجواء وعوالم جديدة مليئة بالرؤى الجذابة والصور الخلابة والموسيقى الساحرة • وهذه الموهبة تتباين قوة وضعفاً ، وضيقةً واتساعاً ، وغنى وفقراً لدى الأدباء بحسب قدرتهم على استيعاب أسرار الحياة وهتك حجب المادة ، والوصول إلى ينابيع الإلهام ، وقدرة نفوسهم على التوليد والتفاعل مع الحياة وانعكاس اشعاعاتها •

وهو نوعان : ابتكاري ، وتصويري أو تفسيري ، والأول يظهر في تأليف مجموعة من العناصر المختزنة في الذهن في صورة مبتكرة يتحقق معها كيان خاص لها • والثاني يظهر في تصوير الأشياء على أساس إضافتها إلى أشياء أخرى تقويها وتظهرها ، ويستعين الأديب على الضرب الثاني بفنون البديع والبيان من تشبيه واستعارة وكناية ، وتمثيل وما إلى ذلك •

والخيال الابتكاري ضربان : خيال نافذ ، يعين صاحبه على استحضار أطراف الماضي وتصوير حوادثها ، وخيال خالق يجسم الإحساسات ويخلق الشخصيات ، ومن الضرب الأول الشعر التاريخي كقول شوقي :

|                               |                              |
|-------------------------------|------------------------------|
| كم مركب تتخايل الدنيا به      | يثجلى كما تثجلى النجوم وتنسق |
| ( فرعون ) فيه من الكتائب مقبل | كالسحب قرن الشمس منها متفتق  |
| تعنو لعزته الوجوه ووجهه       | للشمس في الآفاق عانٍ منطرق   |
| آبت من السفر البعيد جنوده     | وأنته بالفتح السعيد الفيلق   |

ومشى الملوك مصفدين خدودهم نمل" لفرعون العظيم وثرق  
مملوكة" أغناقهم ليمينه يابى فيضرب أو يَمْنُ فيعتق

أو كقوله في الهزمية التاريخية يصف ذل فرعون ، وهزيمته أمام قمبيز :

جسيء بالمالك العزيز ذليلاً لم تزلزل فؤاده البأساء  
يبصر الآل إذ يراح بهم في موقف الذل عَنوَة ويثجاء  
بنت فرعون في السلاسل تمشي أزعج الدهر عريها والحفاء  
وأبوها العظيم ينظر لما رُدَّيت مثلما تردى الإماء  
أعطيت جرّة وقيل إليك النّه ر قومي كما تقوم النساء

فقد نفذ الشاعر بعين خياله إلى الماضي واستحضر ذلك المشهد ثم وضعه  
وصوره . وأما الخيال الخالق فهو الذي يجسم الإحساسات ويخلق الشخصيات ،  
ويبث الحياة في الجماد كقول شوقي :

وقد صنى ( بردى ) للريح فابتردت لدى ستور حواشيهن أفنان  
ثم اثنت لم يزل عنها البلال ولا جفت من الماء أذبال وأردان

ومثل قطعة فنجان قهوة عند خليل مطران ، فقد خلع شوقي على الريح الحياة  
ومثلها حية تبتد ، كما خلع مطران على فنجان القهوة الحياة .

ومن ذلك قول مطران في وردة ماتت وهي ملكة الزهور وقد غطتها الأعشاب  
فراحت الفراشات تحوم حولها فيدور بينها وبين الشاعر هذا الحوار :

ما الذي تبغين من جوبك يا شبهات الطير ؟ قالت وأبانت  
نحن آمال الصبا كانت لنا ها هنا محبوبة عاشت وعانت  
كانت الوردة في جنتنا ملكت بالحق والجنة دانت  
ما لبنا أن رأيناها وقد هبطت عن ذلك العرش وبانت  
فترانا تتحرى أبداً إثرها أو تتلاقى حيث كانت

والخيال التصويري أو التفسيري يجيء من طريقتين : من القراءة في الأدب  
أو من التجارب الشخصية ، ويتمثل في التشابيه والاستعارات والكنائيات . والخيال

بعامّة قد يكون حسيّاً ، وقد يكون معنويّاً ، ومعظم الخيال التصويري خيال حسي ، ومعظم الخيال الابتكاري خيال معنوي<sup>(١)</sup> .

نظر النقاد الغرييون عند معرفة المنزلة التي يحتلها الشاعر من الشعراء إلى كل هذا : الى الغرض ، وإلى اللغة التي أدى بها ، وإلى المعنى أو الفكرة ومقدار ما هي عليه من جدة أو تقليد أو ابتذال وما هي عليه من الصدق الأدبي ، أو الكذب ، ثم نظروا إلى الخيال وإلى العاطفة وصدقها .

وهم على هذا الأساس قسموا الشعراء إلى ثلاثة أنواع : شاعر بسيط الشخصية يعكس الحياة في صورة بسيطة ، وليس لشخصيته جوانب متعددة ، وبذا تنعكس الحياة من مرآة نفسه على دائرة ضيقة من الفكرة والخيال .

وشاعر مركب الشخصية ، يمثلون شخصيته بمنشور ذي أضلاع وجوانب متعددة ، تنعكس عليها أشعة الشمس في أشكال ، وتحل في جهات مختلفة ، وتأخذ صوراً متعددة .

وشاعر معقد الشخصية له بجانب شخصيته الخارجية شخصيات أخرى منطوية فيها وكل من هذه الشخصيات التي تحتويها شخصيته الخارجية ، معقدة في ذاتها ، تعكس الحياة في صور متنوعة وبذلك تستطيع نفسه أن تعكس المأساة الفنية للحياة في صور غنية قوية زاخرة .

وقد قسموا الشعراء بناء على ذلك إلى ثلاثة أقسام : فعدوا من النوع الأول البسيط الشخصية الشعراء الوجدانيين ، الذين يتغنون بالحياة أو بالطبيعة بالنسبة إلى نفوسهم ، وشعورهم إزاءها ، فتجيء الحياة من نفوسهم نغمة واحدة من وتر واحد هو الذي تتألف منه نفسيتهم . وهم عادة يشغلون بعواطفهم الداخلية عن النظر في أعماق الحياة التي تكتنفهم فلا يتكلمون إلا عن آمالهم وأفراحهم ومخاوفهم ومطامحهم .

وعدوا من النوع الثاني الشعراء القصاصيين ، والحياة تأخذ في نفوسهم نغمات متنوعة وإن كانت خارجة من وتر واحد ، ولا تشغلهم عواطفهم الداخلية عن العطف

---

(١) ارجع في الاستزادة من الكلام من الخيال إلى : أصول النقد الأدبي لأحمد الشاذلي ، وإلى دراسات في علم النفس الأدبي للأستاذ حامد عبد القادر وإلى كتاب إسماعيل أدهم من مطران ص ١٤٥ وما بعدها I. A. Richards في كتابه Principles of Literary Criticism .

على الحياة المحيطة بهم • وذلك يرجع إلى أنهم أصحاب خيال واسع عميق ، ونظرتهم وإن كانت تعطف على الحياة إلا أنها لا تذهب الى درجة الشمول والنظر الى الكون جملة ، وإلى مجموع البشرية مرة واحدة في جميع الحالات التي تلبسها ؛ لأن الحياة والوجود متركان في ذاتهم وذاتهم كمنشور يعكس عدة أشكال ، ولكن مصدرها واحد ، ويعجز عن عكس شخصية جديدة • وشعرهم عادة ذاتي ، لا يستطيعون التخلص من أثرتهم ، ويدخل تحت الشعر الذاتي أحاسيس الإنسان وانفعالاته وطربه ، وميوله ، وأحكامه التي تقوم على اعتبارات ذاتية •

وعدوا من النوع الثالث الشعراء الذين يستطيعون خلق شخصيات لم تكن ، وتصوير الحياة في جميع الأوضاع والملابسات ، وهم الذين برعوا في الشعر التمثيلي ، وأثروا بنماذج خالدة ، واستطاعوا أن يصلوا إلى أعماق أي نفس إنسانية ، وأن يترجموا ، عنها ، وشعرهم في الغالب موضوعي<sup>(١)</sup> ، والموضوعي يدخل تحته صفات الشيء ، أو الموضوع الخارجي ، والآراء التي تقوم على اعتبارات خارجية ، والأحكام التي تبني على المشاهد المحسوس ، وعلى مقتضيات المنطق لا على الذوق والميل الشخصي<sup>(٢)</sup> •

هذه بعض الأمور التي يراعيها مؤرخو الأدب والنقاد المحدثون عند تقسيمهم للشعراء ووضعهم في منازلهم من موكب الأدب •

وسنراعي عند كلامنا على شعراء مصر بعد البارودي كل هذه الاعتبارات ، وننظر إليهم بمنظار النقد الحديث ، ونعرف إلى أي حد أضافوا الى تراث العالم الأدبي جديداً من فيض شاعريتهم •

وسنبداً بشعراء المدرسة التقليدية الحديثة التي نهجت منهج الشعر العربي القديم في أغراضه وأسلوبه وتشبيهاته واستعاراته ونهجت نهج البارودي ، ثم بشعراء المدرسة التي أخذت بحظ من الجديد ، ثم شعراء المدرسة المجددة المعتدلة التي لم تخرج على قواعد اللغة ، ثم الشعراء المجددين المتطرفين في التجديد الذين ثاروا على الشعر العربي في كل شيء •

(١) راجع Encyclopedia Britanica N. 13 في مادة Poetry وراجع كذلك الدكتور ادم عن مطران ص ١٢٩ - ١٣٠ ونسيب عازار في نقد الشعر ص ٣٧ - ٤٠ ، وكلاهما قد لخص المادة الموجودة بدائرة المعارف البريطانية ولكنها جاءت غير واضحة .

(٢) راجع من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده للاستاذ محمد خلف الله ص ٣٥ - واحد الشايب ص ١٣٨ - ١٤٢ •



# الفصل الخامس

## المدرسة التقليدية

عرف البارودي كيف يعيد للشعر العربي الحديث ديباجته القوية ، وينهض به نهضة فارعة تخطت عدة قرون إلى الخلف حتى رجعت إلى عهود القوة والنضارة ، متجنباً الزخرف والطلاء الغث ، والركاقة ، وضحالة المعاني ، والتقليد لعصور الضعف والعجمة . ثم نهضت البلاد نهضات قوية في التعليم وإحياء التراث العربي القديم ، وأخذت المطبعة تزود المتأدين بنفائس الأدب العربي في أبهى عصوره كما عرفت آنفاً .

وكان من الطبيعي أن يحذو الشعراء الذين جاءوا بعد البارودي حذوه في أول الأمر ، ولا سيما هؤلاء الذين لم يتزودوا بثقافة غربية ، أو عرفوها وثقفوها ولم يكن لهم تلك الطبيعة الثائرة ، أو القوة على ابتداع مذهب جديد في الأدب ، ولم يروا نموذجاً إبداعياً يحاكونه ، فحافظوا على المذهب الذي عرفوه ، وأجادوه .

لقد قلدوا الشعر العربي القديم في أوج عزته كما فعل البارودي ، ولم يلتفتوا إلا نادراً لما تخلف عن عصور الضعف من حلي وزخارف ومحسنات ، وتاريخ شعري .

وأهم خصائص تلك المدرسة التقليدية الحديثة متانة الأسلوب ، والعناية به عناية فائقة فقلما تجد خروجاً على قواعد اللغة ، أو خطأ ، أو ركاقة وإنما تجد شعراً مصقولاً متيناً ، مشرق الديباجة . تجد هذا عند صبري ، وعند حافظ ، وعند عبد المطلب ، وعند البكري ، والجارم ، ومحرم ، والكاشف ، ونسيم ومن على شاكلتهم ، على اختلاف بينهم في تقليدهم الشعراء الأقدمين الذين تأثروا بهم . فمنهم من راقه شعراء العصر العباسي والشعر في ازدهاره ، فقلدوا أبا نواس والبحثري وأبا العلاء ، وابن الرومي ، وعارضوهم في قصائدهم ونسجوا على منوال أسلوبهم : جزالة في رقة الحضارة وعذوبة المدينة القديمة ، وولع بالتشبيهات والاستعارات وأنواع المجاز . ومنهم من رجع إلى الخلف أكثر من هذا فتوعر قليلاً وحاكى

شعراء العصر الأموي ، أو الجاهلي ، وجاء شعره بدوي<sup>١</sup> النسيج ، متين التركيب ، عليه سيما الفتوة العربية قبل أن ترققها الحضارة ، مثل عبد المطلب .

ومن خصائص تلك المدرسة كذلك استخدام القصيدة بمظهرها المعروف ذات الروي الواحد والقافية الواحدة ، والوزن الواحد . وكثيراً ما ابتدءوا تلك القصيدة بالنسيب كما كان يفعل شعراء العرب الأقدمون ، أو تركوا النسيب كما فعل ذلك من قبلهم بعض شعراء العصر العباسي حيث بدءوا بالغرض من غير تلك المقدمة الموروثة عن الجاهلية . على أن القصيدة الحديثة لا تختلف عن القديمة في تعدد عناصرها ، فلم ينظروا إليها نظراتهم الى بناء متماسك الأجزاء أو كائن حي ، إلا قليلاً حين وضعوها في الأسلوب القصصي كما ترى ذلك عند حافظ وعبد المطلب أحياناً . ولكن الغالب على شعر هذه المدرسة هو جعل البيت — كما كان من قبل — وحدة القصيدة ، ويجوز فيها التغيير والتبديل من غير إخلال بالمعنى . وقليل منهم من جرؤ على استخدام الموشحات أو ما يشابهها .

ومن خصائص تلك المدرسة كذلك أن موضوعات شعرهم قلما طرأ عليها تجديد ، اللهم إلا ما تقتضيه خصائص العصر العامة . فأغلبهم كان مدحاً ، يمدح الخليفة وإن لم يعرفه أو تكن بينه وبينه صلة ، أو ثمة أمل في أن يعرفه ، ويمدح الأمير وحاشيته ، ويغير ولاءه كلما تغيرت الوجوه الحاكمة من غير تحرج أو تردد ، لأنه لم يكن ينظر إلى المدح نظرنا له اليوم ، ولأن الاهتمام بالشعب لم يكن قد بلغ غايته ، فكان الأمير هو المحور الذي يدورون حوله : مثلهم في ذلك مثل الأدباء الإنجليز والفرنسيين قبل أن تظهر الحركة ( الرومانتيكية )<sup>(١)</sup> .

وقد صرفهم المديح كما صرف أسلافهم العرب من قبل عن الاهتمام بالطبيعة ، وبالحياة الإنسانية ، وإن التفتوا في أخريات زمانهم ، نظراً لتطور الحياة في مصر إلى

(١) كانت الحركة الرومانتيكية في أوائل القرن التاسع عشر ثورة على تلك التقاليد ، فمن أدباء الإنجليز في القرن الثامن عشر الذين مثلوا تلك المدرسة التقليدية ومنوا بالأسلوب ولم يلتفتوا للطبيعة وجعلوا الشعر الفاذا خاصة به . درايدون وبوب ، وتومسون وغيرهم ، وكلهم كان شاعر بلاط يفرم بالمديح ، وينطلق الحافضة راجع Modern English Literature ص ١٢٥ وما يمد لـ G. H. Mair and A. G. Ward . وراجع كتابنا (المرحبة) ففيه دراسة مستفيضة عن المدرسة الكلاسيكية، وبقيت المذاهب الأدبية الكبرى .

بعض ذلك وإلى الشعب وآماله ؛ ولكنهم على كل حال كانوا ينظرون من خلال ذاتهم ومقدار تأثيرهم بالأحداث المحيطة بهم ، فلم يكن شعرهم في الشعب موضوعياً •

وكانوا يهتمون بالطبقة الراقية من الأمة ، فيمدحون أعلامها ، ويرثون عظمائها ، ويتبادلون وإياهم الرسائل الإخوانية •

وقد وصفوا بعض الأشياء ، ولكنهم قلما أفردوا للوصف قصائد بذاتها ، وأهمل أكثرهم الطبيعة المصرية ، أو قال فيها الشيء القليل ، ونظر إليها نظرة عابرة من غير أن يقف طويلاً ، على الرغم من تنبه الشعور الوطني والإحساس القومي في أخريات عهودهم •

وتراهم يحاولون التجديد في الموصوفات ، وكان لديهم عقدة نقص يحاولون إخفاءها ، فيكثرون من الكلام على البخار ، والطيارة وغيرها ، ليشتوا أنهم يجارون عصرهم ، والحضارة التي يتمتعون بها •

وقد تخلف عند بعضهم شيء من الأغراض التي قضت عليها حركة التجديد ، فترى الهجاء الشخصي والاجتماعي كما عند صبري ، وترى الفخر كما عند عبد المطلب ، وعلى العموم فدائرة الشعر لديهم ضيقة ، وموضوعاتهم محدودة ، وإن أفاضوا في الشعر السياسي والاجتماعي متأثرين بالحركات القوية التي لم يجدوا بداً من أن يتأثروا بها •

أما معانيهم فليس فيها جديد إلا النادر كما ترى ذلك عند توفيق البكري ، ومعظمها مأخوذة من الأدب العربي القديم ، أو من المعاني المتداولة ، وخيالهم تصويري مبني على الاستعارة والتشبيه والمجاز ، بل كثيراً ما تكون تشبيهاتهم غير مجارية لزمانهم أو بيئتهم ، وإنما نهجوا فيها نهج العرب الأقدمين ، متأثرين بالقوالب المحفوظة ، والعبارات المتداولة •

كان أغلبهم مترمناً ، جاداً في حياته ، وإذا تغزل عفاً ولم يفحش ، وفي أدبهم تكثر الحكمة والموعظة والإرشاد ، فهم يجعلون للشعر غاية يهدف إليها ، ولم يعرفوا معنى ( الفن للفن ) •

وبعد ، فهذه أهم خصائص تلك المدرسة • على أن هذه الخصائص المشتركة بين شعرائها تختلف قوة وضعفاً أو وجوداً وعدمًا في بعض الشعراء عن بعض ، مع ميل في بعضهم إلى التجديد بحذر ، أو نفور منه ألبتة • وستوضح تلك الميزات حينما ندرس شعراء تلك المدرسة •

ولا أستطيع أن أحصي كل شعراء المدرسة التقليدية ، أو أترجم لهم جميعاً ، فإن ذلك يحتاج إلى موسوعة أدبية كبيرة ، وإنما سأترجم لنماذج منهم ، لأن مجال هذا الجزء أضيق من أن يتسع لهم جميعاً •

على أن أترجم للبقية الباقية منهم في الجزء الثالث إن شاء الله •

## إسماعيل صبري

١٨٥٤ - ١٩٢٣

ولا تعجب إذا عددنا إسماعيل صبري في شعراء المدرسة التقليدية ، فعلى الرغم من أنه درس في فرنسا بعض الزمن ، واحتك بالثقافة الغربية احتكاكاً مباشراً سواء في دراسته بمدينة ( إكس ) ، أو باطلاعه على القوانين الفرنسية ، وشغله مناصب قضائية كثيرة فإنه لم يفد من تلك الدراسة القانونية ، وما عساه قرأ في الفرنسية إبان مقامه في فرنسا من أدب واجتماع ، كما لم يفد من اتصاله بالحياة الغربية ، وقضائه ركّحاً من الزمن بين الغربيين إلا قشوراً وصفات عامة في شعره وجهته نحو نوع خاص منه ، ثم صَقَلًا في الذوق ، وقد يكون هذا طبيعة فيه لا مكتسباً من إقامته بفرنسا ، وقد يكون من أثر الوظيفة ، وكثرة اختلاطه بالأجانب المقيمين بمصر<sup>(١)</sup> . فكم من شاعر عربي قبل صبري ، وبعد صبري اشتهر بالرقعة ، وإرهاق الحس ، وجمال الذوق ، ولا سيما إذا كان من أهل القاهرة ، والقاهرة قد عرفت من قديم الزمان بأنها مدينة الظرف والدماثة ، والنكتة ، والمرح .

نشأ إسماعيل صبري بالقاهرة ، والتحق بمدرسة ( المتديان ) وهو في الثانية عشرة من عمره ، وأتم دراسته في مدرسة الإدارة والألسن في سنة ١٨٧٤ ، وكان وهو في المدرسة يجيد الخط ، ويعنى به حتى بلغ في ذلك حداً جعل أولي الأمر يفكرون في تعيينه مدرساً للخط . وكاد إسماعيل يستجيب لهم لولا أن علي مبارك وزير المعارف حينذاك أقنعه بالعدول عن هذا ، ضناً بمواهبه أن تقبر في مثل هذه المهنة ، ولأنه كان يعده لما هو أسمى رتبة وأجدى عليه وعلى الأمة<sup>(٢)</sup> . وما زال يتعهد حتى أتم دراسته بمصر . ونبوغه في الخط وهو فن جميل يؤيد ما ذكرناه آنفاً من أن دقة

(١) تراجم شرقية وغربية لهيكل ص ١٨٦ .

(٢) أحمد الزين في مقدمة الديوان ص ٣٥ .

حسه ، وكمال ذوقه ، ووجه للجمال لم يكن مكتسباً من إقامته بفرنسا • وإنما كان طبيعة وميلاً فطرياً فيه •

ثم أرسل إسماعيل صبري لدراسة القانون بمدينة (إكس) سنة ١٨٧٤ ، وتقلب في مناصب القضاء المختلفة ، وترقى في سلمه حتى عين ( نائباً عمومياً ) وكان أول مصري يشغل هذه الوظيفة ، وذلك في سنة ١٨٩٥ • ثم عين محافظاً للإسكندرية سنة ١٨٩٦ ، ووكيلاً لوزارة العدل ( الحقانية ) إلى أن اعتزل الخدمة في سنة ١٩٠٨ ، وقد أنعم عليه بعدة رتب وأوسمة ، وانتقل إلى رحمة الله في مارس ١٩٢٣ •

لم يذكر أحد " ممن تكلم عن صبري سواء من أصدقائه أو معاصريه شيئاً عن طفولته وأسرته ، وعوامل الوراثة فيه ، وهذا حقاً شيء يؤسف له ، فإن كثيراً من هؤلاء الذين كتبوا عنه قد خالطوه وصادقوه ، وعرفوا من أمره ودخلته ما لا يعرفه جمهرة الناس ، ولأن ذكر دراسته وتقلبه في مناصب عدة لا يفيد مؤرخ الأدب بقدر ما يخدمه معرفة البيئة التي ترعرع فيها الشاعر ونما •

ومهما يكن من أمر فقد أجمع الذين كتبوا عنه أنه كان مرهف الحس ، أنيق المظهر والمخبر ، دمث الخلق ، لين العريكة ، خفيف الروح ، حاد المزاج<sup>(١)</sup> ، كما أنه كان أبي النفس حياً ، مترفعاً عن الدنيا ، لم يغش دار ( كرومر ) أو يتصل به على الرغم مما بذله من محاولة لاجتذابه إليه<sup>(٢)</sup> •

ولعلك تلمس في شعره شيئاً من صفاته ، فقد كان حريصاً على أصدقائه الذين يتخيرهم بعد طول نظر ، وهم قلة ، فإذا صادق ضنَّ بصديقه عن سماع أي وشاية ، بل يقابل الوشاية بالثناء • وكان كثيراً ما يردد قول الأخف : « ما أقبح القطيعة بعد الصلة » وفي هذا يقول مخاطباً أصدقاءه الذين كرموه ، وهو يودع الإسكندرية :

واحفظوا عهدي القديم فإني      حافظ عهدكم برغم البعاد  
فإذا قرَّبَ النفوس ائتلافٌ      هان عندي تفرقُ الأجساد

وهو القائل :

(٢) أحمد الزين في المقدمة ص ٣٠ •

(١) الدكتور طه حسين في المقدمة ص ٨ •

وما المرء إلا بخلق كريم وليس بما قد حوى من نَشَبٍ

وله في أخلاق الناس ، والتبرم بهم قصيدة طويلة حين ظهر ( مذتب هالي )<sup>(١)</sup> وتمنّى صبري لو أنه صدم الأرض وأراحها من أهل النفاق والعقوق وأهل البغي والظلم إلى غير ذلك مما كان يؤلم حسّه الرقيق ، وأخلاقه الدمثة ، فقال :

غاض ماء الحياة من كل وجه      فغدا كالح الجوانب قفرا  
وتفشّى العقوق في الناس حتى      كاد ردّ السلام يحسب برّا  
وفيها يقول :

أعدّأ تستوي الأنوف فلا يد      ظر قوم " قومأ على الأرض شزرا ؟  
أعدّأ كلنا تراب ولا مثد      لكّ خلاف التراب برأ وبحرا ؟  
أعدّأ يصبح الصراع غناقا      في الهیولي ويصبح العبد حرا  
ومن قوله في الاعتداد بكرامته ، وضنا بها عن أن تهان :

لكسيرة " من رغيف خبز      تؤدّم بالملح والكرامه  
أشهى إلى الحر من طعام      يختم بالشهد والملامه

ومن شدة إباءه أنه لم يكن يتورع عن ردّ الإهانة على طريقتة ، ولو كان من أهانه عظيما ، استمع إليه يقول :

أيها التائه المدل علينا      ويك؟ قل لي : من أنت؟ (إني نسيت)

وفي قوله (إني نسيت) تهكم مر لأن هذا الشخص لو كان عظيما حقاً ما نسيه صبري ، ولكنه لا يستحق أن يذكره صبري ، وهو بهذا يخبره أنه أرفع منه شأنًا : وإذا خانه صديقه وعقه ، وحاول إيذاءه تذكر عهد الوداد ، فلم يرد على اعتدائه ، وحافظ عليه :

إذا خانتني خِل " قديم " وعقني      وفوقّت يوماً في مقاتله سهمي

(١) ظهر هذا المذنب في سنة ١٩١٠ ، وقيل إنه كاد يمس الأرض ويصدمها ، ولو حدث هذا لانتهد الدنيا ، وسمي مذنب هالي نسبة لكشفه .

تعرض طيفُ الود بيني وبينه فكسّر سهمي فانشيت ولم أرم

وكان يؤثر الحلم على الغضب فإذا ما دعت دواعي الغضب ، وأثارته الحادثات  
تذرع بالحلم ، ورجع إلى نداء العقل •

إذا ما دعا داعٍ إلى الشر مرة وهزت رياح الحادثات قناتي  
ركبت إليه الحلم خيرَ مطيةٍ وسرت إليه من طريق أناتي

وسترى تلك الدماثة والرقّة ، ولين العريكة واضحة في شعره ، حتى في الموقف  
الذي يتطلب نضالا وقسوة • ولقد ذكرنا شيئاً عن وطنية إسماعيل صبري فيما  
سبق<sup>(١)</sup> ، وعن أثر الحالة الاجتماعية فيه<sup>(٢)</sup> ، وأنه لم يكن ذلك الوطني المتحمس ،  
بل كان حذراً في كلّ ما يقوله كما أنه لم يقل شيئاً في مآسي الشعب ومشكلاته لأنه  
كان في عزلة عنه إلا من خاصة أصدقائه الذين يتخيرهم بدقة •

ولقد كان إسماعيل صبري برماً بالحياة على الرغم مما أوتيّه من منصب وجاه  
ولقب وسعة في العيش ، ولعل هذا راجع إلى أنه كان يأمل أن يصل بكرم خلقه  
وشاعريته إلى ما وصل إليه من هم أدنى منه موهبة ، ومن سمووا بالتملق والنفاق  
وسوء الأخلاق ، وقد أشار في شعره إلى أنه قد أصبح نسياً منسياً لا يذكر اسمه  
عند توزيع المناصب ، لاعتزاله ، وعدم طمعه في شيء منها ؛ فكأنه في جوف الحيتان :

أين صبري ؟ من يذكر اليوم صبري بعد أعوام عزلة وشهور  
أسألوا الشعر فهو أعلم هلاًه أكلته الأسماك طيَّ البحور

ومن دلائل برمه بالحياة ، ذكره الكثير للموت ، تراه تارة ينظر للموت قلقاً :

أتزودت من ضياء البدور لئال كثيفة الديجور  
وتارة ينظر إليه مرجباً مطمئناً :

يا موت هاأنذا فخذ ما أبقت الأيام مني  
يني وبينك خطوة إن تخطها فرجّت عني

(٢) راجع ص ١٩٣ من هذا الكتاب •

(١) راجع ص ١٢٥ من هذا الكتاب وما بعدها •



وأحيانا يعزي نفسه بأنها إن سئمت الحياة ، ففي التراب والموت الراحة ،  
فالأرض هي الأم الرؤوم :

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرض      ض تنم آمناً من الأوصاب  
تلك أم" أحنى عليك من الأم"      التي خلقتك للأتعاب  
لا تخف فاللمات ليس بباح      منك إلا ما تشتكي من عذاب  
وحياة المرء اغتراب" فإن ما      ت فقد عاد سالماً للتراب

أما خفة روحه ، وحلو دعابته ، وبراعته في النكتة ففي أشعاره التي قالها على  
لسان الوزراء والحكام ، وفي المقطوعات التي نظمها في محمد المويلحي مشيراً إلى  
( الكف ) الذي ضربه ما ينبىء عن روح قاهرية محبة للنكتة التي تدور على التلاعب  
بالألفاظ ، وتداعي المعاني والتورية ، استمع إليه يقول في يوسف سابا باشا وقد  
تولى رئاسة شركة مياه القاهرة :

أين ( سابا ؟ ) أين ( سابا ) يا ترى      أين ( سابا ) ذو المزايا الباهرة ؟  
قال لي قوم ثقّات إنهم      لمحوه في مياه القاهرة

وإلى ما قاله في اسكندر فهمي باشا مدير السكة الحديدية حين اعتزل منصبه .

أصلب أنت ؟ قل لي ، حار أمري      إذا فكرت فيك وضاع حَديسي  
خرجت من الشريط ولم تهَمَّسْ      كأنك خارج" من بيت عرس

ففي قوله ( صلب ) إشارة إلى المعدن الذي تصنع منه القضبان والقاطرات ،  
وفي قوله ( خرجت من الشريط ) تلميح إلى الشريط الحديدي المعروف • واسمع  
إليه كذلك يقول على لسان محمد المويلحي مشيراً إلى ذلك الكف الذي ضربه على  
صدغه ولم يثار لكرامته :

أنا فرع الألى رفعوا بناءً      يرى للنسر فوق ذَراه بيت  
أريش يراعتي بمداد خبث      وأنّى لاح لي هدف رميت  
وإن أحد" تعرض" لي بسوء      وقف وراء صَدْنِغِي واختفيت

وقد أفاض الأستاذ أحمد الزين الذي صاحبه ثلاثة عشر عاماً في ذكر خلاله

ومزاياه في المقدمة ، وإن كان شعره لا ينم على الكثير مما ذكر ، لأنه كان مقلا ، وحسبنا هنا ما أوردناه ففيه الكفاية التي تلقى ضوءاً على وجه الشاعرية ، وعلى مذهبه في الكلام ، وفي الحياة •

أما ثقافة إسماعيل صبري ، فنعلم من تاريخ حياته أنه درس التركية والعربية في المدارس المصرية ، ثم درس الفرنسية في فرنسا ، ويدلنا شعره المبكر على أنه وعى من العربية قدراً مكنه من نظم الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره • وقد ذكر الأستاذ أحمد الزين أنه كان يحفظ ديوان عمر بن الفارض وكان شديد الإعجاب بشعر البحري<sup>(١)</sup> مدمناً لقراءته ، مفضلاً له على غيره من الشعراء • وقد أخذ عن البحري الكثير من حلاوة التنسيق ، وعذوبة الألفاظ ووضوح المعنى • على أن في شعره كما سنرى فيما بعد ما يدل على أنه قرأ لشعراء كثيرين ، وأفاد منهم لفظاً ومعنى ، أما الأدب الفرنسي فقد حاول الدكتور محمد صبري أن يتلمس آثاره في أدبه ، وساق غير مثل على ذلك<sup>(٢)</sup> ، ولكننا نرى أن ما أوردته له شبيه في الأدب العربي القديم ، وأكد أن صبري حين فكّر فيه لم يرد على ذهنه الأدب الفرنسي ، وإنما أسعفته ذاكرته الواعية ، بما استظهره سابقاً حين كان يروض القول ويحاكي الأقدمين ، ليتمرس على قول الشعر ، بهذا المعنى أو ذاك ، والعربية بهذا كانت أقرب إليه من الفرنسية ، ولا سيما والألفاظ تكاد تكون متحدة مع ألفاظ الأبيات العربية القديمة •

وعلى الرغم من أن النقاد أجمعوا على أنه كان معنياً بشعره « شديد النقد له ، كثير التبديل والتحويل فيه »<sup>(٣)</sup> وهو « يتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف ، واللفظ القوي للمعنى القوي ، واللفظ الرقيق للمعنى الرقيق »<sup>(٤)</sup> وعلى الرغم من قوله :

شعر الفتى عرضه الثاني فأحر به      ألا يشوه بالأقذار والوضر  
فاقد كلامك قبل الناقلين تحط      ثاني النفيسين من لغوٍ ومن هذر  
واقرأ فديتك تأمن ما تحاذره      من قارئ هازيء أو قارئ ضجر

على الرغم من كل هذه العناية ، وهذا التحذير ، فإن إسماعيل صبري وقع في

(٢) الدكتور محمد صبري : أدب وتاريخ •

(٤) أحمد أمين في المقدمة ص ١٦ •

(١) المقدمة ص ٣٨ •

(٣) خليل مطران : مختارات المنفلوطي ص ٦٧ •

أخطاء كثيرة في اللغة والأسلوب وفي المعاني ، ولكنها أخطاء لا تذهب بمنزلته الأدبية ، وإن دلت على أنه لم يكن متمكناً كل التمكن في قواعد اللغة وممتنها ، وعلى أن لغة الصحافة قد جنت عليه ، وسنرى نماذج من الأخطاء فيما بعد •

وسترى من دراستنا لشعره أنه لم يفد من معرفته بالفرنسية إلا قليلاً جداً يتمثل في الروح العامة لبعض المقطوعات ، فلا هو من الذين جددوا في القالب الشعري فأتى بقصص أو ملاحم أو مسرحيات ، ولا هو بالذي جدد في المعاني أو الصور أو الخيالات على نحو ما ترى عند مطران الذي تأثر كثيراً بالأدب الفرنسي •  
شعره :

قال مطران : « أكثر ما ينظمه ( إسماعيل صبري ) فلخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها ، أو خبر ذي بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه ... ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر إلى حيث يتقصد قصيدة وهو نادر <sup>(١)</sup> » •

ويقول أحمد محرم : « وصبري منذ القديم شاعر مقل ، فهو لا يستطيع المطولات ، ولا يكاد يجيدها ، وقد فضجت شاعريته فأبدع في مواضع كثيرة ، ولكنه بقي الشاعر المحدود والفنان الذي يأخذ من الفن ما يعجبه ، ويأبى أن يعطيه ما يحبه هو ويرضاه <sup>(٢)</sup> » •

فصبري شاعر مقل ، لا يكاد يجيد المطولات ، وذلك لأنه لم يحترف الشعر ، وإن أراد أن يكون شاعراً معروفاً • « فاقراً الديوان من أوله فسترى فتى يحاول قرض الشعر على النحو الذي تعلم الناس من قبله عليه قرض الشعر ، يقول في الموضوعات التي كان الناس يقولون فيها ، في مدح الخديو إسماعيل ، وفي مدح بعض الأشخاص الذين كان يراهم في سبيله أهلاً للمدح ، لا يريد بذلك إلا الفن ، وإلا أن ينظم الشعر ، ويرفعه إلى الممدوحين ، وينشره في الصحف ، ويتحدث الناس عنه بأنه شاعر <sup>(٣)</sup> » •

ولم يكن شعر صبري أول عهده بالأدب يبشر بشاعر مقتدر يحدث أثراً يذكر في عالم الشعر <sup>(٤)</sup> ، وأرى أن صبري على الرغم مما أسبغ عليه معاصروه من ثناء

(٢) مجلة أبولو ، سبتمبر ١٩٣٤ ص ١٠٥ •

(٤) أحمد محرم في مجلة أبولو سنة ١٩٣٤ ص ١٠٤ •

(١) مختارات المنفلوطي ص ٦٧ •

(٣) طه حسين في المقدمة ص ٨ •

ومديح ، وما أطروا به شعره ، ولا سيما ذلك الذي قاله بعد عودته من فرنسا ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يلقبونه تارة بالرئيس ، وتارة بشيخ الشعراء ، ومن أنهم أنثوا على صدق عاطفته ودقة معانيه ورقتها لم يأت بجديد يذكر في عالم الشعر ، وأنه فهم الشعر كما كان يفهمه الشيخ علي الليثي ، وإن كان أجود منه لفظاً ، وأحسن معنى ، وأمتن ديباجة . إن شعر إسماعيل صبري امتداد لمدرسة القدماء ، ولا أستطيع أن أقول : إنه امتداد لشعر البارودي . فشتان ما بينهما .

ولعل الذي جنى على صبري هو أنه ابتداء حياته الشعرية مداحاً ، ولم يجد النموذج المعاصر القوي في فن المديح ، لأن البارودي لم يكن من فرسان هذا الفن وما ورد له قليل جداً بالنسبة لشعره ، وفن المديح قد استنفدت معانيه في الأدب العربي منذ زمن بعيد ؛ ولذلك أخذ يقلد القدماء من شعراء العربية ولكن لم تواته ذخيرته من محفوظ الروائع الخالدة على إجادة التقليد واكتفى بترديد المعاني المطروقة من قبل بأسلوب يناسب بيئته وثقافته . ولم يستطع فيما بعد التخلص من ربة الأدب العربي القديم ، والافادة من دراسته للأدب الأجنبي أو من تقليد البارودي ، أستاذ المدرسة التقليدية الحديثة .

ولم أجد شاعراً صدق فيه القول : « بأن المعاصرة حجاب » خيراً من إسماعيل صبري فلا شك أن الرجل لدمائه خلقه ، وبعده عن المنافسات والحزازات ، ورقته ولطف معاملته للناس قد أجمعت القلوب على محبته . وهم إذا نظروا إلى شعره نظروا إليه بعين الصديق ، وتمثل لهم إسماعيل صبري الرقيق الحس ، المهذب الخلق ، الكريم الخصال ، صاحب الندوة العامة التي كان يغشاها الشعراء ؛ ويلقبونه لكبر سنه ، ول مقامه الأدبي بالرئيس أو شيخ الشعراء ، وأنسأهم كمال إسماعيل صبري ما في شعره من مساوئ .

ولا أريد أن أتجنى على إسماعيل صبري ، وهأنذا أعرض عليك شعره لترى صدق ما أقول :

فصبري لم يجدد في موضوعات شعره ، وإنما سار على نهج العرب الأقدمين ، وكان عالة عليهم في معانيهم وألفاظهم وأغراضهم : مدح ، ورثى ، وهجا ، وهنأ ، وتغزل ، كما كانوا يفعلون . حتى الشعر السياسي الذي طرقة البارودي من قبل ، والذي أفاض فيه حافظ وشوقي ، وعبد المطلب ، ومحرم ، والكاشف — لم يكن له

فيه إلا نصيب ضئيل . كما أنه لم يهتم بالناحية الاجتماعية في مصر، فيصور حال الشعب وآماله ، ويشاركه أفراحه وأحزانه . وحتى شعره الذي كان يقوله لنفسه ، والذي لا يدفعه إليه إلا شعوره ترى فيه أثر التقليد ، وإن بدا مصوغاً صياغةً ظريفةً ، فقد نظر فيه إلى معاني من سبقه من الشعراء وحاكاهم ، وقصّر عنهم في الأداء .

وأهم غرض قال فيه صبري ، وأكثر هذه الأغراض تداولاً في شعره هو المديح والتهنيتي وما يتصل بهما . وقد بدأ حياته الشعرية بمدح الخديو إسماعيل ، وهو بعد طالب في مدرسة الإدارة والألسن لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره فمن ذلك قوله من قصيدة ، وقد نشرت بمجلة روضة المدارس تشجيعاً له :

|                             |                           |
|-----------------------------|---------------------------|
| سَفَرَت فلاح لنا هلالٌ سعود | ونما الغرام بقلبي العمود  |
| وجلت على العشاق روض محاسن   | فسقى الحياء شقائق التوريد |
| ورنت بأحور طرفها وتبسمت     | فبأضياء اللؤلؤ المنضود    |

إلى غير ذلك من الغزل المتصنع ، والمعاني القديمة التي عفى عليها الزمن ، وابتذلت من طول ما ردها الشعر العربي القديم ، حتى وصل إلى مدح الخديو إسماعيل . هكذا ابتداءً إسماعيل صبري ، ولقي تشجيعاً من أولي الأمر ، ومن رئاسة تحرير الوقائع المصرية ، فقد ورد في الوقائع المصرية مقدمة لبعض قصائده في ذياك العهد ، والتي من هذا الطراز :

« ومن أبدع ما ورد من كلام الأفندية التلامذة المنتظم — ولا جرم — في سلك كلام الأساتذة ما جادت به قريحة الذكي النجيب ، الذي تحسن رواية كلامه وتطيب ، إسماعيل أفندي صبري ..... وهي هذه الذاهبة محسناتها البديعية مذهب الانسجام المفيد ، في التهنئة بقدوم الجنب الخديو الأفخم السعيد » .

ومن ذلك قوله من قصيدة يمدح بها الخديو :

|                                 |                              |
|---------------------------------|------------------------------|
| أغرَّتْكَ الغراء أم طلعةً البدر | وقامتك الهيفاء أم عادل الشمر |
| وشعرك أم ليل تراخت سدوله        | وثغرك أم عقد تنظم من در      |

إلى أن يقول في مدحه :

سَري" سما فوق السَّمَاء مقامه      وفاق على الشمس المنيرة والبدر  
وما الغيث إلا من بحار نواله      ألم ترها تروي الوفود بلا نهر

ونحن في غنى عن التعليق على هذا الشعر الذي قال فيه أحمد محرم : « إن أي شاعر في زمان إسماعيل صبري حينذاك كان خيراً منه »<sup>(١)</sup> ، وساق على ذلك عدة أمثلة • وليس حاله بعد أن رجع من البعثة ، وتزود من علوم الغرب في باب المديح — بل وفي غيره — بأحسن منه قبل أن يذهب • استمع إليه يقول في عام ١٨٧٨ وهو العام الذي انتهى فيه من دراسته بأوربا ، كيف يهنئ توفيقاً ، ويؤرخ في شعره على عادة شعراء الضعف • على أن السنة التي شرعها البارودي في الشعر ، وما وضعه له من منهج قوي ، وما ضربه للشعراء من نماذج غاية في الفحولة كانت حرية أن تجعل الشعراء يتقدمون بالشعر خطوة إلى الأمام ، ولا يرجعون خطوات إلى الوراء • وهذا هو يقول :

مولاي وافاك عام مشرق بهج"      فيه لآمال هذا القطر تحقيق  
أبشر به فلسان السعد أرّخه      (صافاك عام العلا والخير توفيق)  
١٨٧٨

ويقول من قصيدة أخرى في عام ١٨٨٦ ، فيبتدىء الشطر الأول بتاريخ :  
(توفيق مصر العام وافاه سعده)      وسعى إليك بفيضه المتكاثف  
ويختتم القصيدة بتاريخ :

مولاي هذا السعد قال مؤرخاً      (بشرى أبا العباس عام بشائر)

وتجد له في كل قصيدة أبياتاً من هذا النوع ، حتى لقد برع في التأريخ الشعري براعة فاقت عصور المماليك والعثمانيين • لقد مدح من قبل إسماعيل صبري كثير من شعراء العربية الفحول ، ولكنك تقرأ شعر المتنبي أو البحري أو أبي تمام في المدح فتتهزّ طرباً ، وتجد جديداً ، وتجد فحولة وقوة ، واستطراداً إلى الوصف الرائع ، والحكمة البالغة ، ولكن صبري للأسف لم يأت بأي جديد في مدائحه •

والأنكى من ذلك أنه في نسيبه كان يقف على الأطلال والدّمّن ، وأين في مصر الأطلال والدّمّن ؟ ! ، وهب أنه جعل منازل الحبيبة الغائبة في قصور القاهرة ومعالمها بمنزلة الطلل البالي فهلاًّ جدّد في الصورة ، وافتنّ في التعبير ، بدلاً من ترديد ما لا كنه ألسنة الشعراء منذ قال امرؤ القيس : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ، يقول صبري في قصيدة يهنئ بها توفيقاً في عام ١٨٩٠ :

قف بالديار وحيّ ركبا دارساً      لو يستطيع إجابة حيّاكا  
وانثر دموعك في ثراه صباة      عل البكاء يزيل بعض جواكا

ويقول من قصيدة أخرى يمدح عباساً في عام ١٩٠٨ بعد أن شاعت ضروب الشعر الحديث على يد مطران وشوقي وشكري :

لو أن أطلال المنازل تنطق      ما ارتدّ حرّان الجوانح شيّق

فأين هذه الصورة القديمة التي لا تتعدى ذكر القدم ووصف البلى ، وذلك الوصف الجاف الذي لا يفيد من الوجهة الفنية ولا يغني ، فضلاً عن انحراف الذوق ، فإن صبري يريد التهنئة - وليس من المناسب في مقام التهنئة إيراد مثل هذه الصور الحزينة ، ولا ذلك اللون القاتم ، أين هذه الصورة من قول أبي نواس النائر على وصف الأطلال والدمن حين يقول :

ألا لا أرى مثلي امترى اليوم في رسم      تغصّ به عيني ويلفظه وهمي  
أت صور الأشياء بيني وبينه      فظني كلا ظن وعلمي كلا علم

وقول أبي تمام :

على مثلها من أربع وملاعب      أذيلت مصونات الدموع السواكب  
أو قوله :

أدارَ البؤس حبّك التصابي      إليّ فصرت جنات النعيم  
لئن أصبحت ميدان السّوافي      لقد أصبحت ميدان الهموم  
أظن الدمع في خدي سيّبقني      رسوماً من بكائي في الرسوم

وإذا تتبعنا أبياته في الممدح من تلك القصيدة القافية التي اشتهرت ، لأنه أثنى

فيها على عباس ثناء عاطراً لعفوه عن سجناء حادثة دنشواي ، ولأنه استطرد إلى وصف تلك الحادثة وجدناه مقلداً في كل بيت من أبياتها ، ناظراً إلى بيت من الشعر القديم ، تارة يأخذ اللفظ والمعنى وتارة يكتفي بالمعنى وحده ، من غير توليد أو إضافة جديدة على الصورة ، ولنضرب على ذلك مثلاً بقوله :

أحرزتَ يا عباس ، كلَّ فضيلة      وبلغتَ شأواً في العلى لا يُلحَق  
من ذا يجاري أخصيك إلى مدى      وهواك سباقٌ ، وعزمك أسبق

فالثناء على المدحوح بأنه حاز كل الفضائل ، وبأنه بلغ في العلا شأواً لا يلحق ، كلام قديم جداً ، طالما رددته الشعراء ، هذا هو مهيار الديلمي يقول :

لا أدعي لأبي العلاء فضيلة      حتى يسلمها إليه عداه

وما أشبه الشطر الثاني من البيت الأول بقول أبي تمام ( هيهات تطلب شأواً من لا يلحق ) •

وفي السبق إلى الغايات يقول البحتري :

طلوب" لأقصى غاية بعد غاية      إذا قيل يوماً قد تناهى تزيدها

ويقول أحمد محرم في نقد البيت الثاني : « ومن الخطأ قول صبري : من ذا يجاري أخصيك » فإن الملوك لا تمدح بمثل هذا ، وأولى بهذه المجازاة أن تكون بين العدائين ، كالثليح والسننفرى وأمثالهما ، فليس المجد مما ينال بالعدو على الأقدام فيكون للأخصمين عملهما فيه ، قال البحتري :

إذا سؤدد داني له مدء همء      إلى سؤدد نائي المحل يزاوله

فلم يقل مد قدمه أو طار بأخصيه ، وإنما قال مد همء • وقد قال المتنبي أروع من هذا في نفس المعنى :

وحق له أن يسبق الناس جالساً      ويدرك ما لم يدركوا غير طالب  
ويُخذَى عرائن الملوك وإنها      لمن قدميه في أجلّ المراتب

وقد عد بعضهم من مبتكرات صبري في هذه القصيدة قوله :



إن يرتجل عرف" فأنت إلى الذي لم يرتجله المالكون موثق

وهذا المعنى قديم طرقة غير واحد من الشعراء ، قال طريح الثقفي :

قد كنت تعطيني الجزيل بديهة وأنت لما استكثرت من ذاك حاقرة  
فأرجع مغبوطاً وترجع بالتني لها أول في المكرمات وآخر

وقال الأبيوردي :

جاء الندى والبأس منك بديهة لما كرهت الوعد والإيعادا

ومن قبل هذين قال زهير بن عروة المازني :

مباذيل عفواً جزيل العطاء إذا فضلة الزاد لم تبذل  
هم سبقوا يوم جري الكرام ذوي السبق في الزمن الأول

ولا تجد بيتاً من أبيات هذه القصيدة ، بل من قصائد المدح كلها عند صبري ليس له نظير في معناه ، أو معناه ومبناه عند شعراء العربية الأقدمين ، وذلك لأن باب المديح من أقدم أبواب المدح منذ اشترعه النابغة الذبياني ، وجرى الشعراء على سنته ، وافتتوا فيه ، وأهم صفة كان يتحلى بها المدحون في نظرهم : الشجاعة والكرم . هل من الجديد قول صبري في هذه القصيدة ؟ :

عوذت مجدك أن تنام وفي الحمى أمل عقيم أو رجاء مخفق

لقد قال المعري في هذا المجد المعوذ :

أعاذ مجدك عبد الله خالقه من أعين الشهب لا من أعين البشر

وفي معنى بيت صبري قول الشريف الرضي :

نعمي أمير المؤمنين حرية ألا تنام عن الرجاء المهمل

ويا ليت صبري صاغ القصيدة كلها صياغة قوية جيدة ، فإنه لم يكن يقوى على المعنى في القصائد الطويلة من غير أن يبهر نفسه ، ويحل به الأين واللغوب ، ويتدري في حمأة الكلام السوقي المسترذل ، فمن ذلك قوله :

وأخذت رأي أولي النهى مستوثقا مستوزرا ، وكذا الحكيم يدقق  
فهل هذا شعر ؟ ويقول بعد هذا البيت :

حتى اهتديت إلى الصواب ولم يزل بين الصواب وبين رأيك موثق  
وفي هذا اتهام لرأي الممدوح وطعن عليه ، وإن حاول ستره بالشرط الثاني •  
وقال بعد هذا البيت :

وأهبت ، فابتكر النضار سحائباً تهمني ، وتفتقد المحيل وتغدق

والمحيل : ما أتى عليه الحول ، أو ما صار من حال إلى حال • وقد أراد بالمحيل  
الماحل فأخطأ • وبعد فهل هذا الأمر مشكل ؟ وهل معرفة جهل الأمة وسوء حالها كان  
خافياً على عباس ، حتى أخذ رأي أولي النهى ، واستوثق ، واستوزر ، ثم اهتدى  
بعد تخطيط وضلال ، فأين هذا من قول مهيار الديلمي :

ودبر الدنيا برأي واحد يأنف أن يشتركه فيه أحد  
إذا استشار لم يزد بصيرة ولا يلوم رأيه إذا استبد

أو قول الشريف الرضي :

يستمع الرأي وعنه غنى قد يثقل السيف ولم يطبع  
وقول البحري :

إذا ما جرى في حلبة الرأي برزت تجاربٌ معروف له سبق قارحُ  
أو قوله :

تشف أقاصي الرأي في بدايته لعيني وستر الغيب غير رقيق  
أو قول المتنبي :

كفتك التجاربُ الفكرَ حتى قد كفاكَ التجاربُ الإلهام  
أو قول سلم الخاسر :

بديته وفكرته سواء إذا ما نابه الخطب الكبير

وأحزم ما يكون الدهر رأياً إذا عسى المشاور والمشير

وماذا عساي أقول في شعر صبري في المديح ، وهو تقليد في موضوعه ، وتقليد في طريقته وافتتاحه بالنسيب ، ووقوفه على الأطلال وتقليد معانيه ، وصوره وألفاظه ؟ فهل بعد هذا يقال إن صبري من الشعراء المجددين ؟ !

ومما يتصل بالمديح والتهاني ذلك الفيض من التقاريظ ، والقصائد التي تتخذ للزينة ، ومثل القصيدة التي قالها لتوضع في غرفة المائدة بقصر عابدين ، ومطلعها :

شمس المعالي كعقود الجمان قد نظمت في صدر هذا المكان

ومثل البيتين اللذين قالهما ليكتبا على مسنقى ( سبيل ) أم عباس :

أسست هذا على أسى التقى أم عباس ملاذ المعوزين  
أيها الظامى قف نلت المنى في حمى جدة أم المحسنين<sup>(١)</sup>

إن هذا الكلام لا يسمى شعراً ، بل هو نظم ، وصاحبه كما رأيت ( نديم ) لا شاعر ، يحاول أن يرضي البيت المالك ، والحاشية ، وتتمثل فيه الرقة والوداعة ، وسرعة البديهة ، والقدرة على القول في كل شيء ، كما هو شأن الندمان غالباً .  
وإذا كان الأدب الفرنسي قد ترك أثراً في إسماعيل صبري ، فذلك الأثر يتمثل في أنه شاعر ( صالون ) ، وشاعر ( الصالون ) كما علمت آنفاً يراعي دائماً غيره ، قبل أن يراعي نفسه وقلما يفرغ إلى شعوره ووجدانه ، وفي ( الصالون ) يسود الذكاء ، وحسن التعبير والمجاملة<sup>(٢)</sup> .

ويذكر لنا الدكتور محمد صبري أن دار إسماعيل صبري كانت « تذكرنا بالأندية التي يرجع إليها الفضل في تهذيب اللغة الفرنسية وتجنب الكلمات الحوشية النافرة ، لأن السيدات كن فيها الآمرات الناهيات يحاسبن على كل لفظة ويتلظفن في الخطاب<sup>(٣)</sup> » ، وقد أيد هذا حافظ إبراهيم في رثائه .

(١) جدة أم المحسنين هي ( بمبا فادن ) وسبيل أم عباس كان بمدرسة بمبا فادن .

(٢) راجع ص ٢٦٠ - ٢٦٣ من هذا الكتاب .

(٣) ادب وتاريخ للدكتور محمد صبري ص ١٢٠ .

لقد كنت أغشاه في داره      وناديه فيها زها وازدهر  
وأعرض شعري على مسمع      لطيف يحس نبوء الوتر

ولكنني لا أوافق على أن إسماعيل صبري قد انطبع في ذهنه كثير من الأدب الفرنسي<sup>(١)</sup>، اللهم إلا ذلك النوع من الأدب الذي ذكره الأستاذ العقاد بقوله: «ولما تهياً لإسماعيل صبري أن يتلقى العلم في فرنسا، ويطلع على آدابها وآداب الأوربيين في لغتها كان من الاتفاق العجيب أنه اطلع على الآداب الفرنسية، وهي في حالة تشبه حالة الذوق القاهري من بعض الوجوه؛ لأنها كانت تدين على الأكثر الأغلب بتلك الرفاهة الباكية التي كان يمثلها (لامرتين) وإخوانه الأرقاء الناعمون<sup>(٢)</sup>» .

ولكننا نعلم أن مدرسة (لامرتين) هي المدرسة الإبداعية التي عنيت بالأدب الذاتي عناية فائقة فانطلق شعراؤها يتغنون بكل ما يحسون به، كما أنها عنيت بالطبيعة واكتناه أسرارها، والتلمي من محاسنها ومفاتها، وعنيت كذلك بالإنسانية والمجتمع عناية بالغة تصور مشكلاته بحماسة، وكانت الحياة كلها موضوعاً لشعرهم، وبرعوا في تصوير العواطف براعة فائقة، وعنوا بالجمال والأناقة، ولم يأخذ صبري من هذا كله إلا الجمال والأناقة وترك الهيام بالطبيعة والإنسانية والمجتمع . إن مدرسة الندمان هذه تشبه إلى حد كبير شعراء الأنديّة و (الصالون)، « وإذا أتيح لك أن تحضر مجلساً من مجالس الظرفاء القاهريين في الجيل الماضي خيل إليك أنك في حجرة رجل نائم مريض : فالكلام همس ، والخطو لمس ، والإشارة في رفق ، وسياق الحديث لا إمعان فيه . . . في هذه البيئة نشأ إسماعيل صبري الشاعر الناقد البصير بلطائف الكلام ، فنشأ على ذوق قاهري صادق يعرف الرقة بسليقته وفكره ، وليس يتكلفها بشفتيه ولسانه<sup>(٣)</sup> » .

هكذا يقرر الأستاذ العقاد ، فإذا كان للأدب الفرنسي من تأثير عليه ، فإنه زاده إمعاناً في رقته ، وحباً في طريقته ، وجعله شاعراً عريقاً من شعراء المنادمة ، لا شعراء الوجدان الذين يناجون نفوسهم ، ويستوحونها للإلهام ، ولا يفكرون في سواهم .

(١) أدب وتاريخ للدكتور محمد صبري ص ١١٢ - ١١٥ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٣٣ - ٣٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٢ - ٣٣ .

لقد برهن إسماعيل صبري بالقسم الأكبر من ديوانه الذي تضمن المديح والتهاني ، والتقاريط ، وشعر الزينة ، والمناسبات ، وبتلك المقطوعات القصيرة التي تقال ليفهمها الناس والتي تعبر عن خاطرة عابرة ، لا فكرة متأصلة في نفس الشاعر ، على أنه من مدرسة علي الليثي التي لا تختلف كثيراً عن وجهة النظر الفرنسية في الشعر .

ولعله يقال إن عبقرية إسماعيل صبري قد نجلت في غير هذا الشعر الرسمي ، تجلت في « مقطوعاته القصيرة يجري فيها ذوب قلبه ، ويمزج فيها دم نفسه ، بمعناه ولفظه ، يغني فيها لنفسه ، ويقصد بها إلى بث لوعته وتخفيف كربته وتلطيف صابته<sup>(١)</sup> » .

وهانذا أعرض هذا النوع من الشعر لتبين ما فيه من صدق العاطفة ، وهل كان صبري فيه مجدداً ، مخلصاً للفن ، أو أنه تأثر بمدرسة الندماء ، وبجياة (الصالون) . قال صبري من قصيدته المشهورة (لواء الحسن) :

|                           |                               |
|---------------------------|-------------------------------|
| يا لواء الحسن أحزاب الهوى | أيقظوا الفتنة في ظل اللواء    |
| فرقتهم في الهوى ثاراتهم   | فاجمعي الأمر ، وصوني الأبرياء |
| إن هذا الحسن كالماء الذي  | فيه للأنفس ريّ وشفاء          |
| لا تذودي بعضنا عن ورده    | دونَ بعض واعدلي بين الظّماء   |
| أنت يسمُ الحسن فيه ازدحمت | سفن الآمال ، يزجيهما الرجاء   |
| يقذف الشوق بها في مائج    | بين لُجّين : عناء وشقاء       |

ألا تشعر وأنت تقرأ هذه الأبيات أن صبري ليس محباً عاشقاً متيماً ؟ ، إن المحب ذا أثرَةٍ ، وغيرَة ، لا يرضى إلا بأن يكون المحبوب له وحده ، ولكن صبري يحب سيدة (الصالون) يريد منها العدل في القسمة ، وتوزيع النظرات ، وقد جعل الحسن مشاعاً للجميع ، والواجب عليها ألا ترد بعضهم عن ورده ، وأن تعدل بين الظماء . وهل هذه هي العاطفة الملتهمبة ؟ إنه شعر أنيق ظريف ، واضح ، ولكن ليس فيه حرارة الحب ، ولا لوعة العشق ، ولا إخلاص المحب وأثرته .

(١) أحمد أمين في المقدمة ص ١٧ .

هذا فضلا عن أن المعاني التي طرقها صبري ، قد ردها من قبل غيره من شعراء العربية فأما أن المرأة فتنة ففضية مشهورة وهذا هو أبو نواس يقول :

ما براها الله إلا فتنة حين براها

وأما أنها لواء الحسن وأن الفتنة استيقظت في ظل اللواء فقد يما قيل : « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » وأما قوله : « فرقتهم في الهوى ثاراتهم » ، فقد قيل قبل هذا : « قامت حروب الهوى على ساق » • وأما قوله : « فأجمعي الأمر وصوني الأبرياء » فقد قال عمر بن الفارض أستاذ صبري :

تجمعت الأهواء فيها فما ترى بها غير صب لا يرى غير صبوتي  
وقال صفي الدين الحلبي :

لعل الحب يرفق بالرعايا فيأخذ للبريء من المليم  
وتشبيه الحسن بالماء قديم قال أبو القاسم العطار :

رقت محاسنها ، وراق نعيمها فكأنما ماء الحياة أديمها  
وقال أبو تمام :

صبّ الشباب عليها وهو مقتبل ماءً من الحسن ما في صفوه كدر  
وأما قول : « أنت يم الحسن ... الخ » فقد نظر في هذا المعنى إلى قول السراج الوراق :

يا بني الآمال قد خاب الرجاء إنها اشتدت ، وقد عز العزاء  
سفن الآمال في بحر المنى رحلت منا ، فأين الرؤساء

وقال صبري بعد هذه الأبيات من نفس القصيدة :

ساعفي آمال أنضاء الهوى بقبول من سجياك رضاء  
وتجلّي واجعلي قوم الهوى تحت عرش الشمس في الحكم سواء

وعاد صبري في هذين البيتين إلى طلب المساواة في الحب ، وطلب التصفية

والعدل ، وهذا طلب غير مقبول في الحب ، فلا الحبيب يستطيع أن ينصف ، لأنه يتبع ميل فؤاده ، ولا المحب يريد هذه النصفة ، إلا أمثال صبري الذين يمزحون ولا يحبون ، فالحب ذو أثره ، وهيهات أن يرضى محب بالشركة ! وإذا نظرت إلى الصورة التي أتى بها في هذين البيتين وجدتها قديمة ، مرقعة من أبيات عدة نظر إليها الشاعر ، فأنضاء الحب ، صيغة قديمة جداً ، ومن قبل قال الطغرائي : « يقتلن أنضاء حب لا حراك بها » ، وأما تشبيه السجيا بالريح الهينة اللينة الرخاء فكذلك تشبيه قديم قدم البحري حيث قال :

خلق " طبع " إذا رضى للجو د انشى عظمه وطاع عنانه

وإذا قلت : إن صبري أراد أن يقيم للحب دولة ، ويشرع نظاماً ، تسود فيه النصفة والمساواة ، فعلى هذا من الجديد ، وإن كانت شريعته لا يرضى بها الحاكم ولا المحكوم ، فأقول : إن هذا معنى قديم ، ومن أطف ما قيل في هذا المعنى قول محمد بن سارة :

كم قد رأت عيناىَ مثلك والياً      للحسن ، تنتهب النفوس جنوده  
الدهر طوع يديه ، والدنيا له      أمّة ، وأحرار الأنعام عبيده  
وقول ابن النبية :

أيا ملك القلوب فتكتَ فيها      وفتكتك في الرعية لا يحلّ  
وقال صبري بعد ذلك :

أقبلني نستقبل الدنيا وما      ضمنته من معدات الهناء  
واسفري ، تلك حلى ما خلقت      لتواري بلثام أو خباء  
واخطري بين الندامى يحلفوا      أن روضاً راح في النادي وجاء  
وانطقي ينثر إذا حدثتينا      نائر الدرّ علينا ما نشاء  
وابسمي من كان هذا ثغرّه      يملأ الدنيا ابتساماً وازدهاء

وفي أول هذه الأبيات كلمة ( معدات الهناء ) ، والمعدات لعمرى ثقيلة جديدة في هذا البيت فضلاً عن أن الهناء بمعنى هناة لم تسمع في الفصح • وطلبه في البيت

الثاني من المحبوبة أن تسفر لأذن هذا الجمال لم يخلق ليتوارى وراء الحجاب ، معنى رده من قبل أكثر من شاعر عربي ومن أحسن ما قيل في هذا قول الحسن التهامي :

حطّي النقاب لعلّ سرب عيوننا في روض حسنك يرتعين قليلا

وفي البيت الثالث يظهر محبوبته على عادته ، بأنها امرأة ( صالون ) أو ناد كما أراد ، وهذا ابتذال لها إذا كان حقاً يحبها ، ولكنه متأثر كما ذكرت بالطريقة الفرنسية ، وقيل إن هذه الأبيات نظمت في الآنسة ( مي زيادة ) ؛ إذ كان يغشى ناديا مع من يغشاه وكانت تستقبل زوارها كل ( ثلاثاء ) ولم يكن صبري ينقطع عن ندوتها إلا لضرورة ملحة ، وقد اعتذر لها مرة عن تأخره بقوله •

روحي على دور بعض الحي حائمة      كظامي الطير تواقا إلى الماء  
إن لم أمتّع بمي ناظري غداً      أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء  
ومع هذا فالبيت ليس فيه جديد ، فتشبيه المرأة بالروضة قديم وفي ذلك يقول أبو تمام :

خرجن في نضرة كالروض ليس لها إلا الحلي على أعناقها زهر

ولعل بيت صبري أقرب شيء إلى بيت كشاجم •

رزنته روضةً تروق ولم      أسمع بروض يمشي على قدم

وأما تشبيه حديثها بالدر في البيت الرابع فكذلك من الصور المتداولة ، التي كثرت جداً لدى الأقدمين ، ومن أشهر ذلك قول البحرري •

ولما التقينا واللوى موعداً لنا      تعجّب رائني الدر منا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها      ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال صبري بعد ذلك :

لا تخافي شططاً من أنفـس      تعثر الصبوة فيها بالحياء

فهو يريد أن نفوس الجلساء مهذبة يحول الحياء بينها وبين ما لا ينبغي ، ومقصده أنها نفوس غفيفة تستطيع أن تكبح جماحها على الرغم من الفتنة ، وقدima قال المتنبي في العفة :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر      ويعصي الهوى في طيفها وهو راقـد



وقال الشريف الرضي :

وإذا هممتُ بمن أحب أمانني حَصَرَ يعوق ، وعفة تنهاني

وقد أجاد صبري في قوله : « تعثر الصبوة فيها بالحياء » وإن ورد مثل هذا في غير موضع الحب .

وقال صبري بعد ذلك :

أنت روحانية لا تدعي أن هذا الحسن من طين وماء

وقد قال شوقي في هذا المعنى ، ولسنا ندري أيهما أسبق :

صوني جمالك عنا إنا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني

وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : « فلما رأينته أكبرنه ، وقطعن أيديهن » ، وقتلن حاش لله . ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم .

وأخيراً قال صبري في هذه القصيدة :

وانزعي عن جسمك الثوبَ يَبْنُ للملا تكوين سكان السماء

وعجيب من صبري المذهب الرقيق الحاشية رجل النادي ، الذي اشتهر بأنه لا يفحش أن يطلب من محبوبته أن تنزع الثوب عن جسمها أمام الندامي ، لا ، بل أمام الملا أجمعين ليروا تكوين سكان السماء . ولا شك أن هذه فلتة من فلتات صبري ، ما فطن إليها . وبغض النظر عن هذا كله ، وعن أنه مقلد ، فإن صبري شغل بهذه القطعة — مقتنياً أثر المدرسة الفرنسية — بمحاسن المحبوب الظاهرة ، عن الكشف عن لواجع نفسه ، ومكنون قلبه ، وبث لوعته ، وحرقة فؤاده ، فهو ينظر إليها نظرة مادية رخيصة ، يريد أن تسفر لأن هذا الحسن لا يصح أن يتوارى ويريدها أن تخطر بين الندامي ليتمتعوا بهذا الجمال كأنهم في سوق الرقيق ، ويريدها أن تتحدث وتبتسم ، ويعنى كل العناية بحسنها ومفاتها حتى لم يستطع إلا أن يطلب منها أن تخلع ثيابها ، ولا يبرئه ما وصف به نفسه ونداماه من العفة ، ومن أنها ملك . إنه تقليد مزدوج للعرب القدماء ، وللمدرسة الفرنسية على السواء ثم هو شعر ليس فيه عمق ولا تحليل للعواطف ، ولا تصوير رائع ، وهذه القطعة

من أحسن قطعه في الغزل ، وأطراها غير واحد من النقاد ، وإن واقفنا الأستاذ العقاد في تقدنا حيث يقول : « هنا ذوق وكياسة ، وليس هنا عشق وحرارة ، ولن تذكرنا هذه الأبيات بعاشق يهوى معشوقا يقف عليه نفسه ويطلب إليه أن يقف نفسه عليه ، وإنما تذكرنا بنديم قاهري في سهرة من سهرات الطرب يلتف مع صحبه بغاية أو مغنية ، يتلطف في الزلفى إليها ، والثناء عليها ، ولا يشعر من وراء ذلك بلوعة ولا غيرة من المنافسين قناعة منه بالراحة بين الأحزاب ، والعدل بين الظماء <sup>(١)</sup> » .

وعلق الدكتور مندور في الكتيب الصغير الذي أصدره عن إسماعيل صبري على رأينا في هذه القصيدة بأن كلامنا هذا ليس تعسفا فحسب ولكنه خطأ في الفهم . « فالبيت الخاص بنزع الثوب لا يمكن فصله عن البيت السابق له وهو :

أنت روحانية لا تدعي أن هذا الحسن من طين وماء  
ولا يمكن فصله عن البيت الذي يليه وهو :

وأري الدنيا جناحي ملكٍ خلف تمثالٍ مصوغ من ضياء

فالأبيات الثلاثة تكون رؤية شعرية واحدة يزعم الشاعر أن الفتاة ( روحانية ) ليس حسننها من طين وماء وإنما هي تمثال مصنوع من ضياء وبه « جناحا ملك » : وهو يريد منها أن تنزع الثوب لكي تثبت صحة رؤيته الشعرية ، فلن يظهر عندئذ جسم بشري بل تمثال مصنوع من ضياء « هو « تكوين سكان السماء » وبذلك لا تكون « فلتة » من إسماعيل صبري ، ولا يكون هناك « سوق رقيق » ولا « عرض لجسم عار بين الندامى وإنما هناك رؤية شعرية روحية <sup>(٢)</sup> » .

ويعود فيقول « الواقع أن لواء الحسن أو المرأة الجميلة التي يتحدث عنها إسماعيل صبري في هذه القصيدة ليست امرأة مبتذلة ولا نهبا للأطماع . وإنما هي امرأة روحانية تقصر عن التطلع إليها شهوات النفوس ، وليس في القصيدة نغمة حسية أو مستهترة أو مبتذلة « وهي أبعد ما تكون عن روح الندماء ومجالس الظرف أو الخلاعة » <sup>(٣)</sup> .

(١) شعراء مصر وببائهم في الجيل الماضي ص ٣٥ .

(٢) ص ٩ ، وكذلك ص ١٥ .

(٣) ص ١٢ .

والدكتور مندور يرد على نفسه في كتاب آخر من كتبه وهو « الشعر المصري بعد شوقي » <sup>(١)</sup> حين وازن بين علي الجارم وإسماعيل صبري ، وقد قال في هذه الموازنة : « ولا يعقل أن يكون إحساسه بمعاني الحب مطابقاً لأحاساس رجل كإسماعيل صبري القاهري المترف الذي كان يقنع من الحب بمجالس الطرب وصالونات المؤانسة دون أن يستشعر شيئاً من ذلك الحب العنيف الأثر الذي يثير الغيرة ، فتراه لا يطلب من الحسناء التي يغازلها إلا أن تسوي بين عاشقها حيث يقول :

« يا لواء الحسن ... .. الأبيات »

فالدكتور مندور يعترف معنا بأنها كانت في مجلس طرب وصالون مؤانسة وأن إسماعيل صبري لم يكن لديه ذلك الحب العنيف الأثر الذي يثير الغيرة ، وأنه كان يغازلها ، ولم يطلب منها إلا أن تسوي بين عاشقها » •

فأي امرأة هذه ذات العشاق الكثيرين الذين يغزلونها في « صالونات المؤانسة ومجالس الطرب » ؟!

لقد نسي الدكتور مندور أول القصيدة وأخذ أبياتها الثلاثة الأخيرة — نسي أنه طلب منها أن تعدل في توزيع الحب •

« لا تذودي بعضنا عن ورده دون بعض ، واعدلي بين الظماء »

ونسي أنها تخطر في النادي بين الندامى ، وأنه يطلب منها أن تتكلم لتشر الدر ، وأن تبتسم ليملاً ثغرها الدنيا ابتساماً فهو هنا يؤكد بشريتها ، ولو كانت روحانية حقاً ما قال لها : « لا تخافي شططا من أنفس ... البيت » إذ أن الملائكة لا تخاف شطط النفس البشرية ، بينما صبري يؤكد في هذا البيت بشريتها بأن نفوسهم عفيفة تستطيع أن تكبح جماحها على الرغم من الفتنة التي تخطر أمامهم وهم ( ندامى ) وهذه الكلمة توحى وإن منع الحياء ظهورها وأكد هذا في البيت الذي يليه :

راضت النخوة من أخلاقنا ... .. البيت

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة التي ثار الدكتور مندور علينا من أجلها حين تعجبنا من صبري القاهري المذهب أن يطلب إليها أن تنزع الثوب بين الندامى ، وراح ينبئنا بأنها صورة ملائكية وأنها روحانية ، ولسنا نعلم أن الملائكة تلبس ثيابا وإنما هي أجسام نورانية شفافة ، كل الذي أراد صبري أنها تشبه الملائكة في جمالها . كما قال النسوة في سيدنا يوسف « ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَكٌ كريم » ولم يمنع ذلك امرأة العزيز من الهيام به ومراودته عن نفسه .

ولقد نظرنا إلى القصيدة في عمومها وإلى أنها قيلت في مجلس طرب وصالون مؤانسة وأنه كان يغازلها كما يغازلها سواء ، وكل الذي طلبه المساواة في البسمات والنظرات والعطف وأن تسمح لهم جميعاً أن يردوا من منهل حبها فلا تذود بعضهم عن ورده دون بعض ، ونظر الدكتور مندور إلى الأبيات الثلاثة الأخيرة ، وشتان بين النظرتين ، ومع هذا فلا نقول إنه خطأ في الفهم كما قال ، وإنما هو اجتهد منه في التأويل :

ومن القطع الغزلية التي اشتهر بها صبري قوله :

|                              |                                  |
|------------------------------|----------------------------------|
| أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة | ولا بشافعة في ردِّ ما كانا       |
| سلا الفؤاد الذي نامطرته زمنا | حمل الصباة فافخق وحدك الآنا      |
| ما كان ضرك إذ علقت شمس ضحى   | لو ادركت ضحايا العشق أحيانا      |
| هلا أخذت لهذا اليوم أهنته    | من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا    |
| لهفي عليك قضيت العمر مقتحما  | في الوصل نارا وفي الهجران نيرانا |

لقد أثنى الدكتور طه حسين ثناء لم نعهده منه في أي شاعر آخر على هذه القطعة وهو الخير بفنون القول ، والذي يتطلب من الشعراء الشيء الكثير ، وذلك حيث يقول في مقدمة ديوان صبري : « فهل تعرف روحاً أعذب من هذا الروح ؟ وعاطقة أصدق من هذه العاطفة ؟ ولهجة أرق من هذه اللهجة ؟ وموسيقى أجل وأظرف وأحسن تمثيلا للروح المصري الشعبي من هذه الموسيقى التي يلائم بها بين « نافعة وشافعة » في البيت الأول ، يأخذ هاتين الكلمتين من حديث الشعب

في حياته اليومية العادية ، فيرتفع بهما إلى أشد الشعر روعة ، وأعظمه حظاً من سذاجة ، وهل تجد شيئاً من الغرابة في أن يعنِّي الشعر بعض المغنين<sup>(١)</sup> ؟ •

حقاً إن صبري في هذه القطعة عذب الروح ، رقيق اللهجة ، حلو الموسيقى يمثل الروح المصري الشعبي ، ولكنه ليس بصادق العاطفة ، ولعلَّ الدكتور طه حَمْد من صبري هذه الصفات ، لأنه جرى في شعره هذا على نسق المدرسة الفرنسية في الوضوح ، وحسن الديباجة في الشعر ، والركة المتناهية ، وإذا نظرنا إلى هذا الشعر نظرة أخرى وجدنا صبري مقلداً في معانيه وأخيلته ، وإن حسنت ديباجته وصياغته : فقد قال البهاء زهير في نافعة وشافعة :

فما تنفع في الدنيا ولا تشفع في الأخرى

وقد جمع المتنبّي في شطر بيت ما أراد صبري أن يقوله في بيت بأكمله وذلك حيث يقول : « ولا يَرْمُدُ عليك الفاتت الحزن » أما البيت الثاني فقد تقدّمه تقدماً بديعاً الشاعر أحمد محرم حيث قال : الصورة في هذا البيت معكوسة ، والمعنى غير مستقيم ، فقد أراد الشاعر أن يقول لقلبه : إن القلب الذي كان يشاطرك حمل الصباية قد سلا ، فأجرى فعل المشاطرة على قلبه هو ، وأنت ترى أن وقوع الفعل من قبله هو يعفيه من عناء هذا السلو ، ويريه من ذلك العبء الذي كان يحمله وإذا فلا معنى لأن يخفق وحده<sup>(٢)</sup> •

وموضع النقد هو أن صبري قال لقلبه : لقد شاطرت قلب الحبيب حَمَل الصباية فما معنى أن يخفق وحده إذا سلا قلب الحبيب ؟ إذا سلا قلب الحبيب فقد أعفى قلب صبري من المشاطرة ومن حمل الصباية • ولكنه كان يريد غير ذلك فأخطأ في التعبير • على أن معنى البيت على وجهه الصحيح مما سبق إليه الشعراء وفي ذلك يقول الطغرائي :

يا قلب مالك والهوى من بعدما طاب السلو ، وأقصر العشاق  
أو ما بدا لك في الإفاقة ، والألى نازعتهم كأس الغرام أفاقوا

ومعنى البيت الثالث من أبيات صبري قديم قدم الشمس يوم طلعت على

(١) مقدمة الديوان ص ١٢ •

(٢) مجلة أبولو أكتوبر سنة ١٩٣٤ ص ١٦٥ •

شاعر عربي في الصحراء ، وضحاياه العشق كذلك معرقون في القدم منذ وجد الحب على ظهر البسيطة ، وطالما رددته الشعراء ، فلا داعي لتكراره ، ولكن تعال معي إلى البيت الرابع واعجب كيف يأخذ المحب عدته لسلو الحبيب أو لغدره ، اللهم إن هذا لا يكون إلا اذا رثت حبال المودة ، وانتقض الحب ، وفسدت الصلة ، أما أن يفكر المحب وهو بعد محب ومحبوب في أن حبيبه سيغدر به ، ويعد العدة لسلوه فهذا أمر لا يفهم في عالم الحب ، إلا إذا كان حبا من النوع الذي أغرم به صبري وهو الحب العابر ، المتنقل ، غير العميق الغور أو الصادق العشق ، ثم كيف يستطيع القلب أن يتخذ العدة والأشواق هي الغالبة عليه ، ولم تتحول بعد إلى أشجان ، وقديماً قال الشاعر : « لا يعرف الشوق إلا من يكابده » فهلا تذكر قول قيس لبنى :

فواكبدي من شدة الشوق والجوى      وواكبدي ، إني إلى الله راجع  
إن الشوق هو الذي يسعّر النار في الأفئدة المدلّية ، وهو الذي وصفه أبو تمام بقوله :

هذا محبك أدمى الشوق مهجته      فكيف تنكر أن تدمى مآقيه  
لست أدري ، لعمر الحق كيف فرّق صبري بين الأشواق والأشجان ، ولا كيف يفكر المحب في السلو ويعد له عدته وهو في معمعان الشوق ؟ إذا كان صادق العاطفة حقاً فكيف يطلب من قلبه أن يسلو ، هلاً تذكر قول المجنون :

فيا حبها زدني جوى كل ليلة      ويا سلوة الأيام موعدك الحشر  
ومالي أضرب الأمثلة بالغابرين ، وقد ناقض صبري نفسه في غير هذه القصيدة ، وبرهن على أن الشوق نار ملتهبة حيث يقول :

يا من أقام فؤادي إذ تملكه      ما بين نارين من شوقٍ ومن شجن  
وحيث يقول من قطعة أخرى :

يا شوق رفقا بأضلاع عصفت بها      فالقلب يخفق ذعراً في حناياها  
وإذا رحنا نبحت عن غزل صبري فإتنا نجده يشبه حبيبته تارة بالروض والغصن •

يا فتاة الحي قد أذكرتينا      نضرة الروض وميل الغصن  
وبالبدر كقوله :

عارضي البدر إذا لم يعترف      لك بالحسن بوجه حسن  
وكقوله :

أتزودت من ضياء البدور      ليلال كثيفة الديجور  
ومرة هي ظبية وأين بمصر الأطباء ؟  
يا ظبية من طباء الإنس راتعة      بين القصور تعالى الله باريك  
وكقوله :

يا مقرء الغزال قد صح عندي الـ      يوم أني اقتحمت منك العرينا  
ومرة هي مهاة تمشي في سربها :  
وحيثها بين المها إن بدت      في سربها مقبلة مدبرة

إلى غير ذلك من التشبيهات الأثرية التي لا تلائم ذوق العصر ، وليس فيها رائحة من تجديد ، زد على هذا أنه غني كل العناية بوصف محاسن المرأة ومفاتنها الجسمية ، وقلما التفت إلى الجمال المعنوي ، أو تحليل العاطفة ، أو تصوير الحب على حقيقته تصويراً غنياً قوياً . يعجبه من المرأة قوامها المياس المرفه :

تسمي تذكرنا الشباب وعهده      حسناء مرهفة القوام فنذكره  
ويعجب بنحرها ، وبثناياها ويشبه الثنايا بالدر :

وتبيت تكفر بالنحور قلائد      فإذا دنت من نحرها تستغفر  
وتزيد في فمها اللالي قيمة      حتى يسود كبيرهن الأصغر

وثرها مورد عذب غني به عن كل مورد آخر :

يا موردا كنت أغنى ما أكون به      عن كل صاف إذ ما بات يثروني  
عندي لمائك — والاقداح طوع يدي      ملأى عن الماء — شوق كاد يثرديني

ويفتن بشعرها الأسود المعقوص :

أرسلني الشعر خلف ظهرك ليلا      واعقديه من فوق رأسك تاجا  
أنتِ في العاليتين بكدرٌ تراه      صادعا آية الدجى وهاجا

وقد يقال إن لصبري قطعة أخرى غير هذه ، فيها حرقة الجوى ، ولهيب  
الشوق ، وجمر الحب ، وفيها التوجع والشكوى وفيها العاطفة المشبوبة من  
مثل قوله :

يا آسي الحي هل فتشت في كبدي      وهل تبينت داء في زواياها  
أواه من حرقٍ أودت بأكثرها      ولم تزل تتمشى في بقاياها  
يا شوق رفقا بأضلاع عصفت بها      فالقلب يخفق ذعرا في حناياها

أجل ؟ إن هنا حرقة ، وداء يرمى في كبده ، وشوقا قد عصف بأضلاعه ،  
وقلبا يخفق ذعرا ، ولكن هنا أيضا زوايا ، وبقايا وحنايا ، وآثارا قديمة من مخلفات  
الماضي ، ومن أثر محفوظه من الشعر العربي القديم ، وقال البهاء زهير في  
( الزوايا ) وما فيها •

ويميل بي نحو الصُّبا      قلب رقيق الحاشيه  
فيه من الطرب القد      يم بقية" في الزاويه

وله في المعنى الذي ذكره، صبري في البيت الثاني :

لك الحياة فإني      أموت لا شك عشقا  
لم يبق مني إلا      بقية ليس تبقى

وإذا قال صبري في قطعة أخرى فيها شيء" من وهج اللوعة •

أبتك ما بي فإن ترحمي      رحمت أخا لوعة ذاب حبا  
وأشكو النوى ما أمر النوى      على هائم إن دعا الشوق لبى  
وأخشى عليك هبوب النسيم      وإن هو من جانب الرّوض هبّا  
واستغفر الله من برهة      من العمر لم تلقني فيك صبا



تعالى نجدد زمان هنا      ء وتنهب ليليه الغر نهبا  
تعالى أذق بك طعم السلا      م وحسبي وحسبك ما كان حربا

لم أجد خيراً من تعليق الأستاذ العقاد عليها بقوله « إن صبري لم يذب حبا هنا إلا كما ذاب كل قاهري ظريف يقول لصاحبه • (أنا أذوب) وأنه لم يخف على صاحبه هبوب النسيم من جانب الروض إلا كما يخشى كل قاهري ظريف من الهواء وما هو أرق من الهواء • وإنما هو إسماعيل صبري في صميمه ، وحقيقة نجواه حين يقول لها : إنه تعب من الموعة ، وكل من الحرب ، ولا أمل له في غير السكينة والسلام <sup>(١)</sup> » •

وهذه الأبيات محاكاة لما قيل من قبل في هذه المعاني ، وليست منبعثة عن عاطفة قوية ، وأغلب الظن أن صبري لم يكن يعبر عن خلجات فؤاده ، وإنما كان إذا أراد القول في الحب ازدحمت على مخيلته تلك الصور القديمة التي وعثها ذاكرته فرددها ، وأعادها إلى الحياة لا تنطق عن جوى كامن في فؤاده ، أو تنقل قبساً من روحه ، وكيف تكون كذلك وهي رداء صنع لغيره ، ورث من قبل أن يتناوله ، ومرة يجيء وفق ما يريد من معنى ، وما يجيش في قلبه من فكرة وعاطفة وأحيانا يضيق • وأخرى يتسع • ألا ترى معي أن الشكوى من النوى وتلبية الشوق إذا دعا عبارات لا لكنها السنة القدماء حتى ملتها الأسماع ؟ أولا ترى أن مسألة الخشية من هبوب النسيم على المحبوبة ولو هب من جانب الروض فيها مبالغة سخيفة ثم هو معنى قديم وحسبي أن أذكر قول الشاعر :

خَطَرَاتِ النسيم تجرح خدي      ٤ ولمس الحرير يدمي بنانه

وقد عارض صبري قصيدة الحصري القيرواني <sup>(٢)</sup> التي مطلعها :

يا ليل الصب متى غده      أقيام الساعة موعده

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٢٦ •

(٢) القيرواني هو أبو الحسن علي بن عبد الفني الفهري المقرئ الضريع الحصري القيرواني الشاعر المشهور ، وقد على جزيرة الاندلس في منتصف المائة الخامسة وتوفي بطنجة سنة ٤٨٨ هـ ، وهو صاحب زهر الاداب ، وقد عارض قصيدته كثيرون في القديم والحديث منهم في عصرنا شوقي ، وولي الدين يكن ونسيب ارسلان وصبري وغيرهم •

فقال في قصيدته المشهورة :

أقرب من دَنَفٍ غده      فالليل تمرّد أسوده  
والتفت تحت عجاجته      بيض في الحي تؤيده

وهي قصيدة في الغزل ، ولكن فكرة المعارضة توحى بأنه لم يقلها استجابة لانفعال خاص ، أو فيضا لعاطفة ملتهبة ، وإنما قالها ليدل على أنه يستطيع أن يجيد كما أجاد القيرواني ولكن هيهات ! فنظرة عابرة إلى القصيدتين تريك أن صبري لم يستطع الفكاه من معاني قصيدة القيرواني وصورها ، وأنها غلبته على أمره فرددها ، لا ! بل كان مضطربا شأن من وقع في شباك متينة يحاول الخلاص منها فلا يتأتى له ، بل تأتت صورة مسموخة • انظر إلى هذا الاضطراب في قوله :

كم شغفتُ التبرَ له شركا      وقضيتُ الليلَ أنضّده  
وأشاور شوقي بل أدبي      هل أقصر أم أتصيدّه

فهل تجد معنى للمشاورة بعد أن مد الشرك فعلا ، ونصب الجبال لصيده ، ثم ألا يذكر هذا الشرك المصنوع من الذهب بشرك ابن الوردي حيث يقول :

ورب غزالة طلعت      بقلبي وهو مرعاها  
نصبت لها شباكا من      لجين ثم صِدّهاها

وإذا قلت : إن شرك صبري من ذهب وشرك ابن الوردي من فضة ، وشتان ما بينهما فاستمع إلى شاعر آخر نصب شركا من ذهب هو الأمير ( منجك ) يقول على لسان من يحبه :

لا تنقضي لك حاجة      عندي بشعر أو طرب  
إن رُمّت صيدي في الهوى      فانصب شراكا من ذهب

ولست أريد أن أتبع القصيدة فحسبي ما ذكرت منها ، وهو دليل على سائرها ولا أدل على أن كثيرا من غزل صبري محاكاة ، من قوله :

يا وامض البرق كم نبهت من شجن      في أضلع ذهلت عن دائها حينا

فالماء في مثقل ، والنار في متهج قد حار بينهما أمر المحينا  
لولا تذكر أيام لنا سلفت ما بات يبكي دماً في الحي باكينا  
يا نسمة ضمخت أذيالها سحراً أزهاراً أندلس هبي بوادينا

وهو يقولها رداً على قصيدة شوقي الأندلسية « يانائح الطلح » وتعجب كيف أن صبري في أخريات حياته ، وبعدما سمع عن الشعر الحديث وقرأ منه لا يزال يردد البرق في شعره وأنه ينه شجنه ، مقتفياً أثر العرب وهم في صحرائهم يوم كانوا يحتفلون بالبرق الذي يبشر بسحاب ممطر ، فيه الحيا والحياة ، فيهتزون طرباً لرؤياه ، ويتذكرون الحبيبة الغائبة ، التي يودون أن تشاركهم هذه المسرة ، أما في القاهرة فلا محل لذكر البرق والمطر .

ومما يدل على التكلف قوله : « فالماء في مقل ، والنار في مهج » وحديث الماء والنار قديم جداً في الأدب العربي ، وقد أبدع الشريف الرضي في هذا المعنى حين قال :

الماء في ناظري ، والنار في كبدي إن شئت فاغترفي ، أو شئت فاقتبسي  
أما تلك النسمة المضخمة الأذيال فقديمية كذلك ، وهي تشبه أذيال الصبا عند ابن معنوق حين يقول :

وتنفّس النّسرين من عبق منه بأذيال الصّبا عطر

هذا ما كان من أمر الغزل ، وقد تبين لك أن جلّه محاكاة ، وندر أن تجد فيه شيئاً من صدق العاطفة . أما الوصف فهو فيه مقلّ جداً بحيث لا تجد له في باب الوصف إلا قصيدة واحدة في البرق والسحاب ، ومقطوعة في ثلاثة أبيات في وصف النيل ذكرناها في غير هذا الباب عند الكلام في موقف الشعراء من الطبيعة المصرية وذكرنا أنها مسروقة من ابن خروف النحوي الأندلسي (١) .

وقصيدة البرق والسحاب مما سبق أن أتى عليه الشعراء ، ولا سيما والبرق في مصر نادر . وليس فيها ما يستحق الذكر إلا تذكره لعهد الشباب ، وفي هذه القصيدة يقول :

(١) راجع ص ١٦٦ من هذا الكتاب ، والأبيات المذكورة في بغية الوعاة للسيوطي ص ٣٥٤ مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ .

أبرق يتوَّج هام الربا وإلا فهاتيك نار القرى  
 كأن سناء عيون" مراض يحاولن تحقيق شمس الضحى  
 وإلا فتلك مصاييح قبل اذ طفاء يثَّرن لضدع الدجى

وهذا كما ترى خيال بدوي ، سبق إليه امرؤ القيس وغيره ، وأين نار القرى  
 بمصر توقد فوق رءوس الربى لجلب الضيفان ؟ ولعلك تتذكر وصف امرئ  
 القيس للبرق بقوله :

يضيء سناء أو مصاييح راهب أمال السليط بالذئبال المقتل  
 اما الأبيات التي يذكر فيها عهد الشباب فهي :

سقى رِيها العذب عهدَ الشباب فقد كان روضاً شهياً الجنا  
 إذ العيش كالغصن في لينه يميل بعبد ثمار المنى  
 أقبليَ كم ذا توالى الحنين وكم ذا يشوقك عصر الصبا  
 رويدك إني رأيت القلوب تفتَّر من ذا ومن بعض ذا  
 صحبتَ الأسى بعد ذاك الزمان كأنك مستعذب" للأسى

وليس في هذه الأبيات أي صورة جديدة ، فاستمطار السحب على العهود  
 السعيدة الماضية جلباً للرحمة خيال بدوي قديم ، وتشبيه العيش بالغصن الرطب  
 مما أكثر الشعراء من ذكره ، وربما كان في هذه القصيدة بعض العاطفة الحزينة ،  
 ولكنها ليست عميقة ولا قوية •

وعجيب من صبري ألا يعنى بالوصف ، وهو أدلُّ ابواب الشعر على قوة  
 الشاعرية ، وعلى تحرر الشاعر من قيود المجتمع ومجاملاته ؛ لأن الوصف لا باع  
 له إلا انفعال الشاعر للجمال أو الخير ، لكن صبري كان يرسف في أغلال التقليد  
 فلم يستطع الفكاه من قيود المجتمع ومجاملاته ، مادحاً ، أو رائيئاً أو مقرظاً ، أو  
 متغزلاً في سيدة النادي الذي يغشاه وفي أمثالها •

هذا وباب الاجتماع لدى صبري باب" قصير ، وكله شخصي ، ينظر فيه  
 الشاعر إلى نفسه قبل أن ينظر إلى من حوله ، وكله نظرات حزينة وتبرم بالناس ،  
 واستجلاب للسخط على الحياة وساكنيها • استمع إليه يقول في الشباب والشيب :

لم يدر طعم العيش شبا ن" ولم يدركه شيب

جهلٌ يضلُّ قوى الفتى      فتطيشُ والمرمى قريب  
وقوى تخور إذا تشب      ث بالقوى الشيخ الأريب  
ينى يقال كبا المنه      ل إذا يقال خبا اللبيب  
أوَّاهُ لو عقل الشبا      ب وآه لو قدر المشيب

وإذا لم يدر طعم العيش شبان ، ولم يدركه شيب ، فمن يدريه ؟ هل يقصد أن طعم الحياة لذتها لا يدركها أحد أبداً لا الشبان ولا الشيب ؟ وما حد الشباب عنده ، وما حد الشيب ؟ إذا كان الأمر كما يصوره صبري فلا كانت الدنيا ولا كان السعي فيها . أليس بين عهد الشباب الجامح ، وضعف الشيخوخة مرحلة طويلة من العمر ، وفسحة من الأجل يتمتع فيها الإنسان بالحياة على هينة ، ويدرك مغزاها تمام الإدراك ؟ وهل العبرة بالسِّنِّ ، أو العبرة بالشعور ؟ . كم من فتى في ريعان العمر يشعر إزاء الحياة شعور الشيخ الذي هدَّه المرض ، وأثقلت تكاليف السنين ، وكم من شيخ لا يزال فتى القلب ، نضر الآمال .

وإذا تركنا البيت الأول وجدنا الأبيات الأربعة التالية تدور كلها حول معنى واحد ، وهو أن الشباب سن الطيش ، كثيراً ما يخطئ فيه الإنسان لحماقته وغروره واندفاعه ، وعدم تحكم القوى العاقلة في أمور نفسه ، وأن المشيب سن الضعف تخون الإنسان قوته ، ويود ، وما وده بنافع له ، لأنه لا يملك الإرادة المنفذة ، ولا العزيمة المبرمة .

أما أن الشباب مظنة الخطأ والجهل فمعنى قديم ، وفي ذلك يقول النابغة :  
« وإن مطية الجهل الشباب » ويقول العتبي :

قالت عهدتك مجنوناً ، فقلت لها      إن الشبابَ جنونٌ برؤه الكبير

وأما أن المشيب زمن الضعف ، وانطفاء الآمال فمعنى رددته غير واحد من الشعراء ، ومن أحسن ما قيل في هذا قول أبي العلاء :

شقياً لأيام الشبا      ب وما حسرتُ مطيتي  
أيام آمل أن أمس ال      فرقدين براحتي  
فالآن تعجز همتي      عما ينال بخطوتي

ومن خير قصائده الاجتماعية قصيدته التي قالها في مذهب ( هالي ) وقد سبقت الإشارة إليها ، وفيها ينعي على الناس فساد أخلاقهم ، ويستمطر شائب السخط والغضب على هذه الدنيا ، وما فيها من وجوه كالحة كئيبة ، ويصور في براعة بطش القوي بالضعيف شأن الدنيا في تنازع البقاء ، وفي ذلك يقول :

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| غاض ماء الحياة من كل وجه      | فغدا كالحَ الجوانب قفرا       |
| وتفشى العقوق في الناس حتى     | كاد ردُّ السلام يحسب برا      |
| أوجه" مثلما نثرت على الأجداد  | ث وردا إن هنَّ أبدين بشرا     |
| وشفاه" يقلن : أهلا ، ولو أديذ | ن ما في الحشا لما قلن خيرا    |
| عمرك الله هل سلام وداد        | ذاك أم حاول المسلم أمرا       |
| عميت عن طريقها أم تعامت       | أمم في مفاوز الجهل حيرى       |
| غرَّها سعدا ومن عادة السم     | د يؤاتي يوما ويخذل دهرا       |
| فتجنست على الشعوب وشتت        | غارة في البلاد من بعد أخرى    |
| نسيت في الصعود يوم التدلي     | والتدلي بصاعد الجدِّ مغرى     |
| تعب الفيلسوف في الناس عصرا    | وتولى السرائر الدين عصرا      |
| والورى طارد" إزاء طريد        | وعقاب" يسمي يطارد صقرا        |
| عبر" كلها الليالي ، ولكن      | أين من يفتح الكتاب ويقرا      |
| أنت نعم النذير يا نجم هالي    | ز كنزل السهل والرواسي ذعرا    |
| ظن قوم فيك الظنون وقالوا :    | آية " أرسلت إلى الأرض كبرى    |
| إن يكن في يمينك الموت فاقذف   | ه شواظا على الخلائق طرا       |
| أعدا تستوي الأنوف فلا ين      | ظ قوم" قوما على الأرض شزرا    |
| أعدا يصبح الصراع عناقا        | في الهيولي ، ويصبح العبد حنرا |
| إن يكن كل ما يقولون فاصدع     | بالذي قد أمرت حشيت عشرا       |

هذا موضوع مغر بالشعر حقاً ، وهو المأساة الإنسانية ، أو المهزلة الإنسانية

إن شئت ، وفي استطاعة الشاعر المركب الشخصية أو المعقد الشخصية أن يجعل من هذا الموضوع تحفة فنية رائعة ، بتصوير آلام الإنسانية تصويراً دقيقاً زاهياً تنفطر منه القلوب وتدمى العيون ثم تصوير ذلك النزاع البشري الطويل من لدن آدم حتى اليوم ، وما في الحياة كلها من مظاهر قانون تنازع البقاء .

ولكن كيف يتهياً لصبري هذا ، وهو شاعر مفرد الوتر ، سطحي الشعور أن يبدع في هذا الموضوع أو شبهه . وليس معنى هذا أنه لم يقل شيئاً بل إنه قال على قدر استطاعته ، وإذا علمنا أن صبري لا يستطيع نظم المطولات ، ويعيا بها عرفنا السبب في تقصيره ، إنه مسء برفق آلام الإنسانية ، وساق كثيراً من أبيات الحكمة ورجع في كثير من معاني القصيدة إلى الشعر القديم والاستعانة به على تأدية أغراضه مثال ذلك قوله : « غاض ماء الحياة من كل وجه » وكثيراً ما تكلم الشعراء في ماء الحياء هذا :

كثير حياء الوجه يقطر مأوه      على أنه من بأسه النار تلعف  
وأما عن ملق الناس ونفاقهم الذي عبر عنه بقوله :

وشفاه" يقلن أهلاً ولو أدّين      ن ما في الحشا لما قلن خيرا

فقد قال الله سبحانه وتعالى وهو أكرم القائلين : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » ، وقديماً قال الشاعر :

يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً      ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

وأما غرور الأمم ونسيانها في حَمِيًّا انتصارها أن سيأتي يوم تدال فيه إن لم تحط ملكها بالعدل والرحمة والاعتدال في كل شيء فمأخوذ من قول الشاعر :

ما طار طير" وارتفع      إلا كما طار وقع

والمغالبة في الحياة ، والمزاحمة على مواردها ، وانتصار القوي على الضعيف شريعة الوجود منذ نشأة الإنسان ، وقديماً قال الشريف الرضي :

والناس أسد" تحامي عن فرائسها      إما عقرت ، وإما كنت معقورا

وهكذا كل معاني القصيدة إلا النادر من مثل قوله :

أوجه مثلما نثرت على الأجدا      ث ورداً إن هنّ أبدين بشرا  
أغداً يصبح الصراع عناقا      في الهولي، ويصبح العبد حرا

فالصورة في البيت الثاني رائعة : لأن الإنسان قد يتصور هذا الصراع البشري العنيف وقد استحال بعد الموت وآثاره عناقاً وضماً والتزاماً بين بقايا البشرية وأنقاضها ، أو بين موادها المنحلة المتناثرة ، وقد جاور بعضها بعضاً ، لا فرق بين ملك وسوقة ، ولا ظالم ولا مظلوم ، وقديماً قال المعري في المنايا ، وأنها تفرق بين الرأس والرجل ، والقدم والرأس :

فكم قارن من رأس برجل      وكم ألحقن من قدم برأس

وكان إسماعيل صبري يرى الاختصار على زوجة واحدة ، وهو بهذا من أنصار قاسم أمين ، وقد عبر عن رأيه شعراً ونثراً ، أما الشعر فقوله :

يا من تزوج بائنتين ألا اتند      ألقيت نفسك ظالماً في الهاوية  
ما العدل بين الضرتين بممكن      لو كنت تعدل ما أخذت الثانية

وأما النثر فقوله : « أحب التوحيد في ثلاثة : ( الله ) و ( المبدأ ) و ( المرأة ) »

ولم يخض في مسألة السفور والحجاب كما ذكرنا آنفاً ، ولعل رأيه يتضح من قوله : أحب الحرية في ثلاثة : « حرية المرأة في ظل زوجها ، وحرية الرجل تحت راية الوطن ، وحرية الوطن في ظل الله » . ولا شك أن حرية المرأة في ظل زوجها هي ما شرعه الإسلام ولكن هذه جملة مبهمة لا تفيد كثيراً في معرفة رأيه .

هذا كل ما نستطيع أن نأخذه من باب الاجتماع عند صبري ، ومنه نرى أنه شاعر لا فكرة له في المجتمع وإصلاحه ، وإنما هي بعض الشكوى والتبرم ، والشكوى والتبرم ليسا مذهباً إصلاحياً ، ولا فلسفة يدين بها الشاعر ؛ لأنها عمل سلبي . ومعظم شعرائنا ، وللأسف — لا أخص صبري وحده — ليس لهم فلسفة يدور حولها شعرهم ، ولا فكرة يدعون إليها ، كما هو الحال عند شعراء الغرب البارعين ، لا أولئك الذين يخدعون الناس بعبارة ( شعراء الفن للفن ) ليهرفوا بما



لم يعرفوا ، وليقولوا ويأمنوا النقد . وما أظن صبري ولا سواه ممن اختفت لديهم الفكرة الجامعة ، والمبدأ القويم الذي يدور حوله شعرهم كانوا يفكرون في مسألة ( الفن للفن ) ، لأن الشعر عندهم كان ملماً ، وخطرات ترد على الذهن ، فينشأ منها انفعال عارض يدفعهم إلى قول بضعة أبيات أو قصيدة .

هذا وسياسات صبري من قبيل الفكاهة والنكتة ، لا تعرف له مبدءا يدين به ، أو حزبا ينتمي إليه ، وإن كانت فيها سخرية مرة أحيانا وتهكم لاذع بهؤلاء الذين مالوا الاحتلال ، أو لم يخلصوا لأنهم فيما استأنتهم عليه من عمل أو وزارة . وهي أشبه بالصور الهزلية ( الكاريكاتورية ) منها بالصور الحقيقية ، خذ مثلاً قوله في مصطفى فهمي ، وهو من عرفت فيما سبق : نصيراً قوياً للمحتل ، وعدواً لرغبات الأمة وأمانيتها الوطنية ، ولا أدل على ذلك من أنه مكث في الوزارة ثلاث عشرة سنة ، ووعيد الاحتلال راض عنه ، لأنه كان أشد منه حماسة في توطيد أقدام الإنجليز بمصر ، فلما سقطت وزارته بعد ذلك الأمد الطويل في تاريخ الوزارات سنة ١٩٠٨ قال إسماعيل صبري .

عجبت لهم قالوا : سقطت ومن يكن  
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى  
مكانك يأمن من سقوط ويسلم  
وحرمت خوف الذل ما لم يحرّم

وقال على لسان مصطفى فهمي هذا عند استقالته ، مشيراً إلى أنه لم يجد في مصر رجالا ولو وجد فيها رجالا ما تركوه في الوزارة طوال هذه المدة ، يعين عدوهم عليهم ، ويستتر وراء اسمه لتنفيذ أغراضه ، وتوطيد سياسته ، وأنه لم يستقل إلا بعدما أراد قومه أن يكلفوه ما لم يرض ، وهو ألا ينصاع لما يريده المحتل الغاصب :

إني أستغفر الله لكم  
فكل غربي ما أرى من نومكم  
ورضاكم بوجود الاحتلال  
صارخاً حتى تولاني الكلال  
لم أجد فيكم فتى ذا همّة  
رحم الله وزيراً سامه  
آل مصر ليس فيكم من رجال  
إن عدا الدهر عداً ، أو صال صال  
قومه ما ليس يرضى فاستقال

وليس بصحيح أن صوته قد بح من دعوتهم للنهوض ، وأنه كان يرجو أن

يبرز من بينهم فتى ذو همة ، إن عدا الدهر على قومه عدا وإن صال صال . فهذا من قبيل التهكم اللاذع ، لأن مصطفى فهمي كان يريد مصر نائمة ، راضية عن الاحتلال ؛ وإنما الذي قلَّ غربه حقا تلك الثورة العنيفة التي أوجب نارها مصطفى كامل وصحبه ، حتى طوَّحت به وبأضرابه .

ويصور بطرس باشا غالي . بأنه رجل قَلْب ، يلبس لكل زمان لبوسه ، ويعرف من أين تهب الريح فينحني أمامها .

أهلا ببطرس أهلا      بالملتوي المستقيم  
قديم كل جديد      جديد كل قديم

ويقول في احمد حشمت باشا حين تولى وزارة المالية ؛ وكان صبري يرى أنه ليس بكفاء لهذه الوزارة وأنه ظلم حين أسندت إليه ، وأنه لولا الإنجليز ما تولوها

أبعدوا (أحمدًا) وجاءوا بثان      ظلّموه كما أراد العشوم  
فتسلت خزائن المال مظلوم      م تولى ، وجاءها (مظلوم) <sup>(١)</sup>

وهذا النوع من الشعر يؤيد رأينا في شعر صبري ، وهو أنه شعر مناسبات ، ينتمي إلى مدرسة الندماء ، لا يصدر عن عاطفة ، وإنما يقال لخطرة بدت ، أو للتسلية في الندوة ، يتفكه بها الصحب ، ويعجبون للبراعة الفائقة التي مكنت صبري من أن يصور هذه الشخصيات السياسية في مثل ذلك الإيجاز الواضح .

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع موقف صبري من الأتراك والخلافة العثمانية ، ومن الاحتلال ، والحركة القومية ورجالها ، ومن الخديو ورجاله <sup>(٢)</sup> ، وإن كانت قصيدته التي قالها حين اشتد الخلاف بين الأقباط والمسلمين <sup>(٣)</sup> في سنة ١٩١١

---

(١) كان وزير المالية قبل احمد حشمت هو احمد مظلوم ، وقد تلاعب الشاعر بالالفاظ كما رايت .

(٢) راجع ص ١٢٤ - ١٣١ . من هذا الكتاب .

(٣) في ٦ من مارس ١٩١١ عقد الأقباط مؤتمراً بمدينة أسبوط للنظر في حالهم مع المسلمين ، وطلبوا من الحكومة عدة مطالب ظنوا منهم أن المسلمين قد استأثروا بكل شيء في البلاد ، فاجتمع المسلمون في مؤتمر عام توات جلسات خمسة أيام للنظر في حال المسلمين اقتصادياً وأدبياً واجتماعياً وللدرد على مطالب الأقباط ، وثبتت نار الفتنة ، وزادها اشتعالاً من بينهم أن تنفاهم نارها ، وقد أرسل واصف غالي إلى إسماعيل صبري من باريس يطلب منه الوساطة في الصلح لان لشعره منزلة في نفوس المصريين جميعاً .

تدل على بعد نظر ، وحصافة رأي ؛ لأن من مصلحة الأجنبي أن يشتد هذا الخلاف ليمزق وحدة الأمة ، وليدعي أن وجوده ضروري لحماية الأقليات ، وطالما ادعى هذه الدعوى حتى أبطلها الواقع ، ووقفت الأمة كلها صفاً واحداً في ثورة ١٩١٩ تندد به وبأساليبه في التفرقة لأن مصر وطن الجميع ، ولأن الأقباط ظلوا طوال هذه القرون المديدة منذ الفتح حتى اليوم لا يجدون من إخوانهم المسلمين في الوطن إلا كل مودة ، وحسن عشرة . وفي تلك القصيدة يقول صبري :

|                            |                          |
|----------------------------|--------------------------|
| ويحكم ما كذا تكون النصارى  | راقبوا الله بارئ العذراء |
| مصر أتم ونحن إلا إذا قا    | مت بتفريقنا دواعي الشقاء |
| مصر ملك لنا إذا ما تماسك   | نا وإلا فمصر للغرباء     |
| لا تطيعوا منا ومنكم أناساً | بذروا بيننا بذور الجفاء  |
| لا تولوا وجوهكم شطر من عك  | ر ما في قلوبنا من صفاء   |

وهو شعر سامي الغرض ، سهل المعاني ، قريب المأخذ ليفهمه الخاصة والعامة ، ولذلك جاء أشبه بالكلام العادي منه بالشعر الرفيع الذي يفتن فيه صاحبه . ومن القصائد التي أشرنا إليها فيما سبق ، وتنبيء عن غرض شريف من أغراض الوطنية ، والحث على العمل والجد في سبيل رفعة الوطن عن طريق العلم والدأب في تأسيس الدعامات القوية التي يشاد عليها مجد البلاد ، وإن لم تدع إلى الثورة الجامحة ، أو العنف ، وإنما دعت إلى الأخذ بأسباب الإصلاح قول صبري على لسان فرعون :

|                                   |                                 |
|-----------------------------------|---------------------------------|
| لا القوم قومي، ولا الأعوان أعواني | إذا ونى يومَ تحصيل العلا واني   |
| ولست إن لم يؤيدني فراغة           | منكم ، بفرعون عالي العرش والشان |
| ولست جبار ذا الوادي إذا سلمت      | جباله تلك من غارات أعواني       |
| لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا | فماؤه العذب لم يخلق لكسلان      |
| ردوا المجرة كدأ دون مورده         | أو فاطلبوا غيره ريتاً لظمان     |
| وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم      | لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسان    |

أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم  
فالملك أمرٌ وطاعات بسابقه  
لا يثن مستمعا عن طاعة ثان  
جنباً لجنبٍ إلى غايات إحسان

وموضوع القصيدة من الموضوعات القوية ، التي يستطيع الشاعر أن يستحضر فيها تلك المشاهد الرائعة التي وقفها فرعون ، والتي رفع فيها مجد مصر ، ثم يتخذها موعظة وتذكرة لأبنائها في الوقت الحاضر ؛ إذ ليس هذا من الشعر الذاتي ، وإنما هو من الشعر الموضوعي ، والشعر الموضوعي ينطلق فيه الشاعر انطلاقاً قوياً إذا نهأت له الشاعرية المبتكرة المتبدعة .

ويجب أن يكون الخيال في هذا النوع خيالا معنوياً مبتكراً كما تقدم لك في غير هذا الموضع <sup>(١)</sup> ، ولكن شاعرية صبري عجزت عن أن تنهض بمثل هذا الموضوع ، وجاء شعره كثير التناقض ، قريب المعاني ؛ ضحل الغور ، داني الخيال . فمن التناقض البيّن قوله في البيت الثاني : « ولست إن لم تؤيدني ... الخ » فهو يظهر الاعتماد على قومه ، وأنه ليس بفرعون العظيم إذا لم يكن كل فرد في شعبه فرعوناً آخر يؤيد عرشه ويدعمه ، وفضلاً عن أن هذا المعنى من المعاني الظاهرة ، وأنه ترديد لقول ذي القرنين في القرآن « فأعينوني بقوة » فإنه مخالف لطبيعة فرعون ، وما أثر عنه ، ولسنا هنا بصدد مناقشة الحقائق التاريخية ولسنا من دعاة التمسك بها إذا كانت مخالفتها إلى خير ، ولكن صبري تقض هذه الفكرة بقوله فيما بعد :

أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم لا يثن مستمعا عن طاعة ثان

فهنا يظهر فرعون على حقيقته التي عرفت عنه في قوله : « أنا ربكم الأعلى » هنا يأمرهم فرعون أن يطيعوه ، ويحذرهم بعنف ، ويتوعدهم في صلف « لا يثن مستمعا عن طاعة ثان » ، فأين هذا من فرعون الأول المتواضع الذي يدعي التماثل بينه وبين قومه بأن جعلهم فراعين مثله يؤيدون عرشه ، وأنه ليس بشيء إذا لم يحدث هذا التأيد ؟

ثم ألا تشعر بأن كلمة ( يوم تحصيل العلا ) ليست من الكلمات الشعرية ،

(١) راجع ص ٣١٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

وأنها مأخوذة من لغة رجال الدواوين وطلبة العلم ، وأنها ذهبت بروعة البيت •  
وفي البيت الرابع يقول : « إن ماء النيل لم يخلق لكسلان » ولست أدري لم  
خصص ماء النيل ، وكل شيء في الكون صغيرا كان أو كبيرا لم يخلق إلا لذوي  
الهمة والمضاء ، وخلق بالكسلان ألا يذوق جرعة من النيل أو غيره ، وأن يحرم  
كسرة الخبز ، وعلى كل فمعنى البيت ليس باهراً قوياً ، وإنما هو من المعاني الدارجة •

وفي البيت الخامس « ردوا المجرة كدأ دون مورده » أدعاء بأن المجرة نهر  
يشرب منه • ومعنى البيت ، إن كنتم من الكسالى العاجزين فدعوا النيل لا تقربوا  
ماءه ، واصعدوا إلى السماء لتشربوا من نهر المجرة ، أو اطلبوا مورداً آخر غيره •  
ولست أدري كيف يتأتى لهؤلاء العاجزين أن يردوا المجرة كدأ ، إلا على معنى أن  
يقول لهم • موتوا ظمأً ، وذلك لاستحالة صعودهم إليه ، وذلك مستحيل عليهم وعلى  
سواهم • فأنت ترى أن المعنى غير واضح ، وذو تناقض •

وإذا نظرت إلى قوله : « وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم • • البيت » وجدته  
لم يقل شيئاً أكثر مما قيل من قبل :

بنبي كما كانت أوائلنا      تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ومن قول الشريف الرضي :

من معشر أخذوا الفضلى فما تركوا      منها لمن يطلب العلياء متركا

ومن الأبيات القوية في قصيدة صبري هذه :

مادت لها الأرض من ذعر ودان لها      ما في المقطم من صخر وصوان  
لو غير فرعون ألقاها على ملأ      في غير مصر لعدت حلم يقظان  
لكن فرعون إن نادى بها جبلا      لبَّتْ حجارتُه في قبضة الباني

ولست أوافق الشاعر أحمد محرم في انتقاده عبارة ( حلم يقظان ) وأنها من  
العبارات الجديدة في اللغة ، وكيف يحلم اليقظان • • الخ (١) •

وأحلام اليقظة من الموضوعات التي غني بها علم النفس الحديث ، وقد ظهر

فيه كتاب ممتع في هذه الأيام<sup>(١)</sup> ، وحرمان اللغة هذه التعبيرات الجديدة التي لها مدلولات علمية خاصة تعسف مضر باللغة .

والمعنى في البيت الثالث على روعته سبق إليه المعري في قوله :

وأقسم لو غضبت على ثبيرٍ لأزعم عن محلته ارتحالا  
ويقول صبري في القصيدة :

وأزرتة جماهير" تسيل بها بطاحٍ وادٍ بماضي القوم ملآن  
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل جنأ تطير بأمر من سليمان  
برأ بذى الأمر، لا خوفاً ولا طمعاً لكنهم خلقوا طلاباً إتقان

الصورة في البيت الأول تمت بصلة إلى قول الشاعر : « وسالت بأعناق المطي  
الأباطح » وتشبيه القوم المهرة بالجن تشبيه قديم تردد كثيراً على ألسنة الشعراء  
من ذلك قول النابغة :

سَهْكِينَ من صَدَأِ الحديد كأنهم تحت السنور جنة البقار<sup>(١)</sup>

وقول عنتره :

لا أبعد الله عن عيني غطارفة إنساً إذا نزلوا ، جنأ إذا ركبوا

ويظهر إسماعيل صبري في أحسن حالاته الشعرية حين يقول :

أين الألى سجلوا في الصخر سيرتهم وصغروا كل ذي ملك وسلطان  
بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طي أخبار وأكفان  
وخلفوا بعدهم حرباً مخلدة في الكون ما بين أحجار وأزمان  
وزحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا عليهم العلم ، ذاك الجاهل الحاني  
ويل" له ، هتك الأستار مقتحما جلال أكرم آثار وأعيان

(١) هو كتاب احلام اليقظة للدكتور جورج جرين ، وترجمة الاستاذ إبراهيم حافظ ، ومراجعة الاستاذ زكي المهندس .

(٢) السهكة : رائحة كريهة من صدا الحديد على الابدان ، والسنور : السلاح التام ، والبقار : واد من اودية العرب اشتهر عندهم بالجن .

للجَهل أرجح منه في جهالته إذا هما وُزنا يوماً بميزان

وهذه الأبيات تدل على نزعة قومية في نفس صبري وإن جرى في بعض هذه لأبيات في اثر البارودي في قصيدته التي مطلعها (١) :

سل الجيزة الفيحاء عن هَرَمي مصر لعلك تدري غيباً ما لم تكن تدري

وازدراؤه العلم الذي انتهك حرمان تلك الآثار الغالية واقتحم جلالها ، وتفضيله الجهل البريء عليه معنى بديع جداً من صبري ، لأن العلم لم يستطع حتى اليوم على الرغم من تبججه أن يكشف عن كل عظمتهم ، وأن يصل إلى بعض أسرارهم ، ورحم الله أبا العلاء المعري حين قال :

إذا علمي الأشياء جرّ مضرّة إليّ فإنّ الجهلَ أن أطلب العلما

فالجَهل بأسرار المصريين القدماء قد أضفى على آثارهم هالة من المجد الغامض ونظرة من التقديس ، أما العلم فقد حاول أن يفسّر هذه الأسرار ويدنيها من عقول المعاصرين ، وهذا يذهب من روعتها وقديسيّتها .

وتعد هذه القصيدة على الرغم مما ذكرت لك من أحسن شعر صبري ، بل من أحسن الشعر الحديث ، في غرضها ومعانيها وديباختها ، وحسبه هذا فخراً .

ومن الأغراض التي عقد لها باب خاص في ديوان صبري « الشكوى من الحياة » وهي من باب الزهد ، وذم الدنيا ، وتدلل على نظرة متشائمة . وهكذا كان صبري متبرماً بالحياة ، راغباً عنها يتمجّل الموت ، ويتمناه ، كما كان غير راضٍ عن الناس ، شأنه في ذلك شأن بعض الزاهدين الحكماء أمثال أبي العلاء ، وأبي العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس وغيرهم ، وإن لم يبلغ مبلغهم في زهدهم وفلسفتهم الحكيمّة .

ومن القصائد الطريفة التي وردت في هذا الباب قوله عن ( الساعة ) وقد دخل مرة كنيسة ( رمس ) المشهورة بفرنسا ، فرأى مكتوباً على عقرب إحدى

(١) راجع الجزء الأول من كتاب الأدب الحديث ص ٢٠٦ ط سادسة .

ساعاتها ما ترجمته : « كلهن جارحات ، والأخيرة القاتلة » يريد ساعات العمر ، والساعة الأخيرة ، فأوحت إليه هذه العبارة بالمعاني التي أتى بها في قصيدة ( الساعة ) .

|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| كم ساعةٍ آلمني مسها      | وأزعجتني يدها القاسيه     |
| فتشت فيها جاهدا لم أجد   | هنيئة واحدة صافيه         |
| وكم سقتني المرء أخت لها  | فرحت أشكوها إلى التاليه   |
| فأسلمتني هذه عَنوة       | لساعة أخرى وبني ما ييه    |
| ويحك يا مسكين هل تشتكي   | جارحة الظفر إلى ضاربه     |
| حاذر من الساعات ويل لمن  | يأمن تلك الفئة الطاغيه    |
| وإن تجد من بينها ساعة    | جعلتها من غصص خاليه       |
| فاله بها لهو الحكيم الذي | لم ينسه حاضره ماضيه       |
| وامرح كما يمرح ذو نشوة   | في قلّة من تحتها الهاويه  |
| فهي وإن بشت وإن داعبت    | محتالة ختالة عاديّه       |
| عناقها خنق وتقييلها      | كما تعض الحية الباغيه     |
| هذا هو العيش قتل للذي    | تجرحه الساعة والثانيه     |
| يا شاكي الساعات أسمع عسى | تنجيك منها الساعة القاضيه |

وهي قطعة طريفة ، جسّم فيها الساعة الزمنية ، ووهبها شيئا من الحياة ، فصارت تسقيه المر ، وتسلمه إلى أختها التي بثها شكواه ، وهذه الساعات فئة باغية ، وقد تكون فيها ساعة جعلتها خالية من الغصص ، فيجب على الإنسان أن يستمتع بها ، ويكون منها على حذر ، فهي غدارة محتالة ، معتدية على الرغم من بشاشتها ، وعناقها خنق ، وتقييلها سم . فهذا التشخيص الذي أضفاه صبري على الساعة ، جعل هذه القطعة حية قوية على الرغم من قرب معانيها ، وأن فيها كثيرا من المعاني المتداولة في عالم الزهد ، وعند الشعراء الذين أكثروا من ذم الزمن والدنيا ، كأبي العلاء ، وأبي العتاهية وأضرابهم . فمثلا قوله : « هل تشتكي جارحة الظفر إلى ضارية » قريب من المثل المشهور « كالمستجير من الرمضاء بالنار » والفكرة التي تدور حولها الأبيات : « فهي وإن بشت وإن داعبت .. الخ » مأخوذة من قول الشاعر :



دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدا

ونصيحته هذه بأن ينتهز الإنسان الفرصة المواتية ، وساعة الصفو فيغتنمها ويتمتع بها ما استطاع إلى ذلك سبيلا مذهب طرفة بن العبد ومن أتى بعده منذ قال :

«ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغي وأن أشهد اللذات هل أنت مغلدي»

وهذه الشكوى من الحياة وتمني الموت يرددهما صبري في شعره ، وله أبيات عنوانها ( راحة القبر ) يقول فيها :

|                              |                          |
|------------------------------|--------------------------|
| إن سئمت الحياة فارجع إلى الأ | رض تتم آمنة من الأوصاب   |
| تلك أم أحنى علك من الأ       | م التي خلقتك للأتعاب     |
| لا تخف فاللمات ليس بمأح      | منك إلا ما تشتكي من عذاب |
| وحياة المرء اغتراب" فإن ما   | ت فقد عاد سالما للتراب   |

وهذه نظرة سوداء للحياة ، وفرار من ميدان النضال ، لا تصدر إلا من نفس ضعيفة خوارة ، وصبري كان يؤثر السلامة دائما في كل أموره ، فأولى به أن يهرب من الحياة إن وجد فيها سأمًا ومللا . وما أشبه البيت الأول بقول أبي العلاء .

ضجعة الموت رقدة يستريح ال

ومعنى البيت الثاني وهو أن الأرض أم أحنى علينا من أمانا التي خلقتنا للتعب فيه روح أبي العلاء ونفسه ، وهو تارة يدعو التراب أبا .

والثرى نقليه ظلما وهو والدنا

وكم لنا فيه من قربى ومن رحم

وتارة يدعوها أبا :

|                    |                      |
|--------------------|----------------------|
| أتعلم الأرض وهي أم | خف زمان" فما ازدهاها |
| بأي جرم ، وأي حكم  | سلط ليث على مهاها    |

وفي معنى البيت الثالث قال الشريف الرضي :

فإن لم يكن فرج في الحياة فكم فرج في انقضاء العمر

وقال المنتبي « كفى بك داء أن ترى الموت شافياً » ، وكذلك ليس في البيت الأخير جدة وقد قال المعري من قبل :

قد طال سيري في الحياة      ولي يبطن الأرض منزل

ولصبري غير هذه القطعة في شكوى الحياة ما يخرج في معناه عنها ، فالتقبور مواطن الراحة ، والميت هو ميت الأحياء :

مقابر من ماتوا مواطن راحة      فلا تك إثر الهالكين جزوعاً  
وإن تبك ميتاً ضمه القبر فادخر      لميت على قيد الحياة دموعاً

ولصبري بعض المقطوعات يناجي بها الله سبحانه وتعالى ، ويسترحمه ، ويطلب منه أن يعفو عن ذنوبه الكثيرة ، وإن شط في بعضها شططاً كبيراً كقوله :

يا رب أين ترى تقام جهنم      للظالمين غداً وللأشرار ؟  
لم يبق عفوك في السموات الملا      والأرض شبراً خالياً للنار

أجل ! إن رحمة الله وسعت كل شيء ، ولكن هل اطلع صبري على جهنم فلم يجد في الأرض ولا في السماء شبراً خالياً للنار ؟ إن هذا شطط ، فقدرة الله أعظم من أن يحيط بها صبري ، ولا شك أنها بليلة استجار منها بقوله :

يا رب أهلني لفضلك واكفني      شطط العقول وفتنة الأفكار

ويتهكم الأستاذ العقاد بصبري حين يقول :

ومر الوجود يشف عنك لكي أرى      غضب اللطيف ورحمة الجبار  
يا عالم الأسرار حسبي محنة      علمي بأنك عالم الأسرار

فيقول : « أنه يستكني الله الشطط لأنه لا يطيق العناء ، وهو يستطلع الغيب لأنه يتعب من الحيرة ، ويجفل مما وراء الفناء ، وهو يحن إلى المجهول ، ولكنه لا يسمى إليه ، ولا يتجشم المشقة فيه ، بل يسأل الله أن يأمر الوجود ليشف عنه ، ثم

يسأله ان يشف عن لطف إذا شف عن غضب، وعن رحمة إذا تكشف عن جبروت»<sup>(١)</sup> .

ويقول أحمد محرم : « إنه يريد أن يرى الله ، ولكن لغير ما يريدون هم ( المتصوفة ) فهم يطلبون المشاهدة لذاتها وأمثا شاعرنا فيريدها ليشهد نوعا خاصا من الجمال ، وحالة بعينها من العظمة والجلال ، وهو يريد أن يرى الغضب قائما في اللطف ، والرحمة ماثلة في الجبروت .. والعقل والعلم الإلهي على اتفاق في أن هذا الوجود بنوعيه من كثيف أو لطيف لا يقوى أن يحجب الله جل شأنه بل هو كما قال العارفون مرآة قدرته ، ومظهر صفاته »<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً ختم صبري هذه القطعة بقوله :

أخلق برحمتك التي تسع الورى      ألا تضيق بأعظم الأوزار  
وهذا رجوع إلى الثقة بالله بعدما فرط منه . وهو شبيه بقول أبي نواس :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة      فلقد علمت بأن عفوك أعظم  
فهو يشك في رحمة الله طورا :

خشيتك حتى قيل إنني لم أثق      بأنك تعفو عن كثير وترحم  
وطورا يأمل في تلك الرحمة :

عظمت آمالي وصغرت الورى      من ذا لها إن لم تك المأمولا ؟  
وهو لا يَدِلُّ بطاعته على الله :

حاشا لمثلي أن يَدِلَّ بطاعة      فيها مسجلة على الفقار  
أو أن يعد وثيقة ينجو بها      يوم القيامة من يد القهار

لأنه يعتقد أن وجود الله ، أعظم من طاعته وما قدمت يداه :

ما جئت أطلب أجر ما قدمته      حاشا لجودك أن يكون قليلا

ومن الأغراض التي احتلت صفحات عديدة في الديوان ( الرثاء ) ، وقد رثى

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٣٧ .

(٢) مجلة أبولو أكتوبر ١٩٣٤ ص ١٩٩ .

صبري بعض أصدقائه وأبناءهم ، ورثي بعض أعضاء الأسرة الحاكمة ، ورثاء صبري غاص بالحكم والمواظ من مثل قوله :

يا من يَغرُّ بدياه وزخرفها      تا لله يوشك أن يودي بك الغرر  
وقوله في مطلع قصيدته التي يرثي بها توفيق باشا •

نحن لله ما لحي بقاء      وقصارى سوى الإله فناء  
ويكرر قوله أن الدنيا غرارة ، وكل من فيها إلى فناء ، من يعيش ألف عام ومن يعيش أياماً معدودات سواء ، وهو معنى بديهي لا قيمة له ، ولكنه ، عجب به فذكره أكثر من مرة في قوله :

سواء من يعيش الألف فيها      ومن أيامه فيها قليلة  
وفي قوله •

نحن لله راجعون فمن ما      ت ومن عاش ألف عام سواء  
ولا تشعر في رثائه بلوعة الأسى وحرقة العاطفة ، والتفجع والجزع ، شأن الشعراء المرهفي الإحساس ، الجياشي العواطف إلا نادراً ، من مثل مرثيته التي قالها في الإمام الشيخ محمد عبده •

تدفق دموعاً ، أو دما ، أو قوافيا      ماتم أولى الناس بالحزن هاهايا  
أيجمل أن تنعى الفضائل للورى      ولم تك في الباكين ويحك باكيا

وإن كان البيت الثاني قد جاء ضعيفاً متخاذلاً ؛ لأنه لا يبكي إلا لأن ذلك لا يجمل به ، وهو يبكي مشاركة للباكين لا لباعث خاص سواء بكى الناس أم لم يبكوا شأن المحزون الصادق الحزن •

وقد بينا لك فيما سبق موقفه من رثاء مصطفى كامل ، وكيف بكى فيه الصديق ، ولم يبك فيه الزعيم الوطني ، وأن رثاءه هين فاتر ، ومعظم معانيه في الرثاء مأخوذة من مراثي السابقين ؛ ولا سيما شعر الفحول أمثال أبي تمام وابن الرومي ، فمن ذلك هذه الأبيات المشهورة التي يرثي بها ( عمر ) ولد الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد •

يا مالىء العين نوراً والفؤاد هوى  
لا تخل أفقك يخلقك الظلام به  
في الحي قلبان باتا يا نعيمهما  
وأعين" أربع تبكي عليك أسى  
قد كنت ريحانة في البيت واحدة  
ما كان عيشك في الأحياء مختصراً  
فارحل تشيعك الأرواح جازعة  
والبيت أنسا ، تمهل أيها القمر  
والزم مكانك لا يحل به الكدر  
وفيهما إذ قضيت النار تستعر  
ومن بكاء الشكالى السيل والمطر  
يروح فيها ويغدو نفحها العطر  
إلا كما عاش في أكمامه الزهر  
في ذمة القبر بعد الله يا ( عمر )

وقد تأثر في هذه الأبيات برثاء أبي تمام لولدي عبد الله بن طاهر وقد  
ماتا صغيرين •

نجمان شاء الله ألا يطلعا  
إن الفجيعة بالرياض نواضراً  
لهفي على تلك الشمائل فيهما  
إن الهلال إذا رأيت نموه  
ألا ارتداد الطرف حتى يافلا  
لأجل منها بالرياض ذوابلا  
لو أمهلت حتى تكون شمائل  
أيقنت أن سيكون بدرأ كاملا

وإن كان صبري قد تصرف في هذه المعاني ، وزاد عليها ، وألبسها ثوبا رقيقا  
جميلاً • ومن مرثيته المشهورة قوله في رثاء صديقه أمين فكري وفيها يقول :

وهبتك يا دهر من تطلب  
طويت المودة في شخصه  
وأي بديل له أرتضي  
أمين اتند في النوى وارعني  
أتذكر إذ أنت مني النياط  
وإذ نحن هذا لهذا أخ  
حسبت بأنك لي خالد  
أبعد أمين أخ يثضب  
فأي وداد امرئ أخطب ! ؟  
وأي شمائله أندب  
فيني وبينك ما يوجب  
من القلب أو أنت لي أقرب  
وهذا لذا ابن ، وهذا أب  
فكان الذي لم أكن أحسب

ومطلع القصيدة فيه خلل فني واضح ، إذ كيف يهب صبري للموت من يطلب  
— وهو من يحبه — في هدوء شامل وسخاء عميم ؟ وهل يدل هذا على أنه يحبه ؟  
إن المرء يتشبث بمن يحب ، وينازع الموت عليه ، ولو استطاع أن يستخلصه منه  
لفعل ، وهذا هو الشريف الرضي ينبئنا عن شعوره إزاء الموت بقوله :

لو كان يدفع ذا الحمام بقوة      لتكدست عُصَبٌ وراء لوائي  
بمدرّين على القراع تفيئوا      ظلّ الرماح لكل يوم لقاء

ولعلّ صبري يريد أن من مات ( وهو أمين فكري ) كان أعزّ إنسان لديه  
وليس بعده من الإخوان والأهل من يحرص عليه صبري ، فإذا طلب الموت أحداً  
بعده هان عليه أن يجود به ؛ لأنّ الذي كان يحرص هو على حياته قد مات ، وهو  
معنى قديم جداً قاله امرؤ القيس حين بلغه أن بني أسد قتلوا والده :

بنو أسد قتلوا ربهم      ألا كل شيء سواء جلل

ويقول صبري بعد هذه الأبيات شعراً فيه محاكاة غير مرغوبة في عصرنا  
الحاضر للشعر العربي القديم ، ذلك الذي يستمطر السماء على أحداث الموتى ، وقد  
كان مقبولا في الصحراء التي يشح فيها المطر ، والذي يعد فيها الفيث رحمة •  
استمع لصبري يقول :

ويا تربةً حلّ فيها الأمين      لأنت الفراديس أو أخصبُ  
حبست على رحمت الرحيم      وجاءك رضوانه الصَّيبُ  
ولا زالت السحب منهلة      وأنت لأذيالها مسح

وتشبيه القبر بالروضة ليس بالجديد ، وقد قال تمام :

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة      غداة ثوى إلا اشتتت أنها قبر

وقد بلغ المتنبي الغاية في هذا حيث يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن      كساها دفنهم في الأرض طيبا

وأما الدعوة لهذا القبر بأن يجوده الحيا ، فالأدب العربي القديم غاص " به ،

ولا يحتاج منا إلى دليل فهو من التقاليد الموروثة منذ أن رثى شاعر جاهلي عزيزاً عليه .

ولا تشعر في رثاء صبري بتلك اللوعة التي تحس بها في رثاء المفجوعين ، وإنما يسير في رثائه على هيئة كأنه يقص خبراً من الأخبار . ولقد صدق الأستاذ العقاد حين قال في شعر صبري : « إن شعره لطيف لا تعمل فيه ، ولكنه كذلك لا قوة فيه ولا حرارة ... وإن شئت فقل إن أدب الرجل كان أدب الذوق ، ولم يكن أدب النزعات والخواالج ، وأدب السكون ، ولم يكن أدب الحركة والنهوض ، وأدب الاصطلاح الحسن ، ولم يكن أدب الابتكار الجسور » وضرب مثلاً على أن صبري ناعم يمثل الترف في حزنه ، وحماسه ، وعاطفته ، وأنه تنقصه الحرارة والانفعال والعاطفة بقوله : « إذا قال شاعر إن عزيمة البطل الممدوح تصدم الصخر الأشم فتهدده وتمهده ، قال صبري : إن عزيمة بطله « تلامس » الصخر فتتبت فيه الأزهار :

وعزيمة ميمونةٍ لو لامست صخراً لعاد الصخر روضاً أزهاراً

ولعلك ترى مما ذكرت لك من أغراض صبري الشعرية ، ومن عرض بعض ما قاله ، ودراسته أن صبري شاعر مقلد ، لم يوهب تلك الشاعرية المبدعة المبتكرة ، وأنه كان قصير النفس ، لا يستطيع نظم القصائد الطويلة ، وأنه لم يكن شاعراً محترفاً ، وإنما كان يقول الشعر لخطرات ترد على ذهنه .

هذا وقد كان صبري في مطلع حياته الشعرية مغرماً بفنون البديع يتصنع التورية والجناس كقوله .

والبس على طول المدى حلل « الرضا » بشعار « مأمون » ورشد « رشيد »  
وقوله :

فيا « مالكي » « نعمان » خدك « شافعي » لدى « حنبلي » المذل إذ قام بالعدر  
وقوله :

عن رفته حدّث فكم في رفته إناعام بحر « وافر » و « مديد »

وقوله :

يا عاذلي أقصر وكن عاذري ولا تطل لومي على شهدي

وقوله :

قدّ قلبي وانثى معجباً قال لي : كيف ترى قدّي ؟

إلى غير ذلك من الحلّى اللفظية والمعنوية ، وظل مغرمًا بهذا النوع حتى أواخر حياته وإن خفت وطأته كثيرًا في شعره الأخير كما اختفى التاريخ الشعري ، وقد ضربت لك منه أمثلة في أول هذا الفصل .

لقد اشتهر صبري بحسن الديباجة ، ورقة الشعر ، والعناية باللفظ والأسلوب ومع ذلك وجدت له عدة أخطاء ، وجلّ أخطائه في استعمال الكلمات والحروف من مثل قوله :

حسبت بأنك لي خالد فكان الذي لم أكن أحسب

يقال حسبته وحسبته أنه ، فلا محل للباء في بأنك ، ومن مثل قوله :

غرها سعدها ، ومن عادة السعد يؤاتي يوماً ويخذل دهرًا

يقال من عادته أن يفعل كذا ، فلا وجه لإسقاط أن ، ومن مثل قوله :

يا آسي الحي هل فتشت في كبدي وهل تبينت داءً في زواياها

يقال فتشت الشيء ، وفتشت عنه ، لا فتشت في ، ومثل قوله :

إذا خاني خلّ قديم وعقني فوقت يوماً في مقاتله سهمي

ف فوقّ السهم جعل له فوقًا ، وهو موضع الوتر منه ، وقد أتى الشاعر بهذه الكلمة مضمناً إياها معنى سددت أو صوبت ، والصحيح أن يقال : إلى مقاتله لا فيها ومثل قوله :

لك الإمارة ، والأقوام ما برحت بكل عاري الذئري في الكون تأتمر

يقال أتمر الأمر امتثله ، وبه أمر نفسه ، وأتمر فلانا شاوره . وبفلان همّ به ( إن الملائكة يأترون بك ) ، ولم يرد أتمر به بمعنى اقتدى أو اتبع أمره ، ومثل قوله :



فأقمنا عليه في كل نادٍ مأنماً داوياً بصوت الهكاء

والمعروف في كتب اللغة « مدوياً » بنشديد الواو .

ومثل هذه الهنات غير قليلة العدد في شعر صبري ، وقد أتت له من الاستعمال الشائع في الصحف ، وعدم التمكن في الدراسة ؛ ولكنها لا تقدح في رقة ديباجته وصقل شعره وعنايته الفائقة بأسلوبه ، وهذه أظهر ميزاته الشعرية وهو بهذا يمثل أهم خصائص المدرسة التقليدية الحديثة .

## - ٢ -

وهاك شاعراً آخر من شعراء المدرسة المحافظة على منهج العرب الأقدمين في شعرهم ، يتميز عن اسماعيل صبري بعراقته في الدراسة العربية والدينية ، وبأنه لم يتصل بالثقافة الغربية إلا عن طريق ما ترجم من الكتب ، وقد كان قليلاً في الوقت الذي نضجت فيه شاعريته ، وبأنه كان متبدِّياً في خياله ومعانيه ، وألفاظه ، وطريقة حياته ؛ تسمع شعره فيخيل إليك أنك تسمع شاعراً عربياً قديماً عاش في العصر الأموي أو العباسي ، بل يذكرك أحياناً بشعراء العصر الجاهلي في متانة نسجه ، وإحكام قوافيه ، وتشبيهاته واستعاراته المستمدة من حياة البادية .

كان عبد المطلب على الرغم من كل هذا شاعراً مطبوعاً ، أصيل الشاعرية ، لا يفتعل هذه المحاكاة ، ولا يملك إلا أن يكون كما صوره شعره ، وذلك بحكم نشأته وثقافته .

ولد محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر بن بخيت بن حارس بن قراع بن علي بن أبي خير حوالي سنة ١٨٧١ ببلدة ( باصونه ) إحدى قرى مديرية جرجا من أبوين عربيين ينتميان إلى أسرة أبي الخير ، وأبو الخير هذا أبو عشيرة من عشائر جهينة تربي على خمسة آلاف عدلاً ويشاركها في الانتماء إلى جهينة عدة عشائر تناهز الخمسين ألفاً ينزل أكثرهم مديرية جرجا .

وكان والده رجلاً صالحاً متفقهاً ، متصوفاً ، معتقداً في بلدته ، محبوباً عند جميع عشائر جهينة ، أخذ طريق الصوفية عن الخلوتية عن شيخ الطرق الشهير

اسماعيل أبي ضيف ثم كان خليفة له بناحية جهينة .

في هذه البيئة العربية الدينية المتزمتة نشأ محمد عبد المطلب ، وحفظ القرآن — كما يقال — وهو دون العاشرة ، وجاء إلى القاهرة للدراسة بالأزهر ، ونزل وهو في هذه السن المبكرة ببيت الشيخ اسماعيل أبي ضيف بين أولاده وأسرته ، ومكث بالأزهر سبع سنين ، ثم التحق بدار العلوم ، وتخرج فيها سنة ١٨٩٦ بعد أن تتلمذ لكبار علماء عصره أمثال الشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمود العالم ، والشيخ حسونة النواوي ، والشيخ سليمان العبد وغيرهم .

واشتغل بالتدريس في المدارس الابتدائية سنين عديدة قضاها في مدينة سوهاج ، وتنقل بعد ذلك في عدة مدارس ابتدائية وثانوية حتى اختير مدرساً بالتضاء الشرعي قبيل الحرب العالمية الأولى ، ثم مدرساً بمدارس الأوقاف الخصوصية إلى أن انتقل مدرساً بدار العلوم في سنة ١٩٢١ وظل بها إلى أن أدركته المنية في أواخر سنة ١٩٣١ .

كان يحفظ القرآن الكريم ، ويقرؤه ببعض الروايات ، ويقول عنه زميله في التدريس بدار العلوم الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندري . « كان حجة في الأدب واللغة ، محيطاً بأكثر جزلها وغريبها ، وكان شاعراً منقطع النظر في شعره ، لا يكاد سامعه يفرق بينه ، وبين شعراء أهل القرن الثالث والرابع ، فجده ما كاد يدرس من أساليب الشعر القديمة ، وأحيا كثيراً من غريب اللغة ، ونظم في أكثر بحور الشعر وقوافيه . . . وكان رحمه الله شديد الحفاظ على شعائر الإسلام ، وآثاره ، عاملاً على نشر آدابه ، فهو من أكبر أعضاء جمعية المحافظة على القرآن الكريم ، وجمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية الإسلامية وله في كل منها آثار محدودة .

وكان شديد العصبية لسلف هذه الأمة وقوادها وعلمائها وشعرائها ومؤلفاتها فلا يكاد يسمح بحديث مژرٍ عليها أو غاضٍ من كرامتها حتى يغضب لها غضبة الليث الهصور ، فينبري له تزييفاً وتهجيناً ، خطابة أو شعراً أو كتابة (١) » .

كان عبد المطلب كما رأيت عربي النشأة والمولد والبيئة معتزاً بنسبه هذا كل

الاعتزاز ، يعرف للعرب فضلهم على الدنيا بكرم طباعهم ، وشريف خصالهم ، وأنهم أهل السماحة والنجدة ، والاباء والكرم ، وحسن العفو ، وزادهم الإسلام فضلا وأريحية ، فكانوا النور الذي هدى العالم في حندس الجهالة والبغي ، وأسسوا حضارة اقتبس منها وهو بعد يضرب في مجاهل الضلال • استمع إليه يفتخر بهذه العروبة :

وأنا ابن الصَّيِّد من أنكرني  
من أيِّين كرامٍ ضربوا  
وكفاني من فخاري نسبة  
نحن رأس الناس في الناس ومن  
نركب الجثثى ولا نرهبها  
ويقول مفتخراً بأسرته :

نمت صعداً في دوحة عربية  
هوت دونها الأفلاك منحدرات

ويذكر فضل العرب على الشرق •

فإن تبغنا في مشرق الأرض تلقنا  
وإن تلتسنا في بني الغرب تلقهم  
فله منا والعلا في قديمنا  
ولله ما يَزْهوا الورى من حديثنا

فلم لا يفخر بنسبته إلى العرب ؟

والدهر شاهد عدل أن لي نسباً  
قد حلّ منه محلّ العقد في الجيد

إنه من قوم سنّوا للورى سنن العلا فأحرى به أن يفتخر باتسابه إليهم ، وأن يستمسك بسنتهم ، ويتحلّى بشيئهم •

لقد سنّ قومي للورى سنن العلا  
وما أنا عما سنّ قومي بحائد

إذا افتخر الناس بمجدهم التليد فللعرب قصب السبق ، وبما أنه منهم ، ويسير على سننهم ، فهو كذلك من السابقين يوم يباهي الناس بمجدهم :

لنا قصب السبق يوم الفخار      كما كان آباؤنا والجدود  
تراث لنا منذ عليا ممد      يدلُّ به كهنا والوليد

ولا يكتفي بذكر مجد العرب هكذا مجملًا ، ولكنه يحاول أن يذكر في شيء  
من التفصيل بعض فضائلهم الفطرية ، ويتطرق من ذلك إلى ذكر نسبه وأن جهينة  
أصيلة في العروبة ، وذلك حين يقول :

ما البيض إلا لقوم بالفخار لهم      على الزمان خلاعات وإدلال  
في المطعين على الحالين عافهم      إذا أصاب كرام الناس إحمال  
والمرحبين إذا ضاق الزمان بهم      والمكثرين وفي الأيام إقلال  
والناقضين على الأيام ما عقدت      وما لما عقدوه الدهر حلال  
من الذين إذا قالوا مقاتلهم      فالدهر ماضٍ بما قالوه فعّال  
من كلٍّ أروع في أعراقه كرم      وفي شمائله لطف وإجمال

ومن أهم صفات العرب الفصاحة ، ولما كان شاعراً فصيح البيان كان من  
الطبعي أن يهتم بذكر فصاحة العرب وقوة حجتهم في الكلام ؛ وشهرتهم في البيان •

وإن تذكرني أيامنا في قديمها      سموت إلى ماضٍ أغر نبيل  
سلي الشعر عنا إن يسير قصيده      مسير الحيا في قفزة ومحول  
ملأنا به الدنيا بياناً وحكمة      بها جاء في التنزيل خير رسول  
وئدنا به في كل دهر مكانة      رست في قراري عزة وأئول

ولا ينفك عبد المطلب يحدثك في كل قصيدة عن أمجاد قومه ، وعن عظمة  
الامة العربية التي ينتمي إليها ، وهذا الشعور المتأصل في نفسه تأصل العقيدة هو  
الذي جعله يتشبث بمحاكاة الفحول المرقين من شعراء العربية ، ويود أن يصل إلى  
مرتبتهم متجاهلاً كل ما يتطلبه عصره وحضارته •

زد على هذا أن محمد عبد المطلب نشأ نشأة دينية في بيت ينفذ عليه طلاب  
الهداية ، ويحيطونه بالتجلة والاحترام ، لاعتمادهم في والده • وهذه النشأة مع ما

صاحبها من دراسة دينية في الأزهر ودار العلوم كفيفة بأن تجعل محمد عبد المطلب شديد الحفاظ على القديم ، لا يفرط فيه أبداً مهما كانت المغريات ، نافرأ من كل جديد .

مازوا الجديد من القديم وما درّوا أن الجديد من القديم سليل  
حلبات إفك في مهالك فتنة هوجاء كيد غواتها تضليل  
دعوى وما ضربوا لنا مثلاً بها يجري عليه من القياس مثل  
وإذا دعاوى لم تقم بدليلها في العقل فهي على السّفاه دليل

وقد عكف عبد المطلب في دار العلوم على دراسة الأدب العربي القديم بشغف ولذة ، تغذيها محبة قوية للعرب وتراثهم ، وملكة شعرية فطرية ، وإذا كان عند طالب دار العلوم أي موهبة أدبية ، ولو بقدر يسير ، سرعان ما تنمو وتترعرع وتزدهر في هذه البيئة العربية الخالصة ، لكثرة ما يسمع الطالب في حجرات الدراسة من الكلم الفصاح ، وروائع الشعر والأمثال ، التي خلّفها أدباء العربية في عصورها الذهبية ، ولكثرة ما يحفظ من هذه الأمثال والحكم ، والنوادر ، والقصائد الخالدة ، والحفظ هو سبيله إلى التزود من معين العربية الفاظاً ومعاني .

ولهذا تعجب كلّ العجب لدار العلوم ، فهي في كلّ عهد تغص بمن يقرضون الشعر في أثناء الطلب ، ويثبت منهم في الميدان ، ويجلي في حلبة السباق من تمهّد هذه الموهبة بالصلق والدراسة ، وربما كانت دار العلوم متميزة عن سواها في هذه الناحية ، لأن الدروس تلقى فيها بلغة فصيجة سليمة أدبية ، ولأنها كلها تدور حول العربية ، وإتقانها : نحواً ، وبلاغة ، وقداً ، وأدباً ، ولأن الطالب يأتي إليها وعنده ذخيرة سابقة من القرآن الكريم وعلوم الدين ، وقدر لا بأس به من العلوم العربية ، هذا فضلاً عن الرعاية والعناية والتوجيه والتشجيع من جانب الأساتذة الذين يوجهون الطالب الوجهة القويمة التي تنمي من مواهبه وتدفعه قدماً إلى الأمام فلا يلبث إلا قليلاً في هذه البيئة الجديدة حتى تتفتح ملكاته اللسانية الكاملة ، ويلهج بقول الشعر . ولقد صوّرها عبد المطلب أبدع تصوير ، ويّتن فضائلها على اللغة العربية ، وعلى الأدب والشعر بقوله يخاطبها :

يا أم كم من شرعةٍ لك في الهدى لا ورنها رتق ولا ملول

وهديتنا سبل العلوم قواصداً  
دان القريض لنا فأما روضه  
ولنا إذا شئنا جزالة جرول  
ولربما ملك النديء خطينا  
أحييت أحياء الجزيرة من نما  
فبكل ( فصل ) منك مظهر أمة  
ولو استدار بك الزمان لأصبحت  
فالغور نجد والحزون سهول  
فجنى وأما صعبه فذلول  
وإذا نرق فتوبة وجميل  
والجمع بئر والمقام يهول  
قحطان من ولد وإسماعيل  
من أهلها وبكل يوم جيل  
لك في عكاظ من البيان فصول

هذه هي المدرسة العريقة التي درس فيها عبد المطلب اللغة والأدب على أعلامها في عصره ولهج لسانه فيها وهو بعد طالب بالشعر القوي الفصيح ، وهي بيئة عربية خالصة ، لا تعرف من الثقافة الغربية إلا القدر اليسير الذي يمت إلى العلوم العربية بصلة أو يزود الطالب بحظ من الثقافة العامة . أما اللغات الأجنبية ، فكانت على هامش الدراسة أحياناً لا يعنى بها الطلبة كثيراً ، وقد ألفت في عهود مختلفة ، ولم تحتل في نفوسهم مكانة ممتازة لأنهم يتعلمونها في الكبر ، ولا ريب أنهم لم يعرفوا عن الأدب الغربي ومذاهبه وأنواعه إلا القليل عن طريق الترجمة ، وقد كان هذا المترجم ضيلاً في عهد عبد المطلب ، وأشك في أنه كان يتذوق مثل هذا الأدب أو يعجب به .

وقد أثرت هذه النشأة العربية الخالصة في أخلاق محمد عبد المطلب ، فقد ورث عن العرب كثيراً من صفاتهم ، وأعجب بمثلهم الخلقة العليا ، ومكن الدين الإسلامي الذي شب بين تعاليمه وتقاليده ، ودرسه في الأزهر ودار العلوم هذه الصفات في نفسه . ويتمثل هذا الخلق العربي الإسلامي في عبد المطلب حينما تقرأ شعره ، إذ يطالعك في كل قصيدة بنفسه سافرة مجلوة ، لا تضر نفاقاً أو رياء . وللخلق والطبع أثر عظيم في اتجاه الشاعر ، لأنه هو الذي يوجهه نحو الأغراض المختلفة ، فإن كان كريم النفس أيباً ، مترفعاً عن السفاسف رباً بنفسه عن شعر المداينة والرياء ، والمدح الكاذب ، والوصول عن طريق القول المزوَّق والخداع المنمَّق إلى ما تصبو إليه نفسه التي تستهين بالمثل العليا في سبيل غايتها ، واتجه نحو الوطنية الصادقة ، والحماسة للحق ، والغرام بالخير إلى غير ذلك من الأغراض الشريفة .

تراه لا يرثي إلا صديقاً ، ولا يمدح إلا شكراً على مكرمة أسديت إليه ، أو لأن  
المدوح حقق هدفاً جميلاً من الأهداف التي ترمقها نفسه وترعاها . وهكذا كان  
عبد المطلب .

وحريّ بنا قبل أن نتعرف إلى الأغراض التي اتجه إليها شعره ، أن نلقي نظرة  
عابرة على خلقه .

كان عبد المطلب كما ذكرت بدويّ الطباع ، ومن شأن الطبع البدوي الجد  
والصرامة في الحق ومقاومة العسف .

والقوة الهوجاء يمحّتها حق قضى في أهله الغلبا  
وهو في هذه المقاومة ، وهذا الجد لا يعرف اللين ، أو الهزيمة أو النكوص  
عن غايته .

أفتطمعون بأن تلين قناتنا لين الأبيّ على الشدائد عابٍ  
ومن شيمة الأبي الكريم ألا يتضجر أو يشكو إذا آده الحمل ، وآذاه الجهاد :  
ليس من شيمة مثلي أنه يشتكي البؤس ويخشى النوبا  
ويقول :

أأثمت حسادي فأشكو وإنني أراه على الأحرار غير حلال  
بل يتجمل بالصبر ، قويّ العزم ، مبرم الإرادة لا يتقلّب له غرب ، أو تهن  
له نفس .

سأصبر للأيام حتى أردّها بصبري لما أرجوه منها حبائلا  
وأحمل فيها عزمة عريية تفوت العوالي إن مضت والعواملا  
ورجل هذا شأنه في خلقه لا شك يتخلف في الحياة عن كثير من نظرائه الذين  
لا يشتون في سبيل الحق وإعلاء كلمته مثلما يثبت ، ولا يتمسكون بإبائهم وكرامتهم ،  
وعزة نفوسهم ويضعونها في المنزلة الأولى مثلما يضع نفسه ، وقد قال في هذا معبراً  
عن ذلك النقص الاجتماعي :

وإن سلبت قدرتي حقوقاً من العلا تحلّى بها غيري وأصبحت عاطلاً

فمن قبلُ كم عادت كريماً وأنكرت حقوقاً له في أهلها وفواضلا  
ولقد تغنى في شعره كثيراً بأنه كريم النفس ، والقلب واليد :

ولي همامة نفس بالعللا كلفت قدماً ، وقلب بأهل الفضل محلال  
يهوى الكرام ، وما غير الكرام له من البرية أخذان وأمثال  
أما كرم اليد فقد أفصح عنه بقوله :

حبب الفاقة لي أثني فتى يجمع الحمد ويفني النشبا  
أما كرم القلب والحلم وامتلأ أزمة النفس حين يجتاحها الغضب فقد قال  
عن نفسه :

إن الكريم إذا ما احتاجه غضب لم يلوه عن طريق الحكمة الغضب  
ومن شأن هذا البدوي العربي ، ولو كان في بيئة متحضرة يكثر فيها النفاق ،  
وحب المنفعة الخالصة ، وإيثارها على المثل العليا ، أن يتمسك بالأصول الخلقية  
العربية النبيلة ، إذا قوَّاهَا في نفسه دين متين "وعلم" غزير" ، ونشأة في أحضان  
البادية منذ الصغر ، وتطلب "لفضائلها في كتب الأدب عند الكبر — من شأن هذا  
البدوي أن يكون وفياً لأصدقائه ، عفيفاً في هواه ، لا يعرف الصغائر والدنايا • أما  
وفاؤه فقد تمثل في ديوانه أتم تمثيل ، استمع إليه يقول لصديق له :

وكلما اشتد بي حال ذكرتُك في سرِّ فيفرج عني ذلك الحالُ  
يا روح روحي وريحاني إذا صرمتُ حبلي من الناس والأيام آمالُ  
خفّض عليك فودّي ليس يُخلقه كر الجديدين أوفى الناس أو مالوا

إن الوفاء شيمة العربي ، وقد زاده قوة في نفسه دينه الكريم :

الله في الود والقربى فإن لها حقاً على الناس جاءتنا به الكتب

وترى هذا الوفاء في توديعه لأصدقائه وخلصائه الذين اصطفاهم لنفسه ،  
ووافقت طباعهم طبعه ، في مواساتهم إن ألم بهم خطب ، وفي تهنئتهم إن ابتسمت  
لهم الحياة ببعض زخارفها وفي رئائهم إن أودّوا ، واختارهم الله لجواره •

ألا ترى أن عبد المطلب في هذا الوفاء ، وفي تلك السجايا الغرّ التي ذكرت



لك طرفاً منها يمثل فتىً من فتیان البادية الأقدمين وكأنك تتمثله غنّرة الفوارس ،  
أو عروة بن الورد أو حاتم طيء ، أو ربيعة بن مكدّم في شهامته ، وقوته ،  
وكرمه ، ووفائه ، وذراية لسانه ، وبعده عن الدنيا :

|                                 |                                |
|---------------------------------|--------------------------------|
| ومن كان مثلي في ذرى الأدب اعتلى | يعاف الدنيا شيمة والردائلا     |
| ورثت أبا بكر فخاراً وعزّة       | ومن بعده أورثت في المجد واصلا  |
| بهايل في عليا جهينة أصدوا       | على خير ما يحذو الأخير الأوائل |
| فذرني أسر حيث المكارم واحد لي   | على نعمات المجد إن كنت فاعلا   |

وهو يتنزل على طريقة العرب وينتدى قصائده بالنسيب ، وهذا لا شك تكلف  
منه لا يصدر عن عاطفة ولكن عبد المطلب يحب الجمال في عفة ، وهو يتنزل في هذا  
الجمال ، والعربي مرهف الحس ، جياش العاطفة ، ذوّاق للجمال ، وإذا أضيف إلى  
هذا الميل نحو الجمال ، دين " وخلق " ، وشاعرية ، رأينا عبد المطلب لا ينحدر في  
غزله إلى فحش اللفظ ، والتغني بمفاتن النساء في مبالهن ولا يصبو إلى دنس الهوى :

وما أنا من يصبو إلى دنس الهوى ولا ضلّ في نهج العفاف دليلي

إنه يعشق الجمال ، ويفرّ به ، لأن له نفس شاعر ، وذوق فنّان ، ولكنه لا  
يتبع النفس اللجوج هواها ، ولا ينزلق في تيار الغرام . وحسبه من ذلك الجمال هذه  
المتع المعنوية التي تنتشي لها نفسه ، ولا يذهب في حيا هذه المتعة رشدها ، إنه يناه  
ملء جفونه شأن من لم يعلق قلبه بشباك الغرام .

|                               |                                            |
|-------------------------------|--------------------------------------------|
| وما شغلت عيني عن النوم صبوة   | جبن " يروع الشمس بالحن أبلج "              |
| ولم ينسني حظي من الحلم والنهي | بها شاقني طرف من العين أبرج <sup>(١)</sup> |
| ولا بات يغريني بمعسولة التلى  | إذا ابتسمت ذاك الجمان المفكج               |
| لويت زمام النفس عن سنن الهوى  | وخلّيت أتراب الهوى حيث عرجوا               |

ولكن هل يستطيع عبد المطلب أن يتصرف في فؤاده دائما ، والحب إذا أتمى

(١) الأبرج : الذي يحيط بياض مئنيه بسوادهما فيظهر السواد كله لا يختفي منه شيء .

فلا رادٌ له لأن المرء لا يعرف متى يأتي ، ولا كيف يأتي ، ولا شك أن عبد المطلب قد غلب على أمره أحياناً ، ولكن دينه وخلقه صان هذا الحب عن الرّجس •

بتنا وكان العفاف سِتراً      بين الضميرين ليس يبلّ  
وللتقى بيننا عهد      تقدست في القلوب قبل  
وما على الحب من مثلم      إذا الهوى بالتقى تحلّى

من أهم صفات العرب المتميزة العِيرة ، وقد تجلت غيرة عبد المطلب وحماسه ، وإبائه الضيم في وطنيته الملتهبة الصادقة • لقد ملك حب مصر عليه شغاف قلبه ، دع جانباً تلك القصائد السياسية المتأججة التي أسلفنا القول عليها ، بل تأمل عشقه لمصر ، ولصعيد مصر ، وترداده لذكرها بقلب مليء بحبها ، مدله بها ، يراها منبت المجد منذ نشأة الحياة على الأرض بل قبل ذلك :

ولربما شهد الزمان وجوده      والأرض ماء ، والسماء ضباب  
النيل آيته ، وسطر حديثه      في العالمين ، ولا بتاه كتاب<sup>(١)</sup>  
حتى إذا برز الوري من غيبهم      وتميزت بينهم الأنساب  
فإذا عروس الأرض مصر يزنها      أطام عز تعتلي وثيراب

وهو لا يتردد أن يفدي مصر بحياته ، ويدعو الله أن تسلم من الأذى ، وينزلها منزلة الأم :

مصر أمي ، فداء أمي حياتي      سلمت أمثنا من العاديات

ومن فرط حبه لمصر نسي أنه عربي بدوي ، وراح يشيد بمناقب مينا وخوفو ، ورمسيس • والحق ألا تعارض بين نسبه العربي ، وفخره بمصر ، وبمن شادوا مجدها القديم فهو اليوم مصري الموطن والمولد ، ينعم بخيرات مصر ، ويتمتع بعجائزها وأجوائها ، وقد دافع عن رأيه هذا بقوله :

(١) اللابة : الحرة من الأرض أي السوداء منها ، ويريد باللاتين الصحراء الشرقية ، والصحراء الغربية ، والوادي بينهما •

رويدك إنا في العلا يوم تنتهي  
لنا آية الأهرام يتلو قديمها  
ملأنا بها لوح الوجود مناقباً  
وللعلم من آثارنا في جبالنا  
إذا جهلوا «ميناً» و«خوفو» و«خفرعا»  
لنا كل ما في الأرض من مدينة  
لنا في الوري حق المعلم لو رعوا

كلانا أبوه النيل أو أمه مصر  
حديث الليالي فهي في فمها ذكر  
إذا ما خلا عصر تلاها به عصر  
على الدهر آيات بها ينطق الصخر  
فليس «برميسس» على ملكه نكر  
بها تعمر الأمصار والبلد القفر  
لنا ذمة ، والدهر شيمته الغدر

ويقول في هذه القصيدة مضمناً المثل الأوربي المشهور « الدين لله والوطن للجميع » :

كلانا على دين به هو مؤمن  
إذا ما دعت مصر ابنها نهض ابنها  
ولكن خذلان البلاد هو الكفر  
لنجدتها سيان مرقس أو عمرو

وهو في وطنيته هذه يأتف من الاحتلال وذل العبودية والاستعمار ؛ شأن  
العربي الذي ألف الحرية المطلقة :

حرام علينا أن نعيش أذلة  
وذو الذل أولى ما يكون به القبر

ولما رأى الخلف دب بين المصريين بعد ثورتهم العظيمة ، وانقسموا شيعاً  
وأحزاباً وهنت بها قوى مصر ، وخفت صوتها في المطالبة بحقوقها قال :

فيا مصر إن عز الوفاء فإتنا  
إذا صاع قوم بالخلاف رأيتنا  
على العهد لا نلوي ولا تتغير  
لبرئك أيقاظاً لضرئك نحذر<sup>(١)</sup>

أخذل مصرأ في بنيتها وهذه  
ذئاب الليالي حولها تتنمر

وقد ندّد بهذا الخلاف في قوة وصرامة ، وأنذر قومه عاقبة أمرهم ، وأنها  
خسران مبین ، وضياع للوطن :

(١) صاع : تحامل بعضهم على بعض .

عبثت بوحدتنا الخطوب وأعملت      في غرس أيدينا يدُ الإِتلاف  
والخصم يحجل بيننا للشر في      ثوبين ثوب : موافق ومنافي  
متمر يغري العداوة بيننا      بالكيد والتفريق والإرجاف  
أو ليس فيما قد مضى من عبرة      لبني أبي والأسرُ ليس بخاف  
أو لم يروا أو يسمعوا نذرَ الورى      تطوي إلينا لجة الرجّاف<sup>(١)</sup>

ولعلك تذكر قول مطران في صعيد مصر ، وتعليقنا عليه بأنه لم يكن محباً له ،  
ولو كان محباً حقاً لرأى مساوئه مفاخر ، وشينه زينة<sup>(٢)</sup> على حد قول الشاعر  
التقديم : « حسن في كل عين من تود » وعبد المطلب كان عاشقاً لمصر ولصعيدها ،  
يرى الجمال حيث لا يراه سواه والمحب مفتون .

سر الجمال جمال مصر إذا سرت      ريح الشمال بها وعب النيلُ  
بلد جريتُ إلى المنى في ظله      سَبَحاً على اللذات وهي شكول  
أرد المرباع والمصايف سادراً      أختال بين ظلالها وأجول  
لي في الصعيد إذا شتوت منازل      فيها سرّاة العالمين نزول  
بهرت مصانعها الزمانَ ولم تزل      للعقل فيها حيرة وذهول  
جلست على الآباد في جبريّة      يقف البلى من دونها ، فيحول<sup>(٣)</sup>  
مشتى الملوك ، مرّاد أرباب النهى      هذا يحلُّ بها وذاك يزول  
فيح إذا نهض القريض لوصفها      يحلو القريض بوصفها ويطول  
وإذا بكى الأثلاث ( يحيى ) شاقه      معنّى جفاه بقرقرى ومقيل<sup>(٤)</sup>

(١) الرجاف : البحر : سمي بذلك لاضطرابه .

(٢) راجع ص ١٧٣ من هذا الكتاب .

(٣) الجبرية : الجبروت والقهر والقوة ، ويحول : يتحول .

(٤) الأثلاث : شجر الأثل ، ويحيى هو ابن طالب الحنفي . وكان شيخاً فصيحاً يقري للناس ، أنقله  
الدين بسبب ذلك فنزح عن قرقرى، فلما وصل خراسان حن إليها، وتذكر أبيامه في ظل أثلاثها فقال : =

غنيت نشوان القريض يهزني سدر بريف جهينة ونخيل

هذه هي نظرة المحب ، وشتان بين نظرة عبد المطلب ونظرة مطران للصعيد ،  
وقد بلغ من حبه لمصر وللنيل أن يطلب من محبوبته أن تحب النيل معه ، أو أن تحبه  
حبا يعادل حبه للنيل :

عديني حب النيل إني أحبه ولا تمطلي فالحر غير ملوم

وأفصح عن هذه المحبة وهو بعد شاب ، في أول عهده بالتدريس ، وأخذ ينشئ  
تلاميذه على تقديس مصر والوطن والفناء في خدمتها ورقبها ، فيحفظهم قوله :

نعم لخدمة مصر نرى الكثير قليلا  
بلادنا ترتجينا لها النصير الكفيل  
مصر لنا خير أم عن حبها لن نحولا  
فإن رأتنا صفاراً غداً ترانا كهولا  
ذوي نفوس كبار نبغي المكارم سولا

هذه قطرات من فيض الشعر الوطني الذي خلقه عبد المطلب ، ولقد بينت  
بعض اتجاهاته في غير هذا الموضوع<sup>(١)</sup> ، وكله ينبىء عن نفس حرة غيور تأبى  
الذل ، وتضيق بالعبودية . ولقد كان قاسياً على الأعداء ، سلط عليهم من لسانه  
ناراً حامية ، بل كان من أجراً الشعراء وأعظمهم أثراً في الثورة . ولا ريب أن  
للنشأة البدوية العربية الدينية ولدراسته أثراً قوياً في هذا الاتجاه ، وفي هذه  
الحماسة التي لا تهاب شيئاً .

والآن ، وبعد أن عرفت شيئاً عن خلقه وعن أثره في شعره ، دعنا نلقي نظرة  
عجلى على هذا الشعر :

= أيا ألات القاع من بطن توضح  
إلى هل إلى شم الخزامى ونظرة  
حنيني إلى أطلالكن طويل  
إلى قرقرى قبل المات سبيل

(١) راجع ص ١٢١ من هذا الكتاب وما بعدها في شعر عبد المطلب السياسي .

## شعره :

ومحمد عبد المطلب شاعر غنائي ذو وتر واحد ، ولكنه وتر قديم ، وقد يترنم أحيانا بنغمات جديدة حين يعزف أغنيات الوطنية أو يصور بعض الحالات ؛ حاكى في شعره الأقدمين من فحول الشعر العربي ووعى من ذخائر اللغة ما مكّنه من أن يتصرف في الألفاظ كيف شاء ، ولا بدع فقد قرأ القرآن صغيراً واستظهره ، وقرأه بالقراءات ، وحفظ دواوين الفحول •

ومحمد عبد المطلب نسيج وحده في العصر الحديث ؛ لأنه يتبدى في شعره : خيالا ولفظاً ، ومعنى ، ولم يجد عن طريقة العرب في نظم القصيدة ، وطريقتها ، وإن كان قد حاول التجديد في قالب حين نظم مسرحية ( ليلى العفيفة ) ، ومسرحية ( المهمل بن ربيعة وحرب البسوس ) ، وحين كتب قصة امرئ القيس ، وطرزها بشيء من شعره ، ولكن المغاني والخيالات ظلت بدوية شأن بقية شعره •

قلنا إن محمد عبد المطلب نسيج وحده ؛ لأن شعراء المدرسة القديمة أمثال صبري ، والبكري ، وحافظ ، ونسيم وغيرهم حين حاكوا الشعر العربي القديم ، لم يلجأوا إلى غريب اللغة ، والعصر الجاهلي ، وإنما حاكوا شعراء العصر العباسي الممتازين ، وشعراء الصنعة في العصور المتأخرة ، وشعراء مصر المشهورين بالركة أمثال البهاء زهير ، والشباب الظريف • أما محمد عبد المطلب فكان لتمكنه في اللغة ، وحفظه لغريبها يحاكي شعراء بني أمية أو شعراء العصر الجاهلي •

إن محمد عبد المطلب كان يعيش بخياله الشعري في جزيرة العرب ، يستمد منها تشابيه ويرى معالمها بين خياله فيسجلها في شعره ، أو كأن روح شاعر من شعراء الجاهلية أو العصر الأموي قد تقمصت جسده ، فهي تحكي ما كانت ترى في العصر الذي عاشت فيه ، استمع إليه يقول :

ولاحت لعيني تلك البروق      بوادي تهامة والمنحى

ومرّت تهادى نَجَارِيَّةٌ<sup>(١)</sup> لها زفرات ترج الفلا<sup>(٢)</sup>  
ذكرت ربوعاً لسلى مضى من العيش في ظلها ما مضى

ولا شك أنه لم ير في مصر بروقا ، ولا وادي تهامة ، ولا المنحنى ، وإنما سبح  
بخياله في تلك الديار ، واستمع إليه يقول من قصيدة أخرى :

سَقَيْتَ التَّدى يا منزل الثمراتِ وجاءتك غُمرُ المزنِ مُنْهَراتِ  
مغانٍ بها عيش الصُّبا كان ناعماً وغرسُ الأمانى طيب الثمراتِ  
وقفتُ بها صحبي فحيّت ركابنا ضواحك من أزهارها النضراتِ  
ولم ينسني عهدي به منزل الغضا وغرُّ ليالٍ فيه مزدهراتِ  
ولا مسرحُ الآرام فيه أوانسٌ تهادين في شرخ الصُّبا خُفَراتِ

فمنزل الغضا ، ومسرح الآرام ليسا بمصر ، وإنما هما في نجد أو الحجاز .  
إن عبد المطلب يتشوق أن يرحل إلى الحجاز أو نجد ، ويستعيد عهد أسلافه ، فروحه  
متعلقة بتلك الديار ، ولا أدل على ذلك من قوله :

برق" يلوح ، وسائق يحدو يا شوق هل لك غاية" بعدُ  
ونوى" تشطُّ بنا مطرحة أنا بالغوير ، ودارهم نجد  
يا رحمتا ، كبد" تخونها برّح الغرام ، ولاحها البُعد  
ذكرت معاهدنا بذى سلم أفلا يعود لنا بها عهد<sup>(٣)</sup>  
لو أن أيام الغضا رُجِعَ أو أن ما سلفت به ردّ

فهو يتشوق لنجد ، وذى سلم ، وقد شطت به النوى حتى تقطرت كبده من  
شدة الغرام وغيرها البعد ؛ لأنها ذكرت معاهده بذى سلم ( موضع بالحجاز )  
ويتمنى أن تعود تلك المهود ، وترجع أيام الغضا . . . الخ ، وليس هذا شعر شخص

(٢) ذو سلم : موضع بالحجاز .

(١) نجارية : ذات نجار واصل .

يعيش في مصر ويرى النيل والجزيرة ، وسيف البحر المتوسط ، والمغاني العامرة ، والجنان الفيح والآثار الباهرة ، إنه يعيش في مصر بجسده ، ولكن روحه في رحلة طويلة إلى جزيرة العرب ، وقد تعود فترتد مصرية الشعور والعاطفة .

ولما قال شوقي قصيدته المشهورة « اختلاف النهار والليل ينسي » يتشوق فيها إلى الثغر والمكس ، ويحن حنيناً شديداً لمصر ويقول :

يصبح الفكر و « المسلة » ناديه و « بالسرحة الزكية » يمي

وينفثها نفثة الملتاع من حرّ الفراق ، الذي تجسّمت أمامه كل معالم مصر ، وتفطرت نفسه حشرات أسفاً لغيابه عنها ، وشوقاً إليها أجابه عبد المطلب بأنه إذا حنّ إلى مصر فإنه يحن إلى « الغوير وجكّس » حين يقول :

ما له في الحنين يضحى ويمسي  
شفّه البرق لاح من « عين شمس »  
واستخفت به الصبا فتناسى  
عهده في الوقار والشوق ينسي  
حن في شجوه إلى جبل الطيّ  
ر حنيني إلى الغوير وجلس<sup>(١)</sup>  
وهو يشبه نفسه بامرئ القيس إذ يبكي ما بين ( حومل فالدخول ) :

ما لي وللربع المّحيل  
أبكيه بالدمع الهطول  
نوح الحمامة رجعت  
بين المعاهد والطلول  
أو كابن حجر إذ بكى  
ما بين حومل والدخول

وقد تهيم نفسه ، ويغلو في حنينه إلى تلك الديار التي يسبح خياله في عرصاتها ووديانها ، والتي تشبع بها عقله من كثرة ما قرأ في الأدب القديم ووعى منه ، وكثرة ما فكر فيها ، فيفضل الخزامى على رياض النيل ، وثرى نجد وإن كان حجارة على تربة مصر الخصبة الممرعة ، والسحب التي تمر بنجد وإن كانت جهاًما على النيل العظيم . وهذا غلو منه ولا ريب ، وجموح في الخيال ، ولم يصدر عنه ونفسه في اتزانها وهدوئها ، وعقله في تمام وعيه ، ولكنه الهيام والشوق إلى معيشة البادية ، والحنين إلى الماضي العتيق :

(١) الغوير : ماء لبني كلب ، وجلس : بلاد نجد .



فَذَا الشَّوْقُ بِقَلْبٍ لَمْ يَخْن      لِرَبِي نَجْدٌ وَإِنْ شَطَّتْ ذِمَامَا  
لَمْ يَخْنْ عَهْدًا لِأَيَّامِ الْغُضَا      إِنْ أَيَّامُ الْغُضَا كَانَتْ ذِمَامَا  
مَا رِيَاضُ النَّيْلِ مَا عَهْدِي بِهَا      نَامَ الْعَيْشُ كَعَهْدِي بِالْخَزَامَا  
مَا ثَرَى مِصْرَ ، وَإِنْ كَانَ الثَّرَى      كَثُرَى نَجْدٌ وَإِنْ كَانَ رِضَامَا  
لَا وَلَا النَّيْلُ وَإِنْ كَانَ الْحَيَا      كَفَوَادِيهَا وَإِنْ مَرَّتْ جَهَامَا

وشاعر هذا خياله البدوي ، وهذه ثقافته القديمة لا ينتظر منه أن ينتزع تشبيهاته واستعاراته وألفاظه إلا من تلك البيئة المتبدية ، وإلا أن يحاكي الشعراء الأقدمين ، ويحاول جهده أن يكون مثلهم في كل شعره . فعاطف بركات حين مات تحمله ( نجب الردي ) .

وهل حملت نجب الردي مثل راحل      بكته المعالي من بني بركات  
وعدلي وزملاؤه في الوزارة ( أسد يشة ) .

في رفاقهم أسد يشة بأساً      أو هم النجم في سناء وثبل<sup>(١)</sup>

وأحمد تيمور حين يموت جبل أشم يصير إلى القبر :

وأرى المكارم يوم أحمد صوّرت      فسعت إلى الأجداث وهي سرير  
يا حامله إلى الثرى أرايتم      شم الجبال إلى الرجام تصير<sup>(٢)</sup>

ويرى الموت يقتال عظماء مصر واحداً بعد الآخر ، فيرمي اليوم قارحا ، وفي صبح غد بازلا<sup>(٣)</sup> ، فرجال مصر في رأيه جمال .

ما للردي في مصر مستأسداً      يعدو على أبنائها غائلا  
إذا رمى اليوم بها قارحا      منهم رمى صبح غد بازلا

(١) يشة : مكان على خمس مراحل من مكة جهة اليمن وبها نخل كثير ، وفي وادي يشة موضع مشجر كثير الأسد .

(٢) الرجام : القبور أو حجارة تنصب عليها .

(٣) فرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره فهو قارح ، ومثله الجمل ، والبازل من الابل ما كان في

التاسعة من عمره ، ويريد أن الموت يخترم رجال مصر شبانا وشبيبا .

وحين يرثي سعد زغلول يمدحه بأنه كريم النجار ، شريف المحتد فيقول :  
أن ( محتده خندفي ) (١) .

وعدلي يكن يسافر للمفاوضة فهو « يزجي إلى حلبات السلام النجب » :

قالوا : السلام ، فقام قائدنا يزجي إلى حلباته النجبا

وحبيته :

لها الأسدُ أهلٌ والأسنة عيل ذليلةٌ أجفانٌ عزيزةٌ معشرٌ

وغاية الجزالة عنده جزالة الخطيئة وهو ما نعلم في بداوته ، وعدم تأثره  
بالإسلام ، وغاية الرقة عنده رقة ( توبة ) أو رقة جميل بن معمر .

ولنا إذا شئنا جزالة جِرْوَل وإذا نرق فتوبة وجميل

أما نسيبه وتشبيهات حبيته فمعركة في البداوة ، ولا أستطيع أن أسوق هنا  
كل ما قاله في النسيب من هذا الطراز البدوي ، وحسبي قطعة واحدة لأن كل  
نسيبه على هذه الشاكلة ، قال فيما سماه « دالية أسوان » .

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| ووجدني بها كل يوم يزيد    | خليلي قلبي لسلمي عميد      |
| شمال تهب وغصن يسيد        | يدكرينها إذا جن ليلى       |
| وحاد له في المطايا نشيد   | وبرق يلوح وطير ينوح        |
| وكالغصن ذاك القوام الميود | فأما الشمال فتهدى شذاها    |
| يشنّف سمعي منه القصيد     | ونوح الحمام نشيد الغرام    |
| إذا ابتسمت فهي در نضيد    | وما البرق إلا وميض الشبا   |
| لما كان يوم افترقنا بعيد  | وايكي إذا ما جدا الركب حاد |
| وكل قريب المطايا بعيد     | تنامي بك الين عن دار سلمى  |

(١) خندف : قبيلة عربية مشهورة بالكرم والنجدة ولعله يريد خندفيا من الخندفة وهي الاسراع  
لغة المهور .

فهل لك في صفو عيش رجاء" ومن دون سَلَمَى فيافٍ ويبدُ  
 رعى الله عهدك من عالجٍ وحياً ربوعاً حوتها زَرُود<sup>(١)</sup>  
 وعهدُ الهوى بيننا قائمٌ أواخيه محكمة والعقود  
 لياليَ ألهو بها لا أخاف الـ قلى والحواسدُ عنا رقود

إلى غير ذلك من هذا النسيب الذي يدل بادية الأمر على أنه مفتعل لم يصدر عن عاطفة ، وإنما قيل محاكاة للأقدمين في ابتدائهم القصائد بمثل هذا النسيب ، ويدل بعد ذلك على عدم ابتكار في أي معنى من معانيه ، فكله ترديد لما قال شعراء الجاهلية والعصر الأموي ، ولا أود أن أقول العصر العباسي لأن هؤلاء ربما اقتنوا في المعاني ؛ ويدل ثالثاً على خيال بدوي لشاعر يقيم في الصحراء ، تشتد حساسيته للبرق ، ولقدوم الليل ، ولريح الشمال حين تهب ، وتحرك الغصن ، وللطير حين ينوح ، وللحادي الذي ينشد المطايا يستحثها على السير ؛ لأن لهذه الأمور معنى لديه ، إذ تذكره ببعض التغيير في حياته الرتيبة ، ولأن في بعضها منافع له كالبرق وهو نذير المطر ، والحادي وهو يقدم القافلة سواء كانت آتية بتجارة ، أو ذاهبة بها ، فهذه أمور تتصل بحياة البدو ويهتمون بها أكثر من اهتمام الحضرة لها . ثم ألا تراه يتذكر عهدها بعالج وزرود ، وأين الشاعر من عالج وزرود وهو يعيش في حضن النيل العظيم وفي كنف القاهرة عروس الشرق ؟ . إن هذا تقليد عجيب ، عللنا له فيما سبق بأن خيال الشاعر يفلت منه أحياناً ، ويهيم بالبادية ، ثم أين هو الحادي الذي يحدو الركب ، فيبكيه ويشجيه ، وليس في مصر إلا القطر البخارية ؟ . وهل حقاً من دون سلمى فياف ويبد ؟ أقيم سلمى في مصر أم في جزيرة العرب ؟ إن كان هذا يدل ، على شيء فهو ولا ريب ، على أن الشاعر يحاكي شعراء البادية ، بل إن لشعراء البادية غزلاً عاطفياً جميلاً ينم عن لوعة ترعى الفؤاد ، ونار غرام عاتية ، وقد افتنوا في المعاني الغزلية ، وأتوا بكثير مما يقال في إخلاف الوعد ، والهجر ، والشوق ، والعذال ، واللقاء . وحسبك أن تقرأ شعر جميل بن معمر ، وكثير عزة ، وقيس بن الملوح ،

(١) عالج : رملة بالبادية وقيل هي رمل بين فيد والقريات ينزلها بنو بحر من طيء ، وهي متصلة بالتملة على طريق مكة ، لا ماء بها ولا يقدر أحد عليها ، وزرود : رمال بين التلمة والخزمية بطريق الحاج إلى الكوفة .

استمع إلى قيس بن الملوح يقول في ريح الصَّبا وأثرها في نفسه ومنزلتها عنده :

أيا جَبَلِي نعمانَ بالله خلياً      سبيلَ الصَّبا يخلُص إليّ نسيماً  
أجدُ برَّدها أو تشف مني حرارة      على كبدٍ لم يبق إلاّ صميمها  
فإن الصَّبا ريح إذا ما تنسمت      على نفس محزون تجلّت همومها

هذا وحبّية عبد المطلب — إن كانت له حية — ليست إلا ظلياً أو جوّذراً<sup>(١)</sup>

صبّ بربع البانة الأخضر      بات صريع الظبي والجوذر

وإذا ترك ربع البانة الأخضر وتذكر أنه في مصر ، انتقل بهذا الجوذر إلى سيف الجزيرة على النيل .

على النيل من سيف الجزيرة جوذر      هفا تائها والحسن بالتيه يأمر  
أو انتقل به إلى ( الحلمية ) :

درجن من الحلميتين فما المها      إذا ما توسطن الطريق وما العثقر<sup>(٢)</sup>  
فهن كأسراب الحمام تتابعت      سوابح مرماها الجزيرة والجسر

لقد انطبعت هذه الصور والتعبيرات في ذهنه ، وكان له بها غرام ، ولقد هام بغريب الألفاظ هيأماً عجيباً ، وضمن قصائده كثيراً من أمثال العرب المشهور منها وغير المشهور مما يدل على غزارة محفوظة من التراث القديم ، من ذلك قوله :

عِدُّونا إذا بانت بكم عن رباعنا      نوى قذّف بالعود ، فالعود أحمد  
وقوله :

أسعديهن بالهديل فقد عيَّ م لسان القريض بالإسناف<sup>(٣)</sup>

(١) الجوذر : البقرة الوحشية ، وتشبه به الحسناء في جمال عينيها ، وهفا : مر مرماً ، وتائها : متكبراً .

(٢) المها : بقر الوحش واحدها مهاة والعقر من الظباء : التي يعلو بياضها حمرة .

(٣) الإسناف : مصدر أسنف بمعنى شد البعير بالسناف ، والسناف للبعير بمنزلة اللبب للفرس ويقال « على فلان بالإسناف » إذا دهش من الفزع كمن لا يدري أين يشد السناف .

وقوله :

وإن تر شعباً بالجهالة ساجحاً      فقل لعداء رمّد الضأن ربّق

مأخوذ من المثل : « رمدت الضأن فربق ربق » ، ورمّدت الضأن نزل لبنها قبل النتاج ، وربق أي هيء الأرباق وهي الجبال التي تشد فيها رؤوس أولادها ، ومعنى المثل إن الضأن قد عظمت ضروعها فأعد الجبال لأولادها ، وهو يريد أن هذا الشعب الساجح في الجهالة اليوم سيكون منه ما لا ينتظر وقوعه في غد .

وهو يعدل عن الكلمات المألوفة إلى الكلمات الغريبة لغير ما عذر أحيانا مثال ذلك قوله :

يلقى أخاه كما يلقي أباه على      حال بها يتباهى الخيم والأدب  
فاستعمل كلمة الخيم بدل الطبع أو الخلق ، و « الطبع » تستقيم في البيت ، ومثل كلمة « الرجام » أي القبور في قوله :

ما زلت سرا في الرّجام محجبا      من دونه الصخر الأصم حجاب  
وله استعمالات معرقة في الغرابة كقوله « اليوم أيوم والنهار شرير » وقوله : فما لداري أصبحت حَجِرَة ؟ « أي كثيرة الحجارة » وقوله :

فوارحمتا لابن الحكومة قوسه      قلع وهل يثرجى سداد قتلوع  
والقوس القلوع هي التي تنفلت حين النزاع فتقلب ، فلا يرمى بها ، وإذا رمي بها فلا يصاب الهدف .

وقوله : « نجلته أمهة » يريد أمّا<sup>(١)</sup> ، والخمر عنده « جربال » في قوله :

يهفو النسيم عبيراً من شمائله      كأنما هو في الألباب جربال

ولا نشعر حين يختار القوافي الصعبة النادرة ككافية الجيم ، أو القاف مثلاً أنه يتكلف هذه القوافي ، أو أنها قلقة ، أو أنه برّم بها ، فلا يلبث أن يوجز وينهي

(١) ص ١٧٦ من الديوان .

القصيد ، وإنما الأمر عنده على العكس فقصيدته القافية في حوادث الحرب الكبرى الأولى تزيد عن المائتي بيت جمع فيها كل قافية مستعصية مثل « الزنيم الحفلق<sup>(١)</sup> » ، و « ميثاء سنلق<sup>(٢)</sup> » ، و « الحارش المتفق<sup>(٣)</sup> » ، ومثل قوله :

فما لبثوا أن أرمز الموت بينهم بداهية من حول ( غزة ) بَهْلِق<sup>(٤)</sup>  
ومثل قوله :

فهذا فريق في التلال مصرّع وذلك فوق الأمعر المتوهّق<sup>(٥)</sup>

وهذه القصيدة وحدها أكبر دليل على تمكنه من غريب اللغة ، وله غيرها قصائد وعرة القافية واللفظ كقصيدته في رثاء حمزة فتح الله التي مطلعها :

كبد بما صنع الأسى تنزع بان الخليط بها عشية ودعوا

وكل شعره جَزَل ، قوي التركيب ، شديد الأسر ، محكم القوافي ، غاص بالغريب ، له جلجلة ورنين في الأذن وانسجام موسيقي رائع ، يدل على أن صاحبه لم يتكلفه وإنما كان ينطلق من لهاته كالسيل الجارف .

وإذا نظرنا إلى أغراضه وجدناه يقول في الأغراض المعروفة عند العرب من قبل ، وإن كان قليل المديح ؛ لأنه لم يك يرجو ثواباً من أحد ، أو يطمع في منصب ، وليس من شعراء الحاشية ، وطبعه البدوي يربأ به عن الزلفى والتفاق ، ولذلك لم يمدح إلا لفكرة ، أو غاية سامية ، وجلّ ثناءه على أصدقائه الذين أسدوا إليه جيلاً ، وليس له في السلطان عبد الحميد إلا قصيدة واحدة بمناسبة إعلان الدستور ،

(١) الزنيم : الملحق بقوم ليس منهم كأنه زئمة ، وهي ما يقطع من أذن البعير والشاة فتترك معلقة ، والحفلق : الأحمق الضعيف .

(٢) الميثاء : الأرض السهلة ، والسلق : الأرض المستوية الجرداء التي لا شجر فيها .

(٣) حرش : القصب صاده فهو حارش ، وهو أن يحرك يده على جحره ليظنه حبة فيخرج ذنبه ليضربها ليأخذه ، وتنفق الرجل الربوع أخرجه من نافقائه فهو متفق .

(٤) أرمز الرعد اشتد صوته ، والنافاة حنت على ولدها ، والبهلِق : الداهية قال رؤبة :

حتى ترى الأعداء مني بهلقاً انكر مما عندهم واقلقاً

(٥) الأمعز : المكان الصلب ، الكثير الحصى ، والتوهّق : الشديد الحرارة .

وقد كان نافرأ من حكمه ينعي عليه استبداده وجبروته ، وقد ذمَّ عهد عبد الحميد في قصيدة طويلة بعث بها إلى صديقه الشيخ عبد القادر المغربي ، وكان مضطهداً في عهد عبد الحميد وفيها أبيات تجري مجرى الأمثال ، من هذا قوله :

إذا الملك لم يعط الرعية حقها      فغير عجيب أن يتهان ويخلعا

وقوله :

وما الملك إلا ما أقامت له الظُّبا      على الحق صرحاً سامي العرش أتلعاً<sup>(١)</sup>

وليس له في الخديو عباس سوى قصيدتين إحداهما قالها حين عاد الخديو من الحج . ولقد أفاد عبد المطلب من انصرافه عن المديح ، فعني بالأمور العامة لوطنه ، ومرائيه أكثر من تهانيه ومديحه ، وهي قوية جدٌ ، تتم عن عاطفة غلابة ، ولم يرث إلا صديقاً أو زعيماً وطنياً . وقد علمت مبلغ وطنيته ، وصدق ولائه لفكرة الوطن والاستقلال ، وعداوته للمحتل الغاصب ، فإذا مات الزعيم فقد فقدت الأمة قائداً محنكاً وهي في أمس الحاجة إليه . وإذ رثى أعطاك صورة واضحة عن المراثي ، ولا يخفى بهذه الحكم المتبدلة ، والمواعظ المتصنعة ، وذلك لأنه يقول عن عقيدة وفكرة ، ومعرفة تامة بخلال من يرثي وأعماله ومنزلته . خذ مثلاً رثاءه لسعد زغول :

|                             |                                         |
|-----------------------------|-----------------------------------------|
| نعي الناعي بجرح الليل سعداً | فيا لله ما فعل الصباح !                 |
| جموعٌ بالعراء مدلهات        | تموج بها على السَّعة البراح             |
| وأفدة خوافق داميات          | تقرِّي في جوانبها الجراح <sup>(٢)</sup> |
| وأجفانٌ أجفٌ الدمع فيها     | جويٌ بالضلوع له التياح <sup>(٣)</sup>   |
| وأبصار سكرن فلا انطباق      | تَرَفُّ به الغداة ولا انفتاح            |
| وليل بالأسى والخطب ساج      | ويوم من جوى الأحشاء راح <sup>(٤)</sup>  |
| فلا تلم النفوس جرين دمعاً   | وراء الظاعنين غداة راحوا                |

(١) أتلعاً : مرتفعاً .

(٢) تقرِّي : تقطع .

(٣) التياح : العرقة والمطرش .

(٤) راح : شديد الريح .

أَتَلَحَّا أُمَّةً ثَكَلَتْ أَبَاهَا      أَضْلَهْمُ الْحَجَا فَبَكُوا وَنَاحُوا  
إِذَا كَتَمُوا الْأَسَى جَلَدًا أَلَحَتْ      عَلَيْهِمْ لَوْعَةُ الْبَلْوَى فَنَاحُوا  
أَبَ لَوْلَاهُ مَا عَرَفُوا حَيَاةً      وَلَا عَرَفْنَا لِلْإِسْتِقْلَالِ رَاحُوا<sup>(١)</sup>

ثم يروح يصور لك سعداً ومنزلته ، وما صنعه لقومه تصويراً بديعاً قوياً ، مشوقاً بعاطفة تضطرم بين جوانحه أسى ولوعة لفقد هذا الزعيم . وكل مرثية عامرة بهذه العاطفة ، مما يدل على أنه لم يكن يرثي مجاملة أو تفاقاً ، وإنما كان يرثي لأنه محزون مكلموم الفؤاد ، استمع إلى رثائه في صديقه الشيخ عبد العزيز جاويز بعد مضي عام على وفاته وكيف يبدأ قصيدته :

لِيلِ شَرِبْتُ بِهِ الْهَمُومَ أَجَا      جَعَلَ الْأَسَى لَكُوْوسَهْنَ مِرَا  
خَرَسَتْ جَوَانِبُهُ وَلَجَ ظَلَامُهُ      يَا لِيلِ مَا لَكَ بِالْأَدَجِيِّ مِلْجَا

وله فيه قصيدة أخرى طويلة حين وفاته وفيها يقول :

يَا قَوْمَ مِنْ أَبْكَى وَمِنْذَا الَّذِي      أَنْعِي إِلَيْهِمْ بِالْأَسَى ذَاهِلَا  
أَنْعِي أَخَا الْعُمْرِ شَقِيقَ الصَّبَا      هِيَهَاتَ قَدْ وَلِيَ الصَّبَا حَافِلَا  
مَنْ لَمْضِيٍّ لَمْ يَجِدْ مَوْتَلَاً      مَنْ لَيْتِيْمٍ لَمْ يَجِدْ عَائِلَا ؟  
مَنْ لِلَّتِي تَحْتَ سَوَادِ الدَّجَى      يَذْزِرِي أَسَاهَا دَمْعَهَا الْهَامِلَا ؟  
مَا بَيْنَ أَطْفَالٍ كَزُرْعِ الْقَطَا      مَا كَسَيْتَ زَفَاً وَلَا طَائِلَا<sup>(٢)</sup>  
عَوَّدَهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ النَّدَى      تَرْجُو لَدَيْهِ غَيْثَهَا الثَّامِلَا<sup>(٣)</sup>  
دَارَ الْعُلُومِ احْتَسَبِي فَقْدَهُ      نَجْمًا هَوَى تَحْتَ الثَّرَى آفِلَا  
أَرْسَلْتِهِ نَحْوَ الْعَلَا فَانْبَرَى      لَا وَاهِنَ الْعَزْمَ وَلَا وَاهِلَا<sup>(٤)</sup>

(١) راحوا : شمو .

(٢) الزف : صفار الريش ، والطائل : القدرة والرغد من العيش .

(٣) الثامل : من عمل قومه بمعنى أثلهم وأطمعهم ، وسقامهم وقام بأمرهم .

(٤) الواهل : الفزع .



يفريه بالبأساء حبُّ العلا      يَلْكَدُ فيها الموقف الهائل  
سائل به ( برلين ) إن شئت أو      (لندن) أو (باريس) أو (نابلا)  
واسأل به ( جيرون ) أو أختها      (فروق) أو سائل به (كابلا)<sup>(١)</sup>  
كلُّ له فيها مقام على الـ      إسلام لم تعدل به عادلا  
مجاهد في الله لم يرتقب      من أحده برأ ولا نافلا

ويؤسفني أن يضيق المقام عن إثبات هذه القصيدة كلها هنا ، لأن ما اخترته منها ليس بخيرها ، وهو غير مرتب . لأنها كسائر شعره في الرثاء من عيون القصائد ، وإن كانت معانيه كلها قديمة ، ولكن عاطفته وحسن تصويره لمواقف الحزن ، وإشاداته بمآثر المرثي تضيي على القصيدة روحاً جديدة . ولعلك تلاحظ أنه يظهر اللوعة والألم وشدة الحزن في رثائه وهذا شأن الشعراء الذين يرثون وهم مفجوعون ، ولا تجد له في رثائه بيت حكمة أو موعظة كما ترى عند شوقي ، فالقصيدة كلها في المرثي ، ويعد هذا الباب من أقوى أبواب شعره .

وثمة غرض آخر من أغراض شعره كان فيه صادقاً لأصله العربي ، وذلك هو الوصف ، فقد اشتهر العرب بالدقة في الوصف ، ولا سيما إذا كانوا بدواً ؛ لأن الصحراء قد أرهفت حواسهم ، فعنوا بدقائق الأشياء ، وقد بينت في غير هذا الكتاب أثرها فيهم وفي أدبهم<sup>(٢)</sup> .

ومن الغريب أن عبد المطلب يحسن تصوير الحالات أكثر من تصوير الأشياء ، ولعلك تتذكر ما قلته نجيب حداد عن الفرق بين الشعر العربي والغربي<sup>(٣)</sup> في هذا الموضوع ، وأن الغربيين اشتهروا بوصف الحالات على العكس من العرب ، وهذا يدل على شاعرية قوية لدى عبد المطلب ، ولو أوتيت حظاً من ثقافة غربية أو وجهة توجيهها جديداً لأبدعت أيما إبداع .

ومن تلك الحالات التي صورها فأجاد تصويرها حال المعلم ، وتعمس الإنجليز

(١) جيرون : موضع عند باب دمشق ، وفروق : اسم القسطنطينية .

(٢) ارجع إلى النابغة الذبياني ص ٥٥ وما بعدها ، وإلى الفتوة عند العرب الفصل الثاني .

(٣) راجع فصل النقد الأدبي من هذا الكتاب .

في مصر وتصوير حاله وهو ضيف بقصر الباسل ، وتصويره لموظف الحكومة إبان الحرب العالمية الأولى ، وما عاناه من غلاء ، وبؤس وشقاء ، وتصويره للجنود الإنجليز وسواهم بمصر أيام الحرب العالمية الأولى ، إلى غير ذلك من الحالات التي هاجت شاعريته ، فاستجابت لها ، وأبدعت في تصويرها . خذ مثلاً قوله يصف حال بعض الطلبة المصريين وقد هوى بهم القطار في طريقهم إلى برلين يطلبون العلم بعد الثورة المصرية :

|                              |                          |
|------------------------------|--------------------------|
| حملوا مَنَى لو أنْ جذوتها    | لفحت جبال الألب تستعر    |
| بأبي نفوس في الدُّثْنَا زهدت | فمضت لدار الخلد تبتدر    |
| بأبي غرائق الصُّبَا ذهبت     | أشلاؤها في الترب تنتشر   |
| بأبي دم قانٍ هناك جرى        | فوق الثرى كالمسك ينتشر   |
| بأبي صريع لا وساد له         | إلا الثرى المخضوب والحجر |
| صاح يَخْذُ الأرض من ألم      | أو ذاهل مما به خدر       |
| ولربما نادى : أبي ، ودعا :   | أمي ، ودمع العين ينحدر   |

لقد استطاع جد المطلب في هذه القطعة أن يخلق في سماء الخيال ويستحضر المنظر البشع ، ويمطيك منه صورة قريبة من الحقيقة وهذه هي الشاعرية المركبة كما مرَّ بك . استمع إليه كذلك يصف حال المعلم وبؤسه ، وكده في سبيل العيش ، وسهره المتواصل في سبيل النشء ، والناس يثرون وهو لا يزال في فقره :

|                                  |                               |
|----------------------------------|-------------------------------|
| سلوا عنه جنح الليل كم بات متعباً | تمام حواليه النجوم ويسهر      |
| سلوا عنه عيناً قرح السهد جفنها   | يخط عليها في الظلام ويسطر     |
| سلوا عنه جسماً بات بالسقم ناحلاً | فلا البرء مأمول ولا هو يُعذّر |
| سلوا عنه أسفاراً قضى الليل بينها | غريباً عن الدنيا وأهلوه حضر   |
| سلوا عنه قلباً بات يخفق رحمة     | على فتية من حوله تتصور        |

يروّعه صَرَف الليالي عليهم ُ وعاتٍ حوالِيهم من البؤس يزأر  
فإن مدّةً للدنيا يداً يستمدّها لهم ، عنه ولت وهي غضبي تشزّر  
سلوا عنه إخواناً قضى العمر بينهم غدواً في ثراء وهو بالفقر أخبر

وهذا وصف دقيق صادق لحال المعلم المخلص في عمله ، لا نجد له نظيراً في أدبنا الحديث • وهالك ما قاله وهو ضيف بقصر الباسل ، وهو على ما به من إيجاز يعطيك صورة واضحة عن حاله ثمة :

وليال مضيتُ بالقصر غر ضافيات السرور والإيناس  
لم أكن فيه مثل ما ينزل الضيف ف غريباً في حشمة واحتراس  
إنما كنت بين أهلي وإخوا ني مقيماً في معشري وأناسي

وهالك ما قاله في موظف الحكومة إبان الحرب العالمية الأولى وقد اشتد به الضيق وحزّ به الضرّ ، من شدة الغلاء ، وكثرة البلاء حتى وضعت منزلته بين قومه ، وهان على الناس ، على حين أثرى الجهال وارتفع السّفلة •

طلّيح أسى كابين الحكومة لاحه تباريح هم بالفؤاد وجيع  
لقد كان في بحبوحة من حياته وحرز من الفقر المكين منيع  
يمر فيغضي الناظرون مهابة وإن هو حيّاً أومئوا بركوع  
فأصبح مهزول المكانة خاملاً همامة حرّ في ثياب وضع  
يرى الناس في أكناف مصر تربعوا منازل عيش باليسار وسيع  
فمن زارع ضاقت خزائن بيته بغلات جنات له وزروع  
ومن تاجر إن ترجع القول عنده حرمت إذا لم تأت به بشفيع

إن هذه صور زاهية فيها إلمام بالحالة النفسية والظاهرية ، تدل على مقدرة ، وعلى دراسة وتمكن من الموضوع ، وعلى شاعرية وحسن أداء •

ولا تحسبن أنه في وصف الأشياء دونه في وصف الحالات ، فوصف الشيء هو

ما برع فيه العرب • وقد أثبت ديوان عبد المطلب فيضاً من الموصوفات ما بين حسي ومعنوي ، وكان له غرام بوصف بعض المخترعات الحديثة كالقطار والطيارة ، وتراه لا ينفك في كثير من القصائد يذكر البخار وعجائبه •

فمن موصوفاته البديعة ما صورَّ به مختلف الجنود التي جلبها الحلفاء إبان الحرب العالمية الأولى إلى مصر ، من طويل عملاق ، وقصير قزم ، وأسود ، وأبيض ، وأحمر ، ووصف عربدتهم وفستقهم :

|                               |                                                     |
|-------------------------------|-----------------------------------------------------|
| تبصّر خليلي هل ترى من كتائب   | دَلَفَن بها كالسَّيل من كل مَوْدِقِ <sup>(١)</sup>  |
| سراعاً إلى الحانات تحسبهم بها | نعاماً تمشَّى رَزْدَقاً خلف رَزْدَقِ <sup>(٢)</sup> |
| يهزك مرآها إذا اصطحبت بهم     | مواخير تجلو فاسقاتٍ لِفَسَقِ                        |
| إذا أجلبوا فيها حسبت جنادبا   | تجاوَبَن إيقاعاً على صوت نَقْنَقِ <sup>(٣)</sup>    |
| كأن بني حام بمصر تواعدوا      | ليجتمعوا من بعد ذاك التفرق                          |
| زعائف شتى : من طويل مشذب      | طري القرا عاري الأشاجع أعنق <sup>(٤)</sup>          |
| وملتصق بالأرض تحسب خطوه       | إذا مرَّ في أحيائها خطو خِرْنَقِ <sup>(٥)</sup>     |
| وأخس محقو الحجاجين ينتحي      | لأصمع معروق العذارين أشنق <sup>(٦)</sup>            |
| وأسود نهْد الوجنتين حديثه     | بجحفلة تنهال عن شدق أفوق <sup>(٧)</sup>             |

(١) المودق : معترك الشر . (٢) الرزدق : الصف من الناس معرب ( رسته ) بالفارسية .

(٣) النقيق : أصوات الضفادع .

(٤) الزعنف : كل جماعة ليس لهم أصل واحد ، المشذب : المشحور أو المقطوع الأطراف ، ولعله يريد به المشوه ، والقرا بفتح القاف : الظهر ، والأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بمصّب ظاهر الكف والأمنق : الطويل العنق .

(٥) الخرنق : الفتى من الأرانب .

(٦) الأخنس : الذي يتأخر أنفه من وجهه مع ارتفاع قليل في الأرنبة . والحجاجان : العظمان اللدان ينبت عليهما الحاجبان ، ومحقو الحجاجين : لا أثر لهدبين العظمين لديه ، والأصمع : الصغير الأذن والمعروق : القليل اللحم : والعدار : هو من الوجه ما ينبت عليه الشعر المستطيل المحاذي لشحمة الأذن إلى أصل اللحي ، والأشنق : الطويل الرأس .

(٧) نهْد الوجنتين : بارزهما ، والجحفلة من الحيوان كالشفة للإنسان ، والأفوق : التكسر الأسنان مأخوذ من قولهم : « سهم أفوق » أي كسر فوقه .

إنه تصوير رائع لهذا الخليط من البشر ، وكل شخص من هؤلاء صورة حيّة . وقد وصف في هذه القصيدة ذات القافية المشهورة أعمال دانلوب مستشار وزارة المعارف الذي مرت علينا مساوئه في الفصل الأول من هذا الكتاب وصفاً قوياً دقيقاً فقال :

|                                                                                                                                                                                                         |                                                                                                                                                                                                     |
|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>وبالعلم سل «دنبوبهم» لِمَ لم يدع<br/>رمتنا به حمى أصابت بلادهم<br/>ولو وزنوا في غير مصر مقامه<br/>فأصبح داء في المعارف قاتلاً<br/>فوهاً على تلك العقول التي ثوت<br/>ثلاثين عاماً يسكب النيل حسرة</p> | <p>ذواقاً من العرفان للمتذوق<br/>تطير عنها كل فدم حَبَلَق<sup>(١)</sup><br/>لأرخصة في السوم كل مدَّتَق<br/>يسدد فيها كل سهم مفوق<br/>بكفيه في لحد من الجهل ضيق<br/>على العلم دمع الوالد المتشوق</p> |
|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

وله قصيدة في وصف ذهاب سعد زغلول إلى عמיד بريطانيا يطلب هو وصحبه منه رفع الحماية عن مصر ، وكيف كانت حالة البلاد في تلك الأيام ، وكيف قابل الإنجليز هذا الطلب المتواضع بعنجهية وغلظة أدّيا إلى قيام الثورة ، وفيها يقول مخاطباً سعد زغلول :

|                                                                                                                                                                                                                                                                            |                                                                                                                                                                                                                                                                                     |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>ما تنس لا تنس يوماً قمت فيه على<br/>والناس هلكى تموج الحادثات بهم<br/>« لا نوم إلا على خوفٍ وزلزلة »<br/>والحق بين القنا والبيض مختدر<br/>لم تخش وقع الردى لما صدعت به<br/>عمادك الحق لا جند ولا حصن<br/>إلا عزائم أهلوها إذا زخرت<br/>سكوا وجوه العوادي وهي تزجرهم</p> | <p>سجية الليث لا وهن ولا خور<br/>فالأرض ترجف والبأساء تستعر<br/>فيها ، ولا ضوء إلا النار والشر<br/>أو مضمّر في بطون الغيب تستتر<br/>والسيف يلمع والخطيئ مشتجر<br/>ولا حصون ولا يبيض ولا سُمُر<sup>(٢)</sup><br/>ريح العظائم في تصريفها زخروا<br/>إلى المصارع ما طاشوا وما ذعروا</p> |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

(١) القدم : المي عن الكلام في نقل ورخاوة وغبابة ، والحلق : الصغير القصير .

(٢) حصن : جمع حصان .

قامت تساورهم غضبى يؤيدها جند من البغي والعدوان مقتدر  
في كل شعواء ترتج البلاد لها تستنفد الصبر لا تبقي ولا تذر  
للفني قوم وللإعدام طائفة وفي السجون فريق للردى حشروا

وهذا وصف قوي لابتداء الثورة المصرية ، وكيف صدع سعد بالحق في وقت  
اشتد فيه بأس العدو ، وقد خرج مظفراً من حرب طاحنة ، وذهبت مصر تؤيد  
زعيمها ، واضطربت البلاد وزلزلت زلزالاً شديداً ، والناس يطلبون حقهم من يد عدو  
قوي غنيف مدجج بالسلاح ولكنّ سعداً لم يقدم على الثورة إلاّ معتمداً على الحق  
وحده إذ ليس وراءه جند يؤازرونه ، ولا حصون تحميه ، ولا مدافع تؤيده ، وما  
هي إلاّ عزائم قومه صكوا بها وجوه العوادي ، وهي تزجرهم إلى المصارع ، ومع  
ذلك فلم تطش أحلامهم ، أو يدب الذعر إلى قلوبهم ، وقام العدو يردهم عن باطله  
تؤيده جنوده ودباباته ، يثب عليهم مرة بعد أخرى ، وقد بغوا وطفخوا فنفوا ،  
وأعدموا وسجنوا كثيراً من المصريين •

ولكن يلاحظ أنه في وصفه هذا لا زال بدوياً في تشبيهاته ؛ فسعد في إقدامه  
« ليث » لا يهن ولا يخور ، والحق بين « القنا والبيض مختدر » ولا قنا هناك ولا  
بيض ، بل مدافع رشاشة ، وبنادق سريعة ، وسعد لا يعتمد على بيض ولا سمر •  
ويقول في هذه القصيدة يصف « سيثل » تلك الجزيرة التي نفي إليها سعد  
زغلول ، وقد أجمل في بيت واحد مساوئ تلك الجزيرة ، فأعطى صورة واضحة  
عنها ، لأنها جزيرة موحشة ، موبوءة الأمراض ، لا يرتاح فيها ساكنها ، أو يهدأ له  
بال حتى يغشى الكرى جفنيه •

حتى أناخوا بأرض أمنها فزع والبرء فيها سقام والكرى سهر  
وله في وصف انقسام المصريين على أنفسهم ، وتصدع وحدتهم ، وشماتة العدو  
الجاثم في البلاد بهم قصيدة رائعة ، ولكنها بدوية النسيج ، غريبة اللفظ وإن كانت  
دقيقة الوصف ، استمع إليه كيف يصور ذلك الانقسام الذي أدى إلى خذلان مصر  
في قضيتها :

يا قوم ما هذا العدا ، وكم هوى قدما بعز ممالك وملوك  
يرمون بالخطب الطوال وكلها خطرات أرعن أو سباب أفيك<sup>(١)</sup>

(١) الأفيك : الضيف المقل .

من كل مرتبك المقالة رأيه  
تركوا البلاد على الهوان تخب في  
يذكي بها لهب العداوة بينهم  
والليث منتشر المخالب فاغر  
جاث يخاف النيل من غدراته  
يا مصر ما لك غير أهلك فتنة  
ما أنت بالبلد الشقي وإنما  
فتنتهم الدنيا فلما استئسوا

زيفان بين مسفه ورييك<sup>(١)</sup>  
أذيال أسود بالبلاء محوك  
خطل السفه وإمرة المأفوك  
يختال في جبرية<sup>(٢)</sup> وفتوك<sup>(٣)</sup>  
بأساء يوم بالخطوب عتيك<sup>(٣)</sup>  
في الله ما لاقيت من أهليك  
جلب الشقاء على بنيك بنوك  
منها على أهوائهم فتوك

فهل رأيت وصفاً أدق من هذا الوصف لتلك الحالة المزرية التي آلت إليها مصر على يد المتزعمين فيها ، وهم يرمون بالخطب الطويلة ، وكلها خطرات أرعن ، أو سباب أفيك كذاب ، والكتاب يزورون مقالات زائفة يحررها أحد رجلين ، إما شخص سفه الرأي ، أو مرتبك لا يدري وجه الصواب ، وقد ترك الجميع البلاد في هوان وذلة عليها ثياب الحداد وخزي الاستعمار ، وقد أذكى العداوة بينهم خطل السفه وتزعم المأفوك ، بينما العدو يختال في البلاد كالليث الفاغر فاه يفتك وبيطش . فأهل مصر بهذه العداوات الصغيرة والحزازات الوضيعة هم سبب بلائها ومصدر شقائها ، وقد رد على حافظ ابراهيم حين قال :

فما أنت يا مصر دار الأديب وما أنت بالبلد الطيب

فمصر عند عبد المطلب ليست بالبلد الشقي ، وإنما جلب الشقاء عليها بنوها الذين يعتسفون الطريق ، ولا يعرفون كيف يتحدون فيما بينهم على الأهداف الواضحة ، ويدعون عدوهم يعيش في البلاد فساداً ، ويشغلون أنفسهم بتوافه الأمور وبحزازاتهم الشخصية عن تنغيص مقامه عليه ، وطرده من بلادهم لأنهم قد :

فتنتهم الدنيا فلما استئسوا منها على أهوائهم فتوك

وقد أولع عبد المطلب بوصف بعض المخترعات الحديثة كالطيارة ، والقطار ،

(٢) جبرية : مصدر بمعنى القوة .

(١) زيفان : زائف .

(٣) العتيك : الشديد .

والباحرة ، وكأنه شعر بأنه لن يكون شاعراً مكتمل الشاعرية ، مثلاً لعصره أتم التمثيل إلا إذا وصف هذه المخترعات ، وهو الذي ينعت النقاد بالشاعر المتبدي ، والشاعر المقلد ، فأراد أن يبرهن على أنه على الرغم من نزوعه إلى القديم في شعره لا يقل عنهم احتفاءً بالجديد من الموصوفات . وقد أثار الأستاذ العقاد موضوع هذه المخترعات في كلمته عن عبد المطلب وقال : « ولما ظهر المذهب الحديث في الشعر حاول عبد المطلب أن يفهمه ليرد عليه ويتحداه ، فلم يفهم منه إلا أنه وصف المخترعات العصرية ، والآلات الحديثة والنظم في الطيارة كما كان الشعراء الأقدمون ينظمون في النوق والأفراس » .

وذكر أنه لقيه بعد أن سمع قصيدته « العلوية » وسأله عن رأيه فيها فأثنى على جودة سبكها ومتانة نسجها ، وذكر أن هذا موضوع للتحليل ، ولكن عبد المطلب عالجه على طريقته القديمة ، ولم يعالجه على طريقة المحدثين ، فردّ عبد المطلب بأنه وصف الطيارة ، فتهكم به العقاد ، وقال : إنك لم تصف الطيارة التي تود أن تلاقي بها الإمام على السحب إلا كما وصف الأقدمون الناقة التي توصلهم إلى الممدوح « وموطن الخطأ أنكم تحسبون الشاعر العربي يصف الناقة لأنها أداة مواصلات ، فتحسبون وصف هذه الأشياء في عصرنا فرضاً على الشاعر الحديث ، وليس الأمر على هذا الحساب » وذكر أن الشاعر العربي إنما كان يصف الناقة لأنها جزء من حياته يحس بها الأُنس في القفار الموحشة ، ويأكل من لبنها ولحمها ، وينسج ثيابه ، ومسكنه من وبرها ، ويعرفها وتعرفه كما يتعارف الصحاب من الأحياء « ويعيب على هؤلاء الذين يتلقفون ما تخرجه المصانع من مخترعات ويروحون يصفونها ، لأنهم لا يدرون لماذا يصفون وينظمون ، وهم في هذا الوصف محاكون أقدم من الشاعر الجاهلي ، وأبعد من الشاعر العصري عن واصف الناقة في البيداء ؛ لأن الشرط الأول في الشعر الحديث أن يصف الإنسان ما يحس ويعي ، لا أن يصف الأشياء مجازاة للأقدمين عكساً وطرذاً في أنواع المجازاة » (١) .

على أن وصف المخترعات الحديثة يجب ألا ينظر إليه هذه النظرة ، فإذا كانت الناقة في القديم جزءاً من حياة العربي البدوي ، وعاملاً مهماً فيها ، فإن المخترعات

(١) شعراء مصر وبشائهم في الجيل الماضي ص ٤٩ - ٥٢ .



الحديثة قد ينظر إليها الشاعر على أنها ثورة الإنسان على الطبيعة ، وتغلبه عليها ، وتذليله لها ، وعلى أنها عامل مهم في حياته كذلك ، قربت له البعيد ، ومهدت له سبيل الثراء إلى غير ذلك من المنافع . ثم إنه قد يرى فيها حلما من أحلام الإنسانية صار حقيقة ملموسة فهو يتخذ من الجو بساطا ممهدا ، يشارك العقبان في أجوائها ، والهواء في مساربه ، ويعتلي ظهر الماء آمنا مطمئنا سريعا ، بل يغوص في أغواره يشارك الحيتان مسابحها ، ويصعد فوق صهوات السحب ويلقي نظرة من عليائه على الدنيا فإذا المدن العظيمة كأنها لعب أطفال فتثير هذه الحال في نفسه مشاعر وأحاسيس جديدة .

وقد خلد بعض شعراء الغرب لأنهم عنوا بمظاهر الحضارة الحديثة ، ووصفوها ، وخصصوها بحظ كبير من شعرهم مثل كبلنج Kipling الشاعر الإنجليزي وهو من شعراء القرن العشرين وقد قال عنه نقاد الأدب الإنجليزي ومؤرخوه : « إنه عظيم لأنه كشف عن موضوع جديد للشعر ، وخلق عليه من خياله وحرارة وجدانه ما جعله موضوعا شعريا جذابا ، إنه تميز عن سواه بوصف آلات الحضارة الحديثة ، كالقطار ، والباخرة ، والمسرة ، والبرق ، والطيران ووجد فيها منبع إلهام ، لم يتهيا لسواه من الشعراء لاعتقاده أن الناس في هذه الأيام لا يرون زمانهم أجمل من زمن أسلافهم ويحلمون دائما بالماضي ويتحسرون عليه ، مع أن جمال الحاضر أروع من جمال الماضي » (١) .

وإذا كان عبد المطلب في وصفه للطيارة في مطلع القصيدة العلوية نهج سبيل العرب في وصفهم للناقة التي توصلهم إلى الممدوح أو إلى الغاية من رحلتهم وذلك حيث يقول :

|                                        |                           |
|----------------------------------------|---------------------------|
| إِذَا مَا هَزَمْتَ فِي الْجَوِ خَلْنَا | جبال النجم تهدم انهداما   |
| وإن زجرَ الرِّياح جرت رُخاءٌ           | وولت حيث يأمرها الزَّماما |
| يسف على الثرى طوراً وطوراً             | تراه على الذرى شق الغماما |
| أجدك ما النياق وما سراها               | تخوض بها المهامه والأكاما |
| وما قطر البخار إذا استقلت              | بها النيران تضطرم اضطراما |

فهب لي ذات أجنحة لعلِّي بها ألقى على السحب الإماما

فإنه في غير هذه القصيدة قد أبدع في وصف الطيارة على طريقته . وذلك حين قدم الطائران التركيان لأول عهد الشرق بالطيران إلى مصر ، وذلك حيث يقول :

|                        |                                     |
|------------------------|-------------------------------------|
| وقفت لك الدنيا فسيري   | مَسْرَى الضياء من الأثير            |
| يا أختَ سابحة النجو    | مِ وَبنت سائحة الضمير               |
| من عهد آدم لم تزل      | عذراءَ مسبلة الستور                 |
| بكرا تقلبها أكف        | الغيب في طي الدهور                  |
| حتى جلتها للعيو        | ن منصة العهد الأخير                 |
| ثارت لتأخذ باسمه       | عهداً على ملك الطيور                |
| ملك البخار على السما   | ك بصولة الملك القدير                |
| في كل غواص ورسنا       | بِ بأحشاء البحور                    |
| ثم انثنى يرمي سما      | ك الجو بالجيش الغزير                |
| فالنجم في فرق يجو      | ل بجفن مرتاع حسير                   |
| والسحب من حذر البخا    | ر وبأسه حيرى المسير                 |
| يا منذر الأفلاك هل     | للأرض دونك من نصير                  |
| ما هذه الورق التي      | في الجو تملو في الهدير              |
| غَيْرَى من الأطيّار في | أحشائها لهب السعير                  |
| فتنخ "مخالبا الحد      | يد وريشها نسج الحرير <sup>(١)</sup> |
| غيت بمجبول الدمة       | س عن القوادم والشكير <sup>(٢)</sup> |

(١) الفتنخ : لين المفاصل ، ويقال للمقاب فتخاء لأنها إذا انحطت انكسر جناحها وهذا لا يكون إلا من اللين ، وهو يريد أن يشبهها بالمقاب ، وبأنها لبنة الحركات .

(٢) الشكير من الشعر والريش ، صفاره بين كباره . والدمقس : الحرير الأبيض .

ترد السحاب الغر إن      ورد الحمام على الغدير  
خسعت لها هوج العوا      صف في الرواح وفي البكور

وفي هذا الوصف خطرات شعرية رائعة لا تتأني إلا للموهوبين وذلك حين وصف الطائفة بأنها نجم من النجوم وأنها « بنت سائحة الضمير » وفكرة ظلت عذراء من عهد آدم مرخى عليها الستر ، وبكر " لم يخترعها عقل إنسان ، قلبها أكف الغيب في طي الدهر حتى جلتها للعيون الحضارة الحديثة ؛ وكأنني به يتصور العالم العلوي دهشاً لهذا الشيء الذي يصعد إليه من الأرض ، هل صعدت الطائفة لتأخذ ثأراً من عقاب الجو أو النسر ؟ ! وانظر النجم هل تراه فزعاً مرتاع الجفن ؟ والسحب ما بالها حيرى حذر البخار ؟ • أهى ورقاء في الجو تغلو بالهدير ، تغار من الأطيوار فأضمرت الغيرة في أحشائها ناراً ؟ ثم انظر معي لهذا الخيال العجيب ، أنها ورقاء ولكن ترد السحب لتشرب حين يرد الحمام الغدير • فهل عبد المطلب كما يقول العقاد كان يقول الشعر للمهارة اللغوية فحسب من غير أن يصدر عن خيال أو عاطفة ؟

لم يصف عبد المطلب الطائرة وصفاً علمياً ، أو تاريخياً ، وإنما وصفها وصفاً شعرياً مبيناً أثر العقل الإنساني في تذليل قوى الطبيعة وتسخيرها لخدمة البشرية ، وهذا ما يتطلبه الشعر ، وحسبه هذه النظرة للمخترعات الحديثة • ولكننا نلاحظ أن عبد المطلب لم يعن بوصف الطبيعة ومناظرها ، مصرية كانت أو غير مصرية ، وفي البيداء التي يغرم بها مناظر ساحرة ، خليق " بشاعر حساس محب للبادية مثل عبد المطلب أن يقف أمامها وقفات طويلة ، يستجلي جمالها وروعته ، كما فعل أسلافه شعراء العربية ، من قبل • ولست أدري سبباً لخلو شعره من وصف الطبيعة ، ولعل نزوح شاعريته في سني الحرب العالمية الأولى ، وقيام الثورة المصرية شغله بالنظر إلى الأحداث القومية والشئون الاجتماعية عن النظر إلى الطبيعة ، ولم يكن هذا عيبه وحده ، بل هو عيب لحق غيره من معاصريه ، وقد تكلمنا عن موقفهم إزاء الطبيعة المصرية آنفاً •

ويلاحظ كذلك أن عبد المطلب لم يلتفت أدنى التفاتة إلى الآثار المصرية كما فعل شوقي وإنما نظر إليها نظرة خاطفة حين افتخر بمصريته • وقد تبع هذا الإهمال لآثار مصر أنه لم يعرج على التاريخ المصري القديم ، ولكن عبد المطلب — والحق

يقال — كان عربياً مسلماً ، ولذلك وقف بعض الوقفات أمام أحداث التاريخ الإسلامي كما سيأتي عند الكلام عن أثر الدين في شعره •

على أن الشاعر المكتمل الشاعرية ، القوي الإحساس بالجمال والعظمة لا يملك حين يرى الطبيعة في أوج حسنها ، أو عنفوان سخطها إلا أن يتأثر وينفعل ويقول ، كما لا يملك حين يفكر ملياً في عظمة آثار مصر ، وكيف شيدت ، وغالبت الدهر ، ومرت عليها أحداث القرون في مواكب متتابعة ، ومصر الخالدة نبيلها وآثارها لم تتأثر بتلك الأحداث لا يملك حين يفكر في كل هذا إلا أن تتفتح أمامه مغاليق المعاني ، ويسبح في سماءات الخيال • ولعل العلة الحقيقية في عزوف كثير من شعراء الجيل الماضي عن وصف الطبيعة واستلهاام التاريخ هي أنهم جروا في أغراض الشعر على مذهب الأقدمين ، وشغلوا بأنفسهم عن العالم الخارجي ، وكانوا ذاتيين لا موضوعيين ، فجنى عليهم التقليد ، وحبس شاعريتهم عن الانطلاق إلى آفاق جديدة إلا القليلين منهم •

هذا ومن الأغراض الشعرية التي عني بها عبد المطلب الحياة الاجتماعية بمصر • وقد سبق أن أشرنا إلى مواقفه من مشكلة الفقر والغنى<sup>(١)</sup> ، وأنه اكنوى بنار العوز إبان الحرب العالمية الأولى ، وكان من الطبقة المتوسطة في الشعب لم يرث مالا ، أو يحرز ثراء فلمس بنفسه ألم الحاجة ، وكان من الكادحين في سبيل الرزق فعرف عن قرب مرارة الفقر والحرمان •

ولعبد المطلب فيما يتصل بهذه الناحية عن قرب قصة طريفة لامرأة فقيرة عجوز جاءت وابنتها إلى القاهرة تبحث عن عمل يكفيها شر السؤال ، وكانت هذه أول مرة تفد فيها إلى القاهرة ، فما أن نزلت ميدان ( باب الحديد ) حتى بهرتها الأضواء والضوضاء وتعدد السبل فوقفت حائرة برهة ولكن عين الشيطان كانت ترقبها ، فما أن لحظ ترددها وهيبته حتى دلف إليها في صورة ملاك يتقدم للأخذ بيدها ، وإرشادها إلى سواء السبيل فأقبلت عليه بوجه باش تبثه خبيثة نفسها ، وهو يبدي لها من صنوف العطف والرحمة ما ألهج لسانها بالدعاء له ، ولما رآها قد أمنت جانبه قليلاً أخذ ينصب حائله للظفر بالفتاة ، بيد أن الأم التي نشأت في الريف ، ولها طبيعة لم تتدنس ، ارتابت في حركاته وتودده لابنتها • وما أن تيقنت من كيده ، ورأت بعين فطرتها الخيرة أنه شيطان مريد ، حتى حذرته ، وخشيت

(١) راجع ص ١٩٢ من هذا الكتاب •

سطوته ، وأخذت تقاوم ألأعبيه وكيده ، وهو يلين تارة ويشتد أخرى ، ولم ينقذهما من حباله إلا رسول جمعية المواساة في صورة شاب متعلم متدين ، إذ قدم لهما طبيب المأوى والرّفد والعناية • ولأسمعك بعض هذه القصة ؛ لأنها تدل على موهبة طيبة عند عبد المطلب في حياكة القصة شعراً لو كان قد غني بهذا واتجه إليه ، وإن كان قد ساق هذه القصة بأسلوبه الجزل القوي ولم ينح عنها خياله البدوي :

|                             |                              |
|-----------------------------|------------------------------|
| أسألت باكية الدياجي ما لها  | أرقت فأرّقت النجوم حيالها    |
| باتت تكفكف بالوقار مدامعاً  | غلب الأسى عبراتها فأسالها    |
| تطوي على الآلام مهجة صابر   | قطع الزمان بربه آمالها       |
| تبكي إذا انقطع الأنيس لصيبة | يتضورون يمينها وشمالها       |
| من كل ناعمة الحياة ومترف    | ورد الحياة معينها وزلالها    |
| يشكو الطوى فتفيض مهجة أمه   | شنقاً عليه وليس يدري حالها   |
| ولأخته عين تحدّث أمها       | وحيا ، وقد حبس الحياء مقالها |
| كلب الشتاء بجسمها فتعظفت    | تطوي على خاوي الحشا أوصالها  |

ثم يتطرق من هذا إلى قصة تلك العجوز فيقول :

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| ويتيمة شهد الزمان بيتها       | في الحسن لم تلد الحسان مثالها |
| خرجت من الإسكندرية غدوة       | تزجي إلى أكناف مصر رحالها     |
| حتى إذا وقف القطار بها على    | باب الحديد تلفعت أسمالها      |
| وسعت قلب مقلّة محزونة         | في الذاهبين يمينها وشمالها    |
| حيرى يضيق بها المجال ، وطالما | فسح اليسار على المضيق مجالها  |
| تقتاد في الطرقات فانية القوى  | محنية صبغ المشيب قذالها       |
| أربت على السبعين ما لمس الخنا | يوماً ما زرها ولا سربالها     |
| وهناك أبصرها أمروء دنس الهوى  | شرب المخازي علّمها ونهالها    |

متكلف" خُلِّقَ الكريم بيزّةٍ      قد خاطمن وَضَرَ الفجور جِلالها<sup>(١)</sup>  
يدعو إلى دار الفسوق نقيّة      عنفت وما تقض العفاف حمالها  
لما تبينت النقيصة أمثها      في حاجبيه تبينت ما هالها  
نظرت إلى الوجه الصفيق وأقبلت      غضبى تصكّ بصفحتيه نعالها

ويمضي في القصة على نحو ما ذكرت سابقاً ، وينتهي بالحديث عن جمعية  
المواساة وآثارها الجليلة في المجتمع . ومن المشكلات الاجتماعية التي استرعت  
انتباهه ما أصاب اللغة العربية على يد الإنجليز ، واللغة ظاهرة اجتماعية ، وعنوان  
على ضعف الأمة وريقها ، وقد حاول الإنجليز كما علمت في الفصل الأول أن يبلبلوا  
ألسنة المصريين ، ويضعفوا لغتهم فتضعف قوميتهم ، وكان ( دانلوب ) مستشارهم  
في المعارف هو المنفذ لهذه السياسة حتى بلغ من سخرية القدر ان كان مفتش  
المعارف للغة العربية انجليزيا هو ( المستر روب ) ، وظل الامر على هذه الحال السيئة  
حتى أخرج ( دانلوب ) من مصر ، وجاءت الثورة وعهد الاستقلال ، وتولى وكالة  
المعارف ( عاطف بركات ) وهو من أبناء دار العلوم النابيين ، ودار العلوم حصن  
اللغة العربية الحصين ، فكان حرياً به أن ينهض باللغة ، وأن يلتفت عبد المطلب إلى  
هذه المأثرة حين رثاه فقال :

وكدنا نرى أمّ اللغى قبل عاطف      فريسة عاث بالمعارف عاتي  
يريد بها السوءى ويحمل أهلها      على جَنَفٍ من بَغْيِهِ وأذاة  
تلين لأيدي الغامزين قناتها      لقلة أنصار وضعف حُماة  
ويؤنسنا منها أناس نعدهم      لكف أذى عنها وردّ عُدَاة  
فلما تولاهما تحوّل نجمها      إلى اليمن عن أيامها النُحُسات

وكان من الطبيعي أن يخوض عبد المطلب في مشكلة المرأة ، وجنوحها إلى  
السفور ، وهو الشيخ المتدين المحافظ على شعائر الدين ، فيقول للنساء في حفل  
خاص بتربية الطفل حضره أكثر من ألف وخمسمائة سيدة من عقائل مصر ، مزيّناً  
لهن الحجاب بخياله الشعري :

(١) الجلال : جمع جل وهو الكساء .

زعموهن بالحجاب عن العلم      م ونور العرفان محتجبات  
 بنت مصر كالشمس يحجبها اللي      ل وراء الآفاق والظلمات  
 وهي في أفقها ضياء " ونور "      ساطع في بدورها النيرات  
 أو هي المسك ينفذ العرف عنه      من وراء الأستار والحجرات

فينفي أن الحجاب يحجبها عن العلم ، ويصفها بأنها كالشمس والحجاب كالليل يحجبها وراء الآفاق والظلمات ، وإن لم يوفق في هذا التشبيه على الرغم من محاولته بترديده في البيت التالي بأنها في أفقها ضياء ونور ساطع في أبنائها الذين يشبهون البدور ، أي أنها تعكس ضوءها على أبنائها ، ولكن هل يغني البدر عن الشمس ؟ أو ليس مغيب الشمس مبعثاً لليل ووحشته ، والظلمة ورهبتها ؟ أو ليس محواً للوجود ، ودعوة إلى الهدوء والركود في معترك الحياة ؟

على أن لعبد المطلب قصيدة أخرى أفردتها لهذه المشكلة نعى فيها على المرأة المصرية تبذلها في ذلك النقاب الذي تدعوه حجاباً ، وما هو بحجاب ، بل يزيد في مفاتها ، وهي التي آثرت هجر البيت ، وغشيان الحقائق ، والمنتزهات ودور اللهو ، ورأى أن الحجاب الحقيقي هو ما دعا إليه الشرع ، وأنكر الدعوة إلى السفور .

ما هذه الجبرات ته      فو في الخمائل والحقول  
 نكر العفاف ذبولها      ومن الخنا قصر الذبول  
 إن ينتسب إلى الحجا      ب فإنه نسب الدخيل  
 يختلن أبناء الهوى      بالدل والنظر الختول  
 من كل خائنة الحليل تهيم في طلب الخليل  
 تقم الضحى منهن ما      خجلت له شمس الأصيل  
 بكت الخدور جفوننها      وهجرنها هجر الملول  
 ما لابنة الخدر المصو      ن وربة المجد الأثيل  
 أودى شفيف تقابها      بكرامة الأم البتول

وانجاب جيب قميصها عن وصمة الشيخ البجيل  
وعلى رنين حجولها أسفاً على الذيل الطويل  
فإذا مشت هتك النقا بـ محاسن الوجه الجميل  
وجلا المقوّر تحتة رخصاً من الصدر الثقيل

وهكذا يمضي عبد المطلب في وصف تبرجها ، ويأسف لحالها ، وحال وليّ أمرها ، ويرى أن هذا الذي سمته حجاباً ، وهو يفصح عن زينتها ويزيدها فتنة ليس هو الحجاب الشرعي ، وأنها ليست بالمرأة المسلمة الممتثلة لأوامر الدين •

أهي التي فرضَ الحجا بـ لصونها شرع الرسول  
جعلَ الحجاب معاذها من ذلك الداء الويل  
يا منزلَ القرآن نو رأ للبصائر والعقول  
عميت بصائر أهل وا دي النيل عن وضح السبيل  
ذهلوا عن الأعراض لو يدرون عاقبة الدهول

ومن المظاهر الاجتماعية التي اهتم لها ، واحتفل بها ، وصارت غرضاً واضحاً في شعره فساد الأخلاق وانحلالها ، وتفشي الإلحاد ، وضعف وثاق الدين على النفوس • وللدين عند عبد المطلب — كما عرفت في ترجمته — منزلة مكيّة في قلبه ، تشرب حبه صبيّاً ، وشب على تعاليمه ، ودرسه وتفهم أهدافه السامية • وقد كثر نحييه وبكاؤه لما أصاب الدين في مصر من وهن ، وانصراف أهله عن التمسك به ، والمحافظة على شعائره، وذلك ولا ريب أثر من آثار الحضارة الأجنبية التي فتن بها كثير من المصريين المسلمين ، ونتيجة طبيعية لتلك السياسة التي اتبعها المستعمر الغاصب ؛ لأنه يعلم حق العلم أنه لن يستقر له بمصر قرار ما دام هذا الدين العظيم يسيطر على نفوس أبنائها ، ويدعوهم إلى العزة والأثقة من مملّاة الأجنبي أو الرضا بحكمه ، وهو الذي جعلهم أعزّة ، وملّكهم العالم يوماً ما •

والشعر الديني عند عبد المطلب ألوان : فمنه تشوق ومدح لمهبط الوحي والأرض التي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم داعياً إلى تلك الرسالة الخالدة :



منازل جبريل ، ومثوى محمد      فله منها منزل وثواء  
ومشرق دين الله ، والأرض غيب      جوانبها في ظلمتيه سواء  
ومبعث أرواح السعادة في الوري      إذ الناس فوضى ، والحياة شقاء  
ومطلع ما في العالمين من الهدى      إذ الكفر داء في النفوس عياء  
ومشرع ما في الأرض من مدينة      لها نضرة في أهلها ونماء

ومنه فخر بأيام الإسلام الخالدة التي مكنت له في الأرض ، ونصرت دعوته  
يوم بدر ، ويوم حنين ، ويوم الفتح ، وفخر كذلك برجاله الأماجد أمثال أبي بكر  
وعمر وخالد وعلي والأنصار الذين آووا رسول الله وعزروه ونصروه :

وسهل عنهم بدرأً وسل أحدأً وسل      عصباً من الأحزاب يوم تحزبوا  
سل الخيل إذ جالت ببطحاء مكة      وودّ العدا لو أنهم لم يكذبوا  
ويقول عن أبي بكر رضي الله عنه :

جزى الله خيراً شيخ تيم وجنده      وراياته في الشرق والغرب تضرب  
كأنني بركن الدين يهتز خيفة      عشية مات الهاشمي المحبب  
فقام بأعباء الخلافة شيخها      وأصحابه من شدة الخطب غيب  
فما شهد الإسلام رأياً كرايه      وقد قام في يوم السقيفة يخطب

وإذا كان عبد المطلب لم يلتفت إلى التاريخ المصري القديم إلا نادراً ، فإنه عني  
أشد العناية باستلهم التاريخ العربي الإسلامي ، وجاءت هذه القصيدة البائية وغيرها  
حافلة بذكر كبريات الأحداث ، وبعظماء الرجال الذين جاهدوا في سبيل نصرته الدين ،  
وتشبيته في العالمين . وهو في كثير من قصائده الدينية يعرج على ماضي الأمة الإسلامية ،  
ويذكرها بأمجادها لعلها تتجمل مما أصابها من وهن ، ومما حل بها من فساد ،  
تتهب لاسترجاع ذلك المجد وتستأنف سيرها في موكب العزة والسؤدد ، استمع  
ليه يقول :

أنكرت قومي فلا قربى ولا رحم      وأنكروني فلا أم ولا ولد

يا رحمتا لغريب بين عثرته  
يُذْري الدموع إذا ما الراكب أزعجه  
يا نازلي ذلك الوادي تموج بهم  
هل يبلغ الركب عن قلبي إذا نزلوا  
أحبابنا ضاقت الدنيا بما رحبت  
أكل يوم لنا في الدين مرزوءة  
في كل وادٍ على الإسلام منتحب  
يسعى الفساد إليه غير متدد  
يا منزل الدين أهل الدين قد خرجوا  
ضلوه جحداً لما أودعت من حكم  
ما الدين إلا نظام للحياة إذا  
نبا به العيش حتى أوحش البلد  
داعي السرى فتتأدى البين وانجدوا  
بطاح مكة والعلياء والسند<sup>(١)</sup>  
ذاك الحمى لوعة الوجد الذي يجد  
والدهر في صرفه يفلو ويحتشد  
تهتز من وقعها الدنيا وترتعد  
وكل وادٍ به للدين مفتقد  
لما رأى أهله في نصره اتأدوا  
بغياً عليه وعن منهاجه حردوا  
فيه ولو أنهم ذاقوه ما جحدوا  
سار الأنام على منواله سعدوا

ويمضي عبد المطلب في تعداد فضائل الدين ، ولعلك لاحظت أنه يتألم غاية الألم لما أصاب الدين ، كما أصبح يرى نفسه غريباً في قومه ، لأنهم فتنوا عن دينهم ، وفرطوا في شعائره ودب الفساد إلى حياتهم من جرأء ذلك الإهمال . ولو أنهم تمسكوا بالدين لاستعادوا عزهم المفقود واسترجعوا مجدهم وهو :

مجد " به تشهد الدنيا وإن عميت أبصار قوم فما راءوا ولا شهدوا<sup>(٢)</sup>

ومنه مدح للنبي عليه السلام ، وهو من الأغراض القديمة التي حفل بها الشعراء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها الأمة العربية ، وكثر فيها الفساد في الأرض فتوسلوا بالنبي ، وتشفعوا لهم يصيبون من الله مغفرة ، ولعل مجد الإسلام يرجعه الله ، ولكن هيهات فالله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ومن تلك المدائح النبوية تلك القصيدة التي قالها عبد المطلب في حضرة سيد المرسلين حين ذهب للحج سنة ١٨٩٩ :

(١) العلياء والسند : مكانان بالبادية .

(٢) راء : لغة في رأي .

إليك أجل المرسلين مدائح توافيك ما غننى على الأيك صائح

وهي لا تخرج في معانيها عما تداوله الشعراء في مثل هذه المناسبة من قبل ،  
ندامة على ما فرط من الذنوب ، وخوف من يوم الحساب وخزني المقصرين ،  
وتوسل بالنبي عليه السلام ليشفع له .

فكن يا شفيع المذنبين شفيعه إذا شهدت يوماً عليه الجوارح

إلى غير ذلك من المعاني التي يتطلبها الموقف . وله في سيد المرسلين قصيدة  
أخرى طويلة سماها « ظل البردة » ، ولعله تبع شوقي حين نظم « نهج البردة » فأبى  
إلا أن يحاكي بردة البوصيري مثله ، وهذا ميدانه ، وليس ميدان شوقي فقال :

أغرى بك الشوق بعد الشيب والهَرَم سار طوى البيد من نجد إلى الهَرَم  
يا ساري الطيف يجتاب الظلام إلى جَفَن مع النجم لم يهدأ ولم ينم

ويسير في هذه القصيدة متتبعا أثر البوصيري ، وشوقي ، فيتحدث عن مجد  
الإسلام الغابر وأن هذا المجد خلقه لنا رسول الله بعد أن وضع أساسه :

مجد بناه الذي فاض الوجود به نوراً ، له قامت الدنيا من العدم  
طه أبو قاسم المبعوث من مضر إلى البرية من عرب ومن عجم

ويصف حال الدنيا قبيل بعثة النبي عليه السلام وما كانت عليه من الفوضى  
والاضطراب والظلم ، وما كان عليه الناس من جهل مطبق ، فقد أضلهم الشيطان  
وأعمى أبصارهم وبصائرهم فاتخذوا من الحجارة آلهة لا يملكون لهم ضراً ولا  
نفعاً ، وهام بعضهم بالأفلاك ، وآخرون بالنار .

تفرقوا شيعاً في الكفر واتقسموا شتى فباءوا بما يخزي من القسم  
هذا عن الحق بالأفلاك في عَمه وذاك بالنار عن نور الجلال عمي  
وذا يؤله من لا يستجيب له من ناطق بَشْراً أو صامت صَنَم

أضف إلى كل هذا كثرة الأحقاد ، واستبداد الملوك والرؤساء ، واستعباد  
الرعية ، ثم يصل من هذا إلى أن رحمة الله شملت العالم ، فجاء محمد بن عبد الله

يهديهم إلى سواء السبيل ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله ، ويتكلم عن مولده ، وأن ليلة ولادته كانت وحيدة في الزمن .

تنفست عن سنا شمس الوجود بدا في موكب من جلال الله منتظم  
روح الحياتين ، نور القريتين إمام القبلتين صفى الله في القدم  
ويمضي في وصف الرسول وتعداد شمائله الكريمة ، وكيف ربي يتيما ، وكيف  
نما وترعرع بعيداً عن جنف الإثم ، ودنس الأوثان ومساوىء الجاهلية ، وكيف تعبد  
وتحنت بفار حراء ، حتى أتاه الوحي الكريم من الله العظيم .

بالنور بالحق بالعرفان أرسله الله م الذي علم الإنسان بالقلم  
وتذكر صراعه مع الكفار في سبيل نشر دعوته ، وكيف تحداهم بكتاب الله  
وآياته المحكمات حتى خست ألسنتهم ، وهم المشهورون بالفصاحة والبيان .  
لم يبق حين تحداهم به لسن " إلا " تردى شعار العبي واللسم<sup>(١)</sup>

وهكذا يمضي في قصيدته مبينا جهاد النبي في نشر الدعوة ، ومعرجاً على  
مواقفه الرائعة ، وهجرته وغزواته ، فالقصيدة تحوي سيرة النبي عليه السلام ،  
وليس فيها جديد من الخيالات ، أو الأفكار ، وقد يستطيع شاعر نابغة أن يصنع  
من حياة محمد عليه السلام ملحمة قوية ، غاصة بالمشاهد العظيمة ، ولكن عبد  
المطلب تبع البوصيري ، ثم شوقي ، فلم يجدد في فكرته أو طريقه عرضه . وكان  
واجب الدراسة يقتضي أن نقصد موازنة بين شوقي والبوصيري وعبد المطلب ، ونرى  
أيهم كان أقوى عاطفة ، وأصدق حديثاً وأغزر شاعريةً ، وأسمى خيالاً ، بيد أن هذه  
الموازنة تخرج بنا عما قصدنا إليه في هذا الكتاب . ومهما يكن من أمر ، فعبد المطلب  
في قصيدته ( ظل البردة ) دونه في قصائده الأخرى وذلك لأنه وضع أمام ناظره  
قصيدتين عامرتين في مثل موضوعه وبحره وقافيته ، وأهم ظاهرة تحس بها في قصيدة  
عبد المطلب أنه على الرغم من تدينه ، وشدة عاطفته الدينية لم يستطع إبراز هذه  
العاطفة على حقيقتها في تلك القصيدة لأنها تقليد .

ومن الألوان الدينية في شعر عبد المطلب نشيد الشبان المسلمين ، وعبد المطلب

---

(١) اللسم : السكوت ميا .

كان من رجال النهضة الدينية ، وله أثر محمود كما ذكرنا عند ترجمته في جمعية المحافظة على القرآن الكريم ، وجمعية الهداية الإسلامية ، فلما دعت جمعية الشبان المسلمين الشعراء إلى نظم نشيد يكون شعاراً لها تقدم عبد المطلب فيمن تقدم وقال نشيده :

داع من العليا دعا      يدعو بنيتها مسمعا  
يدعو الشباب الأروعا      يدعو شباب المسلمين

ولكن نشيده لم يكن في منزلة نشيد الرافعي « يا شباب العالم المحمدي » فلم يكتب له الخلود .

ومما يتصل بهذا الشعر الديني أو الذي تأثر فيه الشاعر بالدين قصيدته « العلوية » التي ألقاها بالجامعة المصرية في ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٩ ، وهي تزيد عن ثلثمائة بيت . وحياة علي ابن أبي طالب حافلة بأحداث جسيمة ، وبصح أن تكون مأساة شعرية ؛ لأن علياً قد أسلم وهو لم يبلغ العاشرة ، وشب في حضن الدين الجديد ، ونشأ في بيئة معادية لدينه ، وحرص على الدفاع عنه ومناوأة أعدائه ، فتهيات له بذلك الفرصة ليكون خصماً قوياً . وبلغ الإسلام على عهد النبي عليه السلام غايته ، وعلي في شرح شبابه ، فكان فتى قوي الشكيمة ، أبلى في الحروب بلاء مبيناً ، وتميز عن سواه من شباب المسلمين ، ينتدب نفسه لكل كريمة ، ويخرج منها مظفراً ، وقد شهد كل غزوات النبي إلا واحدة . ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم رنت عينه إلى الخلافة ، وهو ابن عمه وزوج ابنته ، ولكن إجماع المسلمين كان على غير رأيه ، فامتنع عن البيعة قليلاً ؛ ثم دخل فيما دخل فيه المسلمون . ومضت خلافة أبي بكر ، وعمر ، ومعظم خلافة عثمان ، وعلي مرموق المكانة من الخلفاء يحتل منزلة المستشار والوزير . وفي أخريات عهد عثمان ظهرت الفتنة الكبرى ، وأودت بحياة عثمان ، واتهم علي بمالأة الثائرين ، وطالبه معاوية بأن يسلم له قتلة عثمان ، وبأبيع أهل الحجاز علياً ، وامتنع معاوية عن البيعة ، وخرجت عائشة وطلحة والزبير إلى العراق . وحدثت معركة ( الجمل ) ، ثم ( صفين ) ، وانتهى الأمر بمقتل علي رضي الله عنه وهو خارج لصلاة الفجر على يد أحد الخوارج . وكانت فيه صفات تؤهله للزعامة والسيادة أهمها : الشجاعة الفائقة والفصاحة

النادرة ، والعدل الشامل ، ولكنه كان سيء الحظ ، فلم تيسر له الأمور كما يسرت لمن قبله من الخلفاء ، وخرج عليه بعض أنصاره وجادلهم ، وحاربهم ، ثم حارب معاوية وأهل الشام ، وكانت ملاحم دامية ، وفتنة فظيعة •

إن هذه الحياة تستغرق جزءاً حافلاً من حياة الإسلام ، والجهد الحر في سبيل دعوته ، وخروج العرب من جزيرتهم إلى شتى البلاد المجاورة ، مما غيّر الحياة العربية وتقاليدها إلى شيء جديد وجعلها أمة ممتازة : ديناً وحيشاً ، وحضارة ، ولغة . والشاعر الموهوب يستطيع أن يقف وقفات طويلة أمام السمات البارزة لهذه الحياة ، ويصورها تصويراً دقيقاً بشيء من التفصيل ، والخيال ، ولكن عبد المطلب أجمل القول في كثير من الأحيان ، ومر على بعض المشاهد الرائعة مروراً سريعاً ، لأنه تقيد بقافية واحدة ، ولأنه كان أقرب إلى سرد الحقائق التاريخية منه إلى التصوير الشعري •

وأغلب الظن أن محمد عبد المطلب لم ينظم هذه القصيدة إلاّ تحدياً لعمرية حافظ إبراهيم التي ألقاها في ٨ من فبراير سنة ١٩١٨ بمدرج وزارة المعارف أي قبل علوية عبد المطلب بأكثر من عام •

وقد ابتدأ قصيدته العلوية بالحديث عن الإنسان وطموحه ، وباختراعه الطيارة ، وود أن توهب له طيارة ليلقى بها الإمام على هامات السحب :

فهب لي ذات أجنحة لعلّي بها ألقى على السحب الإماما

وأخذ يتحدث عن الإمام ومكاته ومقامه ، وأنه :

مقام دونه تجبّ القوافي وإن كانت مسوومة كراما

وأخذ يقدم المذدرة بين يدي سامعيه إذا قصّر في وصف مناقب الإمام :

وما أدراك ويحك ما علي فتكشف عن مناقبه اللثاما

وبعد أن انتهى من هذه المقدمة ، قسم القصيدة إلى فصول صغيرة ، فتحدث عن علي في صباه ، وإسلامه ، وكيف جنبّ الرجز والشرك ، ودنس الجاهلية ، وكيف لبى دعوة الإسلام صغيراً بينما صدف عنها الشيوخ والكهول •

فكهل في جهاته تولى وشيخ في ضلّاته تعامى

وكيف كان معتزاً بإسلامه لا يخاف فتنة قريش للمسلمين ، وايداءهم لهم :

يروح على مجامعهم ويفدو      كسبل الليث يعترم اعتراما  
صغير السن يخطر في إباء      فلا ضيما يخاف ولا ملاما

ثم ينتقل إلى فصل آخر عن استخلافه ليلة الهجرة ، ولكنه أجمل فيه القول ، ولم يصور تأمر قريش على قتل النبي تصويراً شعرياً مفصلاً ، ويضفي على هذه الحادثة التي غيرت وجه التاريخ شيئاً من الخيال الشعري ليظهرها في جلالها وروعها ، ويبين عظم المعجزة وكل ما وصف به قوة قريش ومؤامراتهم هو قوله :

وأقبلت الصوارم والمنايا      لحرب الله تنتحم انتحاما<sup>(١)</sup>

وهذا قول موجز ، فيه توعر في الألفاظ ، وكان يستطيع أن يصور هؤلاء الأوشاب الذين اجتمعوا من قبائل شتى ، وهم يتسللون في جنح الليل إلى دار النبي عليه السلام يقدمهم الشيطان ، ويهيمن عليهم الشر ، وكيف منثوا نفوسهم الآثمة بقتل سيد الخلق عليه السلام ولكن الله العلي القدير الذي حفظ نبيه وأراد نشر دينه كان لهم بالمرصاد ، ثم يستطيع أن يصور في خيال شعري رائع علياً وهو نائم في بردة النبي وخروج الرسول على الكفار وقد عميت أبصارهم عن رؤيته ، وما تهاست به نفسه حين رأى جمعهم وشبابهم وسيوفهم ، وتغلب إيمانه وثقته بربه على همهمات نفسه ، وكيف مرّ من بينهم سالماً إلى آخر قصة الهجرة . ولكن عبد المطلب لم يشأ أو قل لم يستطع أن يحلل ، ويسبر غور النفوس ويصور تلك المؤامرة الرهيبة والليل دامس ، والكون كله يترقب تتيجتها ، وتاريخ البشرية يتطلع إلى إخفاقها كي يحظى بخير شريعة على يد أفضل نبي ، واكتفى بأن أجمل القول في هذا كله :

وأغشى الله أعينهم فراحت      ولم تر ذلك البدر التماما  
عمّوا عن أحمد ومضى نجياً      مع الصديق يدّرع الظلاما

ويعقد بعد ذلك فصلاً عن علي بالمدينة ، وقد صور فيه شجاعة علي في غزوة بدر في إيجاز ، استمع إليه يقول في هذا :

(١) الانتحام : الصوت والجلبة من النجم وهو صوت الفهد ، وهو أيضاً بمعنى الانتزام .

كأنني بآبن عتبه يوم بدر      يعاني تحت مَجْثَمِه جُثَامًا<sup>(١)</sup>  
ولو علم الوليد بمن سيلقى      لألقى قبل مصرعه السلامًا  
رويد بني ربيعة قد ظللتهم      بني الأعمام والرحم الحراما  
وصلناكم بها وقطعتموها      فكان الحزَم أن تردوا الحِمَاما

ثم تكلم عن زواجه من فاطمة الزهراء ، وأن قرانه بها :

قران زاده الإسلام يننا      وشمل" زاده الحب التثاما

أما يوم أحد فقد وفق فيه بعض التوفيق ؛ إذ صور هزيمة المسلمين وعلل لها :  
وكيف أَرْجف المشركون بقتل رسول الله ، وكيف ارتاع علي لهذه الفرية وراح  
يبحث بنفسه بين القتلى عن رسول الله •

أتى الشهداء مفتقدًا أخاه      لعل الموت عاجله اختراما  
أخي ! بأبي ! يخيم ؟ يفر ؟ حاشا      أخي في الخطب جنبًا أو خيامًا<sup>(٢)</sup>  
أم اجترأت عليه يد العوادي      فغالتة اجترأ واجتراما

ثم انتقل إلى يوم الخندق ومبارزة علي لعمر بن وُد ، وموقفه يوم خيبر وقتله  
مرحب ابن منسية ، ثم انتقل إلى مواقف علي في السلم ، وصور خلقه في إيجاز  
وقيامه بالليل وتقواه ، وقد تأثر في هذا الوصف بكلمة ضرار الصدائي عن علي بن  
أبي طالب المذكورة في كتب الأدب • ثم تكلم عن مقتل عثمان ونفى عن علي اشتراكه  
في القتل أو علمه به قبل أن يحدث له •

وحاشا أن يريد أبو حسين      بذي النورين سوءاً أو ظلاماً  
علي كان أول من وقاه      ومن ذاد الردى عنه وحامى

ومضى في سيرة علي إلى نهايتها على طريقته في التصوير الموجز ، والتزام  
الحقائق التاريخية إلى حد سردها ، من غير إبداع في التصوير أو اهتمام بالتحليل ،

(٢) يخيم : يجبن •

(١) الجثام : الكابوس •



أو جنوح إلى الخيال ، كل ذلك في أسلوب جزل ، وفصاحة بدوية • ومهما يكن المقياس الذي وضعناه لهذه القصيدة فهي تعد من القصائد الممتازة في الشعر من حيث موضوعها ، وقوتها ومتانة نسجها ، وطولها ، وهي تدل على قدرة فائقة في اللغة ، ونفس مديد في قرض الشعر ، وتمكن من القافية وإمام بالغريب •

هذا هو محمد عبد المطلب في شعره ، وقد أتيت على أهم الأغراض التي قال فيها : وقد احتل بإيثاره الأسلوب الفحل ، والقول الجزل ، والخيال البدوي ، منزلة تفرد بها بين شعراء زمانه ، وقد قال فيه العقاد : « ولكن عبد المطلب كان وحيداً في مدرسته الأدبية التي استقامت لها صحة الأسلوب من طريق الدعوة الدينية ، وكان أوضح دليل على فائدة الدعوة الإسلامية قبل نصف وستين سنة في إراحة العربية من آفات البهارج والطلاوات »<sup>(١)</sup> وكان يحتل كذلك منزلة رفيعة في نفوس زملائه الشعراء ، ورثاه كبارهم ، فهذا شوقي يؤبنه ويستدح بداوة شعره :

|                       |                           |
|-----------------------|---------------------------|
| شاعر البدو ومنهم جانا | كل معنى رق أو لفظ عذّب    |
| قد جرت ألسنهم صافية   | جريان الماء في أصل العشب  |
| سلمت من عنت الطبع ومن | كلفة الأقلام أو حشو الكتب |

ويشني على أخلاقه ووطنيته التي كانت أكبر ملهم لشاعريته • والتي فاض بها ديوانه :

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| القريب العتب من معنى الرضا | والقريب الجد من معنى اللعب |
| والأخ الصادق في الود إذا   | ظهر الإخوان بالود الكذب    |
| قلد الأوطان نشأ صالحاً     | وشباباً أهل دين وحسب       |

وقد رثاه مطران وأشاد بتملكه لزمام اللغة ، ورد على من عاب جزالة لفظه ، واهتمامه بالغريب •

|                          |                          |
|--------------------------|--------------------------|
| فكلام بدوي لو بدا        | فيه لون لم يكن إلا الذهب |
| خالص النسبة في العتق إذا | ما دعا للفخر داعٍ فاتسب  |

(١) شعراء مصر وبشائهم في الجيل الماضي ص ٥٢ •

ومعانٍ حضريات جلا      حسنها منه طراز لم يُعَبِّ  
رب ممرور من الجهل نعي      صحة القول عليه فنعب  
خال إغراباً وما الإغراب في      ذلك اللفظ الأصيل المنتخب  
إنما الإغراب فيه أنه      عربي بين أهليه اغترب  
أخذ المعدن من منجمه      هل عليه حرج : يا للعجب ! !

ويطري كذلك خلقه الكريم ، ويشيد بوفائه وحرية رأيه وصراحته •

كان حر الرأي لا يطرّفه      رَغَب لما رآه أو رَهَب  
وافيا مهما يَسُمُّه عهده      صادقاً مهما يقيم عذر الكذب  
حسن السيرة في أسرته      حسن الخيرة فيمن يصطحب  
بالغاً في كل نفس رتبة      قصّرت عن شأوها أسمى الرب

هذا وقد أقيمت له حفلة تأبين وقد رثاه فيهما أكثر من ثلاثين شاعراً وأديباً :  
وقد جمعت هذه المراثي في عدد خاص أصدرته « مجلة الهداية الإسلامية » (١) •

## السيد توفيق البكري

وهاكم نموذجاً آخر لشعراء المدرسة القديمة ، الذين طغى حب المحاكاة للقديم على ما لهم من ثقافة حديثة ، ومعرفة باللغات الأجنبية وآدابها ، ومشاهدة لحضارة أوروبا عن كثب بالزيارة والاختلاط ، وتجدون هذا النموذج ممثلاً في السيد توفيق البكري .

هو أبو النجم محمد بن علي بن محمد الملقب بتوفيق البكري الصديقي العمري التميمي الهاشمي القرشي ، وسبط آل الحسين ، وتقيب الأشراف بمصر ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية .

ولد البكري<sup>(١)</sup> بقصر والده المطل على النيل بجزيرة الروضة في يوم الجمعة السابع والعشرين من جمادى الثانية عام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م .

قرأ القرآن ، وتعلم مبادئ اللغة العربية في بيته ، ثم دخل المدرسة العلية التي أنشأها الخديوي توفيق لأنجاله ، وكان يلتحق بها أبناء السادة والعظماء من المصريين ، فقرأ ثمة طائفة من العلوم العقلية والنقلية ، وأظهر من التفوق والنجابة ما جعله أول التلاميذ .

وألغيت هذه المدرسة في سنة ١٨٨٥ ، وسافر أنجال الخديو إلى أوروبا ليتموا تعليمهم بها فأحضر له ذووه مهرة المدرسين في البيت ليتم ما بدأ من صنوف العلم ، وفي سنة ١٨٨٩ تقدم لامتحان ( البكالوريا ) بنظارة المعارف فجاز الامتحان ، ونال الشهادة وكان الأول بين جميع الناجحين . ثم أبت عليه نفسه الطموح أن يقنع بهذا الحظ من التعليم ، فتقدم للشيخ الإنابجي شيخ الأزهر حينذاك ليختبره بنفسه فيما يدرس الأزهر من علوم وليمنحه الإجازة فامتحنه ومنحه الإجازة وقال فيها : « ومنمن اعتنى بعد ما اقتنى ، وقطع المفازة فطلب الإجازة ولدنا النبيل العالم النجيب الجليل ، فخر السلالة الهاشمية ، وطرار العصاة الصديقية ، السيد محمد توفيق ، نخبة نسل الرسول ، وصاحب رسول الله أبي بكر الصديق بعد أن قرأ عليّ رسالة الأوائل

(١) ترجم البكري لنفسه في صحيفة أودعها عند خلفه وابن أخيه السيد عبد الحميد البكري قبل مرضه ومنها استقيننا هذه المعلومات عنه ؛ وقد ضنت الكتب عليه بترجمة وافية .

للشيخ عبد الله بن سالم البصري ، ونبذة من الأصول والفقه ، والحديث والتفسير ، وطرفاً من العلوم العربية كالنحو والصرف والمعاني والبيان البديع — مع جودة الألفاظ ، وحسن التوضيح والتقرير ، فلما لاح كوكب صلاحه ، وفاح لي نشر مسك فلاحه ورأيته أهلاً لتلك الصناعة ، وجدير بتعاطي هاتيك البضاعة ، حيث أفاد وأجاد وأجاب ، وكشف عن المعاني النقاب ، وأخذ من الفنون بأقوى طرف ، وأراد الاقتداء في أخذ الأسانيد عن السلف بادرت لطلبه بإعطائه بلوغ أربه » .

وفي سنة ١٨٩٣ توفي أخوه السيد عبد الباقي البكري بعد وفاة خديو مصر توفيق باثني عشر يوماً ، فولاه الخديو عباس الثاني وظائف يتهم جميعاً : المشيخة البكرية ، ومشيخة المشايخ الصوفية ، وتقابة الأشراف .

وفي شوال ١٣٠٩ هـ الموافق مايو ١٨٩٣ عين عضواً دائماً في مجلس شورى القوانين وفي الجمعية العمومية ، وأنعم عليه بكسوة التشريفة من الدرجة الأولى وبالنيشان المجيدي الثاني . وفي أواخر تلك السنة رحل إلى أوروبا فقابل كثيراً من وزرائها وعلمائها وأدبائها . ثم قصد القسطنطينية فأكرمه السلطان عبد الحميد واحتفى به وقابله مراراً ، وقلده بيده ( النيشان ) العثماني الأول ، ومنحه رتبة الوزارة العلمية ، وهي قضاء عسكر الأناضول .

وفي ٢٥ من رجب ١٣١٢ الموافق يناير ١٨٩٥ طلب أن يعفى من تقابة الأشراف ، فأجابه عباس إلى طلبه ، وقد قال السيد توفيق في سبب تخليه عن هذه الوظيفة : « والسبب في ذلك أنني حين كنت رئيساً لجلسة الميزانية في مجلس شورى القوانين طلبت أن يرتب للأزهر مبلغ من المال ، ثم سميت حتى رتب له ألف جنيه ولم يكن لي غرض في ذلك إلا مساعدة العلماء ، فوشى بعض أعدائي بي إلى جناب الخديو ، وزعم أن لي في ذلك مقصدًا سياسيًا ، فتغير خاطره الكريم مني فرأيت من الواجب المبادرة بالاستعفاء ، وقد أظهرت الأيام كذب الواشين ، وإخلاصي له فرجع سموه إلى جميل رعايته وعنايته ، وأهداني صورته موقعاً عليها بخطه الكريم إظهاراً لثقتي ورضاه » .

وفي سنة ١٨٩٧ أنعم عليه السلطان عبد الحميد بمدايتي الامتياز الذهبية والفضية . وفي سنة ١٩٠٠ أنعم عليه بمداية اللياقة الذهبية ، وعلى والدته بنيشان الشفقة المرصع من الدرجة الأولى . وفي سنة ١٩٠٣ أعاد له الخديو عباس تقابة الأشراف . ومكث مدة يتولى هذا المنصب حتى مرض ؛ ثم بعد ذلك يسكت البكري

فلا يحدثنا عما اتتاه ، ولا يظهر السبب في مرضه<sup>(١)</sup> ، ولكن يظهر أنه لما وفد البكري على السلطان عبد الحميد ومنحه تلك الأوسمة تمي إلى الخديو عباس أن البكري قال : « لن يظهر سمر الخديوي بالإنعام على رتبة الوزارة العلمية على مصري غيري » فغضب الخديوي ، وأنعم بالنيشان العثماني الأول على الشيخ الإنباي شيخ الأزهر ، وعلى المفتي ، وعلى الشيخ محمد العباسي المهدي ، وعلى قاضي القضاة جمال الدين أفندي ، ثم أرسل إلى السلطان ملتسماً بالإنعام على شيخ الأزهر والمفتي برتبة الوزارة العلمية وهي قضاء عسكر الأناضول ، وعلى القاضي برتبة قضاء عسكر الروملي ، فلم يصادف طلبه قبولاً .

وكان إخفاق الخديو مضاعفاً لغضبه ، فتوعد البكري ، وبلغ البكري هذا الوعيد ، فأزعجه ، واستولى عليه الهم ، ثم ألهم حتى خيّل إليه أن أعوان الخديو يطاردونه لقتله ، فلجأ إلى إحدى حجرات بيته ، ولزمها ، وامتنع عن الزوار ، حتى لم يعد أحد يترك باباً إلا لماماً . وكان البكري يبعث في أثناء ذلك برسائله إلى المحافظة ، وإلى النائب العام ، وإلى رئيس النظائر يستجدهم ويطلب حمايتهم . ولما لم يجده ذلك نفعاً ، ذهب الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد — وكان من خلصاء البكري — إلى الخديو عباس يتوسل إليه أن يصفح عن البكري ، ثم أطلعه على ما صار إليه أمره من سوء .

وأمر عباس رئيس ديوانه أحمد شفيق باشا أن يذهب إلى البكري ويث في روعه الأمن ، ولكن الداء كان قد استحکم ، والمرض قد استعصى على العلاج . وبعد سنوات ثلاث قضاها في آلام حتى لا يكاد يرشد ، نقل إلى مصحة العصفورية ببلنان سنة ١٩١٢ وظل ثمة حتى سنة ١٩٢٨ ، ثم نقل إلى مصر لم يزايله المرض ، وعاش ما بقي من عمره في ظلام خياله وأوهامه حتى يوم السبت ٣١ من أغسطس سنة ١٩٣٢ .

وقد حدثنا عن دراسته وما قدمه من خدمات لوطنه بقوله : أمّا العلم ، فقد اقتصت منه بعلم الأدب ، والاختصاص سر النجاح ، لأن العلم يعطيك من نفسه بقدر ما تعطيه من نفسك . . . . . وقد تم لي من المؤلفات :

(١) يظهر أن هذه المحنة لم تشند إلا في سنة ١٩٠٩ لأنه ظل في نواحي العقليّة الكاملة حتى سنة ١٩٠٦ حين كتب الرسالة المفتوحة لولي عهد إنجلترا لما زار مصر ، وذكر في تاريخ مرضه أنه مكث سنوات حتى أرسل إلى العصفورية سنة ١٩١٢ .

صهاريج اللؤلؤ<sup>(١)</sup> — وأراجيز العرب<sup>(٢)</sup> ، وفحول البلاغة<sup>(٣)</sup> ، وبيت الصديق<sup>(٤)</sup> ، وبيت السادات الوفاية<sup>(٥)</sup> ؛ وأما العمل فإما عمل في بيت ، أو وظيفة ، أو أمة ، فما يتعلق بالبيت ، فقد ثبت عقدّه ، وضاعت مجده<sup>(٦)</sup> ، وما يتعلق بالوظائف فقد توليت مشيخة المشايخ وأمرها فوضى ، فاستصدرت لها لائحة رسمية سنة ١٣١٢ هـ ( ١٨٩٤ ) ، فأصبحت بها أشبه بحكومة منظمة ، وإدارة مقوِّمة ، ثم رسمت بوضع كتاب ( التعليم والإرشاد ) ليستشير به المشايخ الصوفية وخلفاؤهم في تربية المريدين ، وإرشاد السالكين ، وطبعته ووقفه الله .

وما يتعلق بالأمة ، فقد نشأت في بلاد ترسف في الأغلال ، ضائعة الاستقلال ، فرأيت أن أول ما يندب على المرء أن يسعى فيه هو إرجاع استقلالها الإداري ، ثم استقلالها السياسي ، فرفعت صوتي بطلب الأول ، وكنت أول مصري نادى به في زمن الاحتلال وذلك في رسالة كتبته لجريدة التيمس في مايو سنة ١٨٩٣ ( وفيها يقول : وقد أنشئ في مصر مجلس نواب بعد أن ساد فيها الاستبداد والظلم أربعة آلاف سنة ، فألغاه الاحتلال واستبدله بمجلس شورى القوانين ، وهو مجلس ليس له إلا إبداء رأيه كما يبيده محرر جريدة فقط ، فإلغاء مجلس نوابنا هذا نقطة من أشد النقاط سواداً في تاريخ الاحتلال ) . ويواصل حديثه عن عمله فيقول : ثم لم

(١) سنتكلم عنه بعد قليل .

(٢) مختارات من أراجيز العرب ، وشرحها ، وقد قرظه علي باشا رفاعة الطهطاوي بقوله :

منها خلدوا أوفى نصيب وفر قد شرحت ما كان شبه الجفر

نوراً كزهر وشذا كزهر

وقال عنه الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر : فكان أول دليل ، وأعظم برهان على فضل مؤلفه علامة الزمان .

(٣) مختارات من شعراء العصر العباسي الفحول ، وقال في مقدمته : « إنه كان كالنقطة الصغيرة من العطر ، محصل جملة كبيرة من الزهر » .

(٤) يشتمل على أخبار البيت البكري بمصر ، وعلى تراجم رجاله ، وينتسب البيت البكري إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أول خلفاء المسلمين ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى أيام الفتح الإسلامي على ما كتب في التاريخ ، فهو قائم بمصر منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، وقد ظهر منه رجال من أهل الطبقة العليا والطراز الأول في كل عصر ( راجع بيت الصديق للبكري ) .

(٥) وأما بيت السادة الوفاية فينسبون إلى وفاء الإمام المشهور المتصل بالادارة ، ملوك العرب من آل الحسن بن أبي طالب ، وأنشئ بمصر من أوائل القرن الثامن حين انتقل إليه ملوك المغرب وكان رجاله يتمتعون بمنازل رفيعة ومقامات سامية بمصر منذ ذلك الوقت ( راجع بيت السادة الوفاية للبكري ) .

(٦) يشير إلى مصاهرته السيد عبد الخالق السادات ، وإلى مصاهرة ابن أخيه السيد عبد الحميد له وحين توفي السيد توفيق عين السيد عبد الحميد في مشيخة السادة الوفاية ، وأصبح بذلك هذان البيتان بيتاً واحداً .

أفتأ أعمل لهذا الغرض بما يؤدي إليه ، ويبعث الهمم للحصول عليه ، وسأثابر  
إن شاء الله على ذلك •

ولما جاء ولي عهد الدولة الإنجليزية إلى مصر في سنة ١٩٠٦ كتبت له الكتاب  
المفتوح الذي قالت عنه جريدة المؤيد : « إنه فعل بمصر في النفوس والعقل ما تفعله  
شعلة النار ألقيت في بحر من البترول » •

ولقد كان البكري ذا مكانة ، ومنزلة رفيعة ، وكانت داره ندوة العلماء والأدباء  
والحكام ، ومقصد ذوي الحاجات • وكان في بجوحة من العيش ، أنيق الملبس ،  
حسن البزة راجح العقل ، تدل على ذلك حكمه الكثيرة المنشورة في ثنايا كتابه  
صهاريج اللؤلؤ :

ولعلك رأيت من تاريخه هذا أنه نشأ في بيت دين وحسب على قوله :

وإني من البيت الذي تعلمينه أقام عمود الدين لما تأوّدنا  
وأول هذا الأمر نحن أساتته وآخره حتى يكون كما بدا

وقد جاءه التزمت ، والتمسك بتقاليد العرب في الأدب من جهتين : من جهة  
حسبه ودينه ، ومن جهة دراسته الأدبية العميقة لآثار العرب • إن له فطرة شاعر  
وإحساس فنان ، وذوقاً مصقولاً مهذباً ، وعقلاً حكيماً مجرباً ، ولكنك تتخيل كأنه  
في صراع بين حاسته الفنّانة وبين حنينه للتقديم • لقد حفظ كثيراً من أمثال العرب  
وحكمهم ، وشعرهم ، وأحاط بغريب اللغة إحاطة عالم ، وقد حشد ذلك كله حشداً  
في كتابه صهاريج اللؤلؤ •

وصهاريج اللؤلؤ هو ذلك الكتاب الذي أودعه السيد توفيق البكري ما قاله  
من شعر ونثر أدبي ، وتكلف فيه تكلفاً كثيراً ، وحرص على أن يظهر فيه أدبياً غزير  
المحفوظ واسع الاطلاع على ما خلف العرب من كتب أدبية ودواوين شعرية ، وأمثال  
وحكم وحكايات ، ولغويا كثير المحصول من غريب اللغة على نمط ما كان يفعل  
كتاب المقامات مع فارق بينه وبينهم ، وهو أنه كان يمثل عصره ، وآراءه وحضارته ،  
وأنه لم يكن يحكي قصة تنقصها الحكمة الفنية ، وإنما كان يكتب مقالة مسجوعة  
في موضوع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر ، وأنه كان يوفق في بعض أجزائه حتى  
ليخلق في سماوات الخيال البديع ، ويقدم باقة منمقة من الشعر المنثور •

والذي يعنينا في كتابنا هذا من صهاريج اللؤلؤ هو شعر البكري ، بيد أنه في نشره كان شاعراً كذلك . ولولا أنه أراد أن يحاكي أدباء العصر العباسي في لغتهم وأسلوبهم حتى جنت عليه هذه المحاكاة ، فلم ينطلق على سجيته ، وصار يتصيد الألفاظ الغريبة ، والأمثال ، والإشارات التاريخية ، لولا هذا كله لاحتل بين أدباء عصره منزلة سامية .

ولقد صدقت فيه نظرة الشاعر خليل مطران حيث قال : « أما نظمه فمتين ، وله فيه نظرات إلى زمانه ، ولكنها أشبه شيء بنظرات موجهة من عهد عهيد إلى عهد جديد . ليس له فكر عام ثابت يتجه إليه ، ولو التفات في أكثر ما ينظمه ، كما يلتفت حافظ إلى اجتماعياته وشوقي إلى خلقياته ، فهو يقول إجابة لدعوات الطوارئ ، ويلبس لكل حالة لبوسها .

على أننا إنما أشرنا إلى انتقاء الجامعة التي تجمع ، ولو بصلة ضعيفة ، بين أقسام شعره لأسباب منها : أن السيد شاعر مباه بالشاعرية عن حق ، وكان في وسعه أن يحل في الرتبة الأولى من شعراء زمانه ، لو أنه أراد أن يكون من زمانه ، ولكنه انتهى إلى عصر آخر ، فلم يبلغ ولن يبلغ هو ولا سواه أدباء ذلك العصر لأنهم كانوا يأخذون اللغة رضاعاً وفطاماً وعادة يقظة ومنام ، وعشرة ومعاش ، ومنها أن السيد طالع شعر الإفرنج ، وعلم منه المهمة العليا التي ينتدب لها الشاعر لا بين أمته منفردة ، بل بين الأمم جمعاء أحياناً ، ومنها أن سماحته أدرى بأن الشعر في بلد محتاج إلى التربية والتأديب كمصر ، إذا لم يكن إلا طوائف أسطر ترسم مقسومة إلى أسطر ففضل الشاعر رب المقاصد والمعاني على الوزن مقطع عروض الكلام ليس بالكبير ، وهو إذاً بما يقتضيه من المنزلة والتجلة غير جدير .

هذا وللسيد من المقاطيع الشعرية ما لا يدع في معناه مقالا لقائل ، ولا مجالا لجائل ، فلو جرى في كثيره قليله لأصبح قطباً من أقطاب الزمان في الجمع بين البلاغة والبيان ، أما وطريقته العامة ما وصفناه ، فالكلمة التي تغلب في وصف شعره أنه في القرن الرابع عشر المحمدي شعر البعثة الجاهلية (١) » .

وهذا النقد المركز الذي صور به مطران شعر البكري صادق في جملته ، ويحتاج إلى شيء من التوضيح ؛ فالبكري جنت عليه محاكاته للقديم ، ووعى من

(١) مختارات المنفلوطي ص ٧٦ ط ثانية .



كتب الأدب الشيء الكثير ، وقد يمكن أن يفيد الأديب مما قرأ في كتب الأدب من غير أن يفقد شخصيته ، ومن غير أن يستغلق على القارئ ، ومن غير أن يتكلف الوعورة والفخامة ، واقتناص الأمثال الشاردة ، والألفاظ الغريبة . ولكن البكري لم يفعل ذلك بل استمد صورته وخيالاته وتعبيراته من بطون الكتب القديمة التي كان يعيش فيها بعقله وفكره ووجدانه .

وإذا تصفحت صهاريج اللؤلؤ وجدت أن البكري مغرم بحشد الأمثال ، والإشارات التاريخية والألفاظ الغريبة ، كأنه يباهي بكثرة ما وعث ذاكرته من ذلك ، خذ مثلاً قوله في وصف « غابة بولونيا » الذي آثر أن يعبر عنه ثراً مع أنه موضوع شعري جذاب : « وكأنما كل بستان شُعب بَوَّان<sup>(١)</sup> وكل حائط سدء ذو القرنين ، وكل طريق واد بين الصدفين ، وكل قنطرة قنطرة خَرَّازاذ<sup>(٢)</sup> ، أو قنطرة البرَّكان<sup>(٣)</sup> ببغداد ، وكل قصر قصر المشتكى<sup>(٤)</sup> ، وكل كنيسة كنيسة الرثا<sup>(٥)</sup> .

وهالك مثلاً آخر يريك ولوعه بضرب الأمثال والإشارات التاريخية والأدبية ، وإن لم تفد فائدة جديدة في إيضاح المعنى ، وانما ساقها للتعالم ، على طريقة المقامات « وإذا هو أجود من حاتم<sup>(٦)</sup> ، وأبأى من حنيف الخناتم<sup>(٧)</sup> ، وأحزم من سنان<sup>(٨)</sup> ،

(١) شعب بوان : بأرض فارس بين أرجان ، والنوبندجان ، وقد اشتهر بجماله ، لكثرة أشجاره وأغاريد أطياره ، وتدفق عيونه ، وطيب فاكهته ، وقيل فيه :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| إذا أشرف المحزون من رأس تلعة | على شعب بوان استراح من الكرب |
| والهاه بطن كالحريره مسه      | ومضطرب يجري من البارد العلب  |
| وطيب ثمار في رباض اريضة      | على قرب اغصان جناها على قرب  |

وفيه يقول المتنبي :

مفاني الشعب طيباً في المفاني بمنزلة الربيع من الزمان

(٢) قنطرة خرازاذ : منسوبة إلى خرازاذ أم أردشير ، وهي بسمرقند بين « إبدج والرباط » وكانوا يمدونها قديماً من عجائب الدنيا ، لأن طولها ألف ذراع وعلوها مائة وخمسون ، وأكثرها مبني بالرصاص والحديد .

(٣) قنطرة البردان : نسبة إلى قرية قريبة من بغداد على سبعة فراسخ ، وفيها يقول جحظة :

|                          |                          |
|--------------------------|--------------------------|
| في رقة البردان بين مزارع | محفوفة بينفسج وبهار      |
| بلد يشبه صيفه بخريفه     | رطب الاوائل بارد الاسحار |

(٤) وقصر المشتكى : أحد القصور التي أعدها الفاطميون للزخمة بمصر .

(٥) كنيسة الرها : نسبة إلى مدينة الرها - بالجزيرة بين الموصل والشام .

(٦) هو حاتم الطائي الجواد المشهور ، وقد ذكرنا قصص جوده في كتابنا « الفتوة عند العرب » ووضحنا له صورة تاريخية واضحة بعنوان « نتي كريم » ص ٣٨٢ ط ثالثة .

(٧) أبأي : من البأي وهو الفخر ، وقد بلغ من فخر حنيف وزهوه أنه لم يكن يكلم أحداً حتى يبدأ بالكلام .

(٨) سنان : هو سنان بن أبي حارثة ، وقيل لم يجتمع الحزم والحلم في رجل فصار بهما المثل

إلا في سنان .

وأعدل من الميزان وأحمى من مجير الظعن<sup>(١)</sup> ، وأعقل من ابن تقن<sup>(٢)</sup> ، وأحيا من كعب<sup>(٣)</sup> ، وأحلم من فرخ عقاب<sup>(٤)</sup> ، وأجمل من ذي العمامة<sup>(٥)</sup> ، وآثر من كعب ابن مامة<sup>(٦)</sup> ، وأجسر من قاتل عقبة<sup>(٧)</sup> ، وأحكم من هرم بن قطبة<sup>(٨)</sup> ، وأبطش من دوسر<sup>(٩)</sup> وأجراً من قسور<sup>(١٠)</sup> » .

فهذه مجموعة من الأمثال العربية ، لا أظن أنه قصد بها وصف شخص من الأشخاص ، وأنه قد اجتمعت فيه كل تلك الصفات المجيدة التي بلغت في هؤلاء الأشخاص الذين ضرب بهم المثل الغاية التي ليس وراءها مزيد حتى تميزوا بها عن سواهم ؛ لأن مثل هذا الشخص من نسج الخيال ولا سيما وهذا الذي يصفه مولود لم يعرف من الدنيا شيئاً ، فأني مبالغة وأي تكلف ! وما قصد توفيق البكري

(١) مجير الظعن : والظعن جمع ظمينة وهي المرأة في هودجها ومجير الظعن هو ربيعة بن مكرم وقد وضعنا له صورة كاملة زاهية في كتابنا « الفتوة عند العرب » بعنوان « حامي الظمينة » ص ٣٤٢ ط ثالثة .  
(٢) ابن تقن : يقال إنه من قوم « عاد » ، وقد أراد لقمان أن يشتري إبلاً له أعجبه ، فامتنع ابن تقن عن البيع ، فاحتال لقمان لسرقتها ، فلم يتمكن لفرط حله وفيه قال الشاعر :  
تجمع إن كنت ابن تقن قطانة      وتغن أحباً هنات دواهايا  
فضرب بعقله المثل .

(٣) الكعب : الفتاة الناهد ، وتكون عادة أشد حياء من غيرها من النساء الكبيرات .  
(٤) أحلم من فرخ عقاب . ذكر الأصمعي أنه سمع أعرابياً يقول : « سنان بن حارثة أحلم من فرخ عقاب » فقال له وما حلمه : قال : يخرج من بيضة على رأس نيق ، فلا يتحرك حتى يقر ريشه ، ولو تحرك سقط ، فضرب به المثل .

(٥) ذو العمامة : هو سعيد بن العاص بن أمية ، وكان في الجاهلية إذا لبس عمامته لا يلبس قرشي عمامة على لونها ، وإذا خرج لم يبق امرأة إلا برزت للنظر إليه من جماله ولما أفضت الخلافة إلى عبد الملك ابن مروان خطب بنت سعيد إلى أخيها عمرو بن سعيد الأشدق فأجابه عمرو بقوله :  
فتاة أبوها ذو العمامة وابنه      أخوها فما أكفاؤها بكثير  
ويصح أن يكون هذه اللقب لرياسته لا لجماله ، وكان يلقب كذلك بلدي العصابة .

(٦) كعب بن مامة الأيادي : جواد مشهور وقد ذكرنا قصة إثاره ، حتى ضحى بنفسه في سبيل غيره في كتابنا « الفتوة عند العرب » في باب الكرم ص ١٨٤ ط ثالثة .

(٧) عقبة : هو عقبة بن سلم من بني هنةاء من أهل اليمن وكان أبو جعفر المنصور ، قد وجهه إلى البحرين ، وأهلها من ربيعة ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وانضم إلى خدمته رجل من عبد القيس لازمه سنتين فلما عزل عقبة ورجع إلى بغداد رحل معه العبدى ، وبينما عقبة واقف بباب المهدي بعد موت أبي جعفر وجاءه العبدى بسكين في بطنه فقتله أخذاً بثأر قومه ، فضرب بجسارته المثل ، لأن عقبة كان مهيباً جداً .

(٨) هرم بن قطبة : هو الذي تحاكم إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علانة الجعفريان ، فقال لهما :  
انتما كركبتي البعير تقيمان معاً ، ولم يفضل أحدهما على الآخر فضرب به المثل .

(٩) الدوسر : الجمع الضخم أو الأسد الصلب والدوسر كان يطلق على كتيبة النعمان بن المنذر وبها يضرب المثل .

(١٠) القسور والقسورة : الأسد وجرائه معروفه .

إلا أن يسوق هذه الأمثلة للإفادة على طريقة المقامات أو لإظهار علمه ، وكثرة اطلاعه ومعرفته بأمثال العرب •

وحسبي هذان المثالان للتدليل على غرامه بحشد الأمثال والإشارات التاريخية • وفي صهاريج اللؤلؤ مجموعة من هذه الأمثال يصح أن يؤلف في شرحها كتاب خاص ، أمّا عن توحيه شدة الأسر في عبارته ، واصطياد غريب الألفاظ ، فقد أشرنا إلى أنه اهتم بجمع مختارات من أراجيز العرب وشرحها ، وكلنا يعلم أن الرجازين الذين اشتهروا في العصر الأموي كانوا مثلاً في معرفة اللغة ، وأن أراجيزهم كانت منبعاً يستقي منه الأدباء والشعراء ، فلا بدع إذاً حين نرى البكري ملماً بكثير من غريب اللغة ، مجيداً لاستعماله •

هذا وقد اختار لفحول الشعراء في العصر العباسي مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، والبحري ، وابن الرومي ، وابن المعتز ، والمتنبي ، وأبي العلاء ، وشرح مختاراته هذه ، فاجتمع له من الأراجيز ، ومن الشعر العباسي المنخل المختار مدد من الفصاحة والبيان أعانه على أن يظهر في صهاريج اللؤلؤ بمظهر المتبحر في آداب اللغة المطلع على أسرارها •

على أنك تجد البكري في شعره لا يعمد إلى الغريب إلا في النادر ، على حين يهتم في نثره بهذا كل الاهتمام ، ولعله رأى الشعر لا يحتمل مثل هذه الألفاظ الوعرة المطمورة في ثنايا المعاجم ، وأنه مقيد بالوزن والقافية ، أما النثر فأمامه متسع لأن يغير ويبدل ، ويضع الكلمة التي يريد ، وقد يعينه هذا الغريب على طريقته التي آثرها في الكتابة ، وهي طريقة السجع ولذلك لا تجد له شعراً مثل شعر عبد المطلب في طول القصيدة ، وكثرة ما بها من ألفاظ غريبة •

استمع إليه يصف منتزه « البندلر » في القسطنطينية : « وقد حف الشجر الدواح <sup>(١)</sup> بتلك البطاح ، فمن شوع <sup>(٢)</sup> ودّر ماء <sup>(٣)</sup> ، وخلاف <sup>(٤)</sup> ، وطحماء <sup>(٥)</sup> ،

(١) الدواح : الشجر العظيم •

(٢) الشوع : شجر البان ونبت في السهل والجبل ، ويقال لشجره حب البان ولزيته دهن البان •

(٣) الدرماء : نبت أحمر الورق •

(٤) الخلاف : نوع من الصفصاف •

(٥) والحطماء : النجيل •

وريحان نضر ، وعيندانة<sup>(١)</sup> مرَجْحَنَة<sup>(٢)</sup> من سدر ، وقد تلاحت غصونها ،  
وتعرشت خيطانها وفنونها ، وخَضَبَ بينها العرفج<sup>(٣)</sup> ، وأزهر الياسمين والبنفسج ،  
فكأن تحت كلِّ عرش إيوانا ، وفوق كل فرش ديوانا ، وفي كل ترب جونة<sup>(٤)</sup> عطار ،  
أو مسك بين أفهار<sup>(٥)</sup> » .

ولا ريب أن البكري لم يكن يعرف أسماء الأشجار التي رآها في هذا المنتزه ،  
ولو عرفها بالتركية لعجز عن أن يجد لها نظيراً بالعربية . فأين ما ينبت في الجزيرة  
الحارة من شجر ونبات يحتمل الحر الشديد ، مما ينبت في بيئة باردة غزيرة الأمطار ؟  
ولكنه استعار أسماء يعرفها في العربية معرفة قراءة لأشجار أخرى لا تنطبق عليها  
هذه الأسماء .

وهاك مثلاً آخر يصف فيه معركة « أسترلitz »<sup>(٦)</sup> : « كأي أنظر إليه يوم  
« أسترلitz » وقد خرج لقتاله القيصران ، في يوم أرونان<sup>(٧)</sup> » فصابت بقر<sup>(٨)</sup>  
و « ما يوم حليلة بسر<sup>(٩)</sup> » فاصطف حياله الروس ، كالسطور في الطروس ، وثبتوا  
في الأخاديد كالجلاميد وابدعروا<sup>(١٠)</sup> ، في السهول كالوعول ، وأقبل النمساوي في  
كتيبة جاوا<sup>(١١)</sup> ومللمة<sup>(١٢)</sup> شملاء ، ينزل أولاهها ، وليس بنازل ، ويرحل أخراها  
وليس براحل ، فقابلهم الفرنسيين بالدهياء الدرديس<sup>(١٣)</sup> . . . الخ » .

(١) العيدانة : أطول ما يكون من الشجر .

(٢) المرجحة : المائلة المهتزة .

(٣) العرفج : شجر ينبت في السهول واحده بهاء .

(٤) جونة عطار : الجونة . سلة صغيرة مغطاة بالجلد تكون مع العطار .

(٥) الأفهار : جمع فهر وهو حجر يدق به .

(٦) أسترلitz : اسم الموقعة التي هزم فيها نابليون جيوش الروس والنمسا معاً في ٢ ديسمبر سنة

١٨٠٥ ، وقد شهد الموقعة قيصر الروس والنمسا .

(٧) يوم أرونان : صعب شديد .

(٨) صابت : من الصوب وهو النزول ، والقر : القرار ، وصابت بقر أي استقرت في مقرها ،  
ويقال هذا المثل عند شدة المصيبة أي أن الشدة صارت في قرارها متمكنة .

(٩) حليلة : هي بنت الحارث بن أبي شمر الفسائي ، ويوم حليلة كان بينه وبين المنذر بن ماء السماء  
وفيه قتل المنذر . واشتهر هذا اليوم لأن حليلة طيبت فيه جند أبيها في قصة معروفة .

(١٠) ابدعروا : تفرقوا وانتشروا .

(١١) جاوا : كدراء اللون في حمرة من صدأ الحديد .

(١٢) المللمة : المخيفة ، والشملاء : الشملة المتفرقة .

(١٣) الدرديس : الداهية العظيمة .

ولعلك رأيت من هذه الأمثلة أن البكري كان يعدل عن الكلمة المعروفة إلى الكلمة غير المألوفة ولو كانت مما ينفر منه السمع مثل « ابذعروا » و « جأواء » ، و « درديس » ، وأنه كان يجمع بين المثل الشارد واللفظ الغريب أحياناً .

وإذا نظرنا إلى شعر البكري وجدناه كما قال مطران ، لا تنتظمه فكرة ، أو يصدر فيه عن مذهب خاص ، بل كان الشعر عنده وسيلة من وسائل التعبير ، وحسبه أن يظهر بأنه يملك هذه الوسيلة ، حتى لا يكون أدنى من سواء ممن يتصدرون في موكب الأدب ؛ ولما كان البكري من رجال الدين وشيخ الطرق الصوفية كان من الطبيعي ألا ينطلق على سجيته في الشعر ، ويخوض في كل أغراضه ، ويعبر بحرية عما يجيش في نفسه .

الشعر فيض الوجدان يظهر في صورة موسيقية جذابة ، والوجدان ينفع بمؤثرات عديدة فإذا كان الشاعر غير متمزمت ، أو متخرج مما يصدر عنه جاء شعره صادق العاطفة ، معبراً عن حقيقة نفسه ، ولكنه إذا كان مثل البكري رجل دين ، وسيداً من الأشراف الذين يحتلون في المجتمع منزلة رفيعة كان من الطبيعي ألا يستجيب في شعره لكل ما ينفع له وجدانه . ولهذا لا نرى للبكري غزلاً عاطفياً قوياً وإنما هو نسيب يأتي به في أوائل القصائد محاكاة للأقدمين في طريقتهم وتشبيهاهم ، ووقوفهم على الأطلال من غير أن تكون ثمة أطلال ، استمع إليه يقول من قصيدته ذات القوافي :

سقى دور مئة بالأجرع      مسف من الدجن لم يتقلع<sup>(١)</sup>  
ولو ترك الشوق دمعاً بجفني      سقيت المنازل من أدمعي

\* \* \*

شجيّ يحنّ لألافه      ويصبو إلى دهره الغابر  
فهل عائد لي زمان مضى      بنعف الغوير إلى الحاجر<sup>(٢)</sup>

ولا ريب أن البكري لم يكن محباً لمئة وديارها بالأجرع ، وإنما هو محاكاة

(١) الأمر : المكان فيه سهولة ورمل ، وهو هنا مكان بمينه .

(٢) النعف : المكان المرتفع ، والنوير : تصغير غور وهو ما تداخل وهبط ، والأغوار في جزيرة

العرب كثيرة ، والحاجر : منزل للحاج في البادية .

لطريقة الأقدمين في نظم الشعر ، ولم يكن البكري ممن يصبو إلى الزمن الغابر ويتمنى عودته إلى نعف الغوير والحاجر إلا على تأويل أنه قرأ عن هذه الأماكن كثيراً ويود لو أتيحت له الفرصة ليراها رأي العين ، فليس البكري كعبد المطلب في حينه إلى البادية ، لأن عبد المطلب كان يحن إليها عن عاطفة وإخلاص ، لنشأته في بيئة قريبة منها ، ولا عزازة بانتسابه إلى البدو ، أما البكري فقد نشأ في بيت ترف ومجد في أحضان القاهرة ، ورأى من معالم الحضارة الأوربية الشيء الكثير ، ولم يكن على الرغم من شرف محتده وعلو نسبه ممن يشتهي الرجوع إلى البادية أو يعتز بها ، ولكنه حين أتى إليه من الكتب ومن المحاكاة • والأبيات ليست فيها أي عاطفة أو سمات تفصح عن شخصية الشاعر •

وكثيراً ما يلجأ إلى هذا النوع في ابتداء القصائد التي يحتفي بها كقصائد المديح متبعاً في ذلك خطة كبار الشعراء الذين يعارضهم أو يعجب بهم ، فأبو نواس على الرغم من ثورته على هذه الطريقة ظل يتبعها حين يمدح أمير المؤمنين أو أحد الولاة •

ونرى هذا لدى البكري عند مدحه للخديو عباس •

ألا جمعي شمل الدموع المبدداً وردي لجفنيك المنام المشرداً  
وإن تجزعي للين لست بجازع ولا تارك رأي الصواب المسدداً

والجزع وسح الدموع ساعة الفراق مما رددته كثير من شعراء العربية ، وهذا هو المتنبي يقول :

ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم بعث إلينا القتل من كل مشفق  
عشية يعدونا عن النظر البكا وعن لذة التوديع خوف التفرق

نرى هذا كذلك في أول قصيدته مصر التي أشرنا إليها فيما سلف عند الكلام على التغني بالطبيعة المصرية في الشعر الحديث :

أديار مي تنظر فدموع عينك تمطر  
أم أبرق العلمين أم سفح اللوى تذكر<sup>(١)</sup>

(١) الأبرق : ج برق وهو المكان الذي اجتمعت فيه الحجارة والرمل والطين ، واللمان : مثني علم وهو الجبل : وأبرق العلمين : مكان بعينه ، واللوي : ما استرق من الرمل ، وسفح اللوى : مكان بعينه •

أم تام قلبك جؤذَر" أحوى المدامع أحو<sup>(١)</sup>  
فلا زال ينظر إلى ديار مية ، وأبرق العلمين ، وسفح اللوى ، ولا زالت المرأة  
عنده جؤذراً •

وفيما عدا هذه الابتداءات لا ترى للبكري غزلاً أو تشبيهاً في المرأة ، تزمناً  
منه ، وحرصاً على مكاتته في المجتمع ، وهو الحسيب النسيب ، وشيخ مشايخ الطرق  
الصوفية •

وإذا انتقلنا إلى غرض آخر من أغراض الشعر وهو المديح ، وجدنا أن البكري  
رباً بنفسه أن يمدح إلا الملوك على حد قول النابغة :

و كنت امرأة لا أمدح الدهر سوقة      فلست على خير أذاك بحاسد

وقد انحصر مديحه في أمير المؤمنين « عبد الحميد » وقد علمت كيف احتفى  
به ، وأغدق عليه من الأوسمة والرتب ما ألهج لسانه بالثناء المستطاب ، وفي عباس  
وهو أمير البلاد ، وهو الذي ولاه مشيخة الطرق الصوفية ، وإن كان قد نفس عليه  
مكاتته من الخليفة ، وجفاه ، بل اشترك في المؤامرة التي حيكت لاتهامه بالجنون •

وله في عبد الحميد قصيدة واحدة أثنى فيها على بلاء جيوشه في محاربة أعداء  
الدين ، وعرج على وصف بعض الملوك ، وأثنى فيها على كرمه وجوده حتى انطلق  
الشعراء بمدحه ، وهو في وصف المعارك يخلط الجديد بالقديم ، فيصف عدة السلاح  
التي عرفها العرب من السيف والرمح والدرع ، ويصف المدفع وقصفه وحصده  
للنفوس • وهو يتوخى غريب اللفظ كعادته ويلجأ إلى محفوظه من التشبيهات  
العربية القديمة ، وهاك بعض ما قاله في تلك القصيدة :

|                             |                              |
|-----------------------------|------------------------------|
| لقد قمت بالإسلام عن كل مسلم | أما ويمين الله حلفة مقسم     |
| بأيدي الأعادي مثل نهب مقسم  | فلولاك بعد الله أمست دياره   |
| ويئس ثوى عند الحطيم وززم    | لقد سر هذا النصر قبراً بطيبة |

وهذا مدح" ينكره الواقع فلم يقيم عبد الحميد عن كل مسلم بالإسلام ، بل  
هو الذي طوح بالإسلام حتى عرفت تركيا في عهده بالرجل المريض ، ونهب الأعداء

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية وتشبه به الحسان لجمال مينيته ؛ والأحوى : من به لون الحرة  
وهي سواد إلى الخضرة ، والأحو : من اشتد بياض مينيته وسواد سوادهما •

ولآيات عديدة من تركيا مثل طرابلس وتراقيا وغيرهما ، وإذا كان عبد الحميد وجنده قد انتصروا في بعض المواقع ، فإن العاقبة كانت وخيمة • ويقول في مدح عبد الحميد كذلك :

|                              |                                      |
|------------------------------|--------------------------------------|
| له في الأعادي حملة يعرفونها  | وأكبر منها حملة في التكرم            |
| عطايا تظناها لإعظام قدرها    | أمانى نفس أو رؤى من مَهَوِّم         |
| أياديه أبدت خافي الشعر للورى | وكان مُجَنِّأً مثل سرِّ مكتم         |
| كذلك زهر الروض يبدو من الثرى | إذا ما سقاه مُسْنَجَمٌ بعد مُسْنَجَم |

والمدح بالشجاعة والكرم — وهما أعظم خلتين لدى العرب — قديم جداً في الشعر العربي، وقد افتن الشعراء في توليد المعاني منهما ، ولم يدعوا مجالاً لقائل ، ومن قوله يصف جيوش عبد الحميد :

أسأل فجاج الأرض بالجند يلتوي      كأغدره الوديان في كل مخرم  
وقد نظر في هذا البيت إلى قول الشاعر : « وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح »

|                               |                             |
|-------------------------------|-----------------------------|
| يموج بها الماذي في رونق الضحى | كما ماج لجج بين أرجاء عيَلم |
| فمن كل مغوار ترى الروم دونه   | هُوَيَّ شهاب أو عقاب محوِّم |
| ومن كل ذبال كأن هويه          | طرائد وحش بين أظفار قشعم    |
| ومن كل حصاءٍ دلاص كأنها       | على عاتق الأجناد بردة أرقم  |

فهو يشبه الجيش في الضحى بالأمواج المتدفقة في بحر كبير ، ويشبه التركي الشجاع بالنسر الذي يطارد وحشاً ، ويصف الفرسان بأنها في هويِّها كالشهاب أو العقاب ، ويصف الدروع الواسعة السابغة بأنها على أكتاف الجنود كأثواب الشعاب في نسمنتها ونقشها ، وهذه كلها أسلحة قديمة ، وأوصاف مطروقة من قبل ، ويطول بنا الحديث لو تعقبناه وعرفنا مأخذه ، ومن وصفه للمدفع قوله :

|                           |                          |
|---------------------------|--------------------------|
| ومن منجنيق يستطير شواظه   | بفوهة فيه كباب جهنم      |
| عليه دخان يقطر الجمر بينه | كأسود دجن بالصواعق يرتمي |

وقد سمي المدفع منجنيقاً لأن العرب كانت تعرفه ، ولم تعرف المدفع ، وشتان بينهما •



وفي مدحه لعباس تراه يبتدىء بذلك النسيب الذي أشرنا إليه ثم يعرج على وصف السفينة التي أقلته إلى مصر ، وقد عدل عن وصف الناقة التي كانت توصل الشاعر إلى الممدوح وتشق به الصحارى إلى السفينة التي أوصلته الى مصر وشقت به عباب البحر ، وقد وصف عباساً بالحلم في حزم ، وانجاز الوعد ، والكرم ، وبأنه حسام في يد الإسلام وبأنه كالنجم الثاقب في الرأي ، ثم انتقل إلى مدح الأسرة العلوية مشيداً بفتوحهم وبلائهم في خدمة مصر ، ومن قوله يصف السفينة والبحر :

|                             |                                              |
|-----------------------------|----------------------------------------------|
| أخوض عباباً فوق فلك تظنها   | على سرّوات الماء قصرأ مشيداً <sup>(١)</sup>  |
| تهادى به مثل العقاب ، وتارة | ترقى من الأمواج صرحاً ممرءدا                 |
| وترزم حيناً فيه حتى كأنها   | تجوز على العلات حزنناً وقرددا <sup>(٢)</sup> |
| خضارة مرآة السماء فلم تزل   | ترى وجهها فيها وإن بعد المدى <sup>(٣)</sup>  |
| فإن أشرقت فيه الغزالة خلتها | كمين بجوف البحر تقذف عسجدا                   |
| وإن لاح تحت الماء بدر" رأيت | كماوية يعلو على متنها الصدا                  |
| وربّما خلّت النجوم عشيّة    | لآلىء في قاعيه مثنى ومفردا                   |
| كأثا وقد جزنا لمصر فرنجه    | حنيف" تخطى من ضلال إلى هدى                   |
| نؤم بها العباس في دسنت ملكه | كما أم سقّار" على الجهد موردا                |

وهنا ترى البكري يلجأ إلى القديم تارة ، ويجدد في وصفه أخرى ، فإنزام السفينة من إنزام الناقة وهذا قديم ، كما أن تشبيه هويها بهوي" العقاب قديم كذلك ، وتشبيه البحر بأنه مرآة للسماء ترى فيه وجهها على الرغم من بعد الشقة ، وتصوير الشمس المشرقة في البحر بأنها عين تقذف عسجدا ، وتشبيه البدر بأنه مرآة صدئة وصف جديد حقاً . وطريقته في التخلص من وصف السفينة إلى المدح هي طريقة القدامى في التخلص من وصف الرحلة والناقة إلى المدح تماماً :

(١) السروات : جمع سرة وهي من الطريق أعلاه ومتنه .

(٢) إنزام الناقة : صوتها حين التعب . ويريد هنا أن السفينة تتمتع في الموج ، والعلات : الحالات المختلفة . وجرى على علاته أي على كل حال ، والحنن : ما غلظ من الأرض والقررد : الأرض الغليظة المرتفعة .

(٣) خضار : علم البحر .

ومن قوله يمدح عباسا :

|                              |                                             |
|------------------------------|---------------------------------------------|
| حليم يزيد الحلم منه حفاظه    | كما خشن اللين الجراز المهتدا <sup>(١)</sup> |
| أجلٌ أمير قام بأساً ونائلاً  | وأنجزهم طراً وعيداً وموعداً                 |
| تراه بمصر بعد والده الرضى    | كشل الريح الجون خلقه الجدا                  |
| يذود عن الإسلام حتى كأنه     | حسام به الإسلام أضى مقتدا                   |
| له شيمة" فيها ثوى الفضل ككـ  | كما قد ثوى كل الكلام بأجدا                  |
| ورأى" إذا ما أظلم الخطب خلته | كنجم به في ظلمة الغطب يمتدى                 |
| وفكر كمرآة المنجم في الورى   | يرى اليوم فيها ما بين لهم غدا               |

ولعلك تلحظ ظاهرة واضحة في شعر البكري ، بل وستجدها في كل آثاره الأدبية وهي فرط غرامه بالتشبيهات ، فكل صفة مهما بلغت من الوضوح لا بد لها عنده من تشبيه يؤكددها ، وقد يوفق في بعض هذه التشبيهات ويبتكر ، وقد يخفق في التجديد ، ويحاكي الأقدمين ، وكأن التشبيه لديه مقصود لذاته ، وربما أتى هذا لاعتقاده أنه مظهر الخيال ، وهو يريد أن يباهي بخياله الأدبي ، ويظهر للملأ أنه يحتل منزلة لا تدانى في هذا الميدان .

فوصف الأمير بالحلم مع الحفاظ والذود عن المكارم وصف قديم ، وأشهر ما قيل في هذا قولهم « لين في غير ضعف » ، ووصفه بالشجاعة والكرم وإنجاز الوعد والوعيد ليس فيه جديد ، أما عن تشبيهه بالريح الذي خلقه المطر فقديم كذلك ، ومن أحسن ما قيل في هذا قول الشاعر :

|                             |                                |
|-----------------------------|--------------------------------|
| وما روضة حلّ الريح نطقها    | وجرمت بها الأنواء حاشية البرد  |
| إذا حدرت فيه النعامى لثامها | ثنى عطفه الحواذن والتف بالردند |
| بأطيب نشرأ من خلأقه التي    | تم بريأها عن العنبر الورد      |

ثم ألا ترى معي أنه أضعف الوصف حين شبهه بحسام تقلده الإسلام بقوله

(١) الجراز المهند : هو السيف ، والحفاظ : الشدة والبأس ، والحرص على الكرامة واللب من المحرم.

« حتى كأنه حسام » ، وتشبيه الأمراء والقواد والمدوحين بالسيف معرق في القدم : وما أردأ قوله « كما قد ثوى كل الكلام بأبجدا » فليس فيه أي رائحة من الشعر ، وكان في غنى عن الالتجاء إلى التشبيه إذ أعوزته المقدرة على الابتكار • وتشبيه الرأي بالنجم الثاقب من التشبيهات المتداولة المعروفة منذ أن نظر شاعر عربي في صفحة السماء في ليلة حالية بالنجوم ، ويخيل إليك أنه جدّد في وصف فكر الأمير بأنه كمرآة المنجم يرى فيها اليوم ما سيأتي به الغد ، ولكن ألا ترى أن هذا المعنى قد أتى في قول البخري :

تشف أقاصي الرأي في بداّته      لعيني ، وستر الغيب غير رقيق

ولم يتورط بذكر المنجم الذي يوفق حيناً ، ويضل في أغلب الأحيان ؟؟ ومرآة المنجم هذه ليست مما يؤمن به العصر الحاضر وقد كانت شائعة في القديم وهي معرفته بحساب الجمل والجفر الذي ادعى الناس أن أهل البيت هم الذين ألفوا فيه ، قال أبو العلاء المعري :

لقد عجبوا لأهل البيت لما      أتاهم علمهم من مسنك جفّر  
ومرآة المنجم وهي صفرى      أرتّه كلّ عامرة وققر

ولعل مرآة المنجم اليوم هي ما يسمى بالمندل ، وهذا كله رجم بالغيب وقد تفرد الله بعلمه •

وبعد أن انتهى الشاعر من مدح عباس والثناء على خلاله وسجاياه ، ومدح آباءه وأثنى على شجاعتهم وقيادتهم الجيوش يدافعون عن الخلافة ، وعن البيت الحرام (١) .

فقلّ جموع الخارجين بآسهم      وأنهم فيهم بالفتوح وأنجدا  
وحامى عن القبر الذي عند طيبة      وذاد عن البيت الذي عند كدا

ولم يمدح البكري كما ذكرنا غير الخليفة والخديو ، وليس له في كل منهما سوى قصيدة واحدة وإن مدح عباساً في خلال قصيدته التي يصف بها مصر بما لا يخرج عما قاله في هذه القصيدة ، ومن ذلك قوله :

(١) يشير إلى معاونة الجيوش المصرية للخليفة في غزو كريت ، وتهدة الثورة في اليونان ، ومحاربة الوهابيين .

ملك بضوء جبينه      تسقى البلاد وتمطر  
السيد المحض العلا      والجوهر المتخير  
العدل مما ينشر      والمجد مما يثدخر  
خلق حوى كل الفضا      ثل فهي عنه تؤثر  
جود وبأس في الورى      بهما يخص ويشهر

وهذا الوصف ليس فيه جديد يضيفه إلى قصيدته السابقة ، وقد خلا مديحه من الاستجداء ، ولم يطل فيه ضناً بكرامته وشرفه ، ولعله أتى من قبيل أداء الواجب وهو الشاعر المباهي بشاعريته ، والذي ينتظر منه أن يقدم ولاءه لخليفته وأميره ، ولو قصر لليم على تقصيره • ولعلك رأيت أنه وصف عباساً بكثير من الصفات التي لم يتحل بها على عادة الشعراء القدماء في المدح •

ومن الأغراض التي أجاد فيها الوصف ، ولكنه قليل في شعره ، بل إن شعره كله قليل ، وقد وصف مصر في قصيدة عامرة له فيها لفتات شعرية سامية ، ومن هذه القصيدة التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع <sup>(١)</sup> قوله يصف جمال مصر :

والنيل في لبّاتها      عقد يلوح مجوهر  
والجو صحو مشرق      وكأنما هو ممطر  
والظل من خلل الشمو      س مذرهم ومدثر  
وغصونها لثدن تمي      د بما ثقل وتثمر  
فكأنهن ولأند      في حكنها تتكسر  
هي نسج وشى نيلها      فيه الطراز الأحمر  
هي مثل لوح صور ال      فردوس فيه مصوّر  
يا جنة يجني الجنى      فيها ويجري الكوثر  
أنا شاعر في وصفها      لكنها هي أشعر

وفي بعض هذا الوصف جدة ، فتشبيه النيل بأنه عقد جوهر يحلي جيد مصر ،

وتشبيه الأغصان المحملة بالثمار المختلفة الألوان بالولائد اللاتي يتكسرن في مشيتهن وهن حاليات ، وتشبيه مصر بأنها لوح صورت فيه الجنة ، وقوله إنها بجمالها أشعر منه في شعره الذي يمدحها به من الجديد في الوصف ، ويدل على حبه لبلاده وعلى خيال سام في تصويرها •

وتراه في بعض أبيات هذه القصيدة يقتفي أثر البحري في وصف إيوان كسرى ، استمع إليه يصف قصر « عابدين » والصور التي تزين جدرانها ، وقد مثلت عليها وقائع حرية •

|                      |                  |
|----------------------|------------------|
| فترى الوقائع منظرًا  | وكأنما هي مخبر   |
| والجند تخطر في الحدي | د فدارعون وحشّر  |
| والخيل بين عجاجها    | تخفى وحينًا تظهر |
| وتظن أحياء بها       | فتمس كيما تخبر   |

ففي هذه الأبيات شبه كبير وتأثر واضح بتلك الأبيات التي يصف فيها البحري معركة أنطاكية :

|                         |                              |
|-------------------------|------------------------------|
| والمنايا موائل وأنو شر  | وان يزجي الصفوف تحت الدّرّفس |
| وعراك الرجال بين يديه   | في خفوت منهم وإغماض جرس      |
| من مشيح يهوي بعامل رمح  | ومليح من السنان بترس         |
| تصف العين أنهم جد أحياء | لهم بينهم إشارة خرس          |
| يفتلي فيهم ارتيابي حتى  | تتقراهم يداي بلمس            |

وقد وصف البكري في هذه القصيدة الجزيرة وخروج النساء للنزهة بين أرجائها من مركباتهن وقد أبدع في الوصف حين قال :

|                      |                |
|----------------------|----------------|
| عجلاتها فلك بأشبا    | ه النجوم يدور  |
| من كل خرّكاة بحسن    | اء تضيء وتقمّر |
| فكأنها المشكاة والمص | باح فيها يزهر  |

والخرّكاة مركبة النساء في المواكب ، وتصويره المركبة بأنها كالمشكاة والحسناء فيها كالمصباح تصوير طريف ، وتراه بعد ذلك يصف حديقة الحيوان :

فيها النعامة والحبـا      ري والمها والقصور  
كسفين نوح أظهرت      ما كان فيها يَضمَر  
وترى الغصون على الأرا      ثك تلتوي فتشجَر  
وجداول<sup>(١)</sup> كسائك      بسنا الأصيل تعصفر

وقد نظر في البيت الأخير إلى قول الشاعر : «ذهب الأصيل على لجين الماء» :

ماء<sup>(٢)</sup> كبلور يذو      ب<sup>(٣)</sup> وأدمع<sup>(٤)</sup> تنقطر  
يروى القطا الكدري مذ      ه وينتحيه الجؤذر  
في حافتيه الورد والنَّ      سرين والنيلوفر  
وعليه من نسج الصِّبا      درع هناك ومِغْفَر

وفي هذا المعنى قال ابن المعتز يصف روضاً :

فكأن الروض وشي<sup>(٥)</sup>      بالغت فيه التَّجار  
نقشه آس<sup>(٦)</sup> ونسر      ين وورد وبَهَّار

وقال في وصف غدير :

غدير ترجرج أمواجه      هبوب الرياح ومرء الصِّبا  
إذا الشمس من فوقه أشرقت      توهَّمته جَوْشُنًا مَذْهَبًا<sup>(٧)</sup>

وقال الطغرائي في وصف غدير كذلك :

حسبائه در<sup>(٨)</sup> ورَضْرَاضه      سُحالة العسجد حول الدَّرَر<sup>(٩)</sup>  
وقد كسته الريح من نسجها      درعاً بها يلقي نبال المطر  
وألْبسته الشمس من صِبْغها      نوراً به يخطف نور النصـر  
كانه المرأة مجلوة<sup>(١٠)</sup>      على بساط أخضر قد نُشِر

(١) الجوشن : الدرع .

(٢) الرضراض : صفار الحصى والعسجد : الذهب ، وسحاتته : برادته .

ولم يزد ما قاله البكري عما أتى به ابن المعتز والطغرائي شيئاً :  
ومن الجديد في هذه القصيدة قوله في وصف المتحف • وقد حشدت فيه  
أجساد الفراغة :

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| نشرت به أمواتهم     | فكأنما هو محشر       |
| رمسيس أين مطارف الد | يباج أين الجوهر ؟    |
| أين السرب وأين تا   | ج الملك أين العسكر ؟ |
| نم في رقادر ليس في  | أحلامه ما يذعر       |
| فالموت نوم أكبر     | والنوم موت أصغر      |
| دنيا تشابه ملعبا    | والليل ستر يستر      |
| والفصل يضحك والثر   | يا الشمس فيه تور     |
| جند هناك وسوقة      | ومتوَّج " ومسخر      |
| فإذا طرحت ثيابهم    | ساوى الأعزَّ الأحر   |

وتشبيه الدنيا بأنها ملعب تمثل فيه رواية الحياة ، والليل هو الأستار التي  
تسدل على المسرح قبل الرواية ، والشمس هي الثريا التي تضيء المسرح ، والناس  
هم الممثلون ، هذا يمثل جنديا ، وهذا سوقة ، وهذا ملك ، وهذا خادم ، ولكنك  
إذا طرحت هذه الثياب وجدتهم جميعا سواء في التركيب الجسماني — لعمرى لفتة  
شعرية بديعة من البكري • ومن الجديد في تلك القصيدة التفاته إلى خلق المصريين  
ووداعتهم ، وقلما التفت من وصفوا مصر من الشعراء إلى خلق أهلها :

وطن الغريب وداره وقبيله والمعشر

وقد تكلم عن مجد مصر القديم وأنه كلما ازداد قدماً ازداد حسناً وروعة :

|                     |                                |
|---------------------|--------------------------------|
| والمجد مثل الخمر يك | رَّم ما توالى الأعصر           |
| كانت سلاطين الورى   | فيه تشيد وتعمُر                |
| والغرب من أعماله    | والقبلتان وتدمر <sup>(١)</sup> |

(١) يشير إلى امتلاك المصريين لبلاد المغرب أيام الفاطميين ولبيت المقدس والحجاز ، وقلمة تدمر •

والخيل خيل الله تر      كب والصوائف تنصر  
وفرنجة ومليكهها      تغزى بمصر وتؤسر  
هذي مناقب مصر تر      وى في الأنام وتسطر

ولم يكتف بذكر الماضي ، ولكنه نظر إلى المستقبل ، وكان متفائلاً في نظرته ،  
محباً لبلاده :

ولسوف يرجع ما مضى      ويعود ذاك المفخر  
وكذا الزمان يدور وال      قدر المغيب محور  
والبدري إن وافى السرا      رَ فبعد ذلك يدُر  
والعود ييس برهة      فإذاه عود" أخضر

ومن روائع وصفه قوله يصف « النيازج » في إحدى حفلات القصر الليلية ،  
وقد خرجت منها مناظر عدة ، فمن ثعابين ، وطيور ، وأزهار ونخيل ، في ألوان  
وأصباغ مختلفة .

فمن شهب تمتد في الجو مصعداً      وتلوى على جنبه مثل الأرقام  
وتمطر فيه لؤلؤاً وزبرجداً      شآبيب منها ساجم بعد ساجم  
فطوراً نرى أن السماء حديقة"      تفتح فيها الثور بين الكمائم  
وحيناً نرى أن الحديقة في الدجى      سماء" تهوى بالنجوم الرواجم

ولكنك لا تجد له شعراً كثيراً في الوصف ، فهو مقل "جداً" ، ولو أنه عني  
بالشعر واحتفل به ، ولم يأنف من أن يصير شاعراً مكتمل الشاعرية يخوض في كل  
أغراض الشعر ويستجيب لافعالات قلبه ووجدانه ، لكان في طليعة شعراء مصر .

وله قصيدة في الفخر والرثاء معاً بعنوان : « أبي » عارض فيها المتنبي حين  
رثى جدته حين قال :

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذماً      فما بطشها جهلاً ولا كفها حلماً  
أحن إلى الكأس التي شربت بها      وأهوى لمثواها التراب وما ضماً



وإن لم تكوني بنت أكرم والد فإن إياك الضخم كونك لي أما  
وقد قال البكري من نفس البحر والقافية :

سقت رحمة الله الضريح وما ضما وروى به هاما وروى به عظما  
يعز على العلياء أن يسكن الندى ترابا وأن تلقى به الحسب الضخما  
وفيها يقول واصفاً خلال والده :

وكفان كانا كالفرات ودجلة يریشان من خصا بجود ومن عما  
وعلم هو اليم الذي قد تنورت أواذيه الورد فاستصغروا اليم  
وبطش لمن عاداه تحسب أنه شهاب هوى في إثر عفرية رَجْما  
وصدر هو الهناء في الأزم فسحة وليلة سر عند إسراره كنما  
وقول "عريق في الفصاحة لو غدت تساجله عرب إذا أصبحوا عجما  
وعدل هو العدل الذي قد قضى به أبو حفص الفاروق في طيبة حكما  
فهذا أبي من بيت تيم بن مرة إلى نَصْد من هاشم يفرع النجما  
وما ذاك في مدحيه شعر وإنما خلائقه در" أجدت له نظما

هذا ويقف وقفة على قبور آل الصديق يتذكر فيها أمجادهم ، فتأسى نفسه  
لما أصابهم :

وإما تراءت هيلت النفس عندها قشعريرة للهب أو وجمت وجما  
أهيل على مثل العوالي ترابها ووارت لدى إطباقها الدين والعلم

على أن البكري أشعر ما تراه في مقطوعاته الصغيرة : وقد ضمنها بعض الحكم  
والأفكار الجديدة ، والخطرات العارضة ، فمن ذلك قوله في ظلم السادة للرعية ، وفي  
هية الناس للملوك وخشيتهم إياهم مع أنهم هم الذين ملكوهم •

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة فتنوء منه بفادح الأثقال  
ظلم الرسة كالعقاب لجهلها ألم المريض عقوبة الإهمال

وقوله في هذا الغرض كذلك :

والناس يخشون من بطش المليك بهم  
وماله دونهم بأس ولا جاه  
كصانع صنماً يوماً على يده  
وبعد ذلك يرجوه ويخشاه

فهو وإن نظر إلى قول المعري :

مثل المقام فلا أجاور أمة  
أمرت بغير صلاحها أمراؤها  
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها  
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

إلا أنه جدد وابتكر ، وما أبدع قوله « كصانع ... » في وصف علاقة الرعية  
بمليكها ومن هذه الحكم قوله :

وفي وسعة المرء نيل العلا  
وقد يمنع المرء ما يمنع  
صغير من الأمر يلهمه عن  
بلوغ العظام أو يقطع  
كعين تحيط بهذا الوجو  
د جميعاً ويحجبها إصبع

وفي هذا التشبيه براعة وتجديد ، ومن قبيل هذا قوله في وصف شقين :

شقيان في خلق واحد  
تؤلف بينكما الزندقة  
كثيقي مقص تجمعتما  
على غير شيء سوى التفرقة

وله في قصيدته التي سماها « ذات القوافي » خطرات بارعة مثل هذا الذي  
ذكرناه ، حتى ليصل فيها إلى القمة فمن ذلك قوله متغزلاً :

نحلت فلو زرتها ما خشي  
ت رقيباً يراني فيمن يرى  
ولو زرت مئة في يقظة  
لظنت بأني خيال سرى

\* \* \*

يمر ولم أدر شهر فشهر  
كأنني في فلك لم يدر  
وأرتاح إما تمنيتها  
ويا رب أمنية كالظفر

أسير ولا أرتضي بالعِناق      ومُضْنىً وأجزع أن أبرأ  
وإن سلّمت خلتها ودّعت      وأحسب مقربى متأى

\* \* \*

إذا كنت وحدي أكون وإيا      لك أو خالياً فاشتغالي بك  
وأطلب المجد والمكرما      ت لتحسن لي شيمة عندك

\* \* \*

ليحنو قلبك رفقاً عليّ      فالصخر بالماء قد ينبجس  
وصوني الوداد وفيه الذمّاء      فلن يورق العود إما ييس

وما أجمل قوله في ختام هذه القصيدة :

زمان إذا ما تذكرته      نخيلته حلما في الكرى  
وعهد الشباب كرؤيا إذا      مضت أدركتها نفوس الورى

ومن هذه المقطوعات الصغيرة قوله في الشيب :

أشعرة بيضاء أم      أول خيط الكفن  
أم تلك سهم مرسل      لا يتقي بالجئن  
والزرع إن هاج فقد      حان الحصاد وأني

وقد قال ابن الرومي في هذا المعنى :

لم أخضب الشيب للغواني      لأبتغي عندها ودادا  
لكن خضابي على شبابي      لبست من بعده حدادا

وقد علق الأستاذ العقاد على قول الشاعرين في الشيب بقوله : « كذلك الفرق بين خضاب الحداد ، وأول خيط الكفن ، فكلاهما مغالطة لا تعبر عن الواقع ، ولكن وصف الخضاب بالحداد تهكم جائز من حيث لا يجوز أن يخطر على بال أن شعرة الشيب الأولى خيط من خيوط الكفن لا على سبيل الجد ، ولا على سبيل التهكم » .  
ولكن يخطر على البال أن الكفن أبيض اللون ، وكذلك الشيب ، وأن الشعرة

الأولى إذا انضمت إليها شعرة وأخرى ، وأخذ شعر المرء في البياض دلّ ذلك عادة على شيخوخة وضعف ، فإذا تمّ الشيب فكأنما تمّ نسج الكفن في انتظار المنية .  
ومن قبيل هذا قوله :

وما أذنّ النوم لما أقاموا صلاة الجنّازة يوم الوفاة  
وأذن للطفل يوم الولاد فهذا الأذان لتلك الصلاة

وقد اقتفى فيهما أثر ابن الرومي عند قوله :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد  
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأرحب مما كان فيه وأرغد

وقد علق الأستاذ العقاد على هذه المعارضة بقوله : « أنه يعتسف أحيانا ويهتدون ، ومن أمثلة ذلك فيما تقدم قوله في أذان الولادة وصلاة الجنّازة ، وقول ابن الرومي في بكاء الوليد عند استهلاله ، فإن بكاء الطفل وهو يخرج من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا مثل صادق من تصاريف الحياة ، ومثل شائع بين جميع الناس ، أما النسبة بين أذان الولادة وصلاة الجنّازة فهي مناسبة « موضوعة طارئة » لا توافق هذا المعنى المتصل بالمولد والمات ، وهما أعم شيء وأعظم في وجود الإنسان ، وقد كان جائزاً أن يختلف الأمر فنصلي شكراً للولادة ، وتؤذن إعلاناً للوفاة ، وقد جاز عند ملايين من الأحياء ألا تقام الشعيرتان ، فالفرق بين معنى ابن الرومي ومعنى البكري هو الفرق بين المناسبة الموضوعية والمناسبة الصادقة التي لا يؤثر فيها اختلاف الشعائر والعادات والأقوام والأزمان<sup>(١)</sup> » .

هذا هو كل ما قاله البكري من الشعر ، لا يزيد عن أربع قصائد وبعض مقطوعات وشذرات ضمّتها آراءه المعارضة وخطراته ، وبهذا يصدق عليه قول مطران : بأنه لم تكن له جامعة تربط بين أجزاء شعره ، وأنه كان مقلّا في هذا الشعر . وقد علل الأستاذ العقاد لهذه القلة بأن البكري كان يكتب كثيراً ، ولا ينظم إلا عرضاً في أثناء الكتابة ، أو في خاطرة عابرة قلما يسترسل معها إلى الإطالة ، فاستعت له في النشر مجالات السليقة الشاعرة ، وظهرت فيه لفتات الشاعر وأعراضه وخصائص ذوقه وفكره ، ولعله لو أطال النظم كما أطال النشر لكثرت موضوعاته ، وتساوت

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٥٧ - ٥٨ .

في هذه المزية قصائده ومقاماته ، وربما كان البكري ممن يرون كما كان يرى الأقدمون « أن الشعر أسرى مروءة الدني ، وأدنى مروءة السري » ، وأن الانقطاع له والإكثار منه لا يجلان بصاحب المقام الديني والحسب العريق ، وليست الكتابة كذلك عند أصحاب هذا الرأي ، ولا سيما الكتابة التي تصاغ في قالب الرسائل بين الأكفاء ولا يطلع عليها القراء إلا إذا طالعهم بها أديب من محترفي الصناعة ، ليتولى هو شرحها وتقديمها إلى الناس ، كما جرى في كتاب صهاريج اللؤلؤ ديوان البكري الجامع لنخبة نثره وشعره<sup>(١)</sup> .

وفي الحق إن في نثر البكري شعراً لا ينقصه إلا الوزن ، فكثير من موضوعاته التي دبجها نثراً ، لا تصلح إلا للشعر ، وقد استطاع — على الرغم من أنه قيد نفسه بالفخامة والجزالة ، وتصيد الغريب ، وإيراد الأمثال العربية القديمة ، وبالعبارة المسجوعة — أن يقبس من سماوات الخيال الشعري قبسات مشعة ، وأن يمثل عصره أتم تمثيل في فكرته لا في عبارته ، وفي خياله لا في صياغته .

دعنا نستعرض نثر البكري لتبين هذه الحقيقة فأول موضوعات صهاريج اللؤلؤ عن رحلته إلى القسطنطينية ، وفيها وصف للسفينة والبحر والليل والقطار والبسفور ، ونساء الأتراك ومنزهات المدينة وهي كلها من الموضوعات التي يصح أن ينظم فيها شاعر حساس ذو خيال ووجدان . ولم يتعرض البكري لوصفها نثراً إلا لأنه يملك هذه الحاسة الفنية ، ويملك الخيال الذي يصور به مشاعره . ولعله لم يجد القدرة في الشعر حتى يؤثره بتسجيل خواطره ، ولم يكن أمامه إلا البارودي وكان لا يزال في منفاه ، ولم يضرب في كل ميادينه ولم يجمع شعره إلا بعد عرذته من المنفى . ولعله برم بالشعر لتقيده بالوزن والقافية ، فأثر العبارة المنشورة لتحمل خياله المجنح ، وتتسع لوصفه البديع .

ولا يسعنا أن نأتي على كل موصوفاته ، ولنتخير من رصفه للقسطنطينية قوله في وصف البحر « والبحر آونة كالزجاج الندي ، أز السيف الصّدي » ، يلوح كالفيحة المدحوة<sup>(٢)</sup> أو المرأة المجلوة ، وحينا يضر زخّاره ، ويموج موارده ، فكأنما شيرت الجبال ، وكأنما ترى قبابا فوق أفيال ، وكان قبوراً في اليم تحفر ، وألوية عليه تنشر ، وكان العبد<sup>(٣)</sup> يمحض عن زبد ، وكان الدوي من جرجرة الآذي زئير

(١) المصدر السابق ص ٧٠ .

(٢) المدحوة : المبسطة .

(٣) العبد بالكسر : البحر ، وبمحض : يرك .

الأسد وهزيم الرد •

يكب الخلية ذات القلا ع وقد كاد جؤجؤها ينحطم<sup>(١)</sup>

فإذا كان الأصيل ، وسرى النسيم العليل رأيت البحر كأنه مبرد ، أو درع مسرد<sup>(٢)</sup> أو أنه ماوية<sup>(٣)</sup> تنظر السماء فيها وجهها بكرة وعشية ، وكأنما كسر فيه الحلي ، أو مزج بالرحيق القطريلي<sup>(٤)</sup> وكأنما هو قلائد العقيان ، أو زجاجة المصور يؤلف عليها الأصباغ والألوان •

فهنا ولا شك خيال شاعر فنان ، وصف البحر في هدوئه وغضبه ، ووقت الأصيل وصفاً دقيقاً جميلاً •

واستمع له كذلك يصف الليل وهو على ظهر السفينة ، وماذا عسى أن يرى الناظر بالليل ، والبحر أمامه ساكن أسود ، وستر الليل يحجب عنه الدنيا ، والسفينة ماضية في طريقها لا تخشى ضيراً ، ولا تلوي على شيء ، ولا تسمع إلا جرجرتها وهدير الأمواج من حولها كأنها تتألم من وقع خطاها ، ولكن الشاعر يرى مالا يراه الناس ، ويحس ما لا يحسون ، ويسبح خياله في عالم قل أن يدركوه إلا أن يحققه لهم في نثره الشعري ، أو شعره القوي ، قال البكري •

« حتى إذا أخضل<sup>(٥)</sup> الليل • وأرخی الذيل ، بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء يشق الظلماء ، أو قلادة ، أو سوار غادة ، أو سوار لواه الضراب ، والليل فيل وهو ناب ، أو عرجون قديم ، أو نون من خط ابن العديم<sup>(٦)</sup> ، أو برثن ضيفم ، أو مخلب تشعم<sup>(٧)</sup> أو ماء في أنبوب في روض ، أو ثمد<sup>(٨)</sup> في أسفل حوض ، أو وشي مرقوم أو دملج من فضة مفصوم ، أو قلامة ظفر ، أو صِنار في شبك في بحر •

(١) جؤجؤ السفينة : صدرها ومقدمتها ، والخلية : السفينة العظيمة .

(٢) المسرد : المنقب .

(٣) الماوية : المرأة .

(٤) القطريلي : منسوب إلى قطربل بلد بالمراق اشتهر بالخمير في القديم .

(٥) أخضل : أظلم ، وأقبل طيب برده .

(٦) ابن العديم : هو كمال الدين عمر بن هبة الله بن أبي جراحة ولد في سنة ٥٨٦ هـ وكان محدثاً حافظاً مؤرخاً صادقاً ، فقيهاً مفتياً ، منشئاً بليفاً ؛ وكان رأساً في الخط المنسوب ولا سيما النسخ والحواشي وله من المصنفات : تاريخ حلب ، وكتاب الدراري في ذكرى الدراري ، وكتاب في الخط وعلومه وضروبه وتوفي سنة ٦٦٦ هـ .

(٨) الثمد : الماء القليل لا مادة له .

(٧) التشعم : النسر الكبير .

أيضوء الهلال لظفت جداً كأنك في فم الدنيا ابتسام  
يجب لي سنالك العشق حتى يصاحبني وأصحابه الغرام

ثم إذا غاب الهلال ، وتوارى في الحجال ألفت الكون من السواد في لبوس  
حداد ، وكأنما الماء سماء ، وكأن السماء ماء ، وكأن النجوم در تموج في بحر ، أو  
ثقوب في قبة الديجور ، يلوح منها النور ، أو سكاك دلاص<sup>(١)</sup> ، أو فلق رصاص ،  
أو عيون جراد ، أو جمر في رماد ، أو الماء صفائح فضة يبضاء سمرن بمسامير  
صغار من نزار ، فلا تفتأ السفينة تكابد الويل من البحر والليل ، حتى يلوح من  
الأفق الضياء كابتسام الشفة للمياء ، فإذا السفينة كأنها سر كتمة الظلام ، وكشفه  
الضرام » .

لقد افتن البكري أيما افتتان في وصف الهلال في ظلمة الليل ، ولم يدع تشبيها  
يخطر على البال ، وقد لا يخطر على بال أحد إلا أتى به ، وكذلك فعل في وصف  
النجوم ، وقد أبدع في وصف النجوم حين عكس الماء صورتها بأن الماء صفيحة فضة  
سمرت بمسامير من ذهب ، وهذا الوصف قيل لذاته لا يحمل إلا فكرة شعرية .

وللبكري غير هذا النوع من الوصف الذي تردد في غير ما موضع من صهاريج  
اللؤلؤ موضوع اجتماعي جذاب هو « العزلة » وصف فيه مجتمعه ، ولم آثر العزلة :  
وصف فيه الحاكم وغطرسته وجهله ، واستعباده للبرءوسين ، ووصف فيه أبناء  
الخاصة وزهوهم ، وتبديدهم للمال الذي لم يجمعوه بالكد والكدح ولم يعرفوا  
مقداره ، ووصف أبناء العامة ، وشقاءهم ، وله فيه خطرات اشتراكية تدل على سعة  
أفق ، وعلى نفس حساسة تتألم للبشر وللفقير الذي يرزح تحته الشعب المصري  
المسكين ، وعلى ثورة نفسية على الأوضاع السيئة في المجتمع المصري . وما لي  
أتكلم عن البكري وقد أبدع أيما أبداع فلا دعك وإياه . قال :

« كتابي إلى السيد أيده الله ، وكلاه ورعاه ، وأنا حل بقرى السواد ، وريف  
البلاد ، بعيد عن المدينة ، وما فيها من الشينة والزينة ، في عزلة عن الناس ، بين سقني  
وغراس ، سليم الجسم من السقم ، والنفس من الألم ، والحمية من الأنام كالحمية  
من الطعام ، شفاء من كل داء ، وخليق بمن ارتطم ، في المزدهم ، أن يصاب ببعض  
الأوصاب » .

(١) الدلاص : الدرع المساء اللينة .

وهذا لعمر الحق قول سديد ، ورأي رشيد في العزلة ، يدل على تبرم بالمجتمع ، وهو فلسفة من يريد العافية بالعزلة .

ويقول واصفاً الريف : « يا ما أحلى الوحدة والريف ، وذلك المشتى والمصيف والجو السجسج <sup>(١)</sup> والظل الوريث . فجر يلوح في الأفق ، كالنور في الأعين الزرق ، وضياء ، ينبثق في الفضاء كما ينبثق الماء ، وشمس تبدو للإشراق في الآفاق كبودقة فيها ذهب ، أو قنبلة ترمي باللهب ، فيرتفع جرس كل حيوان كمنون في الأوثان <sup>(٢)</sup> » ويقول في وصف النواير: « ونواير كأنها عشاق بعد فراق ، لم يبق فيها غير ضلوع ، وأنين ودموع ، قد أوشم <sup>(٣)</sup> النبت حولها وطر ، واستدار الحدج واخضر » وبعد أن وصف الريف وما فيه من ماشية وزروع ، وأنهار وغدران ، وما فيه من حر لافح في الصيف ، وبرد قارس في الشتاء وما فيه من طعام مليء بالخيرات والدسم . الخ ذكر أنه في عزلة هذه لا يصحب إلا العلماء والأدباء ذوي الألباب والأفهام منهم : أبو تمام ، والحارث بن همام ، وعروة بن الورد ، وطرفة بن العبد ، والمعري ، ويقول :

ذريني وكتبي والرياض ووحدي      أظل كوحشي بإحدى الأمالس <sup>(٤)</sup>  
يسوف أزهار الربيع تعلقة      ويأمن في السداء شر المجالس <sup>(٥)</sup>

يسأل صاحبه : لماذا يدعو إلى هجر الريف ، والحضور إلى المدينة : « أأفعل ذلك ، وأقطع تلك المسالك رغبة في جوار حاكم ديوان ، أو صحبان وخلان ، أم لمنافسة أبناء السامة ، أم ملاسبة هذه العامة » .

ويأخذ بعد ذلك في الحديث عن كل واحد من هؤلاء : عن الحاكم ، وعن الأصحاب وعن أبناء الخاصة ، وعن عامة الشعب .

(١) السجسج : الوقت الذي لا حر فيها ولا قر ، وهو بين طلوع الشمس وطلوع الفجر ، والوريف : التسع المتد .

(٢) منون : تمثال لبعض آلهة المصريين القدماء بجوار مدينة طيبة ، كان إذا أشرقت الشمس صاح صيحة واحدة ، وربما كان ذلك حيلة من الكهنة .

(٣) أوشم : ابتداء يلون . وطر : ظهر .

(٤) الأمالس : ج املس وهي الفلاة ليس بها نبات .

(٥) يسوف : يشتتم .



« أما الحاكم فأكثر ما لقيت امرؤ إن أونس تكبر ، وإن أوحش تكدر ، وإن قصد تخلف وإن ترك تكلف ، إمع<sup>(١)</sup> ، لا يضر ، ولا ينفع ، قبة جوفاء ، تردد ما يلقي فيها من النعم إن لا فلا ، وإن نعم فنعم ، ألقاب وأكاليل ، على شخص في مرشح التمثيل ، فإن طرحت الألقاب ، ونزعت هاتيك الثياب ، ألفت تحتها العجب العجائب .

أبا الأسماء والألقاب فيكم ينال المجد والشرف اليفاع  
لا عدة ولا عدد ، وملك أقامه الله بلا رجال ، كما رفع السماء بغير عمد :  
ويقضى الأمر حين تغيب تيم<sup>(٢)</sup> ولا يستأذنون وهم شهود  
إلى تيه وخيلاء ، وعنجية وكبرياء ، كأنه جاء برأس خاقان<sup>(٣)</sup> ، أو أدال دولة  
بني مروان » .

وهذا وصف صادق للرؤساء والوزراء والحكام في عهد توفيق البكري : لأن الإنجليز كانوا هم الحكام الحقيقيين ، والمصريون دمي تحرك من وراء ستار ؛ ولقد أدى إخفاق الثورة العرابية إلى فقدان المصريين الثقة بأنفسهم ، وخضعوا لأوامر المحتل الغاصب ، الذي نازع البلاد وأميرها سلطانه في شخص ممثله بمصر اللورد كرومر . وكثير من هؤلاء الذين تولوا إدارة البلاد على عهد الإنجليز يصدق عليهم هذا الوصف ، يظهرون الصلف والكبرياء لمواطنيهم ، تعويضاً عن الذلة والضرعة التي يظهرونها أمام المحتلين وعميدهم بمصر ، ولم يدرکوا التبعة الملقاة على عاتقهم ، حتى أتى مصطفى كامل وزار زارته ، وصال صولته ، وبرهن على أن هذا المحتل أدنى من أن يهابه الوطني الحر الجريء ، وظل أمر هؤلاء الذين طبعهم الإنجليز بطابعهم على ما هو عليه إلى أن ماتوا . ولا تزال منهم بقية في دواوين الحكومة حتى اليوم تضرب المثل على صدق هذا الوصف الذي سطره توفيق البكري .

ويقول عن أبناء الخاصة في مصر ، وهم الطبقة التي تقتني العقار والضياع ، وتبدد الأموال ذات اليمين وذات اليسار من غير أن تؤدي للدولة عملاً ، ويعيشون في البلاد فساداً .

(١) الإمع والامعة : الرجل الذي يتبع كل أحد على رأيه ولا يثبت على شيء .

(٢) خاقان : أحد رؤساء الترك خرج على الخلافة من ناحية باب الأبواب ، وظهر على أرمنية وقتل الجراح بن عبد الله عامل هشام بن عبد الملك فبعث إليه هشام سعيد بن عمر والحارثي ، فأوقع سعيد بخاقان ففض جمعه واخذ رأسه وبعث به إلى هشام فعظم أثره ، وضرب به المثل .

« وأما أبناء السامة<sup>(١)</sup> ، فإن أحدهم عادة ينقصها الحجاب ، ينظر في مرآة ولا ينظر في كتاب ، إنما هو لباس على غير ناس ، كما تضع الباعة مبهرج الثياب على الأخشاب .

وهل ينفع الوشي السجيب<sup>(٢)</sup> مضللاً وإن ذكرت في القوم قيمته خزي<sup>(٣)</sup>

رماد<sup>(٤)</sup> تخلف عن نار ، وحوض شرب أوله ، ولم يبق منه غير أكدار ، آباء وأحساب وحال كشجر الشلجم<sup>(٥)</sup> أحسن ما فيه ما كان تحت التراب « ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل » إلى رطانة بالعجمة بين الأعراب « أبرد من استعمال النحو في الحساب » ، « لو كان ذا حيلة لتحوّل » ، « وهل عند رسم دارس من معول » .

ومقح تواصلوا بترك البر بينهم تقول : ذا شرهم بل ذاك بل هذا  
ميسر يلعب ، وما يسلب ، وخدن يخدع ، وكلب يتبع ، وعطر ينفح : وفرس يضبح<sup>(٦)</sup> .

أبا جعفر ليس فضل الفتى إذا راح في فضل إعجابه  
ولا في فراهة برذونه ولا في نظافة أثوابه<sup>(٧)</sup>

أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، إن المال وسيلة لا غاية ، فإن أصبت منه الكفاية فقد بلغت النهاية » .

وهذا لعمرى وصف خالد لهؤلاء الفتيان الذين ورثوا المال الجم عن آبائهم ، فلم يعرفوا في جمعه غناء ولا رهقاً ، ولم يأبهوا للمجد يشيدونه أو للفخر يحرزونه ، وإنما همهم التطري والزينة وعقولهم هواء ، وأفئدتهم خاوية إلا من الشر ، فهم رماد تخلف عن نار ومثلهم كشجر الشلجم أحسن ما فيه ما كان تحت التراب ، وكثيراً ما نراهم حتى اليوم يباهون برطانة أعجمية ، ويتكبرون للغتهم القومية ، ولكنهم والحق يقال عاجزون عن الإفصاح وعن العمل ، وليس في مقدورهم أن يغيروا من حالهم ،

(١) السامة : الخاصة من الناس .

(٢) السجيب : المسحوب .

(٣) الشلجم : اللفت ويريد أن آباءهم الذين وراهم التراب احسن منهم .

(٤) الضبح : صوت أنفاس الخبل عند عدوها .

(٥) البردون : البغل .

يجتمعون للفساد ، ويفترقون على ميعاد ، لا تعرف أيهم أسوأ نفساً ، يقتلون الوقت في لعب الميسر ، وفي سلب أموال الفلاحين الكادحين • ولقد صورهم أحسن صورة في قوله : « خدن يخدع ، وكلب يتبع ، وعطر ينفع ، وفرس يضبح » هذا هو كل ما يشغلهم في الحياة ، ان يظلوا عالة على المجتمع • ومن الأسف أنه على الرغم من تقدم الأمة خطوات واسعة في سبيل المساواة الاجتماعية بانتشار التعليم ، وبتغيير الأفكار ، ووجود الأنظمة الديمقراطية ، فقد ظل نفر كبير من أبناء الخاصة لا يدركون خطورة حالهم ، وأنهم يفتنون الفقراء باستهتارهم ، يستمطرون على أنفسهم اللعنات بتبذلهم وقحتهم وتبذيرهم المال في غير ما شرع له إلى أن قضت عليهم الثورة •

ثم أرأيت هذه النظرة السامية « المال وسيلة لا غاية فإن أصبت منه الكفاية فقد بلغت النهاية » ، ولكن أتى لهؤلاء أن يدركوا هذه الحقيقة ، إنهم ينعمون ، ويدعون سواهم من أفراد الشعب يتضورون من الجوع ، ويموتون من الألم والمرض •

إن البكري في هذا نائر على أوضاع شاذة في مصر ، مع أنه من أبناء الخاصة الذين شبوا في حضن النعيم ، ولكنه كان ذا نظرة ثاقبة وفكر رشيد ، وقلب رحيم ، وعقل حكيم ، ولعله رأى في رحلاته إلى أوروبا مبلغاً وصل إليه الناس من المساواة ، وأن أبناء الخاصة يعملون لنفع أمتهم كما يعمل أبناء العامة • وربما كانت آراؤه هذه هي التي تأذى منها « عباس » فنظرته إلى الحكام ، وإلى أبناء الخاصة ، وآراؤه الاشتراكية لم يكن يرضى عنها عباس ، وهو الذي اشتهر بحبه لجمع المال ، وبعداوته للنظم الديمقراطية وحرمان الأمة مجلساً نيابياً صحيحاً •

ثم استمع إليه كيف يصور أبناء العامة ، ويصف شقاءهم وتعاستهم ، والتفاوت العظيم بينهم وبين أبناء الخاصة الذين وصفهم من قبل •

« وأما العامة أيدك الله فهم عظم على وضَم ، وصيدٌ في غير حَرَم ، سيد مأسور ، والإخشيد في يد كافور ، ویتیم غني في يد وصي •

وغيظ على الأيام كالنار في الحشا      ولكنه غيظُ الأسير على القيد<sup>(١)</sup>  
وأرى رجالاً لا تحوط رعية      فعلام تؤخذ جزية ومكوس

(١) القيد : السير من جلد مدبوغ •

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فبينما ترى قصوراً وثراء ، وجوراً ، وسرءاء ، وعربات تترى ، يعدو أمامها السليك والشنفري<sup>(١)</sup> ، ويقودها داحس والغبراء<sup>(٢)</sup> على بساط الغبراء ، وخراج قرية أو قرنين يذهب في لهو ليلة أو ليلتين ، تجد أرملة صناعاً ، وأيتاماً جياً ، وشيخاً يعمل وهو في أرذل العمر ، يقعده العجز ، وقيمه الفقر ، أو عذراء كادت تبيع عرضها للاحتياج ، أو مريضاً عاجزاً عن العلاج ، وبينما ترى وذاحاً<sup>(٣)</sup> في جيدها عقد ، كأنه فَرود حَضَار<sup>(٤)</sup> ، وفي أخصصها نعل من نضار ، ترى بائسة في عنقها عقد من دموع ، وفي بينها فقر وجوع ، حال تطرف العيون وتثير الشجون » .

إن هذه آراء متقدمة على زمانه ولا سيما في مصر . وإذا كان جمال الدين قد نبه المصريين إلى المطالبة بالشورى ، فإنه لم يَعن العناية الكافية بالإصلاح الاجتماعي على الرغم من صيحته المدوية للمصريين بأنهم نشئوا في الاستعباد ، وربوا في حجر الاستبداد ، وعلى الرغم من تحريضه لهم على الثورة<sup>(٥)</sup> ، لأن غايته كانت سياسية ، وإن كان بعض تلاميذه قد تأثر بدعوته إلى الإصلاح الاجتماعي ، مثل عبد الله نديم ، ونادى في جريدته « التنكيت والتبكي » بإصلاح المفاصل الاجتماعية ، ولكن آراءه لم تبلغ في جرأتها ، وتقدمها نحو المساواة الحقيقية بين طبقات الأمة مثل آراء توفيق البكري ، وإن لم يكن لها الصدى الذي تستحقه لأن الأسلوب الذي صيغت فيه يعلو على مستوى أبناء الخاصة وجمهور العامة في ذاك الوقت .

لقد ابتدأ حديثه عن العامة بتقريره أنهم أصحاب السلطان الحقيقي وأنهم أشبه بسيد مأسور والأخشيذ في يد كافور ، فالأخشيذ هو الملك الشرعي وكافور هو الملك الفعلي ، وأنهم أشبه بـيتم غني في بد وصي يستبيح ماله وينهب حقوقه من

(١) السليك والشنفري : من العرب العدائين .

(٢) داحس والغبراء : جوادان قامت بسبب سباقهما حرب طويلة بين عبس وذبيان في الجاهلية .

(٣) الوداح : الفاجرة .

(٤) فرود حضار : كواكب . وحضار اسم كوكب يشبه بهيل قال الشاعر :

أرى نار ليلي بالعقيق كأنها حضار إذا ما امرضت وفرودها

(٥) انظر الادب الحديث ج ١ ص ٢٤٣ ط سادة .

غير أن يراعي في هذه الحقوق إلاء أو ذمة • ويصور هذا الغيظ الذي يضطرم في نفوس العامة من الشعب ، ولكنه أشبه بغيظ الأسير المغلول اليد ، لا يستطيع إلا أن يفتاظ من غير أن يحطم قيده ، ثم يبدي رأياً جريئاً ، تنادي بها الشعوب الحية اليوم : إذا كان حكام الأمة لا يولونها عناية أو رعاية فعلام يدفع الناس الجزية والضرائب ؟ إنه تمرد على الظلم ، وبث على الإصلاح ، ثم يقتبس بيت أبي العلاء المعري الذي يقرر فيه أن الحكام هم أجراء لدى الأمة ، ومع ذلك يظلمونها وهذا أعجب العجب •

ويعقد موازنة بين هذه الفئة القليلة من الأغنياء التي تبثر على موائد الفساد ما جمع هؤلاء المساكين في حمارة القيظ وصبارة الشتاء ، وهم يبيتون على الطوى ، وأبناءؤهم يتضاغون من المسغبة والفاقة ، ويتضورون من الجوع والعري ، ويتلوون من السقام والأوصاب • وله في غير هذا الموضع بيتان صور فيهما العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مصر :

حُتم الألى يحكمون الناس يضحكني      وسوء فعلهم في الناس يبكيني  
ما الذئب قد عاث بين الضأن أفتك من      هذي الولاة بهاتيك المساكين

إنه صور الآفات الاجتماعية التي تفتك بهذه الأمة المسكينة وهي الفقر والجهل والمرض ، وعرض في إيجاز أدبي مشكلة التشرّد والبؤس ، ووازن بين الفقيرة الكادحة في سبيل العيش والفاقر التي تتحلّى بالدر ، وتتعلّ الذهب ، وذكر أن هذه حال تطرف العيون وتثير الشجون •

ويطول بنا المقام لو تتبعنا البكري في كل موضوعاته الطلية ، وأوصافه المبكرة ، ولكننا نرى أنه حقاً شاعر في نثره ، لولا أنه كان متزمتاً ، مؤثراً ، للغريب وإيراد الأمثلة القديمة ، والإرشادات التاريخية والأدبية ، ولو لم يتكلف السجع ويتنكر للطبع لكان البكري في مقدمة أدباء جيله • وقد علق الأستاذ العقاد على نثر البكري بقوله : « وفي هذه الفقرات وفي أمثالها من نثره المجود موضوعات شعر ، ولقنات شاعر ، ولكن الصنعة أفسدت الطبيعة ، والمحفوظ جنى على الملحوظ ، أو لك أن تقول إنك تلمح هنا مجلس شاعر يضرب مواضع الماء من الأرض ، ولكنه

يقف عند حجارة من التقليد ولا ينفذ بعدها إلى النبع المخبوء على مدى أصبعين من مجسّه » :

ويقول عن أدبه شعره ونثره : « وأحسب أن القارئ قد تبين أن الشعر عند البكري كان مسألة إحساس مرهف وشاعرية مطبوعة ، وقد تقصر هذه الشاعرية فلا توفي على الغاية ، أو تطفو فلا تتغلغل إلى الأعماق بيد أنها من معدن الفن ولبابه ... إن القديم كان يستولي من البكري على جانب التعليم والقصد والتكلف والصناعة فيه ، وإن الحديث كان يستولي منه على الإحساس والسجية وما يصدر عن النفس بلا كلفة ولا إرادة » (١) .

---

(١) شعراء مصر وبشائهم في الجيل الماضي ص ١٥ .

# أهم المراجع

## ١ - المراجع العربية

اتجاهات الشعر الحديثة (الأهرام ٢٠/٩/١٩٣٦ م)

١ - إبراهيم الكاتب

٢ - قبض الريح

٣ - حصاد الهشيم

٤ - الديوان

٥ - ديوان المازني

٦ - الشعر غاياته ووسائله

٧ - شعر حافظ

اللغة والعصر (مختارات المنفلوطي)

١ - مقدمة ديوان حافظ إبراهيم •

٢ - مقدمة ديوان إسماعيل صبري •

١ - وحي الرسالة ج ١ ، ٢ •

٢ - دفاع عن البلاغة •

مقال عن شوقي (مجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢)

١ - أنداء الفجر

٢ - قطرة من يراع في الأدب والاجتماع

٣ - مجلة أبولو •

مقدمة ديوان إسماعيل صبري

• مقدمة ديوان عبد المطلب •

• أصول النقد الأدبي •

• الشوقيات •

الدكتور إبراهيم ناجي

إبراهيم المازني

إبراهيم اليازجي

أحمد أمين

أحمد حسن الزيات

أحمد زكي

أحمد زكي أبو شادي

أحمد الزين

أحمد الإسكندري

أحمد الشايب

أحمد شوقي

- الدكتور أحمد عزت عبد الكريم  
أحمد فتحي زغلول
- أحمد الكاشف  
أحمد محرم
- الدكتور إسماعيل أدهم  
أنطون الجميل
- أنيس المقدسي  
بطرس البستاني  
تشارلتن  
تشارلز آدمز  
توفيق البكري
- حافظ إبراهيم
- حامد عبد القادر  
حسين شوقي  
حسين عفيف  
خليل سكاكيني
- تاريخ التعليم في مصر •  
١ — سر تقدم الإنجليز السكسونيين •  
٢ — ماهية اللغة ( مختارات المنفلوطي ) •  
الديوان •  
١ — الديوان •  
٢ — دراسة عن إسماعيل صبري (مجلة أيلول ١٩٣٤)  
مطران •  
١ — مقدمة ديوان إسماعيل صبري •  
٢ — مقدمة ديوان ولي الدين يكن •  
العوامل الفعالة في الأدب الحديث  
أدباء العرب ج ٣ •  
فنون الأدب ( ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ) •  
الإسلام والتجديد في مصر ( ترجمة عباس محمود ) •  
١ — بيت الصديق •  
٢ — تاريخ السادة الوفاية •  
٣ — فحول البلاغة •  
٤ — أراجيز العرب •  
٥ — صهاريج اللؤلؤ •  
١ — ديوان حافظ •  
٢ — ليالي سطيح •  
دراسات في علم النفس الأدبي •  
مقال عن شوقي ( أيلول سنة ١٩٣٢ ) •  
الشعر المرسل ( الأهرام ١٩٣٦/٩/٢٠ ) •  
مطالعات في اللغة والأدب



- خليل مطران
- ١ — ديوان الخليل
- ٢ — الشعراء المعاصرون ( مختارات المنفلوطي )
- ٣ — المجلة المصرية سنة ١٩٠٠ ، ١٩٠١ م .
- داود بركات
- رئيس الخوري
- رشيد رضا
- رمزي مفتاح
- روكسي العزيمي
- الدكتور طه حسين
- الطيب حسن
- عباس محمود العقاد
- ١ — ديوان الخليل
- ٢ — الشعراء المعاصرون ( مختارات المنفلوطي )
- ٣ — المجلة المصرية سنة ١٩٠٠ ، ١٩٠١ م .
- مقال عن شوقي ( أيلول ١٩٣٢ ) .
- الدراسة الأدبية
- ١ — مجلة المنار
- ٢ — تاريخ الشيخ محمد عبده ( ثلاثة أجزاء ) .
- رسائل النقد
- مطران والوطنية
- ١ — حافظ وشوقي
- ٢ — حديث الأربعاء
- ٣ — في الأدب الجاهلي
- ٤ — مستقبل الثقافة في مصر
- ٥ — مقدمة ديوان صبري
- أثر الثقافة الغربية في الأدب الحديث ( مخطوط )
- ١ — جورج برنارد شو ( سلسلة اقرأ )
- ٢ — ديوان أعاصير مغرب
- ٣ — ديوان عابر سبيل
- ٤ — الديوان في النقد والأدب
- ٥ — ساعات بين الكتب
- ٦ — شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي
- ٧ — معراج الشعر ( مقال في مجلة الكتاب أكتوبر سنة ١٩٤٧ )
- ٨ — مطالعات في الكتب والحياة
- ٩ — مقدمة بلاغة العرب في القرن العشرين
- ١٠ — مقدمة الغربال

الأصول الفنية للأدب •

١ — مصطفى كامل •

٢ — محمد فريد •

٣ — ثورة سنة ١٩١٩ ج ١ ، ٢ •

٤ — في أعقاب الثورة المصرية ج ١ ، ٢ •

مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكري •

التربية الاستقلالية ( ترجمة ) •

الخطط التوفيقية •

١ — في الأدب الحديث — الجزء الأول •

٢ — ترجمة للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد

( الكتاب يولية سنة ١٩٤٨ ) •

٣ — الفتوة عند العرب •

٤ — دراسات أدبية — ج أول •

البعثات العلمية في عهد محمد علي وعهد عباس الأول

وسعيد •

تاريخ الصحافة العربية •

١ — تحرير المرأة •

٢ — المرأة الجديدة •

الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين •

وميض الروح •

١ — أوقات الفراغ •

٢ — تراجم شرقية وغربية •

٣ — ثورة الأدب •

٤ — مقدمة الشوقيات •

ضرورة التعريب ( مختارات المنفلوطي ) •

من الوجهة النفسية في دراسة الأدب وتقده •

عبد الحميد حسن

عبد الرحمن الرافعي

عبد الرحمن شكري

عبد العزيز محمد

علي مبارك

عمر الدسوقي

الأمير عمر طوسون

فيليب دي طرازي

قاسم أمين

الأب لويس شيخو

محمد تيمور

الدكتور محمد حسين هيكل

محمد الخضري

محمد خلف الله

- تاريخ مصر السياسي
- أدب وتاريخ
- الديوان
- شكشير — سلسلة اقرأ
- الميزان الجديد
- رواد الشعر الحديث
- ١ — تاريخ آداب العرب
- ٢ — على السفود
- ٣ — وحي القلم
- باحثة البادية
- الغربال
- بين الشعر العربي والأفريقي (مختارات المنفلوطي)
- نقد الشعر
- الديوان

محمد رفعت  
الدكتور محمد صبري  
محمد عبد المطلب  
محمد فريد أبو حديد  
الدكتور محمد مندور  
مختار الوكيل  
مصطفى صادق الرافعي

مسي  
ميخائيل نعيمة  
نجيب حداد  
نسيب عازار  
ولي الدين يكن



## ٢ - المراجع الأجنبية

Augstin Birrell  
C. M. Bowra  
Earl Cromar  
H. R. Gibb  
F. Green

Gustave le Bon  
Huart  
R. D. Jameson

Jullian Leopold  
Lecarpentier  
Lenard, S. Harker  
Lord Lloyd  
J. W. Long  
E. L. Lucas  
Marcel Braunschvig

G. H. Mair and A. G. Word  
Maria Proz  
Dr Maulton  
J. A. Richards  
D. N. Smith

Tahir Khamiry and Kampfmeyer

Sir Valentine Chirol  
William Hazlit  
William Willcocks

Willmor - J. Solden  
Winchester  
Wordsworth

Yacoub Artin Pasha  
G. Young

William Hazlit  
The Romantic Imagination  
Modern Egypt  
B. S. O. S.  
A. Critical Survey of French and  
English Literary Ideas in the  
Eighteenth Century  
La Psychologie du Socialism  
Littérature Arabe  
A Comparison of Literature :  
English, French, German & American  
(Semailles Français)  
L'Egypte Moderne  
Blazing the Trail  
Egypt Since Cromer  
English Literature  
Studies French and English  
Notre Littérature Etudée dans les  
textes  
Modern English Literature  
The Romantic Agony  
World Literature  
Principles of Literary Criticism  
Introduction to Wordsworth Poetry  
and Prose  
Leaders in Contemporary Arabic  
Literature  
The Egyptian Problem  
The Spirit of the Age  
Syria, Egypt North Africa and  
Multa Speak Punic not Arabic.  
The Spoken Arabic of Egypt  
Some Principles of Literary Criticism  
1, Michael  
2, Lyrical Ballads  
3, Prelude  
L'instruction Publique en Egypte  
Egypt.



# فهرست

صفحة

٨ - ٥

مقدمة الطبعة الأولى

- ٩

مقدمة الطبعة السادسة

٨٠ - ٩

المؤثرات العامة في الشعر الحديث

الفصل الأول - الثقافة الأجنبية

المدارس الفرنسية بمصر ١٠ - الإرساليات الإنجليزية ١٣ - آثار  
كرومر الإصلاحية في مصر ١٥ - سياسة دانلوب التعليمية ١٧ -  
نقد الإنجليز لسياسة دانلوب ١٩ - أثر سياسة دانلوب في الأدب  
الحديث ٢١ - مخالفة سياسة دانلوب للتربية في إنجلترا ٢٥ -  
أثر دانلوب في العقلية المصرية ٢٧ - عدم ابتكار الشعراء ٣٠ -  
المنافسة بين الثقافتين الإنجليزية والفرنسية ٣٣ - ضعف نفوذ  
اللغة العربية ٤٠ - دعوة الإنجليز للنهوض باللغة العامة ٤٢ -  
مناهضة المصريين لهذه الدعوة ٤٧ - المطالبة بإعادة اللغة العربية  
إلى المدارس ٤٨ - الآثار العامة للثقافة الأجنبية في مصر ٥١ -  
تقليدنا للحياة الأوربية ٥٥ - تقليدنا لمذاهب الأدب الأوربي ٦٤ -  
التجديد في القوالب الأدبية ٦٥ - الاقتباس من معاني الأدب  
الأوربي وأغراضه ٦٥ - الترجمة ٦٦ - تعريب الكلمات  
الاصطلاحية ٦٧ - حرية المطبوعات في عهد كرومر ٦٩ - حرية  
الأحزاب في عهد كرومر ٧١ - حزب الأمة وأثره ٧٢ - الحد من  
حرية المطبوعات بعد كرومر ٧٤ •

٢٠٨ - ٨١

الفصل الثاني - النهضة القومية :

المظهر السياسي - آثار الثورة العرابية في نفوس المصريين ٨١ -  
عباس يشعر بوطأة الاحتلال ٨٢ - الأحزاب المصرية والصحافة

صفحة

وانقسامها فريق تركييا وفريق انجليترا ٨٣ - محاولة الانجليز  
انتزاع اعتراف ببركزهم في مصر ٨٧ - شعر شوقي ومدحه  
للأتراك ٨٨ - حادثة دنشواي وأثرها ٩٦ - حافظ وتمثله  
شعور عامة الشعب ١٠٥ - اسماعيل صبري وشعره الوطني ١٢٤ -  
محمد عبد المطلب والوطنية المصرية الصحيحة ١٣١ - خليل  
مطراف وموقف المهاجرين ١٣٩ - ولي الدين يكن وتأثيره  
للاحتلال ١٤٩ - أحمد محرم وأحمد الكاشف ١٥٢ - وضع  
الأناسيد القومية ١٦٢ .

#### المظهر الثقافي :

النهضة الثقافية ومواكبتها للنشاط السياسي ١٧٥ - الحركة  
الأدبية والجامعة المصرية ١٧٧ - إحياء الكتب القديمة النافعة ١٧٨ -  
انتشار الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ١٧٩ - انتشار  
المطابع العربية ١٨٠ - العناية بالترجمة ١٨١ - أثر الثقافة  
العامة على الأغاني ١٨٧ .



### المظهر الاجتماعي :

مشكلة الفقر وعلاجها ١٨٩ — حافظ إبراهيم شاعر الشعب ١٨٩ —  
شوقي ومشكلات الشعب ١٩١ — إسماعيل صبري والحياة  
الاجتماعية ١٩٣ — عبد المطلب والمشكلات الاجتماعية ١٩٣ —  
أحمد محرم ومشكلة الفقر ١٩٥ — العناية بمظاهر النهضة  
والإشادة بها في الشعر ١٩٦ — الشعراء والنهضة النسائية ١٩٨ —  
الشعر والأدواء الاجتماعية ٢٠٠ — النهضة الدينية في مصر  
وتطورها ٢٠٢ — النهضة الاقتصادية وأثرها في الأدب ٢٠٦ .

٢١٤ — ٢٨٨

### الفصل الثالث — النقد الأدبي

حسين المرصفي ٢١٤ — محمد المويلحي ٢١٧ — شكيب أرسلان  
٢١٨ — المنفلوطي ٢١٩ — أحمد فارس الشدياق ٢٢٢ — محمد  
فريد ينقد الشعر ٢٢٢ — الشيخ نجيب الحداد يوازن بين الشعر  
العربي والغربي ٢٢٥ — الشعر المرسل ٢٢٧ — رأي الرافعي  
فيه ٢٣٠ — أثر شعراء المهجر في الأدب ٢٣١ — هيكل يدعو إلى  
لأدب القومي ٢٣٧ — هيكل يدعو إلى وضوح الشخصية في  
لأدب المصري ٢٤٠ — شكري وآراؤه ٢٤٤ — العقاد والمدرسة  
لإنجليزية ٢٥٣ — العقاد متأثر بهازلت ٢٥٤ — آراء العقاد في  
وجيه الشعر الحديث ٢٥٦ — مقاييس الشعر في رأي العقاد ٢٦٤ —  
لمازني وآراؤه في نقد الشعر ٢٦٥ — مطران يوجه الشعر  
لحديث ٢٧٣ — الدكتور طه حسين والنقد الأدبي ٢٧٧ —  
لوازنة بين المدرستين الإنجليزية والفرنسية في الشعر والنثر  
٢٧ — تأثر شعرائنا بهاتين المدرستين ٢٨٣ — الرافعي ٢٨٤ .

٢٨٩ — ٣١٦

### فصل الرابع — الشعر بعد البارودي :

لمور الأغراض في الشعر الحديث ٢٩٠ — الشعر الديني ٢٩٨ —  
لور الأسلوب ٣٠١ — الشعر التمثيلي ٣٠٦ — الثقافة من

شروط الشعر الحديث ٣٠٨ — تطور المعاني ٣٠٩ — الخيال الشعري ٣١٣ — موازين الشعر في نظر الفرنجة ٣١٥ .

## ٤٥٨ — ٣١٧ الفصل الخامس — المدرسة التقليدية وخصائصها

إسماعيل صبري ٣٢١ — أخلاقه ٣٢٢ — شعره ٣٢٧ — المديح عند صبري ٣٢٩ — التقاريط والتهاني في شعر صبري ٣٣٥ — الغزل في شعر صبري ٣٣٧ — الاجتماع في شعر صبري ٣٥٢ — سياسيات صبري ٣٥٧ — الوصف في شعر صبري ٣٦٢ — نظرة صبري إلى الحياة ٣٦٣ — الرثاء عند صبري ٣٦٧ — محمد عبد المطلب ٣٧٣ — ترجمة حياته ٣٧٣ — اعتداده بنشأته العربية ٣٧٥ — اعتزازه بالعرب ٣٧٦ — أخلاق عبد المطلب ٣٧٨ — شعره ٣٨٦ — خياله بدوي ٣٨٧ — النسب في شعره ٣٩٠ — الوصف في شعر عبد المطلب ٣٩٧ — الحياة الاجتماعية في مصر في شعر عبد المطلب ٤٠٣ — الحجاب والسفور ٤١٠ — عبد المطلب وفساد الأخلاق ٤١٢ — الشعر الديني عند عبد المطلب ٤١٢ — القصيدة العلوية ٤١٧ — منزلته في الأدب ٤٢١ — السيد توفيق البكري ٤٢٣ — حياته ٤٢٣ — مؤلفاته ٤٢٦ — تأثره بالقديم ٤٢٧ — رأي مطران في شعره ٤٢٨ — ولوعه بالأمثال القديمة ٤٢٩ — ولوعه بالغريب ٤٣١ — شعر البكري ٤٣٣ — النسب ٤٣٣ — المديح ٤٣٥ — الوصف ٤٤٠ — الفخر والرثاء ٤٤٤ — الحكمة ٤٤٥ — نثر البكري ٤٤٩ — الوصف في نثره ٤٥٠ — آراؤه الاجتماعية ٤٥٢ — رأي العقاد في أدبه ٤٥٧ — المراجع العربية ٤٥٩ — المراجع الإفرنجية ٤٦٥ — الفهرس ٤٦٦ .

# للمؤلف

## ١ - إخوان الصفاء :

دراسة تاريخية أدبية فلسفية ، تكشف السر عن جماعتهم ونظمتها ، وعن فلسفتهم مع مناقشة علمية لكل ما كتب منهم ، والوصول إلى الحقيقة في أمرهم . ( مكتبة نهضة مصر بالقجالة ) .

## ٢ - النابغة الذبياني :

ترجمة مستفيضة مع تصوير شامل للبيئة العربية في العصر الجاهلي ، وتطور اللغة العربية ، وتاريخ النابغة ، دراسة لديوانه وطبعاته ، وشعره مع تحليل ونقد وموازنة . ( دار الفكر ) .

## ٣ - الفتوة عند العرب :

أول كتاب في اللغة العربية في موضوعه ، ودراسة تحليلية عميقة جامعية لامجاد الأمة العربية ، وتاريخ الفتوة منذ نشأة العرب حتى عصر المماليك . مع موازنة واسعة بين فتوة العرب وفروسية الغرب وصورة جذابة تاريخية لشتى ضروب الفتوة في أسلوب قصصي بديع . ( نهضة مصر بالقجالة ) .

## ٤ - في الأدب الحديث ( الجزء الأول ) :

تاريخ للأدب الحديث منذ الحملة الفرنسية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، مع ذكر المؤثرات العامة في الأدب . وتراجم واسعة للكاتب والشعراء ، وتحليل ونقد وموازنة لأنوارهم الأدبية . ( دار الفكر العربي ) .

## ٥ - محمود سامي البارودي :

من سلسلة نوايخ الفكر العربي وهي دراسة ممتازة مركزة لعصره وحياته وشعره مع مشرات القصائد المشروحة شرحاً وافياً ( دار المعارف ) .

## ٦ - المسرحية :

أول كتاب في اللغة العربية يدرس فن المسرحية دراسة علمية جامعة عميقة ، ويتتبع نشأتها حتى عصرنا الحاضر ، ويفصل أنواعها ويدرس كل نوع ، ويبين المذاهب الأدبية الكبرى في الغرب فيحدث عن الكلاسيكية ، والرومانتيكية ، والواقعية والرمزية والطبيعية بالتفصيل ، ثم يوضح الأسس التي بنى عليها المسرحية بأنواعها ، ويختم البحث بدراسة تطبيقية . ( دار الفكر ) .

## ٧ - دراسات أدبية ( الجزء الأول ) :

يعالج كثيراً من موضوعات الأدب المعاصر ، ويلقي نظرات فاحصة على بعض الأدباء المعاصرين الذين لم يحظوا بمزيد من العناية . وفيه دراسة مستفيضة عن أدب القصة ، ودراسات من زوايا خاصة لبعض الشعراء والكاتب ( نهضة مصر بالقجالة ) .

## ٨ - لغتنا القومية :

دراسة مركزة قومية من اللغة العربية منذ نشأتها حتى يومنا الحاضر نشرت في سلسلة ( اخترنا للطالب )

٩ — نشأة النثر الحديث وتطوره ( الجزء الأول ) :

يتناول بدراسة تفصيلية نشأة النثر الحديث ، وكبار اعلامه ، وتطور المقالة وأنواعها إلى نهاية القرن التاسع عشر . ( دار الفكر ) .

١٠ — خريدة القصر للعماد الأصبهاني القسم الرابع (بالاشتراك) الجزء الأول

نشر وتحقيق وتقديم ، ويشمل هذا القسم الشعر في صقلية والاندلس مع ترجمة وافية للأعلام التي وردت به . ( نهضة مصر ) .

١١ — إظهار الحق للسيد رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي :

نشر وتحقيق مع تعريف بأهم الأعلام التي وردت به ، وتقديم له ، وترجمة النصوص الفارسية .